

تَيْسِيرُ الْكَلَامِ الْحَمْدُ

فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ

تَأليف

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

قدّم له

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل حفظه الله

فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

تحقيق

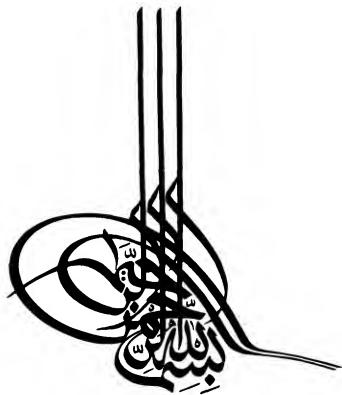
د/ عبد الرحمن بن معلا اللويحي

التصحيح والمراجعة

بقسم البحث والإعداد العلمي بمكتبة دار السلام



دار التبليغ للنشر والتوزيع



تَسْبِيحُ الْكَرِيمِ الْحَمِيدِ
فِي تَقْدِيرِ الْكَرِيمِ الْحَمِيدِ



كتاب التَّيْلَامِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْبِيعِ

شارع الأمير عبدالعزيز بن جلوي
(الضباب سابقاً)

مقابل الغرفة التجارية

ص.ب ٢٢٧٤٣ الرياض ١١٤١٦
المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢ - ٠٠٩٦٦١ / ٤٠٤٣٤٣٢

فاكس: ٤٠٢١٦٥٩ / ٠٠٩٦٦١

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

مصحف الحاسب الآلي، ووضعها بين أقواس مميزة بنفس خط المصحف ضماناً لسلامتها، وتمييزاً لها عن التفسير.

٢- تدارك ما كان من الأخطاء المطبعية واللغوية والتعليق على مواضع يسيرة أخرى.

٣- العمل على تحسين إخراج الكتاب حتى تكون قراءته أسهل بحيث لا تتزاحم الأسطر عند النظر، مع العمل - قدر الإمكان - على التناسب في الإخراج بين المصحف والآيات المفسرة.

وإننا إذ تم العمل ندعو الله عز وجل أن ينفع بجهدنا هذا علماء الأمة وطلبة العلم، وراغبى فهم الكتاب العزيز، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

دار السلام للنشر والتوزيع
الرياض

الحمد لله ولي الحمد ومستحقه، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أما بعد:

فإن مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع الدولي تشرف بنشر كتاب: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) تأليف العلامة الشيخ: عبدالرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - وفتخر أن كان إخراجها للكتاب في حلة جديدة، وعلى ورق نفيس في مجلد واحد آمله في تسهيل قراءته وحمله ومطالعة، وذلك فضل من الله وإحسان، فله الحمد كثيراً كما أجزل كثيراً.

ولقد قام جماعة من العلماء والباحثين بمتابعة طباعة الكتاب وتصحيح ما كان من أخطاء مطبعية أو إخراجية بإشراف من محقق التفسير في الطبعة المعتمدة الدكتور: عبدالرحمن بن معلا اللويحق.

وقد تميز عملنا بما يلي:

١- أخذ الآيات القرآنية المفسرة والمستشهد بها من

المقدمات

مقدمة فضيلة الشيخ : عبدالله بن عبد العزيز بن عليل .

مقدمة فضيلة الشيخ : محمد بن صالح العثيمين .

مقدمة المحقق .

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وجعله هدى وبرهاناً لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِينَ هُمْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقبض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم، كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر، وذلك بتفسيره المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بدیع عبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم، سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة، أو استطراد، أو ذكر قصص، أو إسر依ليات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهما كل من يقرأها، مهما كان مستواه العلمي، فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى، التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافاً لما يؤولها بعض المفسرين.

حرّر في ٢٧/٩/١٤١٦ هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

وقد من الله عليّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهاً في

مقدمة

فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى

تقرير العقيدة.

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم، وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة، حيث استنبط منها خمسين حكماً، وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿حُذِرَ الْفَقْرَ وَأُمِرَ بِالْعَزَمِ وَأُمِرَ عَنِ الْهَيْبَةِ﴾

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وقارؤه، إنه كريم جواد، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه محمد الصالح العثيمين

في ١٥ / رمضان ١٤١٦ هـ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة: منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه، إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره، وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه، فهو عمدة في

مقدمة المحقق

هاتفني بعض أفاضل طلبة العلم من المشايخ الكرام كان منهم: فضيلة الدكتور: عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد البدر، وفضيلة الدكتور: خالد بن عثمان السبت، حيث جرت مهاتفات معهما، ومقابلة للشيخ عبد الرزاق كانت فاتحة خير للاهتمام بالتفسير ونسخه المخطوطة، وطبعاته، فتبين أن في الطبقات عوارًا كثيرًا، وأن التفسير لم يخرج حتى الآن على الصورة التي تركها الشيخ - رحمه الله - وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل تأريخي لكتابة الشيخ لهذا التفسير، وما وقع من طباعته، فرأيت أن أعرض الأمر مفصلًا في هذه المقدمة حتى يستبين الأمر للقارئ الكريم، ويرى ما يمكن أن يفعله الكتبة والناسرون في الكتب.

تأليف الشيخ للتفسير:

بدأ الشيخ - رحمه الله - تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ وأنهاء في عام ١٣٤٤هـ. وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عامًا، وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عامًا.

والذي يقرأ التفسير يحسب أنه لا يمكن لمن كان في هذا السن أن يكتبه، إذ يمثل كتابة عالم ناضج متمكن من العلم وآلاته، واسع الاطلاع ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد كتب نسخة واحدة، ثم أمر من ينسخ له نسخة أخرى، والتابع والسؤال يبدو لي أنه لم يُنسخ من التفسير إلا هاتان النسختان: نسخة الشيخ - رحمه الله - والنسخة التي أمر النساخ بنسخها.

وابتغاء توضيح الأمر أبين تفاصيل متعلقة بهاتين النسختين مع وصف لهما:

النسخة الأولى:

هذه النسخة هي التي كانت في حوزة الشيخ وملكه، وهي في جملتها كما سيظهر بخط الشيخ - رحمه الله - وهذا وصف لها:

تتكوّن هذه النسخة من تسعة أجزاء، جعلها الشيخ رحمه الله في تسعة مجلدات:

المجلد الأول:

وقد كتب على غلافه (المجلد الأول من تيسير الكريم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن إنزال القرآن الكريم على هذه الأمة منة عظمى؛ لأنه سبيل الهداية، وطريق السلامة من الضلال والغواية: ﴿قَالِمًا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾

ولكن الاستفادة الحقّة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علمًا وعملاً، تلاوة وتدبرًا وفهمًا: ﴿كِتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ الْبَطِلَ وَيُغْلِبَ الْحَقَّ ۚ وَنُفِّذُ الْكَلِمَاتِ ۚ وَمَنْ سَبَلَ ذَلِكَ التَّنْبِيهِ وَالْفَهْمُ: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم؛ فإن من كمال حفظ الله عزّ وجلّ لهذا الذكر الحكيم أن يقض له جهابذة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ، فألفوا في ذلك كتبًا بسطوا فيها ألفاظ القرآن، وأبانوا ما يعسر فهمه، وفصلوا ما جاء فيه من القواعد والكليات، ودفعوا التعارضات المتوقّمة، وبيّنوا مراجع الضمائر، وعيّنوا المعاني المرادة إذا احتمل الكلام أوجهًا متعدّدة، وكانوا طرائق قدّما في عنايتهم بهذا الكتاب العظيم، حتى جاء شيخ مشايخنا العلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي رحمه الله فجعل جلّ عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحًا في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعان على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الصرفة، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور، إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني وبيان المراد، إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد منّ الله عليّ بالعناية بهذا التفسير، ومحبة صاحبه - رحمه الله - وقراءة التفسير وإقرانه، والنصح بقراءته، ومنّ الله عليّ بالعناية بطبعه في مجلد واحد يهدم الحواجز النفسية الصادرة عن قراءته في مجلّداته السبعة التي كان عليها في أشهر طباعته السابقة، وكان الهم منصرفًا إلى ذلك، ولم يكن الذهن ملتفتًا إلى طباعات الكتاب وما فيها من أخطاء حتى

الرحمن بن سعدي - رحمه الله - ويقع في (١٤٢) صفحة، في كل صفحة (٢٩) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة القصص، وآخره آخر تفسير سورة الصافات.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٥٣) صفحة، في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله: تفسير سورة (ص) وآخره آخر تفسير سورة الفتح.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٤٦) صفحة، في كل صفحة (٢٩) سطراً، أوله أول تفسير سورة الحجرات، وآخره آخر تفسير سورة القيامة.

المجلد التاسع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٥٠) صفحة، في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الإنسان، وآخره آخر تفسير سورة الناس.

النسخة الثانية:

المجلد الأول:

وقد كتب عليه: (المجلد الأول من تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لمعلفه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين) وهكذا كتبت هذه العبارة، أو قريباً منها باختلاف يسير على طرة كل مجلد. وفي وسط الصفحة ما يلي: (تنبيه: اعلم أن طريقي في هذا التفسير أنني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثنى» تنبئ فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضع النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها).

وكثير من هذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - إلا

الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده، وابن عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي^(١) وفوقه بخط الشيخ - رحمه الله - وبحرف صغير (هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِسَبْإٍ إِلَّا جُنتَ لَكَ بِالْحَقِّ وَأَسَنَ تَقْبِيرًا﴾ وفي وسط الصفحة وبخط الشيخ أيضاً: «شرعت في هذا التفسير المبارك غرة شهر (١) سنة ١٣٤٢ هـ أرجو الله أن يتمه بنعمته».

وهذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - وعليه هوامش وتعديلات بخطه أيضاً، ويقع في (١٥٠) صفحة، في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله المقدمة، ثم تفسير الفاتحة إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَمْتُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية (١٢٩) من سورة آل عمران.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٩٢) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير الآية (١٣٠) من سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْكُوفُورُ ۖ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ تَسَعَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وآخره آخر تفسير سورة الأنعام.

المجلد الثالث:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢١٤) صفحة، في كل صفحة (٢٥) سطراً تقريباً، أوله أول تفسير سورة الأعراف، وآخره آخر تفسير سورة هود.

المجلد الرابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٢٩) صفحة، في كل صفحة (٢٦) سطراً تقريباً، أوله أول تفسير سورة يوسف، وآخره آخر تفسير سورة الإسراء.

المجلد الخامس:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢٢٩) صفحة، في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ: محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل - رحمه الله - أتم كتابته في ٢٤ رجب سنة (١٣٤٥ هـ) وهو خط جميل، ولكنه كثير الأخطاء، ويفصل بين جزئي الكلمة في سطرين، ويكثر هذا منه مما يربك القارئ. وعلى هذا الجزء هوامش وتعديلات بخط الشيخ عبد

(١) يلاحظ أن هذه العبارة كتبت على طرة كل مجلد بعد ذكر رقمه، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، ففي طرة المجلد الثاني جاءت العبارة هكذا: (المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين... آمين) وفي المجلد الثالث: (المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي). (٢) الكلمة غير واضحة في الأصل، والذي يبدو أنه شهر صفر أو محرم، لأن الشيخ أتم هذا الجزء في نهاية شهر ربيع الأول.

هذه المقدمة، وعدد صفحات هذا المجلد (٢١٤) صفحة، في كل صفحة من صفحات هذا الجزء (٣٠) سطرًا، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل، ثم بعدها أصول من أصول التفسير وتفسير الأسماء الحسنى.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ رحمه الله، وبدايته من أول سورة القصص ونهايته بنهاية تفسير سورة الصافات. وعدد صفحات هذا الجزء (١٥٤) صفحة، في كل صفحة ما بين (٢٥-٢٨) سطرًا، وبدايته ونهايته كمثله في النسخة الأخرى.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ: سليمان بن حمد العبدالله البسام رحمه الله، وعدد صفحات هذا الجزء (١٢٢) صفحة، في كل صفحة (٢٢) سطرًا، وبداية الجزء ونهايته كمثله في النسخة الأخرى.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ رحمه الله، وعدد صفحات هذا الجزء (٢٠١) صفحة.

ويبدأ من أول تفسير سورة الحجرات، وينتهي بتفسير سورة الناس.

وبهذا فإن هذه النسخة تحتوي على ثمانية أجزاء، بينما النسخة الأخرى على تسعة أجزاء.

هذا عن نسخ التفسير المخطوطة، وأما طباعته فقد كانت فاتحتها طباعة الجزء الخامس منه، إذ بعث الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من النسخة (ب) مؤرخة في ٢/٣٠/١٣٧٤ هـ. وقد نقلت من خط الشيخ بخط مغاير هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سبق جواب كتابكم الأمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه، وقع النظر على الاقتصاد على طبعه، فجعلنا له مقدمة وختمناه بأصول وكمليات من أصول وكمليات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأحببت أن يكون الاختيار لجنتناكم في اختيار من يتولى طبعه، إما محب الدين الخطيب، أو الشيخ حامد، أو من ترجح وتحته على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصروف، وقد وصيت الشيخ: عبدالله المحمد العوهلي يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه، وأرجو الله أن يثيبكم الثواب

الصفحات ما بين الصفحة (٣٦) والصفحة (٩٦) فهي بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله - وبداية المجلد ونهايته كالنسخة الأولى.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وبداية المجلد ونهايته مثل النسخة الأولى، وللشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله عليه تصويبات مما يدل على أنه قرأه ويقع في (١٧٧) صفحة، في كل صفحة (٣١) سطرًا تقريبًا.

المجلد الثالث:

وقد نسخ هذا المجلد ناسخان، بدأ الأول بنسخ اثني عشرة صفحة، ولكن خطه سقيم، وأخطاه كثيرة، ولذلك كتب الشيخ رحمه الله بخطه على الصفحة الثانية: (الصحائف الأولى من هذا الجزء خطها سقيم، الأمل الثاني فيها عند تصحيحها) ثم نسخت الصحائف التالية إلى آخر الجزء بخط مغاير أمثل من الخط الأول، ولم يكتب على هذا الجزء اسمنا الناسخين.

ويقع هذا الجزء في (١٥٢) صفحة، كل صفحة (٣١) سطرًا. وبداية المجلد ونهايته كمثله في النسخة الأولى.

المجلد الرابع:

وهذا الجزء بخط الشيخ سليمان الحمد البسام، وللشيخ عبد الرحمن السعدي عليه بعض تصويبات بخط يده رحمه الله، ويقع في (١٠٣) صفحات، في كل صفحة (٢٨) سطرًا، وبداية المجلد ونهايته كما في النسخة الأولى:

المجلد الخامس:

وهذا المجلد هو الذي بعث به الشيخ رحمه الله للطباعة أول الأمر.

وكتب الشيخ بخط يده المقدمة التي طبعت مع هذا الجزء أول ما طبع، وهي مقدمة أثبتها في هامش هذه الطبعة عند أول تفسير سورة الكهف، وهذا المجلد نقل عن خط الشيخ المؤلف رحمه الله، وليس عليه اسم كاتبه، وقد ألحق الشيخ رحمه الله به أصولاً من أصول التفسير، وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن ورودها، ويحتاج إلى معرفتها) وهي بخط الشيخ رحمه الله، وقد جعلتها ملحقة بهذه الطبعة في آخر التفسير.

وفي آخر الجزء فهرس لمحتوياته، ثم نقل للخطاب الموجه من الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله، وقد أרך في ٢/٣١/١٣٧٤ هـ، ونص الخطاب تجده في

الشيخ - رحمه الله - إلى ذكر الآيات أحياناً، وأحياناً يقول إلخ القصة، إذا كانت قصة من القصص وأحياناً يورد كلاماً في سياق التفسير لا يقصد به ذكر الآية، فيغير المصححون ذلك فيقومون بإيراد الآيات كاملة، ويغيرون كلامه ويشطبون في المخطوطة، ويضعون الآية أو الآيات بدلاً منه.

ومن أمثلة ذلك:

إنَّ الشيخ رحمه الله أورد قصة قارون هكذا: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) إلى آخر القصة، فشطب المصححون على قوله: (إلى آخر القصة)، وأوردوا الآيات كاملة، وهي في هامش النسخة بخط المصحح. وكذا عند إيراد قصة لوط في سورة العنكبوت حيث أورد الآيات من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فأنتموا الآيات إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا آيَةً﴾ يَكْفِي لِقَوْمِهِمْ يَقُولُونَ﴾ وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

الملحظ الثاني:

التصرف في تقسيم الكتاب، حيث قسم الشيخ التفسير إلى ثمانية أجزاء في إحدى النسخ، وتسعة في الأخرى، وكانت النسخة التي اعتمدت عليها المطبعة السلفية في ثمانية أجزاء، ينتهي الأول منها بنهاية تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في سورة آل عمران (١٢٩) فجعلوا نهاية الجزء بنهاية تفسير سورة آل عمران، وكتبوا في نهاية الجزء (تم المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويليهِ المجلد الثاني، وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين)^(٥) وليس الأمر كما قالوا، بل تقسيم النسخة التي اعتمدوها على خلاف ما ذكروا.

الملحظ الثالث:

الزيادات، لقد زاد القارئون على هذه الطبعة في التفسير زيادات، وإن كانت يسيرة إلا أنه لم يتم الإشارة إليها، لا في المقدمة، ولا في مواضع الزيادات، فمن ذلك:

١- زيادة رقم الجزء من أجزاء القرآن الكريم قبل بدايته،

الجزيل، ويشكر مساعيك، ويجزيك عنا أفضل الجزاء، فأنتم طال عمرك عوض النفس في كل شيء، والله الموفق والسلام.

محبك^(١) عبد الرحمن الناصر السعدي

وتنبه الطابع على طبع خاتمة

الأصول وكليات التفسير للحاجة الشديدة إليها.

وقد أبان الشيخ - رحمه الله - عن مقصوده من إفرا هذا الجزء بالطباعة في المقدمة التي كتبها لهذا الجزء^(٢) فقال: (وقد تكرر عليَّ السؤالُ من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه، وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحبيت إجابتهن لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه). وقد طبع هذا المجلد عام ١٣٧٥هـ، ثم بعث الشيخ - رحمه الله - ببقية أجزاء الكتاب للشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - فأتم طباعة الكتاب كله، فطبع الكتاب في عام ١٣٧٦هـ، وقبل وفاته بشهر تقريباً بعث إلى شيخنا عبد الله بن عقيل رسالة قال فيها: (التفسير مثل ما ذكرت لك، وصلني منه الجزء الأول عدة ملازم من زمان، وبعد ذلك ما جاءنا عنه خبر)^(٣) وبعدها بعشرة أيام بعث برسالة أخرى قال فيها: (أفيدكم وصلني ملازم أيضاً من الجزء الثاني، وبقية الجزء الأول من التفسير، ويذكر الشيخ نصيف أنهم إن شاء الله مجتهدون في إنجازه، يشر الله ذلك وسهله)^(٤). وبهذا يتبين أن الشيخ رحمه الله لم ير الكتاب كاملاً، ويبدو أنه لم يبد ملاحظات على ما طبع منه، إذ توفي بعد رسالته السابقة بشهر تقريباً.

وتتميز هذه الطبعة أولاً بالسبق الزمني فإنها أول الطباعات، وهي أصل جميع الطباعات السابقة، فليس هناك طبعة إلا وكان أصلها عائدًا إلى هذه الطبعة. وهي بذلك أسلم من غيرها، وأقل في الأخطاء والتصحيقات والتحريفات، وهذا لا يعني جودتها، وموافقتها للأصل، إذ ثم ملاحظ لا بد من بيانها:

الملحظ الأول:

التصرف في طريقة الشيخ في تفسير الآيات، حيث يعمد

(١) تصحفت الكلمة في النسخة إلى: (محمد)، لأن الخطاب فيما يظهر منقول من كتابة الشيخ - رحمه الله - فهو بخط مغاير لخط. (٢) انظر نص المقدمة عند أول تفسير سورة الكهف من هذه الطبعة. (٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٦). (٤) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٨). (٥) (٢٨٨/١).

وقد تابعت كل الطبعات مقلدة هذا الخطأ.

٢- ومن التعديل ما يكون بدون مسوغ ظاهر أو مسوغ من وجهة نظر المصحح دون إشارة للتعديل، ومثال ذلك: قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا رَزَقْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الآية، (وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله). غيرت كلمة (زعم) إلى: (أخبركم أنه من عند الله)^(٥).
الملحظ الخامس:

بعض الأخطاء الظاهرة مثل:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَلْعَدْ عَذْرَاءَهُ﴾ الآية، (فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة) هكذا في المخطوطتين، وجاء في الطبعة السلفية (فالشرك لا يغفره الله بالتوبة)^(٦) وهذا خطأ شنيع، وعلى ذلك تابعت الطبعات^(٧).

وبعد ظهور هذه الطبعة بسنين، طبع التفسير طبعة أخرى عن طريق المؤسسة السعيدة، التي كلفت الأستاذ محمد زهري النجار بتصحيح الكتاب، والنجار يوصف بأنه من علماء الأزهر، وله بعض الأعمال الأخرى كتصحيحه لكتاب الأم للشافعي، وهذه الطبعة طبعة تميّزت بأنها أضحت الطبعة المعتمدة لسائر طبعات التفسير بعدها، بل اعتمدت طبعها الرئاسة العامة للدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك لإحسانهم الظن في المؤسسة ومصححها، ولقد تبين لي جملة من الملاحظات تظهر عوار تلك الطبعة، أذكر هنا جملة منها:

الملحظ الأول:

اعتماد هذه الطبعة اعتماداً كلياً على الطبعة السلفية، دون الإشارة إلى ذلك في مقدمة الطبعة، وهذا الاعتماد جعل الملاحظ المذكورة سابقاً على الطبعة السلفية تصدق على هذه الطبعة أيضاً، بل قد زادت طبعة النجار الأمر فجمعت إلى ذلك ملاحظ أخرى أشد وأخطر، ولو أن الطبعة السلفية صورت بدل أن يعهد بتصحيحها إلى النجار لكان الأمر أهون.

(١) (١٤٩/١). (٢) المخطوطة ب (٢٣/٢) والطبعة السلفية (٣/٢).
(٣) ينظر الطبعة السلفية (٤٣/٦)، والمخطوطة ب (٣٣/٦). (٤)
المخطوطة ب (٨٢)، الطبعة السلفية، (١١٧/١). (٥) انظر ص ٢٨ من المخطوط (ب) من الطبعة السلفية (٢٧/١). (٦) (١٣٨/١). (٧) ينظر طبعة النجار (٢٨٧/١).

فقبل بداية الجزء الثالث كتبوا عنواناً في وسط الصفحة (الجزء الثالث)^(١) وكذا عند الجزء الرابع، وليس في النسخة المخطوطة شيء من ذلك، ولم يسيروا إلى كونها ليست من كلام الشيخ رحمه الله.

٢- زيادة جملة: (قوله تعالى) أو: (قال تعالى) في مواضع كثيرة، ومن أمثلة ذلك زيادتها في أول سورة النساء، مع أن عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ الكلام بذكر الآيات المفسرة بعد البسملة^(٢).

٣- زيادة قوله: من ديارهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَقُولُونَ مَاءً كَمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ الآية، حيث قال الشيخ: (ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه) فزادوا جملة (من ديارهم) فصار النص هكذا: (ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم).

٤- ومن أمثلة ذلك قال رحمه الله: (أي ﴿وَو﴾ أرسلنا مدين القيلة المعروفة المشهورة «شعيباً» فأمرهم). فعدل النص حتى صار بزيادته هكذا: (أي: ﴿وَو﴾ أرسلنا «إلى مدين» القيلة المعروفة المشهورة أخاهم شعيباً الذي أمرهم).

وبعدا بقليل قال الشيخ (فكذبوه) فأخذهم عذاب الله. فعدلت فصارت (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي: عذاب الله^(٣).

وهذا كثيراً جداً، وبعض التصرف تصرف مقبول في الأصل؛ للحاجة إليه، أو لخطأ في سياق الكلام، إما بعود الضمير المذكور على مؤنث أو نحو ذلك، وإما بتقص أو نحوه، ولكن هذا التصرف وإن كان مقبولاً في الأصل إلا إنه لم ينبه عليه، ولم يشر المصحح إلى شيء من التغيير.

الملحظ الرابع:

التصحيح في بعض الجمل تصحيحاً خاطئاً - بل ظاهر الخطأ - ومن ذلك:

١- قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ لِئِنْ لَمْ يَكُنْ أَقْلُهُمْ كَانَتِي الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾: (﴿لَيْتَ لَمْ يَكُنْ أَقْلُهُمْ كَانَتِي الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى).

وقد جاء التعديل عجباً من العجب حيث غيرت (عنه) إلى عند أو كلمة (عرفاً) إلى (عرفات) فجاء النص هكذا: (بأن كان عند مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عند عرفات، فهذا الذي يجب عليه الهدى)^(٤).

الملحظ الثاني:

التصرف في مواقع الآيات من التفسير:

يشر إلى التصرف، وظاهر من أسلوبه أنه ليس أسلوب الشرح حيث أتى ببعض الإعرابات والمعاني اللفظية، ثم ذكر المعنى الإجمالي. ومن عجيب أمره أنه في الصفحة (٤٤٩) تصرف تصرفاً يسيراً بأن قدم كلمة على أخرى، وأشار في الهامش إلى ذلك التصرف، ولم يشر إلى تصرفه بزيادة ثلاث صفحات.

٣- في تفسير الآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الحج سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم ٥٦ فجمع بينهما وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم) ثم فسر الآية على وفق ما كتب، فعمد النجار إلى تغيير التفسير والزيادة زيادة طويلة يصل مجموعها إلى صفحة ونصف الصفحة تقريباً^(١) ولم يشر إلى شيء من التعديل.

٤- ومن الزيادات العجيبة أن الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - أورد قوله سبحانه: ﴿فَمَا يَكُنْ لَهُمْ لِسَانُهُمْ وَآلَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ من الآية رقم (٢٩) من سورة الدخان، في سياق تفسيره للآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون، مستشهداً بها، ولكن يبدو أن النجار ظن أنها من السورة نفسها ففسرها تفسيراً من عند نفسه ونسبها إلى الشيخ، ولم يعلق، ولم يبين أنه من كلامه، وهذه الزيادة تقع في صفحة تقريباً^(٢). ومن عجيب حاله أنه يعلق أحياناً في الهامش على زيادته وكأنها تعليق على كلام الشيخ رحمه الله^(٣).

الملحظ الرابع:

الحواشي والتعقيبات:

لقد قام النجار بتعقب الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير ووضع هامشاً لتلك التعقيبات فتعدى (مهمته، وتجاوز طوره، فراح يعلق على هذا التفسير القيم بأراء بعدت عن الصواب، وجانب الحق في أجلى معانيه مما شؤ به هذا الكتاب، وأسأ إلى المؤلف، وغش القراء، وأضل الناشئة، كما أنه اعترض على المؤلف، ورد أقواله بأراء من عنده لم يوفق فيها إلى الحق والصواب، مع أنه ليس من حقه ذلك، ولا من مهمته أن يعترض على المؤلف فيما اختاره، وإنما مهمته هي تحقيق النص وتصحيحه^(٤).

(والذي في أول الكتاب من هذه التعقيبات اعتراضات بسيطة على عبارة، أو لفظة أو نحوها، أما الذي في وسطه

لقد جرت عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ فيذكر الآيات التي يريد تفسيرها كاملة، ثم يشرح في تفسيرها مجزأة عقب ذلك، وفي بعض الأحيان يقوم رحمه الله بذكر الآيات إذا كانت قصصاً للأنبياء، فيقول إلى آخر القصة، وفي أحيان قليلة يغفل ذكر الآيات كاملة فيشرح في تفسيرها مباشرة، وعلى ذلك يجري سياق التفسير، ولكن النجار عمد إلى جعل الآيات في أعلى الصفحة، وجعل بينها وبين التفسير خطاً، ثم حذف الآيات في التفسير، ومن هنا يأتي اضطراب السياق في بعض الأحيان فيضطر إلى حذف بعض الكلمات، أو الإضافة أو نحو ذلك.

الملحظ الثالث:

التصرف بالزيادة:

إن من أعجب ما عمل النجار أن زاد في التفسير، ففي بعض المواضع ترك الشيخ - رحمه الله - تفسير بعض الآيات سهواً، فيقوم النجار بتفسيرها من عنده.

وفي مواضع أخرى تكون النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة السلفية ناقصة؛ لأن الناسخ تجاوز الآيات، فيقوم النجار من قبله بتفسير هذه الآيات. وهذه المواضع كثيرة جداً، تصل في بعض المواقع إلى صفحات، وفي بعضها إلى أسطر، وفي أخرى إلى كلمات، وهذه أمثلة لها:

١- سقط من النسخة الخطية (ب) تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة، وهي قول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُنْزِلَ نَفْسَهُ فِي مَنَاقِبِ رَحْمَتِهِ وَأَنَّ رُؤُوسَ يَالِيسَادٍ﴾ وبناء على سقوطها من النسخة سقطت من الطبعة السلفية، فجاء النجار ففسر الآية من عنده، وبدأ بمعاني المفردات، ورجع إلى جملة مراجع؛ كالقاموس والصاحح، وتفسير ابن كثير، ولم يشر إلى أن الكلام من كلامه، وليس من كلام الشيخ - رحمه الله - وقد وقع هذا في صفحتين ونصف من طبعته ابتداء من منتصف الصفحة (٢٥٢) من المجلد الأول إلى نهاية ص (٢٥٤)، والقارئ للكلام يعلم أنه ليس من كلام الشيخ - رحمه الله - لأن الشيخ لا ينقل من مصادر، وإنما يفسر بما فتح الله عليه، كما قرر ذلك في أول الكتاب.

٢- ومن الزيادات الطويلة التي زادها النجار، زيادته في تفسير الآيات رقم (١٠٥-١٠٧) من سورة الأنعام، حيث تجاوزها الشيخ فلم يفسرها، ففسرها النجار في الصفحات ذوات الأرقام (٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢) من الجزء الثاني، ولم

(١) انظر طبعة النجار ٣٠٨/٥، ٣٠٩، وقارنه بما في هذه الطبعة. (٢)

ينظر طبعة النجار (٣٥٠/٥). (٣) ينظر طبعة النجار (٢٥٤/١). (٤)

الشيخ محمد سليمان البسام: كشف الستار عن تلقين وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (٧).

المفقودة». قال في الهامش قوله: «فالشكر فيه بقاء النعم... الخ» عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود»^(١) فكانه خطأ الشيخ في اختيار اللفظ، وليس هذا بخطأ، بل الأمر واسع في اختيار اللفظ المناسب.

الملحظ الخامس:

سوء توزيع النص

حيث قام بإعادة توزيع النص إلى فقرات وعمد إلى أن تكون تلك الفقرات قصيرة جداً، وعليه فقد فرق أجزاء الجملة بين الأسطر، وقطع الكلام عن سياقه إذ نجد فعل الشرط في سطر وجوابه في آخر، والمعلول في سطر وتعليقه في آخر، ولذلك تضخم التفسير جداً مع أن صفحاته يمكن أن تكون أقل من ذلك بكثير، والله أعلم بالهدف من وراء ذلك التضخيم.

إن هذه الملاحظة ليست إلا أمثلة دالة على أن عمل النجار لم يكن عملاً أميناً على هذا التفسير.

وبمجمّل هذا العرض يتضح أن التفسير لم يخرج بصورته التي كتبها الشيخ - رحمه الله - إذ جميع الطبقات كانت نسخاً مكررة عن طبعة النجار، التي اعتمد فيها صاحبها على الطبعة السلفية، والطبعة السلفية اعتمدت على النسخة الثانية التي لم تكن بخط الشيخ، وكان فيها بعض النقص وبعض التحريف من النساخ.

ولما كان الأمر بهذه الصورة التي تظهر الحاجة الماسة إلى إخراج هذا التفسير المبارك إخراجاً علمياً مصححاً كما أرادته الشيخ رحمه الله، فقد عمدت إلى العمل ثلاث سنين في هذا الكتاب راجياً أن يكون العمل ساداً للثمة ومبركاً للذمة.

العمل الذي قمت به:

لقد منّ الله عليّ بأمر لم يتوفر لمن اعتنى بهذا التفسير من قبل، وهو الحصول على النسخة (أ) التي كانت بحوزة الشيخ - رحمه الله - وتحت نظره ومحل عنايته إلى أن توفي، وهي في الجملة أسلم من النسخة (ب) التي كانت أصل جميع الطبقات، ولما بدأت في العمل كان الهدف الذي سعت إليه جاهدًا هو: إخراج التفسير كما كتبه الشيخ - رحمه الله - دون تعديل أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وعلى ذلك قمت بما يلي:

أولاً: نسخ التفسير كما هو، ويتضمن ذلك: إثبات الآيات

(١) المصدر السابق (٩)، (٢) (١٠٤/١)، (٣) (١٥٩/١)، (٤) (١/١)، (٢٤٠)، (٥) (٣٤٦/١)، (٦) (١٧٥/١).

وآخره فهي اعتراضات وخيمة تحريف لكلام الله، وغلو في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وتنقص للعلماء وكذب عليهم^(١).

ولقد كان في معظم تعليقاته منهماً للشيخ وأسلوبه، وهذه بعض تعبيراته التي تظهر ذلك قال: (والعبارة قلفة كما ترى)^(٢)، (العبارة مهمة تحتاج إلى إيضاح)^(٣)، (العبارة فيها شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال)^(٤)، (وفي العبارة غموض كما ترى)^(٥).

ولقد أبان الشيخ محمد بن سليمان البسام عوار تلك التعقبات بياناً شافياً في رسالة مستقلة عنوانها: (كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وذكر أمثلة كثيرة دالة على أخطاء النجار فيما زعمه من أخطاء وقع فيها الشيخ - رحمه الله - وأكثني بالإحالة على تلك الرسالة الماتعة، ففيها نقد علمي قوي لأخطاء ظاهرة وقع فيها النجار، وأشير هنا إلى ثلاث تعقبات فقط أبين من خلالها شيئاً يسيراً من سوء صنيع النجار، وأما التعقبات التي تحتاج إلى نقد علمي فأحيل فيها إلى رسالة الشيخ محمد البسام.

١- وقوع النجار في الخطأ ثم تخطئة الشيخ رحمه الله به: قال الشيخ - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلَفَهَا فَلَا يُغِلُّ لَهُ مِنْ بَدْنِهِ حَتَّى تَكُونَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ «أي نكاحاً صحيحاً ويطأها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق» هكذا في النسختين، وفي الطبعة السلفية التي اعتمد عليها النجار، ولكنه أسقط (إلا) فصارت العبارة: «لأن النكاح الشرعي لا يكون صحيحاً وهذا فعله، وليس فعل الشيخ - رحمه الله - ثم قال النجار في الهامش قوله: «لأن النكاح الشرعي الخ» في العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: «لأن النكاح الشرعي الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء» فأخطأ النجار ثم خطأ الشيخ، وعدل خطأ الشيخ بزعمه.

٢- إقحام تعليقات لا محل لها، فمن ذلك: قال الشيخ - رحمه الله - «والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة». قال النجار: (وفي هذا المعنى قال صاحب جوهرة التوحيد:

ومن يمت ولم يتب من ذنبه

فأمره مفوض لربه

٣- الاستدراك في غير محله: قال الشيخ - رحمه الله - «فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم

الأول: أن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله -

والثاني: أنها النسخة التي كانت بيد الشيخ - رحمه الله - إلى حين وفاته.

الثالث: أنها سالمة من التعديل والشطب للذين وقعا من النساخ أو الطابعين أو المصححين بعكس النسخة (ب)، فإن هذه النسخة سلمت للمطبعة السلفية، فكان المصححون للطبعة يعدلون عليها ويشطبون، بل تجد على هوامشها أسماء (عمال الصف) فتجد اسم (محمود) أو فلان منهم، وذلك لتوزيع العمل عليهم، بينما النسخة (أ) لم تمسها الأيدي بشطب أو تعديل.

الرابع: سلامة هذه النسخة من الخروم والنقص، لأن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - بينما النسخة (ب) كتب معظمها بخطوط النساخ فوقع فيها بعض النقص والخروم.

الخامس: أنها أجود كثيراً من النسخة الأخرى في إملائها، بينما تجد في النسخة (ب) أخطاء ظاهرة.

ثانياً: يلاحظ أنني ذكرت في وصف النسختين أن معظم النسخة الأولى كان بخط الشيخ - رحمه الله - وأن النسخة الثانية في جملتها بخطوط النساخ، وهذا توضيح تفاوت الكتابة على التفصيل، مع بيان ما قمت به حيال ذلك التفاوت:

١- أجزاء كانت في النسختين بخط الشيخ - رحمه الله - وذلك مثل كثير من المجلد الأول، والمجلد الثامن، والتاسع، وفي هذه الأجزاء يلاحظ وجود الإشكالات الآتية:

(أ) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد فسر الآيات من قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُقِيمُونَ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٣٨، إلى نهاية تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٢٩ تفسيراً جديداً فليس ما في النسختين متوافقاً، بل هو متغاير من حيث الألفاظ والصياغة والأسلوب، وكان الشيخ - رحمه الله - كتب ذلك مرتين، ولم يكن هناك احتمال لأن يكون الكلام ليس بكلامه، لأن ما في النسختين بخطه - رحمه الله - وروح الكلام وأسلوبه هو ذات أسلوب الشيخ - رحمه الله - وقد قلبت النظر بين خيارات عدة، وكان ما استقر الرأي عليه أن أجعل في صلب التفسير ما كان في النسخة (أ) وهي النسخة التي توفي الشيخ - رحمه الله - وهي في بيته، وأما ما

المفسرة كما كتبها الشيخ - رحمه الله - فحين يورد الآيات كاملة، وأوردها كاملة كما فعل، وحين يورد جزءاً منها ويقول: إلخ القصة، أثبتتها على هذا الوجه، وحين تفتقر النسختان أطبق قواعد المقابلة التي سأبينها لاحقاً بحول الله، وقد راعت في النسخ ما يلي:

١- توزيع النص توزيعاً جيداً، بحيث يكون تقسيم فقرات الكلام وأجزائه متصلاً بمعانيه، واجتهدت ألا أقطع السياق الواحد بين فقرتين مختلفتين، وأن أبداً تفسير الآية أو الآيات من أول السطر.

٢- ترقيم الآيات المفسرة في بداية تفسيرها، وهذا لم يكن من عمل الشيخ - رحمه الله - ولكن وجدته مهماً لأجل سهولة معرفة مواضع الآيات.

٣- تصحيح بعض الأخطاء الإملائية الظاهرة التي لا تخفى على الشيخ - رحمه الله - ولكنها سبق قلم.

ولقد حرصت على عدم التدخل في التفسير والتعديل فيه بأي وجه من الوجوه إلا في ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون الخطأ في الآيات، فهنا أثبت الصواب، ولا أنفت إلى الخطأ، ولكن في بعض الأحيان يحدث أن يكون قلم الشيخ سبق إلى آيات في غير السورة، أو في السورة نفسها، وليست في ذلك الموضع، ثم يفسر الآيات التي كتب، فأثبت الصواب في الآيات، وأبقى التفسير كما هو، وأشير إلى ما عملت في الهامش.

الثانية: أن يكون الخطأ ظاهراً، ولا يمكن أن يقلب به المؤلف - رحمه الله - فهنا أثبت التعديل الذي أراه صواباً، وأشير في الهامش إلى ما في الأصل من خطأ، أو سبق قلم.

الثالثة: أن يكون التعديل طفيفاً كان يكون تعديلاً في ضمير فيقول: (خالقهما) والصواب (خالقها) أو العكس أو يقول (التي) والصواب (الذي) ونحو ذلك، فهنا أصوب الكلام، وأشير في أحيان يسيرة إلى ما عملت، خاصة وأن الشيخ - رحمه الله - (كان سريع الكتابة، ويكتب بخط دقيق، وبدون نظارة، لكنه على قاعدة صحيحة^(١)) وكانت جل عنايته بالمعاني، ولذلك قال في رسالة للشيخ عبدالله بن عجيل حفظه الله - (فحسن الإملاء والجري مع المعاني أولى من اعتبار حسن الخط، فذاك أهميته بالنسبة لحسن الإنشاء قليلة^(٢)).

ثانياً - المقابلة:

وابتغاء توضيح الأمر أبين ما قمت به في نقاط:

أولاً: اعتمدت النسخة (أ) وجعلتها أصلاً لأمر:

(١) الشيخ عبدالله بن عجيل: الأجوبة النافعة (المقدمة) (٧). (٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٦٧).

بقراءة الكتاب لمريد الاستفادة، وأما الفهارس التفصيلية للآيات والأحاديث والأعلام أو القبائل... ونحوها، فإن طبيعة التفسير لا تدل على الحاجة لذلك، وإن عمل على هذا التفسير فإنما هذا العمل نوع من التزويد والتكثُر لا حاجة له.

وبعد فهذا الجهد الذي بذلت، وهو جهد استغرق ثلاثة أعوام قرأت فيها التفسير قراءة مقابلة ثلاث مرات، واجتهدت في إخراج التفسير على أتم الوجوه قدر الإمكان. وما كان لي أن أصل إلى هذا لولا فضل الله عز وجل، فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

ثم الشكر من بعد لمن كان عوناً لي في إخراج هذا التفسير بأي وجه من أوجه العون، وأخص بالذكر صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل. وفضيلة والدي الكريم الشيخ معلل اللويحق، والمشايخ الفضلاء: الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي أعانني على الحصول على النسخة الثانية (ب) لمخطوط التفسير، وأبدى من جميل الملاحظات ما كان عوناً لي على ضبط العمل، والدكتور خالد السبت، الذي كانت مهاتفاته بداية حفز لإعادة العمل في التفسير، والشيخ صالح الheidان، والشيخ عبد الرحمن الراجحي، والشيخ محمد الخضير، والإخوة الذين عملوا معي في المقابلة فأمضوا وقتاً طويلاً في سبيل ذلك، وبذلوا جهداً لا أنساه في إعانتي: الشيخ إدريس حامد محمد، والشيخ تراوري مامادو، والأخ فيصل بن طلع المطيري، فلجميع مني الشكر والعرفان والدعاء بالتوفيق والتسديد.

وأسأل الله المغفرة عما وقع من تقصير، واستمد منه العون فهو وحده المستعان. والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتب

عبد الرحمن بن معلل اللويحق المطيري

بعد عشاء ليلة الثامن والعشرين

من شهر ذي القعدة عام ١٤١٩ هـ

في النسخة (ب) وهو المطبوع في طبعات الكتاب السابقة فقد جعلته في ملحق في آخر التفسير.

(ب) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد الثامن من بداية سورة الحجرات وحتى نهاية التفسير نسخ التفسير بخطه نسخة ثانية، ولكنه كان يعدل في الألفاظ ويزيد في الكلمات ويقص منها، ولذلك تفاوت حجم المقابلة بين بعض أجزاء الكتاب بشكل واضح، حيث تجد فروقاً كبيرة بين النسختين في أجزاء، ولا تجد إلا اليسير من الفروق في أجزاء أخرى.

(ج) أن بعض الأجزاء كانت في النسخة (أ) بغير خط الشيخ - رحمه الله - وفي النسخة (ب) بخط الشيخ - رحمه الله - كما في المجلد السادس، وهنا كثرت الأخطاء في النسخة (أ) وقلت في (ب) فاستندت من (ب) في المقابلة، وجعلت جل اعتمادها عليها، إذ هي أصح لولا ما عابها من تعديلات مصححي المطبعة السلفية عليها.

ثالثاً: الزيادات: جاءت زيادات في إحدى النسختين عن الأخرى، وقد جعلت الزيادات بين قوسين مرتكبين [] وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: الزيادات التي في الأصل على (ب) وقد جعلتها بين قوسين مرتكبين، دون إشارة في الهامش إلى شيء.

الثاني: الزيادات التي في (ب) وقد جعلتها بين قوسين مرتكبين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: زيادة في ب، وهذا النوع من الزيادات يكثر في الأجزاء التي كانت بخط الشيخ - رحمه الله - في النسختين كلتيهما.

الثالث: الزيادات التي جعلتها لاقتضاء السياق وعدم استقامته بدونها، فقد جعلتها بين قوسين مرتكبين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: (زيادة يقتضيهما السياق).

وبعد، فيلاحظ أنني لم أثبت تخريج الأحاديث في الكتاب، لأن ما في الكتاب من الأحاديث ليس بالكثير، ومعظم ما نقل - رحمه الله - هو من صحيح البخاري ومسلم، كما لم أفهرس فهرسة تفصيلية، لأن الفهرسة التي يمكن أن يستفاد منها هي الفهرسة الموضوعية للفوائد الإيمانية، والتربوية، والسلوكية، والعلمية، ونحوها التي في الكتاب، وإذا نظرنا إلى الفهرسة بهذا الاعتبار، فإن الكتاب يحتاج إلى فهرسة كبيرة وطويلة جداً، يمكن الاستغناء عنها

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما يتعلق بالمواضع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثنائي) تنبئ فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها^(١).

(١) هذا التنبيه جعله الشيخ - رحمه الله - على غلاف المجلد الأول فصدرت به التفسير كما فعل - رحمه الله - .

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والاهتداء بها.

وكان حقيقاً بالبعد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقْصِر، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. [يقطع النظر عن المراد^(١)].

وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كله، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منَّ الباري عليّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة [بنا] أحبيت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعوّنة للسالكين، ولأقننه خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً. والله أرحم، وعليه أعتمد، أن يسر ما قصدت، ويذل ما أردت، فإنه إن لم يسره الله، فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم. اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

(١) في ب: وأسقامها. (٢) في ب: يتيسر. (٣) في ب: وأنزله. (٤) زيادة من هامش ب، مشطوبة من أ.

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل.

وجعله برحمته هدىً للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها^(١).

وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهيه، وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما ردّه فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه:

﴿يَهْدِي بِإِذْنِ اللَّهِ مَنِ اتَّبَعَ أَتَتْهُ الْيُسْرَىٰ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فهو هادٍ لدار السلام، مبين لطريق الوصول إليها، وحاثٌ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر عنها، وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كَتَبْنَا لَهُ الْكِتَابَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُ: لَنْ نَجْعَلَ لَكُمُ الْيُسْرَىٰ إِلَّا الصَّحْرَ أَوْ إِنْ تَبْتَغُوا مِنْهُ مَتَاعًا فَإِنَّمَا يَتَّبِعُ الْحَقُّ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين^(٢) الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها، ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي: يُذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأنزله^(٣) بهذا اللسان لتعقله وتفهمه، وأمرنا بتدبره والتفكير فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، وبصيرة وتذكرة، وبركة، وهدى ويشري للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه

فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن

من بدائع الفوائد

لابن القيم رحمه الله تعالى^(١)

لَمْ يَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ.

وقد لا يعم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبََّعَكَ أَجْسَامُهُمْ﴾

فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب، من دُءَمَ لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب بالعاجل أو الآجل. ويستفاد كون النهي للتحريم، من دُءَمَ لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله.

ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب، ولقظة «على»، ولقظة: حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل. وقوله: «لا ينبغي» فإنها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلاً وشرعاً.

ولقظة «ما كان لهم كذا وكذا» و«لم يكن لهم»، وترتيب الحد على الفعل، ولقظة «لا يحل» و«لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزوين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يجه ولا يرضاه لعباده، ولا يزي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجُنَاح والحرَج والاثْم والمُواخِذَة، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإلْكَار على من حَرَم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل مَنْ قبلنا، غير ذام لهم عليه.

فإن اقترن بإخباره مدح، دلَّ على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

فصل

وكل فعل عظمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله

[قال: فصل] النكرة في سياق النفي تَعْم، مستفاد من قوله تعالى ﴿وَلَا يَطْلُقُ ذِكْرُ أَحَدٍ﴾، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَيِّئًا﴾ وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِنَّمَا تَرَوْنَهُ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدٌ﴾، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْقَئَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

وفي سياق الإنابات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾.

وإذا أخيف إليها «كل» نحو ﴿وَمَا تَكُنْ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا سَاءَ بِرَبِّكَ﴾ ومن عمومها بعموم المقتضى ﴿وَتَقَرَّبَ وَرَمَّا سَوَّاهَا﴾

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلَّى باللام من قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَتٍ رَبِّهَا وَكُفُوبٌ﴾ (وكتابه).

وقوله: ﴿هَذَا كَيْفًا يُبَيِّنُ عَلَيْكُمْ بِالنَّحْيِ﴾ والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، وعموم الجمع المحلَّى باللام من قوله: ﴿وَإِذَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا أَحَدُنَا مِنَ الْقَائِلِينَ يَشْفَعُ لَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخرها. والمضاف من قوله: ﴿كُلُّ مَآءٍ يَأْتِي وَالْقَلْبُ وَمَلِكِيَّةٌ وَكُفُوبٌ وَرُسُولٌ﴾.

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَسَّ مِنْ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَافُ ظُلْمًا وَلَا هَمًّا﴾ وقوله: ﴿مَنْ يَمَسَّ يَشْفَكَ دَرَّةً حَبْرًا يَسْرُ﴾ [وقال] ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ حَيْرٍ يَسْلَمُهُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْوَيْلُ﴾ وقوله: ﴿وَبَحِثْ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ وَجُوعَكُمْ شَقْرًا﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي مَآئِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين.

فإن كان خبراً ماضياً، لم يلزم العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِغْرَهُ أَوْ حَوْلاً مُنْقَضًا إِلَيْهَا﴾، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الْمُتَقَفِّطُونَ قَالُوا قَاتِلْهُمْ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ﴾

وإن كان مستقبلاً، فالتزموا ردَّ العموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مِنْكُمْ أَوْ وَرَثَتُهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرَأَتْهُمُ ابْنَتُهُنَّ يَتَفَقَّهْنَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ

(١) جاءت هذه الفوائد في أ: بعد تفسير سورة الفاتحة، وقد كتب الشيخ - رحمه الله - في هامش النسخة: (حق هذه المقدمة أن تقدم على الفاتحة). (٢) كتبت الكلمة مرتين مرة بالافراد، ومرة بالجمع، وجاء في هامش أ ما نصه: (قرأ أهل البصرة وحضص (وكتبه). وقرأ الآخرون (وكتابه) على التوحيد).

بين المسلمين، أو قيل لفاعله: «هل أنت متو» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إيعاداً، أو طرداً، أو لفظة «قُتل من فعله»، أو «قاتل الله من فعله»، أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يذكى»، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيد، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قبض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاحة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: ﴿لَمْ تُصَدِّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن مَّ آمَنَ﴾، ﴿لَمْ تَلْسَوْا الْخَقَّ بِالْأَمَلِ﴾، ﴿مَا تَنَكَّلَ آلَا سَبْدَ﴾، ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ما لم يفتقر به جواب من المسؤول^(١) فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرده من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروه، فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه. وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالمتحقق^(٢) منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا أكل منكأ».

وأما لفظة «ما يكون لك» و«ما يكون لنا» فاطرده استعمالها في المحرم، نحو ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، ﴿فَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَمُوتَ فِيهَا﴾، ﴿فَمَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، وإن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: ﴿وَمِنْ أَسْوَاقِهَا وَأُصْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَتَتْهُمُ وَإِنَّهُمْ يَخِفُّونَ﴾. ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبرة» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْمُكُمْ﴾ وقوله: ﴿بِكُلِّ عَجَبَةٍ

لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبه، أو لثواب عاجل أو أجل^(٣)، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله^(٤) بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الخزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها^(٥)، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والتدب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفى محبة إياه، أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالهائم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو أجل، أو لدم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبيث^(٦)، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً، أو سبباً لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربه، أو الاستهزاء به وسخرته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفح أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبيث أو احتقار، أو نسب إلى الشيطان وترتيبه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظليماً أو بغيّاً، أو عدواناً أو إثماً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخيبة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو الله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه: «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعله في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرّن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما^(٧) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء

(١) في ب: أو لثواب عاجلاً أو آجلاً. (٢) في ب: فاعليه. (٣) في ب: وإثارتها. (٤) في ب: بالخبث. (٥) في ب: عنه. (٦) في ب: من السؤال. (٧) في ب: فالمحقق.

وَيَسْأَلُونَكَ. وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَيَسْمَعُ رُسُلُكُمْ﴾.

وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

ويدل على حسن المنع منه قدرًا، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أَجْمَلْتُمْ سَبَاقَةَ الْمُنَاجَاةِ وَصَارَ السَّجِدُ الْقَرِيرُ كَمَنْ يَأْتِيهِ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ بِنَ الْتَائِبِينَ عِزُّ أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَاهِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وقد يأتي بين الجزائين كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم^(١) احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم الفرائد الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد: منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده. ومنها: أن يكون موعظة وتذكرة. ومنها: أن يكون شاهدًا على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله،

وأحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه.

وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة، والاشتغال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيرًا.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقابًا معجلًا.

ومنها: أن فيه حثًا للنفس على الاقتداء بأهل الخير ومناستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أوليائه الله.

وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثمرت مع عاملها ما أثمر.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.

وقد حث تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى^(٢) أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساد، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن

(١) كلما في ب، وفي أ: بعد. (٢) في ب: نظر إلى.

التفاض، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحه، والتعرف بها إلى عبادته، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعيد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيماً من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: «أمنت بالله» من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبدل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه، وكلما نقص نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت^(١) له ذلك المعنى وكماله وعمومه، ونزهه^(٢) عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله.

فأخبره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة. وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل
ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أممهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيماناً بهم، ومحبة لهم، وتعظيماً لهم، وتعزيراً وتوقيراً.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما منّ به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون^(٣) مقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم وبسيبهم.

فقيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزكبه ومعلمه. وإذا كان من المستنكر جعل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى!!

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصيل للمؤمن^(٤) الأسوة والقدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى. والمراد منها موقف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً.

فلو أراد إنسان^(٥) أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من

(١) في ب: أن يثبت. (٢) في ب: وينزه. (٣) كذا في ب، وفي أ: المؤمن. (٤) في ب: للمؤمنين. (٥) في ب: الإنسان.

المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفطرة. ومعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والجنة والسور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراشخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كنفرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، ورأته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه^(١) لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبايح والخيائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتزويجهم عنها، وتكريمهم

دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفسيرات من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله^(٢)، وغير ذلك من الفوائد المفيدة والتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك.

ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها.

ولا سبيل إلى امتثالها، [أو اجتنابها]^(٣) إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها [أو تركها]^(٤) وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل.

فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهى عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يذلل جهده مستعيناً بربه على تركه، امتثالاً لأمر الله، واجتناباً لنهي، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه^(٥).

ومنها: أن العلم بذلك^(٦) حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الاكتفاف عن

(١) في ب جاءت الجملة هكذا (ما في كثير من التفسيرات من الأغلاط التي ينزه عنها كلام الله) وقد شطبت هذه الجملة، وكتب الشيخ - رحمه الله - في الهامش بدلاً عنها ما يلي (كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوقع الخلل الكثير). (٢) زيادة من هامش ب. (٣) زيادة من هامش ب. (٤) في ب: إيمان العبد ب. (٥) في ب: أن معرفة ذلك. (٦) كذا في ب، وفي أ: به أنه.

وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في [كل] مواردنا، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعاً عظيماً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات^(١) على الصلاح، والمحرمات مشتملات^(٢) على المفاسد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباءً منثوراً.

ورأيت يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأجزها

(١) في ب: مشتملة. (٢) في ب: مشتملة.

واعتبار.

تفسير سورة الفاتحة

وهي مكة

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويشي ويعاقب، ويتصرف بمملكته بجميع أنواع التصرفات، وأصاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتى [إنه] يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين وغيره من الأيام.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدّم^(١) العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، والاستعانة هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصوداً بها وجه الله، فيبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دُنَّا وأرشدنا، ووفقنا إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصول إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط، لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية، وأنفعها للعبد،

(٧-١) ﴿يَسْمِعُ أَكْثَرَ الْغَفْلِ الْتَجِيسُ﴾ ٥ ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٥ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٥ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ٥ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٥ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: ابتدء بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنى] ﴿أَكْثَرَ﴾ هو المألوه المعبود، المستحق لإفراجه بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال، ﴿أَكْثَرَ الْغَفْلِ﴾ اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأبنيانه ورسله، فهو لأهل الرحمة المطلقة، ومن عداهم، فلهم^(١) نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً، بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء، يقال في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم [به] كل شيء، قدير: ذو قدرة يقدر على كل شيء.

﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [هو] البناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب: هو المربي جميع العالمين - وهم من سوا الله - بخلقه لهم، وإعدادهم لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى.

وتربته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة. فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربته لأوليائه، فيربهم بالإيمان، ويوفقه لهم، ويكملهم لهم ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا [المعنى]، هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

فدل قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انفراد الخلق والتدبير والنعم وكمال غناه، وتمازق فقر العالمين إليه، بكل وجه

(١) في ب: فله. (٢) في ب: وتقديم.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، و﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿الضَّالِّينَ﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿لَهُ﴾ ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتنا لنفسه، وأثبتنا له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ كما تقدم.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل؛ لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرية والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع [والضلال] في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادةً، واستعانةً في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

تفسير سورة البقرة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

(٥-١) ﴿٥-١﴾ أَلَمْ ءَ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ ؕ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
تقدم الكلام على البسملة، وأما الحروف المقطعة في أوائل
السور، فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها [من غير
مستند شرعي] مع الجزم بأن الله تعالى لم يُزلها عبثاً، بل
لحكمة لا نعلمها.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: هذا الكتاب العظيم الذي
هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه
كتب المتقدمين، من العلم العظيم، والحق المبين ذ ﴿لَا رَيْبَ
فِيهِ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم
ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على
علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفي
المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو
الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا
باليقين قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والهدى: ما تحصل به الهداية
من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة،
وقال: ﴿هُدًى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل: هدى للمصلحة
الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى
لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل
الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من
الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في
دنياههم وأخراهم.

وقال في موضع آخر: ﴿هُدًى لِّلْكَاسِ﴾ فعمم، وفي هذا
الموضع وغيره ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع
الخلق، فالأشقياء لم يعرفوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله،
فقامت عليهم به الحجة، ولم يتفخوا به لشقايتهم، وأما
المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية، وهو
التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه، بامتثال
أوامره، واجتناب تنواهيه، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية

الانتفاع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ
لَكُمْ مَخْرَجًا﴾ فالمتقون هم المتفعون بالآيات القرآنية، والآيات
الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق،
فالمتقون حصلت لهم الهدايان، وغيرهم لم تحصل لهم
هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها، ليست
هداية حقيقية [تامة].

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة، والأعمال
الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ﴾، حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به
الرسول، المتضمن لانتقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان
بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من
الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم
نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله.

فهذا الإيمان الذي يُميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق
مجرد لله ورسوله، فال مؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر
به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو

فالمؤمنون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بالكتب^(٣) السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصة المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية^(٤)، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ هُمْ يُوَفُّونَ﴾، «والآخرة» اسم لما يكون بعد الموت، وخطفه [بالذكر] بعد العموم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، واليقين هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهداية [الحقيقية] إلا هدايتهم، وما سواها [مما خالفها] فهو^(٥) ضلالة.

وأني «على» في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي «بني» كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ لَكُمُ الْكُرْهُ﴾ أي: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ لَكُمُ الْكُرْهُ» لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محقر.

ثم قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح [هو] الفوز بالمطلوب والنجاة من المروء، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا ذلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تقضي بسالكها إلى الهلاك، فلهاذا، لما ذكر صفات المؤمنين حقاً، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول، فقال:

(٧، ٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشًوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا، أي: اتصفوا بالكفر، وانصبغوا به، وصاروصفاً لهم لازماً، لا يزدعم عنه

لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للآمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصورة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب، [الإيمان بـ] جميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، [وما أخبر به الرسل من ذلك]، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً^(١) بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنَزَّاهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان^(٢) من صلاته، إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فراؤها ونوافلها.

ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، والممالك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأني «بني» الدالة على التبعية، لينبهم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم.

وفي قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعتمدين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾،

(١) كذا في ب، وفي أ: وابطنها. (٢) في ب: للعبد. (٣) في ب: بجميع الكتب. (٤) في ب: بالكتب السماوية كلها. (٥) في ب: فهي ضلالة.

بأوصاف يتميزون بها، لثلاثي يتر بهم المؤمنون، وليتبعوا أيضاً عن كثير من فجورهم، [قال تعالى]: ﴿يَحْذَرُ الْكَافِرُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: ﴿وَمِنَ الْأَثَمِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَآمُرُونَ بِالْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكدبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما توطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يُظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً، ويطن خلافة؛ لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهوؤلاء المنافقون سلخوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن^(٣) هذا من العجائب؛ لأن المخادع، إما أن ينتج خداعه ويحصل ما يريد^(٤)، أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكانهم^(٥) يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيداً؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم [شيئاً]، وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحرهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة، لهم العذاب الأليم الموجع المفتح، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم - من جهلهم وحماقتهم - لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك، والشبهات، والنفاق، لأن^(٦) القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق، والشكوك والبدع، كلها من مرض الشهوات، والزنا، ومحبة [الفواحش و] المعاصي وفعلها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعُ الْآثِمُ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فَرَقَلَ في أبواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ فَرَادَهُمْ أَنَّهُ مَرَمٌ﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي

رادع، ولا ينتج فيهم وعظ، إنهم مستمرين على كفرهم، فسواء عليهم أأنذرتهم، أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وحقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه، فهوؤلاء الكفار لا تنبيههم الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكان في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنت لا تأمن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان فقال: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يعون ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ أي: غشاء وغطاء وأكته تمنعها عن النظر الذي ينفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَقَلْبُكَ أَفْهَمُهُمْ وَاتَّصَرُّهُمْ كَمَا لَوْ يُدْمِنُوا يَوْمَ أَوَّلِ مَرَّةٍ﴾، وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهروهم الإسلام وباطنهم الكفر فقال:

(٨-١٠) ﴿وَمِنَ الْأَثَمِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَآمُرُونَ بِالْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ○ ﴿يَحْذَرُونَ أَنَّ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ○ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ فَرَادَهُمْ أَنَّهُ مَرَمٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أتمن خان»، وفي رواية: «وإذا خاصم فجر».

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر^(١) وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل^(٢) من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفاً ومخادعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلى أحوالهم ووصفهم

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت وقعة بدر. (٢) في ب: ذل.

(٣) في ب: وهذا. (٤) في ب: ويحصل له مقصوده. (٥) في ب: عاد

خداعهم على أنفسهم فكانهم. (٦) في ب: وذلك أن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ خَسِمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٤﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿٦﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَإِذَا لُقُوا بِالَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿٩﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِتُرْغُوتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١١﴾

هم العقلاء أرباب الحجي والنهي .

فرد الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه^(١) جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقه عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجا مُترفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه، وفي دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقه على [الصحابه] والمؤمنين وصادقة عليهم. فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوي المجردة، والأقوال الفارغة، ثم قال تعالى:

(١٥، ١٤) ﴿وَإِذَا لُقُوا بِالَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ هذا من قولهم بالسفاهة ما ليس في قلوبهم، [وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين، أظهروا أنهم

اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلِبْ أَقْبَسَهُمْ وَأَصْكُرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَزَلَّ مَرَّةً﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْيُزُورُ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ يَجْسًا إِلَى يَجْسِهِمْ﴾ فغفيرة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَنَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى﴾.

(١١، ١٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: إذا نُهي هؤلاء المناقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية مع اعتقاد أنها معصية^(٢) فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم إفساداً^(٣) ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله وخادع الله وأوليائه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم - مع ذلك - أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساداً؟! ولكن لا يعلمون علماً يرفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً، لأنه يتضمن فساداً^(٤) ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار، والنبات، بما^(٥) يحصل فيها من الآفات بسبب^(٦) المعاصي.

ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدبر لهم^(٧) الأزواق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بفسده، كان سبباً بالفساد فيها، وإخراباً لها عما خلقت له.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا قيل للمنافقين: آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا - بزعمهم الباطل -: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، بزعمهم^(٨) أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبهم إلى السفه؛ وفي ضمنه^(٩)، أنهم

(١) في ب: ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها. (٢) كذا في ب، وفي أ: فساداً. (٣) في ب: لأنه سبب فساد. (٤) في ب: لما. (٥) في ب: التي سببها. (٦) في ب: عليهم. (٧) في ب: لزعمهم. (٨) في ب: وفي ضمن ذلك. (٩) كذا في ب، وفي أ: السفه.

عَمَّ لَهُمْ لَا يَرْجُونَ ۝ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَيُرَىٰ
بِعَمَلِهِمُ امْتِعَافٌ ۖ فَذَائِقُهُمُ مِنَ الْقَوْلِ فِيهِ ذَرْأٌ لَّكَوْنٍ ۖ وَاللَّهُ يَحِيطُ
بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكْفُرُ الَّذِينَ يُخَفُّونَ بِأَسْرِهِمْ كُلَّمَا انْصَادَ لَهُمْ مُّسَوِّمٌ فِيهِ وَإِلَّا
أَلْظَمَ عَلَيْهِمْ قَاتِلًا وَلَوْ أَنَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه، كمثل

الذي استوفد نارًا، أي: كان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى
النار شديدة فاستوفدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي
خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي
هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار،
وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، بينما هو كذلك، إذ
ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور، وذهب معه السرور، وبقي
في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من
الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات
متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر،
والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا
الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون، استوفدوا نار الإيمان
من المؤمنين، ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها^(١) وحقت
بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن
في الدنيا، بينما هم على ذلك^(٢)، إذ هجم عليهم الموت،
فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم
وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة
النفاق، وظلم^(٣) المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك
ظلمة النار، [وبش القرار].

فلهذا قال تعالى [عنهم]: ﴿مُّسَوِّمٌ ۝ أَي: عن سماع الخير
﴿يَكْفُرُ﴾ [أي]: عن النطق به، ﴿عَمَّ﴾ عن رؤية الحق، ﴿فَهُمْ
لَا يَرْجُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون
إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل،
وهو أقرب رجوعًا منهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: أو مثلهم
كصيب أي: كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي
يصوب، أي: ينزل بكثرة، ﴿فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ﴾ ظلمة الليل، وظلمة
السحاب، وظلمة المطر ﴿وَرَعٌ﴾ وهو الصوت الذي يسمع
من السحاب ﴿وَرَقٌ﴾ وهو الضوء [اللامع] المشاهد مع^(٤)
السحاب ﴿كُلَّمَا انْصَادَ لَهُمْ﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مُسَوِّمٌ فِيهِ

على طريقتهم، وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي
رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة،
وإنما نحن مستهزون بالمؤمنين بإظهارنا لهم، أنا على
طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحق المكر
السبي إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَوِي يَوْمَ يُنْفَخُ فِي ظُلُمَاتِهِمُ يَمْعُورُونَ﴾
وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزأه بهم، أن
زئ لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا
أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن
استهزأه بهم يوم القيامة أن يعطيهم مع المؤمنين نورًا ظاهرًا،
فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفق نور المنافقين، وبقوا في
الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع،
﴿يَنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ
وَارْتَبْتُمْ ۖ الْآيَةَ.

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِيهِمْ﴾ أي: يزيدهم ﴿فِي ظُلُمَاتِهِمْ﴾ أي: فجورهم
وكفرهم، ﴿يَمْعُورُونَ﴾ أي: حائزون مترددون، ولهذا من
استهزأه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفًا عن حقيقة أحوالهم:

(١٦) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَحِمَتْ
يُخْرِتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أولئك، أي: المنافقون
الموصوفون بتلك الصفات ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ﴾
أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته
فيها يبذل فيها الأثمان^(١) النفيسة، ولهذا من أحسن الأمثلة،
فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى
الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه
بالضلالة، رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبش التجارة، وبش
الصفة صفقتهم^(٢).

وإذا كان من بذل^(٣) دينارًا في مقابلة درهم خاسرًا، فكيف
من بذل جوهرة وأخذ عنها درهمًا؟ فكيف من بذل الهدى في
مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في
سافل الأمور عن أعاليها؟! فما ربحت تجارتهم، بل خسر فيها
أعظم خسارة ﴿فَلْيَلِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ لَأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَعْلِيَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ۚ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ تحقيق لضلالهم، وأنهم لم
يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة.

ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال:

(١٧-٢٠) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا انْصَادَتْ مَا
حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَعَجَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۝ ضُمُّ بَيْنَهُمْ

(١) في ب: الأموال. (٢) في ب: ولهذا صفقتهم فبش الصفقة. (٣) في ب: من يبذل. (٤) في ب: وترك عاليها. (٥) في ب: فاستضاءوا بها مؤقتًا وانتفعوا فحققت. (٦) في ب: هم كذلك. (٧) في ب: وظلمة. (٨) في ب: من

وَلِذَا أَلَمْتُمْ عَلَيْهِمْ قَامُوا^(١) أَي: وقفوا.

فهكذا حال^(٢) المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهي، ووعده ووعيده، جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، فيروعهم ووعده، وترعجهم ووعده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل^(٣) أصابعه في أذنيه^(٤) خشية الموت، فهذا تمكن له^(٥) السلامة.

وأما المنافقون، فأتى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم قدرة وعلمًا، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم والبكم، والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ أَي: الحسية، ففيه تحذير لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية، ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئًا فعله من غير ممانع ولا معارض.

وفي هذه الآية وما أشبهها ردٌّ على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢١، ٢٢) ﴿يَتَّبِعُ النَّاسُ أَمْرُؤًا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ آلَٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهَا اللَّهُ أَنْدَاكُمُ أَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ هذا أمر عام لكل^(٦) الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهي، وتصديق خيره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وَمَا سَلَفَتْ الْيَمِّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَهُ﴾.

ثم استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربهكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فرائشًا تستقرون عليها، وتتفنون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع^(٧) الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمساكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضرورتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والسماء: [هو] كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء ههنا،

السحاب، فأنزل منه تعالى ماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كالحبوب والثمار من نخيل وفواكه [أوزروع] وغيرها ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ به ترتزون، وتقوتون وتعيشون وتفكهون.

﴿فَلَا تَحْسَبُوهَا اللَّهُ أَنْدَاكُمُ أَي: نظراء وأشباهًا من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينعفونكم ولا يضرون.

﴿وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق، والرزق والتدبير، ولا في العبادة^(٨) فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

ولهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وعلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقررًا بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، ولهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وعلان الشرك.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه؛ لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه، ثم قال تعالى:

(٢٣، ٢٤) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا رَزَقْنَا عَلَىٰ عِبَادَتِنَا فَاذْكُرُوا إِسْرَارَ مِمَّنْ يَنْهَىٰ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كَثِيرَ صَدِيقِينَ ۝ إِنْ لَمْ تَقْعَلُوا لَكُمْ غُرْبًا فَأَتُوا الْآثَرَ الْبَاقِيَ وَالْمَجَارَّةَ أَهْدَىٰ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ - يامعشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه - في شك واشتباه، مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهنا أمر نصف، فيه الفصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأصحبكم ولا

(١) في ب: حالة (٢) في ب: فيجعل (٣) كذا في ب، وفي أ: أذنه. (٤) في ب: ربما حصلت له. (٥) في ب: لجميع. (٦) في ب: وجوه. (٧) في ب: ولا في الألوهية والكمال.

الْبَقَرَةُ

٤

الْبَقَرَةُ

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ
بُكْمٌ عُتَىٰ لَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌ يُصْعِقُونَ ﴿١٩﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ
حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ يَكْذِبُونَ يُخَفِّفُ
أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَتْ لَهُمْ مَشْأُوذُهُمْ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ ؕ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٢﴾ يَأْتِيَا النَّاسَ عَبْدًا وَارِبَكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الشَّجَرِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأَنْزِلْ بِنُورٍ مِنْ رَبِّنَا وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

على أن أعظم أوصافه ﷺ قيامه بالعبودية التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين.

كما وصفه بالعبودية في مقام الإسراء، فقال: ﴿شُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَيْنَا بِعَبْدِهِ﴾. وفي مقام الإنزال فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ. لَيْسَ لَلسُّفْهَانِ لَبِيبٌ﴾.

وفي قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلأً للمعتزلة، وفيها أيضاً، أن الموحدين - وإن ارتكبوا بعض الكبائر - لا يخلدون في النار، لأنه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. فلو كان [عصاة الموحدين] يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلأً للخوارج والمعتزلة.

وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر،

(١) هكذا في أ، وفي ب: شطب قوله: (بأصحبكم ولا بأعلمكم) وفي هامش النسخة بخط المؤلف جملة أخرى، وهي (من جنس آخر) تكون الجملة هكذا (ليس من جنس آخر). (٢) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد وهذا الغرض. (٣) في ب: باتباعه. (٤) في ب: الذي ليس بصادق

بأعلمكم^(١)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم، لا يكتب ولا يقرأ، فأناكم بكتاب، زعم أنه من عند الله، وقتلتم أنتم: إنه تقوله وافتراه.

فإن كان الأمر كما تقولون، فاتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً، وأنتم أهل الفصاحة والخطابة، والعداوة العظيمة للرسول، فإن جنتهم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم^(٢) على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى، ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، وإتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدّة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا، التي إنما تنفذ بالحطب، وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسله، فاحذروا الكفر برسوله، بعدما تبين لكم أنه رسول الله.

وهذه الآية ونحوها يسمونها آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بِهِمْ قُوَّةٌ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ﴾.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من كل الوجوه؟ هذا ليس في الإمكان، ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة [بأنواع] الكلام، إذا وزن هذا القرآن بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

وفي قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى آخره، دليل على أن الذي يرجي له الهداية من الضلالة، [هو] الشاك الحائر الذي لم يعرف الحق من الضلال، فهذا الذي إذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق^(٣)، إن كان صادقاً في طلب الحق.

وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكن رجوعه، لأنه ترك الحق بعدما تبين له، لم يتركه عن جهل، فلا حيلة فيه.

وكذلك الشاك غير الصادق^(٤) في طلب الحق، بل هو معرض غير مجتهد في طلبه، فهذا في الغالب أنه لا يوفق.

وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم، دلالة

وأنواع المعاصي على اختلافها .

(٢٥) ﴿يَنْبَغِي الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ تَمَّ حَسَنُ تَجَرُّي مِنْ تَحَنُّبِهَا الْأَنْهَرُ كُلَّمَا رُفِقُوا فِيهَا مِنْ تَحَرُّرٍ زَيْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُفِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنَّا بِهٖ مُتَشَبِّهَاتٌ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

لما ذكر جزاء الكافرين، ذكر جزاء المؤمنين، أهل الأعمال الصالحات، على طريقته تعالى في القرآن^(١)، يجمع بين الترفع والترهب، ليكون العبد راغباً راجباً، خافاً راجباً، فقال:

﴿يَنْبَغِي﴾ أي: لا يابها الرسول، ومن قام مقامه^(٢) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة .

ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

فبشرهم ﴿أَنَّ تَمَّ حَسَنُ﴾، أي: بساتين جامعة من الأشجار العجيبة، والثمار الأنيفة، والظل المديد، والأغصان والأفنان، وبذلك^(٣) صارت جنة، يجتن بها داخلها، وينعم فيها ساكنها .

﴿تَجَرُّي مِنْ تَحَنُّبِهَا الْأَنْهَرُ﴾ أي: أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر، يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتشرب^(٤) منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار .
﴿كُلَّمَا رُفِقُوا فِيهَا مِنْ تَحَرُّرٍ زَيْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُفِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: لهذا من جنسه، وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائماً متلذذون بأكلها .

وقوله: ﴿وَأَنَّا بِهٖ مُتَشَبِّهَاتٌ﴾ قيل: متشابهة في الاسم، مختلف الطعوم^(٥)، وقيل: متشابهة في اللون، مختلفاً في الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضاً في الحسن واللذة والفكاهة، ولعل هذا هو الصحيح^(٦) .

ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم، ذكر أزواجهم، فوصفهن بأكمل وصف وأجزء، وأوضحه، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ فلم يقل: «مطهرة من العيب الفلاني» ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن، أنهن عُرِّبَ متحبيات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولي

وَيَبْسُرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ تَمَّ حَسَنُ تَجَرُّي مِنْ تَحَنُّبِهَا الْأَنْهَرُ كُلَّمَا رُفِقُوا فِيهَا مِنْ تَحَرُّرٍ زَيْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُفِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنَّا بِهٖ مُتَشَبِّهَاتٌ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٦﴾
﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ لِيُتْسِئَ بِكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾

والفعلي، ومظهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات استهن عن كل كلام فيح .

ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المبشر والمبشَّر، والمبشِّر به، والسبب الموصول لهذه البشارة، فالمبشِّر: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشَّر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشِّر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصول لذلك، هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة، إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب .

(١) في ب: كما هي طريقته تعالى في كتابه . (٢) في أ: أي: يا محمد .
(٣) في ب: المديد ما صارت به الجنة . (٤) في ب: وتسقى . (٥) في ب: مختلف في الطعم . (٦) في ب: أحسن .

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى^(٢)، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسول الله؛ الذين صار الفسق وصفهم، فلا ييغون به بدلاً، فاقترض حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقترض حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان، وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقضي للخروج من الإيمان، كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج عن الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّكَ الْآيَةُ ۖ آمَنُوا ۚ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الآية].

ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَقَضُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَىٰ يَظْلِمُونَ﴾. وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه^(٣)، والذي بينهم وبين عباده^(٤)، الذي أكد عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل يتقضونها ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيها، ويتقضون العهود التي بينهم وبين الخلق.

﴿وَيَقْلُوبُونَ مِمَّا آمَرَ اللَّهُ بِهِ ۖ أَن يُؤْمَرَ﴾. وهذا يدخل في أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به، والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به، ومحبته، وتمزيقه، والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب، والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق^(٥) التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون، فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق؛ وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون، ففعلوها ونبذوها وراء ظهورهم معنّاضين عنها بالفسق والقطيعة، والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض.

﴿أُولَٰئِكَ ۖ أَيُّ مَن هَٰذَا صِفَتُهُ هُمُ الْخَافِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح، شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفرًا، وقد يكون معصية، وقد يكون تقريبًا في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا خَشِرٌ﴾، فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته قوات الخير، الذي [كان] العبد

وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائنها [وتمرأتها]، فإنها بذلك تخفف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشارة عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسأل الله أن يجعلنا منهم^(٦).

(٢٧، ٢٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۖ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۖ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ۖ وَهُدًى بِهِ كَثِيرًا ۖ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۝ الَّذِينَ يَتَقَضُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَىٰ وَيَقْلُوبُونَ مِمَّا آمَرَ اللَّهُ بِهِ ۖ أَن يُؤْمَرَ ۖ وَيَفْلُجُونَ فِي الْأَرْضِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۖ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: أي مثل كان ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ لاشتغال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحي من الحق، وكأن في هذا جواباً لمن أنكّر ضرب الأمثال في الأشياء الحفيرة، واعتراض على الله في ذلك، فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ فَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ ۖ وَيَقْلُوبُونَ فِيهَا ۖ فَإِنَّ عِلْمًا مَا اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضرها عبثاً، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابعة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۖ فَيَعْتَرِضُونَ وَيَتَحِيرُونَ ۖ فَيَزَادُونَ كُفْرًا إِلَىٰ كُفْرِهِمْ ۖ كَمَا زَادَ الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ.

ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ۖ وَهُدًى بِهِ كَثِيرًا﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ إِلَيْكُم رَّادُّهُ هَٰذَا ۖ بَلْ إِنَّمَا نَزَّلْنَا بِاللَّيْلِ مَثَلًا ۖ وَهُم كَافِرُونَ﴾ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة، وحيرة، [وضلالة]، وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة، [ورحمة]، وزيادة خير إلى خيرهم، فسيحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.

(١) في ب: نسأل الله من فضله. (٢) في ب: ثم ذكر حكمته وعدله في إضلال من يضل. (٣) في ب: وبين ربهم. (٤) في ب: الخلق. (٥) في ب: بحقوقهم.

بصدّد تحصيله وهو تحت إمكانه.

(٢٨) ثم قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْرًا فَالْتِكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله، الذي خلقكم من العدم، وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون، فيجازيكم الجزاء الأوفى.

فإذا كنتم في تصرفه وتديبه وبرّه، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيلق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة؟^(١) بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتقوه، وتشكروه، وتخافوا عذابه، وترجوا ثوابه:

(٢٩) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: خلق لكم، براء بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة^(٢) دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخباثات؛ فإن [تحريمها أيضًا] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لتفنع، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك.

ومن تمام نعمته، منعنا من الخباثات تنزيهاً لنا. وقله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَسْتَوَىٰ﴾: ترد في القرآن على ثلاثة معاني: ^(٣) فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها: الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» و«ارتفع»، وذلك إذا عدت به «على»، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْفَرْقِ﴾^(٤)، ﴿لَسْتَوَىٰ عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عدت به «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فخلقها وأحكمها، وأتقنها، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ف «يَعْلَمُ مَا يَلِيقُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَزُلْ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَنْزِلُ فِيهَا» و«يَعْلَمُ مَا تُسْرِبُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» و«يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَآخَرُ».

وكثيراً ما يقرن بين خلقه للخلق، وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ لأن خلقه للمخلوقات، أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

(٣٠-٣٤) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ و«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَكُونُ أَنْتُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر^(٥)، أن الله - حين أراد خلقه - أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي «وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ» [ولهذا تخصيص بعد تعميم، لبيان [شدّة] مفسدة القتل، ولهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المَجْعُول في الأرض سيحدث منه ذلك، فزهوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك «وَنُقَدِّسُ لَكَ» يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي: نظهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونظهرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة «مَا لَا تَعْلَمُونَ» لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر.

فلو لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين، والشهداء، والصالحين، ولتظهر آياته لخلقهم، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة، كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم^(٦) من الخير والشر بالامتحان، وليبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه، واتصف به، فهذه جِغَمٌ عظيمة، يكفي بعضها في ذلك.

(١) في ب: وسفه كبير، بل. (٢) في ب: الكريمة. (٣) لعل الصواب: معان، والله أعلم (الناسخ) (٤) في ب: أورد آية أخرى هي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ عَلَى الْفَرْقِ تَسْتَوَىٰ﴾. (٥) في ب: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله. (٦) في ب: المكلفين.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
 قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
 سَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾
 وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ
 فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا
 سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
 ﴿٣٧﴾ قَالَ يَكَادُمُ الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ بِأَسْمَاءِ يَوْمَ قُلْنَا يَا أَبْنَاءُ
 آدَمَ أَأَنْتُمْ أَقْلُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
 تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا
 لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
 ﴿٣٩﴾ وَقُلْنَا يَكَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
 حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
 فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى
 قُلُوبِ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَذَبَتْ فِتْنَاتُ الْوَلَدِ أَنَّهَا لَا تَعْلَمُ
 قُلُوبُ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَذَبَتْ فِتْنَاتُ الْوَلَدِ أَنَّهَا لَا تَعْلَمُ

بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه التسليم،
 واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن
 الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما جهلوا، وتنبههم على
 ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته، بعلمه وحكمته، ومنها: أن
 الله عزهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد،
 ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له، لما بان فضل
 علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا
 به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداءً،
 ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنسان والجن، وبيان فضل آدم،
 وإفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

(٣٦، ٣٥) ﴿وَقُلْنَا يَكَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
 حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ○ فَأَزَلَّهُمَا
 الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
 وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى قُلُوبِ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَذَبَتْ فِتْنَاتُ الْوَلَدِ أَنَّهَا لَا تَعْلَمُ

لما خلق الله آدم وفضلته، أتم نعمته عليه، بأن خلق منه
 زوجة، ليسكن إليها، ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة،

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى
 فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله
 تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال
 حكمة الله وعلمه فـ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماء
 الأشياء، ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي:
 الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالفصحة
 والمصغر كالقصية.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي: عرض المسميات ﴿عَلَى الْمَلَأِكَةِ﴾
 امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟.

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم
 وظنكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ أي: نزهك عن الاعتراض منا عليك،
 ومخالفة أمرك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بوجه من الوجوه ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾
 إياه، فضلاً منك وجوداً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ العليم:
 الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه، ولا يعزب مثقال
 ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.
 الحكيم: من له الحكمة التامة، التي لا يخرج عنها مخلوق،
 ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر
 بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق
 به، فأفروا، واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة
 أدنى شيء، واعتترفهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا
 يعلمون.

فيحتمل أن قال الله: ﴿يَكَادُمُ الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ بِأَسْمَاءِ﴾ أي: أسماء
 المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها.

﴿قُلْنَا يَا أَبْنَاءُ آدَمَ﴾ تبيين للملائكة فضل آدم عليهم،
 وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
 لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا، فلم
 نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى،
 ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً،
 وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود
 ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله
 وعلى آدم، قال: ﴿أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهذا الإباء منه
 والاستكبار، نتيجة الكفر الذي هو منظور عليه، فبينت حيث
 عداوته لله، ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات: إثبات الكلام لله
 تعالى، وأنه لم يزل متكلماً، يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء،
 وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

فرتب على اتباع هذه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف، ففاهما عن اتباع هداي، وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عن اتباع هداي، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداي، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب.

وهذا عكس من لم يتبع هداي، فكفر به، وكذب بآياتي ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها، ولا يفر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالأنسان في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي. ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمته عليهم وإحسانه فقال:

(٤٣-٤٠) ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي قَارِئٌ لِّكُمْ ۚ وَآيَاتِي مَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا بَاطِلًا إِنِّي لَبِئْسَ لِقَاؤُكُمْ فَاقُونَ ۚ وَلَا تَقْسِمُوا بِالْحَقِّ إِنِّي لَبِئْسَ لِقَاؤُكُمْ فَاقُونَ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الْوَاكِبِينَ ۚ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ الْمُرَادُ بِإِسْرَائِيلَ: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالاجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به، وبرسله،

والأكل منها رغداً، أي: واسماً هيناً ﴿حَيْثُ يَشْفَعُوا﴾ أي: من أي أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إِنِّي لَكَ الْغَوْصُ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۚ وَأَنكَلَا لَا تَقْسُوا فِيهَا وَلَا تُصْنَعُ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَٰذَا الشَّجَرَ﴾ نوع من أنواع شجر الجنة، الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء، [أو لحكمة غير معلومة لنا] ^(١) ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ دل على أن النهي للتحريم، لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما، ويزين لهما تناول ما نهايا عنه، حتى أرلهما، أي: حملهما على الزلل بتزيينه ﴿وَنَاسِيَهُمَا﴾ بالله ﴿إِنِّي لَنَكَا لَيْنَ التَّصْبِيحِ﴾ فاغترأ به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة.

﴿بَعَثْنَا بَعْضُ عَدُوٍّ﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يحد ويجهتد في ضرر عدوه ويواصل الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَلْبِسَ لَكُمْ عَدُوَّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، ﴿فَاتَّخِذُوهُ ذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِكُمْ وَعَمَّ لَكُمْ عَدُوٌّ يَسْتَلِفُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

ثم ذكر مثبتي الإيهاط إلى الأرض فقال: ﴿وَلَكَّرْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا﴾ أي: مسكن وقرار ﴿وَوَعَدْتُ إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم، ثم تستقلون منها للدار التي خلقتكم لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكنًا حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

(٣٧) ﴿فَلَقُلْ عَادُمْ﴾ أي: تلفف وتلفن، وألهمه الله ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وهي قوله: ﴿رَبَّنَا عَلَّمَنَا نَفْسَنَا﴾ الآية، فاعترف بذنبه، وسأل الله مغفرته ﴿فَنَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِ﴾ ورحمه ﴿إِنَّمَا هُوَ الْوَّابُّ﴾ لمن تاب إليه وأناب.

وتوبته نوحان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده، ومن رحمته بهم أن وقفهم للتوبة، وعفا عنهم وصفح.

(٣٩، ٣٨) ﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَعَلْنَا بَابًا يَّاتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هٰذَا فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كرر الإيهاط، ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فَلَمَّا يَّاتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هٰذَا﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويندبكم من رضائي

وحده، أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ أي: تخلطوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ﴾ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل، وكنتم بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل، وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته، وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكنتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو من دعاة جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهرًا وباطنًا ﴿وَبِالْزَّكَاةِ﴾ مستحقيها ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرُّكُوعِ﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدينية والمالية.

وقوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرُّكُوعِ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

(٤٤) ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأسمى^(١) العقل عقلًا لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك، قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

(١) في ب: وسي.

ورقاة شرعه، ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهو المجازاة على ذلك. والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ سَدَّ سَوَاءَ النَّبِيلِ﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشيته، أوجبت له خشيته امتثال أمره، واجتناب نهيه.

ثم أمرهم بالأمر الخاص، الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وَأَمَّاؤُا يَمَّا أَنْزَلْتُ﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه.

وذكر الداعي لإيمانهم به فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: موافقًا له لا مخالفًا ولا منافقًا، فإذا كان موافقًا لما معكم من الكتب، غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضًا فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم، بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضًا، فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به، كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه، فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَولَ كَافِرٍ يَدْعُ﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ يَدْعُ﴾ أبلغ من قوله: (ولا تكفروا به)، لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَا يَنقُذْكُمْ مِنْهَا وَلَكِنْ طُوبَىٰ لِمَنِ اتَّبَعَ﴾ أي: ما يحصل لهم من المناصب والمأكول، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها.

﴿وَأَنِسْ﴾ أي: لا غيري ﴿وَالْفُتُورِ﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله

الْحَقُّ

٧

الْحَقُّ

فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَبْنَیْ بِإِسْرَءِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتَ الّٰحِیِّ الَّتِیْ اَنْعَمْتَ عَلَیْکُمْ وَافْؤُوا بِعِدَّتِیْ اَوْفِ بِعَهْدِکُمْ وَاِتٰی قَارِعُوْنَ ﴿٣٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا اَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا اَوَّلَ کَافِرٍ بِهٖ وَلَا تَشْرَوْا بِاٰیٰتِیْ ثَمَنًا قَلِیْلًا وَاِتٰی قَافِلُوْنَ ﴿٣١﴾ وَلَا تَلْسِزُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُّوا الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴿٣٢﴾ وَاَقِمْوُا الصَّلٰوةَ وَءَاتُوا الزَّکٰوةَ وَارْکَعُوْا مَعَ الرّٰکِعِیْنَ ﴿٣٣﴾ اَتَاْمُرُوْنَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ اَنْفُسَکُمْ وَاَنْتُمْ تَتْلُوْنَ الْکِتٰبَ فَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿٣٤﴾ وَاَسْتَعِیْزُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَاِنَّهَا لَکَبِیْرَةٌ اِلَّا عَلَی الْحَشِیْعِیْنَ ﴿٣٥﴾ الَّذِیْنَ یُظَنُّوْنَ اَنْهُمْ مُّلتَمِعُوْا رَبِّهٖمْ وَاَنْهُمْ اِلَیْهِ رٰجِعُوْنَ ﴿٣٦﴾ یَبْنَیْ بِإِسْرَءِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتَ الّٰحِیِّ الَّتِیْ اَنْعَمْتَ عَلَیْکُمْ وَاِنِّیْ فُضِّلْتُکُمْ عَلَی الْعٰلَمِیْنَ ﴿٣٧﴾ وَاَقْضُوْا یَوْمًا لَا تَجْزِیْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئًا وَلَا یُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا یُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ یُنْصَرُونَ ﴿٣٨﴾

وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الآخر، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فافتقادهم بالأفعال أبلغ من اقتنائهم بالأقوال المجردة.

(٤٥-٤٨) ﴿وَأَسْتَعِیْزُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَإِنَّهَا لَکَبِیْرَةٌ اِلَّا عَلَی الْحَشِیْعِیْنَ ۝ الَّذِیْنَ یُظَنُّوْنَ اَنْهُمْ مُّلتَمِعُوْا رَبِّهٖمْ وَاَنْهُمْ اِلَیْهِ رٰجِعُوْنَ ۝ یَبْنَیْ بِإِسْرَءِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتَ الّٰحِیِّ الَّتِیْ اَنْعَمْتَ عَلَیْکُمْ وَاِنِّیْ فُضِّلْتُکُمْ عَلَی الْعٰلَمِیْنَ ۝ وَاَقْضُوْا یَوْمًا لَا تَجْزِیْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئًا وَلَا یُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا یُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ یُنْصَرُونَ﴾ أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحسب النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وَرَبَّهَا﴾ أي: الصلاة ﴿لَکَبِیْرَةٌ﴾ أي: شاقة ﴿اِلَّا عَلَی الْحَشِیْعِیْنَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة، لأن الخشوع، وخشية الله، ورجاء ما عنده، يوجب له فعلها، متشراحاً صدره، لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمانيته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلاً وانقراضاً، وإيماناً به وبقائه. ولهذا قال: ﴿الَّذِیْنَ یُظَنُّوْنَ﴾ أي: يستيقنون ﴿اَنْهُمْ مُّلتَمِعُوْا رَبِّهٖمْ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَأَنْتُمْ اِلَیْهِ رٰجِعُوْنَ﴾ فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، ومن لم يؤمن بقاء ربه، كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

ثم كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته، وعظاً لهم وتحذيراً وحثاً.

وخوفهم يوم القيامة الذي ﴿لَا تَجْزِیْ فِيهِ﴾ أي: لا تغني

﴿نَفْسٌ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿شَيْئًا﴾ لا كبيراً ولا صغيراً، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه، ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا﴾ أي: النفس، شفاعة لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه، وكان على السبيل والسنّة، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فداء ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِیْنَ ظَلَمُوا مَا فِی الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّمَّا ظَنُّوْا لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَقَابِ﴾ ولا يقبل منهم ذلك ﴿وَلَا هُمْ یُنْصَرُونَ﴾ أي: يدفع عنهم المكروه، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه.

فقوله: ﴿لَا تَجْزِیْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئًا﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿وَلَا هُمْ یُنْصَرُونَ﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقل^(١) به النافع. ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه يعوض كالعادل، أو بغيره كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن يقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين، لعلمه أنهم لا يملكون له متقال ذرة من النفع،

(١) في ب: المستغیل.

الْبَقَرَةُ

٩

الْبَقَرَةُ

وَأَدْخَلْنَا أَدْنَىٰ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَأَدْخَلُوا الْآبَابَ سَجْدًا ۖ وَفُتُوهُوا حِطَّةً نَعْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَرَّيْدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ قَبْدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ
السَّمَاءِ يَمَازُ كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَشْفَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ
أثنَا عَشْرَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَبَهُمْ كَلُوا
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَتَعَوَّذُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْمُوْنَ لَنْ نَصْرِي عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدْ قَانَا رَيْكَ
يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا وَقِيلِهَا وَقِيلِهَا
وَعَدَيْهَا وَبَقِيلِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَذَىٰ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا وَمَضَىٰ فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَاءً أَنْتُمْ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا مِنْ
اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَبْغِي الْحَقَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

المذكورة، **﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾** وهو المن والسلوى، فهذا غير
لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مصر هبطتموه
وجدتموها، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم، فهو خير
الأطعمة وأشرفها، فكيف تطبلون به بدلاً؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم
واحتمارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم من جنس عملهم،
فقال: **﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾** التي تشاهد على ظاهر أبدانهم
﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم
عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهمهم أردأ الهمم.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا مِنْ اللَّهِ﴾ أي: لم تكن غيبتهم التي رجعوا
بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فيست الغيبة
غنيبتهم، وبست الحالة حالتهم.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي استحقوا به غضبه **﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ﴾** الدالات على الحق، الموضحة لهم، فلما كفروا
بها عاقبهم بغضبه عليهم، **﴿وَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِالَّذِينَ يَبْغِي
الْحَقَّ﴾**.

وقوله: **﴿يَبْغِي الْحَقَّ﴾** زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن

تكون لهم عزاً ووطناً ومسكناً، ويحصل لهم فيها الرزق
الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل،
وهو دخول الباب **﴿سَجْدًا﴾** أي: خاضعين ذليلاً، وبالقول،
وهو أن يقولوا: **﴿حِطَّةً﴾** أي: أن يحط عنهم خطاياهم
بسؤالهم إياه مغفرته.

﴿نَعْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ بسؤالكم المغفرة **﴿وَسَرَّيْدُ
الْمُحْسِنِينَ﴾** بأعمالهم، أي: جزاء عاجلاً وأجلاً.

﴿قَبْدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم، ولم يقل: فبدلوا لأنهم لم
يكونوا كلهم بدلو **﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾** فقالوا بدل
حِطَّةً: حبة في حطة، استهانة بأمر الله، واستهزاء، وإذا بدلو
القول مع خفته فتبدلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا
دخلوا يزحفون على أديبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر
سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ رِجْزًا﴾** أي: عذاباً **﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾** بسبب فسقهم وبغهم.

﴿وَإِذْ أَسْتَشْفَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ قلنا اضرب بِعَصَاكَ
الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ أثنَا عَشْرَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَبَهُمْ
كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَتَعَوَّذُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ،
﴿أَسْتَشْفَىٰ﴾ أي: طلب لهم ماء يشربون منه **﴿قُلْنَا اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾** إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم
جنس، **﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ أثنَا عَشْرَ عَيْنًا﴾** وقابل بني إسرائيل
اثنا عشرة قبيلة، **﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾** منهم **﴿مِشْرَبَهُمْ﴾**

أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم
بعضهم بعضاً، بل يشربونه متهئين لا متكدرين، ولهذا قال:
﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي: الذي آتاكم من غير سعي ولا
تعب **﴿وَلَا تَتَعَوَّذُوا فِي الْأَرْضِ﴾** أي: تخبروا على وجه الفساد.

**﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْمُوْنَ لَنْ نَصْرِي عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدْ قَانَا رَيْكَ
يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا وَقِيلِهَا وَقِيلِهَا
وَعَدَيْهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَذَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا
مِضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَاءً وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا
بِغَضَبِنَا مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَبْغِي الْحَقَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** أي:

واذكروا، إذ قلتم لموسى على وجه التملل لنعم الله والاحتقار
لها: **﴿لَنْ نَصْرِي عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدْ﴾** أي: جنس من الطعام، وإن
كان كما تقدم أنواعاً لكنها لا تتغير **﴿قَانَا رَيْكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا
تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا﴾** أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على
ساقه، **﴿وَقِيلِهَا﴾** وهو الخيار **﴿وَقِيلِهَا﴾** أي: ثومها والعدس
والبصل معروف.

قال لهم موسى: **﴿أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَذَىٰ﴾** وهو الأطعمة

الْبَقَرَةُ

١٠

الْبَقَرَةُ

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ
 مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
 أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
 بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
 فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَبَعَلْنَا أَسْوَكَالٍ
 بَيْنَ يَدَيْهَا وَخَلَفْنَاهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
 مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ جَدُّنَا
 هُزُوا قَالَ أَهَوَىٰ أَعُودٌ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا
 ادْعُ لَنَارِكَ لِيَبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِصٌ
 وَلَا يَكَرِعُ وَنَاءٌ يَّتَّبِعُهَا أَهْلُهَا وَقِيْلَ لَهَا لِيَبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْ تَوَلَّيْنَا
 قَالُوا ادْعُ لَنَارِكَ لِيَبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْ تَوَلَّيْنَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
 إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٨﴾

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بسمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم.

وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم، لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء.

وذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه.

ولما كان أيضًا، ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم، ذكر تعالى حكمًا عامًا يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويزيل التوهم والإشكال، فسيحان من أودع في كتابه ما يبهير عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى ويوحى بني إسرائيل بما فعل سلفهم: (٦٤، ٦٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا

قَبِلَ النَّبِيُّ لَا يَكُونُ بَاقٍ، لَكِنْ ثَلَا يَظُنُّ جَهْلَهُمْ وَعَدَمَ عِلْمِهِمْ. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وَصَكَّأُوا يَتَذَكَّرُونَ﴾ على عباد الله، فإن المعاصي يجز بعضها بعضًا، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت إليهم لقوائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فيئس الله من أحوال سلفهم التي قد تفرقت عندهم، ما يبين به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم - مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم - فكيف الظن بالمخاطبين؟!

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثًا من الجميع؛ لأن ما يعمل به بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمل به الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للمعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

(٦٢) ثم قال تعالى حكمًا بين الفرق الكتابية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة؛ لأن الصابئين، الصحيح أنهم من جملة فرق النصارى، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى، والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وصدقوا برسولهم، فإن لهم الأجر العظيم، والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وأما من كفر منهم بالله ورسوله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن.

حين قتلتم قتيلاً، وادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلستم في قتله، حتى تقامق الأمر بينكم، وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره، وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿الْتَجِئْنَا هُرُورًا﴾ فقال نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس.

وأما العاقل، فيرى أن من أكبر العيوب المزوية بالدين والعقل، استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده، فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا:

﴿أَنُفِ لَكَ رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ؟﴾ أي: ما سنها؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِشَ﴾ أي: كبيرة ﴿وَلَا يَكُرُّ﴾ أي: صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْصَلُوا مَا تُمَوَّرُونَ﴾ واتركوا التشديد والتعنت. ﴿قَالُوا أَنُفِ لَكَ رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْهَأُ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي: شديد ﴿كُشْرُ الظُّطِيرِ﴾ من حسنها.

﴿قَالُوا أَنُفِ لَكَ رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ؟﴾ أي: البقرة تنسب علياً فلم نهتد إلى ما تريد ﴿وَلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَهْمَدُونَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾ أي: مذلة بالعمل، ﴿يُخِيرُ الْأَرْضَ﴾ بالحرارة، ﴿وَلَا تَسْمِي لَزَنَ﴾ أي: ليست بساقية، ﴿مُسَلَّمَةً﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

﴿قَالُوا أَلَمْ يَجْعَلْ يَدْعُو﴾ أي: بالبيان الواضح، ولهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا: «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضاً إليها. ﴿فَدَبَّحُوا﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم: اضربوا القتل ببعضها، أي: بعضو منها، إما بعضو معين، أو أي عضو منها، فليس في تعيينه فائدة، فآخبر بقاتله، وكان في إحيائه - وهم يشاهدون - ما يدل على إحياء الله الموتى ﴿أَعْلَمُكُمْ تَمَوتُونَ﴾ فتزجرون عن ما يضركم.

يَدْعُو وَادْعُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٥ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ يَدْعُو ذَلِكَ قَوْلًا فَضَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحِمْتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٥ أي: واذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتحذير لهم، برفع الطور فوقهم^(١)، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا مَاتَكُمْ﴾ من التوراة ﴿يَدْعُو﴾ أي: بجد واجتهاد، وصبر على أوامر الله ﴿وَادْعُوا مَا فِيهِ﴾ أي: ما في كتابكم، بأن تتلوه وتعلموه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وسخطه، أو تكونوا من أهل التقوى.

فيعد هذا التأكيد البالغ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم، وكان ذلك موجباً لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

(٦٦، ٦٥) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي النَّبِيِّ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا فِرَةً خَاسِرِينَ ٥ جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولقد تقرر عندكم حالة ﴿الَّذِينَ اخْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي النَّبِيِّ﴾ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسولة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَسَلَّمْتَهُمْ فِي الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً لِّلْبَصْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي النَّبِيِّ﴾ الآيات.

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم، أن غضب الله عليهم، وجعلهم ﴿فِرَةً خَاسِرِينَ﴾ حقيرين ذليلين.

وجعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

(٦٧-٧٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِذْ أَنَا اللَّهُ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تَدْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَجِدْنَا هُرُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٥ قَالُوا أَنُفِ لَكَ رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِشَ وَلَا يَكُرُّ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْصَلُوا مَا تُمَوَّرُونَ ٥ قَالُوا أَنُفِ لَكَ رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْهَأُ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا كُشْرُ الظُّطِيرِ ٥ قَالُوا أَنُفِ لَكَ رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ؟ إِذْ الْبَقَرُ تَنَسَّبَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْمَدُونَ ٥ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُخِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْمِي لَزَنَ مُسَلَّمَةً لِّرَبِّهَا قَالُوا أَلَمْ يَجْعَلْ يَدْعُو﴾ أي: بالحق الواضح، ولهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا: «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضاً إليها. ﴿فَدَبَّحُوا﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

الْحَاقَّةُ

١١

الْحَاقَّةُ

قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّنَا يَجِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَرْحَامَنَا إِنَّ الْبَقَرَةَ كُنْهٌ عَنَّا وَإِنَّا
 إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ أَذَلُّ لَكُمْ
 شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا
 أَتَنَزَّحْتُمْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِذْ
 قُلْتُمْ نَفْسًا قَازِنَةً ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٧﴾
 فَعَلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتِ وَرُبِّيكُمْ
 ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 فَمِثْلَ الْحِجَارِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارِ لَمِثْلَ نَبْجِ
 مِنْهُ الْآنْهَرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمِثْلَ نَبْجٍ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَمْلًا وَإِنَّ
 مِنْهَا لَمِثْلَ نَبْطٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
 ﴿٧٩﴾ أَفَتَعْمَلُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا أَكْثَرًا وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ
 يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ الْفُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا
 وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمَاتٍ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُحَاجُّوهُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾

فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضنون له معاني ما أرادها الله، ليوهموها الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم، يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعاد الأشياء.

ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال: ﴿وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ فآظموا لهم الإيمان قولاً بالسهم، ما ليس في قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم، قال بعضهم لبعض: ﴿اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمَاتٍ﴾ أي: انتظروا لهم الإيمان وتخيرونها أنكم مثلهم، فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟

يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقل، فتتكون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿ثُمَّ بَدَّلْ دِيكَ﴾ أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة، وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب واقعياده.

ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: إنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل».

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ مِنَ الْحِجَارِ لَمِثْلَ نَبْطٍ مِنْهُ الْآنْهَرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمِثْلَ نَبْجٍ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَمْلًا وَإِنَّ مِنْهَا لَمِثْلَ نَبْطٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فبهذه الأمور فضلت قلوبكم.

ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بها حافظ لصنيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه - وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه - تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»، فإذا كان مرتبتها أن تكون مشکوكاً فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به، والقطع بالفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجعولة، التي يغلب على الظن كذبها، أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعاً بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

(٧٥-٧٨) ﴿أَفَتَعْمَلُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا أَكْثَرًا وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ○ وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمَاتٍ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوهُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ○ أَوْ لَا يَسْمَعُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا يَكْتُمُونَ وَمَا يَكْتُمُونَ ○ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا لَا يَسْمَعُونَ الْكِتَابَ إِلَّا آتَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَكْتُمُونَ ○ هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم، وحالتهم^(١) لا تقتضي الطمع فيهم،

مخالفة في الحق الذي يقوله.

وهذه الأمور كثيرة جدًا في أهل الأهواء جملة كالرافضة، وتفضيلاً مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء.

(٨٠-٨٢) ﴿وَقَالُوا لَنْ نَحْكُمَ بِكَ بِأَمْرٍ إِلَّا أَتَيْنَاكَ مَعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَعْبُدُونَ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۚ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْكَفَرِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَا الْفَالِغِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ ذَكَرَ أَفْعَالَهُمُ الْقِيحَةَ، ثم ذكر - مع هذا - أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه، وأنهم لن تسهم النار إلا أياماً معدودة، أي: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن.

ولما كان هذا مجرد دعوى، رد الله تعالى عليهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿أَتَعْبُدُونَ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بالإيمان به ويرسله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما:

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً، فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه، فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخرابهم وعذابهم.

وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً، لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولتكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلفون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات.

ثم ذكر تعالى حكماً عاماً لكل أحد، يدخل به بنو إسرائيل وغيرهم، وهو الحكم الذي لا حكم غيره، لا أمانهم ودعاويهم بصفة الهالكين والناجين، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرت، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه، والمراد به - هنا - الشرك، بدليل قوله: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي: أحاطت بعاملها، فلم تدع له مفضلاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته.

﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْكَفَرِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسِلُونَ وَمَا يُكَلِّمُونَ﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلمتهم، فيظهر لعباده ما أنتم عليه.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أُتِيُوا﴾ أي: عوام، ليسوا من أهل العلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ﴾ أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

فذكر في هذه الآيات علماءهم، وعوامهم، ومناقضهم، ومن لم يتناقض منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم، فلا مطعم لكم في الطائفتين.

(٧٩) ﴿قَوْلَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ يَشْتَرُوا بِهِ سَمًا قَلِيلًا ۚ قَوْلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَشْتَرُونَ بِحَقِّهِمْ وَيَوْمَئِذٍ هُمْ كَاتِبِينَ﴾ توعدهم تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وتكمين الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿يَشْتَرُوا بِهِ سَمًا قَلِيلًا﴾ والدنيا كلها - من أولها إلى آخرها - ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلمهم من وجهين:

من جهة تلبس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطال الباطل، أعظم ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال: ﴿قَوْلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَشْتَرُونَ بِحَقِّهِمْ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَيَوْمَئِذٍ هُمْ كَاتِبِينَ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ إلى ﴿يَكْتُمُونَ﴾ فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصله من البدع الباطلة.

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانياً، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتاباً بيده، مخالفاً لكتاب الله، لينال به دنيا، وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كتب ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتج به

١٢

الْبَقَرَةُ

الْبَقَرَةُ

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْهُمْ
إِلَّا يَنْظُرُونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلِيلِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
قَوْلِيلَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا أَنْ تَسْأَلَنَا النَّارُ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قُلْ
أَتُخَذَ مِنْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ يَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ كُلٌّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا لَئِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار،
ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بَالِيٍّ مِنَ
أَتْسَرٍّ﴾.

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون
الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا
شامت، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم،
مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق،
امتثالاً لأمر الله، ورجاء لثوابه. ثم أمرهم بإقامة الصلاة،
وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص
للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر
إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله على عباده أن
أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ الموائيق عليهم
﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى، وله
نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع
في هذه الأوامر، فنعدو بالله من الخذلان.
وقوله: ﴿إِلَّا لَئِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ هذا استثناء، لتلا يومهم

ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو
حديث صحيح على قوله الباطل، فلا بد أن يكون فيما احتج به
حجة عليه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم
الآخر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ولا تكون الأعمال صالحة إلا
بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله،
فحاصل هاتين الآيتين، أن أهل النجاة والفوز أهل الإيمان
والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله،
الكاफرون به.

(٨٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ
حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وهذه الشرائع من أصول الدين،
التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتغالها على المصالح
العامية في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين،
ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَأَعِزُّدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا﴾ إلى آخر الآية.

فقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هذا من قسوتهم أن
كل أمر أمروا به، استمعوا، فلا يقبلونه إلا بالآيمان الغليظة
والعهد الموثقة.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهي عن
الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم
يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال:
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً، ولهذا
يعم كل إحسان قولني وفعلني، مما هو إحسان إليهم، وفيه
النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة،
لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشئ نهى عن ضده.
وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرماً، وترك
الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق
بالأول، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين،
وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد، كما
تقدم.

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ
حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن
المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك
من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به
على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون

الْبَقَرَةُ

١٣

الْبَقَرَةُ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْفُكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ ﴿٨٤﴾
 ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا
 مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَنْظُرُوهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْإِنْفِ وَالْعُدْوَانِ
 وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أَسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ
 إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُوهُمْ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ
 وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ
 بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ وَأَيَّدْنَاهُ
 بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ
 اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
 قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَأْيُومُونَ ﴿٨٨﴾

من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يدفع عنهم مكروه.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
 وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾
 يحسن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى،
 وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسول الذين يحكمون
 بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام،
 وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
 الْقُدُسِ﴾ أي: قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه
 الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿بِمَا لَا
 تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم ﴿فَرِيقًا﴾ منهم
 ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فقدّمتم الهوى على الهدى، وآثرتم
 الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم، عصمهم الله وثبتهم.

(٨٤-٨٦) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْفُكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا
 تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ ۝ ثُمَّ أَنْتُمْ
 هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ
 تَنْظُرُوهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْإِنْفِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أَسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ
 مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُوهُمْ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا
 تَعْمَلُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ
 عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وهذا الفعل المذكور في هذه
 الآية، فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن
 الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبث النبي ﷺ
 مشركين، وكانوا يقتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم
 الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو
 قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا
 إذا اقتتلوا، أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم^(١)
 الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه
 من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب
 أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم
 بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن
 لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا
 وجدوا أسيراً منهم، وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالآخر
 وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: ﴿أَفْتُوهُمْ
 بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وهو فداء الأسير ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو
 القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر،
 واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى:
 ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
 وقد وقع ذلك، فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من
 قتل، وسب من سبهم، وأجل من أجل ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
 يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أعظمه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا
 تَعْمَلُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض
 الكتاب، والإيمان ببعضه، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ توهّموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم
 عار، فاختاروا النار على العار، فلهاذا قال: ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ
 الْعَذَابُ﴾ بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت

الْبَقَرَةُ

١٥

الْبَقَرَةُ

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُعَمَّرٍ فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلِ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَآ عَاهِدًا وَاعْهَدَا عَبْدَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلَ أَكْثَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشِّرَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يياهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم، وهو تمني الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا من ذلك. فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحاداة لله ورسوله، مع علمهم بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة. فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب. ثم ذكر شدة محبتهم للعالم، فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنوا حالة هي من المحالات، والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور، لم يغن عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من العذاب شيئاً. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

(١) في ب: وشربها.

حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينه، ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته، ثم يأتي هو لبيته وحجته، فيقدح فيها ويكذب بها، أليس لهذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن، كفراً بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم بالإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿قُلْ قَتَلْتُمُوهُ أَبَدًا وَاللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ: أي: بالادلة الواضحات المبينة للحق ﴿فَإِذَا كَفَرْتُمْ إِلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: أي: بعد مجيئه ﴿وَأَنْتُمْ كَافِرُونَ﴾ في ذلك ليس لكم عذر. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾: أي: سماع قبول وطاعة واستجابة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾: أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأَشْرِكُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْفِتْرَةَ﴾: أي: صنع حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشربها^(١) بسبب كفرهم.

﴿قُلْ يَسِّرْهَا يَأْتِرْكُمْ بِهِ إِسْرَافُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أي: أنتم تدعون الإيمان وتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله، لما غاب عنكم موسى نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمت بالقول، ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيت، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فيسبب الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان، والكفر برسل الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

(٩٤-٩٦) ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَأَعْرَضَ النَّاسُ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُعَمَّرٍ فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. أي: ﴿قُلْ لَهُمْ عَلَى وجه تصحيح دعواهم: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾. ولهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا

مِنْهُمَا مَا يَمُوتُ بِهِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَمَا هُمْ بِبَارِعِينَ بِهِ مِنْ
أَحَدٍ إِلَّا يَذُنُ اللَّهُ أُمَّةً يُرِيدُ أَنَّ يَفْضَحَهُمْ وَلَا يَنْقُصَهُمْ وَلَقَدْ
عَلَّمُوا لَنَا آيَاتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَفَتَوْا
بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ○ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَوْا
لَعَثَابَ دَنِّ عَذَابِ اللَّهِ حَتَّىٰ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ○ أي: ولما جاءهم
هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما
معه، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابتهم، فلما كفروا
بهذا الرسول وبما جاء به ﴿بَدَّ قَرْيَةً مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَّا يَكْتُوبَ
كَتَبَ اللَّهُ﴾ الذي أنزل إليهم، أي: طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَاءَ
ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من
الجاهلين، وهم يعلمون صدقه، وحقه^(١) ما جاء به.

تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم
شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفرا
بكتابتهم من حيث لا يشعرون.

ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك
ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم يتنع، ابتلي بالاستغفال بما
يضره، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن
ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه
ورجائه، ومن لم يتق ماله في طاعة الله، أنفق في طاعة
الشیطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك
الحق ابتلي بالباطل.

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو
الشياطين وتخلت من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت
الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان
يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم.

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه
الصادق في قلبه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي: بتعلم السحر،
فلم يتعلمه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ بذلك.

﴿يَعْلَمُونَ أَنَّاسَ الْيَتَرِ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء
بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملوك
الكاثنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر
امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر.

﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ ينصحاء، و ﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فنهايتها عن
السحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على
وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجها إلى من برأه الله منه

(١) في ب: التعجب. (٢) في ب: حقيقة.

(٩٨، ٩٧) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ
بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ○
مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَلِلَّهِ وَلِلَّهِ وَلِلَّهِ وَلِلَّهِ وَلِلَّهِ وَلِلَّهِ وَلِلَّهِ
عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ ○ أي: قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي
منعهم من الإيمان أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره
من ملائكة الله، لأنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منك
تناقض وتهافت، وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو
الذي نزل القرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على
الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول
محض.

مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل - مصدقاً لما تقدمه
من الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة
من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي
لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله
وآياته، وعداوة الله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا
لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق، على رسل الله،
فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به،
والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

(٩٩) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفَاسِقُونَ﴾ يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾
تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من
عانده، وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغاً
عظيماً، ووصلت إلى حالة لا يمنع من قبولها إلا من فسق عن
أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

(١٠٠) ﴿أَوْكَلْنَا عَهْدًا عَهْدًا قُرْبَىٰ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا فيه التعجب^(١) من كثرة معاهداتهم،
وعدم صبرهم على الوفاء بها.

﴿كُلَّمَا﴾ تفيد التكرار، فكلماً وجد العهد ترتب عليه
النقض. ما السبب في ذلك؟

السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي
أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق إيمانهم، لكانوا مثل من
قال الله فيهم: ﴿يَرْىَ الْمُؤْمِنِينَ إِجَالًا صَعُودًا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

(١٠١-١٠٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِمَا مَعَهُمْ بَدَّ قَرْيَةً مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَّا يَكْتُوبَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ
ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ○ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ
سُلَيْمَانٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا كَفَرُوا بِمُؤْمِنٍ
أَنَّاسَ الْيَتَرِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُنُوتٌ وَمُرُوتٌ وَمَا
يَعْلَمَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَعْلَمُونَ

وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لتلا يكون لهم حجة.

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الانبياء والمرسلين، وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفسد السحر، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿وَيَعِدُ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدي، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة.

﴿فَالَمْ يَزَلْ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر، ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدورية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالقوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين.

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دنيوية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهَا إِنَّمَا كَثِيرٌ مِّنْغَنٍ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْرَهٌ مِّنْ نَّفْسِهِمَا﴾ فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها، كما أن المأمورات، إما مصلحة محضة، أو خيرها أكثر من شرها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَكِنِ اشْتَرَوْهُ﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة ﴿مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿وَلَيْشَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ علماً يشمر العمل ما فعلوه.

(١٠٤، ١٠٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَتَقُولُوا نَحْنُ نَحْمِلُ الْعَذَابَ أَلَيْسَ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعليمهم أمر الدين: ﴿رَعَيْنَا﴾ أي: راع أحوالنا، فيقصدون

وَأَتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا وَيَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ هَرُونَ وَمُوسَىٰ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا لَهُمْ بِضَآرٍ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُونَ مَا يَصْرِفُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لِمُتُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَتَقُولُوا نَحْنُ نَحْمِلُ الْعَذَابَ أَلَيْسَ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

بها معنى صحيحاً.

وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائر، إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب، واستعمال الالفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الالفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن، فقال: ﴿وَقُولُوا نَحْنُ نَحْمِلُ الْعَذَابَ﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور.

﴿وَأَسْمَعُوا﴾ لم يذكر المسموع، ليعلم ما أمر باستماعه، فدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة، لفظاً ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة.

ثم توعّد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع، وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يدورون ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً ﴿مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ حسداً منهم، وبغضاً لكم أن يختصكم بفضلهم، فإنه ﴿ذُو

أَلْفَقْطِلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٦﴾

ومن فضله عليكم إزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.

(١٠٦، ١٠٧) ﴿مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذَوِي اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
النسخ، هو النقل، حقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه وكان اليهود ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهو محض.

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ ﴿وَمِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: ننسها العباد، فنزيلها من قلوبهم ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ وأنفع لكم ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾.
فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول، لأن فضله تعالى يزداد، خصوصاً على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل.

وأخبر أن من قدح في النسخ، فقد قدح في ملكه وقدرته، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإذا كان مالكا لكم، متصرفاً فيكم، تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهي، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشعه لعباده من الأحكام.

فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟ وهو أيضاً، ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم. ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم، من حيث لا يشعرون بلفظه.

(١٠٨-١١٠) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ وَالْإِثْمَ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسْبًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا ۝ وَأَسْأَلُكُمْ عَنْ يَوْمِ الْآزْمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْوَمُوا لِأَنْتُمْ عَنْ حَرِّ جَهَنَّمَ إِنَّكُمْ إِذًا لَأَنْتُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ينهى الله المؤمنين أو اليهود، بأن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذَوِي اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ وَالْإِثْمَ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾
﴿وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسْبًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا ۝ وَأَسْأَلُكُمْ عَنْ يَوْمِ الْآزْمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْوَمُوا لِأَنْتُمْ عَنْ حَرِّ جَهَنَّمَ إِنَّكُمْ إِذًا لَأَنْتُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

يسألوا رسولهم: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ والمراد بذلك أسئلة التعتن والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُمِزَّكَ عَنْهُمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبُدُّ لَكُمْ شُؤْمٌ﴾ فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿تَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ويقرهم^(١) عليه، كما في قوله: ﴿يَسْأَلُوكَ عَنِ الْكَفْرِ وَالْمَيْمِرِ﴾، ﴿يَسْأَلُوكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ وَالْإِثْمَ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال، أنهم ودوا ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾

يَسْمَعُونَ يَتْلُوهُمْ قَالَهُ بِحُكْمٍ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٤﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد، إلى أن بعضهم ضلَّ بعضاً، وكثر بعضهم بعضاً، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه ^(١) لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدَّق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتلأ أواصره، واجتنب نواحيه، ومن عداهم فهو هالك.

(١١٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِبِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا، ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات.

﴿وَسَعَىٰ﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقديرها، والخراب المعنوي، منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب القيل، وقريش، حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة، فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرًا، حتى أذن الله له في فتح مكة، ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الْأُولَىٰ أَمْثَلًا﴾ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِكَذِبِهِ. هكذا.

وأصحاب القيل قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى سخط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه.

وهكذا كل من اتصف بوصفهم، فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر.

واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد، لهم خزي في الدنيا أي: فضيحة كما تقدم، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيمانًا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة

وسعوا في ذلك، وأعملوا المكائد، وكيدهم راجع عليهم، [كما] قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتَابِ يَأْمُرُ بِالَّذِي هُوَ يُنْهَىٰ عَنِ الْفِيلِ أَمْ أَمْرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفِيلِ وَأَنذَرُوا عِبَادَهُ أَن تَعْلَمَهُمْ بِرِجْعِهِمْ﴾ وهذا من حديد الصادر من عند أنفسهم.

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم، والصفح، حتى يأتي الله بأمره.

ثم بعد ذلك أتى الله بأمره بإيham بالجهاد، فشفى الله أنفُس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم أمرهم الله [بالاشتغال في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضع عند الله، بل يجدون عنده وافرًا موفرًا قد حفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١١١، ١١٢) ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بَلْ مِّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى.

فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أمانى غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى، لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا، فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان، لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، عُلم كذبهم بتلك الدعوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿يَسِّرْ﴾ أي: ليس بأمانيكم ودعاويكم، ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: أخلصه أعماله، متوجهًا إليه بقلبه ﴿وَقَرُّهُ﴾ مع إخلاصه ﴿مُحْسِنٌ﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم، فلهم أجرهم عند ربهم وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب.

وفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهاالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

(١١٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَ الْنَصَارَىٰ تِلْكَ الْفِتْنَةُ الَّتِي هِيَ وَقَالَتِ الْنَصَارَىٰ لَيْسَ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا

الْحَسْبُ

١٨

الْحَسْبُ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَةُ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَةُ
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ
اللَّهِ أَنْ يَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ
لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا بِالْأَذْنِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَاللَّهُ الشَّرِيفُ الْكَرِيمُ
فَأَيُّكُمْ تَزُولُوا فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ
وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلِّ لَهٍ فَنِدْنُونَ ﴿١١٩﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِذَا فَصَّقَ أَمْرًا فَلَا يَمْسُ بِقَوْلِهِ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ
قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشْتَكِيهِمْ فَلَوْهُمْ
قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ ﴿١٢١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٢٢﴾

مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك الفاهر، وأتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام، وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص، وهو قنوت العبادة، فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

ثم قال: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما على وجه قد أبقتهما وأحسنهما على غير مثال سبق ﴿وَإِذَا فَصَّقَ أَمْرًا فَلَا يَمْسُ بِقَوْلِهِ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه.

(١١٩، ١٢٠) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشْتَكِيهِمْ فَلَوْهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾ أي: أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم. أي: قال الجهلة من

الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ مَاتَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾.

وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

(١١٥) ﴿وَاللَّهُ الشَّرِيفُ الْكَرِيمُ فَأَيُّكُمْ تَزُولُوا فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: ﴿وَاللَّهُ الشَّرِيفُ الْكَرِيمُ﴾ خصهما بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاريها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.

﴿فَأَيُّكُمْ تَزُولُوا﴾ وجوهمكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يبتين له الخطأ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا.

وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه ﴿فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ عَلَيْهِ﴾ فيه إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن الله وجهاً لا تشبهه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسر أترككم ونياتكم فمن سعت وعلمه، وشع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

(١١٦، ١١٧) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَهٍ فَنِدْنُونَ﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا فَصَّقَ أَمْرًا فَلَا يَمْسُ بِقَوْلِهِ كُنْ فَيَكُونُ ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزهه وتقديسه عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتره نقص بوجه من الوجوه.

ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالممالك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده،

دلیل علی معرفۃ اصحابها و صدقہم و کذبہم .

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بَشِيرًا﴾ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿نَذِيرًا﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي.

﴿وَلَا تُنَالُ عَنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم،
إنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

(١٢٠) ﴿وَلَوْ رَضَخَ عَلَيْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبْغِيَ بَيْنَهُمْ قُلُوبًا هَدَى اللَّهُ هَؤُلَاءِ هُؤُلَاءِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْآيَاتِ كَاذِبُونَ﴾^١ مَا كَانَتْ مِنَ اللَّهِ مِنْ لَوْيَةٍ وَلَا تَصْمِيرٍ^٢ يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاء إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلْتُ بِهِ هَؤُلَاءِ﴾.

وأما ما أنتم عليه، فهو الهوى بدليل قوله: ﴿وَكَيْفَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَدَأَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْإِلَهِ مَا كَانَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَرْدٍ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فهذا فيه النبي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبيه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ثم قال:

(١٢١-١٢٣) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُدْعَوْنَ بِهِ وَاذُنًا نَّكَرًا ۖ وَمِنْ نَّكَرَتِهِ قُلُوبُهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِرُونَ ۝ يَتْلُوهُ إِسْرَافًا وَتُؤَاتُوا لَهَا غِيَاثًا ۖ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا نُهُوا عَنِ الذَّلٰلٰتِ عَلٰى الْعَالَمِينَ ۝ وَأَنفَعُوا بَيْنَ يَدَيْهِمْ غَزَاةً ۖ وَكَانُوا يَكْفُرُونَ ۖ فَلَمَّا جَاءَ الْغَزَاةَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّهِمْ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَقِّ وَكَانُوا هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۖ فَخَرَّبُوا فِي الْأَرْضِ عَن قَوْمِهِمْ ۚ فَذٰلِكَ يَكْفُرُونَ ۚ وَلَا يَقُولُ لِمَ كُنَّا كُفَرًا ۚ وَلَا يَتَنَبَّأُونَ لِمَ كُنَّا كُفَرًا ۚ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِمَ كُنَّا كُفَرًا ۚ وَلَا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمُ الَّذِي خَلَقَ الْفُلُكُم مِّن مَّاءٍ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرَةَ أَثَرًا ۖ وَإِذْ كُنْتُمْ لَهَا كُفْرَانًا ۚ فَلَمَّا رَفَعْنَا الْوَاوِيَّةَ فَنَادَىٰ فِيهَا صَوْتَ فَكُنَّا لَهَا كُفْرَانًا ۚ فَلَمَّا رَفَعْنَا الْوَاوِيَّةَ فَنَادَىٰ فِيهَا صَوْتَ فَكُنَّا لَهَا كُفْرَانًا ۚ فَلَمَّا رَفَعْنَا الْوَاوِيَّةَ فَنَادَىٰ فِيهَا صَوْتَ فَكُنَّا لَهَا كُفْرَانًا ۚ فَلَمَّا رَفَعْنَا الْوَاوِيَّةَ فَنَادَىٰ فِيهَا صَوْتَ فَكُنَّا لَهَا كُفْرَانًا ۚ

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾^١
وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

(١٢٤، ١٢٥) ﴿وَإِذْ أَسْلَمَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي

أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا كما كلم الرسل ﴿أَوْ تَأْتِينَا بِنَاءٍ﴾ يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بمقولهم الفاسدة، وأرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾، ﴿يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُخَلِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الْآيَةِ.

وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ ۚ أَوْ يُنْفِثَ إِلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَمْ جَنَّةٌ﴾، والآيات، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ بَيِّنَاتٌ﴾، والآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعتت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤا من الآيات بما يؤمن بمثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْتُونَ﴾.

فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ والثالث دخل في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتديلهم للأنيان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عنتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقروا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملاً، لأنه حكيم عليهم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته عبادته أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فيمجدد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله.

وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهدية قبل البعثة، ونشؤه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها، وسَبَر أحواله عَرَفَ أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر

الطَّالِبِينَ

١٩

الطَّالِبِينَ

وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هَذِهِ سَبِيلُ اللَّهِ هُوَ الْهَدْيُ وَالْكَرَامُ وَلَنْ اتَّبِعَ أَهْوَاءَ هُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٤﴾ الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ نَقْصًا وَإِلَى رَبِّهِمْ أَتَيْنَهُمْ يَوْمُؤُونَ بِهِ وَمِنْ يُكْفِرُ بِهِ قَالُوا لِلَّهِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢٥﴾ يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَتْ عَلَيْهِمْ وَأَنَّى فَضَّلَتْهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَتَقُوا يَوْمَ مَا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ فَإِلَهُهُ وَاللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٣٠﴾

ولا يقضون منه وطرا ﴿١٢٧﴾ جعله ﴿١٢٨﴾ آمنًا ﴿١٢٩﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمون أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام، زاده حرمة وتعليلًا، وتشريفًا وتكريمًا.

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن، مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا: ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفردًا مضافًا، فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها: من الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ومزدلفة، ورمي الجمار، والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج.

فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾ أي: معبدًا، أي: اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، أي: أوحينا

جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ○ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٩﴾ يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طواف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتنحه بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، لبيان الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله، ويخلص ذنبه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام.

فأتم ما ابتلاه الله به، وأكمله ووفاه، ف شكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكورًا، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الثناء الدائم، والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد وهذه - لعمر الله - أفضل درجة، تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شرف إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله.

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته، لتلعب درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضًا من إمامته، ونصحه لعباد الله، ومحبه أن يكثر فيهم المرشدون، فله عظمة هذه الهمم العالية، والمقامات السامية.

فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آتته الصبر واليقين، ونتيجة أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمال السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة. فأين الظلم وهذا المقام؟

ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

ثم ذكر تعالى نموذجًا باقيا دالاً على إمامة إبراهيم، وهو: هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام، حاطاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعًا يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ لَأَمِّنْ سِفَهُ نَفْسَهُ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابِدُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتِنَا وَجَدَ آبَاؤُنَا لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْئَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

أعمال الحج كلها، كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد: ما هو أعم من ذلك، وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليباً عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح.

ولما كان العبد - مهما كان - لا بد أن يعتره التقصير، ويحتاج إلى التوبة، قالوا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في ذريتنا ﴿رَسُولًا يَنْتَهِمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتهم، وليتقوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ لفظاً، وحفظاً، وتخطيلاً ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ معنى.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبيري من الأعمال الرديئة التي لا تزكو النفوس^(٢) معها.

إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجز والنجاسات والأقذار، ليكون ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ فيه ﴿وَالْمُكَيِّدِينَ وَارْكَعُ الشُّجُودَ﴾ أي: المصلين.

قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد [الحرام]، ثم الاعتكاف؛ لأن من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة، مع أنها أفضل، لهذا المعنى، وأضاف الباري البيت إليه لفوائد منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك. ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه. (١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ بَلَىٰ كَرًّا فَكْرًا ثُمَّ أَنْطَرُوهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَشَىٰ النَّصِيرُ﴾ أي: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله بلداً آمناً، ويرزق أهله من أنواع الثمرات. ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين، تأدياً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول، فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم.

فلما دعا لهم بالرزق، وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، قال تعالى: ﴿وَيَنْ كَرًّا﴾ أي: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيمتنع فيها قليلاً ﴿ثُمَّ أَنْطَرُوهُ﴾ أي: ألجته وأخرجه مكرهاً ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَشَىٰ النَّصِيرُ﴾.

(١٢٧-١٢٩) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما - مع هذا العمل - دعاؤ الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل^(١) فيه النفع العميم.

ودعوا لأنفسهما، وذرنيهما بالإسلام، الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لاتباع الجوارح.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علِّمناها على وجه الإراءة والمشاهدة، ليكون أبلغ، يحتمل أن يكون المراد بالمناسك:

حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: مقدماته وأسابيه، فقال لبنيه على وجه الاختيار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿مَا تَقْبَلُونَ مِنْ بَدِيِّ﴾ ؟ فأجابوه بما قرأت به عينه، فقالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابَتُكَ إِيْهُوَ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَإِلْهًا وَجِدًا﴾ فلا نشرك به شيئاً، ولا نعدل به أحداً ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل.

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية، لا باليهودية.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: كل له عمله، وكل سيجازي بما فعله، لا يؤخذ^(١) أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحداً إلا إيمانه وتقواه، فاشتغالكم بهم وادعائكم أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا ؟.

(١٣٥) ﴿وَقَالُوا كُفُّوا هَذَا أَوْ نَحَسْرَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال ﴿قُلْ﴾^(٢) له محيياً جواباً شافياً: ﴿بَلْ تَنبَغِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، قائماً بالتوحيد، تاركاً للشرك والتتديد فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

(١٣٦) ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَيَسَى وَمَا أُوتِيَ آلُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَقْرَأُ بَيْنَ أَصْحَابِهِمْ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو - بهذا الاعتبار - يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان، وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.

فقوله تعالى: ﴿قُولُوا﴾ أي: بالسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء،

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الفاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع على قوته شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فيعزتك وحكمتك، ابعت فيهم هذا الرسول.

فاستجاب الله لهما، فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أَنَا دَعَاؤُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ».

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم، وأخبر عن صفاته الكاملة، قال تعالى:

(١٣٠-١٣٤) ﴿وَمَنْ يَرْشُدْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَلَيْتُمْ فِي الْغَيْبِ وَإِلَهِ فِي الْآخِرَةِ كَيْنَ الْقَتْلَيْنِ﴾ ○ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِئْ** قَالَ أَسْمَعْتُ رَبِّي الْقَتْلَيْنِ ○ **وَوَحَّى بِنَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ بَيْنَهُ** إِنَّ اللَّهَ اصْطَلَى لَكُمْ الْزَيْنَ فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ○ **أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ** إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَقْبَلُونَ مِنْ بَدِيِّ مَا قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابَتُكَ إِيْهُوَ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَإِلْهًا وَجِدًا وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ ○ **يَاكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشِئُونَ عُنَا كَاؤًا يَمْلِكُونَ**.

أي: ما يرغب ﴿عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بعدما عرف من فضله ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: جهلها وامتنعها، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون كما أنه لا أرشد وأكمل ممن رغب في ملة إبراهيم.

ثم أخبر عن حاله في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَقَدْ اصْطَلَيْتُمْ فِي الْغَيْبِ﴾ أي: اخترناه ووفقناه للأعمال، التي صار بها من المصطفين الأخيار ﴿وَإِلَهِ فِي الْآخِرَةِ كَيْنَ الْقَتْلَيْنِ﴾ الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِئْ قَالَ﴾ امتثالاً لربه: ﴿أَسْمَعْتُ رَبِّي الْقَتْلَيْنِ﴾ إخلاصاً وتوحيداً، ومحبة، وإجابة، فكان التوحيد لله نعته.

ثم ورثه في ذريته، ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه.

فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء، قال: ﴿يَنْبِئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَلَى لَكُمْ الْزَيْنَ﴾ أي: اختاره وتخير له لكم رحمة بكم، وإحساناً إليكم، فقوموا به، واتصفوا بشرائعه، وانصبقوا بأخلاقه، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي:

(١) في ب: لا يؤخذ. (٢) في ب: قال له.

وَقَالُوا اكُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٦﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَأَلْسَابِطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾
فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِمْ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنِ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
﴿١٣٨﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
عَبِيدُونَ ﴿١٣٩﴾ قُلْ أَتَحَايُونََنِي فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَا عَمَلُنَا وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٤٠﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَأَلْسَابِطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَوْ اللَّهُ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
بِعَظِيمٍ ﴿١٤١﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٢﴾

وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول
الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل
وخصوصًا محمدًا ﷺ، فإذا كذبوا محمدًا، فقد كذبوا
رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفرًا برسولهم.

وفي قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ دلالة على أن
عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية
والآخورية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك
والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب
والشرائع، وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله
وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته
لعباده، أن ينزل عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا
تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملًا.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين
الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد
معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا للخير، ولا ينهون
إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر، ويشهد له

فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول
الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن
كان العبد يوجب عليه، إذا كان خيرًا ومعه أصل الإيمان، لكن
فرق بين القول المجرد، والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿قُولُوا﴾ إشارة إلى الإعلان بالمعقبة، والصدع
بها، والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل، منسوبًا
إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام
بجبل الله جميعًا، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم
واحدًا، وعملهم متحدًا، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه
أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ إلخ، دلالة على جواز إضافة
الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد، بل على وجوب
ذلك، بخلاف قوله: «أنا مؤمن» ونحوه، فإنه لا يقال إلا
مقرونًا بالاستثناء بالمشيئة، لما فيه من تركية النفس، والشهادة
على نفسه بالإيمان.

فقوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بأنه موجود واحد أحد، متصف
بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده
بالعبادة كلها، وعدم الإشراف به في شيء منها، بوجه من
الوجوه.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ
اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنته
كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله،
واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما
تضمنته ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء
وغير ذلك.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع
الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا،
وخصوصًا ما نص عليه في الآية لشرفهم، وإلتئانهم بالشرائع
الكبار، فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم
على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب
الإيمان به مفضلًا.

وقوله: ﴿لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: بل نؤمن بهم كلهم،
هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه
على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم
يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون
بغيره، فيفرون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به،

العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، فكأن الله شرمهم.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم، حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، فيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوق طبق ما أخبر.

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحَوُّنَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صِبْغَةٌ﴾ أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم. فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومجبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور، فلماذا قال - على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته^(١).

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بصدده.

فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده.

فقسه بعبد كفر بربه، وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين، فانتصف بالصفات القبيحة: من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده، فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، وفي ضمته أنه لا أقيح صبغة ممن انصحب بغير دينه.

وفي قوله: ﴿وَتَحَوُّنَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صِبْغَةٌ﴾ بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذه الأصول: الإخلاص والمناجاة؛ لأن «العبادة» اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال، والأقوال

بالحق، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سير أحوال الجميع، وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عمومًا وخصوصًا، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿وَتَحَوُّنَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صِبْغَةٌ﴾ أي: خاضعون لعظمته، متقادون لعبادته، بباطنا وظاهرا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿لَهُمْ﴾ على العامل، وهو ﴿يُصِيبُونَ﴾.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل، بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة.

فسبحان من جعل كتابه نبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

(١٣٧) ﴿إِنْ أَمْسَوْا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَسْتَدْرَأُوا وَإِنْ تُولُّوا فَلَا يَمُوتُ فِي شِقَاقٍ كَسَلَيْكُمْ اللَّهُ وَهُوَ الْكَاسِيُ الْكَاسِيُ﴾ أي: فإن آمن أهل الكتاب ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ - يا معشر المؤمنين - من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى: خاتمتهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا الله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿فَقَدْ أَسْتَدْرَأُوا﴾ للصراط المستقيم، الموصل لجنت النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية، إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُتُبًا هُوَذَا أَوْ تَصَرَّى تَهْتَدُوا﴾ فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه.

واللهدي هو العلم بالحق، والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاققة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلماذا وعد الله رسوله، أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على نغز الحاجات،

(١) كذا في ب، وفي أ: من صبغته.

فأما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه - من وضوحه - لم يحتج أن يقول: بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك؛ لانجلاته لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هوذا ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلماذا كان ظلمهم أعظم الظلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَوَّأْنُ أَظْلَمَ وَمَنْ كَثُرَ شَهَادَةُ عِنْدَ رَبِّكَ أَلَمْ يَكُنْ فِيهِ شَهَادَةُ عِنْدَهُمْ، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها، وأظهروا ضدها: جمعوا بين كتم الحق، وعدم النطق به، وإظهار الباطل، والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة.

فلماذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِمُنْظِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد أحصى أعمالهم، وعدها وادّخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئس النار مثوى للظالمين.

ولهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجراحي، أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

(١٤١) ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَتٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَرَكُمْ مَا كَسَبَتْ وَلَا تَتَّبِعُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقدم تفسيرها، وكررها لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

(١٤٢: ١٤٣) ﴿سَيَقُولُ الشُّفَعَاءُ إِنَّا لَأَنسَاءٌ مَّا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِ
إِلَّا كَانُوا عَلَيْهَا خُلَاقًا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ وَسَيُبَاحِلُونَ فِيهِ
الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ فَيَكُونُونَ لَهُنَّ سَافِرِينَ ۚ فَسَيَقُولُ
الْمُؤْمِنُونَ إِنَّا كُنَّا عِندَ اللَّهِ قَبْلَ هَٰذَا ۖ فَمَا نَبْتَغِي مِنَ الشُّفَعَاءِ
فِيهِ ۚ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ وَهُوَ يَكْفُرُ ۚ﴾ قد اشتملت الآية الأولى على
معجزة، وتسليّة، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعارض، وصفة المسلم
لحكم الله ودينه.

الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك، حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده، في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحرص.

وقال: ﴿وَتَحْنُ لَمْ عَيْدُونَ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار؛ ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صيغة لهم ملازمًا.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتَمَعْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ رُبُّكُمْ وَكَانَ آخِزًا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَاسْتَأْذِنُوا﴾ المجادلة هي: المجادلة بين الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتالي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، وقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت ممارسة، ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، ولهذا مجرد دعوى، تفقروا إلى برهان ودليل.

فلماذا كان رب الجميع واحداً، ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوتينا نحن وإياكم^(١) بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الغريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفریق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص.

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية، التي يسلمها أهل العقول، ولا يتنازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين التماثلين، والفرق بين المختلفين.

(١٤٠) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَقْلَمُ أَلَمْ يَرِ اللَّهُ وَمَنْ أَقْلَمُ وَمَنْ
كُتِبَ لَهُ هَذَا عَنْدَ رَبِّهِ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ وَمَا اللَّهُ يُقَدِّرُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذه
دعوى أخرى منهم، ومحااجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى
بهُؤَلاء الرسل المذكورين من المسلمين. فرد الله عليهم بقوله:
﴿أَنتُمْ أَقْلَمُ أَلَمْ يَرِ اللَّهُ﴾ فالله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا
وَلَكِنْ كَانَتْ حَافِيًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَشْرِكِينَ﴾ وهم يقولون: بل
كان يهوديًا أو نصرانيًا.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنِ قِبَلِهِمْ آلِي كَاوَا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٧﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ
مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كُنْتَ لِكَيْدٍ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يُضِيعُ لِمَنْ تَكُنَّ إِلَهُاتُ اللَّهِ بِالنَّاسِ
لَرَأَوْهُ وَرَجِمَهُ ﴿١٢٨﴾ قَدْ رَأَى ثَقَلُوبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ
فَلَوْلَا لَيْتَاكَ قِبْلَةً رَضْنَاهَا قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَبَيْتِ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ
أَوْثَرُوا الْكِتَابَ لَيَتْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِظَلِيلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ
آيَةٍ مَاتِيعُوا قِبَلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
مَاجَعَتِكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَئِن الْفَالِكِ لَمِيتٌ ﴿١٣٠﴾

الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ أَتَّبِعْ وَتَوَضَّعْ سُبُلَ الشُّكْرِ﴾. ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنة الله عليها، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فاطراف داخلية تحت الخطر.

فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، ووسطاً في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وأصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا يتجسسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وآتمها، وأباح الله لهم الطيبات

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضعونها ويبيعونها بأبخص ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة نحو سنة ونصف؛ لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة.

فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿مَا وَلَهُمْ عَنِ قِبَلِهِمْ آلِي كَاوَا﴾ أي: استقبال بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسلام وأخبر بوقوعه وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالى باعتراض السفه، ولا يلقي له ذهنه.

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، ﴿فَلَا وَزَيْلَ لَهُ يَكُونُونَ حَتَّى يَحْكُمَ لَكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقد كان في قوله: «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم، وعدم المبالاة به، ولكنه تعالى - مع هذا - لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ مَجِيئًا: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلا شيء يعترض المعترض بتوليكنم قبلة داخلية تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل الله، حسداً لكم وبيغاً.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب

الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿مَنْ يَتَّبِعْ أَرْسُولَ﴾ ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور مدبر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول، وأما من انقلب ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ وأعرض عن الحق، واتبع هواه، فإنه يزداد كفرًا إلى كفره، وحيرةً إلى حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبينة على شبهة لا حقيقة لها.

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ أي: صرفك عنها ﴿لَكِبَرَةٍ﴾ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فغفروا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقربوا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركنًا من أركان الإسلام، وهاديًا للذنوب والآثام، فلماذا خف عليهم ذلك، وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هو من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم، فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطلان بعصمتهم لهم عن كل مفسد ومزيل له، ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم، بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر. بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها، تبين المؤمن الصادق من الكاذب، فلئنا تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم.

وكأن في هذا احترازًا عما يقال: إن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَلْفِئَةً الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعْ أَرْسُولَ مَنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قد يكون سببًا لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَزُؤُوفٌ رَجِيذٌ﴾ أي: شديد الرحمة بهم عظيمها، فمن رافته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي

من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكملها، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال أفضلها، وهبهم الله من العلم والحلم، والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فذلك كانوا ﴿أُمَّتٌ وَسَطًا﴾ [كاملين] ليكونوا ﴿هُدًى عَلَى أَثَرِ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول، فهو مقبول، وما شهدت له بالرد، فهو مردود.

فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟.

قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فاما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة، كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شك شاك في فضلها، وطلب مزكيا لها، فهو أكمل الخلق نبهم ﷺ، فلئذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ أَرْسُولٌ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم استشهد الأنبياء بهذه الأمة وزكاهها نبيا.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطًا إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿لِيَتَكُونُوا﴾ ^(١) شُهداء عَلَى النَّاسِ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

(١٤٣) يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَلْفِئَةً الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعْ أَرْسُولَ مَنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبَرَةٍ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّكَ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَزُؤُوفٌ رَجِيذٌ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَلْفِئَةً الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وهي استنبال بيت المقدس أولًا ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: علمًا يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثوابًا ولا عقابًا، لتمام عدله، وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها

ويحزن إذا لم يتقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من نرد عن أمر الله، واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمداً وعدواناً، فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين، لا عن جهل.

فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو ﴿آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ مَآيَةٍ﴾ أي: بكل برهان ودليل، يوضح قولك، ويبين ما تدعو إليه ﴿مَّا يَتَّبِعُوا فَتَكُنَّ﴾ أي: ما تبعوك، لأن اتباع القبله دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك، لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيد ويتنفع بها من يتطلب الحق، وهو مشبه عليه، فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق، فلا حيلة فيه.

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبله بعض، فليس بغريب منهم - مع ذلك - أن لا يتبعوا قبلك يا محمداً وهم الأعداء حقيقة الحسدة، وقوله: ﴿وَمَا آتَى بِكُنَّ﴾ أبلغ من قوله: ولا تتبع؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: «ولو أتوا بكل آية» لأنهم لا دليل لهم على قوله.

وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية، لم يلزم الاتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

﴿وَلَيْنَ أَكْبَهْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إنما قال: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهوية^(١) نفس، حتى هم - في قلوبهم - يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى لا محالة، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾.

﴿فَرُبَّ بَشَرٍ مَّا جَعَلَهُ مَكًّا أَلِيمًا﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل، ﴿إِنَّكَ إِذَا﴾ أي: إن اتبعتم، فهذا احتراز، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام، ﴿لَيَكُنَّ الْفَالُوكِ﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق، وهذا، وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك، وأيضاً، فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسنة^(٢)، فغيره من باب أولى وأحرى.

(١٤٦، ١٤٧) ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ مَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ بِعُرْفَتِهِمْ﴾

ابتدأهم بها، وأن ميّز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها.

(١٤٤) ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاةِ فَلَتَوَلَّىٰكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَمَنْ لَكَ سَخَرَ الْمَسْجِدَ الْأَرَامَ وَتَحْتَ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَمُؤَبِّعَكُمْ سَخَرَهُ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِمُخِلٍّ عَمَّا يَتْلُونَ﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاةِ﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وَتَحْتَ﴾ ولم يقل: «بصر» لزيادة اهتمامه، ولأن قلبه الوجه مستلزم لتقلب البصر.

﴿فَلَتَوَلَّىٰكَ﴾ أي: نوجهك لولايتنا إياك ﴿قِبَلَهُ تَرْضَاهَا﴾ أي: تحبها، وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿قَوْلٌ وَمَنْ لَكَ سَخَرَ الْمَسْجِدَ الْأَرَامَ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان ﴿وَتَحْتَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿قَوْلُوا وَمُؤَبِّعَكُمْ سَخَرَهُ﴾ أي: جهته، ففيها اشتراط استقبال الكعبة، للصلوات كلها، فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عيناها، وإلا فيكفي شرطها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

ولما ذكر تعالى - فيما تقدم - المعارضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجدونه في كتبهم، فيعرضون عناداً وبعياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تابوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعارض عليه، وأن المعارض معاند، عارف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعارض العقوبة الدنيوية والآخرية، فلهاذا قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِمُخِلٍّ عَمَّا يَتْلُونَ﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعارضين، وتسلية للمؤمنين.

(١٤٥) ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ مَآيَةٍ مَّا يَتَّبِعُوا فَتَكُنَّ وَمَا آتَى بِكُنَّ﴾ أي: يمتنعهم، ويمنعهم من اتباعك، ﴿لَيَكُنَّ الْفَالُوكِ﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق، وهذا، وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك، وأيضاً، فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسنة^(٢)، فغيره من باب أولى وأحرى.

الْحَقُّ

٢٣

الْحَقُّ

الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَيْسَتْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ
 فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٨﴾ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مَوْلَاهُ
 فَأَسْتَفِيقُوا الْعَذَابَ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ يَأْتِي بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٠﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
 وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا
 اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥١﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
 لِلدِّينِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
 لِلدِّينِ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمَا تَفْعَلُوا لَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ ﴿١٥٢﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ
 يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٣﴾ فَأَذْرُوْنِي
 أَذْكُرْكُمْ وَاتَّكِبْ رُءُوسِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في
 الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات،
 فالسابقون أعلى الخلق درجة.

والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة
 وصيام وزكوات^(١) وحج وعمره، وجهاد، ونفع متعد وقاصر.
 ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير
 ويشغلها، ما رتب الله عليها من الثواب، قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا
 يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم
 القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله ﴿يَجْزِي الَّذِينَ اسْتَفْزَأُوا
 عَمَلَهُمْ وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنِهِ﴾.

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف
 بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء
 الذمة: من الصيام، والحج، والعمره، وإخراج الزكاة،
 والإتيان بسنن العبادات وأدائها، فله ما أجمعها وأنفعها من
 آية!!

(١) في ب: زكاة.

كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٨﴾

يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن
 محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، ويتقنوا ذلك
 كما يتقنوا آباءهم بحيث لا يشبهون عليهم غيرهم، فمعرفتهم
 بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون.

لكن فريقًا منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا
 هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ
 شَهَادَةَ بَيِّنَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ وفي ضمن ذلك تسلية للرسول
 والمؤمنين، وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم
 يكتنوا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن [به]، ومنهم من
 كفر [به] جهلاً.

فالعالم عليه إظهار الحق وتبيينه، بكل ما يقدر عليه
 من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه
 عن الحق، وتبيينه وتقيحه للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك،
 فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى
 حقًا من كل شيء؛ لما اشتمل عليه من المطالب العالية
 والأوامر الحسنة، وتركية النفوس وحنها على تحصيل
 مصالحها، ودفع مفاسدها، لصدوره من ربك، الذي من
 جملة تربيته لك، أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية
 العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك
 وريبة فيه، بل تفكر فيه، وتأمل، حتى تصل بذلك إلى اليقين،
 لأن التفكير فيه لا محالة دافع للشك، موصل لليقين.

(١٤٨) ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مَوْلَاهُ فَأَسْتَفِيقُوا الْعَذَابَ أَيْنَ مَا تَكُونُوا
 يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: كل أهل
 دين وملة، له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في
 استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة
 والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن
 الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله، والتقرب إليه، وطلب
 الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو
 الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا
 والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة،
 ولهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له
 الخلق، وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل
 الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكملتها،

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كثافة المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعاً، أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿قُولُوا وَجْهَكَ﴾ والأمة عموماً في قوله: ﴿قُولُوا وَيُوعِظَكُم﴾.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهةً شبهةً، كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب، ومنها قوله: ﴿وَأَنذَرْتُ لَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنَ الْقُلُوبِ فَتَأْتِيكَ فَجِئْتُكَ وَفِي يَدَيَّ الْحَقُّ وَفِي يَدَيْكَ الْكِبَرُ﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وَأَنذَرْتُ لَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنَ الْقُلُوبِ فَتَأْتِيكَ فَجِئْتُكَ وَفِي يَدَيَّ الْحَقُّ وَفِي يَدَيْكَ الْكِبَرُ﴾.

ومنها : أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب معترفون عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم.

[illegible]

فلله الحمد على فضله، الذي لا يبلغ له عدداً، فضلاً عن القيام بشكره، ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى - من رحمته بالعباد - قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين.

حتى إن من جملة ذلك أنه يقبض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها يتبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً، فله الحمد على ذلك.

(١٥٢، ١٥١) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيَكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ

(١٤٩، ١٥٠) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَيْهِ الْمَلَأَقْ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَنَّا فَعَلُوا ۝ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ فَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الْبَرُّ عَلَيْهِمْ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا عُدْوَنَ لَهُمْ وَالْعُدْوَانُ لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم، ﴿وَقَوْلٍ﴾ ﴿وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: جهته، ثم خاطب الأمة عموماً، فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وقال: ﴿وَالَّذِي لَلْحَمِّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أكد به «إن» واللام، لتلايق
 لأحد فيه أدنى شبهة، ولتلايقن أنه على سبيل التشهي لا
 الامتنان ﴿وَمَا أَنَّهُ يُغْفِلُ عَنَّا فَعَلُونَ﴾ بل هو مطلع عليكم في
 جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتنان وأمره،
 واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون
 عليها أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقال هنا: ﴿يَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلاً بيت المقدس، لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفارحهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟ فباستقبال الكعبة^(١) قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه، إلا من ظلم منهم أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤيده لها، ولا يلقى لها بال، فلهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ لأن حججهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي أصل^(٢) كل خير، فمن لم يخش الله، لم ينكف عن معصيته، ولم يمثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة، مما حصلت فيها فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب، والمنافقون، والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلهذا بسطها الله تعالى، وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

بالقلب إقراراً بالنعم واعترافاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره، واجتناباً لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وفي الآيات بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية: من العلم وتركيز الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا ليعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضد الكفر، نهى عن ضده، فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا﴾ المراد بالكفر ههنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها، وعدم القيام بها. ويحتمل أن يكون المعنى عامًّا، فيكون الكفر أنواعًا كثيرة، أعظمها الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي، على اختلاف أنواعها وأجناسها، من الشرك فما دونه.

(١٥٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿يَا صَابِرٍ وَالصَّلَاةِ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها.

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصًا الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفترقة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئًا، وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار، وكذلك البلاء الشاق، خصوصًا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ويوجد مقتضاها - وهو التسخط - إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلهاذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقًا وصفة، وملكة - بمعونته وتوفيقه وتسديده -، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره،

تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ أَذْكَرُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع، والنعم المتممة، ليس ذلك بيد من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكمالته ونصحته.

﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولًا على توحيد الله وكمالته، ثم على صدق رسوله، ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني.

﴿وَرَكِبَكُمْ﴾ أي: يظهر أخلاقكم ونفوسكم، بترتيبها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كترتيبهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادر، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها، فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلًا في تعليم الكتاب؛ لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتعتبر عنه.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسيه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها.

فلهاذا قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ أَذْكَرُمْ﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضل ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يشر معرفة الله ومحبه، وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهاذا أمر به خصوصًا، ثم من بعده أمر بالشكر عمومًا، فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون

والرزق الروحي، وهو الفرح، والاستبشار^(٣)، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية، أكمل من الحياة الدنيا.

بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور^(٤) خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأتي إلى قتاديل معلقة بالعرش، وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله، وملازمة الصبر عليه.

فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب، لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم الناس، وأفات الأجور العظيمة والغنائم.

لَمْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَاللَّهُ تَعَالَى قَد: ﴿أَشْرَقَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ
أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُغْلَبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

فوالله! لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء - بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه - إلا أن يردوا إلى الدنيا، حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

[illegible]

هذه فائزۃ المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبرني في هذه الآية أنه سيبتلي عباده ﴿وَيَبْشُرُ مَن قَلَّوبٌ مِّنَ الْأَعْدَاءِ﴾ ﴿وَالْمُؤْمِنُ﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاه بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

﴿وَنُقِصَ يَرَّ الْأَمْوَالِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعترى للأموال: من جوائح سماوية، وغرق، وضياح، وأخذ الظلمة للأموال: من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق، وغير ذلك.

(١) زيادة من هاشم ب. (٢) في ب: الأحوال. (٣) في ب: وهو الامتشار. (٤) في ب: طير.

ووسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه مزية خاصة تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه، وهذه [مقابلة عظيمة] ^(١) للصائرين.

فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعمة من الله، لكنني بها فضلاً وشرقاً، وأما المعمة العامة فهي معمة العلم والقدرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما ينس، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه، وموقف العبد الخادم المتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعل، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه - لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفاً وداعياً يدعو إلى امتثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ﴾ بَلْ أَمِيتُوا وَلَكِنْ لَا تَسْتَوُونَ ﴿لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَمْرَ بِالْإِسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ﴾^(١)، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس، لمشتقته في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم يفتِّهِ الحياة المحبوبة، بل حصَّلَ له حياة أعظم وأكمل مما يفتنون وتحسبون.

فالشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْوَدُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْقِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَكَفْلِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أُمَّةً أَلْمُومِينَ ۝﴾

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني من المأكولات والمشروبات اللذيذة،

وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين، وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين!! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطيئ النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر، وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلقت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب.

(١٥٨) ﴿إِنَّ الْفِتْنَةَ وَالْمَرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَاجَّ آيَاتِي أَوْ اعْتَصَرَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُفُّكَ يَهْمًا وَمَنْ نَعَى حِجًّا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِ﴾ يخبر تعالى أن الصفا والمروة وهما معروفان ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره، فقال: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا تَتَّقُوا الْقُلُوبَ﴾ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب. والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية، وفعله النبي ﷺ وقال: «خذوا عني مناسككم».

﴿فَمَنْ حَاجَّ آيَاتِي أَوْ اعْتَصَرَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُفُّكَ يَهْمًا﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفي تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة، ولهذا منه.

وقوله: ﴿وَمَنْ نَعَى حِجًّا﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿حِجًّا﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير

والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿وَالشَّرَّيْثَ﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر يبزّد أو بَرَدَ، أو حرق، أو آفة سماوية: من جراد^(١) ونحوه.

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوعدت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجائع حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب - وهو وجود هذه المصيبة - وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتنال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل [له] السخط الدال على شدة نقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط قولاً وفعلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقّه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالثواب، فلماذا قال تعالى: ﴿وَيَسِّرِ الْغَنِيَّةَ﴾ أي: بشّرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبخسة العظيمة، والمنحة الجسيمة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين بمالنا وأموالهم، فلا اعتراض عليه؛ بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك.

ومع أننا مملوكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله، وراجع إليه، من أقوى أسباب الصبر.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثناء وتوحيه بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ومن رحمة إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به،

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش، وفي أ: جند.

ذَلِكَ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكَ﴾ فدلَّ هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله، ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقيد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متمعداً عالمًا بعدم مشروعية العمل.

﴿إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوةً ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الأجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور، ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه بمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجودونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي أطلع عليها العليم الحكيم.

(١٥٩-١٦٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَاطِلٍ مَا يَكْتُمُونَ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْعَلَنَةُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُونَ ۝ هَذِهِ آيَةُ، وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كنتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿وَمِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدلالات على الحق المظاهرات له ﴿وَالْهُدَىٰ﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدين: كنتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فاولئك ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربهِ ورحمته.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ وهم جميع الخليقة، ففزع عليهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَا وَلَكِنَّ لَآتَشْعُرُونَ ﴿١٥٩﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالسَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٠﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦١﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوَاعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَاطِلٍ مَا يَكْتُمُونَ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْعَلَنَةُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُونَ ۝ هَذِهِ آيَةُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٤﴾

اللغة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فنجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فنجوزي من جنس عمله. فالكاتب لما أنزل الله مصادراً لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها ويعميها^(١) فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاعاً، وعزماً على عدم المعاودة، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن. ولا يكفي ذلك في الكاتب أيضاً، حتى يبين ما كتبه، ويبيد ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التَّوَّابُ﴾ أي: الرجاء على عباده بالعتق والصفح، بعد الذنب

(١) في ب: وهذا يسعى في طمسها وإخفائها.

في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها. ﴿١٦٥﴾ في ﴿تَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وجنوباً، وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب.

فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنواب، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع، ومحبة وإئابة وعبادة؟.

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض - على خفته ولطافته - يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرت، أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفاً، ويصرفه غاية وعطفاً، فما أعظم سلطانه، وأغزر إحسانه، وألطف امتنانه!!

أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا ببره، وهم يستمتعون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره، وعفوه وصفحه، وعميم لطفه؟ فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبر به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

(١٦٥-١٦٧) ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَأْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْبَادًا يُحِبُّونَهَا كَصِبِّ الْهَاطِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَأْتِيهِمُ الْمَوْتُ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَفَعَتْ فِيهِمُ الْأَشْيَاءُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ كُنَّا كُنَّا كَرَّةً فَتَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا

﴿وَمَا﴾ في ﴿أَلْفَلْكَ أَلَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها، ثم سخر لها هذا البحر العظيم، والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنظم معاشهم، فمن الذي ألهمهم صنعتها، وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر، تجري فيه ياذنه وتسخره، والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية، النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً، أم استغل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذي خرج من بطن أمه، لا علم له ولا قدرة؟ ثم خلق له ربه القدرة، وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته.

وغاية العبد الضعيف، أن يجعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَهُكَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَالْتَمِسْ فِي الْأَرْضِ بُعْدَ مَوْعِدَةٍ﴾ فظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها.

أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله، وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وألهمهم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟.

﴿وَبَيْنَ يَمِينَيْهِ﴾ أي: في الأرض ﴿بَيْنَ كَفَيْهِ دَاكِرٌ﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع.

فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دمه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع^(١) أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة

(١) في ب: ومنها أنه بث فيها.

إِنِّي فَرَقْتُ لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
وَأَمْلَأْتُ الْبَحْرَ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَاهُ الْأَرْضَ بِعَدْوَيْهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٥﴾ وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٦﴾
إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَا
لَنَا كَرَةٌ فَتَسْبِرْ أَمْنَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَبُوا بِهِمْ أَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٨﴾
يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ أَسَافٍ فِي الْأَرْضِ حُلَاكٌ طَائِفًا وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٩﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا لَعَلَّ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

شيء، فبين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما
اشتبه عليهم في الدنيا، وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها
تقريبهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، وحق
عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن
عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها، من
حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي
كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله،
ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم،
وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن
أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها، انقلبت عليهم
حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً،
فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل،
فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق،
فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها.

ولما بطلت وقتت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها،
فضرتهن غاية الضرر، ولهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق

هُم يَخْرِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٧١﴾

ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين
وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى
علم اليقين، المزالة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿يَوْمَ أَقَامَ﴾ مع
هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أنداداً لله، أي: نظراء
ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم
والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد -
علم أنه معانده لمشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر
في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه
كلمة العذاب، وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لا
يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به
في العبادة، فيعبدهم ليقربهم إليه.

وفي قوله: ﴿فَتَعَذَّبُوا﴾ دليل على أنه ليس لله ند، وإنما
المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة،
ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ
سَمِعْتُهُمْ قَالُوا قَالُوا لَا يَمْلِكُ فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْلِ﴾، ﴿إِنْ
هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا اثْنُمَا وَابَتَا وَكُذِّبَ مَا قَوْلُ اللَّهِ بَيْنَ سُلْطَانٍ إِنْ
يَكُونُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

فالمخلوق ليس نداً لله، لأن الله هو الخالق، وغيره
مخلوق، والرب الرازق، ومن عداه مرزوق، والله هو الغني
وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجه، والعييد ناقصون
من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له
من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من
اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً، سواء كان ملكاً أو نبياً، أو
صالحاً، أو صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة
الكاملة، والذل التام، فلماذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم
أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من
يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح
العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من
الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلماذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ
الأنداد والافتقار لغير رب العباد، وظلموا الخلق بصددهم عن
سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم.

﴿إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، ﴿أَنَّ
الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: لعلوا علماً جازماً
أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة

تناول المأكولات المحرمة.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداء، فلا يريد بأمركم، إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء، وأعظمها مفسدة فقال:

﴿وَإِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالشُّبُهَاتِ﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تنهى فيه، كالزنا، وشرب الخمر، والقتل، والقدف، والبخل، ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل.

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبت له نفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله نذاً، وأوثاناً تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم. ومن قال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات لليلة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم.

ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه، أو كلام رسوله على معاني اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبدلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلينظر العبد نفسه، مع أي الداعيين هو، ومن أي الحزبين؟ أتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملته المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان، الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهد على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته، وكل

المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً، لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَشَدَّ مُنَافَةً ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَاتُ الصَّالِحِينَ وَنَسُوا بِمَا تُزَلُّ عَلَىٰ تَحْمِلُ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

وحينئذ يتنمى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعهم، بأن يتركوا الشرك بالله، ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيبات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلو زدوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأما من يتنمونها، حقاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قضى الأمر: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَ الْخَلْقُ وَوَعْدُكَ فَأَعْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن تَعَزَّيْتُمْ فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

(١٦٨-١٧٠) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِن مَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا حَلَلًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۚ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالشُّبُهَاتِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ آثَانًا ۚ أَوَلَوْ كُنَّا رَبَّكَ أَكْبَرُ ثُمَّ لَا خَلْقَ لَكَ فَتَقُولُونَ شَيْئًا ۚ وَلَا يَسْتَدْرِكُ ۚ هَذَا خِطَابٌ لِّلنَّاسِ كُلِّهِمْ ۚ مُّؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ ۚ فَاثْنُوا عَلَيْهِمْ بِأَن أَمْرُهُمْ أَن يَأْكُلُوا مِن جَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ ۚ مِن حَيْبٍ وَثَمَارٍ وَفَوَاكِه وَحَبِيبَاتٍ ۚ حَالَةَ كَوْنِهَا ﴿حَلْالًا﴾ أي: محللاً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معنياً على محرم.

﴿عَلَيْهَا﴾ أي: ليس بخبيث كالهيئة والدم، ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلها وانتفاعها، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال، وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، بأثم تاركه لظاهر الأمر.

ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي، من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السواحب، والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً

المرسلين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنْ أَطْيَبَاتِ مَا خَلَقْنَا وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾.

فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً»؛ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق، خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِتَائُهُ سَبْدُونَ﴾ أي: فاشكروه. فدل على أن من لم يشكر الله، فلم يعده وحده، كما أن من شكره فقد عده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينزع النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مفسدة، لردائها فيها نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر^(١)، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسماك البحر، فإنه حلال طيب.

﴿وَالَّذِي﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى.
﴿وَمَا أَمِلْ بِهِ لَيْتَرَ اللَّهُ﴾ أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح
للأصنام والأوثان، من الأحجار، والقبور ونحوها، ولهذا
المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به ليبان أجناس
الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طَبِئَتْ﴾ فعموم
المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: ﴿حَكَكَ طَبِئًا﴾
كما تقدم.

وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفًا بنا، وتزنيهاً عن المضّر، ومع هذا ﴿مَنْ أَضْطَرَّ﴾ أي: الجيء إلى المحرم بجوع وعدم، أو إكراه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوز الحد في تناوله ما أبيح له اضطرارًا، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها ﴿فَلَا إِثْمَ﴾ [أي: جناح] ﴿عَلَيْهِ﴾.

وإذا ارتفع الجناح^(٢) رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأموراً بالأكل، بل منهى أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى

(١) في ب : مرض . (٢) في أ : (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب : وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).

الخسران في ولايته، والذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير.

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين، إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - ورغبوا عن ذلك، وقالوا: ﴿لَيْسَ بِنَحْنِ مِمَّا آفَقَنَا عَلَيْهِ﴾ فافتكروا بتقليد الآباء، وزهّدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا، فأباؤهم أجهل الناس، وأشدّهم ضلّالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إغراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبيّن له الحق قطعاً، واتباعه إن كان منصفاً.

(١٧٦) ثم قال تعالى: ﴿وَرَسُولٌ الَّذِيْنَ كَفَّرْنَا بِكَ فِي الْاٰلِآءِ لَا يَمْنَعُ اِلَّا دِمَاةً مِّمَّنْ بَنَىٰ عَنْقَ فَهْمِهِ لَا يَقُوْلُوْنَ﴾ لَهَا بين تعالي عدم اقتيادهم لما جاءت به الرسل، ورددهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق، ولا مستجيبين له، بل كان معلوما لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عناصدهم، أخبر تعالى أن مثلهم - عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان - كمثل البهاائم التي ينطق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً يتفهمهم، فلماذا كانوا ضُمًا لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عُما لا ينظرون نظر اعتبار، كما فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء فهل يسترهب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه، وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح، وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل، ونبتذ الحق - أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء، فإنه من أسفه السفهاء.

(١٧٢، ١٧٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كَلِمَاتٌ مِن مَّوَدِّعَةٍ مَّشْكُورَةٍ ۖ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخُزْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ. لَعَنَ اللَّهُ قَدْحِي أَشْطَرَ عَيْرٍ بَارِقٍ وَلاَ عَلَا قَلَا إِنَّمَا عَلَيْهِ إِذْ لَاحَ اللَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المتصفون على الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوى بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به

بعباده، فهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها - أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محظور اضطر له الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن، [فله الحمد والشكر أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً].

(١٧٤-١٧٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيُسْقِطُونَ مِنْ بَطُونِهِمْ إِلَّا الشَّارَ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَاةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ۝ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ سَرَّ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝ هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ، مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ عَلَى أَهْلِهِ، أَنْ يَبِينُوا لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُوهُ، فَمَنْ تَعَرَّضَ عَنْهُ بِالْحُطَامِ الدُّنْيَوِيِّ، وَنَبَذَ أَمْرَ اللَّهِ، فَأُولَئِكَ: ﴿مَنْ يَأْكُلُونَ فِي بَطُونِهِمْ إِلَّا الشَّارَ﴾ لَأَنَّ هَذَا الشَّمْنَ الَّذِي اكْتَسَبُوهُ، إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بِأَقْبَحِ الْمَكَاسِبِ، وَأَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ، فَكَانَ جَزَاءُهُمْ مِنْ جَنْسِ عَمَلِهِمْ.

﴿وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يظهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه.

فهؤلاء نبذوا كتاب الله، وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصيرون عليها، وأتى لهم الجلد عليها!!!

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، وهو مجازاته بالعدل، ومنعه أسباب الهداية، ممن أباحها واختار سواها ﴿يَأْتِي اللَّهُ سَرَّ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ﴾ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته وأيضاً ففي قوله: ﴿سَرَّ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ﴾ ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَإِذْ أَيْقَلَ لَهُمْ أَتَيْعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِمْ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كُنَّا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْصُونَكَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٦﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاةً وَيَذَّاءُ لَهُمْ أَيُّكُمْ عَمِيَ فَعَمُوا لَئِيْقَلُونَ ﴿١٧٧﴾ يَتَّيْنَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لَعَنَ اللَّهُ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرُ بَاسٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيُسْقِطُونَ مِنْ بَطُونِهِمْ إِلَّا الشَّارَ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَاةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ سَرَّ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٨٢﴾

﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ أي: الذين اختلّفوا في الكتاب، فأمّنوا ببعضه، وكفروا ببعضه، أو الذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومرادتهم ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ أي: محادة، ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به، وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكاتمين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يظهرهم بالتوفيق، ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإثارتهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة.

ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعلمهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه، وعدم الانفراق، وأن كل من خالفه، فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة والمخالفة، والله أعلم.

الْحَقُّ

٢٧

الْحَقُّ

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ فَقُلْ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَيْعَاتِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْأَسَاءَةِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْأَسَاءَةِ أُولَٰئِكَ الْأَبْرَارُ الَّذِينَ سَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ فَقُلْ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسوله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنته من الأخبار والأحكام ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: حب المال، يبين به أن المال محبوب للنفس، فلا يكاد يخرج به العبد، فمن أخرجه مع حبه له تقريباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال، يجب إسكائه، لما يتوهمه من العدم والفقر، وكذلك إخراج النفس من المال، وما يجه من ماله كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مِّنْ نَّفْسٍ لَّا تَتَّقُوا مَتَىٰ تَفْتَنُوا﴾ فكل هؤلاء ممن أتى المال على حبه.

ثم ذكر المتفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك، من الأقارب الذين تتوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوقفه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم.

ومن يتأمل الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، ولهذا من رحمته [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من يفقد أبائهم ليصيروا كمن

لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل، فمن رحم يتيم غيره، رُحِمَ يتيمه.

﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وهم الذين أسكتهم الحاجة، وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء، بما يدفع مسكتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه، وبما يتيسر.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ وهو الغريب المتقطع به في غير بلده، فتح الله عبادته على إعطائه من المال، ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحتة، وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة، على حسب استطاعته، ولو بتزويده، أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرض جانية، أو ضريبة عليه من ولاء الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنياً ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار، أو عند الظلمة.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة، من الثواب الدنيوي والأخروي، مما لا يمكن تفصيله في [مثل] هذا الموضع.

(١٧٨، ١٧٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾^(١) قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَبِيلَةِ وَالْأَنْثَى وَالْأُنْثَى قَتْلُ مَنْ عَنِ لَمٍ مِنْ أَيْمِهِ قَتْلُ قَاتِلِهِ بِالْمَعْرُوفِ وَأَذَاكَ إِلَيْهِ بِحَسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَتَعَدَّى بِغَيْرِ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَالْقِصَاصُ حَيَوٌ يَتَأَوَّلُ الْأَنْبِيَاءُ لَمَلَكْتُمْ تَتَّقُونَ﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بأنه فرض عليهم ﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين، فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، وتمكينه^(٢) من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بين تفصيل ذلك، فقال: ﴿قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله: «الأنثى بالأنثى» مع دلالة السنة، على أن الذكر يقتل بالأنثى.

وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله: ﴿الْقِصَاصُ﴾ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جداً من الولد له.

وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة.

وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعبده ﴿وَالْمَعْدُ بِالْقَبِيلَةِ﴾ ذكرًا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت. ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالبعيد، لكونه غير مساوٍ له، ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أخذ بمفهومها بعض أهل العلم، فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهاذا قال: ﴿قَتْلُ مَنْ عَنِ لَمٍ مِنْ أَيْمِهِ قَتْلُ قَاتِلِهِ بِالْمَعْرُوفِ وَأَذَاكَ إِلَيْهِ بِحَسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَتَعَدَّى بِغَيْرِ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَالْقِصَاصُ حَيَوٌ يَتَأَوَّلُ الْأَنْبِيَاءُ لَمَلَكْتُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية، وبدنية، ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

﴿وَالْمُؤْتُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والعهد: هو الالتزام بالزام الله أو إلزام العبد لنفسه، فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والنذور، ونحو ذلك.

﴿وَالْفَقِيرِينَ فِي الْأَسَاءَةِ﴾ أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة، ما لا يحصل لغيره.

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعده له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم، فكلُّ هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها، والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

﴿وَالْفَرْقَةَ﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح، ورياح، ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف، والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله [تعالى]. ﴿وَيَسِّرَ الْيُسْرَى﴾ أي: وقت القتال للأعداء المأمورين بقتالهم، لأن الجَلَاد يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح، أو الأسر، فاحتج إلى الصبر في ذلك احتساباً، ورجاء لثواب الله [تعالى]، الذي منه النصر والمعوذة التي وعدوا الصابرين.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة والأعمال التي هي آثار الإيمان، وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقته الإنسانية، فأولئك هم ﴿الَّذِينَ سَدَقُوا﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمناً ولزوماً، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهولاء الأبرار الصادقون المتقون.

بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون.
وقوله: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن يتقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

(١٨٠-١٨٢) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ٥ قَدْ بَدَّلْنَا بَعَدَ نِعَمٍ كَثِيرًا إِنْشَاءً عَلَى الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٦ قَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْسٍ جَنَفًا أَوْ إِسْقَاطًا فَسَلَّحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِعْرَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ٧ أَي: فرض الله عليكم، يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك، وكان قد ﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالا وهو المال الكثير عرفاً، فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله من غير سرف، ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يترتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.
واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية الموارث، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري.

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات الموارث، بعد أن كان مجملاً، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء، وهم أحق الناس ببره، ولهذا القول تنفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلا من القائلين بهما كل منهما لحظ ملحظاً، واختلف المودد.

فهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، لأنه^(١) مهما أمكن الجمع، كان أحسن من ادعاء النسخ الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية، لما يتوهمه أن من

بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي، فإذا عفا عنه، وجب على الولي [أي: ولي المقتول] أن يتبع القاتل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يخرجه.

﴿وَعَلَى الْقَاتِلِ إِدْرَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ من غير مطل ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان^(٢).

وفي قوله: ﴿قَمَنْ عَفِيَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ تَرْقِيقٌ وَحَثَّ عَلَى الْعَفْوِ إِلَى الدِّينِ، وَأَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ الْعَفْوُ مَجَانًّا، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿أَيُّدٍ﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.

وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: ﴿قَمَنْ أَغْتَنَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد العفو ﴿فَلَمْ يَكُنْ عَذَابُ آيَةٍ﴾ أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئاً له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب بالآلیم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء، والصحيح الأول، لأن جانيته لا تزيد على جنائية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ أي: تتحقق بذلك الدماء، وتنقنع به الأشياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رُئي القاتل مقتولاً اندفع بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكابة والانزجار ما يدل على حكمه الحكيم الغفار، ونكر الحياة لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، ولهذا يدل على أن الله تعالى يجب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح

(١) في ب: بالإحسان. (٢) في ب: فانه.

بعده قد يدل ما وصى به، قال تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي: الإيضاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بِمَا يَحْكُمُ﴾ [أي:] بعدما عقله، وعرف طريقه وتنفيذه، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجوز في وصيته، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بنيت، وعليهم بعمل الموصي إليه، فإذا اجتهد الموصي، وعلم الله من نيته ذلك، أثناه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصي إليه من التبديل، فإن الله عليهم به، مطلع على فعله، فليحذر من الله، لهذا حكم الوصية العادلة.

وأما الوصية التي فيها حيف وجنف وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهه عن الجور والجنف، وهو الميل بها عن خطأ من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصي إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بثبوت ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليه إثم، كما على مبدل الوصية الجائرة، ولهذا قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غص من نفسه، وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته، إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدلّت هذه الآيات على الحث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائرة.

(١٨٣-١٨٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ ثَمَنٌ ۖ أَيَّامًا مَّقْدُودَةٌ ۖ مِمَّنْ كَانَتْ بِكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۚ مِمَّنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ ۚ فَمَوْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ شَهْرٌ مَّحَرَّمٌ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ بِنُكْحِ الْفَتْنَةِ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَلَكُمْ مَنَافِعُ مِّنْهُ ۚ يَخْبِرُ تَعَالَىٰ بِمَا مَنَّ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ۚ أَنَّهُ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامَ ۖ كَمَا فَرَضَ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ۚ لَآهُ مِنَ الشَّرَائِعِ

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوْسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ ثَمَنٌ ۖ أَيَّامًا مَّقْدُودَةٌ ۖ مِمَّنْ كَانَتْ بِكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۚ مِمَّنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ ۚ فَمَوْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ شَهْرٌ مَّحَرَّمٌ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ بِنُكْحِ الْفَتْنَةِ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَلَكُمْ مَنَافِعُ مِّنْهُ ۚ يَخْبِرُ تَعَالَىٰ بِمَا مَنَّ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ۚ أَنَّهُ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامَ ۖ كَمَا فَرَضَ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ۚ لَآهُ مِنَ الشَّرَائِعِ

والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمصارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصمتم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: ﴿لَكُمْ ثَمَنٌ ۖ أَيَّامًا مَّقْدُودَةٌ ۖ مِمَّنْ كَانَتْ بِكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله، واجتناب نهي.

فما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى، ومنها: أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من

خصال التقوى .

إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد^(٣) تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله.

وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهله تسهيلات
آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات.

وهذه جملة لا يمكن تفصيلها؛ لأن تفاصيلها جميع الشرعات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخففات.

﴿وَتُكْفَلُوا أَلَدَةً﴾ وهذا - والله أعلم - لثلاثين يومهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه بعضه، رفع هذا الوهم

بِالْأَمْرِ بِتَكْمِيلِ عِدَّتِهِ، وَيَشْكُرُ اللَّهَ [تَعَالَى] عِنْدَ إِتْمَامِهِ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَتَسْهِلِهِ وَتَيْسِيرِهِ لِعِبَادِهِ، وَبِالنَّكِيرِ عِنْدَ انْقِضَائِهِ، وَبِالدَّخْلِ

(١٨٦) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

الذَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿٥٠﴾ هَذَا
جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول

الله! أقرب ريتا فتاجيه، أم بعيد فتاديه؟ فتزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأنه تعالى: الرقب الشهد، المطلع

على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإحاجة، ولهذا قال: ﴿أُحِبُّ دَعْوَةَ

والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والقرب

نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه
الإحابة والمعونة والتمفق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع
من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده

الإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي
لاستجابة الله تعالى بالانقياد لأوامره ونهيه القولية والفعلية،

الإيمان به الموجب للاستجابة، فلماذا قال: ﴿فَاسْتَجِيبُوا لِي

لهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي
لنماف للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله

الاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم، كما قال تعالى:

لَقَدْ أَنبَأْنَا الْغُرُكَ مَا مِثْلَ إِنْ نُنْفِئُكَ اللَّهُ تَعْمَلُ لَكُمْ وَقَوْلَانَا

(۱۸۷) ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ لَكُمْ لَيْلَةُ الْعَصَا أَلَمْ نَمُوتْ﴾ إِلَى

فَتَأْتُونَ أَفْسَحَكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَقَا عَنْكُمْ فَالْفَن بِيَرُوهُمْ وَأَسْعُوا

(١) ظاهر أن المراد عن كل يوم طعام مسكين. (٢) زيادة من هامش ب.
(٣) فرب: أبلغ تساهل.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

ثم سهل تسهيلاً آخر فقال: ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ أَوْ كَثُرَ
سَفَرُ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَثَرِ أُخْرَىٰ﴾ وذلك للمشقة في الغالب، وخص

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن،

أمرهما أن يقضياه في أيام آخر إذا زال المرض، وانقضى
السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فَمَعْدَةٌ مِّنْ آيَاتٍ﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد
 بام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً، وعلى أنه يجوز أن يقضى

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ الصَّامَ﴾ أي: يطبقون الصيام

﴿فَذِيَّةٌ﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿طَعَامٌ مَشْكُونٌ﴾ وهذا في
ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان

طريق، وخَيْرُ المَطْلَقِ للصوم: أَنْ يصوم - وهو أَفْضَلُ - أو

طعم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

[وقيل: ﴿وَعَلَّ الْأَنْزَبُ نُطْقُهُ﴾ أي: بتكلفه وشدته.

عليهم مشقة غير محتملة، كالشيخ الكبير، فدية عن كل يوم سكن: ^(١)، وهذا هو الصحيح ^(٢).

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد

حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم

الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاء.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن
 تكون مومنين للعباد، مفرضين فيه الصيام.

فلَمَّا قرره وبيّن فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه،

ولما كان النسخ للتخصيص بالصيام والفداء خاصة، أعاد

نسخة [فقال]: ﴿رُبُّدُ اللَّهِ بِكُمُ اللَّهُ لَا رُبَّكَ﴾

مُتَرَكِّبٌ أَي: يريد الله تعالى أن يسر عليكم الطرق الموصلة

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لَبَاسٌ لَكُمْ وَأنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أنْكُمْ كُنتُمْ تَحْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَآنَن بَشِيرًا وَنَعِيمًا وَاتَّبَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ أنْزَلْنَا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبَشِّرُوا هُوَنًا وَأنْتُمْ عَنِ الْبَيْتِ فِي السَّجْدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَآئِبِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢١٨﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢١٩﴾ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا وَأَقْبِلُوا لَعَلَّكُمْ تَتْلَحُّونَ ﴿٢٢٠﴾ يَقُولُ (١) تَعَالَى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾: جمع هلال، ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها.

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: جعلها الله تعالى بلفظه ورحمته، على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفا في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم، من الصيام، وأوقات الزكاة، والكفارات، وأوقات الحج.

ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتا كثيرة، قال: ﴿وَالْحَجِّ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجازات، ومدة العدد والحمل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالى حسابا يعرفه كل أحد، من صغير وكبير، وعالم وجاهل، فلو كان الحساب بالسنه الشمسية، لم يعرفه إلا النادر من الناس.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبداً بذلك، وظناً أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر (٢)، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد

ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات، والأوقاف، والوصايا لمن ليس له حق منها، أو فوق حقه.

فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً، ولا يحلل حراماً، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة، ولا شبهة، ولا استراحة.

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك، فإنه لا يحل له، ويكون أكلاً لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك، فيكون أبغ في عقوبته، وأشد في نكاله، وعلى هذا، فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾.

(١٨٩) ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا وَأَقْبِلُوا لَعَلَّكُمْ تَتْلَحُّونَ﴾ يقول (١) تَعَالَى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾: جمع هلال، ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها.

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: جعلها الله تعالى بلفظه ورحمته، على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفا في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم، من الصيام، وأوقات الزكاة، والكفارات، وأوقات الحج.

ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتا كثيرة، قال: ﴿وَالْحَجِّ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجازات، ومدة العدد والحمل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالى حسابا يعرفه كل أحد، من صغير وكبير، وعالم وجاهل، فلو كان الحساب بالسنه الشمسية، لم يعرفه إلا النادر من الناس.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبداً بذلك، وظناً أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر (٢)، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾ أي: فليس عليهم منكم اعتداء، إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

(١٩٤) ﴿الَّذِينَ هَرَبُوا مِنَ الْإِيمَانِ الَّذِي بَاعُوا لَكُمْ بِهِ بَأْسَ اللَّهِ وَالنَّاسِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ لَكُمْ بِهِ كَيْفَ يَبْعُثُ اللَّهُ الْقَوْمَ﴾ يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ هَرَبُوا مِنَ الْإِيمَانِ الَّذِي بَاعُوا لَكُمْ بِهِ بَأْسَ اللَّهِ وَالنَّاسِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ لَكُمْ بِهِ كَيْفَ يَبْعُثُ اللَّهُ الْقَوْمَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قبل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون لهذا بهذا، فيكون فيه تطيب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكماله، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام^(١)، فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج.

وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَرَبُوا﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أهم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها، فإنه يقتص منه، فمن قاتل في الشهر الحرام قاتل، ومن هتك البلد الحرام، أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافأ له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضوًا منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله.

ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهرًا كالضيء إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة [من الإنفاق عليه]، فإنه يجوز أخذه من ماله، وإن كان السبب خفيًا، كمن جحد دين غيره، أو خانه في ودعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعًا بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيدًا وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنْ آتَاكَ بِهِ بَأْسًا فَجِدْدْ لَهُ بَأْسًا بِمَا تَكْفَرُ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس - في الغالب - لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده، وعدم تجاوزها، وأخير تعالى أنه ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق. ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه

وَأَخْرَجُوهُم مِّنْ حَيْثُ كَانُوا يُرْسِلُونَ ﴿١٩٥﴾ وَأَلْفَنَّهُ أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ فَإِنْ تَلَوَّكُم فَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ○ فَإِنْ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْهُ فَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِيهِمْ نَفْسٌ وَلَا يَكُونَ لِلدِّينِ بَأْسٌ ○ فَإِنْ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْهُ فَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴿١٩٦﴾ هذه الآيات تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوي المسلمون للقتال أمرهم الله به، بعد ما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتال في الفتن بين المسلمين.

﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكَ﴾ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال. والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار [ونحوها] لغیر مصلحة تعود للمسلمين. ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوا، فإن ذلك لا يجوز.

﴿وَأَقَاتُواهُمْ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْهُ﴾ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا، في كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة. ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم.

ولهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، ولهذا من رحمته وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك، والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدين لدفع أعلاهما.

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار، وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن ﴿يَكُونَ آيَةً لِلَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَيَخْشَوْنَ أَيْدِيَ النَّاسِ﴾ تعالى فيظهر دين الله [تعالى] على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل لهذا المقصود فلا قتل ولا قتال.

﴿فَإِنْ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْهُ فَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿وَلَا تَقَاتِلُوا إِلَّا

(١) في: ب. ويستدل في هذه. (٢) كذا في ب، وفي أ: بالشهر الحرام.

أقرب إليه من جبل الوريد.

(١٩٥) ﴿وَاتَّبِعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَحْسِنِينَ﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته.

وأعظم ذلك، وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهادٌ بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة: الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توبة الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعازته، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسلط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك.

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارباً لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغيير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسببة أو حيات، أو يصعد شجرة، أو يبنينا خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة^(١) الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجاء بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفرج كرباتهم، وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جناتهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أن

تعبداً لكأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّيِّدًا﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من [ذكر] أحكام الصيام [فالجهاد]، ذكر أحكام الحج فقال:

(١٩٦) ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِلُوا ذُرُوءَكُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ الْهَدْيَ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَذَبْحَةٌ مِنْ يَسَارِهِ أَوْ مَدَقَّةً أَوْ شَاةٌ فَإِذَا أُنْتَمَ مِنْ مَتَعِ الْعُمْرَةِ إِلَى اللَّهِ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيْسًا لثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَمَا تَلَفَ وَسَبْعًا إِذَا يَسْتَأْذِنُ يَلِكَ عَشْرَةَ كَامِلَةً ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا حَاضِرًا أَلْتَسْجِدَ الْمَرْأَةُ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يستدل بقوله [تعالى]: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ على أمور:

أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم».

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلاً.

الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناء الله، وهو الحصر، فلها قال:

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدى، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبي ﷺ وأصحابه، لما صدهم المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدى، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع، ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِلُوا ذُرُوءَكُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ الْهَدْيَ﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر بحلق أو غيره، لأن المعنى واحد، من الرأس، أو من البدن؛ لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالاته، وهو موجود في

(١) في ب: ومن ذلك.

بقية الشعر.

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر، تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدى محله، وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدى لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدى، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك؛ لما فيه من الذل والخضوع لله، والانتكاس له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض، ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية «بِنِصْيَارٍ» ثلاثة أيام «أَوْ صَدَقَةٍ» على ^(١) ستة مساكين «أَوْ نُسُكٍ» ما يجزئ في أضحية، فهو مغير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المحيط، أو التطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجمع إزالة ما به يترفع.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْتُمْ﴾ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَمَنْ تَخَلَّعَ بِالْعِمَةِ إِلَى لَبَاسٍ﴾ بأن توصل بها إليه، وانفع بتمتعه بعد الفراغ منها ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعله ما تيسر من الهدى، وهو ما يجزئ في أضحية، ولهذا دم نسك، مقابلة لحصول التمكن له في سفره واحدة، وإلناعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتع بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع في الحج، ومثلها القرآن لحصول التمكن له.

ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة التمتع، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدى أو ثمنه ﴿فِيصِيَامٍ تَلْتَلَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ«منى»، ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع.

﴿وَسَمِعُوا إِذَا يَنْتَهَوْنَ﴾ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

﴿وَذَلِكَ﴾ المذكور من وجوب الهدى على المتمتع «بِنِصْيَارٍ» أي: أقله حاضري المسجد الحرام بأن كان عنه مسافة قصر

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَبِتْتُمْهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَضَعُوا فِيهِ فَإِنْ قَبِلْتُمْ فَاثْبُتُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٦﴾ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٧﴾ وَتِلْكَ لُحُومُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٨﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قَصَصٌ مِمَّنْ أَعْنَدْنَا عَلَيْكُمْ فَأَعَدُّوا عَلَيْهِمْ عِمْلاً مَا أَعْنَدْنَا عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٩﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠٠﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُنْتَمِتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامًا فَلَنُفَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٠١﴾

فاكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى، لحصول التمكن له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه، ولهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله، عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم وتجرا على ترك الواجبات.

(١٩٧) ﴿وَالْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ رَزَقَ فِيهِمْ الْغَنَى فَلَا رَفْتَ وَلَا سُوءَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْمَهُ اللَّهُ وَكَرَّوْهُ فَإِنَّهُ خَيْرٌ لِكُلِّ الْفَعْلِ وَأَتَّقُوا بِنَاتِلِ الْأَنْبِيَاءِ﴾ يخبر

(١) في ب: أو إطعام ستة مساكين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْعَ
وَلَا شُكُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّ وَدَوَّافَاتٍ خَيْرٌ زَادًا فَتَقْوُوا وَاتَّقُوا
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْسُخُوا لِنَفْسِكُمْ أَنْ
تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَلَمَّا أَفْضَيْتُمْ مِنْ
عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾
فَلَمَّا أَفْضَيْتُمْ مَنًى بَيْنَكُمُ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّكَاسِ مَنْ
يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلْقٍ ﴿٤٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آدَبَ النَّارُ ﴿٤١﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٢﴾

قربة لرب العالمين، ولهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية: بلغة ومتاع.

وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصول لأكمل لذة، وأجل نعم دائم أبداً، ومن ترك هذا الزاد فهو المتقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولي الأبواب فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل، وفساد الرأي.

(٢٠٢-١٩٨) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَلَمَّا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ ○ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ○ فَلَمَّا أَفْضَيْتُمْ مَنًى بَيْنَكُمُ فَادْكُرُوا

تعالى أن ﴿الْحَجَّ﴾ واقع في ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس.

وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته، معروفة بينهم.

والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً، ولو كان نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام [بالحج] قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيد.

وقوله: ﴿فَلَا رَفْعَ وَلَا شُكُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث وهو: الجماع ومقدماته الغلبية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتهم، والفسوق، وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجidal، وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج: الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتزهد عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنها^(١) تغلظ المنع عنها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعَهُ اللَّهُ﴾ أي: يسمعه^(٢) لتنصيص العموم، فكل خير وقربة وعبادة داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليهم، ولهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمان المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها: من صلاة وصيام وصدقة وطواف وإحسان قولي وفعلي.

ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم، سؤالا واستشرافاً، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة

من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها. وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والممة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ورد العمل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: «مَنْ يَكُولُ رَيْكًا مَائِكَا فِي الْأُتْيَا» أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة من نصيب؛ لرغبته عنها، وقصر همة على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم، وهِمَاتِهِم ونِيَاتِهِم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه. وفي هذه الآية دليل على أن الله يجب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة، ومهمات الدين.

والحسنة المطلوبة في الدنيا، يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة سالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة.

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر، والموقف، والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاءً وأكملّه، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحث عليه.

(٢٠٣) «وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ مَن تَعَلَّى فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا أَنْكُمُ إِلَيْهِ تُعْشُرُونَ» يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله».

اللَّهُ كَذِكرُهُ، بِمَا كُتِبَ، أَوْ أَشْكُرُ ذِكْرًا فَيَكُونُ الْكَاسِرُ مَنْ يَكُولُ رَيْكًا مَائِكَا فِي الْأُتْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۝ وَيَنْتَهُرُ عَنْ يَكُولِ رَيْكًا مَائِكَا فِي الْأُتْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ أَوَلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله، لا منسوباً إلى حقد العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه.

وفي قوله: «فَمِمَّا ذُكِّرُوا أَنْفُسُهُمْ يَنْتَهُرُ عَنْ يَكُولِ رَيْكًا مَائِكَا فِي الْأُتْيَا» دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات، لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروفاً، يكون ليلة النحر باثناً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً، ويدخل في ذكر الله عنده إيقاع الفرائض والتوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم، كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة في الحل، كما هو مفهوم التقييد بـ«مزدلفة».

«وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ» أي: اذكروا الله تعالى، كما منّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان.

«ثُمَّ أَيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَكَمَّ السَّكَا» أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو: رمي الجمار، وضحى الهدايا، والطواف، والسعي، والمبيت بـ«منى» ليالي التشريق، وتكميل باتي المناسك.

ولما كانت [هذه] الإفاضة يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها، باستغفاره والإكثار

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك ﴿سَكَنَ﴾ في الأرض يُقِيمُ فِيهَا أَي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض ﴿وَتُوبَ إِلَيْكَ﴾ بسبب ذلك ﴿الْحَرَكَ وَالسَّلَ﴾ فالزروع والثمار والمواشي تلف وتنفص، ونقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ﴾ وإذا كان لا يحب الفساد، فهو ييغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص، ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصْلُق لها، المَرْكُي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من الناس بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يفتروا بتمويههم وتركيتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف و ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر^(١) على الناصحين.

﴿وَحَسَبُ جَهَنَّمَ﴾ التي هي دار العاصين والمتكبرين ﴿وَكَيْفَ إِلَهِدَا﴾ أَي: المستقر والسكن، عذاب دائم، وهم لا يقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يرجون الثواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياًداً بالله من أحوالهم.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْغَاتٍ اللَّهِ وَاللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ سَبِيلًا﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها طلباً لمرضاة الله ورجاء لثواب، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رافته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى بِكَ النَّفْسَ مِنَ الْمُرْتَابِ وَأَمَّا لَكَ لَأَكْبَرُ﴾ إلى آخر الآية، وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها، وأخبر برافته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم^(٢).

(٢٠٨، ٢٠٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا فِي الْمَسْجِدِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الْكَافِرِينَ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُّبِينٌ﴾ كَمَنْ رَكَعَتْهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ الْيَقِينُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق، كالعشر، وليس ببعيد.

﴿وَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أَي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني ﴿فَلَا يَأْتِ عَلَيْهِ وَتَنْتَهَرُ﴾ بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد ﴿فَلَا يَأْتِ عَلَيْهِ﴾ وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده، في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين، فالتأخر أفضل، لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور، وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر فقط، قيده بقوله: ﴿لَيْنِ اتَّقَى﴾ أَي: اتقى الله في جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاء في شيء دون شيء، كان الجزاء من جنس العمل.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامثال أوامره واجتناب معاصيه، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّهُكُمْ إِلَهِكُمْ فَخُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاء وجد جزاء التقوى عنده، ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

(٢٠٤-٢٠٦) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ أَنَّ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ يُقِيمُ فِيهَا رُتْبَتَهُ الْخَرَجَ وَالسَّلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ○ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهِدَا ○ لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة، الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه، ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي: إذا تكلم راق كلامه للسامع، وإذا نطق ظنته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه ﴿يُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ بآ، يخبر: أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك؛ لأنه يخالف قوله فعله.

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلهذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ﴾ أَي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانتقائية للحق وظيفتهم، والسماحة سجيئتهم.

(١) في ب: والتكبر - (٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من: ب، وقد قام التجار بتفسير الآية من عند نفسه، انظر طبعة التجار (١/٢٥٢-٢٥٤)، ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَجَلَّى فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَانْقُضُوا إِلَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قُلُوبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ أَتَىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ أَيْدِيهِمْ أَغْرَضَتِ اللَّهُ أَخَذَتِ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ وَلِئْسَ إِلَهًا ﴿٣٥﴾ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٦﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخَلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ زَكَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكُمْ الْيَقِينُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مُجِيمٌ ﴿٣٨﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣٩﴾﴾

والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتناول - لأجلها - الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدر في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب.

فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي.

أما النقلي، فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها، بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلائلها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، ولهذا كما ترى، لا يرضيه من في قلبه مقال ذرة من إيمان.

وأما العقلي، فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه، والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن

حَكِيمٌ ﴿١﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿٢﴾ السِّلَاحَ كَافَّةً ﴿٣﴾ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إليه هواه، وإن وافق الأمر المشروع هواه فعَلَهُ، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه يلتزمه ويؤتيه، فيدركه بيته.

ولما كان الدخول في السلم كافة، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، وما به الضرر عليكم.

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فَإِنْ زَكَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكُمْ الْيَقِينُ﴾ أي: على علم ويقين ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مُجِيمٌ﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر ﴿١﴾ الحكيم، إذا عصاه العاصي، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ولهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يفلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيء على المفسدين، وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتثر الكواكب، وتكوّر الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام، فتحيط بالخلقات، وينزل الباري [تبارك وتعالى]: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباداه بالقضاء العدل، فتوضع الموازين، وتنتشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكلٌ يجازى بعمله، فهناك بعض الظالم على يديه، إذا علم حقيقة ما هو عليه.

ولهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المبين للصفات الاختيارية، كالاستواء، والتزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم: من الجهمية والمعتزلة،

٣٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ يَنْبَغُ وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةً
 اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَسَحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
 اتَّقَوْا قَوْمَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
 فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
 لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ لِمَا
 صَرِطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
 يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْأَسَاءَةِ وَالضَّرَّاءِ
 وَرَزَّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ
 أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ
 مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينِ
 وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا فَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

لَهُ ذَاتًا لَا تُشَبِّهُهَا الذَّوَاتُ، فَلَهُ صِفَاتٌ لَا تُشَبِّهُهَا الصِّفَاتُ، فَصِفَاتُهُ تَبِعَ لذَاتِهِ، وَصِفَاتُ خَلْقِهِ تَبِعَ لذَوَاتِهِمْ، فَلَيْسَ فِي إِثْبَانِهَا، مَا يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ بِوَجْهِهِ.

وَيَقَالُ أَيْضًا لِمَنْ أَثَبَّتْ بَعْضُ الصِّفَاتِ، وَنَفَى بَعْضًا، أَوْ أَثَبَّتِ الْأَسْمَاءَ دُونَ الصِّفَاتِ: إِمَّا أَنْ تُثَبَّتَ الْجَمِيعُ كَمَا أَثَبَّتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، وَأَثَبَتْهُ رِسُولُهُ، وَإِمَّا أَنْ تَنْفَى الْجَمِيعَ وَتَكُونَ مُنْكَرًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَمَّا إِثْبَاتُكَ بَعْضُ ذَلِكَ، وَنَفْيُكَ لِبَعْضِهِ، فَهَذَا تَنَاقُضٌ، فَفَرَّقْ بَيْنَ مَا أَثَبَّتَهُ، وَمَا نَفَيْتَهُ، وَلَنْ تَجِدَ إِلَى الْفَرْقِ سَبِيلًا، فَإِنْ قُلْتَ: مَا أَثَبَّتَهُ لَا يَقْتَضِي تَشْبِيهًا، قَالُوكَ أَهْلُ السَّنَةِ: وَالْإِثْبَاتُ لِمَا نَفَيْتَهُ لَا يَقْتَضِي تَشْبِيهًا، فَإِنْ قُلْتَ: لَا أَعْقِلُ مِنَ الَّذِي نَفَيْتَهُ إِلَّا التَّشْبِيهَ، قَالُوكَ لَكَ الْفَنَاءُ: وَنَحْنُ لَا نَعْقِلُ مِنَ الَّذِي أَثَبَّتَهُ إِلَّا التَّشْبِيهَ، فَمَا أَجَبْتَ بِهِ الْفَنَاءَ، أَجَابَكَ بِهِ أَهْلُ السَّنَةِ، لِمَا نَفَيْتَهُ.

الْحَاصِلُ أَنَّ مِنْ نَفْيِ شَيْئًا وَأَثَبْتَ شَيْئًا مِمَّا دَلَّ الْكِتَابُ وَالسَّنَةُ عَلَى إِثْبَانِهِ، فَهُوَ مُتَنَاقِضٌ، لَا يَبْثُ لَهُ دَلِيلٌ شَرْعِي وَلَا عَقْلِي، بَلْ قَدْ خَالَفَ الْمَعْقُولُ وَالْمَنْتَقُولُ.

(٢١١) ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ يَنْبَغُ وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةً اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ يَنْبَغُ﴾ تَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ، وَعَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ، فَيَتَقَنُّوهُا وَعَرَفُوهَا، فَلَمْ يَقُومُوا بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، الَّتِي تَقْتَضِي الْقِيَامَ بِهَا، بَلْ كَفَرُوا بِهَا، وَبَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، فَهَذَا اسْتَحَقُّوا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عِقَابَهُ، وَيَحْرِمَهُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَاسْمَى اللَّهُ تَعَالَى كُفْرَ النِّعْمَةِ تَبْدِيلًا لَهَا، لِأَنَّ مِنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً دِينِيَّةً أَوْ دُنْيَوِيَّةً، فَلَمْ يَشْكُرْهَا، وَلَمْ يَقُمْ بِوَاجِبِهَا، أَضْمَحَلَّتْ عَنْهُ وَذَهَبَتْ، وَتَبَدَّلَتْ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي، فَصَارَ الْكَفْرُ بَدَلَ النِّعْمَةِ، وَأَمَّا مَنْ شَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى، وَقَامَ بِحَقِّهَا، فَإِنَّهَا تَثْبِتُ وَتَسْتَمِرُّ، وَيَزِيدُ اللَّهُ مِنْهَا.

(٢١٢) ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَسَحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا قَوْمَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ، وَلَمْ يَتَقَدَّأُوا لَشَرِّهِ، أَنَّهُمْ زُيِّنَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَزِينَتْ فِي أَعْيُنِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، فَفَرَسُوا بِهَا، وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا، فَصَارَتْ أَمْوَالَهُمْ وَإِرَادَاتِهِمْ وَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا لَهَا، فَأَقْبَلُوا عَلَيْهَا، وَأَكْبَرُوا عَلَى تَحْصِيلِهَا، وَعَظَّمُوهَا، وَعَظَّمُوا مِنْ شَارِكِهِمْ فِي صَنِيعِهِمْ، وَاحْتَقَرُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَاسْتَهْزَأُوا بِهِمْ وَقَالُوا: أَهْوََاءُ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَانَا؟ وَهَذَا مِنْ ضَعْفِ عَقُولِهِمْ وَنَظَرِهِمُ الْقَاصِرِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، وَسَيَحْصِلُ الشَّقَاءُ فِيهَا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْكَفَرَانِ، بَلِ الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ نَالَهُ مَكْرُوهٌ، فَإِنَّهُ

يَصْبِرُ وَيَحْتَسِبُ، فَيُخَفِّفُ اللَّهُ عَنْهُ بِلَايَمَانِهِ وَصَبْرِهِ مَا لَا يَكُونُ لغيرِهِ.

وَأَمَّا الشَّانُ كُلُّ الشَّانِ وَالتَّفْضِيلُ الْحَقِيقِيُّ فِي الدَّارِ الْبَاقِيَةِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا قَوْمَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فَيَكُونُ الْمُتَّقُونَ فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، مُتَمَتِّعِينَ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَالسُّرُورِ، وَالْبَهْجَةِ وَالْحَيُورِ، وَالْكَفَارِ تَحْتَهُمْ فِي أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ، مُعَذِّبِينَ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْإِهَانَةِ، وَالشَّقَاءِ السُّرْمَدِيِّ، الَّذِي لَا مَتَهَى لَهُ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَسْلِيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَعْيٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَلَمَّا كَانَتِ الْأَرْزَاقُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْآخِرَوِيَّةُ لَا تَحْصَلُ إِلَّا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ، وَلَنْ تَنَالَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فَالرِّزْقُ الدُّنْيَوِيُّ يَحْصَلُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَأَمَّا رِزْقُ الْقُلُوبِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَمَحَبَّةِ اللَّهِ، وَخَشْيَتِهِ وَرَجَائِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَلَا يُعْطِيهَا إِلَّا مَنْ يَحِبُّ.

(٢١٣) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا

وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سته الجارية التي لا تتغير ولا تبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقعة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة آلتها ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صلته المكاره عما هو يصده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس بالإيمان بالتحلي والتمني، ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه.

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿تَسْتَبِمُ﴾ ﴿أَلْبَسَا﴾ أي: الفقر ﴿وَأَصْرَلَهُ﴾ أي: الأمراض في أبدانهم ﴿وَزَلَّزَلُوا﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه قال ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا مِّنْهُمْ مَّتَى نَصَرَ اللَّهُ﴾ فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.

فكلما اشتدت عليه وصعبت إذا صبر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشتقات راحت، وأقبح ذلك الانتصار على الأعداء، وشفاء ما في قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿أَنزَحْنَاهُمْ مِّنْ قُلُوبِهِمْ أَن تَدْعُوا إِلَى اللَّهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُدْعِي إِلَى اللَّهِ وَيُخَوِّفُ لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فعند الامتحان، يكرم المرء أو يهان.

(٢١٥) ﴿يَسْأَلُكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَمَا أَنفَقُوا مِّنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا نَعْمٌ عَلَيْهِمْ عَلِيمٌ﴾ أي: يسألك عن النفقة، ولهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فاجابهم عنهما، فقال: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به، وأحقهم بالتقديم، أعظمهم حقاً عليك، وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة، على الولد الموسر.

(١) زيادة من هامش ب، لم يحدد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن الأقرب أن هذا محلها، ولهذا وليست الكلام يكون آخره هكذا: (وقيل: بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي: كان الناس) مكرراً.

يُنْفِقُ هَذِهِ اللَّهُ الْغَنِيُّ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَمَا أَنفَقُوا مِّنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا نَعْمٌ عَلَيْهِمْ عَلِيمٌ﴾ (أي: كان الناس) (أي: كان الناس) مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم، وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق، وقيموا الحجة عليهم، وقيل بل كانوا^(١) مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع الله بشيرات الطاعات: من الرزق والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ من عصى الله بشيرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف، والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار.

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ هو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، ولهذا هو الواجب عند الاختلاف والنزاع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما.

لما ذكر نعمته العظيمة بإزالة الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بنى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف، فاختلوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وبتقونه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من هذه الأمة ﴿لِمَا اختلفوا فيه مِن الْحَقِّ﴾ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة ﴿يُذَوِّدُهُمْ﴾ تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فعلم الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لتلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا بِشَيْءٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ وهدى - بفضله ورحمته، وإعانته ولطفه - من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْعَلُوا إِلَى اللَّهِ وَلَكِنَّا أَنذَرْنَا مَثَلًا الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ءَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ يخبر تبارك

الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويجعل الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه، كما قال [تعالى]: ﴿وَاللَّهُ يَتْلُمُ وَيَأْتُرُ لَا تَقْلُومُ﴾ فاللاق بكم أن تنمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم.

ولما كان الأمر بالقتال، لو لم يقيد، لشمّل الأشهر الحرم وغيرها، أمستى تعالى القتال في الأشهر الحرم فقال:

(٢١٧) ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْقَتْلِ الْغَرَّاءِ وَيَا لَيْلٍ قُلْ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْغَرَّاءِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُ يُقَاتِلُكُمْ حَتَّى يُزْهِقَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَفْتَلَوْا وَمَنْ يَزِيدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ قَبِلْتُمْ وَهُوَ كَذِبٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ أَصْحَبُ الْغَرَّاءِ هُمْ فِيهَا كَاذِبُونَ﴾.

الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمم بقتال المشركين جيشاً وجداً، وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ، لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة، لعموم الأمر بالقتال مطلقاً؛ ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر مزاياها، تحريم القتال فيها، ولهذا إنما هو في قتال الابتداء، وأما قتال الدفع، فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز في البلد الحرام.

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله بن جحش، وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم أموالهم، وكان ذلك - على ما قيل - في شهر رجب، غيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا في تعييرهم ظالمين، إذ فيه من القباح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالى في بيان ما فيه: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله، وقتنتهم من آمن به، وسعيهم في ردهم عن دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام، الذي هو بمجرده كاف في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟!.

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم النبي ﷺ وأصحابه، لأنهم أحق به من المشركين، وهم عماره على الحقيقة، فأخرجهم ﴿مِنْهُ﴾ ولم يمكنهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد.

فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعييرهم المؤمنين.

ومن بعد الوالدين، الأفربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإلتاق عليهم صدقة وصلة.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم في مظنة الحاجة، لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد، رحمة منه بهم ولفظاً.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم أهل الحاجات، وأرباب الضرورات الذين أسكتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

﴿وَالنَّسِيلِ﴾ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة، عزم تعالى، فقال: ﴿وَمَا تَقْلُومُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية، فيها فرض القتال في سبيل الله، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه، لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكثر المسلمون وقوا، أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفس، لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتألف، ومع هذا، فهو خير محض، لما فيه من الثواب العظيم، والتمسك من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء والظفر بالفنائم، وغير ذلك مما هو مرب، على ما فيه من الكراهة.

﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة، فإنه شر، لأنه يعقب الخذلان، وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب.

وهذه الآيات عامة مطردة في أن أفعال الخير التي تكرها النفوس - لما فيها من المشقة - أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحب النفوس - لما توهمه فيها من الراحة واللذة - فهي شر بلا شك.

وأما أحوال الدنيا فليس الأمر مطرداً، ولكن الغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمراً من الأمور، فقيض الله [له] من

ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ﴾ أي: لمن تاب توبة نصوحاً ﴿رَجِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعمّ جوده وإحسانه كل حي.

وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة، حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب، التي قد غفرت وازمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة، حصل على كل خير في الدنيا والآخرة، بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولوا توفيقه إليهم لم يريدها، ولولا إقذارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخراً، وهو الذي من بالسبب والسبب.

(٢١٩) ثم قال تعالى: ﴿يَسْتَوِيكَ عَنِ الْخَيْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ يَهْمًا إِنَّمَا كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلثَّائِبِينَ وَإِنْهُمْ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أي: يسألك - يا أيها الرسول - المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكانه وقع فيهما إشكال، فلهاذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما؛ ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما، وتحثيم تركهما.

فأخبر أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، والعداوة والبغضاء - أكبر مما يظنون من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار، والطرب للنفوس عند تعاطيها، وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته.

ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحثيم بتركهما أول وهلة، قدم هذه الآية مقدمة للتحريم، الذي ذكره في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْكَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَلْسَابُ وَالْأَلْكَامُ رِيسٌ بَيْنَ عَنَّا أَنْتَبِهَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿مُنْتَهَنٌ﴾ ولهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتبهينا انتبهينا.

فأما الخمر: فهو كل مسكر يخامر العقل وغطاه، من أي نوع كان، وأما الميسر: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من الترد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية [بعوض^(١)]، سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام، فإنها مباحة؛ لكونها معينة على الجهاد، فلهاذا رخص فيها الشارع.

(٢٢٠، ٢١٩) ﴿وَسَتَلَوْكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ بَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر الله لهم الأمر، وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو الميسر من أموالهم، الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، ولهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق تمره.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم، ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا، أو تكليفاً لنا [بما يشق^(٢)]، بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا ولاخواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: ﴿كَذَلِكَ بَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: الدلالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان بين الحق والباطل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

(٢٢٠) ﴿وَسَتَلَوْكَ عَنِ الْآيَاتِ قُلِ إِصْلَاحٌ لَكُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُحَايِلُوهُمْ فَيَحْزَنْكُمْ وَاللَّهُ يَهْدِي الْمُفْسِدِينَ وَالْمُضِلِّينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَكُمْ مِنْ اللَّهِ غَيْرَ حَكِيمٍ﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ آيَاتِنَ ظُلْمًا إِنْ كَانُوا يَكُونُونَ بِأَعْيُنِهِمْ فَذُوقُوا نَارَ اللَّهِ وَسَيَلْوَنَ سَوِيرًا﴾ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى، خوفاً على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم بإيها في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء - من غير قصد - لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي حَرَجَ وأَيَّم، و«الوسائل لها أحكام المقاصد».

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في (١) زيادة في ب يخط مغاير. (٢) زيادة في ب يخط مغاير.

النافع، والعمل الصالح ﴿وَبَيِّنَ عَآيَاتِهِ﴾ أي: أحكامه، وحكمها ﴿لِّلَّذِينَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيوجب لهم ذلك التذكير لما

نسوه، وعلم ما جهلوه، والامتنال لما ضيعوه.

(٢٢٢، ٢٢٣) ثم قال تعالى: ﴿وَمَسَّوْكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْرِضُوا أَلَيْسَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهَا حَتَّىٰ يَظْهَرَ قَبْلًا تَطْهَرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَبِحُجَّتِ الْمُطَهَّرَاتِ ۝ يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّي سَأَلْتُ النَّبِيَّ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَىٰ وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مَلَكُوهٌ وَنَسِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض، كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقاً كما يفعله اليهود؟.

فأخبر تعالى أن الحيض أذى، وإذا كان أذى، فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده، فللهذا قال: ﴿فَاعْرِضُوا أَلَيْسَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: مكان الحيض، وهو الوطء في الفرج خاصة، فهذا المحرم إجماعاً، وتخصيص الاعتزال في المحيض يدل على أن مباشرة الحائض وملامستها في غير الوطء في الفرج جائز.

لكن قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهَا حَتَّىٰ يَظْهَرَ﴾ يدل على أن المباشرة فيما قرب من الفرج، وذلك فيما بين السرة والركبة، ينبغي تركه كما كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض، أمرها أن تأتزر، فيباشرها.

وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للمحيض ﴿حَتَّىٰ يَظْهَرَ﴾ أي: ينقطع دمه، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه، الذي كان لحله شرطان: انقطاع الدم، والاعتزال منه فلما انقطع الدم، زال الشرط الأول، وبقي الثاني، فللهذا قال: ﴿قَبْلًا تَطْهَرْنَ﴾ أي: اغتسلن ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: في القبل لا في الدبر، لأنه محل الحرث.

وفيه دليل على وجوب الغتسل للحائض، وأن انقطاع الدم شرط لصحته.

ولما كان هذا المنع طلقاً منه تعالى بعباده، وصيانة عن الأذى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: من ذنوبهم على الدوام ﴿وَبِحُجَّتِ الْمُطَهَّرَاتِ﴾ أي: المستزهِين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث.

ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً، لأن الله تعالى يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً، شرطاً لصحة الصلاة والطواف، وجواز مس المصحف، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة، والصفات القبيحة، والأفعال

المأكَل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى [وإحسان، وتوسعة على المؤمنين].

والإفشاء ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ﴾ أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك، فخرجتم، وشق عليكم وانتم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ﴾ أي: له القوة الكاملة، والقهر لكل شيء ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فغزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لا بد له من حكمه، عرفنا ما لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لنتمام حكمته ورحمته.

(٢٢١) ﴿وَلَا تُشْرِكُوا الشِّرْكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَئِمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّىٰ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَدْتُمْ وَلَا تُشْرِكُوا الشِّرْكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبَدٌ مُّؤْمِنٌ حَتَّىٰ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَدْتُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ لِلَّذِينَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ النساء ﴿الشِّرْكَاتِ﴾ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ لأن المؤمنة - ولو بلغت من الدمامة ما بلغت - خير من المشركة، ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْآيَةِ أُولُوا الْكِتَابِ﴾.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا الشِّرْكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه.

ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطور ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجز الزواج - مع^(١) أنه فيه مصالح كثيرة - فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا الشِّرْكَاتِ﴾ دليل على اعتبار الولي في [النكاح].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابهما من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم

الخبيسة.

﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ مقابلة ومدبرة، غير أنه لا يكون إلا في القبل، لكونه موضع الحراث، وهو الموضع الذي يكون منه الولد.

وفيه دليل على تحريم الوطء في الدبر، لأن الله لم يبيح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحراث، وقد تكررت الأحاديث عن النبي ﷺ في تحريم ذلك، ولعن فاعله.

﴿وَقَدْ مَوَّاهُ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ويجمعها على وجه القرية والاحتساب، وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين يرفع الله بهم.

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أحوالكم كونوا ملازمين لتقوى الله، مستعينين بذلك لعلمكم ﴿أَنَّكُمْ تُلْقَوْنَ﴾ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها.

ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر المبشر به؛ ليدل على العموم، وأن لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير واندفاع كل ضير رتب على الإيمان، فهو داخل في هذه البشارة.

وفيها محبة الله للمؤمنين، ومحبة ما يسرهم، واستحباب تشبيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ المقصود من اليمين والقسم تعظيم المقسم به، وتأكيد المقسم عليه، وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء، ولكن الله تعالى استثنى من ذلك، إذا كان البر باليمين، يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فهي عبادة أن يجعلوا أيمانهم عرضة، أي: مانعة وحائلة عن أن يبروا: أن^(١) يفعلوا خيراً، أو يتقوا شراً، أو يصلحوا بين الناس.

فمن حلف على ترك واجب وجب حثه، وحرّم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب استحباب له الحنث، ومن حلف على فعل محرم وجب الحنث، أو على فعل مكروه، استحباب الحنث، وأما المباح فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنث.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، أنه إذا تزامنت المصالح، قدم أهمها، فهنا تميم اليمين مصلحة، وامتنال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك.

ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿وَاللَّهُ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلَ إِصْلَاحٌ لَّهَا قُلْ هِيَ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِكُمْ فَاحْذَرُوا اللَّهَ عَالِمُ الْغُيُوبِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَا مُمْسِكَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحْضِيِّ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْرِضْهُ لِّلنِّسَاءِ فِي الْمَحْجِيزِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدْ مَوَّاهُ لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ تُلْقَوْنَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده.

(٢٢٥) ثم قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَتْرِ فِي آيَاتِنَكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية التي يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، فتقول الرجل في عرض كلامه: «لا والله»، «وبلى والله»، وكحلقة على أمر ماض، يظن صدق نفسه، وإنما المواخذة على ما قصده القلب.

وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

والله ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه ﴿حَلِيمٌ﴾ بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر، وصفح مع قدرته عليه.

وكونه بين يديه .

(٢٢٦، ٢٢٧) ﴿الَّذِينَ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثَرْبَةً أَشْهَرُ فَإِنْ قَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَّوْا طَلَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
ولهذا من الإيمان الخاصة بالزوجة، في أمر خاص، وهو حلف الزوج على ترك وطء زوجته مطلقاً، أو مقيداً، بأقل من أربعة أشهر أو أكثر.

فمن آلى من زوجته خاصة، فإن كان ليدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الإيمان، إن حثت كُفِّر، وإن أتم بعينه فلا شيء عليه، وليس لزوجه عليه سبيل، لأنه ملكه أربعة أشهر.
وإن كان أبداً، أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من بعينه، إذا طلبت زوجته ذلك؛ لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيئة، وهو الوطء، فإن وطئ، فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم.

ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ قَالُوا﴾ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف، بسبب رجوعهم ﴿رَحِيمٌ﴾ حيث جعل لإيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم، غير قابلة للانفكاك، ورحم بهم أيضاً، حيث فاؤوا إلى زواجهم، وحنوا عليهم ورحمهم.

﴿وَإِنْ عَزَّوْا طَلَّقُوا﴾ أي: امتنعوا من الفيئة، فكان ذلك دليلاً على رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهن، ولهذا لا يكون إلا عزماً على الطلاق، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره الحاكم عليه، أو قام به. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد وتهديد لمن يحلف بهذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة، لقوله: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة يجبر، إما على الوطء، أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجباً.

(٢٢٨) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَبِوَلَّيْنَهُنَّ أَمْوَالُهُنَّ بِرِجَالٍ عَدْلٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَأْخُذَ بِأَمْوَالِهَا الَّتِي عَلَيَّهَا بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: النساء اللاتي طلقهن أزواجهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: يتظنن ويعتددن مدة ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي: حيض، أو أطهار على اختلاف العلماء في المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القرء الحيض، ولهذا

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٩﴾ الَّذِينَ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثَرْبَةً أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ قَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣٠﴾ وَإِنْ عَزَّوْا طَلَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَبِوَلَّيْنَهُنَّ أَمْوَالُهُنَّ بِرِجَالٍ عَدْلٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَأْخُذَ بِأَمْوَالِهَا الَّتِي عَلَيَّهَا بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٢﴾ طَلَّقُوا مَرَّتَانٍ فَلَمْ يَكُفَاكُمَا بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَرَيبًا يَحْسِنُ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِأَمْوَالِ أَيْمَانِكُمْ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْبِلُوا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا أَفَدْتُمْ بِهِنَّ تِلْكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوا ۚ وَأَنْ يَبْعَدَ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣٣﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَقِّ تَنْكِحِ زَوْجًا غَيْرَهُ ۚ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٤﴾

العدة عدة حِكْم، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكررت عليها ثلاثة الأقراء، علم أنه ليس في رحمها حمل، فلا يقضي إلى اختلاط الأنساب.

ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ وحرّم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يقضي إلى مفاسد كثيرة، فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له، رغبة فيه واستعجالاً لانقضاء العدة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصل من قطع الرحم والإرث، واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه، وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه، وثبتت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له، وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة - وهي الزنا - لكفى بذلك شراً.

وأما كتمان الحيض، بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها، وإباحته لغيره، وما

موجب العقد المطلق، وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً.

﴿وَالزَّيَالِ عَلَيْهِ ذَرْبٌ﴾ أي: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: ﴿الزَّيَالِ قَوْمٌ عَلَى الْيَسَاءِ يَمَّا فَسَكَ اللَّهُ بِصُفْهِهِ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور، كالميراث ونحوه.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه - مع عزته - حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدتهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدتهن حيضتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات^(١) يدل على أن المراد بها الحرة.

(٢٢٩) ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِن سَاءَ بِتَرْكِهِ أَوْ تَرِيعَ بِإِحْسَنٍ وَلَا يُحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفْسِدَا فُسُوءَهُنَّ فَإِنَّ يَفْسِدَا فُسُوءَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ذَلِكَ خُذُوا حُذُوهُنَّ وَلَا تَحْدُوهُنَّ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَعَلُهُ خُذُوهُنَّ فَهُنَّ أَطْفَالُكُمْ﴾ كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارعتها طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضر ما الله به عليم.

فأخبر تعالى أن ﴿الطَّلَاقُ﴾ أي: الذي تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَانٍ﴾ ليتمكن الزوج - إن لم يرد المضارة - من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على التنتين، فإما متجرى على المحرم، أو ليس له رغبة في إسكانها، بل قصده المضارة، فلها أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿يَتَرَفَّى﴾ أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها ﴿يَاخُسِّنُ﴾ ومن الإحسان، أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلها قال: ﴿وَلَا يُحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفْسِدَا فُسُوءَهُنَّ﴾ وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها، خلقة أو خلقة أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه.

يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض، لتطول العدة، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه، بل هي سحت عليها محرمة من جهتين: من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبتة إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة، فيكون ذلك سفاحاً؛ لكونها أجنبية عنه، فلها قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِلُّ هُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِهِنَّ إِلَّا كَتَّى يُؤْمَرَ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ الْآخِرَةِ﴾.

فصدور الكتمان منه دليل على عدم إيمانها بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرف أنها مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَوْلَاهُنَّ أَمْ يَفْعَلُ فِي ذَلِكَ﴾ أي: لأزواجهن ما دامت مترتبة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوا إِسْلَامًا﴾ أي: رغبة وألفة ومودة، ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان:

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التريص، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبة تعالى للآلفة بين الزوجين، وكراهته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعتها، بل إن تراضيا على التراجع، فلا بد من عقد جديد يجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: ﴿وَكُلُّ يَدُلُّ الْوَيْ عَلَى الْوَيْ﴾ أي: وللنساء على بعلتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلهامثلته، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا

(١) في ب: ونحوهما. (٢) في ب: الآية.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان، إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور، خصوصاً الولايات الصغار والكبار، نظر في نفسه^(١)، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم ولا أحجم.

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام العظيمة، قال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه التي حددها وبينها ووضحها ﴿بَيْنِيَّهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم هم المستفوعون بها، النافعون لغيرهم. وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصاً بهم، وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والشفقة بها.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: طلاقاً رجعيّاً بواحدة أونتين. ﴿فَلَكُمْ أَمْوَالُهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء عدتهن. ﴿فَلْيَكْفُرْنَ كَيْفَ يُكْفِرُ أَوْ يَتَّخِذُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِجَالاً﴾ إما أن تراجعوهن، ونيتمك القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ رِجَالاً﴾ أي: مضارة بهن ﴿لِئَلَّيْنَهُمَا﴾ في فعلكم هذا الحلال، إلى الحرام فالحلال: الإمساك بمعروف^(٢)، والحرام: المضارة.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها حزواً، أي: لعباً بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتنال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله - من رحمته - جعل له واحدة بعد واحدة، رفقاً به وسعيّاً في مصلحته.

﴿وَأَذْكُرُوا مَعَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عموماً، باللسان حمداً وثناءً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله.

﴿وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة، اللذين يبين لكم بهما طرق الخير ورعيكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعرفكم نفسه ووقائعته في أولياته وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه،

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفِيَّاهُ اللَّهُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فَيَا أَقْدَتَ يَدُ﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرق، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

﴿تِلْكَ﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها.

﴿وَمَنْ يَتَّخِذْ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟.

والظلم ثلاثة أقسام: ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

(٢٣١، ٢٣٠) ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمْ نِسَاءَكُمْ فَلَا حِلَّ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحُوا زَوْجًا غَيْرَهُمْ﴾ أي: طلاقاً فلا جناح عليكم أن يترجعا إن طلقاً أن يفيا حُدُودَ اللَّهِ وتلك حُدُودُ اللَّهِ بَيْنِيَّهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ○ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَكْفُرْنَ كَيْفَ يُكْفِرُ أَوْ يَتَّخِذُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِجَالاً لِّئَلَّيْنَهُمَا ﴿فَلْيَكْفُرْنَ كَيْفَ يُكْفِرُ أَوْ يَتَّخِذُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِجَالاً لِّئَلَّيْنَهُمَا﴾ أي: مضارة بهن ﴿لِئَلَّيْنَهُمَا﴾ في فعلكم هذا الحلال، إلى الحرام فالحلال: الإمساك بمعروف^(٢)، والحرام: المضارة.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها حزواً، أي: لعباً بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتنال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله - من رحمته - جعل له واحدة بعد واحدة، رفقاً به وسعيّاً في مصلحته.

﴿وَأَذْكُرُوا مَعَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عموماً، باللسان حمداً وثناءً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله.

﴿وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة، اللذين يبين لكم بهما طرق الخير ورعيكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعرفكم نفسه ووقائعته في أولياته وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه،

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفِيَّاهُ اللَّهُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فَيَا أَقْدَتَ يَدُ﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرق، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

﴿تِلْكَ﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها.

﴿وَمَنْ يَتَّخِذْ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟.

والظلم ثلاثة أقسام: ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

(٢٣١، ٢٣٠) ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمْ نِسَاءَكُمْ فَلَا حِلَّ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحُوا زَوْجًا غَيْرَهُمْ﴾ أي: طلاقاً فلا جناح عليكم أن يترجعا إن طلقاً أن يفيا حُدُودَ اللَّهِ وتلك حُدُودُ اللَّهِ بَيْنِيَّهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ○ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَكْفُرْنَ كَيْفَ يُكْفِرُ أَوْ يَتَّخِذُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِجَالاً لِّئَلَّيْنَهُمَا ﴿فَلْيَكْفُرْنَ كَيْفَ يُكْفِرُ أَوْ يَتَّخِذُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِجَالاً لِّئَلَّيْنَهُمَا﴾ أي: مضارة بهن ﴿لِئَلَّيْنَهُمَا﴾ في فعلكم هذا الحلال، إلى الحرام فالحلال: الإمساك بمعروف^(٢)، والحرام: المضارة.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها حزواً، أي: لعباً بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتنال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله - من رحمته - جعل له واحدة بعد واحدة، رفقاً به وسعيّاً في مصلحته.

﴿وَأَذْكُرُوا مَعَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عموماً، باللسان حمداً وثناءً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله.

﴿وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة، اللذين يبين لكم بهما طرق الخير ورعيكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعرفكم نفسه ووقائعته في أولياته وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه،

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٧

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
 سِرِّهِنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْكِحُوهُنَّ بِضُرٍّ لَّاعْتِدَاءٍ وَمَنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَنْدِيحُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُرُوءًا وَادْكُرُوا
 يَمَعَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
 يَعِظُكُمْ بِهَا تَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣٢﴾
 وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَقْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ
 أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَلَّمَ مِنْكُمْ يُمْرُ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٣﴾
 هَذَا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا خرجت
 من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز
 لوليها من أب وغيره أن يعرضها، أي: يمنعها من الزواج به
 حقًا عليه وغضبًا، واشتمارًا لما فعل من الطلاق الأول.
 وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليامنه بمنعه من
 العضل، فإن ذلك أزكى لكم وأطهر وأطيب مما يظن الولي أن
 عدم تزويجه هو الرأي واللائق، وأنه يقابل بطلانه الأول بعدم
 التزويج له^(١)، كما هو عادة المترفعين المتكبرين.
 فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه، فإله «يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مرید
 لها، قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.
 وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح،
 لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو
 تحت تدبيرهم، ولهم فيه حق.

وكلا المعتنين صحيح، ولهذا قال: «يَعِظُكُمْ بِهِ» أي: بما
 أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار
 الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو
 الترهيب، فالحكم به يزول الجهل، والحكمة مع الترغيب
 يوجب الرغبة، والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة «وَأَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» فلماذا
 بين لكم هذه الأحكام بغاية الإتيان والإحكام، التي هي جارية
 مع المصالح في كل زمان ومكان [فله الحمد والمنة].

(٢٣٢) (وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَقْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ
 أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَلَّمَ مِنْكُمْ يُمْرُ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٣﴾
 هَذَا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا خرجت
 من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز
 لوليها من أب وغيره أن يعرضها، أي: يمنعها من الزواج به
 حقًا عليه وغضبًا، واشتمارًا لما فعل من الطلاق الأول.
 وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليامنه بمنعه من
 العضل، فإن ذلك أزكى لكم وأطهر وأطيب مما يظن الولي أن
 عدم تزويجه هو الرأي واللائق، وأنه يقابل بطلانه الأول بعدم
 التزويج له^(١)، كما هو عادة المترفعين المتكبرين.

فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه، فإله «يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مرید
 لها، قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.
 وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح،
 لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو
 تحت تدبيرهم، ولهم فيه حق.

(٢٣٣) ثم قال تعالى: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ
 كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْوَالِدِ لَمْ يَرْضِعْنِ وَكُسُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ
 لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَفْسَهَا وَلَا تَنْكَحُوا وَلَدَهَا وَلَا مَوْلُودَ لَمْ يُولَدُوا وَعَلَى الْوَالِدِ
 وَعَلَى الْوَالِدَاتِ بِمِثْلِ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْهِمَا وَبَيْنَ أَرْوَاحِهِمْ أَنْ تَنْتَزِعُوا أَوْلَدَهُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا
 ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّوْءَا اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» هذا خبر
 بمعنى الأمر، تنزيلاً له منزلة المقرر الذي لا يحتاج إلى أمر
 بأن «يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ».

ولما كان الحول يطلق على الكامل، وعلى معظم الحول،
 قال: «كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ» فإذا تم للرضيع حولان
 فقد تم رضاعه، وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية،
 فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر لا يحرم.

ويؤخذ من هذا النص، ومن قوله تعالى: «وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ

تَلَقَّوْا حَمْلَهُ» أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأنه يمكن وجود
 الولد بها.

«وَعَلَى الْوَالِدِ لَمْ يَرْضِعْنِ» أي: الأب «يَرْضِعْنَ وَكُسُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»
 وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة، فإن على الأب
 رزقها، أي: نفقتها وكسوتها، وهي الأجرة للرضاع.

ودل هذا على أنها إذا كانت في حباله، لا يجب لها أجرة
 غير النفقة والكسوة، وكل بحسب حاله، فلماذا قال: «لَا
 تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَفْسَهَا» فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني،
 ولا من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد.

«لَا تَنْكَحُوا وَلَدَهَا وَلَا مَوْلُودَ لَمْ يُولَدُوا» أي: لا يحل
 أن تنظر المرأة بسبب ولدها، إما أن تمنع من إرضاعه، أو لا
 تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة.

«وَلَا مَوْلُودَ لَمْ يُولَدُوا» بأن تمتع من إرضاعه على وجه
 المضارة له، أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من
 أنواع الضرر.

﴿بِأَنفُسِكُمْ﴾

٣٨

﴿بِأَنفُسِكُمْ﴾

وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنكُم وَيَدْرُونَ أَرْوَاجًا يَرِثُنَ بِأَنفُسِهِنَّ
 أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
 ﴿٢٣٨﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ
 أَوْ أَكْتَسْتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَكُمْ سَتَدْرُوهُنَّ وَلَكِنْ
 لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا
 وَلَا تَعْرِضُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
 وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٩﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ
 مَا لَمْ تَنَسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُسَبِّحِ
 قَدَرُهُ، وَكُلَى الْمَعْرُوفِ دَرَّةً مَعْنَا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
 ﴿٢٤٠﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنَسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
 لَهُنَّ فَرِيضَةً فَضَبْطُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا
 الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
 وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٤١﴾

أَكْتَسْتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَكُمْ سَتَدْرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ
 سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى
 يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ
 وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٨﴾ هَذَا حُكْمُ الْمُعْتَدَةِ مِنْ وَفَاءٍ، أَوْ
 الْمُبَانَةِ فِي الْحَيَاةِ، فَيُحْرَمُ عَلَى غَيْرِ مِيقَانِ أَنْ يَصْرَحَ لَهَا فِي
 الْخَطْبَةِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ وَأَمَّا
 التَّعْرِضُ فَقَدْ أَسْقَطَ تَعَالَى فِيهِ الْجُنَاحَ.

والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهذا
 حرم خوفاً من استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في
 النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء لحق
 زوجها الأول بعدم مواعيدتها لغيره مدة عدتها.

وأما التعريض، وهو الذي يحتمل النكاح وغيره، فهو
 جائز للباين، كان يقول لها: إني أريد التزوج، وإني أحب أن
 تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز، لأنه
 ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه.

وكذا إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها
 إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكْتَسْتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ

وَدَلْ قَوْلُهُ: ﴿مَوْلُودٌ لَكُمْ﴾ أَنَّ الْوَلَدَ لِأَبِيهِ، لِأَنَّهُ مُوَهَّبٌ لَهُ،
 وَلِأَنَّهُ مِنْ كِسْبِهِ، فَلِذَلِكَ جَازَ لَهُ الْأَخْذُ مِنْ مَالِهِ، رَضِيَ أَوْ لَمْ
 يَرْضَ، بِخِلَافِ الْأُمِّ.

وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ يَمْلِكُ ذَلِكَ﴾ أَي: عَلَى وَارِثِ الطِّفْلِ إِذَا
 عَدِمَ الْأَبَ، وَكَانَ الطِّفْلُ لَيْسَ لَهُ مَالٌ، مِثْلُ مَا عَلَى الْأَبِ مِنْ
 التَّفَقُّعِ لِلْمَرَضِ وَالْكِسْفَةِ، فَدَلَّ عَلَى وَجوب نفقة الأقارب
 المعسرين، عَلَى الْقَرِيبِ الْوَارِثِ الْمُسَوِّرِ.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أَي: الْأَبَوَانِ ﴿فِيصَالًا﴾ أَي: فَطَامَ الصَّبِيَّ قَبْلَ
 الْحَوْلَيْنِ ﴿عَنْ تَرَاضٍ بَيْنَهُمَا﴾ بَأَن يَكُونَا رَاضِيَيْنِ ﴿وَتَكَادِرٍ﴾ فِيمَا
 بَيْنَهُمَا، هَلْ هُوَ مُصْلِحَةٌ لِلصَّبِيِّ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ مُصْلِحَةً وَرَضِيَا
 ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمَا﴾ فِي فَطَامِهِ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ.

فدلت الآية بمفهومها على أنه إن رضي أحدهما دون
 الآخر، أو لم يكن مصلحة للطفل، أنه لا يجوز فطامه.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أَي: تَطْلُبُوا لَهُمْ
 الْمَرْضَاعَ غَيْرَ أُمَّهَاتِهِمْ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الْمَضَارَّةِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِالْعَقْرِ﴾ أَي: لِلْمَرْضَعَاتِ ﴿وَاللَّهُ يَمَّا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَمَجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

(٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنكُم وَيَدْرُونَ أَرْوَاجًا يَرِثُنَ بِأَنفُسِهِنَّ
 أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي
 أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي: إِذَا تَوَفَّى الزَّوْجُ
 مَكَثَتْ زَوْجَتُهُ مَرْتَبَةَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةِ أَيَّامٍ وَجُوبًا،
 وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ، لِتَبْيِينِ الْحَمْلِ فِي مَدَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَتَحْرِكِ فِي
 ابْتِدَائِهِ فِي الشَّهْرِ الْخَامِسِ، وَهَذَا الْعَامُ مَخْصُوصٌ بِالْحَوَامِلِ،
 فَإِنْ عَدَّتْهُنَّ بِوَضْعِ الْحَمْلِ، وَكَذَلِكَ الْأُمَّةُ عَدَّتْهَا عَلَى النِّصْفِ
 مِنْ عِدَّةِ الْحَرَّةِ، شَهْرَانِ وَخَمْسَةَ أَيَّامٍ.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أَي: انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ أَي: مِنْ مَرَاغَبَتِهَا لِلزَّيْنَةِ
 وَالطَّبِيبِ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَي: عَلَى وَجْهِ غَيْرِ مُحْرَمٍ وَلَا مَكْرُوهٍ.

وفي هذا وجوب الإحاد مدة العدة على المتوفى عنها
 زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع
 عليه بين العلماء.

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي: عَالِمٌ بِأَعْمَالِكُمْ، ظَاهِرُهَا
 وَبَاطِنُهَا، جَلِيلُهَا وَخَفِيُّهَا، فَمَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا.

وفي خطابه لأولياءه بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي
 أَنفُسِهِنَّ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَلِيَّ يَنْظُرُ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَيَمْنَعُهَا مِمَّا لَا
 يَجُوزُ فَعْلُهُ، وَيَجْبِرُهَا عَلَى مَا يَجِبُ، وَأَنَّهُ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ،
 وَاجِبٌ عَلَيْهِ.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ

أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب، وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب، والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن يترك بينه وبينه معاملة، أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَيِّنَاتٍ﴾.

(٢٣٩، ٢٣٨) ثم قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُقِيمُونَ﴾ وَتُؤْمَرُوا بِهَا فَيَنْتَبِهَنَّ ۖ فَإِنْ خَشِفَتْ فَرَجُلًا أَوْ زَكَاةً فَلَمَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَادِّائِمْهُمْ فَادِّكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عمومًا، وعلى الصلوات الوسطى وهي العصر خصوصًا، والمحافظة عليها أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها من واجب ومستحب وبالمحافظة على الصلوات تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصًا إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَتُؤْمَرُوا بِهَا فَيَنْتَبِهَنَّ﴾ أي: دليلين^(١) خاشعين، ففيه الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطمأنينة.

﴿فَإِنْ خَشِفَتْ﴾ لم يذكر ما يخاف منه ليشمل الخوف من كافر وظالم وسبع، وغير ذلك من أنواع المخاوف، أي: إن خفتم بصلاتكم على تلك الصفة فصلوها ﴿يَدَّأِ﴾ أي: على أقدامكم ﴿أَوْ زَكَاةً﴾ على الخيل والإبل وغيرها.

ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على وقتها، حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، وأنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه الحالة الشديدة، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل، بل أوجب من صلاتها مطمئنًا خارج الوقت ﴿فَإِذَا أُنِيتُمْ﴾ أي: زال الخوف عنكم ﴿فَادِّكُرُوا اللَّهَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر، ومنه الصلاة على كمالها وتمامها ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

(١) جاء في هامش أ ما نصه: (هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي الأقرب، وهو الأب، هو الأصح لمساعدة اللفظ له، والمعنى كما هو ظاهر للتعبير. وفي هامش ب زيادة بخط المؤلف هي: (وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة). (٢) من هنا بدأ الاختلاف بين النسختين، وقد أشرت إليه في المقدمة بشي. من التفصيل، وقد أثبت التفسير المأخوذ من النسخة ب في ملحق في آخر التفسير.

أَنْتُمْ سَتَكُونُونَ ۚ هَذَا التَّفْصِيلُ كُلُّهُ فِي مَقَدِّمَاتِ الْعَقْدِ. وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي: تنقضي العدة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فانووا الخير، ولا تنووا الشر، خوفًا من عقابه ورجاء لثوابه. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن صدرت منه الذنوب فتأب منها، ورجع إلى ربه ﴿حَسْبُ﴾ حيث لم يعاجل المعاصين على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

(٢٣٦) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِضُوهُنَّ لَكُمْ رَيْبَةٌ وَمِنْهُنَّ عَلَى التَّوْبَةِ قُدْرَةٌ وَعَلَى الْعُقُودِ قُدْرَةٌ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ليس عليكم - يا معشر الأزواج - جناح وإنم، بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها، فإنه ينجر بالمتعة، فليكم أن تمتنعوهن بأن تعطوهن شيئًا من المال، جبرًا لخواطرهن ﴿عَلَى التَّوْبَةِ قُدْرَةٌ وَعَلَى الْعُقُودِ﴾ أي: المعسر ﴿قُدْرَةٌ﴾ هذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ فهذا حق واجب ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ليس لهم أن يبخسوهن فكما تسبوا لشرفهن واشتياقهن، وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه، فليعلم - في مقابلة ذلك - المتعة.

فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارع ورحمته!! ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون!!! فهذا حكم المطلقات قبل المسيس، وقبل فرض المهر.

ثم ذكر حكم المفروض لهن، فقال: (٢٣٧) ﴿وَلَنْ تَلْفُتُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ رَيْبَةً فَرَضْتُمْ مَا قَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَلَدَى يَدَيْهِ عُقْدَةُ الْكَرَّاجِ وَأَنْ تَمُوتُوا أَوْ تَلْفُتُوا وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فله المطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه.

هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة، بأن تعفو عن نصفها لزوجه، إذا كان يصح عفوها ﴿أَوْ يَمُوتَا أَلَدَى يَدَيْهِ عُقْدَةُ الْكَرَّاجِ﴾ وهو الزوج على الصحيح^(١)، لأنه الذي بيده حل عقده، ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة، لكونه غير مالك ولا وكيل.

ثم رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحسانًا موجبًا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو

فإنها نعمة عظيمة ومنة جسيمة ، تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر
ليبقى نعمته عليكم ويزيدكم عليها ، ثم قال تعالى :

(٢٤٠) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْوَلَدِ عِندَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا قُلْتُمْ فِي أَشْهُدِكُمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: الأزواج الذين يموتون ويتركون خلفهم أزواجا فاعلمهم أن يوصوا ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْوَلَدِ عِندَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: يوصون أن يلزم من بيوتهم مدة سنة لا يخرجون منها ﴿وَإِنْ خَرَجَ﴾ من أنفسهم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِي مَا قُلْتُمْ فِي أَشْهُدِكُمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: من مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك، وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة بما قبلها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَكْنَ مِنْ أَشْهُدِكُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُدٍ وَعَشْرًا﴾ ووقيل: لم تنسخها، بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر وعشرا واجبة، وما زاد على ذلك فهي مستحبة ينبغي فعلها تنكحيا لحق الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل الحول، فلو كان لزوم المسكن واجبا لم ينف الحرج عنهم.

(٢٤١، ٢٤٢) ﴿وَلَمَّا طَلَّغَتْ مَنًى بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤١﴾ أي: لكل مطلقه متاع بالمعروف حقاً على كل متق، جبراً للخاطرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه المتعة واجبة على من طلقت قبل المسيس، والفرض سنة في حق غيرها كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها، وقيل: إن المتعة واجبة على كل مطلق احتجاجاً بعموم هذه الآية، ولكن القاعدة أن المطلق محمول على المقيّد، وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل الفرض والمسيس خاصة، ولما بيّن تعالى هذه الأحكام العظيمة المشتملة على الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها، ثم قال تعالى:

(٢٤٣-٢٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُنِيعَهُمْ لِئَلَّا يَخْلَفُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَى الْآثَانِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بقض تعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ حُفِرَ فَرَجًا لَا أَوْكُنَا فَاذًا أَوْنِسْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُم مَّنَاصِحٌ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلَمَّا طَلَّكَتِ مَتَّعٌ بِالسَّعْرِ هَافٍ حَقًّا عَلَى الْمُنَافِقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا يغني حذر عن قدر، ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ﴾ إن الله تعالى ﴿أَحْيَاهُمْ﴾ إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفًا وحلماً، وبياناً لآياته لخلقه بإحياء الموتى، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم ﴿عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلا تزيدهم النعمة شكراً، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَبِيحٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فأحسنوا نياتكم واقصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئاً، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في

سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإتفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا﴾ فينق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصاً في الجهاد، والحسن هو الحال المقصود به وجه الله تعالى ﴿فَيُضاعِفَهُمْ كَثْرَةً﴾ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المنفق ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افترق دفع تعالى هذا الوهم بقوله: ﴿والله يقبض ويوسع﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عن من يشاء، فالنصف كله بيديه، ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يسيط الرزق، والاتفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإتفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فهذا قال: ﴿والله يرى نعمته﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي ترك بها أوامر الله، وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى عياناً في هذه الدار، وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحادثة عليه، من تسميته قرضاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

(٢٤٦-٢٤٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ إِنَّهُ لَمَلَكَ لَنَا تَبَوُّعًا لَكُمْ فَاسْأَلْهُ عَنْكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ﴾ قَالَ تَبَوُّعًا لَكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ قَالَ تَبَوُّعًا لَكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ قَالَ تَبَوُّعًا لَكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ قَالَ تَبَوُّعًا لَكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ قَالَ تَبَوُّعًا لَكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ قَالَ تَبَوُّعًا لَكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ

يقض تعالى على نبيه قصة الملا من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملا بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم لينفقوا فيتعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام فقالوا له: ﴿أَبَتَ لَنَا مَلِكًا﴾ أي: عيّن لنا ملكاً ﴿فَنُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليجتمع متفرقنا ويقوم بنا عدونا، ولعلمهم في

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ إِنَّهُ لَمَلَكَ لَنَا تَبَوُّعًا لَكُمْ فَاسْأَلْهُ عَنْكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ قَالَ تَبَوُّعًا لَكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ قَالَ تَبَوُّعًا لَكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ قَالَ تَبَوُّعًا لَكُمْ لِيَاخُذَ بَكُمُ الْعَيْتَ

ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من بينهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لعوادئهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أي: لعلمكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، ففرض عليهم العافية فلم يقلوها، واعتمدوا على عزهم ونبيهم، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءَنَا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد أخرجنا إلى، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذرارينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نيابتهم حسنة ولم يقو تولكلهم على ربههم ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ فجنبوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على آثرهم الخور والجبن ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ فصممهم الله ونبيهم، وقوى قلوبهم، فالتزموا

أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَكَانَ اللَّهُ الْمَلِكُ وَلِكُلِّكُمْ وَعَلَمَةٌ بِمَا
فَعَلْتُمْ ۝ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ
وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا
الشُّرُوكَ ۚ إِنَّكُمْ بِعِندِ اللَّهِ بِنَاءٌ ۖ فَتُحْصَوْنَ فِي الْيَوْمِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِجُنُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانُوا عَدَدًا
كَثِيرًا وَجَمًّا غَفِيرًا، امْتَحَنَهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ لِيَتَّبِعِينَ الثَّابِتَ الْمَطْمَئِنِّ
مِمَّنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ
مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته
ولمعصيته ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا
مَنْ أَغْرَقَ غُرْقَةً يَدُّهُ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن
يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء
قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من
النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن
قتال عدوهم، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة
أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتناولون
وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي
العسكر ما يزداد به التائبون تركًا على الله، وتضرعًا واستكانة
وتبرؤًا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقاتلهم وكثرة عدوهم،
فلهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ﴾ أي:
طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم الذين أطاعوا أمر الله
ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فأروا... قتلهم
وكثرة أعدائهم، قالوا أي: قال كثير منهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا
بِالْيَوْمِ يَكَاوُتُ وَجُودُهُ﴾ لكثرتهم وعددهم وعُددهم ﴿قَالَ
الَّذِينَ يَتْلُونَ آيَاتَهُمْ مُلْكُوا اللَّهُ﴾ أي: يستيقنون ذلك، وهم
أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقِيهم ومطمئنين
لخواطرهم، وأمَّرين لهم بالصبر: ﴿كَمْ مِنْ فَتْنَةٍ يَبْتَهِلُ فِيهَا
الَّذِينَ آمَنُوا فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَضَلُّ ۖ لَوْلَا اللَّهُ لَفَاسَدَتِ الْأَرْضُ
وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فلا تغني
الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِآيَاتِهِ﴾ بالصبر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة
الله صبر العبد لله، ف وقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم،
ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قَالُوا﴾ جميعهم: ﴿رَبَّنَا
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت
أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرنا على القوم الكافرين،
من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارًا، فاستجاب الله
لهم ذلك الدعاء لإيتائهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم

أمر الله، ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلماذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ٥ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴿مَجِيئًا لظِلْمَتِكُمْ﴾ ٦ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ٧ فكان هذا تعيينًا من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿إِنِّي يَكُونُ لَهُ أَمْكٌ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَهْلُ الْمَلِكِ مِثْلَهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ قُوَّةٌ﴾ ٨ أَي: كيف يكون ملكًا وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه، ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فلماذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ ٩ فازمكم الانقياد لذلك ﴿وَرَادُّهُ﴾ ١٠ الله ﴿يَسْطَرُّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ١١ أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر مخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالمًا بالأمر وليس له قوة على تنفيذها لم يفذه الرأي الذي لا يفذه شيئًا ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ ١٢ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبره العام أحدًا عن أحد، ولا شريفًا عن وضيع، ولكنه مع ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ ١٣ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فإزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد، ثم ذكر لهم نبيهم أيضًا آية حسية يشاهدونها، وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زمانًا طويلًا، وفي ذلك التابوت سكينه تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرم، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانًا .

(٢٤٩-٢٥٠) ﴿لَقَدْ مَسَّ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَلْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ لَقَدْ أَخَذَ لَهَا يَرْبَعَةً أَمَّاؤًا مِنْكُمْ كَانُوا لَا طَاقَةَ لَهَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُنَا اللَّهُ كُفُّوا عَنْكُمْ مِنْ فِتْنَةِ قَلِيلَةٍ عَلَيْتَ إِنَّهُ كَثِيرَةٌ إِذَنْ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ۝ وَلَمَّا بَرَوْا لَهَاوَاتٍ وَجُودِهِ قَالُوا رُدُّكَ أَفْعَى عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَسَبَتْ

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِّي إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ عُرْقَةً يَدَيْهِ فَمَرُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا
لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُتْلَفُونَ اللَّهُ كَمَ مِنْ فَتْنَةٍ فَمَضَى
عَلَيْتَ فَتْنَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٥٤﴾
وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَفِّرْ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٥﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَقَلَ
دَاوُدُ جَالُوتَ وَعَازَلَهُ اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحَكِيمُ
وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥٦﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٧﴾

نقصانها وضررها، ومنها أن الاتكال على النفس سبب الفشل
والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب
النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَّقِلَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِينِنَا وَأَتَيْنَاكَ﴾ فكانه نتيجة ذلك
أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا
بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَفِّرْ
عَنَّا ذُنُوبَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فهُزَمُوهُمْ يَأْذِنُ
اللَّهُ ومنها: أن حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب،
والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن لينر
العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز ومنها: أن
من رحمة وسنته الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين
بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء
الكفر وشعائره عليها، ثم قال تعالى:

(٢٥٣) ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ أَخْلَلْنَا قُبُورَهُمْ وَخَوَّفْتُمْ عَنْهُمْ كَلِمَةً

عليهم ﴿فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَلَ دَاوُدُ﴾ عليه السلام، وكان
مع جنود طالوت ﴿جَالُوتَ﴾ أي: باشر قتل ملك الكفار بيده
لشجاعته وقوته وصبره ﴿وَعَازَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: أتى الله داود
﴿الْمَلِكُ وَالْحَكِيمُ﴾ أي: من عليه يتملكه على بني إسرائيل
مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم
والصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾ من
العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك
والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم،
فلما نصرهم الله تعالى أطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمينين
مطمئنين؛ لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله
من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك، فهذا
قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
الْأَرْضُ﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار
وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها،
 وإقامتهم شعائر الكفر، ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار
دينه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث شرع لهم
الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم، ومكنهم من
الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها، ثم قال
تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي:
بالصدق الذي لا ريب فيها، المتضمن للاعتبار والاستبصار
وبيان حقائق الأمور ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهذه شهادة من
الله لرسوله برسائه التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من
أخبار الأمم السالفة، والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم، التي
لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم، بل لم يكن في قومه
من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقاً ونبيه
صديقاً، الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون.

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو
الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد،
ويحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل
به، أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع
لهؤلاء الملأ، حين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجمع به
كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن
الحق كلما عورض وأوردت عليه شبه ازداد وضوحاً وتميز
وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على
استحقاق طالوت للملك أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع
وزوال شبه والريب، ومنها: أن العلم والرأي مع القوة
المنفذة بهما كمال الولايات، ويفقداهما أو فقد أحدهما

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٤٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَيَنْهَوْنَ عَنْ عَمَلِهِمْ ۖ وَأَمَرُوا آلَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِذَائِقِي الْعَذَابِ ۖ إِنَّ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۖ﴾ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۖ﴾ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَسْكَمَ بِالرُّعْوَةِ الْوُثْقَى ۚ لَا أَنْفَصَامَ لَهَا ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخراً وأجرًا موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثال ذرة من الخير، فلا يبيع فيه ولو اقتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق، لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون، ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله، فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلماذا قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا من باب الحصر، أي الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَتَلِكُ لَطَلُ ظَلَمٍ عَظِيمٍ﴾ ثم قال تعالى:

(٢٥٥) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ

شَآءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَقَعُلُ مَا يُرِيدُ﴾ يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض، بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ﴿وَوَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ﴾ الدالات على نبوته، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل: أيده بجبريل عليه السلام يلزمه في أحواله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلْنَا الَّذِينَ يَنْتَدِيهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ المرجحة للاجتماع على الإيمان ﴿ولكن﴾ اخْتَلَفُوا فَيَنْهَوْنَ عَنْ عَمَلِهِمْ مَنْ آمَنُوا وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ فكان موجب هذا الاختلاف الضيق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلماذا قال: ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَقَعُلُ مَا يُرِيدُ﴾ فأرادته غالبية ومشيته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والاقوال والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية، فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاة والاختيار، وأنهم سالمون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحية، فلماذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم، ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

(٢٥٤) ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا

والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فهذا قال: ﴿وَلَا يَتَّخِذُ﴾ أي: ينقله ﴿جَنَّتُهُمْ وَرَوَّ النَّارِ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بغيره لجميع المخلوقات العلي بقدرة لكمال صفاته ﴿الْعَظِيمِ﴾ الذي تتضاءل عند عظمته جيروت الجبابرة، وتضغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة، والكبرياء الجسيمة، والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العُلا، ثم قال تعالى:

(٢٥٦، ٢٥٧) ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْتُمِبِ الْفُلُوجَ وَالْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ فَقَدْ اتَّخَذَ أَلْفُؤُهُ الْوُفْقَ لَا أَنْفَصَامَ لِمَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَطْغُفُوتُ يُخْرِجُهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراف المستقيم فقد تبين أعلامه للعقول، وظهرت طرقة، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فلموفق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيء القصد فاسد الإرادة، حيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويصير الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكروه ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص آخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً

الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ﴾ هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فهذا كثرت الأحاديث في الترويج في قراءتها، وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه، مستثلاً أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ هَذَانِ السَّمَانَ الْكَرِيمَانِ يَدْلَانِ عَلَى سَائِرِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى دَلَالَةً مَطَابِقَةً وَتَضَمُّناً وَلِزُومًا، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي انصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء، من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية البارئ، ولهذا قال بعض المحققين: إنها الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لَا تَأْخُذُ بِهِ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسنة: النعاس ﴿لَمْ يَأْمَرْ بِهَا أَنْ تَسْكُنَتْ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك، وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدبر، لا يملك لنفسه ولا لغيره مقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فهذا قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يستدعي الشافع قبل الإذن، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يستقبل منها فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، مقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء، ولا من العلم مقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتها وعظمة من فيها،

الْبَقَرَةُ

٢٣

الْبَقَرَةُ

تَأْمًا أَوْجِبَ لَهُ عِبَادَةُ رَبِّهِ وَطَاعَتُهُ ﴿فَكَذَّبَ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ وأما من عكس القضية فكفر بالله وأمن بالطواغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل ماله إلى الجحيم ﴿وَأَنَّهُ سُبْحٌ عَرِيسٌ﴾ فيجازي كلا منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يغيثون عنه بدلا ولا يشركون به أحدا، قد اتخذوه حبيبا ووليا، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومن عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمُوتُ﴾ فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله وليا ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤززونهم إلى المعاصي أژا، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجا، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسررات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَحْصَىٰ أَلْبَابُهُمْ خَالِدُونَ﴾.

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعِثُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَنِّي- وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي: إلى جرأته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حملة على ذلك إلا ﴿أَنَّهُ آتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ فطغى وبغى ورأى نفسه مترشعا على رعيته، فحملة ذلك أن حاج إبراهيم في ربوبية الله، فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُبْعِثُ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المفرد بأنواع التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا، والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحاج: ﴿أَنَا أَنِّي- وَأُمِيتُ﴾ ولم يقل أنا

الذي أحيى وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستقي شخصا فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن كونه حجة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم ﴿فَأَنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ أي: عيانا يقربه كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه، فلما قال له أمرا لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: تحير فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجة وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مهقور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه، ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على نفرد الرب بالخلق والتبدير، ولزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإتابة

والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم بإبطال إلهية تلك جُمْلَةً بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهراً متصرفاً فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على صورته، ويبعد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس هذه الشمس، وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربهَا وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنتاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله. «من مفتاح دار السعادة»، ثم قال تعالى:

[illegible]

تُخْبِرُهُمْ أَي: تدخل بعضها في بعض، وتركب بعضها ببعض
﴿ثُمَّ تَكُونُ لِحِمَا﴾ فنظر إليها عياناً كما وصفها الله تعالى،
﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ﴾ ذلك وعلم قدرة الله تعالى ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل
منكر للبعث أراد الله به خيراً، وأن يجعله آيةً ودليلاً للناس
لثلاثة أوجه، أحدها قوله: ﴿أَنْ يَخْبِيَ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ولو
كان نبياً أو عبداً صالحاً لم يقل ذلك، والثاني: أن الله أراه آيةً
في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره،
ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى
حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير
فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت،
ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل
الحقيقي في إحيائه وإحياء حمارة وإبقاء طعامه وشرابه بحاله،
والثالث في قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ﴾ أَي: تبين له أمر كان
يجعله ويخفي عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم.
ثم قال تعالى:

[illegible]

تعالیٰ تابعۃ لحکمتہ ، لا یفعل شیئاً عبثاً ، ثم قال تعالیٰ :

(٢٦١) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتَ سَعَةً سَوَايِلَ فِي كُلِّ سُبُلٍ ثَمَرَةً جَاةٌ وَهِيَ لِلَّهِ وَقْدٌ لِمَن يُشَاءُ﴾^١ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢﴾ هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾^٢ وهنا قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاها إتفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتَ سَعَةً سَوَايِلَ فِي كُلِّ سُبُلٍ وَثَمَرَةً جَاةٌ﴾ وهذا إحصار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتتقاد النفس مدعنة للإتفاق سامحة بها مؤمنة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، ﴿وَاللَّهُ يُنْفِقُ﴾ هذه المضاعفة ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه، وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها وموقعها، ويحتمل أن يكون ﴿وَاللَّهُ يُنْفِقُ﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ فيعطيهم أجرهم بغير حساب ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يترهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغه، لأن الله تعالى لا يتعاضله شيء ولا يتقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

(٢٦٣، ٢٦٢) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه، ويطلب منه مقابلته، ولا أذية له قولية أو فعلية، فهو لا لهم أجرهم اللائق بهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندفع عنهم الشر، لأنهم عملوا عملاً خالصاً لله سالمًا من المفسدات ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنتكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم، فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن أساء إليك بترك مواخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قلبي، والمغفرة

وَاِذْ قَالَ اِبْرٰهٖمُ رَبِّ اُرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتٰى قَالَ اُولٰٓئِكَ
تُؤْمِنُ قَالَ بَلٰى وَلٰكِنْ لِّيَطْمَِٔنَّ قُلُوْبِي قَالَ فَخَذْنَا مِنْهُ
اٰثِمًا فَمِنْهُنَّ اِيَّاكَ ثُمَّ اَجْعَلْ عَلٰى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ اَدْعُهُنَّ يٰاَيُّنَا كُنَّ سَعِيًّا وَاَعْلَمُ اَنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيْمٌ ﴿٦٦﴾
مَّثَلُ الَّذِي يَدْعُوْهُمْ اَمْوَالُهُمْ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ كَمَثَلِ جَذْءٍ
اَنْكَبَتْ مِنْهُ سَنَابِلُ فِي كُلِّ سَبْلٍ مَّا قَدْ جِئَ بِاللّٰهِ بِصُدُوْعٍ
لِّمَن يَشَآءُ وَاَللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ ﴿٦٧﴾ الَّذِي يَدْعُوْهُمْ اَمْوَالُهُمْ
فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ ثُمَّ لَا يَتَذَكَّرُوْنَ اَمْ اَنْفَقُوْا مِمَّا وَّلَا اَدْرٰى لَهُمْ
اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴿٦٨﴾
قَوْلٌ مَّعْرُوْفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا
اَذٰى وَاَللّٰهُ عَنِّي حَلِيْمٌ ﴿٦٩﴾ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تُبْطِلُوْا
صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْاَذٰى كَالَّذِيْ يُنفِقُ مَالَهُ رِثَآءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ فَعَسٰٓءَ اَكْمَلُ صَفُوَانٍ عَلَيْهِ
رُتَابٌ فَاَصَابَهُ وَاِبِلٌ فَفَرَّكَهٖ صَلْدًا لَا يَفْقَدُوْنَ عَلَى
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوْا وَاَللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنَ ﴿٧٠﴾

إحسان أيضًا بترك المؤاخذه، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أرّ غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسدًا لها محرّمًا، لأن المنة لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمن بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضًا فإن المانّ مستعبد لمن يمن عليه، والذل والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿خَلِيقٌ﴾ على من عصاه، لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهّلهم ويصرف لهم الآيات لعلهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم، ولا تغني عنهم الآيات، ولا تنفيذ بهم المثالات، أنزل بهم عقابه وأحرمهم جزيل ثوابه.

(٢٦٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى

النفس في إخراجها، وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان: إما أن يقصد الإنسان بها محبة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين فاتفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتبشيراً من أنفسهم، فمثل نفقة هؤلاء ﴿كَمْثَلِ جَنَّةٍ﴾ أي: كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، من الاجتنان وهو الستر، لستر أشجارها ما فيها، وهذه الجنة ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ أي: محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وآخره، فتماره أكثر الثمار وأحسنها، ليست بمحل نازل عن الرياح والشمس، ف ﴿أَصَابَهَا﴾ أي: تلك الجنة التي برؤية ﴿وَأَيْلٍ﴾ وهو المطر الغزير ﴿فَنَاتَتْ أَكْثَلَهَا يَتَغَتَّى﴾ أي: تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك، وحصول الماء الكثير الذي ينميها ويكملها ﴿فَإِنْ أَمَّ يُسَبِّحًا وَأَيْلٍ قَطَلٌ﴾ أي: مطر قليل يكفيها لطيب منبتها، فهذه حالة المتقين أهل التفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمي له ما أنفق أتم تنمية وأكملها، والمُنْمِي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريداه، فيا له لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفاتها وكثرة آفاتنا وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كان المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع السررات والفرحات، ومع هذا تجد النفوس عنه راغبة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهداً في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقن العبد ذلك حق اليقين وياشر الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء الثواب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتم الجزاء ثم قال تعالى:

(٢٦٦) ﴿أَيُّودُ أَعْدَائِكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَمْ جَنَّةٍ مِنْ تَحْتِهَا وَأَصَابَ تَحَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَكْثَرُ لَمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذُرِّيَةً سَعَةً أَصَابَهَا عِصَابٌ فِيهِ نَارٌ فَاحَرَّتْ كَذَلِكَ يَجِيتُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَكُمْ تَنْفَكُوا﴾ وهذا المثل مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالاً تُفِيدُهُ، فمثلته كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاءً وقوتاً وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة

كَأَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمْثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ رُتَابٌ قَاصِبٌ وَأَيْلٍ فَتَكْكُمْ صَدَقَاتُكُمْ عَلَى كَيْفٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ينهى عباده تعالى لطفاً بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، فيهية أن المن والأذى يبطل الصدقة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قبلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى ﴿وَلَا تَبْلُغُوا أَهْلَكُمْ﴾ حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لتلا يصح العمل سدى، وقوله: ﴿كَأَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنه والأذى مبطان لأعمالكم، فقصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمرأاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده، وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور، فمثلته المطابق لحاله ﴿كَمْثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿عَلَيْهِ رُتَابٌ قَاصِبٌ وَأَيْلٍ﴾ أي: مطر غزير ﴿فَتَكْكُمْ صَدَقَاتُكُمْ﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرابي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدفته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح لنبات الزرع وزكاته عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فهذا ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم بعبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

(٢٦٥) ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ آمَنَةً مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَحْيَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمْثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَأَيْلٍ فَنَاتَتْ أَكْثَلَهَا يَتَغَتَّى فَإِنْ أَمَّ يُسَبِّحًا وَأَيْلٍ قَطَلٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا مثل المتقين أموالهم على وجه تزكوا عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ آمَنَةً مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقرية ﴿وَتَحْيَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس سخية به، لا على وجه التردد وضعف

﴿الْأَنْهَارُ﴾

٤٥

﴿الْأَنْهَارُ﴾

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَقِيَّتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَقَانَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٨﴾ أَيُّوَدُ أَحَدَكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعُفَاءُ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ بُيِّنْتُ لَكُمْ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَيْرَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بَيَّازِينَ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٧٠﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٧١﴾
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٧٢﴾

فيها^(١) الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرت، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كلٌ عليه، ونفقتهم ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصابت تلك الجنة إعصار، وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار فاحتارت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملاً لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباءً منثوراً، ﴿وَبَيَّنَّ اللَّهُ عِندَهُ وَجَابَهُ وَكَسَابُهُ سَرِيعٌ لِّحِسَابٍ﴾ فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرة ونهاية حسرت، ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيماً وخطره جسيماً، فلماذا أمر تعالى بالتفكير وحث عليه، فقال ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

(٢٦٨، ٢٦٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَيْرَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِبَيَّازِينَ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٧٠﴾ يا مَرَّعَى عَالِمِ الْعِبَادَةِ يا مَرَّعَى عَالِمِ الْمُؤْمِنِينَ بالشفقة من طيات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض، فكما من عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكراً لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، واقتصدوا في تلك الشفقة الطيبة الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الردي الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تبغوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإسكاف، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقت، وليس هذا نصيحاً لكم، بل هذا غاية الغش ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ بل أطيعوا

ربكم الذي يأمركم بالشفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يَعِدُكُمْ مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم وتطهيراً لعبوبكم ﴿وَفَضْلًا﴾ وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانسراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه، لأنه ﴿وَاسِعٌ﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصدر منكم من التفات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعة وفضله وإحسانه، فليظفر العبد نفسه إلى أي الداعين يعيل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أموراً عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من التقدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلية في قوله: ﴿مِمَّا كَسَبْتُمْ﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والتمر لا على صاحب الأرض، لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَكُمْ﴾ فمن أخرجت

(١) في النسخين: فيه.

له وجبت عليه، ومنها: أن الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربحها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة موساة من نماتها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدور عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الرديء ينهي عن إخراجها ولا يجزئ في الزكاة، ثم قال تعالى:

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِيكَ اللَّهُ مِّنَ فَضْلِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ اللَّهُ فَضْلًا لَّا يُمْسِكُهُ إِلَّا الَّذِينَ أَلْبَسُوا لَهُ الْكِبْرِيَاءَ﴾ لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم، وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرًا كثيرًا، وأجى خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية، فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرتهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين: قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول النامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرتهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلماذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

(٢٧٠) ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مِمَّا إِيَّلَيْتُمْ مِنْ آمْنَكُمُ﴾ وهذا فيه المجازاة على النفقات واجبها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم يتفق العبد ما وجب عليه من النفقات، ولم يوف ما أوجه على

﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مِمَّا إِيَّلَيْتُمْ مِنْ آمْنَكُمُ﴾ (٢٧٠) ﴿إِنْ تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُوءٌ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِقْ عَنْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لَأَبْوَابٍ وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ غَافِلٌ عَنِ الَّذِينَ يُخْفُونَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظُنُّونَ﴾ (٢٧٢) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي الْأَرْضِ يَسْتَبِطُونَ لَا يُسْتَطَاعُونَ أَن يُحْصُوا فِي الْأَرْضِ يَسْتَبِطُونَ أَهْلُ أَغْيَاءٍ مِنَ التَّعَفُّفِ يَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْلَافِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤)

نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره، فلماذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ آمْنَكُمُ﴾.

(٢٧١) ﴿إِنْ تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: ﴿إِنْ تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ فظهروها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي: نعم الشيء ﴿هِيَ﴾ لحصول المقصود بها ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ أي: تسروها ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ففي هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء فمفهوم الآية أن السر ليس خيرًا من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الأسرار، ودل قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ على أنه ينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقة المحتاجين، ولا يعطي محتاجًا وغيره أحوج منه، ولما ذكر تعالى أن الصدقة خير للمتصدق

الَّذِينَ

٤٧

الَّذِينَ

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَتُوبُونَ إِلَّا كَمَا يُتُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِ فَأْتَنَّهُنَّ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
قُلُوبُهُمْ فَأَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٧﴾
اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الضَّالِّينَ أَنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِمٍ ﴿٤٨﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا
فَأَذْنُوبُ يَحْرِبُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٥١﴾ وَإِن كَانَتْ
ذُؤُسُ فَنَظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٣﴾

منهم ما صدر، ذكر حالة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم
بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم
الذين يقبلون موعظة ربهم ويتقادون لأمره، وأمرهم أن يتقوه،
ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات
الحاضرة الموجودة، وأما ما سلف، فمن انتظ عفا الله عنه ما
سلف، وأما من لم ينزجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه
مشاق لربه محارب له، وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في
محاورة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم ولا يمهله، حتى إذا
أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وَإِن تُبْتِغُوا﴾ عن الربا ﴿فَلََكُمْ
رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: أنزلوا عليها ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ من عاملتموه
بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص رؤوس
أموالكم ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ المدين ﴿ذُؤُسُ فَنَظَرَةٌ﴾ لا يجد وفاء
﴿فَنَظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما
يوفي به ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿إِذَا
يَاسِقَاتُهَا أَوْ بَعْضُهَا﴾

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن،

انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم، قال الله تعالى وإذا
عليهم وميئتا حكمته العظيمة: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ أي: لما فيه
من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه،
وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما
يدل على المنع ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة،
والربا نوعان: ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة،
ومنه جعل ما في الدمة رأس مال، سلم. وربا فضل، وهو بيع
ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً، وكلاهما محرم بالكتاب
والسنة، والإجماع على ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل
وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب
وموبقاتها ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: وعظ وتذكير
وترهيب عن تعاطي الربا على يد من يقضه الله لموعظته رحمة
من الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه ﴿فَأَتَنَّهُنَّ﴾ عن فعله
وانزجر عن تعاطيه ﴿فَلَمْ يَأْمُرْ﴾ أي: ما تقدم من المعاملات
التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة، دل
مفهوم الآية أن من لم يتن جوزي بالاول والآخر ﴿وَأَمْرُهُ﴾ إِلَى
اللَّهِ ﴿فِي مَجَازَاتِهِ﴾ وفيما يستقبل من أموره ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى
تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك ﴿فَأُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ اختلف العلماء رحمهم الله
في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من
الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه
الأمر التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات
ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب
عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة
أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع
الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحاً للخلود فيها بقطع
النظر عن كفره، ثم قال تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: يذهب
ويذهب بركته ذاتاً ووصفاً، فيكون سبباً لوقوع الآفات فيه ونزع
البركة عنه، وإن أفق منه لم يوجر عليه، بل يكون زائداً له إلى
النار ﴿وَيُرِي الضَّالِّينَ أَنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ﴾ أي: ينميها وينزل البركة في المال
الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها، وهذا لأن الجزء من
جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على
وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم
بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على
عباده ﴿وَاللَّهُ لَا يُغِيثُ كُلَّ كَاذِبٍ﴾ نعم الله، لا يؤدي ما أوجب
عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله ﴿يُكَلِّمُ﴾
أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته. لما ذكر أكلة الربا،
وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً بنفعهم لم يصدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
فَاصْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ
أَنْ يُعْلِمَ هُوَ فَلْيُمْلَأْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ
إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُمُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُمُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوفَ يَكُفُّكُمْ وَأَنْتُمْ
أَلَّا تَعْلَمُوا اللَّهُ وَاللَّهُ يَكْفِي شَقَّ عَلَيْهِ

وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجلي والخفي، وأن الله لا يظلمه مقال ذرة، أوجب له الرغبة والرغبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

(٢٨٢) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاصْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُعْلِمَ هُوَ فَلْيُمْلَأْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُمُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُمُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوفَ يَكُفُّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث: أنه لا بد للمسلم من أجل، وأنه لا بد أن يكون معيماً معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات، إما وجوباً وإما استحباباً، لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس: أن يكون عدلاً في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع: أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقربة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر: قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ أي: لا يمتنع من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين،

فكما أحسن الله إليه تعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يملئ من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئاً، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يملأ على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً، الخامس عشر: أن من عليه حق من الحقوق التي البينة^(١) على مقدارها وصفها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئاً من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه

(١) الكلمة غير واضحة في الأصل، وأقرب ما يكون أنها على ما أثبت، والله أعلم.

والمعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، **والخامس والثلاثون**: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: ﴿وَلَا يَأْبَى الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعِيَ﴾ **السادس والثلاثون**: أن من لم يتصف بصفة الشهاء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها، ولأنه ليس من الشهاء، **السابع والثلاثون**: النهي عن السامة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، **الثامن والثلاثون**: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، **التاسع والثلاثون**: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها، بل لا بد من اليقين، **الأربعون**: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ يَجْعَلُونَ لِشُهُودِهِمْ كَبْدًا وَيَتَرُكُونَ عَنْ كِتَابَتِهَا إِذَا دُعُوا لِلشَّهَادَةِ﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضراً بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، **الحادي والأربعون**: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ **الثاني والأربعون**: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، **الثالث والأربعون**: النهي عن مضارة الشهيد أيضاً، بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أداها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك، هذا على جعل قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذُ كَبْدًا وَلَا شَهَادَةً مِّنْهُ لِمَجْهُولٍ﴾ وأما على جعلها مبنياً للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاق ونحو ذلك، وهذان هما **الرابع والأربعون والخامس والأربعون**. **السادس والأربعون**: أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق، لقوله: ﴿وَإِنْ تَقَعُوا عَلَيْهِ فُسُوقٌ فُسُوقٌ﴾ **السابع والأربعون**: أن الأوصاف كالفسق والإيمان والتفاني والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر، لقوله: ﴿وَإِنْ تَقَعُوا عَلَيْهِ فُسُوقٌ فُسُوقٌ﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُشَّاق. **الثامن والأربعون**: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد، لقوله: ﴿وَمِنْ رِّبَازٍ مِّنَ الشُّهَدَاءِ﴾. **التاسع والأربعون**: أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس

ولواقفه، **السابع عشر**: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه يتوب وليه منابه في الإملاء والإقرار، **الثامن عشر**: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله: ﴿وَلَا يَأْتِ بِكَفَالَةٍ﴾ **التاسع عشر**: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، **العشرون**: ثبوت الولاية في الأموال، **الحادي والعشرون**: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، **الثاني والعشرون**: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لطفاً بهم ورحمة، خوفاً من تلاف أموالهم، **الثالث والعشرون**: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، **الرابع والعشرون**: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدينون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، **الخامس والعشرون**: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، **السادس والعشرون**: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان المتصرف ولي يقيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، **السابع والعشرون**: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، **الثامن والعشرون**: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، **التاسع والعشرون**: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال: إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها، وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات، والله أعلم. **الثلاثون**: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لمعموم قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا رَبَّاتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ والعبد البالغ من رجالنا، **الحادي والثلاثون**: أن شهادة الكفار ذكراً كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، **الثاني والثلاثون**: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها، **الثالث والثلاثون**: أن من نسي شهادته ثم ذكر فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فَتَذَكَّرَ لَهُمْ﴾ **الرابع والثلاثون**: يؤخذ من

وذهبهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكانوا ملگلاً له وعبيداً، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وهو ربهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسيحاسبهم على ما أسروه وأعلنوه، ﴿فَيَغْيِرُ لِمَن يَشَاءُ آيَاتِهِ﴾ وهو لمن أتى بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبة الذي لم يحصل له ما يكفّرهُ ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوعاً وفهراً ومشيئته وتقديره وجزائه.

(٢٨٥) ﴿عَمَّا أَرْسَلْنَا بِمَا أَتَيْنَا مِنْ نَبِيِّهِ وَمَنْ أَلْفَوْهُ كُلٌّ
 عَمَّا يُنَادِيهِمْ وَنُفُوهِهِمْ وَرُسُلِهِمْ لَا تَعْرِفُونَ بَيْنَ أَهْلِ مِنْ رُسُلِهِ
 وَكَانُوا سَوِيًّا وَأَلْفَمْنَا عُقْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ يخبر تعالى
 عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم
 وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته
 وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن
 نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله
 على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل
 وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين
 نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلاً، وعلى الإيمان بجميع
 الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته
 الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين
 أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله
 وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم، بل كفر بالله
 ﴿وَكَانُوا سَوِيًّا﴾ ما أمرنا به ونهيتنا ﴿وَأَلْفَمْنَا﴾ لك في ذلك،
 ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد
 أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى
 مغفرته على الدوام، قالوا: ﴿عُقْرَانَكَ﴾ أي: نسألك مغفرة
 لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من
 العيوب ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع لجميع الخلائق
 فنجزهم بما عملوا من خير وشر.

(٢٨٦) ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَهَمَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ شِيعْنَا أَوْ أخطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحِثْ عَلَيْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَابْتَغِ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ شِيعُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُوا يَسَكَنُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها مواخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي: أمراً تسعه طاقتها، ولا يكلفها

قيلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستتبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه جگم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده. وقوله تعالى:

(٢٨٣) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَكَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقُومَاتٌ ۚ فَاِنْ آمَنَ بِعِصْمِكُمْ بَعْضُ الْفَوَاحِشِ الَّتِي أُوتِيتُمُ الْمَنَعَةَ وَلَيْسَتْ لَآلِهَةٍ دِينَكُمْ وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ ۖ وَمَنْ يَكْسِفْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨٤﴾ أي: إن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب بينكم يحصل به التوثق ﴿فَرِهْنَ مَقُومَاتٌ﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضًا على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنه به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضًا عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلو لا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنه به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضرًا وسفرًا، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه، فما كان صاحب الحق آمنًا من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن، فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وَلَيْسَتْ لَآلِهَةٍ دِينَكُمْ﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتبتها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وَجَبَ عليه من الخبر الصدق ويخبر بضده وهو الكذب، ويرتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِفْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حِكْمٍ عظيمة ومصالح عسيمة دلت على أن الخلق لو اهتموا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، لا نحصي ثناء

له.

(٢٨٤) ﴿لَقَدْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَئِنْ تَبُدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَتَحَمَّلُوْهُ بِعِبَاسِكُمْ بِهِ اللَّهُ يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا إخبار من الله أنه لما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَهُ ۖ فَإِنْ أَثَرُ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فَاذْكُرُوا الَّذِي أَوْثَقْتُمْ بِآيَاتِهِ ۚ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۚ وَلَا تَكْشُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَنِ اللَّهِ عَاصٍ ۖ قَلْبُهُ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۖ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ مِثْلُ مَا فِي الْأَنْفُسِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ أَفَظَنُّهُ بِمَا شَاءَ ۖ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ۖ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۖ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۖ لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفِّرْنَاكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۖ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا رُسُلًا ۖ إِن نَّشِئْنَا أَوْ خَطَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلُ عَلَيْنَا أَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ ۚ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَآئِفَةٍ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۖ﴾ ﴿٥٢﴾

بالنعمه العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرتنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاوموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرتنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتدخلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه، وصلى الله على محمد وسلم.

ويشق عليها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحماية عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا تذهب حسنات العبد لغيره، وفي الإتيان به «كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه، بل بمجرد نية القلب وأتى به «اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وأن كل عامل سيجازى بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والسيئان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ شِئْنَا أَوْ نَسِيتَا﴾ والفرق بينهما: أن النسيان: ذبول القلب عن ما أمر به فيتركه نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده، ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغسوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الاحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه مغفوع عنه، وكذلك لا يحث من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأنتف نفثاً أو ما لا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإلتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ أي: تكاليف مشقة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿وَاغْفِرْ عَنَّا وَاعْفِرْنَا وَارْحَمْنَا﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكروه والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: ربنا ومليكتنا والها الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فَيُصَمِّكُ دَارَةَ عَلَيْنَا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام، كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

(٦-١) ﴿أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي الْقَيُّومُ﴾ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَبَيَّضْتَ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٦﴾ رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٨﴾

المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أي: الحجج والبيانات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جلية ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بعدما بينها ووضحها وأزاح العلل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُقَدَّرُ قدره، ولا يدرك وصفه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: قوي لا يعجزه شيء ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بالطف بتدبير، ويقدرها بكل تقدير، فلهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقيح، وذكر وأنثى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعنيها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام،

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام، كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

الوقوف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ لأن التشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١) فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفية أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيةها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة. وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيةها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيف يتبعون هذه الأمور المشتهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكفون المعنى إلى الله فيؤمنون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الرَّحِيمُونَ﴾ على «الله» فيكون الله قد أخبر أن تفسير التشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى، والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونهم للمحكم ويقولون: ﴿كُلُّ﴾ من المحكم والتشابه ﴿بَيْنَ عِزِّ رَبِّنا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض^(٢)، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أنَّ جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه، وزجر عن اتباع التشابه قال: ﴿وَمَا يَدْعُرُ﴾ أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا ﴿أُولَئِكَ أَتَاتِبُ﴾ أي: أهل العقول الرزينة لب العالم، وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيذكرون ما يفهمه فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهمهم القشور التي لا حاصل لها ولا نتيجة تحتها^(٣) لا يفهمهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون

وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقويمته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

(٧-٩) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ بَيِّنَاتٌ مَحْكَمَتٌ هُنَّ أُمُّ

الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسْمُحُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِزِّ رَبِّنا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولَئِكَ الْأَتَابُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا رَهَبًا وَهَبًا لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ جَمِيعُ الْغُيُوبِ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغْلِبُ الْيَمِينُ ۝ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ كُلُّ مَحْكَمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَكُنْ أَنْكُرَتْ أَبْنَتْ ثُمَّ نُفِصَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾ فهو مشتمل على غاية الاتقان والإحكام والعدل والإحسان ﴿وَمَنْ أَسْنَمَ مِنْ اللَّهِ حَكْمًا لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾ وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظاً ومعنى، وأما الأحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله ﴿بَيْنَهُ بَيِّنَاتٌ مَحْكَمَتٌ﴾ أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره ﴿وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ أي: يلبس معناها على كثير من الأذهان لكون دلالتها مجعلة، أو يتبادر إلى بعض الأذهان غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بيّنة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد التشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى

فرتين ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال، وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المتشابه ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ لمن يدعونهم لقولهم، فإن التشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محللاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسْمُحُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ للمفسرين في الوقوف على «الله» من قوله: ﴿وَمَا يَسْمُحُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ قولان: جمهورهم يفتقون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب

(١) سقطت كلمة (استوى) من الأصل وأضفتها لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أنَّ جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يبين لي محلها إلا أن الأقرب أنها هنا. (٣) في الأصل القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، ولعل الصواب ما أثبت.

ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي لا تملها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك، وعافنا مما^(١) ابتليت به الزانغين ﴿وَقَبَّحْ لَنَا مِنَ اللَّهِ رَسْمَةً﴾ أي: عظيمة توفقتنا بها للخيرات وتعصنا بها من المنكرات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَوْفَاكُ﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلْعَمَدُ﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها، وقد أثنى الله تعالى على الراستخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداهما: العلم الذي هو الطريق الموصِل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم، وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه ورد لمتشابهه إلى محكمه، بقوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلى به الزانغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

(١٣-١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُخْرِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝ كَذَّابٌ مَالِي يُزَعَرُ ۝ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَخَلَعْنَاهُمْ اللَّهُ يُلْهِيهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَهْلُكَ وَتُعْزِزُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ وَيَقْسِي أَلْهَمَهُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ مَآئِيَةٌ فِي يَتَنَزَّلُ النَّفَّاسُ فِي يَتَنَزَّلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۝ وَأَنْشَأَ كَافِرَةً يَزِيدُهُمْ يَتَنَزَّلُ رَأَى الْكَلْبِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَنْكَرُ لَكَ فِي ذَلِكَ لَوِئْلَهُ لَأَرْوِي الْأَنْصَارُ﴾ يخبر تعالى أن الكفار به ويرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم، وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون: ﴿عَنْ أَكْثَرِ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَاكُمْ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿وَبَيَّنَّا لَهُمْ سَهَاتِ مَا كَسَبُوا وَتَأَقَّى بِهِمْ مَا كَانُوا يَدَّيْسَتَهُمْ﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ هُمْ حَرَّةٌ يُقْرَّبُونَ يَمَّا يَعْمَلُونَ وَهُمْ فِي الْفُرْقَاتِ أَمْثُونُ﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال والأولاد عن الكفار شيئاً، سته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظُلماً، والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب، وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَهْلُكَ وَتُعْزِزُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ وَيَقْسِي أَلْهَمَهُ﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود والنصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحنن والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبس المهاد مهادهم، وبس الجزء جزاؤهم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ مَآئِيَةٌ﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿فِي يَتَنَزَّلُ النَّفَّاسُ فِي يَتَنَزَّلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وَأَنْشَأَ كَافِرَةً﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورتاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلماذا قال: ﴿يَزِيدُهُمْ يَتَنَزَّلُ رَأَى الْكَلْبِ﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتريد عليها، وأكد هذا بقوله: ﴿رَأَى الْكَلْبِ﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزمهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطاقة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطله، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والغدد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان

(١) في الأصل: ممن، ولعل الصواب ما أثبت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ تُخِصَّ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَاؤُهُمْ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۖ كَذَابٌ عَالٍ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ
وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۖ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ
وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْيَهَادُ ۖ قَدْ كَانَ
لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّصْرَانِيَّةِ تَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ بِهِمْ وَهُمْ يُلَاحِظُونَ أُولَئِكَ أَلْقَىٰ اللَّهُ
يُؤَيِّدُ بَصْرَهُمْ مَنِ شَاءَ بِكَ فِي ذَلِكَ لَـمِزَةٌ لِأُولَىٰ
الْأَبْصَارِ ۖ ذَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ
وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَلِكَ مَتْنَعُ
الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ۖ قُلْ
أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مِنَ ذِكْرِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّفَعُوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَجُ مُطَهَّرَةً
وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ

بالله والتوكل على الله والتمتع بكفائته، وهو نصره وإعازته لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

(١٤-١٧) ﴿ذَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ۖ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مِنَ ذِكْرِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّفَعُوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَجُ مُطَهَّرَةً وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ﴾ أُولَئِكَ يَقُولُونَ رِيشًا إِنَّمَا عَامُكُمَا قَاعُفِرَ لَنَا دُونُكُمَا وَقَيْنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ الصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ ۖ يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَخَصَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْمَذْكُورَةَ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَغَيْرَهَا تَبِعَ لَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ رِيشَةً لَهَا﴾ فَلَمَّا زَيْنَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتُ بِمَا فِيهَا مِنَ الدُّوَاعِي الْمَثِيرَاتِ، تَلَقَّتْ بِهَا نَفُوسَهُمْ وَمَالَتْ إِلَيْهَا قُلُوبُهُمْ، وَانْقَسَمُوا بِحَسَبِ الرَّوَاقِعِ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ: جَعَلُوهَا هِيَ الْمَقْصُودُ، فَصَارَتْ أَفْكَارُهُمْ وَخَوَاطِرُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ لَهَا، فَشَغَلَتْهُمْ عَمَّا خَلَقُوا لِأَجْلِهَا، وَصَحَّبُوهَا صَحْبَةَ الْبَهَائِمِ السَّامَةِ، يَتَمَتَّعُونَ بِلَذَاتِهَا وَيَتَنَاوَلُونَ شَهَوَاتِهَا، وَلَا يِيَالُونَ عَلَى آتِي وَجْهِ حَصْلُوهَا، وَلَا فِيمَا أَنْفَقُوهَا وَصَرَفُوهَا، فَهَؤُلَاءِ كَانَتْ زَادًا لَهُمْ إِلَى دَارِ الشَّقَاءِ وَالْعَنَاءِ وَالْعَذَابِ، وَالْقِسْمُ الثَّانِي: عَرَفُوا الْمَقْصُودَ مِنْهَا وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا لِعِبَادِهِ، لِيَعْلَمَ مَنْ يَقْدُم طَاعَتَهُ وَمَرْضَاتِهِ عَلَى لَذَاتِهِ وَشَهَوَاتِهِ، فَجَعَلُوهَا وَسِيلَةً لَهُمْ وَطَرِيقًا يَتَزَوَّدُونَ مِنْهَا لِآخِرَتِهِمْ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِمَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى مَرْضَاتِهِ، قَدْ صَحَّبُوهَا بِأَبْدَانِهِمْ وَفَارَقُوهَا بِقُلُوبِهِمْ، وَعَلِمُوا أَنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ فَجَعَلُوهَا مَعْبَرًا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَمَتَجَرًّا يَرْجُونَ بِهَا الْفَوَائِدَ الْفَاخِرَةَ، فَهَؤُلَاءِ صَارَتْ لَهُمْ زَادًا إِلَى رَبِّهِمْ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَسْلِيَةٌ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الَّتِي يَقْدَرُ عَلَيْهَا الْغَنَاءُ، وَتَحْذِيرٌ لِلْمَغْتَرِبِينَ بِهَا، وَتَوْهِيدٌ لِأَهْلِ الْعُقُولِ النَّبِيَّةِ بِهَا، وَتَمَامٌ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ بَعْدَهَا عَنْ دَارِ الْقَرَارِ وَمَصِيرِ الْمُتَّقِينَ الْأَبْرَارِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَذْكُورِ، أَلَا وَهِيَ الْجَنَاتُ الْعَالِيَاتُ ذَاتُ الْمَنَازِلِ الْأَيْنَةِ وَالْغُرُفِ الْعَالِيَةِ، وَالْأَشْجَارُ الْمُتَنَوِّعَةُ الْمُثْمَرَةُ بِأَنْوَاعِ الثَّمَارِ، وَالْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ عَلَى حَسَبِ مَرَادِهِمْ، وَالْأَزْوَاجُ الْمُطَهَّرَةُ مِنْ كُلِّ قَدَرٍ وَدَنَسٍ وَعَيْبٍ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ، مَعَ الْخُلُودِ الدَّائِمِ الَّذِي بِهِ تَمَامُ النِّعَمِ، مَعَ الرِّضْوَانِ مِنَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ نِّعَمٍ، فَكَيْفَ هَذِهِ الدَّارُ الْجَلِيلَةُ بِتِلْكَ الدَّارِ الْحَقِيرَةِ، ثُمَّ

اختر لنفسك أحسنهما، وأعرض على قلبك المفاضلة بينهما ﴿وَاللَّهُ يَصِيرُ بِالْعِبَادِ﴾ أَي: عَالِمٌ بِمَا فِيهِمْ مِنَ الْأَوْصَافِ الْحَسَنَةِ وَالْأَوْصَافِ الْقَبِيحَةِ، وَمَا هُوَ اللَّاقِ بِأَحْوَالِهِمْ، يُوَفِّقُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ وَيُخْذِلُ مَنْ شَاءَ. فَالْجَنَّةُ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ وَصَفَهَا وَنَعْتَهَا بِأَكْمَلِ نَعْتٍ وَصَفَ أَيْضًا الْمُسْتَحِقِّينَ لَهَا، وَهُمْ الَّذِينَ اتَّقَوْهُ بِفِعْلٍ مَا أَمَرَ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ، وَكَانَ مِنْ دَعَائِمِ أَنْ قَالُوا:

﴿رَبَّنَا إِنَّمَا عَامُكُمَا قَاعُفِرَ لَنَا دُونُكُمَا وَقَيْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ تَوَسَّلُوا بِمَنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِتَوْفِيقِهِمْ لِلْإِيمَانِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ وَيَقِيَهُمْ شَرَّ آثَارِهَا، وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، ثُمَّ فَصَّلَ أَوْصَافَ التَّقْوَى، فَقَالَ: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ أَنْفُسُهُمْ عَلَى مَا يَجِبُهُ اللَّهُ مِنْ طَاعَتِهِ، وَعَنِ مَعْصِيَتِهِ، وَعَلَى أَقْدَارِهِ الْمَوْمِلَةِ، ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ فِي إِيْمَانِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ بِأَنْوَاعِ النِّفَاقَاتِ عَلَى الْمَحَاوِيحِ مِنَ الْأَقَارِبِ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ لِأَنَّهَا لَمَّا بَيَّنَّ صِفَاتِهَا الْحَمِيدَةَ ذَكَرَ احْتِقَارَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ حَالًا وَلَا مَقَامًا، بَلْ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ مَذْنُبِينَ مُقْصِرِينَ فَيَسْتَغْفِرُونَ رَبَّهُمْ، وَيَتَوَقَّعُونَ أَوْقَاتَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٥٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِنَّا
عَذَابُ النَّارِ ﴿١٨﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْمُتَّقِينَ
وَالْمُتَّقَاتِ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٩﴾ شَهِدَ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ
أَنفُسِهِمْ أَمْثَلُ وَمَا أَخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِغَيَابِهِمْ وَمَنْ يُكْفُرْ بَعْدَ ذَلِكَ
أَنفُسُهُمْ فَآتَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ حُجُوبًا ﴿٢١﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ
وَجْهِيَ اللَّهِ وَمَنْ أَتَعْبَعُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
مَا أَسَلْتُهُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ عَنْهُمُ لَغْوٌ أَقْدَرُ أَعْتَصِمُوا لَهُ وَإِنَّا لَهُمْ
عَالِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ بِمَا عَصَيْتُمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس،
وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب
في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهاده تعالى أهل العلم
يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم، وأنهم أمانة على ما
استراعهم عليه، ولما قرر توحيد قرر عدله، فقال: ﴿قَائِمًا
بِالْقِسْطِ﴾ أي: لم يزل منصفاً بالقسط في أفعاله وتدييره بين
عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما
خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيد فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله
وإفراجه بالعبودية قد دلت عليه الأدلة القلبية والأدلة العقلية،
حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فأما الأدلة القلبية
فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقديره،
ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك
وأهله، فهو من الأدلة القلبية على ذلك، حتى كاد القرآن أن
يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تترك بمجرد فكر
العقل وتصوره للأمر فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير

الإجابة وهي السحر، قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر،
ثم جلسوا يستغفرون ربهم. فتضمنت هذه الآيات حالة الناس
في الدنيا وأنها متاع يتقضي، ثم وصف الجنة وما فيها من
التعظيم وفاضل بينهما، وفضل الآخرة على الدنيا تنبيهاً على أنه
يجب إيتاها والعمل لها، ووصف أهل الجنة وهم المتقون،
ثم فصل خصال التقوى، فبهذه الخصال يزن العبد نفسه، هل
هو من أهل الجنة أم لا؟

(١٨-٢٠) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْقُوْلِ
قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾ ○ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ
أَنفُسِهِمْ أَمْثَلُ وَمَا أَخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
مِنْ الْعِلْمِ بِغَيَابِهِمْ وَمَنْ يُكْفُرْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنفُسُهُمْ فَآتَتْهُمُ
الْمَلَائِكَةُ حُجُوبًا ○ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ
أَتَعْبَعُ وَالَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مَا أَسَلْتُهُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ عَنْهُمُ لَغْوٌ
أَقْدَرُ أَعْتَصِمُوا لَهُ وَإِنَّا لَهُمْ عَالِمُونَ ﴿٢٢﴾ هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد
بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص
الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه
من الحجج والبراهين القاطعة على توحيد، وأنه لا إله إلا
هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأفان والأفان على هذا الأصل
العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا
ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه
العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النعم إلا
هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم
ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان
الشرك، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيد منها بإخبار الله لنا
بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم
المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور
وأجلها وأشرفها، وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم
قد اتفقوا على ذلك، ودعوا إليه وبيّنوا للناس الطرق الموصلة
إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه
والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد
لأن الله شهد به بنفسه، وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة
لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه
دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة
فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم
من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم
مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته
وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي
العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون

لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحشت عليها كتبه،
 وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص
 له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله
 في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو
 على طريقهم، وإنما اختلفت أهل الكتاب بعدما جاءتهم كتبهم
 تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغيا بينهم، وظلما
 وعدوانا من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب
 أن يتبعوا الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فهذا
 قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَلِئَلَّا تُؤْتُوا عِلْمَ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا اللَّهَ وَاتَّبِعُوا رَسُولَهُ وَاتَّبِعُوا
 آيَاتَ الْكِتَابِ فَذَلِكَ لَكُمْ سُبُلُ الْحَقِّ وَالنَّجْدِ وَأَنْتُمْ أَعْلَمُونَ﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا رُسُلَكُمْ فَكُنْزَ الْبِرِّ فَكَانَ اللَّهُ
 سَمِيعًا عَلِيمًا﴾
 فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصا من ترك الحق
 بعد معرفته، فهذا مستحق للعقوبة الشديدة والعقاب الأليم، ثم
 أمر تعالى رسوله ﷺ عند محاجة النصارى وغيرهم ممن
 يفضل غير دين الإسلام عليه، أن يقول لهم: قد «أَسَلْتُ وَيَهْيُ
 إِلَهُ وَمَنِّي أَتَيْتُ» أي: أنا ومن اتبعني قد أقرنا وشهدنا وأسلمنا
 وجوهنا لرَبِّنا، وتركتنا ما سوى دين الإسلام، وجزئنا بيطلانه،
 ففي هذا تأسيس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود
 الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن
 الله استشهد على توحيده بأهل العلم من عباده، ليكونوا حجة
 على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا
 محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت
 درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس
 لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر
 توحيد الله ودينه بأدلة الظاهرة، وقام به أكمل الخلق
 وأعلمهم، حصل بذلك اليقين، وانتفى كل شك وريب
 وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطل، فهذا قال:
 ﴿وَقُلْ لِلَّهِ الْإِسْلَامُ أَكْبَرُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا اللَّهَ وَاتَّبِعُوا رَسُولَهُ وَاتَّبِعُوا
 آيَاتَ الْكِتَابِ فَذَلِكَ لَكُمْ سُبُلُ الْحَقِّ وَالنَّجْدِ وَأَنْتُمْ أَعْلَمُونَ﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا رُسُلَكُمْ فَكُنْزَ الْبِرِّ فَكَانَ اللَّهُ
 سَمِيعًا عَلِيمًا﴾
 من شركي العرب وغيرهم «أَسَلْتُكُمْ» كَأَسَلْتُكُمْ، أي: بمثل ما
 آتَمْتُ بِهِ «فَقَدْ أَهْتَدُوا» كما اهتديتم، وصاروا إخوانكم، لهم
 مالكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام، ورضوا
 بالأديان التي تخالفه ﴿فَكَيْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فقد وجب أجرك
 على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا
 مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ﴾

(٢٢، ٢١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ
 بِعَمِهِ قَدْ قَاتَلَ اللَّهُ الَّذِينَ قَاتَلُوا النَّبِيَّ بِالْقِسْطِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
 فَتَرَاهُمْ يُعَذَّبُونَ أَلَيْسَ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ فِي
 الظُّلُمَاتِ ۚ وَالْآخِرَةُ وَمَا لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ﴾ هؤالا الذين اأبر الله

منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره، انفراده بالنعمة ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها، وإن أحدًا من الخلق لا يملك لنفسه - فضلًا عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، يتقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل، وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفراد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جَدًّا، ومن الأدلة العقلية أيضًا على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبت من دونه، بأنها لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئًا، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المذْذَبَرَات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصولًا إلى كل خير، دافعًا لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سببًا للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: عبرة يعتبر بها المعترفون، فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية الثقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بيته، يهلك من هلك عن بيته، فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بيّن العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام

الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْكِفْرِ وَالَّذِينَ يُؤْتُوا صَبِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ
 اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسِكَ السَّارَ إِلَّا آيَاتُنَا مَقْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا
 فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَقْرَأُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْتَهُمْ
 لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ
 لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ
 مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ
 مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْغَيْبُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ
 فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
 وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِعَدْرِ حِسَابٍ ﴿٣١﴾
 لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن
 يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّبِعُوا مَنَّهُمْ
 نُقْدَةً وَيَعِذُّكُمْ اللَّهُ تَنفُسَهُ ۖ وَلِلَّهِ الْعَصِيرُ ﴿٣٢﴾ قُلِ
 إِن تَحْقُقُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْذُرُوا بِعِلْمِهِ اللَّهُ وَسِعَ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

كسبت، ومجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

(٢٧، ٢٦) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْغَيْبُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٠ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِعَدْرِ حِسَابٍ يقول لنبه ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك، والتصرف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد البارئ تعالى بها، فقال: ﴿تُؤْتِي الْمُلُوكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقيصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشية الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به ستة من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله، لا

عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً، وأثني جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد، ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم وتوقيهم، ونصرهم، وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنایات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها، المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نعمته مقال ذرة، بل قد أسبوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحورهم، قبحهم الله، ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

(٢٥-٢٣) ﴿قُلْ تَرَى إِلَى اللَّهِ لَيْسَ إِلَهُكَ أَوْتُوا صَبِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسِكَ السَّارَ إِلَّا آيَاتُنَا مَقْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَقْرَأُونَ ۚ فَكَيْفَ إِذَا جِئْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقياداً لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولي فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كضلهم، فيصينا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله هو قولهم: ﴿لَن تَمْسِكَ السَّارَ إِلَّا آيَاتُنَا مَقْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾ افتروا هذا القول فظنوه حقيقة، فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم متهم وغرتهم أن مالهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مالهم شر مال، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلهذا قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم ووخيم ما يقدمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها، لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما

يوجد سبب يستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سببا لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدرون عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَاكَ مِنَ قَبْلِهِمْ﴾ الآية، فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ نَفْسَكَ وَبَصَرِيقَ الْوَالِدَيْنِ﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلُظُوا وَادْعُوهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَاذُونَ لَأَمَّا لَكُمُ النَّارُ وَأُولَئِكَ عَلَى صُدُوقِهِمْ﴾ فأخبر أن اتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والفرق الذي أطمع فيه الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ مِّنْ نَّكَاتٍ يُطَاعُكَ وَتُؤَدَّىٰ مِّنْ نَّكَاتٍ بِمَعْصِيَتِكَ﴾ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يستعجلك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيتك وقدرتك ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَنْهَارِ تُوَلِّجُ الْفَهَّارَ فِي الْيَمِّ﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضياء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته ﴿وَتُخْرِجُ النَّجْمَ مِنَ اللَّيْلِ﴾ كالفرخ من البضة، وكالشجر من النوى، وكالزعرور من البدر، وكالمؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ﴾ كالبيضة من الطائر، وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئا، فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وَتَرْزُقُكَ مِّنْ نَّكَاتٍ بِمَعْرِجِكَ﴾ أي: ترزق من تشاء رزقا واسعا من حيث لا يحسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

(٢٨-٣٠) ﴿لَا يَخْذِيكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَوَالًا مِنْ دُونِ الْمَوْتِ وَمَنْ يُفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالة الله وموالة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ مَعْتَرِفُونَ أَنَّهُمْ لَكُمْ إِلَهٌ غَيْرٌ﴾ فمن وإلى الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفأ نور الله ويفتوا أوليائه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَعَلَيْكُمْ﴾ وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصداقتهم، والميل إليهم والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ كُفِّرُوا بَيْنَهُمْ نَفْسًا﴾ أي: تخافهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصون به دماءكم من النقية باللسان وإظهار ما به تحصل النقية. ثم قال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُ اللَّهُ نَجْسَهُمْ﴾ أي: فلا تعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ﴾ أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصى أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم، فليأكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصًا، ولما في السماء والأرض عمومًا، وعن كمال قدرته، فيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلا لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور ويحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله، وفي ضمن إخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج» وأما قوله: ﴿إِلَّا أَنْ كُفِّرُوا بَيْنَهُمْ نَفْسًا﴾ قال مجاهد: لا مصانعة، والاتفاق ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا فاسد، ولكن أفضل ما أقدر عليه كما في «الصبح» عن النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده» فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه ولا قلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه، وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله، بل غايته أن يكون كمؤمن من آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقا لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وكانا الدين شيئا، وإظهار الدين الباطل شيئا، آخر، فهذا لم يبيحه الله إلا لمن أكرهه إليه.

﴿وَمَنْ يُفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالة الله وموالة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ مَعْتَرِفُونَ أَنَّهُمْ لَكُمْ إِلَهٌ غَيْرٌ﴾ فمن وإلى الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفأ نور الله ويفتوا أوليائه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَعَلَيْكُمْ﴾ وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصداقتهم، والميل إليهم والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ كُفِّرُوا بَيْنَهُمْ نَفْسًا﴾ أي: تخافهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصون به دماءكم من النقية باللسان وإظهار ما به تحصل النقية. ثم قال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُ اللَّهُ نَجْسَهُمْ﴾ أي: فلا تعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ﴾ أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصى أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم، فليأكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصًا، ولما في السماء والأرض عمومًا، وعن كمال قدرته، فيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلا لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور ويحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله، وفي ضمن إخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم

القيامة، فهو الذي توفي به النفوس بأعمالها، فهذا قال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ شِقَاقَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليرتكها وقت الإمكان قبل أن يقول: ﴿بَحْسَرْتُ عَلَىٰ مَا مَرَدْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ ﴿يَوْمَ يَوْمُ الدِّينِ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا يَوْمَ الْأَرْضِ﴾ ﴿يَوْمَ يَمَسُّ الظُّلُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ يَكُولُ﴾ يَكُولُ: أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْكِلًا ٥ يَكُولُ: يَتَنَبَّهُ لَوْ أَخَذَ فَلَا تَخْلِيلًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ يَلَيْكَتْ يَبْيِي وَيَلَيْكُ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنُ الْقُرَيْنُ﴾ فوالله لترك كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار، أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك المضاعف، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور، فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وأجلاً، ويحجم عن ما يضره عاجلاً وأجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رافة بنا ورحمة لئلا يطول علينا الأمد فتفسو قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال: ﴿يَسْأَلُكُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ ذُنُوبَكُمْ وَأَلَمْ تَدْرُوا أَنَّ يَمُنْ عَلَيْنَا بِالْحَذَرِ مِنْهُ عَلَى الدَّوام، حتى لا نفعل ما يسخطه ويغضبه.

(٣١) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا حُبُّكُمْ اللَّهُ وَيُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: ادعيت هذه المرتبة العالية، والمرتبة التي ليس فوقها رتبة، فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسول الله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسول الله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاه، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحجهم لله، وما

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ غَلِيظٌ ﴿٣١﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا حُبُّكُمْ اللَّهُ وَيُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ إِلَّا نَدَىٰ وَإِنِّي سَمِيئَةٌ مَرِيضٌ وَإِنِّي أَخِيفُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَاهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٧﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا ثِيَابًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ لَنَرَىٰ آيَةً لَّكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُنِي مِنْ شَيْءٍ يَخْفَىٰ حَسَابٍ ﴿٣٨﴾

نقص من ذلك نقص.

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله، فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مريد ﴿كُتِبَ عَلَيْكُم مِّنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّا نَهَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ﴾ بل عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ بل يخضعهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكان في هذه الآية الكريمة بياناً وتفسيراً لاتباع رسول الله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

(٣٣-٣٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ

ففتح في جيب دوعها فولجت فيها تلك النسخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيًا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: له الواجهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأبائ، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيهاً عنده، يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربهم، بل هو عليه السلام من سادات المقربين ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي النَّهْدِ وَكَهْلًا﴾ وهذا غير التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربهم، وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لولادته مما رميت به ﴿وَيَنْ أَلْفَلَكِيكُ﴾ أي: يمن عليه بالصلاح، من من عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَتْلُفُ مَا يَشَاءُ لِمَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ شَيْءٌ يَكُونُ﴾ فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراده: كن فيكون، فمن يقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب، ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ليدل عباده أنه الفعال لما يريد، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَيُؤْتِيهِمُ الْكِتَابَ﴾ يحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصاً لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم ألفاظه ومعانيه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿وَيُؤْتِيهِمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده، ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها، فقال: ﴿أَوَّلُ مَا نَزَّلْنَا عَلَيَّ عَلَيَّ ۝ عَلَيَّ الْإِنسَانِ مِن عَلَيَّ ۝ أَفَرَأَىٰ ذُنُوبَ الْإِنسَانِ ۝ عَلَيَّ عَلَّمَهُ الْقَلَمَ ۝ وَالْمَرَادُ

نبه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي قبضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: عندهم ﴿إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَن آتَاهُمْ إِيَّاهُمْ يَكْفُلْ مَرِيماً﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، ففشاها وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقتروا عليها بأن ألقوا أفلامهم في النهر، فأبهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لزكريا نبهم وأفضلهم، فلما أخبرتهم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنك رسول الله حقاً، فوجب عليهم الانقياد لك وامتثال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ الآيات.

(٤٥-٥٨) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجَعَلْنَاهُ فِي الدُّنْيَا آيَةً وَأَنْجَيْنَاهُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ وَبُكَيْتُمُ الْنَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الْكُنُفِ ۝ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ ذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ وَتَعَلَّمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۝ إِلَهُهُ إِلَهُكُمْ لَكُمْ مِنْ آلِ إِبْرَءِيلَ كَهَيْئَةِ النَّسْرِ فَأَنْشَقُوا فَيَوْمِمْكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ قَوْمٌ عَالِمُونَ ۝ وَأَرْسَلَهُ الْأَحْمَرَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَتَى الْمَوْتَ إِذْ قَالَ اللَّهُ وَأَنْتُمْ مِمَّنْ آمَنُوا وَمَا تُكَذِّبُونِ فِي بَيِّنَاتٍ ۝ إِذْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُمْ إِذْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَصِفًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ يَوْمِ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُومَ عَلَيْكُمْ وَبَشِّرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَوْهُمُ اللَّهُ وَابْتِغَاوْهُ ۝ إِذْ قَالَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَابْتِغَاوْهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ فَلَمَّا آمَنَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكَفَرُ قَالَ مَنْ مَنَاصَرِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْغَوَّارُونَ ثُمَّ أَصَادَ اللَّهُ مَنَاصِرًا لِلَّهِ وَأَشْهَدَ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَرْسَلْتَ وَأَجْعَلْنَا أَرْسُولًا فَاجْعَلْنَا مَعَ الْكَافِرِينَ ۝ وَمَعَكُمُ وَمَعَكَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمُنِيرُ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَكِّلٌ عَلَيْكَ فَاذْكُرُوا إِلَيَّ ذِكْرًا ۝ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۝ فَذْكُرُوا إِلَيَّ يَوْمَ الْفِتْنَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَخْبَرْتُكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاعَذِّبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَاسْمُكُمْ وَتَكَلَّمُوا الصَّلَاتِ فَيَوْمِمْهُمْ أَجْرَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُبْخِ الْظَالِمِينَ ۝ ذَلِكَ نَتَنَبَّأُ عَلَيْكَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝ يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله، لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم،

سورة آل عمران

٥٦

الأنعام

وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦١﴾
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٢﴾
 وَبَعَثَهُ الْكَنَبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٦٣﴾
 وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَنفُسَ
 وَأُنحِي الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾
 وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلِلَ لَكُمْ
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٥﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
 هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا أَحْسَسَ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
 الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ
 أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ أَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني، فإن طاعة الرسول طاعة لله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا وزقنا وأنعم علينا نعمًا ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مدبر مخلوق، كما قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَا آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مَا مَنَئْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ فَتَنَةً فَقَدْ عَلِمْتَهُ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وقوله ﴿هَذَا﴾ أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، ﴿فَلَمَّا أَحْسَسَ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهما يقتله وسعوا في ذلك ﴿قَالَ

بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتنانًا على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر له كمالًا آخر وفضلًا زائدًا على ما أعطاه الله من الفضائل، فقال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فأرسله الله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقًا ونبية صدقًا، ولهذا قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ طَيْرًا﴾ أي: أسوره على شكل الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: طيرًا له روح يطير بإذن الله ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ﴾ وهو الذي يولد أعمى ﴿وَالْأَنفُسَ﴾ بإذن الله ﴿وَأُنَحِّي الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: في ذلك لآية لكم إن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿وَأُيِّ آيَةً أَكْبَرُ مِنْ جَعْلِ الْجَمَادِ حَيَوَانًا، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيمان وداعية للإيمان ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: آتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تخالف ولا تناقض، بخلاف من ادعى دعوى كاذبة، خصوصًا أعظم الدعاوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية بعباده، إذ لا يشبه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبدًا، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة، فقال: ﴿وَلِأَحْلِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل، بل كان متممًا لها ومقررًا

﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله

الْأَنْصَارُ

٥٧

الشَّاهِدِينَ

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرًا لِلَّهِ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٥٨﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوعِيسَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمًا يُحِبُّونَ كَفْرًا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَزَّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٣﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٤﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ فَقُلْ إِنِّي لَأَنْذِرُكُمْ أَبْنَاءَ نَارٍ وَأَبْنَاءَ كَرٍّ وَرِسَاءَ مَا تُرْسَاءُكُمْ وَأَنْفُسًا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾

بالله وآياته ورسله ﴿فَأَعَزَّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وملأته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به ﴿وَتَحْكُمُوا الْقُلُوبَ﴾ القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ﴾ بل يغضهم ويحل عليهم

أَنْصَارًا إِلَى اللَّهِ ﴿مَنْ يَعَاوَنِي وَيَقُومُ مَعِيَ بِنَصْرَةِ دِينِ اللَّهِ فَكَانَ مِنَ الْمُسْتَبِينَ﴾ وهم الأنصار ﴿تَعَنَّى أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فافتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلهذا قال تعالى هنا: ﴿وَمَكْرُؤًا﴾ أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره ﴿وَمَكْرًا لِلَّهِ﴾ بهم جزاء لهم على مكْرهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ أُنْتَصِرِينَ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوعِيسَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالاثم العظيم بينهم أنه رسول الله، قال الله ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صُكُّوهُ وَلَكِنَّ شَيْءٌ مُكْتُمٌ﴾ وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلُوا لِيُوعِيسَ ابْنًا وَكَانَ كَقَوْلِهِمْ إِنَّا هَذَا لَأَنبِيَاؤُنَا وَمِثْلَ نَبِيٍّ كَقَوْلِهِمْ كَفَرُوا بِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُكَذَّبُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمًا يُحِبُّونَ كَفْرًا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ وتقدم أن أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأبدعهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ ﴿ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ﴾ أي: مصير الخلائق كلها ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال: ﴿فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي:

قَالُوا نَحْنُ آلَنَبَاكَ وَأَبْنَاؤُكَ وَبَنَاتُكَ وَإِيسَاءُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ
 تَبْتَلِي فَتَجْعَلُ لَنَفْسِكَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَتْنُ
 الْعَظِيمُ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَيْسَ اللَّهُ لَهُ الْفَرِيقُ الْكَبِيرُ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ
 اللَّهَ عَدِيْبُ بِالْمُفْسِدِينَ ۝ أَي: ﴿فَمَنْ جَادَلَكُمْ﴾ عَائِشَةُ فِي عِيسَى
 عَلَيْهِ السَّلَام، وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق
 منزلته ﴿وَيُنْزِلُ مَا جَاءَكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْكَ﴾ بأنه عبدالله ورسوله
 وبينت لمن جادل ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم
 الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني،
 فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن
 الحق قد تبين، فجداله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله،
 قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة،
 فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباحثته وملاعبته، فيدعون الله
 ويتهولون إليه أن يجعل لعنة وعقوبته على الكاذب من
 الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء،
 فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا وتكلموا، وعلموا
 أنهم إن لا عنوه رجعوا إلى أهلهم وأولادهم فلم يجدوا أهلاً
 ولا مالاً وعرجلوا بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم
 بطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلهاذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ
 تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَدِيْبُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة،
 وأخبر تعالى ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي قصه الله على عباده هو ﴿الْفَتْنُ
 الْعَظِيمُ﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل
 ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقاً الذي لا تنبغي
 العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وَلَيْسَ
 اللَّهُ لَهُ الْفَرِيقُ الْكَبِيرُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء
 ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في
 ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجادلونهم
 ويجاهدونهم بالقول والفعل^(١).

(٦٤) ﴿قُلْ يَهْدِيكُمْ اللَّهُ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
 أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أَي: قل
 لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿قَالُوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ
 بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ أَي: هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق
 عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون
 والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا
 وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدل،
 ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ فنفرده

سخطه وعذابه ﴿وَالَّذِي تَتْلُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾
 وهذا منه عظمة على رسوله محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل
 عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل
 للأحكام والحلال والحرام وأخبار الأنبياء الأقدمين، وما
 أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات
 الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار
 والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبت القواد ما هو
 من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

(٥٩، ٦٠) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ
 رُفِيَ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِكُمْ مَا كُنْ مِنْ الْأَشْيَاءِ
 يخبر تعالى محتجاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام
 ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له
 والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً له في الربوبية،
 وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من
 آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير، وأن جميع
 الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقض قولهم
 أدل، وعلى أن أحداً لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه
 أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب
 ولا من أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لأدم ما زعمه النصارى في
 المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى
 وأحرى، فإن صرح ادعاء البتة والإلهية في المسيح، فادعوا
 في آدم من باب أولى وأحرى، فلهاذا قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ
 عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ رُفِيَ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝
 أَلَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِكُمْ﴾ أَي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح
 عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من
 ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قصص عليكم
 ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾
 أي الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما
 بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه
 حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن
 يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي
 فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه
 عن حلها الفتح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل،
 قال تعالى: ﴿فَقَدْ أَتَى بِدَلَالَةٍ إِلَى الْفُتُورِ﴾ وبهذه القاعدة
 الشرعية تحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون
 ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا
 فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.

(٦١-٦٣) ﴿فَمَنْ جَادَلَكُمْ فِيهِ مِنْكُمْ فَعَلَيْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾

(١) في تفسير هذه الآيات تقديم وتأخير يسير، فقد أخرج تفسير قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقد ابتغينا على ما هي عليه.

الْحَقُّ

٥٨

الْحَقُّ

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٧﴾
 قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
 بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ ﴿٦٨﴾ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَحْجُوتُ فِي
 إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ هَكَأَنتم هَؤُلَاءِ حَجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
 عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
 حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ
 بِإِبْرَاهِيمَ لِلْذِّينِ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَذَتَ طَائِفَةٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ يُؤْيِسُونَكُم
 وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٣﴾ يَتَاهَلُ
 الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٤﴾

الله بالعبادة، ونخصه بالحب والخوف والرجاء، ولا نشرك به
 نبيا ولا ملكا ولا وليا ولا صنما ولا ونا ولا حيوانا ولا
 جمادا ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بل تكون
 الطاعة كلها لله ولرسله، فلا نطيع المخلوقين في معصية
 الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا
 دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا
 مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم
 معاندون متبعون أهواءهم، فأشهدوهم أنكم مسلمون، ولعل
 الفائدة في ذلك أنكم إذا قلمت لهم ذلك وأنتم أهل العلم على
 الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم، كما
 استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضا فإنكم
 إذا أسلمتم أنتم وأمتهم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم
 زكائهم ولخبث طويبتهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ آيَسُوا بِهِ أَوْ لَا
 تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُشْرِكُونَ﴾ لَذَلِكَ شَذَّاهُ
 الآية، وأيضا فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما
 يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلم بإسلامه، إخبارا يقيه
 وشكرا لنعمة ربه.

(٦٥-٦٨) ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَحْجُوتُ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
 أُنْزِلَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هَكَأَنتم هَؤُلَاءِ
 حَجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
 حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلْذِّينِ
 اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ لما ادعى
 اليهود أن إبراهيم كان يهوديا، والنصارى أنه نصراني،
 وجادلوا على ذلك، رد تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة
 أوجه، أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم
 به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في
 أمر هم أجانب عنه، وهم جادلوا في أحكام التوراة
 والإنجيل، سواء أخطأوا أم أصابوا، فليس معهم المحاجة في
 شأن إبراهيم، الوجه الثاني: أن اليهود يتسبون إلى أحكام
 التوراة، والنصارى يتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة
 والإنجيل ما أنزل إلا من بعد إبراهيم، فكيف يتسبون إبراهيم
 إليهم وهو قبلهم مقدم عليهم، فهل هذا: يعقل؟ فهذا قال:
 ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: فلو قلعتم ما تقولون لم تقولوا ذلك،
 الوجه الثالث: أن الله تعالى برا خليله من اليهود والنصارى
 والمشركين، وجعله حنيفا مسلما، وجعل أولى الناس به من
 آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد ﷺ ومن آمن معه، فهم
 الذين اتبعوه، وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وإليه

وانصرهم ومؤيديهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود
 والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا
 ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب. وقد اشتملت
 هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم،
 وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح
 له فيه، وفيها أيضا حث على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير
 من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من
 التاريخ، ثم قال تعالى:

(٦٩-٧٤) ﴿وَذَتَ طَائِفَةٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
 يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٣﴾ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٤﴾ وَكَأَن تَطَائِفُكُمُ
 مَائِيًّا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الذِّكْرِ مَائِيًّا وَبِهِ الظَّهَارُ وَالْأَكْثَرُ مَا جُرَّ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَبَشِّرْ قُلْ إِنَّ الْهَدْيَ هَدَى اللَّهُ أَنْ
 يُؤَفَّقَ أَحَدٌ يَهْدِ مَا أَوْفَيْتُمْ أَوْ يُهْجُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ
 يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَبِعِ عِلْمِهِ ﴿٧٦﴾ يَخْتَصِمُونَ بِحُكْمِهِ مِنْ بَيْنَهُ وَاللَّهُ ذُو
 الْفَضْلِ الْعَلِيِّ﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن مكر هذه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَكَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكَوْ قُلْ إِن
الْهُدَىٰ هَذِي ۖ اللَّهُ أَن يُؤَيِّدَ أَحَدًا مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّكُمْ
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّا فَضَّلْنَا بَيْنَهُم مِّنْ بَيْنِ اللَّهِ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسِعَ
عَلَيْهِ ﴿٧٣﴾ يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنِ إِن تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ
يُودِعُهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنِ إِن تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّعُهُ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ ۖ وَأَتَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِن
الَّذِينَ يَشْكُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيِّمُنْهُمْ تَمَنَّا قَلِيلًا أَوَّلَ الْهُدَىٰ لَا
خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

وَيَنْكُرُ ﴿٧١﴾ أي: لا تتقوا ولا تطمئنثوا ولا تصدقوا إلا من تبع
دينكم، واكتموا^(١) أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من
هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا
مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت
عليكم الحجة، وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالحاصل أنهم
جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قاطعاً عنهم
العلم، لأن العلم بزعهم لا يكون إلا عندهم، وموجباً
للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن ﴿الْهُدَىٰ هَذِي﴾ فمادة
الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم
الحق، أو إشارته، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا
موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤثروا من العلم إلا
قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لغيب نياتهم وسوء
مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم - والله الحمد - من
هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به
وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهتدون بأمر

(١) المراد - والله أعلم - : واكتموا أمركم عن غير من تبع دينكم.

الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم،
كما قال تعالى: ﴿وَرَوْ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ
مِنَ بَعْدِ بَيْعِكُمْ كَافَرًا﴾ ومن المعلوم أن من ود شيئاً سعى
بجهده على تحصيل مراده، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها
في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طرق يقدرون عليه،
ولكن من لطف الله أنه لا يحق المكر السيئ إلا بأهله، فلهذا
قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْلِبُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فسيحهم في إضلال
المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة عذاب لهم، قال
تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّهَبُ عَنْهُمْ عَذَابٌ قَوِّقُ
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَمَا يُغْلِبُونَ﴾ بذلك أنهم
يسعون في ضرر أنفسهم، وأنهم لا يضروركم شيئاً ﴿يُكَاذِبُ
الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ يَكَاذِبُ اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿أي: ما الذي
دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل،
وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل
تشهدون به، ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات،
فهذا نهىهم عن ضلالهم، ثم وبخهم على إضلالهم الخلق،
فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فوبخهم على ليس الحق بالباطل وعلى كتمان
الحق، لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن
العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبغوا
الأمر مبهماً، وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب
على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يهتد
العوام الذين يريدون الحق لمعرفته حتى يؤثروا، والمقصود
من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلموا به، ويميزوا
الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال
والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي
المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين،
قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَّ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ثم أخبر تعالى عن ما همت
به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال:
﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَجَهَّ النَّهَارَ وَكَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: ادخلوا في دينهم على وجه
المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما
خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه، عجباً
بأنفسهم، وظناً أن الناس سيحسون ظنهم بهم، ويتابعونهم
على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو
كره الكافرون ﴿و﴾ قال بعضهم لبعض ﴿لَا تَتَّبِعُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ

الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبه الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأميون قد عرفوا بوفاء العهود وتبقرى الله وعدم التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: ﴿إِنَّ الْأَكْثَرَ يَتَذَكَّرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ تَمَكَّنًا قَلِيلًا﴾ ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهو لا ﴿لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْأَجْرِ﴾ أي: لا نصيب لهم من الخير ﴿وَلَا يُكْفِّرُهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿وَلَا يَرْكَفُهُمُ﴾ أي: يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

(٧٨) ﴿وَلَا يَنْهَىٰ عَنْ قَوْلِهِمْ كَذَبُوا عَلَيَّ اللَّهُ يَسْمَؤُونَ﴾^١ يَكْتُمُونَ وَمَا هُوَ إِلَّا كَذِبٌ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ إِلَّا كَذِبٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله: ﴿يَكْتُمُونَ عَنِ الْكَتَابِ﴾ أي: يلوون ألسنتهم ويوهومكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: ﴿يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ إِلَّا كَذِبٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجعمون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتزليل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، ثم علمهم بذلك.

(٨٠، ٧٩) ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبِيَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمًا كَمَا نَسُوا الْآيَاتِ الَّتِي لَهُمْ سَمَوَاتٌ مَبْنُوعَاتٌ لِيُظَاهَرَهُنَّ الْقُرْآنُ بِمَا أَهْلُهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا

الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فلهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن أتى بأسبابه ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿عَلَيْهِ﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه ﴿يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة، وهي نعمة الدين ومتماته ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يصفه الواصفون، ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما.

(٧٥-٧٧) ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْتَيْهِ بِغَنَةٍ فَقَبَلَهَا بِوُجْهِهِ يُؤْذِيَ الْإِسْلَامَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ فَهُوَ أَبْسَقُ مِنْ هَذِهِ الْفِرْقَةِ﴾

﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا

المسلمون المتقادون لعبادة ربهم، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويحازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

(٨٤) ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ بَرِيٍّهٖمِ

وَأَنسَابِہٖمِ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّہُم لَا نَعْرِفُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْہُمْ وَنَحْنُ كُلُّمُ مُسْلِمُونَ﴾

تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى:

(٨٥) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْہٗ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله، فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بنوابه، وكل دين سواه فباطل، ثم قال تعالى:

(٨٦-٨٨) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم لَّعْنَةُ اللَّهِ وَالْعَذَابُ وَأَلَّاتِيں أَجْمَعِينَ ۝ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ﴾

هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول

حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين الفاطعات ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق

بعدما عرفوه، واتباعوا الباطل مع علمهم بطلانه ظلماً وبغياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي

يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن ييسر الله له أسباب الهداية، ويصونه

من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم لَّعْنَةُ اللَّهِ وَالْعَذَابُ وَأَلَّاتِيں أَجْمَعِينَ ۝ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ﴾ أي: لا يفر عنهم العذاب ساعة

ولا لحظة، لا يزيله أو إزالة بعض شدته، ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ﴾ أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعثر الله

منهم، وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم من خير لوجد، ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه.

(٩٠، ٩١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ نُّعَذِّبَنَّهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الشَّاكُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ نِلٌّ إِلَّا الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهَا ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَّنْ مِّنْ غَيْرِہٖ﴾ يخبر تعالى أن من كفر

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ بَرِيٍّهٖمِ وَلَا سَمْعِہٖمِ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّہُم لَا نَعْرِفُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْہُمْ وَنَحْنُ كُلُّمُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْہٗ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم لَّعْنَةُ اللَّهِ وَالْعَذَابُ وَأَلَّاتِيں أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا مِنَّا بَعْدَ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٨٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ نُّعَذِّبَنَّهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الشَّاكُونَ﴾ (٩٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ نِلٌّ إِلَّا الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهَا ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَّنْ مِّنْ غَيْرِہٖ﴾ (٩١)

بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتمادي في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل، بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَنصُرُهُمْ كَمَا نَزَّ يُؤْمِنُوا بِهٖ ۝ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة، ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الشَّاكُونَ﴾ أي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم يتفهم شيء، فلو أنقأ أحدهم ملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير يقدمهم من عذاب الله، فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياً بالله من حالهم.

الْبَاقِي

٦٢

سُورَةُ آلِ

لَنَنْتَالُوهُ الْيَوْمَ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا جَاءُنَا وَمَا تُفْقُونَ شَيْءًا
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لَّيْسَ
إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
التَّوْرَةُ قُلْ فَأَنُوتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهُمَ لَهَا كُتُمُ صَدِيقٍ
﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْرَأَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ
إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ
مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَتَّخِذُ الْكُفْبُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَّخِذُ الْكُفْبُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ تَبَعُونَهَا عَوَاجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
بِعَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَكَايِبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ طُيْعُوا
فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكُفْبُ يَرْدُّوهُمْ بَعْدَ مَنَعَتِكُمْ كُفْرًا ﴿١٠٠﴾

من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات
البيانات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما
أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلهذا
قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا
أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بالستهم: صدق الله،
معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة
على من أنكرها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقًا لله
أعظمهم علمًا و يقينًا بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية، ثم
أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالوحيد وترك
الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركة حصول الشقاوة، وفي
هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم
مشركون غير موحدن، ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في
الوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج
وغيره، فقال:

(٩٧، ٩٦) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِلْعَالَمِينَ﴾ ○ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ
عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

(٩٢) ﴿لَنَنْتَالُوهُ الْيَوْمَ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا جَاءُنَا وَمَا تُفْقُونَ مِنْ شَيْءٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في
طرق الخيرات، فقال: ﴿لَنَنْتَالُوهُ﴾ أي: تدركونا وتبلغوا البر
الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع الثوبات،
الموصل لصاحبه إلى الجنة ﴿حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا جَاءُنَا﴾ أي: من
أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة
الله على محبة الأموال فبذلك تمها في مرضاته، دل ذلك على
إيمانكم الصادق وبر قلوبكم و يقين تقواكم، فبدخل في ذلك
إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما
أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب
إنفاقه للمحوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما
نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي وجه كان مثابًا عليه
العبد، سواء كان قليلًا أو كثيرًا، محبوبًا للنفس أم لا، وكان
قوله: ﴿لَنَنْتَالُوهُ الْيَوْمَ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا جَاءُنَا﴾ مما يوهم أن إنفاق
غير هذا المقيد غير نافع، احتراز تعالى عن هذا الوهم بقوله:
﴿وَمَا تُفْقُونَ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيق عليكم، بل
يشيكم عليه على حسب نيائكم ونفعه.

(٩٣-٩٥) ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لَّيْسَ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَنُوتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهُمَ لَهَا
كُتُمُ صَدِيقٍ ○ فَمَنْ أَفْرَأَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ○ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن
النسخ غير جائز، فكفروا بعبسى ومحمد صلى الله عليهما
وسلم، لانهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة
بالتحليل والتحرير، فمن تمام الإنصاف في المجادلة الزامهم
بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني
إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَى
نَفْسِهِ﴾ أي: من غير تحرير من الله تعالى، بل حرمة على
نفسه لما أصابه عرق النسا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرمن
أحب الأطعمة عليه، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل والباها،
وتبعه بنوه على ذلك، وكان ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في
التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان
جلالاً لهم طيباً، كما قال تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَّا الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أَجَلَتْ لَهُمْ﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن
يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم
والعناد، فلهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْرَأَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي ظلم أعظم من ظلم من يدعى
إلى تحكيم كتابه، فيمتنع من ذلك عنادًا وتكبرًا وتجبرًا، وهذا

المشركين به الكافرين ببرهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حبيتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، ومن جعله حرماً أن كل من أراد به سوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب القيل وغيرهم، وَقَدْ رَأَيْتُ لَابْنَ الْقَيْمِ هَا هُنَا كَلَامًا حَسَنًا أَحْبَبْتُ إِيرَادَهُ لَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، قَالَ: فائدة: «وَلَيْلَهُ عَلَى النَّاسِ حُجٌّ إِلَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» «حج البيت» مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: «على الناس» لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: «وَلله» لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن الخير محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون «وَلله على الناس»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمل.

وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس يخبر فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به إيجاباً وبهم وجوباً وأداءً، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسماً لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويلاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

وأما قوله: «مَنْ» فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنى يؤول إلى: ولله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجباً على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج

عَنِ الْعَالَمِينَ يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضا ربهم والقوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: «مَبَارَكًا» أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية، كما قال تعالى: «لِيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهْمَةِ الْأَنْعَامِ»، «وَهَذَى لِّلْعَالَمِينَ» والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فيما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالى في قوله: «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» أي: أدلة واضحات، وبراہین قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما من به على أوليائه وأتباعه، فمن الآيات «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» يحتمل أن المراد به المقام المعروف، وهو الحجر الذي كان يقرم عليه الخليل لبنيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقاً في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قيل: أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة، وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل: إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه. ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بنيان، كالطواف والسعي وموضعهما، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها، ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمناً شرعاً وقدرًا، فالشرع قد أمر الله ورسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدل بهذا الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرًا فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس، حتى نفوس

لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم، وبيانه أعني هذا تقرير السهلي، وهذا بعيد جدًا، بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواء، وهو الوجوب المفهوم من قوله «على الناس»، أي: يجب الله على الناس الحج، فهو حق واجب لله، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها، ففي غاية البعد فتأمل، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما تقول: الله عليك الصلاة والزكاة والصيام.

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي، وهو الأكثر، ولفظ الإيجاب والكتابة والتحرير نحو «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ»، «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ»، «فَلَمْ تَكُنْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ» وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكيد الوجوب من عشرة أوجه: أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص، ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف «على» أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيداناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تسرت، من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: «وَمَنْ كَفَرَ» أي: لعلم التزامه هذا الواجب وتركه، ثم عظم الشأن وأكد العويد بإخباره ما يستغنى به عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغناؤه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكد ذلك بذكر اسم «العالمين» عمومًا، ولم يقل: فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنيًا عن العالمين كلهم، فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التأكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكيد هذا الفرض العظيم.

وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى وتأكيد به تكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته. ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين، اعتناه به وتأكيدها لشأنه، ثم تأمل كيف افتتح هذا

المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقًا بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: والله حج البيت على المستطيعين، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان «مَنْ» هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: «والله على الناس حج من استطاع» وحمله على باب «يعجنني ضرب زيد عمرًا» وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول، والظرف حمل على المكتوب المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)، فلا يصار إليه. وإذا ثبت أن «مَنْ» بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى «الناس» كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه ها هنا أمور منها: أن «من» واقعة على من لا يعقل، كالاسم المبدل منه فارتبطت به، ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لتحب حذف الضمير العائد، ومثال ذلك إذا قلت: رأيت إخوانك من ذهب إلى السوق منهم، كان قبيحًا، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن وجمل، يريد منها، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضيفته إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص، ومما حسن حذف المضاف في هذه أيضًا مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

وأما المجرور من قوله «الله» فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون في موضع من سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل، والثاني: أن يكون متعلقًا بسبيل، فإن قلت: كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: السبيل لما كان عبارة ها هنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما، كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير،

بذكرها، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا يَمَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ يقتل بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والافتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعث الله وآمنوا به، واجتمعوا على الإسلام، وتآلفت قلوبهم على الإيمان، كانوا كالشخص الواحد، من تألف قلوبهم وموالة بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَتَتْهُمْ بِنِعْمَةِ إِخْوَانِهِمْ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي قد استحققت^(١) النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَلَّفَكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ بما منَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويضرها، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكراً له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ، واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

(١٠٥، ١٠٤) ﴿وَلَتَكُنَّ بَيْنَكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَهْتَدُونَ عَنِ الشُّكْرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰلِقُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَرَّبُوا وَاتَّخَذُوا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ أُولَئِكَ هُمُ عَدَاؤُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولكن منكم أيها المؤمنون الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْرِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿وَيَهْتَدُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس، وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكشف الغش والمكايل والموازين، وتفقد أهل الأسواق، ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات، كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ بَيْنَكُمْ أُمَّةٌ﴾ الخ

إيقانهم، وأن ذلك من أبعاد الأشياء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَيُحْصَىٰ رَسُولُهُ﴾ أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجها والجزم بمقتضاها وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فصولات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً، ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله، وبين الاعتصام بالله.

(١٠٢، ١٠٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا يَمَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحَ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويشبوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداومة التقوى ربه وطاعته، منيئاً إليه على الدوام، ثبت الله عند موته، وورقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه، كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وتفصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى، وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاتحاد يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالاتفاق والتعادي يختل نظامهم وتقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: استحققت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٣

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمِنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٦﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٧﴾
وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمُ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٨﴾
وَلَسْتَ تُكْفِرُ مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ بَيِّنَاتٍ مِّنْ اللَّهِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّكَ آيَتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ ۖ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾

يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيهنون وأكمل تهنته، ويشرون أعظم بشاره، وذلك أنهم يشررون بدخول الجنات ورضا ربهم ورحمته ﴿فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الامرية والأحكام الجزائية قال: ﴿إِنَّكَ آيَتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا﴾ أي: نقصها ﴿عَلَيْكَ الْحَقُّ﴾ لأن أوامره ونواهيه مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل على الحكمة والرحمة والعدل والخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك، فلا ينقص أحداً شيئاً من حسنة، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

(١٠٩) ﴿وَقَدْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضاه، وفي

أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكابة الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسانئها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالمطلوب، الناجون من المهروب، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ ومن العجائب أن اختلافهم ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البالغ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١٠٦-١٠٨) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ بَيِّنَاتٍ مِّنْ اللَّهِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّكَ آيَتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ ۖ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء، فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك أبيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْهُمْ نِعْمَةُ نَسْرَةٍ وَسُرُورٍ﴾ فضره في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَتَرَوْنَهُمْ وَلَهُنَّ مَآئِمٌ مِّنْ أَلْوَيْنٍ عَاسِيَةٍ كَانَتْ أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ فَلَمَّا رَنَ إِلَيْهَا قِيلَ سِرْمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتفريع: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ بَيِّنَاتٍ مِّنْ اللَّهِ﴾ أي: كيف أثرتكم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتكم طريق الغي؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فليس

شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها.

(١١٠-١١٢) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْفَاسِقُونَ ۝ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُضِلُّوكُمْ يُلُوكُمْ ۚ الْأَبَارِكُ ثُمَّ لَا يُضِلُّوكُمْ ۝ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله، وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في دهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثلته المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخبر في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتثلت أمر ربها، واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوه إلى الإيمان، ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله، المعادون لأولياء الله بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبدانهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذى الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار فراراً، ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم، ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾ أي: عهد ﴿مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ﴾ فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارى، وقد ﴿بَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ مع ذلك ﴿يَضْرِبُكَ اللَّهُ﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً وعناداً ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: يقابلون أنبياء

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٠﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُضِلُّوكُمْ يُلُوكُمْ ۚ الْأَبَارِكُ ثُمَّ لَا يُضِلُّوكُمْ ۝ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَحْشَوْنَ يَوْمَهُمُ يُسْجَدُونَ ۚ وَاللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ وَبِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٤﴾

الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والجناية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرحهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

(١١٣-١١٥) ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَحْشَوْنَ يَوْمَهُمُ يُسْجَدُونَ ۚ وَاللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ وَبِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لما بين تعالى الفرق الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم، بين هاهنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها، فأخبر أنهم لا يستون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالى منهم ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: مستقيمة على دين الله، قائمة بما ألزمها الله به من المأمورات، ومن ذلك قيامها بالصلاة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَحْشَوْنَ يَوْمَهُمُ يُسْجَدُونَ﴾ وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٥

الْأَنْبِيَاءِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾
 مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِطَانَهُمْ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتِ لُونَكُمْ خَبَرٌ وَدُوَامَتُهُمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
 هَتَأْتُمْ آلَافَهُمْ يَتَّبِعُونَكُمْ وَلَا يُخَبِّرُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَصَاكُمْ الْآثِمِينَ ﴿١١٩﴾
 مِنَ الْغَيْثِ قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْطِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٢٠﴾
 إِنْ تَسْتَكْسِمُوهُمْ حَسَنَةً سَوْفَ تَسَوُّهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢١﴾
 تَبَوَّأَ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٢﴾

فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٦﴾
 كفروا بآيات الله، وكذبوا رسوله، وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

(١٢٠-١٢١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِطَانَهُمْ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتِ لُونَكُمْ خَبَرٌ وَدُوَامَتُهُمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هَتَأْتُمْ آلَافَهُمْ يَتَّبِعُونَكُمْ وَلَا يُخَبِّرُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَصَاكُمْ الْآثِمِينَ قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْطِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٨﴾
 إِنْ تَسْتَكْسِمُوهُمْ حَسَنَةً سَوْفَ تَسَوُّهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢١﴾
 ينهي تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم، يظهرهم على سرائرهم، أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية، وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء

وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَآلْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إيمان المؤمنين إيماناً يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يثبت المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثبت عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿وَيَأْتِيَهُمْ وَالْقُرْآنُ يُنْزَلُ عَنْ السَّمَاءِ﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ فِي الْعَزِيزِ﴾ أي: يبادرون إليها فيتنهون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير، ومعرفتهم بغوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته، ويتقدمهم بغفرانه، وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لن يحرموه ويفوتوا أجره، بل يشيهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلهاذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَكَبِّرِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (١١٦، ١١٧)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُونَ عِندَ رَافِقٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَحَسَّ حَتَّى يَزِيدَهُ نِعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، تَقْتَضِي مِنْهُمْ شُكْرَهَا، وَيَعْقِبُونَ عَلَى عَدَمِ الْقِيَامِ بِهَا وَعَلَى كُفْرِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله، ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فبينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد شديد محرق، فأهلك زرع، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله

يحبون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما يتألمهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرًا سبيلًا، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً فَقَدْ أَصَبْتُمْ بِنُكْتَانٍ﴾ وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العدد بالأموال والرجال والعُدَّة، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلًا رجع عبدالله بن أبي المنافق بثلاث الجيش ممن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا، وهم بنو سلمة وبنو حارثة فنبهتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم، وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خمسين رجلًا من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما رآهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبدالله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أدخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبدالله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاهم الله بها وكفر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قُتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَزَّزْتُ مِنَ أَهْلِكَ﴾ والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة ﴿يُؤَيُّوُا الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: تنزلهم وترتبه كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم ملح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة

فظهرت على أفواههم ﴿وَمَا تَخْفَى شُؤُنُهُمْ أَكْثَرُ﴾ مما يسمع منهم، فلهذا ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ عِبَاةُ﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة، وعمل الأسباب التي فيها ضرركم، ومساعدة الأعداء عليكم، قال الله للمؤمنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلى بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره، ولا يطلع به باطنه على شيء، ولو تعلق له وأقسم أنه من أوليائه، قال الله مهيأًا للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومهيأًا شدة عداوتهم: ﴿هَآؤُنَّ أَزْوَاجٌ خِيَرْتُمْ وَلَا تُؤْمِنُوكُمْ وَيَحْلِفُونَ بِالْكَذِبِ كَذِبًا﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه، وهم لا يؤمنون بكتابتكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان ﴿وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَصَاكُمْ الْآمَنَ﴾ وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِمَا يَخْفَى مِنْ اللَّهِ بَشِيرٌ يُدَارِئُ السُّدُورَ﴾ وهذا فيه إشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدو ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدرون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فينقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إِنْ تَسْتَكْمِلُوا حَسَنَةً﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿تُسَوِّفُهُ﴾ أي: تمنعهم وتحزنهم ﴿وَإِنْ تُسِيئُوا سَيِّئَةً يَبْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَابَرُوا وَتَقَوُّوا لَا يُبْرَحَكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِذَ اللَّهُ يَمَّا يَسْمَلُونَ يُخَيِّطُ﴾ فإذا أتيتهم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضركم مكروهم، بل يجعل الله مكروهم في نحورهم، لأنه محيط بهم علمه وقدرته، فلا منفذ لهم عن ذلك، ولا يخفى عليه منهم شيء.

(١٢٢، ١٢١) ﴿وَإِذْ عَزَّزْتُ مِنْ أَهْلِكَ يَتِيُّوُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَكُلَّ اللَّهُ قَيْسُوكُمُ الْمُؤْمِنُونَ. هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا، نصرهم ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكمًا عامًا ووعدًا صادقًا لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجًا من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واتقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما

- القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فلهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشراً لهم بالنصر ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوِّجِينَ﴾ ٥ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا أَي: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد يانزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يُمِرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ أَي: إمداده لكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرًا﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿وَلَقَدْ لَبِثْتُمْ لُقَيْمَكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ وَمَا كُنْتُمْ بِلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين لبيين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال: ﴿عِنْدَ اللَّهِ الْمَوِجُزُ﴾ فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وقهره ﴿الْمُكْرِمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَأَنصَرَهُ مِنْهُمْ وَلَئِنْ يَسْتَلِزُّكُمْ بِبَعْضِ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٢٧)

(١٢٧) ﴿يَقْطَعُ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَتَقَاتِلُوا فِيهِمْ﴾ يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين: إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، أي: جانباً منهم وركناً من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمته مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم فهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم، الأمر الثاني: أن يريد الكفار بقتلهم وكثرتهم، طمعاً في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويبذلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائنين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر

صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَاللَّهُ يَمِيعُ﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمناقون، كل يتكلم بحسب ما في قلبه ﴿عَبِيدُ﴾ بنيات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضاً فالله سميع عليم بكم، يكلوكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه لما ﴿هَمَّتْ طَلَاقَتَانِ﴾ من المؤمنين بالفشل، وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم، ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلهذا قال ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة، وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَرِثَةُ الْأَبْنَاءِ مِمَّا يَتَرَكُونَ﴾ إلى الثور، ثم قال: ﴿وَكُلُّ اللَّهِ قَائِمٌ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ فيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصاً في موطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستئصال له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن، ثم قال تعالى:

(١٢٣-١٢٦) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ ٥ إِذْ يَقُولُ لِغُلَامَيْهِ أَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوِّجِينَ ٥ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ٥ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ وَلَقَدْ لَبِثْتُمْ لُقَيْمَكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ وَمَا كُنْتُمْ بِلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْمَوِجُزُ﴾ وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعددهم مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة ثلاث مائة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وقرسان طلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكاك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيال الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلاً من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتوا على معسكرهم ستأتي - إن شاء الله

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ فُتِنَا بِاللَّهِ وَلِيَّهَا وَعَلَى
 اللَّهُ فَيْسَتْ كُلُّ الطَّائِفَةِ ۖ وَقَدْ فُتِنَكُمْ اللَّهُ لِيُبْدِيَ لَكُمْ
 أُولَئِكَ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ۝ إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ
 أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رِجْلَكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُزِيلِينَ ۝ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ
 هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رِجْلَكُمْ بَحْسَةً ۖ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ
 ۝ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ ۖ وَمَا
 الْبَصَرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
 مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غَيْرُهُمْ فَيَتَّبِعُوا آخِثِينَ ۝ لَيْسَ لَكَ
 مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظُلُمَاتٌ
 وَلَهُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ
 ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝

الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه، فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المتقضية لعمل الشر، فيعمل الشر ويعذبه على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمة وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيها أعظم بشارة بأن رحمة غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مواخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق، وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يختمها باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على التهمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين. تم السفر الأول من هذا التفسير المبارك يسر من الله وإعانة، فله الحمد والشكر والثناء، وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه، وفيه المجلد الثاني، أوله قول الباري جل جلاله ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا

الله لعباده المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما، إما نصر عليهم أو خذل لهم.

(١٢٩، ١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظُلُمَاتٌ ۖ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما جرى يوم «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشح رأسه وكسرت رابعته، قال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نهياً له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرده عن رحمة الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم، بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام، فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسببوا بذلك فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء غيره من باب أولى، فيها أعظم رد على من تعلق بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له، ويدعون من لا يملك من الأمر مقال ذرة، إن هذا لهُ الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سبباً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال: ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظُلُمَاتٌ﴾ ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده، بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مدبرون، متصرفون فيهم تصرف الممالك، فليس لهم مقال ذرة من

عن جزاء أهلها، وعلى نواهي حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم - إذا صبروا واثقوا - نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ثم قال: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوَهِيمٍ هَذَا يُبَدِّلُكُمْ رَبُّكُمْ﴾ الآيات.

فكان النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح، والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات، أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى.

ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة، وهي قوله: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومرتين مقيدتين، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتناع ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح.

فنهام عن أكل الربا أضاعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر، ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن نزيد في المدة، ويزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير، ويستدفع غريمه، ويلتزم ذلك، اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد - بذلك - ما في ذمته أضاعافاً مضاعفة، من غير نفع وانتفاع.

ففي قوله: ﴿أَتَمْنَعُكُمْ مُّغْنَةً﴾ تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا، حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم، وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه؛ لأن تركه من موجبات التقوى.

والفلاح مترقب على التقوى، فلهاذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ و﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي، على اختلاف

مُضَعَّفَةً الآية، وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثالث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، وصلى الله على محمد وسلّم تسليمًا كثيرًا. بقلم جامع عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

المجلد الثاني من تيسير الكريم الصان في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي، غفر الله له ولوالديه، وللمسلمين آمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نحمله ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا، قال تعالى:

(١٣٠-١٣٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضَعَةً مُّضَعَّفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ و﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ و﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ و﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ و﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ وَالْكَيْلِ أَمْتًا وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ و﴿الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ لَنُورِكَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ و﴿وَأَتَيْتُكُمْ بِزَاقٍ مُّغْفَرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ نَّجْوَىٰ مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَا أَعْرَجَ الْعَمِيلِينَ﴾^(١) تقدم في مقدمة هذا التفسير، أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر، وجب عليه - أولاً - أن يعرف حده، وما هو الذي أمر به، ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهى عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه.

وأن لهذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي.

ولهذه الآيات الكريمات، قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله [بها]، وحث على فعلها، وأخير

(١) إلى هنا كان الاختلاف بين النسختين.

والذين يري إليهم، ودفع الشر الديني والديني عنهم، فدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والتفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم، وتباين أوصافهم.

فدخل في ذلك بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جنائهم وذنوبهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجِيئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: صدر منهم أعمال [سنة]^(١) كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعدهم به العاصين، ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها، وندمهم عليها فلهمذا قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ يَنْ رَّبِّهِمْ﴾ تريل عنهم كل محذور ﴿وَجَنَّتْ تَجَرُّو مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة [والجور]^(٢) والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيفة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات.

﴿تَحْلِيُونَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها، ولا يغيون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَيَنْتَمِ أَجْرُ الْعَمَلِيِّينَ﴾ عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً فـ«عند الصباح يحمد القوم السرى»، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريكات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافاً للمرجة.

ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَنَجْوَى عَرْشِهَا كَرِيسَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات، هم أولئك المؤمنون.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في الأصل: (السرور) والمثبت من طبعة النجار. (الناسر)

درجاتها، فإن المعاصي كلها - وخصوصاً المعاصي الكبار - تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر، الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار، وبقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة، توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة.

ولهذا قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَارْتَبُوا﴾ بفعل الأوامر امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَخِينِي لِنَظْمِي يَنْقُوتَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الآيات.

ثم أمرهم تعالى، بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته، التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ فِي كَثَرَةٍ وَالْفَرَءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من التفة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالْكَلْبِطِينَ أَلْفَطَ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحق، الموجب للانتقام بالقول والفعل -، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ الْكَثِيرِ﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل. والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه، مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلي عن الأخلاق الرذيلة، ومن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿قَمَنْ عَفَا وَأَسْفَحَ فَأَجْرٌ عَلَى اللَّهِ﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن، وأعلى، وأجل، وهي الإحسان، فقال [تعالى]: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، [والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة الخالق]^(١)، فسرهما النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني

منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للدين أموا.

﴿وَيَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذا أيضًا من الحكم أنه يتبلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسراء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك.

﴿وَيَجِدُكُمْ فِيهِ كَذِبًا﴾ وهذا أيضًا من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين، أن يقبض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينبهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضًا بدم المنافقين، وأنهم مغبوضون لله، ولهذا يبطئهم عن القتال في سبيله ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الشُّرُوحَ لَأَعَدُّوا لَهُمْ عَذَابًا﴾ ولكن كره الله إيمانهم فنبطهم وقيل أقعدوا مع القاصدين.

﴿وَلِيَجْزِيَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذا أيضًا من الحكم، أن الله يمحض بذلك المؤمنين، من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب ويمحض الله أيضًا المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق.

ومن الحكم أيضًا أنه يقدر ذلك، ليمحق الكافرين، أي: ليكون سببًا لمحققهم، واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغيانًا إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَكَمْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا بِعَنَتِهِمْ وَيَعْلَمُ الْقَائِلِينَ﴾ هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة، واحتمال المكارة في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصول إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم.

ولكن مكارة الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطئ النفس لها، وتمرينها عليها، ومعرفة ما تزول إليه، تنقلب - عند أرباب البصائر - منحًا يسرون بها، ولا يبالون

﴿وَلِيَجْزِيَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا بِعَنَتِهِمْ مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الْقَائِلِينَ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَدَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنون، ويودون حصوله، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ وذلك أن كثيرًا من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر، يتمنون أن يحضرهم الله مشهدًا، يذلون فيه جهدهم.

قال الله تعالى لهم: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: رأيت ما تمنيت بأعينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق، ولا تحسن، خصوصًا لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

(١٤٤، ١٤٥) ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَدَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ

﴿وَسَيَرْزُقُكَ الْشَّكْرَ﴾ ولم يذكر جزاءهم، ليدل ذلك على كثرته وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة وحسباً.

(١٤٦-١٤٨) ﴿وَكَانَ يَنْ يَنْجِي﴾ أي: وكما كان ينقذهم من أيديهم، ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَالُوا﴾ أي: وما ضعفوا وما استكالوا، ﴿وَأَلَّهُ يَحِبُّ الضَّعِيفِينَ﴾ أي: والله يحب الضعفاء، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي: وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، ﴿وَكُنْهُمْ أَقْدَامًا وَاتَّخَذُوا عَلَى الْقَوْمِ الْكُفْرِينَ﴾ أي: وكُنْهُمْ أَقْدَامًا أي: كَانُوا أَقْدَامًا، ﴿وَوَسَّيْنَا لِقَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُتَعَبِينَ﴾ أي: ووسَّيْنَا لِقَابَ الْآخِرَةِ أي: وَسَّيْنَا لِقَابَ الْآخِرَةِ، ﴿هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَحَثٌ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِهِمْ، وَالْفِعْلُ كَفْعْلُهُمْ، وَأَنْ هَذَا أَمْرٌ قَدْ كَانَ مُتَقَدِّمًا، لَمْ تَزَلْ سُنَّةُ اللَّهِ جَارِيَةً بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَكَانَ يَنْ يَنْجِي﴾ أي: وكما كان ينقذهم من أيديهم، ﴿وَقَتْلَ مَعْمُ رَيْبُونُ كَيْدٌ﴾ أي: وقَتْلَ مَعْمُ رَيْبُونُ أي: قَتْلَ مَعْمُ رَيْبُونُ، ﴿كَيْدٌ﴾ أي: كَيْدٌ، ﴿جَمَاعَاتٌ كَثِيرُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، الَّذِينَ قَدْ رَتَبَهُمُ الْآيَاتُ بِالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَأَصَابَهُمْ قَتْلٌ وَجِرَاحٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ.﴾

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾
 أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا،
 أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم،
 ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ .
 ثم ذكر قولهم، واستنصرهم لربهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ
 قَوْلُهُمْ: «إِنَّا نَأْتِيَنَّكُمْ» فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ الصَّعْبَةِ (إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا آفِئْ
 لَنَا دُونَنَا وَنَافِئْنَا فِي أَثَرِكَ) وَالْإِسْرَافُ: هُوَ مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ إِلَى
 مَا حُرِّمَ، عَلِمُوا أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْإِسْرَافَ مِنْ أَكْثَرِ سَبَابِ
 الْخِذْلَانِ، وَأَنَّ التَّخْلِيَّ مِنْهَا مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ، فَسَأَلُوا رَبَّهُمْ
 مَغْفِرَتَهَا .

ثم إنهم لم يتكلموا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاته الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار ببرهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلْهُمْ أَتَىٰ اللَّهُ تَوَابَ الْأَثَلِ﴾ من النصر والظفر والغلبة ﴿وَحَسَنَ تَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ وهو الفوز برضا ربهم، والتعظيم المقيم، لذي قد سلم من جميع المنكبات.

وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن جزاء، فلماذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق، ومعاملة الخلق. ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء فتعمل هؤلاء الموصوفين^(٢).

الَّذِينَ نُنْزِلُ مِنْهَا وَمَنْ يَرْجُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُنْزِلُهَا مِنْهَا وَنَسْجُرِي
الشُّكْرِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: ليس ببدء من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم، وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدلين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: ﴿وَمَنْ يَتْلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَإِنَّ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما ويخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثل أمر ربه، فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال.

وفي هذه الآية الكريمة، إرشاد من الله تعالى لعباده، أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم، أو عن بعض لوازمه فقدّ رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين، بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم فقام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين، قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضًا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ، لأنهم هم سادات الشاكرين.

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بآجالها، بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حُتِّم عليه بالقدر أن يموت، مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى^(١) من الأسباب كل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاء وقدره، وكتبه إلى أجل مسمى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِذُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة، ما تعلق به إراداتهم، فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ۖ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلًّا يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُ لَبَنٌ مِثْلُ النُّعْمِ ۚ﴾ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۚ وَلَا يَذْكُرُ الْبَشَرُ ۚ﴾

(١٤٩-١٥١) ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُلَاحِظُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ۝ سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَيَتَسَاءَلُونَ الظَّالِمِينَ﴾.

ولهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين، من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم [قصدهم] ^(١) ردهم إلى الكفر، الذي عاقبه الخيبة والخسران، ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، فيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشور.

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده ولياً وناصرًا من دون كل أحد، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدمه أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعه من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى، وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحده» - تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف نصرف، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمتهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك، فالتقى الله الرعب في قلوبهم، فانصرفوا خائينين.

ولا شك أن هذا من أعظم النصر؛ لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع طرفًا من الذين كفروا، أو يكتبهم فيقبلوا خائينين، ولهذا من الثاني. ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، فقال: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن.

فمن ثم كان المشرك مرعوبًا من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وئيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذا حاله في الدنيا وأما في الآخرة، فاشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿وَمَا بِهِمْ أَلَّا يَخْرُجُوا﴾ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه، وليس لهم عنها خروج ﴿وَيَتَسَاءَلُونَ الظَّالِمِينَ﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مناهم.

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْنَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْأُثْيَا وَيَنْتَحِلْكُمْ مِّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُلَاحِظُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَيَتَسَاءَلُونَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْنَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْأُثْيَا وَيَنْتَحِلْكُمْ مِّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتَيْتُمْكُمْ عَمَّا بَعْدَ لَكُمْ لِكَيْ لَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

بالنصر، فنصركم عليهم، حتى ولوكم أكتافهم، وطفقت فيهم فتلاً، حتى صرتم سبياً لأنفسكم، وعوناً لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلقت، فمن قاتل: نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قاتل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور؛ فعصيتكم الرسول، وتركتكم أمره من بعد ما أراكم الله ما تحبون وهو انخاذ أعدائكم؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من غيره، فالواجب في هذه الحال خصوصاً، وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله ورسوله.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْأُثْيَا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺ، وثبوا حيث أمروا.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: بعدما وجدت هذه الأمور

منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلها قال: ﴿وَلَقَدْ عَنَّا عَنْكُمْ﴾ وَأَلَّه دُو قَسْبِلِ عَلَ الْمُؤْمِنِينَ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث منَّ عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم، إن أصابهم سراء فشكروا، جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

(١٥٤، ١٥٣) ﴿إِذْ تُبَدِّلُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ فَأَنْتُمْ عَمَّا يَقُولُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ثُمَّ أَرْزَلْ عَلَيْكَ مِنْ بَدُو الْقَوْمِ مُوسَى تَقْسِي مَا يَكْفِيكُمْ وَيَنْتَهِمُ وَمَا يَكْفِيكُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ يَطْلُوتُ بِاللَّهِ عِزَّ الْحَقِّ طَرَّ الْجَهَنَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَلِّفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي بُيُوتِكُمْ لَرَدَّ الْقَوْمَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِنْ مَكَانَهُمْ وَلَيْسَ لَكَ فِي سُدُورِهِمْ وَلِيُخَصَّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يذكرهم تعالى حالهم، في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال: ﴿إِذْ تُبَدِّلُونَ﴾ أي: تتجلبون في الهرب ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار، والنجاء عن القتال.

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء، ويياشر الهيجاء، بل ﴿الرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ﴾ أي: مما يلي القوم يقول: ﴿إِلَيَّ عباد الله﴾، فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقدمه على النفس أعظم لوماً بتخلفكم عنها.

﴿فَأَنْتُمْ﴾ أي: جازاكم على فعلكم ﴿عَمَّا يَقُولُ﴾ أي: غمًا يتبع غمًا: غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أناسكم كل غم، وهو سماعكم أن محمداً ﷺ قد قتل.

ولكن الله - بلطفه، وحسن نظره لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَمَّا تَتَمَّ أَوْفَيْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشُرُونَ ﴿١٥٩﴾ فِيمَا رَحِمْتُمْ مِنْ
 اللَّهُ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ قَطًا عَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ
 فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
 فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ
 فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ
 بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ
 يَكُولَ وَمَنْ يَكُولْ بَاءً يَسْخَطُونَ اللَّهُ وَمَا لَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
 ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ لِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾
 لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
 يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَاةً مِنْهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾
 أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبَبًا قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا فَلَنْتُمْ أَنْ هَذَا
 قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ ﴿١٦٥﴾

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها
 فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتج الاستشارة من الرأي المصيب، فإن
 المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ، أو لم يتم له
 المطلوب، فليس يملوم.

فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً،
 وأغزرهم علماً، وأفضلهم رأياً-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فكيف
 بغيره؟!!

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي: على أمر من الأمور بعد
 الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾
 أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبركاً من حولك وقوتك:
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، اللاجئين إليه.

(١٦٠) ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا
 الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن
 يمددكم الله بنصره ومعونه ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلو اجتمع عليكم

إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله،
 ومآلهم إليه، فيجازي كلأ بعمله.

فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام
 بحبل الله!!!

(١٥٩) ﴿فِيمَا رَحِمْتُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كُنْتَ قَطًا عَلِيظَ الْقَلْبِ
 لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا
 عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي برحمة الله لك
 ولأصحابك، ممن الله عليك أن التفت^(١) لهم جانبك،
 وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم
 خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتلوا أمرك.

﴿وَلَوْ كُنْتَ قَطًا﴾ أي: سعى الخلق ﴿عَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي:
 قاسيه، ﴿لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويغضهم لمن قام
 به هذا الخلق السيء.

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى
 دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب
 الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس
 عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب
 الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف
 بغيره؟!!

أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء
 بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من
 اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد
 الله لدين الله؟.

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير
 في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع
 بين العفو والإحسان.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى
 استشارة، ونظر، وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد
 والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره.

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرمهم، وإزالة لما يصير في
 القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا
 جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث
 - اطمانت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد^(٢)
 عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فيذلوا
 جهودهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح
 العموم. بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يصبرونه
 محبة صادقة، ولا يطيعونه، وإن أطاعوه، فطاعة غير تامة.

(١) في الأصل: لت. (٢) في بي: يستبد.

وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ بِعِثَةِ هَذَا الرُّسُولِ﴾ أي: صِلَيْكَ مُبِينٌ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يركي النفوس ويظهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين.

(١٦٥-١٦٨) ﴿أَوَلَمْ أَصْبَحْتُكُمْ تُبُيَّةً قَدْ أَصْبَحْتُمْ مَتَلَفًا قُلْتُمْ أَأَنْتَ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ الْقِتْلِ الْجَمْعَانِ يَذِّنُ اللَّهُ وَيُعَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلَعَلَّ الَّذِينَ تَأْتَفُونَ قِيلَ لَهُمْ تَتَالَوْا قِتْلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتْلًا لَأَنبَغْتُمْ لَهُمْ لِنُكَفِّرَ يَوْمَهُمْ أَقْرَبَ مِنْهُمْ لِلْإِسْكَانِ يَقُولُونَ يَا أَيُّوهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝ الَّذِينَ قَالُوا لَا يُخْرَجُونَ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قِيلُوا قُلْ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد»، وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم «قَدْ أَصْبَحْتُمْ» من المشركين «وَيَنْتَبِهُوا» يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم، وأسرتم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستون، أنتم وهم، فإن قتلكم في الجعة وقتلهم في النار.

﴿قُلْتُمْ أَأَنْتَ هَذَا﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمننا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ حين تنازعتم، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعدودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أنتم الحكمة في ابتلائكم، ومصيبتكم «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَكُنْتُمْ أَفْئَرًا مِنْ هَذَا وَلَكِنْ يُبَلِّغُكُمْ بِشَيْءٍ».

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين، وجمع المشركين في «أحد» من القتل والهزيمة، أنه ياذنه وقضائه وقدره، لا مرد له، ولا بد من وقوعه.

والأمر القدري - إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدّره لحجكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليبتين بذلك المؤمن من المنافق، الذين لما أمروا بالقتال «وَقِيلَ لَهُمْ تَتَالَوْا قِتْلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي: ذنباً عن دين الله، وحماية له، وطلباً لمرضاة الله «أَوْ ادْفَعُوا» عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة.

فأبوا ذلك واعتذروا بأن «قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتْلًا لَأَنبَغْتُمْ» أي: لو تعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء

ويعاقبهم

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ فييديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

ثم قال تعالى: «الَّذِينَ قَالُوا لَا يُخْرَجُونَ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قِيلُوا قُلْ قَادَرُوا» أي: ادفعوا «عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك، ولا تستطيعونه.

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر، وخصلة إيمان، وقد يكون إلى إحداهما أقرب منه إلى الأخرى.

(١٦٩-١٧١) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَسَيُجَنَّبُونَ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَقُولُوا إِنَّمَا دُفِنْنَا بِأَنفُسِنَا وَاللَّهُ لَبِئْسَ بِمَا يَصِفُ ۝ يُحَرِّثُونَ فِي بُيُوتِهِمْ يَقْنَعُونَ مِنَ اللَّهِ وَقَوْلُ اللَّهِ لَا يَصِفُ إِلَّا رَأْيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآيات الكريمة^(١) فيها فضيلة^(٢) الشهداء وكراماتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي

سورة آل عمران

٧٢

الأنعام

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنَجُّ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنِينَ
 ﴿١٧٢﴾ وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أَقْفَوْا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقَلِّبْهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ أَدْفَعُوْا فَأَلَّوْا لَوْ تَعْلَمُونَ فَتَالَا لَآتَبَعْتُمْهُمْ لَلْكَفَرِ
 يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِمْنِ يَقُولُونَ يَا قُوفْهُمْ مَا لَيْسَ
 فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٣﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 وَقَعَدُوا لَوْ أَمَّا عُونَا مَا تُقِلُّوا قُلْ قَادَرُوا وَعَنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَلَمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٤﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴿١٧٥﴾ فَرِحِينَ
 بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
 بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٦﴾
 ﴿١٧٧﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَصَابَهُمُ الْقَرْعُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاقْفَؤْا أَجْرَ عَظِيمٍ ﴿١٧٩﴾
 الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
 فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا أَحْسَبْنَا اللَّهَ وَرِيعَهُ الْوَكِيلَ ﴿١٨٠﴾

ضمها تسلية الأحياء عن قتلاهم، وتعزيتهم، وتنشيطهم
 للقتال في سبيل الله، والتعرض للشهادة، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ
 الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين
 بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أَمْوَاتًا﴾ أي: لا يخطر ببالك وحسابك
 أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا، والتمتع
 بزهرتها، الذي يحزن من فواته، من جبن عن القتال، وزهد
 في الشهادة ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه
 المتنافسون، فهم ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في دار كرامته. ولقف:
 ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجاتهم، وقربهم من ربهم.
 ﴿يُرْزُقُونَ﴾ من أنواع النعم، الذي لا يعلم وصفه، إلا من
 أنعم به عليهم.

ومع هذا ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: مغتبطين
 بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك
 لحسنه، وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه،
 وعدم المنقص.

فجمع الله لهم، بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب
 والروح، بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم ^(١) النعيم
 والسرور، وجعلوا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾
 أي: يبشر بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا
 بهم، وأنهم سينالون ما نالوا.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: يستبشرون بزوال
 المحذور عنهم، وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَكُلُّهُمْ رَاضٍ﴾ أي: يبني بعضهم
 بعضاً، بأعظم منها به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه
 ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينمي ويشكره، ويزيده من
 فضله، ما لا يصل إليه سعيهم، وفي هذه الآيات إثبات نعيم
 البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي
 أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً وتبشير بعضهم
 بعضاً.

(١٧٢-١٧٥) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَصَابَهُمُ الْقَرْعُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاقْفَؤْا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ
 النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَحَسَبَنَا
 اللَّهُ وَرِيعَهُ الْوَكِيلَ ﴿١٧٦﴾ قَالُوا قُلُوبُنَا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَكُلُّهُمْ رَاضٍ
 سُبْحَانَ اللَّهِ وَكَبِيرًا وَرَضُوا بِاللَّهِ وَأَلَّوْا قُلُوبَهُمْ كَبِيرًا ﴿١٧٧﴾ إِنَّكُمْ كَالْفِيلِ
 يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَكَاوُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾ لما رجع النبي
 ﷺ من «أحده» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من
 المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى
 الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله

ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حمراء الأسد»،
 وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ﴾
 وهما باستصاالكهم، تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يذهم ذلك إلا
 إيماناً بالله، واتكالا عليه.

﴿وَقَالُوا حَسَبْنَا اللَّهَ﴾ أي: كافينا كل ما أهدنا ﴿وَرِيعَهُ
 الْوَكِيلَ﴾ المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم.
 ﴿قَالُوا قُلُوبُنَا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَكُلُّهُمْ رَاضٍ﴾ أي: رجعوا
 ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَكُلُّهُمْ رَاضٍ﴾ أي: رجعوا ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَكُلُّهُمْ رَاضٍ﴾
 سُبْحَانَ اللَّهِ.

وجاء الخبر المشركين، أن الرسول وأصحابه قد خرجوا
 إليكم، وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم،
 واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله
 وفضل، حيث منَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة
 والانتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة،
 فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، لهم أجر
 عظيم، وهذا فضل الله عليهم.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أَي: إِنَّ
 تَرْهيبَ مَنْ رَهَبَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَالَ: إِنَّهُمْ جَمِعُوا لَكُمْ، دَاعٍ
 مِنْ دَعَا الشَّيْطَانِ، يَخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ عُدِمَ إِيْمَانُهُمْ، أَوْ
 ضَعُفَ.
 ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي: فَلَا تَخَافُوا
 الْمُشْرِكِينَ أَوْلِيَائِهِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ نَوَاصِيَهُمْ بِيَدِ اللَّهِ، لَا يَتَصَرَّفُونَ
 إِلَّا بِقُدْرِهِ، بَلْ خَافُوا اللَّهَ الَّذِي يَنْصُرُ أَوْلِيَائِهِ الْخَائِفِينَ لَهُ
 الْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِهِ.
 وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ جُوبُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ مِنْ
 لَوَازِمِ الْإِيْمَانِ، فَعَلَى قَدْرِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ، يَكُونُ خَوْفُهُ مِنَ اللَّهِ،
 وَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ: مَا حَجَزَ الْعَبْدَ عَنْ مُحَارَمَةِ اللَّهِ.
 (١٧٦، ١٧٧) ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ
 يَصْرُوهَا اللَّهُ شَيْئًا يَبْغِيهِ اللَّهُ إِلَّا يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيْمَانِ لَنْ يَصْرُوهَا اللَّهُ شَيْئًا وَلَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى الْخَلْقِ، مُجْتَهِدًا فِي
 هِدَايَتِهِمْ، وَكَانَ يَحْزَنُ إِذَا لَمْ يَهْتَدُوا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا
 يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ مِنْ شِدَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِيهِ، وَحَرَصِهِمْ
 عَلَيْهِ ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَصْرُوهَا اللَّهُ شَيْئًا﴾ فَاللَّهُ نَاصِرُ دِينِهِ، وَمُؤَيِّدُ
 رُسُلِهِ، وَمُنْفِذُ أَمْرِهِ مِنْ دُونِهِمْ، فَلَا تَبَالَهُمْ وَلَا تَحْفَلُ بِهِمْ،
 إِنَّمَا يَصْرُونَ، وَيَسْعُونَ فِي ضَرَرِ أَنْفُسِهِمْ، بِفَوَاتِ الْإِيْمَانِ فِي
 الدُّنْيَا، وَحُصُولِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ، مِنْ هَوَانِهِمْ عَلَى
 اللَّهِ وَسَقَطِهِمْ مِنْ عَيْنِهِ، وَإِرَادَتِهِ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ نَفْسِيًّا فِي
 الْآخِرَةِ مِنْ ثَوَابِهِ، خَذَلَهُمْ فَلَمْ يُوقِفْهُمْ، لَمَّا وَفَّقَ لَهُ أَوْلِيَائِهِ،
 وَمَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا، عَدَلًا مِنْهُ وَحِكْمَةً، لَعَلَّهُمْ بِأَنْهَمُ غَيْرُ زَاكِنٍ
 عَلَى الْهَدْيِ، وَلَا قَابِلِينَ لِلرُّشَادِ، لِفَسَادِ أَخْلَاقِهِمْ وَسُوءِ
 قَصْدِهِمْ.
 ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَرَغِبُوا فِيهِ
 رَغْبَةً مِنْ بَذْلِ مَا يَحِبُّ مِنَ الْمَالِ، فِي شِرَاءِ مَا يَحِبُّ مِنَ السَّلْعِ
 ﴿لَنْ يَصْرُوهَا اللَّهُ شَيْئًا﴾ بَلْ ضَرَرُ فَعْلِهِمْ يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلِهَذَا
 قَالَ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَكَيْفَ يَصْرُونَ اللَّهُ شَيْئًا، وَهَمْ قَدْ
 زَهَدُوا أَشَدَّ الزَّهْدِ فِي الْإِيْمَانِ، وَرَغِبُوا كُلَّ الرَّغْبَةِ بِالْكَفْرِ
 بِالرَّحْمَنِ؟! فَاللَّهُ غَنِي عَنْهُمْ.
 وَقَدْ قَبِضَ لَدِينَهُ مِنْ عِبَادِهِ الْأَبْرَارِ الْأَزْكَيَاءِ سِوَاهُمْ، وَأَعْدَلَهُ
 - مِمَّنْ ارْتَضَاهُ لِنَصْرَتِهِ - أَهْلَ الْبَصَائِرِ وَالْعُقُولِ، وَذَوِي
 الْأَلْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ الْفُحُولِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ عَابِدُوا اللَّهَ أَوْ
 لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لَلَّذِقَانِ
 سُجَّدًا﴾ الْآيَاتُ.
 (١٧٨) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ تَمَلُّي لَهُمْ حَيْرٌ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا

تَمَلُّي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أَي: وَلَا يَظُنُّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَنَابَذُوا دِينَهُ، وَحَارَبُوا رَسُولَهُ أَنْ تَرَكَنا إِيَاهُمْ فِي
 هَذِهِ الدُّنْيَا، وَعَدِمَ اسْتِنصَالَنَا لَهُمْ، وَإِمْلَأْنَا لَهُمْ خَيْرَ
 لَأَنْفُسِهِمْ، وَمُحِبَّةَ مَنَا لَهُمْ، كَلَّا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَإِنَّمَا
 ذَلِكَ لَشَرِّ رِيْدِهِ اللَّهُ بِهِمْ، وَزِيَادَةِ عَذَابٍ وَعَقُوبَةٍ إِلَى عَذَابِهِمْ،
 وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا تَمَلُّي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فَاللَّهُ
 تَعَالَى يَمْلِكُ لِلظَّالِمِ، حَتَّى يَزِيدَ طَغْيَانَهُ، وَتُرَادِفَ كُفْرَانَهُ،
 حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ أَخَذَهُ^(١) أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ. فَلْيَحْذَرِ الظَّالِمُونَ مِنْ
 الْإِمْهَالِ، وَلَا يَظُنُّوا أَنَّ يَفُوتُوا الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ.

(١٧٩) ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ
 الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِقَكُمْ عَلَى النَّبِيِّ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجَنِّبُكُمْ
 رُسُلَهُ مِنْ بَيْنِكُمْ فَاقْبَلُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ
 عَظِيمٌ﴾ أَي: مَا كَانَ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَتْرَكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا
 أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْتِلَاطِ، وَعَدِمِ التَّمْيِيزِ^(٢)، حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ
 مِنَ الطَّيِّبِ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ، وَالصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ.

(١) فِي ب: ثُمَّ أَخَذَهُ. (٢) فِي ب: التَّمْيِيزُ.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ تَمَلُّي لَهُمْ حَيْرٌ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا

ثم ذكر ثانياً أن هذا الذي بيد العباد كلها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبلخ بشيء هو زائل عنك، منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثاً السبب الجزائي، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات عن الشر - لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يُجْزَى به الثواب، ولا يرضى بالإسماك، الذي به العقاب.

(١٨١، ١٨٢) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْفَرِيقِ قَالُوا إِنَّا اللَّهُ فَوَيْرُ وَنَحْنُ أَقْنِيَاءُ سَكَتْنَا مَا قَالُوا وَفَتَنَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بَعَثَ حَقٌّ وَتَوَلَّوْا دُورُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ لِأَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِلِ﴾ يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتصدين، الذين قالوا أقيح المقالة، وأشنعها، وأسجعها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم - بدل قولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء - ﴿دُورُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفتدة، وأن عذابهم ليس ظلاماً من الله لهم، فإنه ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِلِ﴾ فإنه منزه عن ذلك.

وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبايح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا بذلك، وذكروا منهم «فحاص بن عازوراء» من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿فَنَزَّلْنَا الَّذِي يَقْرِئُ اللَّهُ قُرْآنًا حَسَنًا﴾، ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهُ قُرْآنًا حَسَنًا﴾ قال - على وجه التكبر والتجهم - هذه المقالة، قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس بيد من شأنهم، بل قد سبق لهم من الشائع ما هو نظير ذلك، وهو: قتلهم الأنبياء بغير حق، هذا القيد يراد به أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلاً وضلالاً، بل تمرداً وعناداً.

(١٨٣، ١٨٤) ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا اللَّهُ عَهْدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِرَ بِرُسُلِي حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ الْإِبْرَاهِيمَ وَإِلَى الَّذِي قُلْتُمْ قَوْلَهُ فَتَقْتُلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا الْإِبْرَاهِيمَ وَالزُّبَيْرَ وَالْكَتَّابَ الْعَمِيْرَ﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفتزين القائلين: ﴿إِنَّا اللَّهُ عَهْدَ إِلَيْنَا﴾ أي: تقدم إلينا، وأوصى ﴿أَلَّا نُؤْمِرَ بِرُسُلِي حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ فجمعوا بين الكذب على الله،

ولم يكن في حكمته أيضاً، أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فافتضت حكمته الباهرة أن يتبلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل [الله] رسله، وأمر بطاعتهم، والانتقاد لهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فانقسم الناس - بحسب اتباعهم للرسل - قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله، وحكمته لخلقه.

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ عِزٌّ لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَبْزِثُ أَسْمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: ولا يظن الذين يبخلون، أي: يمتنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فيبخلوا بذلك، وأمسكوه، وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وأجلهم.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يجعل ما بخلوا به، طوقاً في أعناقهم، يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح: «إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان، يأخذ بهلزميته يقول: أنا مالك، أنا كنزك»، وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك هذه الآية، فهوؤلاء حسبوا أن يبخلهم نافعهم، ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم.

﴿وَاللَّهُ يَبْزِثُ أَسْمَكُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا، ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْسِطُونَ﴾ وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولاً: أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكاً للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه، لم يصل إليه منه شيء، فمنعه لذلك منع فضل الله وإحسانه، ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فمن تحقق أن ما بيده فضل من الله، لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل يضعه في قلبه وماله، وزيادة إيمانه، وحفظه من الآفات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٤

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ
دُورُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِضَالٍّ لِّلْعَمِيدِ ﴿١٨٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ عَهْدُ لَنَا أَلَّا تَوْرَمَ رَسُولُ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ
وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٨﴾
فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَهُ وَالْيَمِينُ
وَالرُّزْءُ وَالْكِتَابُ الْمُنِيرُ ﴿١٨٩﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْعَذَابِ
وَلَكِنَّا نَوَفِّثُ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُجِجَ
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا لَمَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴿١٩٠﴾ لَتَجَلَّوْا فِي أَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
وَلَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَفَوَّنَ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ الْأُمُورِ ﴿١٩١﴾

أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وَلَكِنَّا نَوَفِّثُ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ. بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَلَنُيَبِّقَنَّ يَوْمَ الْعَذَابِ أَلَذَّ ذُنُوبِ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾.

(١٨٦) ﴿لَتَجَلَّوْا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَفَوَّنَ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ الْأُمُورِ﴾ يخير تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيتلون في أموالهم، من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لآثافها في سبيل الله، وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس، كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعبد، والقتل، والأسر، والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يحب.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾

وحصر آية الرسل بما قالوه، من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقرآن تأكله النار، فهم - في ذلك - مطيعون لربهم، ملتزمون بعهد وقد علم أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إنكأ لم يلتزموه، وباطلأ لم يعملوا به.

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَالَّذِي قُلْتُمْ﴾ بأن أناكم بقرآن تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعواهم ^(١) الإيمان برسول يأتي ^(٢) بقرآن تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم، وتناقضهم.

ثم سأل رسوله ﷺ، فقال: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: هذه عادة الظالمين، ودأبهم الكفر بالله، وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسل الله عن قصور بما أتوا به، أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جَاءَهُ وَالْيَمِينُ﴾ الحجة العقلية، والبراهين الثقلية.

﴿وَالرُّزْءُ﴾ أي: الكتب المزبورة المنزل من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل.

﴿وَالْكِتَابُ الْمُنِيرُ﴾ للأحكام الشرعية، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة، فإن كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل، الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم، ولا يهملك شأنهم.

(١٨٥) ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْعَذَابِ وَالَّذِي نَوَفِّثُ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُجِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْفُرُورِ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها التهديد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الفرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومتنقل عنها إلى دار القرار، التي توفي فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر.

﴿فَمَنْ زُجِجَ﴾ أي: أخرج ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ومفهوم الآية، أن من لم يزحج عن النار، ويدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدى، وإبلى بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم

يعاؤا بها، فكنتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤا على محارم الله، وتهاوناً بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمناً قليلاً، وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياضات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق.

﴿فَنَسِيَ مَا بَشَّرْتُ﴾ لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه - وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدينية والدنيوية - أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس وبتروا العالي النفيس، إلا لسوء حظهم، وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغیر ما خلقوا له.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ بِمَا آتَوْا﴾ أي: من القبايح، والباطل القولي والفعلی.

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله، والفرح بذلك، ومحبة أن يحمدا على فعل الخير الذي ما فعلوه.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ لَهُمْ مِمَّا قَارَفَ مِنْ الْقَدَابِ﴾ أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه، وسيصيرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم يتقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالمهم، وكذلك كل من ابتدع بقولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بفهمها على أن من أحب أن يحمد ويشي عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسعنة، أنه غير مذموم، بل لهذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَتِمَّلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ وقال: ﴿سَنُتَرَكُ عَلَى نُجُجٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ○ ﴿إِنَّا كَذَّبْنَا نَبِيَّكَ إِذْ جَاءَنَا﴾ وهي من نعم الباري على الرحمن: ﴿وَأَتِمَّمْنَا لِنَبِيِّكَ إِيمَانًا﴾ ومنته التي تحتاج إلى الشكر.

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو المالك للسموات والأرض وما فيها من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم، بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْكَ كَثِيرًا﴾ من الطعن فيكم، وفي دينكم، وكتابكم، ورسولكم. وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي بذلك؛ لتمييز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى، يقدر عليهم هذه الأمور، لما يريد بهم من الخير ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، ولزيادة بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَوَعَدُكُمْ إِلَّا بَشَارًا لِقَوْمٍ آخِرِينَ﴾.

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهنون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم، من الابتلاء، والامتحان، وعلى أذية الظالمين، وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله، والتقرب إليه، ولم تعدوا في صبركم، الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَازِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها، ويتنافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا أَلَيْنَ صَرِفًا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾.

(١٨٧، ١٨٨) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ آتَوْا الذِّكْرَ لَتَشِيرُنَّ لِلنَّبِيِّينَ وَالنَّبِيِّينَ قَبْلَهُ وَرَأَى طُهُورَهُمْ وَأَشْرَفَ بِهِ ثَمًّا قَلِيلًا﴾ ﴿فَنَسِيَ مَا بَشَّرْتُ﴾ ○ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّ لَهُمْ مِمَّا قَارَفَ مِنَ الْقَدَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، ولهذا الميثاق أخذه الله تعالى، على كل من أعطاه [الله] الكتب، وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل.

فأما الموفقون، فقاموا بهذا أتم القيام، وعلموا الناس مما علمهم الله ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفاً من إثم الكتمان.

وأما الذين آتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٧٥

سُورَةُ آلِ

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُسَيِّدَنَّهُمْ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْفُرُوهٖ، فَبَيَّنَّاهُ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ وَأَشْرَأَوْا بِهِ مِمَّا
قَلِيلًا فِئْتَنَ مَا بَشَّرُوكَ ﴿١٧٥﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
بِعَمَادٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٧٨﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُعِدُوا
وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فِيمَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٧٩﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ ﴿١٨٠﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَبْرَارِ ﴿١٨١﴾ رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْنَا
عَلَى رُسُلِكَ وَلَا نَخْشَا يَوْمَ الْفِتْنَةِ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٨٢﴾

﴿فِيمَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بَانَ تعصنا من السيئات، وتوقنا
للاعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار، ويتضمن
ذلك سؤال الجنة؛ لأنهم - إذا وقاهم الله عذاب النار -
حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم دعوا الله
بأهم الأمور عندهم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ أي: لحصوله على
السخن من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة
التي لا نجاة منها، ولا مفر منها.

ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يتقذونهم من
عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ وهو محمد ﷺ،
أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه
﴿فَآمَنَّا﴾ أي: أجابناه مبادرة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار
منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بعمته، وتوسل إليه بذلك أن
يعفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات،
والذي من عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام.

﴿وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَبْرَارِ﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل

(١٩٠-١٩٤) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُعِدُوا وَعَلَى
جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا
سُبْحَنَكَ فِيمَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٧٥﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٧٦﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا
وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَبْرَارِ ﴿١٧٧﴾ رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا نَخْشَا يَوْمَ
الْفِتْنَةِ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٧٨﴾ يخبر تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾
وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها، والتبصر بآياتها،
وتدبر خلقها.

وأبهم قوله: «آيات» ولم يقل: «على المطلب الفلاني»
إشارة لكثرةها وعمومها؛ وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة
ما يبهير الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أئمة
الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية.

فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن
يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة
والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها،
وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الأحكام
والإتقان، وبداع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة
الله، ووضع الأشياء مواضعها، وسعة علمه، وما فيها من
المنافع للمخلوق يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله،
وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل
الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، ممن لا يملك
لنفسه ولا لغيره، مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء،
وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم
هم المتتبعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ في جميع
أحوالهم: ﴿فِيمَا وُعِدُوا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ وهذا يشمل جميع
أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً،
فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب.

وأنهم ﴿يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليستدلوا
بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من
صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم
يخلقها عبثاً فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ عن
كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة
على الحق.

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٧٦

الْحَمْدُ لِلّٰهِ

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ اِنَّى لَا اُصِغِعُ عَمَلًا عَمِلْتُمْ مِنْكُمْ يَنْ
 ذَكَرْ اَوْ اَنْتُمْ بِبَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَاُخْرِجُوا
 مِنْ دِيَارِهِمْ وَاَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرًا
 عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا اَنْظَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا
 الْاَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
 لَا يَغْنَرُكَ قَلْبُكَ الَّذِي كَفَرُوا فِي الْاَلْبَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ
 ثُمَّ مَا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُ لِهَآءِ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِي اتَّقُوا
 رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 تِلْكَ اَزْوَاجٌ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْاَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَاِنْ مِنْ
 اَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْكُمْ وَمَا
 اُنْزِلَ اِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْكُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا
 قَلِيلًا اُولَئِكَ لَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ اِنَّ اللَّهَ
 سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا اصْبِرُوا
 وَصَابِرُوا وَرَآطِبُوا وَاَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سُورَةُ النَّبَاِ

وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش
 السليم، والسرور والحبور، والبهجة نرًا يسيرًا، ومنحة في
 صورة محنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْاَبْرَارِ﴾ وهم
 الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فثاب بهم البر
 الرحيم من بره أجرًا عظيمًا، وعطاء جسيمًا، وفورًا دائمًا.

(١٩٦-١٩٨) ﴿لَا يَغْنَرُكَ قَلْبُكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا فِي الْاَلْبَدِ﴾ مَتَّعَ
 قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُ لِهَآءِ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِي اتَّقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ
 جَنَّاتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا تِلْكَ اَزْوَاجٌ مِمَّا عِنْدَ
 اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْاَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل
 للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد
 بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة
 في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت
 ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا، ويعذبون عليه طويلًا، هذه
 أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تقول إليه.

وأما المتقون لربهم، المؤمنون به - فمع ما يحصل لهم من
 عز الدنيا ونعيمها ﴿هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا﴾.

فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة

الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار،
 والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات.

ولما ذكروا توفيق الله إليهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام
 النعمة، سأله الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به
 على السنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز
 برضوان الله وجهته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد،
 فأجاب الله دعاءهم، وقيل تضرعهم. فلهذا قال:

(١٩٥) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ اِنَّى لَا اُصِغِعُ عَمَلًا عَمِلْتُمْ مِنْكُمْ يَنْ
 ذَكَرْ اَوْ اَنْتُمْ بِبَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَاُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
 وَاَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرًا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا اَنْظَلْنَاهُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ
 الثَّوَابِ﴾ أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء
 الطلب، وقال: إني لا أصغع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى،
 فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً مؤفرًا، ﴿بَعْضُكُمْ يَنْ
 بَعْضٍ﴾ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَاُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَاَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا
 وَقُتِلُوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات
 من الأوطان والأموال، طلبًا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في
 سبيل الله.

﴿لَا كُفْرًا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا اَنْظَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا
 الْاَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على
 العمل القليل.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن
 سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من
 الله بطاعته، والتقرب إليه، بما يقدر عليه العبد.

(١٩٦-١٩٨) ﴿لَا يَغْنَرُكَ قَلْبُكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا فِي الْاَلْبَدِ﴾ مَتَّعَ
 قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُ لِهَآءِ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِي اتَّقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ
 جَنَّاتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا تِلْكَ اَزْوَاجٌ مِمَّا عِنْدَ
 اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْاَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل
 للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد
 بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة
 في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت
 ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا، ويعذبون عليه طويلًا، هذه
 أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تقول إليه.

وأما المتقون لربهم، المؤمنون به - فمع ما يحصل لهم من
 عز الدنيا ونعيمها ﴿هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا﴾.

فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
 ذَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
 بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَأَتُوا إِلَيْنَا أَمْوَالَكُمْ
 وَلَا تَبْدُلُوا الْحَقِّ بِالْكَذِبِ بِالطَّبِيبِ وَلَا تَكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ
 كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا
 مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَكُنْتُمْ وَرِعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
 فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَمْلُوكَةٌ أَوْ ابْنَتُكُمْ ذَلِكَ أَذَى الْأَفْعَالِ ﴿٣﴾ وَأَتُوا
 النِّسَاءَ صِدُقَتِهِنَّ فَوَاحِدَةٌ لِمَنْ طَلَبَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
 هُنَّ آمَنَ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رُسُلًا أَنْ يَنْصَحُوا إِلَيْنَا وَأَنْذَرَنَا أَصْحَابَ
 الْيَمِينِ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ اسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
 إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ
 غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا
 دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٤﴾

والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث على ذلك، وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه أنه ﴿يَكُنْ لَكُمْ إِلَهٌ خَلَقَكُمْ﴾ ورزقكم، ورباكم بنعمة العظيمة، التي من جعلها خلقكم ﴿بَيْنَ نَفْسٍ وَخَلْقٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا﴾ ليناسها، فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور.

وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم، توسلت لها، بالسؤال بالله، فيقول مَنْ يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلنا بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سألته بالله، فكما عظمتموه بذلك، فلتعظموه بعبادته وتقواه.

وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أي: مطلع على العباد، في حال حركاتهم وسكنوهم، وسرهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقباً لهم فيها، مما يوجب مراقبته، وشدة الحياة

(١) في ب: هي. (٢) في النسخين: وهو، ولعل الصواب ما أثبت.

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ لَهُمْ﴾ ومن تمام خشيتهم لله، أنهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِمَا يَدَّيْنِ اللَّهُ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فلا يقدمون الدنيا على الدين، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمنًا قليلًا.

وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران، الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فأتوا الحق، وبينوه، ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فأنابهم الله على ذلك، بأن وعدهم الأجر الجزيل، والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه، وأنه سريع الحساب، فلا يستبطئون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله، فهو قريب.

ثم حفز المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو: الفوز والسعادة والتجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك، لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

والمصابرة أي^(١): الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

والمرابطة وهي^(٢): لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلقون: يفوزون بالمحجوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحدًا الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها. والله الموفق، ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير «سورة آل عمران» والحمد لله على نعمته، ونسأله تمام النعمة.

تفسير سورة النساء

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا ذَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه،

منه، بلزوم تقواه.

يتامى النساء، اللاتي تحت حجوركم ولا يتكنم، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن؛ لعدم محبتكم إياهن - فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ﴿مَا كَلَبَ لَكُمْ مِنْ أَلْسِنَةٍ﴾ أي: ما وقع عليهن اختياركم: من ذوات الدين، والميال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاخاروا على نظركم.

ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبي ﷺ: «تُكْتَحُ المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك».

وفي هذه الآية - أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح بل وقد أباح له الشارع النظر إلى مَنْ يريد تزويجها، ليكون على بصيرة من أمره ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال: ﴿مَنْ شَاءَ فَلْيُزَوِّجْ﴾ أي: مَنْ أحب أن يأخذ ثنتين فليفعل، أو ثلاثاً فليفعل، أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمي الله تعالى إجماعاً.

وذلك لأن الرجل قد لا تدفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعاً، لأن في الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن.

فإن خاف شيئاً من هذا، فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه، فإنه لا يجب عليه القسم، في ملك اليمين ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين ﴿أَنَّهُ أَذَى مَوْلَاكَ﴾ أي: تظلموا.

وفي هذا أن تعرض العبد للامر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحاً - أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويهضمونهن حقوقهن - خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة - أمرهم وحشهم على إيتاء النساء ﴿صَدَقَتَيْنِ﴾ أي: مهورهن ﴿بِحِلَّةٍ﴾ أي: عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تملطوهن، أو تبخسوا منه شيئاً، وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة، إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد؛ لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك.

﴿فَإِنْ طَلَّقَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ أي: من الصداق ﴿نَفْسًا﴾ بأن

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بنهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد - ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض، وقرن الأمر بتقواه، بالامر ببر الأرحام، والنهي عن قطعها، ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به.

تأمل كيف افتتح هذه السورة بالامر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عموماً، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها، فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم.

وفي قوله: ﴿وَتَعْلَقُ بِهَا ذُرِّيَّتَهَا﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج فينبههم وينبهن أقرب نسب، وأشد اتصال، وأقرب^(١) علاقة.

(٢) وقوله تعالى: ﴿وَتَأْتُوا الْبَتْنَ أَمُولَكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَ بِالطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِنْ أَمْرُكُمْ إِلَهُ كَأَنَّهُمْ كَيْدٌ﴾ هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم يتامى الذين فقدوا آباءهم الكافرين^(٣) لهم، وهم صغار ضعاف، لا يقومون بمصالحهم، فأمر الرؤوف الرحيم عبادة أن يحسنوا إليهم، وأن لا يقرّبوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم، إذا بلغوا، ورشدوا، كاملة موفرة.

وأن لا ﴿تَتَّبِعُوا الْهَيْبَ﴾ الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿بِالطَّبِيبِ﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِنْ أَمْرُكُمْ إِلَهُ﴾ أي: مع أموالكم.

ففيه تنبيه لفتح أكل مالهم بهذه الحالة، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله، فمن تجرأ على هذه الحالة، فقد أتى ﴿هُوَ كَيْدٌ﴾ أي: إثماً عظيماً، ووزراً جسيماً، ومن استبدال الخبيث بالطيب، أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس، وفيه الولاية على اليتيم، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله، ثبوت ولاية المؤتي على ماله، وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إيتائه ماله، حفظه، والقيام به بما يصلحه وينمي، وعدم تعرضه للمخاوف والأخطار.

(٤، ٣) ﴿وَإِنْ جُفِيَ أَلَّا تُقْطَلُوا فِي الْبَتَنِ فَانْكَحُوا مَا كَلَبَ لَكُمْ مِنْ أَلْسِنَةٍ مَنَى وَكَذَلِكَ وَرَزَقَ فَإِنْ جُفِيَ أَلَّا تَمُوتُوا فَوَيْدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَى مَوْلَاكَ ۝ وَءَاثَرُ أَلْسِنَةٍ صَدَقَتَيْنِ بَحِلَّةٍ فَإِنْ طَلَّقَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا تَكُونُ هَيْبَةً مَرِيئَةً﴾ أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في

(١) في ب: وأوتى. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذين فقدت آباؤهم الكافلون.

لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً.
فإن تبين رشدُه وصلاحه في ماله، وبلغ النكاح ﴿فَادْعُوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كاملة موفرة. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة
للحد الحلال الذي أباحه الله لكم، من أموالكم إلى الحرام
الذي حرّمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وَيَذَرُ أَنْ يَكْبُرُوا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم،
التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها،
تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها،
وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس
عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون
هذه الحال حال فرصة، فيغتمونها، ويتعجلون ما حرّم الله
عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

(٧) ﴿لِرِجَالِ تَبْيِيبٍ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نِصِيبٌ مِمَّا
تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نِصِيبًا مَقْرُوصًا﴾ كان
العرب في الجاهلية - من جبروتهم^(١) وقسوتهم، لا يورثون
الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال
الأقوياء؛ لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال، والنهب
والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً،
يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم، وأقويأؤهم وضعفاؤهم، وقدم
بين يدي ذلك أمراً مجعلاً، لتوطن على ذلك النفوس، فيأتي
التفصيل بعد الإجمال، قد تشوقت له النفوس، وزالت
الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة فقال: ﴿لِرِجَالِ تَبْيِيبٍ﴾
أي: قسط وحصة ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: خلف ﴿الْوَالِدَانِ﴾ أي:
الأب والأم ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ عموم بعد خصوص ﴿وَالنِّسَاءِ نِصِيبٌ
مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العُرف والعادة،
وأن يرضخوا لهم ما يشاءون؟ أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى:
﴿نِصِيبًا مَقْرُوصًا﴾ أي: قد قدره العليم الحكيم، وسيأتي - إن
شاء الله - تقدير ذلك.

وأيضاً فهاتنا توهّم آخر، لعل أحداً يتوهّم أن النساء
والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك
بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ فبارك الله أحسن الحاكمين.

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالنِّسَاءُ وَالصَّبَابُ
قَارَظُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهذا من أحكام الله
الحسنة الجليلة، الجارية للقلوب، فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ
الْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة الموارث ﴿أُولُو الْقَرْبَى﴾ أي: الأقارب

سمحن لكم عن رضا واختيار، بإسقاط شيء منه، أو تأخير
أو المعاوضة عنه ﴿كَلِمَةً مَبِيتَةً﴾ أي: لا حرج عليكم في
ذلك ولا تبعة.

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها - ولو بالتبرع -
إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك فليس لعبيتها حكم، وأنه
ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به.

وفي قوله: ﴿فَاتَّخِذُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ الْقِسْمَةِ﴾ دليل على أن
نكاح الخبيثة، غير مأمور به، بل منهي عنه، كالمشرقة،
وكالفاجرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾
وقال: ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

(٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْثِرُوا الْمَالَكُمْ بَيْنَكُمُ اللَّهُ كَفَى لَكُمْ
فِتْنًا وَأَذْنُوبُكُمْ فِيهَا وَأَكْثُوبُهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ السفهاء، جمع
«سفيه» وهو: من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله
كالمجنون والمعتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده، كالصغير
وغير الرشيد، فنهى الله الأولياء أن يؤثروا هؤلاء أموالهم،
خشية إفسادها وإتلافها؛ لأن الله جعل الأموال قياماً لعباده،
في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها
وحفظها.

فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها بل يرزقهم منها ويكسوهم،
ويبدل منها ما يتعلق بضرورتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية،
وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، بأن يعيدوهم - إذا طلبوها -
أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم
في الأقوال جبراً لخواطهم، وفي إضافته تعالى الأموال إلى
الأولياء إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال
السفهاء، ما يفعلونه في أموالهم: من الحفظ، والتصرف،
وعدم التعريض للأخطار.

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في
مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وَأَذْنُوبُكُمْ فِيهَا وَأَكْثُوبُهُمْ﴾ وفيه
دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة،
والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم، فلزم قبول قول
الأمين.

(٦) ﴿وَاتَّبِعُوا أَمْرًا نَسِيًّا إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ عَلِمْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا
فَادْعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا
فَلْيَنْصِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ
فَأَنْشِدُوا عَلَيْهِمْ وَكُفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ الابتلاء هو: الاختبار
والامتحان؛ وذلك بأن يدفع لبيتهم المقارب للرشد، الممكن
رشدُه، شيئاً من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله،
فيتبين بذلك رشدُه من سفهه، فإن استمر غير محسن للتصرف،

الزَّكَاةَ

٧٨

الزَّكَاةَ

لِرِّجَالٍ صَابِغٍ وَمِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ صِيبٌ
 وَمِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَمِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
 مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا
 ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا
 خَافُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَلْيَسْأَلُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي
 بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ
 فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً
 فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
 النِّصْفُ وَلِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنَ الْمَوْتِ مَا تَرَكَ مِنْهُمَا النِّصْفُ
 كَمَا كَانَ لَهُ. وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِلَّذِي تَلَاكَ
 فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلَّذِي تَلَاكَ النِّصْفُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي
 بِهَا أَوْلَادُهُ أَبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
 نَعْمًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

في بطونهم ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: نارًا محرقة متوقدة، وهذا
 أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال
 اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من
 أكبر الكبائر، نسأل الله العافية.

(١٢، ١١) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي تَلَاكَ
 الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ
 وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنَ الْمَوْتِ مَا تَرَكَ مِنْهُمَا
 النِّصْفُ كَمَا كَانَ لَهُ. وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِلَّذِي تَلَاكَ
 إِخْوَةٌ فَلِلَّذِي تَلَاكَ النِّصْفُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْلَادُهُ
 أَبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ○ ولستم يصف ما تركه أَوْلَادُكُمْ مِنْ
 لَكُمْ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ وَمَا تَرَكَنَّ مِنْ
 بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْلَادُهُ أَبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ
 أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
 لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ وَمَا تَرَكَنَّ مِنْ
 بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْلَادُهُ أَبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ
 أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

غير الوارثين، بقرينة قوله: ﴿الْيَتَامَى﴾ لأن الوارثين من
 المقسم عليهم، و﴿الْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ﴾ أي: المستحقون من
 الفقراء ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال،
 الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء، ولا نصب، فإن
 نفوسهم متشوقة إليه، وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطرهم،
 بما لا يضرهم، وهو نافعهم.

ويؤخذ من المعنى أن كل مَنْ له تطلع وتشوف إلى ما حضر
 بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان
 النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه، فليجلسه
 معه، فإن لم يجلسه معه، فليأكله لقمة أو لقمتين» أو كما
 قال.

وكان الصحابة رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة
 أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى
 أصغر وليد عنده، فأعطاه ذلك، علماً منه بشدة تشوفه لذلك،
 وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك - لكونه حقاً
 سفهاً، أو ثمناً أهم من ذلك - فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾
 يردوهم^(١) ردّاً جميلاً، بقول حسن، غير فاحش، ولا قبيح.

(١٠، ٩) ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا
 خَافُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَلْيَسْأَلُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ○ إِنَّ الَّذِينَ
 يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
 سَعِيرًا﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر، مَنْ حضره الموت
 وأجف في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته، والمساواة
 فيها بدليل قوله: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: سداداً، موافقاً
 للقسط والمعروف، وأنهم يأمرُونَ مَنْ يريد الوصية على أولاده
 بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم.

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء، من المجانين،
 والصغار، والضعاف، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية
 والدنيوية، بما يحبون أن يعامل به مَنْ بعدهم من ذريتهم
 الضعاف ﴿فَلْيَسْأَلُوا اللَّهَ﴾ في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملوهم
 بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم
 لتقوى الله.

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى،
 وتوعد على ذلك أشد العذاب فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
 الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ أي: بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم،
 من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم
 بطعام اليتامى.

فمن أكلها ظُلماً، ف ﴿إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي:
 فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم وهم الذين أدخلوها

فالجواب أنه يستفاد من قوله: ﴿وَأِنْ كَانَتْ وَحْدَةً فَلَهَا أَنْتَصُفُ﴾ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة، انتقل الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا الثلثان.

وأيضاً فقلوه: ﴿لِلَّذِكْرِ يَثُلُ حَظُّ الْأُنثِيِّ﴾ إذا خلف ابناً وبناتاً، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبتين الثلثين.

وأيضاً فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضرراً عليها من أخيها - فأخذها له - مع أختها - من باب أولى وأحرى، وأيضاً فإن قوله تعالى في الأخنتين: ﴿وَأِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ نص في الأخنتين الثلثين. فإذا كان الأختان الثلثان - مع بعدهما - تأخذان الثلثين، فالابنتان - مع قربهما - من باب أولى وأحرى، وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين، كما في الصحيح.

بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: ﴿فَوَقَّ الْأُنثَيْنِ؟﴾ قيل: الفائدة في ذلك - والله أعلم - أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان، لا يزيد بزيادتهن على الثلثين، بل من الثلثين فصاعداً.

ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة، وبنت ابن أو بنات ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين للذين فرضهما الله للبنات، أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن، أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس، تكملة الثلثين، ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن، اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من دونهن من بنات الابن؛ لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم؛ فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص، وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، والله الحمد.

ودل قوله: ﴿وَمِمَّا تَرَكَ﴾ أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت، من عقار، وأثاث، وذهب، وفضة، وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمم^(١).

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: أبوه وأمه ﴿إِنْ كَانَ لَهُمَا الشُّدُشُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ولد صلب، أو ولد ابن، ذكرًا كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً فاما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

يُورَثُ كَلَّةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَجِلَةٌ مِّنْهُمَا الشُّدُشُ فَإِنْ كَانَ لَهُمَا أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهُمُ شُرَكَاءُ فِي الْقَدِّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْحِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُصَاوٍ وَصِيَّتِهِ مِنْ أَهْلِهِ وَلَهُ عَلَيْهِ حَبِيبَةٌ

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة من آيات الموارث المتضمنة لها، فإنها - مع حديث عبد الله بن عباس، الثابت في صحيح البخاري «ألقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر» - مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها، كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات، فإنه غير مذكور في ذلك.

لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبه، ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

فقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيكَ اللَّهُ فِي ذِكْرِكَ﴾ أي: أولادكم - يا معشر الوالدين - عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم، وتكفونهم عن المفساد، وتأمرونهم بطاعة الله، وملازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَعْلِيكُم نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْأَعْيَارُ﴾ فالأولاد - عند والديهم - موصى بهم.

فأما أن يقوموا بتلك الوصية، وإما أن يضيعوها، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب، وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين - مع كمال شفقتهم - عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال: ﴿لِلَّذِكْرِ يَثُلُ حَظُّ الْأُنثِيِّ﴾ أي: الأولاد للصلب، والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين، إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك.

وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه - مع وجود أولاد الصلب - فالعيراث لهم، وليس لأولاد الابن شيء، حيث كان أولاد الصلب، ذكورا وإناثا، هذا مع اجتماع الذكور والإناث، وهنا حالتان: انفراد الذكور، وسيأتي حكمها، وانفراد الإناث، وقد ذكره بقوله:

﴿وَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي: بنات صلب، أو بنات ابن، ثلاثاً فأكثر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِّمَّا تَرَكَ وَلَهُنَّ وَجِدَةٌ﴾ أي: بنتاً، أو بنت ابن ﴿فَلَهَا أَنْتَصُفُ﴾ وهذا إجماع.

بقي أن يقال: من أين يستفاد أن للابنتين الثلثين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟

في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل، والريق، والمخالف في الدين، والمبعض، والخثى، والجد مع الإخوة لغير أم، والعول، والرد، وذوي الأرحام، وبقية العصبية، والأخوات لغير أم، مع البنات، أو بنات الابن، من القرآن أم لا؟

قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة، يعسر فهمها على غير المتأمل، تدل على جميع المذكورات؛ فأما (القاتل والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة، بحسب قربهم، ونفعهم الديني والدنيوي.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا﴾. وقد علم أن القاتل قد سعى لمورثه^(١) بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل، الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث، فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية، أن «من استعجل شيئاً قبل أوانه، عوقب بحرمانه».

وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له؛ وذلك أنه قد تعارض الموجب، الذي هو: اتصال النسب الموجب للإرث، والمانع الذي هو المخالفة في الدين، الموجبة للبيان من كل وجه.

فقوي المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع، يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى مَنْ هو أولى وأحق به، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ إذا اتفقت أدبانهم، وأما مع تباينهم، فالأخوة الدنيوية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: «وتأمل هذا المعنى في آية الموارث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة، دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي مَآ تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجة، المقترضة للشاكل والتناسب. والمؤمن والكافر لا تشاكل

الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجمالاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: من أم، كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة - هنا - الإخوة للأم، فإذا كان يورث كلاله أي: ليس للميت والد ولا ولد، أي: لا أب، ولا جد، ولا ابن، ولا ابن ابن، ولا بنت، ولا بنت ابن وإن نزلوا، وهذه هي الكلاله، كما فسرنا بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق، والله الحمد.

﴿فَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ مِّنْهُمَا﴾ أي: من الأخ والأخت «الشدش». ﴿وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: من واحد «فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الْكُلَّةِ» أي: لا يزيدون على الثلث، ولو زادوا عن اثنين، ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الْكُلَّةِ﴾ أن ذكرهم وأنثاهم سواء، لأن لفظ «التشريك»^(٢) يقتضي التسوية.

ودل لفظ: «الكلالة» على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم؛ لأن الله لم يورثهم إلا في الكلاله، فلو لم يكن يورث كلاله، لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً.

ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الْكُلَّةِ﴾ أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة المسماة بالحمارية، وهي: زوج، وأم، وإخوة للأم، وإخوة أشقاء. للزوج النصف؛ ولأم السدس؛ وللإخوة للأم الثلث ويسقط الأشقاء؛ لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعاً لما فرق الله حكمه، وأيضاً فإن الإخوة للأم أصحاب فروض، والأشقاء عصباء.

وقد قال النبي ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر»، وأهل الفروض هم: الذين قدر الله أنصباهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء، أو لأب، فمذكور في قوله: ﴿يَسْتَقْبِلُونَكَ فِي اللَّهِ يَرْحَبُكُمْ فِي الْكُلَّةِ﴾ الآية.

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب، لها النصف، والثلثان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب، أو الأخوات، تأخذ النصف، والباقي من الثلثين للأخت، أو الأخوات لأب^(٣)، وهو السدس تكملة للثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب، كما تقدم

(١) في ب: الشريك. (٢) في النسختين: أخوات الأب، والصواب - والله أعلم - ما أثبت، وظاهره أن سبق فلم. (٣) في الأصل: لموروثه.

وَلِيَسْتَحِقَّ يَتِيمٌ.

فسمى الله الجد وجد الأب أباً، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بني الإخوة والأعمام وبينهم، وسائر أحكام^(١) الموارث - فينبغي أيضاً أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم.

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب، فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ، قد اتفق العلماء على أنه يحجبه، فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورث الإخوة مع الجد، نص ولا إشارة، ولا تنبيه، ولا قياس صحيح.

وأما مسائل (العول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض، وقدر لأهل الموارث أنصاء، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضاً، أو لا.

فإن حجب بعضهم بعضاً، فالمحجوب ساقط لا يزاحم، ولا يستحق شيئاً، وإن لم يحجب بعضهم بعضاً فلا يخلو، إما أن لا تستغرق الفروض التركية، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض على التركية، ففي الحالتين الأوليين كل يأخذ فرضه كاملاً، وفي الحالة الأخيرة، وهي - ما إذا زادت الفروض على التركية - فلا يخلو من حالين:

إما أن تنقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له، وتكمل للباقي منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعين الحال الثانية، وهي: أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونخاصص بينهم، كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

وبعكس هذه الطريقة بعينها يعلم (الرد)، فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضهم التركية، وبقي شيء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد، فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاؤه غيره ممن ليس بقريب للميت جنف وميل ومعارضة؛ لقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْثَةِ يُعْطَوْنَ مِنْهُ بَعْضُهُمْ أَوْكَى مِنْ بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فتعين أن يرد على أهل الفروض، بقدر فروضهم.

ولما كان الزوجان ليسا من القرابة، لم يستحقا زيادة على فرضهم المقدر [هذا عند من لا يورث الزوجين بالرد، وهم

بينهما، ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسار مفردات القرآن ومركباته، فوق عقول العالمين^(٢) [انتهى].
وأما (الرفيق)، فإنه لا يرث ولا يورث.

أما كونه لا يورث فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسببه، وأما كونه لا يرث، فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسببه، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثِيَّتَيْنِ﴾، ﴿وَلَكُمْ مِنْهُ مِثْلُ مَا كُنْتُمْ لَكُمْ﴾، ﴿فَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ مِنْهُمَا كُفْرًا﴾ ونحوها، لمن يتأني منه التملك، وأما الرفيق، فلا يتأني منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له.

وأما من بعضه حر وبعضه رقيق، فإنه تبعض أحكامه فما فيه من الحرية يستحق بها ما ربه الله في الموارث، لكون ما فيه من الحرية، قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس بقابل لذلك، فإذا يكون المبعض يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية، وإذا كان العبد يكون محموداً مذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك.

وأما (الخثى) فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته، أو مشكلاً، فإن كان واضحاً، فالأمر فيه واضح. إن كان ذكراً فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم. وإن كان أنثى فله حكم الإناث، ويشمله النص الوارد فيهن.

وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأم - فالأمر فيه واضح.

وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وتبديده أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين؛ لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل؛ لاحتمال ظلمنا له، فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور، ﴿وَلَا يَكْفِ يَنْفُسَ الْإِنْسَانِ مَا كَسَبَ﴾، ﴿فَأَنفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَقْتَضَتْ﴾.

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة الأشقاء، أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم، كما يحجبهم الأب.

وبيان ذلك: أن الجد أب في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ يَتِيمٌ الْوَارِثُ إِذْ قَالَ لِيَتِيمٍ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدْوٍ فَأَلَّا تَشْبُدْ إِلَهُكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ يَزِيحُونَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ الآية. وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَأَبِئْتُ يَوْمَ الْيَوْمِ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

(١) في ب: العاقلين. (٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّيْسَ لَكُمْ
 لَهْرٌ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهْنٌ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ وَمَا
 تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِيْنَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ
 وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ
 فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ
 مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِيْنَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ
 رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
 فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِيْ بِهَا
 أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُصَاحَرٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ
 (١٤) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
 وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ
 يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌ (١٥)

وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٥ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ
 حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌ ٥ أي:
 تلك التفاصيل التي ذكرها في الموارث حدود الله التي يجب
 الوقوف معها، وعدم مجاوزتها، ولا القصور عنها، وفي ذلك
 دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقليده تعالى أنصبا

الوارثين.
 ثم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ (١٤) فالوصية للوارث بزيادة
 على حقه، يدخل في هذا التعدي، مع قوله ﷺ: «لا وصية
 لوارث». ثم ذكر طاعة الله ورسوله، ومعصيتهما عمومًا،
 ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك،
 فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامتنال أمرهما، الذي
 أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش آ، وقد جاء في ب بدل هذه الزيادة ما
 نصه: [عند القائلين بعدم الرد عليهما. وأما على القول الصحيح أن حكم
 الزوجين حكم باقي الورثة في الرد فالدليل المذكور شامل للجميع، كما
 شملهم دليل المولود]. (٢) هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فالآية
 ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ وأثبت الشيخ - زادة «فَلَا تَتَدَاوَعَا» وليس هنا محلها،
 وعلى مقتضى ما أثبت فسر، فأبقت الكلام كما هو، وعدلت الآية.

جمهور القائلين بالرد فعلى هذا تكون علة الرد كونه صاحب
 فرض قريبًا، وعلى القول الآخر أن الزوجين كغيرهما من ذوي
 الفروض يرد عليهما؛ فكما يقتضيان بالعدل فإنهما يزدان بالرد
 كغيرهما فالعلة على هذا كونه وارثًا صاحب فرض، فهذا هو
 الظاهر من دلالة الكتاب والسنة، والقياس الصحيح والله
 أعلم^(١).

وبهذا يعلم أيضًا (ميراث ذوي الأرحام)، فإن الميت إذا
 لم يخلف صاحب فرض ولا عاصبًا، وبقي الأمر دائرًا بين
 كون ماله يكون لبيت المال، لمنافع الأجانب، وبين كون ماله
 يرجع إلى أقربائه المدلين بالورثة المجمع عليهم، ويدل على
 ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾
 فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره، فتعين تورث ذوي
 الأرحام.

وإذا تعين تورثهم، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر
 بأعيانهم في كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط،
 صاروا - بسببها - من الأقارب، فيتركون منزلة مَنْ أدلوا به من
 تلك الوسايط. والله أعلم.

وأما (ميراث بقية العصبية) كالبنوة والأخوة وبنوهم
 والأعمام وبنوهم... إلخ فإن النبي ﷺ قال: «ألحقوا
 الفرائض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر». وقال تعالى:
 ﴿وَلِكُلِّ جَمْعًا شَوِيًّا مِثْرًا تِلْكَ الْأَرْثَاتُ الَّتِي أَنْزَلْنَا لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فإذا ألحقنا
 الفروض بأهلها، ولم يبق شيء، لم يستحق العاصب شيئًا.
 وإن بقي شيء أخذه أولى العصبية، وبحسب جهاتهم
 ودرجاتهم.

فإن جهات العصبية خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة
 وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، فيقدم منهم الأقرب
 جهة، فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة، فإن كانوا في
 منزلة واحدة فالأقوى، وهو الشقيق، فإن تساوا من كل وجه
 اشتركوا، والله أعلم.

وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات، أو بنات الابن
 عصابات، يأخذن ما فضل عن فروضهن، فلأنه ليس في
 القرآن، ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات.

فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات
 فرضهن، فإنه يعطى للأخوات، ولا يعدل عنهن إلى عصبية
 أبعد منهن، كابن الأخ والعم، وَمَنْ هو أبعد منهم. والله
 أعلم.

(١٤، ١٣) ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

فتم أدى الأوامر، واجتنب النواهي، فلا بد له من دخول الجنة، والنجاة من النار ﴿وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْأَمْلِئِيُّ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والقوز بثوابه ورضوانه، بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَرِيمًا﴾ فيها ﴿وَلَمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي، فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته، وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية، وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلصين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

(١٦، ١٥) ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَتَاوَهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: النساء ﴿الَّتِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ﴾ أي: الزنا، ووصفها بالفاحشة لشاعتها وقبحها.

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي: من رجالكم المؤمنين العدول، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ احبسوهن عن الخروج الموجب للرية، وأيضاً فإن الحبس من جملة العقوبات.

﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي: هذا منتهى الحبس ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً غير الحبس في البيوت. وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغاية إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا﴾ أي: الفاحشة ﴿مِنْكُمْ﴾ من الرجال والنساء ﴿فَتَاوَهُمَا﴾ بالقول والتوبيخ والتعيير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحسن ويؤذنين.

٨٠ ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَتَاوَهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بَظَنِّهِمْ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشَّيْءَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْوَاعَ وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ آتِيَتِهِنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَجْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا ۝﴾

فالحبس غايته إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه، وندما عليه، وعزما أن لا يعودا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل الدال على صدق التوبة ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: عن أذاهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي - من إحسانه - وقفهم للتوبة، وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدلتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة، سترًا لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء مفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة.

ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة وتوهم إلى هذه الآية لما قال: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ لم يكتف بذلك حتى قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر شاهد

وَحَرَّمَهُ، وَحَرَّمَ النَّبِيُّ ﷺ الْجَمْعَ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَتِهَا، أَوْ خَالَتِهَا، فَكُلُّ امْرَأَتَيْنِ بَيْنَهُمَا رَحِمٌ مُحَرَّمٌ، لَوْ قَدَّرَ إِحْدَاهُمَا ذَكَرًا، وَالْأُخْرَى أُنْثَى، حُرِّمَتْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَحْرِمُ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ التَّقَاتُحِ بَيْنَ الْأَرْحَامِ.

ومن المحرمات في النكاح ﴿الْمُصْصَنَاتُ مِنَ الْأَنْثَاءِ﴾ أي: ذوات الأزواج، فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج، حتى تطلق، وتنقضي عدتها ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: بالسي، فإذا سببت الكافرة ذات الزوج، حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوجة، أو وهبت، فإنه لا يفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريرة، حين خبرها النبي ﷺ.

وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الزموه واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: ﴿وَأُجِّلَ لَكُمْ مَا وَدَّعَ إِلَيْكُمْ﴾ كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفًا من الله ورحمة، وتيسيرًا للعباد.

وقوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ أي: تطلبوا ما وقع عليه نظركم واختياركم، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي: مستعفين عن الزنا، ومعفين نسائكم.

﴿غَيْرَ مُتَّبِعِينَ﴾ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته، لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف دأعيته للحلال، فلا يبقى محصنًا لزوجه، وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَاجَهُمْ أَوْ مُشْرِكَاتَهُنَّ أَوْ زَوَاجَاتَهُنَّ الَّتِي لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَوْجُهُنَّ أَوْ مِثْلُهَا﴾.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أي: ممن تزوجتموها ﴿فَقُلُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع، ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه تقرر عليه صداقها.

﴿فَرِيضَةً﴾ أي: إيتاؤكم^(١) إياهن أجورهن فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه، وإن شاء رده، أو معنى قوله «فريضة» أي: مقدرة قد قدرتموها، فوجبت عليكم، فلا تقصوا منها شيئًا.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَّيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس، [هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالًا في أول الإسلام، ثم

(١) في ب: وأصولها وفروعها. (٢) في الأصل: (إيتانكم)، ولعل الصواب ما أثبت.

مشمطات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحملات من النساء، فأما المحرمات في النسب، فهن السبع اللاتي ذكرهن الله: الأم، يدخل فيها كل مَنْ لها عليك ولادة، وإن بعدت، ويدخل في البنت كل مَنْ لك عليها ولادة، والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم، والعمة: كل أخت لأبيك، أو لجديك، وإن علا، والخالة: كل أخت لأُمك، أو جدتك وإن علت، وأرثاء أم لا، وبنات الأخ، وبنات الأخت، أي: وإن نزلت.

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء، كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل في قوله: ﴿وَأُجِّلَ لَكُمْ مَا وَدَّعَ إِلَيْكُمْ﴾، وذلك كبنت العمة والعم، وبنت الخال والخالة.

وأما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم، والأخت، وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتبيينه على أن صاحب اللبن يكون أبًا للمرتضع، فإذا ثبت الأبوة والأمومة، ثبت ما هو فرع عنهما، كإخوتهما، وأصولهم، وفروعهم^(١).

وقال النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، فينتشر التحريم من جهة المرضعة، ومَنْ له اللبن، كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط، لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين، كما بينت الشئ.

وأما المحرمات بالصهر، فهن أربع: حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الأبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين، وأمهات الزوجة وإن علون، فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد.

والرابعة: الربيبة، وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجه، كما قال هنا: ﴿وَزَوَّجْتُمْ أَلْفَيْ فِي حُبُورِكُمْ بَيْنَ يَسَاطِعِكُمْ أَلْفَيْ دَكَلْتُمْ بِهِنَ﴾ الآية.

وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿الَّتِي فِي حُبُورِكُمْ﴾ قيد خرج مخرج الغالب، لا مفهوم له، فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقيد بذلك فاندتان:

إحدهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت، فمن المستفتح بإباحتها.

والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة، وأنها بمنزلة مَنْ هي في حجره من بناته ونحوهن، والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَسْعَوْا
بِأَمْوَالِكُمْ مُخْصِينَ غَيْرَ مُسْفِهِينَ ۖ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ
مِنْهُنَّ فَلَهُنَّ أَجُورُهُنَّ ۖ فَرِيضَةٌ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٥﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ
الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
فَتَنَاتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ۚ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ مُحْصِنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا تُمْسِكُوا
مِنْهُنَّ بِأَعْيُنِكُمْ ۚ فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ تَنْكِحُوا فَتِلْكَ نِصْفُ
مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
الْعَمْتَ مِنْكُمْ ۚ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٢٦﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتَّوْبَ عَلَيْكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

خسوس جلدة، وأما الرجم، فليس على الإمام رجم، لأنه لا
يتنصف، فعلى القول الأول، إذا لم يتزوجن فليس عليهن
حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة، وعلى
القول الثاني: إن الإمام غير المسلمات إذا فعلن فاحشة أيضًا
عزرن.

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين «الغفور
والرحيم» لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد، وكرمًا، وإحسانًا
إليهم، فلم يضيّق عليهم، بل وسع غاية السعة، ولعل في ذكر
المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله
بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث، وحكم العبد الذكر
في الحد المذكور حكم الأمة؛ لعدم الفارق بينهما.

(٢٦-٢٨) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتَّوْبَ عَلَيْكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَّوْبَ
عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشُّهُوتَ أَنْ يَقْتُلُوا رَبَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ

(١) زيادة من هامش ب، والزيادة غير واضحة، وقد أسمتها من الطبعة
السلفية. (٢) في الأصل: (الإيمان بهن) ولعل مراده قائم بهن، والأقرب
ما أثبت.

حرّمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها، وأجرها، ثم إذا انقضى
الأمَد الذي بينهما، فتراضيا بعد الفريضة، فلا حرج عليهما،
والله أعلم^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم واسعه، كامل
الحكمة، فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحدّ
لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

(٢٥) ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ
يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
فَتَنَاتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ۚ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ مُحْصِنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا تُمْسِكُوا
مِنْهُنَّ بِأَعْيُنِكُمْ ۚ فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ تَنْكِحُوا فَتِلْكَ نِصْفُ
مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَمْتَ وَأَنْ
تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ومن لم يستطع الطول
الذي هو المهر لنكاح المحصنات، أي: الحرائر المؤمنات،
وخاف على نفسه العنت، أي: الزنا أو المشقة الكثيرة،
فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات، وهذا بحسب ما
يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمر الدنيا
مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في
البواطن.

﴿فَانْكِحُوهُنَّ﴾ أي: المملوكات ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي:
سيدهن، واحدًا، أو متعدّدًا.

﴿وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولو كن إماء، فإنه كما
يجب المهر للحرّة، فكذلك يجب للإماء.

ولكن لا يجوز نكاح الإماء، إلا إذا كن «مُحْصَنَاتٍ» أي:
عفيفات عن الزنا «غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ» أي: زانيات علانية «وَلَا
مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ» أي: أخلاء في السر.

فالحاصل، أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة، إلا بأربعة
شروط ذكرها الله: [إيمانهن]، والعفة ظاهرًا وباطنًا، وعدم
استطاعة طول الحرّة، وخوف العنت فإذا تمت هذه الشروط
جاز له نكاحهن.

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل، لما فيه من تعريض
الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب وهذا إذا أمكن
الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرّم إلا بنكاحهن، وجب
ذلك ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَحْبَبْتُمْ﴾ أي: تزوجن أو أسلمن، أي:
الإماء «فَتِلْكَ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ» أي: الحرائر «وَمِنْ
الْعَذَابِ».

وذلك، الذي يمكن تنصيفه، وهو: الجلد، فيكون عليهن

٨٣

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٣٠﴾ يَكَايَهَا الَّذِينَ يُدْعُونَ بِأَسْمَائِهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ آيَةٌ فَخُفٍّ لَهُمْ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ لَا تُحْشَرُ لَكَ شَرٌّ وَلَا يَبْعَثُ رَبِّيَ عَنْكُمْ رِجِيمًا ﴿٣١﴾ وَمَنْ يُفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٢﴾ إِنْ تَحْتَسِبُوا أَكْبَارَ مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ تُكْفِرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَذَّخِلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٤﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُم نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٥﴾

نُهاكم عنه. ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع، أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم، كالمينة والدم ونحوهما، للمضطر، وتزوج الأمة للحر، بتلك الشروط السابقة، وذلك لرحمته التامة، وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان، من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه، وصبره، وقوته.

(٣٠، ٢٩) ﴿يَكَايَهَا الَّذِينَ يُدْعُونَ بِأَسْمَائِهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ آيَةٌ فَخُفٍّ لَهُمْ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ لَا تُحْشَرُ لَكَ شَرٌّ وَلَا يَبْعَثُ رَبِّيَ عَنْكُمْ رِجِيمًا﴾ أي: يهين الله تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالغصب، والسرقات، وأخذها بالقمار، والمكاسب الرديئة، بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ يخبر تعالى بمتنته العظيمة، ومنحته الجسيمة، وحسن تربيته لعباده المؤمنين، وسهولة دينه، فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿وَيُذِيقُكُمْ شَتَّى الدُّوَابِّ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم، في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السليمة، وشمالهم الكاملة، وتوفيقهم التام، فلذلك نفذ ما أراده، ووضح لكم، وبين بَيَانًا ما بين لمن قبلكم، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿وَيُتُوبُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يلطف لكم في أحوالكم، وما شرعه لكم، حتى تمكنوا^(١) من الوقوف على ما حده الله، والاكتفاء بما أحله، فقتل ذنوبكم، بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده، ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنوا، فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإجابة إليه، والتذل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له فله الحمد والشكر على ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل الحكمة، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود، ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله، من لا يصلح للتوبة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: توبة تلم شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم.

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم.

فهؤلاء يريدون ﴿أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ أي: [أَنْ] تحرفوا عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين، يريدون أن يصرفوك عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه، فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم، وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم، بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعين، وتخيروا أحسن الطريقتين.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: بسهولة ما أمركم به، و[ما]

(١) في ب: تمكنوا.

نُصْلِيهِ نَارًا ﴿٣١﴾ أي: عظمة كما يفيد التثكير ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

(٣١) ﴿إِنْ تَحِبَبْتُمْ كَبَائِرَ مَا نُهُونَ عَنْهُ تَكْفُرْ عَنْكُمْ مَسِيحَاتِكُمْ وَأَذْخَالِكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وعدمهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات، غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلًا كريمًا، كثير الخير وهو الجنة، المشتملة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبًا كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان، كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفورات لما بينهما، ما اجتنبت الكبائر». وأحسن ما أخذت به الكبائر، أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِيُجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا آتَسَّوْا وَلِلنَّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا آكَسْنَ وَسَوَّلُوا اللَّهُ مِنْ فَسْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره، من الأمور الممكنة، وغير الممكنة، فلا تمنى النساء خصائص الرجال، التي بها فضلهن على النساء، ولا صاحب الفقر والفقص حالة الغنى والكمال، تمنيًا مجردًا، لأن هذا هو الحسد بعينه، تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك، ويسلب إياها.

ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلال إلى الكسل والأمانى الباطلة، التي لا يقتزن بها عمل ولا كسب، وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته، بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يتكل على نفسه، ولا على غير ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا آكَسْنَ﴾ أي: من أعمالهم المتتجة للمطلوب.

﴿وَلِلنَّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا آكَسْنَ﴾ فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه.

﴿وَسَوَّلُوا اللَّهَ مِنْ فَسْلِهِ﴾ أي: من جميع مصالحهم في الدين والدنيا، فهذا كمال العبد، وعنوان سعاده، لا من يترك العمل، أو يتكل على نفسه، غير مفترق لربه، أو يجمع بين الأمرين، فإن هذا مخدول خاسر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعطي من يعلمه أهلاً لذلك، ويعمن من يعلمه غير مستحق.

البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل، وليس من الحق. ثم إنه - لما حرم أكلها بالباطل - أباح لهم أكلها بالتجارات، والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط، من التراضي وغيره.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبته من الحدود.

وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كيف شمل أموال غيرك، ومال نفسك، وقتل نفسك، وقتل غيرك، بعبارة أخصر من قوله: «لا يأكل بعضهم مال بعض» و«لا يقتل بعضهم بعضًا» مع قصور هذه العبارة على مال الغير، ونفس الغير فقط.

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين، فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم، وتراحيمهم، وتعاطفهم، ومصالحهم، كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل، التي فيها غاية الضرر عليهم، على الأكل، ومن أخذ ماله - أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات، وأنواع الحرف والإجارات، فقال: ﴿إِنَّ أَنْ تَكُونَ بِحَرَةٍ عَنْ تَرَاثِيكُمْ﴾ أي: فإنها مباحة لكم.

وشرط التراضي - مع كونها تجارة - لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا، لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين، ويأتي به اختيارًا.

ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلومًا، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورًا على تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا، فلا ينفذ عقده.

وفيها أنه تتعد العقود بما دل عليها من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته أن عصم دماءكم وأموالكم، وصانها، ونهاكم عن انتهاكها.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ ذَلِكُمْ﴾ أي: أكل الأموال بالباطل، وقتل النفوس ﴿عَذَابًا وَظَلَمًا﴾ أي: لا جهلاً ونسياناً ﴿فَسَوْفَ

ولعل هذا سر قوله: ﴿يَمَّا أَنْفَعُوا﴾ وحذف المفعول، ليدل على عموم الثقة، فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامراته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة فوظيفته أن يقوم بما استراحه الله به.

ووظيفتها، القيام بطاعة ربها، وطاعة زوجها، فلهذا قال: ﴿فَالْمُكَلَّفَاتُ قَبِيضَاتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى ﴿حَقِيقَاتٌ لِلْقَبِيضِ﴾ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها، وماله، وذلك بحفظ الله لهن، وتوقيفه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن مَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي تَخَاوَفُ ظُهُورُهَا﴾ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن، بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل.

﴿فَيُطَوَّرُ﴾ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فهجرها الزوج في المضجع، بأن لا يضاجمها، ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح.

فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور، وأطعنكم ﴿فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: فقد حصل لكم ما تحبون، فاتركوا معاتبته على الأمور الماضية، والتقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي: له العلو المطلق بجميع الوجوه، والاعتبارات، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، الكبير الذي لا أكبر منه، ولا أجل، ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

(٣٥) ﴿وَإِنْ جَفَثَتْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين، والمباعدة والمجانبة، حتى يكون كل منهما في شق ﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: رجلين مكلفين، مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهذا مستفاد من لفظ «الحكم» لأنه لا يصلح حكماً، إلا مَنْ اتصف بتلك الصفات، فينظران ما يتم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، فتمتأ الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق.

ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح، فلا يعدلا عنه.

(٣٣) ﴿وَلِكُلِّي جَعَلْنَا مَوْتًا تَرَكَ الْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ تَعْيِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: ﴿وَلِكُلِّي﴾ من الناس ﴿جَعَلْنَا مَوْتًا﴾ أي: يتولونه ويتولاهم، بالتعزز والنصرة، والمعاونة على الأمور ﴿وَمَوْتًا تَرَكَ الْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وهذا يشمل سائر الأقارب، من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالي من القربة.

ثم ذكر نوعاً آخر من الموالي فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: حالفتوهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة، والاشتراك بالأموال، وغير ذلك، وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان الموالي يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً.

قال تعالى: ﴿فَتَأْتُوهُمْ تَعْيِيْبُهُمْ﴾ أي: أتوا الموالي نصيبهم، الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة، والمساعدة، على غير معصية الله، والميراث للأقارب الأدين من الموالي.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: مطلعاً على كل شيء، بعلمه لجميع الأمور، وبصره لحركات عباده، وسمعه لجميع أصواتهم.

(٣٤) ﴿الزَّيَالُ قَوْمُونَ عَلَى الْإِسَاءِ يَمَّا فَسَّكَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَعُوا مِّنْ أَمْرِهِمْ فَالْمُكَلَّفَاتُ قَبِيضَاتٌ حَقِيقَاتٌ لِلْقَبِيضِ يَمَّا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَاوَفُ ظُهُورُهَا وَأَعْبُرُوهَا فِي الْمَصَاحِبِ وَأَمْرُهُمْ فَإِنَّ أَمْرَكُمْ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ يخبر تعالى أن ﴿الزَّيَالُ قَوْمُونَ عَلَى الْإِسَاءِ﴾ أي: قوامون عليهن بالزأمنن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه، وكفهن عن المفساد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضاً بالإنفاق عليهن، والكسوة، والمسكن.

ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال: ﴿يَمَّا فَسَّكَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَعُوا مِّنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء، وإفضالهم عليهن.

تفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات، كالجهاد، والأعياد، والجمع.

وبما خصهم الله به من العقل، والرزانة، والصبر، والجَلَد، الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالتفقات على الزوجات، بل وكثير من التفقات يختص بها الرجال، ويتميزون عن النساء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ﴿٣٩﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً فُضِّلْنَا بِهَا وَتُؤْتَى مِنْ لَدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤١﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَاكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ
كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللهَ حَدِيثًا ﴿٤٣﴾ يٰ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَى آثَارِ
سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ
اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ
الْكِتَابِ يَشْرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تُلْغَوْا السُّبُلَ ﴿٤٥﴾

خطوات الشيطان وأعماله، التي يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلهاذا قال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: بش المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك مَنْ قارنه، ويسعى فيه أشد السعي.

فكما أن مَنْ بخل بما آتاه الله، وكنم ما مَرَّ به الله عليه، عاصي أثم، مخالف لربه، فكذلك مَنْ أنفق وتعبد لغير الله، فإنه أثم عاصي لربه، مستوجب للعقوبة؛ لأن الله إنما أمر بطاعته، وامتنال أمره، على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ تَعَالَى﴾ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب، فلهاذا حث تعالى عليه بقوله:

(٣٩) ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: أي شيء عليهم، وأي حرج ومشقة تلحقهم، لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو

فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياء، والنصح له والوفاء معه، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصلابة تأكد الحق وزاد.

﴿وَأَيُّ السُّبُلِ﴾ هو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة، أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده، [ويأكرامه، وتأنيسه] ^(١)، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم، فَمَنْ قام بهذه الأمور فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل، والشاء الجميل.

وَمَنْ لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي: معجبًا بنفسه، متكبرًا على الخلق ﴿فَخُورًا﴾ يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله.

فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر بمنعمهم من القيام بالحقوق ولهذا ذمهم بذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ﴾ أي: يمتنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم.

﴿وَيَكْسِبُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق، فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم، وخسارة غيرهم وهذه هي صفات الكافرين، فلهاذا قال تعالى: ﴿وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسبوا في منع غيرهم، من البخل، وعدم الاهتداء، أمانهم بالعذاب الأليم، والخزي الدائم، فعيادًا بك اللهم من كل سوء.

ثم أخبر عن الثقة الصادرة عن رياء وسمعة، وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ﴾ أي: لبروهم، ويمدحهم، ويعظمهم.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ليس إنفاقهم صادرًا عن إخلاص وإيمان بالله، ورجاء ثوابه، أي: فلهاذا من

الحق المين .

فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم مغن عنهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق، وشهدت عليهم جوارحهم، حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

(٤٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَارِي سَبِيلِ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَتْكُمْ نِسَاءُكُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ فَامْسَحُوا بِأَيْدِيكُمْ وَأُكُلْوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَأَلْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمْ وَلَا تَجْلِسُوا فِي الْمَسَاجِدِ وَالْمَسْجِدَ الَّذِي فِيهِ يُقْرَأُ الْقُرْآنُ كَثِيرًا مِنْهُنَّ وَأُولَٰئِكَ يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤٣)

الصلوة وهم سكارى، حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كاللحجب، فإنه لا يمكن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة؛ لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حذّر تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم، بما يقول السكران، وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقاً، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرّم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه، بقوله: ﴿يَسْتَلْزِمُكَ غَيْرُ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ تَبِعَهُمَا أَثَمٌ أَكْبَرُ مِنْ ثَمَرِهِمَا﴾، ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا فَعَلْنَا الْقُرْآنَ وَالْغَيْبَ وَالْأَنبَاءَ وَالْأَحْكَامَ وَالْأَقْصَىٰ مِنْ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ الآية.

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة، الذي هو روحها ولبها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمداغة الأخبيين، والتوقير لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

ثم قال: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَارِي سَبِيلِ﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنباً إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل أي: تمرّون في المسجد، ولا تمكثون فيه. ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم فهو غاية المنع من قربان الصلاة للحجب، فيحلب للحجب المرور في المسجد فقط.

الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله، وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق.

ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾.

(٤٠-٤٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّأَنَّهُ كَانَ عَلِيمًا غَنِيًّا﴾ (٤٠) ﴿يُضَاهِيهِمْ وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً﴾ (٤١) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ (٤٢) ﴿يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا أَرْسُولَ لَوْ شِئْنَا لَمَسَّ الْأَرْضُ يَوْمَ الْآزْمِ وَلَا يَكُونُونَ إِلَّا هَيْدَةً﴾ (٤٣)

ينخير تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك، من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّأَنَّهُ كَانَ عَلِيمًا غَنِيًّا﴾ (٤٠) أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيدها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَسَّ يَشْكَالُ يَشْكَالُ دَرَجَاتٍ حَقِيرَةً وَمَنْ يُعَمَلْ يَشْكَالُ دَرَجَاتٍ شَرًّا يَمَسُّ﴾.

﴿وَأَنَّ تِلْكَ حَسَنَةٌ يُفْعَلُهَا﴾ أي: إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير، والخير الغزير.

ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن من حكم به، كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، شهادة أركي الخلق، وهم الرسل على أمهم، مع إقرار المحكوم عليه!! فهذا - والله - الحكم، الذي هو أعم الأحكام، وأعدلها، وأعظمها.

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له لكامل الفضل والعدل، والحمد والثناء، وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح، والعز والنجاح، ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة، والعذاب المهين.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا أَرْسُولَ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لَوْ شِئْنَا لَمَسَّ الْأَرْضُ يَوْمَ الْآزْمِ﴾ أي: تبطلهم، ويكونون تراباً وعدماً، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ إِنِّي رَبِّي كُفٌّ مُرْتَابٌ﴾.

﴿وَلَا يَكُونُونَ إِلَّا هَيْدَةً﴾ أي: بل يقررون له بما عملوا، وتشهد عليهم الستتهم، وأيديهم، وأرجلهم، بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيههم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو

سُورَةُ النِّسَاءِ

٨٦

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٥٥﴾
 مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَعَيْنَا لَيْثًا أَلْسِنَتِهِمْ
 وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا
 لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٦﴾ يَتَّبِعُهُمُ الْكُفْرُ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِمَّا نَزَّلْنَا
 مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْلُسَ وُجُوهًا قَرْدًا هَا
 عَلَى أَذْيَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أُنْحَبَ السَّيِّئَ وَكَانَ أَمْرُ
 اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
 ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا
 ﴿٥٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ رَبُّكَ يُرِيكُم مِّنْ آيَاتِهِ
 وَلَا يَظْلُمُونَ قِتْلًا ﴿٥٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ
 وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٦٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
 مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالْطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٦١﴾

ولهذا قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: يتولى أحوال عباده،
 ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويسر لهم ما به سعادتهم
 وفلاحهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصرهم على أعدائهم، وبين لهم
 ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم، فلا يته تعالى فيها حصول
 الخير، ونصره فيه زوال الشر.

ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم، وإثارهم الباطل على
 الحق فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: اليهود، وهم علماء
 الضلال منهم.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنى،
 أو هما جميعاً، فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في
 كتبهم، التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ، على أنه
 غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكنمانهم
 ذلك.

فهذا حالهم في العلم أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا
 الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق، وأما حالهم في
 العمل والانقياد فإنهم ﴿يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا
 قولك، وعصينا أمرك. وهذا غاية الكفر والعناد، والشرود عن
 الانقياد.

وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأفح خطاب وأبعده عن
 الأدب، فيقولون: ﴿أَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ﴾ قصدهم: اسمع منا
 غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره.

﴿وَرَعَيْنَا﴾ قصدهم بذلك: الرعونة، بالعب القبيح،
 ويطنون أن اللفظ - لما كان محتملاً لغیر ما أرادوا من الأمور
 - أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي
 يلون به ألسنتهم، إلى الطعن في الدين، والغيب للرسول،
 ويصرحون بذلك فيما بينهم، فلهذا قال: ﴿لَيْثًا أَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا
 فِي الدِّينِ﴾.

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ
 قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ وذلك لما
 تضمنه هذا الكلام، من حسن الخطاب والأدب اللائق في
 مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله، والانقياد لأمره،
 وحسن التلطف في طلبهم العلم، بسماع سؤالهم، والاعتناء
 بأمرهم.

فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه، ولكن لما كانت طبائعهم
 غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردوا الله، بكفرهم
 وعنادهم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
 قَلِيلًا﴾

(٤٧) ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْكُفْرُ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِمَّا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا

مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْلُسَ وُجُوهًا قَرْدًا هَا عَلَى أَذْيَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا
 لَعْنَا أُنْحَبَ السَّيِّئَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ يأمر تعالى أهل
 الكتاب، من اليهود والنصارى، أن يؤمنوا بالرسول محمد
 ﷺ، وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيم على غيره
 من الكتب السابقة الذي قد صدقها، فإنها أخبرت به، فلما
 وقع المخبر به كان تصديقاً لذلك الخبر.

وأيضاً، فإنهم - إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فإنهم لم يؤمنوا
 بما في أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً،
 ووافق بعضها بعضاً، فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض
 دعوى باطلة، لا يمكن صدقها.

وفي قوله: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ حث لهم،
 وأنهم ينبغي أن يكونوا قبل غيرهم مبشرين إليه بسبب ما أنعم
 الله عليهم به من العلم، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما
 عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان
 فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: اليهود، وكما ترون في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ وهذا
 جزء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وآثروا الباطل،
 وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً، والحق باطلاً، جوزوا

أنفسهم من اليهود والنصارى، وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ، من كل مَنْ زكى نفسه بأمر ليس فيه، وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿تَمَنَّيْنَا اللَّهُ وَأَجْبَلْتُهُ﴾. ويقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ وهذا مجرد دعوى، لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَبِهِمْ يَلَهُ وَهُوَ يُحْسِنُ فَكَلِمَةُ أُتْرُبُ عَنْ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِمْ هُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتخلي بالصفات الجميلة.

وأما هؤلاء، فهم - وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء، وأن الثواب لهم وحدهم - فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم، لا يظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وهذا لتحقيق العموم، أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار الفئيل الذي في شق النواة، أو الذي يفتل من وسخ اليد وغيرها.

قال تعالى: ﴿أَنْتَظِرُ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي: بتزكيتهم أنفسهم، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله، لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم، الإجماع بأن الله جعل ما هم عليه حقاً، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً، وهذا أعظم الكذب، وقلب الحقائق يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً. ولهذا قال: ﴿وَكَلَّنِي بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ أي: ظاهرًا بيناً، موجباً للعقوبة البليغة، والعذاب الأليم.

(٥١-٥٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالْقَنُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْمِزْهُمُ اللَّهُ فَلَهُنَّ آثِمَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْ ذُنُوبِهِمْ ۚ فَذَٰلِكَ لَا يُؤْمِنُ النَّاسُ بِقِيَامِ ۚ أَمْ يُحْسِنُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا بَدَأَهُمُ اللَّهُ مِن قَبْلِهِمْ فَقَدْ أَفْءَيْنَا إِلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَأَتَيْنَهُمْ ثُلَاثًا عَظِيمًا ۚ فَيَقُولُ مَن ذَاكَ الْقَوْمِ ۚ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوَاءٌ نُّصَلِّيَهُمْ أَمَّا هَؤُلَاءِ فَهُمْ جُودُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُودًا غَيْرَهَا يَتَذَبَّدُونَ ۚ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ ۚ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ ۚ كَانَ غَيْرُهُمْ حَكِيمًا ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَسَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۚ وَهَذَا مِنْ قِبَالِ الْيَهُودِ، وحسدتهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلافهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث، حمله على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعويض عنه بالإيمان

من جنس ذلك، بطمس وجوههم، كما طمسوا الحق، وردوا على أدبارها، بأن تجعل في أقناعتهم، وهذا أشنع ما يكون.

﴿أَوْ تَتَّبِعْتُمُ كَمَا لَمَّمْنَا أَخْصَبَ النَّسَبُ﴾ بأن يطردهم من رحمته، ويعاقبهم بجعلهم قردة، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا زُرَّةً حَتَّىٰ يَمُوتُوا﴾، ﴿وَكَاذِبٌ أَمْرٌ ۚ اللَّهُ مُغْتَوِّلٌ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

(٤٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الشَّاكِرِينَ﴾ وَيَقَرُّ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَكْفُرُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك^(١) من الذنوب، صفاتها وكبارها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرته.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصابب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين، ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك، فإنَّ المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تنفذه المصابب شيئاً وما لهم يوم القيامة ﴿بَيْنَ شَرِيحَيْنِ ۚ وَلَا صَدِيقٌ حَسْبُ ۚ﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: افتري جرماً كبيراً، وأي ظلم أعظم ممن سوى المخلوق - من تراب الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه - فضلاً عن عبده - نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضرر، والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين إلا فإنه تعالى، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟

ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب ﴿إِنَّهُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب.

وأما التائب، فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَبَايِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب.

(٤٩، ٥٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِلِلَّهِ يُؤْمِنُونَ بَلَىٰ ۚ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا ۚ أَنْتَظِرُ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَلَّنِي بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ هذا تعجب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥١﴾
 أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا
 آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
 فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٤﴾
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصْلِي
 جُلُودَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَ هَٰذِهِ وَلَهُمْ أَلْعَابٌ الْبُحْبُوحَةُ ﴿٥٥﴾
 كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلٌّ كَثِيرٌ ﴿٥٧﴾ إِنَّ
 اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَيْهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
 النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأُ يَعْلَمُ بِمَا كَانُمْ يَعْمَلُونَ
 بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

والمؤمنين، على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس بيدع ولا
 غريب على فضل الله.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾
 وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته، من النبوة،
 والكتاب، والملك الذي أعطاه من أعطاه، من أنبيائه
 كـ «داود» و«سليمان»، فإنعامه لم يزل مستمرًا على عباده
 المؤمنين، فكيف ينكرون إنعامه، بالنبوة، والنصر، والملك،
 لمحمد ﷺ، أفضل الخلق، وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله،
 وأخشاهم له! ﴿٥٩﴾

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ عنادًا،
 وبغيًا، وحسدًا، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو
 بعض آثار معاصيهم.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ تسعر على من كفر بالله، وجحد نبوة
 أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم، من أصناف الكفرة.
 ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي: ناري
 عظيمة الوقود، شديدة الحرارة.

بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو
 حكم بغير شرع الله.

فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة
 الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم
 الكفر والحسد، على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله - عبدة
 الأصنام - على طريق المؤمنين فقال: ﴿وَيُؤْتُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾
 أي: لأجلهم، تملقًا لهم ومداهنة، وبغضًا للإيمان: ﴿هَٰؤُلَاءِ
 أُعْذِنُ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سِيلًا﴾ أي: طريقًا، فما أسمجهم،
 وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!!

كيف سلخوا هذا المسلك الخويم، والوادي الذميم! ﴿٥٩﴾
 هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل
 عقل أحد من الجهلاء.

فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام
 على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من
 المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق
 بالمخلوقين، والكفر بالله، ورسله، وكتبه، على دين قام على
 عبادة الرحمن، والإخلاص لله، في السر والإعلان والكفر
 بما يعبد من دونه من الأوثان، والأنداد، والكافيين، وعلى
 صلة الأرحام، والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم،
 وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم،
 والصدق في جميع الأقوال والأعمال فهل هذا إلا من
 الهديان.

وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس، وأضعفهم
 عقلًا، وإما من أعظمهم عنادًا وتمردًا، ومراغة للحق.
 وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
 لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن رحمته، وأحل عليهم نقمته.
 ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي: يتولاه، ويقوم
 بمصالحه، ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: فيفضلون من شاءوا على من
 شاءوا، بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير
 المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل، ولهذا
 قال: ﴿فَإِذَا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَا يُؤْتُونَ
 النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: شيئًا، ولا قليلًا، وهذا وصف لهم، بشدة
 البخل، على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله، وأخرج
 هذا مخرج الاستفهام المقرر إنكاره عند كل أحد.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: هل
 الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله، فيفضلون من
 شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك، الحسد للرسول

الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء، والحكام، والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم، إلا بطاعتهم والالتقياد لهم طاعة الله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرؤا بمعصية الله، فإن أمرؤا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولعل هذا هو السر في حذف الفعل، عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر، فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه؛ من أصول الدين وفروعه، إلى الله وإلى رسوله، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهم، أو عموم معنى، يقاس عليه ما أشبه؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلّا بهما، فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغات، كما ذكر في الآية بعدها. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿حَتَّىٰ وَحَسِّنَ تَأْوِيلًا﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

(٦٣-٦٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعَوْنَ اللَّهََ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ لِيُذَيِّبُوا أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُفْرِجُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ صَغْوًا بَيعًا ۚ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۚ فَكَذَّبَ إِذَا أَصْبَحَتُمْ تُصِيبُهُ يَمَسًا قَدَمَتِ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ بِخُلُوفٍ يَدُّوا إِلَا يَخْسَرُوا وَتَوَقَّيْنَا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ إِلَهُكَ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ قَاعٌ غَارٍ عَنَّهُمْ وَعِظَتْهُمْ وَكَلَّمَهُمْ فَلَمَّ هُمْ فِتْ أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَيعًا ۚ يَجِبُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ مِنْ حَالَةِ الْمُنَافِقِينَ ۚ أَلَيْسَ يَرْعَوْنَ اللَّهََ ۚ مُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَهُ مِنَ الرُّسُولِ وَمِمَّا قَبْلَهُ، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ﴾ وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

والحال أنهم ﴿قَدْ أُفْرِجُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الالتقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن، واختار حكم الطاغات على حكم الله، فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ صَغْوًا بَيعًا﴾ عن الحق.

﴿كَذَّبَ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إِذَا أَصْبَحَتُمْ

﴿كَلِمًا يَفِيَّتْ جُلُوبُهُمْ﴾ أي: احترقت ﴿بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: ليلغ العذاب منهم كل مبلغ، وكما تكرر منهم الكفر والعناد، وصار وصفًا لهم وسجية؛ كثر عليهم العذاب جزاء وفاقا، ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَرِيبًا ذَكِيًّا﴾ أي: له العزة العظيمة، والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله، وما أوجب الإيمان به ﴿وَعَسَاوُوا الْفِتْنَةَ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَتَجِدُنَهُمْ جُنُودًا لِمَنِ يَرْجُوا مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْتَارُ خَالِفِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَنْوَارٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا، من كل دنس وعيب ﴿وَيَتَذَكَّرُ فِيهَا مِثْلَ طِيلٍ﴾.

(٥٩، ٥٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ أَنْ تُزَكَّوْا أَنْفُسَكُمْ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْلَمُوا بِالْحَقِّ إِنْ يَأْتِيَا بِظُلْمٍ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَكْمَامُ وَنُفَخُ الْكُفْرَ فَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَكْفُرَهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ الأمانات: كل ما أئتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا مصلولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال، والأسرار، والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.

وقد ذكر الفقهاء أن من أئتمن أمانة؛ وجب عليه حفظها في حرز مثلها، قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤمن، ووكيله بمنزلة؛ فلو دفعها لغير ربه لم يكن مؤديا لها.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْلَمُوا بِالْحَقِّ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبرّ والفاجر، والولي والعدو، والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو ما شرعه الله على لسان رسوله، من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل، ليحكم به، ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِظُلْمٍ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَكْمَامُ وَنُفَخُ الْكُفْرَ فَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَكْفُرَهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيها لاشتغالها على مصالح الدارين، ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتنال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٥﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ بِمَا وَعَدُواكَ يَخْلَفُونَ بِاللَّهُ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴿٦٧﴾ وَأَمَّا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٨﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٩﴾

رَحِيمًا﴾ أي: تائب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها، والثواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ، مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته، فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة. ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتهي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك^(٢)، حتى يسلموا لحكمه تسليماً، بانسراح صدر، وطمأنينة نفس، واتباع بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه

(١) في النسختين: معتزدين. (٢) في النسختين: تعظيم المطاع للمطيع، وهو سبق قلم، وقد عدلت في ب عن طريق المطبعة السلفية إلى: تعظيم المطاع من المطيع. (٣) في ب: هذا التحكيم.

مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي، ومنها تحكيم الطاغوت؟.

﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ﴾ معتزدين^(١) لما صدر منهم، ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة في ذلك؛ فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿وَرَبَّنَّ احْسِنْ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِغُيُورِ يُؤْقِنُونَ﴾.

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من النفاق والقصد السيء ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقتروه ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي: بين لهم حكم الله تعالى، مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه.

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَةُ أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا لِيَعْلَمَ﴾ أي: انصحهم سرّاً بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالع في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي، وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سرّاً، ويبالغ في وعظه، بما يظن حصول المقصود به.

(٦٤، ٦٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ فلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يخبر تعالى خبراً، في ضمنه الأمر، والحث على طاعة الرسول، والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين، ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به، ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين، تعظيم المطيع للمطاع^(٢).

وفي هذا إثبات عصمة الرسل، فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرهم به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقاً، فلو لا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقاً. وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره، ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان - إن لم يعنه الله - أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترب السيئات - أن يعترفوا ويتوبوا، ويستغفروا الله فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ أي: معترفين بذنوبهم، باخعين بها.

﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَسَدَّ تُبَعِيًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا ﴿٧٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ فَرَادَىٰ جُيُوشًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسْ حَتَّى كُنْتَ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيَقْتُلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

المراتب، وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها، فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العصاة.

(٦٦-٦٨) ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَسَدَّ تُبَعِيًا﴾ ○ ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ○ ﴿وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس، من قتل النفوس، والخروج من الديار، لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم، وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات؛ لتخفف عليه العبادات، ويزداد حمداً وشكراً لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به، أي: ما وُظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا همهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمع نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها، فيكملها، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا.

وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه، ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق المهمة، وحصول الكسل، وعدم النشاط، ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم، من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانضوا عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول الثبوت والثبات وزيادته، فإن الله يشب الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وعظوا به. فبشيتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر، والنواهي، والمصائب، فيحصل لهم ثبات، يوقفون لفعل الأوامر، وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرهها العبد، فيوقف للثبوت بالتوفيق للصبر أو للرضا، أو للشكر.

فيترك عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر. وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يثمر على

الأوامر الشرعية، حتى يألها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث) قوله: ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب، والبدن، ومن النعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونه متضمنة للعلم بالحق، ومحبة وإثارة به، والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدي إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

(٦٩، ٧٠) ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ○ ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا﴾ أي: كل مَنْ أطاع الله ورسوله - على حسب حاله وقدر الواجب عليه من ذكر وأثنى وصغير وكبير ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح، والسعادة

فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة، وأيضاً، فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانهم، أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد وضعا، ودخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف، لا يقوى على الجهاد كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ وَلَكِنْ قَوْلُهُمْ كَلِمَاتٌ يُضِلُّونَ﴾ إلى آخر الآيات. ثم ذكر غايات هؤلاء المنافقين، ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها فقال: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: هزيمة، وقتل، وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم.

﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلف ﴿قَدْ آمَنَ اللَّهُ عَنِّي إِذْ لَا أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً﴾ رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة، ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب، ورضا الكريم الوهاب، وأما القعود فإنه وإن استراح قليلاً، فإنه يعقبه تعب طويل، وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين.

ثم قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ بِكُمْ فَطَرْنَا مِنْ أَلْفِ أُمَّةٍ غَنِيماً﴾ أي: نصر وغنيمة ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة، ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم، يا معشر المؤمنين! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي^(١) من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم، دفع مضارهم، يفرحون بحصولها، ولو على يد غيرهم، من إخوانهم المؤمنين^(٢)، ويألمون بفقدائها، ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يمتنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق عنهم أبوابها، بل من حصل منه غير ما يليق، أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه، فلهاذا أمر هؤلاء بالإخلاص، والخروج في سبيله فقال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ هذا أحد الأقوال في هذه الآية، وهو أصحها.

وقيل: إن معناه، فليقاتل في سبيل الله، المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون في إيمانهم ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ

﴿بِالدُّنْيَا﴾ الذين فضلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق، ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ وهم الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل فعملوا الحق، وصدقوه بيقينهم، وبإلتيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوة إلى الله، ﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين قاتلوا لإعلاء كلمة الله، فقتلوا ﴿وَالَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ الذين صلح ظاهريهم وباطنيهم، فصلحت أعمالهم، فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء وفي صحبتهم ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَاكُمْ﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والأنس بقربيهم في جوار رب العالمين ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ الذي ناله ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ فهو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَكُلٌّ فِيهِمْ غَنِيماً﴾ يعلم أحوال عباده، ومن يستحق منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والجوارح.

(٧١-٧٤) ﴿يَتْلُوهُ الَّذِينَ آمَنُوا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا إِلَىٰ جِهَادٍ أَوْ يُبْرَأُوا﴾ أي: يقرأون ﴿وَلَوْ آمَنَ بِكُمْ فَطَرْنَا مِنْ أَلْفِ أُمَّةٍ غَنِيماً﴾ أي: نصر وغنيمة ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة، ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم، يا معشر المؤمنين! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي^(١) من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم، دفع مضارهم، يفرحون بحصولها، ولو على يد غيرهم، من إخوانهم المؤمنين^(٢)، ويألمون بفقدائها، ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يمتنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

ولهذا قال: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة، ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم، يا معشر المؤمنين! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي^(١) من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم، دفع مضارهم، يفرحون بحصولها، ولو على يد غيرهم، من إخوانهم المؤمنين^(٢)، ويألمون بفقدائها، ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يمتنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ بِكُمْ فَطَرْنَا مِنْ أَلْفِ أُمَّةٍ غَنِيماً﴾ أي: بتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة، ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم، يا معشر المؤمنين! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي^(١) من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم، دفع مضارهم، يفرحون بحصولها، ولو على يد غيرهم، من إخوانهم المؤمنين^(٢)، ويألمون بفقدائها، ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يمتنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

وقيل معناه: ليطعن غيره، أي يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون ولكن الأول أولى، لوجهين:

أحدهما: قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين.

والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَانَ لَكُمْ تَكُنْ يَتْلُوهُ﴾

(١) في النسخين: الذي. (٢) في النسخين: على يد غيره من إخوانه.

ولغير ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال، غير اللاتق فيها ذلك، وإنما اللاتق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت، من التوحيد، والصلاة، والزكاة ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ لَكُنَّا فَجْرًا مُّسْمًى وَآسَفًا تُنَبِّئُهَا﴾ فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي الإسلام، كُتِبَ عليهم القتال في وقته المناسب لذلك.

فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك، خوفاً من الناس، وضعفاً وخوفاً: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ؟﴾ وفي هذا تضجرهم، واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال - التسليم لأمر الله، والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ؟﴾ أي: هلأ أخرت فرض القتال، مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين، واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر.

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال، التي فيها التخلف عن القتال فقال: ﴿قُلْ مَتَىٰ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ الْآخِرَةُ؟﴾ أي: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله، في المدة القصيرة، مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها، هان عليها ذلك، فكيف إذا وزنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها، في ذاتها، ولذاتها، وزمانها:

فذاها - كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه - «أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها».

ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال، أو دار في الفكر، من تصور لذة - فلاة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَمْلِكُ نَفْسٌ مَّا أُخِيقَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقال الله على لسان نبيه: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص، الذي لو قبل بين لذاتها، وما يقترن بها من أنواع الآلام، والهوم والغوم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.

وأما زمانها، فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان - بالنسبة إلى الدنيا - شيء يسير، وأما الآخرة، فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها، فإذا فكر العاقل في هاتين الدارين، وتصور حقيقتهما حق التصور، عرف ما هو أحق بالإثارة، والسعي له، والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَفَتِنَا أُولَٰئِكَ الشَّيْطَانُ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٩﴾ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَىٰ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَنظُمُونَ قَبِيلًا ﴿٨٠﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ قُلْ هَلْ يَبْعَثُ اللَّهُ الْفُتُورًا لَا يَكَاذِبُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٨١﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨٢﴾

أَلْفٌ﴾ أي: اتقى الشرك، وسائر المحرمات.

﴿وَلَا تَنظُمُونَ قَبِيلًا﴾ أي: فسيحكم للدار الآخرة، ستجدونه كاملاً موفراً، غير منقوص منه شيئاً.

ثم أخبر أنه لا ينبغي حذر عن قدر، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئاً فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: في أي زمان، وأي مكان. ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي: قصور منيعة، ومنازل ريفية.

وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله، تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

(٨٠-٨١) ثم قال: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ قُلْ هَلْ يَبْعَثُ اللَّهُ الْفُتُورًا لَا يَكَاذِبُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨١﴾ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَصْلَحَ اللَّهُ وَمَن تَوَلَّىٰ مِمَّا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَبِيلًا الآية. يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما

تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرراً من أعدائهم، فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة^(١)، أو فيه مصلحة، ولكن مضرة تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكَ الْوَّحِينَ يَسْتَرْحِطُونَ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجون بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى مَنْ هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا فيحجم عنه؟ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: في توفيقكم، وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿لَآتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر، فإذا لجأ إلى ربه، واعتصم به، واجتهد في ذلك، لطف به ربه، ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

(٨٤) ﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفَّ إِلَّا نَفْسُكَ وَخَرَجَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله، من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمان أو أحدهما، فهذا قال لرسوله: ﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفَّ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ أي: ليس لك^(٢) قدرة على غير نفسك، فإن تكلف بفعل غيرك.

﴿وَخَرَجَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين، وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

وفي قوله: ﴿يَتَّطَاعُونَ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة، لأن التبيت تدبير الأمر ليلاً على وجه يستقر عليه الرأي.

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ أي: يحفظه عليهم، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، وفيه وعيد لهم.

ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض، وعدم التعنيف، فإنهم لا يضرونه شيئاً إذا توكل على الله، واستعان به في نصر دينه، وإقامة شرعه، ولهذا قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

(٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته.

فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة؛ والطريق الموصلة إلى العذاب؛ وصفة أهلها؛ وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً، وعملًا، وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه [هو] المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مِيزَانًا لِنَبْلُوًا أَلَتَّبِعُوا أَمْرًا وَإِلَّا تَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ أَمْ عَلَيَّ ثُلُوبٌ فَقَدْ جَاءَ﴾.

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، فترى الحكم والقصة والإخبارات، تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند مَنْ أحاط علمه بجميع الأمور.

فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله؛ لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

(٨٣) ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّكَ الْوَّحِينَ يَسْتَرْحِطُونَ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَآتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا

(١) في ب: ما فيه مصلحة. (٢) في النسختين: ليس عليك.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَكْفِيَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا﴾ أي: قوة وعزة ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ بالمذنب في نفسه وتكليفه لغيره، فلو شاء تعالى لاتنصر من الكفار بقوته، ولم يجعل لهم بقية. ولكن - من حكمته - يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطرار والقهَر الذي لا يفيد شيئاً.

(٨٥) ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾ المراد بالشفاعة هنا: المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره، وقام معه على أمر من أمور الخير - ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم - كان له نصيب من شفاعته، بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء.

وَمَنْ عَاوَنَ غَيْرَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه، ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان، وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾ أي: شاهداً حفيظاً، حسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كل ما يستحقه.

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّمَ فَحَيَّوْا يَحْسِنُوا مِنْهَا أَوْ رُدُّوهُآ إِلَى اللَّهِ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتكلمين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها.

وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع من السلام ابتداء ورداً، فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حيوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة، أو مثلاً في ذلك، ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية، أو ردها بدونها.

ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية من وجهين:

أحدهما: أن الله أمر يردوها بأحسن منها أو مثلاً، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعاً.

الثاني: ما يستفاد من أفعال التفضيل، وهو «أحسن» الدال على مشاركة التحية وردها بالحسن، كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة، مَنْ حيا بحال غير مأمور بها، كـ «على مشتغل بقراءة، أو استماع خطبة، أو مصلى ونحو ذلك» فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك مَنْ أمر الشارع بهجره، وعدم تحيته، وهو العاصي غير

التائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى.

ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً، فإنه مأمور بردها أو أحسن منها، ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم، حسناتها وسيئاتها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله، وحكمه المحمود.

(٨٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَيِّيًا﴾ يخبر تعالى عن اغتراده بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مالوه إلا هو، لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والنعم الظاهرة والباطنة.

وذلك يستلزم الأمر بعبادته، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية؛ لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته، أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء - وهو يوم القيامة - فقال: ﴿يُجَمِّعُكُمْ﴾ أي:

إحداهما^(١) من يصل إلى قوم، بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم ﴿حَصِرَتْ شُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام: إما أن يكونوا معكم، ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك، فهؤلاء إن ﴿عَصَوْكُمُ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْغَوْا إِلَيْكُمْ السَّيْئَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمُ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَجِدُونَ لِلْأَخْرَبِ﴾ أي: من هؤلاء المناققين، ﴿يُؤْيِدُونَ أَن يَأْمُرُوكُمْ﴾ أي: خوفاً منكم ﴿وَيَأْمُرُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَّارَدُّوًا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم، ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها، فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احتراماً لهم، لا خوفاً على أنفسهم، أما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون^(٢) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يبين منهم، ويتضح انتصاحاً عظيماً، اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال:

﴿فَإِن لَّمْ يَتَّخِذُوا يَدَافِعُوا عَلَيْكُمُ الْفِتْنَةَ أَلْحَقُوا بِكُمُ الْمَالَءَ الْكَافِرَةَ﴾ أي: المسالمة والموادة، ﴿وَيُكَلِّمُوا الَّذِينَ يُبْغُونَ قُدُورَهُمْ وَأَقْتُلُوكُمْ حَيْثُ تَقِفُونَ﴾ وأولئك هم جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

(٩٢) ﴿وَمَا كَانُوا يَمُونُ أَن يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤَيَّمَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَدَّقُوا فَإِن كَانَتِ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤَيَّمَةٍ وَإِن كَانَتْ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِّن سُلْطَانٍ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤَيَّمَةٍ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزىء عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضعبع بعثه، ويقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزىء عتقه، مع أن في قوله: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك، فإن التحرير: تخليص من استحققت منفعه لغیره، أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير، فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية، فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ، وشبه

(١) كذا في ب، وفي أ: أحدا. (٢) في ب: سيقدون.

لتكون رادعة، وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيقتل عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك، من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح، وكف المفساد، [ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل، حذراً من تحميلهم]^(١)، ويخف عنهم^(٢) بسبب توزيعه عليهم، بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخفت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه، أن جبر أهل القتل عن مصيبتهم، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

(٩٣) ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ حَكِيماً فِيهَا وَعَظِيصُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَعْدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾^(١) تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعياداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفتدة، وتزعج منه أولو العقول.

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده، أن يجازي صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي الممين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار، فعباداً بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكبائر والمعاصي، بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة، الذين يخلدونها في النار، ولو كانوا موحدين، والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم - رحمه الله - في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانقضاء موانعه، وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها.

العمد ﴿مُسْكَمَةً إِلَهُ أَهْلِيهِ﴾ جبراً لقلوبهم. والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلية فيما ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَتَكَفَّرُوا﴾ أي: يتصدق ورثة القاتل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمانهم وأموالهم.

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ يَبْتَغِيكُمْ وَيَبْتَغِيكُمْ فِدْيَةً مُسْكَمَةً إِلَهُ أَهْلِيهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق، ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء، يفي بالرقبة ﴿فَقِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر.

فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض، والحض ونحوهما، وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿تَوْبَةً إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل، توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم، من تقصير، وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي: كامل العلم، كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، في أي وقت كان، وأي محل كان، ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته، أن أوجب على القاتل، كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعقوب رقبة، ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية، إلى التبعيد لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله، ومدّها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضوع لعدم المناسبة، بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ،

(١) زيادة من هامش: ب (٢) في ب: عليهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ
 مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى
 أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ
 وَهُمْ مُؤْمِنُونَ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ
 مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ
 إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
 فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ
 اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٤﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
 مُتَعَدِّيًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذَابُ اللَّهِ
 عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ يَأَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيِّبُوا وَلَا تَقُولُوا
 لِمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ الْيَكْرَمَ اسْلُبْهُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
 عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ
 كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ كُنْتُمْ
 فَتَيِّبُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٦﴾

قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ كُنْتُمْ فَتَيِّبُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرًا» يأمر تعالى عباده المؤمنين، إذا خرجوا جهاداً في
 سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا، ويتبشروا في جميع أمورهم
 المشبهة، فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين؛ لأن ذلك
 تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج
 إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟ فإن
 التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف
 لشروء عظيمة، ما به يعرف دين العبد، وعقله، ووزناته،
 بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها^(١)، قبل أن يتبين له
 حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي.

كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية، لما لم
 يتبينوا، وقتلوا من سلم عليهم، وكان معه غنمة له أو مال
 غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم، وكان هذا خطأ في نفس

(١) في النسخين: بدواته.

وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع،
 وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع
 بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة
 الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة
 الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه
 النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين، ومن هنا
 قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى
 العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى
 هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية، وهو مقتضى
 الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها،
 خلقاً وأمرًا.

وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضداً يدافعه، ويقاومه،
 ويكون الحكم للأغلب منهما، فالقوة مقتضية للصحة
 والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة وفعل
 القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية
 والأمراض، والعبد يكون فيه مقتض للصحة، ومقتض
 للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا
 ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ يدخل الجنة، ولا
 يدخل النار، وعكسه، وَمَنْ يدخل النار ثم يخرج منها،
 ويكون مكته فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث، في سرعة
 الخروج، وبطئه، وَمَنْ له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله
 به في كتابه، من أمر المعاد وتفصيله، حتى كأنه يشاهده رأي
 عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه، وربوبيته،
 وعزته، وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك
 إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته،
 كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات، كما تحرق
 النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل
 إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من
 نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في
 عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله، انتهى كلامه،
 قدس الله روحه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

(٩٤) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيِّبُوا وَلَا
 تَقُولُوا لِمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ الْيَكْرَمَ اسْلُبْهُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٌ مِنْهُ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبَكُ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمَا وَهْنُكُمْ جَهَنَّمَ وَنِصَابٌ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْتَكُمَا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْكُمَا وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهِاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ جُنِفْتُمْ أَنْ بَقِيتُمْ مِنَ الْيَوْمِ أَكْثَرُ مِنْهُ أَوْ أَنْ تَبْغُوا مِنَ الْكُفْرَانِ كَانُوا أَكْثَرُ وَعَدَاؤُكُمْ ﴿١٠١﴾

غير عذر، فَمَنْ كَانَ مِنْ أُولِي الضَّرَرِّ، راضياً بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله، لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعدة لغير عذر.

وَمَنْ كَانَ عَازِمًا عَلَى الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَوْ لَا وَجُودُ الْمَانِعِ، يَتَمَنَّى ذَلِكَ، ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة مَنْ خَرَجَ لِلْجِهَادِ، لَأَنَّ النِّيةَ الْجَازِمَةَ إِذَا اقْتَرَنَ بِهَا مَقْدُورُهَا مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ يَنْزِلُ صَاحِبُهَا مَنْزِلَةُ الْفَاعِلِ.

ثُمَّ صَرَّحَ تَعَالَى بِتَفْضِيلِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ بِالدَّرَجَةِ، أَيِ: الرَّفْعَةِ، وَهَذَا تَفْضِيلٌ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ، ثُمَّ صَرَّحَ بِذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَوَعَدَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ الصَّادِرَةِ مِنْ رَبِّهِمْ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى حَصُولِ كُلِّ خَيْرٍ، وَانْدِفَاعِ كُلِّ شَرٍّ، وَالدَّرَجَاتِ الَّتِي فَضَّلَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِالْحَدِيثِ الثَّابِتِ عَنْهُ فِي «الصَّحِيحِينَ» أَنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ.

وَهَذَا الثَّوَابُ الَّذِي رَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى الْجِهَادِ، نَظِيرُ الَّذِي فِي سُورَةِ الصَّفِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَى نَهْرٍ

الأمْر، فلماذا عاتبهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مِنْهُمْ﴾ تَبَتُّوْنَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ أَي: فَلَا يَحْمِلُكُمْ الْعَرَضُ الْفَاقِي الْقَلِيلُ، عَلَى ارْتِكَابِ مَا لَا يَنْبَغِي فَيُفَوِّتُكُمْ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ الْبَاقِي، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ، إِذَا رَأَى دَوَاعِيَ نَفْسِهِ مَائِلَةً إِلَى حَالَةٍ لَهُ فِيهَا هَوًى، وَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ - أَنْ يَذْكُرَهَا مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِمَنْ نَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا، وَقَدَّمَ مَرْضَاةَ اللَّهِ عَلَى رِضَا نَفْسِهِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْغِيبًا لِلنَّفْسِ فِي امْتِنَالِ أَمْرِ اللَّهِ، وَإِنْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى - مَذْكُورًا لَهُمْ بِحَالِهِمُ الْأَوَّلَى، قَبْلَ هِدَايَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كُنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَي: فَكَمَا هَدَاكُمْ بَعْدَ ضَلَالِكُمْ، فَكَذَلِكَ يَهْدِي غَيْرَكُمْ، وَكَمَا أَنَّ الْهَدَايَةَ حَصَلَتْ لَكُمْ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَكَذَلِكَ غَيْرَكُمْ.

فَنَظَرَ الْكَامِلُ لِحَالِهِ الْأَوَّلَى النَّاقِصَةِ، وَمَعَامَلَتِهِ لِمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِهَا، بِمَقْضَى مَا يَعْرِفُ مِنْ حَالِهِ الْأَوَّلَى، وَدَعَاؤُهُ لَهُ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ - مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ لِنُفْعِهِ وَانْتِفَاعِهِ، وَلِهَذَا أَعَادَ الْأَمْرَ بِالتَّيْبِينَ فَقَالَ: ﴿تَتَّبِعُوا﴾.

فَإِذَا كَانَ مَنْ خَرَجَ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمُجَاهِدَةً أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَقَدْ اسْتَعَدَّ بِأَنْوَاعِ الاسْتِعْدَادِ لِلِاقْبَاعِ بِهِمْ، مَأْمُورًا بِالتَّيْبِينَ لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْهِ السَّلَامَ، وَكَانَتِ الْقَرِينَةُ قَوِيَّةً، فِي أَنَّهُ إِنَّمَا سَلِمَ تَعَوُّدًا مِنَ الْقَتْلِ، وَخَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ - فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ بِالتَّيْبِينَ وَالتَّثَبُّتِ، فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا نَوْعُ اشْتِبَاهٍ، فَيَتَثَبَّتُ فِيهَا الْعَبْدُ، حَتَّى يَنْضَحَ لَهُ الْأَمْرُ، وَيُبَيِّنَ الرُّشْدَ وَالصَّوَابَ.

﴿إِنَّكَ اللَّهُ كَأَنَّكَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ فَيَجَازِي كَلَامًا مَا عَمِلَهُ وَنَوَاهُ، بِحَسَبِ مَا عَمِلَهُ مِنْ أَحْوَالِ عِبَادِهِ وَنِيَاتِهِ.

(٩٦، ٩٥) ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ دَرَجَتٌ مِنْهُ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَي: لَا يَسْتَوِي مَنْ جَاهَدَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ، وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ لِلْجِهَادِ، وَلَمْ يَقَاتِلْ أَعْدَاءَ اللَّهِ، فَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْخُرُوجِ لِلْجِهَادِ، وَالتَّرغِيبُ فِي ذَلِكَ، وَالتَّرْهيبُ مِنَ التَّكْسَلِ، وَالْقَعُودِ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ عَذَرٍ.

وَأَمَّا أَهْلُ الضَّرَرِّ، كَالْمَرِيضِ، وَالْأَعْمَى، وَالْأَعْرَجَ، وَالَّذِي لَا يَجِدُ مَا يَنْتَهِزُ بِهِ، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَنْزِلَةِ الْقَاعِدِينَ، مِنْ

المؤمنين، وفانكم الخير الكثير، والجهاد مع رسوله، والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ضعفاء مهضومين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة، وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم، وتوعدهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

واستثنى المستضعفين حقيقة، ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ اللَّهُ وَرِسَةً مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة.

فحيثما كان العبد في محل، لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعاً وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا أَرَضَيْتُم مَّسَاجِدَ فَلْيَأْتُوا رَبَّكُمْ فَاغْلِبُوا﴾ قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُم جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجب، فقد يترتب عليه مقتضا، مع اجتماع شروطه، وانقضاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع.

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من أكبر الكبائر، وفي الآية دليل على أن كل من توفي، فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق، والأجل، والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ «التوفي» فإنه يدل على ذلك، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك، لم يكن متوفياً.

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقة لمحلهم.

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَمْعُوَّ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا غَفُورًا﴾ و «عسى» ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى، بمقتضى كرمه وإحسانه، وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة، وهو أنه لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمل على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصراً، فلا يستحق ذلك الثواب. والله أعلم.

وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن الأمور من واجب وغيره، فإنه معذور، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وقال في عموم الأوامر: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم»،

يَوْمَ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تَتُوبُونَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَيَسْأَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْتُواكُم بِنُورٍ وَأَسْمِكُمْ لِكُلِّ سَكَبٍ لَّكُم فِيهِ تَبَوُّعٌ ۝ يَتَغَرَّ لَكُمْ دُونُكُمْ وَيُجَلِّدُكُمْ بِحَبْلِ جَدِّى مِن تَحْتِ الْأُخْرَىٰ وَسَكَنَ لَّيْلَةٍ فِي جَنَّةٍ عَذَبَ ذَٰلِكَ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات، وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضل والملاح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القبح والذم - أحسن لفظاً، وأرق في النفس.

وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احتراز بذكر الفضل الجامع للأمينين، لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَيَسِيرُ الْأُولَىٰ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مَن كَانَ عَلَىٰ ظَهْرٍ مِن ظِلِّ الشَّجَرِ﴾ أي: ممن لم يكن كذلك.

ثم قال: ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَقَهَنَهَا سَائِبِينَ وَكَلَّاءًا يَلْبَسُونَ حُكْمًا وَيَلْبَسُونَ﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص، والطوائف، والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال، كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر.

والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرماها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادقين عن اسميه الكريمين ﴿الْفُتُورَ الرَّحِيمَ﴾ ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(٩٧-٩٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ اللَّهُ وَرِسَةً مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾

﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُم جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ۝ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ جِهَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَمْعُوَّ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا غَفُورًا﴾

هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كنتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصاً الاثنين المنيبين إلى ربهم.

﴿رَحِيمًا﴾ بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم، ورزقهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك، رحيمًا بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فנסأل الله أن لا يحرمنا خيره بشراً ما عندنا.

(١٠٢، ١٠١) ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ بَيْنَكُمْ أَلَيْنَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ۖ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلَا تُخَلِّدُوا الَّذِينَ أَنْتُمْ جُنَاحٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ ۚ يَوْمَئِذٍ هُمْ كَمَا كُنْتُمْ وَتَلَاَّتْ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيُحَدِّثُوا يُحَدِّثْهُمْ وَانصَلِحْهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَتَّبِعْتُمْ عَنْ صَلَاحِهِمْ وَأَتَّعِيكَو فَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ مِيلَةً وَجِدَّ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَىٰ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْتَحِينَ أَنْ تَصُدُّوا عَنْ صَلَاحِهِمْ وَحُذُوا حَزْرَكُمْ إِنْ اللَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة الخوف، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في السفر، وظاهر الآية، [أنه] يقتضي الترخيص^(١) في أي سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخيص^(٢) في سفر المعصية، تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده، إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفوره لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فَلْيَسِّرْ عَلَى كُفْرٍ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْمَرْوَةِ لَمُشَافِرُونَ﴾ إلى آخر الآية.

وزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة؛ لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما:

ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل، لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة، ونحوهما - مما يحتاج إلى سفر - من شروط الاستطاعة.

(١٠٠) ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ هذا في بيان الحث على الهجرة، والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن مَنْ هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغماً في الأرض وسعة، فالمراعم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا؛ وذلك أن كثيراً من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وقرراً بعد الغنى، ودلاً بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين، فدينه في غاية النقص، لا في العبادات الفاصرة عليه، كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية، كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصاً إن كان مستضعفاً.

فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله، وجهاد أعداء الله، ومراغمتهم، فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم، وأولادهم، وأموالهم لله، كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام، والجهاد العظيم، والنصر لدين الله، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل مَنْ فعل فعلهم حصل له ما يحصل لهم إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: قاصداً ربه، ورضاه، ومحبة لرسوله، ونصراً لدين الله، لا لغير ذلك من المقاصد ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ﴾ بقتل أو غيره ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمأن الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم، وحصل منه ابتداء، وشروع في العمل، فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل وغفر لهم، ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها.

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال:

(١) في ب: الترخيص. (٢) في ب: الترخيص.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بَأْسِلِحَتِهِمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَّيُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَجَدَةً وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٩٥﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُفِعُوا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿٩٦﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَىٰ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَلَهُمْ بَأْسٌ مُّؤْتٍ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٧﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْعَافِينَ حَصِيمًا ﴿٩٨﴾

فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴿٩٥﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتسم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي:

﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: الذين معك أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَّيُصَلُّوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى، منتظرًا للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم، حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، كلها جائرة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة،

ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره، والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته. وقوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان:

إحدهما: أنه لو قال: أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة، وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه.

الثانية: أن «من» تفيد التبعيض، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضة، لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأعداء كليهما، السفر مع الخوف، ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال، إنما يكون على الوجه الأول.

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي والله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أو كما قال.

فعلى هذا يكون هذا القيد آتي به نظرًا لغالب الحال التي كان النبي ﷺ، وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنه ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ

قَبِيْرٌ ۚ وَكَانَ اللهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ۝ وَمَنْ يَكْتِِبْ خَطِيْئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بِيْرِتًا فَقَدْ وَغَدَ اشْتَمَلَ بِهَا ۚ وَإِنَّمَا تُمْسِكُهُ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۚ وَمَا يَشْعُرُوْنَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيْمًا ۝ يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي:

محفوظًا في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشتملاً أيضًا على الحق، فأخبره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿وَنَسُتَ كَيْتَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِتِبَافًا لِّمَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ﴾ فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس، في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبين جميع الدين، وأصوله وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كلتيهما، معناهما واحد. فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد، وفي جميع مسائل الأحكام.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّبُّكُ اللهُ﴾ أي: لا يهواك، بل بما علمك الله والهمك. كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَطْلُقُ عَنِ الْهَوَا ۚ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُبَيِّنُ﴾ وفي هذا دليل على عصمته ﷺ، فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها. وأنه يشترط في الحاكم^(١) العلم والعدل، لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّبُّكُ اللهُ﴾ ولم يقل: بما رأيت.

ورتب أيضًا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ خَصِيْمًا﴾ أي: لا تخاصم عن من عرف خيائته، من مدع ما ليس له، أو منكبر حقًا عليه، سواء علم ذلك، أو ظنه.

ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبتل في الخصومات الدينية، والحقوق الدينية، ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إِنَّكَ اللهُ كَانَ عَفْوًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره، وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿وَلَا تَجْهَلْ عَنِ الذُّلِّ بِمَنَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ «الاختيان»

الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته، وتتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار - وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن كانوا يعاقبون عليها، وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهْوَ فِي آيَاتِهِ الْقُوَىٰ إِنَّ تَكُونُوا تَالِفُونَ فَلْيَنْهَرْ يَأْتُمُوكُمْ كَمَا تَأْتُمُوكُمْ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا﴾ أي: لا تضعفوا ولا تسلكوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، أي: في جهادهم، والمراطة على ذلك، فإن وهن القلب مستعد لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقرباء نشيطين في قتالهم، ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم، والتعب، والجراح ونحو ذلك، فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية، والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وهم قد تساوتهم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالى عليه الآلام، وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه، والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية، وآمال رفيعة، من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين.

فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط، والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخرية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فاوت بين العباد، وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا﴾ كامل العلم، كامل الحكمة.

(١٠٥-١١٣) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّبُّكُ اللهُ لَا تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ خَصِيْمًا ۝ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ إِنَّكَ اللهُ كَانَ عَفْوًا رَحِيمًا ۝ وَلَا تَجْهَلْ عَنِ الذُّلِّ بِمَنَّا أَنْفُسَهُمْ إِنَّكَ اللهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَاتًا أَيْمًا ۝ يَسْتَحْفَوْنَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفَوْنَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا رِشْيَ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَفْعَلُونَ حَكِيمًا ۝ هَتَانِ تَهْتُولُكَ جَدَلُهُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِدِ اللهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَصِيْرًا ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهُ يَجِدِ اللهُ عَفْوًا رَحِيمًا ۝ وَمَنْ يَكْتِِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْتِِبْهُ عَلَىٰ

وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَجِدُ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَنِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأَتْهُ هَتَوَلَاءُ جَدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ
سُوءًا أَوْ يَطْلُبْ نَفْسَهُ نُمِرَ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَدْرَأْهُ يَوْمَ رِعَايَاتِنَا فَحَدَّ حَتَّىٰ نَسْأَلَ إِنَّمَا مِيقَاتِنَا وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٢﴾

الشهوات المحرمة، قال لها: هيك فعلت ما اشتيت، فإن
لذته تنقضي، ويعقبها من الهموم، والغوم، والحسرات،
وفوات الثواب، وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في
الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما يتفح العبد تدبره، وهو خاصة العقل
الحقيقي بخلاف الذي^(٣) يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه -
بجهله وظلمه - يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراحنة، ولو
ترتب عليها ما ترتب، والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَطْلُبْ نَفْسَهُ نُمِرَ يَسْتَغْفِرِ
اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى الْمَعَاصِي،
واقترح على الإثم، ثم استغفر الله استغفارًا تامًا، يستلزم
الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا
يعود، فهذا قد وعده مَنْ لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة،
فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من
النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة،

والخيانة بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي
عن المجادلة، عن مَنْ أَذْنَبَ وتوجه عليه عقوبة، من حد أو
تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو
بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَنِيمًا﴾ أي: كثير الخيانة
والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا
كان لتعليل للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا
يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهذا
من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق
عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة
والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد
بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره وإطلاعه عليهم، وهو
معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصًا في حال تبيّنهم ما
لا يرضيه من القول، من تبرة الجاني، ورمي البريء
بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما بيته.

فقد جمعوا بين عدة جنابات، ولم يراقبوا رب الأرض
والسموات، المطلع على سرائرهم وضمايرهم، ولهذا
توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: قد
أحاط بذلك علما، ومع هذا لم يعالجهم بالعقوبة بل استأنى
بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم،
الموجب للعقوبة البليغة.

﴿هَتَأَتْهُ هَتَوَلَاءُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ
اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: هبكم
جادلتهم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكهم بعض
ما تحلروا^(١) من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني
عنهم وينفعهم؟ وَمَنْ يجادل الله عنهم يوم القيامة حين توجه
عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما
كانوا يعملون؟ ﴿يَوْمَ يُؤْخَذُ بِقَبَصٍ مِّنْ يَدِهِمُ الْخَطُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْحَقُّ الْبَرُّ﴾ فَمَنْ يجادل عنهم مَنْ يعلم السر وأخفى، وَمَنْ
أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟.

وفي هذه الآية إرشاد^(٢) إلى المقابلة بين ما يتوهم من
مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه وبين
ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها، فيقول
مَنْ أمرته نفسه بترك أمر الله: ها أنت تركت أمره كسلًا
وتفريطًا، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب
الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان
والخيبة والخسران؟ وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهي من

(١) في ب: ما يحلروا. (٢) في ب: الإرشاد. (٣) في ب: مَنْ.

الذنب، وإن كان مذنباً ﴿فَقَدْ أَحْصَلَ بِهَذَا وَثَمًا مُبِينًا﴾ أي: فقد حمل فوق ظهره بهماً للبريء، وإثماً ظاهراً بيناً، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها.

فإنه قد جمع عدة مفاصد: كسب الخطيئة والإثم.

ثم روي مَنْ لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع، بترئة نفسه وإتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك من العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على مَنْ لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاسد التي نسال الله العافية منها، ومن كل شر.

ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ كُنْتَ طَافِكَةً مِنْهُمْ أَبَ يُضِلُّوكَ﴾ وذلك أن هذه الآيات الكريمات قد ذكر المفسرون أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما أطلع على سرتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرتهم، فرموها ببيت مَنْ هو بريء من ذلك، واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرئ أصحابهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق مَنْ وجدت السرقه ببيته، وهو البريء، فهم رسول الله ﷺ أن يبرئ أصحابهم، فانزل الله هذه الآيات تذكيراً، وتبييناً لتلك الواقعة، وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان: ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب، فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال، [كما حفظه عن الضلال في الأعمال]^(١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ لكون ذلك المكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم^(٢) إلا الخيبة والحرمان، والإثم والخسران.

وهذه^(٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في النسختين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمائر. (٣) في النسختين: وهذا.

ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه - في نفسه - سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده. وسمي ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بالزواجر للصراط المستقيم علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب. فسعى في غير هذا الطريق ظلم لنفسه، وخيانة، وعدول بها عن العدل الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْتِيبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْتِيبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ وهذا يشمل كل ما يؤثم، من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُزْزِلْهُ زِلَازُهُ وَنَارُ الْآخِرَةِ﴾.

لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن مَنْ ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحداً بذنب أحد، ولا يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيمًا﴾ أي: له العلم الكامل، والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب، وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه اللذنب بغلبة دواعي نفسه الأماراة بالسوء، مع إنباته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر له ويوفقه للتوبة.

وإن صدر منه بتجرئه على المحارم استخفافاً بنظر ربه، ونهاوئاً بعاقبه، فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من التوفيق للتوبة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْتِيبْ خَطِيئَةً﴾ أي: ذنباً كبيراً ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ما دون ذلك، ﴿ثُمَّ يَرَوْهُ يَدًا﴾ أي: يهيم بذنبه ﴿بَرِيئًا﴾ من ذلك

تَقَرَّبُوا ﴿١١٤﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبَسُوا مِنَ الْإِيمَانِ أَفْتَالًا فَتُكَلِّمُوا بِهِمَا طَرَفًا مِمَّا بَعَثَ إِدْنَاهُمَا عَلَى الْأَعْيُنِ فَنُفِثُوا إِلَيْهِ تَفْتِيلًا إِنَّهُ يَذَرُهُمْ إِلَىٰ تَقْدِيرِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَالضَّلُّ حَيْرٌ﴾ والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء.

ولكن كمال الأجر وتمامه، بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية حصلت، واقترب بها ما يمكن من العمل.

(١١٦، ١١٥) ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنْ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُوْمِنِينَ سَوَاءٌ مَا قَوْلٌ وَنُصْلٍ بِهِمْ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وَيَقْبُرُ مَا دُوكَ ذَلِكَ يَمُنْ يَكْفُرُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا عَظِيمًا﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ، ويعانده فيما جاء به ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنْ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية، والبراهين النبوية.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُوْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم.

﴿قَوْلِهِ مَا قَوْلٌ﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخلذه، فلا نوقفه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجازاه من الله عدلاً أن يقيه في ضلاله حائرًا، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْزُلًا قَالَ الْفُلُوسُ إِنَّهُ لَحَرْشٌ مِمَّا يَصِفُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَقَّبُوا لَفِئَتِهِمْ وَاظْهَرْتُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَوُا﴾.

ويدل مفهومها على أن مَنْ لم يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يولي نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلفظه، ويمن عليه بحفظه، ويعصمه من سوءه، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام:

(١) في ب: الخلق. (٢) في النسخين: استقصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.

والحكمة: إما الشئ التي قد قال فيها بعض السلف: إن الشئ تنزل عليه، كما ينزل القرآن، وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

﴿وَعَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُونَ﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى، فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ﴿وَوَعَدَكَ شَآئِدًا فَمُخَذَكُمَا﴾ ثم لم يزل يوحى الله إليه، ويعلمه، ويكمله، حتى ارتقى مقامًا من العلم، يتعذر وصوله على الأولين والآخرين.

فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل مخلوق^(١). وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به لا يمكن استقصاؤها^(٢) ولا يتيسر إحصاؤها.

(١١٤) ﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجُوْمِهِمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ يَنْتَهِ أَتَىٰ وَفَعَلَ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون. وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه، كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال، أو علم، أو أي نفع كان، بل لعله يدخل في العبادات القاصرة، كالنسيح، والتحميد، ونحوه.

كما قال النبي ﷺ: «إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة الحديث.

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر، دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضًا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.

وأما عند الاقتران، فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي.

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدعاء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ حُبًّا يُجْزِيَ اللَّهُ جَمِيعًا وَلَا

﴿كَذَلِكَ يَنْصَرِفُ عَنْهُ الشَّوْهُ وَالْفَحْشَاءُ لَئِنْ مِنْ عِبَادِكَ الْمُتْلِفِينَ﴾
أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل.

وقوله: ﴿وَتُصْلِيهِ جَهَنَّمَ﴾ أي: نعذب فيها عذاباً عظيماً ﴿وَسَكَنَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مرجعاً له ومآلاً.

وهذا الوعيد المرتب^(١) على الشقاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب لا يحصيها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً. فمتى ما يخلد في النار، ويوجب جميع الخذلان، ومنه ما هو دون ذلك، ففعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى، لخصمه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النعم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العباد لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم، عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه.

وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه، وعاقب بعدله وحكمته، وقد استدل بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.

وجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك، بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

وجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، فهو مما أمروا به، فيعتين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا

﴿لَاخِرٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَّهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِيهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا لَمْتَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَعْبِرْتُمْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً أي: عدلاً خياراً؛ ليكونوا شهداء على الناس، أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به، أو نهى عنه، أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة؛ لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مَأْمُورِينَ بِرَدِّهِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مُوَافَقًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَلَا يَكُونُ مُخَالَفًا.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

(١١٦-١٢١) ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا مَرِيدًا ۝ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا لَمْتَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَعْبِرْتُمْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝﴾

عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

﴿وَلَا تُبَيِّنْهُمْ﴾ أي: مع الإضلال، لأنهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال، وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى تِلْكَ آمَانَتُهُمْ﴾، ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، ﴿فَلَوْلَا نُبَيِّنُكَ بِالْخَشْيَةِ أَعْمَالًا﴾، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الآية.

وقال تعالى عن المنافقين: إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿إِنَّكُمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَفْتَنُ الْوَارِثَتُمْ وَعَزَّيْنَكُمْ فِي الْآثِمِينَ حَتَّىٰ جَاءَهُمْ أَمْرٌ أَلَمْ يَأْتِ اللَّهُ وَعَرْكُهُم بِاللَّغْوِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تُبَيِّنْهُمْ فَيُبَيِّنَ﴾، ما ذاك إلا أن يبيِّنهم، أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة، والسابعة والوصيلة، والحام، فبعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال، يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال.

﴿وَلَا تُبَيِّنْهُمْ فَيُبَيِّنَ﴾، وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والنمص، والفلق للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التشطخ من خلقته، والقبح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقه الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتبديره. ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة، فإن الله تعالى خلق عباده حفافاً مطفونين على قبول الحق وإثارة، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهن عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد؛ من توحيد، وحبه ومعرفته، فافتترسهم الشياطين في هذا الموضوع اقتراس السبع والذئاب للغنم المنفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من

ما ذاك إلا أن يبيِّنهم فَيُبَيِّنَ، أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة، والسابعة والوصيلة، والحام، فبعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال، يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال.

هل هذا إلا من أقيح القبيح، الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟! ومع ذلك^(١) فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة.

وبالحقيقة ما عبداً غير الشيطان، الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله ﴿إِنَّا يَدْعُوا بِهِمُ لِيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الشَّعِيرِ﴾.

ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزوين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: ﴿لَأَنجِدَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: مقدراً.

علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولا، وأثر طاعته على طاعة مولا.

وأقسم في موضع آخر ليغوينهم ﴿لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، إلا يكادك منهم المخلصين، فهذا الذي ظنه الخبيث وحزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا هَٰذَا قَوْمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله أنه يتخذهم^(٢)، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿وَلَأُضِلَّهُمْ﴾ أي:

(١) في ب: ومع هذا. (٢) في السخين: إنهم يتخذهم.

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنَجْزِيهِمْ جَزَاءَ تَجَرُّهُ مِنْ تَحْتِ الْأَعْرَاسِ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المأكّل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور، والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والتّغمّ السابغة، وتزاور الإخوان، وتذكّركم ما كان منهم في رياض الجنان. وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برويته، والأسماع بخطابه، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والجور، فله ما أحلى ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون.

وتمام ذلك وكمال الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿وَنَجْزِيهِمْ فِيهَا أَجْرًا مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ صدّق من الله قِيْلًا، فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقًا، وخبره حقًا كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمنًا، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ، لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

(١٢٣، ١٢٤) ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا يُصِيرُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ يَعْمَلْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَأَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ قُلْ أَتُؤْتُونَهُ الْمَالَ بَعْدَ إِتْيَانِهِ لِيَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ﴿لَيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ والاماني: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها، وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟!

فإن أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وغيرهم ممن ليس يتسبب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى.

وكذلك أدخل الله في ذلك مَنْ ينتسب إلى الإسلام، لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان، لا يفيد شيئًا، إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه، فالأعمال تصدّق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ

(١) كذا في ب، وفي أ: وفاطرمك. (٢) في ب أورد الآية كاملة، بينما في أ، اقتصر على أولها.

توليه من ربه، وفاطرمهم^(١)، وتوليه لهم لدعوتهم المريد لهم الشر من كل وجه، ففسدوا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخبية والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشُّتْرَانِ وَلِيًّا مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ فَتَنْقَصْ حَسْرًا كَثِيرًا﴾ وأيّ خسار أبين وأعظم، ممن خسر دينه ودنياه، وأريقته معاصيه وخطاياها!! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن مَنْ تولّى مولاه، وآثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قرير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْتِيهِمْ﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم، والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْدُوهُمْ أَنْ يَبْهَتُوا النَّفْسَ فَإِنَّهُمْ يَعْدُهُمْ﴾ فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله أفقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَكَّرْنَا فَتَكَلَّمُوا بِغَيْثٍ فَأَوْفَيْنَاهُمُ مَا وَعَدْنَا وَلَا بَأْسَ لَكَ مِنَ اللَّهِ بِأَنْ يَسْعَى حَيْثُ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَذِيرًا﴾ الآية، ويخوفهم عند إنبار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسبوا عن فعل الخير، وكذلك بمنينهم الأماني الباطلة؛ التي هي - عند التحقيق - كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشُّيَاطِينُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ أي: مَنْ انقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستغرقهم النار، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مخلصًا ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

(١٢٢) ولما بين مال الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مال السعداء أولياته فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْزِيهِمْ جَزَاءَ تَجَرُّهُ مِنْ تَحْتِ الْأَعْرَاسِ﴾ فيها أَجْرًا مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَمَنْ يَعْمَلْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَأَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ قُلْ أَتُؤْتُونَهُ الْمَالَ بَعْدَ إِتْيَانِهِ لِيَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ﴿وَمَا آمَنُوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علمًا وتصديقًا وإقرارًا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان.

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح، كل له من الثواب المرتب على ذلك، بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح.

وفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أخل به. من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله.

يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ. وهذا شامل لجميع العاملين؛ لأن السوء شامل لأي ذنب كان^(١)، من صفائر الذنوب وكبائرهما، وشامل أيضًا لكل جزاء، قليل أو كثير، ديني أو أحمري.

والناس في هذا المقام درجات، لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءًا، وذلك لا يكون إلا كافرًا، فإذا مات من دون توبة، جوزي بالخلود في العذاب الأليم، ومن كان عمله صالحًا، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والأذى، ولبعض^(٢) الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قبضها الله لطفًا بعباده، وبين هذين الحالتين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخير تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضًا كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، ولهذا قال: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان.

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس، والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفضل له في كل عمل أطلق، فإنه مفيد به.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين ﴿وَلَا يَظَلُمُونَ تَفِيرًا﴾ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا مما عملوه من الخير، بل يجودونه كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

(١٢٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٦﴾ لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا آمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَظَلُمُونَ تَفِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٩﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطًا ﴿١٣٠﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُكَلِّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُولَدْنَ لَهُنَّ مَأْكُوبٌ لَهُنَّ وَرِعَابٌ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ آلِ الَّذِينَ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٣١﴾

الرجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وَقَوْمٌ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحْسِنُونَ﴾ أي: متبع لشريعة الله، التي أرسل الله بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم.

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مانعاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليين: محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلًا، لأنه وفق بما أمر به، وقام بما ابتلي به، ففعله الله إماماً للناس، واتخذة خليلًا، ونوه بذكره في العالمين.

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطًا﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى

(١) كذا في ب، وفي: أ، أي سوء كان. (٢) زيادة من هامش ب.

فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله. ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدينية بتنمية أموالهم، وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم، وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح مَنْ لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه وقد أهمله.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متديناً أو لازماً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وشد، فيجازي كلًا بحسب عمله.

(١٢٨) ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَيْتَاهَا شُرُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليتها لزوجها، أو لضررتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجه البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى، أن الصلح بين مَنْ بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيه من الإصلاح، وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحل حراماً، أو حرّم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً.

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه، وانقضاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه، ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به، وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له، ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ أي: جبلت

بجميع الأشياء، فأخبر أن له ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع البصيرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسموات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

(١٢٧) ﴿وَسَخَّرْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمَتَاعٍ وَيُفْتِيهِمْ فِيهِمْ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى الْكِتَابَ الَّذِي لَا تَوْنُوهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُسْتَعْفِينَ مِنْ أَوْلَادِنَا وَأَنْ تَقُولُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ إِلَّا الْقِسْطَ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم، فتولى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِمْ﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن، وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهيًا، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار.

ثم خص - بعد التعميم - الرصية بالضعاف من اليتامى والولدان، اهتماماً بهم، وزجراً عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى الْكِتَابَ﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء ﴿الَّذِي لَا تَوْنُوهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضها، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفاً من استخراجها من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي تزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يسقط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وَرَبُّهُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُسْتَعْفِينَ﴾ أي: ترغبون عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

﴿وَالْمُسْتَعْفِينَ مِنْ أَوْلَادِنَا﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ إِلَّا الْقِسْطَ﴾ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بالزامهم أمر الله، وما أوجبه على عباده،

الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وَتَقَرَّبُوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحذور، والصبر على المقدور، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب، والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

(١٣٠) ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاًَّ مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَبِشَاءٍ حَكِيمًا﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يَغْنِ اللَّهُ كُلاًَّ﴾ من الزوجين ﴿مِنْ سَعْيِهِ﴾ أي: من فضله، وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله، وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَبِشَاءٍ﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة. وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه. ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمًا﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عبادته من إحسانه بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان، حرمه عدلاً وحكمة.

(١٣١، ١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَكَانٌ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۝ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً.

فصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين، أهل الكتب السابقة واللاحقة بالقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالشواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بالآلِم العذاب، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ بأن تتركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم، وأعظم وأكثر، مطيعون له، خاضعون لأمره، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته، التي لا ينقصها الاتفاق، ولا

النفوس على الشح، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له. فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والافتناع ببعض الحق الذي لك.

فتمت وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل - حيثن - عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف مَنْ لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والمواقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: تحسنا في عبادة الخالق، بأن بعيد العبد ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاء، أو غير ذلك ﴿وَتَقَرَّبُوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات أو تحسنا بفعل المأمور، وتقربوا بترك المحذور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

(١٢٩) ﴿وَإِنْ تَسْتَعِينُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَجِيبُوا كُلَّ اللَّيْلِ مَقْدُورًا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصَلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَجِيبُوا كُلَّ اللَّيْلِ مَقْدُورًا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالتفة والكسوة، والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطة ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها. ﴿وَإِنْ تُصَلِحُوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين

وَأَنِ امْرَأَةٌ حَاظَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُغُورًا وَاعْتَرَا ضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٣﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣٤﴾ وَإِنْ يُنْفَرَا مِنْ اللَّهِ كُفْلًا مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٥﴾ وَلِلَّهِ مَكَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٦﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٧﴾ إِنَّ يَسَاءَ الَّذِي هَبَّكُمْ إِلَيْهَا النَّاسُ وَبَاتٍ بِأَحْرَبٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٨﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٩﴾

يغيبها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات، وأهل الأرض، أولهم وآخرهم، فسأل كل [واحد] منهم ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئاً؛ ذلك بأنه جواد وأجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه، ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء من تدابير ملكه، ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي، في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأفناهم، ومن عليهم بلفظه، وهدهم.

وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد، ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين ﴿الْحَمِيدُ﴾ و﴿الْقُدُّوسُ﴾ فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على تنفيذه وتدبيره، وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزّه عن كل نقص.

(١٣٣، ١٣٤) ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ إِلَيْهَا النَّاسُ وَبَاتٍ بِأَحْرَبٍ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ۝ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ أي: هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشية النافذة فيكم ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ إِلَيْهَا النَّاسُ وَبَاتٍ بِأَحْرَبٍ﴾ غيركم، هم أطوع الله منكم وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم، وإعراضهم عن ربهم، فإن الله لا يعبا بهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنه يمهل ويملي، ولا يهمل.

ثم أخبر أن مَنْ كانت همته وإرادته دنية، غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة، فإنه قد قصر سعيه

ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا، سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلب منه، ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تترك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به، والافتقار إليه على الدوام.

وله الحكمة تعالى في توفيق مَنْ يوفقه، وخذلان مَنْ يخذله، وفي عطائه ومنعه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

(١٣٥) ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِيْنَ بِالْقِسْطِ شَهِدَ لَهُ وَوَعَدَ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَزُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوْمِيْنَ بِالْقِسْطِ شَهِدَ لَهُ﴾ والقوام صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل أحوالكم قانمين بالقسط، الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته.

وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عمّا وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء، يتعززون بهم ويستنصرون.

والحال أن العزة لله جميعاً، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين؛ وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم.

(١٤٠، ١٤١) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ بِكُفْرٍ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ تَخْرُجُوا فِي حَبِثٍ غَيْرِهِ إِلَّا إِذَا سَأَلْتُمُوهُ إِنَّ اللَّهَ سَامِعٌ الْمُنْتَهِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي حَبِثِهِمْ جِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُفْرٍ فَإِنَّ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِّنَ اللَّهِ فَكُلُوا مِمَّا نَكَرْتُمْ لَكُمْ وَإِنْ كَانُ لِلْكَافِرِينَ حَبِثٌ فَاكُلُوا مِمَّا تَسْتَحِبُّونَ عَلَيْهِمْ وَتَسْتَعْمِلُونَ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللَّهَ يُنَكِّلُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝ أَي: وقد بين الله لكم - فيما أنزل عليكم - حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿أَنْ إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ بِكُفْرٍ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا﴾ أي: يستهان بها، وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها، وتعظيمها وإجلالها وتفخيّمها، وهذا هو المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، ففسد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم.

وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله، لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقاً، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق، التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيها، وتقحم حدوده التي حدها لعباده، ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجُوا فِي حَبِثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

﴿إِذَا﴾ أي: إن قدمت معهم في الحال المذكورة ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن مَنْ حضر مجلساً بعضي الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم، مع القدرة، أو القيام مع عدمها.

الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة.

ثم الاستمرار على ذلك والثبات عليه إلى الممات، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وأمر هنا بالإيمان به وبرسوله، وبالقرآن، وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب، الذي لا يكون العبد مؤمناً إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن بهذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدى وأنجح.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَآيَاتِهِ الْأَخْرَىٰ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ضلال أبعد من ضلال مَنْ ترك طريق الهدى المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم!!

واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعة، لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض.

(١٣٧) ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ يَكُنِيَ اللَّهُ يَتَوَفَّىٰ لَمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي: مَنْ تكرّر منه الكفر بعد الإيمان، فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر واستمر على كفره، وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد عن المغفرة؛ لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها، فإن كفره يكون عقوبة وطبعاً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَّاكَرُوهَا أَزْوَاجَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنَقْلُبُ أَلْسِنَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ودلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كُفْرًا، بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة، وإذا كان هذا الحكم في الكفر، فغيره - من المعاصي التي دونه - من باب أولى أن العبد لو تكررت منه، ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة.

(١٣٨، ١٣٩) ﴿يَسِّرَ الْمُنَفِّقِينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَخَذِرُونَ الْكَافِرِينَ أَوَّلِيَاءَ يَن دُونَ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوتُ عَنْهُمْ الْغُرَّةَ فَإِنَّ الْغُرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد، كما في هذه الآية، يقول تعالى: ﴿يَسِّرَ الْمُنَفِّقِينَ﴾ أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، بأقبح بشارة وأسوأها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم، وتركهم لموالاة المؤمنين، فأتي شيء حملهم على ذلك؟ أينعون عندهم العزة؟

ظنوا أنه يروج على الله، ولا يعلمه، ولا يبيده لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيههم عليها، خداع لأنفسهم، وأي خداع أعظم ممن يسعى سعياً يعود عليه بالهوان والذل والحرمان؟! ويدل بمجردة على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورأها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!!

ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا إِلَيْكُمْ فَالْتَبِسُوا إِلَيْنَا قَصْبَتْ يَتَهُمْ يُشِيرُ لَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ فِيهِ الزَّخْمَةُ وَلَهُمْ فِيهِ إِلَهٌ لَدُنَّا ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا قِيلَ لَهُمْ كُنْزُكُمْ إِلَيْنَا ۖ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

ومن صفاتهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قَامُوا كَسَالًا﴾ متناقلين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل.

﴿يُرَاهُوهُ الْنَّاسُ﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله، فهذا ﴿لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا امتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن ممتلىء قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿مُتَّبِعِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً، أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: لن تجد طريقاً لهديته، ولا وسيلة لترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتنبئها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق، ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم، وعبادتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى، وأنهم قد هداهم الله ووفقههم للصراف المستقيم، فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختر أيهما أولى به، والله^(١) المستعان.

(١) في ب: المنافقين. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: فله.

(٤) في ب: والله.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالة، ولا ينفع الكافرين^(١) مجرد كونهم - في الظاهر - مع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكر تحقيق موالة المنافقين للكافرين، ومعاداتهم للمؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَرِيعُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتظنون الحالة التي تصيرون عليها، وتتهبون إليها من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم.

﴿فَإِنْ كَانَتْ لَكُمُ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ فَكُلُوا أَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ليسلموا من القدر والظلم عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفني، وليتصروا بهم.

﴿وَإِنْ كَانِ لِلْكَافِرِينَ نَجِيبٌ﴾ ولم يقل: فتح، لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله.

فإذا كان ذلك ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نستولي عليكم ﴿وَنَسْتَكْمِكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتصنون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعم من المؤمنين، بجميع وجوه المنع من تفديدهم، وتزهيدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك مما هو معروف منهم.

﴿فَاللَّهُ يَمْكُرُ بِكُمْ يَتَكَّمُ يَوْمَ الْيَوْمَةِ﴾ فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: نسلطاً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفع لنسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان، حتى إن البعض^(٢) المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم، ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فله^(٣) الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

(١٤٣، ١٤٢) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا يُرَاهُوهُ الْنَّاسُ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ مُتَّبِعِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهروه من الإيمان، وأبطنوه من الكفران،

١٠١

الَّذِينَ يَرْتَضُونَ رِجْلَكُمْ فَإِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ مِنَ اللَّهِ فَقَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ لِّلْكَافِرِينَ نَصِيبًا قَالُوا أَلَمْ تَسْتَحْذِرْ عَلَيْنَكُمْ وَنَعْمَ عَمَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ لَمُخْدَعُونَ لِّأَلْفٍ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَجِدْ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الْكَافِرِينَ ءُولِيَآءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَاؤُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدرجات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله، ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والنمك من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب.

(١٤٤) ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الْكَافِرِينَ ءُولِيَآءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَاؤُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصرفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن ﴿يَتَّخِذُوا عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أئذنا وحذرننا منها، وأخبرنا بما فيها من المفاسد، فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب.

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحدًا قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطانًا مبينًا.

(١٤٥-١٤٧) ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ○ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ○ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٦﴾ يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدرجات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله، ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والنمك من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب.

وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ له الظواهر والبواطن ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام، والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾.

فقد صدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصًا في هذا المقام الحرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيًا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما

لفضلهما، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدى فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب^(١) عليه ثوابًا أو عقابًا وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام، الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالامر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين، وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكِر، عليم. يعطي المتحملين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ١٤٨ ﴿إِنْ يُدْأَوْ خَيْرًا أَوْ خِفَوهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ١٤٩ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ١٥٠ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ١٥١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾ ١٥٢ ﴿يَسْأَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرِينَ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْيَنَ ثُمَّ قَفَعُوا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ١٥٣ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقَلْنَاهُمْ أَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقَلْنَاهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَظِيظًا﴾ ١٥٤

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعمل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية. لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء، رتب على ذلك بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص:

(١٥٠-١٥٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ١٥٠ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ١٥١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾ ١٥٢.

هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسوله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله.

وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل

لأجله الأثقال، الدائبين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا لَهْ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ.

ومع هذا يعلم ظاهرهم وباطنهم، وأعمالهم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك، وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأتي شيء يفعل بعبادكم؟ فإنه لا يتشفى بعبادكم، ولا يتنفع بعبادكم. بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

(١٤٨، ١٤٩) ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ١٤٨ ﴿إِنْ يُدْأَوْ خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ١٤٩ يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغيض ذلك ويمقتة ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتيم، والغذف، والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغيضه الله.

ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على مَنْ ظلمه، ويشكى^(١) منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتيمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه، وعدم مقابلته أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَمْسَكَ فَابْتُغِ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيء، والحسن، والامتناع، أخبر تعالى أنه سميع فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضًا ترغيب على القول الحسن ﴿عَلِيمًا﴾ بيناتكم ومصدر أقوالكم:

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ يُدْأَوْ خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قول وفعل، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن أساءكم في أبدانكم، وأموالكم، وأعراضكم، فتمسحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمَنْ عَفَا اللَّهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ، فلماذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

دون بعض، وأن هذا سبيل ينجي من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أمني، فإن هؤلاء يريدون التفرق بين الله وبين رسله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسله؛ لأن ذلك من تمام تولى، ومن عادى أحداً من رسله فقد عادى الله، وعادى جميع رسله، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآيات.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لثلاثتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

ووجه كونهم كافرين - حتى بما زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به، موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به، موجود مثلها، أو أعظم منها، فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى، ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم، ولكل كافر فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. ﴿وَلَمْ يُفِرُّوا بَيْنَ أَيْدِي﴾ من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرُهُمْ﴾ أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله، ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

(١٥٣-١٦١) ﴿يَسْتَكْبِرُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِأَعْيُنِهِمْ ثُمَّ انْتَصَدُوا الْعَجَلِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلَيْسَتْ مُعْجَوَاتٍ عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ۖ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِبَيْنَتِهِمْ وَفَلْنَا لَهُمْ دَخْلُ الْبَابِ مُجْعًا وَقَلْنَا لَهُمْ لَا تَقْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ بَيْعَتًا عَلَيْهِمْ ۖ فَمَا تَقِضُوهَا فَيَبْغُوا وَيَتَقَبَّلُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَةَ بِمِثْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ كُلِّ طَبَعٍ اللَّهُ عَلَيْهَا يَكْثُرُ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِلِيلٍ ۖ وَيَكْثُرُونَ عَلَى مَرِيضَةٍ يَهُتُّنَا غَظِيماً ۖ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قُلْنَا لِلصَّبِيِّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَا قُلْنَا وَمَا صَلَّوْهُ وَلَكِنْ شَيْءٌ مِمَّنْ وَكَانَ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَبِئْسَ شَيْءٌ مِمَّا

كُتِبَ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْتَابُ الْفُلْكِ وَمَا قُلُوا بِعَيْنٍ ۖ بَلْ رَقَعَهُ اللَّهُ بِإِيمَانٍ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيْبًا حَكِيمًا ۖ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ۖ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ نَسِيْدٌ ۖ يُظَاهَرُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أَيْدِيَهُمْ وَعَصَوْهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الْإِيزَارُ وَقَدِ اتُّبُوهُ عَنْهُمْ وَأَكْفَهُمْ أَنْزَلَ الْكَلْبَ وَالطَّبْلَ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والافتراء، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سأله أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة، كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مديبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به، ولا تصدقوه؟

بل نزول القرآن مفرقاً بحسب الأحوال مما يدل على عظمتها، واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۖ وَلَا يَأْتُونَكَ بِبَشَىٰ إِلَّا جَنَّتْكَ وَالْحَقَّ تَأْتِيكَ﴾

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلکوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله عياناً، واتخاذهم العجل إلهاً يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم، وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالفوا القول والفعل، ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة. وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبدوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق، ومن قولهم: إنهم

فِيمَا نَقَضَهُمْ يَسْقَهُمْ وَيَكْفُرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَالَهُمْ لَا أَنْبِيَاءَ
بَعْدَ حَقِّهِ وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بَهْتَنَّا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أَخْلَفُوا بِهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظُّلُمِ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا
حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْجَلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
كَبِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبَهُمْ آمُولَ النَّاسِ
بِالْظُّلْمِ وَأَعْتَدَ لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنِ
الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا ؟
وحينئذ لا يشهد إلا بيطان كل ما هم عليه، مما هو
مخالف لشرعية القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا
بذلك، لعلنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه
لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ، هو الحق،
وما عداه فهو ضلال وباطل.
ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات
التي كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم
واعتدائهم، وصددهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من
الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه. فتمنعوا المحتاجين ممن
يياعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من
كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة. وأما
التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن
الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

(١٦٢) ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما ذكر

قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما
صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه.

وادعائهم أن قلوبهم غلفت لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه،
وبصددهم الناس عن سبيل الله، فصددهم عن الحق، ودعواهم
إلى ما هم عليه من الضلال والغي، وبأخذهم السحت والربا،
مع نهى الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل؛ لا يستكر عليهم أن يسألوا
الرسول محمدًا أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، وهذه الطريقة
من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل.

وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل، ما جعله شبهة
له وغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله
الشنعية، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا
الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل
هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ،
يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه، في نبوة من يدعون
إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم، وينقمع باطلهم. وكل حجة
سلكوها في تقريرهم لنبوة مَنْ آمنوا به، فإنها ونظيرها وما هو
أقوى منها، دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه
المقابلة، لم يسطها في هذا الموضع، بل أشار إليها، وأحال
على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل
اللائق ببسطها.

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾
يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود إلى أهل
الكتاب. فيكون - على هذا - كل كتابي يحضره الموت،
وبعين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه
إيمان لا ينفع لأنه إيمان اضطرار. فيكون مضمون هذا التهديد
لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون
عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم
وقيامهم!!

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجع إلى
عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل
الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح،
وذلك يكون عند اقتراب الساعة، وظهور علاماتها الكبار.
فإنه تكثر الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في
آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل
الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدًا،

ولما ذكر اشتراكهم بوحية، ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه أتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف، الزبور الذي خص الله به داود عليه السلام، لفضله وشرفه. وأنه كلم موسى تكليماً، أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كلمه الرحمن».

وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم، وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل ترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضي ربهم ومساخته، وطرق الجنة وطرق النار. فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء، أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب، فله الحمد وله الشكر. ونسأله كما ابتداء عليه نعمته بإرسالهم، أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم، إنه جواد كريم.

(١٦٦) ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَنْهَىٰ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّهُ يَهْتَدُونَ وَكَفَىٰ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ، كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾. يحتمل أن يكون المراد، أنزله مشتملاً على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية، والأحكام الشرعية، والأخبار الغيبية، ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده.

ويحتمل أن يكون المراد، أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبيه على وجه شهادته. وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدق كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه، واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه، ويوالي نصره، ويجب دعواته، ويخذل أعداءه وينصر أوليائه.

فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر!!؟

ولا يمكن القدح في هذه الشهادة، إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكامل إيمانهم، ولجلالة هذا المشهود عليه.

معاني أهل الكتاب، ذكر الممدوحين منهم، فقال: ﴿لَكِنَّ الرِّسَالَ فِي الْوَيْلِ﴾ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأنمر لهم الإيمان التام العام ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وأمر لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، للذين هما أفضل الأعمال. وقد اشتهرنا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد. وأمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد، ورجوا الوعد.

﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لأنهم جمعوا بين العلم، والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب، والرسل السابقة واللاحقة.

(١٦٣-١٦٥) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالْحَبَشِيِّ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَيُحْيَىٰ وَيُزُورَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَمُوسَىٰ وَأَبْنَاءَ دَاوُدَ زُورًا ۖ وَرُسُلًا فَلَمْ يَفْصَحْهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَتْلَىٰ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله: من الشرع العظيم، والأخبار الصادقة، ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمداً ﷺ، ليس بيدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجسم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؟ وأخلاقهم متفقة؟ ومصدرهم واحد؟ وغايتهم واحدة. فلم يقرنه بالمجهولين؟ ولا بالكاذبين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم، من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم، واستئناساً بستمهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّينَ﴾، ﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾، ﴿سَلَّمَ عَلَى إِيْلَ يَابِينَ ۖ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُتَّقِينَ﴾.

فكل محسن، له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل - خصوصاً هؤلاء المسنون - في المرتبة العليا من الإحسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاذَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿١٠٤﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿١٠٥﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٠٦﴾ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٠٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ ﴿١٠٩﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿١١٠﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١١١﴾

وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم - غير لائق بحكمة الله ورحمته. فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغى من الرشد. فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته. وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم، والصراط المستقيم، فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق. ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب، والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله، وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه وبقينه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أبدانهم، وقلوبهم،

(١) في ب: كفرهم.

فإن الأمور العظيمة لا يشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

(١٦٧-١٦٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٠٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ ﴿١٠٩﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿١١٠﴾ لما أخبر عن رسالة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها، وشهدت ملائكته - لزم من ذلك ثبوت الأمر المقرر، والمشهود به، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم.

ثم توعد من كفر بهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم، وصددهم الناس عن سبيل الله. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وأتى ضلال أعظم من ضلال من ضل نفسه، وأضل غيره، فباء بالآثمين، ورجع بالخسارتين، وفاتته الهدياتن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر - عند إطلاق الظلم - يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه. فهؤلاء يعيدون من المغفرة والهداية للصراف المستقيم. ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ ﴿١٠٩﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾.

وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم^(١)، فطبع على قلوبهم، وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ - لِلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: لا يبالي الله بهم ولا يعبأ، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

(١٧٠) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة من الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به. فالسبب الموجب هو إخباره بأنه جاءهم بالحق. أي فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق.

فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق - في جهلهم يعمهون،

﴿١٧١﴾

١٠٥

﴿١٧١﴾

يَتَّاهِلَ الْكَتَبَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ
وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ
الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدٌ لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْضَرُهُمُ
إِلَهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فِيُوفِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ
اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَتَأْتِيَا النَّاسَ
قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ
فِي رَحْمَتِي مِنْهُ وَفَضْلِي وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٥﴾

خلقها، وكملها بالصفات الفاضلة، والأخلاق الكاملة.
أرسل الله روحه جبريل عليه السلام فتفتح في فرج مريم عليها
السلام. فحملت بإذن الله، بعيسى عليه السلام.
فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب
بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة،
أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى، قبحهم
الله.
فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي
يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه
نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي:
هو المفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له.
﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزه وتقدس ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأن
﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل مملوكون له،
مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.
ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه
قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم
عليها تعالى.

وأرواحهم، ودنياهم، وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من
المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل، فمن ثمرات
الإيمان، فالنصر، والهدى، والعلم، والعمل الصالح،
والسرور، والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم،
كل ذلك مسبب عن الإيمان. كما أن الشقاء الدنيوي
والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه.

وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على
الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه،
لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه
﴿وَكُنَّا اللَّهُ عَالِمًا﴾ بكل شيء ﴿يَكُونُ﴾ في خلقه وأمره. فهو
العليم بمن يستحق الهداية والغواية. الحكيم في وضع الهداية
والغواية موضعها.

(١٧١) ﴿يَتَّاهِلَ الْكَتَبَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى
اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ
أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ
انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ينهى تعالى
أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر
المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك فقول النصارى في
غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعوا عن مقام النبوة والرسالة
إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله.

فكما أن التقصير والتفريط من النهايات، فالغلو كذلك.
ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهذا الكلام
يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب
على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله،
وشرعه، ورسله. والثالث: مأمور به، وهو قول الحق في هذه
الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن
عيسى عليه السلام، نصّ على قول الحق فيه، المخالف
لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومتى ما يصل
إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي
درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل الثنويات.

﴿وَهُوَ﴾ أنه ﴿كَلِمَتُهُ﴾ التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: كلمة
تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما
كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.
وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: من الأرواح التي

الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين. وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

(١٧٤، ١٧٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَتَمَمُوا بِهِمْ فُسُوحَهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ فَهُمْ يُصَلُّونَ ۝ وَفَصَّلَ إِلَيْهِ سِرْكَهُمُ مُتَقَرِّبِينَ ۝ يَمْتَنُ تَعَالَى عَلَى سَائِرِ النَّاسِ بِمَا أَوْصَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَالْأَنْوَارِ السَّاطِعَةِ، وَيَقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَيُوضِعُ لَهُمُ الْحُجَّةَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: حجج قاطعة على الحق، تبينه وتوضحه، وتبين ضده.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سُرْطَانُهُمْ إِلَيْنَا فِي الْأَفْوَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي راكم التربية الدينية والدنيوية. فمن تربيته لكم التي يحمدها عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم، إن لم يقتبسوا من خيرها.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتزويه من كل نقص وعيب.

﴿وَأَتَمَمُوا بِهِمْ﴾ أي: لجأوا إلى الله، واعتمدوا عليه، وتبرأوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم.

﴿فَسُوحَهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ وَفَصَّلَ إِلَيْهِ سِرْكَهُمُ مُتَقَرِّبِينَ﴾ أي: فستغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات، ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

أي: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به، ويتمسك بكتابه، منعم من رحمته، وحرهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان. نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

(١٧٢، ١٧٣) ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَجَّحْنَاهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ ۝ فَمِمَّا أَلْزَمَ ءَامَنُوا الصَّلَاةَ يَوْمَئِذٍ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فترههم عن الاستكفاف، وتزويهم عن الاستكبار من باب أولى. ونفي الشيء فيه إثبات ضده. أي: نفيس والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والفوز العظيم، فلم يستكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَجَّحْنَاهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ أي: فسحشر الخلق كلهم إليه، المستكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فَمِمَّا أَلْزَمَ ءَامَنُوا الصَّلَاةَ يَوْمَئِذٍ أَجُورَهُمْ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به، وعمل الصالحات، من واجبات، ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده.

﴿يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله.

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الثواب الذي لم تنله أفعالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكول والمشروب، والمناجح، والمناظر، والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن. بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي، رتب على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن عبادة الله تعالى ﴿فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهم، فيحصل لهم المطلوب، ولا من ينصرهم، فيدفع عنهم المرهوب، بل قد تولى عنهم أرحم

تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ إِلَّا مَا بَيْنَ عَيْنَيْكُمْ غَيْرَ حِلٍّ الْعُقُودُ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقضها.

وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطعيتهم. والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّا الْوَلِيُّونَ لِإِخْوَةٍ﴾ بالتناصر على الحق، والتعاون عليه، والتآلف بين المسلمين، وعدم التقاطع.

فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخله في العقود التي أمر الله بالقيام بها^(١). ثم قال مثنى على عبادته ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ أي لأجلكم، رحمة بكم ﴿بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ﴾ من الإبل والبقر والغنم. بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء، وحمر الوحش ونحوها من الصيد.

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح.

﴿إِلَّا مَا بَيْنَ عَيْنَيْكُمْ﴾ تحريمه منها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ إلى آخر الآية. فإن هذه المذكورات، وإن كانت من بهيمة الأنعام، فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات، استثنى منها الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿غَيْرَ حِلٍّ لِّبَيْعَتِهِمْ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلي الصيد وأنتم

(١٧٦) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْعَةِ إِنِ امْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ إِمْرَأَةٌ نَفَتْ فَلَهَا بِصَفْ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْهُنِ بِمَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ أي: في الكلاية بدليل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْعَةِ﴾ وهي الميت يموت، وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنْ امْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ذأي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب، ولا ولد ابن.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والإخوة بالإجماع لا يرثون مع الوالد. فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وَلَهُ أَثُتٌ﴾ أي: شقيقة، أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها.

﴿فَلَهَا بِصَفْ مَا تَرَكَ﴾ أي: نصف متروكات أخيها، من نقود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم.

﴿وَهُوَ﴾ أي: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ ولم يقدّر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقى الفروض.

﴿وَإِنْ كَانَتَا﴾ أي الأختان ﴿أَتْنَتَيْنِ﴾ أي: فما فوق ﴿فَلَهُمَا الشُّلْهُنِ بِمَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً﴾ أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فيسقط فرض الإناث، ويعصبن إخوتهن.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي: يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها، ويشرحها لكم، فضلاً منه وإحساناً، لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم، بسبب جهلكم وعدم علمكم.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بالغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلية، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي يفتعكم على الدوام، في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء. فله الحمد والشكر.

(١) في هامش أما نصه (ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بدل عليها من قول أو فعل لإطلاقها) وليس هناك علامة تدل على موضع الزيادة. ويبدو أن موضعها هنا - والله أعلم -.

يأثم صاحبها، ويحرج ﴿وَالَّذِينَ﴾ وهو التعدي على الخلق في دماهم وأموالهم وأعراضهم. فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إغاة غيره على تركه. ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من عصاه، وتجرا على محارمه. فاحذروا المحارم، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والأجل.

(٣) ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أُولَ الْبَنِيَّةِ﴾. وَالْمَيْتَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمَرْوَةُ وَالْقَيْطَةُ وَمَا أَكَلَ النَّسِجُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْقِمُوا إِلَّا أَنْ لَكُمْ فِيهِ مَبْرُكٌ هَذَا الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا يَلْقَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرم ما يحرم، إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك، وقد لا يبين.

فأخبر أنه حرم ﴿الْمَيْتَةَ﴾ والمراد بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضرب بأكلها. وكثيراً ما تموت بعلقة تكون سبباً لهلاكها، فنضرب بالأكل. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسلك فإنه حلال.

﴿وَالدَّمَ﴾ أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى. ﴿وَالْحَمَّٰلَةَ﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه. وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصارى، يزعمون أن الله أحله لهم. أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث. ﴿وَمَا أُولَ الْبَنِيَّةِ﴾ أي: ما أكله الله عليه من السباع، فذكر اسم غيره عليها، يفيد خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى ﴿وَالْمَنْخَقَةُ﴾ أي: الميتة بخنق، بيد، أو جبل، أو إدخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها حتى تموت ﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾ أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً، أو حصى، أو خشية، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد ﴿وَالْمَرْوَةُ﴾ أي: الساقطة من علو، كجبل، أو جدار، أو سطح ونحوه، فتتلف بذلك ﴿وَالْقَيْطَةُ﴾ وهي التي تنطحها غيرها فتتلف ﴿وَمَا أَكَلَ النَّسِجُ﴾ من ذب، أو أسد، أو نمر، أو من الطيور التي تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل النسج، فإنها لا تحل. وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ راجع لهذه المسائل، من منخقة، وموقودة، ومتردية، ونطيحة، وأكلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها. ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشونها، أو قطع

﴿وَلَا تَأْتِيَنَّ أَلْبَنَتَ الْحَرَامِ﴾ أي: قاصدين له ﴿يَتَنَوَّنَ فَمَلًا مِنْ رَثَمِهِ وَرِثَمًا﴾ أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة، والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحبه وعمرته، والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا تعرضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموه، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر، الأمر بتمامين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصصة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَنَّهَا أَلْبَنَتَ آمَنُوا إِنَّا الشُّرُكُونَ بَحْسٌ فَلَا يَدْرُونَ﴾ السَّجْدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴿فَالْمُشْرِكُ لَا يَمْكُنُ مِنَ الدَّخُولِ إِلَى الْحَرَمِ. والتخصيص في هذه الآية، بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صدق من هذه حاله، عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ فِيهِ بِالْحَكْمِ﴾ وَلَمْ يَطْلُرْ لِقَوْلِهِ مِنَ عَذَابِ آيَةٍ. ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي: إذا حللتم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم، يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿وَلَا يَحْجِمَنَّكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَنْ مَدَّوْكُمْ عَنِ السَّجْدِ﴾ لِقَرَارِ أَنْ تَعْبُدُوا ﴿أي: لا يحملكم بغض قوم وعداوتهم، واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد، على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جُني عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِيمِ وَالْقَوَى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الأميين.

والقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِيمِ﴾ وهو التجزؤ على المعاصي التي

وأحكامهم، إلى علوم غير علم الكتاب والسنة: من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه. وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله.

﴿وَأَمَّا نَسْتَعْتِبُكَ يَوْمَ تَخِلُّكَ الْغَاظَةُ وَالَبَاطِنَةُ﴾ وَرَبِّكَ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿أَي: اخترته واصطفيته لكم دينا، كما ارتضيتكم له. فقوموا به شكرا لربكم، واحمدوا الذي مَنَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

﴿فَمَنْ أَضَلُّ﴾ أَي: ألبانة الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة، في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ أَلْبَانَةُ﴾ ﴿فِي مَخَصَّصَةٍ﴾ أَي: مجاعة ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ﴾ أَي: مائل ﴿لِإِثْمٍ﴾ بآن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته. ﴿فَلَوْلَا اللَّهُ عَفْوٌ رَبِّكَ﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال. ورحمه بما يقيم به دينه، من غير نقص يلحقه في دينه.

(٤) ﴿يَسْأَلُكَ مَاذَا أُجِلُّ لَمْ يَلَمْ قُلْ أُجِلُّ لَكُمْ الْغَيْبُ وَمَا عَلَّمَهُ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَيِّبِينَ تُؤَلِّيهِمْ يَوْمَ عَمَلِكُمْ اللَّهُ فَعَلُوا بِمَا أَمَرْتُمْ عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا أَمَّا اللَّهُ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى لنبينه محمد ﷺ: ﴿يَسْأَلُكَ مَاذَا أُجِلُّ قُلْ هُوَ﴾ من الأطعمة؟ ﴿قُلْ أُجِلُّ لَكُمْ الْغَيْبُ﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالدين ولا بالعقل. فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري. ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبائث منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾.

﴿وَمَا عَلَّمَهُ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أَي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكوه مما صادته الجوارح. والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقور، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليمًا، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُهُمُ اللَّهُ فَعَلُوا بِمَا أَمَرْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أَي: أمسكن من الصيد لأجلكم. وما أكل منه الجارح

(١) كذا في ب، وفي أ: كعلمه. (٢) كذا في التسخين: ولعل الأقرب: فحرم.

حلقومها، كان وجود حياتها كعلمه، لعدم فائدة الذكاة فيها. وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة، فإذا ذكاهم وفيها حياة حلت، ولو كانت مبانة الحشوة، وهو ظاهر الآية الكريمة^(١). ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْآزْكُرِ﴾ أَي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها. وهي قدام ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

فإذا هم أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القدام المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحدًا منها. فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره. وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمس في شأنه. وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدام فيعمل به. فحرمه^(٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه، بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم. ﴿وَذَلِكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرمها الله صيانة لعباده، وأنها «فِتْنَةٌ» أَي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

(٣) ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الْآزْكُرُ كَفَرًا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّا نَسْتَعْتِبُكَ يَوْمَ تَخِلُّكَ الْغَاظَةُ وَالَبَاطِنَةُ﴾ وَرَبِّكَ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿فَمَنْ أَضَلُّ﴾ فِي مَخَصَّصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴿فَلَوْلَا اللَّهُ عَفْوٌ رَبِّكَ﴾

واليوم المشار إليه يوم عرفة؛ إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالًا بليغًا، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يشوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون. ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ - سنة عشر - حجة الوداع لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ولهذا قال: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أَي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع. ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه. فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم

فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿يَنْ كَلْبًا﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخفة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بنقله، لم ييح. [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنبيها، أو مخالبيها. والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب أي: المحصلات للصيد، والمدركات لها^(١). فلا يكون فيها على هذا دلالة. والله أعلم^(٢)].

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه، جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه، ولم يذكر له غسلًا، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذمومًا، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمدًا، لم ييح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة، فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب فقال: ﴿وَأَلْقُوا إِلَهُ الْكَافِرِ﴾.

(٥) ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَالٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَالٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ غَيْرَ مُتَوَسِّعِينَ وَلَا مُتَجِدِّينَ أَتَايَ الْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. كرر تعالى إحوال الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والامتنان من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَالٌ لَكُمْ﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفِقَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالنَّطِيقَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَلْزَلِ ذَلِكَ لَكُمْ فِي الْيَوْمِ نَبَأٌ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِأَمْرِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيْبُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فكلوا مما أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاقُولُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٧﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيْبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَالٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَالٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُتَحِدِّينَ غَيْرِ مُتَسَوِّغِينَ وَلَا مُتَجِدِّينَ أَتَايَ الْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨﴾

الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين. وذلك لأن أهل الكتاب، يتسبون إلى الأنبياء والكتب. وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك. فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم.

والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح، كالحبوب والثمار، ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك، ولو كان من طعام غيرهم. وأيضًا فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك على أنه كان طعامًا، بسبب ذبائحهم. ولا يقال: إن ذلك للتملك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا لا يباح على وجه الغصب، ولا من المسلمين.

﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿حَلَالٌ﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ أي: الحرائر العفيفات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: الحرائر العفيفات

(١) في: ب. له. (٢) زيادة من هامش ب.

عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرْجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ مَقَرَّتُمْ عَلَيْكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴿٦﴾ هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام
كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله:

أحدها: أن هذه المذكرات فيها، امثالها والعمل بها من
لوازم الإيمان، الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾
الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى آخِرِهَا. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا
بمقتضى إيمانكم، بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى
الصَّلَاةِ﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى
الصَّلَاةِ﴾ أي: بقصدتها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها
عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما
تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض
والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة،
حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة
والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو ما تحصل به المواجهة
من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحية
والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً.

ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالستة، ويدخل فيه
الشعور التي فيه. لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إصصال الماء
إلى البشرة. وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهاها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن أحدهما إلى المرفقين. و
«إلى» كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع»، كقوله تعالى:
﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل
جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست
للتبعية، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع
الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو
إحدهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق
المسح، ولم يفيد بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح. فلو غسل رأسه، ولم
يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الْكَتَابِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من اليهود والنصارى.

وهذا مختص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَشْرَكِيَّ حَتَّىٰ
يُذَمَّرَ﴾. ومفهوم الآية، أن الأرقاء من المؤمنين لا يباح
نكاحهن للأحرار، وهو كذلك.

وأما الكتابات فعلى كل حال لا يباح، ولا يجوز
نكاحهن للأحرار مطلقاً، لقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِكُمْ
الْمُؤْمِنَاتُ﴾. وأما المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز
للأحرار نكاحهن إلا بشرطين، عدم الطول، وخوف العنت.

وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يباح نكاحهن،
سواء كن مسلمات أو كتابيات، حتى يثبتن لقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجٌ
لَّا يَحِلُّ لَآ زِينَةً أَوْ مُدْرِكَةً﴾ الآية.

وقوله: ﴿إِذَا تَابَتْهُنَّ أَتُوبُ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: أباحنا لكم نكاحهن،
إذا أعطينهم مهورهن. فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها
فإنها لا تحل له. وأمر بإيتائنها، إذا كانت رشيدة تصلح
للإتاء، وإلا أعطاه الزوج لوليها.

وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع
مهرها، وليس لأحد منه شيء، إلا ما سمحت به لزوجها، أو
وليها أو غيرهما.

﴿عَصِيْبَتَيْنِ عِزٍّ مُّسْتَفِيضَيْنِ﴾ أي: حالة كونكم - أيها الأزواج
- محصنين لئلا نكحكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن.

﴿عِزٍّ مُّسْتَفِيضَيْنِ﴾ أي: زانين مع كل أحد ﴿وَلَا مُتَخِذَتَيْنِ
أَعْلَانٍ﴾. وهو: الزنا مع العشيقات، لأن الزنا في الجاهلية،
منهم مَنْ يزني مع مَنْ كان، فهذا المسافح. ومنهم مَنْ يزني مع
خدنه ومجبه. فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة. وأن
شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِسْلَامِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي:
وَمَنْ كفر بالله تعالى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو
شيء من الشرائع، فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على
كفره، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ بَيْنَكُمْ عَنْ وِثْقِهِ فَمُتَ
وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين خسروا
أنفسهم، وأموالهم، وأهلهم يوم القيامة، وحصلوا على
الشقاوة الأبدية.

(٦) ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاتَّعِلُّوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى
الْعَقَبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْمِيًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ
جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَبَسَ مِنْ تَلَاسُفٍ فَلَمْ يَجِدْ مَاءً فَتَيَمَّمُوا
صَيْدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ

التيتم مع وجود الماء، لحصول الضرر به. وبأقياها يجوز
العدم للماء، ولو كان في الحضر.

الثامن والعشرون: أن الخارج من السيلين من بول
وغائط، ينقض الوضوء.

التاسع والعشرون: استدل بها مَنْ قال: لا ينقض الوضوء
إلا هذان الأمران. فلا يتنقض بلمس الفرج ولا غيره.

الثلاثون: استحباب التكنية عمّا يستقذر اللفظ به^(١)،
لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَكَهَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْكَلَامِ﴾.

الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذة وشهوة، ناقض
للوضوء.

الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.

الثالث والثلاثون: أنه مع وجود الماء ولو في الصلاة،
يظل التيمم، لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء.

الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت، وليس معه ماء،
فإنه يلزمه طلبه في رحله، وفيما قرب منه، لأنه لا يقال «لم
يجد» لمن لم يطلب.

الخامس والثلاثون: أن مَنْ وجد ماء لا يكفي بعض
طهارته، فإنه يلزمه استعماله، ثم يتيمم بعد ذلك.

السادس والثلاثون: أن الماء المتغير بالطهارات، مقدم
على التيمم، أي يكون طهوراً، لأن الماء المتغير ماء، فيدخل
في قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدْ مَاءً﴾.

السابع والثلاثون: أنه لا بد من نية التيمم لقوله:
﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أي: اقصدا.

الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على
وجه الأرض، من تراب وغيره. فيكون على هذا قوله:

﴿فَأَمْسَكُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ نِيَّةً﴾ إما من باب التغليب، وأن
الغالب أن يكون له غبار يمسح منه، ويعلق بالوجه واليدين.

وإما أن يكون إرشاداً للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه
غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس،
لأنه لا يكون طيباً، بل خبيثاً.

الأربعون: أنه يمسح في التيمم، الوجه واليدان فقط، دون
بقية الأعضاء.

الحادي والأربعون: أن قوله: ﴿يُؤْبَاهُكُمْ﴾ شامل لجميع
الوجه وأنه يعممه^(٢) بالمسح، إلا أنه معفو عن إدخال التراب
في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة.

السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود
المرض الذي يضرضه غسله بالماء، فيجوز له التيمم.

السابع والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه، السفر
والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء. فالمرض يجوز

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال
فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الرد على الرافضة، على قراءة الجمهور
بالنصب. وأنه لا يجوز مسحهما ما دامت مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح الخفين، على قراءة
الجر في ﴿وَأَيْتُكُمْ﴾ وتكون كل من القراءتين محمولة على
معنى. فعلى قراءة النصب فيها، غسلهما إن كانتا مكشوفتين.

وعلى قراءة الجر فيها، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء، لأن الله تعالى
ذكرها مرتبة. ولأنه أدخل مسحاً - وهو الرأس - بين

مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة
المسميات في هذه الآية.

وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين
اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب.

بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه.
وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين. وتقديم
مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد
صورة المأمور به.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن، لأن الله أضاف
التطهر للبدن، ولم يخصه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في
الجنابة.

الثاني والعشرون: أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث
الأكبر، ويكفي من هما عليه، أن ينوي، ثم يعمم بدنه، لأن
الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق على مَنْ أنزل المني،
يقظة أو نماناً، أو جامع ولو لم ينزل.

الرابع والعشرون: أن مَنْ ذكر أنه احتلم ولم يجد بللاً،
فإنه لا غسل عليه، لأنه لم يتحقق منه الجنابة.

الخامس والعشرون: ذكر مئة الله تعالى على العباد،
بمشروعية التيمم.

السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود
المرض الذي يضرضه غسله بالماء، فيجوز له التيمم.

السابع والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه، السفر
والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء. فالمرض يجوز

(١) كلما في، وفي: أي: فيه. (٢) في ب: يعمه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا
وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْمَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْمَاءِ
أَوْ لَمْ يَجِدْ مَاءً فَتَمِسُّوا أَيْدِيَكُمْ بِمَاءٍ طَيِّبٍ
فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِنَّهُ مَا يَرِيدُ اللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُنِمْسَ تَهُ عَلَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧﴾
وَإِذْ كَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمِيثَقَهُ الَّتِي وَافَقَكُمْ
بِعَهْدِ قُلُوبِكُمْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الْصُّدُورِ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى
أَلَّا تَعْدِلُوا أَعِدُّوا لَهُمْ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

الثاني والأربعون: أن اليمين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليمين عند الإطلاق كذلك.

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين، لقيده الله بذلك، كما قيده في الوضوء.

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية، فلم يقيد. [وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم، لأن السياق في الأحداث. وهو قول جمهور العلماء^(١)].

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان، التيمم عنهما، فإنه يجزئ، أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فَامْسَحُوا﴾ ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء. ولأن الله بدأ بمسح الوجه، قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر. وإنما هو رحمة منه بعباده، ليطهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح. الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة، تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله في الطهارة وغيرها، ليزداد معرفة وعلمًا، ويزداد شكرًا لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

(٧) ﴿وَإِذْ كَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمِيثَقَهُ الَّتِي وَافَقَكُمْ بِعَهْدِ قُلُوبِكُمْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها، داعيًا لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه.

وفيه زوال للعجب من النفس، بالنعيم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه. و﴿وَمِيثَقَهُ﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الَّتِي وَافَقَكُمْ بِعَهْدِ﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق. وإنما المراد بذلك، أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما. ولهذا قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿وَإِذْ كَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار

هَمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْمَعُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ كَذَبٌ أَتَيْهِمْ عَنْكُمْ وَأَتُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمة العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان. وأنهم - كما أنهم يعدلون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسيبهم نعمة - فليعدوا أيضا إنعامه عليهم، بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم الأعداء، قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه، فإذا لم يدرکوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين، ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه. وهذا يشمل كل مَنْ هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومنافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ويترأوا من حولهم وقوتهم، ويشقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

(١٣، ١٢) ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَيْتُمُوهُمُ وَقَرِئْتُمْ أَلْفًا مَعَهُ قَرَأْتُمْ هَٰذَا أَكْفَرْتُمْ عَنْكُمْ سِغَاتِكُمْ وَأَكْثَلْتُمْ كِبَرًا جَزَاءً بِمَا كُنْتُمْ تَجْرِي مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهُمْ يُشْفِقُهُمْ لَمَثَلُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنٍ مِنْهُمْ إِلَّا يَلِيكَ مِنْهُمْ فَاغْفِرْ لَهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَشَفِّعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد. وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإنهم إن لم يقوموا به. ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي: رئيسا وعريفا على مَنْ تحته، ليكون ناظرا عليهم، حاثا لهم على القيام بما أمروا به، مطالباً يدعوهم.

﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ للقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المنة.

ثم ذكر ما واتهمهم عليه فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ ظاهرا وباطنا، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ لمستحقها ﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ جميعهم

والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم، على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعملوا قلوبكم بمعرفته، ومحبه، والصنع لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلكم بصلاح قلوبكم.

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾، بأن تنشط للقيام بالقسط، حركانكم الظاهرة والباطنة. وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية. وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفریط، في أقوالكم ولا في أفعالكم. وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصادق والعدو.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله مَنْ لا عدل عنده ولا قسط. بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم، فاشهدوا له، ولو كان كافرا أو مبتدعا. فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله. ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: كلما حرصتم على العدل، واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلا، وأجلا.

(١٠، ٩) ﴿وَمَنْذَرُ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّجِيمِ﴾ أي: ﴿وَمَنْذَرُ اللَّهِ﴾ الذي لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين - المؤمنين به، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالغفر عنها وعن عواقبها، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ﴿فَلَا تَمَلُّمْ نَفْسًا مَا أَخْفَىٰ لَهُمْ مِنْ قُرْءَانَيْنِ﴾ جزاء بما كانوا يعملون.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها، بعد ما أبانت الحقائق ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّجِيمِ﴾ الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

(١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَكْفَرُوا بَعْدَ مَا عَصَيْتُمْ إِيَّاهُ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 الْجَحِيمِ ﴿١٠٩﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كُرُوا يَعْبَتُ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
 فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَتَوْا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي
 إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ
 إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ
 وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا
 حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
 ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١١﴾ فِيمَا
 نَقَضْتُمْ بِمِيثَاقِهِمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً
 يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
 ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
 فَاقْصُفْ عَنْهُمْ وَأَصْغَحْ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٢﴾

عظيمة. وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل مَنْ اتصف بصفاتهم.

فكل مَنْ لَمْ يَمِمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَأَخَذَ بِهِ عَلَيْهِ الْإِتِّمَامَ، كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ اللَّعْنَةِ وَقَسْوَةِ الْقَلْبِ، وَالْإِتِّمَامُ بِتَحْرِيفِ الْكَلِمِ، وَأَنَّهُ لَا يَوْفُقُ لِلصَّوَابِ، وَنَسْيَانُ حَظِّ مَا ذَكَرَ بِهِ. وَأَنَّهُ لَا يَدَّ أَنْ يَتَنَلَّى بِالْخِيَانَةِ. نَسَّالَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ.

وسمى الله تعالى ما ذُكِّرُوا بِهِ حَقًّا، لَأَنَّهُ هُوَ أَعْظَمُ الْحِظْوِطِ، وَمَا عَدَاهُ فَإِنَّمَا هِيَ حِظْوِطٌ دُنْيَوِيَّةٌ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَجَّعَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ. قَالَ أَلَيْسَ لِرَبِّدُونَ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا بَلَيَاتٌ لَنَا يَنْتَلِ مَا أَوْفَتْ قُدْرُونَ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظِيٌّ عَظِيمٌ﴾.

وقال في الحِظْوِطِ النَّافِعِ: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا دُورٌ حَظِيٌّ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾: أي: فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليهم فوقهم، وهداهم للصراط المستقيم.

﴿فَاقْصُفْ عَنْهُمْ وَأَصْغَحْ﴾: أي: لا تَوَاخِذْهُمْ بِمَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ مِنَ الْأَذَى الَّذِي يَقْتَضِي أَنْ يَعْفَى عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ. فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَالْإِحْسَانُ هُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ

الَّذِينَ أَفْضَلُهُمْ وَأَكْمَلُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾: أي: عَظَّمْتُمُوهُمْ، وَأَدْبَيْتُمْ مَا يَجِبُ لَهُمْ مِنَ الْإِحْتِرَامِ وَالطَّاعَةِ ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: وَهُوَ الصَّدَقَةُ وَالْإِحْسَانُ، الصَّادِرُ عَنِ الصَّدَقِ وَالْإِحْلَاصِ، وَطِيبِ الْمَكْسَبِ. فَإِذَا قَعْتُمْ بِذَلِكَ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ حَصُولِ الْمَحْبُوبِ بِالْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ، وَانْدِفَاعِ الْمَكْرُوهِ بِتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، وَدَفْعِ مَا يَرْتَبِ عَلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ.

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ الْمُؤَكَّدُ بِالْإِيمَانِ وَالْإِتِّمَامَاتِ، الْمَقْرُونُ بِالْتَرْغِيبِ بِذِكْرِ ثَوَابِهِ.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: أي: عَنْ عَمْدٍ وَعِلْمٍ، فَيَسْتَحِقُّ مَا يَسْتَحِقُّهُ الضَّالُّونَ مِنْ حَرَمَانِ الثَّوَابِ، وَحَصُولِ الْعِقَابِ. فَكَانَ قِيلَ: لَيْتَ شِعْرِي مَاذَا فَعَلُوا؟ وَهَلْ وَفُوا بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، أَمْ نَكَنُوا؟

فَبَيَّنَ أَنَّهُمْ نَقَضُوا ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ بِمِيثَاقِهِمْ﴾: أي: بِسَبَبِهِ عَاقِبَتُهُمْ بَعْدَ عَقُوبَاتِهِ:

الْأُولَى: أَنَا ﴿لَعْنَتُهُمْ﴾: أي: طَرَدْنَاهُمْ وَأَبْعَدْنَاهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا، حَيْثُ أَغْلَقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ، وَلَمْ يَقُومُوا بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ، الَّذِي هُوَ سَبَبُهَا الْأَعْظَمُ.

الثَّانِيَّةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾: أي: غَلِظَةً لَا تَجْدِي فِيهَا الْمَوَاعِظَ، وَلَا تَشْفَعُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ، فَلَا يَرْغَبُ تَشْوِيقَ، وَلَا يَزْعَجُهُمْ تَخْوِيفُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ عَلَى الْعَبْدِ، أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي لَا يَفِيدُهُ الْهُدَى وَالْخَيْرُ إِلَّا أَشْرًا.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمْ ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾: أي: ابْتَلَوْا بِالتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، فَيَجْعَلُونَ لِلْكَلِمِ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ مَعْنَى غَيْرِ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ وَلا رَسُولُهُ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُمْ ﴿نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. فَإِنَّهُمْ ذَكَرُوا بِالنُّورَةِ وَمِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، فَنَسُوا حَظًّا مِنْهُ. وَهَذَا شَامِلٌ لِنَسْيَانِ عِلْمِهِ، وَأَنَّهُمْ نَسَوْهُ، وَضَاعَ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَوْجِدْ كَثِيرٌ مِمَّا أَنْسَاهُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ، عَقُوبَةٌ مِنْهُمْ. وَشَامِلٌ لِنَسْيَانِ الْعَمَلِ الَّذِي هُوَ التَّرَكُّ، فَلَمْ يَوْفُوا لِلْقِيَامِ بِمَا أَمَرُوا بِهِ. وَيَسْتَدِلُّ بِهَذَا عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، بِإِنكَارِهِمْ بَعْضَ الَّذِي قَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِمْ، أَوْ رَفَعَهُ فِي زَمَانِهِمْ، أَنَّهُ مِمَّا نَسَوْهُ.

الخَامِسَةُ: الْخِيَانَةُ الْمُسْتَمِرَّةُ الَّتِي ﴿لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنٍ مِنْهُمْ﴾: أي: خِيَانَةُ اللَّهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَمِنْ أَعْظَمِ الْخِيَانَةِ مِنْهُمْ، كَتْمُهُمْ [عَنْ] مَنْ يَعْطِيهِمْ، وَيَحْسِنُ فِيهِمْ الظَّنَّ الْحَقَّ، وَإِبْقَاؤُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، فَهَذِهِ خِيَانَةُ

كانك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وفي حق المخلوقين: بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

(١٤) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نُنْصِرُ أَخَذْنَا مِنْهُمُ الْمَوْدَاةَ وَابْتَعْناهُمُ يَوْمَ الْيَوْمَةِ وَمَوْتُكُمْ يُنْصِفُهُمُ اللَّهُ يَمَّا كَانُوا يَنْصُرُونَ﴾ أي: وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذاك أخذنا على ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نُنْصِرُ﴾ لعيسى ابن مريم، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله وما جاؤوا به، فنقضوا العهد ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ نسياناً علمياً، ونسياناً عملياً.

﴿فَأَعْرَبْنَا بينهم الْمَوْدَاةَ وَابْتَعْناهُمُ يَوْمَ الْيَوْمَةِ﴾ أي: سلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور واللاحن ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة. وهذا أمر مشاهد، فإن النصارى لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق ﴿وَمَوْتُكُمْ يُنْصِفُهُمُ اللَّهُ يَمَّا كَانُوا يَنْصُرُونَ﴾ فيعاقبهم عليه.

(١٥، ١٦) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأنها نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بأية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي: أنه بين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم. فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم، ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم، فالحرص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم.

فأتان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بين به ما كانوا يتكاثرونه بينهم، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته، وذلك مثل صفة محمد في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم ونحو ذلك.

﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة، وعماية الضلالة.

﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم، من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نُنْصِرُ أَخَذْنَا مِنْهُمُ الْمَوْدَاةَ وَابْتَعْناهُمُ يَوْمَ الْيَوْمَةِ وَمَوْتُكُمْ يُنْصِفُهُمُ اللَّهُ يَمَّا كَانُوا يَنْصُرُونَ ﴿١٤﴾ يَتَّهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.

ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسناً - سبيل السلام التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الكفر والبُعدَة والمعصية، والجهل والغفلة إلى نور الإيمان والشُّعَّة والطاعة، والعلم، والذكر.

وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(١٨، ١٧) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقالت اليهود والنصارى نحن ابتكنا الله وأجبتوه

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(١) أي: فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة الممالك، ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

(١٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبَدِّلُوا مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَلَا يُبَدِّلْهُ قُلُوبُكُمْ وَمَنْ يُبَدِّلْهُ قُلُوبُهُ يَأْتِ بِالسَّيِّئَاتِ فَهُوَ مُرْسِلُهَا فِيهَا وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فَقَرَرْنَا مِنْهُ﴾ وشدة حاجة إليه.

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية، وقد قطع الله بذلك حججهم، لنلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَيِّنَةٍ وَلَا نُنَظِرُ﴾ ففقد جاءكم بَيِّنَةٌ وَكَذِبُوا. يشير بالثواب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها. وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ انقادت الأشياء طوعاً وإذعائاً لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها. ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

(٢٠-٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ يَتَقَوَّمُوا أَدْنُوهُمْ يُعَمِّمُهُمُ اللَّهُ عَلَىٰكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَيْنًا وَمَعَكُمْ ثُلُوكًا وَءَاثَمًا مَا لَمْ يُؤْتِ أَكْثَرًا مِنَ الثَّمَرِ ۚ يَتَقَوَّمُوا أَدْنُوهُمْ الْأَرْضِ الْمُفْقَسَةِ﴾ إلى آخر القصة^(٢).

لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه، وأسرهم واستعبادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حوالیه، وقاربوا وصول بيت المقدس. وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم، ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليفقدوا على الجهاد فقال لهم: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ عَيْنًا عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألستكم. فإن ذكرها دأب إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَيْنًا﴾ يدعوكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتهم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿وَجَعَلَ ثُلُوكًا﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ الْقَبِيضَةِ﴾

قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه، ذكر أقوالهم الشنيعة.

فذكر قول النصارى، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم. ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل. مع أن حواء نظيره، خلقت بلا أم. وآدم أولى منه، خلق بلا أب ولا أم. فهلا ادعوا فيها الإلهية، كما ادعوا في المسيح؟

فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة. فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ أَلْوَمِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأَكُنْ مِنْ فِي الْأَرْضِ جَحِيمًا﴾. فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم بمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم، ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يستنتج من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

﴿وَمِنْ الْأَدَلَّةِ أَنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿ثُلُثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون. فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم، [كآدم]^(١). فنوع خلقته تعالى بمشيئته النافذة التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَ﴾.

والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البنية الحقيقية، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح.

قال الله ردًا عليهم، حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟﴾ ؟ فلو كنتم أحباباً ما عذبكم، [لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه]^(٢).

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ تجرى عليكم أحكام العدل والفضل.

﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب.

﴿٢٠﴾

١١١

﴿٢١﴾

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ. قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٢١﴾ يَأْتِلُ هَآؤُلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَآتَاكُمْ مِّنَ الْغَنِيِّ أَمْ يَأْمُرُكُمْ بِالْعِبَادَةِ فَقُلْ لِمَ تُؤْفَكُونَ أَفَرِحْتُمْ بِمَا أُعْطِيَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَلَمْ تُحِبُّوا أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُمَا وَلَئِن لَّمْ يَكُن لِّلْآخِرَةِ أَهْلٌ لَّا يَخْشَوْنَ اللَّهَ الْعَظِيمَ لَأُعَذِّبَنَّهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لَأَشْرِكُ بِكَ يَا رَبِّ وَتَوَلَّى وَصَلَّى وَكَرِهَ النَّاسُ عَلَى اللَّهِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَكَرِهُوا أَنْ يُخَالِقُوا وَاللَّهُ عَلِيمُ الْغُيُوبِ ﴿٢٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لَأَشْرِكُ بِكَ يَا رَبِّ وَتَوَلَّى وَصَلَّى وَكَرِهَ النَّاسُ عَلَى اللَّهِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَكَرِهُوا أَنْ يُخَالِقُوا وَاللَّهُ عَلِيمُ الْغُيُوبِ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لَأَشْرِكُ بِكَ يَا رَبِّ وَتَوَلَّى وَصَلَّى وَكَرِهَ النَّاسُ عَلَى اللَّهِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَكَرِهُوا أَنْ يُخَالِقُوا وَاللَّهُ عَلِيمُ الْغُيُوبِ ﴿٢٦﴾

نصرة نبيهم، وعزاز أنفسهم.

وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ، حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ - حين شاورهم في القتال يوم «بدر» مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله! لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَتِيلُونَ﴾. ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكم مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.

فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء.

﴿فَافْتَقَرْنَا يَوْمَآ وَبَيَّتَ الْقَوْمُ الْآفِسَقِينَ﴾ أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك. ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوة موسى: ﴿فَالَهَا حُزْمَةٌ عَلَيْهِمْ رَبِّينَ

﴿وَأَنْتُمْ﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَا لَمْ يُؤْتِ أَهْلًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وبناته، ونباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يَقُولُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله. وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

﴿وَلَا تَزِدُوا﴾ أي: ترجعوا ﴿عَلَى آيَاتِكُمْ فَتَقْتُلُوا حَيَرِينَ﴾ قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم. وأخرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحقتكم - بمعصيتكم - من العقاب. فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله ﴿قَالُوا يَمْشُونَ لَنَا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها.

﴿وَلَا تَنْزِلُوا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ فإن يخرجوا منها فإنها دخلت. وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشد، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوته عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله. ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعداً خاصاً.

﴿قَالَ رَبِّ لَئِن مِّنَ الْيَوْمِ يُخَالِقُوا﴾ الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم ﴿أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَالِقُوا لَكُمُ الْعِزَّةَ﴾ أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سيهزمون. ثم أمرهم بعدة هي أقوى العدد فقالوا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن في التوكل على الله - وخصوصاً في هذا الموطن - تيسيراً للأمر، ونصراً على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأولين: ﴿يَمْشُونَ لَنَا تَنْزِيلًا لَّنَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ فآذتكم أنت وربك فقاتل إنا ههنا قَتِيلُونَ.

فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم فيه في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى

﴿٢٧﴾

١١٢

﴿٢٨﴾

قَالُوا يَبْسُطُ إِلَانًا نَدَّخَلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ
 أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبِّ
 إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافِرْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ فَإِنَّا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
 يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
 ﴿٢٩﴾ وَأَتْلَوْا عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
 فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
 قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيْكَ
 يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي خَافُ
 رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِآيَاتِي وَإِنِّي كُنْتُ
 مِنَ الصَّاحِبِينَ ﴿٣٢﴾ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ فَطَوَّعَتْ
 لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٤﴾
 فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَدِّي
 سُوءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤْتِيكَ عَصَجَرٌ أَنَّ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
 الْغُرَابِ فَأُوَدِّي سُوءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٥﴾

مدافعة فقال: ﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وليس ذلك جبنًا مني ولا عجزًا. وإنما ذلك لاني
 ﴿خَافُ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ والخائف لله لا يقدم (٢) على

الذنوب، خصوصًا الذنوب الكبار. وفي هذا تخويف لمن يريد القتل، وأنه ينبغي لك أن تتقي

الله وتخافه. ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ﴾ أي: ترجع ﴿إِلَيْكَ وَإِلَيْكَ﴾ أي: إنه إذا
 دار الأمر بين أن أكُون قَاتِلًا أو قَتْلَنِي، فإني أُوْثِرُ أن تقتلني،
 فنبوء بالوزيرين ﴿فَتَكُونُ مِنَ الصَّاحِبِينَ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾
 دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول

النار. فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه
 ويجزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع
 والطبع احترامه ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دنياهم
 وآخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل. «ومن سنَّ

(١) في ب: كتب الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَبَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. (٢)

في ب: لا يقوم.

سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إن من عقوبتهم أن نحرم
 عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة.
 وتلك المدة أيضًا يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق،
 ولا ييقنون مطمئنين. وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفر
 بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها. وفي هذا دليل على
 أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع
 نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر. ولعل
 الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه
 المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات. بل قد
 ألقت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقبها إلى ما فيه
 ارتقاؤها وعلوها. ولتظهر ناشئة جديدة تترى عقولهم على
 طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعداد، والذل المانع من
 السعادة.

ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على
 الخلق، خصوصًا قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتلمته الشفقة
 على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها،
 مع أن الله قد حتمها، قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾
 أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم
 اقتضى وقوع ما نزل بهم، لا ظلمًا منا.

(٢٧-٣١) ﴿وَأَتْلَوْا عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر
 القصة (١). أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت
 على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المستعبرون، صدقًا لا
 كذبًا، وجدلًا لا لعبًا. والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه،
 كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور
 المفسرين. أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان،
 الذي أداهما إلى الحال المذكورة.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: أخرج كل منهما شيئًا من ماله، لقصد
 التقرب إلى الله ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ بأن
 عُلِمَ ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم: أن
 علامة تقبل الله للقربان، أن تنزل نار من السماء فتحرقه.

﴿قَالَ﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسدًا وبغيًا
 ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له الآخر - مترفعًا له في ذلك - ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ
 اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فأني ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟
 إلا أنني اتقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبة عليّ وعليك،
 وعلى كل أحد. وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي:
 المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصًا لوجه
 الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

ثم قال له مخبرًا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا

شئة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها، لأنه أول من سن القتل». فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿وَبَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّكَارَ بَيِّنَاتٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يشرها ليدفن غراباً آخر ميتاً ﴿لِيُرِيَهُ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُوَرَّى سَوَاءُ أَيْحَى﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

(٣٢) ﴿وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ نُورَانَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّا كَثَّرْنَا مُنْتَهَمَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَنُرِيَكَ إِنَّمَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنن القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه ليس معه داع يدعو إلى التبيين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق. فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره. وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأتامة بالسوء. فتجرؤه على قتله كأنه قتل الناس جميعاً.

وكذلك من أحيا نفساً أي: استبقى أحداً، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحيا الناس جميعاً. لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل.

ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفساً بغير حق، متعمداً في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفاً مكافئاً، ليس بوالد للمقتول. وإما أن يكون مفسداً في الأرض، يفسدها لأذيان الناس، أو أبنائهم، أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرمهم إلا بالقتل. وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصلون على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ نُورَانَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي لا يبقى معها حجة لأحد ﴿ثُمَّ إِنَّا كَثَّرْنَا مُنْتَهَمَهُمْ﴾ أي: من الناس ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لَنُرِيَكَ إِنَّمَا يَقُولُ تَعَالَى﴾ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاؤوا بالبينات والحجج.

﴿٣٣﴾

١١٣

﴿٣٣﴾

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ نُورَانَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّا كَثَّرْنَا مُنْتَهَمَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَنُرِيَكَ إِنَّمَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنن القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه ليس معه داع يدعو إلى التبيين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق. فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره. وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأتامة بالسوء. فتجرؤه على قتله كأنه قتل الناس جميعاً.

(٣٣، ٣٤) ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

المحاربون لله ورسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض، بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق، الذين يعرضون للناس في القرى والبادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتقطع بذلك.

فأخبر الله أن جزاءهم وتكالهم - عند إقامة الحد عليهم - أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور. واختلف المفسرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه، ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ. أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية

والحج. والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها، من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه، والبدن، والنصح لعباده.

فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله. ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه الله. فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ويستجيب الله له الدعاء.

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه، الجهاد في سبيله، وهو: بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله، بكل ما يقدر عليه العبد، لأن هذا النوع من أجل الطاعات، وأفضل القربات.

ولأن مَنْ قام به، فهو على القيام بغيره أخرى وأولى ﴿لَمَّا كُنْتُمْ قُلُوبًا﴾ إذا اتقيتم الله بترك المعاصي، وابتغيتم الوسيلة إلى الله، بفعل الطاعات، وجاهدتم في سبيله ابتغاء مرضاته.

والفلاح هو الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب، والنجاة من كل مرهوب. فحقيقته السعادة الأبدية، والنعيم المقيم. (٣٦، ٣٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَيَسْأَلُونَ مَعَكُمْ لِيُفْتَنُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُفْتَلُونَ يَوْمَ تَكُونُ أَعْيُنُكُمْ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ الْأَرْضِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَكُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ما تُفْتَلُ منهم، ولا أفاد، لأن محل الافتداء قد فات، ولم يبق إلا العذاب الأليم، الموجع الدائم الذي لا يخرجون منه أبدًا، بل هم ماكثون فيه سرمدًا.

(٣٨-٤٠) ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا كِتَابًا مِّنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۖ قُلْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَسْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ السارق: هو مَنْ أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه. وهو من كبار الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

وحد اليد عند الإطلاق من الكوع. فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسنت في زيت، لتسد العروق فيقف الدم، ولكن الشئ قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:

بحكمتهما وموافقتها لحكمة الله تعالى. وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا، ويرتدع غيرهم. وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا، تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالا، نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه، وكثير من الأئمة، على اختلاف في بعض التفاصيل.

﴿ذَلِكَ﴾ النكال ﴿لَهُمْ جِزَاءٌ فِي أَلْدُنْيَا﴾ أي: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة. وأن فاعله محارب لله ولرسوله. وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده إفساد في الأرض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: من هؤلاء المحاربين. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل، والصلب، والقطع، والنفي. ومن حق آدمي أيضا، إن كان المحارب كافرا ثم أسلم. فإن كان المحارب مسلما، فإن حق آدمي لا يسقط عنه من القتل، وأخذ المال. ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب - بعد القدرة عليه - أنها لا تسقط عنه شيئا. والحكمة في ذلك ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه، تمنع من إقامة الحد في الحرابة، فغيرها من الحدود - إذا تاب مَنْ فعلها، قبل القدرة عليه - من باب أولى.

(٣٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَكُفُّوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله، والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد، وبذل غاية ما يمكنه من المقدور، في اجتناب ما يسخطه الله، من معاصي القلب واللسان والجوارح، الظاهرة والباطنة. ويستعين بالله على تركها، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه.

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له. وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل. والبدنية: كالزكاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ السَّارِقِ وَأَمَّا هُمْ فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا
 وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا
 أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ
 ﴿٢٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ
 عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ
 لَا يَخِرُّكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ
 قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ
 هَادُوا اسْتَمْعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعُوكَ سَمِعُوا لِقَوْمٍ
 آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَخْرُفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ
 يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا
 وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ. وَمِنَ اللَّهِ شَيْعًا
 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي
 الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾

فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ
 ○ إِنَّمَا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورًا يُحْكِمُ فِيهَا الْيَتِيمُونَ الَّذِينَ
 اسْتَسْلَمُوا لِلَّهِ هَادُوا وَالزَّكِّيُّونَ وَالْأَجْبَارُ يَمَّا اسْتَسْقَطُوا مِنْ كِتَابِ
 اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَالْخَسْفَ وَلَا
 تَنْتَرَوْا بِكَاتِبَيْكُمْ شَيْئًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ شِدَّةِ حَرْصِهِ عَلَى الْخَلْقِ يَشْتَدُّ
 حَزَنُهُ لِمَنْ يَظْهَرُ الْإِيمَانَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْكُفْرِ. فَأَرْشَدَهُ اللَّهُ
 تَعَالَى، إِلَى أَنَّهُ لَا يَأْسَى وَلَا يَحْزَنُ عَلَى أُمَمٍ هُولَاءِ. فَإِنْ
 هُولَاءِ لَا فِي الْعِيرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ. إِنْ حَضَرُوا لَمْ يَنْفَعُوا، وَإِنْ
 غَابُوا لَمْ يَفْقَدُوا.

ولهذا قال ميبًا للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم فقال:
 ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ فإن
 الذين ^(١) يؤسَى ويحزن عليهم، مَنْ كَانَ مَعْدُودًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،
 وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وحاشا لله، أَنْ يَرْجِعَ هُولَاءِ عَنْ دِينِهِمْ وَيَرْتَدُّوا، فَإِنْ

مِنْهَا: الْحَرْزُ، فَإِنَّهُ لَا يَدَّ أَنْ تَكُونَ السَّرِقَةُ مِنْ حَرْزٍ، وَحَرْزُ
 كُلِّ مَالٍ: مَا يَحْفَظُ بِهِ عَادَةً. فَلَوْ سَرَقَ مِنْ غَيْرِ حَرْزٍ فَلَا قَطْعَ
 عَلَيْهِ.

ومنها: أَنَّهُ لَا يَدَّ أَنْ يَكُونَ الْمَسْرُوقُ نَصَابًا، وَهُوَ رِبْعُ
 دِينَارٍ، أَوْ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمٍ، أَوْ مَا يَسَاوِي أَحَدَهُمَا. فَلَوْ سَرَقَ دُونَ
 ذَلِكَ فَلَا قَطْعَ عَلَيْهِ.

ولعلَّ هَذَا يُؤْخَذُ مِنْ لَفْظِ السَّرِقَةِ وَمَعْنَاهَا. فَإِنْ لَفْظُ
 «السَّرِقَةُ» أَخَذَ الشَّيْءَ عَلَى وَجْهِ لَا يُمْكِنُ الْإِحْتِرَازُ مِنْهُ. وَذَلِكَ
 أَنْ يَكُونَ الْمَالُ مُحَرَّزًا. فَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُحَرَّزٍ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ سَرِقَةً
 شَرْعِيَّةً.

وَمِنَ الْحِكْمَةِ أَيْضًا أَنْ لَا تَقْطَعَ الْيَدُ فِي الشَّيْءِ النَّزَرِ النَّافِةِ.
 فَلَمَّا كَانَ لَا يَدَّ مِنَ التَّقْدِيرِ، كَانَ التَّقْدِيرُ الشَّرْعِيُّ مَخْصَصًا
 لِلْكِتَابِ.

وَالْحِكْمَةُ فِي قَطْعِ الْيَدِ فِي السَّرِقَةِ، أَنْ ذَلِكَ حِفْظٌ لِلْأَمْوَالِ،
 وَاجْتِنَابٌ لَهَا، وَلِبْقَاطِ الْعَضْوِ الَّذِي صَدَرَتْ مِنْهُ الْجَنَابَةُ. فَإِنْ
 عَادَ السَّارِقُ قَطَعْتَ رِجْلَهُ الْيَسْرَى. فَإِنْ عَادَ، فَقِيلَ: تَقْطَعُ يَدَهُ
 الْيَسْرَى، ثُمَّ رِجْلَهُ الْيَمْنَى، وَقِيلَ: يَحْبِسُ حَتَّى يَمُوتَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿جِزَاءً بِمَا كَسَبَ﴾ أَيُّ: ذَلِكَ الْقَطْعُ جِزَاءً لِلْسَّارِقِ
 بِمَا سَرَقَ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ.

﴿كَكَلَّا يَنْ أَوُّهُ﴾ أَيُّ: تَنْكِيلًا وَتَرْهِيبًا لِلْسَّارِقِ وَلِغَيْرِهِ،
 لِيَرْتَدَعَ السَّرَاقَ - إِذَا عَلِمُوا - أَنَّهُمْ سَيَقْطَعُونَ إِذَا سَرَقُوا.

﴿وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ: عَزَّ وَحَكَمَ فَقَطَعَ السَّارِقَ.
 ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَيَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ فَتَرَكَ الذَّنْبَ، وَأَصْلَحَ الْأَعْمَالِ
 وَالْعُيُوبِ. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ^(١) مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَتَصَرَّفُ
 فِيهَا بِمَا شَاءَ مِنَ التَّصَارُفِ الْقَدِيرَةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، وَالْمَغْفِرَةِ
 وَالْعَقُوبَةِ، بِحَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حُكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ الْوَاسِعَةُ
 وَمَغْفِرَتُهُ.

(٤١-٤٤) ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَخِرُّكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي
 الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ
 الَّذِينَ هَادُوا اسْتَمْعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعُوكَ سَمِعُوا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ
 يَخْرُفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ
 وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ
 اللَّهِ شَيْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي
 الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ سَمِعُوا
 لِلْكَذِبِ أَصْغَلُوا لِلشَّيْءِ فَإِنْ جَاءَكَ فَكَلِّمْهُمْ بِبَيِّنَاتٍ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ
 وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَلِّمْهُمْ بِبَيِّنَاتٍ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
 بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ○ وَكَفَى بِحُكْمِكُمْ وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ

(١) فِي: ب: اللَّهُ. (٢) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: الَّذِي.

﴿وَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأنت مخير في ذلك. وليست هذه منسوخة، فإنه - عند تحاكم هذا الصنف إليه - يخير بين أن يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم بينهم، بسبب أنه لا قصد لهم في الحكم الشرعي، إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم.

وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم، يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض، لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم. فإن حكم بينهم وجب أن يحكم بالقسط، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرَّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء، فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم.

وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه.

ثم قال متعجباً لهم^(١): ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَيَعْدُّهُ التَّوْرَةَ بَيْنَاكُمْ اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم - لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه - لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم، لعلمهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم.

وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضاً، لم يرضوا بذلك، بل عرضوا عنه، فلم يرتضوه أيضاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ الَّذِينَ هَذَا صَنِيعُهُمْ﴾ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين بالإيمان. لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم.

﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿بَيْنَا هَذَيْنِ﴾ يهدي إلى الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة ﴿وَوُفَّوْا﴾ يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك، والشبهات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَبَيَّنَّا وَرُكُوزَ اللَّامِنِينَ﴾.

﴿يَحْكُمُ بَيْنَا﴾ بين الذين هادوا، أي: اليهود في القضايا والقناوى ﴿الَّتِي بَيْنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ لله، وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد.

فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام، قد اقتدوا بها واتموا ومشوا خلفها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود، من الاقتداء بها؟ ما الذي أوجب لهم أن ينبذوا أشرف

الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يبع به بدلاً.

﴿وَمَنْ أَلَّيْنِ هَٰذَا﴾ أي: اليهود ﴿سَمِعْتُمْ لِكُذِّبٍ سَمِعْتُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأُولَئِكَ﴾ أي: مستجيون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغي. وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿لَمْ يَأُولَئِكَ﴾ بل عرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل، وهو تحريف الكلم عن مواضعه، أي جلب معاني للألفاظ، ما أرادها الله ولا قصدها، لإضلال الخلق، ولدفع الحق. فهؤلاء المنافقون للدعاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا همم. فلا تبال أيضاً إذا لم يتبعوك، لأنهم في غاية النقص، والناقص لا يؤبه له، ولا يبالى به.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: هذا قولهم عند محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلا اتباع الهوى.

يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق أهواءكم، فاقبلوا حكمه. وإن لم يحكم لكم به، فاحذروا أن تتابعوه على ذلك. وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس.

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَوْبَهُمْ﴾ أي: فلذلك صدر منهم ما صدر. فدل ذلك على أن من كان مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعي، اتباع هواه، وأنه إن حكم له رضي، وإن لم يحكم له سخط، فإن ذلك من عدم طهارة قلبه. كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع، ورضي به، وافق هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب. ودل على أن طهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو النار وسخط الجبار.

﴿سَمِعْتُمْ لِكُذِّبٍ﴾ والسمع ههنا، سمع استجابة أي: من قلة دينهم وعقلهم، أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب.

﴿أَسْكَاوُ لِلْشَّحِّ﴾ أي: المال الحرام، بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم من المعلومات والرواتب التي بغير الحق. فجمعوا بين اتباع الكذب، وأكل الحرام.

سورة المائدة

١١٥

سورة المائدة

سَكَنُوا لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءَهُمْ
فَأَحْكَمُ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ
يَضُرَّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١١٥﴾ وَكَفَىٰ بِحُكْمِكَ وَعِندَهُمُ
التَّوْرَةُ فِيهَا حَكْمُ اللَّهِ ثُمَّ تَوَلَّوْا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أَوْلَيْتُكَ يَا مُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ
اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ
وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ
فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ
بِالْأَنفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ
فِصَاصَ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ
لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١٨﴾

المال على فتاويه، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة.

فهذا قد مرَّ الله عليه بمنة عظيمة، كفرها، ودفع خطأً
جسيماً، محروماً منه غيره. فنسألك اللهم علماً نافعاً، وعملاً
مقبلاً، وأن ترزقنا العفو والعافية، من كل بلاء يا كريم.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الحق المبين، وحكم
بالباطل الذي يعلمه، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر،
وقد يكون كفرًا ينقل عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه.
وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر، قد
استحق من فعله العذاب الشديد.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ
وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ فِصَاصَ
فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي
في التوراة، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا،

(١) في الأصل: (فتكتمون الحق وتظهرون الباطل) ولعل الصواب ما
أثبت. (٢) في: ب. بما.

ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، الذي لا يقبل عمل ظاهر
وباطن، إلا بتلك العقيدة؟ هل لهم إمام في ذلك؟ نعم لهم
أئمة دأبهم التحريف، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس،
والتأكل بكتمان الحق، وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال
الذين يدعون إلى النار.

وقوله: ﴿وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي: وكذلك يحكم بالتوراة
للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين أي: العلماء العاملين
المعلمين، الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم
مسلك الأنبياء المشفقين.

والأحبار أي: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم،
وترقى آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم.

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا
مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي: بسبب أن الله
استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة
عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان،
وتعليمه لمن لا يعلمه.

وهم شهداء عليه، بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما
اشتباه على الناس منه. فالله تعالى قد حمل أهل العلم ما لم
يحملة الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا. وأن لا
يقتدوا بالجهال، بالإخلاد إلى البطالة والكسل. وأن لا
يقتصر على مجرد العبادات القاصرة، من أنواع الذكر،
والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأمور
التي إذا قام بها غير أهل العلم، سلموا ونجوا.

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم
أنفسهم، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهم على ما
يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصاً الأمور الأصولية،
والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم،
ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخُشُوا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي
ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فتكتموا الحق، وتظهروا الباطل، لأجل متاع
الدنيا القليل. وهذه الآفات إذا سلم منها العالم، فهو من
توفيقه، وسعادته، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم،
ويعلم أن الله قد استحفظه ما^(١) أودعه من العلم، واستشهد
عليه، وأن يكون خائفًا من ربه، ولا يمنعه خوف الناس
وخشيته من القيام بما هو لازم له. وأن لا يؤثر الدنيا على
الدين.

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلصًا للبطالة، غير
قائم بما أمر به، ولا مبال بما استحفظ عليه. قد أهمله
وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ

والرأبانيون والأخبار: إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس - إذا قُتِلَت - تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة. والعين تقلع بالعين، والأذن تؤخذ بالأذن، والسن ينزع بالسن. ومثل هذه ما أشبهها، من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف.

﴿وَالْجُرُوحُ قُصَاصٌ﴾ والاقتصاص: أن يُفعل به كما فعل.
فَقَدْ جرح غيره عمداً، اقتص من الجارح جرحاً مثل جرحه
للمجروح، حداً، وموضعاً، وطولاً، وعرضاً وعمقاً. ولتعلم
أن شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه.

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي: بالقصاص، في النفس وما دونها من الأطراف والجروح، بأن عفا عنم جنى، وثبت له الحق قبله.

﴿هُوَ كَذَّابٌ أَزْمَنُ﴾ أي: كفاة للجاني، لأن الآدمي عفا عن حقه. والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه. وكفاة أيضاً عن العافي، فإنه كما عفا عن جنى عليه، أو على من يتعلّق به، فإن الله يعفو عن ذلّاته وجنّاباته.

﴿وَمَنْ لَوْ يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس، كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. فهو ظلم أكبر، عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له.

(٤٦، ٤٧) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى الْمَرْجِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِنَّهُ لَإِخْبِيلٌ فِيهِ هُكُّ وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْجِزَاتٍ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ أَرَادَ بِحُكْمِ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ النَّاصِرُونَ﴾ أي: بعددنا ورسولنا عيسى ابن مريم، روح الله وكلته التي ألقاها إلى مريم. بعثه الله مصدقاً لما بين يديه من التوراة، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة، بالحق والصدق، ومؤيد للدعوة، وحاكم بشريعتين، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية.

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام،
كما قال تعالى عنه أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَا جِدْلَ لَكُمْ بَعْضُ
الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَمَا يَنْتَهِ إِلَّا بِغَيْرِ﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة ﴿فِيهِ﴾ هُدًى وَبُورٌ يَهْدِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيُبَيِّنُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ بِشَتِيَّتِهَا وَالشَّهَادَةِ لَهَا وَالْمُؤَافَقَةِ ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِالْهُدَى، وَيَتَّقُونَ بِالْمَوْعِظِ، وَيُرْتَدُّونَ عَمَّا لَا يَلِيقُ.

وَقَفَيْنَا عَلَىٰ آخِرِهِمْ بَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَةِ وَمَأْتِيَتْهُ الْإِنجِيلُ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ وَلَبَّحَهُ
أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّهُ بِحُكْمِ بَإِ أُنزِلَ
اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا
عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ
عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
ءَاتَكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فِيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُم بِمَا
أُنزِلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ
بَعْضِ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ ابْدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ
بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَفَحُكْمَ
الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابتهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَعْصِمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَالْكَلْبُ كُفٌّ الْقَائِمُونَ﴾.

(٤٨-٥٠) ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الْوَاحِدَ مَصُونًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَهُ مِنَ الْحَقِّ يَكْفِي جَسَلًا يَكْتُمُ شِرْعَةً وَمُهَاجَا وَلَوْ أَنَّهُ لَعَالِمُكُمْ أَنَّهٗ وَجِدَهُ وَلَكِنْ لَّبِئْسَ لَكُمْ بِمَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَقْبُوا الْخَيْرَ فَإِنِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلَّلْتُمْ ۝ وَإِنِ أَهْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ فَرَبِّصْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۚ إِنَّ تَوَلَّوْا قَاتَلْتُمُ النَّارَ رُبُّهُ أَنَّ يُضِيعَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِّنَ النَّاسِ لَقَدْ فَتَنُوكُم بَلَّغْتُمْ إِلَىٰ الْفِتْنَةِ يَوْمًا وَمِنَ احْسَنِ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا يُقَوِّمُ يَوْمَهُ ۚ﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: إنزالاً بالحق، ومشتقلاً على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ لأنه شهد لها، ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه لكبار شرائعها. وأخبرت به فصار وجوده مصداقاً لخبرها.

الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيء.

﴿وَأَن آخُذَكُمْ بَينَهُمْ يَمَّا أَزَلَّ اللَّهُ﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فَأَحْكُم بَينَهُمْ أَوْ أَرْعِضْ عَنْهُمْ﴾ والصحيح أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ مخير بين الحكم بينهم، وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة. وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَينَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده. وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿وَأَعِزُّهُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: يفتنوك عن بَينَ مَا أَزَلَّ اللَّهُ إِلَيْكَ أي: إياك والاعتزاز بهم، وأن يقتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب والفرض اتباعه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فَاعْلَمْ﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أَن يُبَيِّنَ بَينَهُمْ دُؤُوبَهُمْ﴾ فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يتولى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لنفسه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي: طبعهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿فَأَحْكُم بَينَهُمْ بِتَوَلَّوْاْ﴾ أي: أفيظلون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية. وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل، والقسط، والنور، والهدى.

﴿وَمَن أَحْسَنُ بِنِ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾ فالموقف هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويعمي - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين: هو العلم التام الموجب للعمل.

(٥١-٥٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ فَتَهْتَكُوا آيَاتِ اللَّهِ إِنَّكُمْ كُنتُمْ فِيهِ تُهْتَكُونَ﴾ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّوْاْ بَينَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

﴿وَمُهَيِّئَا عَلَيْهِ﴾ أي: مستملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين. وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.

﴿فَاتَّخِذْهُم بِينَهُمْ يَمَّا أَزَلَّ اللَّهُ﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق، بدلاً عما جاءك من الحق، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لِكُلِّ جَمْعًا بَينَهُمْ﴾ أيها الأمم جعلنا ﴿يُزَعَّةً وَمِهْجَةً﴾ أي: سيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها. وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ اللَّهَ لِحُبْلَاكُمْ إِنَّهُ وَحْدَهُ﴾ تبعاً لشرعية واحدة، لا يختلف متأخروها ولا [مقدمها].

﴿وَلَكِن يَتَّبِعُونَكَ فِي مَا ءَاثَمَكُمُ﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويتبلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم. فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبِعُواْ الْفَيْزَ﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره، مستولياً على الأمر، إلا بأمرين:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها، وعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة. بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات التي يقدر عليها لشم وتكمل، ويحصل بها سبق.

﴿إِلَّا اللَّهُ مَرِجُكُمْ جَمِيعًا﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا رب فيه ﴿فَيَقْضِيْكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَفْعَلُونَ﴾ من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل

يَقُولُ يُحْيِيهِمْ وَيُخَيِّطُهُمْ أَوْلَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزُّ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فإني يضرب الله شيئاً، وإنما يضرب نفسه، وأن الله عبادة مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهاديهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقوامهم نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله ﴿يُحْيِيهِمْ وَيُخَيِّطُهُمْ﴾ فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمناقب الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

كما أن من لازم^(١) محبة الله للعبد أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال [عبيدي] يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذه».

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه السير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أَوْلَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزُّ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم، وعلى الكافرين بالله، المعاندين لأياته، المكذبين لرسوله - أعزة قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِمُوهُمْ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ مَحْمَاتًا مِنْكُمْ﴾ فالغلظة

القلوبية ○ قَتَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسُوعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ قُتِيينَا دَارَهُ فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ الْفَتْحُ أَوْ أَتَى مِنْ عَدُوٍّ فَيُصِيبُوا عَلَى مَا أُشْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَكْرِيبٌ ○ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَتُؤَلَّفُ الْإِنْسَانُ أَتَسْمُو بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَنْفُسُهُمْ فَاقْبَلُوهَا خَيْرِينَ ○ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين يبين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يداً على من سواهم. فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة. ولا يبالون بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْهُمْ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون. فلو جتهدت بكل آية ما تبعوك، ولا اتقادوا لك. ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن ممن يدعي الإيمان، طائفة تواليهم، فقال: ﴿قَتَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة فإننا ﴿نَحْنُ قُتِيينَا دَارَهُ﴾ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافئوننا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - راداً لظنهم السيء -: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ الْفَتْحُ﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويفقهمهم المسلمون ﴿أَوْ أَتَى مِنْ عَدُوٍّ﴾ يئاس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم، ﴿فَيُصِيبُوا عَلَى مَا أُشْرُوا﴾ أي: أضمرنا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ تَكْرِيبٌ﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليهم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أَتُؤَلَّفُ الْإِنْسَانُ أَتَسْمُو بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والمواودة. ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً، فبطل كيدهم وبطلت ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَاقْبَلُوهَا خَيْرِينَ﴾ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

(٥٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّاهُمْ فَإِنَّهُ يَتَوَلَّاهُمْ بَعْدَ الْقَوْلِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ قَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ وَأَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِعُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِيَّاهُمْ كَحِمَّةٍ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا لِلَّهِ ثَلَاثُونَ أُسْمًا وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ دِينًا وَلَكِنَّمَا هُمُ الدِّينُ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أَوْلِيَاءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ هُمُ كُفَرُؤُنِمْ

ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا جُنْدًا لَهُمُ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله، وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة. وإن أدبل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريدها الله تعالى، فأخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قولا.

(٥٨، ٥٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ دِينًا وَلَكِنَّمَا هُمُ الدِّينُ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أَوْلِيَاءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ هُمُ كُفَرُؤُنِمْ﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَكِنَّمَا هُمُ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء، يحبونهم، ويتولونهم، ويدعون لهم^(١) أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض

(١) كذا في ب، وفي أ: ويدعون إليهم.

والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالنبي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللاتمين، وتفتقر قوته عند عدل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات الجليلة، والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخير أن هذا من فضله عليهم وإحسانه، لتلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليهم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

(٥٦، ٥٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّاهُمْ بَعْدَ الْقَوْلِ الظَّالِمِينَ﴾ لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

وقوله: ﴿وَعَمَّ زَكَاةً﴾ أي: خاضعون لله ذليلون، فائدة الحصر في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَبَّاءَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ يَا هَلْ أَلْكَبْتُمْ هَلْ تَقِمْوْنَ مِنَّا لَا أَسْمَأُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْذَرُكُمْ نَسِيتُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ مُثَوِّبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَائِرَ وَعَبْدَ الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦١﴾ وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ عَاطِمُهُمُ كَانُوا يَكْشُونَ ﴿٦٢﴾ وَرَأَى كَثِيرٌ مِّنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْبَهُهُمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَلْهَمَهُمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٤﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدُ اللَّهِ مَبْسُوطَةٌ يَتَّقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَنْ يَزِيدَ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طَافِينَ وَكَفَرُوا أَلْفَيْتَا بَيْنَهُمُ الْعُدُوةَ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَقْدَمُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٥﴾

أمرهم، التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم على معاداتهم. وكذلك التزامهم لتقوى الله، التي هي امتثال أوامره، واجتناب زواجره مما تدعوهم إلى معاداتهم.

وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هُزُوعًا ولَبَّاءَ، واحتقاره واستصغاره، خصوصًا الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم.

إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هُزُوعًا ولَبَّاءَ، وذلك لعدم عقلهم، ولجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تنصف بها النفوس.

فإذا علمتم - أيها المؤمنون! حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم - فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه، أو قدح بالكفر والفضائل، وأنه ليس عنده من العروة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا، وأنه الدين الحق؛ وما سواه باطل، وترضى بموالاة من اتخذ هُزُوعًا ولَبَّاءَ، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحق؟ وهذا فيه من التهييج على عداوتهم، ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

(٥٩-٦٣) ﴿قُلْ يَهْدِي اللَّهُ الْكَلْبَ هَلْ تَقِمْوْنَ مِنَّا إِلَّا أَنَا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْذَرُكُمْ نَسِيتُونَ﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ مُثَوِّبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَائِرَ وَعَبْدَ الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ عَاطِمُهُمُ كَانُوا يَكْشُونَ ﴿٦١﴾ وَرَأَى كَثِيرٌ مِّنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْبَهُهُمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَلْهَمَهُمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ: ﴿يَهْدِي اللَّهُ الْكَلْبَ﴾ ملزمًا لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدحهم فيه قدح بأمر ينبغي المدح عليه: ﴿هَلْ تَقِمْوْنَ مِنَّا إِلَّا أَنَا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْذَرُكُمْ نَسِيتُونَ﴾ أي: هل لنا عندهم من العيب إلا إيماننا بالله، وكتبه السابقة واللاحقة، وبأبنيائه المقدمين والمتأخرين، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان، فإنه كافر فاسق؟ فهل تقمونها منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين!!

ومع هذا فأكثرهم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله، متجربون على معاصيه، فأولى لكم - أيها الفاسقون -

السكوت، فلو كان عيبكم، وأنتم سالمون من الفسق - وبهيات ذلك - لكان الشر أخف من قدحكم فينا مع فسقكم. ولما كان قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم، مخبرًا عن شناعة ما كانوا عليه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ﴾ الذي تقسم فيه علينا، مع التنزل معكم ﴿مِّنْ لَعْنَةِ اللَّهِ﴾ أي: أبعد عن رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَائِرَ وَعَبْدَ الظُّلُمَاتِ﴾ وهو الشيطان، وكل ما عُهِدَ من دون الله فهو طاغوت.

﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم، وأثابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين، وهذا النوع من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه، وكذلك قوله: ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: وأبعد عن قصد السبيل. ﴿وَإِذَا يَلْعَنُكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقًا ومكرًا ﴿وَهُمْ قَدْ دَخَلُوا﴾ مشتملين على الكفر ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء،

وأقبح حالاً منهم ١١٩

﴿وَأَنَّهُ أَغْلَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم، خيرها وشرها.

ثم استمر تعالى يعدد معاصيهم، انتصاراً لقدحهم في عباده المؤمنين، فقال: ﴿وَرَبَّىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ﴿يَسْتَكْبِرُونَ فِي آلِهَتِهِمُ وَالْعُدْدَةِ﴾ أي: يحرصون، ويادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين.

﴿وَأَكْبَهُهُ أَشْحَثُ﴾ الذي هو الحرام، فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم، هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهذا في غاية الذم لهم، والقدح فيهم. ﴿قَوْلًا يَتَّبِعُهُمُ الرِّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِنَّمَا وَأَكْبَهُهُ أَشْحَثُ﴾ أي: هلا ينهاتهم العلماء المتصدون لنفع الناس، الذين مرَّ الله عليهم بالعلم والحكمة - عن المعاصي التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم.

فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيتهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبونهم في الخير ويرهبونهم من الشر ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

(٦٤-٦٦) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُبَدِّلُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَنَرِيْدَكَ كَثِيرًا مِّنْهُمْ تَا أَرْبِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ طُفْنًا وَكُفْرًا وَالْقَسَتْ بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَعْصَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْحِكْمِ سَمِعُوا وَقَالُوا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَكَلَّهْنَا عَنْ جَنَّتِ النَّارِ ٦ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا الذِّكْرَ وَالْإِذْنَ وَمَا أَرْبِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْبَلُوا مِنْ تَوْبِهِمْ ذِينَ عَنِتُّوا لَكُنْهُمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يخبر تعالى عن مقالة اليهود الشيعة، وعقيدتهم الفظيعة، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: عن الخير والإحسان، والبر.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهذا دعاء عليهم بجنس مقاتلتهم، فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم بالبخل وعدم الإحسان، فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقاً عليهم.

فكانوا أبخل الناس، وأقلهم إحساناً، وأسوأهم ظناً بالله، وأبعدهم الله عن رحمته التي وسعت كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي، ولهذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُبَدِّلُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لا حجر عليه، ولا مانع يمنعه مما أراد، فإنه تعالى قد بسط فضله، وإحسانه الديني والدنيوي، وأمر العباد أن

يتعرضوا لنفحات جوده، وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم.

فبداء^(١) سبحانه الليل والنهار، وخيره في جميع الأوقات مدرار، يفرج كرباً، ويزيل غماً، ويغني فقيراً، ويفك أسيراً، ويجبر كسيراً، ويجيب سائلاً، ويعطي فقيراً عائلاً، ويجيب المضطرين، ويستجيب للساائلين، وينعم على مَنْ لم يسأله، ويعافي من طلب العافية، ولا يحرم من خيره عاصياً، بل خيره يرتع فيه البر والفاجر، ويوجد على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال، ثم يحمدهم عليها، ويضيفها إليهم، وهي من جوده ويثيبهم عليها من الثواب العاجل والأجل ما لا يدركه الوصف، ولا يخطر على بال العبد، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه، فسبحان مَنْ كل النعم التي بالعباد فمه، وإليه يجأرون في دفع المكارة، وتبارك مَنْ لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وتعالى مَنْ لا يخلو العباد من كرمه طريقة عين، بل لا وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده.

وقبح الله مَنْ استغنى بجهله عن ربه، ونسب إلى ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة، ونحروهم ممن حاله كحالهم، يبيع قلوبهم، لهلكوا، وشقوا في دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم، ويصفح، ويمهلهم، ولا يهملهم.

وقوله: ﴿وَلَنَرِيْدَكَ كَثِيرًا مِّنْهُمْ تَا أَرْبِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ طُفْنًا وَكُفْرًا﴾ وهذا أعظم العقوبات على العبد^(٢)، أن يكون الذكر الذي أنزله الله على رسوله، الذي فيه حياة القلب والروح، وسعادة الدنيا والآخرة، وفلاح الدارين، الذي هو أكبر منة امتن الله بها على عباده، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها، والاستسلام لله بها، وشكراً لله عليها، أن تكون لمثل هذا زيادة غي إلى غيه، وطغيان إلى طغيانه، وكفر إلى كفره، وذلك بسبب إغراضه عنها، ورده لها، ومعاندته إياها، ومعارضته لها بالشبه الباطلة.

﴿وَالْقَسَتْ بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَعْصَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فلا يتألفون، ولا يتناصرون، ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم، متعادين بأفعالهم إلى يوم القيامة.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَبِكِدُوا بِهَا الْإِسْلَامَ وَاهْلَ،

(١) في ب: فیده. (٢) في ب: وهذا أعظم من العقوبات على العبد.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا نَعْتِمُهُمْ سِعَةً ۖ وَلَآ ذُلٌّ لَّهُمْ جَنَّاتٍ نَّعِيمٍ ﴿٦٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا

الْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَنَحْنُ أَزْلُهُمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ۖ يَأْتِيَا الرُّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَئِيذٌ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِرُونَ مِّنَ ءُمَّةٍ بِلِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي: فما امتثل أمره.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يشيك عنه خوف من المخلوقين؛ فإن نواصيهم بيد الله، وقد تكفل بعصمتك، فانت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى فلسفه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم، ولا يوفقهم للخير بسبب كفرهم.

(٦٨) ﴿قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَئِيذٌ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قل لأهل الكتاب منادياً على ضلالهم، ومعلناً بباطلهم: ﴿لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد أمتمم، ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم، ولا بحق تمسكتم، ولا على

وأبدوا، وأعادوا، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم ﴿لَقَدْ عَلِمَا اللَّهُ﴾ بخذلانهم، وتفرق جنودهم، وانتصار المسلمين عليهم.

﴿وَيَسْتَعِزُّ فِي الْأَرْضِ فُسَادًا﴾ أي: يجتهدون ويجدون، ولكن بالفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إلى دينهم الباطل، والتعويق عن الدخول في الإسلام.

﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، ويسبوازيهم على ذلك.

[ثم قال تعالى]: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا نَعْتِمُهُمْ سِعَةً ۖ وَلَآ ذُلٌّ لَّهُمْ جَنَّاتٍ نَّعِيمٍ﴾ وهذا من كرمه وجوده، حيث لما ذكر قبائح أهل الكتاب ومعاصيهم، وأقوالهم الباطلة، دعاهم إلى التوبة، وأنهم لو آمنوا بالله وملأته جميع كتبه، وجميع رسله، واتقوا المعاصي، لكثر عنهم سيناتهم، ولو كانت ما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم، التي فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: قاموا بأوامرهما ونواهيهما، كما نذبهم الله وحنهم، ومن إقامتهما الإيمان بما [دعوا] (١) إليه، من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربهم إليهم، أي: لأجلهم وللاعتناء بهم ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَنَحْنُ أَزْلُهُمْ﴾ أي: لأدرك الله عليهم الرزق، ولأمطر عليهم السماء، وأثبت لهم الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿يُنْهَكُم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل، عملاً غير قوي ولا نشيط ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: والسمي منهم الكثير، وأما السابقون منهم، فقليل ما هم.

(٦٧) ﴿يَأْتِيَا الرُّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ، بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ، من العقائد، والأعمال، والأقوال، والأحكام الشرعية، والمطالب الإلهية، فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا، وأنذر، وبشر، وستر، وعلم الجهال الأميين، حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ، بقوله، وفعله، وكتبه، وورسله.

فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهما عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين، ورجال المسلمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٠

سُورَةُ

يَتُوبُونَ إِلَيَّ إِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيَّ وَيَرْضَاهُ مَنْ
 الْإِقْرَارُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَبِأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ - عَمَّا كَانُوا
 يَقُولُونَهُ، ﴿يَسْتَفْتِرُونَكَ﴾ عَنْ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
 أَي: يَغْفِرُ ذُنُوبَ التَّائِبِينَ، وَلَوْ بَلَّغْتَ عَنَانَ السَّمَاءِ، وَيَرْحَمُهُمْ
 بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ، وَتَبْدِيلِ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ.
 وَصَدَرَ دَعْوَتُهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ بِالْعَرْضِ الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ
 اللَّطْفِ وَاللِّينِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّا لَا يَتُوبُونَ إِلَيَّ إِلَّا﴾
 ثُمَّ ذَكَرَ حَقِيقَةَ الْمَسِيحِ وَأَمَّهُ، الَّذِي هُوَ الْحَقُّ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ
 الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَي: هَذَا
 غَايَتُهُ، وَمُنْتَهَى أَمْرُهُ، أَنَّهُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ، الَّذِينَ
 لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ، وَلَا مِنَ التَّشْرِيعِ، إِلَّا مَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ اللَّهُ،
 وَهُوَ مِنْ جِنْسِ الرُّسُلِ قَبْلَهُ، لَا مَزِيَّةَ لَهُ عَلَيْهِمْ، تَخْرِجُهُ عَنْ
 الْبَشَرَةِ إِلَى مَرْتَبَةِ الرُّبُوبِيَّةِ.
 ﴿وَأَنَّهُ﴾ مَرْيَمَ ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ أَي: هَذَا أَيْضًا غَايَتُهَا، أَنَّ
 كَانَتْ مِنَ الصَّدِيقِينَ، الَّذِينَ هُمْ أَعْلَى الْخَلْقِ رَتَبَةً بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ،
 وَالصَّدِيقِيَّةُ، هِيَ: الْعِلْمُ النَّافِعُ الْمُشْتَرِكُ لِلْبَقِيَّةِ، وَالْعَمَلُ
 الصَّالِحُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَرْيَمَ لَمْ تَكُنْ نَبِيَّةً، بَلْ أَعْلَى
 أَحْوَالِهَا الصَّدِيقِيَّةُ، وَكَفَى بِذَلِكَ فَضْلًا وَشَرَفًا.
 وَكَذَلِكَ سَائِرُ النِّسَاءِ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُنَّ نَبِيَّةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
 جَعَلَ النُّبُوَّةَ فِي أَكْمَلِ الصَّنَفِينَ، فِي الرِّجَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ﴾.

فَإِذَا كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ جِنْسِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ
 قَبْلِهِ، وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ، فَلَا يَشِيءُ اتِّخَاذُهُمَا النَّصَارَى إِلَهَيْنِ مَعَ
 الْإِسْلَامِ؟
 وَقَوْلُهُ: ﴿كَعَنَّا أَكْثَرًا أَطْلَعَكُمُ﴾ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى أَنَّهُمَا
 عَبْدَانِ فَقِيرَانِ، مُحْتَاجَانِ كَمَا يَحْتَاجُ بَنُو آدَمَ إِلَى الطَّعَامِ
 وَالشَّرَابِ، فَلَوْ كَانَا إِلَهَيْنِ لَاسْتَعْنَا عَنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَمْ
 يَحْتَاجَا إِلَى شَيْءٍ، فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.
 وَلَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى الْبِرْهَانَ قَالَ: ﴿أَنظُرْ كَيْفَ بُنِيتُ لَهُمُ
 الْآيَاتِ﴾ الْمَوْضُوعَةُ لِلْحَقِّ، الْكَاشِفَةُ لِلْيَقِينِ، وَمَعَ هَذَا لَا نَقِيدُ
 فِيهِمْ شَيْئًا، بَلْ لَا يَزَالُونَ عَلَى إِفْكَهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ،
 وَذَلِكَ ظُلْمٌ وَعِتَادٌ مِنْهُمْ.
 (٧٦) ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا
 نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ أَبْهَى الرُّسُولِ:
 ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ الْفُقَرَاءَ الْمُحْتَاجِينَ
 مِنْ ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وَتَدْعُونَ مِنْ أَفْرَدٍ بِالضَّرِّ
 وَالنَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ.
 ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِجَمِيعِ الْأَصْوَاتِ بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ

عَلَى تَفَنُّنِ الْحَاجَاتِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالْغَيْبِ
 وَالشَّهَادَةِ، وَالْأُمُورِ الْحَاضِرَةِ وَالْمُسْتَقْبَلَةِ فَالْكَامِلُ تَعَالَى الَّذِي
 هَذِهِ أَرْصَافُهُ، هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يَفْرَدَ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ،
 وَيُخْلِصَ لَهُ الدِّينَ.

(٧٧-٨١) ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي رِيبِكُمْ غَيْرَ
 الْهَبْنِ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَنسَلُوا كَثِيرًا
 وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝ لَيْسَ إِلَٰهٌ إِلَّا اللَّهُ ۝ كَفَرُوا بِمَا بَوَّأَ
 لِإِسْرَٰئِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا
 وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَبَّأُونَ عَنْ مَنكَرٍ قَعْلَهُ
 لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ كَرِهَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنْ يَبَٰرَكُوا
 إِلَٰهَيْنَ كَفَرُوا لَٰكِنْ مَا قَدَّمَتْ أُنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 وَفِي السَّكَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِإِلَٰهِ وَالنَّبِيِّ
 وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
 فَسَقُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا
 فِي رِيبِكُمْ غَيْرَ الْهَبْنِ﴾ أَي: لَا تَتَجَاوَزُوا وَتَتَعَدُوا الْحَقَّ إِلَى
 الْبَاطِلِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ فِي الْمَسِيحِ مَا تَقَدَّمَ حَكَايَتُهُ عَنْهُمْ،
 وَكَقَوْلِهِمْ فِي بَعْضِ الْمَشَاطِيخِ، اتِّبَاعًا لِمَا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا

ين قَبْلُ أَي: تقدم ضلالهم.

﴿وَأَسْكَلُوا كَثِيرًا﴾ من الناس، بدعوتهم إياهم إلى الدين الذي هم عليه، ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والاضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم، وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندها ﴿ذَلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿يَا عَصَا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سببًا لكفرهم، وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثلاث، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضًا، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجبًا للعقوبة، لما فيه من المفساد العظيمة:

منها: أن مجرد السكوت فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على مَنْ فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم، أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أن ذلك يجري العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتتعظم المصيبة الدينية والدينية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدر على ما كانوا يقدر على أولًا.

ومنها: [أنه ترك] ^(١) الإنكار للمنكر يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالًا؟ وانقلاب الحقائق على النفوس وروية الباطل حقًا ١١٩

ومنها: أن بالسكوت ^(٢) على معصية العاصين ربما تزيت

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا اخْذَوْهُمْ أَوَّلَیَّةَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٨١﴾ تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَرَهْبَانٌ مِنْهُمْ لَفِ سَاطِعَاتٍ

المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالافتداء بأضراجه، وبني جنسه، ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كثر كثيرًا منهم يتولون الذين كفروا ﴿كَفَرُوا﴾ بالمحبة والموالة والنصرة.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ هذه البضاعة الكاسدة، والصفة الخاسرة. وهي: سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم. فقد ظلمتهم أنفسهم، حيث قدمت لهم هذا التزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم.

﴿لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَتَزَلَّ إِلَيْهِ مَا أَخْذَوْهُمْ أَوَّلَیَّةَ﴾ فإن الإيمان بالله وباليوم الآخر، وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالة ربه، وموالة أوليائه، ومعاداة مَنْ

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك. (٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء.

وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي ومن فسقهم موالاة أعداء الله، ثم قال تعالى:

(٨٢-٨١) ﴿لَنَجْذِبَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْهِمْ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشْرَكُوا وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْهِمْ
قَالُوا يَا نَجْدِيُّ دِالِكَ بَاءُ مِنْهُمْ قَيْنِييَ وَغَبَا وَأَنْهَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا فَاكْتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝
وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ
الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ۝ فَأَنْذَرَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَزِيدُوا أَصْحَابُ الْمَجِيمِ ۝

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم، ومحبتهم، وأبعدهم من ذلك: ﴿لَتَجِدَنَّ أُمَّدًا لِّأَنبِيَاءٍ عَادُوا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَهَيَّوْهُمُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معادة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغيًا وحسدًا وعنادًا وكفرًا.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَفْسُكُمْ﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب:

منها: أن ﴿يَنْهَهُمْ قَتِيلِينَ وَرَعْبًا﴾ أي: علماء
مترهدين، وعُبَادًا في الصوامع متعبدين، والعلم مع الزهد
وكذلك العبادة؛ مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه
من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة
المشركين.

ومنها: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو، عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقبهم من المسلمين، ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بحسب ما سمعوا من الحق الذي يقنوه، فلذلك آمنوا، وأقروا به فقالوا: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهم أمّة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة، وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب.

وهم عدول، شهادتهم مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

وَإِذْ أَسْمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الذِّمِّ مَعَافٍ وَمِنْ الْحَقِّ يَتْلُونَ رَبِّهَ أَمَّا فَاكُنْتُمْ مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَقُصُّهٗ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَأَنْبِئْهُمْ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٩٠﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَحْزَمُوا طِبَّتْ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِيَّاتِ اللَّهِ
لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٩١﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٩٢﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ
بِالْغُفْوِ أَنْ يَنْبَيْتَكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ
فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَمُوا عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا طَعَمْتُمْ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْهُمْ أَوْ خَرَجُوا رِيقَةً فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفْرَةُ أَنْبَيْتِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا
أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٩٣﴾

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٠٦﴾ فَكَانَهُم لَيْمُوا عَلَى إِيْمَانِهِمْ، ومَسَارِعَتُهُمْ فِيهِ، فَقَالُوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَنَقُتْعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رُسُلًا مَعَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أي: وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنّا واتبعنا الحق، طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأَيُّ مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجبا للمسارعة والانتقاد للإيمان، وعدم التخلف عنه؟

قال الله تعالى: ﴿فَأَنبِئْهُمْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا كَانُوا بِهِ عَمَلِينَ﴾ من الإيمان، ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿وَجَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالتجاشي وغيره، ممن آمن منهم.

وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركون إلى دين الإسلام.

ولما ذكر ثواب المحسنين ذكر عقاب المسيئين فقال:

﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ سَكِينٍ﴾.

وذلك الإطعام ﴿بِمَنْ أَوْسَطَ مَا تَقْلُمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمُ﴾^(١) أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فمضى فعل واحداً من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ واحداً من هذه الثلاثة ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةٌ لِمَنِيَّتِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ نكفرها، وتمحوها، وتمنع من الإثم.

﴿وَأَحْضَطُوا إِلَيْنَكُمْ﴾ عن الحلف بالله كاذباً، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلقت من الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير.

﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ مَا لَيْتِهِ﴾ المينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام ﴿لَمَّا لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله، حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

فعلى العباد، شكر الله تعالى على ما من به عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

(٩١، ٩٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالآلَتُمُ يَتَّبِعُنَّ مِنْ عَمَلِ الْبَشَرِ فَاتَّبِعُوهُنَّ لَتَكُنَّ لِلنَّفْسِ زِينًا وَلَا نَجَسًا وَلَا يَرْضَى اللَّهُ شَيْئًا مِنْهُنَّ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُونُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢) ﴿لَتَكُنَّ لِلنَّفْسِ زِينًا وَلَا نَجَسًا وَلَا يَرْضَى اللَّهُ شَيْئًا مِنْهُنَّ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُونُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخير أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ أي: اتركوها ﴿لَتَكُنَّ لِلنَّفْسِ زِينًا وَلَا نَجَسًا﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة، وهي الخمر، وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره.

والميسر: وهو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبيين، كالمرامنة ونحوها.

والأصصاب التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما ينصب ويعبد من دون الله.

والأزلام التي يستقسمون بها.

فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفسادها الداعية إلى تركها، واجتنابها.

فمنها: أنها رجس، أي: خيث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حساً والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنبها، وعدم التمسك

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣) كفروا بالله، وكذبوا بآياته المبينة للحق.

(٨٨، ٨٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا صَبْرًا وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُرْتَدِّينَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَجَاءَهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا صَبْرًا وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُرْتَدِّينَ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها يتم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذا أحلها لكم، واشكروه، ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها.

فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء.

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿وَلَا تَقْسِدُوا فِي اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْعَاقِلِينَ﴾ بل يغيضهم ويمقتهم، ويعاقبهم على ذلك.

ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالاً، لا سرقة، ولا غصباً، ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق.

وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك

الخبث من السباع والحيوانات.

﴿وَأَقْرَبُوا لِلَّهِ﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُؤْتُونَهُمُ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه فإنه لا يتم إلا بذلك وولت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه من طعام، وشراب، وسرية، وأمة، ونحو ذلك، فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله، فعليه كفارة يمين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية. إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظاهر.

ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات، ويحرمها نفسه، بل يتناولها، مستعيناً بها، على طاعة ربه.

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغُلُوبِ ۚ إِنَّمَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: في إيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِمَا عَمَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

﴿فَكَلِّفْتُمْ﴾ أي: كفارة اليمين التي عقدتموها بقصدكم

(١) كلما في ب، وفي أ: لانه. (٢) في ب كتب الآية كاملة.

بأوضارها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدو يُحذر منه، وتحذر مصايد أعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها، ليقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن للفلاح للبعد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور ماعة من الفلاح، ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بها، خصوصاً الخمر والميسر، ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء، فإن في الخمر من اغتلاب العقل، وذهاب حجاه، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من السباب، ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، وينتبه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشتغل قلبه، ويذهل له في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبا، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشياكه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيتها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة!!؟ فهل فوق هذه المفاصد شيء أكبر منها!!؟

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ لَأَن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفاصد - انزجر عنها، وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير، ولا زجر بليغ.

(٩٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِ الْبَلْغِ الْمُبِينِ﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاز عما نهى الله ورسوله عنه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْكَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَهُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِ الْبَلْغِ الْمُبِينِ ﴿٩٣﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْلُغُوا إِلَى اللَّهِ يُسْرًا وَمَنْ أَعْيَدْتُمْ أَبْيَدِيَكُمْ وَمِمَّا حَكَّمَ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٩٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَسِيلَةِ وَأَنْتُمْ مُنْهَوُونَ عَنْهُ بِحَكْمِ اللَّهِ وَأَعَدَّ لِلْعَصَاةِ كَذِبًا وَأَكْثَرَ طَعَامًا مَّسْكِينٍ أَوْعَدَ ذَلِكَ صِبَاً مَا يُلْدِقُ وَيَالِ أُمْرِئِهِ عَفَا اللَّهُ عَنَّا مَلَكٌ مِّنْ عَادٍ فَمِنْهُمْ نَفِثَ فِي آذَانِ اللَّهِ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٦﴾

كذلك. وهذا الأمر أعم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن.

وقوله: ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عما أمرت به، ونهيت عنه ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِ الْبَلْغِ الْمُبِينِ﴾ وقد أدى ذلك، فإن اهتديتم فلأنفسكم، وإن أسأتم فعلها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه، وما حمل به.

(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لما نزل تحريم الخمر، والنهي الأكيد والتشديد فيه؛ تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.

ولما كان نفى الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: بشرط أنهم

الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يحرم على المحرم، قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام. وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا تُحْيِيهَا وَيَكْفُرُ عَنْهَا﴾ أي: قتل صيداً عمداً ﴿ذَلِكَ عَلَيْهِ جَزَاءٌ يَنْفُلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّفْسِ﴾ أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئاً من ذلك، فيجذب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به.

والاعتبار بالمائلة أن ﴿يَكْفُرُ بِهَا﴾ أي: ذكراً عدلاً منكم. أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش - على اختلاف أنواعه - بقرة.

وهكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدى لا بد أن يكون ﴿هَذَا بَلِغُ الْكَفَرَةِ﴾ أي: يذبح في الحرم.

﴿أَوْ كَفَرَةٌ مَلَأَتْ سَكُونًا﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابل المثل من النعم، طعام يطعم المساكين.

قال كثير من العلماء: يَقُومُ الجزاء، فيُشْتَرَى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مَدْبُورٌ أو نصف صاع من غيره ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً ﴿لِيَذُوقُوا﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ وَمَنْ عَادَ ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطئ، كما هو القاعدة الشرعية - أن المتلف للنفس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد، وأما المخطئ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله، وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد، وهو ظاهر الآية، والفرق بين هذا وبين التضمنين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه لله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الآدميين وأموالهم^(١)].

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري، استثنى

تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك، وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذلك، حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد.

ويدخل في هذه الآية الكريمة من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

(٩٤-٩٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِمَنْ يَفْخَرُ مِنْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِنَّهَا أُوتِيَتْ هَدًى مِثْلَ مَا قَتَلْتُمْ بِمَنْ يَكْفُرُ بِمَا كَفَرَ﴾ ﴿وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا تُحْيِيهَا بِمَا كَفَرَ بِهَا فَهُوَ كَقَتْلِ نَفْسٍ بَلِغُ الْكَفَرَةِ أَوْ كَفَرَةٌ مَلَأَتْ سَكُونًا أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقُوا وَعَذَابُ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وَمَنْ عَادَ فَسَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿أَمَلْ لَكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَلِلنَّاسِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرُمًا وَالَّذِينَ اللَّهُ اتَّخَذَ إِلَهًا مَخْرُوجًا هَذَا مِنْ مَنَنِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، أَنْ أَخْبَرَهُمْ بِمَا سَيَفْعَلُ قَضَاءً وَقَدَرًا، لِيَطِيعُوهُ، وَيَقْدِمُوا عَلَى بَصِيرَةٍ، وَيَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا بد أن يختار الله إيمانكم.

﴿لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِمَنْ يَفْخَرُ مِنْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ﴾ أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة سيرة، تخفيفاً منه تعالى ولطفاً، وذلك الصيد الذي يتبليكم الله به ﴿تَتَأَلَّفُوا بَيْنَ بَيْنِكُمْ وَمِمَّا كَفَرَ﴾ أي: تتمكنون من صيده؛ ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء فقال: ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ علماً ظاهراً للخلق يرتب عليه الثواب والعقاب ﴿مَنْ يَخَافُ وَالَّذِينَ﴾ فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيبشيه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغب، فلا يرتد عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه.

﴿فَمَنْ أَتَعَذَّبُ﴾ منكم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ البيان الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل ﴿ذَلِكَ عَذَابُ الْبَاطِلِ﴾ أي: مؤلم موجه، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغب، وعدم حضور الناس عنده، وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: محرمون في

(١) بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلاً منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرح به الآية أنه لا جزاء على غير المتعمد كما لا إثم عليه).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٤

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعَالِكُمْ وَلِلنَّاسِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٧﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ قَيْمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدِ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكِلُ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿٩٨﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلْبَسِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ يَتَأُولَى الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْتَلُوا عَن أَشْيَاءِ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَنُوكُمْ وَإِنْ تَسْتَلُوا عَنْهَا مِنْ يَدِّ زُلْ أَفَرُّهُ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْرٍ وَلَا سَابِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٤﴾

تعالى الصيد البحري فقال: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ أي: أحل لكم - في حال إحرامكم - صيد البحر وهو الحي من حيواناته، وطعامه وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر ﴿مَتَّعَالِكُمْ وَلِلنَّاسِ﴾ أي: الفائدة في إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم، وانتفاع رفقتمكم الذين يسرون معكم ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشياً؛ لأن الإنسي ليس بصيد، ومأكولاً؛ فإن غير المأكول لا يصاد، ولا يطلق عليه اسم الصيد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون، فيجازيكم، هل قسمت بتقواه فيبيحكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا بها، فيعاقبكم؟

(٩٧-٩٩) ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ قَيْمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدِ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكِلُ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ يخبر تعالى أنه جعل ﴿الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ قَيْمًا لِلنَّاسِ﴾ يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصد - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تتفق الأموال، وتتحقق ﴿١٠٠﴾ - من أجله - الأموال، ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتتعدد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية.

قال تعالى: ﴿لِيَتَشَاهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّسْلُومَةٍ عَلَى مَا نَزَّلَهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْفُسِ﴾ ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة، فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة.

وقوله: ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدِ﴾ أي: وكذلك جعل الهدى والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدى - قياماً للناس، يتفتنون بهما، ويثابون عليهما.

﴿ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكِلُ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية.

﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم

واليقين، تعلمون أنه شديد العقاب - العاجل والآجل - على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه، فيشر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

ثم قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته، وما سوى ذلك، فليس له من الأمر شيء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فيجازيكم بما يعلمه - تعالى - منكم.

(١٠٠) ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلْبَسِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ للناس - محذراً عن الشر ومرغباً في الخير -: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ﴾ من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

(١٠٤، ١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْرَةٍ وَلَا سَیِّئَةٍ وَلَا مَیْسَةٍ وَلَا جَاحِلٍ وَلَکِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا یَقْتُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْکَذِبَ ۖ وَاکْذِبُهُمْ لَا یَقُولُونَ ۚ وَإِذَا قِیلَ لَهُمْ تَمَایَّلُوا إِلَىٰ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَیْهِ الرَّسُولُ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَیْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ کَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا یَعْمَلُونَ شَیْئًا وَلَا یَعْتَدُونَ﴾
هذا ذم للمشرکین الذین شرعوا فی الدین ما لم یأذن به الله، وحرّموا ما أحله الله، فجعلوا بأرائهم الفاسدة شیئا من مواشیهم محرّمًا، علی حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْرَةٍ﴾ وهي: ناقة یشقون أذنّها، ثم یحرمون رکیبها، ویرونها محترمة ﴿وَلَا سَیِّئَةٍ﴾ وهي: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت شیئا^(٢٦) اصطلاحا علیہ، سیبوا، فلا ترکب، ولا یحمل علیها، ولا تؤکل، وبعضهم ینذر شیئا من ماله، یجعله سائبة ﴿وَلَا جَاحِلٍ﴾ أي: جمل یحمی ظهره عن الرکوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بینهم، فکل هذه مما جعلها المشرکون محرمة بغير دلیل ولا برهان، وإنما ذلک افتراء علی الله، وصادرة من جهلهم، وعدم عقلهم، ولهذا قال: ﴿وَلَکِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا یَقْتُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْکَذِبَ ۖ وَاکْذِبُهُمْ لَا یَقُولُونَ﴾ فلا نقل فیها ولا عقل، ومع هذا فقد أعجبوا بأرائهم، التي بنیت علی الجهالة والظلم. فإذا دعوا ﴿إِنَّمَا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَیْهِ الرَّسُولُ﴾ أعرضوا، فلم یقبلوا، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَیْهِ ءَابَاءَنَا﴾ من الدین، ولو کان غیر سدید، ولا دینا ینجي من عذاب الله. ولو کان فی آباتهم کفایة ومعرفة ودراية، لهان الأمر، ولكن آباءهم لا یقولون شیئا، أي: لیس عندهم من المعقول شیء، ولا من العلم والهدی شیء، فتبا لمن قلّد من لا علم عنده صحیح، ولا عقل رجب، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله، الذي یملأ القلوب علما وإیمانًا وهدی وإیقانا.

(١٠٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسُکُمْ لَا یَضُرُّکُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَمْتَدْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعَکُمْ جِئِمَ فِیضُکُمْ بِمَا کُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بقول تعالی: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسُکُمْ﴾ أي: اجتهدوا فی إصلاحها، وکمالها، وإلزامها سلوك الصراط المستقیم، إنّا کم إذا صلحت لا یضرکم من ضل عن الصراط المستقیم، ولم یهد إلى الدین القويم، وإنما یضر نفسه.

ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يضر العبد تركهما وإهما لهما، فإنه لا يتم هده إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نعم، إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر، بيده،

(١) في ب: فهو. (٢) كذا في الأصل، وفي النسخ المطبوعة (سنا) ولعله المراد - والله أعلم -.

﴿وَلَوْ أَغْنَىٰكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ﴾ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ شَيْئًا، بَلْ يَضُرُّهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فامر أولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران، وفاته الأرباح.

(١٠١، ١٠٢) ﴿يَأْتِيَا الْذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ سَعْتُهُمْ ۚ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ إِلَيْكُمْ الْفُرْقَانُ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ عَقَابُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا تبينت لهم سوءتهم وأحزنهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آبناهم، وعن حالهم في الجنة أو النار فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة.

وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع، ربما أخرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني، فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهى عنها.

وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك، فهذا^(١)
كما قال تعالى: ﴿تَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ لِمَ جَاءَ الْفَرِّاقُ بَيْنَ رَسُولِكُمْ وَرَبِّكُمْ لَقَدْ يُدُلُّكُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ أي: وإذا وافق سؤالكم محله، فسالتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، تبد لكم، أي: تبين لكم وتظهر، وإلا، فاسكنوا عما سكنت الله عنه.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: سكت معافياً لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه، وعفا عنه ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ ذَلِيلٌ﴾ أي: لم يزل بالمغفرة موصوفاً، وبالحلم والإحسان معروفاً، فتعوضوا بالمغفرة وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

وهذه المسائل التي نهيت عنها ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: جنسها وشبهها، سؤال تغت لا استرشاد، فلما بينت لهم وجاءتهم ﴿أَسْبَحُوا بِهَا كَغَيْرِكُمْ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم».

ولسانه، وأنكره بقلبه، فإنه لا يضره ضلال غيره.

وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مالكم يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي الله تعالى، ﴿فَيُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر.

(١٠٦-١٠٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْفَلْسُوفَةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَيْتُمْ لَا تَنْشَرِي بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَتْ كَأَنَّهُ قُرْبَى وَلَا تَكُنَّ شَهَادَةُ اللَّهِ إِلَيْنَا إِذَا لَيْسَ الْأَشْيَاءُ ۚ فَإِنْ عُرِيَ عَنْ أَهْلَيْهَا اسْتَحَقَّ أَنْتَهُمَا إِنْمَا فَتَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا يَرَى الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَافُ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ كُفَيْتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِلَيْنَا إِذَا لَيْسَ الظَّالِمِينَ ۚ ذَلِكَ أَذَقَ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُونَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا وَلَهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يخبر تعالى خبراً متصفاً للأمر، بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه، فينبغي له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل، ممن يعتبر شهادتهما.

﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين.

﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتُم فيها ﴿فَأَصْبَحَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: فاشهدوهما، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يجبى ﴿وَمِنْ بَعْدِ الْفَلْسُوفَةِ﴾ التي يعظمونها. ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أنهما صدقا، وما غيرا، ولا بدلا، هذا ﴿إِنْ أَرَيْتُمْ﴾ في شهادتهما، فإن صدقتهما، فلا حاجة إلى القسم بذلك.

ويقولان: ﴿لَا تَنْشَرِي بِهِ﴾ أي: بأيماننا ﴿ثَبَاتًا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَتْ كَأَنَّهُ قُرْبَى﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿وَلَا تَكُنَّ شَهَادَةُ اللَّهِ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إِلَيْنَا إِذَا﴾ أي: إن كتمانها ﴿لَيْسَ الْأَشْيَاءُ﴾.

﴿فَإِنْ عُرِيَ عَنْ أَهْلَيْهَا﴾ أي: الشاهدين ﴿اسْتَحَقَّ إِلَيْنَا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما، وأنهما خانا ﴿فَتَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا يَرَى الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَافُ﴾ أي: فليقم رجلا من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ كُفَيْتِهِمَا﴾ أي: أنهما كذبا، وغيرا، وخانا ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِلَيْنَا إِذَا لَيْسَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن ظلمنا واعتدنا، وشهدنا بغير الحق.

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة، وتأكيدها،

وَأَذِيقُوا لَهُمْ نَصَابًا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ هُمُ الْيَاكُوفُونَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَحْتَدُونَ ﴿١٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْفَلْسُوفَةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَيْتُمْ لَا تَنْشَرِي بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَتْ كَأَنَّهُ قُرْبَى وَلَا تَكُنَّ شَهَادَةُ اللَّهِ إِلَيْنَا إِذَا لَيْسَ الْأَشْيَاءُ ۚ فَإِنْ عُرِيَ عَنْ أَهْلَيْهَا اسْتَحَقَّ أَنْتَهُمَا إِنْمَا فَتَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا يَرَى الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَافُ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ كُفَيْتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِلَيْنَا إِذَا لَيْسَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ذَلِكَ أَذَقَ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُونَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا وَلَهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٠﴾

وردها على أولياء الميت، حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذَلِكَ أَذَقَ﴾ أي: أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات ﴿أَوْ يَخَافُونَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُهُمْ﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت.

﴿وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعترين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين، فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما^(١) بعد الصلاة أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرأ بذلك من حق يتوجه إليهما، فإن لم يصدقهما، ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين،

وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون.

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «تميم الداري» و «عدي بن بداء» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمت على عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت، أن يوصي.

ومنها: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتاً.

ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد، وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ. وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار - عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة - مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر، إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين - إذا أرتبب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهم، وأراد الأولياء - أن يؤكدوا عليهم اليمين، يجسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيده اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة، حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها، والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الرية منهما، وتريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة قام اثنان من أولياء الميت، فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا.

ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون القرينة - مع أيمانها - قائمة مقام البينة.

(١١٠، ١٠٩) «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِزٌّ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْقُلُوبِ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ إِنَّ مَرِيِمَ أَذْكُرُ بِعَمَلِكَ وَعَلَىٰ زَيْدِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ يَأْذِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يَأْذِي وَيُثَبِّتُ الْأَكْصَمَ وَالْأَكْرَمَ يَأْذِي وَإِذْ تَخْرِجُ الْمَوْتَ يَأْذِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلَهُمُ الْيَتَامَىٰ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ أَنْ هَذَا إِلَهُ يُحَرِّمُ مِثْرَ ۝ يَخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعَظَامِ، وَأَنْ اللَّهُ يَجْمَعُ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ فَيَسْأَلُهُمْ: «مَاذَا أُجِبْتُمْ» أَي: ماذا أجابكم به أممكم؟ ف «قَالُوا لَا عِزَّ لَنَا» وإنما العلم لك، يا ربنا، فأنت أعلم منا «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْقُلُوبِ» أَي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

«إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ إِنَّ مَرِيِمَ أَذْكُرُ بِعَمَلِكَ وَعَلَىٰ زَيْدِكَ» أَي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكراً لربك، حيث أنعم عليك نعماً، ما أنعم بها على غيرك.

«إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ» أَي: إذ قويتك بالروح والوحي، الذي طهرك وزكاك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله، وقيل: إن المراد «روح القدس» جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به، وبملازمته له، وتبشيره في المواطن المشقة.

«تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهْلًا» المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي يتنفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله.

ولعيسى عليه السلام من ذلك، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر. وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، فقال: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَآتَنِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا إِنِّي مَا كُنْتُ وَأَوْصَيْتُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا» الآية.

«وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» فالكتاب يشمل الكتب السابقة، وخصوصاً التوراة، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد موسى - بها. ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه.

والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع، وفوائده وحكمه، وحسن الدعوة والتعليم، ومراعاة ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي.

«وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ» أَي: طيراً مصوراً لا روح فيه، فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وتبرئ الأكمه الذي لا بصر له ولا عين «وَالْأَكْرَمَ يَأْذِي وَإِذْ تَخْرِجُ الْمَوْتَ يَأْذِي» فهذه آيات بينات، ومعجزات باهرات، يعجز عنها الأطباء وغيرهم، أيد الله بها عيسى، وقوى بها دعوته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِندَنَا لَنَا أَنْتَ عَلَّمْنَا الْغُيُوبَ﴾ (١٢٦) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مَرِّمُ أَذْكَرَ نَعَمَى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكْذِرُ النَّاسَ فِي الْمُنْهَدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِأَذِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَذِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لِيُسْرَءِيلَ أَفْكَرَ لِمَنْ هُمْ أَهْلُ هَذَا الْأَرْضِ وَإِذْ أَخْبَرْتَ الْوَسِيلَةَ أَمَّا أَنْتَ وَالْجِبَالُ فَأَوْحَيْتَ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَنْ أَتَوْا بِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا﴾ (١٢٧) ﴿وَإِذْ أَخْبَرْتَ الْوَسِيلَةَ أَمَّا أَنْتَ وَالْجِبَالُ فَأَوْحَيْتَ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَنْ أَتَوْا بِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١٢٨) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيَعْقُوبَ ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقْوُونَ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٩) ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَكَونَ عَلَيْهِمُ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٣٠)

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لِيُسْرَءِيلَ أَفْكَرَ لِمَنْ هُمْ أَهْلُ هَذَا الْأَرْضِ وَإِذْ أَخْبَرْتَ الْوَسِيلَةَ أَمَّا أَنْتَ وَالْجِبَالُ فَأَوْحَيْتَ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَنْ أَتَوْا بِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا﴾ (١٢٧) ﴿وَإِذْ أَخْبَرْتَ الْوَسِيلَةَ أَمَّا أَنْتَ وَالْجِبَالُ فَأَوْحَيْتَ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَنْ أَتَوْا بِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١٢٨) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيَعْقُوبَ ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقْوُونَ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٩) ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَكَونَ عَلَيْهِمُ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٣٠)

فهذه من امتن الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، ودعاه إلى شكرها، والقيام بها، فقام بها عليه السلام أتم القيام، وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم.

(١١١-١٢٠) ﴿وَإِذْ أَخْبَرْتَ الْوَسِيلَةَ أَمَّا أَنْتَ وَالْجِبَالُ فَأَوْحَيْتَ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَنْ أَتَوْا بِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا﴾ (١٢٧) ﴿وَإِذْ أَخْبَرْتَ الْوَسِيلَةَ أَمَّا أَنْتَ وَالْجِبَالُ فَأَوْحَيْتَ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَنْ أَتَوْا بِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١٢٨) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيَعْقُوبَ ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقْوُونَ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٩) ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَكَونَ عَلَيْهِمُ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٣٠)

فجمعوا بين الإسلام الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان.

والحواريون: هم الأنصار كما قال تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ لِكُرَّانِئِهِمْ نَحْنُ أَهْلُ اللَّهِ﴾ (١٢٦) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيَعْقُوبَ ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (١٢٩) أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله، واستطاعته على ذلك، وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافياً للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، وعظمهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿أَتَقْوُونَ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن المؤمن يحملها معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينفذ لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدرى ما يكون بعدها شيئاً.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ (١٢٩) بالإيمان، حين نرى الآيات العيانة، فيكون (١) الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين، كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿قَالَ أَوْفَرْتُ قُلُوبَهُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ لِنَطْمَئِنَّ قُلُوبَنَا﴾ فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَكَونَ عَلَيْهِمُ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٣٠)

قَدْ صَدَّقْنَا﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَكَونَ عَلَيْهِمُ الشَّاهِدِينَ﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فنقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك. فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك فقال: ﴿اللَّهُمَّ رِنَّا أَوَّلَ عِلْمٍ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَمَائِدَةً بَيْنَكَ﴾ أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات، وتكرر السنين.

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمه، وفضله وإحسانه عليهم ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ أي: اجعلها لنا رزقاً.

فسأل عيسى عليه السلام نزولها أن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة

(١) في ب اكمل الآيات إلى قوله: ﴿وَنَقُو عَنْ عَمَلٍ غَيْرٍ﴾. (٢) في ب: حتى يكون.

الدنيا، وهي أن تكون رزقاً.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزُقُكُمْ مِمَّنْ يَكْفُرُ بِيَدِي مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة، وكفر عناداً وظلماً، فاستحق العذاب الأليم، والعقاب الشديد. واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك.

ويدل على ذلك أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى، ولا له وجود، ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم، من الحظ الذي ذكرناه به فسوه.

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتمى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَأْتِنِي آيَاتَيْنِ أُتِّدُونِي وَأُتِّىَ إِلَهُتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعبسى، فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك.

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم، له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما الجميع عباد مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون.

﴿إِنْ كُنْتُمْ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فإنت أعلم بما صدر مني. ﴿وَأَنْتَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: «لم أقل شيئاً من ذلك». وإنما أخبر بكلام ينبغي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزهه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل فقال: ﴿مَا قُلْتُمْ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ فإنا عبد متبع لأمرك، لا متجرى على عظمتك. ﴿إِنِّي أَعْبُدُ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأُمِّي إلهين من دون الله، وبيان أنني عبد مروب، فكما أنه

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزُقُكُمْ مِمَّنْ يَكْفُرُ بِيَدِي مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ ﴿١١٧﴾ مَا قُلْتُمْ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٨﴾ إِنْ تَعُدُّهُمْ فَأَتِمُّهُمْ عِبَادَتُكُمْ وَإِنْ تَعْفُ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٠﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢١﴾

ريكم فهو ربي.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر من لم يقم به ﴿لَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علماً وسمعاً وبصراً، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك، بما تعلمه فيهم من خير وشر.

﴿إِنْ تَعُدُّهُمْ فَأَتِمُّهُمْ عِبَادَتُكُمْ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم، وأعلم بأحوالهم، فولوا أنهم عباد متردون، لم تعذبهم ﴿وَإِنْ تَعْفُ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدره، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة، الحكيم: حيث كان من مقتضى حكمتك، أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ ميئاً لحال عبادهم يوم القيامة، ومن الفائز منهم، ومن الهالك، ومن الشقي، ومن السعيد: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم، ونياتهم على الصراط المستقيم، والهدي القويم،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْشَأَ
تَمَثُّرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَنْشَأَهُمْ مِنْ مَّاءٍ مِّنْ
مَّاءٍ يَرَوْنَهُمْ إِنْ كَانُوا عَنْهَا مُعْمِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَدَّعُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
تُمْكِنْ لَهُمْ كُفْرًا وَرَأَيْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ دُرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
مَّآخِرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَسَوْهُ بِآيَاتِهِمْ
لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَابٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَاهُ لَمَكَّا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾

﴿يَسْأَلُكُمْ إِنَّكُمْ أَعْلَمُ عِلَلًا﴾ ويعمركم ما يتذكر فيه من
تذكر ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهي: الدار الآخرة، التي ينتقل
العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.
﴿ثُمَّ﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أَنْتُمْ تَعْتَدُونَ﴾
أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقع الجزاء يوم القيامة.
وذكر الله الظلمات بالجمع؛ لكثرة موادها، وتنوع طرفها؛
ووحدة النور؛ لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة، لا تعدد
فيها، وهي الصراط المتضمنة للعلم بالحق، والعمل به، كما
قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

(٣) ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ
مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي
الأرض، فأهل السماء والأرض متعبدون لربه، خاضعون
لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله، الملائكة المقربون،
والأنبياء، والمرسلون، والصدّيقون، والشهداء،

(١) في الأصل (إيهم) ولعل الصواب ما أثبت.

فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد
صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿كَمْ جَنَّتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْغُرُ الْمُنِيمِ﴾
والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وافتراهم، وثمره
أعمالهم الفاسدة.

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ لأنه الخالق لهما والمدير لذلك
بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا
قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع
الاشياء متقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله
رب العالمين.

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١، ٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ
ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْشَأَ تَمَثُّرُونَ ﴿١﴾ هذا إخبار عن
حمده والثناء عليه بصفات الكمال، ونوعت العظمة والجلال
عمومًا، وعلى هذه المذكورات خصوصًا. فحمد نفسه على
خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة
علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير،
وعلى جعله الظلمات والنور.

وذلك شامل للحسي من ذلك، كالليل والنهار، والشمس
والقمر، والمعنوي كظلمات الجهل والشك، والشرك
والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين والطاعة.
وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة،
وإخلاص الدين له.

ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ﴾ أي: يعدلون به سواء. يسوونهم به في العبادة
والتعظيم، مع أنهم لم يساواوا الله في شيء من الكمال، وهم
فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ وذلك يخلق مادتكم وأبيكم آدم
عليه السلام ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أي: ضرب لمدة إقامتكم في هذه
الدار أجلاً، تتمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل
[[إليكم]]^(١) به رسله.

والصالحون.

وهو تعالى يعلم سرهم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقرّبكم منه، وتندمكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يعيدكم منه ومن رحمته.

(٤-٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۚ فَقَدْ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِآيَاتِهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَدَّعُونَ ۚ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ مُمْسِكٍ وَلَقَدْ آتَيْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ ذِكْرًا وَجَعَلْنَا الْأَمْهَلَ تَجْرَى مِنْ يَحْوِيهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا مَخْرُوجًا ۚ هَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى عَنْ إِعْرَاضِ الْمُشْرِكِينَ، وَشِدَّةُ تَكْذِيبِهِمْ وَعِدَاوَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا تَنْفَعُ فِيهِمُ الْآيَاتُ حَتَّى تَحُلَ بِهِمُ الْمَثَلَاتُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على الحق دالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لَا يَلْقَوْنَ لَهَا بَالًا، وَلَا يَصْنَعُونَ لَهَا سَمْعًا، قَدْ انْصَرَفَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى غَيْرِهَا، وَوَلَّوْهَا أَدْبَارَهُمْ.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَدَّعُونَ﴾ أي: سوف يرون ما استهزأوا به، أنه الحق والصدق، وبين الله للمكذّبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذّبين: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ يَهْتَكِرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِمْ بَلًا وَعَذَابًا عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنِّي لَنْهَمُ الْآلِيَّ يَخْلِفُونَهُ يَوْمَ وَيَرْثُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السالفة فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: كم تابع إهلاكنا للأمم المكذّبين، وأمهلتهم قبل ذلك الإهلاك، بأن ﴿تَكُنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَآرَ تُمْكِنٍ﴾ لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ ذِكْرًا وَجَعَلْنَا الْأَمْهَلَ تَجْرَى مِنْ عَيْنِهِمْ﴾ فبينت لهم بذلك ما شاء الله، من زرع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون. فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، والتهتهم أنواع اللذات.

فجاءتهم رسلهم بالبينات، فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها، فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا مَخْرُوجًا﴾.

فهذه شئة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم بأنهم.

(٧-٩) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَانٍ فَلَسَوْفَ يَأْتِيَهُمْ لَقَالُوا الْبَيْنُ كَرُورًا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۚ وَلَوْ أَنَّا لَمَلَكًا لَفُصِّحُوا الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۚ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَكَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيكُونَ﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جنتهم به، ولا لجعل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَانٍ فَلَسَوْفَ يَأْتِيَهُمْ﴾ ويتقنوه ﴿لَقَالُوا الْبَيْنُ كَرُورًا﴾ ظلماً وعلوًا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

فأي بيعة أعظم من هذه البيعة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس، الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه!!

﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا نعتًا مبنيا على الجهل، وعدم العلم بالمعقول: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله لا تكون إلا على أيدي الملائكة.

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشرًا منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم، وبصيرة، وغيب: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا مَلَكًا﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق ولكان إيمانًا بالشهادة الذي لا ينفع شيئًا وحده. هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضى الأمر بتعجيل الهلاك عليهم، وعدم إنظارهم، لأن هذه شئة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها.

فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد، وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذّبين خير لهم وأنفع.

فطلبهم لإزالة الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم وأرسل، لم يطيعوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاعته قواهم الفانية.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك، ﴿وَلَكَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيكُونَ﴾ أي: ولكان الأمر مختلطًا عليهم وملبوسًا، وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فأنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وعدم بيان الحق.

فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اهتموا بذلك غيرهم،

والإلهية.

فهذه الآيات ذكر الله فيها مائيتين به الهدى، ويتضح به الشرك.

فذكر أن ﴿لَمْ﴾ تعالى ﴿مَّا سَكَنَ فِي آلِيهِ وَآلِهَارِهِ﴾ وذلك هو المخلوقات كلها، من آدميها، وجنّتها، وملائكتها، وحيواناتها وجماداتها.

فالكل خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم، القاهر المالك.

فهل يصح في عقل ونقل، أن يعبد من هؤلاء الممالك، الذي لا نفع عنده ولا ضرر؟ ويرتك الإخلاص للخالق، المدبر المالك، الضار النافع؟

أم العقول السليمة، والفطر المستقيمة، تدعو إلى إخلاص العبادة، والحب، والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟! ﴿الَّتِي﴾

جميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفنن الحاجات ﴿الَّتِي﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والباطن.

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين بالله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ أَنَّى أَخَذَ﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة، يتولاني، وينصرتني؟ فلا أتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومدبرهما ﴿وَهُوَ يُنْصِتُ وَلَا يُلْمَعُ﴾ أي: وهو الرازق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن أتخذ ولياً غير الخالق الرازق، الغني، الحميد؟! ﴿قُلْ﴾ إِنْ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْأَلُ﴾ الله بالتوحيد، وأنفاده له بالطاعة. لأنني أولى من غيري، بامتثال أوامر ربي.

﴿وَلَا تُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: ونهيت أيضاً عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض عليّ، وأوجب الواجبات.

﴿قُلْ﴾ إِنْ أَشَاءَ إِنَّ عَصِيتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عِيسَى﴾ فإن المعصية في الشرك، توجب الخلود في النار، وسخط الجبار، وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه مَنْ صُرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، وَمَنْ نجا فيه فهو الفائز حقاً، كما أن مَنْ لم ينج منه، فهو الهالك الشقي.

ومن أدلة توحيده أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء، وجلب الخير والسراء. ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ﴾ من فقر، أو مرض، أو عسر، أو غم، أو همٍّ أو نحوه، ﴿فَلَا تَكْشِفْ لَهُ، إِلَّا مَا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلْكَ بِشَيْءٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فإذا كان وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر، وغيره مقهوراً، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب، وعاقب، وفيما خلق وقدر، ﴿الْقَهْرُ﴾ المطلع على السرائر والضمائر، وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

﴿قُلْ﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك -: ﴿أَفَأَنْتُمْ أَكْثَرُ شِدَّةً﴾ على هذا الأصل العظيم؟ ﴿قُلْ﴾ لا أكبر شهادة، فهو ﴿شَهِيدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فلا أعظم منه شهادة، ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَنَحْنُ بِمُتَّبِعِيهِ ۖ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْفَوَاقِلَ﴾.

فالله حكيم قدير، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً عليه، زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق، ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء مَنْ خالفه، وأمواهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدقه بإقراره ويفعله، فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة، وينصره، ويخذل مَنْ خالفه وعاداه، فأني شهادة أكبر من هذه الشهادة؟! وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَتُذَكِّرَ بِهِ ۖ وَمَنِ ابْتَغَىٰ﴾

وأوحى الله إلي هذا القرآن، لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنزركم به من العقاب الأليم، والندارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به، من الترغيب، والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، التي مَنْ قام بها فقد قبل النذارة.

فهذا القرآن فيه النذارة لكم أيها المخاطبون، وكل مَنْ بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده، قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله، والمكذبين لرسله: ﴿أَلَيْسَ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي: إن شهدوا فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطرمهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه^(١) أدنى شبهة، فضلاً عن الحجج.

واختر لنفسك أي الشهادتين، إن كنت تعقل ونحن نختر لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالافتداء به، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

﴿وَلَا تَبَرَّأُ إِلَى شُرَكَائِكَ﴾ به من الأوثان، والأنداد، وكل ما أشرك مع الله فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه.

لما بين شهادته، وشهادة رسوله على التوحيد، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: يعرفون صحة التوحيد ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشبهون بصحة رسالته، ولا يمترون بها، لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تطبق عليه، ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان.

قوله: ﴿الَّذِينَ خَوَّروا أنفسهم﴾ أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر الذي يحصل لهم.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا أعظم ظلماً وعناداً، ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتماعا، افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبداً.

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بادهاء^(٢) الشريك له والعوين، أو [زعم] أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولداً، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

(٢٢-٢٤) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكُومٌ﴾ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا نَفْقَهُمْ إِنْ كَانُوا قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّٰ عَلَيْهِمْ تَا كَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿يَخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ مَالِ أَهْلِ الشَّرْكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُمْ يُسْأَلُونَ وَيُوبَخُونَ فَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿إِنِّي سُرَّكُومٌ﴾ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: إن

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ أُذْهِبَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ إِلَهُكُمْ تَشْهَدُونَ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ هَادَيْنَاهُمُ لَكِنَّهُمْ يَعْزِفُونَ عَنْكُمْ يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَعْرِفُونَ ﴿٢٢﴾ ابْنَاءُ هُمُ الَّذِينَ خَوَّروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكُومٌ ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ لَوْ كُنَّا نَفْقَهُمْ إِنْ كَانُوا قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٧﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّٰ عَلَيْهِمْ تَا كَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَنْ يَرَوْا سَكُلَ آيَةٍ إِلَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَحْظَةُ لَوْلَا كُفْرُوا وَإِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ وَهُمْ يَبْهَتُونَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَى الْآرَارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِهِ رَبَّنَا وَكَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء ﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا نَفْقَهُمْ﴾ أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين ﴿أَنْظَرْ﴾ متعجباً منهم ومن أحوالهم ﴿كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضرر ﴿وَصَلَّٰ عَلَيْهِمْ تَا كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٢٥) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَنْ يَرَوْا سَكُلَ آيَةٍ إِلَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَحْظَةُ لَوْلَا كُفْرُوا وَإِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات، بعض الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا يتفنون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير.

(١) في ب: على ما خالفوه. (٢) كذا في ب، وفي أ: الدعاء.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وأغشية، لتلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء ﴿وَقَدْ عَلَانِيَةً﴾ جعلنا ﴿وَقَدْ﴾ أي: صمماً، فلا يستمعون ما يتعهم.

﴿وَلَنْ يَرَوْا كَلِمَةَ لَا يُخْشَوْنَ﴾ وهذا غاية الظلم والعناد، أن الآيات البينات الدالة على الحق لا يتقادون لها، ولا يصدقون بها، بل يجادلون بالباطل الحق ليدحضوه.

ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ يَقُولُ الْكَاذِبِينَ إِذَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُزَيَّلٌ﴾ أي: مأخوذ من صفح الأولين المسطورة التي ليست عن الله، ولا عن رسله، وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوي لأنباء السابقين واللاحقين، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون، والحق، والقسط، والعدل التام من كل وجه، أساطير الأولين؟

(٢٦) ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَتَّبِعْ عِتَّةً وَيَتَّبِعْ عَنْهُ وَلَنْ يَهْدِيَهُمْ إِيَّاهُ أَفْسَهُمْ وَمَنْ يَتَّبِعْهُ﴾ وهم: أي المشركون بالله، المكذوبون لرسوله، يجمعون بين الضلال والإضلال، ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه، ولن يضروا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئاً ﴿وَلَنْ يَهْدِيَهُمْ إِيَّاهُ أَفْسَهُمْ وَمَنْ يَتَّبِعْهُ﴾ بذلك.

(٢٧-٢٩) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَى الْكَاذِبِينَ فَقَالُوا يَلَيِّنَا نُرَدُّ وَلَا تَكْذِبُ يَأْتِيكَ رَبَّنَا وَلَكِنَّ مِنْ آلِ الْكَاذِبِينَ﴾ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿وَقَالُوا إِنِّي إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يقول تعالى - مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة، وإحضارهم النار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ليوبخوا ويرفعوا، لرأيت أمراً هائلاً، وحالاً مقلعة، ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردون إلى الدنيا.

﴿فَقَالُوا يَلَيِّنَا نُرَدُّ وَلَا تَكْذِبُ يَأْتِيكَ رَبَّنَا وَلَكِنَّ مِنْ آلِ الْكَاذِبِينَ﴾ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل، فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات، ولكن الأغراض الفاسدة صدمتهم عن ذلك، وصرفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمانة وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب.

﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ منكبين للبعث ﴿إِنِّي إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا، إلا الحياة الدنيا وحدها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

(٣٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالِ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾

الكافرين ﴿إِذْ يَقُولُ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لرأيت أمراً عظيماً، وهو لا جسيماً.

﴿قَالَ﴾ لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ الذي ترون من العذاب ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ فأقروا، واعترفوا، حيث لا يفهم ذلك ﴿قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

(٣١) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يحسن ربنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ أي: قد خاب وخسر، وحرم الخير كله، من كذب بلفاء الله، فأوجب له هذا التكذيب الاجترار على المحرمات، واقتراف الموبقات ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ النَّارُ﴾ وهم على أقبح حال وأسوته، فأظهروا غاية الندم، وقالوا يحسن ربنا على ما فرطنا فيها ولكن هذا تحسر ذهب وقته.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ ألا ساء ما يزينون، فإن وزرهم وزر يشقلم، ولا يقدرين على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأبيد في غضب الجبار.

(٣٢) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، أما

إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ. قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ آيَةَ الْكَافِرِينَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك، ويلي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم ما يفتهم، وهم أولو الألباب والاسماع.

والمراد بالسمع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر، فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول.

﴿وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ اللَّهَ ثُمَّ إِلَىٰ يَرْجِعُونَ﴾ يحتمل أن المعنى، مقابل للمعنى المذكور، أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك، ولا يتقادون، وموعدهم القيامة، يعيهم الله ثم إليه يرجعون. ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبتهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا متضمنًا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المكذبون بالرسول تعيًا وعنادًا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يفتروحونها بقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة.
كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا آيَةً﴾
﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَنُسَبِّحُ فَتَنفِخَ الْأَنْهَارُ جَلَلَهَا تَنفِيحًا﴾ ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رُفِعَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَاغٍ ۝
وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ قَوْلَهُ﴾ الآيات.

﴿قُلْ﴾ مجيبًا لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُزِيلَ آيَةَ الْكَافِرِينَ﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء متفاداة لعزته، مذعنة لسلطانه؟

ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهم - لجهلهم وعدم علمهم - يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها - لعجلوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السيل.

فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من

(١) السياق يقتضي أن يأتي بخبر إن، ومقصود الشيخ - رحمه الله - فإن تكليفهم... جحد منهم لما علموه حقًا.

حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب. فالقلوب لها والهة، والنفس لها عاشقة، والههم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان.

وأما الآخرة، فإنها ﴿خَيْرٌ لِّذَيْنِ يَتَّقُونَ﴾ في ذاتها وصفاتها، ويقانها ودوامها، وفيها ما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح.

ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمؤمنين الذين يفعلون أوامر الله، ويتروكون نواهيه وزواجره.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون أي الدارين أحق بالإشارة.

(٣٥-٣٣) ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ﴾ وَلَكِنَّ أَطْلُفَيْنِ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَحْسَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَإِنْ كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَلَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَكًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْخَالِينَ﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسوءك، ولم نأمرك بما أمراك به من الصبر، إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية، فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشك فيك.

﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ﴾ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه - قبل البعثة - الأمين، ﴿وَلَكِنَّ أَطْلُفَيْنِ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَحْسَدُونَ﴾ أي: فإن تكذيبهم آيات الله التي جعلها الله على يديك^(١).
﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾ فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ما به ببيت فؤادك، ويطمئن به قلبك.

﴿وَإِنْ كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: شق عليك من حرصك عليهم، ومحبتك لإيمانهم، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك أن تهدي مَنْ لم يرد الله هدايته.

﴿فَإِنْ اسْتَطَلَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَكًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئًا. وهذا قطع لطمعه في هداية أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال، ﴿فَلَا تَكُونُ مِنَ الْخَالِينَ﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا يزلونها على منازلها.

(٣٧، ٣٦) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ اللَّهَ ثُمَّ

مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية وقلبية، بحيث لا تبقى في القلوب أدنى شك وارتباب.

فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

(٣٨) ﴿وَمَنْ ذَاكَ فِي الْأَرْضِ لَا ظَهَرَ يَخْلُقُ بِحَسْبِهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلَكُمْ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ نَحْوِ ذَٰلِكَ إِلَّا يَرَوْنَ يُخْشَوْنَ﴾ أي: جميع الحيوانات الأرضية والهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها كما خلقناكم، وزرناها كما زرناكم ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا، كما كانت نافذة فيكم.

﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ نَحْوِ﴾ أي: ما أهلكنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم.

وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقها لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد.

ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَتَشَاءُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ يَوْمَ يُخْرَجُونَ﴾ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمد على الأولون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا عَنْكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَسْأَلُ اللَّهَ بِغُلْبَةٍ وَمَنْ يَسْأَلْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسوله، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى، وأنهم ﴿مُضْمِرُونَ﴾ عن سماع الحق ﴿وَبِكُمْ﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا باطل^(١).

﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: منغمسون في ظلمات الجهل، والكفر، والظلم، والعناد، والمعاصي، وهذا من إضلال الله إياهم، ف ﴿مَنْ يَسْأَلُ اللَّهَ بِغُلْبَةٍ وَمَنْ يَسْأَلْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَهْرٍ يَطِيرُ بِحَاجَتِهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلَكُمْ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا عَنْكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَسْأَلُ اللَّهَ بِغُلْبَةٍ وَمَنْ يَسْأَلْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُفْرِكُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْأَسَاوِ وَالْأَضْرَ لَعَلَّهُمْ يَنْضَعُونَ﴾ ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا شَاءَ مَا دَكَّرُوا بِهِ فَرَغْنَا عَنْهُمْ نُفُوذَ أَبْوَابٍ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُوحُوا بِمَا آوُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾

فضله وحكمته.

(٤٠، ٤١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُفْرِكُونَ﴾ يقول تعالى لرسوله: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله، العادلين به غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكرب، التي يضطر إلى دفعها، هل تدعون الهتك وأصنامكم، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُفْرِكُونَ﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونهم، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وتخلصون لله الدعاء، لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر، فما بالك في الرخاء تشركون به،

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَتَى عَلَى الْكَافِرِينَ هَؤُلَاءِ أَلَهُمْ شُرَكَاءُ خَلَقُوا هَؤُلَاءِ لَعَلَّهُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنَّ أَنْتُمْ عَبْدَاتُ اللَّهِ بَعَثْنَا أَوْ جَهَنَّمَ﴾ أي: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات، تعلمون بها وقوعه.

﴿هَلْ يَهْدِيكُمُ اللَّهُ إِلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم، بظلمهم وعنادهم، فاحذروا أن تقيموا على الظلم، فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي.

(٤٨، ٤٩) ﴿وَمَا تُرِيدُ الْمَرْسِيَّةَ إِلَّا مُنْجِينَ وَمُذْيَبِينَ فَمَنْ أَمَرَنِ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُسَمُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ، يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين، أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة، والمنذر والمنذر به، والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة، ولكن الناس انقسموا - بحسب إجابتهم لدعوتهم وعندها - إلى قسمين:

﴿فَمَنْ أَمَرَنِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: آمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُسَمُّهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي: ينالهم، ويذوقونه ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

(٥٠) ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَنَا نَذِيرٌ﴾ يقول تعالى لنبينا ﷺ المقتربين^(١) عليه الآيات أو القائلين له: إنما تدعونا لتتخذك إلهاً مع الله:

﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: مفتاح رزقه ورحمته ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ وإنما ذلك كله عند الله، فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو - وحده - عالم الغيب والشهادة، ﴿وَلَا يَهْدِيكُمْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ أَحَدٌ﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رُسُلِهِ.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ أي: هذا غايته ومنتهاى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك. فإذا عُرفت منزلي، فلا شيء يبحث الباحث معي، أو يطلب مني أمراً لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان، بغير ما هو بصدده؟.

ولأي شيء - إذا دعوتكم، بما يوحى إليّ - تلزموني أني

(١) في ب: أم (٢) زاد هنا في الطبعة السلفية قبل كلمة المقتربين: (أن يخاطب) المقتربين.

وتجعلون له شركاء؟ هل ذلك على عقل أو نقل، أم عندكم من سلطان بهذا؟ بل^(١) تفكرون على الله الكذب؟

(٤٢-٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَاهْتَدَوْا فَاتَّبَعُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ لَعَلَّهُمْ يَضَعُوا عَنْهُمْ أَصْنَافَ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَاهْتَدَوْا فَاتَّبَعُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ لَعَلَّهُمْ يَضَعُوا عَنْهُمْ أَصْنَافَ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿فَلَقَدْ سَأَلْنَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا فِرَاحُوا بِمَا آوُوا أَهْلَكْتُم بَعَثْنَا إِذَا هُمْ يُلْهِسُونَ﴾ نَقِطَعُ ذَائِرَ الْغَوِيِّ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَكِنَّا يَوْمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من الأمم السالفة، والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا، وجحدوا آياتنا ﴿فَاهْتَدَوْا فَاتَّبَعُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب، رحمة منا بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَعُوا عَنْهُمْ﴾ ويلجأون عند الشدة إلينا.

﴿فَلَوْكَ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا فَصَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: استحجرت فلا تلين للحق ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فظنوا أن ما هم عليه دين الحق فتمنعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان.

﴿فَلَقَدْ سَأَلْنَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها ﴿حَتَّىٰ إِذَا فِرَاحُوا بِمَا آوُوا أَهْلَكْتُم بَعَثْنَا إِذَا هُمْ يُلْهِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة، وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.

﴿نَقِطَعُ ذَائِرَ الْغَوِيِّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: اصطلموا بالعذاب، ونقطعت بهم الأسباب ﴿وَلَكِنَّا يَوْمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين، فإنه بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه، وإمانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

(٤٦، ٤٧) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَحَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ لَّهِ عَذَابٌ يَّاتِيكُمْ يَوْمَ نُفِثَ كَيْفَ تُصَرِّفُونَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَبْدَاتُ اللَّهِ بَعَثْنَا أَوْ جَهَنَّمَ هَلْ يَهْدِيكُمُ اللَّهُ إِلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، يخبر تعالى أنه كما أنه المتفرد بخلق الأشياء وتبديلها، فإنه المتفرد بالوحداية والإلهية فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَحَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ فبقينم بلا سمع ولا بصر ولا عقل ﴿فَمَنْ لَّهِ عِزٌّ أَلَّا يَأْتِيَكُم بِشَيْءٍ﴾ فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك، فلم عبديتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاء الله.

وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ تُصَرِّفُونَ الْآيَاتِ﴾ أي: ننوعها، ونأتي بها من كل فن، ولتتبرر الحق، وتتبين سبيل المجرمين ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ مع هذا البيان التام ﴿يَصْدِرُونَ﴾ عن آيات الله، ويعرضون عنها.

الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

١٣٣

الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

فَقَطِّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ
 مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْتُمْ كَيْفَ نَصَرِفُ أَلْأَبْصَارَ
 تُرْهِمُ صِدْقُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ
 بِقَعْتَهُ أَوْ جَهَنَّمَ هَلْ لَكُمْ مِنْهَا لَأَلٌ أَنْتُمْ لَا تَظْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ وَمَا
 نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ
 فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 يَكْسِبُ كُلُّهُمْ الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يَكْسِفُونَ ﴿٥٥﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ
 عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ
 إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ
 أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْسِرُوا
 إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ دُونُهُ وَلَهُ لَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
 ﴿٥٧﴾ وَلَا تَقْرَأُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوِّ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَفَقَطَّ رُءُوسُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.
 وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناساً [من قريش، أو]
 من أجلاف العرب، قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن تؤمن لك
 وتبتعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإنا
 نستحي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء.
 فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثه نفسه بذلك،
 فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.
 ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ يَتُولَؤُنَا أَهْوَاءَهُمْ مَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ
 بَيْنِنَا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم
 غنياً، وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم ضيقاً، فإذا
 مَنَّ اللَّهُ بالإيمان على الفقير، أو الوضيع؛ كان ذلك محل محنة
 للغني والشريف.

فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمنعه من
 ذلك مشاركة الذي يراء دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن
 صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة تروءه عن اتباع الحق.
 وقالوا محترقون لمن يرونهم دونهم: ﴿أَهْوَاءَهُمْ مَكَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فممنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكاتهم،

أدعي لنفسي غير مرتبتي، وهل هذا إلا ظلم منكم، وعناد،
 وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق بين مَنْ قَبِلَ دعوتي، وانقاد لما
 أوحى إلي وبين مَنْ لم يكن كذلك - ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ
 وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتزولون الأشياء منازلها، وتختارون ما
 هو أولى بالاختيار والإيتار؟.

(٥١-٥٥) ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْسِرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ
 لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلَهُ لَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولا تظلموا الذين يدعون
 ربهم بِالْعَدْوِّ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
 وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَفَقَطَّ رُءُوسُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ
 وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ يَتُولَؤُنَا أَهْوَاءَهُمْ مَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا
 أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاقِكِينَ﴾ وإذا جاءك الذِّكْرُ يَقُولُونَ عَائِدِينَ تَقُولُ
 سَلِّمْ عَلَيْكُمْ كُنْكُمْ رُءُوسُهُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِمُ الرِّحْمَةَ أَنْهُمْ مِنْ عَمَلٍ يُسْأَلُونَ
 سَوَاءً يَحْكُمُونَ ثُمَّ تَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَمَّا غَوْرُ رَبِّكَ﴾ وَكَذَلِكَ
 نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ سُبُلَ الْمُتَذَكِّرِينَ﴾ هذا القرآن نذارة للخلق
 كلهم، ولكن إنما ينتفع به ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْسِرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾
 فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك
 يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم.

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿وَلَهُ لَا شَفِيعٌ﴾
 أي: لا من يتولى أمرهم؛ فيحصل لهم المطلوب، ويدفع
 عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كلهم، ليس
 لهم من الأمر شيء.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن
 الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه.

﴿وَلَا تَقْرَأُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوِّ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾
 أي: لا تطرد عنك، وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص،
 رغبة في مجالسة غيرهم، من الملامزين لدعاء ربهم، دعاء
 العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة، في أول
 النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من
 الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل.

فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم
 مستحقون لمواظبتهم ومحبتهم، وإدانتهم وتقريبهم، لأنهم
 الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، الأعزاء في الحقيقة وإن
 كانوا عند الناس أذلاء.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ
 شَيْءٍ﴾ أي: كل له حسابه، وله عمله الحسن، وعمله القبيح.
 ﴿فَقَطَّ رُءُوسُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر
 أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه
 معهم، وأحسن معاملتهم، وآلان لهم جانبهم، وحسن خلقه،

سورة الأنعام

١٣٤

سورة الأنعام

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَيْسَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ أَلَّا يَعْبُدُوا الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُفُّوا قُلُوبَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا مَا آتَاكُمْ مِنَ الْمُنْهَرِتِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْكُفْرُ إِلَّا إِلَهُ يَفْقَهُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ﴿٥٩﴾ قُلْ لَوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأُمُورَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٠﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَكْتُبُهَا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

قال الله - محبباً لكلهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومته عليهم، دون من ليس بشاكر.

فإن الله تعالى حكيم، لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف من من الله عليهم بالإيمان، من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون، ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيهم، ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلاماً، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهمهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه، وحنهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك.

ورحبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي، لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها، من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

فإذا وجد ذلك كله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغى والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويثبت الحق الذي ينبغي سلوكه.

﴿وَلَنَسْتَبَيِّنَ سَبِيلَ الْمُتَزَكِّيِّ﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت، أمكن اجتنابها، والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

(٥٨-٥٦) ﴿قُلْ إِنِّي نُبَيِّنُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُفُّوا قُلُوبَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا مَا آتَاكُمْ مِنَ الْمُنْهَرِتِينَ﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْكُفْرُ إِلَّا إِلَهُ يَفْقَهُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ○ قُلْ لَوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأُمُورَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إِنِّي نُبَيِّنُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة ولا

شبهة، إلا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال.

ولهذا قال: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُفُّوا قُلُوبَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا مَا آتَاكُمْ مِنَ الْمُنْهَرِتِينَ﴾ بوجه من الوجوه، وأما ما أنا عليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

وأنا ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على يقين مبين، بصحته، واطلاق ما عداه، وهذه شهادة الرسول جازمة، لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق، فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما من الله به عليهم.

﴿وَلَكِنَّمَا هِيَ إِتْرَافٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ - ﴿كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمرتم^(١) على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة وهو عند الله، هو الذي ينزل عليكم إذا شاء، وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء ﴿إِنْ الْكُفْرُ

(١) كلما في ب، وفي أ: استمرتم.

عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبت في اللوح المحفوظ، ثم أثبت ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم.

فإذا كان تعالى هو المفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!

أما والله! لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزون بالشرك والكفران، ويتجرون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعافيه ويرزقهم لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذملت عقولهم في حبه. ولما قوتوا أنفسهم أشد المقت، حيث اتقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

(٦٤، ٦٣) ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْيَوْمِ وَالْآخِرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ٦٤ ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله، الداعين معه إليه أخرى، ملزمًا لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْيَوْمِ وَالْآخِرِ﴾ أي: شدا لدهما ومشقا لهما، وحين يتعدوا أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعًا بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلجج بحاجته في الدعاء، وتقولون - وأنتم في تلك الحال: ﴿لَئِنْ أَنْجَا مِنْ هَذِهِ﴾ الشدة التي وقعنا فيها ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله أي: المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يذلوا في معصيته.

﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكرب العامة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ﴾ لا تفنن الله بما قلتم، وتسبون نعمه عليكم فأبى برهان أوضح من هذا؛ على بطلان الشرك، وصحة التوحيد!!

(٦٥-٦٧) ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِمَّنْ قَبْلَكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَّكُمْ شَيْعًا وَيُزَيِّقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْتُمْ مُنْظَرُونَ﴾ ٦٥ ﴿كَذَّبَ بِرَبِّهِمْ فَهُمْ لَا يَتُوبُونَ﴾ ٦٦ ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُشْكِرٍ شَرْبٌ وَسُقُوتٌ وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٦٧ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٦٨ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٦٩ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧٠ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧١ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧٢ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧٣ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧٤ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧٥ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧٦ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧٧ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧٨ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٧٩ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ٨٠

﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا مِمَّا لَمْ يَلِمْ بِهِمْ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ ١٣٥ ﴿يَعْنِيكُمْ فِيهِ لِيُبْعَثَ أَجَلَ مُسَمًّى لَكُمْ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ١٣٦ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ ١٣٧ ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَيِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ ١٣٨ ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْيَوْمِ وَالْآخِرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ١٣٩ ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ﴾ ١٤٠ ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِمَّنْ قَبْلَكُمْ أَوْ يَلِيَسَّكُمْ شَيْعًا وَيُزَيِّقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْتُمْ مُنْظَرُونَ﴾ ١٤١ ﴿كَذَّبَ بِرَبِّهِمْ فَهُمْ لَا يَتُوبُونَ﴾ ١٤٢ ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُشْكِرٍ شَرْبٌ وَسُقُوتٌ وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ١٤٣ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ١٤٤ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ١٤٥ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ١٤٦ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ١٤٧ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ١٤٨ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ١٤٩ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِمْ سَبْحٌ وَلِلَّهِ الْآلَمِينَ﴾ ١٥٠

تبيين: أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضًا.

فهو قادر على ذلك كله، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبيكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك، ولكن من رحمته أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم، والحصب، ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف.

ولكن عاقب من عاقب منهم، بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط بعضهم على بعض، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العالمون^(١).

﴿أَنْتُمْ مُنْظَرُونَ﴾ أي: تنوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية، والمطالب الإلهية.

﴿كَذَّبَ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: بالقرآن ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِكَلِيلٍ﴾ أحفظ أعمالكم،

وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّشْتَرِكٌ ۚ أَيُّ وَهْمٍ يَحُضُّ فِيهِ، وَزَمَانٍ لَا يَتَقَدَّمُ عَنْهُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَتَوَكُّفٌ تَعَلُّمٌ﴾ ما تواعدون به من العذاب.

(٦٨، ٦٩) ﴿وَلَمَّا زَاغَتِ الْآلِيَيْنِ يَحُضُّونَ فِي بَلَدَيْنَا فَأَعْرَضَ عَنْهُمُ حَتَّى يَحُضُّوا فِي حَبِيبٍ غَيْرِهِ فَمَا يُؤْمِنُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْرِ أَفْطَلِيَيْنِ ۝ وَمَا عَلَى الْآلِيَيْنِ يَتَّقُونَ مِنْ جَسَائِهِمْ مِنْ شَرٍّ وَلَكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقصد فيه وفي أهله. فأمر الله رسوله أصلاً، وأمهتاً، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره. فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل حث على البحث والنظر والمناظرة بالحق.

ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُكَ الشَّيْطَانُ﴾ أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْرِ أَفْطَلِيَيْنِ﴾ يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه - فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَى الْآلِيَيْنِ يَتَّقُونَ مِنْ جَسَائِهِمْ مِنْ شَرٍّ وَلَكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ولكن ليدركهم، ويعظمهم، لعلهم يتقون الله تعالى.

وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى، وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ، مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب^(١)، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

(٧٠) ﴿وَذَرِ الْآلِيَيْنِ أَفْطَلُوا فِيهِمْ لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لَكُمْ وَلَا لِمَنْ دُونَهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ ۚ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ

اللهِ وَكِيلٌ وَلَا شَفِيعٌ ۚ وَإِنْ تَدُلُّ عَلَى عَدْوٍ لَا يُؤْخَذُ بِهَا أَذْلِكَ الْآلِيَيْنِ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَّابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَذَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه، وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعاً، وجداً لا هزلًا، وإخلاصاً لوجه الله، لا رياء وسمعة.

هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما مَنْ زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً، بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه يبدنه، لأن العمل والسعي إذا كان لغير الله فهو لعب. فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر، ولا يفتخر به، وتنتظر حاله، ويحذر من فعالة، ولا يفتخر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً، وتحسيناً له، بذكر ما فيه من أوصاف الخشن، وما يضر العباد نهياً عنه، وتفصيلاً لأنواعه، وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة، الداعية لتركه.

وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجتره على علام الغيوب، واستمراره على ذلك المرهوب، فذكرها، وعظها؛ لترتدع وتزجر، وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَكِيلٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: قبل [أن] تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع.

﴿وَإِنْ تَدُلُّ عَلَى عَدْوٍ لَا يُؤْخَذُ بِهَا﴾ أي: لا يقبل ولا يفيد. ﴿أَذْلِكَ الْآلِيَيْنِ أُبْسِلُوا﴾ أي: أهلكوا وأبسوا من الخير، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَّابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار، قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

(٧١-٧٣) ﴿قُلْ أَنتُمْ مَوْتٌ ۚ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُورٌ عَلَى أَصْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰ اللَّهُ كَالْبَيِّنَاتِ أَسْهَوْتُمْ الشَّيْطَانِ فِي الْأَرْضِ سَرَّانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلْ بِكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ۚ وَبِمَا يَشَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ

(١) في ب: كان تركه هو الواجب

الْحَقُّ

١٣٦

الْحَقُّ

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَهُمْ قُرْآنُكُمْ يَقُولُونَ ﴿١٣٦﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا لَهِوًّا وَعَرُضَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرِيهِمْ أَنْ يَنْبَغُ لَهُمْ أَسْكَنْتُ مِنْهُمْ بَنِيَّ وَأَنَا اللَّهُ وَبَنِيَّ أَشْرَكُوا وَلَا سَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ أَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْهُدَى أُنْتَبِهْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَإِذَا نَالِ السَّلَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٨﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي يُبْسِلُكُمْ تُحْشَرُونَ ﴿١٣٩﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ لَهُ الْخَلْقُ قَوْلُهُ وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ وَهُوَ الْخَكِيمُ الْحَجِيرُ ﴿١٤٠﴾

وَهُوَ الَّذِي يُبْسِلُكُمْ تُحْشَرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْخَكِيمُ الْحَجِيرُ ﴿١٣٩﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الدَّاعِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ، الَّذِينَ يَدْعُونَكُمْ إِلَى دِينِهِمْ، مِينًا وَشَارِحًا لَوْصَفِ آلِهَتِهِمْ، الَّتِي يَكْتَفِي الْعَاقِلُ بِذِكْرِ وَصْفِهَا، عَنْ النِّهْيِ عَنْهَا، فَإِنْ كُلُّ عَاقِلٍ إِذَا تَصَوَّرَ مَذْهَبَ الْمُشْرِكِينَ جَزَمَ بِبُطْلَانِهِ قَبْلَ أَنْ تَقَامَ الْبَرَاهِينُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

وهذا وصف يدخل فيه كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إِنْ الْأَمْرُ لِلَّهِ. ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ﴾ أَي: وَنَقْلَبُ بَعْدَ هِدَايَةِ اللَّهِ لَنَا إِلَى الضَّلَالِ، وَمِنَ الرُّشْدِ إِلَى الْغِي، وَمِنَ الصِّرَاطِ الْمَوْصِلِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي تَقْضِي بِسَالِكِهَا إِلَى الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: أَضَلَّتْهُ وَتَبَتَتْ عَنْ طَرِيقِهِ وَمَنْجَعِهِ، الْمَوْصِلِ إِلَى مَقْصِدِهِ، بَقِيَ ﴿حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ وَالشَّيَاطِينُ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الرَّدَى، بَقِيَ بَيْنَ الدَّاعِينَ حَائِرًا.

وهذه حال الناس كلهم، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُمْ يَجِدُونَ فِيهِمْ جَوَازِبَ وَدَوَاعِي ^(١) مُتَعَارِضَةً، دَوَاعِي ^(٢) الرِّسَالَةِ وَالْعَقْلِ الصَّحِيحِ، وَالْفُطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ﴿يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ وَالصُّعُودِ إِلَى أَعْلَى عَالَمِينَ.

ودواعي ^(٣) الشَّيْطَانِ، وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُ، وَالنَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، يَدْعُوْنَهُ إِلَى الضَّلَالِ، وَالتَّزَوُّلِ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَكُونُ مَعَ دَاعِي الْهُدَى، فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا أَوْ أَعْظَمِهَا.

ومِنْهُمْ مَنْ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ.

ومِنْهُمْ مَنْ يَتَسَاوَى لَدَيْهِ الدَّاعِيَانِ، وَيَتَعَارَضُ عِنْدَهُ الْجَاذِبَانِ، وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَعْرِفُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ أَي: لَيْسَ الْهُدَى إِلَّا الطَّرِيقُ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، وَمَا عَدَاهُ فَهُوَ ضَلَالٌ وَرَدَى وَهَلَاكٌ ﴿وَأَنْزَلْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بَأَن نَقَادَ لِتَوْحِيدِهِ، وَنَسْتَسَلِمُ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَنَدْخُلُ تَحْتَ رِقِّ عِبَادِيَّتِهِ، فَإِنَّ هَذَا أَفْضَلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْعِبَادِ، وَأَكْمَلُ تَرْبِيَةٍ أَوْصَلَهَا إِلَيْهِمْ.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي: وَأْمُرْنَا أَنْ نَقِيمَ الصَّلَاةَ بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا وَسُنَنِهَا وَمَكْلَمَاتِهَا ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا عَنَى نَهْيَ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُبْسِلُكُمْ تُحْشَرُونَ﴾ أَي: تَجْمَعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، خَيْرَهَا وَشَرِّهَا.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لِأَمْرِ الْعِبَادِ وَنِيَاهِمُ، وَيُشِيرُهُمْ وَيُعَاقِبُهُمْ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا مَثْنِيَّةَ، وَلَا يَقُولُ شَيْئًا عَيْنًا ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خَصَّهُ بِالذِّكْرِ - مَعَ أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ - لِأَنَّهُ تَقَطَّعَ فِيهِ الْأَمْلَاقُ، فَلَا يَبْقَى مُلْكٌ إِلَّا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْخَكِيمُ الْحَجِيرُ﴾ الَّذِي لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، وَالنِّعْمَةُ السَّابِغَةُ، وَالْإِحْسَانُ الْعَظِيمُ، وَالْعِلْمُ الْمَحِيطُ بِالسَّرَائِرِ وَالْبَوَاطِنِ وَالْخَفَايَا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

(٧٤-٨٣) ﴿وَإِذْ قَالَ لِأَنْبِيَائِهِمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاسْتَكْبَرُوا إِلَيَّ﴾

(١) كَذَا فِي ن، وَفِي أ: دَوَاعٍ. (٢) كَذَا فِي ن، وَفِي أ: دَاعٍ. (٣) كَذَا فِي ن، وَفِي أ: دَاعِي.

إِنِّي أَرْكَبُ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٤﴾ إلى آخر القصة، يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، منبثاً عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، إذ قال لأبيه آزر:

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا لِلَّهِ﴾ أي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، ﴿إِنِّي أَرْكَبُ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئاً، وتركتم عبادة خالقكم، ورازقكم، ومديركم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ﴿نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان، والعلم التام، بجميع المطالب.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: أظلم ﴿رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ لعله من الكواكب المضئية، لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره؛ ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: على وجه النزول مع الخصم أي: هذا ربي، فهل ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعالم أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب ذلك الكوكب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي: الذي يغيب ويختفي عن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده، ومديراً له في جميع شؤونه.

فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟ وهل اتخذه إلهاً إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟ ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ كَائِناً﴾ أي: طالعاً، رأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ تنزلاً ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونُ مِنَ الْغَوَّاهِينَ﴾ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته فلا معين له.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَارِغَةً﴾ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ من الكوكب ومن القمر، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ تقرر حينئذ الهدى، واضمحل الردى ف ﴿قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا فَتَرَكُونَ﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي: لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه ﴿وَمَا أَنَا

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّكَ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا لِلَّهِ إِنِّي أَرْكَبُ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونُ مِنَ الْغَوَّاهِينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا فَتَرَكُونَ ﴿٧٩﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٠﴾ وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨١﴾ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾

مِنَ الشِّرْكِ﴾ فنبأ من الشرك، وأدعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان، (وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة، من إبراهيم لقومه، ويبان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفولته، فليس عليه دليل^(١)).

﴿وَمَا تَعْبُدُونَ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ أي فائدة لم حاجة من^(٢) لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه - هو بنفسه - يدعو الناس إلى ما هو عليه.

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ فإنها لن تضرنني، ولن تمنع عني من النفع شيئاً ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أنه - وحده - المعبود المستحق للعبودية.

﴿وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ وحالها حال العجز، وعدم النفع ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

(١) زيادة من هاشم ب، وهي بخط الشيخ - رحمه الله - . (٢) كذا في ب، وفي أ: المحاجة لمن.

سُأَلْنَا ﴿أَي: إِلَّا بِمَجْدِ انْبِاعِ الْهَوَىٰ ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَرِهَ بَلْسَرًا﴾ أي: يخلطوا ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ يَطْلُرُ أَؤْلَيْكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُتَسَدِّرُونَ ﴿الْأَمْنُ مِنَ الْمَخَافِ وَالْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ﴾ والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرى، ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة.

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿وَبِكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها.

﴿رَفَعَ رَجَبَاتٍ مِّنْ نَّسَاءٍ﴾ كما رفعت درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، خصوصاً العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماماً للناس بحسب حاله، ترمق أفعاله، وتفتنى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشي بعلمه في ظلمة دجوره.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يضع العلم والحكمة، إلا في المحال اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحال، وبما ينبغي له.

(٨٤-٩٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَذُرِّيَّتَآ نَحْنُ وَنَحْنُ وَيَسَىٰ ۝ وَإِلَى النَّاسِ كُلِّ مِّنَ الْأَعْيُنِ ۝ وَاسْتَجِيبُ لِّلرَّسُولِ وَارْزُقْ وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ كَاثِرًا ۝ وَكَذَلِكَ فَضَلْنَا عَلَى الْمُتَلَوِّينَ ۝ وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَارْحَمِهِمْ وَأَحْسَنَهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۝ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَصِلُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْأُتُوهُ ۝ إِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَأَفْشَرَهُ قَدْ لَا أَشْتَكُم عَلَيْهِ أَجْرًا ۝ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ لما ذكر الله تعالى عبده وخليفه إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب، وأن الله جعل صفوة الخلق

2004年12月

13A

DESIGN

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ
وَهُمْ يُهْتَدُونَ ﴿٨٦﴾ وَكَانَ حُجَّتُهُمْ إِيَّاهَا وَإِذْ هَبْنَا
قَوْمَهُ نُفْعًا دَرَجَاتٍ مِّنْ شَاءُ إِنَّا رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٧﴾
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُورَيْتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٨﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٨٩﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَثَمَارًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٩١﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عَبَادَهُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكُنَّا بِمَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ
﴿٩٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدُ قُلْ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٤﴾

من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا يدرك لها نظير فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين. ﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿هَدَيْنَا﴾ الصراط المستقيم، في علمه وعمله.

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ «من قَبْلُ» وهدايته من أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل، الذي هو أحدهم.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، لأن الله ذكر مع مَنْ ذكر لوطاً، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم؛ لأن السياق في مدحه والثناء عليه،

ولوط - وإن لم يكن من ذريته - فإنه ممن آمن على يده ، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك أبلغ من كونه مجرد ابن له .

(١) في ب: أعلى أنواع.

﴿قُلْ﴾ للذين عرضوا عن دعوتك: ﴿لَا أَشْتَكُمُ عَلَيْهِمْ جَزَاءً عَنِ بِلَاغِي إِلَيْكُمْ، ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله ﴿إِنَّ هُوَ لَا يَكْفُرُ الْمُكْفِرِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في ذرونها، ويتذكرون به معرفة ربهم، بأسماها، وأوصافه، ويتذكرون به الأخلاق الحميدة، والطرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق المفضية إليها، فإذا كان ذكرى للعالمين، كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فليعلم قبولها والشكر عليها.

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن قَبْلِهِ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلْبَنِي إِسْرَءِيلَ لِيَجْزِيَ قَآئِلِينَ بُدُوًا وَيُخَوِّفُوا كَثِيرًا وَهُدًى وَمَا لَكُم مِّنْ آيَاتٍ إِلَّا أَن تَقُولَ اللَّهُ شَاءَ ذَٰلِكُمْ فِي حُجَّتِهِمْ يَلْبِغُونَ﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة، [من اليهود والمشركون،] ^(١) وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قذح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملًا، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفى لأعظم منه، امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأى قذح في الله أعظم من هذا!!

﴿قُلْ﴾ لهم - ملزمًا بفساد قولهم وقرهم، بما به يقرون - : ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿وَنُورًا﴾ في ظلمات الجهل ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة، وهدايا إلى الصراط المستقيم علمًا وعملاً، وهو الكتاب الذي شاع ودفع، وملأ ذكره القلوب والأسماع، حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس، ويتصرفون فيه بما شاءوا، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهروه، وما خالف ذلك أخفوه وكنموه، وذلك كثير.

﴿وَعَلَّمَهُم﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿مَا لَرَمَلًا أَشْرَ وَلَا مَا كَانُوا﴾ فإذا سألهم عن مَنْ أَنزَلَ هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات فأجب عن هذا السؤال ﴿وَقُلْ اللَّهُ﴾ الذي أنزله، فحيثما يتضح الحق، وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة، ثم إذا ألزمهم بهذا الإلزام ﴿ذَرُّهُمْ فِي حُجَّتِهِمْ يَلْبِغُونَ﴾ أي: اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

(٩٢) ﴿وَمَكَدًا كُتِبَ أَنزَلْنَاهُ مَبْرُكًا مُّصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَسْنَا لَكُم

﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ بن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب ﴿وَيُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ابني عمران ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل، لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿وَذَكِّرْنَا يَتِيمًا﴾ ابنه ﴿وَيَتِيمًا﴾ ابن مريم ﴿وَالْيَاسَّ كُلَّ﴾ من هؤلاء ﴿وَمِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم، وأنتمهم.

﴿وَالْمُسْتَعِيزَ﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، والوالد سيد ولد آدم محمد ﷺ ﴿وَيُوسُفَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ بن هاران، أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فَضَلَّكُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأن درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿وَمَنْ يُلِغِ اللَّهُ وَأَرْسُلُ فَاُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْقِسْطِيِّينَ وَالضَّالِّينَ﴾ هؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق.

فالرسل الذين قصهم الله في كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا نباهم بلا شك.

﴿وَمِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: آباء هؤلاء المذكورين ﴿وَذَرِّيَّتِهِمْ وَخَوَّصَهُمْ﴾ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم. ﴿وَأَعْيَنَهُمْ﴾ أي: اخترناهم ﴿وَعَدَّيْنَاهُم إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى المذكور ﴿هُدًى اللَّهُ﴾ الذي لا هدى إلا هداة. ﴿بِهِدًى يَوْمَ مَن يَسْكُنَ يَوْمَ يَصْلَوْنَ﴾ فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهديكم، فلا هادي لكم غيره، ومن شاء هدايته هؤلاء المذكورون.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَاهُ﴾ على الغرض والتقدير ﴿لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَتَعَدُّونَ﴾ فإن الشرك مجبئ للعمل، موجب للخلود في النار، فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم، فغيرهم أولى.

﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المذكورون ﴿الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَفْضَلُ﴾ أي: أمش - أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم.

وقد امتثل ﷺ، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص، فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وبهذا الملحظ استدلل بهذه من استدلل من الصحابة، أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٣٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِثْقًا
 قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ
 تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا طَبْسًا تَذُوهُنَّ وَتُخَفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا
 أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ نَزَّاهُ دَرَجَةً فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٣٩﴾
 وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ
 أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٤٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى
 اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ
 مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
 وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ
 تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
 وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٤١﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى
 كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَأَوْا ظُهُورَكُمُ
 وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ
 لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ ﴿١٤٢﴾

وأي ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته؟!!

ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وأحواله الفظيعة، وكرهه الشنيعة - لرأيت أمرًا هائلًا، وحالة لا يقدر الوصف أن يصفها.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب، والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيا للخروج من الأبدان: ﴿أَنْفُسُكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل.

فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاء به الرسل ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ترفعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها، وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب، والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند

الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: ﴿وَهَذَا﴾ القرآن الذي ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ إليك ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: وصفه البركة، وذلك لكثرة خيراته، وسعة مبراته ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق.

﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وأنزلناه أيضًا؛ لتذرع أم القرى، وهي مكة المكرمة، ومن حولها من ديار العرب، بل ومن سائر البلدان، فتحذر الناس عقوبة الله، وأخله الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب، عمزت أركانه، وانقاد لمراسي الله.

﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يدومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها، ومكملاتها، جعلنا الله منهم.

(٩٣، ٩٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولقد جئتمونا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَأَوْا ظُهُورَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾ يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلمًا، ولا أكبر جرماً، ممن كذب [على] الله، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكمًا وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب، وتغيير الأدیان، أصولها، وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله - ما هو من أكبر المفاسد.

ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأن الله يوحى إليه، وهو كاذب في ذلك، فإنه - مع كذبه على الله، وجراته على عظمتهم وسلطانهم - يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفة وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمسيح كماله الكذاب، والأسود الغنسي، والمختار، وغيرهم ممن انتصف بهذا الوصف.

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله؟ ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله.

وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَائِلُ الْحَقِّ﴾ شامل لساائر الحبوب، التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي ييئها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنواب، على اختلاف أنواعها، وأشكالها، ومنافعها.

وفلق النوى عن الأشجار، من النخيل، والفواكه، وغير ذلك، فيفتح الخلق من الآدميين والأنعام والدواب، ويرتفعون فيما فلق الله، من الحب، والنوى، ويقتاتون، ويتفنون بجميع أنواع المنافع، التي جعلها الله في ذلك. ويربهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويربهم من بدائع صنعته، وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحّدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المني حيوانًا، ومن البيضه فرخًا، ومن الحب والنوى زرعًا وشجرًا. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿يَبْرِئُ الْحَيَّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضًا ونحو ذلك.

﴿وَلِكُلِّ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتبديرها ﴿اللَّهُ﴾ ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربي جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه ﴿وَأَلَيْكَ تُؤَكَّدُكُمْ﴾ أي: فأني تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا!!

ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات، ذكر مته بنهية المساكن، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿قَائِلُ الْحَقِّ﴾ أي: كما أنه فائق الحب والنوى، كذلك هو فائق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصباح الذي يفلقه شيئًا فشيئًا، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم إلا بوجود النهار والنور ﴿جَمَلُ﴾ الله ﴿أَلَيْلُ سَكَا﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنافعهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبدًا إلى يوم القيامة.

الاحتضار، وقيل الموت وبعده، وفيه دليل على أن الروح جسم، يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد، ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة، فإنهم إذا وردوها، وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال، ولا أولاد ولا جنود، ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء، فإن الأشياء إنما تتحول وتحصل بعد ذلك بأسبابها، التي هي أسبابها.

وفي ذلك اليوم تقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا، سوى العمل الصالح، والعمل السيئ، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسنًا وقبحها، وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال، فهي التي تنفع أو تضر، وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعواري خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ زَكَاةً مَّا حَوَّلَكُمُ أَي: أعطيناكم، وأنعمنا به عليكم ﴿وَرَأَى ظُئْرَكُمْ﴾ لا ينعون عنكم شيئًا ﴿وَمَا تَرَى مَعَكُمْ شُعْمَكُمْ أَلَيْسَ الَّذِي رَضَعْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة، والأنبياء والصالحين، وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيبًا من أنفسهم، وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد لله، والله مالِكهم، والمستحق لعبادتهم، فشرکهم في العبادة، وصرفها لبعض العبيد، تنزِيل لهم منزلة الخالق المالك، فيوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

﴿وَمَا تَرَى مَعَكُمْ شُعْمَكُمْ أَلَيْسَ الَّذِي رَضَعْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَفَقَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها. فلم تنفع ولم تُجِد شيئًا.

﴿وَصَلَّ عَصَكُمْ مَا كُنتُمْ تَرْجُونَ﴾ من الريح، والأمن، والسعادة، والنجاة، التي زينها لكم الشيطان، وحسنها في قلوبكم، فنطقت بها ألسنتكم. واغتررت بهذا الزعم الباطل، الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم، وأهلكم، وأموالكم.

(٩٥-٩٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ قَائِلُ الْحَقِّ وَالْحَقُّ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالَّذِي يُؤَكَّدُكُمْ﴾ قَائِلُ الْحَقِّ وَالْحَقُّ جَمَلُ أَلَيْلُ سَكَا وَالنَّسْ وَالْفَمْرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَمَلُ لَكُمْ أَشْجُورَ لِيَتَنَبَّؤُوا بِمَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَتَسْتَوُوا وَمُسْتَوًى قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يخبر تعالى عن كماله،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٠

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى﴾ فَخَرَجُ الْحَيِّ مِنَ الْغَيْبِ وَخَرَجُ الْغَيْبِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ تَوَفُّكَُونَ ﴿١٤٠﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٤١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٤٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَوْنَهُ أَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٤﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٤٥﴾ بِدْعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤٦﴾

﴿و﴾ جعل تعالى ﴿النَّعَسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما، واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذَلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي - من عزته - انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذلة مسخرة بأمره، بحيث لا تعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تاخر. ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير، ونظام بدیع، تحير العقول في حسنه وكماله وموافقه للمصالح والحكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويتهير في سيرة السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها.

ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيرة أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التيسير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيناها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة، ﴿يَتَوَفَّرُ يَتَمَكَّنُ﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجفاء، المعرضين عن آيات الله، وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملا الأرض، ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه، وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه.

وجعل الله لهم مستقراً، أي: منتهى يتجهون إليه، وغاية

يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها.

وأودعهم الله في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديعة، التي لا تستقر ولا تثبت، بل ينتقل منها، حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر وأما هذه الدار، فإنها مستودع وممر.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبياناته.

(٩٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَوْنَهُ أَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا من أعظم منته العظيمة التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً، وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء، مما يأكل

المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بآيات المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها: التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

(١٠٠-١٠٤) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرُّوا لَهُمُ يَبِينَ وَيَنْبَغِي لِلْعَرَبِ عِلْمٌ سُبْحَتَهُ وَقَعَلَتْ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ يَدْعُوا التَّمَنَاتِ وَالْأَنْزِينَ أَنَّ يَكُونُ لَهُمْ وَكَلَّ وَكَلَّ كَلَّ لَمْ صَرْجَةً وَكَلَّ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكُنِي شَيْءٌ عَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَتَدْبِرُهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَارَ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ۝ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده، وتعرفه إليهم بآياته اللبينة، وحججه الواضحات - أن المشركين به، من قریش وغيرهم، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والآلوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك «حرق المشركون» أي: انتفكوا، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله، بنين وبنات بغير علم منهم.

ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافتري عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه!!

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: ﴿سُبْحَتَهُ وَقَعَلَتْ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وآفة وعيب.

﴿يَدْعُوا التَّمَنَاتِ وَالْأَنْزِينَ﴾ أي: خالفهما، ومتفن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿أَنَّ يَكُونُ لَهُمْ وَكَلَّ وَكَلَّ كَلَّ لَمْ صَرْجَةً﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه.

والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء، وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها فقال: ﴿وَهُوَ يَكُنِي شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات، وما

الناس والأنعام، فرغ الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجذب واليأس والقطط، ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون، وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر مَنْ أسدى النعم، وعبادته والإجابة إليه، والمجبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال: ﴿فَلْخَرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك النبات الخضر.

﴿جَا مُتْرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض، من بر، وشعير، وفرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع.

وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبويه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلثتها، ليبقى أصل البلر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿وَمِنْ أَشْجَارٍ﴾ أخرج الله ﴿مِنْ ظِلِّهَا﴾ وهو الكفري، والرعاة قبل ظهور الفتور منه، فيخرج من ذلك الرعاة ﴿فَتَرَانِ دَانِيَةً﴾ أي: قريبة سهلة التناول، متدلية على مَنْ أَرَادَهَا، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كرب ومرقي، يسهل صعودها.

﴿وَمِنْ أَشْجَارٍ﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿حَنْظَلٍ مِنْ أَغْصَانٍ وَأَرْزِينَ وَأَرْزَانَ﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عمَّ جميع الأشجار والنبات.

وقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَبَرَّ مَشْتَبِهًا﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهاً في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفاواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل يتنفع به العباد، ويتفكهون، ويفتاتون، ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿فَانظُرُوا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصاً: النخل، إذا أثمر.

﴿وَيَتَبَعُهُ﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نفضه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً، وآيات، يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده. ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل مَنْ تفكر أدرك

السرائر والخفايا، والخبايا والبواطن.

ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسمى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي، من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدر عليه الأمور، التي يكرهها العبد، ويتألم منها، ويدعو الله أن يزيلها، لعله أن دينه أصلح، وأن كماله متوقف عليها، فسيحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ كَمْ أَنْتُمْ أَبْصَرٌ فَلْيَنْفِسُوا مِنْ غَيْرِ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

لما بين تعالى من الآيات البينات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نيه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار، لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، لأنها صادرة من الرب الذي ربي خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبين الآيات، وتوضح المشكلات.

﴿كَمْ أَنْتُمْ أَبْصَرٌ﴾ بتلك الآيات مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها ﴿فَلْيَنْفِسُوا﴾ فإن الله هو الغني الحميد.

﴿وَمَنْ غَيْرِ﴾ بأن بصر فلم يتبصر، وزجر فلم يتزجر، وبين له الحق فما اتقاه ولا تواضع، فإنما عماء مضرته عليه.

﴿وَمَا أَنَا﴾ أيها الرسول ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأراقبها على الدوام، إنما عليّ البلاغ المبين، وقد أدبته، وبلغت ما أنزل الله إليّ، فهذه وظيفتي، وما عدا ذلك فلست موظفاً فيه^(١).

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَنَسُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ بِكَذَلِكَ رَبَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَدُوٌّ ثُمَّ إِنْ رَبَّهُمْ رَجَعْنَاهُمْ يَقْبَلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزاً، بل مشروعاً في الأصل، وهو سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثاناً وآلهة مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها.

ولكن لما كان هذا السب طريقاً إلى سب المشركين لرب

اشتملت عليه من النظام التام، والخلق الباهر، فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق، وكمال حكمته، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْغَلِيظُ﴾ ﴿وَالَّذِي خَلَقَ مَا خَلَقَ﴾ وقدر ما قدر ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب الذي ربي جميع الخلق بالنعيم، وصرف عنهم صنوف النقم.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَفَاتَبُدُّهُ﴾ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه، فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾.

﴿وَعُوذٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَيْلٌ﴾ أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره، خلقاً وتديراً وتصرفاً.

ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته، وتمامه، وكمال انتظامه، بحسب حال الوكيل عليه، ووكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق، فإن وكمالهم وكالة نياحة، والوكيل فيها تابع لموكله.

وأما البارئ تبارك وتعالى، فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن لأحد أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً، ولا فطوراً، ولا في تدبيره نقصاً وعيباً.

ومن وكالته: أنه تعالى توكل ببيان دينه، وحفظه عن المزيلات والمغريات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لعظمته وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يشتهى بالمفهوم، فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دلّ على أن الرؤية ثابتة.

فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال: ﴿لا تراه الأبصار﴾ ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقیض قولهم.

﴿وَعُوذٌ بِدَرْكِ الْأَبْصَارِ﴾ أي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره بجميع المبصرات، صغارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك

(١) انتقل الشيخ - رحمه الله - بعد تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا﴾ فلم يفسر الآيات من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ شُرِفَ الْأَنْبِيَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ذات الأرقام (١٠٥-١٠٧) فقام التجار بتفسيرها دون الإشارة إلى أنها ليست من كلام الشيخ - رحمه الله - انظر طبعة التجار (٤٥٠/٢-٤٥٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٩﴾ لَّا تَدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْاَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١١٠﴾
قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ لِيُقُولُوا اذْهَبْ وَلْيَنْتَبِهْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾
اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
الشُّرَكِ ۖ ﴿١١٣﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيفًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١٤﴾ وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبِقُوا اللَّهَ عَدُوًّا بَغِيًّا كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فَهُمْ فِي سَبِيلِهِمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾ وَتَقَالِبْ أَقْسَامَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٧﴾ وَتَوَّأْنَا زَلَّاتِ السَّمَاوَاتِ
وَكُلَّهَا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ وَحْشَرًا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَبَلَا مَا كَانُوا يَلْعَنُونَ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ
اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَصْحَرَكُم مِّنْ يَّهْلُونِ ﴿١١٨﴾ أَيُّ قَسَمٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿يَا أَيُّهُمْ أَجِدُكُمْ﴾ أَيُّ قَسَمٍ اجْتَهَدُوا
فيه، وأكدوه.

العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة،
وسب، وقبح - نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم
يحمون لدينهم، ويتعصبون له، لأن كل أمة زين الله لهم
عملهم، فأروه حسنا، وذبا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى
إنهم ليسون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمته في قلوب
الأبرار والفقار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

ولكن الخلق كلهم، مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة،
يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينهم بما كانوا يعملون
من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية، وهي أن
الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم
ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر.

(١٠٩-١١١) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ وَتَقَالِبْ أَقْسَامَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٧﴾ وَتَوَّأْنَا زَلَّاتِ السَّمَاوَاتِ
وَكُلَّهَا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ وَحْشَرًا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَبَلَا مَا كَانُوا يَلْعَنُونَ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ
اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَصْحَرَكُم مِّنْ يَّهْلُونِ ﴿١١٨﴾ أَيُّ قَسَمٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿يَا أَيُّهُمْ أَجِدُكُمْ﴾ أَيُّ قَسَمٍ اجْتَهَدُوا
فيه، وأكدوه.

﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿لَيُؤْمِنُنَّ
بِهَا﴾. وهذا الكلام الذي صدر منهم، لم يكن قصدهم فيه
الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به
الرسول قطعا، فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات،
والأدلة الواضحات، التي - عند الالتفات لها - لا تبقى أدنى
شبهة ولا إشكال في صحتها ما جاء به.

فطلبهم - بعد ذلك - للآيات من باب التعتن الذي لا يلزم
إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصح لهم.

فإن الله جرت سنته في عباده، أن المقترحين للآيات على
رسلهم، إذا جاءتهم، فلم يؤمنوا بها - أنه يعاجلهم بالعقوبة،
ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: هو الذي يرسلها
إذا شاء، ويمتنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء.

فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما
توجهون إلي توضيح ما جتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع
ذلك فليس معلوما أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون،
بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال: ﴿وَمَا
يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَتَقَالِبْ أَقْسَامَهُمْ وَأَصْحَرَكُم كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ

في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة
يأتيهم فيه الداعي، وتقوم عليهم الحجة بتقليب القلوب،
والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط
المستقيم.

وهذا من عدل الله، وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على
أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم
يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسبا
لأحوالهم.

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم، ومشيئتهم وحدهم،
وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم
الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم، يشهدون للرسول
بالرسالة، وتكليم الموتي، ويعتهم بعد موتهم، وحشر كل
شيء إليهم حتى يكلمهم^(١) ﴿فَبَلَا﴾ ومشاهدة، ومباشرة،
بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ
الله إيمانهم، ولكن أكثرهم يجهلون، فلذلك رتبوا إيمانهم

(١) في ب: وحشرنا عليهم كل شيء حتى يكلمهم.

على مجرد إثبات الآيات.

وإنما العقل والعلم، أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه، وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

(١١٢، ١١٣) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلَيَصْنَعَنَّ إِلَهِهُ أَقْبَدُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرَىٰؤُنَّ مَا هُمْ مُفْتَرُونَ﴾ يقول تعالى - مسلماً لرسوله محمد ﷺ - وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه سنتنا، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يزين بعضهم لبعض، الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات، حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليفتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني.

بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المسوغة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيَصْنَعَنَّ إِلَهِهُ﴾ أي: ولنتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَقْبَدُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك.

﴿وَلَيَرَىٰؤُنَّ مَا هُمْ مُفْتَرُونَ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه، ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة.

ثم ينتج من ذلك أن يقتفروا من الأعمال والأقوال ما هم مقتفرون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد الفبيحة.

فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم.

وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية، والالباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخليهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة. فإن كانت حقاً قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسبت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً ردوها على من قالها، كأنها من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة،

﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَى الْمَلِئِكَةِ وَكَمَّمُ الْوُجُوهَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وَلَيَصْنَعَنَّ إِلَهِهُ أَقْبَدُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرَىٰؤُنَّ مَا هُمْ مُفْتَرُونَ﴾ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُكْتَبُ عَنْهُمْ مِنْ رَبِّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿وَلَنْ تَقْطِعَ أَعْيُنُنَا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مِنْ يَصِفُ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾

ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستير ويتضح، إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه - حينئذ - يبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون.

(١١٤، ١١٥) ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُكْتَبُ عَنْهُمْ مِنْ رَبِّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ ۝ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أي: قل يا أيها الرسول: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه، فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم، وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب

ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور، أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدراً وأجراً، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

(١١٨، ١١٩) ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ وَتَنَا كَلَّمَ اللَّهُ نَبِيًّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَذَلِكَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطَرُّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَيَّالُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ يَقَعُوا عَلَيْهِمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية، من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم.

فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فضل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام.

ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكنت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فضله الله، فما لم يفصله الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فضله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخصة، كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلَيْسَتْ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَحْتَضِرُ مِنْ غَيْرِ مَرْغَبٍ إِلَيْهِمْ فَلَنْ أَفْلَحَ عَذَابٌ رَجِيمٌ﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لَيَّالُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿يَقَعُوا عَلَيْهِمْ﴾ ولا حجة، فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة.

فهؤلاء معتدون على شرع الله، وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين.

بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق بمصالحهم، وأرحم بهم من أنفسهم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله،

وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: موضحة فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قبلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعترفون بذلك ﴿يَسْمَعُونَ أَنْتُمْ مَرْئِيَّ رَبِّكَ إِلَهِي﴾ ولهذا ترأت الإخبارات ﴿فَكَلَّا﴾ تشكك في ذلك ولا ﴿تَكُونُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وَكُنْتُمْ كَكَيْفَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي، فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منها].

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسان الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والباطن، والماضي والمستقبل.

(١١٦، ١١٧) ﴿وَإِنْ تَطَلَّعْ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يقول تعالى لبيه محمد ﷺ، محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَإِنْ تَطَلَّعْ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في آديانهم، وأعمالهم، وعلومهم، فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غابتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، ويتخرون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطأً للبي ﷺ - فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق قبلاً، وأصدق حديثاً، و ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي، فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله،

إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

فتباً لمن قلّم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة، والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وَيَا أَهْلَ الْاَلْتَنُوءِ﴾ في شركهم، وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿لَكُمْ لَشْرُونَ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتوهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل بمجرد ما على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب. لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان. وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصى إلا الله.

(١٢٢-١٢٤) ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَذَّبْنَا عَنْ الْكُفْرَةِ كَيْسَ يَحْتَايِ وَيَتَّبِعْ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَّعْرِضَهَا لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَسْكُرُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا فَاتَّبَعُوا لَنُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتِيَ مَأْوَیً رَّسُلَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ أَكْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَعُوا صَعَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيْتًا﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي.

﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصراً في أموره، مهتدياً لسيبله، عارفاً للخير، مؤثراً له، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفاً بالشر، مبغضاً له، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أقيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغنى، والكفر والمعاصي؟

﴿لَيْسَ يَحْتَايِ وَيَتَّبِعْ﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء. فبني تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا

والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والثقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم، والقرب منه.

(١٢٠) ﴿وَرَدُّوْا ظُهُرَ الْاِثْمِ وَابْتَئُوْهُ اِذَا الْاِثْمُ يَكْسِبُوْنَ اِثْمًا سَجَرُوْنَ بِمَا كَانُوْا يَفْكُرُوْنَ﴾ المراد بالإثم جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرَج، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، فنهى الله عباده عن اقرار الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب.

ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك، واجباً متعيناً على المكلف.

وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر، والعجب، والرياء، ونحو ذلك. حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، فلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا دَخَلَ اِبْنُكَ اَسْرًا اَوْ عَلَيْهِ وَاَلَهُ لَيْسَ وَرَاءَ اَلشَّيْطَانِ يُوْحُوْهُ اِلَى اَوْلِيَآئِهِمْ يَخْفِيْلُوْهُمْ ۚ وَاِذَا اُفْتَنُوْهُمْ فَلَكُمْ لَشْرُونَ﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام وألتهتهم، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً.

ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو اللحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية، عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخرى، الدالة على رفع الحرَج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ اَلْمَيْتَةُ﴾ ولعلها سبب نزول الآية، لقوله: ﴿وَإِذَا اَلشَّيْطَانُ يُوْحُوْهُ اِلَى اَوْلِيَآئِهِمْ يَخْفِيْلُوْهُمْ﴾ بغير علم.

فإن المشركين - حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - أننا كلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة. وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند

يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

فكانه قيل: فكيف يؤثر مَنْ له أدنى مسكة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيراً؟! فاجاب بأنه ﴿ثُمَّ لِيُكَفِّرَنَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها، وراوها حقاً. وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم. فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح. وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون غير متساوين.

فمنهم: القادة، والرؤساء، والمتبعون، ومنهم: التابعون المرؤسون. والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مَجْرِمَهَا﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم ﴿يَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل.

وإنما مكروهم وكيدهم يعود على أنفسهم، لأنهم يمحرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتى يدول الأمر في عاقبته، بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين.

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرسل، حسداً منهم وبغياً، فقالوا: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْذِيَ يَسْلَ مَا أَوْفَى رُسُلُ اللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة. وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه. فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون

للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً عن أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فمن علمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها، وهو متصف بكل خلق جميل، ومتبرؤ من كل خلق دنى، أعطاه الله منها ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً، ومن لم يكن كذلك، لم يضع أفضل مواهبه عند مَنْ لا يستأمله، ولا يزكو عنده.

وفي هذه الآية دليل على كمال حكمة الله تعالى، لأنه وإن

﴿١٢٥﴾

١٤٣

﴿١٢٦﴾

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَحْرَمَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا أَضْطَرَّكُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَبُرَ لِيَضْلُوهُنَّ بِأَهْوَاهِهِمْ يَغْيِرْ عَلَيْهِمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٢٦﴾ وَذَرُوا أَظْهَارَ الْآثِمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّا الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢٨﴾ أَوْ مِمَّا كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي يَوْمَ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمَهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣٠﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْذِيَ يَسْلَ مَا أَوْفَى رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٣١﴾

كان تعالى رحيماً، واسع الجود، كثير الإحسان، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله.

ثم توعد المجرمين فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إهانة وذل، كما تكبروا على الحق أذلهم الله. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي: بسبب مكروهم، لا ظلماً منه تعالى.

(١٢٥) ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَفْرَحْ صَدْرُهُ لِإِسْلَامِهِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرِيماً كَأَنَّا بِمُعْتَذِرٍ إِلَى السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الْإِنْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى: - ميثاق لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله - إن من انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأن بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذاً به - غير مستثقل - فإن هذا علامة على أن الله قد هداه، ومن عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق.

وإن علامة من يرد الله أن يضله، أنه يجعل صدره ضيقاً حرجاً أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد

انغمس قلبه في الشهوات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدة بكاء يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة له فيه.

وهذا سببه عدم إيمانهم هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان. وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، يشره الله للبسرى. ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسيهره للعسرى.

(١٢٦، ١٢٧) ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآدَمِيَّ لِقَوْمٍ يُذَكِّرُونَ ۝ لَمْ دَارُ السَّكَنَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أَي: معتدلاً، موثقاً إلى الله، وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفضلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يُذَكِّرُونَ﴾ فإنهم الذين علموا، فانفضوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل. فلهذا قال: ﴿لَمْ دَارُ السَّكَنَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات.

ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه الممتنون، من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ الذي يتولى تديريهم وتربيتهن، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن مولاها وتابع هواه، فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

(١٢٨-١٣٥) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْخَلْقَ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آلَآءَ اللَّهِ إِلَيْنَا إِنَّا كَانُوا يُكْسِبُونَ ۝ يَمْعَشَرُ الْخَلْقَ وَالْإِنْسَانِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ بِقُصُوفٍ عَلَيْكُمْ ءَاتِي وَرُسُلُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِحُيُوتِهِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۝ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۝ وَلَكِنْ دَرَجَتْ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ فِي شَيْءٍ ۝ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ إِنْ يَسْأَلُ بَدِينَكُمْ وَيَسْأَلُ مِنْ بَدِينِكُمْ مَا

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآدَمِيَّ لِقَوْمٍ يُذَكِّرُونَ ۝ لَمْ دَارُ السَّكَنَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أَي: معتدلاً، موثقاً إلى الله، وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفضلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يُذَكِّرُونَ﴾ فإنهم الذين علموا، فانفضوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل. فلهذا قال: ﴿لَمْ دَارُ السَّكَنَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات.

يَسْأَلُ كَمَا أَنْتُمْ بَيْنَ ذُرِّيَّتِهِ قَبُولَ ۝ إِنَّ مَا تُوَسَّوْنَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝ قَدْ يَقُولُ أَفَغَافِلُونَ عَنِ الْعَالِ قَدْ تَكُونُ لَكُمْ عَذَابُ الدَّارِ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الْفَافِلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزروهم إلى المعاصي: ﴿يَمْعَشَرُ الْخَلْقَ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ﴾ أي: من إضلالهم، وصدهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي؟ ووقمت محاربين الله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟.

فالיום حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نعمتي، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع، ولا دعاء يسمع. فلا تسأل حينئذ، عما يحل بهم من النكال والخزي والويل، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذاراً. وأما أولياؤهم من الإنس، فأبدا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: تمتع كل من الجنّي

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنِ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾ أنا أو أنتم .

وهذا من الإنصاف بموضع عظيم، حيث بين الأعمال وعاملها، وجعل الجزاء مقرونًا بنظر البصير، ضاربًا فيه صفحا عن التصريح الذي يغني عنه التلويح. وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار، وأن كل معرض عن ما جاءت به الرسل، عاقبته سوء وشر، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا نَافِعٌ لَّذُنُوبِهِمْ﴾ فكل ظالم، وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته [فيه] الاضمحلال والتلف «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذ له يفلته».

وَالْأَنْكَبُ تَصَيَّبًا فَصَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرُغْبِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ يَبْعِلُ إِلَّا شُكْرُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ • وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ بَرِّئَ مِنَ الشَّيْءِ قَتْلَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَمَا فَعَلُوا فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ • وَقَالُوا هَذِهِ أَمْتُهُمْ وَأَحَرُّ جَبْرًا لَا يَعْصِمُهَا إِلَّا مَن تَشَاءُ بِرُغْبِهِمْ وَأَلَعَدَّ حَرَمَتَ طُهُورِهَا وَأَلَعَدَّ لَا يَذْكُرُونَ أَسَدَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءَ عَلَيْهِ سَجَرِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ • وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْكَبِ غَالِيسٌ إِنْ كُنَّا لَنَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ عَلَىٰ أَزْوَاجٍ وَإِنْ يَكُنْ قِتْمَةٌ فَهُوَ فِيهِ شُرَكَاءُ سَجَرِهِمْ وَصَهْمُ إِلَّا هُوَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ • قَدْ حَسَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلَدَهُمْ سَهًّا بِمَن يَدْعُوهُم بِحُرْمَتِ اللَّهِ أَفْوَرًا عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ • يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ، من سفاهة العقل، وخفة الأحلام، والجهل البليغ، وعدد تبارك وتعالى شيئًا من خرافاتهم، لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدر فيه أصلاً، فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿جَنَّاؤُا وَيَوْمَئِذٍ مِّنَ الْكَافِرِينَ الْأَنْكَبُ تَصَيَّبًا﴾ ولشركانهم من ذلك نصيباً، والحال أن الله تعالى هو الذي ذرأه للعباد، وأوجده رزقاً، فجمعوا بين محذورين محظورين، بل ثلاثة محاذير: منهم على الله في جعلهم له نصيباً، مع اعتقادهم أن ذلك

وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئاً
في ذلك.

وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا،
ولم يكنوا واصلاً إلى الشركاء.

وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به، ولم يصل إلى

اشتركوا في الربيع والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق، ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم قد رضوا بما آتاهم مولاهم، وفتحوا بما حباهم.

فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى التي أَعَدَّها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل الصفوة من أهل وِدادِهِ.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَنَّا يَتَّبِعُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَهَاتِيذِكُمْ﴾
عمله، وبما يعلمه من مقصده، وإنما أمر الله العباد بالأعمال
الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمة بهم وقصدًا
لمصلحتهم. وإلا فهو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا
تنتفع طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العصاة.
﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ بِمَقَانِمِكُم مَّن يَشَاءُ كَمَا أَنفَكْتُم مِّن دُونِكُمْ قَبْرَ الْعَالَمِينَ﴾.

فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترحلون منها، وتخلونها لمن بعدكم، كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم، فلم تأخذتموها قراءاً؟ وتوطئتم بها، ونسيتم أنها دار ممر لا دار مقر، وأن أمامكم داراً، هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟

وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرون، ويرحل نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها، فثم الخلود الدائم، والإقامة اللازمة، والغاية التي لا غاية وراءها، والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب، والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب.

هنالك، والله! ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، ويتنافس فيه المتنافسون، من لذة الأرواح وكثرة الأفراح، ونعيم الأبدان والقلوب، والقرّب من عَلامِ الغيوب.

فله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات، وما أبهس حظ من رضي بالدون، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون! ولا يستبعد المعرض الغافل، سرعة الوصول إلى هذه الدار.

فَإِنْ مَا تُوعِدُونَ لِأَتَىٰ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ، فارين من عقابه، فإن نواصيكم تحت قبضته، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه.

﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَقَوْمِكُمْ إِذَا دُعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَبَيْنَتْ لَهُمْ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّهِ، فَامْتَنِعُوا مِنَ الانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ، وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَاسْتَمِرُّوا عَلَى شِرْكِهِمْ: ﴿يَقُولُوا تَسْلَوْنَ عَلَىٰ مَكَائِكُمْ﴾ أَي: عَلَىٰ حَالَتِكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا، وَرَضِيْتُمُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ ﴿إِنِّي عَابِلٌ﴾ عَلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، وَمَتَّعَ لِمَرْضَاهِ اللَّهِ.

يَدْعَا وَأَقْوَالًا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ.

فنعندهم اصطلاح في بعض الأنعام [والحرث] أنهم يقولون فيها: ﴿هَذِهِ أَنْفُسُ وَحَرَثٌ جَبَرٌ﴾ أي: محرم ﴿لَا يَلْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا مَنْ أودنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف - من عندهم -.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة، إلا أهويتهم وآراءهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالكربوب والحمل عليها، ويحرمون ظهرها، ويسمونهم الحام.

وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، ويسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك.

﴿يَسْبِغُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ على الله من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع.

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ويعينونها - محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأُنْثَى خَالِصٌ لِلْذَكَوَّةِ﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركون فيها النساء.

﴿وَحَكْمٌ عَلَى أَرْزَاجِنَا﴾ أي: نساننا، هذا إذا ولد حياً. وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتاً، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿يَسْبِغُهُمْ﴾ الله ﴿وَصَفَّيْهُمْ﴾ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله.

﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال. ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه واقتروه، وهو يعافهم ويرزقهم جل جلاله.

ثم بين خسارتهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردي والضلال.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقاً لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿أَفْوَرًا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: كذباً يكذب به كل معاند كفار. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: قد ضلوا ضلالاً

الله منه شيء. وذلك أنهم إذا حصل لهم - من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم - شيء، جعلوه قسمين:

قسمًا قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فاش لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه، ولا يقبل عمل مَنْ أشرك به.

وقسمًا جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد.

فإن وصل شيء مما جعلوه لله، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك. وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لأنفسهم إلى ما جعلوه لله، ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها.

فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه وينصح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ أَشْرَكَ مَعِيَ شَيْئًا تَرَكْتَهُ وَشُرْكَهُ».

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله - على زعمهم - فإنه لا يصل إليه لكونه شركاً، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

ومن سفه المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين شركائهم - أي: رؤسائهم وشياطينهم - قتل أولادهم، وهو: الوأد، الذين يذفنون أولادهم خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح.

ولا يزال شركائهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمتنعهم، ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم، ما فعلوه. ولكن اقتضت حكمته، التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجاً منه لهم، وإمهالاً لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿قَدْ زُهِمَ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ أي: دعهم مع كذبهم واقتنائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضرُوا الله شيئاً.

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموماً، وجعلها رزقاً ورحمة، يمتنعون بها ويتنفسون، قد اخترعوا فيها

بعيدًا، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

(١٤١) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّقْرُونَتَيْنِ وَبَعَثَ فِي كُلِّ مَقْرُونَةٍ مِّنْكُمْ رَّعِيًّا وَجَعَلَ فِيهَا أَزْوَاجًا مُّشْكَبَةً لِّكُلِّ أَصْفَىٰ ۖ وَلَا تَجْزِيهِمْ سَرَاجٌ لَّا بُحْبُوحُ الْمُسْرِفِينَ﴾ لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحبوب والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحبوب والأنعام فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ

﴿تَمْرُثْتَنِي وَغَيْرَ مَعْرُثَتٍ﴾ أي: بعض تلك الجنات، مجعول له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خال من العروش، تبت على ساق، أو تنفرش في الأرض.

وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يرشونها وينمونها.

﴿و﴾ أنشأ تعالى ﴿النَّخْلَ وَالزَّرْعَ حَنْظَلًا أَكْثَرًا﴾ أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوة لأكثر الخلق. ﴿وَأَنْشَأَ تَعَالَى الزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَاتَ مُتَشَابِهًا﴾ في شجره ﴿وَعَرَّ مَشَابِيهُهُ فِي ثَمَرِهِ وَطَعْمِهِ. كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا شَيْءَ أَنْشَأَ اللَّهُ هَذِهِ الْجَنَاتِ، وَمَا عَطَفَ عَلَيْهَا؟ فَاخْبِرْ أَنَّهُ أَنْشَأَهَا لِمَنْفَعِ الْعِبَادِ فَقَالَ: ﴿كُلُوا مِنْ كَرْمِهِ﴾ أي: النخل والزرع ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآتَا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الانصباء المقدره في الشرع.

أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمزلة حولان الحول. لأنه الوقت الذي تشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزروع، ويكون الأمر فيها ظاهرًا لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع، بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرامه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقت عليه.

وَقَالُوا هَذِهِ أَتْمَنَّا وَحَرَبٌ جَبَرٌ لَا يَبْطَعُهَا إِلَّا مَنْ
نَشَأَ بِرُءُوسِهِمْ وَأَتْمَنَّا حُرْمَتَ ظُهُورِهَا وَأَتْمَنَّا لِأَيْدِكُمْ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفِرَاءَ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْعِمِ
خَالِصَةٌ لِّلذِّكُورِ وَتُحَرِّمُ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَإِنْ يَكُنْ
مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفِرَاءَ عَلَى اللَّهِ
قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي
أَنشَأَ جَنَّتَ مَعْرُوشَتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ
مُتَشَكِّبٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرٍ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاثُوا حَقَّهُ يَوْمَ
حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمَنْ أَلَانَعُو حُمُولَةً وَفَرَّشَا كُلًّا وَامَارًا فَقُمْ
لِللَّهِ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادةا في الزروع، وجذاذ النخيل. وأنه لا تنكرو فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تغريط من صاحب الزرع
والثمر، أنه لا يضمها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع
قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل
يزكي المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ، يبعث خازنًا يحرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعثر بها من الأكل وغيره من أهلها، وغيرهم.

(١٤٢-١٤٤) ﴿وَمِنَ الْأَنْكَمِ حَمْلُهُ وَفَرَسًا كَلَّوْا مَنَا
وَرَفَعَهُ اللَّهُ وَلَا تَعْلَمُوا خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ تَمَيَّنِيهِ
أَرْوَجُ مِنَ الصَّكَّانِ أَنْتَيْنِ وَمِنَ الْعَمَزِ أَنْتَيْنِ قُلِ الْكَافِرَيْنِ حَرَمٌ أَرِ
الْأَنْفِيَيْنِ أَمَا اسْتَعَلَّتْ عَلَيْهِمُ الرِّجَامُ الْأَنْفِيَيْنِ يَتَّبِعُوا بَعْلَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ
سَادِقِينَ ۝ وَمِنَ الْإِبِلِ أَنْتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَنْتَيْنِ قُلِ الْكَافِرَيْنِ حَرَمٌ

﴿الْأَنْثَىٰ﴾

١٤٧

﴿الْأَنْثَىٰ﴾

تَمْنِيَةِ أَرْوَاحٍ مِنَ الصَّانِ أَتَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنِ
 قُلْ مَا لَكُمْ فِي حَرَمِ أُمِّ الْأَنْثَىٰ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
 أَرْحَامُ الْأَنْثَىٰ نَبِيُّنِي بَعْلِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٧﴾
 وَمِنَ الْإِبِلِ أَتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَتَيْنِ قُلْ مَا لَكُمْ فِي
 حَرَمِ أُمِّ الْأَنْثَىٰ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَىٰ
 أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ لَا أَجِدُ
 فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ حَرَمًا عَلَى طَاعَةٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
 مَيْسَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ
 فِسْقًا أَهْلُ بَيْتِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَظْلَمُ عَرَبًا وَلَا عَادِيًّا
 رَبِّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٩﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا
 كُلَّ ذِي طَيْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ
 شَوْحُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ طَهُورُهُمَا أَوْ أُلْحَايَا أَوْ مَا
 اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٥٠﴾

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك. فلما بين بطلان قولهم
 وفساده، قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته، إلا
 في اتباع شرع الله. ﴿أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ
 بِهَذَا﴾ أي: لم يبق عليكم إلا دعوى، لا سبيل لكم إلى
 صدقها وصحتها. وهي أن تقولوا: إن الله وضانا بذلك،
 وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً
 لما دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب. وهذا افتراء لا يجبهه
 أحد، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: مع كذبه وافتراءه على الله، قصده
 بذلك إضلال عباد الله عن سبيل الله، بغير بينة منه ولا برهان،
 ولا عقل ولا نقل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين لا إرادة
 لهم في غير الظلم والجور، والافتراء على الله.

(١٤٦، ١٤٥) ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ حَرَمًا عَلَى طَاعَةٍ
 يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْسَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْرٍ فَإِنَّهُ
 رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلُ بَيْتِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَظْلَمُ عَرَبًا وَلَا عَادِيًّا
 رَبِّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا هَادُوا أُلْحَايَا أَوْ مَا
 حَمَلَتْ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَوْحُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ

أُمِّ الْأَنْثَىٰ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَىٰ أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ
 إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي:
 ﴿و﴾ خلق وأنشأ ﴿بِرَبِّكَ الْأَمْثَرُ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا﴾ أي:
 بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل
 والركوب عليها، لصغرهما كالفصلان ونحوهما، وهي الفرس،
 فهي من جهة الحمل والركوب، تنقسم إلى هذين القسمين.

وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع، فإنها كلها تؤكل،
 ويستفح بها. ولهذا قال: ﴿كُلُوا مِنَّا رِزْقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَكْفُرُوا
 حُطُوتِ الْأَيْتَانِ﴾ أي: طرقه وأعماله التي من جملتها أن
 تحرموا بعض ما رزقكم الله. ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فلا
 يأمركم إلا بما فيه مضرته ومشاوكم الأبدى.

وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده، وجعلها كلها
 حلالاً طيباً، فصلها بأنها: ﴿تَمْنِيَةِ أَرْوَاحٍ مِنَ الصَّانِ أَتَيْنِ﴾
 ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنِ﴾ كذلك. فهذه أربعة، كلها
 داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها.

فقل لهؤلاء المتكلمين الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء،
 أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور، ملزماً لهم بعدم
 وجود الفرق، بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿وَاللَّكَّيْنِ﴾ من
 الضأن والمعز ﴿حَرَمٌ﴾ الله، فلمستم تقولون بذلك وتطردونه،
 ﴿أُمِّ الْأَنْثَىٰ﴾ حرم الله من الضأن والمعز، فليس هذا قولكم،
 لا تحريم الذكور الخالص، ولا الإناث الخالص من الصنفين.

بقي إذا كان الرحم مشتركاً على ذكر وأنثى، أو على
 مجهول فقال: ﴿أَم﴾ تحرمون ما ﴿أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
 الْأَنْثَىٰ﴾ أي: أنثى الضأن وأنثى المعز، من غير فرق بين ذكر
 وأنثى، فلمستم تقولون أيضاً بهذا القول.

فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة، التي
 حصرت الأقسام الممكنة في ذلك، فإلى أي شيء تنهبون؟

﴿يَتَوَفَّى بَعْلِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ودعواكم.
 ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائفاً في
 العقل، إلا واحداً من هذه الأمور الثلاثة. وهم لا يقولون
 بشيء منها. إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلمون
 عليها اصطلاحات من عند أنفسهم، حرام على الإناث دون
 الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من
 الأقوال، التي يعلم علماً لا شك فيه، أن مصدرها من الجهل
 المركب، والعقول المختلفة المنحرفة، والآراء الفاسدة، وأن
 الله ما أنزل - بما قاله - من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا
 برهان.

بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة.
فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو
الآخر منها فقط: ﴿فَلَيْسَ بِحِلٍّ﴾ وصف شامل لكل محرم،
فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث
المستفردة التي حرمها الله على عباده، صيانة لهم، وتكرمة
عن مباشرة الخبث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من الشئ، فإنها تفسر
القرآن، وتبين المقصود منه. فإذا كان الله تعالى لم يحرم من
المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله -
دل ذلك على أن المشركين الذين حرموا ما رزقهم الله،
مفترون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير،
وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في
تحريمهم ما أحله الله، وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت
لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة. وليس منها
محرم إلا ما ذكر في الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله به،
وما سوى ذلك، فحلال.

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن
بعض الجاهل قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع
الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فيمنونها
كما يمنون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين
الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة، كله^(١) من باب التنزيه
لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب، ولكنه حرم
عليهم عقوبة لهم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ مَا حَرَّمَ

حُكُّ ذِي ظُلْفَرٍ﴾ وذلك كالإبل، وما أشبهها.

وحرمنا عليهم ﴿وَيَنْ أَلْبَنَى وَالْفَسْخَ﴾ بعض أجزائها، وهو
﴿شُحُومًا﴾. وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية
والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك فقال: ﴿إِلَّا مَا

حَمَلَتْ ظُهُورُهُمْ أَوِ الْحَوَايَا﴾ أي: الشحم المخالط للأمعاء
﴿أَوْ مَا اتَّخَذَ غَظً﴾.
﴿ذَلِكَ﴾ التحريم على اليهود ﴿حَرَّمَ﴾ أي:

ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم
هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً. ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ في كل ما
نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثاً، ومنَّ

ظُهُورُهُمْ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اتَّخَذَ غَظً ذَلِكَ حَرَّمَ يَتِيمٌ
وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من
الحلال، ونسبوه إلى الله، وأبطل قولهم، أمر تعالى رسوله أن
يبين للناس ما حرمه الله عليهم، ليعلموا أن ما عدا ذلك
حلال. من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل، لأن
التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال
لرسوله:

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ﴾ أي: محرماً
أكله، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه.
﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ والميتة: ما مات بغير ذكاة شرعية،
فإن ذلك لا يحل. كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْبَنَى وَالَّذُ

وَهُمْ الْخَنزِيرُ﴾.
﴿أَوْ دَمًا مُسْفُوحًا﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند
ذكاتها، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن، فإذا خرج من
البدن زال الضرر بأكل اللحم.
ومفهوم هذا اللفظ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق
بعد الذبح، أنه حلال طاهر.

﴿أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَلَيْسَ بِحِلٍّ﴾ أي: فإن هذه الأشياء
الثلاثة رجس، أي: خبث نجس مضر، حرمه الله لطفاً بكم،
ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث.

﴿أَوْ﴾ إلا أن يكون ﴿فَسَقَا أَيْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ يَدٍ﴾ أي: إلا أن
تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله، من الأوثان والآلهة التي
يعبدها المشركون، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن
طاعة الله إلى معصيته.

أي: ومع هذا، فهذه الأشياء المحرمات، من اضطر
إليها، أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شيء منها، بأن
لم يكن عنده شيء، وخاف على نفسه التلف.

﴿غَيْرِ بَرَاعٍ وَلَا عَارٍ﴾ أي: ﴿غَيْرِ بَرَاعٍ﴾ أي: مرید لأكلها،
من غير اضطرار، ولا متعدي أي: متجاوز للحد، بأن يأكل
زيادة عن حاجته ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ غَيْرَ بَرَاعٍ وَلَا عَارٍ فَلَا يَكُنْ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ أي: فالله قد سامح من كان بهذه الحال.
واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في
هذه الآية، مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها كالسباع، وكل ذي
مخلب من الطير ونحو ذلك. فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة
قبل تحريم ما زاد، على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا الحصر
المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما
أوحى إليه في ذلك الوقت.

وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات،

الفسرية، وإن كان الجميع داخلًا في مشيئة الله، ومندرجًا تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر، يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطردهوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب، أو أخذ مال، أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجبًا كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم!؟

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودًا، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ^(١).

(١٥٠) ﴿قُلْ هَلْ شَهِدَ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِمَا بَيْنَنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرْجِيهِمْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا. فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما: أن لا يحضروا أحدًا يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلة، خالية من الشهود والبرهان.

وإما أن يحضروا أحدًا يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم، غير مقبول الشهادة. وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى - ناهيًا نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة -: ﴿إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِمَا بَيْنَنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرْجِيهِمْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي: يسوون به غيره من الانداد والأوثان.

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر، غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق. فحري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حيث أن تحريمهم لما أحل الله، صادر عن تلك الأهواء المضلة.

(١٥١-١٥٣) ﴿قُلْ مَتَلَوْنَا أَنَّى مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُقْرَبُوا بِهِ سُبْحَاتُ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّ إِمْلَاقَ نَفْسٍ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: قل لمن حرم الله ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا. فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ لَا يُكَفَّلُ نَفْسًا إِلَّا وَشِعْرًا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَ رَبِّيَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٥ وَإِنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَ رَبِّيَ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ ٦ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ لِّهَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ: ﴿مَتَلَوْنَا أَنَّى مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمًا عامًّا شاملًا لكل أحد، محتويًا على سائر المحرمات، من المأكول، والمشروب، والأقوال، والأفعال.

﴿أَلَّا تُقْرَبُوا بِهِ سُبْحَاتُ﴾ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا. وحقيقة الشرك بالله: أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله، أو يُعظم كما يُعظم الله، أو يُضرب له نوع من خصائص الربوبية والإلهية. وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدًا، مخلصًا لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا.

ثم بدأ بأكذ الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل، يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ من ذكور وإناث ﴿إِنْ إِمْلَاقُ﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجودًا في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا مننيين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، فنهيه عن قتلهم لغیر موجب، أو قتل أولاد غيرهم، من باب أولى وأحرى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فليست الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ وهي الذنوب العظام المستفحشة ﴿وَمَا ظَلَمَرْنَا مِنْهَا﴾ أي: لا تقربوا الظاهر منها والخفي، أو المتعلق منها بالظاهر، والمتعلق بالقلب والباطن.

والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها، فإنه يتناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهي: النفس المسلمة من ذكر وأنثى، صغير وكبير، بر وفاجر، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالزاني المحصن، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿وَمِمَّا حَرَّمَ رَبِّيَ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ﴾ عن الله

وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها وتقومون بها.

ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ بأكل، أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب. ﴿إِلَّا بِآِلَىٰ هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم، ويتفقون بها. فدل هذا على أنه لا يجوز قربانها والتصرف بها، على وجه يضر اليتامى، أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْبَرَامِ﴾ أي: حتى يبلغ ويرشد، ويعرف التصرف. فإذا بلغ أشده أعطي حितه ماله، وتصرف فيه على نظره.

وفي هذا دلالة على أن اليتيم - قبل بلوغ الأشد - محجور عليه، وأن وليه يتصرف في ماله بالأخط، وأن هذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشد.

﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْيَمَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والوفاء التام. فإذا اجتهدتم في ذلك، ف ﴿لَا تَكِلُوا نَفْسًا إِلَىٰ سَهْمًا﴾ أي: بقدر ما تسعه، ولا تضيق عنه. فمن حرص على الإفاء في الكيل والوزن، ثم حصل منه تقصير، لم يفرط فيه ولم يعلمه، فإن الله عفو غفور^(١).

وبهذه الآية ونحوها استدلل الأصوليون، بأن الله لا يكلف أحدا ما لا يطيق، وعلى أن من اتقى الله فيما أمر، وفعل ما يمكنه من ذلك، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَأَعْيُوا﴾ في قولكم بمراعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون، والإنصاف وعدم كتمان ما يلزم بيانه. فإن الميل على من تكره بالكلام فيه، أو في مقاتله من الظلم المحرم.

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق، وبعدها منه.

وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظه ولفظه.

﴿وَبِمَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد، من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاهد به بين الخلق. فالجميع يجب الوفاء به، ويحرم نقضه والإخلال به.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الأحكام المذكورة ﴿وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما بينه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية الله لكم

١٤٩
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِآِلَىٰ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْيَمَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكِلُوا نَفْسًا إِلَىٰ سَهْمًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِآِلَىٰ هِيَ أَحْسَنُ﴾
﴿وَأَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ زَوْجُونَ ﴿١٥١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَآِرَكًا فَآتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٢﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٣﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمَا لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٤﴾

حق القيام، وتعرفون ما فيها من الحكم والأحكام.

ولما بين كثيراً من الأوامر الكبار، والشرائع المهمة، أشار إليها وإلى ما هو أعم منها، فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أي: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه الله في كتابه، ووضحه لعباده، صراط الله الموصل إليه وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر.

﴿فَأَتَّبِعُوهُ﴾ لتتالوا الفوز والفلاح، وتذكروا الآمال والأفراح. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي: الطرق المخالفة لهذا الطريق. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: تضلكم عنه وتفرقكم يميناً وشمالاً، فإذا ضللتكم عن الصراط المستقيم، فليس ثم إلّا طرق توصل إلى الجحيم.

﴿ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم علماً وعملاً، صرتم من المتقين وعباد الله المفلحين. ووجد الصراط، وأضاف إليه، لأنه سبيل واحد موصل إليه، والله هو المعين للسالكين على سلوكه.

أجمع، ولا أوضح، ولا أبين منه.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا [بعدم] كمالها وتامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ سَيِّئٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ وهذا اسم جنس، يدخل فيه كل ما يبين الحق.

﴿وَهُدَىٰ﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم. فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه، والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض ونأى بجانبه.

﴿سَتَجِدُنَا فِي سَبِيلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. ﴿يَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ﴾ لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم على عملهم الشيء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ لِّالْبَاسِ﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخصص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، [من] اليهود والنصارى. فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم، وظفتهم عن دراسة كتبهم.

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُ لِّمَن تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِلَىٰ مَا تُنظِرُونَ﴾ يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة، بأن تأتيهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم ينفعهم الإيمان، ولا صالح الأعمال. ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على قرب الساعة.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن

(١٥٤-١٥٧) ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَلْقَاهُ رَبُّهُمْ يُرْسُونَ ۝ وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا قَالُوا هُوَ وَأَنزَلْنَاهُ لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ۝ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ سَيِّئٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَلَدِكُمْ وَمَن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا سَتَجِدُنَا فِي سَبِيلِ الْكَافِرِينَ ۝ سَوَاءٌ الْعَذَابُ يَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ ۝ ثُمَّ﴾ في هذا الموضع، ليس المراد منها الترتيب الزمني، فإن زمن موسى عليه السلام متقدم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب، وإنما المراد الترتيب الإخباري. فأخبر أنه أتى ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو: التوراة ﴿تَمَامًا﴾ لنعمته، وكمالاً لإحسانه. ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى. من جعلتها وتامها إنزال التوراة عليهم، فنست عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر، في الأصول والفروع ﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة، والخير الكثير ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيانات عليهم ﴿يَلْقَاهُ رَبُّهُمْ يُرْسُونَ﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحت عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله، وعواقبها الوخيمة ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ فيما يأمر به وينهى، وابتوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تَرْجِعُونَ﴾ فأكثر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى.

﴿وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ أي: تقولون لم ننزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً، لم ينزل من السماء كتاب

الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت.

﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقًا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: إذا وجد بعض آيات الله، لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المفسر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات، صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أفلح عما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ قل: فَمَنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا مَلَأَ اللَّهُ أَلْهَى قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ.

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويغلق حيتن باب التوبة.

ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ منتظراً، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ فستعلمون أننا أحق بالآمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالاستواء، والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين.

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير. وفيه أن من جملة أشرار الساعة طلوع الشمس من مغربها، وأن الله تعالى حكيم، قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً، كما تقدم.

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه. فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو، إذا كان مع العبد الإيمان. فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

(١٦٠، ١٥٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من جاءه بالسنة فلم يشرع أمثالها ومن جاءه بالسنة فلا يخرج إلا مثلها وهم لا يظلمون يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً، ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل

﴿الْأَنْعَامُ﴾

١٥٠

﴿الْأَنْعَامُ﴾

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يُأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِكَ لَا تَفْعَلُونَ لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْفِرُ لِلَّذِينَ تَبَوَّءُوا دِينًا بَيْنَ يَدَيْ رَّبِّي وَأَعْلَنَ لَوَاقِعَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

البدع والضلال والمفرقين للأمة.

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والاتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية.

وامره أن يبرأ ممن فرقوا دينهم فقال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يردون إليه، فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

ثم ذكر صفة الجزاء فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله، أو حق خلقه ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(١٦١-١٦٥) ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

تَخْلِفُونَ ﴿١﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء.
﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ﴾ أي: يخلف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم؛ لينظر كيف تعملون.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في القوة والعافية، والرزق، والخلق والخلق ﴿يَسْتُلْزِمُكُمْ فِي مَا بَأْسَكُمْ﴾ فتفاوتت أعمالكم ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وَلَكُمْ لَعْنَةُ الرَّحْمَنِ﴾ لمن آمن به، وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات.

آخر تفسير سورة الأنعام، فله الحمد والثناء.
وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد ولوعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين^(١).

المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن
لجامعه الفقير إلى الله: عبدالرحمن بن ناصر السعدي.

تفسير سورة الأعراف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٧) ﴿الْأَمْصُ ۝ كَذِبٌ أُولُؤَيْلِكَ فَذَرْهُمْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ يَنْتَهِ يَنْتَهِ بِهٖ وَذَكَرَ لِلْمُذْنِبِينَ ۝ أَتَيْتُمَا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ فَجَاءُوا ۝ فَكَانَ دَعْوَانَهُمْ إِيَّاهُمْ بِأَسْأَتِهِمْ ۚ إِنْ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ۝ فَلَنَسْتَعِزَّ بِالَّذِي أَزِيلُ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَعِزَّ بِاللَّذِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ، مبيّناً له عظمة القرآن: ﴿كَذِبٌ أُولُؤَيْلِكَ﴾ أي: كتاب جليل، حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكمًا

(١) في ب: بذلك. (٢) زيادة من ب، وقد جاء بعدها قول الناسخ: (وكان الفراغ من كتابته، في يوم الجمعة، الموافق خمسة وعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥ هـ). بقلم الفقير إلى ربه العنان علي الحسن العلي الحسن البريكاني. وقد نسخته على نسخة المؤلف، غفر الله له، وأثابه على ذلك، الثواب الجزيل. وجزاء الله عنا، وعن جميع المسلمين، وأثابه على الجزاء، في دار الجزاء. وأدخله الله - برحمته - فسيح الجنان، ووقانا وليّاه، عذاب النيران، بفضلِهِ وكرمه، إنه قريب مجيب. وصلّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين - آمين ثم آمين. يا رب العالمين.

الْأَمْصُ ۝ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ رَأَوْهُ رَبُّكُمْ عَلَى فَوْقٍ وَلَا تَكْفِيكُمْ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَالِيَهَا وَلَا تَزِدُ وَإِنَّهُ وَذَرُوهَا أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَرْجِعُونَ فَيُنْفِكُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ يَسْتُلْزِمُكُمْ فِي مَا بَأْسَكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكُمْ لَفَعُولٌ رَحِيمٌ﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ، أن يقول ويعلمن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، الدين المعتدل المتضمن للفوائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الحنفاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركون.

وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها، وهو الله تعالى.

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله.

وقوله: ﴿وَصِيَّائِي وَمَنَافِي﴾ أي: ما أتت في حياتي، وما يجريه الله عليّ، وما يقدر عليّ في مماتي، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير. ليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني، وبدءاً أنيته من تلقاء نفسي، بل ﴿بِذَلِكَ لَبِئْسَ أَمرًا حَتْمًا، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله﴾ وَأَنَا أُولُؤَيْلِكَ ﴿لِلَّذِينَ﴾ من هذه الأمة.

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ رَأَوْهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: أيحسن ذلك ويوليقي بي، أن أتخذ غيره مربيًا ومدبرًا والله رب كل شيء؟! فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، متقادون لأمره.

فتعين عليّ وعلى غيري أن يتخذ الله ربًا، ويرضى به، وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين.

ثم رغب ورهب بذكر^(١) الجزاء فقال: ﴿وَلَا تَكْفِيكُمْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ﴿وَلَا عَالِيَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ عِزَّلَ صَلِيلًا فَلْيَنْفَسِيهِ ۚ وَمَنْ أَسَاءَ فَلْيُفْسِدْهَا﴾.

﴿وَلَا تَزِدُ وَإِنَّهُ وَذَرُوهَا أُخْرَىٰ﴾ بل كلُّ عليه وزر نفسه. وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإنه عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء.
﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَرْجِعُونَ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنْفِكُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ ۝ كَتَبَ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِ ۝ وَذَكَرَى الْمُؤْمِنِينَ ۝ أَتَعْبَهُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ
مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝
وَمَنْ قَرَّبَ أَهْلَكَهَا فَأَجَاهَا بِأَسْبَابِنَا أَهْلَهُمْ فَأُولَئِكَ
۝ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْبَابِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ۝ فَلَنَسْتَأْذِنَكَ أَتُزِيلُ إِلَهُهُمْ وَلَنَسْتَأْذِنَكَ
الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ عِلْمَهُ وَمَا كُنَّا عَابِدِينَ ۝
وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ مَنْ تَقَلَّتْ مَوْزِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوْزِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ
فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَدِينَ ۚ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝

﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿وَبِعَلَّوْا﴾
منه تعالى لأعمالهم ﴿وَمَا كُنَّا عَابِدِينَ﴾ في وقت من
الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَصُوتَهُ﴾ وقال تعالى:
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا قَوْكُمُ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنْ الْفَلَكِ غَافِلِينَ﴾.

(٩٠، ٩١) ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ
الْحَقُّ ۚ مَنْ تَقَلَّتْ مَوْزِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ
مَوْزِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي:
والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه
ولا ظلم بوجه.

﴿فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوْزِينُهُ﴾ بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته
﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الناجون من المكروه،
المدركون للمحبوب الذين حصل لهم الربح العظيم،
والسعادة الدائمة.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوْزِينُهُ﴾ بأن رجحت كفة سيئاته، وصار الحكم لها
﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل

مفصلاً. ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أي: ضيق وشك
واشْتِيَاء. بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لَا يَأْتِيهِ الْغُيُوبُ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وأنه أصدق
الكلام، فليشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع
بأوامره ونواهي، ولا تخش لثاماً ومعارضاً.

﴿لَتَسْمُرُنَّ بِهِ﴾ الخلق، فتعظمهم، وتذكرهم، فتقوم الحجة
على المعاندين. ﴿وَوَ﴾ ليكون ﴿وَذَكَرَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما قال
تعالى: ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الْإِكْرَى تَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتذكرون به الصراط
المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد،
وبين سلوكه.

ثم خاطب الله العباد، وألفهم إلى الكتاب فقال: ﴿أَتَقْبَلُونَ
مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم،
وهو ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل
عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه، كملت تربيتكم، وتمت
عليكم النعمة، وهديتهم لأحسن الأعمال والأخلاق،
ومعاليها.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: تتولونهم وتتبعون
أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق. ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ فلو تذكركم وعرفتكم المصلحة، لما أترتم
الضار على النافع، والعدو على الولي.

ثم حذرهم عقوباته للآدم الذين كذبوا ما جاءتهم به
رسلهم، لئلا يشابهوهم^(١) فقال: ﴿وَمَنْ قَرَّبَ أَهْلَكَهَا فَأَجَاهَا بِأَسْبَابِنَا﴾
أي: عذابنا الشديد ﴿بَيْنَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: في حين
غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على
قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا
أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا
يغفلونهم من الظلم والمعاصي.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْبَابِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾
كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَسَمْنَا مِنْ قَرْنٍ كَانَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَكْثَابًا
بَعْدَهَا قَوْمًا مَّاخِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ مَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ ۝ لَا
تَرْكَبُوا وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ ۚ لَعَلَّكُمْ تُشْئَرُونَ ۝ قَالُوا
يَبْنَؤُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَبِيدًا
خَائِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَكَ أَتُزِيلُ إِلَهُهُمْ﴾ أي: لنسألن الآدم
الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلهم ﴿وَيَوْمَ
يُنَادِيهِمْ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآيات.

﴿وَلَنَسْتَأْذِنَكَ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما
أجابتهم به أمهم.

ومنها: أن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ بمجرد ما كافي لنقص إبليس الخبيث. فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه، وتكبره، والقول على الله بلا علم. وأني نقص أعظم من هذا!!
ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه. وأما النار ففيها الخفة والطيش والإحراق.

ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين، فقال الله له: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ الجنة ﴿وَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخيب خلق الله وأشرهم.

﴿فَأَنزَلْنَاكَ مِنَ الصُّنْبُوتِ﴾ أي: المهانين الأذلين، جزاء على كبره وعجبه، بالإهانة والذل.

فلما أعلن عدو الله بعداوة الله، وعداوة آدم وزفرته، سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.

ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطيعه ممن يطيع عدوه، أجابه لما سأل فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

(١٧، ١٦) ﴿قَالَ فِيمَا أُفْوِيَنِي لِأَقْنَدُ قَوْمِي مِنْكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: لا يثبتهم من بيني وبينهم ومن خلفهم وعن أئمتهم وعن شيوخهم ولا تجد أكرهم شريكك أي: قال إبليس - لما أبلس وأيس من رحمة الله - ﴿فِيمَا أُفْوِيَنِي لِأَقْنَدُ قَوْمِي﴾ أي: للمخلوق ﴿مِنْكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: لألزم الصراط ولاسعى غاية جهدي، على صد الناس عنه، وعدم سلوكهم إياه.

﴿قَوْمٌ لَا يَتَّبِعُونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه، من إدراك بعض مقصوده فيهم.

ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْرَهُمْ شَرِيكَ﴾ فإن القيام بالشكر، من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ حَرْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله، لناخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطرق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

لهم العذاب الأليم ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْبَادُكَ يُطْلَمُونَ﴾ فلم يقادوا لها، كما يجب عليهم ذلك.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ يَبْلُغًا مَا فَتَكُرُونَ﴾ يقول تعالى ممثلاً على عباده بذكر المسكن والمعيشة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هيأنا لها لكم، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها، ووجوه الانتفاع بها. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذي هيأها، وسخر أسبابها.

﴿فَبَلَّغْنَا مَا فَتَكُرُونَ﴾ الله، الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم القم.

(١١-١٥) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ قال ما مَنَّكَ إِلَّا سَبَدًا إِذْ أَمَرْتَهُ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَطَلَعْتَنِي مِنْ طِينٍ ○ قَالَ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ قَانَتْكَ فِيهَا فَتَكُرُ إِنَّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ ○ قَالَ أَطِيعُوا اللَّهَ يَوْمَ يَوْمٍ يَمُوتُونَ ○ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ يقول تعالى مخاطباً لبني آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أصلكم ومادنتكم التي منها خرجتم: أياكم آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلمه الله تعالى ما به تكمل صورته الباطنة، أسماء كل شيء.

ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم، إكراماً واحتراماً، وإظهاراً لفضله، فامتثلوا أمر ربهم ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم أجمعون ﴿إِلَّا إِبْلِسَ﴾ أي أن يسجد له، تكبراً عليه، وإعجاباً بنفسه، فربخه الله على ذلك وقال:

﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا سَبَدًا﴾ لما خلقت بيدي، أي: شرفته وفضله بهذه الفضيلة التي لم تكن لغيره، فعصيت أمري، ونهاوت بي؟

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَطَلَعْتَنِي مِنْ طِينٍ﴾ وموجب هذا أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين، لعلو النار على الطين وصعودها. وهذا القياس من أفسد الأقيسة، فإنه باطل من عدة أوجه:

منها: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص، فإنه قياس باطل، لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص، يقارب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعاً لها.

فأما قياس يعارضها، ويلزم من اعتباره إلغاء النص، فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

﴿٢٧﴾

١٥٣

﴿٢٨﴾

قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَوْ تَغَفَّرُوا لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَهْطُوا بِعَصَاكُمْ لِبَعْضِ عَذَابِ لَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
 تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٩﴾ يَبْنِي ۖ أَدَمُ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا
 يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِدْسًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مَنْ
 ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْنِي ۖ أَدَمُ لَا يَفْقَهُكُمْ
 الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
 لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ
 إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلُوا
 فَجَسَدًا قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمَا آيَةً نَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ
 أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
 وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٣﴾ فَرِيقًا
 هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٤﴾

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٥﴾ فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان
 والشیطان ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الدَّيْتِ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
 يَتَوَكَّلُونَ﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الدَّيْتِ بِتَوَلَّوْهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
 مُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾

(٢٨-٣٠) ﴿وَإِذَا قِيلُوا فَجَسَدًا قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمَا آيَةً نَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا
 بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قُلْ
 أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٣﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ
 الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
 مُّهْتَدُونَ ﴿٣٤﴾ يقول تعالى ميتاً لفتح حال المشركين الذين يفعلون
 الذنوب، وينسبون أن الله أمرهم بها ﴿وَإِذَا قِيلُوا فَجَسَدًا﴾ وهي

كل ما يستفحش ويستفح، ومن ذلك طوافهم بالبيت عراة.
 ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمَا آيَةً نَا﴾ وصدقوا في هذا ﴿وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا﴾
 وكذبوا في هذا، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة فقال: ﴿قُلْ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: لا يليق بكماله وحكمته، أن

وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرهما بحال إقامتهما فيها،
 وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوها الموت، مشحونة بالامتحان
 والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل
 عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها. ثم إذا
 استكملوا بعثهم الله، وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار
 حقيقة، التي هي دار المقامة.

ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري،
 واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء،
 كالطعام والشراب والمراكب، والمناجح ونحوها. قد يسر الله
 للعباد ضروريها، ومكمل ذلك، ولين لهم^(١) أن هذا ليس
 مقصوداً بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته
 وطاعته، ولهذا قال:

﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس
 التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب
 والروح.

وأما اللباس الظاهري، فغايته أن يستر العورة الظاهرة في
 وقت من الأوقات. أو يكون جمالاً للإنسان، وليس وراء
 ذلك منه نفع.

وأيضاً، فيبتدئ عدم هذا اللباس، تنكشف عورته الظاهرة
 التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس
 التقوى، فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزي
 والفضيحة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: ذلك
 المذكور لكم من اللباس، مما تذكرون به ما ينعكم ويضركم،
 وتشبهون^(٢) باللباس الظاهر على الباطن.

(٢٧) ﴿يَبْنِي ۖ أَدَمُ لَا يَفْقَهُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ
 الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
 حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى
 محذراً لبني آدم، أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم:
 ﴿يَبْنِي ۖ أَدَمُ لَا يَفْقَهُكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يزين لكم العصيان،
 ويدعوكم إليه، ويرغبكم فيه، فتفادون له ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ
 الْجَنَّةِ﴾ وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه.

فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك، ولا يألو جهده عنكم،
 حتى يفتنكم إن استطاع. فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في
 بالك، وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبينه، وأن لا تغفلوا
 عن المواضع التي يدخل منها إليكم.

ف ﴿إِنَّهُ﴾ يراقبكم على الدوام، و ﴿يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ من
 شياطين الجن ﴿وَمِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا

(١) زيادة من هامش ب. (٢) هكذا في أ، وفي ب: وتستعينون.

مشوهاً.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس
التزييف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة،
وباستعمال التجميل فيها، ونظافة السرة من الأذناس
والأنجاس.

ثم قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: مما رزقكم الله من الطيبات
﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في ذلك. والإسراف إما أن يكون بالزيادة على
القدر الكافي، والشرة في المأكولات الذي يضر بالجسم،
وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق في المأكول والمشرب
واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام.

﴿إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الشَّرِيفَ﴾ فإن السرف يغيضه الله، ويضر
بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن
يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة،
الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن
الإسراف فيهما.

(٣٣، ٣٢) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ
تُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَعَثَ فِي الْأَرْحَامِ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرَبُوا بِأَنْهَارٍ يَنْزِلُ مِنْ سُلْطَانٍ
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى: - منكرًا على من
تعتت، وحرماً ما أحل الله من الطيبات - ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه،
والطيبات من الرزق، من مأكول ومشرب بجميع أنواعه، أي:
من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد،
ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله!!

وهذا التوسع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا
به على عبادته، فلم يحرّمه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال:
﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: لا
تبعه عليهم فيها.

ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على
معاصيه، فلأنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها
وعلى التعمع بها، ويسأل عن التعمع يوم القيامة.

﴿كَذَلِكَ تُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين يتفهمون بما فصله الله من الآيات،
ويعلمون أنها من عند الله، فيقبلونها ويفهمونها.

ثم ذكر المحرمات التي حرّمها الله في كل شريعة من
الشرائع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ أي: الذنوب الكبار
التي تستفحش وتستفح، لشاعتها وقبحها، وذلك كالزنا

بأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون
ولا غيره ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأي افتراء أعظم من
هذا.

ثم ذكر ما يأمر به فقال: ﴿قُلْ أَنتَ رَبِّي بِإِقْسَاطٍ﴾ أي: بالعدل
في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور.

﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: توجهوا لله،
 واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً «الصلاة» أقيّموها
ظاهراً وباطناً، وتقرها من كل نقص ومفسد ﴿وَأَذَعُوهُنَّ لِمِغْصِيكَ
لَهُنَّ الْآيَاتُ﴾ أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له.

والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا
ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم، سوى عبودية الله
ورضاه.

﴿كَذَلِكَ يَدْعُوكُمْ﴾ أول مرة ﴿تَقُودُونَ﴾ للبعث، فالقادر على بدء
خلقكم، قادر على إعادته، بل الإعادة أهون من البداية.

﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَذِهِ﴾ أي: وقفهم للهداية، ويسر
لهم أسبابها، وصرف عنهم موانعها ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ
الْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وجبت عليهم الضلالة، بما تسببوا لأنفسهم،
وعملوا بأسباب الغواية.

ف ﴿إِنَّمَا أَتَخَذُوا الشُّكُوبَ أَوَّلِيَّةً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ
الشُّكُوبَ أَوَّلِيَّةً يَنْزِلْ فِي دُؤْبٍ إِنَّ اللَّهَ فَقْدَ حَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾.

فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية
الشیطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكّلوا
إلى أنفسهم فخرسوا أشد الخسران. وهم يحسبون أنهم
مهندون، لأنهم انقلب عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقاً،
والحق باطلاً.

وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة
للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما
تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل
والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومته، وأن
الضلالة بخذلانه للبد، إذ تولى - بجعله وظلمه - الشيطان،
وتسبب لنفسه بالضلال. وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال،
أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانته من
ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

(٣١) ﴿يَنْبَغِي آدَمَ عُدُوًّا زَيْنُكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول تعالى - بعدما أنزل على بني
آدم لباساً يواري سواهم وريشاً - ﴿يَنْبَغِي آدَمَ عُدُوًّا زَيْنُكَ عِنْدَ
كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: استروا عورتكم عند الصلاة كلها، وفرضها
ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً

واللواط ونحوهما.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والعجب والرياء والنفاق، ونحو ذلك ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: الذنوب التي تؤثم، وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا، الذنوب المتعلقة بحق الله، والمتعلقة بحق العباد.

﴿وَأَنْ تَشْكُرُوا لِلَّهِ مَا لَمْ يَبْدِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك: هو أن يشرك مع الله في عبادته، أحد من الخلق. وربما دخل في هذا، الشرك الأصغر كالرياء، والحلف بغير الله، ونحو ذلك.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه. فكل هذه قد حرّمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفساد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْصِئُونَ﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى، لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة، ولا أفرادها.

(٣٥، ٣٦) ﴿يَبْنِيْ عَادٌ زِيْنًا يَبْنَیْ عَادٌ بِنَا يَبْنَیْكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ عَائِنِيْ فَمَنْ أَتَقْنَى وَأُضْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَبُوا يَخْلِبُنَا وَأَسْتَكْبِرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب عليهم، يقضون عليهم آيات الله، ويبينون لهم أحكامه. ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم فقال: ﴿فَمَنْ أَتَقْنَى﴾ ما حرّم الله، من الشرك، والكبائر، والصغائر.

﴿وَأُضْلَحَ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن، حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا يَخْلِبُنَا وَأَسْتَكْبِرُوا عَنْهَا﴾ أي: لا أنت بها قلوبهم، ولا انقادات لها جوارحهم، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

الْبَقَرَةُ

١٥٤

الْبَقَرَةُ

﴿يَبْنِيْ عَادٌ زِيْنًا يَبْنَیْ عَادٌ بِنَا يَبْنَیْكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ عَائِنِيْ فَمَنْ أَتَقْنَى وَأُضْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَبُوا يَخْلِبُنَا وَأَسْتَكْبِرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنْهَكُمُ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَدْعُوْنَهُمْ قَالُوا آيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿يَمْنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو النقص عليه ما لم يقل ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الواضحة المبينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم. فهؤلاء، وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغن عنهم شيئاً، يتمتعون قليلاً، ثم يعذبون طويلاً.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَدْعُوْنَهُمْ﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم، واستيفاء آجالهم. ﴿قَالُوا﴾ لهم في تلك الحالة - توبيخاً وعتاباً - ﴿آيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة، إن كان فيها منفعة لكم، أو دفع مضرة.

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء.

﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ مستحقين

للعذاب المهين الدائم.

(٣٨) فقالت لهم الملائكة: ﴿ادْخُلُوا فِي أَسْرٍ﴾ أي: في جملة أمة. ﴿فَدَخَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْإِنْسِ﴾ أي: مضوا على ما مضين عليه، من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي واليوار.

كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿لَعَنَتْ أَهْلَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿شَرَّ يَوْمٍ أَتَيْتُمُوهُ يُكْفَرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَاكُمُوهَا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمع في النار جميع أهلها، من الأولين والآخرين، والقادة والرؤساء، والمقلدين التابعين. ﴿قَالَتْ أَقْرَبُهُمْ﴾ أي: متأخروهم، المتبعون للرؤساء ﴿لَأَقْرَبُهُمْ﴾ أي: لرؤسائهم، شاكين إلى الله إضلالهم إياهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّوا فَنُفِثَ عَنْكَ عَذَابُكُمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَعَزُّ﴾ أي: عذبهم عذاباً مضاعفاً لأنهم أصلوا، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

(٣٩) ﴿قَالَتْ أَقْرَبُهُمْ لَأَقْرَبُهُمْ﴾ أي: الرؤساء، قالوا لاتباعهم: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي: قد اشتركتنا جميعاً في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأئى فضل لكم علينا؟ ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ ﴿يَكُلُّ﴾ منكم ﴿ضِعْفٌ﴾ ونصيب من العذاب.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال، أبلغ وأشنع من عذاب التابع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائهم أعظم من ثواب التابع.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّاقُهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، فهذه الآيات ونحوها، دللت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله، مخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافتراءهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة.

(٤٠، ٤١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَخْلُجُهُمْ أَيْوَاتُنَا وَهِيَ تَكُونُ إِلَّا فِي سَخِرَ لِيَايَاكُمْ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾. ﴿لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته، فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بينات، واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولى، أنهم آيسون من كل خير، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن، فلا يؤذن لها. كما لم تصعد في الدنيا إلى

الإيمان بالله ومعرفته ومحبه، كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزء من جنس العمل.

ومفهوم الآية، أن أرواح المؤمنين المتقادين لأمر الله، المصدقين بآياته، تفتح لها أبواب السماء، حتى تخرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوي، وتبتهج بالقرب من ربها، والخطوة برضوانه.

وقوله عن أهل النار: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف ﴿فِي سَخِرَ لِيَايَاكُمْ﴾ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسماً، في خرق الإبرة الذي هو من أضيق الأشياء، وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال.

أي فكما أنه محال دخول الجمال في سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات الله، محال دخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَشْرِكُ بِإِلَهِهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾، وقال هنا: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْظَّالِمِينَ

١٥٦

الْظَّالِمِينَ

وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ النَّارَ أَنِ كُدُوا لِمَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ
فَهَلْ يَجِدُكُمْ مَّا زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ لَكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ حَقٌّ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُبَدِّلُونَ
لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْبُدُونَ
عِوَابًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ
رِجَالٌ يُمْرُقُونَ كَلَّا يَسْمِعُهُمْ وَيَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ اسْلَمُوا إِلَيْهِمْ
لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ
أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا اجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ
الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ
وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٠﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ
اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ
﴿٥١﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْصُوا عَنَّا
مِنَ الْمَاءِ أَوْ مَارَازِقَكُمْ اللَّهُ قَالَوا لَيْتَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٥٢﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا
وَعَرَّضَتْهُمُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا قَالِیْمٌ نَسَنَاهُمْ كَمَا سَاوُوا
لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥٣﴾

استكباركم على الحق، وعلى من جاء به، وعلى من اتبعه .
ثم أشاروا لهم، إلى أناس من أهل الجنة، كانوا في الدنيا
فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار:
﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ
بِرَحْمَةٍ﴾ احتقاراً لهم، وازدراء، وإعجاباً بأنفسكم، قد حشمت
في إيمانكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب .
﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بما كنتم تعملون، أي: قبل لهؤلاء
الضعفاء، إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم
الصالحة. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل من المكارة ﴿وَلَا أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، بل آمنون مطمئنون، فرحون بكل
خير .

وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿قَالِیْمٌ
الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ عَلَى الْأَذْيَافِ يَلْزَمُونَ﴾ واختلف أهل
العلم والمفسرون، من هم أصحاب الأعراف، وما أعمالهم؟

الظَّالِمِينَ﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها
ظُلماً، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم، وصدوا غيرهم، فضلوا
وأضلوا .

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة، ويعتدل سير السالكين
إليه، ﴿وَوَ﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عِوَابًا﴾ منحرفة صادة عن سواء
السبيل، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾ .

وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، والإقبال
على شهوات النفوس المحرمة، عدم إيمانهم بالبعث، وعدم
خوفهم من العقاب، ورجائهم للثواب. ومفهوم هذا النداء،
أن رحمة الله على المؤمنين، وبره شامل لهم، وإحسانه متواتر
عليهم .

(٤٦-٤٩) ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يُمْرُقُونَ كَلَّا يَسْمِعُهُمْ
وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ اسْلَمُوا إِلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ
أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا اجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ
الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ
لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: وبين أصحاب الجنة
وأصحاب النار حجاب يقال له: ﴿الْأَعْرَافُ﴾ لا من الجنة ولا
من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين،
وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة والنار،
﴿يَسْمِعُهُمْ﴾ أي: علاماتهم التي بها يعرفون ويميزون. فإذا
نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أَنِ اسْلَمُوا إِلَيْكُمْ﴾ أي: يحيونهم،
ويسلمون عليهم، وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة،
ولكنهم يطمعون في دخولها ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم،
إلا لما يريد بهم من كرامته .

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا منظراً شنيعاً،
وهو لا فظيماً ﴿قَالُوا رَبَّنَا اجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. فاهل الجنة
[إذا رآهم أهل الأعراف] يطمعون أن يكونوا معهم في
الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم
بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيبون بالله من حالهم، هذا
على وجه العموم .

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ
رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ﴾ وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا
لهم أبهة وشرف، وأموال وأولاد، فقال لهم أصحاب
الأعراف، حين رآهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا
مغيث ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا، الذي تستدفعون به
المكارة، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا، فاليوم
اضمحل، ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذلك، أي شيء نفعلكم

وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ يَكْتَسِبُونَ فَمَنْ هَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا
مِنْ شَفَعَةٍ فَيُشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٧﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ السَّيِّرَ وَالنَّجْمَ وَالْجَبَلُ وَالْأَرْضَ وَالْهَيَاطَ وَالْأَرْضَ وَالْهَيَاطَ
وَالسَّمْنَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٨﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٩﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٠﴾ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيحَ فُبَّرَأَتِ بِرِيحِهِ بَدَىٰ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَتْ سَحَابًا
ثِقَالًا لَّسْقَنَهُ لِيَلْقَىٰ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ
الشَّجَرِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦١﴾

إِصْلَاحُهَا بِالطَّاعَاتِ، فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تَفْسِدُ الْأَخْلَاقَ
وَالْأَعْمَالَ وَالْأَرْزَاقَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿طَهَّرَ الْقَسَا فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَلْيُيُ الثَّانِي﴾ كَمَا أَنَّ الطَّاعَاتِ تَصْلَحُ بِهَا
الْأَخْلَاقَ، وَالْأَعْمَالَ، وَالْأَرْزَاقَ، وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَي: خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَطَمَعًا فِي
ثَوَابِهِ، طَمَعًا فِي قَبُولِهِ، وَخَوْفًا مِنْ رَدِّهِ، لَا دَعَاءَ عَبْدٍ مَدْلٍ
عَلَى رَبِّهِ، قَدْ أَعْجَبَتْ نَفْسَهُ، وَنَزَلَ نَفْسَهُ فَوْقَ مِثْلِهِ، أَوْ دَعَاءَ
مَنْ هُوَ غَافِلٌ لَّاهٍ.

وَحَاصِلُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ آدَابِ الدَّعَاءِ: الْإِخْلَاصُ فِيهِ لِلَّهِ
وَحْدَهُ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُهُ الْخُفْيَةُ، وَإِخْفَاؤُهُ وَإِسْرَارُهُ، وَأَنَّ
يَكُونُ الْقَلْبُ خَائِفًا طَامِعًا لَا غَافِلًا، وَلَا آمَنًا وَلَا غَيْرَ مِبَالٍ
بِالْإِجَابَةِ، وَهَذَا مِنْ إِحْسَانِ الدَّعَاءِ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ فِي كُلِّ
عِبَادَةٍ بِذَلِكَ الْجَهْدِ فِيهَا، وَأَدَاؤُهَا كَامِلَةً لَا نَقْصَ فِيهَا بِوَجْهِهِ
الْوَجْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، الْمُحْسِنِينَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَكْثَرَ
إِحْسَانًا، كَانَ أَقْرَبَ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ، وَكَانَ رَبُّهُ قَرِيبًا مِنْهُ
بِرَحْمَتِهِ، وَفِي هَذَا مِنَ الْحَثِّ عَلَى الْإِحْسَانِ مَا لَا يَخْفَى.

مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَيَسْكُنُ الْآدَمِيُونَ، وَتَأْوِي الْمَخْلُوقَاتِ
إِلَى مَسَاكِنِهَا، وَيَسْتَرِيحُونَ مِنَ التَّعَبِ وَالذَّهَابِ وَالْإِيَابِ،
الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ فِي النَّهَارِ.

﴿يَطْلُبُهُ حِينًا﴾ كَلِمَا جَاءَ اللَّيْلُ ذَهَبَ النَّهَارُ، وَكَلِمَا جَاءَ
النَّهَارُ ذَهَبَ اللَّيْلُ، وَهَكَذَا أَبَدًا عَلَى الدَّوَامِ، حَتَّى يَطْوِيَ اللَّهُ
هَذَا الْعَالَمَ، وَيَنْتَقِلَ الْعِبَادَ إِلَى دَارٍ غَيْرِ هَذِهِ الدَّارِ.

﴿وَالنَّسَسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أَيِ بِتَسْخِيرِهِ
وَتَدْبِيرِهِ، الدَّالُّ عَلَى مَا لَهُ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، فَخَلَقَهَا
وَعَظَّمَهَا دَالٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِحْكَامِ
وَالْإِنْتِظَامِ وَالْإِتْقَانِ دَالٌ عَلَى كَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَمَا فِيهَا مِنْ
الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ الْفَرُوقِ وَمَا دُونَهَا دَالٌ عَلَى سَعَةِ رَحْمَتِهِ،
وَذَلِكَ دَالٌ عَلَى سَعَةِ عِلْمِهِ، وَأَنَّهُ إِلَهُ الْحَقِّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي
الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أَي: لَهُ الْخَلْقُ الَّذِي صَدَرَتْ عَنْهُ
جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَوِيَّهَا وَسُفْلِيَّهَا، أَعْيَانُهَا، وَأَوْصَافُهَا،
وَأَفْعَالُهَا، وَالْأَمْرُ الْمُتَضَمِّنُ لِلشَّرَائِعِ وَالنَّبَوَاتِ.

فَالْخَلْقُ يَتَضَمَّنُ أَحْكَامَهُ الْكُونِيَّةَ الْقُدْرِيَّةَ، وَالْأَمْرُ يَتَضَمَّنُ
أَحْكَامَهُ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ، وَثُمَّ أَحْكَامُ الْجَزَاءِ، وَذَلِكَ يَكُونُ فِي
دَارِ الْبَقَاءِ.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أَي: عَظِيمٌ وَتَعَالَى، وَكَثَرُ خَيْرُهُ وَإِحْسَانُهُ،
فَتَبَارَكَ فِي نَفْسِهِ، لِعَظَمَةِ أَوْصَافِهِ وَكَمَالِهَا، وَبَارَكَ فِي غَيْرِهِ
بِإِحْلَالِ الْخَيْرِ الْجَزِيلِ، وَالْبَرِّ الْكَثِيرِ، فَكُلُّ بَرَكَةٍ فِي الْكُونِ فَمِنْ
أَثَارِ رَحْمَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.
وَلَمَّا ذَكَرَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ، مَا يَدُلُّ ذَوِي الْإِلْبَابِ عَلَى أَنَّهُ
وَحْدَهُ، الْمَعْبُودُ الْمَقْصُودُ فِي الْهَوَاجِ كُلِّهَا، أَمْرٌ بِمَا يَتَرْتَبُ
عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ:

(٥٦، ٥٥) ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُتَعَدِّينَ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ.

الدَّعَاءُ يَدْخُلُ فِيهِ دَعَاءُ الْمَسْأَلَةِ، وَدَعَاءُ الْعِبَادَةِ، فَأَمْرُ
بِدَعَائِهِ ﴿تَضَرُّعًا﴾ أَي: بِالْحَاحِ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَدُؤْيًا فِي الْعِبَادَةِ
﴿وَخُفْيَةً﴾ أَي: لَا جَهْرًا وَعِلَانِيَةً يَخَافُ مِنْهَا الرِّيَاءَ، بَلْ خُفْيَةً
وَإِخْلَاصًا لِلَّهِ تَعَالَى.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ﴾ أَي: الْمُتَجَاوِزِينَ لِلْحَدِّ فِي كُلِّ
الْأُمُورِ، وَمِنْ الْإِعْتِدَاءِ: كَوْنُ الْعَبْدِ يَسْأَلُ اللَّهَ مَسَائِلَ، لَا تَصْلُحُ
لَهُ، أَوْ يَنْتَظِعُ فِي السُّؤَالِ، أَوْ يَبَالِغُ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ بِالْأَدْعَاءِ،
فَكُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي الْإِعْتِدَاءِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بِعَمَلِ الْمَعَاصِي ﴿بَعْدَ

﴿٥٨﴾

١٥٨

﴿٥٧﴾

وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا ۚ كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوُّوا عِبَادَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوُّوا لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَيْكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾
أَتُفَكِّمُكُمْ رَسُولَنِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ دَلِيلٍ يُشَكِّرُكُمْ لِيُذَكِّرَكُمْ وَلِتَقْوُوا وَتَهْتَكُوا زَمَانَهُمْ ۚ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ ۖ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَاثِينَ ﴿٦٣﴾
هُوَ ذَا قَالَ يَتَقَوُّوا عِبَادَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ ۖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ يَتَقَوُّوا لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَيْكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

(٥٨، ٥٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالَ سُفَّتْنَاهُ يَلْجَأُ مَتْنًا فَأَرْسَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّوَرَاتِ ۚ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَكُمْ لَذَكُورٍ ۚ وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا ۚ كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ بين تعالى أثرًا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: الرياح المبشرات بالغيث التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق ببرحة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا بِقَالَ﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ربح أخرى، وألقحه ربح أخرى ﴿سُفَّتْنَاهُ يَلْجَأُ مَتْنًا﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن يأسوا من رحمة الله.

﴿فَأَرْسَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب، وسخر الله له ريحًا تدره، وتفرقه بإذن الله.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّوَرَاتِ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَكُمْ لَذَكُورٍ﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعدما كانوا رفاتًا متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمفكر البعث استبعادًا له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات.

وفي هذا الحث على التذكر والتفكر في آلاء الله، والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال.

ثم ذكر تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر فقال: ﴿وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ﴾ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ الذي هو مستعد له ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء، حتى يأذن الله بذلك.

﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾ من الأراضي ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا﴾ أي: إلا نباتًا خاسيًا لا نفع فيه ولا بركة.

﴿كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: نوعها ونبيها ونضرب فيها الأمثال، ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاقرار بنعمه، والإقرار بها، وصرفها في مرضاة الله، فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام، والمطالب الإلهية، لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربه، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم. وهذا مثال للقول حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث

مادة الحياة، فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي، تقبله وتعلمه، وتنبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلًا قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباح والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئًا، وهذا قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَاءَتْ أَرْضُهُمْ فَذَرَعُوا فَتَحْتَلَّ أَشْجِلٌ رِيًّا رَبَّيَا﴾ الآيات.

(٥٩-٦٤) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ إلى آخر القصة^(١). لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة، أي ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أهمهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك من عانداهم ولم ينقد لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد، ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين -:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان، ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَتَقَوُّوا عِبَادُوا اللَّهَ﴾

﴿أَوْ يَحْتَسِبُ أَنْ جَاءَهُ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ بَئِلٍ مُنْكَ﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿يُشْذِرْكُمْ وَتَنْفَوُا وَتُكْفَرُونَ﴾ أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهراً وباطناً، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة.

فلم يقد فيهم، ولا نجح ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَعْيَبْنَاهُ﴾ والذين معهم في الفلك، أي: السفينة التي أمر الله نوحاً عليه الصلاة والسلام بصنعها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات زوجين اثنين، وأهله، ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها.

﴿وَأَعْرَفْنَا الْأَنْزِيلَ كَذِبًا يُكَذِّبُونَ﴾ أي: عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات والنبات، ما بهم يؤمن أولو الأبواب، فسخروا منه، واستهزؤوا به، وكفروا.

(٦٥-٧٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُودًا﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿هُودًا﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض. فـ ﴿قَالَ لَهُمْ﴾: ﴿يَتَقَوُّوا عُثْبُوا إِلَهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ سخطه وعذابه، إن أقمت على ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا اتقادوا.

فـ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ رادين لدعوته، قادحين في رأيه: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: ما نراك إلا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين.

وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحکم عماهم، حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقاً، الكاذبون.

وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقاله لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فبعد من لا ينبغي عنه شيئاً من الأشجار والأحجار؟

أي: وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام، وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدى، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول، ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَكَلٍ مُنِينٍ﴾ فلم يكتفهم - قبهم الله - أنهم لم يتقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقلدوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال. ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبيهاً واضحاً لكل أحد.

وهذا من أعظم أنواع المكابرة التي لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام، قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القرىبات.

فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعتقل، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً، وترفق لهم، لعلمهم يتقادون له، فقال:

﴿يَتَقَوُّوا لَيْسَ بِي سَكَلٌ﴾ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه، أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها، وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربى جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً، تأمرهم بالأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والعقائد الحسنة، وتنهاهم عن أضدادها.

ولهذا قال: ﴿أَتُنْفِئُكُمْ بِسَمَكْتِي رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيد، وأوامره، ونواهيه، على وجه النصيحة لكم، والشفقة عليكم.

﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتتقادوا لأمرى إن كنتم تعلمون.

(١) في ب، كتب الآيات كاملة.

١٥٩

١٥٩

أَتَيْفُكُمْ رَسُولَاتِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٥﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ
 أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
 وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
 فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأَذْكُرُوا لَآلِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٦٦﴾
 قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ
 يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا بِمِثْلِ نِعْمَتِنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٦٧﴾
 قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ
 أَتَجِدُونَنِي فِي أَسمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَتَنْتَوُونَ أَبَاؤَكُمْ
 مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعََكُمْ مِنَ
 الْمُنظِرِينَ ﴿٦٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَطَغَنَّا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾
 وَإِلَى سَعْدِ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقْوَرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ
 مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ نَصِيحَةٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
 فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ ﴿٧٠﴾

وأي كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى؟

﴿قَالَ يَقْوَرُ لَيْسَ بِسَفَاهَةٍ﴾ بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْفُكُمْ رَسُولَاتِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ.

فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد، وطاعة رب العباد.

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحذركم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واحمدوا ربكم واشكروه، إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله وأبقاكم، لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقبوا على الكذب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم.

﴿و﴾ اذكروا نعمة الله عليكم، التي خصكم بها، وهي أن ﴿زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ في القوة، وكبر الأجسام، وشدة البطش ﴿فَأَذْكُرُوا لَآلِ اللَّهِ﴾ أي: نعمه الواسعة، وآيابه المتكررة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتوها بشكرها، وأداء حقها ﴿تَفْلَحُونَ﴾ أي: تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المرهوب، فوعظهم، وذكرهم، وأمرهم بالترديد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذروهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم يتقادوا، ولا استجابوا.

ف ﴿قَالُوا﴾ متعجبين من دعوته، ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه: ﴿أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فبجهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات، وأكمل الأمور من الأمور التي لا يُعَارَضُونَ بها، ما وجدوا عليه آبائهم، فقدموا ما عليه الآباء الضالون، من الشرك وعبادة الأصنام، على ما دعت إليه الرسل، من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا نبيهم، وقالوا: ﴿قَالَيْنَا يَمَّا نَبِيَّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ وهذا استفتاح منهم على أنفسهم.

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ﴾ أي: لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وحن وقت الهلاك.

﴿أَتَجِدُونَنِي فِي أَسمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَتَنْتَوُونَ أَبَاؤَكُمْ﴾ أي: كيف تجادلون على أمور، لا حقائق لها، وعلى أصنام سميتوها آلهة، وهي لا شيء من الإلهية فيها، ولا مثقال ذرة ﴿وَمَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطاناً.

فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها، ومن السلطان ما لا تخفى معه.

﴿فَأَنْظِرُوا﴾ ما يقع بكم من العقاب الذي وعدتكم به ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظِرِينَ﴾ وفرق بين الانتظرين، انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والتواب، ولهذا فتح الله بين الفريقين.

فقال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي: هوداً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته.

﴿وَطَغَنَّا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً، وسلط الله عليهم

﴿وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا﴾ كما هو مشاهد إلى الآن، من أعلامها التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال.

﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿وَلَا تَمَتُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الرؤساء والأشراف، الذين تكبروا عن الحق ﴿لِلَّذِينَ اسْتَشْفَعُوا﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتُكْفِرُ أَنْتَ صَلَاحًا تَرْسُلَ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟

فقال المستضعفون: ﴿إِنَّا بِكَ أَرْسِلَ بِهِ مُؤَيَّدُونَ﴾ من توحيد الله، والخبر عنه، وأمره ونهيه.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ حملهم الكبر أن لا يقادوا للحق الذي اتقاد له الضعفاء.

﴿فَقَعَرُوا النَّاقَةَ﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء، أن يصيبهم عذاب أليم، ﴿وَعَنَّا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عتاه أذاقه العذاب الشديد، لا جرم، أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم.

﴿وَقَالُوا﴾ مع هذه الأفعال متجربين على الله، معجزين له، غير مباينين بما فعلوا، بل مفتخرين بها: ﴿يَنْصَلِحُ أَقْبَانًا يَمَّا بَعْدُنَا﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب فقال: ﴿تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا﴾ على ركبهم، قد أبادهم الله، وقطع دابرهم.

﴿فَقَوْلَىٰ عَصَىٰ﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب ﴿وَقَالَ﴾ مخاطبًا لهم، توبيخًا وعتابًا، بعدما أهلهم الله: ﴿يَقُولُ لَقَدْ أَلْفَقْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به، وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم، والدين القويم ﴿وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

واعلم أن كثيرًا من المفسرين يذكرون في هذه القصة، أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على

الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت عليهم الحجج، فلم يقادوا لها، وأمروا بالإيمان، فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والخزي، والفضيحة.

﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً وَيَوْمَ الرَّجْفَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بِئْسَ لِمَآذٍ قَوْمٌ هَؤُلَاءِ﴾.

وقال هنا: ﴿وَقَفَلْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَكَادُونَ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعناد، ونعتهم الكبر والفساد.

(٧٩-٧٣) ﴿وَالَّذِينَ تَسُوهُ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ إلى آخر قصتهم^(١). أي: ﴿وَو﴾ أرسلنا ﴿إِلَٰهَ تَسُوهُ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز، وجزيرة العرب.

أرسل الله إليهم ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ نبيًا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد.

﴿قَالَ يَنْفَرُوا مَعَهُ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين: الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي خارق من خوارق العادات التي لا تكون إلا آية سماوية، لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة.

وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لَهَا يَرْبُ وَيُكْرُ يَرْبُ يَوْمَ مَعْمُورٍ﴾ وكان عندهم بئر كبيرة، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها، ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها، وتصدر الناقة عنهم.

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ فلا عليكم من مؤنتها شيء ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يَوْمَ﴾ أي: بعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض تمتعون بها وتدركون مطالبكم ﴿وَمِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ الذين أهلهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَبِوَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون.

﴿تَتَذَكَّرُونَ مِنْ سُوءِ لِمَا فُصِّرَا﴾ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال، تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَسْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَنْفَعُوا فِي الْأَرْضِ مُقَسِدِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صُلَيْحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِكَ أَدْرِيسٌ مُؤْمِنُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٦٨﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أُنْتُنَا إِيمًا بَعْدَ نَآءٍ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٩﴾ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٠﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَافُورُوا لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا لَوْ لُمْتُمْ لَكُمُ وَلِيكُنْ لَا تُجِيبُونَ النَّصِيحَاتِ ﴿٧١﴾ وَلَوْ لَدَا إِذْ قَالَ يَافُورُوا أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٧٣﴾

الْنِسَاءُ﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع السوافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، محلٌ تخرج منه الأتنان والأخباث، التي يستحي من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه.

﴿وَمَا كُنْتَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغُونَ﴾ أي: ينتزهون عن فعل الفاحشة ﴿وَمَا تَقْهَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

﴿فَاجْتَنِبُوا أَعْلَامَهُ إِلَّا زِينَتَكُمْ كُنْتُمْ مِنَ الْقَدَرِينَ﴾ أي: الباقين المعذبين، أمره الله أن يسري بأهله ليلاً، فإن العذاب مصيب قومه، فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

﴿وَأَنْظُرْنَا عَلَيْهِمْ مُّقْبِرًا﴾ أي: حجارة حارة شديدة من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

صالح، وأنها تمخضت تمخض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصلاً حين عقروها، رعى ثلاث رغبات، وانفلق له الجبل، ودخل فيه، وأن صالحاً عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى، ويدع ذكره، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحاً قال لهم: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ فَلَنُنَزِّلَ آيَاتٍ﴾ أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا.

وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوقعت يوماً فيوماً، على وجه يعمهم ويشملهم [احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب] (١).

هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟ فالقرآن، فيه الكفاية والهداية، عن ما سواه.

نعم لو صح شيء عن رسول الله ﷺ، مما لا يناقض كتاب الله، فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه ﴿وَمَا يَأْتِيَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفانها.

(٨٠-٨٤) ﴿وَلَوْ لَدَا إِذْ قَالَ يَافُورُوا أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر القصة (٢). أي: ﴿وَلَوْ﴾ اذكر عبدنا ﴿لَوْ لَدَا﴾ عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه، بأمرهم بعبادة الله وحده، وبنهاهم عن الفاحشة، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش.

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها، وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضاً.

ثم بيّنها بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب، أورد الآيات كاملة.

الْمُحْرِمِينَ^(١) الهلاك والخزي الدائم.

(٨٥-٩٣) ﴿وَلِئَلَّيْ مَدِينُ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ إلى آخر القصة^(٢)

أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدينةين ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعتوا في الأرض مفسدين، بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فإن ترك المعاصي امتثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير، وأنفع للعبد، من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ للناس ﴿يَكْفُرُ بِصِرَاطِ﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و﴿تُوعِدُونَ﴾ من سلوكها و﴿تَقْسِدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من أراد الاهتداء به و﴿تَعْبُدُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم.

وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليلسلكوها إلى مرضاته، ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصلون لنصرتها، والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله، ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها.

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا ذَكَرَكُمْ﴾ أي: نماك بما أنعم عليكم من الزوجات، والنسل، والصحة وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا سلط عليكم عدوا يبتاحكم ولا يفرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراار الأرزاق، وكثرة النسل.

﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشنات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والابنتات، ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا﴾ وهم الجمهور منهم ﴿فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على الباطل.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهم الأشراف، والكبراء منهم، الذين اتبعوا أهواءهم، ولهوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق، ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه، واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب، ومن معه من المؤمنين

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَلُونُ ﴿٨٦﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ. كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٨﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُورَ آبَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. قَدْ جَاءَكُمْ نَصِيحَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَنْظُرُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِهِ وَتَعْبُدُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَّرَكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٠﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٩١﴾

المستضعفين: ﴿لَنُخَبِّرَنَّكَ بِشَيْءٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ نَسُودَنَّ فِي يَلِينًا﴾ استعملوا قوتهم السبعية في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً، ولا ذمة، ولا حقاً، وإنما راعوا، واتبعوا أهواءهم، وعقولهم السفهية التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا.

ف «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعده إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ف «قَالَ» لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي: أتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلائها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها؟

﴿قَدْ أَقْرَبْنَا عَلَى اللَّهِ كَيْدًا إِنَّا غَدًا فِي يَدَيْكُمْ بَعْدَ إِذْ جَسَدْنَا اللَّهُ

الْحَقِّ

١٦٢

الْحَقِّ

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا لِنُكَرِلَهُنَّ الْأَخْسِرُونَ
﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبًا كَانُوا لَمْ يَنْفَعُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبًا
كَانُواهُمْ الْأَخْسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنُودِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ
أَتَيْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٩٣﴾
عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا
أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءَةِ وَالنَّسَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٥﴾ ثُمَّ
بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ
ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٦﴾

﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا لِنُكَرِلَهُنَّ الْأَخْسِرُونَ﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم
أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن
الخسارة كل الخسارة، في لزوم ما هم عليه من الضلال
والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ أي: صرعى ميتين، هامدين.

قال تعالى ناعيًا حالهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبًا كَانُوا لَمْ يَنْفَعُوا
فِيهَا﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في
عرصاتها، ولا نفعوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارب
أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم
العذاب، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر
الحزن والشقاء والعقاب والدركات، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ
كَذَّبُوا شُعَبًا كَانُوا لَمْ يَنْفَعُوا فِيهَا﴾ أي: الخسار محصور فيهم؛
لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة، ألا ذلك
هو الخسران الممين، لا من قالوا لهم: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا لِنُكَرِلَهُنَّ

(١) في ب: فأخذهم العذاب.

مِنْهَا﴾ أي: أشهدوا علينا، أننا إن عدنا إليها بعدما نجانا الله
منها، وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله
الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكًا،
وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولدًا ولا
صاحبة، ولا شريكًا في الملك.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ أي: يتمتع على مثلنا أن نعود
فيها فإن هذا من المحال، فليسهم عليه الصلاة والسلام من
كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها،
مبغضون لما هم عليه من الشرك، ومن جهة أنه جعل ما هم
عليه كذبًا، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه، فإنهم كاذبون.
ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هداهم الله - من
المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من
تعظيم الله تعالى، والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده،
الذي لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة
المشركين أبطل الباطل، وأمحل المحال.

وحيث إن الله من عليهم بقول يعرفون بها الحق والباطل،
والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله، وإرادته النافذة في
خلقه التي لا خروج لأحد عنها، ولو توارت الأسباب،
وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم
سيفعلون شيئًا أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ
فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج
عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ
عِلْمًا﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يديرهم عليه.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط
المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من
توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه.

﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: انصر المظلوم
وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ﴾ وفتحته تعالى لعباده نوعان:

فتح العلم بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال،
ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.
والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على
الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين.

فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن
يربيهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلًا بين الفريقين.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ محذرين عن اتباع شعيب:

إِذَا لَخِثِرُونَ.

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موتهم: ﴿يَقُولُ لَقَدْ أَنفَلْتُكُمْ بِنِعْمَتِي أَيُّ أَوْلَسْتُمْ إِلَيْكُمْ، وَبَيْتَهَا حَتَّى بَلَغَتْ مِنْكُمْ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ، وَخَالَطْتُ أَفْئِدَتَكُمْ وَنَضَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم تقبلوا نصحي ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطفيتم.

﴿فَكَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَفَرُوا﴾ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم؟ أتاهم الخير فردوه، ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحققهم، فعباداً بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟.

(٩٤، ٩٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالنَّبَاةِ وَالْآثَرِ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّونَ﴾ ثم بذلنا مكان النبوة الحسنة حتى عفاوا وقالوا قد مسك مآبنا الفكرة والآثرة فأخذتهم بغتة وهم لا يشعرون يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم يتقادروا له، إلا ابتلاهم الله ﴿بِالنَّبَاةِ وَالْآثَرِ﴾ أي: بالفقر، والمرض، وأنواع البلياء.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إذا أصابته، أخضعت نفوسهم فضرعوا إلى الله، واستكانوا للحق.

﴿ثُمَّ﴾ إذا لم يقد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم ﴿بَذَلْنَا مَكَانَ النَّبَاةِ الْحَسَنَةَ﴾ فأدبر عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلاء.

﴿حَتَّى عَفَا﴾ أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وانسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ مآبَنَا الْفَرَكَةُ وَالْآثَرَةُ﴾ أي: هذه عادة جارية، لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح، على حسب تقلبات الزمان، وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستدراج والتكبير.

حتى إذا اغتبطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا أسراً ما كانت إليهم، أخذناهم بالعذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لم يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما أتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا متقلبين عنه.

(٩٦-٩٩) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ إِنْ لَّوْشَاءَ أَصَابَتْهُمُ يُدُونِهِمْ وَنَطَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ فِي رَسُولٍ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

يَكْسِبُونَ ○ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ○ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ○ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ○ لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يتلون بالضراء موعظة وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكرًا، ذكر أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأبنت لهم من الأرض ما به يعيشون، وتعيش بهانهم، في أخصب عيش، وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بالعقوبات والبلياء، ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو واخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْوَادِعِ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أي: المكذبة، بقرينة السياق ﴿أَنْ

المكذبين رسلهم، تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة، والبيانات المبينات للحق، بياناً كاملاً، ولكنهم لم يقدموا هذا، ولا أغنى عنهم شيئاً.

﴿فَمَا كَانُوا يُلْزَمُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بسبب تكذيبهم، وردهم الحق أول مرة، ما كان الله ليهديهم للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنَقُلُّوا أَتَقْتُلُونَهُمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ كَمَا تَرَى يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ عقوبة منه، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿وَمَا وَعَدْنَا لَافِكِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والتزام، لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على السنة رسله.

﴿وَإِنْ وَعَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَنُفْسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، فله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.

وما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل. (١٧٠-١٧٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بِنَايِكَ إِلَى رُفْعُونَ وَمَلِكِهِ﴾ إلى آخر قصته (٣)، أي: ثم بعثنا بعد أولئك الرسل موسى الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عتاة جابرة، وهم فرعون وملؤه، من أشرافهم وكبرائهم، فأراه من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي لَمْ يَتَقَدَّسْ لَنَا فِي الْآيَاتِ الْفُتُورِ﴾ بل بأن لم يتقادوا لحقها، الذي من لم يتقد له فهو ظالم، بل استكبروا عنها.

﴿فَأَنطَرُوا كَيْتَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُفْسِدِينَ﴾ كيف أهلكهم الله، وأنبتهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة، بش الرشد المرفود، وهذا مجمل فضله بقوله:

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربّي جميع خلقه بأنواع التداير الإلهية، التي من جملتها أنه

يَأْتِيهِمْ بَأْسًا أَي: عذابنا الشديد ﴿يَكُنْ لَهُمْ نَارُومٌ﴾ أي: في غفلتهم، وغرتهم، وراحتهم.

﴿أَوَ أَمَّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا شَرَءٌ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أي شيء يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا أسبابه، وارنكبوا من الجرائم العظيمة، ما يوجب بعضه الهلاك؟! ﴿أَتَأْمِنُوا بِمَكْرِ اللَّهِ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا

يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين ﴿فَلَا يَأْتِيَنَّ مَكْرَهُ أَهْلُ الْقُرَى الْخَائِفُونَ﴾ فإن من أمن من عذاب الله، فهو (١) لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسول حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البالغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً، على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفاً وجلّلاً أن يتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

(١٠٠-١٠٢) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَحْنَاهُمْ يَذُوبِينَ﴾ ﴿وَنُفِصَ عَنْ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَلَقَدْ جَاءَتْكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَمَا وَعَدْنَا لَافِكِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَعَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَنُفْسِقِينَ﴾ يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين (٢): ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَحْنَاهُمْ يَذُوبِينَ﴾ أي: أولم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟

أو لم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين.

وقوله: ﴿وَنُفِصَ عَنْ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: إذا نههم الله فلم ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم، ويطبع على قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ تَقَدَّمْ ذِكْرُهُمْ﴾ ﴿نُفِصَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَمَا وَعَدْنَا لَافِكِهِمْ﴾ الذين تقدم ذكرهم ﴿نُفِصَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ووقعوا للمتقين.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: ولقد جاءت هؤلاء

(١) في ب: فاته. (٢) في هامش ب: بيان معنى كلمة الغابرين المتكررة ما يلي: الغابرين: الباقين، الغابرين: الماضين. (٣) في ب: أورد الآيات كاملة.

لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرا عليه، ويدعي أنه أرسله، ولم يرسله.

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فاني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر.

فهذا موجب لأن يتقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل، الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

فقال له فرعون: ﴿إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِبَيِّنَةٍ فَاتَّبِعْنِي أَلَا تَأْمُرُونَ﴾ ١٠٣. ﴿فَأَلْفَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ في الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ تَنبُتُ نَبْتًا﴾ أي: حبة ظاهرة تسعى، وهم يشاهدونها.

﴿وَنَزَّ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بِإِصْبَاحٍ خَضْرَاءٍ﴾ ١٠٤. من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان، دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

فلهذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما راوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إِنَّ هَذَا لَكَيْدٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ماهر في سحره.

ثم خروفا ضعفاء الأحلام، وسفهاء العقول، بأنه ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: يريد أن يجليكم^(١) عن أوطانكم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعيمهم عنهم، فإن ما جاء به، إن لم يقابل بما يطلعه ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون:

﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي احبسهما، وأمهلهما، وابعث في المدن أناسا يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليهم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لَكُمْ يَوْمَ الْاِتِّمَاءِ وَأَنْ يَحْشَرَ النَّاسُ شُحًى ۖ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

وقال هنا: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجزاء إن

حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِبَيِّنَاتٍ فَأَتِيَ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۚ وَنَزَّ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ۚ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۚ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۚ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۚ يَا تَوَكُّلُ يَكْلُ سِحْرَ عَلِيمٍ ۚ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۚ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۚ قَالُوا بِمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٍ لِّتَقُولُوا هَٰذَا لَئِن لَّمْ يَكُنِ الْغُلَامُ مِنَ الْمَلَأَيْنِ فَآلَ الْقَوَائِمِ لَنَسْحَرُونَا أَتَعْبُونَ ۚ فَأَنشَأَ السَّحَرَةُ هُجُومًا وَجَاءَهُ سِحْرٌ عَظِيمٌ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۚ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ فَغَلَبُوا هُنَاكَ وَاتَّقَلَبُوا صَغِيرِينَ ۚ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ۚ

غلبوا ف ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ١٠٥.

ف ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم أجر ﴿وَأِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبدلوا وسعهم وطاعتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قَالُوا﴾ على وجه التالي وعدم المبالاة، بما جاء به موسى: ﴿بِمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٍ لِّتَقُولُوا هَٰذَا لَئِن لَّمْ يَكُنِ الْغُلَامُ مِنَ الْمَلَأَيْنِ فَآلَ الْقَوَائِمِ لَنَسْحَرُونَا أَتَعْبُونَ﴾.

ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿الْقَوَائِمُ﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم، وما مع موسى.

﴿فَلَمَّا أَلْقَا﴾ حبالهم وعصيمهم، إذا هي من سحرهم، كأنها حبات تسعى، ف ﴿سَحَرُوا أَمْرَأَتَ الْنَّاسِ وَأَسْرَقُوهُمْ وَجَاءَهُ سِحْرٌ عَظِيمٌ﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فآلقاها ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ جميع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: يكذبون به ويموهون.

(١) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من.

رَبَّنَا مُتَعَلِّمُونَ ﴿١٠٣﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، فإله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿وَمَا نَقِمُّ مِنْكَ﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا، وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إِلَّا أَنْتَ مَا نَسُوا بِإِثْمِهِمْ رَبَّنَا لَنَا جَاهَتُنَا﴾ ^(١) فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا.

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَنَّاتِكَ﴾ أي: افض علينا عظمتك كبراً أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه منحة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويحول عنه الاتزعاج الكثير.

﴿وَوَقَّافًا مُسْلِمِينَ﴾ أي: متقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا، وفرعون وملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلماً وعلواً، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أَتَدْعُو مَوْسَى وَكُومُهُ يَتَّبِعُونَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَيْكَلُ﴾ أي: يدعك أنت وأهلك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

﴿فَقَالَ﴾ فرعون مجيباً لهم، بأنه سيبلغ بني إسرائيل مع موسى، بحالة لا ينشون فيها، ويأمن ^(٢) فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم: ﴿سَتَقْبِلُ آبَاءَهُمْ وَنَسْتَجِيءُ مِنْهُمْ﴾ أي: نستقيهم فلا نقتلهم، فإذا فعلنا ذلك أماناً من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال.

﴿وَأَيُّ قُوَّةٍ هَٰؤُلَاءُ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعنوة والقسوة.

﴿فَقَالَ مَوْسَى يَقُولُ﴾ موصياً لهم في هذه الحالة، التي لا يقدرون معها على شيء، ولا مقاومة بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية: ﴿أَتَسْتَعْجِلُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما يفعلكم، ودفع ما يضركم، وتقوا بالله أنه سيتم أمركم ﴿وَأَصْرِدُوكُمْ﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، منتظرين للفرج.

(١) زيادة من هاشم ب، وهي في: أمتنا برتنا. (٢) كذا في ب، وفي: يؤمن.

﴿وَقَعَ الْحَقُّ﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾ فمُتْلُوا هَٰذَا ﴿أي في ذلك المقام﴾ ﴿وَأَنفَلُوا صَعِيرِينَ﴾ أي: حقيرين، قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصف والسحر الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله، لا يدان لأحد بها.

﴿وَأَنفَلُوا السَّحَرَةَ سَجِيدِينَ﴾ قَالُوا مَا نَكُنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.﴾ ف ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿رُفِعُوا﴾ متهدداً على الإيمان: ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَّنَا لَكُمْ﴾ كان الخيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه.

وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَأَسْتَفْتِ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ وقال هنا: ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَّنَا لَكُمْ﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجروء علي، ثم موه على قومه وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَكُمُ الْكُرْشِيُّ فِي الْيَوْمِ﴾ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴿أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأت أتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر، فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو، ومن سير الأحوال، أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أحل بكم من العقوبة.

﴿لَأَقْبِضَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ زعم الخيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى.

﴿ثُمَّ لَأَقْبِضَنَّكُمْ﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿أَعْمِينَ﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب.

فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّا لَأَنْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٦٦

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

فَإِذَا جَاءَ تَهُدُّ أَحْسَنَةً قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سَبِيلَهُ
يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا ظَنَرْنَاهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ
لِنَسْرِعَ بِهَا فَاعْمَلْ لَكَ يَمُومِينَ ﴿١٦٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
الرِّجْزُ قَالُوا يَمْشِي آدَمُ لَنَا رَيْكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ
كُنْهْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ ﴿١٦٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ
هُمْ يَلْفُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٧٠﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنَّا غَافِلِينَ ﴿١٧١﴾
وَأَرْسَلْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ
الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ ﴿١٧٢﴾ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٧٣﴾

الهائلة، والمساكن المزخرفة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾
﴿فَبَلَغَتْ يَبُوتَهُمْ حَاوِيَةً يَمًا ظَلَمُوا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَجَوَّزْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ بعدما أُنْجَاهُم الله من عدوهم
فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿قَالُوا﴾ أي: مروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَنْكُثُونَ عَلَى أَسْوَاقِهِمْ﴾ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها.

ف ﴿قَالُوا﴾ من جيلهم وسفهم لئيبهم موسى بعدما أراههم
الله من الآيات ما أراههم: ﴿يَمْشِي آدَمُ لَنَا يَمًا ظَلَمُوا كَمَا لَمَّ
الْقَوْمُ﴾ أي: اشرع لنا أن نتخذ أصناماً آلهة، كما اتخذها
هؤلاء.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَجْهُولُونَ﴾ وأي جهل
أعظم من جهل من جهل ربه وخالفه وأراد أن يسوي به غيره،
ممن لا يملك نفعا ولا ضررا، ولا موتا، ولا حياة، ولا
نشورا؟.

ولهذا قال لهم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَغُلِبُوا
كُلُّهُمْ بِمَعْلُومٍ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها،

به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به
ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع،
والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم
واحد منها ﴿قَالُوا يَمْشِي آدَمُ لَنَا رَيْكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي:
تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده، من الوحي والشرع ﴿لَئِنْ
كُنْهْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾
وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من
العذاب، وظنوا أنه إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ يَلْفُوهُ﴾ أي: إلى
مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبداً، وإنما هو مؤقت
﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدوه
بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به، ولا أرسلوا
معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون، وعلى
تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم،
أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون
سيتبعهم هو وجنوده.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَبِيرِينَ﴾ يجمعون الناس؛ ليتبعوا بني
إسرائيل، وقالوا لهم:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ○ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِلُونَ ○ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَدِيثُونَ ○ فَأَعْرِضْنَاهُمْ مِنْ جَنَّتِي وَدُحُرِي ○ وَكُوْنِي وَمَقَارِي كَبِيرِي ○ كَذَلِكَ
وَأَرْسَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ○ فَأَتَيْنَاهُمْ ثَمُودَ ○ فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانِ قَالَ
أَصْحَبُ مِمْصَرٍ إِنَّا لَشُدُوكُمْ ○ قَالَ كُلُّهُ إِنَّمَا رَأَيْتُ سِبْطَيْنِ ○ فَأَوْحَيْنَا
إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَاطِبِرٍ
الْعَظِيمِ ○ وَارْتَفَعْنَا لَهُمُ الْخَبْرَ ○ وَأَفْبَحْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ لَجُوعِينَ ○ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

وقال هنا: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
عَنَّا غَافِلِينَ﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما
دلت عليه من الحق.

﴿وَأَرْسَلْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ في الأرض، أي:
بني إسرائيل الذين كانوا خدماً لآل فرعون، يسومونهم سوء
العذاب أوزهم الله ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ والمراد
بالأرض ههنا، أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين، أذلين
أي: ملكهم الله جميعها، ومكنهم فيها التي باركنا فيها
﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ حين
قال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ
يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من الأبنية

فالعامل باطل، وغايته باطلة.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ أي: أأطلب لكم إلها غير الله المألوه، الكامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؟
﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله، وتفضليه بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر بما يدعى من دونه.

ثم ذكرهم بما امتن الله به عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخْبَرْتُمْ بَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وآله ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا أَنْتُمْ بِنِسَائِكُمْ تَسْبَحُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ﴾ النجاة من عذابهم ﴿بِسَاءَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٍ﴾ أي: نعمة جليلة، ومنحة جزيلة، أو وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى وعظهم، انتهوا عن ذلك. ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى، وتهيأ لوعده الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون وصيًّا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفته: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وَأُصْلِحْ﴾ أي: اتبع طريق الصلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي.
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بما كلمه، من وحيه، وأمره، ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حبًّا لربه ومودة لرؤيته.

فـ ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال الله ﴿كَرَرْتَنِي﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشبون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة.

فإنه قد دلت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى.

ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال - مقفًا لموسى في عدم إجابته للرؤية - ﴿وَلَكِنِّي أَنظُرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ إذا تجلى الله له ﴿فَسَوْفَ تَرَاهُ﴾.

وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُونَ عَلَى أَنْصَابٍ لَهُمْ قُلُوبٌ يَنْسُونَ أَجَعَلْنَا لِنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ هَذِهِ قُلُوبُهُمْ فِيهِ وَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ وَإِذْ أَخْبَرْتُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَالُونَ أَبْنَاءُكُمْ وَسَسْبَحُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ وَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ رَفِيعَةٍ يَقُتُّ رَبُّهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١١﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِّي أَنَظُرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَاهُ فَنَسِيَ حَتَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلًا دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتًا لِّإِيكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ الأصم الغليظ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: انهار مثل الرمل، انزعاجًا من رؤية الله وعدم ثبوته لها^(١) ﴿وَخَرَّ مُوسَى﴾ حين رأى ما رأى ﴿صَعِقًا﴾.

فتبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعًا [والذالك]^(٢) ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ أي: تنزهًا لك، وتعظيمًا عما لا يليق بجلالك.

﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له، مما كان يجهل قبل ذلك، فلما منعه الله من رؤيته - بعدما كان منشوقًا إليها - أعطاه خيرًا كثيرًا فقال:

﴿رَبِّمُوسَىٰ إِلَىٰ أَصْلَابِنَا عَلَىٰ أَنَّا﴾ أي: اخترتك واجتبيتك، وفضلتك، وخصصتك بفضائل عظيمة، ومناقب جليلة، ﴿يَسْرَتُنِي﴾ التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق. ﴿وَيَكَلِّمُنِي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها

(١) كذا في ب، وفي أ: وعدم ثبوت. (٢) زيادة من هامش ب.

موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ مِنَ النِّعَمِ، وَخُذْ مَا آتَيْنَكَ مِنَ الْأَمْرِ وَانْهَى بِانْشِرَاحِ صَدْرِهِ، وَتَلَقَّهِ بِالْقَبُولِ وَالْانْقِيَادِ، وَكَثُرَتْ الشُّكْرُ﴾ ﴿وَكُتِبَ لَهُ فِي الْأَنْوَاجِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه العباد و﴿مَوْعِظَةً﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر، و﴿تَنْفِيسًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق، والآداب.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد واجتهاد على إقامتها، و﴿أَمْرٌ قَوْمَكَ بِأَحْذَرًا بِأَحْسَنًا﴾ وهي الأوامر الراجية، والمستحبة، فإنها أحسنها، وفي هذا دليل على أن أوامر الله - في كل شريعة - كاملة، عادلة، حسنة.

﴿سَأُرِيكَ ذَا الْقُسْطِ﴾ بعدما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون. وأما غيرهم، فقال عنهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ أي عن الاعتبار في الآيات الأفقية، والنفسية، والفهم آيات الكتاب ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي: يتكبرون على عباد الله، وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة حرمة الله خيرا كثيرا، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لإعراضهم، واعتراضهم، ومحادتهم لله ورسوله، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئَ الرَّشْدِ﴾ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته.

﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئَ النَّفْيِ﴾ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، والسبب في انحرافهم هذا الانحراف ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ كَذِبًا وَيَكْفُرُونَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فردهم آيات الله، وغفلتهم عما يرد بها، واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشاد، ما أوجب.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا، و﴿وَلَفَّكَ الْأَخْزَرَ حَبَلَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه.

﴿هَلْ يَجْزُونَ﴾ في بطلان أعمالهم، وحصول ضد مقصودهم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَمْسَلُونَ﴾ فإن أعمالهم لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثوابا، وليس لها غاية تنتهي إليها،

قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ مِنْ الشُّكْرِ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاجِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَفَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكَ ذَا الْقُسْطِ ﴿١٠٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئَ النَّفْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِمَا كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِفَكَ الْأَخْزَرَ حَبَلَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلَيفَةً عِجْلًا جَسَدًا اللَّهُ خَوَّارٌ لَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يُجِيبُهُمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلَمَّا شَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٩﴾

فلذلك اضمحلت وبطلت.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلَيفَةً عِجْلًا جَسَدًا﴾ صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿لَهُمْ خَوَّارٌ﴾ وصوت فعيده، واتخذوه إلها.

وقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَىٰ قَتَلَهُ﴾ وذهب يطلبه، وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات، بعجل من أنقص المخلوقات؟.

ولهذا قال ميتا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية، ولا الفعلية، ما يوجب أن يكون إلها، ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد الذي لا يتكلم ﴿وَلَا يُجِيبُهُمْ سَبِيلًا﴾ أي: لا يدلهم طريقا دينيا، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم، ولا ينفع، ولا يضر، من أبطل الباطل، وأسمح السفه، ولهذا قال:

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله

الْأَعْرَافُ

١٦٩

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَمْرُؤًا إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُنِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَنْتَحِمْتَ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ سِينًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ يَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٦٠﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمْوَالُهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ يُغْفَرُ لَهُمْ رَحْمَةً
﴿١٦١﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي
شُحْبَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٦٢﴾ وَأَخْبَارَ
مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِّمِقْنَانًا فَلَمَّا أَعَدَّتْهُمْ الرِّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلَكَاهُمْ أَفْعَلُ
السَّفْهَاءُ بَلَّاءٌ لَّنِي هِيَ إِلَّا لَفَتْنَاكَ تَيْسَلُ بِمَا مَن تَشَاءُ وَتَمِيدُ
مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٦٣﴾

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿١٥٨﴾ كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فكل مفتر على الله كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك.

فقتل بعضهم بعضاً، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى^(١)، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكماً عاماً يدخلون فيه هم وغيرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من شرك، وكبائر، وصغائر ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ بأن تدموا على ما مضى، وأقلعوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا ﴿وَأَمْوَالُهُمْ﴾ بالله، وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ﴿لَعَفْوَ﴾ يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض ﴿رَحِيمٌ﴾ يقبول التوبة، والتوفيق

(١) في النسخين: قتلى كثيرة.

تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ﴾ فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم، تدموا ﴿وَسَقَطَ فِي يَدَيْهِمْ﴾ أي: من الهم والندم على فعلهم، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَلُّوا﴾ فتصلوا إلى الله وتضرعوا ﴿وَقَالُوا لَيْتَ لَنَا رِجْسًا رِجْسًا﴾ فبدلنا عليه، وبرزنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال ﴿وَيَتَذَكَّرُ لَنَا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: مبتلأ غضباً وغبطاً عليهم، لنمام غيرته عليه الصلاة والسلام، وكمال نصحه وشفقته ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي: بس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم، فإنها حالة تقضي إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدى.

﴿أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب، فبادرتم - برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة القبيحة ﴿وَالْقَى الْأَلْوَابَ﴾ أي: رماها من الغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون ولحيته ﴿يَمْرُؤًا إِلَيْهِ﴾ وقال له: ﴿مَا مَعَكَ إِذْ دَلَّيْتَهُمْ صَلُّوا أَوْ لَا تَتْلُمْ فَأَعْتَبْتُمْ أَمْرِي﴾ لك بقولي: ﴿لَتَكُونَنَّ فِي قَوْمٍ وَاسْتَبْرَأَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ف ﴿قَالَ يَسْمَعُونَ لَا تَأْخُذْ بِطَيْبَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ و ﴿قَالَ﴾ هنا: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ هذا ترقين لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُنِي﴾ أي: احتقروني حين قلت لهم: ﴿يَتَقَوَّوْا إِنَّمَا فَتَنَّاهُ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَلْيَتَوَكَّبُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا آمُرُكُمْ﴾ ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي: فلا تظن بي تقصيراً ﴿فَلَا تَنْتَحِمْتَ فِي الْأَعْدَاءِ﴾ بنهرك لي، ومثك إياي بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجدوا عليّ عثرة، أو يطلعوا لي على زلة ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فتعاملني معاملة من.

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما ظنه فيه من التقصير، و ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾ هارون ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، فإنها حصن حصين، من جميع الشرور، وثم كل خير وسرور.

﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا، وأمهاتنا، وأولادنا، وأنفسنا.

قال الله تعالى مبيّناً حال أهل العجل الذين عبده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي: إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ

لأفعال الخير وقبولها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، ﴿فَآخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها، وهي ألواح عظيمة المقدار، جليلة ﴿وَفِي شَجَاةٍ﴾ أي: مشتملة ومتضمنة ﴿هَذِي وَرَحْمَةً﴾ أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير، وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال، والأخلاق، والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك ويتفادله، ويتلقاه بالقبول الذين ﴿يَرْجُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخافون منه ويخشونه.

وأما من لم يخف الله، ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا عتواً ونفورا، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿و﴾ لما تاب بنو إسرائيل وترجعوا إلى رشدهم ﴿اخْتَارَ مُوسَى مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من خيارهم؛ ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميثاقاً يحضرون فيه، فلما حضروا قالوا: يا موسى ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ فنجروا على الله جراءة كبيرة، وأسأوا الأدب معه، ﴿فَآخَذَهُمْ أَزِفَةً﴾ فصغقوا وهلكوا. فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله ويتبتل، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْضُرُوا وَيَكُونُوا فِي حَالَةٍ يَعْتَذِرُونَ فِيهَا لِقَوْمِهِمْ، فَصَارُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأَتِفَافُ مِنَّا﴾ أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله، واعتذر بأن المتجربين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا، ويأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال: ﴿إِنْ مِنْ إِلَّا فَنَنْكَرُ نُسْخَ مَا مِنْ نَفَاةٍ وَيَهْدِي مَنْ نَفَاةٍ أَنْتَ وَلَيْتَ قَافِرِينَ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى، وتفضل.

فكان موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك، والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتم على ما وهبه من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضعف عقله، وسفه رأيه، وصرفته الفتنة، فهو الذي فعل ما فعل، لذنبك السببين، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا.

(١٥٦) فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم ذنوبهم، وقال موسى في تمام دعائه: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح،

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَدَائِي أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَشْأَةٍ وَرَحِمْتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ رَبَّكَ مَأْمُونٌ وَعَزَّوَجَرُّهُ وَنَصْرُهُ وَأَتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ وَإِلَيْكَ هُمُ الْمُعْلِيحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَأْتِيهِمُ النَّاسُ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ حسنة، وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب.

﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ أي: رجعنا مقرين بتقصيرنا، منبئين في جميع أمورنا، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عَدَائِي أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَشْأَةٍ﴾ ممن كان شقياً، متعرضاً لأسبابه ﴿وَرَحِمْتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي، صغارها، وكبارها.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة مستحقها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

(١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ احتراز عن

جِيَمًا ﴿١٠٣﴾ أي: عريكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم.

﴿أَلَيْسَ لَكَ مُلْكٌ لِّتَكْفُرَ بِالَّذِينَ﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جعلتها: أن أرسل إليكم رسولاً عظيماً يدعوكم إلى الله، وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يباعدكم منه، ومن دار كرامته.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله ﴿يُثْبِتُ﴾ وَيُثَبِّتُ ﴿١٠٤﴾ أي: من جملة تدابير: الإحياء والإماتة التي لا يشاركه فيها أحد، الذي جعل الموت جسراً ومعبراً يعبر منه إلى دار البقاء التي من آمن بها صدق الرسول محمداً ﷺ قطعاً.

﴿فَقَامُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِينَ﴾ إيماناً في القلب، متضمناً لأعمال القلوب والجوارح ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده، وأعماله ﴿وَأَتَوْهُ لَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذ لم تتبعوه ضللتُم ضلالاً بعيداً.

(١٥٩) ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَهْدُونَ﴾ وَيُثَبِّتُونَ ﴿١٦٠﴾ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم، وفنواهم لهم، ويعملون به بينهم في الحكم بينهم بقضايهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْيَمَّةَ يَهْدُونَ يَأْمُرًا لِّمَا صَبَرُوا وَكَانُوا يَتَنَبَّأُونَ﴾ وفي هذا فضيلة أمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى جعل منهم هداة يهدون بأمره.

وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم، فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معايير بني إسرائيل، النافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية.

(١٦٠) ﴿وَقَفَّعْتَهُمُ﴾ أي: قسمناهم ﴿ثَلَاثَ عَشْرَةَ أَصْنَامًا﴾ أُمَّةً ﴿١٦١﴾ أي: اثني عشرة قبيلة، متعارفة، متوافة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ﴾ أي: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم ماء يشربون منه، وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم - والله أعلم - في محل قليل الماء.

فأوحى الله لموسى إجابة لطلبهم ﴿أَنِّي أَضْرِبُ بِصَاحِكَ لَفَجْرًا﴾ يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس،

سائر الأنبياء، فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ.

والسياق في أحوال بني إسرائيل وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي؛ لأنه من العرب، الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

﴿أَلَيْسَ يَدْعُوكُمْ كَثُوبًا عُنْدَهُمْ فِي النَّارِ﴾ وَالْجَنَّةِ ﴿١٦٢﴾ باسمه وصفته التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه وينهى عنه، وأنه ﴿يَأْمُرُهُمْ﴾ وَالْمَنْعُوفِ ﴿١٦٣﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه، ونفعه.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ النَّكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه، وأمر به، ونهى عنه، وأحله، وحرمه، فإنه ﴿يُجِزُّ لَهُمُ الْفُتُوحَاتِ﴾ من المطاعم، والمشارب، والمنافع. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثِ﴾ من المطاعم، والمشارب، والمنافع، والأفوال، والأفعال.

﴿وَيَسَّخِرْ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ومن وصفه أن دينه سهل سحر ميسر، لا إصر فيه، ولا أغلال، ولا مشقات، ولا تكاليف ثقال.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عظموه وبجلوه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ وَأَتَوْهُمُ النَّاسُ الَّذِينَ أَنزَلْنَا لَهُمُ الْكِتَابَ، وهو القرآن، الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات ويقنئ به إذا تعارضت المقالات، وأوتيتك هم الْمُتْلُونَ ﴿١٦٤﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح.

وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعززه، وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون.

ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم فقال: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

يشمل أي حجر كان، فضربه ﴿فَأَنْجَبَتْ﴾ أي: انفجرت من ذلك الحجر ﴿فَنَتَقَا عَقَرَهُ عَيْنًا﴾ جارية سارحة.

﴿قَدْ عَزَّ كُذُّ أَنْبِيسٍ تَشْرِبُهُ﴾ أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثني عشرة، وجعل لكل منهم عينًا، فعلموها، واطمأنوا، واستراحوا من التعب والمزاحمة، والمخاصمة، وهذا من تمام نعمة الله عليهم.

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ فكان يستريحون من حر الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرُّ﴾ وهو الحلوى ﴿وَالسَّلْوَى﴾ وهو لحم طير، من أحسن أنواع الطيور، والذها، فجمع الله لهم بين الظلال، والشراب، والطعام الطيب، من الحلوى واللحوم، على وجه الراحة والطمأنينة.

وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمْنَا﴾ حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فوتوها كل خير، وعرضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه.

(١٦٦) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: ادخلوها لتكون وطنًا لكم ومسكنًا، وهي «إيلياء» ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار، غزيرة الثمار، رغيدة العيش، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاؤوا.

﴿وَقُولُوا﴾ حين تدخلون الباب: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: احطط عنا خطايانا، واعف عنا.

﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لربكم، مستكينين لعزته، شاكرين لنعيمته، فأمرهم بالخضوع، وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل، فقال: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرِيعَ الدُّخَانِ﴾ من خير الدنيا والآخرة، فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي، بل بدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا، بدل طلب المغفرة، وقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾ (حبة في شعيرة)، وإذا بدلوا القول - مع يسره وسهولته - فتبدلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا وهم يزحفون على آسائهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿يَجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذابًا شديدًا، إما الطاعون وإما غيره، من العقوبات السماوية.

وما ظلمهم الله بعقابه، وإنما كان ذلك ﴿يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي: يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة ألجأتهم ولا داع دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان

وَقَطَعْنَهُمْ أَثْنَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ آخَرْبٍ بِعَصَاكَ الْخَجَرَ فَانْجَبَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرُّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرِيعَ الدُّخَانِ ﴿١٦٧﴾ وَسَاءَ لَهُمْ بِذَلِكَ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٨﴾ وَنَسَلْنَا عَلَيْهِمْ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكَلْبَ وَنَسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْبَحْرَ إِذْ يَبْعُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٩﴾

كامنًا في نفوسهم.

﴿وَسَلَّلْنَاهُمْ﴾ أي: أسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي: على ساحله، في حال تعذيبهم وعقاب الله إياهم.

﴿إِذْ يَبْعُدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموا ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله، وامتنعهم، فكانت الحيتان تأتيتهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: كثيرة طافية على وجه البحر.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: تذهب في البحر، فلا يرون منها شيئًا ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففسقهم، هو الذي أوجب أن ينبلهم^(١) الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يخفرون لها حفرًا، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت، ووقعت في تلك الحفر

(١) كذا في ب، وفي أ: يبلهم.

التَّوْبَاتِ

١٧٢

سورة الأعراف

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَعَلَاهُمْ عِقَابٌ ﴿١٧٢﴾
فَلَمَّا سَأَلُوا أَذْكَرَ آبَاءَهُمْ أَتَجِيبُنَا الَّذِينَ يَهْتَفُونَ عَنَّا أَلِيسَ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا بَئِيسًا بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٣﴾
فَلَمَّا عَوَّا عَنَّا مَأْوَاهُمْ فَلَنَّا لَهُمْ كُونًا قَرْدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٧٤﴾
وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لِيَسْعَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَوَّرٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٥﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمَاءً مِّنْهُمُ
الَّذِينَ هَوُوا وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٦﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ
وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ شَبَّهَ يَأْخُذُوهُ الرُّجُودَ عَلَيْهِمْ يَمِشُّ الْكِتَابُ
أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذِينَ الْأَخِرَةُ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضْعِجُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ ﴿١٧٨﴾

والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد،
أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق:
معظمهم اعتدوا وتجروا، وأعلنوا بذلك.
وفرقة أعلنت بنهيهم، والإنكار عليهم.

وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم وقالوا
لهم: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنهم
يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ
للتصحيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن
يعاقبهم الله، إما بهلاك، أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي:
لنعذر فيهم.

﴿وَعَلَاهُمْ عِقَابٌ﴾ أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا
نياس من هدايتهم، فرما نجع فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.
وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر، ليكون معذرة،
واقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه، فيعمل
بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا سَأَلُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا ما ذكروا به،
واستمروا على غيهم واعتدائهم.

﴿أَتَجِيبُنَا﴾ من العذاب ﴿الَّذِينَ يَهْتَفُونَ عَنَّا أَلِيسَ﴾ وهكذا سنة
الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون
بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت
﴿عَذَابًا بَئِيسًا﴾ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وأما الفرقة
الأخرى التي قالت للناهيين: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ﴾
فاختلف المفسرون في نجاتهم، وهلاكهم، والظاهر أنهم
كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك بالظالمين، وهو لم
يذكر أنهم ظالمون.

فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن
الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به
البيض سقط عن الآخرين، فأكفوا بإنكار أولئك، ولأنهم
أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم
كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد
العقوبة.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَوَّا عَنَّا مَأْوَاهُمْ﴾ أي: قسوا فلم يلبثوا،
ولا اعتفوا ﴿فَلَمَّا عَوَّا عَنَّا مَأْوَاهُمْ﴾ قولاً قدرياً ﴿كُونًا قَرْدَةً خَاسِئِينَ﴾ فانقلبوا
يأذن الله قرده، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة
والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ﴾ أي:

أعلم إعلاناً صريحاً: ﴿يَجْعَلَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يهينهم، ويذلهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، حتى إنه يجعل له
العقوبة في الدنيا ﴿وَإِنَّ لَعَنَؤُنَّ رَجِيمٌ﴾ لمن تاب إليه وأتاب، يغفر
له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه
الطاعات، ويشبه عليها بأنواع الثوبات. وقد فعل الله بهم ما
أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا
تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

(١٦٨) ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمَاءً﴾ أي: فرقناهم
ومزقناهم في الأرض، بعدما كانوا مجتمعين ﴿مِنْهُمْ
الَّذِينَ هَوُوا﴾ القائمون بحقوق الله، وحقوق عباده، ﴿وَمِنْهُمْ دُونُ
ذَلِكَ﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون
لأنفسهم ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾ على عادتنا وسنتنا ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾
وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالعسر واليسر.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى،
يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح،
وطالح، ومقصد، حتى خلف من بعدهم خلف؛ زاد شرهم

وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح كان أقرب إلى اتباعهم.

(١٧١) ثم قال تعالى: ﴿وَيَا نَفَقَاتُ جَبَلٍ فَوْقَهُمْ حِينِ امْتَنَعُوا مِنْ قَبولِ مَا فِي التَّوْرَةِ.

فألزمهم الله العمل وتنق فوق رؤوسهم الجبل، فنصار فوقهم ﴿كَانَتْ ظُلَّةٌ وَظَلُّوا اللَّهَ وَفَعَّيْنَاهُمْ﴾ وقيل لهم: ﴿حَدُّوا مَا مَاتَيْنَاكُمْ يَقُولُونَ﴾ أي: بجد واجتهاد.

﴿وَأَذَكُّوْا مَا فِيهِ﴾ دراسة ومباحثة، واتصافاً بالعمل به ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَتْلُون﴾ إذا علمتم ذلك.

(١٧٢-١٧٤) ﴿وَيَا أَهْلَ رِيٍّ مِمَّنْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ مَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُمْ بِرِيٍّ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۝ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ وَقَلِّبْنَاهُمْ فِي رُجُومِهِمْ﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَا أَهْلَ رِيٍّ مِمَّنْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ مَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون، ويتوالدون قرناً بعد قرن.

﴿و﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُمْ بِرِيٍّ﴾ أي: قررهم بإثبات ريوبيتهم، بما أودعه في فطرتهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم، ومليكمهم.

﴿قَالُوا بَلَى﴾ قد أقرنا بذلك، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم.

فكل أحد فهو مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير، وتبدل، بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

أي: إنما امتحناكم، حتى أقررتم بما تقرر عندهم، من أن الله تعالى ربكم، خشية أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقرروا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندهم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون.

فالיום قد انقضت حجتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم، أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فحدونا حنوهم، وتبعناهم في باطلهم.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فقد أودع الله في فطرتكم ما يدلکم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه.

﴿وَرِثُوا﴾ بعدهم ﴿الْكِتَابَ﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة.

﴿يَأْتِذُونَكُمْ عَنْ عَرَبٍ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ﴾ مقربين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿يَسْتَفْتُونَ لَنَا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة، فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشترى آيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال الله [تعالى] في الإنكار عليهم، وبيان جرائتهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ يَسُوعُ الْكِتَابُ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَهَ الْحَقِّ﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق، اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم.

﴿و﴾ الحال أنهم قد ﴿ذَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيهم، بإثارة الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ الْأَخْرَجُوا خَيْرٌ لِلْزَّيِّنَاتِ يَتْلُون﴾ ما حرم الله عليهم، من المأكَل التي تصاب، وتؤكل رشوة على الحكم، بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إشارته، وما ينبغي الإشار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب. وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، بفوت نعيمًا عظيمًا باقياً فأنى له العقل والرأي؟.

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم.

ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون، وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات، إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها، وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم، ونياتهم، ومصالحين لأنفسهم، ولغيرهم.

ونحو ذلك.

لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿لَيْتَ كَيْدِيَ سَيِّئٌ﴾ أي: قوي بلغ. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَّاحِبُهُمْ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾ أي: أو لم يعملوا أفكارهم، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودلّه وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.

أنهذه يا أولي الألباب من جنة؟ أم هو الإمام العظيم، والناصح المبين، والمجاد الكريم، والرووف الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب. ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكْرُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم إذا نظروا إليها، وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ما له من صفات الكمال.

﴿و﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم يدلّ أعظم دلالة على علم الله وقدرته، وحكمته، وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرده بالخلق، والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسيح الموحّد المحبوب.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرَبٌ لِّبَعْضِهِمْ﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت، وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟ أكتب الكذب والضلال؟ أم يحدث كل مفتر دجال؟

ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَمْ يَضِلُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: متحيرين^(١) يترددون، لا يخرجون منه، ولا يهتدون إلى حق.

(١٨٨، ١٨٧) ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنْ أَشَاقٍ آيَاتٍ مِّنْ سَنَائِهِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِندَ رَبِّي لَا جَبِّحًا لَّوَقَّهَا إِلَّا هُوَ يُفْثَنُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَعَثَ يَسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّهُ حَيٌّ عِنْدَ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عليّ يا تواب، وارزقي يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَوَدُّوا لَوْلَى يُسْمَكُوا فِي أَسْمَاءٍ مَّيِّتَةٍ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عقوبة وعذاباً على الحادهم في أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له. إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لأنهمتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى، ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها. فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملمحون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أن الله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة».

(١٨١) وقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة، كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق، ويعملون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم، إذا حكموا في الأموال، والدماء، والحقوق، والمقالات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصايح الدجى، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله، وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١٨٦-١٨٧) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدِينُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ وأما لهم لئلا يَكِيدِي سَيِّئٌ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَّاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكْرُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرَبٌ لِّبَعْضِهِمْ جَبَابٌ﴾ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ مَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَمْ يَضِلُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها.

﴿سَنَسْتَدِينُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ بأن يدر لهم الأرزاق، ﴿وَأَمَّا لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم، حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون، ولا يعاقبون، فيزدادون كفرًا وطغيانًا، وشرًا إلى شرهم. وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث

الموصلة إليه، والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنفارة، وإنما ينتفع بذلك، ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات مبنية جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع، أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضرر، عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به، من البشارة والنفارة، وعمل بذلك، فهذا نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان، بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

(١٨٩-١٩٣) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدٍ وَجَعَلَ لَكُمُ رِزْقًا إِنَّكُمْ لَئِنْ قُلْتُمْ نَفْسًا خَلَقْنَا خَلَقًا حَبِيبًا قَرِيبًا قُلْنَا لَئِنْ دَعَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ رِزْقًا لَكُمْ مِنْ سُلُوكِكُمْ قُلْنَا إِنَّهُمَا صَالِحًا جَلِيلًا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فِيمَا أَنْتَهُمَا فَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ○ ﴿يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَعِينُونَ لَمْ يَصْرُحْ وَلَا أَفْسَهُمْ يَصْرُوحُ ○ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْقَدَى لَا يَسْتَجِيبُوا سَوَاءً عَلَيْكَ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَسْرَ صَبُوحُ﴾ ○ أي: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم. ﴿يَنْ نَفْسٍ وَجَدٍ﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ رِزْقًا﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة، ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمam الشهوة.

﴿قُلْنَا نَفْسًا﴾ أي تجللها مجامعاً لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة، وذلك الجماع النسل، [وحيثما] ○ ﴿حَلَّتْ حَلًّا حَبِيبًا﴾ وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يتقلمها.

﴿قُلْنَا﴾ استمرت به و ﴿أَنَّتْ﴾ به حين كبر في بطنها، فحيث صار في قلبها الشفقة على الولد، وعلى خروجه حيّاً صحيحاً سالماً لا آفة فيه. [كذلك] ○ فدعوا ﴿اللَّهُ رِزْقًا لَكُمْ مَاتِنًا﴾ ولذا ﴿صَلِحًا﴾ أي: صالح الخلفة تامها، لا نقص فيه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿قُلْنَا إِنَّهُمَا صَالِحًا﴾ على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه ﴿جَعَلَا لَكُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا أَنْتَهُمَا﴾ أي: جعل الله شركاء في ذلك الولد، الذي انفرد الله بإيجاده، والنعمة به، وأقر به أعين والديه، فعبّداً لغير الله.

كُنْتُ أَظُنُّ الْقَبِيحَ لَنَسَخْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَيَسِّرَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَسْتَوْلُوكَ﴾ أي: المكذبون لك، الممتعون ﴿عَنِ السَّاعَةِ إِنَّكَ مُرْسِنُهَا﴾ أي: متى وقتها الذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: إنه تعالى مختص بعلمها ﴿وَلَا يَحِيطُ بِرُفْقًا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿تَنَزَّلُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتجهزوا لقيامها.

﴿يَسْتَوْلُوكَ لَأَنَّكَ خَافِيٌ عَنَّا﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستخف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكامل علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستخفاف عن هذا السؤال الخالي من المصلحة، المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكامل حكمته، وسعة علمه.

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم، ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿قُلْ لَأَمْلِكُ لِنَفْسِي نَعْمًا وَلَا ضَرًّا﴾ فإني فقير مدير، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَظُنُّ الْقَبِيحَ لَنَسَخْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تقضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفرتي ما يفرتي من مصلح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أنني لا أعلم لي بالغيب.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها. ﴿وَيَسِّرَ﴾ بالشواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنْ وَلَيْتَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعُقُودَ وَأْمُرْ
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا
فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَا تَجْنِبْهَا
قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِمَا يُوعَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ
فَأَسْمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْكَ
فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

عن تقصيرهم، ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على
الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره،
بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال،
وتنشر له صدورهم.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن، وفعل جميل، وخلق
كامل للقریب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما
تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برٍّ والدين،
أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو
معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى
تحصيل مصلحة دينية، أو دنيوية.

ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل
الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابله بجهله فمن أذاك بقوله
أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله،
ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن،
فقال تعالى:

﴿وَإِذَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (٢٠٢-٢٠٠)

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الذي فيه الهدى، والشفاء، والنور،
وهو من توليته وتربيته لعباده الخاصة الدينية.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم،
وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَبِالْزُّبُرِ﴾ مَأْمُورًا يُخْرِجُهُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١٩٧﴾ فالْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ - لما تولوا ربهم
بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع، ولا يضر -
تولاهم الله، ولطف بهم، وأعانهم على ما فيه الخير
والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بإيمانهم كل
مكروه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْفَعُ عَنِ الَّذِينَ مَأْمُورًا﴾.

(١٩٧، ١٩٨) ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ
وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾ وإن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ
يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وهذا أيضا في بيان عدم استحقاق
هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله شيء من العبادات،
لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار، في نصر أنفسهم، ولا في
نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها
إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها.

فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم
صوروها على صور الحيوانات، من الآدميين أو غيرهم،
وجعلوا لها أبصارًا وأعضاء، فإذا رأيتهما قلت: هذه حية، فإذا
تأملتهما عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي
رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ وأي مصلحة أو نفع
عكفوا عندها، وتقربوا لها بأنواع العبادات؟.

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها،
ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض
والسموات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدرُوا على
كيد بمشغال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال
قوة الله واقتداره، وقوة من اختفى بجلاله، وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا
يُبْصِرُونَ﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله
ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله! نظر اعتبار، يتبين
به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك، وما
يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

(١٩٩) ﴿خُذِ الْعُقُودَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ هذه
الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم،
فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما
سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق،
فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبيعتهم، بل يشكر من كل أحد ما
قابلة به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز

تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآثات.

فهذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿بَصَرًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يستبصر به في جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول، فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. وإلا فمن آمن، فهو ﴿هُدًى﴾ له من الضلال ﴿وَنَسَمَةً﴾ له من الشقاء، فالؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه.

وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي، في الدنيا والآخرة. (٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقى سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين، حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أؤكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

(٢٠٥، ٢٠٦) ﴿وَإِذْ ذُكِّرْتُكَ فِي نَفْسِكَ نَضْرَعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ۝ إِنَّ الْآلِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً، وغيره تبعاً، بذكر ربه في نفسه أي: مخلصاً خالياً.

﴿نَضْرَعًا﴾ أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، ووجل القلب منه، خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجهتد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: كن متوسطاً، لا تجهر

إِنَّهُ سَمِعَ عَبْدٌ ۝ إِنَّكَ الْآلِيكَ أَتَقُولُ إِذَا مَسَّاهُمْ طَلَيْتَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِنَّا لَهُمْ مُبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْبِرُونَ﴾.

أي: أي وقت، وفي أي حال ﴿يَزْنَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ﴾ أي: تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث على الشر، وإيعاز إليه.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: التجئ واعتصم بالله، واحتم بحماه فإنه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقول.

﴿عَلِيمٌ﴾ بنبئك وضعفك، وقوة التجانك له، فيحملك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطاً، ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسّه طائف من الشيطان، فاذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أتى، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح، والחסنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين، وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك. فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القيادة لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ هَكَذَا بَصَّرْتُمُوهُ وَهُدًى وَنَسَمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد، ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد. فإذا جتهد بشيء من الآيات الدالة على صدقك، لم يتقادوا.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ من آيات الاتراح، التي يعينونها ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلائية، أو المعجزة الفلائية كأنك أنت المنزل للآيات، المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترتها من نفسك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: فانا عبد متبع مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده وطلبت حكمة البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على

المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله ﴿يَسْتَوُونَ عَلَى الْأَنْفَالِ﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟.

﴿قُلْ﴾ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاء، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَأَسْلِمُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن، والتقاطع، والتدابير، بالتوادد، والتحاب، والتواصل، فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم، والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء، والتدابير، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾، فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله، فليس بمؤمن.

ومن نقصت طاعته لله ورسوله، فذلك لنقص إيمانه. ولما كان الإيمان قسمن: إيماناً كاملاً يرتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك، ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ صَبْرًا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وَعَلَىٰ رَيْبَةٍ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم، في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم الدينية، والدنيوية، ويشقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل

بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفصيلة على غيرهما.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاقِينَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة، في الاشتغال به.

وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصاً طرقي النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً، متذلاً، ساكناً وتواظلاً عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه، وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

ثم ذكر تعالى أن له عبادةً مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادته من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسهم، وأن تريحوا عليه أضعاف أضعاف ما علمتم، فقال:

﴿إِذَا الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من الملائكة المقربين، وحملة العرش والكرسيين ﴿لَا يَسْجُدُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ بل يذعنون لها، ويتقادون لأوامر ربهم ﴿وَيَسْبُحُونَ﴾ الليل والنهار، لا يفترون. ﴿وَرَأَىٰ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْبُحُونَ﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليدأموا [على] عبادة الملك العلام.

ثم تفسير سورة الأعراف، والله الحمد والشكر والثناء، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿يَسْتَوُونَ عَلَى الْأَنْفَالِ﴾ الْفَتْحُ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ صَبْرًا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَيْبَةٍ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الْفَتْحُ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمِنْهُمْ رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الْإِنْفَالُ: هي الغنائم التي ينقلها الله لهذه الأمة، من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة «بدر» أول غزوة كبيرة غنمها

إلا به.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَصْلَابَهُ﴾ من فرائض، ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِيمُونَ﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيمانهم، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة، والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله، وحقوق عباده.

وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح، وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان يزيد ويقص، فيزيد بفعل الطاعة، ويقص بضدها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينمي، وإن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى، والتأمل لمعانيه.

ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجته في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا، من كرامة الله التامة.

(٥-٨) ﴿كَمَا أَفْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ يَبَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ قَرِيبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاهُونٌ ۖ يَجْعَلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَلِمًا يُسْأَلُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۖ وَإِذْ يَبْعَثُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ وَوَدُّوكَ أَنَّ عَمْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكَ وَوَرِثُكَ اللَّهُ أَنْ يَحِقَّ الْحَقُّ بِكُمْنِيهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ۖ لِيَحِقَّ الْحَقُّ بِالْبَيْتِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام بها، استقامت أحواله، وصلحت أعماله التي من أكبرها الجهاد في سبيله.

فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في «بدر» بالحق الذي يحبه الله تعالى، وقد قدره وقضاه.

وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أن يكون بينهم وبين عدوهم قتال.

فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

١٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ فِي الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۚ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاَهُونَ ۚ يَجْعَلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَلِمًا يُسْأَلُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۚ وَإِذْ يَبْعَثُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ وَوَدُّوكَ أَنَّ عَمْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكَ وَوَرِثُكَ اللَّهُ أَنْ يَحِقَّ الْحَقُّ بِكُمْنِيهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ۚ لِيَحِقَّ الْحَقُّ بِالْبَيْتِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُؤْمِنُونَ ۚ

يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكروهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق، ومما أمر الله به، ورضيه، فهذه الحال ليس للجدال محل [فيها]^(١)، لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق، والتباس الأمر، فأما إذا وضع وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان.

هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقبض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها.

وكان أصل خروجهم يتعرضون لعير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة.

فلما سمعوا برجوعها من الشام، ندب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، معهم سبعون بعيراً،

الْمَلِكِ

١٧٨

سُورَةُ

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ
 مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى
 وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يَغْشَى كُفْرَ الْعَاسِ أَمَةٌ مِنْهُ وَنَزَلَ
 عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ
 الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَتُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
 إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
 سَأَلَفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ
 الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
 عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ بِأَنَّهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيَ اللَّهُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا زَعَمًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤْمِزْ
 دُبُرَهُ إِلَّا لِمَتَحَرَّ فَاَلْقَاتِلَ أَوْ مَتَحَرَّ إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ
 بِغَضَبِ رَبِّكَ اللَّهُ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من
 الحدث والخبث، وليطهركم من وساوس الشيطان ورجزه.
 ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يثبتها، فإن ثبات القلب أصل
 ثبات البدن، ﴿وَتُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ فإن الأرض كانت سهلة
 دهسة فلما نزل عليها المطر، تلبدت، وثبتت به الأقدام.
 ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون
 والنصر والتأييد.

﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم
 الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله.
 ﴿سَأَلَفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الذي هو أعظم
 جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين، وألقى الرعب في
 قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنهم
 الله أكتأفهم.

﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: على الرقاب ﴿وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ
 كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: مفصل.

وهذا خطاب، إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يشبوا
 الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر،

يعتقبون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخيرهم
 قريش، فخرجوا لمنع عيرهم، في عدد كثير وغدة وافرة من
 السلاح، والخيل والرجال، يبلغ عددهم قريباً من ألف.
 فوعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالعير،
 أو بالنفير، فأجروا العير لقلعة ذات يد المسلمين، ولأنها غير
 ذات الشوكة، ولكن الله تعالى أحب لهم، وأراد أمراً أعلى
 مما أحبوا.

أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين
 وصناديدهم ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَوِّقَ أَلْقَى يَكْمَتِهِ﴾ فينصر أهله
 ﴿وَيُطْلَعُ ذَاكِرُ الْكَافِرِينَ﴾ أي يستأصل أهل الباطل، ويرى عباده
 من نصره للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم.

﴿يُخَوِّقُ أَلْقَى﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته
 وصدقه، ﴿وَيُطْلَعُ أَلْبَطَلُ﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد على
 بطلانه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فلا يبالي الله بهم.

(٩-١٤) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ
 بِالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ
 بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩﴾
 يَغْشَى كُفْرَ الْعَاسِ أَمَةٌ مِنْهُ وَنَزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ
 وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَتُثَبِّتَ بِهِ
 الْأَقْدَامَ ﴿١٠﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
 سَأَلَفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ
 وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ
 يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوا
 وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣﴾ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، لَمَا
 قَارَبَ التَّقَاؤَ بَعْدُكُمْ، اسْتَغْتَمْتُمْ مِنْكُمْ، وَطَلَبْتُمْ مِنْهُ أَنْ
 يَعْزِمَكُمْ وَيَنْصَرَكُمْ ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وَأَغَانَكُمْ بَعْدَ أَمُورٍ:

منها: أن الله أمدكم ﴿بِالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ أي:
 يردف بعضهم بعضاً، ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ أي إنزال الملائكة ﴿إِلَّا
 بُشْرَى﴾ أي: لتستبشروا بذلك نفوسكم، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾
 وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا غدة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار الذي يخذل
 من بلغوا من الكثرة، وقوة العدد والآلات ما بلغوا.

﴿حَكِيمٌ﴾ حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء
 مواضعها.

ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاماً
 ﴿يَغْشَى كُفْرَ الْعَاسِ﴾ [أي: فيذهب ما في قلوبكم من الخوف
 والوجل، ويكون ﴿أَمَةٌ﴾ لكم، وعلامة على النصر
 والطمأنينة.

﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على منته العظيمة، وإحسانه التام، بأن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.
 (٢٨، ٢٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ نَحْنُ أَعْمَتُكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْلَوْنَ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَتْكُمْ وَأُوتِيَتْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾
 وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما اتهمهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها، استحق العقاب الويل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منفصلاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة، مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة^(٢) ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يتبلى الله بهما عباده، وأنها عارية، ستؤدى لمن أعطاهما، وترد لمن استودعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

فإن كان لكم عقل ورأي، فأتروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضحكة، فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أوالها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

(٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ شُكِّلَ لَكُمْ قُرْآنًا وَيُكَفَّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَبُعِثَ لَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾
 امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان، وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع، يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغار، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع: الأجر العظيم، والثواب الجزيل لمن اتقاه، وآثر رضاه على هوى نفسه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

(١) هكذا في النسخين، والمراد ظاهر، وهو أن اتقاء هذه الفتنة يكون بالنهي عن المنكر. (٢) في ب: محبته.

(٢٥، ٢٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَهُ الْغُيُوتِ ۚ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُغِيِبُ الْإِيمَانَ تَطْلَعُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهى عنه، والانكفاف عنه، والنهي عنه.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته، وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فليأكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء، ويصرفها أنى شاء.

فليكثر العبد من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك».

﴿وَأَنَّهُ إِلَهُ الْغُيُوتِ﴾ أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُغِيِبُ الْإِيمَانَ تَطْلَعُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بل نصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره. وتقوى^(١) هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تعرض لِمَسَاخِطِهِ، وجانب رضاء.

(٢٦) ﴿وَأَنذَرُكُمْ إِذْ أَنْتُمْ قِيلَ مُسْتَعْذِرُونَ فِي الْأَرْضِ فَقَالُوا أَنْ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ قَوْلَكُمْ وَإِنْدَكُمْ بَصِيرَةٌ ۚ وَرَدَّكُمْ مِنَ الْطُّبَيْتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى مبتلياً على عباده في نصرهم بعد الدلة، وتكثيرهم بعد الفتنة، وإغاثتهم بعد العيلة:

﴿وَأَنذَرُكُمْ إِذْ أَنْتُمْ قِيلَ مُسْتَعْذِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿فَقَالُوا أَنْ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فَقَالُوا وَإِنْدَكُمْ بَصِيرَةٌ ۚ وَرَدَّكُمْ مِنَ الْطُّبَيْتِ﴾ فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿٣٠﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرُورِينَ ﴿٣١﴾ أَيْ: ﴿وَرُ﴾
 اذكر أيها الرسول ما من الله به ^(١) عليك، ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين تشاور المشركون في دار الندوة، فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يثبتوه عندهم بالحبس، ويوقعوه. وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من شره. وإما أن يخرجوه ويجلوه من ديارهم. فكل أمدى من هذه الآراء رأيا وآه.

فاتفق رأيهم على رأي رأي شريهم أبو جهل - لعنه الله - وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فنى، ويعطوه سيفا صارما، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليغرق دمه في القبائل، فيرضى بنو هاشم [ثم] بديته، فلا يقدرّون على مقاومة سائر ^(٢) قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه.

فجاءه الوحي من السماء وخرج عليهم، فذّر على رؤوسهم التراب وخرج، وأسمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه، جاءهم آت وقال: خبيكم الله، قد خرج محمد وذّر على رؤوسكم التراب.

فنفض كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة. فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له، وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج مستخفيا منهم، خائفا على نفسه. فسبحان اللطيف بعبد، الذي لا يغالبه مغالب.

﴿٣١﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ نُنْثِي عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا نُوْثَاءَ نَفْسًا نَفْلًا يَنْتَلِ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ○ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِكْمَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ ○ وَمَا كُنَّا اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ○ وَمَا كُنَّا إِلَّا يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُشْكُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ: ﴿وَإِذْ نُنْثِي عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به الرسول.

﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا نُوْثَاءَ نَفْسًا نَفْلًا يَنْتَلِ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدرّوا على ذلك، وتبين عجزهم.

فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه

الواقع، وقد علم أنه ^(٣) أمي، لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا﴾ الذي يدعو إليه محمد ﴿هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِكْمَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب.

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتوبيهات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه، قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم.

فمدّ قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقي منهم باقية،

(١) في السخين: ما من الله بك عليك. (٢) في ب: جميع.

ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب، بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال:

﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفٌ لَهُمْ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فوجوده ﷻ بين
أظهرهم أمانة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس
الاشهاد، يدرون ببقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم،
فيستغفرون الله [تعالى فهذا] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ
مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعدما انعقدت
أسبابه.

ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يَعْتَبِرُونَ﴾ أي: أي شيء ينعتهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي: المشركون ﴿أُولِيَاءَ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي: أولياء الله، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم، ﴿إِنْ لَوْلَاؤُنَا إِلَّا لَمَنْشُونُ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمراً، غيرهم أولى به.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾^١ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ أي صغيراً وتصفيقاً، فعل الجيلة الأغبياء الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟! ١

فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿إِلَى آخِر مَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَالْأَفْعَالِ السَّيِّدَةِ.

لا جرم، أوردتهم الله بينة الحرام، ومكنهم منه، وقال لهم - بعدما مكن لهم فيه - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الشُّرُكُوتُ جَسَسٌ فَلَا يَقْرَءُوا الْمُسَجِّدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمَلِهِمْ هَكَذَا﴾ وقال هنا : ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

(٣٧، ٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْشُوهُنَّ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ

وَمَا لَهُمُ الْآيَةُ بِهِمْ أَنَّهُ مَبْذُورٌ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أُولَئِكَ إِلَّا الْغَافِلُونَ
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا امْكَاءٌ وَتَضْيِغَةٌ فَذُقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُتِفِقُونَ
أَنَّهُمْ لَمَهْلِكُونَ سَبِيلَ اللَّهِ فَأَسْبِغْ فَوْقَهُمْ تَكَوُّثًا
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُخْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ
فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٤﴾ قُلِ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآذٍ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٥﴾ وَنُفِثُوا مِنْ حَقٍّ
لَّا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَسْئَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي اللَّهِ فَإِنْ
أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْتِ وَنِعَمَ النَّصْرِ ﴿٦٧﴾

كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْمَرُونَ ۝ يَسِيرُ اللَّهُ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ وَجَعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلُ فِي جَهَنَّمَ أُنْثَىٰكُم هُمُ الْخَائِرُونَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين، وكيدهم، ومكرهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره، وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إِنَّ أَلْأَنَىٰ كَفَرُوا يَفْخَرُونَ أَنَّهُمْ لَيَصَّدَّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ليطولوا الحق، وينصروا الباطل، ويبتطل توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿تَسِفُّوْنَهَا﴾ أي: فيصددون هذه النفقة، وتخف عليهم،
لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون
﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة، وخزيًا، وذُلًّا. ﴿وَيُخَذِّلُونَ﴾
فتذهب أموالهم، وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد
العذاب، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْرَجُونَ﴾
أي: يجمعون إليها، لينوقوا عذابها، وذلك لأنها دار الخيـ
ث والخبثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب،
ويجعل كل واحدة على حدة، وفي دار تخصصه، فيجعل

يغالبه أحد إلا غلبه .

﴿إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ﴾ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة، وهم بعدوته أي: جانبه البعيد من المدينة، فقد جمعكم واد واحد .

﴿وَالرَّكْبُ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ مما يلي ساحل البحر .

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف، وبهذه الحال ﴿لَاخْتَفَتُمْ فِي الْبَيْتِ﴾ أي: لا بد من تقدم أو تأخر، أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم، أو لهم، يصدفكم عن ميعادكم^(١) .

﴿وَلَكِنْ﴾ الله جمعكم على هذه الحال ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ كانت مفعولاً: أي: مقدراً في الأزل، لا بد من وقوعه .

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنَّا بَيْنَ يَدَيْ﴾ أي ليكون حجة وبينه للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وحزم بطلانه، فلا يبقى له عذر عنده الله .

﴿وَيَحْيِي مَنْ حَيَّ عَنَّا بَيْنَهُ﴾ أي: يزداد المؤمن بصيرة و يقيناً، بما أرى الله الطافين من أدلة الحق وبراهينه، ما هو تذكرة لأولي الألباب .

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عِلِيمٌ﴾ سميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات .

علمهم بالظواهر، والضمائر، والسرائر، والغيب، والشهادة (٤٣، ٤٤) ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاصِلِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَنَّهُمْ كَثُرُوا لَفَسَدُوا وَلَنَرَنَّهُمْ فِي الْأَنْزِلِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الضُّرُورِ﴾ وإذ يريكم في المواقف في التفتيم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كانت مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور ﴿وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرويا عدداً قليلاً، فبشر بذلك أصحابه، فاطمأن قلوبهم، وتثبت أفئدتهم .

ولو أراكم الله إياهم كثيراً فأخبرت بذلك أصحابك ﴿لَفَسَدُوا وَلَنَرَنَّهُمْ فِي الْأَنْزِلِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم، ومنكم من لا يرى ذلك، فوقع من الاختلاف والتنازع ما يوجب الفشل .

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ فلفظ^(٢) بكم ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الضُّرُورِ﴾ أي: بما فيها من ثبات وجزع، وصدق وكذب، فعلم الله من قلوبكم ما صار سبباً للطفه وإحسانه بكم، وصدق الله رؤيا رسوله، فأرى الله المؤمنين عدوهم، قليلاً في أعينهم، ويقللهم - يا معشر المؤمنين - في أعينهم، فكل من الطافين ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى .

سورة الأنفال

١٨٢

سورة الأنفال

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ مِثْلَهُ خَاسِرٌ وَلِلَّهِ الْأَشْرَفُ وَلَئِنَّمَا لَئِيْنَتُنَّ وَالْمُسْكِينُ وَآبَاءُ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أَعْتَدْتُمْ لِلَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْأَشْرَفِ أَن يَوْمَ الْفَتْحِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١١) إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوفِ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَفَتُمْ فِي الْبَيْتِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنَّا بَيْنَ يَدَيْ وَيَحْيِي مَنْ حَيَّ عَنَّا بَيْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عِلِيمٌ (١٢) إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاصِلِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَنَّهُمْ كَثُرُوا لَفَسَدُوا وَلَنَرَنَّهُمْ فِي الْأَنْزِلِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الضُّرُورِ (١٣) وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي الْأَنْزِلِ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٤) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فُتً قَاتِلُوا وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٥)

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ كانت مفعولاً من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين وقتل قادتهم، ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد، له اسم يذكر، فيتبر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضاً لطفًا بالباقيين الذين من الله عليهم بالإسلام .

﴿وَلِلَّهِ أَفْئِدَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمة العادل الذي لا جور فيه، ولا ظلم .

(٤٥-٤٩) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فُتً قَاتِلُوا وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا النَّاسَ أَن يَمُنُوا بِمَا يَمُنُونَ وَإِنِ اللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَبَنُوا دِيَارَهُ الْكَاذِبِينَ وَبَنُوا سَبِيلَ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَمُنُونَ مُجِيبٌ وَإِذْ رَفَعَ لَهُمُ السَّيْلَانَ أَغْمَتْهُمُ وَقَالَ لَا غَالِيَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ أَتَيْنَا وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ لَكَّصَ عَلَى عَيْنَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرَأْتُ مِنَ الْكُفْرِ إِنِّي أَرَى مَا

(١) في ب: عن ميعادهم . (٢) في ب: أي لطف .

١٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَلَا تَسْرِعُوا بِالنَّفْسِ أَنْ تَنْهَضُوا وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ وَأَصِيرُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٧﴾ وَإِذْ زَيْنُ لَهْمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهَوْا لَهُ مِنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْهَبَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢١﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِإِيعَاتِ اللَّهِ فَلَاخِذْهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٥ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهَوْا لَهُ مِنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾ يقول تعالى: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَاقِمُونَ فَكَرًا﴾ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم.

﴿فَاتَّقُوا﴾ لقاتلها، واستعملوا الصبر، وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة التي عاقبتها العز والنصر.

واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿فَلَكُمْ قُلُوبٌ﴾ أي: تدركون ما تطالبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر والشباب، والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في استعمال ما أمرا به، والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال.

﴿وَلَا تَسْرِعُوا﴾ تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقا، ﴿وَتَنَحَّسُوا﴾ أي: تجنبوا ﴿وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ﴾ أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله.

﴿وَأَصْبِرُوا﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم، واخضعوا له.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبزهم من ديارهم، لقصد الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم.

والمقصود الأعظم: أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه، ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذرهم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى، وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم، الموصل لجنات النعيم.

﴿وَإِذْ زَيْنُ لَهْمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَلَهُمْ﴾ حشنها في قلوبهم وخدعهم، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾، فإنكم في عَدَدٍ وَعَدَدٍ، وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه.

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ من أن يأتاكم أحد، ممن تخشون غائلته، لأن إبليس قد تبدى لفريش في صورة سراقه بن مالك ابن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم، وأنوا على حرد قادرين.

﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ﴾ المسلمون والكافرون، فرأى

الشیطان جبریل علیه السلام یزع الملائكة خاف خوفاً شديداً و﴿نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي: ولى مدبراً، ﴿وَقَالَ﴾ لمن خدعهم وغرهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان، لأحد بقتالهم.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان قد سؤل لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار لهم. فلما أوردتهم مواردهم، نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما قال تعالى: ﴿كَتَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرُوا فَلَمَّا كَفَرُوا قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَكْفَرُ وَلَكِنْ أَتَّبِعُكُمْ ٥ فَكَانَ عَقَبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين، حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم.

﴿غَرْهَوْا لَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: أوردتهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها، يقولونه

(٥٨) ﴿وَمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ قَائِلٌ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فحفت منهم خيانة بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة.

﴿قَائِلٌ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم، أي: أرمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ﴾ بل يبيغضهم أشد البغض، فلا بد من أمرين، يبرئكم من الخيانة.

وذكرت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة^(١) منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يُخَفَ منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾، وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرهم.

ودل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يُخَفَ منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

(٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِيَّاهُمْ لَا يَعْزُرُونَ﴾ أي: لا يحسب الكافرون ببرهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه، فإنهم لا يعجزونه، والله لهم المرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين، وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها، فلهذا قال لعباده المؤمنين:

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَسَا تَشْفَوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْمَ الْإِتِمَامِ ۚ وَأَنْشُرْ لَكُمْ تِلْكَ الْأَمْثَلُ ۚ﴾

أي: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم، وإبطال دينكم، ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية، وأنواع الأسلحة ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع، والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع، والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعْلَمُ الرُّمِّي، والشجاعة والتدبير.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبِراً فِئْتَمَةً أَنْفَعَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ كَذَّابٌ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ فَإِنَّا نُنَقِّصُهُمْ فِي الْحَرْبِ وَفَشَرِدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٦١﴾ وَإِنَّا نَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ قَائِلٌ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ ﴿٦٢﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِيَّاهُمْ لَا يَعْزُرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَسَا تَشْفَوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْمَ الْإِتِمَامِ ۚ وَأَنْشُرْ لَكُمْ تِلْكَ الْأَمْثَلُ ۚ وَإِن جُنُّوْا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزَعْ ۚ مَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٤﴾

ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرُّمِّي»، ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجوداً^(٢) أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة وجب ذلك؛ لأن «ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَأَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

(١) في ب: المحقة. (٢) في النسخين: إذا كان موجوداً شيئاً.

فلو أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب، وفضة وغيرهما، لتأليفهم بعد تلك الفرة، والفرقة الشديدة ﴿مَا أَلَفَتْ يَدُكَ قُلُوبَهُمْ﴾ لأنه لا يقدر على قلب القلوب إلا الله تعالى. ﴿وَلَسَكُنَّ اللَّهُ أَلْفَ بَيْتٍ مِنْهُمْ إِنْ عَزِزُ حَكِيمٌ﴾ ومن عزته أن

ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ حَسِبَ اللَّهُ أَنَّهُ كَافِكٌ﴾ أي: كافيكم ﴿وَيَنْ أَيْمَنُكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية، والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

(٦٦، ٦٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ حَزَبُوا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقَتْلِ إِنْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ عَشْرُونَ صَبْرًا يَقْبَلُوا يَأْتِيَنَّ وَإِنْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ ثَلَاثُونَ يَأْتِيَنَّ أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ○ أَلْفٌ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَبَيْنَكُمْ أَلْفٌ فِيكُمْ سَمْعًا إِنْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ ثَلَاثُونَ يَأْتِيَنَّ يَأْتِيَنَّ وَإِنْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ أَلْفٌ يَقْبَلُوا أَلْفَيْنِ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ حَزَبُوا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقَتْلِ إِنْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ عَشْرُونَ صَبْرًا يَقْبَلُوا يَأْتِيَنَّ وَإِنْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ ثَلَاثُونَ يَأْتِيَنَّ أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم، وينشط همهم، من الرغبة في الجهاد، ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة، المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

﴿إِنْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَشْرُونَ صَبْرًا يَقْبَلُوا يَأْتِيَنَّ وَإِنْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ ثَلَاثُونَ يَأْتِيَنَّ أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يكون الواحد نسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض، والفساد فيها، وأتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله، وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواعٍ للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال: ﴿أَلْفٌ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَبَيْنَكُمْ أَلْفٌ فِيكُمْ سَمْعًا﴾ فلذلك اقتضت رحمته

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفاً مضاعفاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعةائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُرُونَ﴾ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

(٦٤-٦١) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِبْ مَا رَوَّكَ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ○ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْبُشَيْرُ وَالْمُنِيرُ ○ وَالَّذِينَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَشَقَّتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفَتْ يَدُكَ قُلُوبَهُمْ وَلَسَكُنَّ اللَّهُ أَلْفَ بَيْتٍ مِنْهُمْ إِنْ عَزِزُ حَكِيمٌ ○ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ حَسِبَ اللَّهُ وَمِنْ أَعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أي: الصلح وترك القتال.

﴿فَاجْتَنِبْ مَا رَوَّكَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضهم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق، والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه، والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم.

فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره فقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيكم ما يؤذيكم، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فلـ ﴿هُوَ الَّذِي إِلَيْكَ يَصْعَدُ الْبُشَيْرُ وَالْمُنِيرُ﴾ أي: أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن يقضيه لنصره.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة

وحكمته التخفيف، ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَانَّةٌ صَايَةً يُعْلِيُوا وَاثْنَيْنِ﴾
وَأِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يُعْلِيُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾
بعونه وتأيدِهِ.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين، يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر، وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المائة، والمائة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما : أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم، [إذا غلب على ظنهم الضرر]^(١)، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿أَلَيْسَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر^(٢) لازم، وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر نكتة بديعة، لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني : أن المقصود بتقييد ذلك بالصائرين ، أنه حث على الصبر ، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك ، [إذا فعلوها ، صارت الأسباب الإيمانية ، والأسباب المادية مباشرة بحصول ما أخبر الله به ، من النصر لهذا العدد القليل^(٣) .

(٦٧-٦٩) ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْرِكَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُؤْتِي الْأَكْثَرَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَوْلَا كَيْدُ بَنِي آدَمَ سَقَمَ لَكُمْ فِيمَا أَنتُمْ عَدَاةٌ عَظِيمٌ ۝ فَكَلَّمُوا مِمَّا عَمِلْتُمْ خِلَافًا مُبِينًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه معاناة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين، وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في

وَأَنْ تَرْجِدُوا أَنْ يُخْدَعَكُمْ فَإِنَّ هَسْبَكُمْ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْذَكُم بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَالْفَائِزِينَ ﴿٢٣﴾ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفَتْ بِهِمْ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بِهِمْ إِنَّهُ غَيْرُ خَفِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُونَ بِغَلَبِ أَمَانَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِنْتَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢٦﴾ أَفَلَنْ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٧﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ بَأْسٌ حَتَّى يَشْخِصَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الذُّنُوبِ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْأَخْرَجَةَ وَاللَّهُ غَيْرُ خَفِيمٍ ﴿٢٨﴾ لَوْلَا كِتَابُ بَيْنِ اللَّهِ سَبَقَ لَكُنْكُمْ فِيمَا آخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٩﴾ فَكُلُوا وَمِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَقْفُوا لِلَّهِ إِنِ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٠﴾

هذه الحال ، قتلهم واستئصالهم .

فقال تعالى: ﴿مَا كَانِ الْبَنِيُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يَمُوتَ﴾ في
الْأَرْضِ أَي: ما ينبغي، ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين
يريدون أن يظفوا نورا لله، ويسعوا لإخماد دينه، وأن لا يبقى
على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم
لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى
المصلحة المقتضية لإبادتهم، وإبطال شرهم، فما دام لهم شر
ووضلة، فالأوفق أن لا يؤسروا.

فَإِذَا أَتَيْنَاهُمَا، وَبَطَلْ شَرَّهُمْ، وَاضْمَحَلْ أَمْرَهُمْ، فَحَيْثُ لَا يَأْسُ بِأَخْذِ الْأَسْرِ مِنْهُمْ، وَإِبْقَائِهِمْ.

يقول تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

﴿وَاللَّهُ يُبْدِ الْأَخْرَةَ﴾ يا عزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمرهم بما يوصل إلى ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل العزة، لو شاء أن ينتصر من

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: الأمر. (٣) زيادة من هامش ب.

الْمُحَارِبِينَ

١٨٦

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

يَتَابِعُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لِمَنْ فِي اَيْدِيكُمْ مِنَ الْاَسْرَى اِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا اخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَاِنْ يَرِيدُوْا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَاَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ اٰمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ دِيَارِهِمْ وَانْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِيْنَ اٰوَوْا وَنَصَرُوا اُولَئِكَ بَعْضُهُمْ اَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُم مِّنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا وَاِنْ اَسْتَضَرُّوْكُمْ فِي الدِّيْنِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ لِاَعْلَىٰ قَوِّمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ يَشْفُقُ وَاللهُ يَمَّا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ اَوْلِيَاءُ بَعْضٍ اَلَا تَتَعْلَمُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْاَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ دِيَارِهِمْ وَانْفُسَهُمْ اَوَّوْا وَنَصَرُوا اُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ دِيَارِهِمْ وَلَئِكَ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَئِكَ اُولَئِكَ اَسْرَارُ بَعْضُهُمْ اَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ اِنَّ اللهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمٌ ﴿٧٥﴾

الكفار من دون قتال لفعول لكنه حكيم، يبتلي بعضهم ببعض. ﴿لَوْلَا كَتَبَ رَبُّنَا الْقَضَاءَ وَالْقَدْرَ، أَنَّهُ قَدْ أَهْلَ لَكُمْ الْغَنَامَ، وَأَنَّ اللَّهَ رَفَعَ عَنْكُمْ - أَيُّهَا الْأُمَّة - الْعَذَابَ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفي الحديث: «لو نزل عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر».

﴿فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ حَلَالًا حَلَالًا﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أهل لها الغنائم، ولم يحلها لأمة قبلها.

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم، ولازموها شكرًا لنعم الله عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئًا جميع المعاصي.

﴿رَحِيمٌ﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم، وجعلها حلالًا طيبًا.

(٧١، ٧٠) ﴿يَتَابِعُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا اخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأنتن بينهم والله عليم حكيم وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فانزل الله تعالى جبرًا لخطره، ومن كان على مثل حاله: ﴿يَتَابِعُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا اخَذَ مِنْكُمْ﴾ أي: من المال، بأن يسر لكم من فضله خيرًا وأكثر^(١) مما أخذ منكم.

﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، ويدخلكم الجنة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه شوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

﴿وَأِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ في السعي لحربك، ومنابدتك، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَنْتَكَ مِنْهُمْ﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم، وهم تحت قبضته.

﴿وَاللَّهُ عَالِمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

(٧٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ دِيَارِهِمْ وَانْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَضَرُّوْكُمْ فِي

الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا عقد مولاة ومحبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوه في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكامل إيمانهم وتمام اتصال بعضهم ببعض.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم، في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما لم يهاجروا، لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء.

لكنهم ﴿إِنْ اسْتَضَرُّوْكُمْ فِي الدِّيْنِ﴾ أي: لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: عهد

(١) في: ب. كثيرًا. (٢) في: ب. وقد تكفل.

المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأمر الله ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصابات، وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه وشرعه. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكْلِي مَا تَصَدَّقَ عَلَيْهِ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعها الدينية عليكم ما يناسبها. تم تفسير سورة الأنفال والله الحمد.

تفسير سورة براءة ويقال: سورة التوبة وهي مدنية

(٢، ١) ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ أَلَكْفَرِينَ﴾ أي: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين، أن لهم أربعة أشهر، يسبحون في الأرض على اختيارهم، آمين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم ولا ميثاق. وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر، بزيادة على أربعة أشهر، فإنه يتعين أن يتم له عهده، إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أئذ المعاهدين في مدة عهدهم أنهم وإن كانوا آمينين، فإنهم لن يعجزوا الله، ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركه فإن الله لا بد أن يخزيه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام، إلا من عاند وأصر، ولم يبال بوعد الله له.

(٣) ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِنْ تُبَسِّمُوا فَهِيَ كَيْفَ لَكُمْ ۚ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا ما وعد الله به المؤمنين، من نصر دينه، وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائهم، من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة، من بيت الله الحرام، وأجلوهم مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز.

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة، وأذل

ترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينهم عليهم؛ لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق.

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَقُولُونَ لَمْ يَكُنْ﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْثَانِ اللَّهِ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء لبعض^(١)، فلا يواليه إلا كافر مثلهم.

وقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوا﴾ أي: موالاة المؤمنين، ومعاودة الكافرين، بأن واليتهم كلفهم أو عاديتهم كلفهم، أو واليتهم الكافرين، وعاديتهم المؤمنين.

﴿تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين، التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجْهَهُدَا مَكَمَّ ۚ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُ اللَّهُ ۚ وَالَّذِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَكْلِي مَا تَصَدَّقَ عَلَيْهِ﴾ الآيات السابقة في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ﴾ أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض، وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله، تمحى بها سيئاتهم، وتضمحل بها زلاتهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم.

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ﴿فَأُولَئِكَ سَيَرْحَمُ اللَّهُ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم^(٢).

فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير، وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ آخى بين

(١) في ب: بعض. (٢) كذا في ب، وفي أ: لا ما لكم وعليه ما عليكم.

سُورَةُ الْبُرَاجِ

بَرَاءَةً مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
 فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
 اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ نَحْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ
 إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا
 أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
 ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
 شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
 مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ
 فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا نِسَاءَهُمْ وَأَخْصُرُوا
 وَأَعْقِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾
 وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
 كَلِمَ اللَّهِ فَخُذْ بِلِغَتِهِ مَأْمَرَهُ ذَلِكَ بَأْسُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكتها، ولا يستحقون منها شيئاً،
 لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المناهضون له ولرسله،
 المحاربة الذين يريدون أن يخلوا الأرض من دينه، وبإبي الله
 إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿وَأَعْقِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: كل ثنية وموضع يمرون
 عليه، ورابطوا في جهادهم، وابدأوا غاية مجهودكم في ذلك،
 ولا تزالوا على هذا الأمر، حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي:
 أودها بحقوقها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقها ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾
 أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما

عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين،
 ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم يقولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو
 الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر

المشركين، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار.
 فأمر النبي^(١) مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم
 النحر، وقت اجتماع الناس، مسلمهم وكافرهم، من جميع
 جزيرة العرب، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين،
 فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم:
 لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة
 تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة
 - يوم النحر - ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي
 الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة، ورهبهم من الاستمرار
 على الشرك فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ
 فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

أي: فانتبه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده
 المؤمنين.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم مفضل في
 الدنيا بالقتل، والأسر، والجلاء، وفي الآخرة بالنار، وشن
 القرار.

(٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا
 وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُتَّقِينَ﴾ أي هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين
 ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ واستمروا على عهدهم،
 ولم يجر منهم ما يوجب النقص، فلا تنقصوكم شيئاً، ولا
 عاونوا عليكم أحداً، فهؤلاء أتموا لهم^(٢) عهدهم إلى مدتهم،
 قلَّت أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر
 بالوفاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا
 الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

(٥) ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
 وَخُذُوا نِسَاءَهُمْ وَأَعْقِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا
 الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول
 تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: التي حرم فيها قتال
 المشركين المعاهدين، وهي أشهر التيسير الأربعة، وتمام
 المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في أي مكان وزمان
 ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ضيقوا عليهم، فلا
 تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها [الله] معبداً
 لعباده.

الصادق رضي الله عنه.

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ طَرْقَهُ فَأَمَّا قَوْلُهُ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فَإِذَا اسْتَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَتَدَاوَرُوا وَحِثُّوهُمْ وَأَقْبِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أمراً عاماً في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقرب بعضهم جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب منك أن تجيره، وتمتعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام.

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ثم إن أسلم فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمه أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة، ومن أخذ بقولهم: إن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْبَلُوا لَكُمْ فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أدينتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟

أما سعوا في الأرض فساداً؟ فيحق لهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده، ولا عند رسوله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ من المشركين ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإن لهم في العهد وخصوصاً في هذا المكان الفاضل حرمة أوجب أن يراعوا فيها.

﴿فَمَا اسْتَقْبَلُوا لَكُمْ فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ولهذا قال:

(٨-١١) ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا

الْمُحَرَّمَاتُ

١٨٨

سُورَةُ الْبُرَاجِ

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْبَلُوا لَكُمْ فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَتًّا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَزِلُّوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾ فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ وَلَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ فَفَقِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْا ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَتُمْ أَيْمَنَهُمْ وَهَكُومًا بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَتًّا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَزِلُّوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾ فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ وَلَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ فَفَقِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْا ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَتُمْ أَيْمَنَهُمْ وَهَكُومًا بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

أي: ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عهد عند الله عهد وميثاق ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ بالقدرة والسلطة، لا يرحمكم، و ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكهم معكم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقاً، المبغضون لكم صدقاً ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ لا ديانة لهم، ولا مروءة.

﴿أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَتًّا قَلِيلًا﴾ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والالتقاء بآيات الله.

﴿إِنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا عهد ولا موافق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين، ناكثين للعهد، لا يؤمنون منهم.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قتالكم إياهم ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه، ثم حث على قتالهم، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم فقال: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَكَفَرُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يجلوهم ويخرجوه من وطنه، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وَقَوْمٌ يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾ حيث نقضوا العهد، وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت^(٢) قريش - وهم معاهدون - بني بكر حلفاءهم، على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.

﴿أَتَشْكُرُونَهُ﴾ في ترك قتالهم ﴿فَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ تَعْتَمِدُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإنه^(١) أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامتلوا لأمر الله، ولا تخشعوهم فتركوا أمر الله ثم أمر بقتالهم وذكر ما يرتب على قتالهم من الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ يَذَكِّرُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ بالقتل ﴿وَتُخَذِرُهُمْ﴾ إذا نصرمكم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وَيُخَذِرُكُمْ عَنْهُمْ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿وَيُخَذِرُكُمْ عَنْهُمْ قَوْمٌ مُؤْمِنِينَ﴾ وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ فإن في قلوبهم من الحق والغيط عليهم، ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم، إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوال آل للغيظ الذي في قلوبهم، وهذا يدل على محبة الله للمؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال: ﴿وَيُؤْتِي اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقهم للدخول في الإسلام، ويزينه في قلوبهم، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهيده، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطفغائه.

(١) في النسختين: جعلوهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في ب: طيبة. (٣) في ب: أعانت. (٤) في ب: فآله.

﴿فَصَدُّوا﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم ﴿عَنِ سَبِيلِهِ﴾ إِيَّاهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَزِيدُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله.

فالوصف الذي جعلهم^(١) يعادونكم لأجله ويغضونكم هو الإيمان، فذبوا عن دينكم، وانصروهم واتخذوا من عاداءكم عدوًا، ومن نصره لكم وليًا، واجعلوا الحكم يدور مع وجودًا وعدمًا، لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية^(٢) تميلون بهما حيثما مال الهوى، وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء، ولهذا: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن شركهم، ورجعوا إلى الإيمان ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِزْنُكُمْ فِي الْأَيْدِي﴾ وتناصوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين، لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهذا يكون العبد عبدًا حقيقيًا.

لما بين من أحكامه العظيمة ما يبين، ووضح منها ما وضع، أحكامًا ورجكمًا، وحكمًا، وحكمة قال: ﴿وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونميزها ﴿بِقَوْلِهِمْ يَمْلِكُونَ﴾ فإلهم سياق الكلام، وبهم تعرف الآيات والأحكام، وبهم عرف دين الإسلام وشرايع الدين.

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك، وكرمك [وإحسانك، يا رب العالمين].

(١٢-١٥) ﴿وَإِنْ لَّكُنَّا لَأَيْمَانُهُمْ يَوْمَ يَعِدُوهُمْ وَيَتْلَمَّسُوا فِي رَيْبِكُمْ فَنَقِيلُوا أَيْمَنَ الْكَفَرِ﴾ إِنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ○ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَكَفَرُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أُولَئِكَ أَخَذْنَاهُمْ بِاللَّهِ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ○ قَتَلُوهُمْ يُؤْذِنُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخَذِرُهُمْ وَيُخَذِرُكُمْ عَنْهُمْ وَيُخَذِرُكُمْ عَنْهُمْ قَوْمٌ مُؤْمِنِينَ ○ وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَتُؤْتِي اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدتين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وَإِنْ لَّكُنَّا لَأَيْمَانَهُمْ يَوْمَ يَعِدُوهُمْ﴾ أي: نقضوها وحلوا، فقاتلوهم أو أعانوا على قتالكم، أو نقصوكم، ﴿وَتَلَمَّسُوا فِي رَيْبِكُمْ﴾ أي: عابوه، وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن.

﴿فَنَقِيلُوا أَيْمَنَ الْكَفَرِ﴾ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم، ولأن غيرهم تبع لهم. وليلد على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

الْبُرَاءَةِ

١٨٩

الْبُرَاءَةِ

فَتَلَوْتُمْ بِعِزَّةِ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَتَشْفِئُوهُمْ رِقْمًا مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَيَذْهَبَ عِظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْخِذْ أَمِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٢٠﴾ أَجَلْتُمْ مَقَابِلَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٢﴾

أُفٍّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها. ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و «عسى» من الله واجبة، وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمار مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وإداعاه.

(٢٢-١٩) ﴿أَجَلْتُمْ مَقَابِلَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿يَسْتَوُونَ﴾ دَرَجَتُهُمْ يَرْحَمُوهُمْ مِنْهُ وَرَضُوا وَحَبَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمٌ مُبِينٌ ﴿خَالِفِينَ﴾ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿لَمَّا اخْتَلَفَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَبَعْضُ الْمَشْرِكِينَ، فِي تَفْضِيلِ عِمَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بِالْبَنَاءِ، وَالصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ فِيهِ، وَسَقَايَةِ الْحَاجِّ، عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْتَاضَاتِ بَيْنَهُمَا، فَقَالَ: ﴿أَجَلْتُمْ مَقَابِلَةَ الْحَاجِّ﴾ أَي: سَقِيهِمُ الْمَاءَ مِنْ زَمْزَمَ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ إِذَا أُطْلِقَ هَذَا

(١٦) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْخِذْ أَمِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - بعدما أمرهم بالجهاد -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي: علما يظهر مما في القوة إلى الخارج، ليرتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته ﴿وَلَمْ يَسْخِذْ أَمِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي: وليا من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا للدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فينتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرا وشرها.

(١٧، ١٨) ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما ينبغي ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بالعبادة، والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر، بشهادة حالهم وفطرتهم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.

فإذا كانوا ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عمار مساجد الله، والأصل منهم مفقود، والأعمال منهم باطلة؟! ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت وضلت ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطل.

﴿وَمَا آتَى الزَّكَاةَ﴾ لأهلها ﴿وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة. فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

و ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ إِنْ آمَنْتُمْ أَي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم تجرأوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله تعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَمِثْلُهُمُ الْأَمْهَاتُ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ في النسب والعشرة ^(١) ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي: قراباتكم عموماً ﴿وَأَنْتُمْ لَتَتَّبِعُوهُمْ﴾ أي: اكتسبتموها، وتعتمد في تحصيلها.

خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها، ممن تأتبه الأموال من غير تعب ولا كد. ﴿وَيَتَّخِذُوا تَحْشُونَ كَسَادًا﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والامتعة، والحبوب، والحرث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿وَسَنَكِرُ تَرْصُونَهَا﴾ من حسنها وزخرفتها، وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فانتم فسقة ظلمة.

﴿فَتَرْصُقُوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الذي لا مرد له.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْقَاسِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقلدين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلاوة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه،

الاسم، أنه المراد ﴿وَعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ كَنْ مَأْنٍ وَاللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ وَبِهَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

فالجهد والإيمان بالله، أفضل من سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال وتركو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَاتُ اللَّهِ وَبِهَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُنُونَ﴾ بالنفقة في الجهاد، وتجهيز الغزاة ﴿وَالنَّفْسِ﴾ بالخروج بالنفس ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب، ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿يُؤْتِيهِمْ زَيْدُهُمْ﴾ جوداً منه، وكرمًا وبراً بهم، واعتناء ومحبة لهم، ﴿يَرْحَمُوهُ يَنْتَهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير، ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وَجَنَّتْ ثُمَّ فِيهَا نَيْسٌ مُبِينٌ﴾ من كل ما اشتته الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعته.

﴿حُكَايَيْنَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتفلقون عنها، ولا يغيثونها جوداً ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرتة على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء: كن فيكون.

(٢٤، ٢٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ آمَنْتُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَتَّبِعُوهُمْ تَحْشُونَ كَسَادًا وَسَنَكِرُ تَرْصُونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْصُقُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْقَاسِينَ يَقُولُ

ولكنه يَفُوتُ عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه.

(٢٧-٢٥) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْزُكُمْ فَلَمْ تُحْنِنْ عَنْكُمْ وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّبِينَ ۖ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ۖ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّهُ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۖ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواقع الحروب والهجاء، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخالد والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهمزوا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة! يا أهل سورة البقرة!

فلما سمعوا صوته عطفوا عطف رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم، ونسأهم، وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْزُكُمْ فَلَمْ تُحْنِنْ عَنْكُمْ وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ حِينَ أَنْهَضْتُمْ﴾ «بِمَا رَحُبَتْ» أي على رحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذَبِّبِينَ﴾ أي منهزمين. ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ والسكينة ما

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَفْسُهُمْ مُقِيمٌ ﴿٢٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِاتَّخِذُوا ءِيبَاءَ كُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولَئِكَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءِيبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٩﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْزُكُمْ فَلَمْ تُحْنِنْ عَنْكُمْ وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذَبِّبِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَوْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾

يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل، والمفطعات، مما يبتئها ويسكنها، ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّهُ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يثبتونهم ويشرونهم بالنصر.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ فتاب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نسائهم، وأولادهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم، وقبول توباتهم، فلا يأس أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفْوٌ
رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِالْمُشْرِكُونَ
يَحْسُ فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا
وَأِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
﴿٣٠﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَسَلِّمْهُمْ
اللَّهُ أَنْ يَفْكَرُونَ ﴿٣١﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهَبَنَهُمْ أَرْكَانًا بَيْنَ دُوبِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنِ
مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾

الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴿٢٨﴾ أَنْ الْمُشْرِكِينَ بعدما كانوا هم
الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول
الله ﷺ والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم
نزلت هذه الآية.

ولما مات النبي ﷺ، أمر أن يجلوا من الحجاز، فلا يبقى
فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعْدِ كل كافر عن المسجد الحرام،
فيدخل في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ
هَذَا﴾.

(٢٩) ﴿قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا
يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ هذه
الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيمانًا صحيحًا يصدقونه
بأفعالهم وأعمالهم.

ولا يحرمون ما حَرَّمَ الله ورسوله، فلا يتبعون شرعه في

(١) الجملة غير واضحة في أ، وأقرب ما تكون أنها: (ولم يأمر أن يقتل
مما أصاب).

(٢٨) ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَأُوا
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ
يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يقول
تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ بالله الذين
عبدوا معه غيره ﴿يَحْسُ﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم،
وأني نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله لانه لا تنفع ولا تنصر،
ولا تغني عنه شيئاً!

وأعمالهم ما بين محاربة الله، وصد عن سبيل الله، ونصر
للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في
الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو سنة
تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث
النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»،
فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.
وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر - كغيره -
طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتانية
ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب^(١) منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل
عنهم أنهم تغذروا منها، تَغَذَّرَهم من النجاسات، وإنما المراد
- كما تقدم - نجاستهم المعنوية بالشرك، فكما أن التوحيد
والإيمان طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿عَيْلَةً﴾ أي: فقراً
وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن
تنقطع الأسباب التي يبتكم وبينهم من الأمور الدنيوية ﴿فَسَوْفَ
يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب
واحد، ومحل واحد، بل لا يغلُق باب إلا وفتح غيره أبواب
كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك
شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله،
وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في
الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلماذا
علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا
يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه واسع، يعلم من
يليق به الغنى، ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها،
وينزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ

الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين كتابي وغيره.

(٣٠-٣٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُ أَيْنَ اللَّهِ وَقَالَ النَّصْرَى

الْمَسِيحُ أَيْنَ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِالْيَهُودِ يَضْهَبُونَ قَوْلَ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُ اللَّهُ أَلَمْ يُؤْتِكُمْ ۝ أَلَمْ تُكْفَرُوا ۝

أَحْكَامُهُمْ وَرَهْبَتُهُمْ أَرْكَبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ أَيْنَ مَرْسَمِهِ

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

شَهِدْتُمْ أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ ۝ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

وَيَأْتِيَهُمْ اللَّهُ بِإِلَٰهٍ نَبِيٍّ نَبِيٍّ نُورُهُ وَكَلِمَتُهُ الْكَلِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ۝ وَكَلِمَتُهُ

كَرِيمٌ ۝ أَلَمْ تُشْرِكُوا ۝ لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من

أقوالهم الخبيثة ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه،

على قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: ﴿وَقَالَتِ

الْيَهُودُ عِزِّيُ أَيْنَ اللَّهِ﴾ وهذه المقالة، وإن لم تكن مقالة لعائتهم

فقد قالها فرقة منهم، فبدل ذلك على أن في اليهود من الخبيث

والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرأوا فيها

على الله، وتنقصوا عظمتهم وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في «عزير» أنه ابن الله، أنه لما

سلط الله الملوك^(٢) على بني إسرائيل، ومزقهم كل ممزق،

وقتلوا حَمَلَةَ التوراة، وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو

لاكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستسخوها، فادعوا فيه

هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ﴾ عيسى ابن مريم ﴿أَيْنَ اللَّهِ﴾

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ القول الذي قالوه ﴿قَوْلُهُمْ

بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانًا.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي قول

يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يَضْهَبُونَ﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا

﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قول المشركين الذين

يقولون: «الملائكة بنات الله» تشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿قَتَلْنَاهُ اللَّهُ أَلَمْ يُؤْتِكُمْ ۝﴾ أي: كيف يصرفون عن

الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين.

وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة، أن تنفق

على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه -

فإن لذلك سببًا وهو أنهم: ﴿أَتَكْفُرُوا أَحْكَامَهُمْ﴾ وهم

علماءهم ﴿وَرَهْبَتُهُمْ﴾ أي: العباد المتجردين للعبادة.

تحريم المحرمات، ﴿وَلَا يَذُبُّوكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يدينون

بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير

الحق، لأنه ما بين دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلاً،

وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ،

فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء، وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما

هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم

أهل كتاب.

وعنى ذلك القتال ﴿حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: المال الذي

يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على

أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام،

كل على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عَنْ يَدِهِ﴾ أي: حتى يذلولها^(١) في حال ذلهم،

وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً

ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، ﴿وَهُمْ صَائِرُونَ﴾

فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يفرحهم

بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن

من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم

المسلمون، مما ينفي عزهم وتكبرهم، وتوجب ذلهم

وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

ولا بأن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم

صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى

يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ

الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا

منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق

بأهل الكتاب في أخذ الجزية، وإقرارهم في ديار المسلمين،

المجوس، فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم

أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار، من أهل الكتاب

وغيرهم، لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب

المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون

هذا القيد إخباراً بالواقع، لا مفهوماً له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية، وليسوا

أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن

بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما

(١) كذا في ب، وفي أ: يذلولونها. (٢) في ب: أنه لما سلط الملوك.

وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة، والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يصاد ذلك ويتناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة، المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿يُظَاهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُنْهِ﴾ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعده الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

(٣٥، ٣٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْآخْيَارِ وَالَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ يُصْطَفُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذِّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِئْسَ ثَمَرُ مَكْدَابٍ آيِسٍ ۝ يَوْمَ يَحْشَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ أَنْتُمْ بِكُفْرِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هدايتهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها، ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتًا وظلمًا، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتنوهم، أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله. فهؤلاء الأحبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصددهم الناس عن سبيل الله.

﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذِّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: بمسكونهما ﴿وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكثر المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كان يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فَبِئْسَ ثَمَرُ مَكْدَابٍ آيِسٍ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يَحْشَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: على أموالهم، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيحرق كل دينار أو درهم على حدة.

(١) في الأصل (ومن ضاهوه) ولعل الصواب ما أتت.

﴿آيِسًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يُجِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُونَهُ، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتعنونهم عليها.

وكانوا أيضًا يغفلون في مشايخهم وعبادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله، وتقصد بالذبايح والدعاء والاستغاثة.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه إلهًا من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله، فما ﴿أَمْرًا إِلَّا لِمَا يَشَاءُونَ﴾ إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿فَيُخَلِّصُونَ لَهُ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ، وَيَخْصُونَهُ بِالْمَحَبَةِ وَالِدُعَاءِ، فَبَدَّلُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَأَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس، وتعالى عظمتهم عن شركهم واقتنائهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصطلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه، واقتراء افتروه، أخبر أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا ﴿أَنْ يُفْلِتُوا نُورَ اللَّهِ وَأَقْوَاهِمَ﴾.

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه الله نورًا، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة. فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضد. فهؤلاء اليهود والنصارى ومن (ضاهاهم) ^(١) من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿وَيَأْتِيكَ اللَّهُ إِذَا أَنْ يَشَاءَ نُورُهُ﴾ لأنه النور الباهر الذي لا يمكن لجميع الخلق، لو اجتمعوا على إطفائه، أن يطفئوه، والذي أنزله، جميع نواصي العباد بيده. وقد تكفل بحفظه من كل من يريد بسوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيكَ اللَّهُ إِذَا أَنْ يَشَاءَ نُورُهُ﴾ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئًا.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع ﴿وَرَبِّهِ الْحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث الله به محمدًا ﷺ مشتتملاً على بيان الحق من الباطل، في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهُ لَا
 أَنْ يَسْمُوهُ. وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ هُوَ الَّذِي
 أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
 كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾ تَبَايَأَ الَّذِينَ
 آمَنُوا إِنْ كَثُرَ بَرَاءَةٌ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلْنَ
 أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْغِشِّ وَأَنْ يَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٨﴾ يَوْمَ يُحْصَى
 عَلَيْهِمْ فِي نَارِجَهْتُمْ فَتَكُونُ بِيهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ
 وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا كَذِبَكُمْ
 تَكْفُرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ
 شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ
 أَنْفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
 يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٤٠﴾

نحو قوله تعالى: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب
 العالمين.

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم
 كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل
 الإيمان أعداء لهم، لا يألوهم من الشر شيئاً.
 ويحتمل أن ﴿كَافَّةً﴾ حال من الراو فيكون معنى هذا:
 قاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب الفير على
 جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ
 الْمُؤْمِنُونَ لِيُفْزِلُوا كَافَّةً﴾ الآية. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
 بعونه ونصره وتأيدته. فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في
 سركم وعلنيكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار،
 فانه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في
 معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿فَتَكُونُ بِيهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة
 كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة،
 ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا
 كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم،
 وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله،
 وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعا، بل لا
 يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في
 المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها
 للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في الواجبات، والنهي
 عن الشيء، أمر بضده.

(٣٦) وقوله: ﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي
 كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ
 ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ
 كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يقول
 فيها: ﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره ﴿اثْنَا
 عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي:
 في حكمه القدري ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأجرى ليلها
 ونهارها، وقدر أوقاتها فقسما على هذه الشهور الاثني عشر
 [شهرًا].

﴿وَمِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: رجب الفرد، وذو القعدة،
 وذو الحجة، والمحرم، وسميت حُرُمًا، لزيادة حرمتها،
 وتحريم القتال فيها.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى
 الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير
 للعباد، وأن تعمير بطاعته، ويشكر الله تعالى على ميثقه
 بها، وتقويضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم
 فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا
 نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصاً مع النهي عن الظلم
 كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في
 غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن
 القتال في الأشهر الحرام^(١) لم ينسخ تحريمه عملاً بالتوص
 العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ، أخذاً بعموم

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٩٣

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ وَبِإِذْنِهِ فِي الْكَفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَاهِلُونَ عَمَّا يُوْطِئُونَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَجْلُؤُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ رَبُّهُمْ لَهُمْ سَوْءُ عَمَلٍ لَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ النسيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بآرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا. فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله يريان منه.

ومنها: أنهم قبلوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم مؤهوا على الله بزعيمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَاهِلُونَ عَمَّا يُوْطِئُونَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوه في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

﴿رَبُّهُمْ لَهُمْ سَوْءُ عَمَلٍ لَهُمْ﴾ أي: زين لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين انصحب الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءهم كل آية لم يؤمنوا.

(٣٩، ٣٨) قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْشُمْ بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ وَلَا قِيلَ إِلَّا أَنْفِرُوا بِعِزَّتِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي^(١) اليقين من المبادرة لأمر الله، والمصارعة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم. ف﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم، ولمتم إلى الأرض، والدعة، والسكون فيها.

﴿أَرْضَيْشُمْ بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا، وسعى لها، ولم يبال بالآخرة، فكانه ما آمن بها.

﴿فَمَا مَنَعَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قِيلَ﴾، أفليس قد جعل الله لكم عقولاً، تزنون بها الأمور، وأبها أحق بالإنارة؟

أفليس الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة؟

فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا، حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته

وتأييده.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: الثبات والطمأنينة، والسكون المشبة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَنَّكَ﴾.

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ حَرَمًا لَهُ﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذه، حقيقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع. فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم، بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم، ويظهروا عليهم.

والثاني: نصر المستضعف الذين طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدفع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين في هذا النوع.

وقوله: ﴿وَكَلِمَةً اللَّهُ هِيَ أَلْمِيقَاتُ﴾ أي كلماته القدرية وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وَكَلَّمَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَزِمَ يَوْمَ الْأَشْهُدِ﴾، ﴿وَلَا جُنْدًا لَهُمُ الْقَبِيرُ﴾، فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

﴿وَاللَّهُ غَيْرُ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة، فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصه لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المتبة الجليلة، والصحة الجميلة. وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفتدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

(١) في أ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الصحيح، فيدو - والله أعلم - أنه سبق قلم.

لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالألدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رأي رأيتم إثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين، وأنتم فيها خالدون؟! فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من غد من أولي الألباب، ثم توعدهم على عدم النفي فقال:

﴿لَا تَنفِرُوا بُعْذُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفي في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيه من المضار الشديدة. فإن المتخلف قد عصى الله تعالى وارتكب لنهي، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قُت في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعدة الله بالوعد الشديد، فقال: ﴿لَا تَنفِرُوا بُعْذُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا شَيْئًا﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء أراد، ولا يغالبه أحد.

(٤٠) ﴿لَا تَحْزَنُوا فَقَدْ فَصَّرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَنَّكَ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَنزَلَ بِهِمْ نَزْلًا لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةً اللَّهُ هِيَ أَلْمِيقَاتُ وَاللَّهُ غَيْرُ حَكِيمٍ﴾ أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ، فالله غني عنكم، لا تنصرونه شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذلّه ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فآلجأوه إلى أن يخرج.

﴿ثَانِيكًا اثْنَيْنِ﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور^(١) في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما لقتلوهما فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال.

﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَنَّكَ﴾ بعونه ونصره

وفيها أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

(٤١، ٤٢) ﴿اتَّبِعُوا خُفَاةً وَيَسَّاتٍ وَلَا يَجْهَدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٥ ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكُمْ وَلَكِنْ بَعَثَ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجًا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيبًا لهم على النفي في سبيله - فقال: ﴿اتَّبِعُوا خُفَاةً وَيَسَّاتٍ﴾ أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿وَجْهَدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ابدلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

﴿لَوْ كَانَ خُرُوجُهُمْ لَطَلَبُ الْعَرَضِ الْقَرِيبِ، أَيْ مَنُفْعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ، سَهْلَةً التَّائُولِ (وَو) كَانَ السَّفَرُ (مَسَرًّا) قَاصِدًا﴾ أي: قريبًا سهلًا.

﴿لَاتَّبَعُوكُمْ﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿وَلَكِنْ بَعَثَ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ﴾ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تناقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجًا مَعَكُمْ﴾ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج، أن لهم عذرًا، وأنهم لا يستطيعون ذلك.

﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالفعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعداء الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال:

(٤٣-٤٥) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ

الْمُزَاجَعَةُ

١٩٤

الْمُزَاجَعَةُ

اتَّبِعُوا خُفَاةً وَيَسَّاتٍ وَلَا يَجْهَدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكُمْ وَلَكِنْ بَعَثَ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجًا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٣﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٤﴾ لَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتٌ فَلَوْ بُعِثَ فِي رَيْبِهِمْ بَرْدٌ دُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا اللَّهُ عَذَابَهُ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ لُبُعَاتِهِمْ فَنَسَطَهُمْ وَقِيلَ أَفَعَدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٧﴾ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا لَبًا وَلَا وُضْعُوا خِلَافَكُمْ يَتَغَوَّنَكُمْ أَلْفَنَةٌ وَفِيكَرَ سَتَعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٨﴾

الَّذِينَ صَدَقُوا وَقَعَلُوا الْكَذِبِينَ ٥ لَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ٥ إِنَّمَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتٌ فَلَوْ بُعِثَ فِي رَيْبِهِمْ بَرْدٌ دُونَ ٥ يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت.

﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في التخلف ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَقَعَلُوا الْكَذِبِينَ﴾، بأن تمنحهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك.

ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث، فضلًا عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه. ومن علمه بالمؤمنين، أنه أخبر، أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتٌ فَلَوْ بُعِثَ فِي رَيْبِهِمْ بَرْدٌ دُونَ﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك

الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك. ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَكَلَّهَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاِفِرُونَ﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم. فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكُولُ آمْنًا فِي وَلَا تَقْبَلُ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعذر بعذر آخر عجيب فيقول: ﴿آمْنًا فِي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَقْبَلُ﴾ في الخروج. فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر، لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس». ومقصوده - بقبحه الله - الرياء والفاق، بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفاً عن الشر.

قال الله تعالى - مبيهاً كذب هذا القول -: ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى، وفتنة عظمى محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجرؤ على الإثم الكبير، والوزر العظيم. وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعددهم الله بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص.

(٥١، ٥٠) ﴿إِنْ تُبْسِلْكَ حَسَنَةً تَنْسِفْ وَإِنْ تُبْسِلْكَ مُصِيبَةً يَنْفِقُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَانُوا يُشْعَرُونَ﴾ قل لن يصبينا إلا ما كتب الله لنا هو مولنا وعلى الله قسيتنا كل المصير ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ مَبِيتًا أَنْ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْأَعْدَاءُ حَقًّا، الْمُبْغِضُونَ لِلدِّينِ صِرَافًا﴾ ﴿إِنْ تُبْسِلْكَ حَسَنَةً﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تَنْسِفْ﴾ أي: تحزنهم وتغمهم ﴿وَإِنْ تُبْسِلْكَ مُصِيبَةً﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يَقُولُوا﴾ متبجحين بسلاهم من الحضور معك.

﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قد حذرنا وعملنا بما ينبغي من الوقوع في مثل هذه المصيبة. ﴿وَيَكُونُوا وَهُمْ كَاِفِرُونَ﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

قال تعالى - راداً عليهم في ذلك -: ﴿قُلْ لَّنْ يُصِيبُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: قدره وأجره في اللوح المحفوظ. ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلياً الرضا بأقداره، وليس في أيدينا من الأمر شيء.

قُلْتُ رغبتم في الخير، وجنبوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذوا في ترك القتال. ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

(٤٦-٤٨) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَكُمْ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ لِيُكَاثِبَهُمْ فَتَبَحَّهُمْ وَبَلَغَ الْأَعْدَاءُ مَعَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿لَوْ حَرَجُوا يَكْرُمًا زَادُوهُمْ إِلَّا حَاكًا وَلَا تَصْعَقُوا جَلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَيَكْذِبُونَ سَمْعُونَ لَمْ وَاللَّهِ عَلَيْهِ بِالْقَلِيلِينَ﴾ ﴿لَقَدْ اتَّخَذُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكُنُوا لَكُمْ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَكَلَّهَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاِفِرُونَ﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعدائهم التي اعتدروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع، إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿وَلَوْ﴾ أما هؤلاء المنافقون ﴿لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَكُمْ عُدَّةً﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ لِيُكَاثِبَهُمْ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فَتَبَحَّهُمْ﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمة ما أراد إيعانهم، بل خذلهم وبطهم ﴿وَقِيلَ أَفَعُدُوا مَعَ الْفَاسِقِينَ﴾ من النساء والمعدورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَوْ حَرَجُوا يَكْرُمًا زَادُوهُمْ إِلَّا حَاكًا﴾ أي: نقضا ﴿وَلَا تَصْعَقُوا جَلَلَكُمْ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين ﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم، وإلقاء العداوة بينكم. ﴿وَيَكْذِبُونَ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمْعُونَ لَمْ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم. فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثيبتكم عن أعدائكم، وفيكم من يقلل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم؟

فلله أتم الحكمة حيث تبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم.

﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْقَلِيلِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال: ﴿لَقَدْ اتَّخَذُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: حين هاجرتهم إلى المدينة، بذلوا الجهد. ﴿وَكُنُوا لَكُمْ الْأُمُورَ﴾ أي: أداروا

الزُّمَرُ

١٩٥

لَقَدْ أَسْعَوْا لِلْفِتْنَةِ مِنْ قَبْلُ وَكَانُوا آلَ الْأُمُورِ حَقًّا
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٥٢﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَفْذَنْبِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٣﴾
إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَانُوا
وَهُمْ قَرِحُونَ ﴿٥٤﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَكَ إِلَّا مَا كُتِبَ
لَكَ اللَّهُ لَا هُوَ لَنَا إِلَى اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ تَوَكَّلْ الْتَوَكَّلْ
﴿٥٥﴾ قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ
تَرْضَوْنَ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ يُبَدِّلَ
أَوْ يَأْتِيَنَا قَدْ رَضَوْنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْضَوُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ
أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْفِقَ مِنْكُمْ إِلَّا كَمَنْ
قَوْمًا قَلِيلِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ
إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٨﴾

يَعْنِيهِمْ بِمَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَقَّ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ
وَيَقُولُونَ وَاللَّهِ إِنَّمَا كُنْهَمْ وَمَا هُمْ بِفِكَرٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَسْرِئُونَ لَوْ يَكُونُ مَلَكًا أَوْ مَعْرَبًا أَوْ مُدَاخِلًا لَوَلَّوْا إِلَيْنَا
وَهُمْ يَخْتَفُونَ يَقُولُ تَعَالَى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين
ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها، وأول بركانها عليهم أن
قدموها على مرضى ربهم، وعصاها لله لأجلها.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعًا وَيُطَهِّرَ الْبَاطِلَ﴾ والمراد
بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي
الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بشقاوتهم، لم يكن لها نسبة إليها،
فهي - لما ألهمتهم عن الله وذكره - صارت وبالأعلى عليهم، حتى
في الدنيا. ومن وبأهلها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها،
وإرادتهم لا تتعداها فتكون متنتهى مطلوبهم، وغاية مرغوبهم،
ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا
من الدنيا ﴿وَزَقَّ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم،
والحسرة الملازمة.

﴿وَكُلَّ آتٍ﴾ وحده ﴿يَلْتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يعتمدوا
عليه في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، ويقولوا به في
تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه. وأما من توكل
على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ
تَرْضَوْنَ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ يُبَدِّلَ
قَرَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْضَوُونَ﴾ أي: قل للمنافقين الذين
يربصون بكم الدوائر: أي شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا
تربصون بنا إلا أمرًا فيه غاية نفعا، وهو إحدى الحسينين، إما
الظفر بالأعداء والنصر عليهم، ونيل الثواب الأخروي
والدنيوي. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق،
وأرفع المنازل عند الله.

وأما تربصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن نربص بكم
أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، لا سب لنا فيه، أو بأبدينا،
بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم.

﴿قَرَضُوا﴾ بنا الخير ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْضَوُونَ﴾ بكم الشر.
﴿٥٤، ٥٣﴾ ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْفِقَ مِنْكُمْ إِلَّا كَمَنْ
كُنْتُمْ قَوْمًا قَلِيلِينَ﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا
أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى
وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ يقول تعالى - مينا بطلان نفقات
المنافقين، وذاكر السبب في ذلك :-

﴿قُلْ لَهُمْ: أَنْفِقُوا طَوْعًا﴾ من أنفسهم ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ على
ذلك، بغير اختياركم.
﴿لَنْ يُنْفِقَ مِنْكُمْ﴾ شيء من أعمالكم ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا
قَلِيلِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله. ثم بين صفة فسقهم
وأعمالهم، فقال:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فبؤلاء لا
إيمان لهم، ولا عمل صالح. حتى إن الصلاة التي هي أفضل
أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: متهاطلون، لا يكادون
يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ من غير انشراح صدر
وثبات نفس. ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه
ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نسيط البدن والقلب
إليها، ولا ينق إلا وهو منشراح الصدر، ثابت القلب، يرجو
ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا ينشبه بالمنافقين.

﴿٥٧-٥٥﴾ ﴿فَلَا تُجَبِّحْ بِأَمْرٍ لَكُمْ وَلَا أَوَّلْتُمْ بِهِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

﴿وَيَقُولُونَ يَا إِلَهَ إِيَّاهُمْ لِمَ لَمْ يَأْتِ بِآيَاتٍ كَمَا آتَىٰ مُوسَىٰ﴾ قَصْدُهُمْ فِي حَلْفِهِمْ هَذَا أَنَّهُمْ ﴿قَوْمٌ يَقْرَءُونَ﴾ أَي: يَخَافُونَ الدُّوَاثِرَ، وَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ شَجَاعَةٌ تَحْمِلُهُمْ عَلَى أَنْ يَبِينُوا أَحْوَالَهُمْ، فَيَخَافُونَ إِنْ أَظْهَرُوا حَالَهُمْ مِنْكُمْ، وَيَخَافُونَ أَنْ تَبْرَأُوا مِنْهُمْ، فَيَتَخَفُهُمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. وَأَمَّا حَالُ قَوِي الْقَلْبِ، ثَابِتِ الْجَنَانِ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى بَيَانِ حَالِهِ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ سَيِّئَةً. وَلَكِنْ الْمَنَافِقِينَ خَلَعَ عَلَيْهِمْ خِلْعَةَ الْجَبَنِ، وَحَلَّوْا بِحِلْيَةِ الْكَذِبِ.

ثُمَّ ذَكَرَ شِدَّةَ جَهَنَّمَ فَقَالَ: ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَكًا﴾ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ عِنْدَمَا تَنْزِلُ بِهِمُ الشَّدَائِدُ. ﴿أَوْ مَعْرَبٍ﴾ يَدْخُلُونَهَا فَيَسْتَقِرُّونَ فِيهَا ﴿أَوْ مَدْعَاً﴾ أَي: مَحَلًّا يَدْخُلُونَهُ فَيَتَحَصَّنُونَ فِيهِ ﴿لَوْ لَوْأَ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْتَحُونَ﴾ أَي: يَسْرِعُونَ وَيَهْرَعُونَ، فَلَيْسَ لَهُمْ مَلَكَةٌ يَتَدَرَّونَ بِهَا عَلَى الثَّبَاتِ.

(٥٨، ٥٩) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا عَاتَبَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أَي: وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمَنَافِقِينَ، مَنْ يَعْيِكَ فِي قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ، وَيَتَنَقَّدُ عَلَيْكَ فِيهَا، وَلَيْسَ انتقادهم فيها وَعَيْبُهُمْ لِقَصْدٍ صَحِيحٍ، وَلَا لِرَأْيٍ رَجِيحٍ، وَإِنَّمَا مَقْصُودُهُمْ أَنْ يُعْطُوا مِنْهَا.

﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ وَهَذِهِ حَالَةٌ لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ رِضَاهُ وَغَضَبُهُ، تَابِعًا لِهَوَى نَفْسِهِ الدُّنْيَوِيِّ وَغُرْضِهِ الْفَاسِدِ، بَلِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَرْضَاةِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

وَقَالَ هُنَا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا عَاتَبَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أَي: أَعْطَاهُمْ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أَي: كَافِيَانَا اللَّهُ، فَفَرَضَى بِمَا قَسَمَهُ لَنَا، وَلِيُؤْمِلُوا فَضْلَهُ وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ بِأَنْ يَقُولُوا: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أَي: مُتَضَرِّعُونَ فِي جَلْبِ مَنَافِعِنَا، وَدَفْعِ مُضَارِنَا، لَسَلْمُوا مِنَ النِّفَاقِ وَلَهْدُوا إِلَى الْإِيمَانِ وَالْأَحْوَالِ الْعَالِيَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ فَقَالَ: (٦٠) ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَمِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَيْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ﴾ أَي: الزُّكُوفَاتُ الْوَاجِبَةُ، بِدَلِيلِ أَنَّ الصَّدَقَةَ الْمُسْتَحَبَّةَ لِكُلِّ أَحَدٍ، لَا يَخْصُ بِهَا أَحَدٌ دُونَ أَحَدٍ. أَي: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ دُونَ مَنْ عَدَاهُمْ، لِأَنَّهُ حَصَرَهَا

بِسَبِيلِ اللَّهِ

١٩٦

بِسَبِيلِ اللَّهِ

فَلَا تُعْجَبُكَ أُمُورُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَيَحْلِفُونَ بِآلِهِ إِنَّهُمْ لَمُنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَا يَنْفُكُونَ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ ﴿٥٩﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَكًا أَوْ مَعْرَبًا أَوْ مَدْعَاً لَوْ لَوْأَ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْتَحُونَ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٦١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا عَاتَبَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٦٢﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَمِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَيْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمِنْهُمْ أَلَبَةٌ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ ذُنُوبٌ قُلُودٌ قُلُودٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان: فالفقر أشد حاجة من المسكين، لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً، فيعطون من الزكاة، ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عملتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم. والمؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بغيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها. فيعطى ما يحصل به التآليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ مُكَادِرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَآتَاكَ لَمَّا نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخُرْقَى الْعُقْيِيَّةُ ۚ آي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بالأقوال الرديئة، والعيب له ولدينه. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾ آي: لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا، لأنه أذن، آي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب. وقصدهم - فيحهم الله - فيما بينهم، أنهم غير مكترئين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم الذي جاء لهديهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك، إلى الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضًا بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها: قذحهم في عقل النبي ﷺ، وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً، وأتمهم إدراكاً، وأفهمهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ آي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً. وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكذب، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم^(١)، وامتناله لأمر الله في قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَشَرَ أَنْوَارُ السُّعُورِ عَنْهُمْ فَاعْرَضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ وَاللَّهُ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيراً يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم. ﴿وَرَحْمَةُ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل ردوها، فخرسوا دينهم وآخرتهم. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول أو الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشامته.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَيُرْسُكُنَّ﴾ فيتراوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها. فغايتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْا بِكُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً على رضا ربه. فدل هذا على انتفاء إيمانهم، حيث قدموا رضا غير الله ورسوله.

(١) زيادة من هامش: ب. (٢) في النسخين: بشأنه.

أنفسهم من ساداتهم. فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة. وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى. ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالاً، لدخوله في قوله: ﴿وَفِي أَرْقَابٍ﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنه، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهما، بما لا يبذله لأحدهم أو لهم كلهم. فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً. والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يؤقّى به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح، أو دابة، أو نفقة له ولعيله، ليتوفر على الجهاد، وبطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

وقالوا أيضاً: يجوز أن يعطى منها الفقير، لحج فرضه، [وفيه نظراً^(١)].

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده. فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده. فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فَرِيضَتُكُمْ رَبِّكُمْ﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين: أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير والمسكين ونحوهما. والثاني: من يعطى للحاجة إليه، وانتفاع الإسلام به. فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين. فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي لم يبق فقير من المسلمين. ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدينية.

(٦١-٦٣) ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ فَلَمَّا خَبَرَ لَكُمْ يُؤْمِنُ وَاللَّهُ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ○ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَيُرْسُكُنَّ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْا بِكُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ○

الْمُتَّقِينَ

١٩٨

الْمُتَّقِينَ

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
 أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ
 كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِّمْتَ
 كَالَّذِي خَاصُوا أَوْلَئِكَ حِطَّةَ خَلْقِهِمْ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧١﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ
 نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
 إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ
 رُسِلُوا بِالْإِنْتِبَاحِ فَمَا كَانَ اللَّهُ يَرْظِي لَهُمْ وَلَكِنْ
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٢﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ
 أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٣﴾
 وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ حَتَّى تُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي حَتَّى تُعَذِّبَ
 وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٤﴾

وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ أي: قري قوم لوط.

فكلهم ﴿أَنَّهُمْ رُسِلُوا بِالْإِنْتِبَاحِ﴾ أي: بالحق الواضح
 الجلي، السمين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما
 قص الله علينا فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم. استمتعتم
 بخلافتكم أي: بنصيبتكم من الدنيا، فتناولتموه على وجه اللذة
 والشهوة، معرضين عن المراد منه، واستعتمت به على معاصي
 الله، ولم تعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم، كما فعل
 الذين من قبلكم ﴿وَخُضِّمْتَ كَالَّذِي خَاصُوا﴾ أي: وخضمت
 بالباطل والزور، وجادلتهم بالباطل لتدخسوا به الحق. فهذه
 أعمالهم وعلومهم، استمتع بالخلق، وخوض بالباطل،
 فاستحقوا من العقوبة والإهلاك، ما استحق من قبلهم، من
 فعلوا كفعولهم.

وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبتهم وما خولوا من
 الدنيا فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله.

وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلى اليقين
 في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق، لإدحاض
 الباطل.

وأن من استهزا بشيء من كتاب الله أو سته رسوله الثابتة
 عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزا بالرسول، أو
 تنقصه، أنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب،
 وإن كان عظيماً.

(٦٧، ٦٨) ﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ
 بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ شُوا اللَّهُ فَيَقْبِضُهُمْ
 إِنَّكَ الْمُتَّقِينَ هُمْ الْقَائِمُونَ ۝ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ
 وَالْكَافِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَئِمْ
 عَذَابٌ مُؤِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ
 بِتَقْوَى﴾ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم
 بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

ثم ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرج منه صغير
 منهم ولا كبير، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ وهو الكفر
 والفسق والعصيان.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان، والأخلاق
 الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة ﴿وَيَقْبِضُونَ
 أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الصدقة، وطرق الإحسان، فوصفهم البخل.
 ﴿شُوا اللَّهُ﴾ فلا يذكره إلا قليلاً ﴿فَيَقْبِضُهُمْ﴾ من رحمته،
 فلا يوفقه لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك
 الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين.

﴿إِنَّكَ الْمُتَّقِينَ هُمْ الْقَائِمُونَ﴾ حصر الفسق فيهم، لأن
 فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بليل أن عذابهم أشد من
 عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين
 أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.
 ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
 هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَئِمْ عَذَابٌ مُؤِيمٌ﴾ جمع المنافقين
 والكفار في النار، واللعة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في
 الدنيا على الكفر، والمعادة لله ورسوله، والكفر بآياته.

(٦٩، ٧٠) ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً
 وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا
 اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِّمْتَ كَالَّذِي خَاصُوا
 أَوْلَئِكَ حِطَّةَ خَلْقِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ ۝ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
 وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ
 رُسِلُوا بِالْإِنْتِبَاحِ فَمَا كَانَ اللَّهُ يَرْظِي لَهُمْ وَلَكِنْ
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

يقول تعالى محذراً للمنافقين، أن يصيبهم ما أصاب من
 قبلهم من الأسم المكدبة ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ

عدن، أي: إقامة لا يقطعون عنها، ولا يتحولون منها.
﴿وَيُؤْتُونَ رَبَّكَ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَكْثَرَ﴾ مما هم فيه من النعيم. فإن نعيمهم لم يطف إلا برؤية ربهم، ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أتمها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانفنى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجرده.

(٧٤، ٧٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَفَسَّ الْبَصِيرُ﴾ ﴿يَتَوَلَّوْا بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَيْفَ الْكُفْرُ وَكَفَرُوا بِدِينِهِمْ وَمَا لَهُمْ بِمَا نَزَّلُوا وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا مِمَّا فَتَرِ وَإِنْ يَسْتَوُوا بِمَدِينَتِهِمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا تَكْفُرُ الْأَرْضُ مِنْ وَلِيِّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: بالغ في جهادهم والغلبة عليهم حيث اقتضت الحال الغلبة عليهم.

وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان، والسيف، والبيان.

ومن كان مدعياً للإسلام، بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر، فهذا ما لهم في الدنيا.

﴿وَمَا فِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿فَمَا وَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها ﴿وَفَسَّ الْبَصِيرُ﴾.

﴿يَتَوَلَّوْا بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَيْفَ الْكُفْرُ﴾ أي: إذا قالوا قولاً فكقول من قال منهم: «ليخرجن الأعز منها الأذل» والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في الاستهزاء بالدين، وبالرسول.

﴿فَإِذَا بَلَغَ الْإِسْلَامَ﴾ قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا.

قال تعالى مذكراً لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَيْفَ الْكُفْرُ وَكَفَرُوا بِدِينِهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ - وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر - فكلهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر.

﴿وَهُمْ قَالُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ذلك حين هموا بالفتك برسول الله

قوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تجرأوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

(٧٢، ٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْتِرُونَ بِالْعَمْرِوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ وَسَعِيدٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض^(١)، ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ أي:

ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في المحبة والمواواة، والائتماء والنصرة ﴿يَأْتِرُونَ بِالْعَمْرِوفِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة. ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.

ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها، وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يبعثون عنها جواراً ﴿وَمَسْكَنٌ وَسَعِيدٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ قد زخرت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرقاً في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتترع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، لأنها في جنات

﴿فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ﴾، فقص الله عليه نباهم، فأمر من يصدحهم عن قصدهم.

﴿وَالْحَالِ أَنَّهُمْ﴾ «مَا تَقَمُّوا» وعابوا من رسول الله ﷺ «إِلَّا أَنْ أَغْنَيْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» بعد أن كانوا فقراء معوزين. وهذا من أعجب الأشياء، أن يستهنوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومعنيا لهم بعد الفقر. وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه ويؤمنوا به ويجلوه؟! فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية.

ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿إِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَأِنْ يَتُوبُوا﴾ عن التوبة والانابة ﴿يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم، والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير.

﴿وَمَا لَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ رَئُوفٍ﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب، ﴿وَلَا تَسِيرُ﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انتقلوا من ولاية الله تعالى، فكم أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان.

(٧٨-٧٥) ﴿وَمَنْ مَنَّ عَهْدُ اللَّهِ لَكُمْ﴾ «مَنْ مَنَّا مِنْ فَضْلِهِ. لِنُصَدِّقَ وَلِنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ» ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ «يَجْلُوا بِهِ. وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» ﴿فَاعَقَبَهُمْ بِغَافٍ﴾ «إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لَكُمْ﴾ «مَنْ مَنَّا مِنْ فَضْلِهِ» من الدنيا فبسطها لنا ووسعها ﴿لِنُصَدِّقَ وَلِنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فنصل الرحم، ونقري الضيف، ونعين على نواجب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فَلَمَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿يَجْلُوا بِهِ. وَتَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فَاعَقَبَهُمْ بِغَافٍ﴾ «إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ».

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني، ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالثفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد

يَأْتِيهَا النَّارُ جَهَنَّمَ﴾ ﴿وَالْمُفَقِينَ وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وَمَا وَدَّعْتُمْ جَهَنَّمَ وَبَيْتَ الْمَصِيرِ﴾ ﴿يَخْلِفُونَ﴾ ﴿بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا وَابْعَدُوا سُلَيْمَهُمْ﴾ ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ رَبِّتَالُوا وَأَمَانَعُمَا﴾ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَيْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ رَئُوفٍ﴾ ﴿وَلَا نُصِيرُ﴾ ﴿وَمَنْ مَنَّ عَهْدُ اللَّهِ لَكُمْ﴾ ﴿مَنْ مَنَّا مِنْ فَضْلِهِ. لِنُصَدِّقَ وَلِنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ «يَجْلُوا بِهِ. وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» ﴿فَاعَقَبَهُمْ بِغَافٍ﴾ «إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

أخلف.

فهذا المنافق الذي وعد الله وعاهد، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾، وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة»، جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين على النواجب، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تنامي حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة.

ففقده النبي ﷺ، فأخبر بحاله، فبعت من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية. فلما لم يعطهم، جازوا، فأخبروا بذلك

النبي ﷺ فقال: «يا وبيح ثعلبة يا وبيح ثعلبة ثلاثاً.

فلما نزلت هذه الآية فيه وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بزيارته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لأي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان^(١).

(٧٩، ٨٠) ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَأَنَّهُ لَا يَبُودُ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً، إلا قالوا وطعنوا بغيّاً وعدواناً. فلما حثّ الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم، كل على حسب حاله، منهم الكثير، ومنهم المقل، فيلمزون الكثير منهم، بأن قصده بفتنة الرياء والسمعة، وقالوا للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ويطعنون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فيقولون: مراؤون، قصدهم الفخر والرياء.

﴿و﴾ يلمزون ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾. فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي آلِهِمْ﴾ أَمْثَلُكُمْ اللَّهُ عَذَابُكُمْ.

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى، وبغض للدين.

ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينغي [هو] إعانة وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تنبئهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مرء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأتى شر أكبر من هذا!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: (الله غني عن صدقة هذا)، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة

المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السموات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه. فله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فَمَنْ يَمَسَّ مِنْهُ شَيْئًا دَرَءٌ خَبَرًا يَسِّرْهُ﴾. وفي هذا القول من الشيطان عن الخير ما هو ظاهر بَيِّن، ولهذا كان جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها.

﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ﴾، والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

﴿وَأَنَّ لَهُ لَا يَبُودُ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً، بحيث لا يختارون عليه سواء ولا يغيرون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح، فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى، بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

(٨١-٨٣) ﴿سَخِرَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَسْكُفُوا بِكُلِّ جِزَاءٍ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَإِنْ جَعَلْتَ اللَّهُ إِيَّكَ طَائِفَةً مِنْهُمْ فَاتَّبَعُواكَ الْخُرُوجَ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَجِيشٌ بِالْقَوْمِ أَبَدًا مَرَّةً فَاغْلِبُوا مَعَ السَّالِفِينَ﴾ يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان.

﴿سَخِرَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

﴿كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد شغفها جهالة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهيتمي، والعراقي، وابن حجر، والسيوطي، والمنذري وغيرهم - رحمهم الله -، وبينوا أن في إسنادها علي بن يزيد، وهو ضعيف، كما أن من رواها: معاذ بن رافعة، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة منها أيضاً. بنظر المحلى: (٢٠٨/١١)، والإصابة: ترجمة ثعلبة، ومجمع الزوائد (٣٢/٧)، والجامع لأحكام القرآن (٨/٢١٠)، وفيض القدير (٤/٢٥٧)، وضع الباري (٨/٣)، ولباب القول للسيوطي (١٢١) وتخريج الإحياء للعراقي (٣٣٨/٣).

الْبَرَاءَةُ

٢٠٠

سُورَةُ الْبَرَاءَةِ

أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُكُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ كُفْرًا إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٥﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨٦﴾ فَلَيْضَكُوا قَلِيلًا وَلَيْسَكُوا كَثِيرًا جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوا لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفَنِّلُوا مَعِيَ عَدُوَّ الْإِسْلَامِ رَضِيئُهُمُ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٨﴾ وَلَا تَضِلُّوا عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٩﴾ وَلَا تَعْجَلْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأُولَئِهِمْ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعْزِلَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ الْآمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٩١﴾

ذلك في المؤمنين، فإن تقيد النهي بالمنافقين، يدل على أنه قد كان متقررًا في المؤمنين.

(٨٥) ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأُولَئِهِمْ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعْزِلَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم.

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعْزِلَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا﴾ فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتنهون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى يتنقلوا من الدنيا ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قد سلهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفندتهم عليها متحرقة.

(٨٧، ٨٦) ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ الْآمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ رَسُوًا يَأْنُ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُجِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقول

(١) في ب، عدلت الكلمة إلى البكور.

تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحيون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المنافقون ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾ أي: قالوا: إن الغير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة متفضية على الراحة الأبدية النامة.

وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال، ويذهب البكر^(١) والأصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

ولهذا قال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ لما أتروا ما يفنى على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الخفيفة المتفضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿لَيْضَكُوا قَلِيلًا وَلَيْسَكُوا كَثِيرًا﴾ أي: فليمتنعوا في هذه الدار المتفضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهووا بلعها، فيسيرون كثيرًا في عذاب اليم ﴿جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم. ﴿فَاسْتَأْذَنُوا لِلْخُرُوجِ﴾ لغير هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة. ﴿فَقُلْ﴾ لهم عقوبة ﴿لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا لَنْ تُفَنِّلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فيسغي الله عنكم.

﴿الْإِسْلَامِ رَضِيئُهُمُ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿وَقُلَيْبٌ أَنْفَسَهُمْ وَأَنْصَرَهُمْ كَمَا تَوْفِيقُوا يَوْمَ الْأَوَّلِ مَرَّةٍ﴾ فإن المتناقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاء الفرصة، لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضًا تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان ذلك توبيخًا لهم، وعارًا عليهم ونكالًا أن يفعل أحد كفعلهم.

(٨٤) ﴿وَلَا تَضِلُّوا عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَضِلُّوا عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ من المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ بعد الدفن لتدعوه له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعته منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعات.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ومن كان كافرًا ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعات الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلى عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٠١

الْحَمْدُ لِلَّهِ

رَضُوا إِنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَيْسَ عَلَى الرُّسُلِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا انْصَحُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَشِيرٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعِيشُوا فَمَا فِي الدَّمْعِ حَزَنًا لَأُجِيدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا إِنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

وَهُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا إِنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ﴾ أي: جاء الذين تهاونوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباليين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم، وإثباتهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، ففعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى الرسول ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في دعواهم الإيمان، المقضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة. لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ في أبدانهم وبأسرارهم الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ وهذا شامل

تعالى في بيان استمرار المنافقين على التناقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله. ﴿اسْتَفْتَيْتَكَ تُوَلُّوا الْقَوْلَ فِيهِمْ﴾ يعني: أولي الغنى والأموال الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبينين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه، ويقومون بما أوجه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاثر والاستئذان في القعود ﴿وَقَالُوا دَرَكًا نَحْنُ مَعَ الْفَائِزِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿رَضُوا إِنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كيف رضا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

(٨٩، ٨٨) ﴿لَيْسَ عَلَى الرُّسُلِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩٠﴾ يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالله سيغني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله، يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرُّسُلُ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ غير متناقلين ولا كسليين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين فلفروا بأعلى المطالب، وأكمل الرغائب.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فبئس لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودنياه وأخراه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَشَاءُ يَهُدَىٰ أَوْ لَا تَهْدَىٰ إِنَّهُ كَانَ الْبَلَاءُ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَوَلَّوْا مِنْ بَعْدِهِ إِذَا يَسَّالُوا عَنْهُمْ تَجَوزُوا إِلَيْهِمْ فَعَلُوا كَمَا يُنْفِقُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَا يَشْعُرُونَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

(٩٠-٩٣) ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا انْصَحُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَشِيرٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعِيشُوا فَمَا فِي الدَّمْعِ حَزَنًا لَأُجِيدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ

الْأَعْرَابُ

٢٠٢

الْأَعْرَابُ

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ يَعْتَرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَنَهُمُ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٨﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٩﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِقَافًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَنْ يَتَّخِذْ مَا يُبَيِّقُ مَعْرَماً وَيَتَرَبَّصْ بِكُورِ الدُّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ أَلَسْوَءَ لِلَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ الْأَعْرَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذْ مَا يُبَيِّقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ إِلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَجْزِيهِمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ريبكم في رضاء وغضبه. وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ولم يقل: «فإن الله لا يرضى عنهم» ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عنهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضى الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعداء في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم فلا حياء ولا كرامة لهم.

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس.

وفي هذه الآيات إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ مِنْ لَكُمْ﴾. وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أخير أنه سيراه بعد وقوعه. وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.

(٩٧-٩٩) ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِقَافًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وَمَنْ يَتَّخِذْ مَا يُبَيِّقُ مَعْرَماً وَيَتَرَبَّصْ بِكُورِ الدُّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ أَلَسْوَءَ لِلَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَالَّذِينَ الْأَعْرَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذْ مَا يُبَيِّقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ إِلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَجْزِيهِمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾ يقول تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَبِقَافًا﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة:

منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية، والأعمال والأحكام، فهم آخرون ﴿وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من أصول الإيمان، وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة، وإرادات للخير الذي يعلمون ما لا يكون في البادية.

وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية. ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية. فلذلك كانوا آخري للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال، وأشجع فيها.

فمنهم: ﴿مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُبَيِّقُ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مَعْرَماً﴾ أي: يراها خسارة ونقصاً، لا يحسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً. ﴿وَيَتَرَبَّصْ بِكُورِ الدُّوَابِّ﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم، فعليهم دائرة السوء.

وأما المؤمنون فلمهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبى الحسنة، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأفعال من إخلاص وغيره.

وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق، ويعمل

بمقتضى الإيمان.

﴿وَمِنَ الْأَنْصَارِ﴾ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِ يُجِيبُونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ جَمَاعَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿١٠٠﴾
 ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَلْحَنُونَ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وَأَصَدَّهُمْ جَنَّتْ تَحْسِرُ تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة.

﴿حَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يغيون عنها حولاً، ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

(١٠١) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَشَفُّونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ لَا يَلْمِزُكَ فِتْنَتُهُمْ فَاعْلَمُكُم مَّرَدُّهُمْ﴾
 ﴿يُرَدُّونَ﴾ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَشَفُّونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً منافقون ﴿مَرَدُّوا عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ﴾ أي: تمرنوا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغياناً.

﴿لَا يَلْمِزُكَ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة.

﴿تَعْنِ تَعْلَمُهُمْ سَعْدُهُمْ مَّرَدُّهُمْ﴾ يحتمل أن التنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن^(١)، والكرهات لما يصبب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبس القارار.

ويحتمل أن المراد سغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرهه.

(١٠٢، ١٠٣) ﴿وَالْأَخْرَجُونَ أَغْرَقُوا بِدُونِهِمْ حَاطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرُ سَيِّئًا عَنِ اللَّهِ أَن يَكُونَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ حُدِّثَ مِنْ أَنفُسِهِمْ صَدَقَ قَوْلُهُمْ وَتَزَكَّوْهُمْ بِمَا وَصَّلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ سَوْنَكَ سَكَنٌ قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿وَالْأَخْرَجُونَ﴾ ممن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية، ﴿أَغْرَقُوا بِدُونِهِمْ﴾ أي: أقروا بها، وتدموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

﴿وَيَسْجُدُ مَا يُسَبِّحُ فَرْغَتِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: يحسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿و﴾ يجعلها وسيلة لـ ﴿صَلَوَاتِ الرُّسُولِ﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيهاً لنفع صلوات الرسول: ﴿إِنَّمَا قُوَّةُ لَّهِمْ﴾ تقربهم إلى الله، وتنمي أموالهم، وتحل فيها البركة.

﴿سَيَرْزُقُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جملة عباد الصالحين إنه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَغْفِرُ السَّيِّئَاتِ العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عبادته برحمته التي وسعت كل شيء، ويخص عباد المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويحييهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهن، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد ويقص، ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك، فإن في معرفتها يتمكن من فعلها إن كانت مأموراً بها^(٢)، أو تركها إن كانت محظورة، ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشراح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً، ولا تكون مغرمًا.

(١٠٠) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَلْحَنُونَ﴾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَصَدَّهُمْ جَنَّتْ تَحْسِرُ تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ حَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة، وبدروها إلى الإيمان والهجرة، والجهاد، وإقامة دين الله.

﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَآمَرُوا لَهُمْ شُكْرًا فَصَلَّوْا لِلَّهِ وَرَضُوا وَالْبَصْرَةَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

(١) في ب: إن كانت مأمورة. (٢) في ب: والغم.

وَالسَّائِقُونَ ^{٢٠٣} الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُحَجِّينَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ^{٢٠٤} وَمَنْ حَوْلَ كُرْسِيِّ الْإِخْرَاقِ
مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الرَّفَاقِ لَا يَعْلَمُونَ
لَنْ يَنْفَعَهُمْ سَعْيُهُمْ مَرَاتِنَ ثُمَّ يَنْزِلُوكَ إِلَى عَذَابٍ
عَظِيمٍ ^{٢٠٥} وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَعَمَلًا سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ^{٢٠٦} إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ^{٢٠٧} الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^{٢٠٨} وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُودُوا إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيَنْتَكِرُوا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^{٢٠٩} وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ
اللَّهِ إِمَّا يُبَدِّلُكُمْ ^{٢١٠} وَإِمَّا يَنْتَظِرُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ^{٢١١} عِلْمَهُ حَكِيمٌ

الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال تنمى
ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما
أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب
والثمار والماشية المتخذة للنماء، والدر، والنسل، فإنه تجب
فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للفتنة، لم
تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا
يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية
بالفتنة ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج
زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة
والتطهير متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه، لمن أدى
زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهرا، بحيث يسمعه
المتصدق فيسكن إليه.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآثَرَ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحا،
إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن
الكفر والشرك الذي هو شرط لكل عمل صالح. فهؤلاء
خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرد على
بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع
الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عَسَىٰ اللَّهُ
أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.
﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة،
اللتان لا يخلو مخلوق منهما. بل لا بقاء للعالم العلوي
والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على
ظهرها من دابة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُبْسِلُ النَّفْسَ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنْ زَالَا إِنْ
أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَنِ غُفُورٍ﴾.

ومن مغفرته: أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا
أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأنبأوا، ولو قبيل
موتهم بأقل القليل، فإنه يغفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم،
فهذه الآية دلت ^(١) على أن المخلط المعترف التادم، الذي لم
يتب توبة نصوحا، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى
السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل
لا يزال مصرا على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمرا له بما يطهر
المؤمنين، ويتم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة
المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي: تطهرهم من الذنوب
والأخلاق الرذيلة.

﴿وَزَكِّيهِمْ﴾ أي: تنميههم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة،
وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي،
وتنمي أموالهم.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموما،
وخصوصا عندما يدفون إليك زكاة أموالهم.

﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستيثار
لهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِدَعَائِكَ﴾ سمع إجابة وقبول.

﴿عَلَيْهِمْ﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله،
وعلى قدر نيته. فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم
بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته، دعا
له وبرك.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع

حكيمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك .

(١٠٧-١١٠) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُتِيَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقْعُدَ فِيهِ مِنْ يَوْمٍ لَا يَحُثُّونَ أَنْ يَتْلُوهُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الْمُكَلِّفِينَ ۚ أَتَحْسَبُ أَنَّكُمْ تُلَاحِظُونَ عَلَىٰ قَوَّامِي رَبِّكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَكْسَىٰ بَلِيكَكُمْ عَلَىٰ شَعْنٍ جُرْفِي هَكَذَا فَلْيَأْمُرْ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ۚ لَا يَزَالُ يَنْهَاهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا رَبِّيَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كان أناس من المنافقين من أهل قباء، اتخذوا مسجدًا إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعمدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصصًا عند الاحتياج إليه، فيبن تعالى خزيمهم، وأظهر سرهم فقال:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: قصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، ﴿وَإِصْصَادًا﴾ أي: إعداءًا ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله الذين تقدم حراهم، واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبدًا في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر، بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد وممالة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه، ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

﴿لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرارًا أبدًا، فإله يغيثك عنه، ولست بمضطر إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة وسكون لقلبه.

وأنه ينبغي تشييط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

(١٠٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ۚ وَالَّذِي لَا يَرْجُ إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ لِلرَّجِيصِ﴾ أي: أما علموا سعة رحمة الله، وعموم كرمه وأنه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الثانيين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب، أعظم فرح يقدر.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ منهم، أي يقبلها ويأخذها يمينه، فيربها لأحدهم كما يربي الرجل فلوله، حتى تكن الثمرة الواحدة كالجليل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

﴿وَالَّذِي لَا يَرْجُ إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي: كثير التوبة على الثانيين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية] ^(١) مرارًا. ولا يمل الله من التوبة على عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشروء عن بابه، وموالاتهم عدوهم.

﴿الرَّجِيصُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

(١٠٥) ﴿وَقُلْ أَتَمَلَّؤُنَا بِمَنَاسِكِنَا وَمِنَاسِكِمْ وَسْأَلُنَا إِلَىٰ عَرْشِ الْقُبْرِ وَالتَّهْنُوتِ فَيَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَقُولُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَقُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿أَتَمَلَّؤُنَا﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

﴿مَنَاسِكِنَا وَمِنَاسِكِمْ﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم وينضح، ﴿وَسْأَلُنَا إِلَىٰ عَرْشِ الْقُبْرِ وَالتَّهْنُوتِ فَيَسْخَرُوا مِنَّا﴾ كُتْمُ تَمَلُّونَ من خير وشر. ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه، وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم، ولو كانت باطنة.

(١٠٦) ﴿وَأَخْرَجُوا مَرْجُونَ لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّا يَعِظُكُمْ وَإِنَّا نَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ﴿وَأَخْرَجُوا﴾ من المخلقين مؤخرون ﴿لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّا يَعِظُكُمْ وَإِنَّا نَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ففي هذا، التحذير الشديد للمخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم، غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت

﴿لَسَجْدٌ أَتَسَعُ عَلَى أَنْتَقَى مِنْ أَوْلَى يَوْمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في «قيام»، وهو مسجد «قيام»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائره دينه، وكان قديماً في هذا، عريقاً فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ وتتعبد، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُخَيَّرُونَ أَنْ يَنْظُرُوا﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات، والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يجب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث. ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنعهم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك، والأخلاق الذميمة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد، بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضا فقال: ﴿أَفَمَنْ أَتَسَعُ بِتَيْكُنْ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾ أي: على نية صالحة، وإخلاص ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بأن كان موافقاً لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمناعبة، ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَعُ بِتَيْكُنْ عَلَى شَقٍّ﴾ أي: على طرف ﴿جُرْئِي هَكَذَا﴾ أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿فَأَتَاهَا يَوْمَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً وريباً مأكلاً في قلوبهم. ﴿وَلَا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبيناهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسر العباد، وأعلنه.

﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل، ولا يخلق، ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته الحكمة وأمره به، فله الحمد^(١).

وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار الذي

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِلْزَامًا لِلْمُكَرِّهَاتِ وَالْكَافِرِينَ لَئِنْ رَدَّنَا إِلَى اللَّهِ حَسْبُنَا وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَأَقْعُدَنَّ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى اتَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْبُوتُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَتَسَعُ بِتَيْكُنْ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَعُ بِتَيْكُنْ عَلَى شَقٍّ جُرْئِي هَكَذَا فَاتَّهَارَ يَوْمَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ لَأَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ إِنْ اللَّهُ أَشْرَعُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُغْفَرُ لَنُفُوسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيُقْبَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

اطلع على مقصود أصحابه.

منها: أن العمل وإن كان فاضلاً بغيره النية، فيقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين واتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار، بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاء، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه. وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قيام» حتى قال

﴿١١٣﴾

٢٠٥

﴿١١٤﴾

التَّائِبِينَ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ أَسْخَفَ الْوَعْدِ وَالَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ
 الْزُّكُورَ وَالنِّسَاءَ وَالَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ الْأَمْثَلِ وَالَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ
 وَالنَّسَاءَ عَنِ الشُّرْكِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
 وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ مَا كَانَتْ لِلَّيْلِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
 يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ
 مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْحَجِيَةِ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَتْ
 أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ
 فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
 ﴿١١٥﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى
 يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ يَكِلِي شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿١١٦﴾ إِنْ أَلَّفَ
 لَهُ مَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيَىٰ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى
 النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
 سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ
 مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾

﴿وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا، والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم، قوة وضعفاً، وعملاً بمقتضاه.

(١١٣، ١١٤) ﴿مَا كَانَتْ لِلَّيْلِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْحَجِيَةِ﴾ وما كانت استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما بين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴿١١٥﴾ وما كانت الله يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله يكل شيءاً عليه ﴿١١٦﴾ إن الله لآلف لهم ملاً السموات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دونه من ولي ولا نصير ﴿١١٧﴾ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة المسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم.

وأيضاً، فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربه في رضاه وغضبه، ويوالوا من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له. ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَيًّا﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه. فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ موافقة لربه وتأديباً معه.

﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي: رجاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار، والإنابة إلى ربه.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستغزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: ﴿لَا تَحْزَنْكَ﴾ وهو يقول له: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾.

فعليكم أن تقتدوا به، وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَسْتَ تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ كما نهى الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال:

(١١٥، ١١٦) ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ يَكِلِي شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ إن الله لم يكل السكوت والأرض يحيى ويميت وما لكم من دونه من ولي ولا نصير يعني أن الله تعالى إذا من على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية، بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم يتقوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والاول أولى.

﴿إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ يَكِلِي شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تتغنصون.

﴿إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ لَكُمْ مَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيَى وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المالك لذلك، المدير لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير

يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

﴿وَقُلُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: يتقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وقروا منه إليه، فمكتوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أذن في توبتهم، ووقفهم لها ﴿يَسْتُوبُوا﴾ أي لتعصم منهم، فيتوب الله عليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان.

﴿الرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد، أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتّن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم، وتبتيبتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنوب، ولا يحرص إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خَلُفُوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بُت في قبول عذرهم، أو في رده^(١)،

وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «تخلفوا».

ومنها: أن الله تعالى مرّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال:

(١١٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى،

(١) في ب: غزوة تبوك. (٢) زيادة من هامش: ب.

الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني، المتعلق بإلهيته، ويرتك عباده سُدى مهملين، أو يدّهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده؟

فلهذا قال: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو «نصير» يدفع عنكم المضار.

(١١٧، ١١٨) ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَهْمُ رَدُّوهُمْ رَجَرًا ۚ وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الَّذِينَ خِلُوا أَنْ إِذَا سَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَلَمُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ يَسْتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك»^(١) وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله تبهم، وأيدهم وقواهم. وزَيَّغَ القلب، هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفراً، وإن كان في شرائعه، كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إِنَّهُمْ يَهْمُ رَدُّوهُمْ رَجَرًا﴾ ومن رأفته ورحمته أن مرّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم، وتبهم عليها.

﴿وَو﴾ كذلك لقد تاب الله ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الَّذِينَ خِلُوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿حَتَّى إِذَا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، و ﴿صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: على سعتها ورحبها ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم القضاء الواسع، والمحجوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا

باجتناب ما نهى الله عنه، والبعد عنه. ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكسل والفنور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية.

(١٢٠، ١٢١) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ. ذَلِكَ أَنْهُمْ لَا يُفْهِمُهُمْ ظُلماً وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَلٌ فَضْلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَقْطَعُونَ مَوْتَاناً يَغِطُّ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ يَوْمَ عَمَلٍ صَلَاحٌ إِنْكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا يُقْطَعُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ يَجْزِيهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى - حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب الذين أسلموا، فحسن إسلامهم -: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ۝ أَي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ في بقائها وراحتها، وسكونها ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾. الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها. فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبة والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُهُمْ ظُلماً وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب ومشقة ﴿وَلَا عَمَلٌ فَضْلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: مجاعة.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ مَوْتَاناً يَغِطُّ الْكُفَّارُ﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً﴾ كالظفر بجيش، أو سرية، أو الغنيمة لعل ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ يَوْمَ عَمَلٍ صَلَاحٍ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿إِنْكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال، آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿وَلَا يُقْطَعُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ يَجْزِيهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن ذلك، هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصحو

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَوْا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٢﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ. ذَلِكَ أَنْهُمْ لَا يُفْهِمُهُمْ ظُلماً وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَلٌ فَضْلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَقْطَعُونَ مَوْتَاناً يَغِطُّ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ يَوْمَ عَمَلٍ صَلَاحٌ إِنْكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَلَا يُقْطَعُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ يَجْزِيهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٥﴾

فيها. ففي هذه الآيات أشد ترغيب، وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

(١٢٢) ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يقول تعالى منها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفَّةً﴾ أي: جميعاً لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، ويفتر به كثير من المصالح الأخرى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من البلدان والقبايل والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم، وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتنتهم، فقال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ أي: القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، ولينبذوا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه، فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأئي منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً.

وفي هذه الآية أيضاً دليل وإرشاد وتنبية لطيف، لفائدة مهمة، وهي أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة، من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، وتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق، وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

(١٢٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَقْبِلُوا إِلَيْكَ يُلُوكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وهذا أيضاً إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبدؤون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلبة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة واللباث.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعينكم وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قَبِلُوا إِلَيْكَ يُلُوكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جداً.

(١٢٤-١٢٦) ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْسَرُ زَادَتْهُ هَلَوَ إِيْمَانًا فَآلَمَّا الذِّكْرَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَآلَمَّا الذِّكْرَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاؤُوا وَهُمْ كَايُونَ ۝ أَوَّلًا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ فِي كُلِّ عَاوِرَةٍ أَوْ مَرَّتٍ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ يقول تعالى مبيّناً حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْسَرُ زَادَتْهُ هَلَوَ إِيْمَانًا﴾ أي: حصل

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَقْبِلُوا إِلَيْكَ يُلُوكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْسَرُ زَادَتْهُ هَلَوَ إِيْمَانًا فَآلَمَّا الذِّكْرَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَآلَمَّا الذِّكْرَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاؤُوا وَهُمْ كَايُونَ ۝ أَوَّلًا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ فِي كُلِّ عَاوِرَةٍ أَوْ مَرَّتٍ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ۝ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَكُمْ إِهْلَاقًا ۝ وَإِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝ سُوْرَةُ الْبُرَاجِ

الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها، من الطائفتين.

قال تعالى - مبيّناً الحال الواقعة -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَقْبِلُوا إِلَيْكَ﴾ بالعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يشر بعضهم بعضاً، بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم بآيات الله، وطمانينة قلوبهم، وسرعة اقتيادهم لما تحثهم عليه.

﴿وَآلَمَّا الذِّكْرَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكاً إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿وَالطَّيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، حتى ﴿مَاؤُوا وَهُمْ كَايُونَ﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

قال تعالى - مبيّناً لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق -: ﴿أَوَّلًا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ فِي كُلِّ عَاوِرَةٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ أَتَيْتُ الْكِتَابَ الْكَبِيرَ ﴿١﴾ أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا
 أَنْ أَوْحَيْتُ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنَذِيرَ الَّذِينَ آمَنُوا
 أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عَنْهُمْ قَالَ أَلَمْ يَكْفُرُوا بِهَذَا
 لَسَاحِرٌ شَيْعٍ ﴿٢﴾ إِنْ يَنْصَرُّوا إِلَيَّ اللَّهُ الْإِلَهَ الْوَاحِدَ الْحَقُّ الْمُبْدِي
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ إِلَهِهِ ذَلِكَ اللَّهُ
 إِلَهِكُمْ فَعَبُدُوهُ أَلَا إِلَهُ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ
 اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 وَالْقَسِطَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
 يُكْفَرُونَ ﴿٣﴾ يَقُولُ تَعَالَى - مِيتًا لِرَبُّوبِيهِ، وَالْهَيْبَةِ، وَعَظَمَتِهِ - :
 ﴿إِنْ يَنْصَرُّوا إِلَيَّ اللَّهُ الْإِلَهَ الْوَاحِدَ الْحَقُّ الْمُبْدِي فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر
 على خلقها في لحظة واحدة. ولكن لما له في ذلك من
 الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.
 ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف
 بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة.
 ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾
 استواء يليق بعظمته.
 ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإمامة
 والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس،
 وكشف الضر عن المضروبين، وإجابة سؤال السائلين.
 فأنواع التدابير نازلة منه، وصاعدة إليه، وجميع الخلق
 مذعنون لعزه^(١)، خاضعون لعظمته وسلطانه.
 ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ إِلَهِهِ﴾ فلا يقدم أحد منهم على
 الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا
 لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.
 ﴿وَالَّذِينَ﴾ الذي هذا شأنه ﴿اللَّهُ يَنْصَرُّوهُمْ﴾ أي: هو الله الذي له
 وصفُ الإلهية الجامعة لصفات الكمال. ووصفُ الربوبية،
 الجامع لصفات الأفعال.
 ﴿فَعَبُدُوهُ﴾ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع
 العبودية ﴿أَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود
 المحمود، ذو الجلال والإكرام.
 فلما ذكر حكمه القدري، وهو التدبير العام، وحكمه
 الديني، وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادة وحده لا
 شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال
 بعد الموت، فقال: ﴿إِلَهِكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: سيجمعكم

أي: يَبْنِي السَّحَر، لا يَخْفَى - بزعيمهم - على أحد، وهذا من
 سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه
 ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم
 بمصالحهم.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم الذي بعثه الله من
 أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على
 إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

(٤، ٣) ﴿إِنْ يَنْصَرُّوا إِلَيَّ اللَّهُ الْإِلَهَ الْوَاحِدَ الْحَقُّ الْمُبْدِي فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
 اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ إِلَهِهِ ذَلِكَ اللَّهُ
 إِلَهِكُمْ فَعَبُدُوهُ أَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إِلَهِكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ
 اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 وَالْقَسِطَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
 يُكْفَرُونَ﴾ يقول تعالى - مِيتًا لِرَبُّوبِيهِ، وَالْهَيْبَةِ، وَعَظَمَتِهِ - :
 ﴿إِنْ يَنْصَرُّوا إِلَيَّ اللَّهُ الْإِلَهَ الْوَاحِدَ الْحَقُّ الْمُبْدِي فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر
 على خلقها في لحظة واحدة. ولكن لما له في ذلك من
 الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف
 بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾
 استواء يليق بعظمته.

﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإمامة
 والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس،
 وكشف الضر عن المضروبين، وإجابة سؤال السائلين.
 فأنواع التدابير نازلة منه، وصاعدة إليه، وجميع الخلق
 مذعنون لعزه^(١)، خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ إِلَهِهِ﴾ فلا يقدم أحد منهم على
 الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا
 لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

﴿وَالَّذِينَ﴾ الذي هذا شأنه ﴿اللَّهُ يَنْصَرُّوهُمْ﴾ أي: هو الله الذي له
 وصفُ الإلهية الجامعة لصفات الكمال. ووصفُ الربوبية،
 الجامع لصفات الأفعال.

﴿فَعَبُدُوهُ﴾ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع
 العبودية ﴿أَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود
 المحمود، ذو الجلال والإكرام.

فلما ذكر حكمه القدري، وهو التدبير العام، وحكمه
 الديني، وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادة وحده لا
 شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال
 بعد الموت، فقال: ﴿إِلَهِكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: سيجمعكم

بعد موتكم لميقات يوم معلوم.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، فالقادر على ابتداء الخلق قادر
 على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم يُنكر إعادته
 للخلق، فهو فاقد العقل، منكر لأحد المثبتين مع إثبات ما هو
 أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد.

ثم ذكر الدليل القلبي فقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: وعده
 صادق، لا بد من إتمامه.

﴿يَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.
 ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، من واجبات ومستحبات
 ﴿وَالْقَسِطَ﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده،
 وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا﴾ بآيات الله، وكذبوا رسل الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾
 أي: ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
 من سائر أصناف العذاب ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب
 كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

مرامهم^(٢)، ونهاية قصدهم. فسموا لها، وأكبوها على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصولها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكانهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست بدار ممر، يتزود منها المسافرون، إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ مَائِنَتِنَا غَبِلُوا﴾ فلا يتفنون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الألفية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مَأْوَهُمُ النَّارُ﴾ أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها.

﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي.

فلما ذكر عقابهم، ذكر ثواب المطيعين فقال:

(١٠، ٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ دَعْوُهُمْ فِيهَا سَكَنٌ لَدُنَّ اللَّهِ وَفِيهَا سَلَامٌ وَأَمَّا دَعْوَتُهُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ رِزْقٌ أَلْفَيْتُ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والتابعة.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما يتفهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام. نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحيور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتياب برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والناظر المفرجات. ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب، والمناكح، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

(١) في ب: الدلائل. (٢) في ب: أمرهم.

(٦، ٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ كَالْحَمْسِ نِيْلًا وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّجْمِ ۚ وَالْحَسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَعْيُنِ يُبْصِلُ الْإِنْسَانَ لِقَوْفِهِ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِي أَنْخِلَتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لما قرر رويته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الألفية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته: من الشمس والقمر، والسموات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل^(١) على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقويمته، وما فيها من الأحكام، والإتقان، والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء، والقمر نوراً، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتناؤه بعباده وسعة بره وإحسانه. وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله، وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود، المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات العربيات، المفقرات إلى الله في جميع شؤونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار. فإن بذلك تفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة. وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقرينة.

(٨، ٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِمَا لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ مَائِنَتِنَا غَبِلُوا ۚ أُولَئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلاً عن الآخرة.

﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِمَا﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية

٢٠٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا
بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ
النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ
الْعِيقِ ﴿٩﴾ دَعْوَهُمْ فِيهَا سَبِيحًا لِلَّهِ وَلَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ مِّنَ اللِّغْوِ
وَالْإِثْمِ وَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَنزِلَتْ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا السَّلَامُ
وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَكُنَّا آلَ شَرٍّ لَّا تَرْجِعُ إِلَيْنَا أَرْجُلُكُمْ فَذَرْ
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِيزِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيِّنَ
لِّلْمُتَّكِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ
مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا
لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ
خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

قضاء غرضه، فإذا أناله إياه، لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه حق. وهذا تزوين من الشيطان، زين له ما كان مستهجنًا مستحبًا في العقول والفطر.

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَ لِّلْمُتَّكِفِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحدِّ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٤، ١٣) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لينظر كيف تعملون. يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق، فلم ينفادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم، متجرى على محارم الله، وهذه سته في جميع الأمم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أنتم اعتبرتم وانعظتم بمن

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سَبِيحًا لِلَّهِ﴾ أي عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

﴿و﴾ أما ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سَلَامٌ﴾، وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سَبِيحًا﴾ إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا: سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال. فإذا فرغوا قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١١) ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَكُنَّا آلَ شَرٍّ لَّا تَرْجِعُ إِلَيْنَا أَرْجُلُكُمْ فَذَرْ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر، إذا أتوا بأسبابه، وبأدبرهم بالعقوبة على ذلك، كما يجعل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقَضَى إِلَيْنَا أَرْجُلَهُمْ﴾ أي لمحتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم، ولا يمهلهم ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم، ما ترك على ظهرها من دابة. ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده، أو أهله، أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة، لو قبلت منه لهلكوا، ولا ضرة ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلِيم حكيم.

وقوله: ﴿فَذَرْ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: باطلهم الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون حائرين، لا يهتدون السيل، ولا يوقفون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم^(١) على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِيزِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيِّنَ لِّلْمُتَّكِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائمًا وقاعدًا، ومضطجعًا، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ أي: استمر في غفلته معرضًا عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأني ظلم أعظم من هذا الظلم؟! يطلب من الله

قبلكم واتبعتم آيات الله، وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة.

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم،
ومن أنذر فقد أعذر.

[illegible]

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ، بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَيْ مَا يُلْقِي وَلَا يُلْقِي﴾ أَوْ أَيْدِيكَ مِنْ يَلْقَاكَ نَفْسٌ ﴿فَإِنِّي رَسُولٌ مَحْضٌ، لَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إِنَّ تَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴿أَي: لَيْسَ لِي غَيْرُ ذَلِكَ، فَإِنِّي عَبْدٌ مَأْمُورٌ.

﴿إِنَّ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فهذا قول خبير
الخلق، وأدبه مع أوامر ربه ووجهه، فكيف بهؤلاء السفهاء
الضالين الذين جمعوا بين الجهل والضلال، والظلم والعناد،
والتعنت والتعجيز لرب العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم
عظيم؟!

فإن زعموا أن قصدهم أن يتبين لهم الحق بالآيات التي طلبوا فهم كَذَّبُوا في ذلك، فإن الله قد بين من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يصرفها كيف يشاء، تابِعاً^(١) لحكمته الربانية، ورحمته بعباده.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَيْتُمْ بِهِ فَكُذِّبْتُمْ فِيكُمْ عَمْرًا﴾ طويلاً ﴿بَيْنَ قَبْلِهِ﴾ أي: قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي حيث لم أقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف اتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً، تعرفون حقيقة حالي، باني أمي لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أعلم من أحد؟!

فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزتم جزماً لا يقبل الرب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذ^(٢) أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ !؟

فلو كنت مُتَقَوِّلاً لَكنْتُ أَظْلَمُ النَّاسِ، وَفَاتِنِي الْفَلاحَ، وَلَمْ
تَخَفْ عَلَيَّكُمْ حَالِي، وَلَكِنِّي جَشْتُكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، فَكَذَّبْتُمْ بِهَا،
فَتَعْنِي فِيكُمْ الظُّلْمَ، وَلَا بَدَأَ أَنْ أُرْكِمَ سَيْضُمَحْلَ، وَلَنْ تَنَالُوا
الْفَلاحَ مَا دُمْتُمْ كَذَلِكَ.

ودل قوله: ﴿فَأَلَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الآية، أن الذي حملهم على هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بقاء الله، وعدم رجائه، وأن من آمن بقاء الله فلا بد أن يتقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد.

(۱۸) ﴿وَعِبَادُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾

ققولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾. الآيات.
وققولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ فَنَجِّرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَبْرُءًا﴾. الآيات.

﴿فَقُلْ لَهُمْ إِذَا طَلَبُوا مِنْكَ آيَةً﴾ ﴿إِنَّمَا الْقَيْثُ بِلَدِّي﴾ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم، وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل، ولا غاية ولا تعليل.

﴿فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ السَّاطِرِينَ﴾ أي: كل ينتظر صاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

(٢١) ﴿وَإِذَا أَقْبَضَ النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ذَرْبَةٍ مَسَّنَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي مَائَاتٍ قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكُرُّونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَقْبَضَ النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ذَرْبَةٍ مَسَّنَتْهُمْ﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.

ولهذا قال: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي مَائَاتٍ﴾ أي يسعون بالباطل، ليطلوا به الحق.

﴿قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم [الله] عليه أوفر الجزاء.

(٢٢، ٢٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْفَرْ وَالْبَحْرِ حَقٌّ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَاحِ وَجَرَيْنَ يَمِ يَرْجِعُ لِيَجْزِيَ وَفِيهَا يَمَّا جَاءَتْهَا رِيحٌ صَاصِيَةٌ رِيحَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ أُحْيطَ بِهِمْ دَعْوَا اللَّهِ عَظِيمِينَ لَهُ الْوَيْلُ لِمَنْ أَهْلَيْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَهْلَيْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْشُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمِثْرِ الْحَبِّ كَأَنَّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَثْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتْنَعِ الْحَكِيمَةِ الثَّانِيَةَ ثُمَّ إِنَّمَا تَرَجَّيْتُمْ فَنَجَّيْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة تزيد ذلك وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْفَرْ وَالْبَحْرِ﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة^(١) لكم فيها، وهذاكم إليها.

﴿حَقٌّ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَاحِ﴾ أي: السفن البحرية ﴿وَجَرَيْنَ يَمِ يَرْجِعُ لِيَجْزِيَ﴾ موافقة لما يهونه، من غير انزعاج ولا مشقة. ﴿وَفِيهَا يَمَّا جَاءَتْهَا رِيحٌ صَاصِيَةٌ﴾ شديدة الهبوب ﴿وَبِشْرَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمُوا

وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْكُرُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَسْمَعُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ.

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: لا تملك لهم مقال ذرة من النفع، ولا تدفع عنهم شئاً.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولاً خالياً من البرهان ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: يعبدونهم ليقربهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالى - مبطلاً لهذا القول -: ﴿قُلْ أَتَشْكُرُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَسْمَعُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الله تعالى هو العالم الذي أحاط علماً بجميع ما في السموات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه، أفأنتم - يا معشر المشركين - تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟ أفتخبرونه بأمر خفي عليه، وعلمتوه؟ أنتم أعلم أم الله؟ فهل يوجد قول أبطل من هذا القول، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجاهل السفهاء، أعلم من رب العالمين؟

فليكف العاقل بمجرد تصور هذا القول، فإنه يجزم بفساده وبطلانه. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: قدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السموات والأرض إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه، فإنه باطل عقلاً وشرعاً وفطرة. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَكُونُ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْكَبِيرُ﴾.

(١٩، ٢٠) ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفَنِي بَيْنَهُمْ فَيَسْأَلُ عَنْهُمْ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْنَا مَائَةً مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْقَيْثُ بِلَدِّي فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ السَّاطِرِينَ﴾ أي: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بإمهال العاصين، وعدم معاجلتهم بذنوبهم ﴿لَفَنِي بَيْنَهُمْ﴾ بأن نجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقاً بينهم ﴿فَيَسْأَلُ عَنْهُمْ﴾ ولكنهم أراد امتحانهم، وابتلاء بعضهم ببعض، لِيَبَيِّنَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون المتعنتون، ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْنَا مَائَةً مِنْ رَبِّهِ﴾. يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها،

﴿يُونُسَ﴾

٢١١

﴿يُونُسَ﴾

وَإِذْ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ سَبَتْنَاهُمْ إِذْ هُمْ كَارِفُونَ
 ءَايَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مُكْرًا إِنَّ سُلْطَانَكُمْ لَبِئْسَ مَا تَكْمُرُونَ ﴿٢١١﴾
 هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَيْثُ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ
 وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَوِيلٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَ تَارِبٌ عَاصِفٌ
 وَجَاءَ هُمْ الْمَوْجَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
 اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الشَّاكِرِينَ ﴿٢١٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَوْنُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ ثَائِبًا النَّاسَ لِمَا بَغَيْنَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا ثُمَّ أَلْبَسْنَاكُمْ جَعْلَكُمْ فَنَتَّبِعْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١٣﴾
 لِمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَاتَخَذُوا بِهِ
 نَبَاتَ الْأَرْضِ وَمَا كُلُّ النَّاسِ إِلَّا لَعْنَةٌ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا الْأَرْضَ
 زُرْقَهَا وَارْتَبَتْ وَظَلَمَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ دُرُوتْ عَلَيْهَا
 أَنَّهُمْ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ
 بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٤﴾ وَاللَّهُ
 يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٥﴾

حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ﴿٢١٤﴾ أي: كأنها ما كانت، فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما يتفهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان.

ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شَوَّقَ إِلَى الدَّارِ الْبَاقِيَةِ فقال:

(٢٦، ٢٥) ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ لَئِنْ أَحْسَنُوا لَلنَّاسِ وَرِبَادَةٌ وَلَا يَرْفَعُ وُجُوهَهُمْ قَرَرٌ وَلَا ذُلٌّ آلَتْهُ أَصْحَابُ الْخَنَازِئِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

عَمَّ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ، والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه. فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة، بعد البيان والرسول.

أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴿٢١١﴾ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حيثُ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين ووعدا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَجَبْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَوْنُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموا أنفسهم، فاشكروا بالله من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق. فلهذا أخلصوا الله العبادة في الرخاء، كما أخلصوها في الشدة!؟

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْنَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: غاية ما تؤملون ببغيكم، وشروكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها، التزr اليسير الذي سيتفضي سريعاً، ويمضي جيمعاً، ثم تنتقل عنه بالرغم.

﴿ثُمَّ أَلْبَسْنَاكُمْ جَعْلَكُمْ فَنَتَّبِعْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

(٢٤) ﴿لِمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَاتَخَذُوا بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ وَمَا كُلُّ النَّاسِ إِلَّا لَعْنَةٌ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا الْأَرْضَ زُرْقَهَا وَارْتَبَتْ وَظَلَمَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ دُرُوتْ عَلَيْهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها، ونحو ذلك يزهر لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليمين منها، متلى القلب من مهبها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كَذَٰلِكَ أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَاتَخَذُوا بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿وَمَا كُلُّ النَّاسِ﴾ كالحبوب والثمار ﴿وَمَا تَأْكُلُ إِلَّا النَّعَامُ﴾ كأنواع العشب، والكلاب المختلف الأصناف.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا الْأَرْضَ زُرْقَهَا وَارْتَبَتْ﴾ أي: تزخرت في منظرها، واكتست في زيتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيباً ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وَظَلَمَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ دُرُوتْ عَلَيْهَا﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إراداتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أَنَّهُمْ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا

وسمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والقائص، وذلك لكمال نعيمها، وتمامه، وبقائه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لَسْنَا وَرِثَةً﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة في عبادته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعل، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم «النسب» وهي الجنة الكاملة في حسننها و«زيادة» وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه الممتنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿وَلَا يَمَقُّ وَجُوهَهُمْ قَدَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما^(١) قال الله عنهم - : ﴿تَرَوْنِي فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةً الْقَيْمِ﴾، «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» الملازمون لها «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون. (٢٧) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَنْتَلِلُهَا وَرَعْفُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا كُنُّمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُلُوبًا مِنْ أَلْبِنٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المُسَخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي.

فجزاءهم سبئة مثلها أي: جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وَرَعْفُهُمْ﴾ أي تغشاهم «ذِلَّةٌ» في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في الوجوه^(٢).

﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُلُوبًا مِنْ أَلْبِنٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» فكم بين الفريقين من الفرق، ويا بعد ما بينهما من التفاوت!

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ لِكَيْ يَكُنْ نَاصِرَةً ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ تَنْظُرُ أَنْ يَبْلُغَ بِهَا قَافِرَةٌ، ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ سُفُوفٌ﴾ حَاجِبَةٌ تَسْتَبِيرُ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرٌ﴾ رَعَفَةٌ قَدَرٌ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْعَجِرُ﴾.

(٢٨-٣٠) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَيَذَلُّنَا بَيْنَهُمْ وَكَأَلِ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنَّا إِنَّا نَعْبُدُونَ ﴿فَكُنْ بِأَلْفِ شَيْءٍ﴾ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلٌ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا﴾ أي: نجوع جميع الخلاق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم لبيع التحاكم والفصل بينكم وبينهم ﴿فَرَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا، خالص المحبة وصَفَرُ الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية، بغضا وعداوة. وتبرأ شركائهم منهم وقالوا: ﴿مَا كُنَّا بِإِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ فإننا نزه الله أن يكون له شريك أو نديد.

﴿فَكُنْ بِأَلْفِ شَيْءٍ﴾ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلٌ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعامكم إلى ذلك، وهو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَقْعِدْ لَكُمْ يَكْبَجَ عَادِمٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ يَبُولُ بِمَلَكِهِمْ أَهْوَاءَهُ وَكَأَنَّهُمْ يَبِذُونَ ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ بَلْ كَانُوا يَبِذُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَوْمَ يُؤْمَرُونَ﴾.

فالملائكة الكرام، والأنبياء، والأولياء ونحوهم يتبرأون ممن عبدتهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك. فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من ردي الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك اليوم ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: تنفذ أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وصلَّ عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه.

٢١٣

الْحَقِّ

الْحَقِّ

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۖ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُبْعَثَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ ۖ فَالْكَوْفُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَأَرْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ قَاتُوا يَسُورَ مَنَّا ۖ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَمَنْهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمَنْهُمْ مَن لَا يُؤْمِنُ ۚ يَمْشِي لَكَ آعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيضُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَنْهُمْ مَن يَسْتَعِينُ إِلَيْكَ فَاَنفَتَ شَيْعُ الضَّمِّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ مِنْ غَيْرِ شَارِكٍ ۖ وَلَا مُعَاوَنٍ لَهُ عَلَى ذَلِكَ ۖ

﴿قَالَ تُوَفَّقُونَ﴾ أي: تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة، إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يُخْلَقُونَ.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وحده ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

﴿أَمَّنْ لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يهتدي ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾ لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تُهْدَى ﴿فَلَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصفة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.

فإذا تبين أنه ليس في إلهتهم التي يعبدون مع الله، أوصاف معنوية، ولا أوصاف فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقصان الموجبة لبطلان إلهيتها، فلا شيء جعلت مع الله ألهة؟

فالجواب: أن هذا من تزوين الشيطان للإنسان، أفيح البهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه، وظنه حقاً، وهو لا شيء.

ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْجُدَ لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء الله، فإنه ليس له شريك أصلاً، عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾. فسموها ألهة، وعبدوها مع الله، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَرَبُّكُمْ مَا أَرْزَلَهُ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

(٣٧-٤١) ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَدَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ قَاتُوا يَسُورَ مَنَّا ۖ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۖ وَمَنْهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمَنْهُمْ مَن لَا يُؤْمِنُ ۚ يَمْشِي لَكَ آعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۖ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيضُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۖ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفتري هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ

الْقَبِيلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَزِيلُ مِنْ حِكْمِهِ حَمِيدٌ ۖ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي لَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۚ وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ بِهِ [رب العالمين]، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فنقول أحد على رب العالمين، لعاجله بالعقوبة وياديه بالنكال.

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين.

أنزله ﴿نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة.

جاء به ﴿و﴾ أَنْ وَهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَى النِّبِيِّ ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب، وتطلب^(١) العثرات، وهذا استماع غير نافع، ولا مجتد على أهله خيراً، لا جرم انسده عليهم باب التوفيق، وحرماً من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنْتَ شَمِيعٌ أَلْهَمَ وَكَوْ كَاوُ لَا يَقُولُونَ﴾. وهذا الاستفهام بمعنى النفي المتقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً.

فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذوبون كذلك متمتع إسماعك إياهم إسماعاً يتفنون به.

وأما إسماع الحجة فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسده عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير.

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو طريق النظر فقال: ﴿وَهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ فلا يفيد نظره إليك، ولا سير أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا ييرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصول لهم إلى الحق؟

ودل قوله: ﴿وَهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهدية، وأخلاقه، وأعماله، وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه، وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَاسِثَ شَيْئاً﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿وَلَكِنَّ الْقَاسِثَ أَنفُسَهُمْ يَهْدِيُون﴾ يجنبهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

(٤٥) ﴿وَيَوْمَ يُعْزِرُهُمْ كَانَ لَرَّ يَسْتَأْذِنُ إِلَّا سَأَلَكَ مِنَ النَّارِ يَسْأَلُونَ﴾ يَسْأَلُونَ قَدْ حَسَرَ الْإِلَهَ كَذِبُوا بِاللَّهِ وَمَا كَاوُ مُهْتَدِينَ﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا. ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر

﴿لَا رَبَّ فِيهِ مَن رَّبِّي الْغَيْبِ﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه.

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ أي: المكذوبون به عناداً وبغياً: ﴿أَفْتَرَيْنَاهُ﴾ محمد على الله، واختلقه ﴿قُلْ﴾ لهم - ملزماً لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما أدعوه، وإلا كان قولهم باطلاً.

﴿كَأَنَّا بِسُورَةٍ نَّجْمٍ وَأَنذَرُوا مَن اسْتَطَلَعُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ سَارِقِينَ﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً لدعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله.

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة. والذي حملهم على التكذيب بالقرآن، المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علماً.

فلو أحاطوا به علماً، وفهموه حق فهمه، لأذعنوا بالتصديق به. وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ حَقِيقَةُ الْفَظْلِيِّينَ﴾ وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحداً.

فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمة المكذبين، والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على الثبوت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده، قبل أن يحيط به علماً.

﴿وَهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: بالقرآن وما جاء به ﴿وَهُمْ مَن لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبِّكَ أَطْلَعُ الْآمُسِيِّينَ﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم، والفساد، فسجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله ﴿فَدَلَّ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ رَپُوعُونَ مِمَّا أَفْعَلُ وَأَنَا رَپُوعٌ مِّمَّا تَفْعَلُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلْيَنصِبْهُ وَمَنْ عَمِلَ فُتُورًا فَلْيَنصِبْهُ﴾.

(٤٤-٤٢) ﴿وَهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ شَمِيعٌ أَلْهَمَ وَكَوْ كَاوُ لَا يَقُولُونَ وَهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَدْرِي أَلْهَمَ وَكَوْ كَاوُ لَا يَبْعُرُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَاسِثَ شَيْئاً وَلَكِنَّ الْقَاسِثَ أَنفُسَهُمْ يَهْدِيُون﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما

(٥٨، ٥٧) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَشَارَةٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَذَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ يُغْفِرُ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ ۖ فَذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يقول تعالى - مرجعاً للخلق، في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: تعظكم، وتذكركم عن الأعمال الموجهة لسخط الله، المتقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها ﴿وَبَشَارَةٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصاذقة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القاذحة في العلم اليقيني. فإن ما فيه من المواعظ، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة.

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، ونمتا على تكرار ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف، وبيّنها أحسن بيان، مما يزيل الشبهة القاذحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين.

وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، ﴿وَهَذَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالهذى هو العلم بالحق والعمل به.

والرحمة هي: ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به. فالهذى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والراغب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدى وحلّت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور.

ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال: ﴿قُلْ بِغُفْلَةِ اللَّهِ﴾ الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمته ومنته، وفضل تفضّل الله به على عباده ﴿وَرَحْمَتِهِ﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته. ﴿فَذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها.

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب. وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته، لأن ذلك مما

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتّر عنكم ساعة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصي.

(٥٦-٥٣) ﴿وَسَيُؤَذِّنُكَ اللَّهُ هُوَ قُلٌّ إِلَىٰ ذَرْوَةٍ إِنَّهُ لَعَلٌّ وَمَا أَنتَ بِمُعْتَمِرٍ ۝ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا الْأَنْدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنَ بِهِمْ يَبْتَهِمُ الْفَيْسُ وَهُمْ لَا يَسْلَمُونَ ۝ أَلَا إِنَّ إِلَهًا لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول تعالى لنيه ﷻ: ﴿وَسَيُؤَذِّنُكَ اللَّهُ هُوَ قُلٌّ﴾ أي: يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد، لا على وجه التبين والرشاد^(١).

﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي: أصحح حشر العباد، ويعتهم بعد موتهم ليوم المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿قُلْ﴾ لهم مفسماً على صحته، مستدلاً عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إِلَىٰ ذَرْوَةٍ إِنَّهُ لَعَلٌّ﴾ لا مرة فيه ولا شبهة تعتريه.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْتَمِرٍ﴾ أن الله يبعثكم، فكما ابتداء خلقكم، ولم تكونوا شيئاً، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

﴿وَو﴾ إذا كانت القيامة ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما، لتفتدي به من عذاب الله ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضّر، والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿وَأَسْرُوا﴾ [أي]: الذين ظلموا ﴿الْأَنْدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ندما على ما قدموا، ولات حين مناص ﴿وَفُتِنَ بِهِمْ﴾ بِالْفَيْسِ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿أَلَا إِنَّ إِلَهًا لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي. ولهذا قال: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لا يستعدون لقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين الثقلية والعقلية.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير^(٢)، لا شريك له في ذلك.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

سورة يونس

٢١٥

سورة يونس

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا
الْأَنَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِحَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقِطُوا وَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ
وَالْبَرْقَ تَرْجُوعًا ﴿٦١﴾ يَكَايُهَا النَّاسُ فَذَعَاءُ تَكْمُ تَوَعِظُهُ
مِنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءُ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٦٢﴾ قُلْ فَضَّلَ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّ زَرْقٍ
فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ لِلَّهِ أَدَبٌ لَكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ
تَقَرُّونَ ﴿٦٤﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٥﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ لَّا تُغْنِي عَنْكَ الْفَلَاحُ وَالْأَرْضُ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٦﴾

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغير أو كبير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بطواهركم وبواطنكم.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أي: ما يغيب^(١) عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿بَيْنَ يَدَيْكَ دَرَجَاتٍ﴾ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه.

وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر، كثيرًا ما يقرن الله بينهما، وهما العلم المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيطة بجميع الحوادث، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّكَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للزيادة منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال [تعالى عن] قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

(٥٩، ٦٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّ زَرْقٍ فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ لِلَّهِ أَدَبٌ لَكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ﴾ وما ظنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى - منكرًا على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم^(٢) -: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّ زَرْقٍ﴾ يعني أنواع الحيوانات المحللة التي جعلها الله رزقًا لهم ورحمة في حقهم.

قل لهم - موبخًا على هذا القول الفاسد -: ﴿اللَّهُ أَدَبٌ لَكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ﴾؟ ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم فلعلم أنهم مفترون.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَهُمْ فِيهِ مُسَوِّدُونَ﴾.

﴿وَلَهُ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ كثير، وذنو إحسان جليل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، إما ألا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة، الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ لَّا تُغْنِي عَنْكَ الْفَلَاحُ وَالْأَرْضُ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يخبر تعالى عن عموم مشاهدته، وإطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا، الدعوة لمراقبته على الدوام فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي: وما تتلون من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

(١) في ب: ما حرمه. (٢) في النسخين: ما يغب.

(٦٢-٦٤) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَسْتَوُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يخبر تعالى عن أوليائه وأحبابه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم، فقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، مما أمامهم من المخاوف والأهوال ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي. فكل من كان مؤمناً تقياً، كان لله [تعالى] ولياً، و﴿لَهُمُ الشَّرَفُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أما البشارة في الدنيا، فهي الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عنه مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا قَالُوا لَا بَأْسَ بِنُوحٍ إِنَّهُ لَكُنْزٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَسَفًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَهُدًى عَلَى إِسْمَاعِيلَ وَالْحَقُّ عَلَى آلِ هَارُونَ وَمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأنبياء: 76-79].

وفي القبر، ما يبشر به من رضا الله تعالى، والتعظيم المقيم.
وفي الآخرة، تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة
من العذاب الأليم.

﴿لَا يَدْرِي لِمَا يَكْفُرُ النَّاسُ﴾ بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبدليه، لأنه الصادق في قوله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب. وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرية شاملة لكل خير وثواب، رتبته الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم يقيده .

(٦٥) ﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْفِئَةَ لِلَّهِ حَبِيبًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلى القدح فيك، وفي دينك، فإن أقوالهم لا

٢١٦
 آيَاتِ أُولَئِكَ اللَّهُ لَآخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 (٧٦) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٧٦﴾ لَهُمُ الشَّرْىُ
 فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ
 ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
 الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ آيَاتِ اللَّهِ
 مِنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شَرَكَاءُ إِن يَشْعُرُوا إِلَّا
 أَطْطَنَ وَإِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٧٩﴾ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
 الْيَلَّ لِلَّسِكُنْوَافِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِن فِى ذَٰلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 سُبْحَنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ
 إِن عِنْدَكُمْ مِّن سُلْطٰنٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ قُلِ إِن الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 لَا يَفْلَحُونَ ﴿٨٢﴾ مَتَّعْ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّهُم مُّجْمِعُونَ
 فِى عَذَابِ الشَّدِيدِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٣﴾

يُغِزُّهُمْ، وَلَا تَفْرُكْ شَيْئًا ﴿إِنَّ الْوَرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يُؤْتِيهَا مِنْ شَاءَ، وَيَمْنَعُهَا مِنْ شَاءَ.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَزَاَ فَلْيَلْهِ الْمَرْثَةَ جَمْعًا﴾ أي: فليطلبها بطاعته، بدليل قوله بعده: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الْحَقِيقُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ تَرْفَعُهُ﴾.

ومن المعلوم أنك على طاعة الله، وأن العزة لك ولأتباعك من الله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَلَمْرَةِ وَلِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات، فلا يخفى عليه شيء منها.

وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن، فلا يعزب عنه
مقال ذرة في السموات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا
أكبر.

وهو - تعالى - يسمع قولك وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلاً، فاكتف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله فهو حسبه .

(٦٦، ٦٧) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ

في أفتار الأرض ﴿وَأَفْرَقْنَا الْوَيْتَ كَذِبًا وَيَأْتِيَانَا﴾ بعد ذلك البيان، وإقامة البرهان.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وهو الهلاك المخزي، واللعة المتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لومًا، ولا ترى إلا قدحًا ودمًا.

فليحذر هؤلاء المكذوبون أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقسام المكذبين، من الهلاك والخزي والنكال.

(٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَكَانُوا يُؤْمِنُونَ يَسَاءَ كَذِبًا بِهِ مِنْ قَبْلِ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمُ﴾ المكذبين، يدعونهم إلى الهدى، ويحذرونهم من أسباب الردى.

﴿فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: كل نبي أيّد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به.

﴿فَكَانُوا يُؤْمِنُونَ يَسَاءَ كَذِبًا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أن الله تعالى عاقبهم، حيث جاءهم الرسول، فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه، كما قال تعالى: ﴿وَقَلُوبُ أَقْبَتَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَذَلَّ مَرُوءًا﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: ونختم عليها، فلا يدخلها خير. وما ظلمهم [الله]، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم، وتكذيبهم الأول.

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ ثَمُودَ وَهَارُونَ﴾ إلى آخر القصة. (٣) أي: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين.

﴿ثَمُودَ﴾ بن عمران كليم الرحمن، أحد أولي العزم من المرسلين، وأحد الكبار المقتدى بهم، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة.

﴿و﴾ وجعلنا معه أخاه ﴿هَارُونَ﴾ وزيرًا، بعثناهما ﴿إِلَى يَثْرِبَ وَبَنِي إِسْرَافِيلَ﴾ أي: كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم تبع للرؤساء.

﴿يَتَّبِعَانَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ظلمًا وعلوًا، بعدما استيقنوها.

﴿وَكَاذَبُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: وصفهم الإجرام والتكذيب.

(١) في التسخين: ولا تلذخون. (٢) في التسخين: بادي. (٣) في بأكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَاءَ كَذِبًا بِهِ يَتَكَبَّرُونَ﴾.

﴿فَاجْمَعُوا أَسْرُسَكُمْ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا^(١) من مجهودكم شيئًا.

﴿و﴾ أحضروا ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَسْرُسُكَ عَلَيْكَ عَشَقٌ﴾ أي: مشتبهًا خفيًا، بل ليكن ذلك ظاهرًا علانية.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: اقضوا عليّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿وَلَا تُظْهِرُوا﴾ أي: لا تهللون ساعة من نهار. فهذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا شريك تحميه، ولا جند تؤويه.

وقد بدأ^(٢) قومه بتسفيه آرائهم، وفساد دينهم، وعيب آلهتهم. وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسلطة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدروا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقًا، وهم الكاذبون فيما يدعون، ولهذا قال:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ما دعوتكم إليه، فلا موجب لتوليكم، لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته، إلى باطل قامت الأدلة على فساده.

ومع هذا ﴿فَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ على دعوتي، وعلى إجابتك فقولوا: هذا جاءنا لياخذ أموالنا، فتمتعون لأجل ذلك ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ آثَرٍ﴾ أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه ﴿و﴾ أيضًا فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده، بل ﴿أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فانا أول داخل، وأول فاعل لما أمرتكم به.

﴿فَتَكْبَرُونَ﴾ بعدما دعاهم ليلاً ونهارًا، وسراً وجهارًا، فلم يزدكم دعاؤه إلا فرارًا، ﴿فَتَجَبَّنَا وَمَنْ تَعْمُرُ فِي الظُّلُمِ﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقتلناه إذا فار التور: ﴿فَاجْمَعُوا فِيهَا مِنْ كُلِّ صِغَةٍ رِجْزَيْنِ أَتَيْنِي وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ ففعل ذلك.

فأمر الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عينًا، فالتقى الماء على أمر قد قُدر: ﴿وَحِجَّتُهُمْ شَانَ الْوَجِّ وَدُمُرُ﴾ تجري بأعيننا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقَيْنِ﴾ في الأرض، بعد إهلاك المكذبين.

ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم

٢١٨

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنَبِّئُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
 قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ
 مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ
 عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُخَوِّفُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا أَمِنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى
 خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَمَّالٌ
 فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ
 ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ
 تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا
 بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَارْحَمْنَا إِلَى مُوسَى وَآخِيهِ
 أَنْ تَبْوَءَ الْقَوْمَ كَمَا يَبْصُرُونَكَ وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَنَشِرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى
 رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
 وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(٨٧) ﴿وَارْحَمْنَا إِلَى مُوسَى وَآخِيهِ﴾ حين اشتد الأمر على
 قومه من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنهم عن دينهم.
 ﴿أَنْ تَبْوَءَ الْقَوْمَ كَمَا يَبْصُرُونَكَ﴾ أي: مروهم أن يجعلوا لهم
 بيوتاً، يتمكنون [به] من الاستخفاء فيها.
 ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: اجعلوها محلاً تصلون
 فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبيع
 العامة.
 ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فإنها معونة على جميع الأمور، ﴿وَنَشِرِ
 الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم، فإن مع العسر
 يسراً، إن مع العسر يسراً، وحين اشتد الكرب وضاق الأمر،
 فرّجه الله ووسعه، فلما رأى موسى الفسوة والإعراض من
 فرعون وملئه^(١) دعا عليهم، وأمن هارون على دعائه، فقال:
 (٨٨) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً﴾ يزينون بها
 من أنواع الحلي والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب
 الفاخرة، والخدام، ﴿وَأَمْوَالًا﴾ عظيمة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا
 (١) في النسختين: وملتهم، ولعل الصواب ما أثبت.

وهكذا كل مفسد عمل عملاً، واحتال كيداً، أو أتى
 بمكر، فإن عمله سيظل ويضمحل، وإن حصل لعمله رَوْجَانٌ
 في وقت ما، فإن ماله الاضمحلال والمحق.

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى،
 وهي أعمال ووسائل نافعة وأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم
 ويرقيها، وينميها على الدوام، فآلفى موسى عصاه، فنلقف
 جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم، واضمحل باطلهم.

(٨٢) ﴿وَيُخَوِّفُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فالقي
 السحرة سحداً، حين تبين لهم الحق، فتوعدهم فرعون
 بالصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا
 على إيمانهم.

وأما فرعون وملؤه وأتباعهم، فلم يؤمن منهم أحد، بل
 استمروا في طغيانهم يعمهون، ولهذا قال:

(٨٣) ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: شباب من
 بني إسرائيل، صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم
 الإيمان.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ عن دينهم ﴿وَإِنْ
 فِرْعَوْنُ لَمَّالٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له القهر والغلبة فيها، فحقق بهم
 أن يخافوا من بطشه.

﴿وَوَ﴾ خصوصاً ﴿إِنَّهُ﴾ كان ﴿لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي:
 المتجاوزين للحد في البغي والعدوان.

والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من
 قومه، أن الذرية والشباب أقبِلَ للحق، وأسرع له انقياداً،
 بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم -
 بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق
 من غيرهم.

(٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ موصياً لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما
 يستعينون به على ذلك فقال: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَقَوْمُوا
 بوظيفة الإيمان.

﴿فَعَلَوْا تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أي: اعتمدوا عليه، والجأوا
 إليه واستصروه.

(٨٥) ﴿فَقَالُوا﴾ مستتبين لذلك: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
 فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، أو
 يغلبونا فيفتنونا بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما
 غلبوا.

(٨٦) ﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لنسلم من شرهم،
 ولنتقيم [على] ديننا على وجه تتمكن به من إقامة شرائعه،
 وإظهاره من غير معارض، ولا منازع.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢١٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

قَالَ قَدْ أُجِيبَ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَوْسِمُوا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجُوزُوا بِأَنْبِيَإِإِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ
فَاتَّبِعْهُمْ فَرْعُونَ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ
الْعُرْقُوقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَيُّوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنْ كَرِهَإِنِ النَّاسُ عَنِ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَآئِدَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعُرِآنُ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍ مِمَّا زَكَّيْنَا إِلَيْكَ
فَسَلِّ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَةَ وَبِقُرْءَانِ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لِلَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾
إِنَّ إِلَيْكَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرابية أنه لا نفعهم
إيمانهم، لأن إيمانهم صار إيماناً مشاهداً كإيمان من ورد
القيامة، والذي ينعف إنما هو الإيمان بالغيب.
(٩٢) ﴿فَأَيُّوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ قال
المفسرون: إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم
من فرعون، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك. فأمر
الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة بيده، ليكون لهم عبرة
وآية.

﴿وَإِنْ كَرِهَإِنِ النَّاسُ عَنِ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ فلذلك تمر عليهم
وتكرر فلا ينتفعون بها، لعدم إقبالهم عليها.
وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو
أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَآئِدَ صِدْقٍ﴾ أي: أنزلهم الله
واسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم.
﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب وغيرهما

(١) في أ: وجنودهم خلفهم، وفي ب: عدت إلى: وجنوده خلفه.

يُحْسِلُوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على
الإضلال في سبيلك، فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ.

﴿رَبَّنَا آتِنَا عَلَآمَاتِكَ﴾ أي: أنفها عليهم إما بالهلاك،
وإما بجعلها حجارة غير متفبع بها.
﴿وَأَشْدُدْ عَلَآ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قسها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ﴾.

قال ذلك غضباً عليهم، حيث تجرأوا على محارم الله،
وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه،
بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.
(٨٩) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَ دَعْوَتُكُمْ﴾ هذا دليل
على أن موسى [كان] يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، وأن
الذي يؤمن يكون شريكاً للداعي في ذلك الدعاء.

﴿فَاسْتَوْسِمُوا﴾ على دينكما، واستمرا على دعوتكما ﴿وَلَا
تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعان سبيل الجهال
الضالين، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق
الجهنم. فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره
أنهم يُبْعِثُونَ، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين، يقولون:
﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي: موسى وقومه ﴿يَلْزِمُونَ قُلُوبَنَا﴾ وَرَبَّنَا لَنَا
لَعْنَاتُونَ ﴿وَلَا جَمِيعٌ حَٰذِلُونَ﴾.

فجمع جنوده، قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم بجنوده بغياً
وعدواً، أي: خروجهم باغين على موسى وقومه، ومعتدين
في الأرض. وإذا اشتد البغي، واستحكم الذنب، فانتظر
العقوبة.

(٩٠) ﴿وَجُوزُوا بِأَنْبِيَإِإِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ وذلك أن الله أوحى
إلى موسى لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه فضره، فانقلب
إثنى عشر طريقاً، وسلكه بنو إسرائيل. وساق فرعون وجنوده
خلفه^(١) داخلين.

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر، وفرعون
وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالطم على فرعون
وجنوده، فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون.

حتى إذا أدرك فرعون العرق، وجزم بهلاكه ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ وهو الله الإله الحق الذي
لا إله إلا هو ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المتقادين لدين الله،
ولمآ جاء به موسى.

(٩١) قال الله تعالى - مبيناً أن هذا الإيمان في هذه الحالة
غير نافع له - ﴿ءَلَكُنْ﴾ تؤمن، وتقر برسول الله ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ
قَبْلَ﴾ أي: بارزت بالمعاصي، والكفر والتكذيب ﴿وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلا ينعفك الإيمان كما جرت عادة الله، أن

ومن بعده^(١) وكعب الأحبار وغيرهما.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي يتسبون إليه، فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدق، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقا من أولهم لآخروهم^(٢) على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وينهوه. فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعاً واختياراً، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب^(٣).

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياستهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى: كالأفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل. وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً لملكهم، وتمويهاً لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئية الظاهرة.

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال: ﴿بِإِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْكِرِينَ﴾ كقولهم: تعالى: ﴿كَيْفَ أَزِلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صُدُورِهِ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك التكذيب بوجه، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار وهو عدم الربح أصلاً، وذلك بغوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده،

(١) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف، وقد شطبت في ب الجملة التالية، وهي قوله: (وكعب الأحبار وغيرهما). (٢) في النسخين: وآخروهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٣) في ب: أهل الكتاب.

﴿فَمَا اسْتَفْتَلُوا﴾ في الحق ﴿حَقَّ جَاءَهُمُ الْيَقِينُ﴾ الموجب لاجتماعهم واتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يحكمه العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين اللعين.

وإلا فإذا كان ربهم واحداً، ورسولهم واحداً، ودينهم واحداً، ومصلحتهم العامة متفقة، فلا شيء يختلفون اختلافًا يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونفاسهم، فيفوت من مصلحتهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟.

فنسألك اللهم لطفًا بعبادك المؤمنين، يَجْمَعْ شملهم ويرأب صدعهم، ويرُدْ قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

(٩٥، ٩٤) ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَّا الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُنْكَرِينَ﴾ وَلَا تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟

﴿فَتَنَّا الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: أسأل أهل الكتاب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقه لما معهم. فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبا رسول الله وعانده، وردوا عليه دعوته.

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهاناً على صدقه، فكيف يكون ذلك؟ فالجواب عن هذا من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم. وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» [وأصحابه، وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه،

الغيب والشهادة لم تصل إلينا، ولم تدركها أفهامنا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَىٰ يُوسُفُ لَوَنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله:

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مَلَكَةٍ آتِيَةٍ أَوْ نَذِيرَةٍ ۚ فَتَأَنَسُوا فَتُخَسَفُ عَنْهُمْ بَيْتُكَ﴾

ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين، لو ردوا

لعادوا لما نهوا عنه، وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم

سيستمر، [بل قد استمر فعلاً وبنوا عليه^(١)]، والله أعلم.

(٩٦، ١٠٠) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كَافَّةً﴾

أَفَأَنْتَ تُكَذِّرُ الْنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا كَانَتْ تُقْبَلُ أَنْ

تُؤْتِيَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ مَنَّهُ عَلَىٰ النَّاسِ لَآ يَعْصِيُونَ

يقول تعالى لبني محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ

كَافَّةً جَمِيعًا﴾ بأن يلهيهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للنقوى،

فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم

مؤمنين، وبعضهم كافرين.

﴿أَفَأَنْتَ تُكَذِّرُ الْنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تقدر على

ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله^(٢) [على^(٣)] شيء

من ذلك.

﴿وَمَا كَانَتْ تُقْبَلُ أَنْ تُؤْتِيَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بإرادته

ومشيئته، وإذنه القدري الشرعي، فمن كان من الخلق قابلاً

لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهذا.

﴿وَيَجْعَلُ اللَّهُ مَنَّهُ عَلَىٰ الْبَرِّ وَالضَّلَالِ﴾ أي: الشر والضلال ﴿عَلَىٰ النَّاسِ لَآ

يَعْصِيُونَ﴾ عن الله أوامره ونواهيه، ولا يلقون بالاً لنصائحه

ومواعظه.

(١٠١-١٠٣) ﴿فَلْيَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُقْنِي

الْأَنْهَارُ وَالْأَنْهَارُ عَنْ قَوْبٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ

الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَا تُكْمِلُونَ مِنَ الْأَشْيَاءِ ۚ ثُمَّ

نُنَبِّئُكُمْ بِرُسُلِنَا وَالَّذِينَ أَمْسُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْكَ نَجْمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدعو

تعالى عباده إلى النظر لما في السموات والأرض، والمراد

بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها وما تحتوي

عليه، والاستبصار، فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبراً

لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو

الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام.

﴿وَمَا تُقْنِي الْأَنْهَارُ وَالْأَنْهَارُ عَنْ قَوْبٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم لا

ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي:

فهل يتنظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها

﴿إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الهلاك

(١) زيادة من هاشم ب. (٢) في النسختين: غير الله، وكان لا بد من زيادة

اللام لتسقيم العبارة. (٣) زيادة يقتضيها السياق.

فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه علماً وعملاً.

فبذلك يكون العبد من الراغبين الذين أدركوا أجل

المطالب، وأفضل الرغائب، وأتم المناقب، وانفض عنهم

الخسار.

(٩٦، ٩٧) ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَآ

يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يقول

تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: إنهم من

الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله

وقضاه، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، فلا تزيدهم الآيات

إلا طغياناً، وعياً إلى غيهم، وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا

أنفسهم بدهم للحق لما جاءهم أول مرة، فاعقبتهم الله بأن طبع

على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا

العذاب الأليم الذي وعدوا به.

فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن

ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي

عليهم إيمانهم شيئاً، فيؤمنون لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم،

ولا هم يستعذبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى

السمع وهو شهيد.

(٩٨) ﴿قُلْ لَّكَ كَذِبَةٌ أُمَمٌ أَمَسَتْ فَتَنَعَهَا يُبْهِنُهَا إِلَّا قَوْمُ يُوسُفَ لَمَّا

أَمْسُوا كَتَفَتْ عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعَهُمْ إِنْ جِئَ

يقول تعالى: ﴿قُلْ لَّكَ كَذِبَةٌ أُمَمٌ أَمَسَتْ فَتَنَعَهَا يُبْهِنُهَا﴾ من قرى المكذبين ﴿أَمَسَتْ﴾

حين رأت العذاب ﴿فَتَنَعَهَا يُبْهِنُهَا﴾ أي: لم يكن منهم أحد

انتفع بإيمانه حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما

تقدم قريباً، لما قال: ﴿أَمَسَتْ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي أَمَسَتْ يَدُ رَبِّكَ

إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقبل له: ﴿مَالَتْكَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ

وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿قُلْنَا رَأَوْنَا بَأْسًا بَاقِلًا أَمَسْنَا يَدَهُ وَحَدِّدْ

وَكُفِّرْنَا يَمًا كَمَا يَدُ مُشْرِكِينَ ۚ قُلْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيصْنَهُمْ لَمَّا رَأَوْا

بَأْسًا سَأَلَ اللَّهُ إِلَهِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإن الإيمان الاضطراري ليس

بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره

إلى الإيمان، لرجع إلى الكفران.

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمُ يُوسُفَ لَمَّا أَمْسُوا﴾ بعدما رأوا العذاب

﴿كَتَفَتْ عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعَهُمْ إِنْ جِئَ﴾ فهم

مستثنون من العموم السابق. ولا بد لذلك من حكمة لعالم

والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ السَّاطِرِينَ﴾ فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسول وأتباعهم.

ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نَتَجَّى رُسُلَنَا بِالزَّيْتِ وَأَنشَأْنَا مِنْ مَّكَارِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَشَدَدْنَاهُمَا.

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿شُحِّيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه - بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من المكاره.

(١٠٤-١٠٦) ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ إِلَهَ إِلَّا رَبِّي عَبْدٌ لِّمَن لَّدُنِّي اللَّهُ وَلَٰكِن أَتَّبِعُ إِلَهَ الَّذِي يَتَّبِعُنِي وَيَزِيدُنِي أَكُونَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۚ وَإِنِ أَقْبَرُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ، سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموفقين:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي﴾ أي: في ريب واشتباه، فإني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة. ولهذا قال: ﴿فَلَا أَعْبُدُ إِلَهَ إِلَّا رَبِّي عَبْدٌ لِّمَن لَّدُنِّي اللَّهُ﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿وَلَٰكِن أَتَّبِعُ إِلَهَ الَّذِي يَتَّبِعُنِي﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يمتككم ثم يعثكم، ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويخضع ويسجد.

﴿وَأَزِيدُنِي أَكُونَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۚ وَإِنِ أَقْبَرُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار، هو الله تعالى.

﴿إِن فَعَلْتَ﴾ بأن^(١) دعوت من دون الله ما لا ينفك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها. وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله

فَلَا كَانَتْ قَرِينَةً ۖ أَمَنَّا فَتَنَعْنَاهَا مِن بَيْنِهَا أَلَّا قَوْمٌ يُّؤْسَ لَهَا ۖ أَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَافِلِي الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعَنَّا لَهُمُ إِلَىٰ حِينٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۖ فَأَنَّا تَكْرِهُ النَّاسُ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّخْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۚ قُلْ إِنظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطَىٰ الْآيَاتِ ۚ وَالتَّذَرُّعُ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ السَّاطِرِينَ ۚ ثُمَّ نَتَجَّى رُسُلَنَا بِالزَّيْتِ وَأَنشَأْنَا حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْغَائِبِينَ ۚ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ إِلَهَ إِلَّا رَبِّي عَبْدٌ لِّمَن لَّدُنِّي اللَّهُ وَلَٰكِن أَتَّبِعُ إِلَهَ الَّذِي يَتَّبِعُنِي وَيَزِيدُنِي أَكُونَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۚ وَإِنِ أَقْبَرُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَّ الظَّالِمِينَ ۚ

غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره ١٩.

(١٠٧) ﴿وَإِن يَسْتَسْأَلِ اللَّهُ بِضَرْفٍ فَلَا كَافٍ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ رَبَّكَ بِمَعْرِفَةٍ فَلَا رَافِعَ لِقَضَائِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مسَّ بضر: كفقر ومرض، ونحوها ﴿فَلَا كَافٍ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفخوا بشيء لم ينفخوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يردده الله.

ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ بِمَعْرِفَةٍ فَلَا رَافِعَ لِقَضَائِهِ﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنصَحُ اللَّهُ لِقَائِهِمْ فَلَا يُشِيبُ لَهُمْ وَمَا يُشِيبُ لَهُمْ فَلَا يُشِيبُ لَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ﴾.

﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لجميع

وَأَن يَسْتَسْكِنَ إِلَهُهُ يُصْرَفَ فَلَا يَكْشِفُ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ خَيْرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّكُوبُ أَحْكَمْتُ أَيْنَهُ ثُمَّ فُضِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِن تَسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُؤْبَئُونَ إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُؤْتُونَ
كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
يَلْمِزُونَ صُدُّوهُمْ لَيْسَتْ حَقُوقُهُمْ إِلَّا الْآجِلِينَ يَتَسَفَّهُونَ شَيْئًا يَهُرَّ
بِعِلْمٍ مَا يُبْشِرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الضُّلُوفِ ﴿٥﴾

بالسيف والشنان بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان.
فله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته
وكماله وسعة إحسانه.
تم تفسير سورة يونس - والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿الرَّكُوبُ أَحْكَمْتُ أَيْنَهُ ثُمَّ فُضِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ
○ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ○ وَإِن تَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
تُؤْتُوا إِلَيْهِ بِمِيزَانٍ حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُؤْتُونَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ
وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ○ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ ○ يقول تعالى: هذا ﴿كَتَبْتُ﴾ عظيم، ونزل كريم
﴿أَحْكَمْتُ أَيْنَهُ﴾ أي: اتقنت وأحسن، صادقة أخبارها،

الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها
العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها.
﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسَّعت رحمته كل شيء، ووصل جوده
إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة
عين. فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد
بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات
والكرابات، وأن أحدًا من الخلق ليس بيده من هذا شيء إلا ما
أجره الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من
دونه هو الباطل.

ولهذا، لما بين الدليل الواضح قال بعده:

(١٠٨، ١٠٩) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ○ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ○ أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، لما تبين البرهان
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: الخبر الصادق
المؤيد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو
واصل إليكم من ربكم، الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل
إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع
الأحكام والمطالب الإلهية، والأخلاق المرضية، ما فيه
أعظم تربية لكم وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغي،
ولم يبق لأحد شبهة.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بهدى الله: بأن علم الحق ونفهمه، وآثره
على غيره فلفسه والله تعالى غني عن عبادته، وإنما ثمره
أعمالهم راجعة إليهم.
﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو
عن العمل به، ﴿فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ولا يضر الله شيئًا، فلا يضر
إلا نفسه.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فاحفظ أعمالكم وأحاسبكم
عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل. فانظروا
لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.
﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ علمًا وعملاً
وحالًا، ودعوة إليه، ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى
أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل
دُم على ذلك واثبت، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بينك وبين من كذبك
﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام،
والقسط الذي يحمده عليه.

وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم،
حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه

عادلة أو امرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بهية معانيه.

﴿ثُمَّ صُفِّتْ﴾ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿وَمِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويزنّها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ﴿حَكِيمٍ﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة، وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه ﴿لَّا تَنبَذُهَا وَلَا يَأْتِيَنَّهَا﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كلّهُ، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿إِنِّي لَكُرٌّ﴾ أيها الناس ﴿مِنْهُ﴾ أي: من الله ريبكم ﴿ذَرِّهُ﴾ لمن تجرأ على المعاصي، بعقاب الدنيا والآخرة ﴿وَيَذَرُّهُ﴾ للمطيعين لله، بثواب الدنيا والآخرة.

﴿وَلَا أَسْأَلُكُمْ رِزْقًا﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُؤْتَوْنَ بِهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يَمُنُّكُمْ ثَمَنًا حَسَنًا﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتشفعون. ﴿إِلَّا أَجَلَ مُسَكَّرٍ﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِيَنَّكُمْ مِنْكُمْ﴾ كل ذي فضلٍ ﴿فَضْلًا﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿وَلَا تَزُولُ﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فَلَا تَأْتِيَنَّكُمْ عَلَيْهِ عَذَابٌ يَؤُرُّ كَبِيرٌ﴾ وهو يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وفي قوله: ﴿وَمَوْعِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء^(١)، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلًا ونقلًا.

(٥) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ سُجُودَهُمْ لِيَسْتَعْفِفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّ يَسْتَعَفُونَ بِيَأْهُمْ يَلْعَنَ مَا يُمِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يذات الصدور يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم أنهم ﴿يَنْتَوُونَ سُجُودَهُمْ﴾ أي: يميلونها ﴿لِيَسْتَعْفِفُوا﴾ من الله، فتقع صدورهم حاجة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهياتهم.

قال تعالى - مبيّنًا خطأهم في هذا الظن - ﴿أَلَا جِنَّ يَسْتَعَفُونَ بِيَأْهُمْ﴾ أي يغطون بها، يعلمهم في تلك الحال التي هي من أخفى الأشياء.

بل ﴿يَلْعَنُ مَا يُمِرُّونَ﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إِنَّمَا عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من الإرادات، والوساوس، والأفكار التي لم ينظروا بها، سرًا ولا جهراً، فكيف تخفى عليه حالكم، إذا ثبتم صدوركم لتستخفوا منه.

ويحتمل أن المعنى في هذا، أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول، الغافلين عن دعوته، أنهم - من شدة إعراضهم - ﴿يَنْتَوُونَ سُجُودَهُمْ﴾ أي: يحدودون، حين يرون الرسول ﷺ لتلا يراهم، ويسمعهم دعوته، ويعظمهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء؟!

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

(٦) ﴿وَمَا يَنْ دَاخِرَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَرْزُقُهَا وَيَعْلَمُ سُتُورَهَا﴾ أي: جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي أو حيوان بري أو بحري، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها^(٢) على الله.

﴿وَيَعْلَمُ سُتُورَهَا﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه، وتستقر فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها.

﴿كُلٌّ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السموات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه. فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علمًا بذواتها، وصفاتها.

(٨، ٧) ﴿يَعْلَمُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَلْعَنُكُمْ إِنَّكُمْ أَنتُمْ عَمَلٌ وَلَيْتَ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ بَعْدِ الْقَوْلِ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَلَيْتَ أَخْرَأَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِنَّ آتَهُ مُعَذِّبُهُمْ مَا يَحْسَبُونَ﴾ أي: يوم تأتيهم تلك مصروفًا عنهم وتلك بهم ما كانوا يهملون. يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿وَوُجِدَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كان عرشه على الماء فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السموات والأرض، استوى عليه، يدبر

(١) في ب: فاته على كل شيء قدير. (٢) في ب: فرزقهم.

الأمور، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة.

ولهذا قال: ﴿يَلْبِسْكُمْ أَتُكْمَ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي: ليجتحنكم، إذ خلق لكم ما في السموات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أخلصه وأصوبه».

قيل: يا أبا علي: «ما أخلصه وأصوبه»؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يقبل. وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتَنَزَّلُ فِيهَا فِي لَيْلٍ مِّنْهَا أَنزَلَ الْقُرْآنَ فِي سَبْعِ آيَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فالله تعالى خلق الخلق لعبادته، ومعرفته بأسماؤه وصفاته، وأمرهم بذلك. فمن اتقاد وأدى ما أمر به، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿وَلَيْتَ كُنْتُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْرَءِيلُ﴾.

أي: ولئن قلت لهؤلاء، وأخبرتكم بالبعث بعد الموت، لم يصدقوك، بل كذبوك أشد الكذب^(١)، وقدحوا فيما جنت به، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْرَءِيلُ﴾ ألا وهو الحق المبين.

﴿وَلَيْتَ أَخْرَأَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِنَّكُم مَّتَدَوِّدُونَ﴾ أي: إلى وقت مقدر فبإطائه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً، على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ (لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) فيتمكنون من النظر في أمرهم.

﴿وَحَافٍ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

(٩-١١) ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنَّا إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا﴾. ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأِهِ مَسْئَةً لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجِّى فَوْقَ﴾ إلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا

﴿وَمِمَّنْ دَاخِلُنَا الْأَرْضُ لَأَعْلَىٰ لَدُنَّ رَبُّهَا وَعِبَاءٌ مِّنْهُمَا لَئِنْ أَفْتَحْنَا مِنَ الْغَمِّ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨) ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنَّا إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا﴾ (٩) ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأِهِ مَسْئَةً لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجِّى فَوْقَ﴾ (١٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١) ﴿فَلَمَّا كُنَا فِي مَنَازِلِنَا بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَائِقُهَا يَصُدُّكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢)

الْقَلْبِ لَيَأْتِيكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم، بأن الله إذا أذاقه منه رحمة، كالصحة والرزق والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزاعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلاً أو خيراً منها عليه.

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجِّى فَوْقَ﴾ أي: فرح^(٢) بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدراؤهم، وأي عيب أشد من هذا؟.

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم يياسوا، وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

(١) كذا في ب، وفي أ: أشد الكذب. (٢) في ب: يفرح.

كان القدر لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيئ صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للدلالة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب.

وفيها أن هذا القرآن معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

(١٦، ١٥) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَصْلَافَهَا فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْخَرُونَ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحِطَّ مَا صَبَّحُوا فِيهَا وَيَكْفُلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة، من الذهب، والفضة، والخيول المسومة، والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً، فهذا لا يكون إلا كافراً، لأنه لو كان مؤمناً لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تسر له من الأعمال، أثر من آثار إرادته الدار الآخرة.

ولكن هذا الشقي الذي كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿فَوَقَّ إِلَيْهِمْ أَصْلَافَهَا فِيهَا﴾ أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْخَرُونَ﴾ أي: لا ينقصون شيئاً مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعمهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ﴾ خالدين فيها أبداً، لا يفتّر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب.

﴿وَحِطَّ مَا صَبَّحُوا فِيهَا﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

(١٧) ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْرَافٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُو سَاحِدَ مِنْهُ وَمِنْ بَيْنِهِ كِتَابٌ مُوحًى إِيَّاهُ وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ

(١) في ب: أي أنه قد افترأ. (٢) في ب: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ من عند الله. والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور ﴿وَأَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ وهو الفوز بجنتا النعيم التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين.

(١٢-١٤) ﴿فَلَمَّا كَانَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافٍ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ كَثْرًا أَوْ جَاءَتْهُ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ أَنْزِلَ بِهِ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۚ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَنزِلُوا بَعْثِرْ سُورَ وَتِلْكَ مَفْتَرِيَّتِي وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ بَيْنَ دُونِ اللَّهِ إِنْ كَثُرَ سَيِّئُونَ ۚ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قُلْ أَنْتُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ يقول تعالى - مسلماً لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين - : ﴿فَلَمَّا كَانَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافٍ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾ أي: لا ينبغي هذا للملك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدك عما أنت عليه، فترك بعض ما يوحي إليك، ويضيئ صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ كَثْرًا أَوْ جَاءَتْهُ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ﴾. فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة. فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه، ولا يرضى لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً يؤثر فيه، وينقص قدره، فيضيئ صدرك لذلك؟

أم عليك حسابهم، ومطالب بهدياتهم جبراً؟ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: افترى محمد هذا القرآن؟

فاجابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَأَنزِلُوا بَعْثِرْ سُورَ وَتِلْكَ مَفْتَرِيَّتِي وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ بَيْنَ دُونِ اللَّهِ إِنْ كَثُرَ سَيِّئُونَ﴾ أنه قد افترأ^(١)، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ على شيء من ذلكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [من عند الله^(٢)]، لقيام الدليل والمقتضى، وانتفاء المعارض.

﴿وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للألوهية والعبادة ﴿قُلْ أَنْتُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ أي: متقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصد اعتراض المعارضين، ولا قدح القادحين، خصوصاً إذا

﴿٢٢﴾

٢٢٣

﴿٢٢﴾

أَمْ يَقُولُونَ أَفَمَن نُّؤْتِيهِ مَالًا فَتَأْتِيَ سُرُورًا عَلَيْهِ مُقْتَرِنِينَ
وَأَدْعُوا مِن آسَاطِينِهِمْ مِن دُونِ اللَّهِ أَن كُنْتَ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾
فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم بِاللَّهِ وَأَن لِّلَّهِ
الْأُكُوفُ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٤﴾ مَن كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
﴿٢٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ أَفَمَن كَانَ
عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ يُدْعَى بِشَهِيدَتِهِ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ
مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ الْأَخْرَابِ فَلَنَارُ مَوْعِدَةٌ فَلَا تَنفِكُ فِي مَرْيَمَ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَمِن
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ ؕ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٩﴾

الناس ظلماً ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ليجازيهم
بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿يَقُولُ
الْأَشْهَدُ﴾ أي: الذين شهدوا عليهم بافترانهم وكذبهم:
﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ؕ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾
أي: لعنة لا تقطع، لأن ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا
يقبل التخفيف.

ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فصدوا
بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعا الناس
إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.
﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: يجتهدون في
ميلها، وتشيينها، وتهجينها، لتصير عند الناس غير مستقيمة،
فيحسنون الباطل ويقبحون الحق، فبجحهم الله ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُجِيبِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليسوا فائتين الله،
لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه.

مِنَ الْأَخْرَابِ فَلَنَارُ مَوْعِدَةٌ فَلَا تَنفِكُ فِي مَرْيَمَ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ يذكر تعالى حال رسوله
محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدنيه، وحججه
الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد
مثلهم، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بالوحي الذي
أنزل ﴿٢٧﴾ الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك
البينة.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٌ
بَيْنَهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين
شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد
بذلك إيماناً إلى إيمانه.

﴿و﴾ ثُمَّ شَهِدَ ثَالِثٌ وَهُوَ ﴿يَكْتُمُ مَوْثِقَ﴾ التوراة التي
جعلها الله ﴿إِمَامًا﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن
بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق.

أي: أقمن كان بهذا الوصف، قد تواردت عليه شواهد
الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات
والجهالات ليس بخارج منها؟!

لا يستون عند الله، ولا عند عباد الله ﴿أُولَئِكَ﴾ أي:
الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن حقيقة،
فيشر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: القرآن ﴿مِنَ الْأَخْرَابِ﴾ أي: سائر
طوائف أهل الأرض، المتحيزة على رد الحق ﴿وَالنَّاسُ
مَوْعِدُونَ﴾ لا بد من وروده إليها ﴿فَلَا تَنفِكُ فِي مَرْيَمَ إِنَّهُ﴾ أي: في
أدنى شك ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلاماً وعناداً وبعياً،
ولا فمن كان قصده حسناً، وفهمه مستقيماً، فلا بد أن يؤمن
به، لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

(٢٢-٢٨) ﴿وَمِنَ الْأَظْلَمِ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ
يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ ؕ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُجِيبِينَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ فِي دُونِ اللَّهِ مِمَّنْ أُولَئِكَ يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا
كَانُوا يَسْتَبِيلُونَ أَلَسَمَعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ ﴿٢٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٩﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْخَاسِرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أو
يدخل في هذا كل من كذب على الله، بنسبة الشريك له، أو
وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو
ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهو لاء أعظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٤

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَعْجُونٌ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُ لَهُمْ دُونَ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَضَعُ لَهُمُ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ لَأَجْمَعُنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْنَى وَالْأَصْنَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٩﴾ فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرِيدُ إِلَّا لَابَسْرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَادُوا بِكَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبُوتَ مِنْ رَبِّي وَهِيَ النَّارُ رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَا مَكُوهًا وَأَنْزَلْنَا كُرْهُوْنَ ﴿٣١﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فيدفعون عنهم المكروه، أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب.

﴿يَضَعُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ أي: يغلظ ويزداد، لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أي: من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعًا ينتفعون به ﴿فَمَا كَانَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعْرِضٍ﴾ كَانَهُمْ حُزْرٌ مُشْتَقِرٌّ ﴿فَرَّقَ مِنْ قَسْوَتِهِمْ﴾، ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ينظرون نظر عيرة وتفكر، فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم والبكم الذين لا يعقلون.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب، ﴿وَسَخَّرَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله، لما جاء أمر ربك.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا وصدقًا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده، لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، نستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء، ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب، فقال:

(٢٣، ٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْنَى وَالْأَصْنَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم، أي: صدقوا واعترفوا، لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان، ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأتابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبًا إلا أدركوه، ولا خيرًا إلا سبقوا إليه.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: فريق الأشقياء وفريق السعداء ﴿كَالْأَعْنَى وَالْأَصْنَى﴾ هؤلاء الأشقياء ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ مثل السعداء.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ لا يستوون مَثَلًا، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعمال التي تنفعكم

فتضلونها، والأعمال التي تضركم فتتركونها.

(٢٥-٢٩) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

إلى آخر القصة^(١). أي: ولقد أرسلنا رسولنا نوحًا أول المرسلين ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال لهم: ﴿إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: بينت لكم ما أنذرتكم به بيانًا زال به الإشكال.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واركعوا كل ما عبد من دون الله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إن لم تقوموا بتوحيد الله، وتطيعوني.

(٢٧) ﴿فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الأشراف والرؤساء، رادين لدعوة نوح عليه السلام، كما جرت العادة لأمثالهم، أنهم أول من رد دعوة المرسلين.

﴿مَا تَرِيدُ إِلَّا لَابَسْرًا مِثْلَنَا﴾ وهذا مانع - بزعمهم - عن اتباعه، مع أنه - في نفس الأمر - هو الصواب الذي لا ينغي غيرهِ، لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل

(١) في: ب. أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أمر، بخلاف الملائكة.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِأَعْلَىٰ أَلْيَتِكَ إِلَّا إِلَٰهٌ لِّكَ هُمُ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: ما نرى اتباعك منا إلا الأراذل والسفلة برعهم.

وهم - في الحقيقة - الأشراف وأهل العقول الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم الملا، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون لها، فهل ترى أراذل من هؤلاء وأخس؟.

وقولهم: ﴿يَا دَاوُدَ الرَّأْيِي﴾ أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الأبواب يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمر الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: لستم أفضل منا فتناقد لكم ﴿بَلْ نَطَّلِعُكُمْ كَذِبَاتٍ﴾ وكذبوا في قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح مجابوا: ﴿يَقُولُ زَمَرًا إِنَّ كُتُوبَكَ يُنَزَّلُ مِن رَّبِّي﴾ أي: على يقين وجزم، يعني وهو الرسول الكامل القدوة، الذي يتقاده له أولو الأبواب، ويضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقًا، فإذا قال: إني على بينة من ربي، فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقًا.

﴿وَالَّذِي رَحِمَهُ رَبِّي﴾ أي: أوحى إلي وأرسلني، ومن علي بالهداية، ﴿فَقَبِلْتُ عَلَيْكُمُ﴾ أي: خفيت عليكم، وبها تناقلتكم.

﴿الَّذِينَ كُفِّرُوا﴾ أي: أنكرهمكم على ما تحققتاه، وشككتهم أنتم فيه؟ ﴿وَأَنْتُمْ تَهَا كُفِّرُونُ﴾ حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا صاذاً لنا عما كنا عليه.

وإنما غاية أن يكون صاذاً لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا تقدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كُفِّرُوا وَأَنْتُمْ تَهَا كُفِّرُونُ﴾.

﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على دعوتي إياكم ﴿مَالًا﴾ فستستقلون المغرم.

﴿إِنْ لَّيْسَ لِي بَدَلٌ مِّمَّنْ بَدَّلَ رَبِّي إِلَٰهًا بِمِثْلِ الَّذِي بَدَّلَنِي﴾ وكانهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْفَاقًا وَاحِدًا﴾ فمسيهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم.

﴿وَلَكِنَّكَ أَنْتَ كَرِيمٌ قَوِيمٌ﴾ حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدلتهم على بطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِبَصِيرَةِ رَبِّكَ﴾ أي: من يمنعني من عذابه، فإن طردهم موجب للعذاب والنعكاس الذي لا يمنعه من دون الله مانع.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو الأنفع لكم والأصلح، وتدبرون الأمور.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: غايتي أني رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وأما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي من أشاء وأحرم من أشاء ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ فأخبركم بسرائركم وبواطنكم ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ والمعنى: أني لا ادعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَوَّجْتُمْ أَيْسَرُكُمْ﴾ أي: ضعفاء المؤمنين الذين يحترقهم الملا الذين كفروا: ﴿لَنْ يُؤْمِنَهُمْ اللَّهُ حَتَّىٰ اللَّهُ أَعْلَمَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.

﴿إِنِّي إِذًا﴾ أي: إن قلت لكم شيئاً مما تقدم ﴿لَيَكُنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تأيس منه عليه الصلاة والسلام لقومه، أن ينبد فقراء المؤمنين أو يمتنعهم، وتقنع لقومه بالطرق المقنعة للمنتصف.

فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قَالُوا يَنْتَهِ عَنْ جَدَلِنَا فَأَصْحَرْتَ جَدَلَنَا فَأَنَّا بِمَا نَبْذُلُكَ مِنَ الْعَذَابِ﴾ إن كنت من الضعيفين، فما أجهلهم وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح، فلهذا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشفقت علينا، ودعوتنا إلى أمر لم يبين لنا فريد منك أن تبينه لنا لتناقد لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك، لكان هذا الجواب المنتصف، الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون،

وعلى نبيهم متجروون، ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة، فضلاً عن أن يردوه بحجة.

ولهذا عدلوا - من جهلهم وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم، فعل ذلك ﴿وَمَا أَشْرَ بِمُعْجِزٍ﴾ الله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿وَلَا يَنْفَعُكَ نَصْحِي إِنِ ارْتَدْتَ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ﴾ إن كان الله يريد أن يغيوكم: أي: إن إرادة الله غالبة، فإنه إذا أراد أن يغيوكم لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك بنافع لكم شيئاً ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد ﴿وَلَا يَبْرَأُ تَرْجِعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون: افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي افْتَرَيْتُ مَعَكُمْ إِجْرِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ﴾ أي: كل عليه وزره ﴿وَلَا تُؤْذُوا وَكَذَّبُوا وَذُفِّرُوا كُرْهُنَّ﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصتها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ﴾ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فيذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنِّي افْتَرَيْتُ مَعَكُمْ إِجْرِي﴾ أي: ذنبي وكذبي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ﴾ أي: فلم تستلجوا في تكذبي.

وقوله: ﴿وَأَرْجِعْ إِلَىٰ نَوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمَرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ أي: قد فسوا ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: فلا تحزن، ولا تبال بهم وبأفعالهم، فإن الله قد مقنتهم، وأحق عليهم عذابه الذي لا يرد. ﴿وَاصْنَعِ الْفُلَكَ وَأَعْيِنَا وَنَحْنُ﴾ أي: بحفظنا، ومرأى منا،

وَيَقُولُوا لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّهُمْ مُّلتَمُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنْ آتَاكُمْ قَوْمًا يَجْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَقُولُوا مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا يَنْتَوِيحُ قَدْ جَدْنَا لَنَا مَا كَثُرَتْ حِدَانَا فَأَيْنَا بِمَا تَدْعُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنِ ارْتَدْتَ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ قُلْ إِنِّي افْتَرَيْتُ مَعَكُمْ إِجْرِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ ﴿٣١﴾ وَأَرْجِعْ إِلَىٰ نَوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمَرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٢﴾ وَاصْنَعِ الْفُلَكَ وَأَعْيِنَا وَنَحْنُ وَاصْنَعِ الْفُلَكَ وَأَعْيِنَا وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَهُهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٣﴾

وعلى مرضاتنا ﴿وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تراجعي في إهلاكهم ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ أي: قد حق عليهم القول، ونفذ فيهم القدر.

فامتثل أمر ربه، وجعل يصنع الفلك ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ ورواها ما يصنع ﴿سَخَرُوا مِنْهُ قَالُوا إِن سَخَرُوا مِنْهُ الْآنَ﴾ ﴿فَمَا سَخَّرَ مِنْكُمْ كَمَا سَخَرُوا﴾ ﴿تَوَفَّوْا تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّثِيرٌ﴾ نحن أم أنتم، وقد علموا ذلك حين حل بهم العقاب.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: قدرنا بوقت نزول العذاب بهم ﴿وَوَكَرَ النَّفُورُ﴾ أي: أنزل الله السماء بالماء المنهمر، وفجر الأرض كلها عيوناً حتى التنائير التي هي محل النار في العادة، وأبعد ما يكون عن الماء، تفجرت، فالتقى الماء على أمر قد قدر.

﴿فَلَمَّا﴾ لنوح: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَمٍّ وَنَجَّى أَنْتَيْنِ﴾ أي: من كل صنف من أصناف المخلوقات، ذكر وأنثى، لتبقى مادة سائر الأجناس، وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين، فلأن السفينة لا تطيق حملها ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾

ممن كان كافراً، كابنه الذي غرق.

﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ﴿مَأْمُونٌ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿وَقَالَ﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمِيعُهَا وَطَرَسُهَا﴾ أي: تجري على اسم الله، وترسو على اسم الله، وتجري بتسخيره وأمره.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث غفر لنا ورحمنا، ونجانا من القوم الظالمين.

ثم وصف جرياتها كأنها نشاهدها فقال: ﴿وَيَوْمَ تَجْرَى بِهِمْ﴾ أي: بنوح ومن ركب معه ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ والله حافظها وحافظ أهلها ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ لما ركب، ليركب معه ﴿وَنَادَى﴾ ابنه ﴿فِي مَوْجٍ﴾ عنهم حين ركبوا، أي: مبتعداً وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿يَبْنَؤُكَ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ فيصيبك ما يصيبهم.

﴿فَقَالَ﴾ ابنه مكذباً لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب معه السفينة.

﴿سَوَاءٌ لَّيَّ جَبَلٍ يَعْصِي أَمْرًا﴾ أي: سأرتقي جبلاً، أمتنع به من الماء، ﴿فَقَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ فلا يعصم أحداً جبل ولا غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب، لما نجا إن لم ينجه الله ﴿وَقَالَ﴾ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ الْابْنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

فلما أغرقهم الله، ونجى نوحاً ومن معه ﴿وَقِيلَ يٰأَرْضُ اابْلِي مَاءَكَ﴾ الذي خرج منك، والذي نزل إليك، أي: ابلعي الماء الذي على وجهك ﴿وَنَسَسَاءُ أَيْبِي﴾ فامتثلنا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماها، وأقلعت السماء، فغُطِب الماء من الأرض ﴿وَقِيلَ الْاَمْرُ﴾ بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

﴿وَأَسْوَوْتُ﴾ السفينة ﴿عَلَى الْاَمْرِ﴾ أي: أرسيت على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: أتبعوا بعد هلاكهم لعنة وبعداً وسحقاً لا يزال معهم.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ أي: وقد قلت لي: ﴿فَأَجِبْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ولن تخلف ما وعدتني به.

لعله عليه الصلاة والسلام حملته الشفقة، وأن الله وعده بنجاة أهله، ظن أن الوعد لعمومهم، من آمن ومن لم يؤمن، فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء، ومع هذا ففوض الأمر لحكمة الله البالغة.

﴿فَقَالَ﴾ الله له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدتكم بإنجائهم ﴿إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَرِضٌ سَلِيلٌ﴾ أي: هذا الدعاء الذي دعوت

الْبَاقِي

٢٢٦

الْبَاقِي

وَصَنَعَ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٢٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْزِيلُ فَذَلَّلْنَا بِهَيْبَتِنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَاءَ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمِيعُهَا وَطَرَسُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ وَجَرَى بِهَيْمَةٍ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَؤُكَ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ سَوَاءٌ لَّيَّ جَبَلٍ يَعْصِي أَمْرًا الْمَاءُ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ يٰأَرْضُ اابْلِي مَاءَكَ وَنَسَسَاءُ أَيْبِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْوَوْتُ عَلَى الْاَمْرِ وَوَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٣٥﴾

به، لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله.

﴿فَلَا تَسْتَأْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ما لا تعلم عاقبه وماله، وهل يكون خيراً أو غير خير.

﴿إِنِّي أَظُنُّكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أنني أعظمك وعظماً تكون به من الكاملين، وتتجو به من صفات الجاهلين.

فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه و ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ إِنَّ أَصْنَفَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْيِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَائِرِينَ﴾.

فبالعفوة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين، ودل هذا على أن نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم، داخل في قوله: ﴿وَلَا تُخَيِّبْنِي فِي الْأَمْرِ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مُقْرَّبُونَ﴾ بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾.

وبعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم، والمراجعة فيهم.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٢٧

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿قَالَ يَنْتُحِ أَيُّظَ بَسَلْتُمْ بِنَا وَبَرَكْتَ عَلَيْكَ وَكَانَ أَمْرُ مَنْ
تَمَلَّكَ﴾ من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه،
فبارك الله في الجميع، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها.
﴿وَأَمْسَ سَمِعْتُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يَسْمَعُهُمُ بِنَا عَذَابُ الْيَوْمِ﴾
أي: هذا الإنقاذ ليس يمنع لنا من أن من كفر بعد ذلك،
أحللنا به العقاب، وإن منعوا قليلاً، فسيوخذون بعد ذلك.
قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة
المبسوطة التي لا يعلمها إلا من من عليه برسالته.
﴿يُنَادِيكَ مِنْ أَبْنَاءِ الْغَيْبِ تَوْجِيهاً إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ فيقولوا: إنه كان يعلمها، فاحمد الله واشكره،
واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم، والصراف
المستقيم، والدعوة إلى الله ﴿إِنَّ الْغَيْبَ لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ
يَتَّقُونَ الشُّرَكَ وَسَائِرَ الْمَعَاصِي، فستكون لك العاقبة على
قَوْمِكَ، كما كانت لنوح على قومه.
(٥٠-٦٠) ﴿وَإِلَى عَالَمٍ خَافَ وَهُدًى﴾ إلى آخر القصة (١). أي:
﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ﴾ وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف،
من أرض اليمن ﴿أَنَامُ﴾ في النسب ﴿هُوَ﴾ ليتمكنوا من
الآخذ عنه والعلم بصدقه.
﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ ﴿يَقُولُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ
أُنْتُمْ إِلَّا مُنْذَرُونَ﴾ أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما
هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله
الكلب في عبادتهم لغيره، وتجوزهم لذلك، ووضح لهم
وجوب عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه.
ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال: ﴿يَقُولُوا لَا
أُشْكِرُ عَلَيْكَ أَجْرًا﴾ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم
إليه، فقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أَدْعُوكُمْ
وأعلمكم مجاناً.
﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ ما أَدْعُوكُمْ
إليه، وأنه موجب لقبوله، مُتَّبِعِ المانع عن رده.
﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عما مضى منكم ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾
فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإجابة إلى الله تعالى.
فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾
بكثرة الأمطار التي تخبص بها الأرض، ويكثر خيرها.
﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس،
ولهذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ فوعدهم أنهم إن آمنوا
زادهم قوة إلى قوتهم.
﴿وَلَا تَزُولُ﴾ عنه، أي: عن ربكم ﴿يَجْرِمُونَ﴾ أي:
مستكبرين عن عبادته، متجرئين على محارمه.

﴿فَقَالُوا﴾ رادين لقوله: ﴿يَقُولُوا مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ إن كان
قصدهم بالبينة، البينة التي يقرحونها، فهذه غير لازمة للحق،
بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن
كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة، فقد
كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي لقومه إلا وبعث الله على يديه
من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.
ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله
وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل،
والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش
والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه
السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم،
لكفى بها آيات وأدلة على صدقه.
بل أهل العقول وأولو الألباب يرون أن هذه الآية أكبر من
مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس، هي المعجزات فقط،
ومن آياته وبيناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِنَا يُقَاتِلُونَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرِكَ بِعَصَى الْهَيْتَا يَسْمُوعُ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُنِي
جَمِيعًا ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا
مِنْ دَآئِبَةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِي إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
﴿٥٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَنَسْتَخْلِفُ
رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ
﴿٥٤﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٥﴾ وَذَلِكَ عَادٌ جَعَلُوا بَنَاتِنَا
رَبِّهِنَّ وَعَصَوْنَا أُمَّهَاتَهُنَّ فَزَكَّيْنَا أَفْئِدَهُنَّ فَأَنبَغِيْنَهُنَّ وَأَنبَغُوا
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَهُ وَبِئْسَ الْفَقِيمَةُ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا
بَعْدَ الْإِعَادِ قَوْمٌ هُودٌ ﴿٥٦﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ
يَعْقُوبُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَ مِنْكُمُ الْإِنْسَانَ
وَأَسْتَعْمَرَ كُرْسِيَهَا فَنَاسَخَهَا وَتَعْلَمُونَ وَلَقَدْ أَنبَأْنَا رَفِيْقًا قَبِيْثًا
﴿٥٧﴾ قَالُوا لَا يَصْلُحُ فَذَكَرْنَا فِيْمَا رَمَحُوا قَبْلَ هَذَا أَنْتَهُنَا أَنْ
تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَكِنِّي شَاكٍ وَمِمَّا تَدْعُونَا إِلَهُ مَرْيَمُ

حَفِيفٌ. [

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم، التي
﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَلَلَةٌ كَارِيَةٌ﴾.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ﴾ أي: عظيم شديد، أحله الله بعد، فأصبحوا لا يرى إلا
مساكينهم.

﴿وَذَلِكَ عَادٌ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلمهم، لأنهم
﴿جَعَلُوا بَنَاتِنَا رَبِّهِنَّ﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾
فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا
﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع
المرسلين، لأن دعوتهم واحدة.

﴿وَأَنبَغِيْنَهُنَّ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلمهم، لأنهم
﴿جَعَلُوا بَنَاتِنَا رَبِّهِنَّ﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾
فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا
﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع
المرسلين، لأن دعوتهم واحدة.

﴿وَأَنبَغِيْنَهُنَّ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلمهم، لأنهم
﴿جَعَلُوا بَنَاتِنَا رَبِّهِنَّ﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾
فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا
﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع
المرسلين، لأن دعوتهم واحدة.

أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم، ويعجزهم،
ويقول لهم: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.

﴿إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِهِ
فَيَكْذِبُنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ وهم الأعداء الذين لهم السطوة
والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور، بأي طريق كان وهو
غير مكثر منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدرُونَ أَنْ
ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلُونَ.

وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِبَارِكِينَ بِالْهَيْتَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: لا
ترك عبادة الهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمت عليه بينة بزعمهم
﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا تأيس منهم لنبيهم هود عليه
السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿إِنْ تَوَلَّيْتُ﴾ فيك ﴿إِلَّا اعْتَرَيْكَ بِعَصَى الْهَيْتَا يَسْمُوعُ﴾ أي:
أصابتك بخيال وجنون، فصرت تهذي بما لا يعقل، فسبحان
من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق
الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة التي يستحيي العاقل من
حكايته عنهم لولا أن الله حكاهما عنهم.

ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق
أنه لا يصيبه منهم، ولا من الهتهم أذى فقال: ﴿إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِهِ فَيَكْذِبُنِي جَمِيعًا أي:
اطلبوا لي الضرر كلكم، بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ثُمَّ لَا
يَنْظُرُونَ﴾ أي: لا تمهلون.

﴿إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: اعتمدت في أمري كله على الله
﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: هو خالق الجميع، ومدبرنا وإياكم^(١)،
وهو الذي ربانا.

﴿مِمَّا يَنْذَرُ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِي﴾ فلا تتحرك ولا تسكن
إلا بإذنه، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم
يسلطكم عليّ، لم تقدرُوا على ذلك، فإن سلطكم، فلحكمة
أرادها.

﴿إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على عدل، وقسط،
وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، وفي
جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم،
التي يحمد ويشي عليه بها.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ
إِلَيْكُمْ﴾ فلم يبق عليّ تبعه من شأنكم.

﴿وَنَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقومون بعبادته ولا يشركون به
شيئاً ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ فإن ضرركم إنما يعود عليكم، فالله لا
تضره معصية العاصين، ولا تنفع طاعة المطيعين^(٢) ﴿مَنْ عَمِلَ
صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، [﴿إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(١) كنا في الأصل، وهو غير صحيح. لأن (ياكم) ضمير منصوب
مفصل، وقد عطفته على الضمير المجزوء (نا) في (مدبرنا) والضمير
المنصوب لا يجوز عطفه على الضمير المجزوء، فلو قال: ومدبرنا
ومدبركم، لكان صحيحاً. والله أعلم. (الناسخ) (٢) في: ب الطائفتين.

صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك [قد] كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير.

وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿أَتَنْهَوْنَنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَنْهَى عَنْكُمُ آلِهَتُنَا﴾، وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها.

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم تترى، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿وَرَأَيْنَا لَبِيَّ سَالِكٍ يَتَكَبَّرُ فِي سَكَنٍ﴾ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الرب، وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله: ﴿قَالَ يَكْفِرُونَ أَهْلَهُمْ إِنَّ كُنتُمْ عَلَىٰ نَيْتٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: برهان ويقين مني ﴿وَرَأَيْنَا مِنهُ رَحْمَةً﴾ أي: من عليّ برسائه ورحي، أي: أفانابكم على ما أنتم عليه، وما تدعونني إليه؟

﴿فَمَنْ يَشْرِي بِنْتَهُ إِنَّ عَصِيْبَتَهُ قَدْ تَرِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِينٍ﴾ أي: غير خسار وتباب وضرر.

﴿وَيَقُولُوا هَذِهِ نَافِلَةٌ لَّكُم مَّا زَكَاةً﴾ لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم.

﴿يَذْكُرُونَ أَنْ أَكُونَ فِي أََرْضٍ أُقْرَبُ﴾ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿وَلَا تَسْأَلُونَهَا بِسُوءٍ﴾ أي: بعقر ﴿فَأَعْلَفُكُم عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿فَعَزَّوْهُمَا فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَسْمَعُونَ فِي نَارِكُمْ فَلَنَنَزِّلَنَّ أَبَاكُم بِذَلِكَ عَذَابٌ مَّكْدُوبٌ﴾ بل لا بد من وقوعه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَهْلُهُمْ﴾ بوقوع العذاب ﴿بَنَيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمَهُمْ وَنَكَحُوا ذُرِّيَّهُمْ﴾ أي: نجيناها من العذاب والخزي والفضيحة.

﴿إِنَّ زَكَةً هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم، ﴿وَلَمَّا زَكَّيْنَا الَّذِينَ طَلَبُوا الْحَيَاةَ الْعَظِيمَةَ﴾ العظيمة فقطعت قلوبهم، ﴿فَأَنصَبُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينَ﴾ أي: خامدين لا حراك لهم.

ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلكتهم الله.

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الْأَنْبِيَاءِ لَعْنَةً﴾ فكل وقت وجيل، إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به، وذم يلحقهم ﴿وَيَوْمَ أَقْبَلَهُمْ﴾ لهم أيضاً لعنة.

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم وربائهم ﴿أَلَا بَنَّا لَعَاوَنَ قَوْمَ هُودٍ﴾ أي: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

(٦٨-٦١) ﴿وَإِلَّا تَوَدَّ الْغَائِمُ صَلَاحًا﴾ إلى آخر قصتهم^(١). أي ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَّا تَوَدَّ﴾ وهم عاد الثانية، المعروفون الذين يسكنون الحجر، ووادي القرى، ﴿الْغَائِمُ﴾ في النسب ﴿صَلَاحًا﴾ عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ﴿فَقَالَ يَكْفُرُونَ أَهْبَدُوا اللَّهُ﴾ أي: وحده، وأخلصوا له الدين ﴿لَا مَلَأَ مَنَ الْوَيْلُ عِيْرَهُ﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هُوَ أَشْأَكُم مِّنَ الْأَشْيَاءِ﴾ أي: خلقكم فيها ﴿وَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبون، وتغرسون، وتزرعون، وتحثون ما شئتم، وتتضعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته.

﴿فَأَسْتَفْزِرُهُ﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿فَمَنْ تَوْبًا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: قريب من دعاء دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص. فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَرْبٍ أَلَرَأَيْتُ﴾ والقرب الخاص: قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُهُ﴾.

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وهذا النوع، قرب يقضي إطفاء تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

فلما أمرهم بنبيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

﴿قَالُوا يَصْنَعُ قَدْ كُنتَ فِيْنَا مَرْبُوعًا قَدْ هَدَا﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم

(١) في ب ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا بَنَّا لَعَاوَنَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٩

سورة هود

قَالَ يَتَقَوْمِ آدَمَ يَسْتُرَانِ كُنْتُ عَلَى يَسْتَرٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصُرْنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ هَا تَرِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿٦٩﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٧٠﴾ وَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٧١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرًا تَجَنَّبَا صَاحِبَاوَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَمَةً وَرَحْمَةً مِنْكَ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمٍ إِذْ إِنَّ رَبَّنَا هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٧٢﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّبِيحَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جثثين ﴿٧٣﴾ كَانَ لَمْ يَنْتَوِ فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُودًا كَفَرُوا وَآزَمَهُمُ الْإِعْدَاؤُا لَشُمُودٌ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالُوا إِنَّا جَاءُوكَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ تَكْرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ وَأَمْرَانَهُ قَالِيَهُمْ فَصَبَحَتْ فَتَنَازَلْنَاهَا إِيَّاسَحَقَّ وَمِنْ رَأَوُا إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧٧﴾

الأفعال، لأن أفعاله إحسان، وجود، وير، وحكمة، وعدل، وقسط.

مجيد، والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعماها.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى﴾ بالولد، الفت حيتل إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَهْلُ بَيْتٍ فِيهَا لَتَجِثَّه وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ﴾ أي: ذو خلق حسن وسعة صدر، وعدم غضب عند جهل الجاهلين.

﴿آوَاهُ﴾ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات ﴿وَتُوبَهُ﴾ أي: رجّاع إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه، والإعراض عن سواه، فلذلك كان يجادل عن من حُتم الله بهلاكهم.

فقيل له: ﴿يَا زَيْنُومُ اقْرَأْ عَنْ هَذَا﴾ الجدال ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَكَ أَمْرٌ

(١) في ب: فيها. (٢) في ب أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ بَرٍّ أَفْئِيلِكَ يُبْدِي﴾.

﴿كَأَن لَمْ يَنْتَوِ فِيهَا﴾ أي: كأنهم - لما جاءهم العذاب - ما تمتعوا في ديارهم، ولا أنسوا بها^(١)، ولا تمتعوا بها يومًا من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل.

﴿أَلَا إِنَّ شُمُودًا كَفَرُوا بِهِمْ﴾ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المصرة، ﴿أَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ فما أشقاهم وأذلهم، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

(٦٩-٨٣) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى﴾ إلى آخر القصة^(٢). أي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ من الملائكة الكرام، رسولنا ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿وَالْبَشْرَى﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية. ﴿فَمَا لِيكَ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ﴾ أي: بادر ليبتة، فاستحضر لأضيافه عجلًا مشويًا على الرفض سمينًا، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى تلك الضيافة ﴿تَكْرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وظن أنهم أتوه بشرٍّ ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

﴿قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

وامرأة إبراهيم ﴿قَالِيَهُمْ﴾ تخدم أضيافه ﴿فَصَبَحَتْ﴾ حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به تعجبًا.

﴿فَتَنَزَّلْنَاهَا إِيَّاسَحَقَّ وَمِنْ رَأَوُا إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فتعجبت من ذلك و ﴿قَالَتْ يَتَزَلَّيْنِ أَيْلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَطْلٌ سَيِّئٌ﴾ فهذان مانعان من وجود الولد ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنْ عَجِيبٌ﴾.

﴿قَالُوا أَنْتَجِدِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئة التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصًا فيما يديره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك.

﴿رَحِمَتْهُ اللَّهُ وَرَكَّبَتْهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركانه، وهي الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد ﴿عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ إثمٌ حيدٌ يُجَدُّ أي: حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد

رَبِّكَ ﴿بِهَلاَكِهِمْ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ عَذَابَ غَيْرِ مَرْدُودٍ﴾ فلا فائدة في جدالك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا ﴿لَوْطًا بِئْسَ يَوْمٌ﴾ أي: شق عليه مجيئهم ﴿وَصَافِي يَوْمٌ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتكروهم، لأنهم في صور شباب جرد، مرد في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله.

﴿فَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ بِهَرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ قَتْلٍ كَثِيرٍ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿قَالَ يَتْلُو هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هَؤُلَاءِ لَهْرٌ لَكُمْ﴾ من أضيافي، [وهذا كما عرض لسليمان عليه السلام على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه، لاستخراج الحق، ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن، ولا حق لهن فيهن، والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تخزون عندهم.

﴿الَّذِينَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

﴿فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ عَدَّتْ مَا لَنَا مِنْ بَنَاتِكَ مِنْ حَتَّى وَإِنَّكَ لَتَعْدُ مَا نُزِيءُ﴾ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء، فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ دَافِعُ فَإِنْ كُنِّي شَكِيرٌ﴾ كقبيلة مانعة لمنعكم.

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب ﴿قَالُوا لَهُ: إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي: أخبروه بحالهم، ليطمن قلبه، ﴿أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء، ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ﴿يَقْطَعُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريبهم.

﴿وَلَا يَلْتَمِسُ مِنْكُمْ أَمَدٌ﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم.

﴿إِلَّا أَمْرًا لَكَ إِنَّهُمْ مَصِيبُهُمْ﴾ من العذاب ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف.

﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾ فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له:

﴿قَالَ يَتْلُو هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هَؤُلَاءِ لَهْرٌ لَكُمْ﴾ فلا فائدة في جدالك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا ﴿لَوْطًا بِئْسَ يَوْمٌ﴾ أي: شق عليه مجيئهم ﴿وَصَافِي يَوْمٌ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتكروهم، لأنهم في صور شباب جرد، مرد في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله.

﴿فَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ بِهَرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ قَتْلٍ كَثِيرٍ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿قَالَ يَتْلُو هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هَؤُلَاءِ لَهْرٌ لَكُمْ﴾ من أضيافي، [وهذا كما عرض لسليمان عليه السلام على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه، لاستخراج الحق، ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن، ولا حق لهن فيهن، والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تخزون عندهم.

﴿الَّذِينَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

﴿فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ عَدَّتْ مَا لَنَا مِنْ بَنَاتِكَ مِنْ حَتَّى وَإِنَّكَ لَتَعْدُ مَا نُزِيءُ﴾ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء، فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ دَافِعُ فَإِنْ كُنِّي شَكِيرٌ﴾ كقبيلة مانعة لمنعكم.

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب ﴿قَالُوا لَهُ: إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي: أخبروه بحالهم، ليطمن قلبه، ﴿أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء، ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ﴿يَقْطَعُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريبهم.

﴿وَلَا يَلْتَمِسُ مِنْكُمْ أَمَدٌ﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم.

﴿إِلَّا أَمْرًا لَكَ إِنَّهُمْ مَصِيبُهُمْ﴾ من العذاب ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف.

﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾ فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له:

﴿الَّذِينَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

﴿فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ عَدَّتْ مَا لَنَا مِنْ بَنَاتِكَ مِنْ حَتَّى وَإِنَّكَ لَتَعْدُ مَا نُزِيءُ﴾ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء، فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ دَافِعُ فَإِنْ كُنِّي شَكِيرٌ﴾ كقبيلة مانعة لمنعكم.

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب ﴿قَالُوا لَهُ: إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي: أخبروه بحالهم، ليطمن قلبه، ﴿أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء، ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ﴿يَقْطَعُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريبهم.

﴿وَلَا يَلْتَمِسُ مِنْكُمْ أَمَدٌ﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم.

﴿إِلَّا أَمْرًا لَكَ إِنَّهُمْ مَصِيبُهُمْ﴾ من العذاب ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف.

﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾ فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له:

﴿الَّذِينَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

﴿فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ عَدَّتْ مَا لَنَا مِنْ بَنَاتِكَ مِنْ حَتَّى وَإِنَّكَ لَتَعْدُ مَا نُزِيءُ﴾ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء، فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ دَافِعُ فَإِنْ كُنِّي شَكِيرٌ﴾ كقبيلة مانعة لمنعكم.

﴿الَّذِينَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

الْمِيزَانُ

٢٣١

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
جِجَارَةً مِّن سِجِيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٨٤﴾ شُومَةً عَنذَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ
شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُوا مَعَكُمْ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ عِزَّةٍ
وَلَا تَقْصُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانُ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَقُولُ
أَوْفُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانَ يَا قَسِيطُ وَلَا تَحْسُوا
أَلْكَاسَ أَشْيَاءَ هُمْ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٧﴾
يَقِيَّتُ اللَّهُ الْخَيْرَ لَكُمْ إِن كُنتُمْ قَوْمِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيطٍ ﴿٨٨﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ
تُتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٩﴾ قَالَ يَبْقَرُوا أَرْضَ يَشْعُرٍ
كُنتَ عَلَىٰ يَبْنَةِ مِن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُم إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٩٠﴾

والغواية، أي: أن المعنى كيف تكون أنت الحليم الرشيد،
وآبأؤنا هم السفهاء الغاؤون!!

وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم، وأن الأمر
بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه، إن صلاته تأمره
أن ينهأهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في
أموالهم ما يشاؤون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر،
وأئي فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق
عباد الله، أو سرقته بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة
والسلام الحليم الرشيد.

﴿قَالَ﴾ لهم شعيب: ﴿يَبْقَرُوا أَرْضَ يَشْعُرٍ﴾ كُنتَ عَلَىٰ يَبْنَةِ مِن رَّبِّي
أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا
حَسَنًا﴾ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني.

﴿وَوَ﴾ أنا لا ﴿أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُم إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ﴾ فلست
أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان، وأفعله أنا،
حتى تنطقوا إليّ التهمة في ذلك، بل ما أنهاكم عن أمر، إلا
وأن أول مبتدئ تركه.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ليس لي من

شركهم - يبخسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك
فقال: ﴿وَلَا تَقْصُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ بل أوفوا الكيل
والميزان بالقسط.

﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: بنعمة كثيرة وصحة، وكثرة
أموال وبنين، فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا نعمة
الله فيزيلها عنكم.

﴿وَإِنِّي لَأَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ أي: عذاباً يحيط
بكم، ولا يبق منكم باقية.

﴿وَيَقُولُ أَوْفُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانَ يَا قَسِيطُ﴾ أي: بالعدل
الذي ترضون أن تعطوه، ﴿وَلَا تَحْسُوا أَلْكَاسَ أَشْيَاءَ هُمْ﴾ أي:
لا تنقصوا من أشياء الناس، فسرقوها بأخذها بنقص المكيال
والميزان.

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن الاستمرار على
المعاصي، يفسد الأديان، والعقائد، والدين، والدنيا،
ويهلك الحرث والنسل.

﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ الْخَيْرَ لَكُمْ﴾ أي: يكفيكم ما أبقي الله لكم من
الخير، وما هو لكم، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غية، وهو
ضار لكم جداً.

﴿إِنْ كُنتُمْ قَوْمِينَ﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان ﴿وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَفِيطٍ﴾ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها،
وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت
به.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾
أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم، والاستبعاد لإجابتهم
له.

ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهلك لنا، إلا أنك تصلي
للله، وتتعبد له، أفإن كنت كذلك، أفوجب لنا أن نترك ما يعبد
آبأؤنا، لقول ليس عليه دليل، إلا أنه موافق لك، فكيف
تنبك، وتترك آباءنا الأقدمين، أولي العقول والآليات؟!

وكذلك لا يوجب قولك لنا ﴿أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا﴾ ما قلت
لنا من وفاء الكيل والميزان، وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل
لا نزال نفعل فيها ما شئنا، لأننا أموالنا، فليس لك فيها
تصرف.

ولهذا قالوا في نهكهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾
أي: أنت الذي الحلم والوفاء لك خلق، والرشد لك
سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا
تنهى إلا عن غي، أي: ليس الأمر كذلك.

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالفه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَيَقُولُ لَا يُحِبُّ مَنكُم شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ
 قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
 بِبَعِيدٍ ﴿٨٤﴾ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ وَأُزِيلُكُمْ ثُمَّ نُبَوِّئُ الْإِنسَانَ أَن رَّبِّ
 رَحْمَةً وَدُودٌ ﴿٨٥﴾ قَالُوا لَا يَشْعُبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَّا تَقُولُ
 وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ
 عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٨٦﴾ قَالَ يَقُولُوا أَهْطِطِ اعْزُزْ عَلَيْنَا مِّن
 اللَّهِ وَاتَّخِذْ شُومُورًا وَرَأَى كَمْ ظَهَرَ لَنَا إِنَّا رَبِّي يَمَّا نَعْمَلُونَ
 مُحِيطٌ ﴿٨٧﴾ وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ
 سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِمَّنْ بَيْنَ يَدَيْهِ عَذَابٌ مُّخِيزٌ وَمَنْ هُوَ
 كَذِيبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَ
 أَمْرُنَا لَنَجْئَنَّ شَعِيبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَلْحَدْنَا
 الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٨٩﴾
 كَانَ لَرَبِّنَا فِيهَا أَبْعَدُ الْإِلَمِينَ كَمَا بَدَدْتُ سُوءُودٌ ﴿٩٠﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِكَارِهِتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩١﴾ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ
 وَمَلَائِكَةٍ فَاثْبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٢﴾

علمتم أمم الجزاء.

﴿٩٠﴾ لما أعيوه وعجز عنهم قال: ﴿يَقُولُوا اقْسَمُوا عَلَىٰ
 مَكِّيَّتِكُمْ﴾ أي: على حالكم ودينكم.
 ﴿إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِمَّنْ بَيْنَ يَدَيْهِ عَذَابٌ مُّخِيزٌ﴾ ويحل
 عليه عذاب مقيم أنا أم أنتم، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم
 العذاب.
 ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ ما يحل بي ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ما يحل
 بكم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿نَجْئَنَّ شَعِيبًا وَالَّذِينَ
 آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَلْحَدْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
 جِثِيمٌ﴾ لا تسمع لهم صوتاً، ولا ترى منهم حركة ﴿كَانَ لَمَّا
 يَتَنَوَّاهَا﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تنعموا فيها
 حين أتاهم العذاب.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّلَّذِينَ﴾ إذ أهلكها الله وأخزاها ﴿كَأَمْ بَدَدْتُ
 سُوءُودٌ﴾ أي: قد اشتركت هاتان القليلتان في السحق والبعد
 والهلاك.

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء، لحسن

المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم، وليس
 لي من المقاصد الخاصة لي وحدي، شيء بحسب
 استطاعتي.

ولما كان هذا فيه نوع تركية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وَمَا
 تَوَفِّيَنِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير
 والافتكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت في أموري، ووثقت في
 كفايته ﴿وَالَّذِي أُشِيرَ﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات،
 وفي [هذا] التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.

ويهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه
 والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقال:
 ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾.

﴿وَيَقُولُ لَا يُحِبُّ مَنكُم شِقَاقِي﴾ أي: لا تحملنكم مخالفتي
 ومشاقتي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ من العقوبات ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ
 قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ لا في الدار
 ولا في الزمان.

﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ وَأُزِيلُكُمْ﴾ عما اقترفت من الذنوب ﴿ثُمَّ نُبَوِّئُ
 الْإِنسَانَ﴾ فيما يستقبل من أعماركم، بالتوبة النصوح، والإنابة إليه
 بطاعته، وترك مخالفته.

﴿إِنَّا رَبُّ رَجَعِ دُودٌ﴾ لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له،
 ويتقبل توبته ويحبه، ومعنى الدود من أسمائه تعالى، أنه
 يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو «فعل» بمعنى «فاعل»
 ومعنى «مفعول».

﴿قَالُوا لَا يَشْعُبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَّا تَقُولُ﴾ أي: تضجروا من
 نصائحهم ومواعظهم لهم، فقالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَّا تَقُولُ﴾
 وذلك لبغضهم لما يقول، ونفرتهم عنه.

﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ أي: في نفسك لست من الكبار
 والرؤساء، بل من المستضعفين ﴿وَلَوْ لَا رَهْطُكَ﴾ أي:
 جماعتك وقبيلتك ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس
 لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا
 قبيلتك بتركنا إياك.

فقال لهم مترقفاً لهم: ﴿يَقُولُوا أَهْطِطِ اعْزُزْ عَلَيْنَا مِمَّنْ
 اللَّهُ﴾ أي: كيف تراعوني لأجل رهطي، ولا تراعوني لله،
 فصار رهطي أعز عليكم من الله.

﴿وَاتَّخِذْ شُومُورًا وَرَأَى كَمْ ظَهَرَ لَنَا﴾ أي: نبذتم أمر الله وراء
 ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا اخفتم منه.

﴿إِنَّا رَبِّي يَمَّا نَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم
 مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فيجازيكم على ما

ومنها: أن وظيفة الرسل وستهم وملتهم، إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، ويدفع المفساد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة. وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه، وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيماً بربه، متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه لموليه ومسديه، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر. كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: (إن) التائب إذا تاب، فحسبه أن يغفر له، ويعود عليه العفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود، فإن الله قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب ربهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية، يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم للدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها، وجعلهم عِزَّةً وَخَدَمًا لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين، وهم الحكام، فهو المتعين. ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا، مقدمة، والله أعلم.

(٩٦-١٠١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا

مراجعتهم لقومه، وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير: منها: أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه، لأن شعيباً دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتباً على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكايل والموازين من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكايل والموازين موجبة للوعيد، فسرقته - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن الجزء من جنس العمل، فمن بخش أموال الناس يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: فلا تسبوا إلى زواله بفعالكم.

ومنها: أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿يَتَيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق، ما ليس في التكاليف على الأسباب المحرمة من المحقق، وضد البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل، فالإيمان ناقص أو معدوم.

ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه مقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فيإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرّمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواء وافق حكم الله أو خالفه.

ومنها: أن من تكلمة دعوة الداعي وتامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منته عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَمْلَأُكُمْ عَنْهُ﴾ ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٣

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ
 الْمُرُودُ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ
 الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ ﴿١٠٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَفْصُهُ عَلَيْكَ
 وَمِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَبْيِيسًا ﴿١١١﴾
 وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ
 أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمُ مَشْهُودٍ ﴿١١٣﴾ وَمَا
 نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ لَاحِلٍ مُعَدُّودٍ ﴿١١٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكُنْ لَكُمْ نَفْسٌ
 إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ ﴿١١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفَىٰ
 أَلْأَرْهَافَ فِيهَا زَفِيرٌ وَسَهيقٌ ﴿١١٦﴾ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتْ
 أَلْسِنَتُكَ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ
 ﴿١١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَيُنْفَىٰ الْجَنَّةُ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتْ
 أَلْسِنَتُكَ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ ﴿١١٨﴾

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي: يشهده الله وملأته وجميع
 المخلوقين.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: إتيان يوم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجْلِ
 مُعَدُّودٍ﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق،
 فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى، ويجري عليهم أحكامه
 الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم، ويجمع الخلق ﴿لَا تَكُنْ لَكُمْ
 نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ حتى الأنبياء والملأكة الكرام، لا يشفعون
 إلا بإذنه، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: الخلق ﴿سُقَىٰ وَسَعِيدٌ﴾، فالأشقياء
 هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء
 هم المؤمنون المتقون.

(١٠٦) وأما جزاؤهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ أي: حصلت لهم
 الشقاوة، والخزي والفضيحة، ﴿فَنُفِيَ أَلْأَرْهَافَ﴾ منغمسون في
 عذابها، مشتد عليه عقابها، ﴿مَنْ فِيهَا﴾ من شدة ما هم فيه
 ﴿زَفِيرٌ وَسَهيقٌ﴾ وهو أشتع الأصوات وأفجها.

(١) في ب آورد الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تَبْيِيسًا﴾.

وَسَلْطَنِي ثُبِينٌ﴾ إلى آخر القصة^(١). يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به،
 كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي
 موسى عليه السلام.

﴿وَسَلْطَنِي ثُبِينٌ﴾ أي: حجة ظاهرة بيته، ظهرت ظهور
 الشمس ﴿إِنْ يَنْزِعُوكَ وَفَالَيْدٌ﴾ أي: أشراف قومه لأنهم
 المتبعون وغيرهم تبع لهم، فلم ينفادوا لما مع موسى من
 الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف،
 ولكنهم ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ إِلَّا رِشِيْدٌ﴾ بل هو ضالٌّ
 غاي، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم - لما اتبعه
 قومه - أراهم وأهلكهم.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ
 الْمُرُودُ﴾ وأتبعوا في هذبة، أي: في الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾
 أي: يلعنهم الله وملأته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة.
 ﴿يَكُونُ الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ﴾ أي: ينس ما اجتمع لهم، وترادف
 عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى
 لرسوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَفْصُهُ عَلَيْكَ﴾ لتذره، ويكون
 آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿يُنْفَىٰ كَأَيْدٍ﴾ لم ينف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل
 عليهم ﴿و﴾ منها ﴿حَصِيدٌ﴾ قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت
 منازلهم، فلم يبق لها أثر ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بأخذهم بأنواع
 العقوبات ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر والعناد.
 ﴿كَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا
 جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك
 عند نزول الشدائد.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تَبْيِيسٌ﴾ أي: خسار ودمار، بالضد مما
 خطر ببالهم.

(١٠٢) ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ
 أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا
 ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء.

(١٠٣) ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من أخذوه للظالمين بأنواع
 العقوبات ﴿لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: لعبرة ودليلاً
 على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة
 الآخروية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة فقال: ﴿ذَلِكَ
 يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة،
 وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه
 حق المعرفة.

التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المتستبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم، وبجامعتهم الدينية.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَكَتَ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لَفُتِنَ بِهِمْ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، ويقول في شك منه مرب.

وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليكم غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مرب.

﴿وَإِنْ كَلَّا لَأَكِيدَنَّ بِهِمْ﴾ أي: لا بد أن الله يقضي بينهم^(١) يوم القيامة بحكمه العدل فيجازي كل بما يستحقه.

﴿إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ﴾ من خير وشر ﴿حَٰثِرِينَ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم، دقيقها وجليلها.

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلوكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك بسنة ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها، فيه ترغيب لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها، ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال: ﴿وَلَا تَزْكُوا﴾ أي: لا تميلوا ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فإنكم إذا ملتهم إليهم وافتموهم على ظلمهم، أو رضيتهم ما هم عليه من الظلم ﴿فَنَسَكُمُ النَّارُ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وَمَا أَكُفَّكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَٰئِكَ﴾ يمتعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً من ثواب الله.

﴿ثُمَّ لَا تُفْرِكُونَ﴾ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم. ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقة على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم!! نسال الله العافية من الظلم.

(١١٤، ١١٥) ﴿وَأَنذِرُ الْمَسْكُونَةَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: لا بد أن يقضي الله بينهم.

(١) في ب: لا بد أن يقضي الله بينهم.

(١٠٧) ﴿حَٰثِرِينَ﴾ أي: في النار التي هذا عذابها ﴿وَمَا كَانَتْ تَتَوَقَّعُونَ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: خالدين فيها أبداً، إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعَلَّ لِمَا يُرِيدُ﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته، فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَوَّوْا﴾ أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح والفوز ﴿فَنَحْنُ الْخَائِرُ خَيْرِينَ فِيهَا مَا كَانَتْ تَتَوَقَّعُونَ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَلَّاهُ عَزَّ جَدُّوهُ﴾ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسال الله الكريم من فضله.

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ مِنْ مَرِيضٍ مِمَّا يَعْذِبُ عَنْهُ مَا يَعْذِبُونَ إِلَّا كَمَا يَعْذِبُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ أي: يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ مِنْ مَرِيضٍ مِمَّا يَعْذِبُ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿مِمَّا يَعْذِبُونَ إِلَّا كَمَا يَعْذِبُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾.

ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتاج لها لا يحتاج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطاهم وفساد أقوالهم في أصول الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال.

﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أو رافى في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب، والحاصل أنه لا يترافق اتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

(١١٠-١١٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخَلَّفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَكَتَ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنَ بِهِمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْهُمْ إِلَّا لَأَكِيدَنَّ بِهِمْ﴾ أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أو رافى في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب، والحاصل أنه لا يترافق اتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

٢٣٤

الْحَسَنَاتِ

الْحَسَنَاتِ

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَبْعُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَبْعُدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْعُدُ
 آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ بِبَيْتِهِمْ عَنِ مَوْسَى
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخِذْ فِيهِ وَتَوَلَّى كَلِمَةً
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِقَايَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا مَرَسَ
 وَإِنَّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ ﴿١١٦﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٧﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
 فَمِمَّا تَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
 لَا تُنصِرُونَ ﴿١١٨﴾ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَدُلَّامِنَ
 اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّكْرَيْنِ
 ﴿١١٩﴾ وَأَسِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ فَلَوْلَا
 كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَبْهَتُونَ عَنِ الْفَسَادِ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ
 رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٢٢﴾

قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم،
 ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة^(١).

﴿١١٦﴾ لَكِنْ أَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ: أي: اتبعوا
 ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يغيروا به بدلاً.

﴿وَكَاثُرًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه،
 فلذلك حَقَّ عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب، وفي هذا
 حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون لما أفسد
 الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى،
 ويصبرون منهم على الأذى، ويصبرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها
 يكون إماماً في الدين، إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ

(١) جاء في هامش أ ما نصه: (والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى
 الذي ذكر هنا، وهو أن هذا بمعنى الضم، أي: إنه لم يكن في القرون
 السالفة أولو بقية... إلخ «إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ» أي: لكن بقى قليل
 بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكرنا، لكن ما ذكرنا في
 الأصل... ثم لم يتضح باقي الكلام لإصابته بالبلل، وهو يسير.

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّكْرَيْنِ ٥ وَأَسِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
 يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٩﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفِي
 النَّهَارِ﴾ أي: أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر
 وصلاتا الظهر والعصر ﴿وَدُلَّامِنَ اللَّيْلِ﴾ ويدخل في ذلك
 صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل، فإنها مما
 تُزِلُّ الْعَبْدَ وتقربه إلى الله تعالى.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: فهذه الصلوات
 الخمس، وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات،
 وهي - مع أنها حسنات - تقرب إلى الله، وتوجب الثواب،
 فإنها تذهب السيئات وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر، كما
 قيدها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله:
 «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى
 رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»، بل كما
 قيدها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ
 تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نَهَوْا عَنْهُ تَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتُدْخِلَكُمْ
 مِثْلَ كَرِيهًا﴾.

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من لزوم الاستقامة على
 الصراط المستقيم وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الركون إلى
 الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات
 يذهبن السيئات الجميع ﴿وَيُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يفهمون بها ما
 أمرهم الله به ونهاهم، ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المشمة
 للخيرات، الدافعة للشرور والسيئات، ولكن تلك الأمور
 تحتاج إلى مجاهدة النفس، والصبر عليها، ولهذا قال:

﴿وَأَسِرْ﴾ أي: احبس نفسك على طاعة الله، وعن
 معصيته، وإلزامها لذلك، واستمر ولا تضجر.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يقبل الله عنهم أحسن
 الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وفي
 هذا ترغيب عظيم، للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى
 ثواب الله كلما وُتت وفترت.

(١١٦) ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَبْهَتُونَ عَنِ
 الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ لما ذكر تعالى إهلاك الأمم
 المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون، حتى أهل الكتب
 الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب
 والاضمحلال، ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا
 من أهل الخير يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى،
 فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جداً.
 وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما

مُخْلِفُونَ ﴿١١٨﴾ أي: وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يغفر عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

(١١٨، ١١٩) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْلَفِينَ﴾ ○ إِنْ لَا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَكْمَلَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يعتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين، مخالفين للصرط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿إِنْ لَا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، فهولاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم فهم مخذولون موكلون إلى أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والاشقياء، والمتقون والمخلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

﴿و﴾ لانه ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَكْمَلَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فلا بد أن يسير للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

(١٢٠-١٢٣) ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِذِكْرِ الْوَادِعِ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةً وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ○ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ○ وَانظُرُوا إِلَى مَنظُورٍ ○ وَلِلَّهِ عِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك فقال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِذِكْرِ الْوَادِعِ فِي هَذِهِ الْحَقِّ﴾ أي، قلبك ليطمئن ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالاعتناء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٥

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْلَفِينَ ○ إِنْ لَا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَكْمَلَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ○﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِذِكْرِ الْوَادِعِ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةً وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ○﴾ ﴿١٢٠﴾ ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ○﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿وَانظُرُوا إِلَى مَنظُورٍ ○﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ عِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ○﴾ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ الْاِنْشِاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّفَّاكَ ○ أَيْنَ الْكَتِبِ الْعَمِينَ ○ ﴿١﴾ إِنْ أَتَى نَفْسُكَ نَاعِرَ بِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ○ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ○ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ○ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ○ ﴿٤﴾

﴿وَبَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة ﴿الْحَقِّ﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿وَمَوْعِظَةً وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله، فيعملونها. وأما من ليس من أهل الإيمان، فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعدما قامت عليهم الآيات ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: حالكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على ما كنا عليه ﴿وَانظُرُوا﴾ ما يحل بنا ﴿إِنَّا مُنْظَرُونَ﴾ ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿وَلِلَّهِ عِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب.

﴿فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما

٢٣٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ۖ مَا كُنْتُ لِلنَّاسِ بَالِغًا ۖ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَنَا وَتَحَنَّنَ غَضَبُهُ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧﴾ أَقْنُوْا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَرْضًا يَحْمِلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٨﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنُولُوا يُوسُفَ وَالْقَوَىٰ فِي غَيْبَتِ الْحُبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ النَّسَاءِ وَإِنْ كُنْتُمْ فَعَالِينَ ﴿٩﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا آمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١٠﴾ أَرْسَلَهُ مَعَاذَ ابْنِ رَئِيسِ قَرْيَةٍ وَتَلَعَبَ وَتَالَاهُ لِحَفَظَتِهِ ﴿١١﴾ قَالَ إِنِّي لَمَحْزُونٌ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَتَحَنَّنَ غَضَبُهُ إِنَّا إِذَا لَخَبِيرُونَ ﴿١٣﴾

أي: من بعد هذا الصنيع «قَوْمًا صَالِحِينَ» أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدما العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.

(١٠) «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنُولُوا يُوسُفَ وَالْقَوَىٰ فِي غَيْبَتِ الْحُبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ النَّسَاءِ وَإِنْ كُنْتُمْ فَعَالِينَ» أي: «قَالَ قَائِلٌ» من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده: «لَا تَقْنُولُوا يُوسُفَ» فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه «فِي غَيْبَتِ الْحُبِّ» وتتعدوه على أنه لا يخبر بشانكم، بل على أنه عبد مملوك أبى منكم، لأجل أن «يَلْقَظُهُ بَعْضُ النَّسَاءِ» الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحتفظون فيه.

وهذا القاتل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي.

(١١) في الأصل (في القصص) ولعل الصواب ما أتت.

«وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ» أي: يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة «وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» في الدنيا والآخرة، بأن يوثق في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة «كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ» حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية ودنيوية.

«إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أي: علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كل ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، ويوزلها منازلها.

ولما بان تعبيرها ليوسف، قال له أبوه:

«يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» أي: حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

«إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ» لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

(٧-٩) «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ۖ مَا كُنْتُ لِلنَّاسِ بَالِغًا ۖ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَنَا وَتَحَنَّنَ غَضَبُهُ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ أَقْنُوْا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَرْضًا يَحْمِلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ» يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ۖ مَا كُنْتُ لِلنَّاسِ بَالِغًا ۖ أَي: عَيَّرَ وأدلة على كثير من المطالب الحسنة «لِلنَّاسِ بَالِغًا» أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا [بالقصص] والبيانات.

«إِذْ قَالُوا» فيما بينهم «لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ» بنامين، أي: شقيقه، ولا فكلهم إخوة «أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَنَا وَتَحَنَّنَ غَضَبُهُ» أي: جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أي: لفي خطأ بَيِّن، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

«أَقْنُوْا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَرْضًا» أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها.

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين «يَحْمِلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ» أي: يفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يفرغ لكم «وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ»

لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر.
فيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجعله
بأهله وإخوته، على وجه العز والتمكين له في الأرض.
﴿وَمَا كُنَّا بِأَبَاهُمْ إِعْتَكِبَت﴾ ليكون إيتانهم متأخراً عن
عادتهم، ويكافؤهم دليلاً لهم، وقرينة على صدقهم، فقالوا -
معتذرين^(١) - بغير كاذب - ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ﴾ إما على
الأقدام، أو بالرمي والنضال ﴿وَنَرْكَبُكَ يُوْشَعَ بَيْنَ مَتْنَيْكَ﴾
توفيراً له وراحة ﴿فَأَكَلَهُ الذُّنْبُ﴾ في حال غيبته عنه في
استباقنا ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: تعذرنا
بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن
على يوسف، والركة الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر
الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرهم ﴿و﴾ مما أكلوا به قولهم،
أنهم ﴿جَاءُوا عَلَى قَبِيضٍ يَدْرِ كَرِيمٌ﴾ زعموا أنه دم يوسف حين
أكله الذنب، فلم يصدقهم أبوهם بذلك، و ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ
بَيْنِي وَبَيْنَهُ، لِأَنَّهُ رَأَى مِنَ الْقُرْآنِ وَالأَحْوَالِ، [ومن رؤيا
يوسف التي قصها عليه]^(٢) ما دله على ما قال.
﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا هُم بِمَفْعُولُونَ﴾ أي: أما أنا
فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أنني أصبر على هذه
المحنة، صبراً جميلاً، سالماً من السخط والشكوى إلى
الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فودع
من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا
بَنِي وَحَرَجٍ إِلَى اللَّهِ﴾ لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر
الجميل، لأن النبي إذا وعد وفى.

(٢٠، ١٩) ﴿وَمَا كُنَّا بِسَيِّئٍ فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ قَالُوا قَدْ كُنَّا قَالُوا قَدْ
يَكْفُرُونَ هَذَا ظَنُّهُ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ رَهْءٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَصْعَلُونَ ○ وَاسْرُوهُ
يَحْمِلُونَ دَرَكَمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الْفَاسِدِينَ﴾ أي:
مكث يوسف في الحب ما مكث، حتى ﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي:
قافلة تريد مصر ﴿فَأَنْزَلُوا وَأَرَادَهُمْ﴾ أي: فرطهم ومقدمهم الذي
يعس لهم المياه، وسبرها واستعد لهم بتبينة الحياض ونحو
ذلك ﴿فَأَذْنَى﴾ ذلك الرائد ﴿دَلُّوهُ﴾ فتعلق فيه يوسف عليه
السلام وخرج ﴿قَالَ يَكْفُرُونَ هَذَا ظَنُّهُ﴾ أي: استبشر وقال:
هذا غلام نفيس ﴿وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ﴾ وكان إخوته قريباً منه،
فاشتهر السيارة منهم ﴿يَحْمِلُونَ دَرَكَمَ﴾ أي: قليل جداً، فسره
بقوله: ﴿دَرَكَمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الْفَاسِدِينَ﴾.

(١) في الأصل معتذرين، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) زيادة من هامش
ب.

(١١-١٤) ﴿قَالُوا يَتَّخِذُ مَا لَكَ لَا تَأْتِيَا عَلَى يُوْشَعَ وَإِنَّا لَمُ
تَنْصَحُونَ ○ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَكْتُمُ وَإِنَّا لَمُ كَافِرُونَ ○ قَالَ
إِنِّي لَخَيْرٌ لَّكُمْ أَن تَذْهَبُوا بِهِ ○ وَأَعِثَّ أَنْ أَكُلَهُ الذُّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ
غَافِلُونَ ○ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا
لَكَاظِمُونَ﴾.

أي: قال إخوة يوسف، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم:
﴿يَتَّخِذُ مَا لَكَ لَا تَأْتِيَا عَلَى يُوْشَعَ وَإِنَّا لَمُ تَنْصَحُونَ﴾ أي: لأي
شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا
موجب؟ ﴿و﴾ الحال ﴿إِنَّا لَمُ تَنْصَحُونَ﴾ أي: مشفقون عليه،
نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام
لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم،
ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما
يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا:
﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَكْتُمُ﴾ أي: يتزدهر في البرية
ويستأنس ﴿وَلِنَّا لَمُ كَافِرُونَ﴾ أي: سراحه، ونحفظه من أذى
يريد.

فأجابهم بقوله: ﴿إِنِّي لَخَيْرٌ لَّكُمْ أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: مجرد
ذهابكم به يحزني ويشق عليّ، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو
مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله ﴿و﴾ مانع ثان، وهو أنني
﴿أَعِثُّ أَنْ أَكُلَهُ الذُّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: في حال
غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من اللذبة.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة
حريصون على حفظه، ﴿إِنَّا إِذًا لَكَاظِمُونَ﴾ أي: لا خير فينا
ولا نفع يرجى منا، إن أكله الذنب وغلبنا عليه.

فلما مهلوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم
المانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

(١٥-١٨) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوا فِي عَجَبَاتٍ لِّمَدِينَةٍ
وَأَوْسَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَتِّهَهُمْ بِأَرْجَمِهِمْ هَذَا رَهْمٌ لَا يُنْهَرُونَ ○ وَكَانَ أَبُوهُمَا
عِشَّةً يَنْكَرُونَ ○ قَالُوا يَتَّخِذُ مَا لَكَ لَا تَأْتِيَا عَلَى يُوْشَعَ بَيْنَ مَتْنَيْكَ
مَتْنَيْكَ فَأَكَلَهُ الذُّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ○
وَجَاءُوا عَلَى قَبِيضٍ يَدْرِ كَرِيمٌ ○ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ الْفُسْخُكُمْ أَمْرًا فَصَبَّرْ
جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا هُم بِمَفْعُولُونَ﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف
بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة
الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما
أجمعوا عليه، ففعلوا فيه قدرتهم، وألقوه في الحب، ثم إن
الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة
﴿لَتُنَتِّهَهُمْ بِأَرْجَمِهِمْ هَذَا رَهْمٌ لَا يُنْهَرُونَ﴾ أي: سيكون منك معاتبة

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَنَ رَبِّيَ ۖ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا
الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيْتَا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ
قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ
أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ فُؤْدٍ مِنْ قَبْلِي فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ فُؤْدٍ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ فُؤْدٍ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾
وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا
عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرة لنبية وصفيه يوسف عليه السلام، فانبثت شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ فُؤْدٍ مِنْ قَبْلِي فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراد لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ فُؤْدٍ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ فُؤْدٍ مِنْ دُبُرٍ﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبرأته، وأنها هي الكاذبة فقال لها سيدها: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلباً للستر على أهله ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

خالياً، وهما أمانان من دخول أحد عليهما، بسبب تغلق الأبواب، وقد دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إليّ، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيده، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم.

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها همّاً تركه لله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي.

فلا يليق بي أن أقابله بي أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح.

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه.

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، وذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرته إليه، وتعلقت بشوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألفيا سيدها، أي زوجها لدى الباب، فرأى امرأة شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المرأودة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ولم تقل (من فعل بأهلك سوءاً) تبرة لها وتبرة له أيضاً من الفعل.

وإنما النزاع عند الإرادة والمرأودة ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أو يعذب عذاباً أليماً.

فبرأ نفسه مما رمت به، وقال: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فحيثئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما، ولم يعلم أيهما.

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات

إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴿أَي: فَلتطمئن قلوبكما، فإني سأبدر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتكما غداؤكما أو عشاؤكما، أول ما يحيي إليكما، إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتياكما.﴾

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهم إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ التعبير الذي سأعبره لكما ﴿وَمَا عَلَيْنَا رَيْفَ﴾، أي: هذا من علم الله علميته وأحسن إلي به، وذلك ﴿إِن تَرَكْتَ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَاثِرُونَ﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً.

فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم ﴿وَاتَّبَعْتَ مِلَّةَ آبَائِكَ إِبراهيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ثم فسر تلك الملة بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَنَا﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ بل نفرد الله بالوحيد، ونخلص له الدين والعبادة.

﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ النَّاسُ﴾ أي: هذا من أفضل منته وإحسانه وفضله علينا، وعلى من هداه الله كما هدانا، فإنه لا أفضل من منه الله على العباد بالإسلام والدين القويم، فمن قبله وانقاد له فهو حظه، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك تأنيهم المنة والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه، وفي هذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى. فإن الفتين - لما تقرر عنده أنهما رآياه بعين التعظيم والإجلال، وأنه محسن معلم - ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها، كلها من فضل الله وإحسانه، حيث منَّ عليَّ بترك الشرك واتباع ملة آبائي فهذا وصلت إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت.

ثم صرح لهما بالدعوة فقال: ﴿يَصْطَرِجِ الْيَهُودُ مَرْيَاتٍ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَرَأَيْتُمْ أَفْعَادَ النَّهَارِ﴾ أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك ﴿خَيْرٌ أَرَأَيْتُمْ﴾ الذي له صفات الكمال، ﴿الْأَزِيدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء من ذلك.

﴿أَفْعَادُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء

أي: أمل إليهم، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني سوء ﴿وَأَنْتُمْ﴾ إن صوبت إليهم ﴿بَيْنَ الْيَهُودِ﴾ فإن هذا جهل، لأنه أثر للذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين، وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ﴾ حين دعاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُمْ﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أيسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيت الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعوته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملحة والمحنة الشديدة، وأما أسياؤه فإنه لما اشتهر الخبر وبأن، وصار الناس فيها بين عاذر ولاثم وقادح.

﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي: ظهر لهم ﴿يَوْمَ بَعْدَ مَا رَأَوْا آيَاتِنَا﴾ الدالة على براءته، ﴿لَيْسَتْ شَيْءٌ حَتَّى يَبَيِّنَ﴾ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر، ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عذمت أسبابه نسي، فأروا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

(٣٦-٤٠) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَمُنُّكَ مِنَ الْمُنْتَحِينَ ٥ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا كَلَامٌ تَرْفَاقِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَيْنَا رَيْفٌ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَاثِرُونَ ٥ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِكَ إِبراهيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ النَّاسُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٥ يَصْطَرِجِ الْيَهُودُ مَرْيَاتٍ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَرَأَيْتُمْ أَفْعَادَ النَّهَارِ ٥ مَا مَسْبُوتٌ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَشْرًا وَتَأْتِكُمْ مِمَّا تَنْزِلُ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلُطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الْبَينُ الْقَينِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ﴿و﴾ لما دخل يوسف السجن، كان في جملة من ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها، ف ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ وذلك الخبر ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما: ﴿إِنَّا نَمُنُّكَ مِنَ الْمُنْتَحِينَ﴾ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه.

ف ﴿قَالَ﴾ لهما محبياً لطلبتهما: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا كَلَامٌ تَرْفَاقِيهِ

٢٤٠

الْبَقَرَةُ

الْبَقَرَةُ

وَاتَّبَعَتْ يَلَّةً عَابَاةً إِلَىٰ بُرْهَيْمٍ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٣٨﴾ يَصْحَبُ السَّجْنَاءَ وَأَرْبَابَ مُتَعَرِّفَاتٍ خَيْرٌ أَمَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَشْرَافًا وَآبَاءَ أَكْثَرٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ أَمْرًا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤٠﴾ يَصْحَبُ السَّجْنَاءَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَاسْتَقْبَلَ رَبَّهُ خَيْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَفِي الْأَمْرِ لِلَّهِ فِيهِ تَشْتَبَاهُ ﴿٢٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَمَّا فِي السَّجَنِ بَضَعَ سِوِينَ ﴿٢٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَنَّكَ الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتَ لِرَأْيِي مُعْتَدِلًا ﴿٢٤٣﴾

وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر له شأني وقصتي، لعله يرقى لي، فيخرجني مما أنا فيه، ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بآتم الإحسان، وذلك ليم الله أمره وقضاه.

﴿فَلَمَّا فِي السَّجَنِ بَضَعَ سِوِينَ﴾ والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سببًا كان سببًا لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك.

(٤٣-٤٩) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَنَّكَ الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتَ لِرَأْيِي مُعْتَدِلًا﴾ كَالْوَأَلِ الْأَخْلَمِ يَعْلَمُونَ ○ وَقَالَ الَّذِي نَحَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ○ يُوسُفُ إِنَّا الصِّدِّيقُ أَفْتَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ

كان وما لم يشأ لم يكن ﴿وَمَا مِنْ دَالِيٍّ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَشْرَافًا وَآبَاءَ أَكْثَرٍ﴾.

أي: كسوتوها أسماء، وسميتوها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم يتزل الله بها سلطانًا، لم يكن طريق ولا وسيلة، ولا دليل لها.

لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي الْقَيْمُ﴾ أي: المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها.

ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك، فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما - بذلك - الحجة - ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما بعد ما وعدهما ذلك، فقال:

(٤١) ﴿يَصْحَبُ السَّجْنَاءَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَاسْتَقْبَلَ رَبَّهُ خَيْرًا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، فإنه يخرج من السجن ﴿فَاسْتَقْبَلَ رَبَّهُ خَيْرًا﴾ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه.

﴿فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فإنه عبر [عن] الخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل، تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما، أنه لا بد من وقوعه فقال: ﴿فَفِي الْأَمْرِ لِلَّهِ فِيهِ تَشْتَبَاهُ﴾ أي: تسالان عن تعبيره وتفسيره.

(٤٢) ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَمَّا فِي السَّجَنِ بَضَعَ سِوِينَ﴾ أي: ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾

المقام المحمود الذي يغطيه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت أنطافه، ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفياه وأوليائه.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا آي: من الفتين، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه﴾ **﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ ذَلِكَ آي: وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيّل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين فقال: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ. فَأُرسِلْونَ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها.**

فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ﴾ آي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، **﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ يَسَوَانِ بِأَكْثَرِهِنَّ سَبْعَ عِمَاقٍ وَسَبْعَ سُتُورَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَكُونُ لَكُمْ لَعْنَةً﴾** آي: التائس أَرَجُّهُ إِلَى التَّائِسِ لَعْنَتُهُمْ يَكُونُ. فإنهم مشفقون لتعبيرها، وقد أهمتهم.

فغير يوسف السبع البقرات السماء، والسبع السنبلات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات المعجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجذبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحرث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك.

وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب. والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب إلى سني الجذب، فقال:

﴿تَرْزُقُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ آي: متتابعات. **﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾** من تلك الزروع **﴿تَذَرُون﴾** آي: اتركوه **﴿فِي سُتُورٍ﴾** لأنه أبقي له وأبعد عن الالتفات إليه **﴿وَلَا قِيلَا نَتَنَا نَأْكُلُون﴾** آي: دبروا أيضاً أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ آي: بعد تلك السنين السبع المخصبات **﴿سَبْعَ شِدَادٍ﴾** آي: مجذبات جداً **﴿وَيَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾** آي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً **﴿وَلَا قِيلَا نَتَنَا نَحْمِصُون﴾** آي: تمنعونه من التقديم لهم.

يَكُونُ لَكُمْ لَعْنَةً يَكُونُ ۝ قَالَ تَرْزُقُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ تَذَرُونَهُ فِي سُتُورٍ ۝ وَلَا قِيلَا نَتَنَا نَأْكُلُون ۝ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَحْمِصُون ۝ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَأْكُلُ النَّاسُ فِيهِ يَعْصِرُونَ ۝ لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة التي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

وذلك أنه رأى رؤيا حالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم، وقال: **﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ يَسَوَانِ بِأَكْثَرِهِنَّ سَبْعَ آي: سبع من البقرات﴾** **﴿عِمَاقٍ﴾** وهذا من العجب، أن السبع المعجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السماء التي كُنْ نهاية في القوة.

﴿و﴾ رأيت **﴿سَبْعَ سُتُورَاتٍ خُضْرٍ﴾** يأكلن سبع سنبلات **﴿يَكُونُ لَكُمْ لَعْنَةً﴾** يَأْتِي الْمَلِكُ أَتُونِي فِي زُرْبَةٍ ۝ لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد **﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعَصُّونَ﴾** فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجهًا.

﴿وَقَالُوا أَتُحَدِّثُ أَخْبَارَ﴾ آي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، إيمان ليس بعذراً^(١)، ثم قالوا: **﴿رَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِكَلِمَةٍ﴾** آي: لا نغير إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإننا لا نغيرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجاء، وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام، فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتماً لها غاية، فغيرها يوسف - وقمت عندهم موقفاً عظيماً، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بأدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك

﴿٢٤١﴾

٢٤١

﴿٢٤٢﴾

قَالُوا أَصْغَتْ أَخْلَصَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٢٤١﴾
 وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ
 فَأَرْسِلُونِ ﴿٢٤٢﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَتْنَانِي فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
 يَسْمَانُ بِأَكْلِهِنَّ سَعْعَ عَجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خَضِرٍ
 وَأُخْرَى بَسِطَ لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٤٣﴾ قَالَ
 تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا
 قَلِيلًا يَأْكُلُونَ ﴿٢٤٤﴾ ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ أَكُنْ
 مَا قَدَّمْتُمْ لِنَافِلِكُمْ لَا قَلِيلًا يَمَازُحُصُونَ ﴿٢٤٥﴾ ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 عَامٌ فِيهِ يَأْكُلُ النَّاسُ فِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لِلْمَلِكِ أَتُؤْنِي
 بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَتَسْأَلْهُ مَا بَالُ
 الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ لِي يَدَيْنِ رَّبِّي وَيَكْذِبْنَ عَلَيَّ ﴿٢٤٧﴾ قَالَ
 مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْنِي بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِي قُلْتُ حَسْبُ لِلَّهِ
 مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصَصَ
 الْحَقُّ أَنَا وَرُدَّتْهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَيَنَّ الصِّدِّيقِينَ ﴿٢٤٨﴾ ذَلِكَ
 لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٤٩﴾

﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.

يَحْتَمِلُ أَنْ مَرَادَهَا بِذَلِكَ زَوْجَهَا، أَيْ: لِيَعْلَمَ أَنِّي حِينَ
 أَقْرَرْتُ أَنِّي رَاوَدْتُ يَوْسُفَ، أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، أَيْ: لَمْ
 يَجْرِئُ مِنِّي إِلَّا مَجْرَدَ الْمَرَاوَدِ، وَلَمْ أَفْسِدْ عَلَيْهِ فَرَاشَهُ، وَيَحْتَمِلُ
 أَنْ الْمَرَادُ بِذَلِكَ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ يَوْسُفَ حِينَ أَقْرَرْتُ أَنِّي أَنَا الَّذِي
 رَاوَدْتُهُ، وَأَنَّهُ صَادِقٌ، أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ فِي حَالِ غَيْبَتِهِ عَنِّي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَائِبِينَ﴾. فَإِنَّ كُلَّ خَائِنٍ لَا بَدَّ أَنْ تَعُودَ خِيَانَتُهُ وَمَكْرَهُ
 عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَتَبَيَّنَ أَمْرُهُ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ تَرْكِيَةِ لِنَفْسِهَا، وَأَنَّهُ لَمْ يَجِرْ
 مِنْهَا ذَنْبٌ فِي شَأْنِ يَوْسُفَ، اسْتَدْرَكَتْ قَالَتْ:

﴿وَمَا أَتَّبِعُ قَسِيًّا﴾ أَيْ: مِنَ الْمَرَاوَدِ وَالْهَمِّ، وَالْحَرَصِ
 الشَّدِيدِ، وَالْكِدِّ فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَنَارَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أَيْ:
 لِكثِيرَةِ الْأَمْرِ لِمَصَاحِبِهَا بِالسُّوءِ، أَيْ: الْفَاحِشَةِ وَسَائِرِ الذُّنُوبِ،
 فَإِنَّهَا مَرْكَبُ الشَّيْطَانِ، وَمِنْهَا يَدْخُلُ عَلَى الْإِنْسَانِ ﴿إِلَّا مَا رَجَعَ
 رَجْعًا﴾ فَتُفْجَأُ مِنْ نَفْسِهِ الْأَمَارَةِ، حَتَّى صَارَتْ نَفْسُهُ مَطْمَئِنَةً إِلَى

﴿ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أَيْ: بَعْدَ السَّبْعِ الشَّدَادِ ﴿عَامٌ فِيهِ يَأْكُلُ
 النَّاسُ فِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أَيْ: فِيهِ تَكْثُرُ الْأَمْطَارُ وَالسُّيُولُ، وَتَكْثُرُ
 الْغُلَاتُ، وَتَزِيدُ عَلَى أَقْوَانِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَعْصِرُونَ الْعِنَبَ
 وَنَحْوَهُ، زِيَادَةً عَلَى أَكْلِهِمْ، وَلَعَلَّ اسْتِدْلَالَهُ عَلَى وَجُودِ هَذَا
 الْعَامِ الْخَصْبِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ مَصْرُحٍ بِهِ فِي رُؤْيَا الْمَلِكِ، لِأَنَّهُ
 فَهَمٌ مِنَ التَّقْدِيرِ ^(١) بِالسَّبْعِ الشَّدَادِ، أَنَّ الْعَامَ الَّذِي يَلِيهَا يَزُولُ بِهِ
 شِدَّتُهَا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَزُولُ الْجَدْبُ الْمُسْتَمِرُّ سَبْعَ سِنِينَ
 مُتَوَالِيَاتٍ، إِلَّا بِعَامٍ مَخْصُوبٍ جَدًّا، وَإِلَّا لَمَا كَانَ لِلتَّقْدِيرِ فَائِدَةٌ.
 فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ وَالنَّاسِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِتَأْوِيلِ
 يَوْسُفَ لِلرُّؤْيَا، عَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ، وَفَرَحُوا بِهَا أَشَدَّ الْفَرَحِ.

(٥٧-٥٠) ﴿وَقَالَ لِلْمَلِكِ أَتُؤْنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ
 إِلَى رَبِّكَ فَتَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ لِي يَدَيْنِ رَّبِّي وَيَكْذِبْنَ
 عَلَيَّ﴾ أَيْ: قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْنِي بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِي قُلْتُ حَسْبُ لِلَّهِ مَا
 عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا وَرُدَّتْهُ
 عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَيَنَّ الصِّدِّيقِينَ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَائِبِينَ﴾ وَمَا أَتَّبِعُ قَسِيًّا إِنَّ النَّفْسَ لَأَنَارَةٌ بَالِغَةٌ
 مَا رَجَعَ رَجْعًا إِنَّ رَّبِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ اسْتَخْلَفْتُهُ
 لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمْتُ قَالَ إِنَّكَ أَبَوْتُ لَنَفْسِي مَكِيدًا يُكِيدُ أَمِينٌ﴾ قَالَ أَتَجَمَّلِي عَلَى
 خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيصٌ عَلَيْكَ ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا يَوْسُفَ فِي الْأَرْضِ
 يَتَّبِعُوا مِنَّا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ مِمَّا رَزَقْنَا وَلَا نَضِيقُ كَفْرَ
 الْمُتَحَيِّينَ﴾ وَكَأَخْرَجَ الْآخِرَةَ خَيْرَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿يَقُولُ
 تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لَمَنْ عِنْدَهُ ﴿أَتُؤْنِي بِهِ﴾ أَيْ: يَبْسُوفُ
 عَلَيْهِ السَّلَامَ، بَأَنْ يَخْرُجَهُ مِنَ السِّجْنِ وَيَحْضَرُوهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا
 جَاءَ يَوْسُفَ الرَّسُولَ، وَأَمَرَهُ بِالْحَضُورِ عِنْدَ الْمَلِكِ، امْتَنَعَ عَنِ
 الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخُرُوجِ، حَتَّى تَتَبَيَّنَ بَرَاءَتُهُ التَّامَةُ، وَهَذَا مِنْ صَبْرِهِ
 وَعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ التَّامِ.

فَ ﴿قَالَ﴾ لِلرُّسُولِ ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ بِعَنِي بِهِ الْمَلِكُ
 ﴿فَتَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ لِي يَدَيْنِ﴾ أَيْ: أَسْأَلُهُ مَا شَأْنُهُنَّ
 وَقَصَّتُهُنَّ، فَإِنَّ أَمْرَهُنَّ ظَاهِرٌ مُتَضَعٌ ﴿إِنَّ رَّبِّي يَكْذِبُهُنَّ عَلَيَّ﴾.

فَاحْضَرَهُنَّ الْمَلِكُ، وَقَالَ: ﴿مَا خَطْبُكِ﴾ أَيْ: شَأْنُكِ ﴿إِذْ
 رَأَوْنِي بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِي﴾. فَهَلْ رَأَيْتِ مِنْهُ مَا يَرِيبُ؟

فَبَرَأَتْهُ ﴿قُلْتُ حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أَيْ: لَا
 قَلِيلَ وَلَا كَثِيرَ، فَحِينَئِذٍ زَالَ السَّبَبُ الَّذِي تَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ التَّهْمَةُ،
 وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا عِنْدَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ فَ ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ
 حَصَصَ الْحَقُّ﴾ أَيْ: تَمْحُضُ وَتَبَيَّنَ، بَعْدَ مَا كُنَّا نَدْخُلُ مَعَهُ مِنَ
 السُّوءِ وَالتَّهْمَةِ، مَا أَوْجِبَ لَهُ السِّجْنَ ^(٢) ﴿أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي
 وَإِنَّهُ لَيَنَّ الصِّدِّيقِينَ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَبَرَاءَتِهِ.

﴿ذَلِكَ﴾ الْإِقْرَارُ الَّذِي أَقْرَرْتُ، [أَنِّي رَاوَدْتُ يَوْسُفَ]

(١) فِي ب: التَّعْيِيرِ. (٢) كُلَّا فِي ب، وَفِي أ: لِسِجْنِ يَوْسُفَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا أَنْبِئُكَ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ ٢٤٢ ﴿أَلَمْ أَرْجَمْ رَجِيًّا إِنَّ رَجِيًّا غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ٢٤٣ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهِ أَنْتَ خَلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ آمِينَ﴾ ٢٤٤ ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ ٢٤٥ ﴿وَوَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٢٤٦ ﴿وَلَاخِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ٢٤٧ ﴿وَجَاءَتْ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ٢٤٨ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَجْرٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ أَتَى أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَاخِرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ٢٤٩ ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ ٢٥٠ ﴿قَالُوا سَرُدُّ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ٢٥١ ﴿وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ رَجِعُونَ﴾ ٢٥٢ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ ٢٥٣

تَرَوْتَ أَتَى أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَاخِرُ الْمُنْزِلِينَ ○ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي ○ قَالُوا سَرُدُّ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ○ وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ رَجِعُونَ ○ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ○ قَالَ هَلْ مَسَّكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا مَسَّكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِيظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ○ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ هَذِهِ بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَبَدَّلَ أَخُنَا وَمَنَعَهُمْ أَخَانًا وَتَرَدَّدُوا كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ بَعِيرٍ ○ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ فَلَئِنْ لَمْ تُؤْتُونِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَخَاطَبَكُمْ فَلَمَّا آوَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ○ وَقَالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَدْخُلُوا مِنْ أَبِيكُمْ وَتَجِدُوا أَدْخُلُوا مِنْ أَوْبَيْكُمْ مُتَنَفِّرِينَ وَمَا أَفْنَى عَنْكُمْ يَوْمَ الْفَتْحِ ○ إِنَّ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ هُوَ عَلَى اللَّهِ فِي شَيْءٍ ○ وَلَمَّا دَخَلُوا إِلَّا إِلَهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ قَلْبُوكُمُ الْتَوَكَّلُونَ ○ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ بَعْقُوبَ قَضَاهَا وَرَفَعَهُ لَدُنْهُ لِمَا عَمَلْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ أَي: لما تولى يوسف عليه السلام خزان الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر

رهبها، متفاد لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعده.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السباق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر.

فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك وقال: ﴿أَتَأْتُونِي بِهِ أَنْتَ خَلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله خصيصة لي، ومقرَّبًا لدي، فاتوه به مكرَّمًا محترمًا، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا﴾ أي: عندنا ﴿مَكِينٌ آمِينَ﴾ أي: متمكن، أمين على الأسرار.

فـ ﴿قَالَ﴾ يوسف طلبًا للمصلحة العامة ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: على خزان جبايات الأرض وغلالها، وكيلاً حافظًا مدبرًا.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ أي: حفيظ للذي أنولاه، فلا يضع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير، والإعطاء، والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه.

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزان الأرض، فجعله الملك على خزان الأرض وولاه إياها.

قال تعالى: ﴿وَوَكَذَلِكَ﴾ أي بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ﴾ في عيش رغد ونعمة واسعة، وجاء عريض، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ﴾ أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها، وقدراها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال: ﴿وَوَكَذَلِكَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان. فبالثقوى ترك الأمور المحرمة من كبار الذنوب وصغارتها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب، بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح، من الواجبات والمستحبات.

(٦٨-٥٨) ﴿وَجَاءَتْ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ○ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَجْرٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ

جميعها في السنين المخصبة زرعًا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجى من الأطعمة شيئًا كثيرًا، وحفظه، وضبطه ضبطًا تامًا، فلما دخلت السنين المجبة، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنه لأجل الميرة إلى مصر، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُسْكِرُونَ﴾ أي: لم يعرفوه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِمَهَاجِهِمْ﴾ أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تديره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيه، وهو بنيامين.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿تَأْتُونِي بِأَجْزَلِكُمْ يَزِيدُكُمْ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام.

ثم رغبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ وذلك لعلمه باضطرامهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

ف ﴿قَالُوا سَتَرْنَا عَنْهُ آيَاتِنَا﴾ دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولفًا به لا بصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم ﴿وَرَبَّنَا لَقَتَلُونَا﴾ لما أمرتنا به.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿يَقِينِي﴾ الذين في خدمته: ﴿اجْتَمِعُوا بِضَعْتُمْ﴾ أي: الثمن الذي اشتروا به من الميرة.

﴿فِي يَدِهِمْ لَهَجٌ بِمِرْيَتِهِ﴾ أي: بضاعتهم إذا رآوها بعد ذلك في رحالهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأجل التخرج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلًا وافيًا، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها، ولا يشعرون لما يأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي: إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ﴾ أي: ليكون ذلك سببًا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: ﴿وَرَبَّنَا لَمْ نَكْتَلِفْهُمُ﴾ من أن يعرض له ما يكره.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ أَمْسَكْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى.

﴿قَالَ هَبْ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: يعلم حالي،

قَالَ هَلْ أَمْسَكْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ هَبْ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ هَذِهِ بَضْعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبُئُكَ أَهْلُنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَزَادَ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴿١٣﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنِّي وَأَنِّي بِهِ إِلَا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٤﴾ وَقَالَ يَسَّىٰ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابِ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُمِرْتُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٥﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ لَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده عليّ، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

ثم إنهم ﴿لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلومًا عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، ف ﴿قَالُوا﴾ لا يبيهم - ترغيبًا في إرسال أخيه معهم -: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ﴾ أي: أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وقى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟.

﴿هَذِهِ بَضْعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبُئُكَ أَهْلُنَا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخي صار سببًا لكيله لنا، فقبولنا^(١) أهلنا، وأتينا^(٢) لهم بما هم مضطرون إليه من القوت، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَزَادَ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، ﴿ذَلِكَ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

(١) في ب: فنيير. (٢) في ب: وناتى.

ف ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ يَعْقُوبُ: ﴿إِنَّ أَرْسِلَكُمْ مَعَكُمْ حَتَّى تَوُفِّيَ مُوسَى﴾
 يَرْسِلَ اللَّهُ أَي: عَهْدًا ثَقِيلًا، وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهُ﴾
 بِحَالِ بَنِيهِمْ أَي: إِلا أَن يَأْتِيَكُمْ أَمْرٌ لَا قِيلَ لَكُمْ بِهِ، وَلَا تَقْدِرُونَ
 دَفْعَهُ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهُ مُوسَى عَنْهُ﴾ عَلَى مَا قَالَ وَأَرَادَ ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَيَّ مَا
 تَقُولُ وَكَذَلِكَ﴾ أَي: تَكْفِي بِشَهَادَتِهِ عَلَيْنَا، وَحِفْظُهُ وَكِفَاةُهُ، ثُمَّ لَمَّا
 أَرْسَلَهُ مَعَهُمْ وَضَاهَمَ إِذَا هُمْ قَدِمُوا مِصْرَ، أَن ﴿لَا تَدْخُلُوا بَنِي بَابِ
 زَيْدٍ وَادْخُلُوا بَنِي أَبَوَيْكُمْ تَتَّقُوا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ،
 لِكَثْرَتِهِمْ وَبِهَاءِ مَنْظَرِهِمْ، لِكُونِهِمْ أَبْنَاءَ^(١) رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا
 سَبَبُ.

﴿و﴾ إِلا ف ﴿مَا أَفْنَى عَنْكُمْ يَرْسِلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فَاَلْمَقْدَرُ لَا يَدُ
 أَن يَكُونَ ﴿إِنَّ الْمُنْكَرَ﴾ إِلا بِشَيْءٍ أَي: الْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ، وَالْأَمْرُ
 أَمْرُهُ، فَمَا قَضَاهُ وَحَكَمَ بِهِ لَا يَدُ أَن يَقَعَ ﴿عَلَيْهِ تَوَكُّلٌ﴾
 أَي: اعْتَمَدْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا عَلَى مَا وَصَّيْتُمْ بِهِ مِنْ السَّبَبِ
 ﴿وَعَلَيْهِ تَتَوَكَّلُ الْتَوَكُّلُونَ﴾ فَإِنَّهُ بِالتَّوَكُّلِ يَحْصُلُ كُلُّ مَطْلُوبٍ،
 وَيَنْدَفِعُ كُلُّ مَرْهُوبٍ.

﴿وَلَمَّا﴾ ذَهَبُوا وَ ﴿دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ﴾
 ذَلِكَ الْفِعْلُ ﴿يُغْنِي عَنْهُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ شَيْءٍ﴾ إِلا حَاجَةً فِي تَفْسِيرِ يَعْقُوبَ
 قَسَمَتَهَا، وَهُوَ مُوجِبُ الشَّفَقَةِ وَالْمَحَبَةِ لِلْأَوْلَادِ، فَحَصَلَ لَهُ فِي
 ذَلِكَ نَوْعُ طُمَآنِينَةٍ، وَقَضَاهُ لَمَّا فِي خَاطِرِهِ.

وَلَيْسَ هَذَا قَصُورًا فِي عِلْمِهِ، فَإِنَّهُ مِنَ الرُّسُلِ الْكَرَامِ
 وَالْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُ: ﴿وَلَيْتَهُ لَدُوَّ عَلِيٍّ﴾ أَي:
 لِصَاحِبِ عِلْمٍ عَظِيمٍ ﴿لَمَّا عَلَّمْتَهُ﴾ أَي: لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ، لَا بِحَوْلِهِ
 وَقُوَّتِهِ أَدْرَكَهُ، بَلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَتَعْلِيمِهِ ﴿وَلَكِنَّهُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ﴾ عَوَاقِبُ الْأُمُورِ وَدَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ
 مِنْهُمْ، يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِلْمِ وَأَحْكَامِهِ وَلَوَازِمِهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ.

(٦٩-٧٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَاةٍ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ
 إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِشْ يَمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ
 بِمَهَازِهِمْ جَعَلَ لِيَسْقَاةٍ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهَا أَلْيَوْمِ إِلَيْكُمْ
 لَنَسْرِفُونَ ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَقْوَدُونَ﴾ قَالُوا نَقْفِدُ صَوَاعَ
 الْمَلِكِ وَلَمَّا جَاءَهُ بِهِ جُمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ
 عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُقْفِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ قَالُوا هَذَا
 جَزَاءُكَ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُكَ
 كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ قَبَلًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاةٍ أَخِيهِ ثُمَّ
 اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاةٍ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
 فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتَيْنِ دَرَجَتَيْنِ مَنْ شَاءَ وَتَوَقَّى كُلِّي
 ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِفْ فَقَدْ سَرَفَ أَخُوكَ إِذْ يَسْرِفُ فَقَدْ سَرَفَ
 فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا صِفُّونَ﴾ قَالُوا يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِذْ لَهُ أَبٌ شَيْخًا كَبِيرًا

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِمَهَازِهِمْ جَعَلَ لِيَسْقَاةٍ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
 أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهَا أَلْيَوْمِ إِلَيْكُمْ لَنَسْرِفُونَ ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا
 عَلَيْهِمْ مَاذَا تَقْوَدُونَ﴾ قَالُوا نَقْفِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ
 وَلَمَّا جَاءَهُ بِهِ جُمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ
 لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُقْفِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾
 قَالُوا أَمَّا جَزَاءُكَ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿قَالُوا جَزَاءُ
 مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُكَ كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾
 قَبَلًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاةٍ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ
 وَعَاةٍ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
 فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتَيْنِ دَرَجَتَيْنِ مَنْ شَاءَ
 وَتَوَقَّى كُلِّي ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِفْ
 فَقَدْ سَرَفَ أَخُوكَ إِذْ يَسْرِفُ فَقَدْ سَرَفَ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ
 وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 صِفُّونَ ﴿قَالُوا يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِذْ لَهُ أَبٌ شَيْخًا كَبِيرًا
 فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِذَا نَزَلَ مِنَ اللَّحْيَيْنِ ٥ قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ
 تَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْتُمْ مَتَمَّنًا عِنْدَهُ إِذَا إِذَا لَطْلُوتُ ٥ أَي: لَمَّا
 دَخَلَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَى يُوسُفَ ﴿آوَاةٍ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أَي:
 شَقِيقِهِ وَهُوَ «بَنِيَامِينَ» الَّذِي أَمْرُهُمْ بِالْإِتْيَانِ بِهِ، [لَوْ] ضَمَّهُ إِلَيْهِ،
 وَاخْتَصَّهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ، وَأَخْبَرَهُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ، وَ ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا
 أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِشْ﴾ أَي: لَا تَحْزَنْ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَإِنْ
 الْعَاقِبَةُ خَيْرٌ لَنَا. ثُمَّ خَبَرَهُ بِمَا يَرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ وَتَحِيلَ لِبَقَائِهِ عِنْدَهُ
 إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِمَهَازِهِمْ﴾ أَي: كَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ إِخْوَتِهِ،
 وَمِنْ جُمْلَتِهِمْ أَخُوهُ هَذَا ﴿جَعَلَ لِيَسْقَاةٍ﴾ وَهُوَ الْإِنَاءُ الَّذِي
 يَشْرَبُ بِهِ، وَيَكَالُ فِيهِ «فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ» أَوْعَا مَتَاعَهُمْ، فَلَمَّا
 انْطَلَقُوا ذَاهِبِينَ ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهَا أَلْيَوْمِ إِلَيْكُمْ لَنَسْرِفُونَ﴾ وَلَعَلَّ
 هَذَا الْمُؤَذِّنَ لَمْ يَعْلَمْ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ.

﴿قَالُوا﴾ أَي: إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴿وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ لِأَبْعَادِ التَّهْمَةِ،
 فَإِنَّ السَّارِقَ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلا الْبَعْدُ وَالْإِنْتَظَارُ عَمَّنْ سَرَقَ مِنْهُ،

هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا.

وفي هذا من الغضب عليهما ما فيه، ولهذا أسرها يوسف في نفسه ﴿وَلَمْ يَبْدُهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه، و﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَشَدُّ سَرًّا مَكْنَانًا﴾ حيث ذمتمونا بما أنتم على أشرف منه ﴿وَأَلَّاهُ أَتَعْلَمُ بِمَا نَصِبْتُكَ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا برآء منها، ثم سلخوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيه.

ف﴿قَالُوا يَا أَبَا نَسْرٍ إِنَّ لَكَ أبا شَيْئًا كَبِيرًا﴾ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه ﴿فَخَذَ أَمَدًا مَكْنَانًا﴾ إِنَّا نَرُوكَ مِنَ الْتَحَنِينَ فاحسن إلينا وإلى أبنينا بذلك. ف﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَكَادَ أَتَى أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدَهُ﴾ أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنوب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل: «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب ﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿فَلَنُلَاقِيَنَّكَ﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

(٨٠-٨٣) ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجَاتًا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْفِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرْنْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِیَ أَبِی أَوْ يَخْلُكُمُ اللَّهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْخَالِكِينَ ۖ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ قَوْمُوا يَأْتَانَا بِكَ بِنْتُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۖ وَتَبَتِ الْقُرُونُ عَلَىٰ كُنَّا فِيهَا وَالْوَحْيَ الْإِلَهِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ قَالَ بَلْ سَوَّكُم لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ قَسَبَ رَبُّكُمْ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَبِينًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: فلما استأنس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خَلَصُوا نَجَاتًا﴾ أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم ف﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْفِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرْنْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفرطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.

﴿فَلَمَّا أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: سأنيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِیَ أَبِی أَوْ يَخْلُكُمُ اللَّهُ ۖ﴾ أي: بقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْخَالِكِينَ﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ قَوْمُوا يَأْتَانَا بِكَ بِنْتُكَ سَرَقَ﴾ أي: وأخذ بسرقة، ولم يحصل لنا أن تأتينا به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، والحال أنا ما شهدنا بشيء لم

لنسلم له سرقة، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿فَمَاذَا نَفْعُكَ﴾ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم برآء من السرقة.

﴿قَالُوا نَفَعُ صَوَاعُكَ لَكَ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ جَدْلٌ بَعِيرٌ﴾ أي: أجرة له، على وجدانه ﴿وَأَنَا بِهِ رَعِيَّةٌ﴾ أي: كفيل، وهذا بقوله المؤذن المتفقد.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ بِهِ فِي الْأَرْضِ﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَرَدِينَ﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من انهمومهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء هذا الفعل ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ﴾ أي: الموجود في رحله ﴿جَزَاؤُهُ﴾ بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبت عليه السرقة، كان ملكًا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْلِسِينَ﴾.

﴿فَبَدَأَ الْمِفْشِلُ﴾ أي: وأبغضهم قبل وعاء أخيه، وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئًا ﴿أَسْخَرَهَا مِنْهُ وَعَاءُ أَخِيهِ﴾ ولم يقل «وجدنا»، أو سرقها أخوه «مراعاة للحقيقة الواقعة».

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِكَ﴾ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليتم له ما أراد.

قال تعالى: ﴿رَفَعَ رَجِسَتَ مَنْ شَاءَ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعت درجات يوسف، ﴿وَرَفَعَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ لِّمَنْ عَلِمَ﴾ فكل عالم، فوهم من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريبًا منه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن

٢٤٥

فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْهُهُ إِنَّا إِذَا لَطَمُوكُمْ ﴿٢٤٥﴾ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا قَرَضْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِیَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بِمَا يَأْتِيكُمُ سَرَقٌ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٢٤٧﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٢٤٨﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴿٢٤٩﴾ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴿٢٥٠﴾ يُوسُفُ وَأَبِیضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٢٥١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتُلُونَا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٢٥٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥٣﴾

الكلام ﴿وَحُزْنِي﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، لا اليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردمهم عليّ ويقر عيني بالاجتماع بهم. (٨٨، ٨٧) ﴿يَبْتَغِي أَهْلُهَا فَتَحَسُّوا مِنْ يُوسُفَ وَأَجِيبُوهُ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ قلنا كذبوا عليه قائلوا بئانا العزير سنألفنا الشرّ وجعلنا يضرّنا ثمّ حزننا فأبى لنا الكذلّ ونصدّق علينا إن الله يجزي المتصدينّين ﴿يُوسُفَ وَأَجِيبُوهُ﴾ أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ﴾، فإن الرجاء يوجب للبعد السعي والاجتهاد فيما رجاء، والإياس يوجب له التناقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ فإنهم - لكفرهم - يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاءه لرحمة الله وروحه.

تعليمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيلبغ ما لبغ.

﴿وَسَلِّ﴾ إن شككت في قولنا ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فقد اطلعوا على ما أخبرناك به ﴿وَرَأَى الصَّادِقُونَ﴾ لم تكذب، ولم نغير، ولم نبدل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمدّه، وانهمهم أيضًا في هذه القضية، كما انههم في الأولى، و ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: الجأ في ذلك إلى الصبر الجميل الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج، لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي: يوسف وبنيامين، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفرجه وبيّته، واضطراري إلى إحسانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي جعل لكل شيء قدرًا، ولكل أمر متهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

(٨٤-٨٦) ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَبِیضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتُلُونَا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٢٥٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥٣﴾ أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد ﴿وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ﴾ أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشرق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى، فقال له أولاده - متعجبين من حاله -:

﴿تَاللَّهِ تَقْتُلُونَا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: فانيا لا حراك فيك، ولا قدرة على الكلام.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدًا. ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ أي: ما أبث من

سورة يوسف

٢٤٦

سورة يوسف

فذهبوا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف ﴿قَالُوا﴾ متضرعين إليه: ﴿يَتَانِيَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ وَجُنَا يَضَعُهُ مُزْجَحُو عَلَيْنَا﴾ أي: قد اضطربنا نحن وأهلنا ﴿وَجُنَا يَضَعُهُ مُزْجَحُو﴾ أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع ﴿قَالُوا لَنَا الْكِيلُ﴾ أي: مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بواب الدنيا والآخرة.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رفق لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم.

(٨٩-٩٢) ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قالوا له ذلك لأن يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد مررنا الله علينا إثم من يتن وتسير فإنا الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيلُونَ﴾ قال لا تنزيب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فعله - والله أعلم - قولهم: ﴿إِنْ يَسِّرْ فَقَدْ سَرَقَ أَحَدٌ لَمْ يَنْبَغِ﴾ أو أن الحادث الذي فرق بينه وبين أبيه، هم السب فيه، والأصل الموجب له، ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ وهذا نوع اعتذار لهم بجہلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: ﴿وَلَوْلَاكَ لَأَنْتَ يُّوسُفَ قَالَ أَنَا يُّوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والتقوى، والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى ﴿إِثْمٌ مِنْ يَتَنِي وَتَسِيرَ﴾ أي: يتن فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامثالها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتباعد لك عن أيبك، فآثرك الله تعالى، ومكنك مما تريد ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيلُونَ﴾ وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف عليه السلام كرماً وجوداً: ﴿لَا تَنْزِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص

الخلق، وخيار المصطفين.

(٩٣-٩٨) ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قالوا تالله إنك لفي ضلالتك الفكيبر ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَعِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ عَلِمَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالوا يَتَانِيَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِلُونَ ﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: قال يوسف عليه السلام لأخوته: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ لأن كل داء يداوى بفسده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويحول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَيْنَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۖ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۚ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا يَبْنَأُ بَنَانًا ۖ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٠١﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَئِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ ۚ إِنَّ نُرْجَ الشَّيْطَانِ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٤﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْإِنسَانِ فِي الْأَخِرَةِ ۖ تَوْفَنِي مُسْلِمًا ۖ وَالْحَقِيقَ بِالصِّدِّيقِينَ ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾

رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ۖ حين رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ۖ ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ إحسانًا جسيمًا ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب، لتنام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إليّ.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أَحْسَنَ بكم» بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، فبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب.

﴿مِن بَعْدِ ۚ إِنَّ نُرْجَ الشَّيْطَانِ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فلم يقل: «نُرْجَ الشيطان إخواني» بل كان الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك

﴿وَكَمًا فَصَلَّتْ أَلْوَيْ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شَمَّ يعقوب ربح القميص فقال: ﴿إِنِّي لَكَيْدٌ رِيحٌ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُنِيدَنِي﴾ أي: تسخرون مني، وترزعون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنه بهم، فقالوا: ﴿تَأْتِيكَ إِنَّكَ لَتَنِي سَلِيلَكَ الْفَكِيدِي﴾ أي: لا تزال تأنفنا في بحر الحب، لا تدري ما تقول.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم ﴿أَلْقَيْنَاهُ عَلَى الْقَمِصِ﴾ عَلَى وَجْهِهِ ۖ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۚ أي: رجع على حاله الأولى بصيرًا، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه، ويتعجبون منه منتصرًا عليهم، متبجحًا بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث كنت مترجيا للقاء يوسف، مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن.

فأقروا بذهبنهم وجمعوا بذلك و ﴿قَالُوا يَبْنَأُ بَنَانًا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

ف ﴿قَالَ﴾ مجيبًا لطيلبتهم، ومسرعا لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ورجاني به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة.

(١٠٠، ٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَئِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ ۚ إِنَّ نُرْجَ الشَّيْطَانِ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۚ أي: ﴿فَلَمَّا﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنها، فلما وصلوا إليه، و﴿دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام^(١) والتبجيل والإعظام شيئا عظيما ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على سرير الملك، ومجلس العزیز، و﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: أبوه، وأمه، وإخوته، سجدوا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له: ﴿يَبْنَئِي هَذَا تَأْوِيلُ

٢٤٨

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٤٨﴾
وَكَايْنٍ مِنَ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَى
وَهْمٍ عَنْهَا مَعْصُومُونَ ﴿٢٤٩﴾ وَمَا يَوْمُنَ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا
وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٢٥٠﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
أَوْ أَن تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥١﴾ قُلْ هَذِهِ
سَبِيلُ أَعْدَائِي إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَمَا أَتَانِ مِنَ النُّشُورِ كَيْفَ ﴿٢٥٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْبَغِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٥٣﴾ حَتَّى
إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرًا فَتَنَجَّى مِنْ شَأْنِهِمْ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْتَاغِي الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
﴿٢٥٤﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يَفْتَرُونَ وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَقْصِيبَ كُلِّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥٥﴾

كُلِّ شَيْءٍ ﴿٢٥٥﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين.

﴿وَهْدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم - بسبب ما حصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى، وبما حصل لهم من الثواب العاجل والآجل، تحصل لهم الرحمة.

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة، التي قال الله في أولها: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ كِبَارٌ مِّنَ الْآيَاتِ﴾ وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ غير ما تقدم في مطاوعها من الفوائد.

فمن ذلك، أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنفلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة وميؤء، ومن ذل إلى عز، ومن رفق إلى ملك، ومن فرقة وشنات إلى اجتماع واتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من

نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلا شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى الذين هم أكمل عقولاً، وأصح آراء، وليتبين أمرهم وينضح شأنهم. ﴿أَفَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْبَغِي الْأَرْضِ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه، فيصيكم ما أصابهم ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن نعيم الدنيا منغص منكد منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفنى أبداً، بل هو على الدوام، في تزايد وتواصل ﴿عَلَيْهِمْ غَيْرَ يَجْذُرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تكون لكم عقول تؤيِّر الذي هو خير على الأدنى.

(١١٠، ١١١) ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَتَنَجَّى مِنْ شَأْنِهِمْ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْتَاغِي الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرُونَ وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقْصِيبَ كُلِّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعده الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَاءَهُمْ نَصْرًا فَتَنَجَّى مِنْ شَأْنِهِمْ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿وَلَا يَرُدُّ بِأَسْتَاغِي الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولا يرد عذابنا عن اجترم، وتجرا على الله ﴿قَالَ لَهُ يَنْفِرْ وَلَا تَكْزِبْ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً ما لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرُونَ﴾ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلفة ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصفة، ﴿وَتَقْصِيبَ

قصها فأحسنها، ووضحها وبَيَّنَّها.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدًا.

يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساءً، وهو أمِّي لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكنون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرت، لقول يعقوب ليوسف: ﴿يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَيَّ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْكَرِ﴾. ﴿يَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: ﴿يَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته، وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿كَذَلِكَ نَجْئُكَ رَبُّكَ وَمِثْلُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِي وَيَضْمُرُ عَلَيْكَ وَكَفَّ مَالِ يَعْقُوبَ﴾. ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض، والسرور والغبطة، ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يخلت عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيه.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفریق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء ييكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب وآثاره التابعة والسابقة والملاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بتقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب القص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن

العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشاكلة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكبًا له ساجدين، وجه المناسبة فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعتها، فكذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات، كما يهتدى بهذه الأنوار ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورًا وجرمًا، لما هو فرع عنه، فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته، ومن المناسبة، أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود [له] معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظمًا محترمًا، عند أبويه وإخوته.

ومن لازم ذلك أن يكون مجتبي مفضلًا في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿كَذَلِكَ نَجْئُكَ رَبُّكَ وَمِثْلُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾. ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خمرا، أن الذي يعصر في العادة يكون خادما لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصة، والسنين المجدية، ووجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحتها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى عليها الماء، وإذا أخضبت السنة سمت، وإذا أجذبت صارت عجافًا، وكذلك السنايل في الخصب تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيس وهي أفضل غلال الأرض.

حقه، فالله خير الراحمين.

ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْهَبْ وَاسْتَكْبِلْ وَانْتَظِرْ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ﴾ وهم: أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوًا بادرهم به، وتمم ذلك بأن لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به.

ثم يرثه العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق. ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضًا، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف، وسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة، أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعًا حرامًا لا يجوز. ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلامًا رقيقًا، وسماه الله شراء^(١)، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء اللاتي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضًا من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وجبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن - بسببها - مدة طويلة.

ومنها: أن الهمم الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهم دافع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿حَانَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم «رجل دعت امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»، وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزما، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصًا لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه، من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي، ما هو جزء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وَهُمْ يَبْهَتُونَ لَوَلَّاهُ أَن تَكُونَ بُرْعَانًا رَبُّهُمْ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَةَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْغَافِلِينَ﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله الله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فر هاربًا، يطلب الباب ليتخلص من شرها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينه، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بيعة، والعمل بالفاقة في الأشياء والأثر من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقدّه من دبره على صدق يوسف وكذبا.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدلل بوجود الصواع في رجل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بيعة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصًا إذا كان معروفًا بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلى من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد، حاملًا فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمى الله هذا الحكم شاهدًا فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لُمتها على ذلك أن تقطن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَودُّنِي عَنْ نَّفْسِي فَاسْتَعْصَمْتُ﴾

(١) كذا في آ، وفي ب: سيدًا، ويبدو والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: ﴿وَوَكَّلْنَاهُ﴾ فسمى الله فعلهم شرع مع كونه حرامًا.

والعرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف
للذي ظن أنه ناج من الفتنين: ﴿أَذْكُرُّنَا بِعِندِ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص
التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في
مال، أو جاه، أو نفع، وأن لا يتمتع من التعليم، أو لا ينصح
فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عليه
السلام قد قال، ووصى أحد الفتنين أن يذكره عند ربه، فلم
يذكره ونسني، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا
ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه
يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً
من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه
مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي يتبع بها في دينه
ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن
يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم
- مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من
كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن
نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع
يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال
النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير
الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة
الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف -
بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب
علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل
خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب
الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المراثي داخل في
الفتوى، لقوله للفتنين: ﴿فَقِصْ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وقال
الملك: ﴿أَقُوتِي فِي رُؤْيَايَ﴾ وقال الفتى ليوسف: ﴿أَقِصْنَا فِي
سَبِّحَ بِقَرَّتِكَ﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من
غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه، من
صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة،
ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف:
﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيصٌ عَلَيْهِ﴾ وكذلك لا تدم
الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله

وقالت بعد ذلك: ﴿أَلَمْ تَكُنْ حَصَصَ اللَّهُ أَتَا زَكَاةً عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ
لَمِنَ الْقَائِلِينَ﴾ وقالت النسوة: ﴿حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ
سُوءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على
المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل
معصية، وإما عقوبة دينية - أن يختار العقوبة الدينية على
مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة.
ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر
بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه
عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول
يوسف عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ
مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير،
وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى
النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه
عبودية له في الشدة، فـ «يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى
الله، فلما دخل السجن استمر على ذلك، ودعا الفتنين إلى
التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما
رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقال له:
﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما،
فراهما متشوقين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فأنهزها،
فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح
لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً، أن
الذي أوصله إلى الحال التي رآها فيها من الكمال والعلم،
إيمانه، وتوحيده، وتركه ملةً من لا يؤمن بالله واليوم الآخر،
وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد
الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي،
وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه
ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح
المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما
سأله الفتيان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى
الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين
بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا
يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى

تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِيدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴿١١٠﴾ .

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهب غيره، بأمر لا يحب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهمًا أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَكَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدَهُ﴾ ولم يقل: «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل: «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له وغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأن يبقى عند أخيه^(١)، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبين الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه، إما بمشاهدة، أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿وَمَا تَشْهَدُونَ إِلَّا بِمَا عَلِمْتُمْ﴾ .

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمس عشرة سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿وَبَيَّضَتْ عَيْنَا رَبِّكَ الْخُرْقَى فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ .

ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفى بما وعده، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَتَكُونُ بِتَيْ وَشُرْحِي إِلَى اللَّهِ﴾ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافي الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر، وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يتبلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر

(١) في الأصل (كفاية) ولعل الصواب ما أثبت. (٢) لعل المراد والله أعلم: (وأن يبقى عنده أخوه).

وحقوق عباد، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفأة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه (كفأة)^(١)، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور ينهى عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يوجد على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكتها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن، إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَى الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ .

ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل الأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفرةها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته: ﴿آلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ .

ومنها: أن سوء الظن - مع وجود القرائن الدالة عليه - غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلْ سَوَّكَ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَذَا مَتَكُمُ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَتَيْتُكُمْ عَلَى أَنْبِيءٍ مِنْ قَبْلُ﴾ ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لاييهم قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّكَ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لاييهم أن قال ما قال، من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب للدفاع للعين وغيرها من المكارة، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب، حيث قال لبنيه: ﴿يَتَّبِعْ لَكَ

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْآيِلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَسْجُورَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صُنُوفٌ وَأَعْيُنٌ مَصْنُوعَةٌ يَنْفَعُ بِمَاؤُهَا وَجِدٌ وَفُضِّلَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَحَبَّ فَجَبَّ قَوْمُهُمْ أَذْكَاتُ ثَرِيَاءَ نَالِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأُولَئِكَ الْأَعْتَلُ ﴿٥﴾ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦﴾

الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين، لأن أخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل، مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل عليه وعلى علمه، كان من أهل العلم بالحق الذي يوجب لهم علمهم، العمل بما أحب الله. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن، إما جهلاً وإعراضاً عنه، وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً، فلذلك أكثر الناس غير متفيعين به، لعدم السبب الموجب للانفتاح.

(٢-٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْآيِلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَسْجُورَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صُنُوفٌ وَأَعْيُنٌ مَصْنُوعَةٌ يَنْفَعُ بِمَاؤُهَا وَجِدٌ وَفُضِّلَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة

ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلْنَا الْفَتْرُ وَلَمْ يَنْكُرْ عَلَيْهِمْ يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: ﴿قَدْ مَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْبِرِينَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى، ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ الْبَيْتِ وَجَدَ بِكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ﴾.

ومنها: لطف الله العظيم يوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتعلق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوفِّني مُسْلِماً وَالْحَقِّقْني بِالصَّالِحِينَ﴾.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك.

فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً متقبلاً، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الرعد

وهي مدنية، وقيل: مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات

لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجيال الرواسي التي جعلها الله أوتادًا لها.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا أَنْهَادًا تُسْقِي الْآدَمِيَّينَ وَبِهَانِهِمْ وَحُرُوفَهُمْ، فَأَخْرَجَ بِهَا مِنَ الْأَشْجَارِ وَالزَّرْعِ وَالثَّمَارِ خَيْرًا كَثِيرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد.

﴿يُقْنِىَ الْآيِلَ الْكَهَّازَ﴾ فتنظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضا مأربهم من النوم، غشي النهار الليل، فإذا هم مصبحون مشترون في مصالحهم وأعمالهم في النهار.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الْآيِلَ وَالْكَهَّازَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَتَسْتَعْمِلُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ على المطالب الإلهية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها، وصرفها، هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمر به تبارك وتعالى.

ومن الآيات على كمال قدرته، وبديع صنعته، أن جعل ﴿فِي الْأَرْضِ فِلْجًا مُمْسِكَاتًا وَجَعَلَ فِيهَا أَنْوَاعَ الْأَشْجَارِ﴾ مِنْ أَشْجَارٍ ذَرَرًا وَنَجِيلًا، وغير ذلك، والنخيل التي بعضها ﴿صِنَوَانٌ﴾ أي: عدة أشجار في أصل واحد، ﴿وَقَبَرٌ صِنَوَانٌ﴾ بأن كان كل شجرة على حدة، والجميع ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وأرضه واحدة ﴿وَيَفْقِدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الظُّلُمِ﴾ لونا، وطعمًا، ونفعا، ولذة؛ فهذه أرض طيبة، تنبت الكلا والعشب الكثير، والأشجار والزروع، وهذه أرض تلاحظها، لا تنبت كلا، ولا تمسك ماء، وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلا، وهذه تنبت الزروع والأشجار، ولا تنبت الكلا، وهذه الثمرة حلوة، وهذه مرة، وهذه بين ذلك.

فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصياياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض، وأهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سيلا، ولا يعون له قبلا.

(٥) ﴿وَأَنْ تَعْبَثَ فَتَعْبَثَ قَوْمَهُ إِذَا كُنَّا رَبًّا لَهَا لَنَلْخِي جَدِيدًا أَوْلَيْكَ الْآيَاتِ كَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَى فِي عَذَابِهِمْ وَأُولَئِكَ

والسلطان الدال على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة ﴿يَغْيِرُ عَوْدَ رُؤُوسَهَا﴾ أي: ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد لرأيتموها ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما خلق السماوات والأرض ﴿أَسْتَوَى عَلَى الدَّرَجِ﴾ العظيم الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصالح العباد ومصالح مواشيهم ومنازلهم، ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ بتدبير العزيز العليم ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بسير منتظم، لا يفتران ولا ينيان، حتى يجيء الأجل المسمى وهو طلي الله هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار، فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها، فتكون الشمس والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان في النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وقوله: ﴿يَذَرُ الْأَثَرَ بِقَيْلِ الْآيَاتِ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغيي ويفقر، ويرفع أقواما ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيل العثرات، ويفرج الكربات، ويفذد الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام، لتدبير ما جعلهم على تدبيره.

وينزل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع، والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها، وإيضاحها وتمييزها، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية، والآيات القرآنية ﴿يَلْقَازُكُمْ تَوْفِيقًا﴾ فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصا في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

وأیضا، فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم عبثا، فكما أنه أرسل رسله، وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيهم، فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحل فيها جزاؤه، فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم.

﴿وَمَوْ الدَّرِى مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: خلقها للعباد، ووسعها، وبارك فيها، ومهدا للعباد، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع ﴿وَجَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جبالا عظيما، لتلا تميد بالخلق، فإنه لو لا الجبال لمادت بأهلها، لأنها على تيار ماء،

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من لم يزل مصراً على الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار، فليحذر العباد من عقوباته بأهل الجرائم، فإن أخذه أليم شديد.

(٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ مُنْذُرًا وَكِتَابًا فَهَادٍ﴾ أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات التي يعينونها ويقولون: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ ويجعلون هذا القول منهم، عذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه منذر، ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات.

وقد أيده بالأدلة البينات التي لا تخفى على أولي الألباب، وبها يهتدي من قصده الحق، وأما الكافر الذي - من ظلمه وجهله - يقترح على الله الآيات، فهذا اقتراح منه باطل وكذب واقتراء^(١).

فإنه لو جاءت أي آية كانت، لم يؤمن ولم ينقد، لأنه لم يمتنع من الإيمان، لعدم ما يدل على صحته، وإنما ذلك لهوى نفسه، واتباع شهوته ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى.

(٨-١١) ﴿اللَّهُ يَسَلِّمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَن يَحْمِلْ أَلْحَامًا وَمَا زَرَدًا وَكُلُّ مَن عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۚ عَنِ الْقَلْبِ وَالْفَهْدَةِ الْكَبِيرِ الْمُنْمَالِ ۚ سَوَاءٌ يَنْكُرُ مَن أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتْبُلٍ وَسَارٍ بِالْقَارِ ۚ لَمْ مَّعِينَتْ يَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ بِمَقْطُوبَةٍ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ لَا يُغْنِي مَا يَقُولُ حَتَّىٰ يَبْعَثُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُولُ سَوْفًا فَلَا مَرَّةَ لَمْ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ يخبر تعالى بعموم علمه، وسعة اطلاعه، وإحاطته بكل شيء فقال: ﴿اللَّهُ يَسَلِّمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم ﴿وَمَا تَحْمِلُ أَلْحَامًا﴾ أي: تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل، أو يتضائل أو يضمحل ﴿وَمَا زَرَدًا﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها ﴿وَكُلُّ مَن عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه.

فإنه ﴿عَنِ الْقَلْبِ وَالْفَهْدَةِ الْكَبِيرِ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته ﴿الْمُنْمَالِ﴾ على جميع خلقه، بذاته وقدره وقهره.

(١) في ب: شركهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: واقتراء.

أَصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يحتمل أن معنى قوله: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة توحده، فإن العجب - مع هذا - إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث، وقولهم: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرَبًّا لِّمَّا لَفِيَ خَلْقِي جَدِيدٌ﴾ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا تراباً، أن الله يعيدهم، فإنهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق.

فلما رأوا هذا متمتاً في قدرة المخلوق، ظنوا أنه متمتع على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة، ولم يكونوا شيئاً.

ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث، فإن ذلك من المعجائب، فإن الذي توضح له الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك، فإن قوله من المعجائب.

ولكن ذلك لا يستغرب على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وجحدوا وحدانيته، وهي أظهر الأشياء وأجلاها ﴿وَأُولَٰئِكَ أَطَّغَتْ﴾ المانة لهم من الهدى ﴿فِي أَصْنَافِهِمْ﴾ حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا، فقلبت قلوبهم وأفندتهم، عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة، ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً.

(٦) ﴿يَسْتَحْمِلُونَ بِالْأَسْبَةِ بَيْنَ الْحَسَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلِهِمُ الْكَلْبَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُو مَقْوَرٍ لِّتَأْسَ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله، المشركين به، الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينفادوا لها، بل جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم [الله] الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على حق، وجعلوا يستجعلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿أَلَمْ نَكُنْ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِندِكَ فَاتُطْرَقْ عَلَيْنَا جِسَارَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِمَدَاقٍ أَلَيْسَ﴾.

﴿و﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلِهِمُ الْكَلْبَتُ﴾ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتروكون جهلهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُو مَقْوَرٍ لِّتَأْسَ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شرهم^(١)، وعصيانهم إليه صاعداً.

يصفونه فيدعونه إلى بابه، ويجرمون فلا يجرهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حييهم، لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فهو طبيهم، يبتليهم بالمصائب، ليطهرهم من المعاييب ﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَنْ يَشَاءُ عَنِ

﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ﴾ في علمه وسمعه، وبصره.

﴿مَنْ أَمَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآيَاتِهِ﴾ أي: مستقر بمكان خفي فيه ﴿وَسَارٍ بِالنَّارِ﴾ أي: داخل سره في النهار، والسرب هو ما يخفي فيه الإنسان، إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

﴿لَمْ﴾ أي: للإنسان ﴿مَعْقِبَتٌ﴾ من الملائكة، يتعاقبون في الليل والنهار.

﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريد به سوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والإحسان، ورغد العيش ﴿حَتَّى يَبْذُورُوا مَا بَأْنُسِهِمْ﴾ بأن يتنقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها.

وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي: عذاباً وشدّة، وأمرًا يكرهونه، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم.

﴿فَ﴾ إنه ﴿لَا مَرَدَ لَهُ﴾ ولا أحد يمنعهم منه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله، خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

(١٢، ١٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ السَّحَابَ الْقِطْرَ ۖ وَيَسْخِبُ الرَّعْدَ بِحِمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: يخاف منه الصواعق والهدم، وأنواع الضرر على بعض الثمار ونحوها، ويطمع في خيره ونفعه ﴿وَيُنْزِلُ السَّحَابَ الْقِطْرَ﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

﴿وَيَسْخِبُ الرَّعْدَ بِحِمْدِهِ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب المزجج للعباد، فهو خاضع لربه، مسبح بحمده ﴿وَيُنْزِلُ السَّحَابَ الْقِطْرَ﴾ أي: يسحب ﴿الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: خشعاً لربهم، خاضعين من سطوته ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، بحسب ما شاء وأراد ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ﴾ أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يفوته هارب.

سورة الرعد

٢٥٠

سورة الرعد

وَسَتَجِدُنَا يَكُ السَّيْفُ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَعَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآيَاتِهِ وَسَارٍ بِالنَّارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مَعْقِبَتٌ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ السَّحَابَ الْقِطْرَ ﴿١٢﴾ وَيَسْخِبُ الرَّعْدَ بِحِمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ ﴿١٣﴾

فإذا كان هو وحده، الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد، وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا شريك له، ولهذا قال:

(١٤) ﴿لَمْ يَدْعُوا لِقَائِهِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَآ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَتِيبٌ كَثِيرٌ إِلَى اللَّهِ يُنْزِلُ وَأَمَّا هُوَ فَيَسْمَعُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ ۚ وَإِلَىٰ فِي سَمْعِكَ﴾ أي: لله وحده ﴿دَعْوَةُ الْمُنْكَرِ﴾ وهي عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العباد، ودعاء المسألة له تعالى. أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرغبة، والإنابة، لأن ألوهيته هي الحق، والوهية غيره باطلة، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان، والأنداد التي جعلوها شركاء له.

﴿لَآ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾ أي: لمن يدعوها ويعبدها، بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا، ولا من أمور الآخرة، ﴿إِلَّا كَتِيبٌ كَثِيرٌ إِلَى اللَّهِ﴾ الذي لا تناله كفاه لبعده، ﴿يُنْزِلُ﴾ بيسط كفيه إلى الماء ﴿وَهُوَ﴾، فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول

يبده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه.

كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة، لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة، لأنهم فقراء، كما أن من دعوهم فقراء، لا يملكون مقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما لهم فيها من شرك، وما له منهم من ظهير.

﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ لبطان ما يدعون من دون الله، فبطلت عباداتهم ودعائهم، لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين، كانت عبادته حقاً متصلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يسط كفيه إلى الماء ليليل فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهًا لَّا يَكُونُ لَكُم مِّثْلًا وَتَسْتَكْبِرُوا عَنْهَا لَأَنفَعَكُمْ أَلِٰهٌ مُّثْلُهُ لَآ يَدْعُونَ الْبَتَّةَ حَتَّىٰ يَلِٰغَ الْبَحْرُ فِي سَمِّ الْجِيَٰلِ﴾.

(١٥) ﴿وَلَا يَسْجُدْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا وَالْقُدُورِ وَالْأَنْعَالِ﴾ أي جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختياراً كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك، ﴿وَيُطَلِّعُهُمُ الْقُدُورُ وَالْأَنْعَالُ﴾ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تُفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعاً وكرهاً، كان هو الإله حقاً، المعبود المحمود حقاً، والهة غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

(١٦) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لِرَبِّهِمْ شَيْئًا وَلَا ضَرًّا﴾ وتكون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي يبده الخلق والتدبير، والنفع والضرر؟ فما تستوي عبادة الله

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْئًا إِلَّا كِبْسَظَ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْغَ فَاَهُ وَمَا هُوَ بِيَلْبِغُهُ وَمَادَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٥﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْأَنْعَالِ ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لِرَبِّهِمْ شَيْئًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَحِيدُ الْقَهْرُ ﴿١٧﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٨﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ زُوقُوا لَهَا ۖ

وحده، وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير وكما لا تستوي الظلمات والنور؟.

فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء، زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله، قَارَبَ عنهم هذا الاشتباه والبس، بالبرهان الدال على تفرد الإله بالوحدانية، فقل لهم: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه.

ومن المحال أيضاً أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها إلهاً خالقاً، لا شريك له في خلقه، لأنه الواحد القهار، فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده، فالمخلوقات كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان، متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر، أن ما يُدْعَى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

(١٧) ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ

والسبب الذي يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿وَيَحْشُرُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجروا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب، ورجاءاً للتواب. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على المأمورات بالامثال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿اتَّبَعَهُ وَتَوَّابَهُمْ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلباً لمرضاة ربه، ورجاءاً للقرب منه، والحظوة بوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، ظاهراً وباطناً، ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة، كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سراً وعلانية، ﴿وَيَذَرُونَ مِمَّا فَلَاحَ كَيْفَتُهُ﴾ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابله بالاحسان إليه.

فيعطون من حرمهم، ويعفون عن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالاحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ وَصَفَتْ صِفَاتُهُمُ الْجَلِيلَةَ، وَمَنَاقِبُهُمُ الْجَمِيلَةَ﴾ فسرهما بقوله: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا يغيغون عنها جوعاً، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم ﴿يَسْمَعُونَ مِمَّا دَخَلَ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من الذكور والإناث، ﴿وَأَنذَرُجَهُمْ﴾ أي: الزوج أو الزوجة، وكذلك النظراء والأشياء، والأصحاب والأحباب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم ﴿وَاللَّيْلَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ يهتنونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم، ويقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حلت عليكم السلامة والنحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿يَمَّا صَبَرْتُمْ﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه

﴿أَمَّن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْيَنُ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ﴾ الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْفُسُونَ الْيَمِينُ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَذَرَوْهُنَّ مِلَّةَ الْحَسَنِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٢٧﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ عِبَادِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٨﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَيُغْنِي عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَالَّذِينَ يَقْبَضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٩﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٣٠﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَبْضُلُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَرَادَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَطَمَسُوا قُلُوبَهُمْ يَذْكُرُ اللَّهُ الْآيَاتِ كَرِهَ اللَّهُ تَطْمِينَ الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

المنازل العالية، والجنات الغالية ﴿فَيُغْنِي عَنْهُمْ الدَّارُ﴾.

فحقيق بمن نصح نفسه، وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولي الأبواب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

(٢٥) ﴿وَالَّذِينَ يَقْبَضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ لما ذكر حال أهل الجنة، ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به فقال عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقْبَضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: من بعد ما أكد عليهم على أيدي رسله، وغلظه عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابله بالأعراض والنقض ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله، وابتغائها عوجاً ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: البعد والدم، من الله وملأته وعباده المؤمنين ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

سورة الرعد

٢٥٣

سورة الرعد

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ
 مَا أَتَى كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمَا أُمَمٌ
 لِيَسْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَحْيَيْنَا لَكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ
 قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَابِ
 وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا شَهِدْتَ بِهَذَا الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرُوا
 بِهِ الْمَوْقِفُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الَّذِينَ آمَنُوا
 أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا لَإِزَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 نُصِبُ بِهِمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تُحْلَقَ رَبَائِمُنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ
 وَعَدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْعِمَادَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي
 مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
 عِقَابِ ﴿٣٣﴾ أَفَنْ هُوَ قَائِدٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
 لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ
 يَبْظُنُّ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ
 السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٤﴾ لَمْ يَكُنْ عَذَابُ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٥﴾

من دعوى الشريك له تعالى، أنه بظاهر أقوالكم.

وأما في الحقيقة فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئاً من العبادة، ولكن ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ الذي مكروه، وهو كفرهم، وشركهم، وتكذيبهم آيات الله ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه ليس لأحد من الأمور شيء.

﴿لَمْ يَكُنْ عَذَابُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من عذاب الدنيا، لشدة ودوامه، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يفهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم، لا مانع منه.

(٣٥) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا لَا يَغْفَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل من جميع

الكتب المنزلة - : ﴿وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا شَهِدْتَ بِهَذَا الْجِبَالِ﴾ من الكتب الإلهية ﴿شَهِدَتْ بِهَذَا الْجِبَالِ﴾ عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ جناً وانهاراً ﴿أَوْ كُفِّرُوا بِهِ الْمَوْقِفُ﴾ لكان هذا القرآن ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يفترون من الآيات ما يفترون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟.

﴿أَفَلَمْ يَأْتِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعاً، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على كفرهم، لا يعيترون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم، أو تحل قريباً منها، وهم مصرون على كفرهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الذي وعدهم به، لتزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْعِمَادَ﴾ وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم، وعنادهم، وظلمهم.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ يقول تعالى لرسوله - مبتلاً له ومسلماً - : ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ﴾ فلست أول رسول كُذِّبَ وأُوذِيَ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسلهم، أي أهملتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بأنواع العذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك، واستهزأوا بك بإيماننا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

(٣٣، ٣٤) ﴿أَفَنْ هُوَ قَائِدٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظُنُّ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿لَمْ يَكُنْ عَذَابُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَنْ هُوَ قَائِدٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى، كمن ليس كذلك؟.

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له، ولا يد ولا نظير ﴿قُلْ﴾ لهم، إن كانوا صادقين: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ لتعلم حالهم ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكاً، علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يَعْلَمُ الله أن له شريكاً، وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون، ولهذا قال: ﴿أَمْ يَبْظُنُّ مِنْ الْقَوْلِ﴾ أي: غاية ما يمكن

أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يذكروا مكرًا يضر الحق وأهله، ويفيدهم شيئًا ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عِنْدَ الدَّارِ﴾ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين للكفر وأعماله.

﴿وَقَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: يكذبونك، ويكذبون ما أرسلت به ﴿قُلْ﴾ لهم - إن طلبوا على ذلك شهيدًا: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه، مما ثبت به رسالته.

وأما فعله، فلأن الله تعالى أيد رسوله، ونصره نصرًا خارجًا عن قدرته وقدره أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

﴿وَمَنْ عِنْدَ عِلْمِ الْكِتَابِ﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول، من آمن وتابع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك، فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبليغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة، لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب، لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالألميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم، لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد، والحمد لله رب العالمين.

للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

(٤٠، ٤١) ﴿وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ يَوَدُّهُمْ أَوْ تَوَقَّيْتُكَ فَإِنَّا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَنَحْنُ الْمُسَابِ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابتهم ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به ﴿وَإِنَّا لَنُرِيكَ﴾ إياه في الدنيا، فتقر بذلك عينك ﴿أَوْ تَوَقَّيْتُكَ﴾ قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلًا لك ﴿فَنَحْنُ عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ والتبيين للخلق.

﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به مما عليهم وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.

ثم قال - متوعداً للمكذبين -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قيل: بإهلاك المكذبين، واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال.

والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك، أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويحتاجها، ويحل القوارع بأطرافها، تنبيهًا لهم قبل أن يفتحهاهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يريده أحد، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ويدخل في هذا حكمه الشرعي، والقدري، والجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإنفاق، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبا أحد ولا سبيل إلى القدرح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافقه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هوأت، فهو قريب.

(٤٢، ٤٣) ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَيْمًا يَعْلَمُ مَا تُكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عِنْدَ الدَّارِ ۝ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَ عِلْمِ الْكِتَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئًا، فإنهم يحاربون الله وبيارزونه ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَيْمًا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله ﴿يَعْلَمُ مَا تُكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾

Yes

6231934

سورة ابراهيم

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ

سُورَةُ اِبْرَاهِيْمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَدُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ
لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحْجُونَ
الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي صُلٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
مِّن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُم فَيُضِلَّ اللَّهُ
مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا
اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

﴿لَوْلَاكَ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿فِي صَكَّالٍ بِمِثْلِ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا وشاقوا الله ورسوله، وحاربوهما، فأى ضلال أبعد من هذا؟! وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها، مهما أمكنهم، ويبنون استقامتها.

(٤) «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْمِهِ. لِيُصِيبَكَ اللَّهُمَّ فَيُضِلَّ اللَّهُ مِنْ يَسَارِهِ وَيَهْدِي مِنْ يَسَارِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ»
وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولاً «إِلَّا يَلْسَنُ قَوْمِهِ. لِيُصِيبَكَ اللَّهُمَّ» ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كان على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله «فَيُضِلَّ اللَّهُ مِنْ يَسَارِهِ»، ممن لم يتقذ للهدى، ويهدي من يشاء، ممن اقتص به رحمته.

﴿وَقَدْ أَعَزَّبَ الْحَكِيمُ﴾ الذي - من عزته - أنه انفراد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿الرَّكَعَيْنِ أُنْزِلَتْهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي صُلْحٍ بَعِيدٍ ۝﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق ليخرج الناس من ظلمات الجاهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله وموعونة، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم.

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِنَّ صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الموصِّل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بعد ذكر الصراط الموصِّل إليه، إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.

وليد ذلك على أن صراط الله من أكبر الأمانة على ما له
من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده
عزيز السلطان، حميد في أقواله، وأفعاله، وأحكامه، وأنه
مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه
كما أن له ملك السماوات والأرض، خلقاً ورزقاً وتديراً، فله
الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به
أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان، توعد من لم يتقّد
لذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لا يقدر
قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن
الدار الآخرة.

﴿وَمَلَأُوا﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ التي نصبها لعباده،
وبينها في كتبه، وعلى السنة رسله، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم
بالمعاداة والمحاربة ﴿وَبَيَّنَّا﴾ أي: سبيل الله ﴿عَوَجًا﴾ أي:
يحرصون على تهجينها وتقيحها، للتفريق عنها، ولكن يأبى الله
إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٥٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
 إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ عَالٍ فَزَعَوْتُمْ يَسْؤُمُوكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
 وَيَذْهَبُوكُمْ أَبْنَاءَكُمْ وَتَسْتَحْبِبُونَ إِسَاءَةَ كُمْ وَفِي
 ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
 رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ
 عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ الْفَرَايِكُ بَنُو الْأَرِيكِ
 مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلُوا
 بِهِ. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ
 رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ
 لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ
 مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَسْمَرُ إِلَّا بُشْرًا مِّثْلًا نَّرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا
 عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنُؤِنَا بِإِسْطَلْنِي مُبِينٌ ﴿١٠﴾

النعمة ضد ذلك.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلن تضروا
 الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ فالطاعات لا تزيد في ملكه،
 والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميد في ذاته
 وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة
 حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من
 الأفعال إلا كل فعل جميل.

(١٢-٩) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الْآرِيكِ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ
 وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ
 رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا
 كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قَالَتْ
 رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
 لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَسْمَرُ
 إِلَّا بُشْرًا مِّثْلًا نَّرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ
 آبَاؤُنَا فَأَنُؤِنَا بِإِسْطَلْنِي مُبِينٌ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنَّ
 خَنَازِنَ الْبَشَرِ مِثْلَنَا لَا أَتَايَكُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بَيِّنَةً وَمِمَّا يَنْهَى
 الْفُلُوكَ عَنِ الْبَحْرِ وَلِئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا تَرْجِعُونَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
 بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ حَقٌّ عَلَىٰ الْأُولَىٰ لَا
 يَنْفَعُ الْبَشَرَ شَيْءٌ مِّمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٢﴾

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة
 إلى تبين كلامه وكلام رسوله، أمور مطلوبة، محبوبة لله، لأنه
 لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها، إلا إذا كان الناس في
 حالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ
 عليها صغبرهم، وصارت طبيعة لهم، فحينئذ قد اكتفوا المونة
 وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى
 عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

(٥-٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ
 مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ
 لَكَايِدٌ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا
 نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ عَالٍ فَزَعَوْتُمْ يَسْؤُمُوكُمْ سُوءَ
 الْعَذَابِ وَيَذْهَبُوكُمْ أَبْنَاءَكُمْ وَتَسْتَحْبِبُونَ إِسَاءَةَ كُمْ وَفِي
 ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ
 شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ
 مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
 حَمِيدٌ ﴿٨﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى
 بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما
 أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل
 قومهم ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي:
 ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان
 وتوابعه ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ﴾ أي: بنعمه عليهم، وإحسانه
 إليهم وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعهم بالكافرين،
 ليشكروا نعمه، وليحذروا عقابه ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في أيام
 الله على العباد ﴿لَكَايِدٌ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في
 الضراء والعسر والضييق، شكور على السراء والنعمة.

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته، وعظيم إحسانه، وتعام
 عدله وحكمته، ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه،
 فذكرهم نعم الله فقال: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي:
 بقلوبكم وألسنتكم ﴿وَإِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ عَالٍ فَزَعَوْتُمْ يَسْؤُمُوكُمْ﴾
 أي: يولونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده، وفسر ذلك بقوله:
 ﴿وَيَذْهَبُوكُمْ أَبْنَاءَكُمْ وَتَسْتَحْبِبُونَ إِسَاءَةَ كُمْ﴾ أي: يقولون فلا
 يقتلونهم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ الانجاء ﴿بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي:
 نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فروع
 وملاء ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصبرون أم لا؟.

وقال لهم - حاثاً على شكر نعم الله - : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ
 رَبُّكُمْ﴾ أي: أعلم ووعد ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من نعمي
 ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم
 النعمة التي أنعم بها عليهم، والشكر: هو اعتراف القلب بنعم
 الله، والثناء على الله بها، وصرها في مرضاة الله تعالى، وكفر

الله فضله، ويمنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به، فإن كان حقاً فاقبلوه، وإن كان غير ذلك فردوه، ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فَأَنزَلْنَا سُطُرًا ثَمِينًا﴾ فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وَمَا كُنَّا أَن نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ لَّا عَلَىٰ غَيْرِهِ﴾ ﴿فَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعتدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلهم بتمام كفايته، وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويتقون به في تيسير ذلك، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلمهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه ﴿وَمَا كُنَّا أَن نَتَّكِفَ عَلَى اللَّهِ وَنَدَّ هَدَنَّا سُبُلًا﴾. أي: أي شيء يمننا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كالإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بآية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدثهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع [كيدهم ومكرهم]^(١)، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا قول نوح لقومه: ﴿يَقُولُ إِنْ كُنَّا عَلَىٰ كُفْرٍ عَلَيْنَا وَتِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَقَاتِلْ اللَّهُ فَعَسَىٰ أَمْرُهُ أَن تَكُونُ مِنْكُمْ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ والآيات.

وقول هود عليه السلام قال: ﴿إِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَأَسْتَعِينُ بِهِ بِرَبِِّّي وَمِمَّا كُفِّرُوكَ عَنْهُ لِيُكَفِّرَ بِهِ مَا تُكَفِّرُ﴾.

﴿وَالْقَصِيرَ عَلَىٰ مَا عَاقِبُهُمْ﴾ أي: ولستمرون على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ

لَهُ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلًا﴾ وَلَقَدْ عَلَّمَهُمْ عَلَىٰ مَا عَاقِبُهُمْ وَعَلَىٰ قَلِيلٍ قَلِيلٌ قَلِيلٌ يَقُولُ تَعَالَى - مخوفاً عباده - ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِي يَنْذَرُكُمْ قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ تُوجِبُونَ سُوءَ مَا عَمِلُوا قَصَصَهُمْ فِي كِتَابِهِ، وَسَطَهَا﴾ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ تَحْتِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ من كثرتهم، وكون أخبارهم اندرست.

فهؤلاء كلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله رسولاً إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم يتفادوا لها، بل استكبروا عنها ﴿فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي اقْوَاهُمْ﴾ أي: لم يؤمنوا بما جاؤوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله: ﴿يَعْمَلُونَ آسَافًا فِي ذُنُوبِهِمْ مِّنْ أَفْوَاجٍ حَذَرَ النَّاسِ﴾.

﴿وَقَالُوا صَرِيحًا لِّرُسُلِهِمْ: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: موقع في الريبة، وقد كذبوا في ذلك وظلموا.

ولهذا ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ إِنِّي أَنَا شَكٌّ﴾ أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلها، فمن شك في الله ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة، ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الرب فيه ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى منافعتكم ومصالحكم ﴿يُفَوِّرْ لَكُمْ مِّنْ دُونِكُمْ وَيُؤَيِّدْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ليشيكم على الاستجابة لدعوته، بالثواب العاجل والأجل، فلم يدعكم ليتسع لعبادتكم، بل النفع عائد إليكم.

فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنْ أَشَرْنَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: فكيف تفضلونا بالنبوة والرسالة ﴿يُرِيدُونَ أَن يُقَدِّسُوا عَنَّا كَمَا تَقَدَّسَ عَنَّا وَإِنَّا لَكَاكِلَةٌ﴾ كيف ترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟.

﴿فَأَنزَلْنَا سُطُرًا ثَمِينًا﴾ أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقرحونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ محبين عن اقتراحهم واعتراضهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: صحيح وحقيقة، أنا بشر مثلكم ﴿وَلَكِنَّ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق، فإن ﴿اللَّهُ يَشْهَدُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا مَنَّ الله علينا بوحية ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على

(١) في الأصل (كيدكم ومكرهم) ولعله سبق قلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
(١٣) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا
وَلَنَضِيرَكَ عَلَىٰ مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
(١٤) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُرْسِلْتُمْ لَتُخْرِجَكُمْ مِنَ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُّوكُمْ فِي مِلَّتِنَا فَأَوَّحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ (١٥) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ
ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٦) وَأَسْفَحُوا
وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٧) مِنْ رَأْيِهِ جَهَنَّمَ وُشِقَى
مِنْ مَأْوٍ صَدِيدٍ (١٨) يَتَخَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِيعُهُ
وَبَيَّاتِهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمَنْ
وَرَأَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٩) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
أَعْمَلُنَا لَهُمْ كُرْمًا إِشْدَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوَالُ الْعَظِيمُ (٢٠)

وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام، توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

(١٣-١٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُرْسِلْتُمْ لَتُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُّوكُمْ فِي مِلَّتِنَا فَأَوَّحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۖ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۖ وَاسْتَفْحُوا ۖ وَحَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۖ يَنْهَرُهُ الْمَوْتُ مِنْ تَحْتِهِ ۚ وَتَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ يَوْمَ ذَرْبِهِ ۚ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك، وعدم ملهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُرْسِلْتُمْ لَتُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُّوكُمْ فِي مِلَّتِنَا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدهم بالإخراج من ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها، يستعينون بها على عبادة.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة، ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها الرسل بإخراجهم منها، وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمنعونهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟ هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكيفية؟

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه ﴿فَأَوَّحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ بأنواع العقوبات.

﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ﴾ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم، جزاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وَوَعَدَ وَعِيدٍ﴾ أي: ما تعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمباذرة إلى ما يحبه الله. ﴿وَاسْتَفْحُوا﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا،

واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فالله حلِيم، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله، واستكبر في الأرض، وعاند الرسل، وشاقهم.

﴿يَنْهَرُهُ الْمَوْتُ مِنْ تَحْتِهِ﴾ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من ورودها، فيذاق حينئذ العذاب الشديد ﴿وُشِقَىٰ مِنْ مَأْوٍ صَدِيدٍ﴾ في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

﴿يَتَخَرَّعُهُ﴾ من العطش الشديد ﴿وَلَا يَكَاذُ يُسِيعُهُ﴾ فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه، وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ﴾ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى أن لا يموتوا، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاذِبٍ ۖ وَهُمْ يَسْتَطَرُّونَ فِيهَا﴾.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: الجبار العنيد ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: قوي شديد لا يعلم وصفه وشدة إلا الله تعالى.

(١٨) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَتَمَّ لَهُمْ كَرَمًاوُ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ أَصْلُكُمُ الْيَقِيدُ﴾ يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله، بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه لا يبقى منه شيئاً، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل، فكذاك أعمال الكفار ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ ولا على مقال ذرة منه، لأنه مبني على الكفر والتكذيب.

﴿ذَلِكَ هُوَ أَصْلُكُمُ الْيَقِيدُ﴾ حيث بطل سعيهم، واضمحل عملهم. وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها، ليكيدوا بها الحق، فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك، ومكرهم عائد عليهم، ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئاً.

(١٩-٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَا وَهَدَّنا اللَّهُ لَهْدَيْنَ لَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَوَّيْنَا مَا لَكُم مِّنْ مَّحْجِينَ ۚ بَنِي تَعَالَىٰ عِبَادُهُ بِأَنَّهُ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: ليجده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما، على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض - على عظمتها وسعتهما - قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيته لا تقصر عن ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم، يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يُنْكِمُكم ثم يُعْذِكُمْ بالبعث خلقاً جديداً، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده، من أحوال القيامة.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع بل هو سهل عليه جداً ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْلَمُكُمْ إِلَّا كَفِّيسٌ وَجِدٌ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: الخلائق ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حين ينفخ في الصور، فيخرجون من الأجداث إلى ربهم، فيفنون في أرض

الْوَرْتَابِ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَا وَهَدَّنا اللَّهُ لَهْدَيْنَ لَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَوَّيْنَا مَا لَكُم مِّنْ مَّحْجِينَ ۚ بَنِي تَعَالَىٰ عِبَادُهُ بِأَنَّهُ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: ليجده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما، على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض - على عظمتها وسعتهما - قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيته لا تقصر عن ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، ويرزون له، لا يخفى [عليه] منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟.

فيقول ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ أي: التابعون والمقلدون ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم المتبوعون الذين هم قادة في الضلال ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزيتموه لنا فأغويتمونا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ولو مقال ذرة ﴿قَالُوا﴾ أي: المتبوعون والرؤساء «أغويناكم كما غوينا» ﴿وَلَوْ هَدَّنا اللَّهُ لَهْدَيْنَ لَكُمْ﴾ فلا يغني أحد أحداً ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا﴾ من العذاب ﴿أَمْ سَوَّيْنَا﴾ عليه ﴿مَا لَكُم مِّنْ مَّحْجِينَ﴾ أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

(٢٢، ٢٣) ﴿وَقَالَ الشَّاكِرُونَ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدْتَ الْحَقَّ وَوَعَدْنَاكَ فَأَخْلَفْتُمْكُم مَّا كَانَتْ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ شُلُوبٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْنَكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا تَلَكَّبْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ

وَلَا خَظَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿حَٰكِمِينَ فِيهَا لِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ آي: لَا بِحَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ بَلْ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ ﴿يُخَيِّمُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ، وَالتَّحِيَّةِ، وَالْكَلَامِ الطَّيِّبِ.

(٢٤-٢٦) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّيْنَا اللَّهُ مَلَكَ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَسَجَرٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ لِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وَيَصْرِيْبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّبَةٍ كَسَجَرٍ خَيْبَةٍ أَجْنَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّيْنَا اللَّهُ مَلَكَ كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وَهِيَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفَرْعُهَا ﴿كَسَجَرٍ طَيِّبَةٍ﴾ وَهِيَ النُّخْلَةُ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿وَفَرْعُهَا﴾ مُتَشَرِّفٌ فِي السَّمَاءِ وَهِيَ كَثِيرَةُ النِّفْعِ دَائِمًا.

﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا﴾ أَي ثَمَرَتُهَا ﴿كُلَّ حِينٍ لِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فَكَذَلِكَ شَجَرَةُ الْإِيمَانِ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ عِلْمًا وَاعْتِقَادًا، وَفَرْعُهَا مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ، وَالْأَدَابِ الْحَسَنَةِ، فِي السَّمَاءِ دَائِمًا، يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الَّتِي تَخْرِجُهَا شَجَرَةُ الْإِيمَانِ، مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْمُؤْمِنُ وَيَنْفَعُ غَيْرَهُ ﴿وَيَصْرِيْبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ مَا أَمْرُهُمْ بِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ، فَإِنْ فِي ضَرْبِ الْأَمْثَالِ تَقَرُّبًا لِلْمَعْنَى الْمَعْقُولَةِ مِنَ الْأَمْثَالِ الْمَحْسُوسَةِ، وَبَيِّنِ الْمَعْنَى الَّتِي أَرَادَهُ اللَّهُ غَايَةَ الْبَيَانِ، وَيَضَعُ غَايَةَ الْوُضُوحِ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ وَحَسَنِ تَعْلِيمِهِ، فَلَهُ أَتَمُّ الْحَمْدِ وَأَكْمَلُهُ وَأَعْمَهُ، فَهَذِهِ صِفَةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَثَبَاتُهَا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ.

ثُمَّ ذَكَرَ ضِدَّهَا وَهِيَ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَفَرْعُهَا فَقَالَ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّبَةٍ كَسَجَرٍ خَيْبَةٍ﴾ الْمَأْكُلِ وَالْمَطْعَمِ، وَهِيَ شَجَرَةُ الْحِظْلِ وَنَحْوُهَا ﴿أَجْنَتْ﴾ هَذِهِ الشَّجَرَةُ ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أَي: مِنْ ثُبُوتٍ، فَلَا عُرُوقَ تَمْسِكُهَا، وَلَا ثَمَرَةَ صَالِحَةَ تَنْتَجِهَا، بَلْ إِنْ وَجَدَ فِيهَا ثَمَرَةً، فَهِيَ ثَمَرَةُ خَيْبَةٍ، كَذَلِكَ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، لَيْسَ لَهَا ثُبُوتٌ نَافِعٌ فِي الْقَلْبِ، وَلَا تَثْمَرُ إِلَّا كَقَوْلِ خَيْبٍ، وَعَمَلُ خَيْبٍ، يَسْتَضِرُّ بِهِ صَاحِبُهُ وَلَا يَنْتَفِعُ، فَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَلَا يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُ.

(٢٧) ﴿يَتَّبِعُ اللَّهُ الْآيَةَ﴾ أَمَّا بِالْقَوْلِ الْأَثَابِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَقُولُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَبْثُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، أَي: الَّذِينَ قَامُوا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ إِيْمَانِ الْقَلْبِ التَّامِ الَّذِي يَسْتَلْزِمُ أَعْمَالَ الْجَوَارِحِ وَيُشْمَرُهَا، فَيُثَبِّتُهُمُ اللَّهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، عِنْدَ رُودِ الشَّبَهَاتِ بِالْهَدَايَةِ إِلَى

عَذَابِ آيَةٍ ﴿وَأُذِلَّ الْآيَةَ﴾ أَمَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ جَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْآيَةُ خَلِيلِينَ فِيهَا لِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ آي: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ الَّذِي هُوَ سَبَبُ كُلِّ شَرٍّ يَقَعُ وَوَقَعَ فِي الْعَالَمِ، مَخَاطِبًا لِأَهْلِ النَّارِ، وَمُتَبَرِّكًا مِنْهُمْ ﴿لَمَّا قُبِىَ الْآثَرُ﴾ وَدَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ النَّاسُ﴾ عَلَى السَّنَةِ رَسَلَهُ، فَلَمْ تَطِيعُوهُ، فَلَوْ أَطَعْتُمُوهُ، لَأَدْرَكْتُمْ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ، ﴿وَوَدَّعَاكُمْ﴾ الْخَيْرَ ﴿فَأَنفَقْتُمْ﴾ آي: لَمْ يَحْصُلْ وَلَنْ يَحْصُلَ لَكُمْ مَا مَنِيتُمْ بِهِ مِنَ الْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ آي: مِنْ حِجَّةٍ عَلَى تَأْيِيدِ قَوْلِي ﴿وَلَا أَنْ دَعَوْتُمْ فَأَنْجِبْتُمْ لِي﴾ آي: هَذَا نَهَايَةُ مَا عِنْدِي، أَنِّي دَعَوْتُكُمْ إِلَى مَرَادِي وَزَيْتِهِ لَكُمْ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، أَتْبَاعًا لِأَهْوَانِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، فَإِذَا كَانَتْ الْحَالُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ﴿فَلَا تُلَاقُوا وَلَوْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فَاتَمَّ السَّبَبُ، وَعَلَيْكُمْ الْمَدَارُ فِي مُوجِبِ الْعِقَابِ، ﴿فَمَا أَنَا بِمُفْعِلِكُمْ﴾ آي: بِمُغْيِيَكُمْ مِنَ الشَّدَةِ الَّتِي أَنْتُمْ بِهَا ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُفْرِكِي﴾ كُلُّ لَهْ فُسْطٍ مِنَ الْعَذَابِ.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ آي: تَبَرَّأْتُ مِنْ جَعَلِكُمْ لِي شَرِيكًا مَعَ اللَّهِ، فَلَسْتُ شَرِيكًا لَكُمْ، وَلَا تَجِبُ طَاعَتِي ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ لَأَنْفُسَهُمْ بِطَاعَةِ الشَّيْطَانِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خَالِدِينَ فِيهِ أَبَدًا.

وهذا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، أَنْ حَذَّرَهُمْ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَأَخْبَرَ بِمَدْخَلِهِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا عَلَى الْإِنْسَانِ وَمَقَاصِدُهُ فِيهِ، وَأَنَّهُ يَقْصِدُ أَنْ يَدْخُلَهُ النَّيْرَانُ، وَهَذَا بَيِّنٌ لَأَنَّهُ إِذَا دَخَلَ النَّارَ وَحِزَبَهُ^(١)، أَنَّهُ يَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ هَذِهِ الْبَرَاءَةُ، وَيَكْفُرُ بِشُرْكِهِمْ ﴿وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾.

واعلم أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِي هَذِهِ آيَةٍ، أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الْآيَةِ بِتَوَكُّلِكُمْ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ فَالسُّلْطَانُ الَّذِي نَفَاهُ عَنْهُ هُوَ سُلْطَانُ الْحِجَّةِ وَالذَّلِيلِ، فَلَيْسَ لَهُ حِجَّةٌ أَصْلًا عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا نَهَايَةُ ذَلِكَ أَنْ يَقِيمَ لَهُمْ مِنَ الشَّبَهِ وَالتَّزْيِينَاتِ، مَا بِهِ يَتَجَرَّأُونَ عَلَى الْمَعَاصِي.

وَأَمَّا السُّلْطَانُ الَّذِي أَثْبَتَهُ، فَهُوَ التَّسْلُطُ بِالْإِغْرَاءِ عَلَى الْمَعَاصِي لِأَوَّلِيَّاتِهِ يُؤْزِهُمُ إِلَى الْمَعَاصِي أَرَاءَ، وَهُمْ الَّذِينَ سَلَطُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَوَالِيهِهِ وَالْإِتِّحَاقِ بِحِزْبِهِ، وَلِهَذَا لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رِيهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

ولما ذَكَرَ عِقَابَ الظَّالِمِينَ، ذَكَرَ ثَوَابَ الطَّائِعِينَ فَقَالَ: ﴿وَأُذِلَّ الْآيَةَ﴾ أَمَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ جَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْآيَةُ خَلِيلِينَ فِيهَا لِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ آي: قَامُوا بِالذَّنِّ، قَوْلًا، وَعَمَلًا، وَاعْتِقَادًا ﴿جَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْآيَةُ﴾ فِيهَا مِنَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ،

اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: (من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟) هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: (الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي).

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الْفَٰلِقِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ، في الفتنة وصفتها، ونعيم القبر وعذابه.

(٢٨-٣٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ۖ وَجَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْقُرْآنَ ۚ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ يَقُولُ تَعَالَى - مِمَّا حَالِ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ مِنْ كُفَارٍ قَرِيشٍ، وما آل إليه أمرهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوه إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والضد عنها بأنفسهم.

﴿و﴾ صداهم غيرهم حتى ﴿أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ وهي النار، حيث تسبوا لإضلالهم، فصاروا وبالا على قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبارهم وصناديدهم في تلك الواقعة.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَيَنسَوْنَ الْقُرْآنَ﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا الله من الأنداد، ودعوه إلى عبادتها، ﴿قُلْ﴾ لهم متوعدا: ﴿تَتَّبِعُوا﴾ بكمركم وضلالكم قليلا، فليس ذلك بنافعكم، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مآلكم ومقرمكم ومآواكم فيها، وبئس المصير.

(٣١) ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةَ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَنْفَعُ لَهُمْ مَا فِيهَا غَايَةَ صَلَاحِهِمْ، أَنْ يَتَنَزَّهُوا الْفُرْصَةَ، قَبْلَ أَنْ لَا يُمْكِنَ لَهُمْ ذَلِكَ: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهرا وباطنا ﴿وَيُؤْتُوا زَكَاةً﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلا أو كثيرا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهذا يشمل النفقة

تُؤْتِي أَكْثَرَهَا كُلِّ حِينٍ يَأْذِنُ لَهَا وَيُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٣٣﴾ يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ۖ وَجَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْقُرْآنَ ۚ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَنْفَعُ لَهُمْ مَا فِيهَا غَايَةَ صَلَاحِهِمْ، أَنْ يَتَنَزَّهُوا الْفُرْصَةَ، قَبْلَ أَنْ لَا يُمْكِنَ لَهُمْ ذَلِكَ: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهرا وباطنا ﴿وَيُؤْتُوا زَكَاةً﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلا أو كثيرا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهذا يشمل النفقة

الواجبة، كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿يَنْفَعُ لَهُمْ مَا فِيهَا غَايَةَ صَلَاحِهِمْ﴾ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن بغنيته، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

(٣٢-٣٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ مِنْهُ شَجَرًا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ۚ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَنْفَعُ لَهُمْ مَا فِيهَا غَايَةَ صَلَاحِهِمْ، أَنْ يَتَنَزَّهُوا الْفُرْصَةَ، قَبْلَ أَنْ لَا يُمْكِنَ لَهُمْ ذَلِكَ: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهرا وباطنا ﴿وَيُؤْتُوا زَكَاةً﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلا أو كثيرا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهذا يشمل النفقة

الْبَحْرِ يَأْتِرُ» فهو الذي يَسُرُّ لكم صنعتها، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

«وَسَخَّرَ لَكُمُ الْآلِهَةَ» لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

«وَسَخَّرَ لَكُمُ السَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ» لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمعتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَلَّ» لتسكنوا فيه «وَالنَّهَارَ» مبصرًا، ليتبغوا من فضله.

«وَهُ أَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» أي: أعطاكم من كل ما تطلعت به أمانيتكم وحاجتكم، مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك.

«وَلَنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا» فضلًا عن قيامكم بشكرها «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلِيلٌ كَفَّارٌ» أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرى على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، فثَّار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه أثناء الليل والنهار، كما أن نعمته تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

(٣٥) «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَةً» أي:

«و» اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة إذ قال: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ» أي: الحرم «آيَةً» فاستجاب الله دعاءه شرعًا وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يَرُدَّهُ ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب القيل وغيرهم.

ولما دعا له بالآمن، دعا له ولبنه بالآمن فقال: «وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» أي: اجعلني وإياهم، جانبًا بعيدًا عن عبادتها، والإلمام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنه، بكثره من افتتن وابتل عبادتها، فقال:

(٣٦) «رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَبِيرًا مِنْ النَّاسِ» أي: ضلوا بسببها «فَمَنْ يَعْنِي» على ما جنت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين «فَإِنَّكَ مَعِي» لتنام الموافقة ومن أحب قومًا وتبعمهم، التحق بهم.

«وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهُ أَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَلَنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلِيلٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَةً وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٦﴾ رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَبِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٩﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤١﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤٢﴾ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ عَمَلُهُ يَمْشِلُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٤﴾

تمرد عليه.

(٣٧) «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ» وذلك أنه أتى به «هاجر» أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو في الرضاع، من الشام، حتى وضعهما في مكة، وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، ولا داع ولا موجب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال متضرعًا متوكلاً على ربه: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي» أي: لا كل ذريتي، لأن إسحاق في الشام، وباتي بنه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: «بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

«رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ» أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدنيوية، فمن أقامها كان مقيمًا لدينه، «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» أي: تحبهم، وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمدًا ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي، وإلى ملة أبيهم إبراهيم،

مُكْرِمِينَ مُقْبِنِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْقَدَتْهُمْ
هَوَاهُ ﴿٤٧﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَسُجِّدْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم
مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٨﴾ وَكَانْتُمْ بِمَسْكَانِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ وَبَنِينَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٩﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَازِلًا مِنْهُ الْإِجْبَالُ
﴿٥٠﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَرِيبٌ
ذُو أَنْتِقَامٍ ﴿٥١﴾ يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ عِزًّا الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ
وَيَرَوْنَ إِلَهَهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ ﴿٥٢﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٣﴾ سَرَابِلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْتَنِي
وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٥﴾ هَذَا بَلَّغَ لِلنَّاسِ لِیُنْذِرُوا
بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِیَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴿٥٦﴾

كل جانب، وغير الوجه من باب أولى وأحرى، وليس هذا
ظلمًا من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا
قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر،
بالعدل والقسط الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ
حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ويحتمل أن معناه: سريع
المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة كما يرزقهم
ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن
شأن، وليس ذلك بعسير عليه.

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه:
﴿هَذَا بَلَّغَ لِلنَّاسِ﴾ أي: يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى
أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من
الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

﴿وَلِيُنْذِرُوا بِهِ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما
أعد الله لأهلها من العقاب ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ حيث
صرف فيه من الأدلة والبراهين، على ألوهيته ووحدانيته، ما
صار ذلك حق اليقين.

مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق، ويعن جاء به - من عظمه
- لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: ﴿سَكُرُوا
مَكْرًا كَثِيرًا﴾ لا يقادر قدره ولكن رد كيدهم في نحورهم.

ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسل، لينصر
باطلاً، أو يضل حقاً، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً،
ولم يضروا الله شيئاً، وإنما أضروا أنفسهم.

(٤٧-٥٢) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَرِيبٌ
ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ عِزًّا الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَيَرَوْنَ
إِلَهَهُمُ الْقَهَّارَ ﴿٤٧﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٨﴾
سَرَابِلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْتَنِي وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٤٩﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ
مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٠﴾ هَذَا بَلَّغَ لِلنَّاسِ لِیُنْذِرُوا بِهِ
وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِیَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴿٥١﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَا
تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ﴾ بنجانهم، ونجاة أتباعهم
وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم
في الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولاً،
على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون
من الأخبار، خصوصاً وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنة
الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء، فإنه
﴿عَرِيبٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾.

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه،
وذلك في يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ عِزًّا الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾
تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل
ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى
ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صافصفاً، لا ترى
فيه عوجاً ولا أمثاً، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال
ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه.

﴿وَيَرَوْنَ إِلَهَهُمُ الْقَهَّارَ﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم،
ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ
عِزًّا الْقَهَّارَ﴾ أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته، وأفعاله
العظيمة، وقهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه وتديره، فلا
يتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الإجماع، وكثرة
الذنوب، في ذلك اليوم ﴿مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: يسلسل
كل أهل عمل من المجرمين، بسلاسل من نار، فيقادون إلى
العذاب، في أذل صورة وأشنعها، وأبشعها.

﴿سَرَابِلُهُمْ﴾ أي: ثيابهم ﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾ وذلك لشدة اشتعال
النار فيهم وحرارتها، وتنن ريحها ﴿وَتَغْتَنِي وُجُوهُهُمْ﴾ التي هي
أشرف ما في أبدانهم ﴿النَّارُ﴾ أي: تحيط بها، وتصلهاها من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَدُّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَآكُلُوا
 وَيَسْمَعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا
 مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْقِي مِنْ أَمَةٍ
 أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ
 الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّكَ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُزِّلَ الْمَلَكُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا
 إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا عَنَّا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ ﴿٩﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
 رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي
 قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾
 لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلَّوْهُ فِيهِ يَعرْجُونَ ﴿١٤﴾
 لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَفْصَارُ بَلْعَنُ فَوْمٍ مُسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

من وقوع أثرها وإن تأخر.

(١-٩) ﴿وَالرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ رَبِّمَا يَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَآكُلُوا وَيَسْمَعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْقِي مِنْ أَمَةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُزِّلَ الْمَلَكُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا عَنَّا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ ﴿٩﴾

أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ على زعمك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إذ تظن أنا مستعبدك، وتركنا ما وجدنا عليه آباءنا للمجرد قولك.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ﴾ يشهدون لك بصفة ما جئت به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق، وهذا من أعظم الظلم والجهل.

أما الظلم فظاهر، فإن هذا تجرؤ على الله وتعتن بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة، الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال الملائكة خير لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إهمال على من لم يتبعه وينقله.

﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾ أي: حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا،

﴿وَيَذْكُرْ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ﴾ أي: العقول الكاملة، ما يتفهمون فعلهم وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الأبواب والبصائر، إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراءهم، وتنورت أفكارهم، لما أخذوه غصاً طرياً، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها. وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي، لم يزل في صعود ورفي على الدوام في كل خصلة حميدة. والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

تفسير سورة الحجر

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ رَبِّمَا يَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَآكُلُوا وَيَسْمَعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْقِي مِنْ أَمَةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٥﴾ يقول تعالى معظمًا لكتابه، مادحًا له: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني، وأفضل المطالب ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ للحقائق، بأحسن لفظ وأوضحه، وأدله على المقصود، وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه، والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول، والفرح والسرور.

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها، والكفر بها، فإنه من المكذبين الضالين الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون، أي: منافقون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء، وتظهر أوائل الآخرة، ومقدمات الموت، فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

ف: ﴿ذَرَهُمْ يَآكُلُوا وَيَسْمَعُوا﴾ بلذاتهم ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: يؤملون البقاء في الدنيا، فيلهيهم عن الآخرة ﴿فَسَوْفَ يَسْأَلُونَ﴾ أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خساراً عليهم، ولا يغتروا بإهمال الله تعالى، فإن هذه سنته في الأمم. ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ كانت مستحقة للعذاب ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ مقدر لإهلاكها.

﴿مَا تَسْقِي مِنْ أَمَةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ﴾ وإلا فالذنوب لا بد

مطمع فيهم ولا رجاء، ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

(٢٠-١٦) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَكَّبْنَا النُّجُومَ ۖ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۚ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ۚ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا زُرْقًا وَوَلَّيْنَاهَا مِنْ كُلِّ نَجْوٍ مُرْوَدٍّ ۖ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا وَمَنْ لَكُمْ لِمِ بَرْزَقٍ﴾.

يقول تعالى مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي: نجومًا كالأبراج، والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ﴿وَرَكَّبْنَا النُّجُومَ﴾، فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي، والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها، والاستدلال بها على بارئها.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ إذا استرق السمع، أتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء، ظاهرها مجملًا بالنجوم النيرات، وباطنها محروسًا ممنوعًا من الآفات.

﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: في بعض الأوقات، قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ أي: بين منير يقتله أو يخبله.

فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه، فيقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضئها ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها سعة يتسكن الآدميون والحيوانات كلها، على الامتداد بأرجائها، والتناول من أرزاقها، والسكون في نواحيها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا زُرْقًا﴾ أي: جبالًا عظامًا، تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد، وتشتتها أن تزول ﴿وَوَلَّيْنَاهَا مِنْ كُلِّ نَجْوٍ مُرْوَدٍّ﴾ أي: نافع مقوم، يضطر إليه العباد والبلاد، ما بين نخيل وأعنان، وأصناف الأشجار، وأنواع النبات.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا﴾ من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف، ﴿وَمَنْ لَكُمْ لِمِ بَرْزَقٍ﴾ أي: أنعمنا عليكم بعيد إمام، وأنعام، لنفعكم، ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها، ونكفل بأرزاقها.

(٢١) ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِيَّائِي عِدَاكُمْ حَزَنُكُمْ وَمَا نُنْزِلُكُمْ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار، لا يملكها أحد إلا الله، فخراتها بيده، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة ﴿وَمَا نُنْزِلُكُمْ﴾ أي: المقدر من كل شيء، من مطر وغيره ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ فلا يزيد على ما

ولن يؤمنوا بـ ﴿مُنْظَرِينَ﴾ أي: بممهلين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلًا لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله ﴿وَلَوْ أَنَّا زُنَّكَآ إِلَيْهِمُ الْمَكِّجُكَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْغُوثَ وَحَمَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُلُومًا كَانُوا يُؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْ يَنْكُرَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَصْغَرَهُمْ بِمَهْلُوكٍ﴾ ويكفهم من الآيات، إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا:

﴿إِنَّا نَحْنُ زُنَّكَآ الْوَكْرُ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء، من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر ﴿وَلَا تُمْ كَحَفِظُوكُمْ﴾ أي: في حال إنزاله، وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم.

وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها، والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه، إلا وقض الله له من بين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه: أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدوًا يجتاحهم.

(١٠-١٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ۖ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۚ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۖ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى لنبية إذ كذب المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فرفهم وجماعتهم رسلاً.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ يدعوهم إلى الحق والهدى ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أي: ندخل التكذيب ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم والبهت، عاقبناهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسولهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: عادة الله فيهم، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

(١٤، ١٥) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْعَرُونَ ۖ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْصُرُنَا بَلْ عَنْ قَوْمٍ مَشْهُورِينَ﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة لم يؤمنوا وكابروا، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانًا بأنفسهم، لقالوا - من ظلمهم وعنادهم، منكرين لهذه الآية -: ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْصُرُنَا﴾ أي: أصابها سكر وغشاة، حتى رأينا ما لم نر ﴿بَلْ عَنْ قَوْمٍ مَشْهُورِينَ﴾ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ يَا إِبْلِيسَ مَا لَكَ لَا تَسْجُدُ مَعَ الْمَسْجُودِينَ ﴿٢٦٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦٣﴾ قَالَ فَامْخُرْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٦٤﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ أُمْرُؤُنَ ﴿٢٦٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٦٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٦٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٦٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٧٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٧١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٢٧٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٧٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٢٧٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٧٥﴾ أَذْخَلُوهَا بِسْمِ اللَّهِ أَمِينٌ ﴿٢٧٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٢٧٧﴾ لَا يُسْمِعُ فِيهَا النَّفْسُ وَمَاهُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٢٧٨﴾ نَجَّى عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَمْ نَقُورُواكَ بِالْحَقِّ إِنْ كُنْتَ عَلِيمًا ﴿٢٧٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٢٨٠﴾ وَيَنْفُخُ فِيهِمْ صُفُوفٌ مِنْهُمْ عَنْ صُفُوفِهِمْ ﴿٢٨١﴾

الشار اللذيذة، في جميع الأوقات.

ويقال لهم حال دخولها: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسْمِ اللَّهِ أَمِينًا﴾ من الموت، والنوم والنصب، واللغوب، وانقطاع شيء من النعيم، الذي هم فيه أو نقصانه، ومن المرض، والحزن، والهجم، وسائر المكدرات ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ فنبقى قلوبهم سالمة من كل دغل ^(١) وحسد، متصافية متحابة ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

دل ذلك على تزاورهم، واجتماعهم، وحسن أديهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلًا للآخر لا مستدبرًا له، متكتين على تلك السرر المزينة، بالفرش واللؤلؤ، وأنواع الجواهر.

﴿لَا يُسْمِعُ فِيهَا النَّفْسُ﴾ لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة، لا تقبل شيئًا من الآفات ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ على سائر الأوقات.

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة، من مفعولات الله، من الجنة، والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال:

رَجِيمٌ ﴿٢٦٢﴾ أي: مطرود مبعذ من كل خير ﴿وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الذم، والعيب، والبعد عن رحمة الله ﴿إِلَّا يَوْمَ الدِّينِ﴾ فيها وما أشبهها، دليل على أنه سيستمر على كفره، وبعده من الخير.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أي: أمهلني ﴿إِلَّا يَوْمَ يَمُوتُونَ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿إِلَّا يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه، ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريد منا.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى، حتى يكونوا منافقين لكل معصية.

﴿وَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أضدهم كلهم عن الصراط المستقيم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتهم واجتنبتهم، لإخلاصهم وإيمانهم، وتوكلهم.

قال الله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: معتدل موصل إلي، وإلى دار كرامتي.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تبليهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم، وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ فرضي بولايتك وطاعتك، بدلًا من طاعة الرحمن، ﴿وَمِنَ الْغَاوِينَ﴾ والغاوي: ضد الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: إبليس وجنوده ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ بحسب أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَنُكَبِّرُوا فِيهَا مَا هُمْ وَالْقَائِلُونَ﴾ وَخُذُوا مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه، أتباع إبليس، من النكال والعذاب الشديد، ذكر ما أعد لأولياته من الفضل العظيم، والنعيم المقيم فقال:

(٤٥ - ٥٠) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أَدْخَلُوهَا بِسْمِ اللَّهِ أَمِينٍ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ لَا يُسْمِعُ فِيهَا النَّفْسُ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿نَجَّى عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَمْ نَقُورُواكَ بِالْحَقِّ إِنْ كُنْتَ عَلِيمًا﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان، وما يدعوههم إليه، من جميع الذنوب والعصيان ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ قد احتوت على جميع الأشجار، وأبنت فيها جميع

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجْهُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٢﴾ قَالَ أُبَشِّرُكُمْ بِوَعْدِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِمَا كُنَّا نَبْغِي ﴿٥٤﴾ قَالُوا لَا يَكُنْ مِنْ الْفَنَاطِيلِ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ مِنْ قَبْلِكَ ﴿٥٨﴾ وَإِلَّا إِلَهُ لُوطٍ إِنَّا لَمَنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُشْكِرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا لَيْسَ بِكُنْزِكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُّونَ ﴿٦٣﴾ وَأَنْتَ نَذِيرٌ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِبْ إِلَهُكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنْتَ أَعْيُنُهُمْ لَيْلًا نُبْشِرُكَ بِمُكْرٍ أَكْبَرَ وَأَمْسُوا وَخِشُوا تُؤْمِرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَهُمْ لَوْ كَانَتْ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاقْفُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَلَمْ تَنْهَ عَنْ الْمَلَائِكَةِ عَنِ الْمَلَائِكَةِ ﴿٧٠﴾

وبركاته عليكم، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم.

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَنَاطِيلِ﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزل راجيًا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه، فاجابه إبراهيم بقوله:

﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الذين لا علم لهم ببرهم، وكما اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق، لرحمة الله، شيئًا كثيرًا، ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لآمرهم.

(٥٧-٧٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ مِنْ قَبْلِكَ ﴿٥٨﴾ وَإِلَّا إِلَهُ لُوطٍ إِنَّا لَمَنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُشْكِرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا لَيْسَ بِكُنْزِكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُّونَ ﴿٦٣﴾ وَأَنْتَ نَذِيرٌ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِبْ إِلَهُكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنْتَ أَعْيُنُهُمْ لَيْلًا نُبْشِرُكَ بِمُكْرٍ أَكْبَرَ وَأَمْسُوا وَخِشُوا تُؤْمِرُونَ ﴿٦٥﴾

﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ أي: أخبرهم خبرًا جازمًا، مؤيدًا بالأدلة ﴿أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته، سعوا في الأسباب^(١) الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب، وتابوا منها، لينالوا مغفرته.

ومع هذا، فلا ينبغي أن يتبادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبتهم ﴿أَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله، الذي لا يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿لَا يَذُبُّ عَنْكَ اللَّهُ﴾ ولا يؤخر وفاءه أبدًا، حذروا، وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته، وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

(٥١-٥٦) ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ صَبِّهِمْ﴾ إِذْ دَعَا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجْهُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٢﴾ قَالَ أُبَشِّرُكُمْ بِوَعْدِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِمَا كُنَّا نَبْغِي ﴿٥٤﴾ قَالُوا لَا يَكُنْ مِنَ الْفَنَاطِيلِ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ صَبِّهِمْ﴾ أي: عن تلك القصة العجيبة، فإن في قصصهم أبناء الرسل، وما جرى لهم، مما يوجب لهم العبرة، والافتداء بهم، خصوصًا إبراهيم الخليل الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيئه هم الملائكة الكرام، أكرمهم الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿إِذْ دَعَا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلموا عليه، فرد عليهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجْهُونَ﴾ أي: خائفون، لأنه لما دخلوا عليه، وحسبهم ضيوفًا، ذهب مسرعًا إلى بيته، فاحضر لهم ضيافتهم، عجلًا حينئذ قدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه، خاف منهم أن يكونوا لصوصًا أو نوحوم.

ف ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ﴾ وهو: إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة، بأنه ذكر لا أنثى، علم، أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى ﴿وَنَبِّئَهُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا يَنْتَظِرُونَ﴾.

فقال لهم متعجبًا من هذه البشارة: ﴿أُبَشِّرُكُمْ بِوَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: أني أنبئكم بوعده، وصار نوع إيلاس منه ﴿فَبَشِّرْهُم بِوَعْدِ اللَّهِ﴾ على أي وجه تبشرون وقد عدتم الأسباب؟

﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه، لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص - يا أهل هذا البيت - رحمة الله

عذاب يوم عظيم ﴿وَأَنذَرْتُ﴾ أي: ديار قوم لوط، وأصحاب الأيكة ﴿كَلِمَاتٍ مُّسِيئَةٍ﴾ أي: لبطريق واضح، يمر بهم المصافرون كل وقت، فَيُبَيِّنُ من آثارهم ما هو مشاهد بالابصار، فعتبر بذلك أولو الألباب.

(٨٠-٨١) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجِبْرِ الْمُرْسَلِينَ ○ وَأَنتِمْ
 عَائِدَتَنَا فَمَا كُفُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ○ وَأَوَّلُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْمُنْجِلُ وَمَا
 أَخَذْتَهُمْ الْفِتْنَةُ مُصِيبِينَ ○ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ كَذْأُولَٰهُمُ بِبُخْسِينَ﴾ يخبر
 تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين يسكنون الحجر
 المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أي:
 كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل،
 لانفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء
 به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به ﴿وَأَوَّلُوا
 عَائِدَتَنَا﴾ الدالة على صفة ما جاءهم به صالح من الحق، التي
 من جملتها تلك الناقة، التي هي من آيات الله العظيمة.

﴿فَكَذَّبُوهُ عَنْ مَرْغَبَيْنِ﴾ كَبْرًا وَجَبْرًا عَلَى اللَّهِ ﴿وَصَكَّانَا﴾ - من كثرة إنباع الله عليهم - ﴿يَجْعَلُونَ مِنْ لَبَالٍ يَوْمَنَا﴾ مَا يَوْمُنَا من المخاوف مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة، وصدقوا نبيهم صالحًا عليه السلام، لَأَكْثَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، ولَأَكْرَمَهُمُ بِأَنْوَاعِ مِنَ الثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، ولكنهم - لما كذبوا، وعفروا النافقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: ﴿يَصْلَحُ لَنَا﴾ أَفَنَبَأَ بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ .

﴿فَأَعَدَّتْهُمْ آتِيَةً مُّصِيبَةً﴾ فنقطعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة ﴿لَمَّا أَتَيْنَاهُمْ مَا كَانُوا يَكِيدُونَ﴾ لأن أمر الله إذا جاء، لا يردّه كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

(٨٦٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ الْعَلِيِّ﴾ أي: ما خلقناهما عبثاً وباطلاً، كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي منه، أن يكونا بما فيهما دالّتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ﴿وَالسَّاعَةَ لَآتِيَةً﴾ لا ريب فيها ﴿لَنَخْلُقَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ﴿فَأَصْبَحَ الْجَبَلُ خَشَعًا﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتنازل من ربه جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هو آت فهو قريب، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا.

قَالَ هُوَ لَا بَنَىٰ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّاكَ إِنَّمَا لِيَ سَكْرَتِهِمْ يَعْهَدُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبًّا لَا يَسْجَلُ ﴿٧٤﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّمَا السَّبِيلُ مُقِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَحَبُّ الْأَيَاتِ لَظُلُمَاتٍ ﴿٧٨﴾ فَانْقَسَمْنَا مِنْهُمُ وَإِنَّمَا إِلَهُ مَائِمِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحْسَبُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآلَيْتَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُسْجِنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا يُمِينُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّفْحَ الْجَعِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْتَهُمْ زُيُوجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا حَاكِلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

وهو: أن المأمور به هو الصنف الجميل، أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد، والأذى القولية والفعلية، دون الصنف الذي ليس بجميل، وهو الصنف في غير محله، فلا يصح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لكل مخلوق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

(٨٧-٩٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبًّا مِّنَ النَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ الْعَلِيمِ ۝ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ بِالْعُرْوَيْنِ ۝ وَقُلْ إِنِّي أَنَا الْذَرِيرُ الْمُبِيتُ ۝ كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُتَقَبِّحِينَ ۝ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝ قَوْلِيكَ لَسَنَأَنفُخُهُمْ فِجْهَيْنِ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى مُتَمَتِّيًا على رسوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبًّا مِّنَ النَّبِيِّ﴾ وهن - على الصحيح - السور السبع الطوال: «البقرة» و«آل عمران» و«النساء» و«المائدة» و«الأنعام» و«الأعراف» و«الأنفال» مع «التوبة». أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف «الْقُرْآنِ الْعَلِيمِ»

على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في الثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجليلة، وتنبيها فيها.

وعلى القول بأن «الفاتحة» هي السبع المثاني، معناه: أنها سبع آيات، تنبئ في كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون ﴿قُلْ بِضَلِّ إِلَهٍ وَبِرَحْمَةِ إِلَهِكَ يَفْتَرِحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ولذلك قال بعده:

﴿لَا تَدْعُ عِبَادَكَ إِلَهًُا مِثْلًا يَدُ الْوَجْهِ مِنْهُمْ﴾ أي: لا تعجب إعجاباً يحملك على إشغال فكرك، بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغتر بها الجاهلون، واستغنى بما آتاك الله، من المثاني والقرآن العظيم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنهم لا خير فيهم يرحى، ولا نفع يُرتقب.

فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل، وأفضل العوض ﴿وَلَوْ كُنْتَ تَحَاكُّهُمْ يُتَّقُونَ﴾ أي: إِنْ لَمْ يَكُنْ جَانِبُكَ، وَحَسَنَ لَهُمْ خَلْقُكَ، مُحِبَّةً وَإِكْرَامًا وَتَوْدُّدًا.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا الْكَذِبُ الْمُبِينُ﴾ أي: قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقریب والبعيد، والعدو والصديق، فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُتَقَبِّينَ﴾ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ﴾ أي: أصنافاً وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهونه، فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مُفْتَرَى إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ من أقوال الكفرة المكذبين به الذين جعلوا قُدْحِهِمْ فِيهِ، لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الْهَدْيِ.

﴿قُورَيْكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمِينَ﴾ أي: جميع من قدح فيه وعابه، وحرّفه وبذلّه ﴿عَمَّا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ وفي هذا أعظم تهريب، وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه^(١).

(٩٤، ٩٥) ثم أمر الله رسوله أن لا ييالي بهم، ولا بغيرهم، وأن يصدع بما أمر الله، ويعلم بذلك لكل أحد ولا يُؤَوَّقُهُ عَنْ أَمْرِهِ عَاتِقٌ وَلَا تَصُدُّهُ أَقْوَالُ الْمُتَهَوِّكِينَ ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الشُّرَكِيِّينَ﴾ أي لا تبال بهم، واترك مشائتهم ومسابتهم، مقبلاً على شأنك ﴿إِنَّا كُنْزُكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بك وما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.

٢٦٧

٢٦٧

سُورَةُ الْحَجَرِ

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ ﴿٩٤﴾ قُورَيْكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمِينَ ﴿٩٥﴾ عَمَّا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿٩٦﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الشُّرَكِيِّينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّا كُنْزُكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٨﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٠٠﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٠١﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٠٢﴾

سُورَةُ الْحَجَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُزِيلُ اللَّعْنَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنفُسَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دُفٌّ وَمَنْعَفَةٌ وَمِنْهَا أَنَا نَقُودُ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَمِنْ حِينَ تَنْشُرُونَ ﴿٦﴾

(٩٦) وقد فعل تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به، إلا أهلكه الله، وقته شر قتلة.

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤفكوك يا رسول الله، فإنهم أيضاً يؤفزون الله ويجعلون معه ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ وهو ربههم وخالفهم، ومدبرهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غيب أفعالهم إذا وردوا القيامة.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب والاستهزاء. فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يمهلهم.

(٩٨) فأنت يا محمد ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: أكثر من ذكر الله، وتسبيحه، وتحميد، والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر، ويشرحه، ويعينك على أمورك.

(٩٩) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: الموت، أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع

(١) في ب: يعملون.

العبادات، فامتثل ﷺ أمر به، فلم يزل دأباً في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷻ، تسليماً كثيراً.
تم تفسير سورة الحجر.

تفسير سورة النحل
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبدا بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُفُثَةٍ﴾ لم يزل يدبرها، ويرقيها، وينميها، حتى صارت بشراً تاماً، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم، فخر بنفسه وأعجب بها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّتَبِينٌ﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به من النعم، فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ آدمي من نقطة، ذا ذهن ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلاً متكلماً، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلْقًا وَكَفًّا﴾ أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿فِيهَا وَفَاءٌ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب، والفرش، والبيوت.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جِبَتٌ رَّيْعُونَ رَّيْعُونَ﴾ أي: في وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بشبابكم، وأولادكم، وأمواكم، وتعجبون بذلك ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَكُونُونَ﴾ بل يتبينه إلا يتبين الأفئدة ولكن الله دللها لكم.

فمنها ما تركيبه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة، والأقطار الشاسعة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَرْتَوُونَ رَجَعُوا﴾ إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

﴿وَلَقَدْ رَاسَدْنَاهُ وَإِلْقَانَهُ وَالْجَبِينِ﴾ سخرناها لكم ﴿يَرْكَبُهَا رَبَّيْنَاهُ﴾

(٢، ١) ﴿إِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِهِ﴾ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ○ يَرْزُقُ الْغَنَى وَالْفَقْرَ ○ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ○ أَنْ يُزِيلَهُ اللَّهُ ○ إِنْ أَتَا فَأَنْتُمْ لَهُ قُلُوبٌ فَاعْلَمُوا ○ ﴿إِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِهِ﴾ فإنه أت، وما هو أت فإنه قريب ﴿سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من نسبة الشريك، والولد والصاحبة والكفء، وغير ذلك مما نسب إليه المشركون، مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله، ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه، ذكر الوحي الذي ينزله على أنبيائه، مما يجب أتباعه في ذكر ما ينسب لله، من صفات الكمال فقال:

﴿يَرْزُقُ الْغَنَى وَالْفَقْرَ﴾ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ممن يعلمه صالحاً، لتحمل رسالته.

وزيدة دعوة المرسلين كلهم ومدارها، على قوله: ﴿إِنْ أَتَا يُزِيلَهُ اللَّهُ ○ إِنْ أَتَا فَأَنْتُمْ لَهُ قُلُوبٌ فَاعْلَمُوا﴾ أي: على معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحت وتجاهد من حاربها، وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك، فقال:

(٣-٩) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ○ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُفُثَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّتَبِينٌ ○ وَالْأَنْعَمَ خَلْقًا وَكَفًّا فِيهَا وَفَاءٌ ○ وَمَنْ تَعَبَّى تَأْكُلُونَ ○ وَلَكُمْ فِيهَا جِبَتٌ رَّيْعُونَ رَّيْعُونَ ○ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ○ بَلَاؤُهُ تَكُونُوا بِلْيَابِهِ ○ إِلَّا يَتَّبِعُ الْأَفْئِدَةَ ○ رَبِّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ○ وَالْحَيْلُ وَالْإِلَهَاءُ ○ لِرَبِّكُمُهَا وَزِينَةٌ ○ وَخَلْقٌ مَا لَا تَعْلَمُونَ ○ وَعَلَى اللَّهِ قَسْدٌ السَّبِيلِ ○ وَمِنْهَا جَاءَهُمْ ○ وَكَوْنُهُمْ أَجْمَعِينَ ○ هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق

الْحَمِيرُ

٢٦٨

النحل

وَتَحْمِلْ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا يَشُقُّ
الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ
وَالْحَمِيرَ لَتَكُنَّ بِوَهَائِهِمْ وَبِخَلْقِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ بُيُوتٌ لَكُمْ
بِهِ الزَّرْعُ وَالزُّيُوتُ وَالْخَيْلُ وَالْأَنْعَابُ وَمِنْ كُلِّ
الشَّيْءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ شَآوِبًا مِّنْهُ لِحِمَابِ طَرِيقًا وَتَسْتَخْرِجُونَ
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرِيهِ
وَلَتَسْتَغْوُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل
الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير محرم
أكلها، والخيول لا تستعمل - في الغالب - للأكل، بل ينهى
عن ذبحها لأجل الأكل خوفاً من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في
الصحيحين أن النبي ﷺ، أذن في لحوم الخيل.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من
الاشياء التي يربكها الخلق في البر والبحر والجو،
ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها
بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد،
أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير فإنه لو ذكر لم يعرفوه،
ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما
يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما
نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما
لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

فكذلك هنا، ذكر ما نعرفه من المراكب، كالخيل،
والبغال، والحمير، والإبل، والسفن، وأجمل الباقي في
قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسي،
وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها، ذكر
الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم الذي هو
أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف
الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار
الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل
الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ
أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه هدى بعضاً كرمًا وفضلاً، ولم يهد آخرين
حكمة منه وعدلاً.

(١١، ١٠) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ
وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ بُيُوتٌ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزُّيُوتُ وَالْخَيْلُ
وَالْأَنْعَابُ وَمِنْ كُلِّ الشَّيْءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
بذلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب
الرقيق اللطيف، ورحمته، حيث جعل فيه ماء غزيراً منه
يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج
لهم الثمرات الكثيرة، والنعيم الغزيرة.

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: سخر
لكم هذه الاشياء لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا
تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون، وتستريحون،

وبالنهار تتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم،
وبالشمس والقمر، من الضياء، والنور، والإشراق، وإصلاح
الأشجار والثمار، والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة
البردة الضارة للأرض وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات
والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر.

وفهما وفي الزينة للسماء، والهداية في ظلمات
البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، ما تنوع
دلالاتها، وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يستعملونها
في التدبر والتفكر، فيما هي مهياة له مستعدة، تعقل ما تراه،
وتسمعه، لا تنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم
التي لا عقل لها.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد،
من كل ما على وجه الأرض، من حيوان، وأشجار، ونبات،
وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافع آية على كمال
قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تبغي

مُسْتَكْبِرُونَ ۚ لَا جَبَمَ أَتَى اللَّهُ بِمَلَكٍ مَّا يُشِيرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِلَّا مَا لَا يُحِيطُ النَّاسُ بِشَيْءٍ مِّنْهُ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا خَلَقَهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا أَنْعَمَ بِهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَمِيمَةِ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَا شَيْبَهُ أَحَدٌ وَلَا كُفَّهُ لَهُ وَلَا نَدَّ لَهُ، فَقَالَ: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ شيئاً، لا قليلاً، ولا كثيراً ﴿أَفَلَا نَذْكُرُ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق، أحقُّ بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدييره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.

وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل اخلصوا له الدين ﴿وَإِنْ تُعْذُوا يَمَسَّ اللَّهُ﴾ عدداً مجرداً عن الشكر ﴿لَا تَحْصُونَهَا﴾ فضلاً عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد، بعدد الأنفاس والحلطات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر، مع إنعامه الكثير.

وكما أن رحمته واسعة، وجوده عظيم، ومغفرته شاملة للعباد، فعلمه محيط بهم ﴿يَسْأَلُ مَا يُشِيرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بخلاف من عُبد من دونه، فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى!!

ومع هذا، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء، لا علم، ولا غيره ﴿أَنْتُمْ غَيْرَ آتِمِينَ﴾ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئاً، أفْتَحِذْ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتباً لعقول المشركين، ما أضلها، وأفسدها! حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسواها بين الناقص من جميع الوجوه، فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء، والقدرة العامة، والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُمْ لِلَّهِ وَحَدُّهُ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فأهل الإيمان والعقول، أجلته قلوبهم وعظمت، وأحبته حباً عظيماً، وصرخوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأنشأوا عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته، وأفعاله المقدسة ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُّكَيَّرَةٌ﴾ لهذا

العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿لَقَوْمٍ يَدْعُونَ﴾ أي: يستحضرون في ذآكرتهم، ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

(١٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلَسُونَهَا وَتَرْكَبُ الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَتَسْتَمْتَعُونَ مِنْ نِّعَتِهِ. وَلَكُمْ فِي شُكْرِهِ﴾ أي: هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وهياً لمنافعكم المتنوعة، ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾ وهو السمك، والحوث الذي يصطادونه منه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم ﴿وَتَرْكَبُ الْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ أي: تمخر البحر العجاج الهائل، بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم، وأمتعتهم، وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿وَلَكُمْ فِي شُكْرِهِ﴾ الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياًها، وتنتون على الله الذي مَنَّ بها، فله تَعَالَى الحمد والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلى مما يمتنون، وآتاهم من كل ما سألوه، لا نحصى ثناء عليه، بل هو كما أننى على نفسه.

(١٥، ١٦) ﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تُبَدِّلَهُمْ تَبْدِيلًا وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ تَهْتَدُونَ ۚ وَعَلَيْكُمْ وَالْجَبَمُ فَمَنْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: ﴿وَالَّذِينَ﴾ الله تعالى لأجل عبادته ﴿فِي الْأَرْضِ رَوًى﴾ وهي الجبال العظام؛ لئلا تميد بهم وتضطرب بالخلق، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء، والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، أنهاراً على وجه الأرض، وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلاً أي: طرقاً توصل إلى الديار المتناحية، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال، سلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

(١٧-٢٣) ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ۚ وَإِنْ تَعْذُوا يَمَسَّ اللَّهُ لَكُمْ لَعْنُهُمْ رَحِمَهُ ۚ وَاللَّهُ يَسْأَلُ مَا يُشِيرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۚ أَنْتُمْ غَيْرَ آتِمِينَ وَمَا يَشْعُرُونَ إِلَّا أَنْ يُمِشُوا ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا لَهٗ وَحْدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُّكَيَّرَةٌ وَهُمْ

سورة النحل

٢٦٩

سورة النحل

وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَمْيًا أَنْ يَكِيدَ بِكُمْ وَيَنْهَرَأَوْسَبَلًا
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ وَعَلَّمَتِ وَيَأْتِجُمُ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿٢٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِنْ
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٣٠﴾ آمَنُوا غَيْرُ
أَحْيَاءٍ وَمَا يُسْمَعُونَ أَيَّانَ يَسْمَعُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمْ كَالْهَرَّةِ وَاجِدُ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ
﴿٣٢﴾ لَأَجْرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِيكُكُمْ
قَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَرْيَلِ ﴿٣٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴿٣٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَأَفَّاهُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ الشَّقَقُ
مِنْ قُوْفِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٦﴾

الامر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً لا بد ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْلَمُ مَا يُفْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأعمال الفبيحة ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ بل يفضضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَرْجُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

(٢٤-٢٩) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِيكُكُمْ قَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَرْيَلِ﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴿٣٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَالَتْ إِنَّهُ يَبْيُنُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ الشَّقَقُ مِنْ قُوْفِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ إِنَّ شُكَايَكَ الَّذِينَ كُفَرُوا فَتَقُولُ فِيهِمْ قَالِ الَّذِينَ أَوْزَارُ الْعِلْمِ إِلَى الْخَيْرِ الْيَوْمَ وَالشَّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبَةَ طَالِبِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْنَا أَلَكَّهُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سَمٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ فَأَذَلُّوا أَوْرَبَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٣٩﴾ يقول تعالى مخبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِيكُكُمْ﴾ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعرفون بها، أم تكفرون وتعادون؟.

فيكون جوابهم أفصح جواب وأسمج، فيقولون عنه: إنه ﴿أَسْطِيرُ الْأَرْيَلِ﴾ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم، ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعواهم إليه، فيحملون إثم ما دعواهم إليه، وأما الذين يعلمون، فكل مستقل بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾ أي: بس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم، من وزرهم، ووزر من أضلوه.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم، واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاؤوهم به، وبنوا من مكروهم قصوراً هائلة ﴿قَالَتْ إِنَّهُ يَبْيُنُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ الشَّقَقُ مِنْ قُوْفِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذاباً، عذبوا به ﴿وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سيفعهم، ويقهيم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأضلوه.

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم، وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل، يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكروهم وبئلاً عليهم، فصار تدميرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكروهم سيئاً ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْلَيْهِ﴾ هذا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَخْرِجُهُمْ﴾ أي: يفضضهم على رؤوس الخلائق، وبين لهم كذبهم، واقرأهم على الله. ﴿وَيَقُولُ إِنَّ شُكَايَكَ الَّذِينَ كُفَرُوا فَتَقُولُ فِيهِمْ﴾ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال، لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون: ﴿سَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، ﴿قَالَ الَّذِينَ أَوْزَارُ الْعِلْمِ﴾ أي: العلماء الربانيون ﴿إِنَّ الْخَيْرَ الْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَالشَّوْءَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه

سورة النحل

٢٧٠

سورة النحل

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخَذِّبُهُمْ وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَاءِكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشُّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَذْخَلُوا الْأَنْبِيَاءَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتِي الْمُنْكَرِ بِشَيْءٍ ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٩﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ مِنْ كَثَرٍ مُبْحَرٍ إِنَّ اللَّهَ الْمُنْقِذِينَ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوتُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يُرَآهُمْ أَمْرٌ بَلَّغٌ كَذَلِكَ فَذَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَهُمْ أَصْلَحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ وَلِيُّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْفُسُهُمْ يُظْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾

نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب، وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه حتى إنه يُدْخِرُهُمْ أَشْيَاءَ مِنَ النِّعَمِ، لم تخطر على قلوبهم. فبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده، الذي ليس كمثلته شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله، وآثار تلك النعمت، وعظمة الملك والملكوت، ﴿كَذَلِكَ يُجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ لسخط الله وعذابه، بأداء ما أوجبه عليهم، من الفروض، والواجبات المتعلقة بالقلب، والبدن، واللسان، من حقه، وحق عبادته، وترك ما نهاهم الله عنه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي: طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم، ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبه، والستهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه.

﴿يَقُولُوتُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: التحية الكاملة، حاصلة لكم، والسلامة من كل آفة. وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله، والالتزام

الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة، وفي القيامة فقال: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: توفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغشهم، وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام، من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فَالْقَوْلُ السَّكَرُ﴾ أي: استسلموا، وأنكروا ما كانوا يعبدونه من دون الله وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فيقال لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ كنتم تعملون سوء، ف ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئاً، وهذا في بعض مواقف القيامة، ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظناً أنه يرفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار، حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿فَأَذْخَلُوا الْأَنْبِيَاءَ جَهَنَّمَ﴾ كل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم ﴿فَلَيْسَ مَوْتِي الْمُنْكَرِ﴾ نار جهنم، فإنما مَوْتِي الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يُقْتَرُ عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوماً من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

(٣٢-٣٠) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ مِنْ كَثَرٍ مُبْحَرٍ إِنَّ اللَّهَ الْمُنْقِذِينَ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوتُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر الله قبل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والالتقاد، وشكروا الله عليها، فعملوها، وعملوا لها ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار، وما فيها من أنواع اللذات والمشتبهات، فإن هذه نعيمها قليل، محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: مهما تمتت أنفسهم، وتعلقت به إرادتهم، حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧١

سُورَةُ النُّحْلِ

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِبين ﴿٣٦﴾ إِنَّ تَحْرِيضَ عَلَىٰ هُدًى مِّن قِبَالِ اللَّهِ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِن أَكْثَر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنبُؤَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

عليهم بالقدر، فليس للرسول من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

(٣٧، ٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِبين﴾ ○ إن تحريض على هُدًى مِّن قِبَالِ اللَّهِ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعت الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة، ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فاتبعوا المرسلين علماً وعملاً، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فاتبع سبيل الغي.

﴿فسيروا في الأرض﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذِبين﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون

لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومته عليهم، لا بحولهم وقوتهم.

(٣٤، ٣٣) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْغَلَائِكُ أَوْ يَأْتِيَ أَثَرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنَّمُوا أَنَّهُمُ يَكُونُوا أَنفُسُهُمْ يَعْلَمُونَ ○ فَأَمَّا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يقول تعالى: هل ينظرون هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكرُوا فلم يتذكروا ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْغَلَائِكُ﴾ لغضب أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَثَرُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم، فإنهم قد استحقوا لوقوعه فيهم ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا، حتى نزل بهم العذاب.

﴿وَمَا ظَنَّمُوا أَنَّهُ﴾ إذ عذبهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسُهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله، ليكون مآلها إلى كرامة الله، فظلموها، وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة، والشقاء الملازم.

﴿فَأَمَّا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها ﴿وَحَقَّ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسالهم بالعذاب، استهزؤوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

(٣٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئاً من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة، والوصيلة والحام، ونحوها، من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقاً ما عاقب الله الذين من قبلهم، حيث أشركوا به، فعاقيهم أشد العقاب، فلو كان يجب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فنعدمهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكنهم من ^(١) القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشية تصدر عنها أفعالهم، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا، وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده، من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقلية، والحسية ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا

معانيه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلمه، بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه.

(٤٥-٤٧) ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۚ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ۚ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب، وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غيرة، وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تَقْلِبِهِمْ وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تَخَوُّفِهِمْ من العذاب، فليسوا بمعجزين لله، في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده.

ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم، وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم^(١) أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الاتلاع من السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فليستج المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات^(٢)، ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وَلْيَعْلَمْ أن الله يمهّل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي، أخذه أخذ عزيز مقتدر، فَلْيَتَّبِعْ إليه، وَلْيَرْجِعْ في جميع أموره إليه، فإنه رؤوف رحيم.

فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة، وبه العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه، والعمل بما يحبه ويرضاه.

(٤٨-٥٠) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ يَدَيْهِ ظِلَالَهُ عَنِ أَيِّمِنَ وَالشَّيْءِ أَيْدٍ وَهُوَ يُخْرِجُ ۚ وَلَهُ يُسْجَدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۚ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ تَوْفِيقِهِ وَهُمْ يَقَعُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ يَدَيْهِ﴾ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلتها ﴿عَنِ أَيِّمِنَ﴾ وعن ﴿الشَّيْءِ شَيْئاً يَدٌ﴾ أي: كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته وجلاله ﴿وَمَنْ دَخَرُونَ﴾ أي: ذليون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله، وتدبيره عنده.

﴿وَلَهُ يُسْجَدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادته، على كثرتهم، وعظمة أخلاقهم

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَمْسَلُوا ۚ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ كَثِيرٌ مِمَّا تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ يَالْبَيْتُ وَالزَّيْبُ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٩﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٠﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ يَدَيْهِ ظِلَالَهُ عَنِ أَيِّمِنَ وَالشَّيْءِ أَيْدٍ وَهُوَ يُخْرِجُ ۚ وَلَهُ يُسْجَدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٢﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ تَوْفِيقِهِ وَهُمْ يَقَعُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا الْهِنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُمَا إِلَهُ وَجِدَ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْيَمِينُ وَاصْبَا أَفْعَرِ اللَّهُ نَفَقُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ إِذَا كُفِيَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾

وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَكْبِرَ التَّيْسُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ تَوْفِيقِهِ﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة، والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره.

﴿وَيَقَعُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره طوعاً واختياراً، وسجود المخلوقات لله تعالى قسماً: سجد اضطرار، ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق، من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وحيوان ناطق وغيره، وسجد اختيار يخلص بأوليائه وعباده المؤمنين، من الملائكة وغيرهم من [المخلوقات].

(٥١-٥٥) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا الْهِنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُمَا إِلَهُ وَجِدَ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ۚ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْيَمِينُ وَاصْبَا أَفْعَرِ اللَّهُ نَفَقُونَ ۚ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ۚ ثُمَّ إِذَا كُفِيَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۚ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٧٣

الْحَمْدُ لِلَّهِ

يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمُوتُوا فَسَوَءَ مَقْلُوبٍ ۖ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَلْعَلُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْهَا كَثِيرًا ۖ تَقَرُّونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيَسْئَلُهُ عَلَىٰ هُونٍ ۚ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ تَرْكَبُهُمْ مُّارِكَةً عَلَيْهِمْ مَا دَبُّوا وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَيَأْخُذُهُمْ أَعْيُنُهُمْ لَاسْتَخْرِجُونَ سَاعَةً ۚ وَلَا يَسْتَفْقِدُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَصِفَ السُّبْحَةِ الْكُذْبِ أَنَّ لَهُمُ الْخُسْفَىٰ لَاجِرَمٍ ۖ إِنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ يَوْمُهُمْ وَأَنَّهُمْ عَذَابُ آلِهِمْ ﴿٦٣﴾ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

الآية ﴿لَتُسْأَلُنَّ عَنْهَا كَثِيرًا تَقَرُّونَ﴾ ويقال: ﴿ءَالله أَوَّلَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ ۚ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَوُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وَهُوَ كَاطِمٌ﴾ أي: كاظم على الحزن والأسف، إذ بُشِّرَ بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد، فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها ﴿أَيَسْئَلُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي: يدفنها وهي حية، وهو الواد الذي ذم الله به المشركين ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله، من نسبة الولد إليه.

ثم لم يكفهم هذا، حتى نسبوا له أزدًا القسمين، وهو الإنان، اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها، ويكرهونها، فكيف

يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمُوتُوا فَسَوَءَ مَقْلُوبٍ ۖ يَأْمُرُ تَعَالَىٰ بِعِبَادَتِهِ وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعيم والوحدانية فقال: ﴿لَا تَدْعُوا إِلَهًا إِلَّا أَنَا﴾ أي: تجعلون له شريكًا في إلهيته، وهو ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، منفرد بالأفعال كلها.

فكما أنه الواحد في ذاته، وأسمائه، وبعوته، وأفعاله، فَمَقْلُوبُهُ فِي عِبَادَتِهِ، ولهذا قال: ﴿فَإِنِّي فَالَسٌ حَمِيمٌ﴾ أي: خافوني، وامثلوا أمري، واجتنبوا نهبي، من غير أن تشركوا بي شيئًا من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهَا فُتُورٌ وَالتُّرَابُ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا رَاسٌ﴾ أي: الدين، والعبادة، والذل في جميع الأوقات، لله وحده، على الخلق أن يخلصوه لله، وينصبوا بعبوديته.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَعْبُدُ﴾ من أهل الأرض أو أهل السماوات، فإنهم لا يملكون لكم ضررًا ولا نفعًا، والله المنفرد بالعطاء والإحسان، ﴿وَمَا يَكُنْ لَكُمْ بَيْنَ يَمَعَةٍ ظَاهِرَةٌ وَبَاطِنَةٌ﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا أَحَدٌ يَشْرِكُهُ فِيهَا﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا مَكَتُكُمْ الْفِتْرَةُ﴾ من فقر، ومرض، وشدة ﴿فَإِنِّي تَجْعَلُونَهَا﴾ أي: تصجون بالدعاء والتضرع، لعلمكم أنه لا يدفع الضرر والشدة إلا هو، فالذي انفراد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

ولكن كثيرًا من الناس يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة، فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال:

﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ﴾ أي: أعطيناكم، حيث نجيناكم من الشدة، وخلصناكم من المشقة ﴿فَتَمُوتُوا﴾ في دنياكم قليلًا ﴿فَسَوَءَ مَقْلُوبٍ عَاقِبَةُ كُفْرِكُمْ﴾.

(٥٦-٦٠) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَلْعَلُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْهَا كَثِيرًا تَقَرُّونَ﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۖ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ۖ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيَسْئَلُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وظلمهم، وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيبًا مما رزقهم الله، وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَحْمَتِهِ هَذَا يَشْرِكُهُمَا كَمَا كَانَتْ إِشْرِكُهُمْ قَبْلَ يَوْمِ يُصَالِ إِلَهُ إِلَهُ﴾

ينسبون الله تعالى؟ فيس الحكم حكمهم.

ولما كان هذا من أمثال سوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: المثل الناقص والعيب التام، ﴿وَلِيَّكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود فإله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقضا بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال، والمحبة والإنابة والمعرفة.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه، ويثنى على كماله فيه.

(٦١) ﴿وَرَوَّحْنَاهُ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ عَنَّا بِمَنَافِعٍ وَمَكْرٍ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّشْتَرٍ ۚ إِنَّكَ جَاءَهُمْ بِآيَاتِهِمْ لَا يَسْتَفْهِمُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَذِقُونَ﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه، ذكر كمال حلمه وصبره فقال: ﴿وَرَوَّحْنَاهُ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ عَنَّا بِمَنَافِعٍ وَمَكْرٍ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّشْتَرٍ ۚ إِنَّكَ جَاءَهُمْ بِآيَاتِهِمْ لَا يَسْتَفْهِمُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَذِقُونَ﴾ أي: لا أهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات، فإن شوم المعاصي يهلك به الحرث والنسل.

﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْبِلُونَ﴾ فليخدروا ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

(٦٢، ٦٣) ﴿وَيَعْمَلُونَ لَّهُ مَا يَكْفُرُونَ﴾ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ لَحْنَ لِّسَانٍ لَّ جَحْرَمٍ أَنَّ لَهُمُ أَتَّارًا وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ۚ قَالَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ آلِطْفُنْ أَهْلُهُمْ فَهُمْ وَلِيَهُمُ الْيَوْمَ وَكُنْزُ عَذَابٍ أَلِيمٍ يخبر تعالى أن المشركين ﴿يَجْعَلُونَ لِّهِ مَا يَكْفُرُونَ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك، بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد الله، فكما أنهم يكرهون، ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عبيده!!

﴿وَوَيْلٌ لَّهُمْ﴾ مع هذه الإساءة العظيمة - ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ لَحْنَ لِّسَانٍ﴾ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، رد عليهم بقوله: ﴿لَّا جَحْرَمَ أَنَّ لَهُمُ أَتَّارًا وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ مقدمون إليها، ما كانوا فيها، غير خارجين منها أبداً.

يَبَيِّنُ تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّبَ فقال [تعالى]: ﴿قَالَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً يدعونهم إلى التوحيد ﴿فَرَيْنَ لَهُمُ آلِطْفُنْ أَهْلُهُمْ﴾ فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن

ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم صار وليهم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه وتولوه ﴿فَاتَّخَذُوهُ وَرَثَةً أُولَئِكَ يَن دُونَهُمْ وَلَكُمُ عَذَابٌ يَشْتَرِي لِّلظَّالِمِينَ﴾ بَدَلًا.

﴿وَكُنْزُ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة، حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

(٦٥) ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَا بِهَا الْأَرْضَ بِمَدِّ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بآنزال المطر، وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هذا الإحسان للورحة واسعة، وجود عظيم.

(٦٦، ٦٧) ﴿وَإِنَّ لَكُمُ فِي الْأَنْفُسِ لَآيَةً شَتَّىٰ كَمَا فِي بُطُونِهِمْ مِّن بَيْنِ فَرْنٍ وَدَمٍ لِّبْنَا خَالِصًا سَائِبًا لِّشَرِيرِينَ ۚ وَمِن مَّرْكَبٍ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ لَتَجِدُونَهُ مِّنْهُ سَكْرًا وَزَقًّا حَسًّا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ﴿إِنَّ لَكُمُ فِي الْأَنْفُسِ﴾ التي سخرها الله لمنافعكم ﴿لَآيَةً﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله، وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرت والدم، فأخرج من بين ذلك لبنًا خالصًا من الكدر سائبا للشرايين، للذته، ولأنه يستقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية، لا أمور طبيعية.

فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح، لبنًا خالصًا سائبا للشرايين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح، من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طريا ونضيجا، وحاضرا ومدخرا، وطعاما وشرابا يتخذ من عصيرها وينبذها، ومن السكر الذي كان حلالا قبل ذلك، ثم إن الله نسخ جُلَّ المسكرات، وأغاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذیذة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمته، حيث عم^(١) بها عباده ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

(١) كذا في ب، وفي: أعم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

TYE

Figure 1

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَاهُ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَةٌ فَتَنْفِكُوا مِنْهَا فِي بَطْنِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِرَ لِبَاحُ الصَّاسِ بَعْدَ الشَّرْبِ بَيْنَ ﴿٦٧﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَخْذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّجَالِ يُونَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُرَوِّفُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعَمَلِ لَكُمْ أَلْيَمَاءُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ فَلِيدٌ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْيِ رَبِّهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِمَّةٍ اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَرْزَاقًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنْ أَنْطَبَسَتْ أَفْأَلِ النَّظْلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتُ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

أَرْزَقَكُمْ مِنْ بَيْنِ وَحَفَاءَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الْعِلْبَةِ أَقْبَالَطِلَ يُؤْمِنُونَ وَنَفْسًا
 اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ يخبر تعالى عن ميثبه العظيمة على عباده، حيث
 جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم
 أولاداً تَقَرُّ بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حاجتهم،
 ويستنعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات، من
 جميع المأكَل، والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر
 العباد أن يحصوها.

﴿أَفَلَا يَظَلُّونَ لَوْمِيئُونَ﴾ وَيَسْمَعُ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أبو منون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم، فلا تخلق، ولا ترزق، ولا تدبر من الأمر شيئاً، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله!!

﴿وَيَنْصَبِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هنا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور، وأسفه السفه؟

(٧٦-٧٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ فَلَا تَضْرِبُوا إِلَهَ الْإِنسَانِ إِلَّا

(٦٨، ٦٩) ﴿وَأَرْسَلْنَا رَيْكَ إِلَى الْقَلْبِ أَنْ نُفْلِحَ مِنْ لِقَائِ يَوْمِنَا وَمَنْ أَلْفَحْ وَمَنْ يَعْشَوْ ۖ ثُمَّ كُنْ مِنْ كُلِّ الْقَوْمِ فَاسْتَكْبِرْ ۚ فَاسْتَكْبَرَ رَيْكَ ذَلِكَ مَخْرَجٌ مِنْ بَطُونِهَا تَرَابٌ خَفِيفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايتها لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان، بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة، فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.

(٧٠) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكُ الْإِلَاقَةَ أَوَّلَ نَسْفِ الْأَوَّلِ﴾ لِكُلِّ
لَا يَلْعَنُ بَعْدَ عَمَلٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَوِي فَهْمٍ ﴿يُخَيِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ
الْعِبَادَ، وَنَقَلَهُمْ فِي الْخَلْقَةِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ
يَسْتَكْمِلُوا أَجَالَهُمْ يَتَوَفَّاهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ حَتَّى (يُؤْتِيَ الْإِلَاقَةَ أَوَّلَ نَسْفِ
الْأَوَّلِ) أَي: أَحْسَهُ الَّذِي يَبْلُغُ بِهِ الْإِنْسَانَ إِلَى ضَعْفِ الْقُوَى
الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، حَتَّى الْعَقْلُ الَّذِي هُوَ جَوْهَرُ الْإِنْسَانِ يَزِيدُ
ضَعْفَهُ، حَتَّى إِنَّهُ يَنْسَى مَا كَانَ يَعْلَمُهُ، وَيَصِيرُ عَقْلُهُ كَعَقْلِ
الصَّبِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَكِنْ لَا يَلْعَنُ بَعْدَ عَمَلٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
ذَوِي فَهْمٍ﴾ أَي: قَدْ أَحَاطَ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَمِنْ ذَلِكَ
مَا يَنْقُلُ بِهِ الْأَدَمِيَّ مِنْ أَطْوَارِ الْخَلْقَةِ، خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً
ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ
الذَّهِيرُ﴾.

(٧١) ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا لِلْبَاطِلِ فُتُوًا
يُرِيدُوا يَرْفُقَهُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَتَتَّبِعُوهُمُ
يَعْبُدُونَ﴾ وهذا من أدلة توحيده، وقبح الشرك به، يقول
تعالى: ﴿كَمَا أَنْتُمْ مُشْتَرِكُونَ بَأْنَكُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْزُوقُونَ﴾، إلا أنه
تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فجعل منكم أحراراً،
لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم، لا يملكون شيئاً من الدنيا،
فكما أن ساداتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿يُرِيدُوا
يَرْفُقَهُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ويرون هذا من
الأمور الممتنعة، فكذا من أشركتكم بها مع الله، فإنها عبيد
ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله
تعالى؟! ١٩

هل هذا إلا من أعظم الظلم، والجحود لنعم الله؟! ولهذا قال: ﴿أَفَتَبْعُمُ اللَّهَ بِجَهَادُونَ﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاهها، لما أشركوا به أحداً.

(٧٢) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ

اللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْقَعْدُ لِلَّهِ بِأَلْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ○ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ثَلَاثِينَ أَحَدَهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَغُلٍّ عَلَى مَوْلَاهُ ابْنَاهُ يُوْجِهَهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السموات والأرض، فلا يزلون مطراً ولا رزقاً، ولا ينتبنون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا، فإن غير المالك للشيء، ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرنون.

فهذه صفة ألهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسموات، الذي له الملك كله، والحمد كله، والقوة كلها؟!

ولهذا قال: ﴿فَلَا تَقْبَلُوا إِلَهَ الْإِنْسَانِ﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَشَدُّ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فغلبنا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فهذا ضرب تعالى مثليين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك، أي: رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني حُرٌّ غَنِيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً، من جميع أصناف المال، وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، هل يستوي هذا وذاك؟ لا يستويان، مع أنهما مخلوقان، غير محال استواءهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء؟!؟

ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكانه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلمَ سؤى المشركون ألهمهم بالله؟ قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلو علموا حقيقة العلم، لم يتجروا على الشرك العظيم.

والمثل الثاني مثل ﴿زَجَلْجَلَىٰ أُذُنَهُمَا فَبُغَا﴾ لا يسمع ولا ينطق ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مُوَلَّدَةٍ﴾ أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه، فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل، وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان، فلا يستوي من عبد من دون

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَآ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٦﴾ فَلَا تَضُرُّهُمُ إِلَٰهَ الْأَمْثَالِ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَسْتَرْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ﴿٧٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَوْجَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَنبَكُم لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٠﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرَ السَّاعَةِ إِلَّا كَمَجِجِ الْبَصْرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ
أَفْرَحَكُم مِّنْ بَطُونٍ أَمْهَنِيكُم لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٢﴾
أَلَمْ يَرْوِ إِلَى الطَّيْرِ مُسْحَرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٣﴾

الله، وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلو لا قيام الله بها لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً ونذراً، لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ عِثَابُ السَّكَرَاتِ وَالَّذِينَ وَمَا أُشْرَ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَجُ الْآبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو تعالى المتغرب بغيب السموات والأرض، فلا يعلم الخفايا والباطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة، فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت، لم تكن ﴿إِلَّا كَلَجُ الْآبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتغوث الفرص لمن يريد الإمهال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة، إحياءه للموتى.

(٧٨) ﴿وَاللَّهُ أَتَرَحَّمُ مِنْ بَطُونِ أَهْلَيْكُمْ لَا تَقْلُمُوا شَيْئًا
يَجْعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هو
المتفرد بهذه النعم حيث ﴿أَتَرَحَّمُ مِنْ بَطُونِ أَهْلَيْكُمْ لَا
تَقْلُمُوا شَيْئًا﴾ ولا تقدرن على شيء، ثم إنه ﴿جَعَلَ لَكُمْ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧٦

سُورَةُ النِّحْلِ

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثَالُ حَبْنِ ۝^(٨٣) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ۝^(٨٤) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْبُشِينُ ۝^(٨٥) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَمُوتُ عَنْهَا وَالْأَكْثَرُ هُمْ الْكَافِرُونَ ۝^(٨٦) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعِينُونَ ۝^(٨٧) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝^(٨٨) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبُّنَا هَؤُلَاءِ شَرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ۝^(٨٩) وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَسْلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝^(٩٠)

وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء، والقوى الظاهرة والباطنة، هو الذي أعطاها إيها، وجعل ينميها فيهم، شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك، كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأفحس المقابلة.

(٧٩) ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرِينَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْتُونَ﴾ أي: لأنهم المستفوعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم، فإن نظهرهم نظر لهُوَ وغفل. ووجه الآية فيها، أن الله تعالى خلقها بخلقه تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف، ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على كمال حكمته، وعلمه الواسع، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

(٨٠-٨٣) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثَالُ حَبْنِ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْبُشِينُ ۝ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَمُوتُ عَنْهَا وَالْأَكْثَرُ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ يُذَكِّرُ تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ في الدور والقصور ونحوها، تُكَيِّمُكم من الحر والبرد، وتستركم أنتم^(١) وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت^(٢) التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: خفيفة الحمل، تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي: الأنعام ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثَالُ حَبْنِ﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الآلية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك. ﴿وَمِمَّا خَلَقَ مِنْ جِبَالٍ﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتتفنون بها، فهذا مما سخر الله للعباد لصنعه وعمله.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ﴿ظِلَالًا﴾ وذلك كأظلة الأشجار والجبال، والآكام ونحوها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: مغارات، تكتكم من الحر والبرد والأمطار، والأعداء. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ أي: ألبسة وثياباً تَقِيَكُمُ الْحَرَّ ولم يذكر الله البرد، لأنه قد تقدم أن هذه السورة، أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم، فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا وَفَاءٌ وَمَنَافِعُ﴾.

﴿تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ﴾ أي: وثياباً تقيكم وقت البأس والحرب، من السلاح، وذلك كالدرع، والزرذ، ونحوها، كذلك يتم نعمته عليكم حيث أسغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ إذا ذكرتكم نعمة الله، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿تُشْكُرُونَ﴾ لعظمته، وتتقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليا ومسديها، فكثرة النعم من

(١) كذا في الأصل، والاستغناء عن هذا الضمير هو السانح في اللغة.

(٢) في الأصل (البيوت والغرف والبيوت).

عليكم.

فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب.

﴿وَمَسَّ عَنْهُمْ مَأْكَوًا يَقْوَرُونَ﴾ فدخلوا النار، وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم، ومن حمد ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

(٨٨) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِذْ هُتِفُوا فَأَوْفَوْا بِمَوَاسِدِ الْعَهْدِ وَأَخَذَ بِيَمِينِهِمْ﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ يَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَزَكَّيْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ لَكَ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ لما ذكر فيما تقدم أنه يبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ذكر ذلك أيضًا هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر. وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعا من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وقال تعالى: ﴿كَذَّبْتَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. ﴿وَيَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَوَّا الرُّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ﴾.

وقوله: ﴿وَزَكَّيْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ لَكَ فِيهِ وَهُدًى﴾ وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين، بألفاظ واضحة، ومعان جلية. حتى إنه تعالى ينبي فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب

لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبدئها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتشر من الخير والبر، بحسب ثبوتها في القلب. وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح، معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى. فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطع به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم، يهتدون به إلى أمر دينهم

الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبى الظالمون إلا تمردًا وعنادًا.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الله وعن طاعته، بعد ما ذكروا بنعمه وآياته ﴿فَلَا عَلَيْكَ أَلْبَنُ الْيُسُي﴾ أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء، بل أنت مطالب بالعظ والتذكير، والإنذار والتحذير، فإذا أدبت ما عليك، فحسابهم على الله، فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها ﴿وَأَكْذَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قصدتهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد، كفور للنعم، متمرد على الله وعلى رسله.

(٨٤-٨٧) ﴿وَيَوْمَ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ. وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ. وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّهْمَ وَمَسَّ عَنْهُمْ مَأْكَوًا يَقْوَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حال الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر، ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تبرأ منهم، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليها بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله، أذكى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

ف﴿لَا يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار، لأن اعتذارهم بعدما علم بقتل بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب، لا يفيدهم شيئًا، وإن طلبوا أيضًا الرجوع إلى الدنيا، ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا، بل يباردهم العذاب الشديد، الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه، لأنهم لا حساب عليهم، لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى، ويوقفون عليها ويقرون بها، ويفتضحون.

﴿وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ يوم القيامة وعلموا ببطلانها، ولم يمكنهم الإنكار.

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فنُفِّهُوا بأنفسهم ببطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُهُمْ الْقَوْلُ﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه، فلم تأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقًا للالهوية، فاللوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧٧

سُورَةُ النُّحْلِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٩٠﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٢﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلْوِلُكُمْ اللَّهُ بِيَمِينِهِ وَلَيْسَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَفْتَلُونَ ﴿٩٤﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَصْطَلُ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ ﴿٩٥﴾

الجزئيات. فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى، فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي، فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به، وقبح ما نهى عنه. وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل من كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به، ففهمونه وتقبلونه، فإنكم إذا تذكروتموه وعقلتموه، علمتم بمقتضاه، فسدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع، أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال:

(٩٢، ٩١) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ○ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا

ودنياهم، ورحمة يتألون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح والرحمة، ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره، وطمأنينته، وتعام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاهها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

(٩٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده. فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفرة، بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمركبة منهما، في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تخدعهم وتظلمهم.

فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب، وذلك كتفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلًا في العموم - لتأكيد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك جميع الأقارب، قريبهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى. وبالبغي، كل عدوان على الخلق، في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر

الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع^(١).

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ أَجْرَهُمُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَفَطَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الشَّهَوَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمَضْرُوبَةِ بِدِيْنِهِمْ﴾ «أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» الحسنة بعشر أمثالها، إلى سيماطة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّمَّنْ ذَكَرَ أَنَّ أَجْرَهُ مَوْثِقٌ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتضى لها، فإنه التصديق الجازم، المشر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات. فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُمْ حَيْرًا طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفات لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً، من حيث لا يحتسب.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من أصناف اللذات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيؤتيه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

(٩٨-١٠٠) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» «إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله، الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب، والعلوم الكثيرة، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد، عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متديراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله، في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وساوس وأفكاره الرديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التَّحَلِّي بحلية الإيمان والتوكل.

فإن الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي: تسلط ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه، شر الشيطان، ولا يبقى له عليهم سبيل.

و﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أي تسلطه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي:

﴿وَلَنَنْزِلَنَّهُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدُتُوبِهِمْ وَتَذُقُوا الشَّوْءَ﴾ وما صدقته عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴿وَلَا تَسْتَوُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَتُّاً قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ «مَاعِدُهُمْ بِقَدْرٍ وَمَاعِدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّمَّنْ ذَكَرَ أَنَّ أَجْرَهُ مَوْثِقٌ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ حَيْرًا طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» «إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» «وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مِّنْ كِتَابٍ أَوْ آيَةً أَعْلَمُ بِمَا يُبْرَأُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَتِّرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

يجعلونه لهم ولياً. وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه. فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأزهم إلى المعاصي أژاً، وقادهم إلى النار قَوْداً.

(١٠١، ١٠٢) ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مِّنْ كِتَابٍ أَوْ آيَةً أَعْلَمُ بِمَا يُبْرَأُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَتِّرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن، يتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر، لحكمته ورحمته، فإذا رآه كذلك، قدحوا في الرسول وبما جاء به، و﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَتِّرٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشريعة. ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب

المذبح أو القدرح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول، المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿وَالْحَقُّ﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره، وأوامره ونواهي، فلا سبيل لأحد أن يقدر فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿يُثَبِّتُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عند نزول آياته وتواردوا عليهم، وقتاً بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضاً فإنهم يعلمون أنه الحق. وإذا شرع حكماً [من الأحكام]، ثم نسخه، علموا أنه أبدهل بما هو مثله، أو خير منه لهم، وأن نسخه، هو المناسب للحكمة الربانية، والمناسبة العقلية.

﴿وَهْدَىٰ وَيُذِرْكَ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويشرحهم أن لهم أجراً حسناً، ماكتسب فيه أبداً. وأيضاً، فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم، مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة [أكثر^(١)]، فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال، فاقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويعملوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

(١٠٣-١٠٥) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْنِي وَهَذَا لِسَانُ عَرَبٍ مُّشْبَعٍ ۚ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ بَشَرٌ مِّمَّنْ لَّآ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ۚ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن قبل المشركين المكذبين لرسوله ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿يُنَزَّلُ﴾ وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِّسَانُ عَرَبٍ مُّشْبَعٍ﴾ هل هذا القول ممكن؟ أوله حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب، ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْنِي وَهَذَا لِسَانُ عَرَبٍ مُّشْبَعٍ ۚ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ بَشَرٌ مِّمَّنْ لَّآ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ۚ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۚ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ ۖ إِلَّا مَن أَكْرَهَ ۚ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مِّن شَرٍّ بِكَفَرٍ صَدَرَ ۖ فَلَمَّا نَفَسَ ضَعُفَ مِن الْكَفَرِ عَظِيمٌ ۚ ۝١٠٦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۚ ۝١٠٧ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۚ ۝١٠٨ ۚ لَآ جُرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۚ ۝١٠٩ ۚ ثُمَّ لَآتِ رَبِّكَ وَلِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثَمَّ جَنَّةٌ مِّن دُونِهَا ۚ وَصَبَرُوا ۚ إِنَّ رَبَّكَ بِمَا عَمِلُوا لَاحِظٌ ۚ ۝١١٠ ۚ

والفساد، ما يوجب رده بمجرد تصوره.

﴿إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ بَشَرٌ مِّمَّنْ لَّآ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحرمانه، وخذلان الله لهم ﴿وَأَكْرَهَ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كالمعادنين لرسوله، من بعد ما جاءتهم البينات ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الكذب منحصر فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويقول عليه ما لم يقل. فأعاده رموه بالكذب الذي هو وصفهم فأظهر الله خزيهم، وبين فضائعهم، فله تعالى الحمد.

(١٠٦-١٠٩) ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ ۖ إِلَّا مَن أَكْرَهَ ۚ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مِّن شَرٍّ بِكَفَرٍ صَدَرَ ۖ فَلَمَّا نَفَسَ ضَعُفَ مِن الْكَفَرِ عَظِيمٌ ۚ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِّلَةً عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ١١٣ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ١١٤ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ١١٥ ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا لِعِنْمَتِ اللَّهِ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَغَافِلُونَ﴾ ١١٦ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ الْغَيْبِ يَخْبُرُ اللَّهُ بِهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا رِيبَ لَّعَفْوُ رَجِيمٍ﴾ ١١٧ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السَّبْتُ كُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُقْبَلُونَ﴾ ١١٨ ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١١٩ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا أَحْرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ١٢٠

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب، صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم، واستقامت أمور دينهم ودنياهم. فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة حين ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِّلَةً عَنْ نَفْسِهَا﴾ كل يقول: نفسي نفسي، لا يهमे سوى نفسه. ففي ذلك اليوم يفتر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُلَاقِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ وَلَا مِمَّا كَانَتْ تَعْمَلُونَ﴾ (١١٣، ١١٤) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ١١٤ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجاهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنصرة

فَعَلَيْهِمْ عَصَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ مَطْمَئِنًّا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأَوْعَيْنَاكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝ لَا جَرَءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَائِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ﴾ فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر، راضيًا به مطمئنًا، أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبدًا.

و ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ حيث ارتدوا على أدبارهم، طمعًا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهدًا في خير الآخرة. فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدمهم، لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء. وذلك أنها آتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿لَا جَرَءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر، عند الإكراه عليها.

ودل ذلك، على أن كلام المكروه على الطلاق، أو العتاق، أو البيع، أو الشراء، أو سائر العقود، أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها، فغيرها من باب أولى وأحرى.

(١١٠، ١١١) ﴿ثُمَّ إِنَّكَ لَإِلَٰهٌ لِّدِينِكَ مَلِكٌ وَمِنْ بَعْدِهِ عَفْوَ رَجِيمٌ ۝ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِّلَةً عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلفظه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلق دياره وأمواله، طلبًا لمرضاة الله، وفطن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين. ثم جاهد أعداء الله، ليدخلهم في دين الله، بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة، على أكثر الناس.

سورة النحل

٢٨١

سورة النحل

ثُمَّ لِيَرْكَبَ لَكَ الَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَأْتُوا مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٤﴾
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آخِذًا بِهِدْيَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 ﴿١٢٦﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
 ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْكَ أَنْ أَنْعِمَ مَلَكُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
 اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا
 كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٩﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
 وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِيَّ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ
 هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿١٣٠﴾
 وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَئِيْمٌ لِّأَعْيُنِنَا وَمَا عَوْفُ نُفُسِهِمْ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
 لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ
 وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٣٢﴾
 ﴿١٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٣٤﴾

ونحوها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ علم السبب
 الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلاله،
 وسببها عليه.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية،
 فهداهم، ثم مَنَّ عليهم فاجتباهم.

(١٢٨-١٢٦) ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَئِيْمٌ لِّأَعْيُنِنَا وَمَا عَوْفُ نُفُسِهِمْ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٣٤﴾ يقول تعالى - مبيحا للعدل، وناديا للفضل والإحسان -: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَئِيْمٌ لِّأَعْيُنِنَا﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿وَمَا عَوْفُ نُفُسِهِمْ لَئِيْمٌ لِّأَعْيُنِنَا وَمَا عَوْفُ نُفُسِهِمْ﴾ من غير زيادة منكم، على ما أجراه معكم.

﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة، وعفوتم عن جرمهم ﴿لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم، وأحسن

في علمه وعمله، فعلم بالحق وأثره على غيره.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقا واسعا، وزوجة حسنة،
 وذرية صالحين، وأخلاقا مرضية ﴿وَلَا تَكُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾
 الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالى.

ومن أعظم فضائله، أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم،
 أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمه.

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي: فرضا ﴿عَلَى
 الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود،
 فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم في السبت احترامه
 وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله
 هذه الأمة إليه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
 يَخْتَلِفُونَ﴾ يبين لهم المحق من المبطل، والمستحق للعقاب
 ممن استحق العقاب^(١).

(١٢٥) ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
 وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِيَّ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
 وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ﴾ أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم
 وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمل على العلم
 النافع، والعمل الصالح ﴿وَالْحُكْمَةُ﴾ أي: كل أحد على حسب
 حاله وفهمه، وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة، الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداة بالأهم
 فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قوله
 أتم، وبالرفق واللين. فإن انقاد بالحكمة، وإلا فيستقل معه
 بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون
 بالتغريب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها،
 والنواهي من المضار وتعدادها. وإما بذكر إكرام من قام بدين
 الله، وإهانة من لم يقم به. وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من
 الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب
 العاجل والآجل. فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق،
 أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي
 الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا.

ومن ذلك، الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقد، فإنه
 أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى
 خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة
 منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة

وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين.

ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمسين بالفعل، وخمسين بالأجر والثواب، وحاز من المفاتيح تلك الليلة، هو وأمته، ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه. وقوله: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً، لكثير من أنبيائه وأصفياه.

(٢-٨) ﴿وَإِنَّا مُوسَى الْكَتَبَ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ۖ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا شَاكِرِينَ ۖ وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْكَتَبِ لِنَقُودَ فِي الْأَرْضِ مَرْثِيٍّ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا كُلَّ شَيْءٍ ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّا أُولِي بَأْسٍ شَرِيحًا فَجَاسُوا جُلُودَ الْوَيْدِ وَكَانَ وَعْدًا مُّفْعُولًا ۖ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَوْكَبَ عَلَيْهِمْ وَأَوْدَعْنَاهُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْوَا بِجُوفِهِمْ وَيَتَخَلَّفُوا السَّجْدَ كَمَا دَخَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَيَتَحَفَّضُوا مَآعِلًا نَّشِيرًا ۖ عَنِ زَيْكُرٍ أَن يَرْجِعَكَزَ وَإِن عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا حَمَمَ الْكُفْيِ حَصِيرًا ۖ كَثِيرًا مَّا يَفِرْنَ الْبَارِي بَيْنَ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَنُبُوَّةِ مُوسَى ﷺ، وَبَيْنَ كِتَابَيْهِمَا وَشَرِيعَتَيْهِمَا، لَأَن كِتَابَيْهِمَا أَفْضَلُ الْكِتَابِ، وَشَرِيعَتُهُمَا أَكْمَلُ الشَّرَاعِ، وَنُبُوَّتُهُمَا أَعْلَى النُّبُوتِ، وَأَتَابُهُمَا أَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَإِنَّا مُوسَى الْكَتَبَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ نُورًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ أي: قلنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك، ليعبدوا الله وحده، وينيبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلًا ومديرًا لهم، في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئًا، ولا ينفعونهم بشيء.

﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: يا ذرية من مننا عليهم، وحملناهم مع نوح ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا شَاكِرِينَ﴾ فيه التورية بالثناء

عاقبة كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله، والاستعانة بالله على ذلك، وعدم الاتكال على النفس، فقال:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا يَأْتِيكَ﴾ هو الذي يعينك عليه ويشتكرك، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم، فلم تر منهم قبولًا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئًا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ أي: شدة وحرج ﴿بِمَا يَمْكُرُونَ﴾ فإن مكروهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين.

والله مع المتقين المحسنين، بعونه، وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم. والإحسان إلى الخلق يبذل النفع لهم من كل وجه.

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين. ثم تفسير سورة النحل والحمد لله.

تفسير سورة بني إسرائيل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِمُوسَى ۚ لَوْلَا مَنَ السَّجْدَ الْكَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُنَّ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يزهو تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة، التي من جملتها أن ﴿أَسْرَى بِمُوسَى﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿مِنَ السَّجْدَ الْكَرَامِ﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدًا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا. وهذا من اعتناؤه تعالى به، ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوَّله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين. وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام. لكن ثبت في الصحيح، أنه أسري به من بيت أم هانئ. فعلى هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تتضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معًا، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكررت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء،

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَى كُنُوزَهُ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ لَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾
وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُمْ أَلَكَّةً نَّكَرَةً عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَا تَنْفَكُوا وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْخَرُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

وجعل لهم الدولة.

وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وَإِن عُدْتُمْ﴾ إلى الإفساد
في الأرض ﴿عُدَّتْ﴾ إلى عقوبتكم. فعادوا لذلك، فسلط الله
عليهم رسوله محمدًا ﷺ، فانتقم الله به منهم، فهذا جزء
الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال:
﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ يصلونها ويلازمنها، لا
يخرجون منها أبدًا. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة، من
العمل بالمعاصي لتلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل. فسنة
الله واحدة، لا تبدل ولا تغير.

ومن نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظلمة عرف
أن ذلك من أجل ذنوبهم، عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب
الله وسنة رسوله، مكَّن لهم في الأرض، ونصرهم على
أعدائهم.

(١٠، ٩) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ السِّلَاحَاتِ أَنَّ هُمْ أَهْلُ كِبَرٍ ۝ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

(١) في النسختين: إذا. (٢) في ب: الأخرى.

على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك،
والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن
يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ^(١) أباقهم واستخلفهم في
الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم،
وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في
الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في
الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله
عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلهم
يرجعون فيتذكرون.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون
فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ بعثنا
قدرتنا، وسلطنا عليكم تسليطًا كونيًا جزائيًا ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ﴾ أي: ذوي شجاعة وعدة وعدة فنصرهم الله عليهم،
فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال
دياركم فتهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام، وأفسدوه
﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم.

واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المصلطين، إلا أنهم
اتفقوا على أنهم قوم كفار، إما من أهل العراق، أو الجزيرة،
أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل، لما كثرت فيهم
المعاصي، وتركوا كثيرًا من شريعتهم، وطفوا في الأرض.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُمْ أَلَكَّةً نَّكَرَةً عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الذين
سلطوا عليكم، فأجلبتهمهم من دياركم ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِأَمْوَالٍ
وَبَنِينَ﴾ أي: أكثرنا أرزاقكم، وكثرناكم، وقوتناكم عليهم
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم
وخضوعكم لله.

﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَا تَنْفَكُوا﴾ لأن النفع عائد إليكم،
حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم ﴿وَإِن
أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فلا تفكسكم يعود الضرر كما أراكم الله، من
تسلط الأعداء.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة^(٢) التي تفسدون
فيها في الأرض، سلطنا أيضًا عليكم الأعداء.

﴿لِيُسْخَرُوا وَجُوهَكُمْ﴾ بانتصارهم عليكم وسيكم، وليدخلوا
المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، والمراد بالمسجد،
مسجد بيت المقدس.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي: يخرّبوا ويدمروا ﴿مَا عَلَوْا﴾ عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾
فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْجِعَكُمْ﴾ فيبدل لكم الكرة عليهم. فرحمهم

عَنِ زَكْرِيَّا وَنَحْنُ عُذْبٌ إِنَّ عَذَابَهُمْ لَكَبِيرٌ
 حَصِيرٌ ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ
 الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾
 وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَتَدَّأَ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾
 وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾
 وَجَعَلْنَا آلِيلَ وَالتَّهَارَةَ ابْنَيْنِ فَحَوَّنَا آيَةَ آلِيلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ
 التَّهَارَةِ مُبِينَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ زَكْرِيَّا وَلِتَعْلَمُوا عَٰدَةَ
 السِّينِ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَتُهُ نَقِصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلُّ
 إِنْسَانٍ أَلَمْنَةً لِّخَيْرٍ فَإِنْ يُعْذِرْ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُنْتُمْ
 يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَفَرَأَىٰ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا
 ﴿١٤﴾ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
 عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ
 رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَوْمًا مِّنْهُمْ فَفَسَقُوا فِيهَا
 فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن
 الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

الخير والشر حاضراً، صغيره وكبيره، ويقال له: ﴿أَفَرَأَىٰ كِتَابَكَ
 كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾. وهذا من أعظم العدل
 والإنصاف، أن يقال للعد: حاسب نفسك، ليعترف بما عليه
 من الحق الموجب للعقاب.

(١٥) ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
 وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾: أي:
 هداية كل أحد وضلاله لنفسه، لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا
 يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى أعدل العادلين، لا
 يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعاند الحجة.
 وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى، فإن الله
 تعالى لا يعذب.

واستدل بهذه الآية على أن أهل الفترات، وأطفال
 المشركين، لا يعذبهم الله، حتى يعث إليهم رسولاً، لأنه منزه
 عن الظلم.

(١٦، ١٧) ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَوْمًا مِّنْهُمْ فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ

بِالْآخِرَةِ أَتَدَّأَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى عن شرف القرآن
 وجلالته، وأنه ﴿يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل وأعلى، من
 العقائد، والأعمال، والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه
 القرآن، كان أكمل الناس، وأقومهم، وأهداهم في جميع
 أموره.

﴿وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات
 والسنن ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أعده الله لهم في دار كرامته، لا
 يعلم وصفه إلا هو.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَتَدَّأَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالقرآن
 مشتمل على البشارة والندارة، وذكر الأسباب التي تنال بها
 البشارة، وهو الإيمان، والعمل الصالح، والتي تستحق بها
 الندارة وهو ضد ذلك.

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾
 وهذا من جهل الإنسان وعجلته، حيث يدعو على نفسه
 وأولاده وماله بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء، كما
 يبادر بالدعاء في الخير، ولكن الله - بلفظه (١) - يستجيب له
 في الخير، ولا يستجيب له بالشر ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَكُنَّا آلَشَرَّ
 أَسْتَعْمَلُهُم بِالْخَيْرِ لَفَعِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا آلِيلَ وَالتَّهَارَةَ ابْنَيْنِ فَحَوَّنَا آيَةَ آلِيلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ
 التَّهَارَةِ مُبِينَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ زَكْرِيَّا وَلِتَعْلَمُوا عَٰدَةَ السِّينِ
 وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَتُهُ نَقِصِيلًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آلِيلَ
 وَالتَّهَارَةَ ابْنَيْنِ﴾ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته،
 وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ آلِيلَ﴾ أي:
 جعلناه مظالمًا، للسكون فيه، والراحة ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ التَّهَارِ
 مُبِينَةً﴾ أي: مضيئة ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ زَكْرِيَّا﴾ في معاشكم،
 وصنائعكم، وتجاراتكم، وأسفاركم.

﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ بترالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَادَةَ
 السِّينِ وَالْحِسَابِ﴾ فتنبون عليها ما تشاؤون من مصالحكم.
 ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَتُهُ نَقِصِيلًا﴾ أي: بينا الآيات وصرفناه،
 لتمييز الأشياء، ويستبين الحق من الباطل، كما قال تعالى:
 ﴿مَا قَرَأْنَا مِنْ آلِ كِتَابٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾.

(١٣، ١٤) ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمْنَةً لِّخَيْرٍ فَإِنْ يُعْذِرْ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَفَىٰ
 بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائرته
 في عقه، أي: ما عمل من خير وشر، يجعله الله ملازماً له،
 لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره
 بعمله.

﴿وَيُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ فيه ما عمله من

عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِيََادٍ ۖ خَيْرًا مِّمَّا يَكْفِرُونَ ۚ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفها أمرًا قديرًا، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم ﴿فَقَحَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ﴾ أي : كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾. وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد وثمود، وقوم لوط، وغيرهم، ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِيََادٍ ۖ خَيْرًا مِّمَّا يَكْفِرُونَ﴾ فلا يخافوا منه ظلمًا، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

(٢١-١٨) ﴿ثُمَّ كَانَ يُرِيدُ آلِ عَالِجَةَ عَمَلًا لَمْ يَفْعَلْ مَا شَاءَ لَمِنْ يُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَمْ جَهَنَّمَ بَصَلْنَاهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كَلَّا تُمِدُّ هُنُوْلَهُ وَهُنُوْلَهُ مِنْ عَطَاكَ رَبُّكَ وَمَا كَانَ عَطَاكَ رَبُّكَ مَحْظُورًا ۝ أَنْتَرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ يخبر تعالى أن ﴿ثُمَّ كَانَ يُرِيدُ﴾ الدنيا ﴿الْعَالِجَةَ﴾ المتفضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمتنهي، أن الله يجعل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ بَصَلْنَاهَا﴾ أي : يباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَذْخُورًا﴾ أي : في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله، ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي : مقبولًا مثنى، مذكرا، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم. ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكأن يمدده الله منها، لأنه عطاؤه وإحسانه ﴿وَمَا كَانَ عَطَاكَ رَبُّكَ مَحْظُورًا﴾ أي : ممنوعًا من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضلهم وإحسانه.

﴿أَنْتَرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا، بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا

ولذا، إلى الآخرة، بوجه من الوجوه. فكم بين من هو في الغرف العاليات، واللذات المتنوعات، والسرور والخيرات والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحداً عدّه.

(٢٢) ﴿لَا تَحْصِلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتُمْ مَذْمُومًا مَحْظُورًا﴾ أي : لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان. فالله، وملائكته، ورسله، قد نهوا عن الشرك، وذنوا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفاً، وأقبحهم نعتاً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من التعلق بربه. فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا بإذن الله. وكما أن من جعل مع الله إلهاً آخر، له الذم والخذلان. فمن وحده، وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في

جميع أحواله .

(٢٤، ٢٣) ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَآلَؤُاٰلِهِي خَسَنًا ۖ إِنَّمَا يَبْتَغِيَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَهْلُهُمْ أَوْ يَكْلَهُمْ فَلَا تَقُلْ لَّهُمْ أَنِّي وَلَا تَنْهَهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ وَآتِفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِي مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ لما نهى تعالى عن الشرك به، أمر بالوحدانية، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ قضاء ديني، وأمر أمرًا شرعيًا ﴿أَنَّ لَكَ تَعْبُدُونَ﴾ أحدًا من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات .

﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدير لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء .

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القولية والفعلية، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكيد الحق ووجوب البر .

﴿إِنَّمَا يَبْتَغِيَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَهْلُهُمْ أَوْ يَكْلَهُمْ﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان، ما هو معروف ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَنِّي﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نه به على ما سواه . والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية .

﴿وَلَا تَنْهَهُمَا﴾ أي: تترجمهما، وتكلم لهما كلامًا خشنًا ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه، وتادب، وتلطف بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان .

﴿وَآتِفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِي مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما، ذلًا لهما ورحمة، واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد .

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتًا جزاء على تربيتهما إياك صغيرًا .

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق . وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه وديناه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية .

(٢٥) ﴿يَذْكُرُوا أَنفُسَهُمْ فِي شُؤْبِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكتنه

سرا تركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر .

﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله .

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غَفُورًا﴾ . فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبه، ومحبته ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة .

(٢٦-٣٠) ﴿وَأَن ذَا الْقَرْفِ حَقٌّ وَالْيَسِيرِينَ وَأَن السَّبِيلِ وَلَا يَذَّرُ تَبِيرًا ۖ إِنَّ الْمَلِئِينَ كَانُوا إِخْوَنَ السَّبِيلِ وَكَانَ السَّبِيلُ لِرَبِّهِمْ كَقُورًا ۖ وَإِنَّا تَرَضَ عَنْهُمْ آيَةً رَّحْمَةً مِن رَّبِّكَ تَرْجِعُهُمْ فَعَلْ لَهُمْ قَوْلًا يَتَسَوَّرُوا ۖ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۖ إِن رَّبَّكَ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَن ذَا الْقَرْفِ حَقٌّ﴾ من البر والإكرام، الواجب والمسنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمة .

﴿وَالْيَسِيرِينَ﴾ أنه حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكته ﴿وَأَن السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائدًا على المقدار اللائق، فإن ذلك تبذير، وقد نهى الله عنه وأخير:

﴿إِنَّ الْمَلِئِينَ كَانُوا إِخْوَنَ السَّبِيلِ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير . والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَفْقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَهُمْ قَوَامًا﴾ .

وقال هنا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل ﴿وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فتتفق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي .

﴿فَتَقْعُدَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿مَحْسُورًا﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء .

وهذا الأمر يلينا في الغري، مع القدرة والغنى . فأما مع العدم، أو تعمس النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يَرُدُّوا رَدًّا جميلًا فقال: ﴿وَإِنَّا تَرَضَ عَنْهُمْ آيَةً رَّحْمَةً مِن رَّبِّكَ تَرْجِعُهُمْ﴾ أي:

تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر، ترجو فيه من الله تيسر الأمر.

﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: لطيفًا برفق، ووعد بالجميل، عند سنوح الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى﴾.

وهذا أيضًا من لطف الله تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وغدوهم بالصدقة والمعروف عند التيسر، عبادة حاضرة، لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله يسره له [بسبب رجائه] (١).

ثم أخبر تعالى أنه ييسر الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدره ويضيقه على من يشاء، حكمة منه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فيجزيهم على ما يعلمه صالحًا لهم، ويدبرهم، بلطفه وكرمه. (٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغُوا أَهْلِيَّكُمْ وَمِمَّا ذَرَأْتُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم، فهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفًا من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع. وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيرًا، أي: من أعظم كبائر الذنوب، لزوال الرحمة من القلب، والعقوب العظيمة، والتجروء على قتل الأطفال، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا أَرْثِيَّ إِمَّةٍ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ والنهي عن قربانه أبغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصًا هذا الأمر، الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

ووصف الله الزنى وبهجه بأنه «كَانَ فَحِشَةً» أي: إنمّا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجروء على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفرائض، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد. وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بش السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ وهذا شامل لكل نفس «حَرَّمَ اللَّهُ» قتلها من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس، والزاني المحصن،

وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَيَّامًا رَّحِيمًا مِّن رَّبِّكَ رَجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٣٤﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٣٥﴾ إِنْ رَّبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغُوا أَهْلِيَّكُمْ وَمِمَّا ذَرَأْتُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣٧﴾ وَلَا تَقْرَبُوا أَرْثِيَّ إِمَّةٍ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٨﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٩﴾ وَلَا تَقْرَبُوا أَمَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَقِينِ وَلَا يَأْتِيهِ مِن أَحْسَنَ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٤٠﴾ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذَا كُنتُمْ وَرَثًا بِالْقِسْطِ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٤١﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٤٢﴾ وَلَا تَنسِفْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٤٣﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٤٤﴾

والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه، إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل وجعلنا له أيضًا تسلطًا قدرًا على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعمد العدوان، والمكافأة.

﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ الولي ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿وَالْإِسْرَافُ﴾ مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل.

وفي هذه الآية، دليل إلى أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص. وأن وليَّي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانته حتى يتمكن من قتله.

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا أَمَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَقِينِ﴾ إِلَّا بِالْيَقِينِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٤٠﴾ وهذا من لطفه ورحمته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ فَلَنَقُيَ بِجَهَنَّمَ مَوْلُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٥﴾ أَفَأَصْفَكَ رُشُكُمُ
 بِالْبَنِينَ وَالنَّعْتِدِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّا لَنُفَوِّقُ لَوْلَا عَظِيمًا ﴿١٦﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٧﴾
 قُلْ لَّوْكَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَنُفَعِّلَنَّهُ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
 ﴿١٨﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ تَسْبِيحُ لَهُ السَّعُودُ
 السَّعِيدُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَسْبِغْ بِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ
 الْكَرِيمُ ﴿٢٠﴾ لَنَفْقَهُنَّ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا غَفُورًا ﴿٢١﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ
 الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
 مَسُورًا ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
 وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَغَ الْأَقْرَانُ وَهَدَىٰ وَلَوْ أَنَّ عَلَىٰ أَذُنْهُمْ نُفُورًا
 ﴿٢٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِمَا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ
 إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَسْمِعُونَ لَنَا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٢٤﴾ أَنْظِرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٢٥﴾
 وَقَالُوا أَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَوْ نَا لِمَبْعُوثِينَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٢٦﴾

والتدبير، وفقر من جهة الاضطراب، إلى أن يكون معبودهم
 ومحبوبهم، الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون،
 ولهذا قال:

﴿تَسْبِيحُ لَهُ السَّعُودُ السَّعِيدُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ مِنْ
 حَيَوَانٍ نَاطِقٍ وَغَيْرِ نَاطِقٍ، وَمِنْ أَشْجَارٍ، وَنَبَاتٍ، وَجَامِدٍ،
 وَحَيٍّ وَمَيِّتٍ﴾ (لَا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ) بلسان الحال، ولسان المقال
 ﴿وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُنَّ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي
 على غير لغتكم، بل يحيط بها عالم الغيوب.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه
 قولاً تكاد السموات والأرض تنفطر منه وتخر له الجبال،
 ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم، وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم
 إلى بابه، ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب
 الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته، لسقطت
 السموات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

(٤٨-٤٥) ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله
 لهم سمعًا، ولا ألقوا لها بالًا.

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو
 أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من
 الحجج العقلية والفعلية شيئًا كثيرًا، بحيث من أصغى إلى
 بعضها، لا تدع في قلبه شكًا ولا ريبًا.

ومن الأدلة على ذلك، هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا،
 فقال: ﴿قُلْ﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿تَوُ
 كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: على موجب زعمهم وافترانهم
 ﴿إِذَا لَنُفَعِّلَنَّ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لا نتخذوا سبيلًا إلى الله
 بعبادته والإناية إليه، والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل
 العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه، إلهاً مع الله؟!
 هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه!.

فعلى هذا المعنى، تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكَ
 الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّبِعُونَكَ إِلَىٰ رِيحِهِمُ الْوَسِيلَةَ أُنْهَىٰ أَقْرَبُ﴾
 وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَسْتَبْشِرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 قَسِيْلٌ مَّا نَسْتَأْذِنُكَ عَصَاكَ هَذِهِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ قالوا
 سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَسْبِيحُ لَنَا أَنْ نَسْجُدَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَّةٍ.

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُلْ تَوُ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا
 يَقُولُونَ إِذَا لَنُفَعِّلَنَّ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لطلبوا السبيل، وسعوا
 في مغالبة الله تعالى، فلما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر،
 هو الرب الإله. فاما وقد علموا أنهم يقولون أن آلهتهم التي
 يعبدون^(١) من دون الله مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر
 شيء، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله
 تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ نَكْرٍ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَدَعْبُ
 كُلِّ لَدَمٍ يَمَّا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْثَهُمْ عَلَىٰ بَعْثٍ﴾.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ أي: تقدس وتزه وعلت أوصافه
 ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا
 كَبِيرًا﴾ فَعَلَا قدره وعظم، وجَلَّتْ كبريأؤه التي لا تقادر أن
 يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالًا مبييتًا، وظلم
 ظلمًا كبيرًا.

لقد تضاعفت لعظمتها المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى
 كبريائه السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن
 فيهن ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْيَوْمَةِ وَالسَّمُوتُ مَطْوِيَّتَاتٌ
 يَبْسُجُونَهُ﴾.

وافترق إليه العالم العلوي والسفلي فقرأ ذاتيًا، لا يتفك عن
 أحد منهم في وقت من الأوقات.

هذا الفقر بجميع وجوهه، فقر من جهة الخلق والرزق

﴿قُلْ كُونُوا حِمَامَةً أَوْ حَبِيدًا ۖ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ صُدُورَهُمْ فَسَقُوا لَوْ أَنَّ مِنْ عِبِيدٍ أَقَالُ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَعْضُونَ إِلَيْكُمْ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قَائِمٌ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۖ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنَّا نَشْكُرُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَقُلْ لِمَا دُعِيَ بَقُولُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۖ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿رَبُّكُمْ أَغْمَرُ بِكُمْ وَإِنْ يَشَأْ رَحِمَكُمْ وَبِعَدَّتِكُمْ وَبِمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۖ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَرَبُّكُمْ أَغْمَرُ يَمِينُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿وَهَذَا مِنْ لَفْظِهِ عِبَادَهُ، حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَقْوَالِ الْمَوْجِبَةِ لِلسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿وَقُلْ لِمَا دُعِيَ بَقُولُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ بِكُلِّ كَلَامٍ يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ، مِنْ قِرَاءَةٍ، وَذِكْرٍ، وَعِلْمٍ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، وَكَلَامٍ حَسَنٍ لَطِيفٍ، مَعَ الْخَلْقِ، عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ. وَأَنَّهُ إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ حَسَنَيْنِ، فَإِنَّهُ يَوْمَرُ بِأَيِّمَا أَحْسَنَهُمَا، إِنْ لَمْ يُمْكِنِ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا.

﴿وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَبِيلًا﴾ مِنْ سُرْعَةِ وَقْعِهِ، وَأَنَّ الَّذِي مَرَّ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ، كَانَهُ مَا كَانَ. هَذَا الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ الْمُنْكَرُونَ: ﴿مَتَى هُوَ؟﴾ يَنْدُمُونَ غَايَةَ النَّدَمِ عِنْدَ رُودِهِ، وَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾.

﴿٥٣-٥٥﴾ ﴿وَقُلْ لِمَا دُعِيَ بَقُولُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۖ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿رَبُّكُمْ أَغْمَرُ بِكُمْ وَإِنْ يَشَأْ رَحِمَكُمْ وَبِعَدَّتِكُمْ وَبِمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۖ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿وَرَبُّكُمْ أَغْمَرُ يَمِينُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَهَذَا مِنْ لَفْظِهِ عِبَادَهُ، حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَقْوَالِ الْمَوْجِبَةِ لِلسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿وَقُلْ لِمَا دُعِيَ بَقُولُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ بِكُلِّ كَلَامٍ يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ، مِنْ قِرَاءَةٍ، وَذِكْرٍ، وَعِلْمٍ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، وَكَلَامٍ حَسَنٍ لَطِيفٍ، مَعَ الْخَلْقِ، عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ. وَأَنَّهُ إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ حَسَنَيْنِ، فَإِنَّهُ يَوْمَرُ بِأَيِّمَا أَحْسَنَهُمَا، إِنْ لَمْ يُمْكِنِ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يسعى بين العباد، بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلبثوا فيما بينهم، ليتقنع الشيطان الذي ينزع بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه، فإنه يدعوهم ﴿يَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزع الشيطان فيما بينهم، وسعى في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم، وأن يقمعوا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان من قَبْلِهَا، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لربهم.

﴿رَبُّكُمْ أَغْمَرُ بِكُمْ﴾ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَالذَّكَ لَا يَرِيدُ لَكُمْ إِلَّا مَا هُوَ الْخَيْرُ، وَلَا يَأْمُرُكُمْ إِلَّا بِمَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لَكُمْ، وَقَدْ تَرِيدُونَ شَيْئًا الْخَيْرِ فِي عَكْسِهِ.

﴿إِنْ يَشَأْ رَحِمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يَعْذِّبْكُمْ﴾ فَيُوقِفُ مِنْ شَاءِ لَأَسْبَابِ الرَّحْمَةِ، وَيُخَذِّلُ مِنْ شَاءِ، فَيُضِلُّ عَنْهَا، فَيَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ تَدْبِيرُ أَمْرِهِمْ، وَتَقْوَمُ بِمَجَارَاتِهِمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ هُوَ الْوَكِيلُ، وَأَنْتَ مُبَلِّغٌ هَادٍ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

﴿وَرَبُّكُمْ أَغْمَرُ يَمِينُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْخَلَائِقِ، فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ، وَتَقْضِيهِ حُكْمَتَهُ، وَيُفَضِّلُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي جَمِيعِ الْخِصَالِ الْحَسَنَةِ وَالْمَعْنَوِيَةِ، كَمَا فَضَّلَ بَعْضَ النَّبِيِّينَ الْمُشْرِكِينَ بِوَحْيِهِ عَلَى بَعْضٍ بِالْفَضَائِلِ وَالْخِصَالِ الرَّاجِعَةِ إِلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ، مِنْ الْأَوْصَافِ الْمَمْدُوحَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَكَثْرَةِ الْأَتْبَاعِ، وَنَزُولِ الْكُتُبِ عَلَى بَعْضِهِمْ، الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْعَقَائِدِ الْمَرْضِيَّةِ كَمَا أَنْزَلَ عَلَى دَاوُدَ زَبُورًا، وَهُوَ الْكِتَابُ الْمَعْرُوفُ.

فَإِذَا كَانَ تَعَالَى قَدْ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَآتَى بَعْضَهُمْ كِتَابًا، فَلَمْ يَنْكَرِ الْمَكْذِبُونَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَا فَضَّلَهُ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ.

﴿٥٧، ٥٦﴾ ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِي، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ أَنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ عَذَابًا ۖ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإجابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

(٥٩، ٦٠) ﴿وَمَا مَنَعَكَ إِلَّا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَفَاتِنَا ثُمُودَ النَّافَّةَ مُبِيرَةً قَطْلَهُمْ بِهَا وَمَا تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا نُفُوحًا ۚ وَإِنْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَادٌ لَّنَايُنْ وَيَا جَمَلًا أَرَأَيْتَ إِلَهِكَ أَرَأَيْتَ إِلَّا خَشَنَ لِتَيْنِ لَتَيْنِ وَالتَّحَرَّةَ الْمَلَوْنَةَ فِي الْفُرْعَانِ وَغَوْفُهُمْ فَمَا يَرِيهِمْ إِلَّا طُفُونًا كَبِيرًا﴾ يذكر تعالى رحمته، بعدم إنزالها الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها. فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالاولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات الكبار، لم يؤمنوا، فإنه ما منعه من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلها، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وَمَا تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا نُفُوحًا﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها، التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وَإِنْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَادٌ لَّنَايُنْ﴾ علمًا وقدره، فليس لهم ملجأ يلجأون إليه، ولا ملاذ يلوذون به عنه. وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس. ﴿وَمَا جَمَلًا أَرَأَيْتَ إِلَهِكَ أَرَأَيْتَ إِلَّا خَشَنَ﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلَوْنَةَ﴾ التي ذكرت ﴿فِي الْفُرْعَانِ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم. والمعنى، إذا كان هذان الأمران، قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفًا، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقًا للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضًا، من الخوارق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! أليس ذلك أولى أن

أنذادًا يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزمًا لهم بتصحیح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين:

﴿ادْعُوا إِلَيْنِ رَعَضَتْهُ﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل يفتعونكم، أو يدفعون عنكم الضر، فإنهم لا ﴿يَسْكُوتُونَ﴾ كَسَفَ أَشْرَ عَنْكُمْ من مرض، أو فقر، أو شدة ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية ﴿وَلَا﴾ يملكون أيضًا تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا أفعال ناعمة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي. ومن العجب، أن السفه عند الاعتقاد والممارسة، وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه، هو الرأي السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿لَا تَكُنْ لِلْإِلَهِ إِلَهًا وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَنُفُوحٌ جَبَّ﴾.

ثم أخبر أيضًا، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه فقال:

﴿أَرَأَيْتَ إِلَهِ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يَسْتَوُونَ﴾ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ يُنْجِيهِمْ أَقْرَبُ﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويذلون ما يقدر عليهم من الأعمال الصالحة، المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ عَذَابًا عَدِيدًا﴾ أي: هو الذي ينهي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف، والرجاء، والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير. فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور. وعلامة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها. فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

(٥٨) ﴿وَلَنْ يَنْفَرِيَهُ إِلَّا مَنْ هَمَّكَوْهُمَا فَبَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أبرمه، لا بد

يزداد بسببه شرهم؟ فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم.

ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين، ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام، ومتفرغاً عنه. بل ذكر الله ألفاظاً عامة، تتناول جميع ما يكون.

﴿وَنُفِثَتْهُمْ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا خَلْقَيْنَا كِبِيرًا﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملّي بالشر ومحبه، وبغض الخير وعدم الانقياد له.

(٦١-٦٥) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قَالَ أَتَقْتَرُ ۖ قَدْ أَصْغَرْتُ مِنْ أَهْلِكَ مَا بَعَدُهُمْ وَمَا يَعْبُدُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُوسًا ۖ إِنَّ عِبَادِي لَئِنْ لَمْ يَنْصَرِفْ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ يَبْنِي تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى شِدَّةِ عِدَاوَةِ الشَّيْطَانِ، وَحِرْصِهِ عَلَى إِضْلَالِهِمْ، وَأَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، اسْتَكْبَرَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، وَ﴿قَالَ﴾ متكبراً: ﴿أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقَ طِينًا﴾ أي: من طين، ويزعم أنه خير منه، لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

فلما تبين لإبليس تفصيل الله لآدم ﴿قَالَ﴾ مخاطباً لله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: لأستأصلنهم بالإضلال، ولأغوينهم ﴿وَلَا قِيلَ﴾ عرف الخبيث، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

فقال الله له: ﴿أَذْهَبَ قَمْنُ يَكَّ وَنَهْمُ﴾ واختارك على ربه ووليه الحق. ﴿فَلَنْ جَهَنَّمَ جَزَاءُكَ جَزَاءً مُؤَفَّرًا﴾ أي: مدخراً لكم، موفراً جزاء على أعمالكم.

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿وَأَسْتَغْنِي مَنِ اسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ يَصُوبُكَ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

﴿وَأَلْبَيْتَ عَلَيْهِمْ يَجِيءُكَ وَجِلَّتْ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو الممين، الداعي لهم إلى معصية الله، بأقواله وأفعاله.

﴿وَسَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وذلك شامل لكل معصية

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٨٨

سُورَةُ

وَمَامَعْنَانُ تُرْسِلُ بِالْأَيْتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآيِنَا مُؤَدُّو النَّافَةِ مُبِيرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْأَيْتِ إِلَّا الْخَوْفُ ۚ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفِثَتْهُمْ فَأَنْزَلْنَاهُمْ فِي الْأَفْئِدَةِ كِبِيرًا ۚ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قَالَ أَتَقْتَرُ ۖ قَدْ أَصْغَرْتُ مِنْ أَهْلِكَ مَا بَعَدُهُمْ وَمَا يَعْبُدُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُوسًا ۖ إِنَّ عِبَادِي لَئِنْ لَمْ يَنْصَرِفْ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ زَكَّيْكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۚ

تعلقت بأموالهم وأولادهم، من منع الزكاة والكفارات، والحقوق الواجبة وعدم تأديب الأولاد، وتربيتهم على الخير، وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الردية.

بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع. وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان، كما ورد فيه الحديث.

﴿وَعِدَهُمْ﴾ الوعود^(١) المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُوسًا﴾ أي: بطلاً مضمحلًا، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر، لأنهم يظنون أنهم على الحق. وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً وَنِعْمَةً كَثِيرًا ۖ﴾.

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما

وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَمَحَلَّتْهُمْ فِي الْآثَرِ﴾ على الركاب، من الإبل، والبغال، والحمير، والركاب البرية ﴿وَو﴾ في ﴿الْآثَرِ﴾ في السفن والركاب ﴿وَوَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الْغُلَبَةِ﴾ من المأكَل والمشارب، والملابس، والمناخ. فما من طب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، وبسرهم لهم غاية التيسير.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم، ودفع النقم، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

(٧٢، ٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنثَىٰ بِإِسْمِهَا مِمَّنْ أَوْفَىٰ كَتَبَتْهُ يَسِيئُو. فَأُولَٰئِكَ يَفْرَوْنَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَخْلُفُونَ قِيلًا ۝ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَمَنٌ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَمَنٌ وَأَمْسَلُ سِيلًا﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، معهم إمامهم وهاديتهم إلى الرشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فيقسمون بهذا قسمين:

﴿مِمَّنْ أَوْفَىٰ كَتَبَتْهُ يَسِيئُو.﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلى صراط مستقيم، واهتدى بكتابه، فكثر حسناته، وقلت سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ يَفْرَوْنَ كِتَابَهُمْ﴾ قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم.

﴿وَلَا يَخْلُفُونَ قِيلًا﴾ مما عملوه من الحسنات.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَمَنٌ﴾ الدنيا ﴿أَمْسَلُ﴾ عن الحق، فلم يقبله، ولم يتقبله، بل اتبع الضلال ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَمْسَلُ﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا ﴿وَأَمْسَلُ سِيلًا﴾ فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابتها، وهل عملت به أم لا؟.

وأنهم لا يؤخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، ومخالفته لها.

وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بأيمانهم ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبؤهم.

(٧٧-٧٣) ﴿وَلَيْنَ كَادُوا يَلْقَوْنَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

يَلْقَوْنَكَ عَيْنًا عَمِيرًا وَإِلَّا لَأَخَذُوكَ خَيْلًا ۝ وَلَوْلَا أَن نَّبْتَلَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِلَّا لَا يَبْلُغُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سِنَّةٌ مِّن قَدِ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِحُكْمِنَا غَوِيلًا﴾ يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنة بكل طريق، فقال: ﴿وَلَيْنَ كَادُوا يَلْقَوْنَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَلْقَوْنَكَ عَيْنًا﴾ أي: قد كادوا لك أمراً لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجي بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك.

﴿وَإِلَّا﴾ لو فعلت ما يهون ﴿لَأَخَذُوكَ خَيْلًا﴾ أي: حبياً صفيّاً، أعز عليهم من أحبائهم، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، المحببة للقريب والبعيد، والصديق والعدو.

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك، وينابذك العداوة، إلا للحق الذي جئت به، لا لذاتك، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعَّمْنَا إِلَيْكَ لِيُخْرِجَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ لَكَ وَلَكِنَّا الظَّالِمِينَ يَسَابِقُونَ آلِهَةً يَمْجُرُونَ﴾.

﴿و﴾ مع هذا ف ﴿لَوْلَا أَن نَّبْتَلَكَ﴾ على الحق، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم.

﴿وَإِلَّا﴾ لو ركنك إليهم بما يهون ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لأصيبك بعذاب مضاعف، في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفتك.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ينقلك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر، فبنتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة، وأبلغ منحة.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجلوك منها.

ولو فعلوا ذلك، لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً، حتى تحل بهم العقوبة، كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجه، عاجلها الله بالعقوبة.

ولما مكر به الذين كفروا، وأخرجوه، لم يلبثوا إلا قليلاً،

الْبَقَرَةُ

٢٩٠

الْبَقَرَةُ

وَلَا يَلْبِثُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سَنُتِمُّكَ مِنْ قَدْرٍ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَرَأَى
أَلْفُصُولَ لُذْلِكِ الْأَشْجَاسِ إِلَى عَسَى النَّيْلِ وَرَأَى أَنَّ الْفَجْرَ
قَرَأَ أَنَّ الْفَجْرَ كَاتٍ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمَنْ أَلَيْلٍ فَتَحَ جَدْبُهُ
نَاقِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ
أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ
إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضْنَا بِحَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾
﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى
سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْآيَاتِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَدَّبَنَّ
بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَنَجِدَنَّ لَكُمْ بِهِ عَلِيمًا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾

بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر،
الأزلي بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما
يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

(٨٦، ٨٧) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَدَّبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ
لَكَ بِهِ عَلِيمًا وَكِيلًا ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَكَ كَانتَ عَلَيْكَ
كَبِيرًا﴾ يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى
رسوله، رحمة منه عليه وعلى عبادِهِ، وهو أكبر النعم على
الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبير، لا يقادر قدره.
فالذي تفضل به عليك، قادر على أن يذهب به، ثم لا تجد
رادًا يردّه، ولا وكيلًا يتوجه عند الله فيه. فَلَتَقْبِضْ به، وتقرّ به
عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذِبين، واستهزاء الفضالين،
فلنهم عرضت عليهم أجل النعم، فردوها لهوانهم على الله،
وخذلته لهم.

(٨٨) ﴿قُلْ لَّيْنِ اتَّخَعَتِ الْآلِهَةُ وَالْجِنَّ عَلَ أَنْ يَأْتُوا بِبَيِّنَةٍ هَدًى

والرحمة. وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به،
المصدقين بآياته، العالمين به. وأما الظالمون بعدم التصديق
به، أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا، إذ به تقوم
عليهم الحجة.

فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه،
والجهالة، والآراء الفاسدة والانحراف السيئ، والقصود
السيئة^(١). فإنه مشتمل على العلم اليقيني الذي تزول به كل
شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كل شهوة
تخالف أمر الله، وشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي بحث
عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية،
والثواب العاجل والأجل.

(٨٣) ﴿وَإِذَا أَنتَقَسَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَمْرٌ مِّنْ شَأْنِهِ لَئِنَّ
كَانَ يَتُوسَّسُ ۚ هَذِهِ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ، من حيث هو إلا من هداه الله.
فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم، ويبطر بها،
ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره، ولا يذكره ﴿وَإِذَا
مَسَّهُ الشَّرُّ ۚ كَالْمَرَضِ ونحوه ﴿كَانَ يَتُوسَّسُ﴾ من الخير، قد قطع
عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبدًا.

وأما من هداه الله، فإنه - عند النعم - يخضع لربه، ويشكر
نعمته، وعند الضرر يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما
وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى
سَبِيلًا﴾ أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ أي:
على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم
يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين. ومن كان من غيرهم من
المخلولين لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا
ما وافق أغراضهم.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ فيعلم من يصلح للهداية،
فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

(٨٥) ﴿وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ
الْآيَاتِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا متضمن لدفع من يسأل المسائل التي لا
يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم،
فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن
وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي
يحتاج إليه العباد.

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ
مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون
فكانت. فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ﴾ عما تقولون علوًّا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلُكُمْ﴾ ليس بيدي شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا. وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرًا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقى من الملائكة.

فلو ﴿كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ يَشْتَبُونَ عَلَى رُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ، وَالتَّلْفِي عَنْهُمْ ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَائِكًا نُسُولًا﴾ لِيُمْكِنَهُمُ التَّلْفِي عَنْهُ.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِسَاءَلٍ سُوءًا يُبَيِّنُ وَنَعْتُمْ لَكُمْ كَانٍ بِكَوْبِهِ خَيْرًا﴾^{١٠٠}، فمن شهادته لرسوله ما أيد به من المعجزات، وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه ونأواه. فلو تَقَوَّل عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين. فإنه خير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

[illegible]

﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: مقرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمعت كل هم، وغم، وعذاب.

﴿كَلَّمَآ حَتَّىٰ﴾ أي: تهيأت للانقطاع ﴿وَرَدَّيْنَهُمَا سَعِيرًا﴾ أي: سحرناهما بهم لا يفتتر عنهما العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبر به الرسل. ونطقت به الكتب وعجزوا ربه وأنكروا تمام قدرته.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوَّلًا لَّمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهي أكبر من

وَمِنْ يَدِ اللَّهِ هُوَ الْهَادِدُ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُجِدَهُمْ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمَاءٌ وَكِهَانٌ
وَصُفَاءٌ مَأْرُوهٌ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا جَاءَتْ زَيْنَبُ سَعِيدَا **﴿١١٦﴾**
ذَلِكَ جَزَائُهُمْ وَأَنْتُمْ كُفْرُوا بِعَابِدِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا
وَرَفَثًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا **﴿١١٧﴾** أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَدُنْهِ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَارْتِيَابٍ فِيهِ قَالِيَ الظَّالِمُونَ إِلَّا أَكُفْرًا **﴿١١٨﴾**
قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا أَنْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا **﴿١١٩﴾** وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نَسْعَ
عَاسٍ بَيْنَتِ يَدَيْهِ فَسَلَّ لِيْنِ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا **﴿١٢٠﴾** قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ
هُنَالِكَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافَرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
بِفِرْعَوْنَ مُشْبِرًا **﴿١٢١﴾** فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ
فَاغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا **﴿١٢٢﴾** وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيْنِ إِسْرَءِيلَ
أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَاكُمْ بِغُلَامٍ **﴿١٢٣﴾**

خلق الناس. ﴿فَإِذْ عَلَّمَكَ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بلى، إنه على ذلك قدير.

﴿و﴾ لكنه قد ﴿جَعَلَ﴾ لذلك ﴿أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك،
ولا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ومع إقامة الحجج والأدلة على
البيع ﴿فَأَيُّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفْرًا﴾ ظلماً منهم واتراء.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ مِلْكِيكَوْنَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّيَ﴾ التي لا تنفذ ولا تبديد
﴿إِنَّا لَنُصَلِّكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي: خشية أن ينفد ما تنفقون منه،
مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع
على الشح والبخل.

[illegible]

وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى

عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ

عَدُوُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ

بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ

لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرْ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَعَلَّكَ لَمَّا قَسَيْتَ

فِي مَا لِيْزِدَكَ شَدِيدًا آمِنًا لَدُنْهُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ

يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿١﴾ تَذَكَّرِينَ

فِيهِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ أَعْبَادٍ ﴿٢﴾ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٣﴾

غاية التأثر، ويخضعون له.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه

المشركون ﴿إِنْ كَانَتْ رَدًّا رَبَّنَا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال

﴿لَنَعْمُولًا﴾ لا تخلف فيه ولا شك.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ وهؤلاء كالذين آمن بالله عليهم من مؤمني أهل

الكتاب كعباد الله بن سلام وغيره، ممن آمن^(١) في وقت النبي

ﷺ، وبعد ذلك.

﴿١١٠﴾ ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ

سَبِيلًا ۝ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرْ تَكْبِيرًا﴾ يقول تعالى لعباده: ﴿ادْعُوا

الله أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أي: أيهما شئتم. ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

لَحُسْنَى﴾ أي: ليس له اسم غير حسن، حتى ينهى عن دعائه به،

بل أي اسم دعوتهم به، حصل به المقصود، والذي ينبغي:

(١) في ب: اسلم.

يَسْتَبْرَأُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهَا نَكْفِي لِمَنْ قَضَاهُ اتِّبَاعَ الْحَقِّ: كالحية،
والعصا، والطوفان والجراد، والقمل والضفادع، والدم،
والرجز، وقلق البحر. فإن شككت في شيء من ذلك ﴿فَسَتَلَّ
بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ﴾ مع هذه الآيات ﴿إِنِّي
لَأَكُونُ بِمُسْمُوحًا﴾.

ف ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَا أَتَىكَ هَؤُلَاءُ﴾
الآيات ﴿إِلَّا رَأَيْتَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ بِصَآئِرَ﴾ منه لعباده، فليس
قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويضًا على قومك،
واستخفافًا لهم ﴿وَإِنِّي لَأَكُونُ بِمُسْمُوحًا﴾ أي: معفوًا
ملقى في العذاب، لك الويل والذم واللعة.

﴿فَارَادَ﴾ فرعون ﴿أَنْ يَسْتَبْرَأَ مِنْ الْأَرْضِ﴾ أي: يجليهم
ويخرجهم منها. ﴿فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ تَعَمَّ جَمِيعًا﴾ وأورثنا بني إسرائيل
أرضهم وديارهم.

ولهذا قال: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنبَأَ إِسْرَءِيلَ أَتَسْكُنُ الْأَرْضَ فَإِنَّا
جَاءُكَ وَعَدُّ الْأَخْيَرِ جَنَّا يَكْفُرُ﴾ أي: جميعًا، ليجازي كل عامل
بعمله.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم، لأمر العباد، ونهيهم،
وثوابهم، وعقابهم ﴿وَالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بالصدق والعدل،
والحفظ من كل شيطان رجيم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ من أطاع الله بالثواب العاجل
والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل،
ويلزم من ذلك، بيان ما بشر به وأنذر.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ
نَزِيلًا ۝ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَتْ رَدًّا رَبَّنَا
لَنَعْمُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي:
وأنزلنا هذا القرآن مفرقًا فارقًا بين الهدى والضلال، والحق
والباطل ﴿لِيَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةٍ﴾ أي: على مهل، ليتدبروه،
ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه.

﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ أي: شيئًا فشيئًا، مفرقًا في ثلاث وعشرين
سنة.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْيِيرًا﴾. فإذا
تبين أنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه ف:
﴿قُلْ﴾ لمن كذب به، وأعرض عنه: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا
تُؤْمِنُوا﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه شيئًا، وإنما ضرر
ذلك عليكم. فإن لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم
النافع: ﴿إِنِّي يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ خُبْرٌ ۝ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي: يتأثرون به

وَنَذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ فَلَمَّا بَلَغَ نَجْحَ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنَّ لَكَ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَاقًا ۚ الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كماله، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية وأجل نعمه على الإطلاق: إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله، محمد ﷺ، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم. ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنه قيم^(٢) مستقيم، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عيب.

وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلّ الأخبارات وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤/٢/٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة آلاف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعت الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ محب الدين الخطيب لطباعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، وأتبعه بخاتمة فيها أصول وكتابات من أصول وكتابات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

(بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه. أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلًا من حكيم حميد، أنزل هذه ورحمة للعباد وتبيانًا لكل شيء، وتفصيلًا لكل ما يحتاجونه في دينهم وديارهم وأغراضهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يبين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير، ويحذرهم من كل شر، ويبيد تقرير هذه الأمور ويبدئها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر على السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه والحوال لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جدًا لأنه مبسوط، وأيضًا في هذه الأوقات قلّت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحييت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، نافعًا لنا وإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه، إنه جواد كريم ودوف رحيم. وأتبعه بكتابات وأصول من كتليات التفسير لاستدراك ما لعله يفتقر القارئ في غير هذا الجزء، فإلى الأصول والكتابات تبنى عليها الفروع والجزئيات، ويحضر بها من النفع والقائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسنا ونعم الوكيل. (٢) في بي: مقيم.

أن يدعى في كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم. ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: قراءتك ﴿وَلَا تَغَيِّثْ بِهَا﴾ فإن في كل من الأمرين محذورًا. أما الجهر، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه، سيئوه، وسبوا من جاء به.

وأما المخافتة، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء. ﴿وَأَنبَغَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين الجهر والإخفاء ﴿سَبِيلًا﴾ أي: توسط فيما بينهما.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْكَمَالُ، والثناء، والحمد، والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص.

﴿الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل الملك كله لله الواحد القهار. فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي: لا يتولى أحدًا من خلقه، ليتعزز به ويعاونه. فإنه الغني الحميد الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحسانًا منه إليهم ورحمة بهم ﴿اللَّهُ رُؤِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْبِرُهم مِّنْ أَلْفَلَكَةٍ إِلَى الْآخِرَةِ﴾.

﴿وَكَبِيرَةٍ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وتمجيد به بأفعاله المقدسة، وتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده، لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء، والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامع عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدى غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤.

المجلد الخامس من تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان لجامعه الفقير إلى الله عبدالرحمن بن ناصر السعدي^(١).

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ الْقَادِرُ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ عِوَجًا ۖ قَسَمًا لِّمُنْذِرٍ أُنْذِرَ بِمَا كُنَّا فَعَلْنَا مِن لَّدُنْهُ وَيُنْذِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الْقِيلَاقِيَّةَ إِنَّ لَهُمْ أُجْرًا حَسَنًا ۖ مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبْدًا ۖ

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إِنْ يَقُولُوا إِلَّا كَذِبًا﴾ أي: كذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولاً: أنه ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ غَيْرِ وَلَا يُبَاهِيهِمْ﴾ والقول على الله بلا علم، لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانياً، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كَرِهْتُمْ كُلَّهُمُ تُخْرِجُوا مِنْ أَقْوَاهُمْ﴾ ثم ذكر ثالثاً مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

ولما كان النبي ﷺ، حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ، يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَمَّا بَلَغَ نُسْكَ الْأَافِكِينَ ثَلَاثِينَ عَشْرًا﴾ وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَنْهُمْ تَحِيْرًا﴾ وهنا قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نُسْكَ الْأَافِكِينَ﴾ أي: مهلكها، غمّاً وأسفاً عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيراً لهداهم. ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم، فلم يهتدوا، فاشغالك نفسك غمّاً وأسفاً عليهم، ليس فيه فائدة لك. وفي هذه الآية ونحوها عبرة.

فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ، والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فيها ونفست، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مُضْعِفٌ للنفس، هادمٌ للقوى، ليس له فيه فائدة، بل يضيي على فعله، الذي كُفِّلَ به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته.

وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وموسى عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَتَمَكُّ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ الآية، فمن عداهم، من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّرٍ﴾.

(٨٠٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَسْتَأْذِنُ ۚ وَمَا عَلَى ظُهُورِهِمْ أَثَرٌ ۚ وَإِنَّا لَنَجْعَلُهَا لَهُمْ جُجُرًا ۖ فَيُجْرَبُونَ ۚ خَبِيرٌ عَلَىٰ أَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ مَا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، من مأكَلٍ لذِيعة، ومشارب، ومسكن^(١) طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر

المقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس، وتطهرها وتنميتها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين، وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يحمده الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عبادته به.

وقوله: ﴿يَسْتَدِيرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا، وعقاب الآخرة، وهذا أيضاً من نعمه أن تخوف عبادته، وأنذرهم، ما يضرهم ويهلكهم، كما قال تعالى - لما ذكر في هذا القرآن وصف النار - قال: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّتُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَكِيدُ بِكَافِرِينَ﴾ فمن رحمته بعباده، أن يقبض العقوبات الغليظة على من خالف أمره، وبينها لهم، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها.

﴿وَيُنِيرُ الثُّمُوزِينَ الدَّارِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الْمَسَاحِ أَن لَّهُمْ أَجْرٌ حَسَنًا﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب، ليبشر المؤمنين به، ويرسله، وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة، من واجب، ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة.

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه، ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك، لم يكن حسنة تاماً.

ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿ثَنِيَّتَيْنِ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة للبشر به. وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح، موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿وَيُنِيرُ الدَّارِينَ قَالُوا أَتُحْكِمُ اللَّهُ لَكَ﴾ من اليهود والنصارى، والمشركين الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس.

﴿كَرِهْتُمْ كُلَّهُمُ تُخْرِجُوا مِنْ أَقْوَاهُمْ﴾ أي: عظمت شاعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه، بالاتخاذ للولد^(١)، الذي يقتضي نقضه، ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية، والإلهية، والكذب عليه؟!

(١) كلما في ب، وفي أ: الولد. (٢) في ب: ملاس.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٩٤

الْأَنْبِيَاءُ

بِهَيْجَةٍ، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة،
 وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة
 لهذه الدار، فتنة واختبارًا.
 ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَئِنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع
 ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة،
 وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جردًا قد ذهبت
 لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها،
 هذه حقيقة الدنيا، قد جلّاه الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنّا
 من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد قميمها،
 كل ذلك رحمة بنا. فاعتر بزخرف الدنيا وزينتها من نظر إلى
 ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة الهائم،
 وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا
 يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه
 حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهولاء إذا حضر أحدهم
 الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يدها،
 من التفریط والسيئات.
 وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه،
 فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهر الفرصة
 في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل جبور،
 وشقّة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ
 أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو
 حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن
 الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين
 عمل البطال للدنياء، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق
 بين الطائفتين!!

(٩-١٢) ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ

أَعْيُنِنَا عَجَبًا ۚ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ
 رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَفَضَّرْنَا عَنْهُمْ فَيْسًا وَلَدَيْنَهُمُ
 سَبْتٌ كَعَدَدِ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لَمَّا تَسَبَّوْا أَهْلًا
 وهذا الاستفهام بمعنى النفي، والنهي. أي: لا تظن أن قصة
 أصحاب الكهف وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة
 في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى
 من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في
 أصحاب الكهف، وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من
 الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل،
 والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون
 قصة أصحاب الكهف من المعجائب، بل هي من آيات الله
 العجيبة. وإنما المراد، أن جنسها كثير جدًا، فالوقوف معها

وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم
 والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا
 الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم
 والإيقان. وأضافهم إلى الكهف الذي هو الغار في الجبل؛
 والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم
 وقصتهم، لملازمتهم له دهرًا طويلاً.

ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى
 الْفِتْيَةُ ۚ أَي: الشباب، ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك الحصن
 والتحرز من فتنة قوهم لهم.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ أَي: تثبتنا بها وتحفظنا من
 الشر وتوفقنا للخير ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: يسر لنا كل
 سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا،
 فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن
 الاستخفاء فيه؛ وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم؛
 وعدم اتكالهم على أنفسهم، وعلى الخلق.

فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في
 حسابهم قال: ﴿فَضَّرْنَا عَنْهُمْ فَيْسًا وَلَدَيْنَهُمُ السَّبْتُ ۚ أَي: أنماهم

عَلَيْهِمْ يُسْطَلِّنَ بَيْنَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ لِمَا ذُكِّرُوا مَا مِنْ اللَّهِ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى، الفتوا^(١) إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتومهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ يُسْطَلِّنَ بَيْنَ﴾ أي: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله، وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

(١٦) ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَوَاعَدْتُمْهُمُ إِلَّا اللَّهَ قَالُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْتَشِرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ نِزْفًا﴾ أي: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا بقائهم^(٢) بين أظهرهم، وهم على غير دينهم.

﴿قَالُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿يَنْتَشِرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ نِزْفًا﴾.

وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهياً لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

(١٧، ١٨) ﴿وَرَبَّى الْأَنْقَسَ إِذَا طَلَعَتْ نَوَازِدُهُمْ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا عَرِيتَ نُفُوسُهُمْ ذَاتَ الْشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ لَدُنْكَ اللَّهُ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَهُمْ يُضِلُّونَ فَلَمَّ يَدَهُمْ وَكَانَ مُرْشِدًا ۖ وَخَسِمَ لَهُمْ ابْنُكَ أَصْفًا وَهُمْ زُرُودٌ وَيَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ كَيْسُ ذِكَايَةِ الْوَيْسِيِّ لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِشْتَ مِنْهُمْ رَعْبًا﴾ أي: حفظهم الله من الشمس، فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس، تميل عنه يميناً، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها. ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك لطرفهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم، والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول المكث، وذلك من آيات

﴿يُسَبِّحُ عَدَدًا﴾ وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون آية بيته.

﴿ثُمَّ بَشَّرَهُمْ﴾ أي: من نومهم ﴿لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ لَكُمْ مِنْهُ نِزْفًا﴾ أي: لنعلم أنهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتْلُوَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى، وحكمته، ورحمته. فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك، من قصتهم.

(١٣، ١٤) ﴿ثُمَّ نَفَسَ عَلَيْكَ تِبَاسَهُمُ وَالْحَقُّ مِنْهُمْ وَإِنَّهُ فِئْتَةٌ مَّا مَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۖ وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَفِي سَطَطٍ﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ مَّا مَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿مَّا مَنُوا﴾ بالله وحده لا شريك له، من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَمَدُوا هُدًى﴾.

﴿وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم ويره، أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة.

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الذي خلقنا ورزقنا، ودبرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المتفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية، على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا:

﴿لَن نَّدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا﴾ أي: إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿سَطَطًا﴾ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق، وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

(١٥) ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ

(١) في ب: والظوى، وهو تصحيف. (٢) في السختين: ولا بقاؤهم.

سورة الكهف

٢٩٥

سورة الكهف

وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَىٰ إِلَى الْكَهْفِ
يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا
﴿١٧﴾ وَرَأَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَعْنَ عَنْ يَمِينِهِمْ وَبَيْنَهُمْ
الْيَمِينَ وَإِذْ عَرَبَتْ نَقَرُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ الْهَمْدُ وَمَن
يُضِلِلْ فَلَا تَحْتَدِ لَهُ وَلَا مَرْشِدًا ﴿١٨﴾ وَنَحْسِبُهُمْ أَيُّقَاطًا
وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكُتِبَتْ لَهُمْ
بَسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٩﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِثِسَاءٍ لَّوِ يَنْبَغُهُمْ قَالِ قَائِلٍ مِنْهُمْ كَمَ لَيْسَتْ قَالُوا لَيْسَ
يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ قَالُوا بَعْثُوا
أَحَدَكُمْ بِرُفُقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرُفُقِ مِنْهُ وَلَا يَنْتَلِفْ وَلَا يَشْعُرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ إِنَّهُمْ لَنَظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ رَجُومًا وَأَوَّيْعُواكُمْ
أَوْ يُعِيدُواكُمْ فِي مَلِيَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢١﴾

طول مدتهم، فهذا ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ﴾. فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً. ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم لثبأولوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا ببلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه. فلا بد أن يكون قد أخبرهم بيقين، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا نَسَاءَةً لَا رَبَّ فِيهَا﴾. فلولا أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم، أي: بالدرهم التي كانت معهم، ليشترى لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمره أن يتخير من الطعام أذكاه، أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلف في ذهابه وشرائه، وإياه، وأن يخفي في

الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم، حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ الْهَمْدُ﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين.

﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا تَحْتَدِ لَهُ وَلَا مَرْشِدًا﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويديره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه. ﴿وَنَحْسِبُهُمْ أَيُّقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: نحسبهم أيها الناظر إليهم [كانهم] ^(١) أيقاظ، والحال أنهم نيام.

قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم، يحسبهم أيقاظاً، وهم رقود.

﴿وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها، أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم، يميناً وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير قلب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وَكُتِبَتْ لَهُمْ بَسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فئانه، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الأدميين، فأخبر أنه حماهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلا قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً. والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم، يشتري لهم طعاماً من المدينة، ويقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

(٢٠، ١٩) ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِثِسَاءٍ لَّوِ يَنْبَغُهُمْ قَالِ قَائِلٍ مِنْهُمْ كَمَ لَيْسَتْ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ قَالُوا بَعْثُوا أَحَدَكُمْ بِرُفُقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرُفُقِ مِنْهُ وَلَا يَنْتَلِفْ وَلَا يَشْعُرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ لَنَظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ رَجُومًا وَأَوَّيْعُواكُمْ أَوْ يُعِيدُواكُمْ فِي مَلِيَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ من نومهم الطويل ﴿لِثِسَاءٍ لَّوِ يَنْبَغُهُمْ﴾ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

﴿قَالِ قَائِلٍ مِنْهُمْ كَمَ لَيْسَتْ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في

على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية.

وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم و ﴿قَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم.

وقال من غلب على أمرهم - وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَتَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: تعبد الله تعالى فيه، وتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم. وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنا عليهم مسجداً بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن، سلمه الله منها. وأن من حرص على العافية عافاه الله، ومن أوى إلى الله، وآواه الله، وجعله هداية لغيره. ومن تحمل اللذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته، العز العظيم، من حيث لا يحتسب ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَمَا بِكَ لَغِيبٌ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ إِنَّا قَدِ افْتَرَيْنَاهُمْ فَبِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ لا يزال فلا تُعَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظُهُرًا وَلَا تَسْتَقْبِلْ فِيهِمْ مِنْهُمُ أَحَدًا﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافًا صادرًا عن رجهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم. ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذا القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانها. ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا - والله أعلم - الصواب، لأن الله أبطل الأولين، ولم يطله، فدل على صحته. وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية، ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى:

﴿قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَلْتَكُمُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم ﴿فَلَا تُعَارِ﴾ أي: تجادل وتحاجّ ﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظُهُرًا﴾ أي: مبتيا على العلم واليقين، ويكون أيضًا فيه فائدة، وأما المماارة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها. إما أن يكون الخصم معاندًا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة

ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرون بهم أحدًا. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنهم عن دينهم، ويردوهم في ملتهم. وفي هذه الحال، لا يفلحون أبدًا، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان، على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك. ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده. ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ إِنِّي أَرَىٰ ذُرِّيَّتًا عَدُوًّا لِّكَ يَكْفُرُ بِمَا كُنتَ تَكْفُرُ﴾. وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك. ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمروء بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الغنية في الدين، وفراهم من كل فتنه، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتغل عليه الشر، من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه. وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين، والمتأخرين لقولهم: ﴿وَلَنْ تَقْبَلُوا إِذَا أُنْكِرُوا﴾.

(٢١) ﴿وَكَذَلِكَ أَمَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ قَدِ افْتَرَيْنَاهُمْ فَبِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: ابطلوا أمرهم ففعلوا ابنا عليهم بُيُوتًا رَّبَّهُمْ أَعْلَمُ بِهَدْيِ قَالِ الَّذِينَ كَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ يخبر الله تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل

الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرًا، فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو: أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بُدْع، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن نافذ لذلك، فجعل قصتهم، زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة

وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُونَ مِنْهُم مُّأْمَرُهُمْ فَقَالُوا أَبْنَاؤُا عَلَيْهِمْ بُنِیْنَا زُرُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَئِنْ خُذْتَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢٦﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَمَانُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُشَاقُّ إِلَيْنِي قَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذْ أَنْسَيْتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٩﴾ وَلَوْ أَنَّ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ أَرَأَيْتُمْ أَزِيدُهُمْ وَاتَّقِ اللَّهَ ۚ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَسْأَلَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٣٠﴾ وَأَتْلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْحَدًا ﴿٣١﴾

(٢٦، ٢٧) ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ أَرَأَيْتُمْ أَزِيدُهُمْ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَسْأَلَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٣٠﴾ لما نهى الله عن استفتاء أهل الكتاب، في شأن أهل الكهف - لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة، العالم بكل شيء - أخبره بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده، فإنه من غيب السموات والأرض، وغيبها مختص به، فما أخبر به عنها على السنة رسله، فهو الحق اليقين، الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه، فإن أحدًا من الخلق لا يعلمه.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات. ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويسرهم

المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة، تضييقًا للزمان، وتأثيرًا في مودة القلوب بغير فائدة.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي: في شأن أهل الكهف ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه. وإذا نهى عن استفتاء هذا الجنس، فنهيه هو عن الفتوى، من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضًا، دليل على أن الشخص، قد يكون منهيًا عن استفتاءه في شيء دون آخر. فيستفتى فيما هو أهل له، بخلاف غيره، لأن الله لم ينه عن استفتاءهم مطلقًا، إنما نهى عن استفتاءهم في قصة أصحاب الكهف، وما أشبهها.

(٢٣، ٢٤) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُشَاقُّ إِلَيْنَا قَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا كُنَيْتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهًا للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلية ﴿إِنِّي قَاعِلٌ ذَلِكَ﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيب المستقبل الذي لا يدري، هل يفعله أم لا؟ وهل يكون أم لا؟.

وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك محذور محظور، لأن المشيئة كلها لله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْأَلْوِينَ﴾ ولما في ذكر مشيئة الله، من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه؛ ولما كان العبد بشرًا، لا بد أن يسهو^(١) فيترك ذكر المشيئة، أمره الله أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر، ليحصل المطلوب ويندفع المحذور.

ويؤخذ من عموم قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا كُنَيْتَ﴾ الأمر بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله، ويُذكر العبد ما سها عنه. وكذلك يؤمر الساهي الناسي للذكر الله، أن يذكر ربه، ولا يكون من الغافلين. ولما كان العبد مفتقرًا إلى الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ، في أقواله وأفعاله، أمره الله أن يقول: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويتق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشd. وَخَرِئٌ بَعْدَ تَكُونِ هَذِهِ حَالِهِ، ثُمَّ يَبْذُلُ جُهِدَهُ، وَيَسْتَفِرِّغُ وَسْعَهُ فِي طَلَبِ الْهُدَى وَالرَّشْدِ، أَنْ يَوْفِقَ لِلذَّكَ، وَأَنْ تَأْتِيَهُ الْمَعُونَةُ مِنْ رَبِّهِ، وَأَنْ يَسُدَّهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ.

فتصير الأفكار والهواجس فيها وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله ويثقل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته ويفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والتدامة السرمدية ولهذا قال: ﴿وَلَا تُلْجِئْ مَنَّا أَفْعَالًا مِّمَّنْ قَبْلَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره.

﴿وَأَنبِئْهُمْ أَنَّهُمْ﴾ أي: صار تبعا لهواه، حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَسْأَلُهُ عَنَّا لَعْنَةً عَلَيْهِ﴾ الآية.

﴿وَكَذَلِكَ أَمْرُهُ﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فَرُؤُا﴾ أي: ضائعة معطلة. فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به. ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماما للناس، من امتلا قلبه بمحبة الله، وقاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه. فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماما، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، ويتممه تتم باقي الأقسام.

وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرقي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

(٢٩-٣١) ﴿وَقُلِ الْخَلْقُ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْفَاقِلِينَ نَارًا أَلَامًا يَوْمَ شُرُوفُهُمْ وَإِنْ يَسْتَفِشُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الْوَرِثَةُ لِمَن كَانَ عَلَى الْآيَةِ ءَامِنًا وَعَمِلُوا فَلْيُعَذِّبْهُ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَن أَهْسَنَ عَذَابًا ۖ أُولَئِكَ هُمُ جُنُودُ عَذَابٍ جَدِيدٍ يَوْمَ يُنْفَخُ الْفُتُوحُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِدَ مِنْ ذَهَبٍ وَيُلْهَوْنَ رَبَابًا حُمْرًا مِّن سُحُبٍ وَيَسْتَفِيقُ شُعْبُهُمْ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ يَوْمَ الْأَوْتَابِ وَحَسَنَتْ مَرْفَعًا﴾ أي: قل للناس يا محمد: هذا الحق من ربكم. أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة.

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توقيفه، وقد أعطاه الله مشيئة، بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر. فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة،

لليسرى، ويجنبهم العسرى، ولهذا قال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلمهم إلى أحد من الخلق.

﴿وَلَا يَتْرُكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاء وقدرًا، وخلقًا وتبديرًا والحاكم فيهم بأمره ونهيه، ونوابه وعقابه.

ولما أخبر أنه تعالى له غيب السموات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا من الطريق التي يخبر بها عباده - وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب - أمر تعالى بالإقبال عليه فقال:

(٢٧) ﴿وَأَنذَرُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِن كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِحُكْمِهِ ۚ وَلَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُتَسَدِّدًا﴾ التلاوة هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامثال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، ويلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿وَتَنَتَّ كَيْفَ رَزَقَ رَبُّكَ رَبَّنَا وَتَعَدَّلَا﴾ فلتنامها استحالة عليها التغير والتبديل. فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك، أو شيء منه. وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه، الترغيب على الإقبال عليه.

﴿وَلَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُتَسَدِّدًا﴾ أي: لن تجد من دون ربك، ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذًا تعوذ به، فإذا تعين أنه وحده، الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المعبود المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفترق إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

(٢٨) ﴿وَأَنذَرُ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْتِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ذِيَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُلْجِئْ مَنَّا أَفْعَالًا مِّمَّنْ قَبْلَهُ عَن ذِكْرِنَا وَأَنبِئْهُمْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ يأمر تعالى نبيه محمدا ﷺ - وغيره أسوته - في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْتِ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله. فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تتجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك. ﴿رَبُّكَ ذِيَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدنية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا،

﴿٣٢﴾

٢٩٧

﴿٣٣﴾

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعُدْوَانِ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٣٢﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ
شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُهَا
وَلَنْ يَسْتَعِينُوا يَأْتُوا بِآيَةٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقًى ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ
لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يُنْعَمُ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَقًى ﴿٣٥﴾ وَأَصْرَبَ
لَهُمْ مَثَلًا لِرَبِّانٍ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٦﴾ كُلًّا لِمَنْ تَيَسَّرَ مَأْكَلًا وَلَهُ
تَظْلِيلٌ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٧﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصْحَابِهِ هُوَ يُحَادُّهُمْ وَأَنَا أَكْرَمُنَا مَا لَكُمْ أَنْ تَقْرَأُوا ﴿٣٨﴾

بما يشتهون، وتماثل ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية.

فهذه الدار الجليلية ﴿يَتِمُّ الذِّكْرُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَقًى﴾
يرتقون بها، ويتمتعون بما فيها: مما تشتهيه الأنفس، وتلذذ
الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات
المتواترة، والنعم المتوافرة. وأي مرتفع أحسن من دار، أدنى
أهلها يسير في ملكه، ونعيمه، وقصوره، وبساتينه ألقي سنة،
ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه
ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأماني. ومع
ذلك، فنعيمهم على الدوام، متزايد في أوصافه وحسنه.
فسأل الله الكريم، أن لا يحرنا خير ما عنده، من الإحسان،
بِشْرَ ما عندنا من التقصير والعصيان.

ودلت الآية الكريمة، وما أشبهها، على أن الحلية عامة
للكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة، لأنه
أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه.

(٣٢-٣٤) ﴿وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا لِرَبِّانٍ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ
أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ ○ ﴿كُلًّا لِمَنْ تَيَسَّرَ مَأْكَلًا وَلَهُ
تَظْلِيلٌ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ ○ ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ يقول تعالى

وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ
قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وليس في قوله: ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ
شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعد
لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال
الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا
لِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ
أَي: سورها المحيط بها. فليس لهم منفذ، ولا طريق، ولا
مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وَلَنْ يَسْتَعِينُوا﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفئ ما نزل بهم
من العطش الشديد ﴿يَأْتُوا بِآيَةٍ كَالْمُهْلِ﴾ أي: كالرصاص
المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾
أي: فكيف بالأمعاء والبطون، كما قال تعالى: ﴿يُضْهِرُّ بَرًّا مَا
فِي بُلُوبِهِمْ وَبِأَلْسِنِهِمْ﴾ ○ ﴿وَلَهُمْ مُقْتَبِعٌ مِنْ حَبِيدٍ﴾.

﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ الذي يراد ليطفئ العطش، ويدفع بعض
العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم ﴿وَسَاءَتْ
النَّارُ مُرْتَقًى﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي
يرتفع به. فإنها ليس فيها ارتفاع، وإنما فيها العذاب العظيم
الساقي الذي لا يُقْتَرَعُ عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون قد أيسوا من
كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب، كما نسوه.

ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته، وكتبه،
ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وعمل
الصالحات: من الواجبات والمستحبات ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ مَنْ
أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله،
متبعًا في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئًا
منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيه من الأجر، بحسب عملهم
وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا
خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: أولئك
الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات
التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها،
فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل
الرفيعة. وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر
من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما
رق منه. متكئين فيها على الأرائك وهي السرر المزينة،
المجملة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون
كذلك. وفي اتكانهم على الأرائك، ما يدل على كمال
الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم

بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وَمَا أَطَّلَعُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ لَأُنَاقِلَنَّكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ على ضرب المثل ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين. إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظاً من العقل، فأي تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة. بل الغالب، أن الله تعالى يُزَيِّرُ الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، فإنبات: أن وصفه الظلم في حال دخوله، الذي جرى منه من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

(٣٧-٣٩) ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُهُهُ وَأَوَّاهُ أَكْثَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۚ لَكِنَّكَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ وَلَا لَا إِذْ خَلَقْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: قال له صاحبه المؤمن - ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولي، التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿وَمِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يشر لك الأسباب، وهياً لك ما هياً، من نعم الدنيا. فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً وتجدد^(١) نعمته، وترغم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك، هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطفانيته، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لَكِنَّكَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم^(٢) طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

ثم أخبره أن نعمة الله عليه، بالإيمان والإسلام ولو مع قلة

لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب، ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما فيه، فائدة أو نتيجة. فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك، من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجلية، جعل الله له جنتين أي: بستانين حسنين، من أعتاب. ﴿وَوَفَّقْنَاهُ يَنْتَقِلُ﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار: العنب، والنخل. فالعنب في وسطها، والنخل قد حفر بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل بها الثمار، وتنضج وتتجهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً. فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفهما؟.

فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها أي: شرها وزرعها ضعفين أي: متضاعفاً ﴿و﴾ أنها ﴿لَمْ تَنْظُرْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء. ومع ذلك، فالأنهار في جوانبها سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وَكَانَ لَكُمْ﴾ أي: لذلك الرجل ﴿نَرٌّ﴾ أي: عظيم كما يفيد التذكير أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحت أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتر، ونسي آخرته.

(٣٤-٣٦) ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ۖ قَالَ مَا أَطَّلَعُ أَن يُبَدَّ هَٰذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَطَّلَعُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ لَأُنَاقِلَنَّكَ إِلَى رَبِّكَ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجربات المعتادة، مفتخراً عليه.

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره، من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأى افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمان التي لا حقائق تحتها.

ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته. ف ﴿قَالَ مَا أَطَّلَعُ أَن يُبَدَّ﴾ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ فاطمان إلى هذه الدنيا، ورضي

(١) في ب: وتجهل. (٢) في ب: والتزام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ يُبَدِّلَهُ دُؤُنِي

أَبَدًا ﴿٣٩﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي

لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٤٠﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ

أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا

﴿٤١﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَوْلَا إِذْ

دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَيْنَا أَنَّ

أَقْلَ مِنْكَ مَا لَوْ لَدَّا ﴿٤٣﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ

جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَِصِيدًا

زَلَقًا ﴿٤٤﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤها غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤٥﴾

وَأُحِيط بِشَمْرِهٖ فَاصْبِرْ يَبْلُغْ كَتَبَهُ عَلَىٰ مَا اتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَىٰ عُرْوَتِهَا وَيَقُولُ بَلِّغُنِي لَأُشْرِكَ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٦﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ

فِتْنَةً يَبْصُرُوهٖ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٧﴾ هَٰذَا لِكِ الْوَلِيَّةِ

لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٨﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْخَيْوَةِ

الَّذِي نَآ كَلَاهُ أَزْلَنَّهُ مِّنَ السَّمَاءِ فَاسْتَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٩﴾

رشد، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

﴿هَٰذَا لِكِ الْوَلِيَّةِ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا. والكرامة لمن آمن، وعمل صالحاً، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح، أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلاث، ومن لم يؤمن بربه ويتولا، خسر دينه ودنياه، فثوابه الدنيوي والاخروي خير ^(١) ثواب يرجى ويؤمل.

ففي هذه القصة العظيمة، اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن

(١) في الجملة إشكال دفع إلى جعلها في بعض الطبقات (شر ثواب) وهي في السخين (خير ثواب) وظاهر أن المقصود بذلك من كان مؤمناً تقياً، فهو الذي ثوابه خير ثواب.

ماله وولده - أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها مُعَرَّضٌ للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال:

(٣٩-٤٤) ﴿إِنْ تَرَيْنَا أَنَّ أَقْلَ مِنْكَ مَا لَوْ لَدَّا﴾ ٥ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَِصِيدًا زَلَقًا ۖ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤها غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ ٥ ﴿وَأُحِيط بِشَمْرِهٖ فَاصْبِرْ يَبْلُغْ كَتَبَهُ عَلَىٰ مَا اتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرْوَتِهَا وَيَقُولُ بَلِّغُنِي لَأُشْرِكَ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ٥ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةً يَبْصُرُوهٖ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۖ هَٰذَا لِكِ الْوَلِيَّةِ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت - وإن فخرت علي بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالا وولداً - فإن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغررتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذاباً، بمطر عظيم أو غيره.

﴿فُصْبِحَ﴾ بسبب ذلك ﴿صَِصِيدًا زَلَقًا﴾ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نعمها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤها غُورًا﴾ الذي مادتها منه ﴿غُورًا﴾ أي: غائراً في الأرض ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه، بالمعاول ولا غيرها. وإنما دعا على جنته المؤمن، غضباً لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمان إليها، لعله ينبس، ويراجع رشد، ويصبر في أمره.

فاستجاب الله دعاه ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهٖ﴾ أي: أصابه عذاب، أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالشر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه ﴿فَأَصْبَحَ يَبْلُغْ كَتَبَهُ عَلَىٰ مَا اتَّفَقَ فِيهَا﴾ أي: على كثرة نفاقه الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه، وشربه، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُ بَلِّغُنِي لَأُشْرِكَ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةً يَبْصُرُوهٖ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفترخ به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَا لَوْ وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فلم يدفعوا عنه من هذا العذاب شيئاً، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر - أي: يكون له أنصار - على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره: لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالته شيء منه، لم يقدرُوا؟!!!

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإجابة إليه، وراجع

سيء أعماله؛ هنالك يعرض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات بالتوبة والأعمال الصالحات.

فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدري أنك قد ميتٌ، ولا بد أن تموتني، فأني الحاليتين تختارين؟ الاغتار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين؟، فهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسارته.

ولهذا أخبر تعالى، أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفقه ويسره، الباقيات الصالحات. وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة: من حقوق الله، وحقوق عباده من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات والمماليك والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخير أملاً، فتوابعها بقي، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجراها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستيق إليها العاملون، ويجتد في تحصيلها المجتهدون.

وتأمل، كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زيتها، يتمتع به قليلاً، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون.

ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات.

(٤٧-٤٩) ﴿وَيَوْمَ نَسُفُ السَّيِّئَاتِ الَّتِي كَانَتْ أَزْوَاجًا مِثْلَ بَابَرٍ ذَرْبَهُمْ فَلَمْ يُؤْتَدِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۚ وَغَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا جَاءَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۚ وَرُفِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبَقُنَا مَا عَلِمْنَا أَحَدًا مِنَ الْكِتَابِ وَلَا يَمُوتُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ۚ إِلَّا أَصْنَعْنَاهَا وَجَعَلُوا مَا عَمِلُوا حَاشِيَةً وَلَا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ۚ﴾
يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأحوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال: ﴿وَيَوْمَ نَسُفُ السَّيِّئَاتِ الَّتِي كَانَتْ﴾ أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كنيهاً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتلاشي، وتكون هباء منبثاً، وتبرز الأرض، فتصير

مألفاً الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً، فإنه يحرمها طويلاً.

وأن العبد، ينبغي له - إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده - أن يضيف النعمة إلى موليتها ومسديها، وأن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله» ليكون شاكراً لله متسبباً لبقاء نعمته عليه، لقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَعَلَتْ جِنَّتُكَ فَتَتْ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ﴾.

وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله: ﴿إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ فَتَعَسَّىٰ رِجْلٌ أَنْ يُوَرِّيَنَّكَ خَيْرًا مِنَ جَنَّتِكَ ۚ﴾.

وفيها: أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَكَانَ صَادِقًا ۚ﴾.

وفي الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسارانه، خصوصاً إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم.

وفيها: أن ولاية الله وعدمها، إنما تتضح نتيجتها، إذا انجلي الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرحهم ف﴿هَذَا لِلَّهِ الْقَوْلُ فِيهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: عاقبة ومآل.

(٤٥، ٤٦) ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ فِي مَثَلِ الْحَيَّةِ الَّتِي كَانَتْ أَزْوَاجًا مِثْلَ بَابَرٍ ذَرْبَهُمْ فَلَمْ يُؤْتَدِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۚ وَغَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا جَاءَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۚ وَرُفِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبَقُنَا مَا عَلِمْنَا أَحَدًا مِنَ الْكِتَابِ وَلَا يَمُوتُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ۚ إِلَّا أَصْنَعْنَاهَا وَجَعَلُوا مَا عَمِلُوا حَاشِيَةً وَلَا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ۚ﴾
فانحطط يومئذ ثبات الأرض فاصبح هيباً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقبلاً ۚ السال والبنون زينة الحياة الدنيا والبنات الملبسات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلاً، ولمن قام بوراثته بعده تبعاً: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا، ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإثارة، وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر، ينزل على الأرض فيختلط نباتها، تثبت من كل زوج بهيج، فبينما زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هيباً تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر الهيب، فأصبحت الأرض غبراء تراباً، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب.

كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهماً ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله. فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو

قاعاً صافئاً، لا عوج فيه ولا أمتاً. ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحداً.

بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقصور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعد ما تمزقوا، خلقاً جديداً، فيعرضون عليه صفاء، ليستعرضهم، وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَيُّ بَلَا مَالٍ، وَلَا أَهْلٍ، وَلَا عَشِيرَةٍ، مَا مَعَهُمْ إِلَّا الْأَعْمَالُ الَّتِي عَمِلُوهَا، وَالْمَكَاسِبُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، الَّتِي كَسَبُوهَا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُنَا حَاقِلَةً ۖ إِنَّهُمْ ظَاهِرُونَ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۖ﴾.

وقال هنا، مخاطباً للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عياناً: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ جَبَلَكُم مَّوْعِدًا ۚ أَيُّ أَنْكَرْتُمُ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَوَعَدَ اللَّهُ وَوَعِيدَهُ فِيهَا قَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَذَقْتُمُوهُ، فَحَيْثُ تَحْضُرُ كُتُبُ الْأَعْمَالِ الَّتِي كَتَبَتْهَا الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ^(١)، فَتُطِيرُ لَهَا الْقُلُوبُ، وَتَعْظُمُ مِنْ وَقْعِهَا الْكُرُوبُ، وَتَكَادُ لَهَا الصَّمُ الصَّلَابُ تَذُوبُ، وَيَشْفُقُ مِنْهَا الْمَجْرُمُونَ، فَإِذَا رَأَوْهَا مَسْطَرَةً عَلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ، تُحْصَى عَلَيْهِمْ أَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ، قَالُوا: ﴿يَبْرَأُنَا مَا لَنَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَانَا ۖ﴾ أَيُّ: لَا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار. ﴿وَيَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا ۚ لَا يَسْجُدُونَ إِلَّا لِنُكَارِهِ ۖ وَلَا يَلْبِثُ رَبُّكَ أَمَّا ۚ﴾ فحيثُ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب ذلك بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ بَلْ هُمْ غَيْرُ خَارِجِينَ عَنْ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ.

(٥٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَنَسِيكَ آدَمَ وَرَبَّهُ ۚ أَوَلَيْسَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَذَابٌ ۚ يَشَىٰ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۚ﴾ يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكراماً وتعظيماً، وامتنالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ﴾ وقال: ﴿مَا مَنَعُ لِمَنْ خَلَقْتُ طَيْفًا ۚ﴾ وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ۚ فَبَيْنَ يَدَيْهِ عِدَاوَتُهُ لَكَ وَلَا يَكِيْمُ لَكَ، فَكَيْفَ تَتَخَذُونَهُ وَذَرِيَّتَهُ، أَيُّ الشَّيَاطِينِ ۚ أَوَلَيْسَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَذَابٌ ۚ يَشَىٰ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۚ﴾ أي: بس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان - الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر - عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

أَلَمَّا وَالْبُنُوتُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا ۖ أَمَّا ۚ ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ نُسِرَ الْجِبَالُ وَزُرِيَ الْأَرْضُ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نَغَارٌ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ ﴿٥٢﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ جَبَلَكُم مَّوْعِدًا ۖ ﴿٥٣﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فِي يَمِينِ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبْرَأُنَا مَا لَنَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَانَا ۖ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا ۚ وَلَا يَلْبِثُ رَبُّكَ أَحَدًا ۖ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَنَسِيكَ آدَمَ وَرَبَّهُ ۚ أَوَلَيْسَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَذَابٌ ۚ يَشَىٰ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۚ ﴿٥٥﴾ مَا أَشْهَدْتُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعَذِّدِينَ الْمُضِلِّينَ عَصَا ۖ ﴿٥٦﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۖ ﴿٥٧﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۖ ﴿٥٨﴾

وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً، وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: ﴿اللَّهُ رَجُلٌ الْيَمِينِ ۖ مَا مَنَّا بِغَيْرِهِمْ ۖ بَيْنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالنُّورِ كَرُوبًا أَوَلَيْسَ أَقْدَمُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَقْدَمُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ﴾.

(٥١، ٥٢) ﴿مَا أَشْهَدْتُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعَذِّدِينَ الْمُضِلِّينَ عَصَا ۖ﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۖ يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء] المضلين ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟! بل المتفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء

يَهْلِكُوا وَلِهَذَا قَالَ:

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك، غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا قصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال:

(٥٥) ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلَىٰ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فُبُكَاءَ﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال، والحق والباطل قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعُدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيتهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا، عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، وراوه مقابلة ومعانية، أي: فليخافوا من ذلك، وليُثْبِتُوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

(٥٦) ﴿وَمَا تَرْجِيهِ الْفَرَسِيَّ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَنَذِيرِينَ وَبَعْدَ الْآيَاتِ كَذَّبُوا بِالنَّبِيِّ إِذْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَعْتَدُوا لَكُنْيًا وَمَا أَذِرُوا هَرَبًا﴾ أي: لم نرسل الرسل عبثًا، ولا ليتخذهم الناس أربابًا، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويشيرونهم على امتثال ذلك، بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل، مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق على الباطل ﴿بَلْ نَقْذِرُ الْفُلْجَ عَلَى الْبَطِيلِ فَيَهْلِكُهُمْ فَإِذَا هُوَ رَاقِبٌ﴾ ومن حكمة الله ورحمته، أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلتها، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

(٥٧-٥٩) ﴿وَتَرَىٰ الظُّلُمَ وَمَنْ ذِكْرُكَ يَكِيدُ رَبِّهِ فَأَقْرَصَ عَنْهَا وَكَيْ مَا قَدَّمَ يَدَهُ إِذَا جَاءَهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ قَدَّمْتَهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۖ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاذِمُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجِلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ أَنْ يَسْجُدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْجِلًا ۖ وَبَلَّغْتَ الْفُرْقَ أَهْلَكْتَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا ولا

من الشياطين، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقًا، ولم يعاونوا الله تعالى؟! ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْهُمْ مُنْجِدًا آمِينَ﴾ أي: معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشؤون، أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطًا من التدبير، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصيههم ولا يدينهم.

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بهل صاحبه وسفه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: ﴿تَذَوُّوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ بزعمكم أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا، فبالحقيقة، ليس لله شريك في الأرض ولا في السماء، أي: نادوهم، لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد ﴿فَذَرَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿تَوْبِقًا﴾ أي: مهلكًا، يفرق بينهم وبينهم، ويعد بعضهم من بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبرئهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خِبرَ النَّاسُ كَاوًا كَمَا أَتَدَا كَاوًا بِبَادِيَتِهِمْ كَفَرِينَ﴾.

(٥٣) ﴿وَرَبَّكَ الْمُخْبِرُونَ لَنَنَّا قَطَعُوا أَنَّهُمْ مُؤَامِعُوهَا وَلَمْ يَحْدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا﴾ أي: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فأروا جهنم قبل دخولها، فأنزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم موافعوها، وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿وَلَمْ يَحْدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا﴾ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إفته، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنه صَرَفَ فيه من كل مَثَلٍ، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادًا وطمأنينة ونورًا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له، في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ﴿لِيُذْجِرُوا﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشُقَىٰ جَدَلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا
 إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَسْتَغْفِرُوا مِنْ رَبِّهِمْ ۚ لَأَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ
 الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٦﴾ وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ
 إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ
 لِيُذْخِرُوا بِهِ لَعْنًا وَتُخَذَّاءُ الْيَتَىٰ وَمَا نُذِرُهُمْ إِلَّا أَنْ
 أَظْلَمُوا ۖ وَمَنْ ذَكَرْنَا يَأْتِ رَبَّهُ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ
 إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
 وَلِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا إِفْكًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ
 الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجِلَ عَنْهُمْ
 الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْعُدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ﴿٥٨﴾
 وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ ۖ إِنْ كُنْتُمْ لَهَا ظَاهِرًا ۖ وَجَعَلْنَا لِلْهَلِكِ لَهُمْ
 مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُنْبِرُ حَتَّىٰ
 أَنْبِئَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
 مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا خُوطُمَهُمَا فَأَتَخَذُوا سَبِيلَهُ ۚ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

أي: وقتًا مقدراً، لا يتقدمون عنه، ولا يتأخرون.

(٦٠-٨٢) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُنْبِرُ حَتَّىٰ أَنْبِئَ
 مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۖ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا
 خُوطُمَهُمَا فَأَتَخَذُوا سَبِيلَهُ ۚ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِمَا إِنَّا نَلْقَاكُمْ
 لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي
 نَسِيتُ الْخُوطُمْ وَمَا أَتَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ ذَكَّرْتُ ۖ فَلَتَوَخَّذُوا سَبِيلَكُمْ فِي
 الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَأَرَادُوا عَلَىٰ نَاقَتِهِمَا قَصَصًا ۖ
 فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَهُ رَحْمَةً مِنْ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَهُ بَيْنَ يَدَيْنَا
 عِلْمًا ۖ قَالَ لَمْ مَوْسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَنِي بَيْنَ يَدَيْكَ رُتْبًا ۖ قَالَ
 إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ سَفَرًا ۖ وَكَذَّبَ نَصِرَ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ تُحَدِّثُ بِهِ خَيْرًا ۖ قَالَ
 سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَاحِبًا وَلَا أَغْوِيُ لَكَ أَمْرًا ۖ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي
 فَلَا تَتَّبِعْنِي عَنْ فِتْنَةٍ حَتَّىٰ أَشِيرَ لَكَ بَيْنَهُ ذِكْرًا ۖ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا
 فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ أَنْبِئْهُمَا مَا لَمْ تَشْعُرْ عَلَيْهِ
 صَبْرًا﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته
 في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتناه، أي: خادمه الذي
 (١) في ب: فله أشد، والسياق يدل على ما أتته. (٢) في الأصل:
 واخذ.

أكبر جرماً من عبد ذُكر بآيات الله ويُنن له الحق من الباطل،
 والهدى من الضلال، وخُوف وزُهب ورُغب، فأعرض عنها،
 فلم يتذكر بما ذُكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما
 قدمت يده من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا
 أعظم ظُلماً، من المعرض الذي لم تاته آيات الله، ولم يذكر
 بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف (١) ظُلماً من هذا، لكون
 العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك.

ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه
 لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشر مع علمه بها أن سد عليه
 أبواب الهداية، بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغشية محكمة
 تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها فليس في إمكانه الفقه الذي
 يصل إلى القلب.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات،
 ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس
 لهدايتهم سبيل.

﴿وَلَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا﴾ لأن الذي
 يرجي أن يجيب الداعي للهدى، من ليس عالماً. وأما هؤلاء،
 الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه،
 وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبتهم الله بإفقال القلوب
 والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه
 الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، وأن يحال بينهم
 وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر
 عن ذلك.

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر
 الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيغفده برحمته، ويشمله
 بإحسانه، وأنه لو أخذ (٢) العباد على ما قدمت أيديهم من
 الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل
 بالعقوبة، بل يمهّل، ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع
 آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْعُدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا﴾ أي: لهم موعد،
 يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه،
 ولا ملجأ، ولا محيد عنه.

وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم
 بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا،
 غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا
 على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم،
 أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ ۖ إِنْ كُنْتُمْ لَهَا
 ظَاهِرًا﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وَجَعَلْنَا لِلْهَلِكِ لَهُمْ مَوْعِدًا﴾

يَلَازِمُهُ فِي حَضْرَةِ وَسْفَرِهِ، وَهُوَ «يُوشَعُ بْنُ نُونٍ» الَّذِي نَبَأَ اللَّهَ
بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿لَا أَبْرِحُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ آي: لَا
أَزَالُ مَسَافِرًا وَإِنْ طَالَتْ عَلَيَّ الشُّقَّةُ، وَلِحَقَّتْنِي الْمَشَقَّةُ، حَتَّى
أَصِلَ إِلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّكَ
سَتَجِدُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْعَالَمِينَ، عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ، مَا لَيْسَ
عِنْدَكَ.

﴿أَوْ أَنْتَضَىٰ حُبًّا﴾ آي: مَسَافَةٌ طَوِيلَةٌ، الْمَعْنَى: أَنَّ الشُّوقَ
وَالرَّغْبَةَ، حَمَلَ مُوسَى أَنْ قَالَ لِفَتَاهُ هَذِهِ الْمَقَالَةُ، وَهَذَا عَزَمَ مِنْهُ
جَازِمًا، فَلِذَلِكَ أَمَضَاهُ.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ آي: هُوَ وَفَتَاهُ ﴿يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا فَيَجِيءُ حَوْثُهُمَا﴾
وَكَانَ مَعَهُمَا حَوْثٌ يَتَزَوَّدَانِ مِنْهُ وَيَأْكُلَانِ، وَقَدْ وَعَدَ أَنَّهُ مَتَى فَقَدَ
الْحَوْثَ قَتَمَ ذَلِكَ الْعَبْدَ، الَّذِي قَصَدْتَهُ، فَاتَّخَذَ ذَلِكَ الْحَوْثَ
سَبِيلَهُ، آي: طَرِيقَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَهَذَا مِنَ الْآيَاتِ.

قَالَ الْمَفْسُورُونَ: إِنَّ ذَلِكَ الْحَوْثَ الَّذِي كَانَ يَتَزَوَّدَانِ مِنْهُ،
لَمَّا وَصَلَا إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ، أَصَابَهُ بِلَلُ الْبَحْرِ، فَانْسَرَبَ بِإِذْنِ
اللَّهِ فِي الْبَحْرِ، وَصَارَ مَعَ حَيَوَاتِهِ حَيًّا.

فَلَمَّا جَاوَزَ مُوسَى وَفَتَاهُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ:
﴿إِنَّمَا عَدَدْنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ آي: لَقَدْ تَعَبْنَا مِنْ
هَذَا السَّفَرِ الْمَجَاوِزِ فَقَطْ، وَلَا فَالسَّفَرِ الطَّوِيلِ، الَّذِي وَصَلَا بِهِ
إِلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، لَمْ يَجِدَا مَسَّ التَّعَبِ فِيهِ، وَهَذَا مِنَ
الْآيَاتِ وَالْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ لِمُوسَى عَلَى وَجُودِ مُطْلَبِهِ، وَأَيْضًا،
فَإِنَّ الشُّوقَ الْمُتَعَلِّقَ بِالْوَصُولِ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ، سَهَّلَ لِهَمَا
الطَّرِيقَ، فَلَمَّا تَجَاوَزَا غَايَتَهُمَا، وَجَدَا مَسَّ التَّعَبِ، فَلَمَّا قَالَ
مُوسَى لِفَتَاهُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ:

﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَرَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِّئُكَ أَهْلُوتُ﴾ آي: أَلَمْ تَعْلَمْ
حِينَ أَوَانَا اللَّيْلَ إِلَى تِلْكَ الصَّخْرَةِ الْمَعْرُوفَةِ بَيْنَهُمَا ﴿فَإِنِّي نَبِّئُكَ
أَهْلُوتُ وَمَا أَتَسْبِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ لِأَنَّهُ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَتَّخَذَ
سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ آي: لَمَّا انْسَرَبَ فِي الْبَحْرِ، وَدَخَلَ فِيهِ،
كَانَ ذَلِكَ مِنَ الْعَجَائِبِ.

قَالَ الْمَفْسُورُونَ: كَانَ ذَلِكَ الْمَسْلَكُ لِلْحَوْثِ سَرَبًا،
وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَلَمَّا قَالَ لَهُ الْفَتَى هَذَا الْقَوْلَ، وَكَانَ عِنْدَ
مُوسَى وَعَدَ مِنْ اللَّهِ أَنَّهُ إِذَا فَقَدَ الْحَوْثَ، وَجَدَ الْخَضِرَ، فَقَالَ
مُوسَى:

﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِّغُ﴾ آي: نَطْلُبُ ﴿فَإِذَا نَدَّ﴾ آي: رَجَعَا ﴿عَلَى
ءَاتَائِهِمَا قَصَصًا﴾ آي: رَجَعَا يَقْصَصَانِ أَثَرَهُمَا، الَّذِي نَسِيَ فِيهِ
الْحَوْثَ، فَلَمَّا وَصَلَا إِلَيْهِ، وَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا، وَهُوَ
الْخَضِرُ، وَكَانَ عَبْدًا صَالِحًا، لَا نَبِيًّا، عَلَى الصَّحِيحِ.

أَتَيْنَاهُ ﴿رَحْمَةً مِنَّا عَيْنًا﴾ آي: أَعْطَاهُ اللَّهُ رَحْمَةً خَاصَّةً،

بِهَا زَادَ عِلْمَهُ، وَحَسَنَ عَمَلَهُ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ ^(١) ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ آي: مِنْ
عِنْدِنَا ﴿وَعَلَّمَا﴾ وَكَانَ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْعِلْمِ، مَا لَمْ يَعْطَ
مُوسَى، وَإِنْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمَ مِنْ بَأَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ،
وَخُصُوصًا فِي الْعُلُومِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَالْأَصُولِيَّةِ، لِأَنَّهُ مِنْ أُولَى
الْعَزَمِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللَّهُ عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ،
بِالْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ مُوسَى، قَالَ لَهُ
عَلَى وَجْهِ الْأَدَبِ وَالْمَشَاوَرَةِ، وَالْإِخْبَارِ عَنْ مُطْلَبِهِ:

﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلَّمْتُكَ رُشْدًا﴾ آي: هَلْ أَتَيْتُكَ
عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلَّمْتُكَ اللَّهُ، مَا بِهِ اسْتُرْشِدَ وَاهْتَدَى،
وَأَعْرِفَ بِهِ الْحَقَّ فِي تِلْكَ الْقَضَايَا؟ وَكَانَ الْخَضِرُ، قَدْ أَعْطَاهُ
اللَّهُ مِنَ الْإِلَهَامِ وَالكَرَامَةِ، مَا بِهِ يَحْصُلُ لَهُ الْإِطْلَاعُ، عَلَى
بُيُوتِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، الَّتِي خَفِيَتْ، حَتَّىٰ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ، فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: لَا أَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّكَ
﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ آي: لَا تَقْدِرُ عَلَى اتِّبَاعِي وَمِلَازِمَتِي،
لَأَنَّكَ تَرَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَى الصَّبْرِ عَلَيْهِ، مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي

ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال:

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه وظاهره وعلمت المقصود منه وما له؟! فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

فحينئذ قال له الخضر: ﴿وَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُخْبِرَكَ لَكَ بِهِ نَبَأٌ وَكَرًّا﴾ أي: لا تبتندي بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر. ﴿فَأَتْلُوكَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي: اقتلع الخضر منها لوحًا، وكان له مقصود في ذلك، سيبينه، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لفرق أهلها، ولهذا قال موسى:

﴿أَخْرَقَهَا لِنَفْسٍ أَقْبَلْنَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: عظيمًا شنيعًا، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسيانًا فقال: ﴿لَا تُؤْخَذْنِي بِمَا نَبِئْتُ وَلَا تُهَيِّئْ بَيْنَ أَمْرِي غَيْرًا﴾ أي: لا تعسر علي الأمر، واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر، الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر. ﴿فَأَتْلُوكَا حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا عَلَىٰ غَلَاظٍ أَوْ بَرٍّ ذَرْبًا شَدِيدًا﴾ أي: صغيرًا ﴿فَقَلَّظَ﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلامًا صغيرًا، لم يذنب.

﴿قَالَ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون؟ ﴿فَقَالَ نَحْنُ نَقْتَرُ بِمَا نَفْعُ لِقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾. وأي نكر مثل قتل الصغير الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحدًا؟! وكانت الأولى من موسى نسيانًا، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر، معاتبًا ومذكّرًا: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

فقال [له] موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ فَلَا تَسْجِنَنِي﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبتكر صحتي ﴿قَدْ بَلَّغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر. ﴿فَأَتْلُوكَا حَتَّىٰ إِذَا آتَا أُمَّةً قَرْيَةً اسْتَعْطَمُوا أَهْلَهَا﴾ أي: استضافهم فلم يضيفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فَأَقَامَهُمَا﴾ الخضر أي: بناء وأعاده جديدًا. فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَجَدَّتْ عَلَيْهِ جُرْأًا﴾ أي:

أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره، وأنت تقدر عليها؟! فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضر منه، فقال له: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحة. ﴿سَأَتَّبِعُكَ بِمَا أُولَىٰ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: سأخبرك بما أنكرت علي، وأنبئك بأن لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَصْتَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرافة بهم ﴿فَارْتَدَّتْ عَنْ رُيُوبِهِمَا وَرَأَتْهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه، ما فيها عيب، غصبها وأخذها ظلمًا، فأردت أن أخرقها، ليكون فيها عيب، فنسلم من ذلك الظالم.

﴿وَأَمَّا الْكَلْبُ﴾ الذي قتله ﴿فَكَانَ أَبُوهُمُ مُؤْمِنًا فَخَسِبْنَا أَنْ تُرِيقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وكان ذلك الغلام، قد قدر عليه، أنه لو بلغ، لأرقق أبويه طغيانًا وكفرًا. أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه أو يحدهما على ذلك، أي: فقتله، لاطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟ وهو وإن كان فيه إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال:

﴿فَارْتَدَّا أَنْ يَبْدُلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ وَكَوَّا قُرْبَىٰ﴾ أي: ولدًا صالحًا، زكيًا، واصلًا لرحمه، فإن الغلام الذي قتل، لو بلغ لعقهما أشد العقوق، بحملهما على الكفر والطغيان. ﴿وَأَمَّا لَهْجَارُ﴾ الذي أقمته ﴿فَكَانَ لِمَنْ يَمِينِ يَمِينٍ فِي النَّبِيِّينَ وَكَانَ خَتَمُهُ كَرِّ لُحْمًا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي: حالهما تقتضي الرافة بهما ورحمتهم، لكونهما صغيرين، عدما أباهما، وحفظهما الله أيضًا، بصلاح والدهما.

﴿فَأَادَرَبَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَلْبَسُوا أَثَدَهُمَا وَنَسَخَهُمَا كَرَهُمَا﴾ أي: فلهدا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كتزهما، وأعدته مجانًا.

﴿رَبَّمَهُ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، أتأها الله عبده الخضر ﴿وَمَا قَلَّتْ عَنْ أَمْرِ﴾ أي: أنيت^(١) شيئًا من قبل نفسي، ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

(١) كذا في النسختين، ومراد المؤلف - رحمه الله - النفي، أي: ما أنيت.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٠٢

سورة الكهف

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ لَكَ إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَاصْبِرْ حَتَّىٰ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَا أَمْلَأُ مِنْ قَوْمِهِ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهُمَا فَأَبْنَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدَانِ أَنْ يُنْقَضَ فَاُفَّاكُهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَنَحَذَّتْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُرِيدُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْفُلَانُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ، عَنْ أَمْرِ ذِي ذِكْرٍ ﴿٨٢﴾ فَأَوْبَدُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٣﴾ وَتَسْتَلُونَهُ عَنْ ذِي الْقُرْبَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٤﴾

عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: ﴿وَلَيْتَآ عَدَاؤُنَا﴾ فيحتذ تذكر أنه نسيه، في الموضع الذي إليه انتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقيه، ليس نبيا، بل عبدا صالحا، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر يثقه الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبيا، لذكر ذلك، كما ذكر غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلَنَا نَبِيًّا﴾، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ تَقُولَ لِلْأَنْبِيَاءِ مَنْ لَدُنِّي﴾.

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله [العبادة] (١) نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مَنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه بالطف

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد، والأحكام، والقواعد، شيء كثير، نبه على بعضه بعون الله.

فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداية بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم - علم الإنسان أهم من ترك ذلك - والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريد، فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهارا لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: ﴿لَا أَتَبَرَّ حَتَّىٰ أَتِلَّ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْوِي حُطْبًا﴾ وكما أخبر النبي ﷺ، أصحابه - حين غزا تبوك - بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل يقضاه الله وقدره، لقول فتي موسى: ﴿وَمَا أَتَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَكْفُرَ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسلط وكان صدقا، لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

ومنها: استحباب كون خدام الإنسان، ذكيا فطنا كيسا، لئيم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعا، لأن ظاهر قوله: ﴿وَلَيْتَآ عَدَاؤُنَا﴾ إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو، وهو جميعا.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز، لمجمع البحرين.

وأما الأول، فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة. فالظاهر أنهم باتوا

على الشيء، حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية - التي من أفعال العباد - بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول «إن شاء الله».

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم، أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع: كما إذا كان فهمه قاصراً. أو نهاء عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها. أو لا يدركها ذهنه. أو يسأل سؤالاً، لا يتعلق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لا في حق الله، ولا في حقوق العباد لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا كُنْتُ﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها، وما سمحت به أنفسهم. ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى الفجور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر، ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية، في الأموال، والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها، أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها، في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض، الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه «يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير» ويراعى أكبر المصلحتين، بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً منه. وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير، فالخير بقاء دين أبويه، وإيمانهما،

(١) في ب: لطريق. (٢) بدلاً من الجملة: (أنه يفوته... كثير من العلم) جاء في ب: (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في: أ مشطوبة.

خطاب، لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَيَّ أَنْ تَكَلِّمَنِي بِمَا حَلَلْتَ رُشْدًا﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاحظة والمشاورة، وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جداً، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعليم ممن دونه فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل، للعلم الذي لم يتهتم فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة. فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله، وأعطاهم من العلم، ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص، كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه. فعلى هذا، لا ينبغي للفقهاء المحدثين، إذا كان قاصراً في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿تَكَلِّمُنِي بِمَا حَلَلْتَ﴾ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق^(١) الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَنْ تَكَلِّمَنِي بِمَا حَلَلْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم^(٢)، فمن لا صبر له، لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر - يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبرة، بذلك الأمر، الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدبره، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم

ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدر محض أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على أظافه في أفضيته، وأنه يقدر على العبد أمورًا يكرهها جدًا، وهي صلاح دينه: كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دينه، كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجًا من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكرهة.

(٨٣-٨٨) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْيَتَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوهُنَّ لَكُمْ فِي ذِكْرٍ ۚ إِنَّ مَثَلَهُنَّ فِي الْأَرْضِ لَكَايِفَ لِمَن كَفَى فَوْقَ سَبْعٍ ۖ فَاتِحٌ سَبْعًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقَرَّ أَسْهُمٍ جَعَلَهُنَّ قَرْيَةً فِي عَرَبٍ حَنَزَةٍ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّا كُنَّا لَنَجْعَلُ فِيهِم حَسَنًا ۚ قَالَ أَمَا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ ۖ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا ۚ وَأَمَا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً لَّحْسَنًا ۚ وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ إِسْرًا ۚ﴾ كان أهل الكتاب أو المشركون، سألو رسول الله ﷺ عن قصة ذي القرنين، فأمره الله أن يقول: ﴿سَأَتْلُوهُنَّ لَكُمْ فِي ذِكْرٍ﴾ فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب. أي: سأتلو عليكم من أحواله، ما يتذكر فيه، ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم ينله عليهم.

﴿إِنَّا مَكِّنَّا لَهُمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكه الله تعالى، ومكنه من النفوذ في أقطار الأرض، وانقيادهم له ﴿وَالَّذِينَ يَنْتَهِينَ عَنْ كُلِّ مَسْئَةٍ﴾ أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له، لما وصل إليه، ما به يستعين على قهر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران. وعمل بتلك الأسباب، التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها على وجهها، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادرًا على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي، والعمل به، حصل المقصود، وإن عدا، أو أحدهما لم يحصل.

وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهاذا لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره النحلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعمم بالجملة، أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم، ذو عَدَدٍ وعَدَدٍ ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها، فأعطاء الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حمئة، أي: سوداء، وهذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع، ووجد عندها، أي: عند

خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد، ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها، داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضًا وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله، إتلاف بعض مال الغير»، كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال، افتداء للباقي، جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكر لقوله: ﴿يَغْيِرُ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها : أن خدمة الصالحين ، أو من يتعلق بهم ، أفضل من غيرها ، لأنه علل استخراج كنزهما ، وإقامة جدارهما ، بأن أباهما صالح .

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَآرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَآرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخَيِّرَا لَكَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَمْرَ آدَمَ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِكُمْ هَبْلُمُ﴾. ﴿رَبُّكَ﴾، مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة صاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة، وسبب لبقاء الصلحة، وتأكيدها، كما أن عدم الموافقة، سبب لقطع المرافقة.

مغربها قوماً .

﴿فَلَمَّا يَدَّا الْفَرِيقَ إِمَّا أَنْ تُدْعَبَ وَبِمَا أَنْ تُنْجَذَ بِهِمْ خُسْأً﴾ أي : إما أن تعذبهم ، بقتل ، أو ضرب ، أو أسر ونحوه ، وإما أن تحسن إليهم فَيُخَيَّرَ بين الأمرين ، لأن الظاهر أنهم إما كفار ، أو فساق ، أو فيهم شيء من ذلك ، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق ، لم يُرَخَّصَ له في تعذيبهم ، فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ، ما استحق به المدح والثناء ، لتوفيق الله له لذلك ، فقال : سأجعلهم قسمين :

﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بالكفر ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَئِيْلًا﴾ أي : تحصل له العقوبتان ، عقوبة الدنيا ، وعقوبة الآخرة .

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي : فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة .

﴿وَسَتُسْأَلُهُمْ فِي ذَلِكَ نَزْمًا لِمَ سَرُ﴾ أي : وسنحسن إليه ، ونلطف له بالقول ، ونيسر له المعاملة ، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العالمين ، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد ، بما يليق بحاله .

(٩٨-٩٩) ﴿ثُمَّ أُنْجِ سَبِيًّا﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ النَّسِيبِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ثُمَّ أُنْجِ سَبِيًّا ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قَالُوا يَدُّ الْقَرْيَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُقْسَدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرَجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أَوَلَوْ رَأَيْتَ رِيزَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاقَىٰ بَيْنَ السَّدَّيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَوَلَوْ أَرَأَيْتُمْ عَلَيْهِ فِطْرًا ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ قَالَ ﴿ثُمَّ أُنْجِ سَبِيًّا﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴿قَالَ الْمَفْسُورُونَ : ذهب متوجهًا من المشرق ، قاصدًا للشمال ، فوصل إلى ما بين السدين ، وهما سدان ، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان ، سدًا بين يأجوج ومأجوج وبين الناس ، وجد من دون السدين قوماً ، لا يكادون يفقهون قولاً ، لعجمة السلتهم ، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم ، وقد أعطى الله ذا القرنين ، من الأسباب العلمية ، ما فقه به السنة أولئك القوم ، وفقهم ، وراجعهم ، وراجعهم ، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج ، وهما : أمتان عظيمتان من بني آدم فقالوا :

﴿إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُقْسَدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك ﴿فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرَجًا﴾ أي : جُعَلًا ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد ، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه ، فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك ، وذكروا له السبب الداعي ، وهو : إفسادهم في الأرض . فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ، ولا رغبة في الدنيا ، ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية . بل كان قصده الإصلاح ، فلذلك أجاب طلبتهم ، لما فيها من المصلحة ، ولم يأخذ منهم

حشرهم، وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين، ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فاما الكافرون - على اختلافهم - فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً.

(١٠١، ١٠٠) ولهذا قال: ﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرِشًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ الْجَنَّةَ الْبَارُونَ﴾^(١) أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليذوقوا من العقاب، ما تبكم له وحميمها، وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب، ما تبكم له والقلوب، وتصف الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: ﴿فَلَوْكُنَّا فِي أَصْحَابٍ مِمَّا نَدْعُونَا أَلَيْدًا﴾ وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْغَوْا هُنَالَا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَشْوًا﴾.

﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يقدرون على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن المبغض لا يستطيع أن يلقى سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم^(٢) سمع ولا بصر، ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيرًا.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي آلِيَاءَ﴾ أي: أعتقدنا جَهَنَّمَ للكافرين^(٣) هؤلاء، وهذا برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين الكافرين الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء، شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام الإنكاري المتقرر بطلانه في العقول: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي آلِيَاءَ﴾ أي: لا يكون ذلك، ولا يوالي ولي الله، معادياً لله أبداً، فإن الأولياء موافقون لله، في محبة، ورضاء، وسخطه، وبغضه، فيكون على هذا المعنى، مشابهاً لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ عَنْهُمْ جِحَاشٌ مِمَّا قَوْلَ اللَّيْلِ كَذَلِكَ أَهْوَىٰ إِنْ كُنَّا كَانُوا يَتَذَكَّرُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾.

فمن زعم أنه يتخذ ولياً لله، وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله، المنايذون لرسله، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم، ويفعونهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟

(١) في السختين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق قلم. (٢) في السختين: له.

أجرة، وشكر ربه على تمكنه واقتداره، فقال لهم:

﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: مما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أَجْمَلُ يُبَذِّرُ وَيَنْهِي رَمًا﴾ أي: مانعاً من عبورهم عليكم.

﴿عَائِثُ ذُرِّ الْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَتْ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: الجبلين اللذين بيني بينهما السد ﴿قَالَ أَنشَأُوا النَّارَ﴾ أي: أوقدوها إيقاداً عظيماً، واستعملوا لها الصنافيخ، لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، الذي يريد أن يصبغه بين زبر الحديد ﴿قَالَ عَائِثُ أَفَرَأَيْتُمْ قَطَرًا﴾ أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَبًّا﴾ أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه، لارتفاعه، ولا على نقه لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولياها وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه علي.

وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا مرَّ الله عليهم بالنعمة الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله، كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبا، مع البعد العظيم قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَكُمْ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ بخلاف أهل التجبر والتكبر، والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم أشراً وبطراً. كما قال قارون - لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾.

وقوله: ﴿فَإِنَّا جَاءَ وَعَدَ رَبِّي﴾ أي: لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَمْعَهُ﴾ أي: ذلك السد المحكم المتين ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وَكَانَ وَعْدَ رَبِّي حَقًّا﴾.

(٩٩) ﴿وَرَبُّكَ بِبَعْثِهِمْ يَوْمَئِذٍ بِمُوجٍ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج. وأنهم إذا خرجوا على الناس - من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها - يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِئَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرن ويموج بعضهم ببعض، من الأحوال والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿وَنُفِثَ فِي أَنْفِهِمْ جَمًّا ۝ وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرِشًا ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم

وأما كلام الله، فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأبى سعة وعظمة تصوراتها القلوب، فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلاق من الأولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ يسفاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المتهى.

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۚ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُتْرَكْ يَسِيئَةً ۚ رَبِّهِ أَمَّا ۚ أَي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: لست بآله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزان الله.

﴿وَأَنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ عبد من عبيد ربي ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما إلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب.

﴿وَلَا يُتْرَكْ يَسِيئَةً﴾ أي: لا يراني بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وآخرها، وقد فاتته القرب من مولاه، ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد.

فجنة الفردوس نُزِّلَتْ وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل، وأكبر، وأعظم، من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمأكّل اللذيذة، والمشارب الشهي، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة.

وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التمتع بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم.

فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها، وأدومها، وأكملها!! وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلاق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً، يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالاشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحداً، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقافاً، تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب، آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت^(١) فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلاً﴾ أي: تحولاً ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويهيجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

(١٠٩) ﴿قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئَتْ بِهَا رُسُلُهُ ۚ مَدًّا ۚ أَي: قل لهم مخبراً عن عظمة البارئ، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: وأشجار الدنيا، من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقلام ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ وتكسرت الأقلام ﴿وَقَدْ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد.

وفي الآية الأخرى ﴿لَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ مِدَادٌ مِّنْ بَعْدِهِ سَمِعَتْ أَلْحَمُّ مَا قَدِّدَتْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات مقضية منتهية،

(١) كذا في أ، وفي ب: وعت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيِّصَ ١ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢
 إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
 مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
 شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وِلَاةٍ وَكَأَنِّي
 آمَرًا بِعَاقِرٍ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
 مِنِّي آلٌ يَتَقَوَّبُ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَزْكُرِيَّا
 إِنَّا نَبِّئُكَ بِغَلَمٍ أَسْمُهُ بِحَسْبِكَ لَمْ يَجْعَلْهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
 ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غَلَمٌ وَقَدْ كَانَتْ أَمْرًا
 بِعَاقِرٍ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ
 قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
 شَيْئًا ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا
 تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
 مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ وَرَبِّهِ ١١

تفسير سورة مريم

وهي مدنية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿كَهَيِّصَ﴾ ١ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢
 نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ
 الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ
 مِن وِلَاةٍ وَكَأَنِّي آمَرًا بِعَاقِرٍ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي
 وَيَرِثُ مِنِّي آلٌ يَتَقَوَّبُ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَزْكُرِيَّا
 رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٧ سَقَصَهُ عَلَيْكَ، وَفَصَلَهُ تَفْصِيلًا، يَعْرِفُ
 بِهِ حَالَهُ نَبِيٍّ زَكَرِيَّا، وَأَتَاهُ الصَّالِحَةُ، وَمَنَاقِبُهُ الْجَمِيلَةُ، فَإِنَّ فِي
 قِصَّتِهَا عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَأُسْوَةً لِلْمُقْتَدِرِينَ، وَلَآنَ فِي تَفْصِيلِ
 رَحْمَتِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، وَبِأَيِّ سَبَبٍ حَصَلَتْ لَهُمْ، مِمَّا يَدْعُو إِلَى مَحَبَّةِ
 اللَّهِ تَعَالَى، وَالِإِكْتَارِ مِنْ ذِكْرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالسَّبَبِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ،
 وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اجْتَبَى وَاصْطَفَى زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ
 لِرِسَالَتِهِ، وَخَصَّهُ بِوَحْيِهِ، فَقَامَ بِذَلِكَ قِيَامَ أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ،
 وَدَعَا الْعِبَادَ إِلَى رَبِّهِ، وَعَلِمَهُمْ مَا عَلِمَهُ اللَّهُ، وَنَصَحَ لَهُمْ فِي
 حَيَاتِهِ. وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، كَأَخْوَانِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ، فَلَمَّا
 رَأَى مِنْ نَفْسِهِ الضَّعْفَ، وَخَافَ أَنْ يَمُوتَ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ
 يَنْوُبُ عَنْهُ فِي دَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى رَبِّهِمْ وَالنَّصِيحِ لَهُمْ، شَكَا إِلَى
 رَبِّهِ ضَعْفَهُ الظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ، وَنَادَاهُ نِدَاءً خَفِيًّا، لِيَكُونَ أَكْمَلَ
 وَأَفْضَلَ وَأَتَمَّ إِخْلَاصًا فَقَالَ:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أَي: وَهَى وَضَعُفَ، وَإِذَا ضَعَفَ
 الْعَظْمُ الَّذِي هُوَ عِمَادُ الْبَدَنِ، ضَعُفَ غَيْرُهُ.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ لِأَنَّ الشَّيْبَ دَلِيلُ الضَّعْفِ وَالْكِبَرِ،
 وَرَسُولُ الْمَوْتِ، وَرَأْيُهُ وَنَذِيرُهُ، فَتَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِضَعْفِهِ
 وَعَجْزِهِ، وَهَذَا مِنْ أَحَبِّ الْوَسَائِلِ إِلَى اللَّهِ، لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى
 الشُّبُهَةِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَتَعَلَّقَ الْقَلْبُ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أَي: لَمْ تَكُنْ يَا رَبِّ
 تَرُدُنِي خَائِبًا وَلَا مَحْرُومًا مِنَ الْإِجَابَةِ، بَلْ لَمْ تَزَلْ بِي حَفِيًّا
 وَلِدَعَائِي مُجِيبًا، وَلَمْ تَزَلْ الْطَّافِكَ تَتَوَالَى عَلَيَّ، وَإِحْسَانِكَ
 وَاصِلًا إِلَيَّ، وَهَذَا تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ، وَاجَابَةِ دَعَوَاتِهِ
 السَّابِقَةِ، فَسَأَلَ الَّذِي أَحْسَنَ سَابِقًا، أَنْ يَتِمَّ إِحْسَانَهُ لَاحِقًا.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وِلَاةٍ﴾ أَي: وَإِنِّي خِفْتُ مِنْ يَتَوَلَّى
 عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي، أَنْ لَا يَقُومُوا بِدِينِكَ حَقَّ
 الْقِيَامِ، وَلَا يَدْعُوا عِبَادَكَ إِلَيْكَ، وَظَاهَرُ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَرِ فِيهِمْ

أَحَدًا فِيهِ لِيَاقَةُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَهَذَا فِيهِ شَفَقَةُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ
 السَّلَامُ وَنَصِيحُهُ، وَأَنْ طَلَبَهُ لِلْوَلَدِ لَيْسَ كَطَلَبِ غَيْرِهِ، قَصْدُهُ
 مَجْرَدُ الْمَصْلُحَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ مَصْلُحَةُ الدِّينِ،
 وَالْخَوْفُ مِنْ ضِيَاعِهِ، وَرَأَى غَيْرَهُ غَيْرَ صَالِحٍ لِذَلِكَ.

وَكَانَ بَيْتُهُ مِنَ الْبُيُوتِ الْمَشْهُورَةِ فِي الدِّينِ، وَمَعْدَنُ
 الرِّسَالَةِ، وَمُظَنَّةُ الْخَيْرِ، فَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا يَقُومُ بِالْدِّينِ مِنْ
 بَعْدِهِ، وَاشْتَكَى أَنْ أَمْرَاتُهُ عَاقِرٌ، أَي: لَيْسَتْ تَلِدُ أَصْلًا، وَأَنَّهُ
 قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، أَي: عَمَرًا يَنْتَدِرُ مَعَهُ وَجُودُ الشَّهْوَةِ
 وَالْوَلَدِ ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ وَهَذِهِ الْوَلَايَةُ وَلَايَةُ الدِّينِ،
 وَبِعِثَارِ النُّبُوَّةِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنِّي آلٌ يَتَقَوَّبُ وَاجْعَلْهُ رَبِّ
 رَضِيًّا﴾ أَي: عَبْدًا صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَتُحِبُّهُ إِلَى عِبَادِكَ،
 وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ وَلَدًا ذَكَرًا صَالِحًا يَبْقَى بَعْدَ مَوْتِهِ،
 وَيَكُونُ وَلِيًّا مِنْ بَعْدِهِ، وَيَكُونُ نَبِيًّا مُرْضِيًّا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ،
 وَهَذَا أَفْضَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بَعْدَهُ أَنْ

(١) لعل الصواب أنها مكية، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَبْعَثُ خِزْلًا كَتَبَ بِقُوَّةٍ وَأَنبَتَهُ الْحَكَمُ صَيْبًا ﴿١٦﴾
وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٧﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٨﴾ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٩﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انبَدَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ﴿٢٠﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَتْ إِنِّي
أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٣﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي
غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٤﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ
عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢٥﴾
لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى، وَكَانَتْ مِنَ الْآيَاتِ الْعَجِيبَةِ، انْتَقَلَ
مِنْهَا إِلَى مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْهَا، تَدْرِيجًا مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى
فَقَالَ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ﴾ الْكَرِيمِ ﴿مَرْيَمَ﴾ عَلَيْهَا السَّلَامُ،
وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ فَضَائِلِهَا، أَنْ تَذْكُرَ فِي الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، الَّذِي
يَتْلُوهُ الْمُسْلِمُونَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، تَذْكُرَ فِيهِ
بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَأَفْضَلِ النَّثَاءِ، جِزَاءَ لِعَمَلِهَا الْفَاضِلِ، وَسِعِهَا
الْكَامِلُ، أَي: وَاذْكُرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ، فِي حَالِهَا الْحَسَنَةِ،
حِينَ ﴿انْبَدَتْ﴾ أَي: تَبَاعَدَتْ عَنْ أَهْلِهَا ﴿مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ أَي:
مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ عَنْهُمْ.

فلهذا قال: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾
وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه
الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن
أهل دار السلام، فضلوته الله وسلامه عليه، وعلى والده،
وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.
(٢١-١٦) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا
شَرْفِيًّا﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ
لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنْتَ تَقِيًّا﴾ قَالَ
إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي
غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ
عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا
لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى، وَكَانَتْ مِنَ الْآيَاتِ الْعَجِيبَةِ، انْتَقَلَ
مِنْهَا إِلَى مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْهَا، تَدْرِيجًا مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى
فَقَالَ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ﴾ الْكَرِيمِ ﴿مَرْيَمَ﴾ عَلَيْهَا السَّلَامُ،
وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ فَضَائِلِهَا، أَنْ تَذْكُرَ فِي الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، الَّذِي
يَتْلُوهُ الْمُسْلِمُونَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، تَذْكُرَ فِيهِ
بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَأَفْضَلِ النَّثَاءِ، جِزَاءَ لِعَمَلِهَا الْفَاضِلِ، وَسِعِهَا
الْكَامِلُ، أَي: وَاذْكُرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ، فِي حَالِهَا الْحَسَنَةِ،
حِينَ ﴿انْبَدَتْ﴾ أَي: تَبَاعَدَتْ عَنْ أَهْلِهَا ﴿مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ أَي:
مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ عَنْهُمْ.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أَي: سِتْرًا وَمَانِعًا، وَهَذَا
التَّبَاعُدُ مِنْهَا، وَاتِّخَاذُ الْحِجَابِ، لَتَعْتَزَلَ، وَتَفَرَّدَ بِعِبَادَةِ رَبِّهَا،
وَتَقَنَّتْ لَهُ فِي حَالَةِ الْإِخْلَاصِ وَالْخُضُوعِ وَالذَّلِّ لِلَّهِ تَعَالَى،
وَذَلِكَ امْتِثَالٌ مِنْهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْفَالِغَةُ يَتَرْتَّبُ عَلَى اللَّهِ
أَسْطَفَيْتُكَ وَطَهَّرْتُكَ وَأَسْطَفَيْتُكَ عَلَى إِسَاءَةِ الْعَالَمِينَ يَتَرْتَّبُ أَفْئَقُ
رَبِّكَ وَسَجَّوِي وَكَرَّجِي مَعَ الْكَرِيمِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أَي: كَامِلًا مِنَ الرِّجَالِ، فِي صُورَةٍ
جَمِيلَةٍ، وَهَيْئَةٍ حَسَنَةٍ، لَا عَيْبَ فِيهِ وَلَا نَقْصَ، لَكُونِهَا لَا
تَحْتَمِلُ رُؤْيَاهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَهِيَ
مُعْتَزِلَةٌ عَنْ أَهْلِهَا، مُفَرَّدَةٌ عَنِ النَّاسِ، قَدْ اتَّخَذَتْ الْحِجَابَ عَنْ
أَعْزِ النَّاسِ عَلَيْهَا، وَهَمَّ أَهْلُهَا، خَافَتْ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا قَدْ
تَعَرَّضَ لَهَا بِسُوءٍ، وَطَمَعَ فِيهَا، فَاعْتَصَمَتْ بِرَبِّهَا، وَاسْتَعَاذَتْ
مِنْهُ فَقَالَتْ لَهُ:

﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ أَي: أَلْتَجِيءُ بِهِ وَأَعْتَصِمُ بِرَحْمَتِهِ،
أَنْ تَتَلَانِي بِسُوءٍ، ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أَي: إِنْ كُنْتَ تَخَافُ اللَّهَ،
وَتَعْمَلُ بِتَقْوَاهُ، فَاتْرَكَ التَّعَرُّضَ لِي، فَجَمَعْتَ بَيْنَ الْإِعْصَامِ
بِرَبِّهَا، وَبَيْنَ تَخْوِيفِهِ وَتَرْهيبِهِ، وَأَمْرِهِ بِلزومِ التَّقْوَى، وَهِيَ فِي

تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في
ذلك الجمال الباهر، والبشرة الكاملة السوية، ولم ينطق لها
بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبْلَغُ مَا
يَكُونُ مِنَ الْعَفَةِ، وَالْبَعْدِ عَنِ الشَّرِّ وَأَسْبَابِهِ.

وهذه العفة - خصوصًا مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع
- مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَلِذَلِكَ أَنَّى اللَّهُ عَلَيْهَا فَقَالَ: ﴿وَمَرْيَمَ
ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا رَحْمَةً فَفَتَحْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، ﴿وَالَّتِي
أَحْصَيْنَا رَحْمَةً فَفَتَحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا
آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله، ورسولًا من رسله،
فلما رأى جِبْرِيلُ مِنْهَا الرُّوحَ وَالْخِفَةَ، قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ
رَبِّكِ﴾ أَي: إِنَّمَا وَظِيفَتِي وَشَغْلِي تَفِيْذُ رِسَالَةِ رَبِّي فِيكَ ﴿لِأَهَبَ
لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، وَهَذِهِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ بِالْوَلَدِ وَزَكَاتِهِ، فَإِنْ
الرِّكَاءُ يَسْتَلْزِمُ تَطْهِيرَهُ مِنَ الْخِصَالِ الذَّمِيمَةِ، وَاتِّصَافَهُ بِالْخِصَالِ
الْحَمِيدَةِ، فَتَعَجَّبَتْ مِنْ وَجُودِ الْوَلَدِ مِنْ غَيْرِ أَبِي فَقَالَتْ: ﴿أَنَّى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ وَالْوَلَدُ لَا يَوْجَدُ إِلَّا
بِذَلِكَ!!

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ أي: سكوتاً. ﴿فَلَنْ أَكْثِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام، لتستريح من قولهم وكلامهم، وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تيرتها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على برائها.

فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوي، التي لو أقيم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينة هذا الخارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جذاً. ولهذا قال تعالى:

(٢٧-٣٣) ﴿فَإَتَتْ يَوْمَ قَوْمَهَا تَعْلِمُهُ قَالُوا يَتَزَمَّرُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيّاً ۝ يَتَخْتَتَنُ هَهُنَا مَا كَانَ آيُوكَ أَمراً سَوَّوْماً كَأَنَّكَ أَتَيْتَ بِنْتًا ۝ فَاسْتَأْذَنُوا قَالُوا كَيْفَ نَكُونُ لَكُم مِّنْ كَأَنَّ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكُتُبَ وَجَعَلْنِي نَبِيّاً ۝ وَجَعَلْنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا مَثُتُ حَيّاً ۝ وَبَرّاً بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ۝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُعْرَضُ حَيّاً ۝ أَي: فلما تعلت مريم من نفاسها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك، لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبايلة ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ أي: عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك البغاء^(١) حاشاها من ذلك.

﴿يَتَخْتَتَنُ هَهُنَا﴾ الظاهر أنه أخ لها حقيقي، فسبوا إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة ﴿مَا كَانَ آيُوكَ أَمراً سَوَّوْماً كَأَنَّكَ أَتَيْتَ بِنْتًا﴾ أي: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟ وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في صلاح وفساد، فتعجبوا - بحسب ما قام بقولهم - كيف وقع منها.

فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أَكْثِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾، فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كَيْفَ نَكُونُ لَكُم مِّنْ كَأَنَّ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في

(١) كذا في ف، وفي أ: البغي، وما في ف يبدو أنه معدل من البغي، فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَذِهِ وَلِنَجْعَلَكَ مَائَةً لِّنَاسٍ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله.

فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لئلا يفتقروا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: ولنجعل له رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنّ عليه بما منّ به على أولي العزم، وأما رحمته بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة، وأما رحمته بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَكَانَ﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أَمراً مُّقْبِصاً﴾ قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفع جبريل عليه السلام في جيبها.

(٢٢-٢٦) ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَهِتْ يَوْمَ مَكَانًا قَصِيّاً ۝ فَلَمَّا هَا هُنَا أَلَمْتُ إِلَى يَدَايَ فَإِنِّي لَمَيِّمٌ مِّثْلَ نَجَسٍ ۝ فَكُنْتُ نَسِيّاً ۝ فَتَدَبَّرْتُ مِنْ تَحْتِهَا أَلَا عَزَّزْتُ لَكَ تَحَاكِي سَرِيّاً ۝ وَهَزَيْتُ إِلَيْكَ يَمِينِي فَتَنَظَّرْتُ عَلَيْكَ رُفْعاً حَبِيّاً ۝ فَكُنْتُ وَأَنْتَ بَعْدَ عَيْنٍ قَلِيلاً تَرَى مِنْ الْبَشَرِ أَحْداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أَكْثِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾ أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿مَكَانًا قَصِيّاً﴾، فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمتعت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً، فلا تذكر.

وهذا التمني بناء على ذلك المزج، وليس في هذه الأمانة خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداهما من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي، ف ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَاكِي سَرِيّاً﴾ أي: نهراً تشربين منه.

﴿وَهَزَيْتُ إِلَيْكَ يَمِينِي فَتَنَظَّرْتُ عَلَيْكَ رُفْعاً حَبِيّاً﴾ أي: طريفاً لذيذاً نافعا ﴿فَكُنْتُ وَأَنْتَ بَعْدَ عَيْنٍ قَلِيلاً﴾ من التمر ﴿وَأَنْتَ بَعْدَ عَيْنٍ قَلِيلاً﴾ من النهر ﴿وَقَرِي عَيْنًا﴾ بعيسى، فهذا طمأنيتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكول والمشرب الهنيء.

ذلك السن .

فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَنَّانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ، فخطابهم بوصفه بالعبودية ، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلها ، أو ابنا للإله ، تعالى الله عن قول النصاري المخالفين لعيسى - في قوله : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ومدعون موافقته .

﴿مَنَّانِي الْكِتَابَ﴾ أي : قضى أن يؤتيني الكتاب ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فأخبرهم بأنه عبد لله ، وأن الله علمه الكتاب ، وجعله من جملة أنبيائه ، فهذا من جماله لنفسه .

ثم ذكر تكميله لغيره فقال : ﴿وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا إِنَّ مَا كُنْتُ أَبي : في أي مكان ، وأي زمان ، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه ، والنهي عن الشر ، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله ، فكل من جالسه ، أو اجتمع به ، نالته بركته ، وسعد به مصاحبه .

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي : أوصاني بالقيام بحقوقه ، التي من أعظمها الصلاة ، وحقوق عبادته ، التي أجلها الزكاة ، مدة حياتي ، أي : فانا ممثل لوصية ربي ، عامل عليها ، منفذ لها .

ووصاني أيضا أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان ، وأقوم بما ينبغي لها ، لشرفها وفضلها ، ولكونها والدة ، لها حق الولادة وتوابعها .

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي : متكبرا على الله ، مترفعا على عبادته ﴿عَظِيمًا﴾ في دنياي أو أخراي ، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعا له خاضعا خاشعا متذلا ، متواضعا لعباد الله ، سعيدا في الدنيا والآخرة ، أنا ومن اتبعني .

فلما تم له الكمال ، ومحامد الخصال قال : ﴿وَأَنصَلَكُمْ عَلَى يَوْمٍ دُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي : من فضل ربي وكرمه ، حصلت لي السلامة يوم ولادتي ، ويوم موتي ، ويوم بعثي - من الشر ، والشیطان والعقوبة ، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال ، ودار العقاب ، وأنه من أهل دار السلام ، فهذه معجزة عظيمة ، وبرهان باهر ، على أنه رسول الله ، وعبد الله حقا .

(٣٦-٣٤) ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۚ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا نَبْقُولُ لَهُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ رَبِّي وَرَبُّكَ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۚ أَيُّ ذَلِكَ الْمَوْصُوفِ بِنُكْلِ الصِّفَاتِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا مَرِيَّةٍ ، بَلْ قَوْلُ الْحَقِّ ، وَكَلَامُ اللَّهِ ، الَّذِي لَا أَصْدُقُ مِنْهُ قِيلًا ، وَلَا أَحْسَنُ مِنْهُ حَدِيثًا ، فَهَذَا الْخَبَرُ الْيَقِينِي عَنْ

الْحَقِّ

٣٠٧

الْحَقِّ

فَكُلِّي وَأَشْرَفِي وَقَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكْلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٣٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا صَحْجَةً ، قَالُوا يَبْرَأُكُمْ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٣٧﴾ تَنَاجَتْ هُنَّ مِمَّا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا ﴿٣٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ مُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٣٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٤٠﴾ وَرَجَعَنِي مُبَارَكًا إِنْ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٤١﴾ وَبَرَّأ بُولَدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَفِيًّا ﴿٤٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ دُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٤٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا نَبْقُولُ لَهُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ رَبِّي وَرَبُّكَ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٥﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَنِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٤٦﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا لَكِنَّا لَنَكُونُ الْأَغْلَابِينَ ﴿٤٧﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَارْكَعْ وَارْكَعْ

عيسى عليه السلام ، وما قيل فيه مما يخالف هذا ، فإنه مقطوع بطلانه ، وغايته أن يكون شكًا من قائله لا علم له به ، ولهذا قال : ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي : يشكون فيمارون بشكهم ، ويجادلون بخبرهم ، فمن قائل عنه : إنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم علوا كبيرا .

ف ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي : ما ينبغي ولا يليق ، لأن ذلك من الأمور المستحيلة ، لأنه الغني الحميد ، المالك لجميع الممالك ، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولدا ؟!

﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي : تنزه وتقدس عن الولد والنقص ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي : من الأمور الصغار والكبار ، لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿فَأَنصَلَكُمْ عَلَى يَوْمٍ دُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ فإذا كان قدره ومشيته نافذا في العالم العلوي والسفلي ، فكيف يكون له ولدا ؟ وإذا كان إذا أراد شيئا قال له : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب ؟!

ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربيوب كغيره فقال : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ الذي خلقنا ، وصورنا ، ونفذ فينا تدبيره ، وصرفنا تقديره .

به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد،
فهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

(٤٠، ٣٩) ﴿وَيَذَرُهُمْ يَوْمَ الْقِسْفَةِ إِذْ يَقُولُ الْأُمَمُ وَمِمَّنْ قَعَلَهُ وَمِمَّنْ لَا يَوْمُوتُ﴾ ○ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَوْنَ ○ الإنذار هو: الإعلام بالمخوف على وجه التهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما يندر به ويخوف به العباد يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقى شقاوة لا سعادة^(١) بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تنقطع منها القلوب، وتنصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟!

فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة وشملتهم السكر، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهمتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المتفضية الفانية، فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها مستذهب عن أهلها، ويذهبونها، وسيرت الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أرباحوا، فمن فعل خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٤١-٥٠) ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَأُتِيَّ بِبَنَاتٍ لَهُمْ قَدْحٌ مِمَّا يَشْتَبِعُونَ وَلَا يُفْقِرُ عَلَيْكَ شَيْءٌ ○ يَتَأْتِيَنِي إِلَى قَدْحٍ مِمَّا يَكُونُ مِنْهُ لَأَرْجُوَ حَرْصًا مِمَّا سَوَّاهُ ○ يَتَأْتِيَنِي لَا تَحْبِدُ الْشَّيْطَانَ إِنَّهُ يَحْبِدُ الْبَشَرِ وَالْشَّيْطَانُ وَالْبَشَرِ عَصِيَّةٌ ○ يَتَأْتِيَنِي إِذْ لَأُفَاقُ أَنْ يَسْكَعَ عَذَابُ بَنِي الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلْبَشَرِ وَلِيًّا ○ قَالَ أَرَأَيْتُمْ أَتَتْ عَنْ هَٰؤُلَاءِ قِيَارُكُمْ لَيْنَ لَرْتَنَ لَأَرْجُوَ حَرْصًا مِمَّا سَوَّاهُ ○ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَفِيْرُ لَكَ رَيًّْا ○ إِنَّكَ كَاثِبٌ فِي حَقِّي ○ وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُوْنَ بِدَعْوَةِ رَبِّيَ شَيْئًا ○ فَلَمَّا أَهْرَقْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ○ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ○ أَجَلُ الْكُتُبِ وَأَفْضَلُهَا وَأَعْلَاهَا هَذَا الْكِتَابُ الْمُبِينِ، والذكر الحكيم، فإن ذُكِرَ فيه الأخبار، كانت أصدق الأخبار، وأحقها، وإن ذُكِرَ فيه الأمر والنهي، كانت أجل

﴿فَقَائِدُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي هذا، الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريق معتدل، موصل إلى الله، لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق الغي والضلال.

(٣٨، ٣٧) ﴿فَاتَّخَذَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلَ لَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ○ أَتَمَّعَ يَوْمَ وَأَمِيرٌ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي سَكَلٍ مُنْقَلَبٍ ○ لما بين تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يُشْكُ فيها ولا يمتري، أخبر أن الأحزاب، أي: فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم - اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن غالي فيه وجأف.

فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة، ومنهم من لم يجعله رسولا، بل رما بأنه ولد بعتي كاليهود.

وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وأراؤهم فاسدة، مبنية على الشك والعناد، والأدلة الفاسدة، والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿قَوْلَ لَلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله، وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر.

﴿يَوْمَ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات، وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلزال والأهوال المشتمل على الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿أَتَمَّعَ يَوْمَ وَأَمِيرٌ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم؟ فيقرون بكفرهم وشرهم، وأقوالهم ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي سَكَلٍ مُنْقَلَبٍ﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل، وتأمل كيف قال: ﴿قَوْلَ لَلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد قوله: ﴿فَاتَّخَذَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، ولم يقل «قَوْلهم» ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق فقالت في عيسى: «إنه عبد الله ورسوله» فأمنوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٨

سُورَةُ مَرْيَمَ

وَأَذِٰرُهُمْ يَوْمَ الْحِسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٣٢﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٣٣﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٣٤﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٣٥﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٣٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْئِ يَنْتَهِرُهُمْ لَنْ لَمْ تُنْتَهُ لَأَرْحَمَكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِكًا ﴿٣٧﴾ قَالَ سَلِمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَيَاتِي وَاعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَيْئًا ﴿٣٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٣٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٤٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾

من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى، فإنه لم يقل: «يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل» أو «ليس عندك من العلم شيء»، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علما، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك، ولم يأتك، فبيني لك أن تتبع الحجة، وتقادها.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَقْبَدَ إِلَيْكُمْ يَتَّبِعِ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فمن اتبع خطواته فقد اتخذها وليا وكان عاصيا لله بمنزلة الشيطان، وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي لَأَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، فتتزل بمنزلة الذميمة، وترتع في مراتع الوحيمة، فتلج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه

الأوامر والنواهي، وأعدلها وأسطها، وإن ذكر فيه الجزء، والوعد والوعيد، كان أصدق الأنباء وأحقها وأدله على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيرا ما يبدأ ويبدأ في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبة، والابانة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية.

فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الشاء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفي الحث على الإيمان بهم، ومحبتهم، والافتداء بهم، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ جمع الله له بين الصديقية والنبوة.

فالصديق: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ.

وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه، مهما أمكنه.

وذكر الله مراجعته إياه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيٍّ﴾ مهجئا له عبادة الأوثان ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، أي: لِمَ تعبد أصناما ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها؟ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعا ولا ضرا، بل لا تملك لأنفسها شيئا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جلّي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستفح عقلا وشرعا.

ودل بتبيينه وإشارته أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: يا أبت لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: مستقيما معتدلا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال، وفي هذا

أشق شيء على النفس، لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفرادها عن تعزير بهم ويتكرر، وكان من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه:

﴿فَلَمَّا أَتَوْهُمْ وَمَا يَنْتَهُونَ مِنْ ذُنُوبِ اللَّهِ وَهِيَ لَهُمْ إِسْحَاقُ وَمُتَوَكِّلٌ ﴿٥١﴾﴾^(١) من إسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا نِيَّتَ﴾^(٢) فحصل له هبة هؤلاء الصالحين^(٣) المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته واصطفاهم من العالمين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمُ﴾^(٤) أي: لإبراهيم وبنيه ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمُ إِبْرَاهِيمَ صِدِّيقًا﴾ وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب العالي غير الخفي، فذكرهم ملاء الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت به الألسنة فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكراهم في سائر العصور متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٥١-٥٣) ﴿وَلَا تُدْرِكُهُ الْكَيْفُ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۚ وَوَدَّعَيْنَاهُ مِنَ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيبًا ۚ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَبِيًّا﴾^(٥) أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى ابن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة.

﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين، وقرئ بكسرهما، على معنى أنه مخلص لله تعالى في جميع أعماله وأقواله ونياته، فوصفه بالإخلاص في جميع أحواله، والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد الإخلاص منه والاستخلاص من ربه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دقة وجله، والنبوة تقتضي إحياء الله إليه وتخصيصه بإزالة الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي بأجل أنواعه

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: من رتبة إلى رتبة. (٣) في ب: فحصل له ولهؤلاء الصالحين.

بأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي وأنت إن أعلتني اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهى عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذر عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينبج هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَأَيْتَ أَتَىٰ عَنْ آلِهَتِي بَيِّنَاتٌ مِمَّا بَلَغَ إِلَهُهُ﴾^(١) من الحجر والأصنام، ولأم إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لَيْسَ لَكَ تَنْتَهُ﴾^(٢) أي: عن شتم آلِهتي، ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لَا رَحْمَتَكَ﴾^(٣) أي: قتلاً بالحجارة ﴿وَأَهْجُرِي مَيْتًا﴾^(٤) أي: لا تكلمني زماناً طويلاً.

فأجابه الخليل، جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾^(٥) أي: ستسلم من خطايي إياك بالثتم والسب، وبما تكره.

﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾^(٦) إِنَّهُ كَانَتْ بِى حَيَاتٌ^(٧) أي: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة بأن يهديك للإسلام الذي تحصل به المغفرة.

ف ﴿إِنَّهُ كَانَتْ بِى حَيَاتٌ﴾^(٨) أي: رحيماً رؤوفاً بحالي، معتنياً بي، فلم يزل يستغفر الله له، رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو الله وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة، واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة^(٩)، والصبر على ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولى والفعل.

فلما آيس من قومه وآبىه قال: ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(١٠) أي: أنتم وأصنامكم ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿عَسَىٰ أَنَا أَكُونُ بِدْعَاؤِ رَبِّي شَقِيًّا﴾^(١١) أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من آيس ممن دعاهم، - فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون -، أن يشغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

ولما كان مفارقة الإنسان لوطئه ومآلئه وأهله وقومه، من

يُنِيَّا ﴿٥٤﴾ جمع الله له بين الصديقية الجامعة للتصديق التام والعلم الكامل واليقين الثابت والعمل الصالح، وبين اصطفاة لوجه واختياره لرسالته.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزله بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

(٥٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ

حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبَيْنَا إِذَا تُنْفَلُ

عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ لِرَحْمَتِ رَبِّنَا حَسْبُكَ﴾ وَيَكُنِيَّا ﴿٥٥﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء

المكرمين، وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم

قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: أنعم الله

عليهم نعمة لا تلحق، ويمتد لا تسبق، من النبوة والرسالة،

وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين [أنعم]^(١)

عليهم، وأن من أطاع الله كان ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ

النَّبِيِّينَ﴾ الآية، وأن بعضهم ﴿مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾

أي: من ذريته ﴿وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ فهذه خير بيوت

العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان حالهم

عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب

وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد

والوعد.

﴿حَسْبُكَ سَجْدًا﴾ وَيَكُنِيَّا ﴿٥٥﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخضعوا

لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة، ما

أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من

الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صمًا وعميًا.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الْكَرِيمِ﴾ دلالة على أن

آياته من رحمته بعباده، وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى

الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم

من الجهالة.

(٥٩-٦٣) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ الْحُلُومَ قَالَ لَهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ

تَعْبُدُونَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا بَلَىٰ نَعْبُدُهُمْ إِلهًا مَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مَنْ تَابَ وَتَمَرَّتْ سُلُوكُهُمْ وَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ

الْجَنَّةَ وَلَا يَدْخُلُونَهَا سَنِينَ ﴿٦٥﴾ جَعَلَتْ عِنْدَ آلِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ وَالْعَلِيَّ

إِلَهًا كَمَا وَعَدَ مَرْيَمًا ﴿٦٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ أَلَا سَلَامًا وَكَمْ رَفَعْنَاهُمْ فِيهَا

بِكْرَةً وَعَيْنِيَّا ﴿٦٧﴾ يَلْقَى الْخَلْقَ إِلَى ثَوْبِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ مَنْ كَانَ قَبْلًا ﴿٦٨﴾ لما

ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء، المخلصون^(٢) المتبعون لمراضي

وأفضلها، وهو تكليمه تعالى وتقريبه مناجيًا لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء بأنه تكليم الرحمن، ولهذا قال:

﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: الأيمن من موسى في

وقت مسيره، أو الأيمن أي: الأبرك من «اليمنى» والبركة،

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنَّا يُؤَيَّدُ مِن قِبَلِ النَّارِ وَمَنْ

حَوْلَهَا﴾.

﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو

الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذا إثبات الكلام

له تعالى وأنواعه من النداء والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة

والجماعة، خلافًا لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة،

ومن نحا نحوهم.

وقوله: ﴿وَوَعَدْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ هذا من أكبر

فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه

أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولًا مثله، فاستجاب الله له

ذلك ووهب له من رحمته أخاه هارون نبيًا. فنبوة هارون تابعة

لنبوة موسى عليهما السلام، فساعدته على أمره وأعانه عليه.

(٥٤، ٥٥) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِلهًا كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ

رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾

أي: واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم الذي خرج منه

الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد

آدم.

﴿إِلَهًا كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي: لا يعد وعدًا إلا وفى به، وهذا

شامل للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد ولهذا لما وعد من

نفسه الصبر على ذبح أبيه [له]^(٣) قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ

الْقَائِمِينَ﴾ وفى بذلك ومكّن أباه من الذبح، الذي هو أكبر

مصيبة تصيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة التي [هي]

أكبر من الله على عبده، وأهلها^(٤) من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي: كان مقيمًا لأمر الله

على أهل بيته فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود،

وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه، وكمل

غيره، وخصوصًا أخص الناس عنده وهم أهل لأنهم أحق

بدعوته من غيرهم.

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه

واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده

وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

(٥٦، ٥٧) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ إِلَهًا كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٨﴾

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: اذكر في الكتب^(٥) على وجه التعظيم

والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إِدْرِيسَ﴾ إِلَهًا كَانَ صِدِّيقًا

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: وجعله. (٣) في ب: في

الكتاب. (٤) في الأصل (أنعمت عليهم) ولعل الصواب ما أثبت. (٥)

جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط

صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع في التعت، فلما

نص الشيخ - رحمه الله - على ذلك أجبت كما هي.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٠٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْتُهُ بَيْنَهُمَا ۖ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا آخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۖ وَذَكَرْنَا الْكِتَابَ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۖ وَذَكَرْنَا الْكِتَابَ إِدْرِيسَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِنْ حَمَلَتِ امْرَأَتُ نُوحَ ۖ وَنُوحٌ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ۖ وَوَعَدْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ لَكَ مِنْ بَيْنِنَا نَبِيًّا ۖ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ۖ وَأَبْنَيْتَ الرَّحْمَنَ خَرًّا وَاسْتَجَدَّ وَكَفًّا ۖ وَخَلَفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَعَمِلُوا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۖ جَنَّاتٌ عَدْنٌ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۖ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ۖ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجُهُمْ فِيهَا وَعِشْيَا ۖ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۖ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا يَشِئْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا يَكُنْ ذَلِكَ وَمَا كَانَ لَكَ شَيْئًا ۖ

رهبهم، المنيون إليه، ذكر من أتى بعدهم، ويدلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض والسبب الداعي لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصولها، وعلى أي وجه اتفقت تناولوها ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها ﴿وَأَمَّا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَبَدٌ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم.

﴿وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة موفرة أجورها، مضاعفًا عدها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظن فيها ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور.

﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وسماها تعالى رحمته فقال: ﴿وَمَا الْغَيْبُ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأيضًا ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته التي هي أثرها وموجها.

والعبادة في هذه الآية المراد عباد إلهيته الذين عبدوه والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفًا لهم كقوله: ﴿يُؤَيِّدُكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيدًا لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم، ودرهم، فلبسوا داخلين في عبيد إلهيته، العبودية

الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطراب لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿وَالْغَيْبِ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا لم يشاهدوه ولم يروه، فآمنوا بها، وصدقوا غيبها وسعوا لها سعيها مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع، ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه.

فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبًا، وأجل شوقًا، ويحتمل أيضًا أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تتركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والمعاني كلها

الجميلة، أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يحزنك ذلك، ولا يهكم، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه.

ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فربوبيته للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمل، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سُدِّي، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما يفعلك، ويعود عليك طائله، وهو عبادته وحده، لا شريك له.

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اصبر نفسك عليها، وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلياً للعابد عن جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ عِبَادَكَ إِلَا مَا مَنَّ بِهِ أَوْ دُعَاؤُهُمْ زَهْرَةَ الْقَوْمِ الثَّانِيَةِ يُحِبُّهُمْ رَبِّي﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَنْزَلَ أَهْلَكَ بِالسَّكْرَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سَيِّئًا﴾ أي: هل تعلم لله مسامياً، ومشابهاً، ومسانلاً من المخلوقين، وهذا استفهام بمعنى التثني، المعلوم بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً، لأنه الرب وغيره مربوب، الخالق وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراجه بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلماذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده، بالعظمة، والأسماء الحسنى.

(٦٧، ٦٦) ﴿وَقَوْلِ الْإِنْسَانِ أَوْكَا مَا وَكَّ سَوَءَ أَخْرَجَ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ المراد بالإنسان ههنا كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول - مستفهماً على وجه النفي والعناد والكفر - ﴿أَوْكَا مَا وَكَّ سَوَءَ أَخْرَجَ حَيًّا﴾ أي: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد، ومقصده السيء، وعناده لرسول الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده للبعث في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ أي: أو لا يلفت نظره، ويستذكر حاله الأولي، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن

صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ وَدْعُهُمْ مَائِيًّا﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: كلاماً لا غياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيباً، ولا قولاً فيه معصية لله، أو قولاً منكدرًا.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور، والملائكة، والولدان، والنعيمات المطربة، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه.

﴿وَهُمْ يَرْفَهُمْ فِيهَا بَنُوكُهُ وَعِيْبُهُ﴾ أي: أرزاقهم من المأكَل والمشارب، وأنواع اللذات، مستمرة حيشما طلبوا، وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بَنُوكُهُ وَعِيْبُهُ﴾ ليعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ بَرًّا﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يغيبون عنه جَوْلاً كما قال تعالى: ﴿وَسَاءَ عِزًّا إِلَيْكَ مَشِيرَةُ بَيْنِ رَبِّكَمْ وَبَيْنَ عَرَشِهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَهْدَتْ لِلشَّاقِينَ﴾.

(٦٥، ٦٤) ﴿وَمَا نُنْزِلُ إِلَا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِحُكْمِهِ هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سَيِّئًا﴾ استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: «لو تأتينا أكثر مما تأتينا»، تشوقاً إليه، وتوحشاً لرفاقه، وليطمئن قلبه بنزوله. فنزل الله تعالى على لسان جبريل ﴿وَمَا نُنْزِلُ إِلَا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدئنا أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فنحن عبيد مأمورون.

﴿لَمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائراً بين، هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾ أي: لم يكن الله ليساك ويهلك، كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَّ﴾ بل لم يزل معتنياً بأمورك، مجرباً لك على أحسن عوائله الجميلة، وتدابيره

شيئاً مذكوراً، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمٌ﴾

وفي قوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ دعوة للنظر بالدليل العقلي، بألفظ خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكروها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

[illegible]

﴿ثُمَّ لَمْ نُضِمْهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَّةً﴾ أي: جاثين على ركبهم من شدة الأحوال، وكثرة الزلزال، وفضاعة الأحوال، متظيرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:

﴿ثُمَّ لَنَزَيِّنَنَّ لَهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آيَاتٍ أَتَتْ عَلَى آلِكَاحِينَ عَيْنًا﴾ أي: ثم لنزعمن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر، والعنوّ، أشدهم عنوّاً، وأعظمهم ظلماً، وأكبرهم كفراً، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب الأغلظ إثمًا فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون، بلعن بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَكَلُونَا مِنْ ثَمَرِ عَذَابِكَ إِذْ أَنْتَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَكُنْتَ لَآ تَأْمُرُونَ ۝ وَكَأَنَّهُمْ أَجْرُهُمْ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ عَيْنًا مِنْ فَضْلِكَ﴾ وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع ولهذا قال:

﴿ثُمَّ تَحَرَّ أَهْلُهَا وَالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلًا﴾ أي: علمنا محيط بمن هو أولى صلياً بالنار، قد علمناهم وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

(٧١، ٧٢) ﴿وَلَنْ يَسْكُنَ إِلَّا أَرْضَهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَسَبًا مَقْضًى ۝ ثُمَّ نَبَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَنَدَّرْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنَّةً ۖ وَهَذَا خُطَابُ لِسَانِ الْخَلَائِقِ، بِهِمْ وَفَارِجُهُمْ، مِنْهُمْ وَكَافِرُهُمْ، أَنَّهُ مَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سِيرِدَ النَّارِ، حَكْمًا حَتَمَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَوْعَدَ بِهِ عِبَادَهُ، فَلَا بَدَ مِنْ نَفْوَذِهِ، وَلَا مُجِدَّ عَنْ وَقْعِهِ.

واختلف في معنى الورد قليل: ورودها، حضورها للخلات كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم يَدُّ، ينجي الله المتقين، وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا، وقيل: الورد هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجويد

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعَذَابِهِ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَقُولُوا لِلْإِنْسَانِ إِنَّهُ دَا مِثٌ لِّسَوْفٍ
أَخْرَجَ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن قَبْلُ
وَلَرَيْكَ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمُ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ
لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ
هُمْ أَوْلَى بِهَاصِلِهَا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَرِدُهُا كَانَ عَلَى رَيْكَ
حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ أَنْقَرُوا وَنَذَرُ الْغَالِبِينَ
فِيهَا جِثَا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نَادَى عَلَيْهِمْ أَيْتَنَّا بِمِثْلِ مَا كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَمْ أَتَى الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مِّمَّا قَامُوا وَاحْسَنُ تَبَايَا ﴿٧٣﴾ وَكَه
أَهْلَكَا قُلُوبَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتَنَّا وَرَبَّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن
كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَدْعُ لَهُ الرَّحْمَنَ مَدْحًا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَاءً يَدْعُونَ
إِنَّمَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مِّمَّا كَانَا
وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَبَزِيدَ اللَّهُ الَّذِينَ أَهْتَدُوا هُدًى
وَالَّذِينَ هَضَبُوا الصَّلَاةَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

الخيـل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كُلٌّ بحسب تقواه، ولهذا قال:

﴿فَمَنْ تَنْجِي الَّذِينَ أَنْقَرُوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحظور ﴿وَنَزَّ الْأَطْلَافَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جَنَّتْ﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم ^(١) الخلود، وحق عليهم العذاب، ونقطعت بهم الأسباب.

(٧٢، ٧٣) ﴿وَإِذَا نُنَاجِيهِمْ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ كَمَا تَبُشُّ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
مَأْمُورٌ أَتَى الْفِرَقَيْنِ خَيْرٌ مِمَّاؤُنَا وَاحْسَنُ نَوْيًا ۝ وَكَوْا أَمْكِنًا قَبْلَهُمْ مِنْ قَدْرِ
هُمْ أَحْسَنُ أَنْتُمْ وَرَبُّكُمْ أَي: وإذا تنلى على هؤلاء الكفار آياتنا
بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله، وصدق
رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان، وشدة الإيقان -
قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزءوا بها وبمن آمن بها
واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين
فقالوا معارضين للحق:

(۱) کذا فی ب ، وفقی أ : له .

منه وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً آخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا الَّذِينَ آمَنُوا يُبْنِيْنَ﴾، ﴿وَلِإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَرَزَقْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ويدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَمْسُكُوا بِالْأَيْمَانِ﴾ أي: الأعمال الباقية التي لا تقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسييح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية.

فهذه الأعمال ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: خير عند الله ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال أفضل التفضيل في غير بابه، فإنه ما تم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع ولا يبقى لصاحبه ثوابه، ولا ينجع.

ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات، - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة، ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

(٧٧-٨٠) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ۚ أَلَمْ نَلْعَلِ الْقَيْبَ أَلَمْ نَقْعُدْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ كَلَّا سَكَتُكَ مَا يَقُولُ وَنَسَىٰ لَهُ مِنَ الْعَهْدِ مِثًّا ۚ وَتَرْتَبُّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: أفلا تعجب من حالة هذا الكافر الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالا وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية وإن كانت نازلة في كافر معين، فإنها تشمل كل كافر زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة.

قال الله توبيخاً له وتكديلاً: ﴿أَلَمْ نَلْعَلِ الْقَيْبَ﴾ أي: أحاط علمه بالغيب حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون أنه يؤتى يوم القيامة مالا وولداً؟

﴿أَلَمْ نَقْعُدْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه متقوّل، قائل ما لا علم له به، وهذا التقسيم والترديد في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة، فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا

﴿أَتَى الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَقَالًا﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وَأَسْسَنُ نَوْبًا﴾ أي مجلساً: أي: فاستمتعوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه وشقائه وشره، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ بَنٍ قَرِينٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ أي: متاعاً، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رتياً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثناً ورتياً، ولم يمنعمهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء وهم أقل منهم وأذل، معتمدين من العذاب ﴿أَفَكُلَّزَكَّيْ خَيْرٌ يَزَنُ أُولَئِكَ أَكْثَرُ لَكْرٍ بَرَكَةً فِي الْآخِرِ﴾؟ وعلم من هذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا، من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

(٧٥) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ يَأْتِيَ رَبَّهُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْمَدَّابَ إِذَا الشَّاعَةِ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّا كَانَا وَاضْعَفُ جُنْدًا﴾ لما ذكر دليلهم الباطل الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها، فإن الله يمدده منها، ويزيده فيها حباً، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿كَلَّا زَاوُوا أَزْوَاجَ اللَّهِ وَلَوِيتُمْ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرْتُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ أُولَئِكَ سَمَرُ وَفَدَرْتُمْ فِي طُعْنَيْتِهِمْ يَمْهَمُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا زَاوُوا﴾ أي: القائلون: ﴿أَتَى الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَالًا وَأَسْسَنُ نَوْبًا﴾، ﴿مَا يُوْعَدُونَ إِذَا الْمَدَّابَ﴾ بقتل أو غيره ﴿وَلِإِنَّا أَشْنَعُ﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّا كَانَا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر.

﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

(٧٦) ﴿وَرَبِّهِ اللَّهُ الَّذِيكَ أَهْتَدُوا هُدًى وَالَّذِينَ آمَنُوا خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان، والعمل الصالح، زاده الله

يخلو:

إما أن يكون قوله صادرًا عن علم بالغيوب المستقبل، وقد علم أن هذا الله وحده، فلا أحد يعلم شيئًا من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله.

وإما أن يكون متخذًا عهدًا عند الله بالإيمان به واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفاترون، فإذا انتفى هذان الأمران علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى:

﴿لَا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهدًا، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما نقوله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَنصُرُكَ مِنْ أَلْعَادٍ مَدَا﴾ أي: نزيد من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال.

﴿وَنُرِيهِ مَا يَقُولُ﴾ أي: نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فردًا، بلا مال ولا أهل ولا أنصار، ولا أعوان ﴿وَيُنَبِّئُكَ﴾ فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

(٨٣، ٨٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ أَزًّا﴾
 ○ فلا تتعجل عليهم إنما نمد لهم عذابًا وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم يعصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين - سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزًّا، وترعجهم إلى الكفر إزعاجًا، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم، ويتشربها فيسعى فيه سعي المحق في حقه فينصره بجده، ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل.

وهذا كله جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطانًا. وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ○ إنما سلطانهم على الذين يتولون والذين هم به مشركون.

﴿فَلَا تَحْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَمُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي: أن لهم أيامًا معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نملهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز

٣١١
 ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَا أُفِيكُ مَا لَا وَدَّ أَنْ يُدْعَىٰ ۚ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۚ وَرَدُّهُ مَا يَقُولُ وَيُنَبِّئُكَ فَرَدًّا ۚ وَأَنزَلْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عَزًّا ۚ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ أَزًّا ۚ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۚ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آسَوْا إِلَى الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرَدًّا ۚ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ وَقَالُوا آخِذْ بِالَّذِي نَدَّاهُ ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا نَكَدَ السَّمَوَاتِ يَفْطُرْنَ مِنْهُ وَتَنشِقُ الْأَرْضُ وَتَحْرِقُ الْجِبَالُ هَبًّا ۚ أَن دَعَا الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَخْصَنَّمْهُمْ وَعَدْنَاهُمْ عَذَابًا ۚ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ﴾

مقتدر.

(٨٥-٨٧) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آسَوْا﴾
 المتقين إلى جهنم وردًا ○ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين، المتقين والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن ملكهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفودًا إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء وحسن الظن بالوافد [إليه] (١)، ما هو معلوم.

فالمثقون يقدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته، وعميم إحسانه، والفوز بعباياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب على أسنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضل.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم وردًا، أي:

أعمالهم، فلا يضل ولا ينسى، ولا تخفى عليه خافية.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ أي: لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله، ويوفيه حسابه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

(٩٦) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَمْشُوا وَعَلِمُوا أَنَّ الْمَوْتَ سَاجِدٌ لَهُمْ﴾ هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم ودًا أي: محبة وودادًا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ودٌ تسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: «إن الله إذا أحب عبدًا، نادى جبريل: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض». وإنما جعل الله لهم ودًا، لأنهم^(١)، ودوه، فودعهم إلى أوليائه وأحبابه.

(٩٧، ٩٨) ﴿فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ بَلَاءَكَ لِتُنْذِرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَنُذِرُ بِهِ قَوْمًا لَنَا﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْمٍ هَلْ نَجَسَ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ زَكْرًا﴾ يخبر تعالى عن نعمته تعالى، وأن الله يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ، يسر ألفاظه ومعانيه، ليحصل المقصود منه، والانفعا به.

﴿يُنْذِرُ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في العبادة من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة. ﴿وَنُذِرُ بِهِ قَوْمًا لَنَا﴾ أي: شديدين في باطلهم أقواء في كفرهم، فتذرهم، فتقوم عليهم الحجة وتبين لهم المحجة فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْمٍ﴾ من قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم، أهلكهم الله فليس لهم من باقية. ﴿هَلْ نَجَسَ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ زَكْرًا﴾ والركز: الصوت الخفي، أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسماهم عظة للمتعتلين.

تم تفسير سورة مريم، والله الحمد والشكر.

عطاشًا، وهذا أبشع ما يكون من الحالات، سوفهم على وجه اللذ والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم، يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال:

﴿لَا يَبْكُوكَ الشَّفَعَةُ﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا عنده عهدًا بالإيمان به ويرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهدًا فأمن به ويرسله، واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُوكَ إِلَّا لِيَّ ارْتَضَى﴾ وسمى الله الإيمان به، واتباع رسله عهدًا، لأنه عهد في كتبه وعلى السنة رسله بالجزاء الجميل لمن اتبعهم

(٨٨-٩٥) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعُنَّ مِنْهُ لَشَعَرٌ﴾ ﴿وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَغَرَّ لِلْجِبَالِ مَدًّا﴾ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ ﴿لَقَدْ أَنْصَبُمْ وَعَدَّكُمْ عَدًّا﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ وهذا تنقيح وتشيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا كقول النصارى: «المسيح ابن الله» واليهود: «عزير ابن الله» والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أي: عظيمًا وخبيثًا. من عظيم أمره أنه ﴿تَكَادَ السَّمَوَاتُ﴾ على عظمتها وصلابتها ﴿يَنْقَطِعُنَّ مِنْهُ﴾ أي: من هذا القول ﴿وَتَشَقُّ الْأَرْضُ﴾ منه، أي: تنصدع وتنفطر ﴿وَتَغَرَّ لِلْجِبَالِ مَدًّا﴾ أي: تندك الجبال.

﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر، والحال أنه: ﴿وَمَا يَلْبِغِي﴾ أي: لا يليق ولا يكون ﴿لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد، والولد أيضًا من جنس والده، والله تعالى لا شبه له ولا مثل ولا سبي.

﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ أي: ذليلًا منقادًا، غير متعاص ولا متعن، الملائكة، والإنس، والجن وغيرهم، الجميع ممالك، متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء، فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه وعظمته ملكه!!!

﴿لَقَدْ أَنْصَبُمْ وَعَدَّكُمْ عَدًّا﴾ أي: لقد أحاط علمه بالخلائق كلها، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم وأحصى

تفسير سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذَكُّرٌ ۝ لِمَنْ يَخْشَى ۝ تَزِيلًا وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ أَمَلٌ ۝ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ۝ لَمْ يَأْمُرْ بِالْقَوْلِ فَخُلِقَ الْبَشَرُ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۝ ﴿طه﴾ من جملة الحروف المقطعة، المفتحة بها كثير من السور، وليست اسمًا للنبي ﷺ.

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلًا للسعادة، والفلاح، والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقت الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلهما بما احتوى عليه، من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال:

﴿إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى﴾ إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة التي كانت مستقرًا في عقله حسنًا مجملًا، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله ﴿تَذَكُّرٌ﴾.

والتذكرة لشيء كان موجودًا، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، وخص بالتذكرة ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنّة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذَكُرْ مَنْ يَخْشَى ۝ وَنَجِّنَ الْأَتَقِينَ ۝ أَلَيْسَ أَلَّا يَصِلَ النَّارَ الْكُفْرُ﴾.

ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات، المدير لجميع المخلوقات، أي: فاقبلوا تنزيله، بغاية الإذعان، والمحبة، والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم.

وكثيرًا ما يقرن بين الخلق والأمركما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وفي قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

٣١٢
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿١﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَذًا ﴿٢﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رَكْعًا ﴿٣﴾
سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ
لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ تَزِيلًا وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ أَمَلٌ ﴿٣﴾
الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿٤﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِنْ يُجْهَر بِالْقَوْلِ
فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى ﴿٧﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٨﴾ إِذْ رَأَى نَارًا
فَقَالَ لَأَهْلِي امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٩﴾ فَلَمَّا أَنَّنَا نَارُودَى يَمُوسَى ﴿١٠﴾
إِنِّي آنَأْتُكَ فَاتْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١١﴾

سَوَّيْتُ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنْهَاهُ يَنْزِلُ الْأَرْضُ يَنْهَاهُ ۝ وذلك أنه الخالق
الأمير الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق
إلزام، ولا أمر، ولا نهى إلا من خالقهم، وأيضًا فإن خلقه
للخلق، فيه التدبير القُدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي
الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئًا
عبثًا، فكذا لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل، وحكمة،
وإحسان.

فلما بين أنه الخالق المدير الأمر الناهي أخبر عن عظمته
وكبريائه، فقال:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها
وأوسعها ﴿أَسْتَوَى﴾ استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته
وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من مَلِكٍ وإنسي
وجني، وحيوان، وجماد، ونبات.

﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أي: الأرض، فالجميع ملك لله تعالى،
عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتديره، ليس لهم من
الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا

الصراف المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بياله.

﴿ظَنَّا أَنهَا﴾ أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها أي: ناداه الله كما قال: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ حَيْثُ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْتُهُ بَيْنَ﴾.

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ قَاتِلْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَكْرِ الْمُقَدَّرِ طَوِيُّ﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته ويهتم لذلك، ويلقي نعليه لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقديسه إلا أن الله اختاره لمناجاته كلمته موسى لكفى.

وقد قال كثير من المفسرين: «إن الله أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمار» فالله أعلم بذلك.

(١٣) ﴿وَأَنَا أَفْرَقْتُكَ﴾ أي: تخيرتك واصطقيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فَأَسْتَبِقْ لَنَا يَوْمَ﴾ أي: ألق سمعك للذي أوحى إليك فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبداه، وعماد الدعوة الإسلامية.

(١٤) ثم بين الذي يوحى إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله الذي لا شريك له، ولا مثل، ولا كفو، ولا سمي.

﴿فَاعْتَبِرْ﴾ بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلية في العبادة لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب، واللسان، والجوارح.

وقوله: ﴿يُذَكِّرُنِي﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك ليأي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِيمُ الصَّلَاةَ وَآتِي الصَّكَاةَ تَتَغَنَّى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

(١٥) ﴿إِنَّ السَّكَاةَ آيَةٌ﴾ أي: لا بد من وقوعها ﴿أَكَادُ أَخْيِي﴾ أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله

ولا حياة ولا نشوراً.

﴿وَأَن تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْخَفِي﴾ والكلام الخفي ﴿وَأَخْفَى﴾ من السر الذي في القلب، ولم ينطق به، أو السر ما خطر على القلب ﴿وَأَخْفَى﴾ ما لم يخطر، يعلم تعالى أنه يخطرفي وقته، وعلى صفته.

المعنى: أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها، وجليلها، خفيها، وظاهرها، فسواء جهرت بقولك أو أسررت، فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى.

فلما قرر كماله المطلق بعموم خلقه، وعموم أمره ونهيه، وعموم رحمته، وسعة عظمته، وعلوه على عرشه، وعموم ملكه، وعموم علمه نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والقطرة، وعبادة غيره باطلة، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل، والخوف والرجاء، والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها، وأعمها، وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتبع له بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

(٩-١٢) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ○ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلُ إِلَيْكُمْ مِنِّي يَتَوَقَّعُونَ ○ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى ○ فَلَمَّا أَنهَا نُورٌ يَبْشُرُونَ ○ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ قَاتِلْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَكْرِ الْمُقَدَّرِ طَوِيُّ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتضخيم لها: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ في حاله التي هي مبدأ سعادته ومنشأ نبوته، أنه رأى ناراً من بعيد، وكان قد ضل الطريق وأصابه البرد ولم يكن عنده ما يندفأ به في سفره.

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ﴾ أي: أبصرت ﴿نَارًا﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن.

﴿تَلْعَلُ إِلَيْكُمْ مِنِّي يَتَوَقَّعُونَ﴾ تصطلون به ﴿أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهديني الطريق، وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثمَّ النور المعنوي، نور الوحي الذي تستتير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية

تعالى: ﴿يَسْأَلُ النَّاسَ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فعلمها قد أخفاها عن الخلاق كلهم، فلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

والحكمة في إتيان الساعة ﴿يُتَجَرَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾ من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء ﴿يُتَجَرَّى الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَيْمَانًا وَعَبْرًا وَمَجَرَّى الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَيْمَانًا﴾.

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّخَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة والجزاء والعمل لذلك، من كان كافراً بها غير معتقد لوقوعها، يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقم من الشبه ما يقدر عليه، متبعاً في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاره اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئاً من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عن هذه حاله، لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسسته وتدجيله^(١)، وكون النفوس مجبولة على التشبه، والافتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك، وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان، وركن الدين، وإذا تمت تم أمر الدين، ونقصه أو فقدته بنقصها، أو نقص شيء منها، وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالشَّكِرَ مِنَ آمَانٍ وَاللَّهُ الْوَارِثُ الْأَخِيرُ وَعَجَلٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَتَرْدَى﴾ أي: تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد عنها وقوله تعالى:

(١٧-٢٣) ﴿وَمَا تِلْكَ يَسْمِينُكَ يَمْوَسَىٰ ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيِّ وَلِيٍّ فِيهَا مَتَارِبٌ أُخْرَىٰ ۖ قَالَ أَلَيْهَا يَمْوَسَىٰ ۖ قَالَ نَحْنُهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَىٰ ۖ وَلَا تَحْتَفُ سَمِيحُهَا سِيرَتُهَا الْأُولَىٰ ۖ وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَةً مِّنْ غَيْرِ سَوْءٍ أَيْةٌ أُخْرَىٰ ۖ لِيُؤَيِّدَكَ مِنَ الْكُفْرِ ۖ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ لِمَوْسَىٰ أَصْلَ الْإِيمَانِ، أَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَ لَهُ، وَيُرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ مَا يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ يَسْمِينُكَ يَمْوَسَىٰ﴾. هذا مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع أخرج الكلام بطريق الاستفهام.

وَأَنَا أَخْبَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿٢٠﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٢١﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّخَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿٢٣﴾ وَمَا تِلْكَ يَسْمِينُكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيِّ وَلِيٍّ فِيهَا مَتَارِبٌ أُخْرَىٰ ﴿٢٥﴾ قَالَ أَلَيْهَا يَمْوَسَىٰ ﴿٢٦﴾ قَالَ نَحْنُهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَحْتَفُ سَمِيحُهَا سِيرَتُهَا الْأُولَىٰ ﴿٢٨﴾ وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَةً مِّنْ غَيْرِ سَوْءٍ أَيْةٌ أُخْرَىٰ ﴿٢٩﴾ لِيُؤَيِّدَكَ مِنَ الْكُفْرِ ۖ ﴿٣٠﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٣٢﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣٣﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴿٣٤﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٣٥﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٣٦﴾ هَؤُلَاءِ أَخِي ﴿٣٧﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي ﴿٣٩﴾ كَيْ سَحَكُ كَثِيرًا ﴿٤٠﴾ وَتَذَكَّرْ لَهُ كَثِيرًا ﴿٤١﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَاصِرٍ ﴿٤٢﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٤٤﴾

فقال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيِّ﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة، ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه هش بها، أي: ضرب الشجر ليتساقط ورقة، فيرعاها الغنم.

هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيمة، والإحسان إليه، دل على عناية من الله له واصطفاه، وتخصيص تقضيه رحمة الله وحكمته. ﴿وَلِيٍّ فِيهَا مَتَارِبٌ أُخْرَىٰ﴾ أي: مقاصد ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجابه بعينها، ومنفعتها.

فقال الله له: ﴿أَلَيْهَا يَمْوَسَىٰ ۖ﴾ ﴿نَحْنُهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ (١) كذا في ب، وفي أ: وتدخيلة.

ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَتَوْ كُنْتُ فَقُلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَقْنَطُوا مِنْ حَوْلِي﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر واتسراحه عليهم.

﴿وَيَزِيدُ لِي تَأْمُرِي﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن يسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿وَأَحْتَلِّ عَقْدَةً بَيْنَ يَسَاسِي﴾ يعني قولتي وكان في لسانه نقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قاله المفسرون، كما قال الله عنه أنه قال: ﴿وَأُحْيِي هَكَذَا هُوَ أَفْصَحُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فسال الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول، فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ أي: معيّنًا^(١) يعاونني، ويؤازرنني، ويساعدني على أن أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله، لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هَذَرُونَ أَيْ﴾ أشدّ به أذى: أي: قوني به وشد به ظهري، قال الله: ﴿سَنَنْدُ عَصْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾.

﴿وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي﴾ أي: في النبوة، بأن تجعله نبيًا رسولًا، كما جعلتني.

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال: ﴿كَأَنِّي شَيْعَلٌ كَبِيرٌ﴾ وتذكرك كبيرًا، علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسال الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح، والتهايل، وغيره من أنواع العبادات.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَعِيرًا﴾ تعلم حالنا، وضعفنا، وعجزنا، وافقرنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمَن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

فقال الله: ﴿قَدْ أَوْفَيْتُ مُؤَلَّكَ بِمَقْصُودِكَ﴾ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَنْتَ بِنَا أَشْمًا وَمَنْ أَبْشَحْنَا أَلْعَلَّيُونَ﴾.

وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدل على كمال معرفته

انقلب ياذن الله ثعبانًا عظيمًا، فولى موسى هاربًا خائفًا، ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تخيل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

فقال الله لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي: ليس عليك منها بأس.

﴿سَتُعْجِزُكَ سِيرَتُهَا الْأُولَى﴾ أي: هيتها وصفها، إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيمانًا به وتسليمًا، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه، آية.

ثم ذكر الآية الأخرى فقال: ﴿وَأَسْتَمُ بِذَلِكَ إِلَيْ حَتَايِكَ﴾ أي: أدخل يدك في جيبك، وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان ﴿فَتَجَرَّ بَصَافَةً مِنْ غَيْرِ مَوِّهِ﴾ أي: بيضاء ساطعة، من غير عيب ولا برص ﴿وَأَيُّهُ لَأُتْرَى﴾ قال الله: ﴿فَتَذَكَّرُ بِهِنَا أَنْ يَنْزِلُكَ إِنْ رَعَوْكَ وَإِلَآئِهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيهَاتَ﴾.

﴿وَأُتْرَى مِنْ بَيْنَانَا الْكَبِيرِ﴾ أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى، الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتتق بوعده لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهانًا لمن أرسلت إليهم.

(٢٤-٣٦) ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ طَغِيًّا﴾ قال رَبِّ أُنزِلْ لِي صَدْرِي ﴿وَيَزِيدُ لِي تَأْمُرِي﴾ وَأَحْتَلِّ عَقْدَةً بَيْنَ يَسَاسِي ﴿يَقْنَطُوا قَوْلِي﴾ وَيَجْعَلُ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿هَذَرُونَ أَيْ﴾ أَشَدُّ بِهِ أَذًى ﴿وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي﴾ كَأَنِّي شَيْعَلٌ كَبِيرٌ ﴿وَتَذَكَّرُ كَبِيرًا﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَعِيرًا ﴿قَالَ قَدْ أَوْفَيْتُ مُؤَلَّكَ بِمَقْصُودِكَ﴾ لَمَّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى وَبَنَاهُ وَأَرَاهُ

الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر فقال: ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ طَغِيًّا﴾ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد، والعلو في الأرض، والفهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية - قبحه الله - أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة بالرسول، فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملًا عظيمًا، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد الذي ليس له

منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة، وتيسير الأسباب التي [هي]^(٢) من تمام الدعوة فقال:

﴿رَبِّ أُنزِلْ لِي صَدْرِي﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعل، ولا يتكدر قلبي بذلك ولا يضيئ صدري، فإن الصدر إذا ضاق لم يصلح صاحبه لهداية الخلق،

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في النسخين: عونا.

﴿وَلِصَنَعِ عَلَى عَيْنِي﴾ ولتربى على نظري وفي حفظي وكلاهما، وأي نظر وكفالة أجل وأكمل من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضار عنه؟! فلا يتنقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى.

ومن حسن تدبيره أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلت أمة قلقاً شديداً، وأصبح فؤاده فارغاً، وكادت تجرب به لولا أن الله ثبتها، وربط على قلبها.

ففي هذه الحالة حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون ماله إلى أمة يفرضه ويكون عندها مطمنة ساكنة قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثدياً، فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَتَاكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ يَثْرِبَ يَكْفُلُونَ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ يَنْصَحُوا﴾.

﴿فَرَجَعْتُكَ إِلَا إِلَيْكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنًا وَلَا تَحْزَنَ وَقُلْتُ نَفْسًا وَهُوَ الْقَبِيضِيُّ﴾ لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها وجد رجلين يقتتلان، واحد من شيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي ﴿فَأَسْتَنْتُهُ الْاَلَىٰ مِنْ شَيْعَتِي عَلَى الْاَلَىٰ مِنْ عَدُوِّي فَوَكَّرْتُ مَوْحِنَ فَحَقَّنَ عَلَيْهِ﴾ فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم قرأ هارياً لما سمع أن الملا طلبوه يريدون قتله.

فنجاه الله ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ من عقوبة الذنب، ومن القتل ﴿وَقُلْتُ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك وبلوناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك، أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

﴿فَلَبَّثْتَ بَيْنَ يَدَيْ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حين فر هارباً من فرعون وملئته، حين أرادوا قتله. فتوجه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْشِي﴾ أي: جئت مجيئاً قد مضى به القدر، وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمة موسى عليه السلام، ولهذا قال:

﴿وَأَصْلَحْتُكَ يَقِي﴾ أي: أجريت عليك صنائمي ونعمي، وحسن عواندي، وتربيته، لتكون لنفسك حبيباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغاً لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم.

وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبذل غاية جهده، ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك

بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد، والتكبر، والظنَّان^(١)، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام، على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح، يتمكن من التعبير به عن ما يريد ويقصده.

بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من الأزم ما يكون، لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق، وتزيينه بما يقدر عليه، ليحببه إلى النفوس، وإلى تقييح الباطل وتهجينه، ليفتر عنه.

ويحتاج مع ذلك أيضاً، أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلًّا بحسب حاله، وتماثل ذلك أن يكون لمن هذه صفته، أعوان ووزراء، يساعدونه على مطلوبه، لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور، فأعطياها.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

(٣٧-٤١) ﴿وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَلَّا يَزِيدِي فِي آثَابِي فَأَتَيْنِي فِي الْيَمِّ لَيْلِيهِ إِلَهُمُ بِالْجَانِبِ أَخَذَهُ عَدُوِّي يَدًا وَعَدُوِّي لَمْ يَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حِمَّةً يَنِي وَلِصَنَعِ عَلَى عَيْنِي ۖ إِذْ نَسِيتُ لَهْفُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُكَ فَرَجَعْتُكَ إِلَا إِلَيْكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنًا وَلَا تَحْزَنَ وَقُلْتُ نَفْسًا فَتَجِئَكَ مِنَ الْغَمِّ وَرَوَّكَ فُتُونًا فَلَبَّثْتَ بَيْنَ يَدَيْ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْشِي ۖ وَأَصْلَحْتُكَ يَقِي﴾ لما ذكر منته على عبده ورسوله موسى بن عمران، في الدين والوحي والرسالة وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه وقت التربة والتقلات في أطواره فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ حيث ألهمنا أمك أن تقذفك في التابوت وقت الرضاع خوفاً من فرعون، لأنه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمة وخافت عليه خوفاً شديداً فحذفته في التابوت، ثم قذفته في اليم، أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم أن يلقيه في الساحل وقبض أن يأخذه أعدى الأعداء لله وللموسى، ويترى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه.

ولهذا قال: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حِمَّةً يَنِي﴾ فكل من رآه أجه

الْقَوْلُ

٣١٤

الْقَوْلُ

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٤٨﴾ أَنْ أَقْرِضِيهِ فَاذْكُرِيهِ ۖ فَاذْكُرِيهِ
فِي الْمَرْفُوعِ قَالَتْ أَلَيْسَ لِي بِرَأْسِ الْخَيْلِ فَأَخَذَهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ ۖ وَالْقَيْتُ
عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِّنِّي وَلَصْنَعُ غُلَامِي ﴿٤٩﴾ إِذْ نَسِيتُ أَخْلَافَكَ
فَقُولْ هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ مِنْ يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنَهَا وَلَا خَازِنَ ۖ وَقُلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكْنَا فُتُونًا
فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ ﴿٥٠﴾
وَأَصْطَفَعْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٥١﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِأُنثَىٰ وَلَا نُبْنِي
فِي ذِكْرِي ﴿٥٢﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٥٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا
أَعْلَمَهُ ۖ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ ﴿٥٤﴾ فَلَا رَيْثًا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفِرَّطَ عَلَيْنَا
أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٥٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٥٦﴾
فَأَنبَايَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جَعَلْنَاكَ بِأَيْدِيهِمْ رَبًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَنِّي
أَكْذَبُ ﴿٥٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٥٨﴾ قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ إِنَّمَا يَمْوَسَّىٰ ﴿٥٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٦١﴾

وَأَرَىٰ ﴿٦٢﴾ أي: أننا بحفظي ورعايتي، أسمع أقوالكم، وأرى
جميع أحوالكم، فلا تخافا منه، فزال الخوف عنهما،
وأطمأنت قلوبهما بوعدهما.

(٤٨، ٤٧) ﴿٤٨﴾ فَأَنبَايَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جَعَلْنَاكَ بِأَيْدِيهِمْ رَبًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَنِّي أَكْذَبُ ۖ
إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٩﴾ أي: فأنباي
بهذين الأمرين، دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب
الشريف، بني إسرائيل، من قيده وتعبه لهم، ليحرروا
ويملكوا أمرهم، ويقم فيهم موسى شرع الله ودينه.

﴿٥٠﴾ قَدْ جَعَلْنَاكَ بِأَيْدِيهِمْ رَبًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَنِّي أَكْذَبُ ۖ
ثُمَّ هَدَىٰ ۖ وَرَجَّعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْتُهَا لِلْمُطَهَّرِينَ ﴿٥١﴾ إلى آخر ما ذكر
الله عنهما.

﴿٥٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَنِّي أَكْذَبُ ﴿٥٣﴾ أي: من اتبع الصراط
المستقيم، واهتدى بالشرع المبين، حصلت له السلامة في
الدنيا والآخرة.

﴿٥٤﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا ﴿٥٥﴾ أي: خبر من عند الله، لا من عند
أنفسنا ﴿٥٦﴾ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٥٧﴾ أي: كذب بأخبار الله

بصانع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراد
نفسه، واصطفاه من خلقه!!!

(٤٢-٤٦) ﴿٤٦﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْكُ وَبَاتِي وَلَا نُبْنِي فِي ذِكْرِي ۖ
أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا أَعْلَمَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ ۖ
فَلَا رَيْثًا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفِرَّطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ۖ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي
مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٧﴾ لما امتن الله على موسى بما امتن به من
النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿٤٨﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْكُ ۖ هَارُونَ
﴿٤٩﴾ أي: الآيات التي مني الدالة على الحق وحسنه،
وقبح الباطل، كالد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى
فروع وميله.

﴿٥٠﴾ وَلَا نُبْنِي فِي ذِكْرِي ﴿٥١﴾ أي: لا تفترأ، ولا تكسلا عن مداومة
ذكرى بل استمرأ عليه، والزما كما وعدتما بذلك ﴿٥٢﴾ كُنْ سَمِيحًا
كَبِيرًا ۖ وَتَذَكَّرْ كَبِيرًا ﴿٥٣﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع
الأمر، يسهلها ويخفف حملها.

﴿٥٤﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٥٥﴾ أي: جاوز الحد في كفره
وطغيانه، وظلمه وعدوانه.

﴿٥٦﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا ﴿٥٧﴾ أي: سهلاً لطيفاً، برفق ولين وأدب في
اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو
فظاظة في الأعمال.

﴿٥٨﴾ بِسَبِّ الْقَوْلِ اللَّيْنِ ﴿٥٩﴾ يَتَذَكَّرُ ﴿٦٠﴾ ما ينفعه فيأتيه ﴿٦١﴾
يَحْشَىٰ ﴿٦٢﴾ ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول
الغلظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿٦٣﴾ نَقُلْ
هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا نَرْوِي ۖ وَآفِيدُكَ إِلَىٰ رَبِّكَ تَخَشُّنٌ ﴿٦٤﴾ فإن في هذا الكلام
من لطف القول، وسهولته، وعدم بشاعته، ما لا يخفى على
المتأمل، فإنه أتى به لعل الدالة على العرض والمشاورة التي
لا يشتم منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأذناس
التي أصلها التطهر عن الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم،
ولم يقل: ﴿أزيك﴾ بل قال: ﴿تركي﴾ أنت بنفسك.

ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه، وأنعم عليه بالنعم
الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها، وذكرها
فقال: ﴿٦٥﴾ وَآفِيدُكَ إِلَىٰ رَبِّكَ تَخَشُّنٌ ﴿٦٦﴾ فلما لم يقبل هذا الكلام اللين
الذي يأخذ حسنه بالقلوب، علم أنه لا ينفع فيه تذكير، فأخذه
الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٦٧﴾ فَلَا رَيْثًا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفِرَّطَ عَلَيْنَا ﴿٦٨﴾ أي: يبادرنا بالعقوبة
والإيقاع بنا قبل أن نبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة ﴿٦٩﴾ أَوْ أَنْ
يَطْغَىٰ ﴿٧٠﴾ أي: يتمرد عن الحق ويطنى بملكه، وسلطانه،
وجنده، وأعوانه.

﴿٧١﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ أَنْ يُفِرَّطَ عَلَيْنَا ﴿٧٢﴾ إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ

كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناها، قد تحققت صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدل بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيته غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلاً ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدوا مع استبقانها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنًا وَبَيْنَهُنَّ فُتًى فَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض.

ثم استطرد في هذا الدليل القاطع بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشاً بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للزادراع وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها ممتعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: فخذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان آدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتنعمون بأسفارهم أكثر مما يتنعمون بإقامتهم.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتِ شَيْءٍ﴾ أي: أنزل المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وأنبث بذلك جميع أصناف النواتب على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان.

ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النواتب الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضراً، كالسموم ونحوه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله، وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتمايم عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحبي الموتى.

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المتفعمون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة

وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم ينف فيه هذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربه وكفر، وجادل في ذلك ظلمًا وعنادًا.

(٤٩-٥٥) ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يُتَوَكَّنُ ۖ قَالُوا رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۖ قَالُوا مَا بَالُ الْفُرُوقِ الْأُولَىٰ ۖ قَالَ عَلَّمَهَا بَعْدَ رَبِّ فِي كِتَابٍ لَا يَبْدُلُ رَبِّي وَلَا يُنْسَىٰ ۖ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتِ شَيْءٍ ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن نَّارٍ لَّعَيْنَةٍ وَمِنْ نَّارٍ أُخْرَىٰ ۖ أَي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فَمَنْ رَّبُّكُمْ يُتَوَكَّنُ﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة^(١) المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن^(٢) به من ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، فالذي خلق المخلوقات، وأعطاهما خلقها الحسن الذي لا تقتصر العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجوداً، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومه ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك.

ولهذا لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع، عدل إلى المشايغة وحاد عن المقصود، فقال لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْفُرُوقِ الْأُولَىٰ﴾، أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟.

فقال موسى: ﴿عَلَّمَهَا بَعْدَ رَبِّ فِي كِتَابٍ لَا يَبْدُلُ رَبِّي وَلَا يُنْسَىٰ﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فذلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فإن

(١) في ب: الكلمة. (٢) كذا في ب، وفي أ: ما يتمكن.

على حقائنها، ما لا يحصل في غيره.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه علماً مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملا، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع وقالوا للناس: ﴿هَلْ أَنتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ۚ لَقَدْ نَجَّيْنَا آلَ مَرْيَمَ إِذْ نَاوَتْهُمُ الْقَتْلَيْنِ﴾.

فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿وَلَيْسَ لَكُمْ تَقْوَرًا عَلَىٰ أَنَّهُ كَذِبًا يُفْسِدُكُمْ بَعَلًا﴾ أي: لا تنصروا ما أتم عليه من الباطل بسحركم وتغاليون الحق، وتفترون على الله الكذب فيستأصلكم بعباد من عنده، ويخيب سعيكم وإفراءكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله.

وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة، لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن ما تم أمرهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿لِيَهْلِكَ مِمَّنْ هَلَكَ عَنْ يَمِينٍ وَيَسَارٍ مِّنْ مَّوَدِّعَاتِ يَمِينٍ﴾، فيحتد أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعلاتهم، وليتمسك الناس بدينهم.

والنجوى التي أسروها فسرهما بقوله: ﴿قَالُوا إِن هَٰذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَن يَخْرُجَ أَكْثَرَكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقياً منه لهم مقالة التي صمم عليها، وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَيَذَّهَبُ بِطَرَفَيْكُمْ أَنْتُمْ﴾ أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم الذي أشغلتهم زمانكم فيه ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض، على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا:

﴿فَاجْتَمَعُوا كَيْدَهُمْ﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة، متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم.

البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسادهم معرضة ﴿وَكَايْنِ يَنَآيَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْوُتُ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها ياذن ربها تخرج النبات المختلف الأنواع - أخبر أنه خلقنا منها، وفيها بعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من عدم، وقد علمنا ذلك، وتحققنا، فسيعدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحيان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

(٥٦-٦١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا كُلَّآ فُكَّذَّبَ وَإِن ۖ قَالَ أَجُتَنَّا بِسِحْرِي مِّنْ أَرْضٍآ يَسْحَرُكِي يَسْخَرُونَ ۖ فَلَنَأَيُّنَّكَ بِسِحْرِي مَثَلٍ ۚ فَلْيَمْلِكْ يَتَنَّا وَيَتَنَّا مَوْجِدًا لَّا تُخْلِفُهُمْ عَنْ وَلَا أَتَمَّ مَكَا سُوَى ۚ قَالَ مَوْجِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ سُحَى ۚ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ۚ قَالَ لَهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَيَتَنَّا لَآ تَقْرَأُوا عَلَىٰ أَنَّهُ كَذِبًا فُسِّحُكُمْ بَعَلًا ۚ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۚ يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع، جميع أنواعها العينية، والأفعية والنفسية، فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى.

كذب الخبر، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وجادل بالباطل، ليضل الناس فقال: ﴿أَجُتَنَّا بِسِحْرِي مِّنْ أَرْضٍآ يَسْحَرُكِي﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى، سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليعجزوه، ويسعوا في محاربته، فلناتيك بسحر مثل سحرك فأملنا، واجعل لنا ﴿مَوْجِدًا لَّا تُخْلِفُهُمْ عَنْ وَلَا أَتَمَّ مَكَا سُوَى﴾ أي: مستر علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوراً معتدلاً ليعتمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: ﴿مَوْجِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو عيدهم، الذي يفرغون فيه ويقطعون شواغلهم.

﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ سُحَى﴾ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه، يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء

قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٦﴾
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ ثَبَاتٍ شَقَى ﴿٥٧﴾ كَلُوا
 وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٥٨﴾ مِنهَا
 خَلَقْنَكُمْ وَمِفْهَا نَعِيدُكُمْ وَمِفْهَا نَخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا نُوحًا لِّكُلِّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٦٠﴾ قَالَ أَهْبِثْنَا لِنَخْرِجَنَا
 مِّنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُ يَمْوَسَى ﴿٦١﴾ فَلَمَّا نَبَتْكَ بِسِحْرِ مَثَلِهِ
 فَاجْعَلْ يَدَيْنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفُهُ وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا
 سَوًى ﴿٦٢﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخْشِرَ النَّاسُ ضَحِيَّ
 ﴿٦٣﴾ فَقَوْلُ فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٤﴾ قَالَ لَهُمْ
 مُوسَى وَيَلَكُمْ لَاقِعُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ
 وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦٥﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا
 النَّجْوَى ﴿٦٦﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ بِرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
 مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمْ الْمَمَاتِ ﴿٦٧﴾ فَأَجْمَعُوا
 كَيْدَهُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٨﴾

المكر منه، وظنوه صدقاً ﴿٦٨﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٦٩﴾.

مع أن هذه المقالة التي قالها، لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من مدين وحيداً، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى، ففسي ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليهم، فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان، فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبوا هم وموسى، واتفقوا على ما صدر؟ هذا من أمحل المحال.

ثم تودع فرعون السحرة فقال: ﴿فَلَا تَطْعَمُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ جَنْبِي﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد، بقطع يده اليمنى، ورجله اليسرى.

﴿وَأَصْلَيْتُكُمْ فِي جُذُعِ النَّخْلِ﴾ أي: لأجل أن تشتهروا وتختزوا.

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا﴾ ليكون أمكن لعمليكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفاتح، فهذا يوم له ما بعده من الأيام.

فله ذرهم ما أصلبهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث اتوا بكل سبب، ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا أَن تَقُولَ﴾ عَصَاكَ ﴿وَلَيْتَا أَن نَّكُونَ أَكْثَرُ مَنَ الْفَنَى﴾ خيروه، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه، بأي حالة كانت.

فقال لهم موسى: ﴿يَلِ الْقَوْمُ﴾ فالتفوا حبالهم وعصيمهم ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِجَبَلٍ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمُ﴾ البليغ ﴿لَئِنَّا تَفَى﴾ أي: أنها حيات تسعى فلما خيل إلى موسى ذلك ﴿أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ جِئَةً مَّوَسَى﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره.

﴿فَقَالَا لَهُ تَبَيَّنَا وَتَطْمَئِنَّا﴾ ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَافِلُ﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويدلوا لك ويخضعوا. ﴿وَأَلْقَى مَا فِي بَيْتِكَ﴾ أي: عصاك ﴿لَتَلْفَ مَا سَتَرْنَا إِنَّنَا سَتَرُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ أي: كيدهم ومكرهم ليس بشمر لهم، ولا ناجح فإنه من كيد السحرة الذين يمهون على الناس، ويلبسون الباطل ويخيلون أنهم على الحق، فالتقى موسى عصاه، فتلقت ما صنعوا كله، وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع.

فعلم السحرة علماً يقيناً، أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ﴾ ﴿قَالُوا مَاذَا يَرِيكَ الْكَافِرِينَ﴾ رَبِّ مَوْسَى وَفِرْعَوْنَ فوق الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم.

فصارت بيته ورحمة للمؤمنين، وحجة على المعاندين ف ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: ﴿مَا سَأَمْتُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُم مَّا كَدَّ كُفُّكُمْ﴾ أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟.

استغرب ذلك منهم، لأذبههم معه، وذلههم، وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذلك، ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان، واستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة، ومكروا، ودبوا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا

سورة طه

٣١٦

سورة طه

قَالُوا يَمْوَسِىَ اِيْمَانًا تَلْفِيْ وَ اِيْمَانًا تَكُوْنُ اَوَّلَ مَنْ اَلْفَى ۖ قَالَ
 بَلْ اَلْقَوُا فَاِذَا جَا هُمْ وَصَصِيْهُمْ مُّخِلَ الْيَوْمِ مِنْ سِيَرِهِمْ اَنَّهُمْ
 ۞ فَاَوْحَسَ فِيْ نَفْسِهِ خِيفَةُ مُّوسَى ۚ فَلَمَّا لَا تَخَفْ اِنَّكَ
 اَنْتَ الْاَعْلَى ۞ وَالَّذِيْ مَآى بِعَيْنِكَ تَلَقَّفَ مَا صَبَعُوا اِيْمَانُ صَبَعُوا
 كَيْدُ سِحْرِ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ اَتَى ۚ فَاَلْفَى السَّحْرَةَ مُّجِدًّا
 قَالُوا اَمْ اَنْتَ اَبْرَهْمُ هَرُونَ وَمُوسَى ۚ قَالَ اَمْ اَنْتُمْ لَمْ تَقْبَلُوْا اَنْ اَدْنِ
 لَكُمْ اِنَّكُمْ لَكَبِيْرُكُمْ الَّذِيْ عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَا تُفْقِعْ اَيْدِيَكُمْ
 وَارْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَكُمْ فِيْ جُدُوعِ السَّحْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ
 اِيْنَا اَشَدُّ عَذَابًا وَّاَبْقَى ۚ قَالُوا اَلَنْ تُؤْفَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ
 الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِيْ فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا اَنْتَ قَاضٍ اِنَّمَا نَقْضِيْ هٰذِهِ
 الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ۚ اِنَّمَا اَمْثَارُ نَارٍ لَا تَغِيْرُ لَنَا خَطِيْئَتُنَا وَمَا اَكْرَهْتَنَا
 عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَّاَبْقَى ۚ اِنَّهُمْ مِنْ بَآئِ رِبِّهِمْ بَجْرمًا
 فَاَنْ لَّهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيْهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ وَمَنْ يَأْتِيْهِ مُّؤْمِنًا قَدْ
 عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَارْتَبِكْ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۚ جَنَّتٌ عَدْنٍ
 تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا وَاُولٰٓئِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ۚ

فعل ذلك، ولم يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم بوقوعه
 أو عدمه يتوقف على الدليل، والله أعلم بذلك وغيره، ولكن
 توعدنا بإياه بذلك مع اقتداره دليل على وقوعه، ولأنه لو لم
 يقع لذكره الله، ولاتفاق الناقلين على ذلك.

(٧٤-٧٦) ۞ اِنَّهُمْ مِنْ بَآئِ رِبِّهِمْ بَجْرمًا فَلَمْ يَمُوتْ فِيْهَا
 وَلَا يَحْيَىٰ ۚ وَمَنْ يَأْتِيْهِ مُّؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَارْتَبِكْ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ
 الْعُلَىٰ ۚ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا وَاُولٰٓئِكَ جَزَاءُ مَنْ
 تَزَكَّىٰ ۚ يخبر تعالى أن من أتاه وقدم عليه مجرمًا - أي: وصفه
 الجرم من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر على ذلك
 حتى مات، فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمة
 أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من
 العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب
 فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة
 يتلذذ بها، وإنما حياته، محشوة بعذاب القلب، والروح،
 والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفر عنه ساعة، يستغيث فلا
 يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم إذا استغاث أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإن

﴿وَلَنَعْلَمَنَّ اِيْنَا اَشَدُّ عَذَابًا وَّاَبْقَى﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه
 أشد عذابًا من الله وأبقى، قلبًا للحقائق، وترهيبًا لمن لا عقل
 له.

ولهذا لما عرف السحرة الحق، ورزقهم الله من العقل ما
 يدركون به الحقائق، أجابوه بقولهم: ﴿اَلَنْ تُؤْفَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا
 مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نشارك وما وعدتنا به من الأجر
 والتقريب، على ما أرانا الله من الآيات البينات الدلالات على
 أن الله هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن
 ما سواه باطل، ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون
 ﴿فَاقْضِ مَا اَنْتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به، من القطع، والصلب،
 والعذاب.

﴿اِنَّمَا نَقْضِيْ هٰذِهِ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما توعدنا به غاية ما
 يكون في هذه الحياة الدنيا، ينقضي ويؤول ولا يضرنا،
 بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره، فإنه دائم عظيم.
 وهذا كأنه جواب منهم لقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ اِيْنَا اَشَدُّ عَذَابًا
 وَّاَبْقَى﴾ وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل
 أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة، وبين عذاب الدنيا
 وعذاب الآخرة.

﴿اِنَّمَا اَمْثَارُ نَارٍ لَا تَغِيْرُ لَنَا خَطِيْئَتُنَا﴾ أي: كفرنا ومعاصينا، فإن
 الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها.

وقولهم: ﴿وَمَا اَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ الذي عارضنا به
 الحق، هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم،
 وإنما أكرههم فرعون إكراهًا.

والظاهر - والله أعلم - أن موسى لما وعظهم كما تقدم في
 قوله: ﴿وَيَلْعَنُ لَكُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَرَكُم بِعَذَابٍ﴾ أثر
 معهم، ووقع منهم موقفًا كبيرًا، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام
 والموعظة، ثم إن فرعون ألزهم ذلك، وأكرههم على المكر
 الذي أجروه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم، حيث
 قالوا: ﴿اِنَّ هٰذَيْنِ لَسٰحِرٰنِ يٰرَبَّنَا اَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ اَرْضِكَ
 بِسِحْرِهِمَا﴾ فجروا على ما سئلهم، وأكرههم عليه.

ولعل هذه النكتة التي قامت بقلوبهم، من كراهتهم
 لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغاض،
 هي التي أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها، ووقفهم للإيمان
 والتوبة ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ مما وعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه
 ﴿وَّاَبْقَى﴾ ثوابًا وإحسانًا، لا ما يقول فرعون: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ اِيْنَا اَشَدُّ
 عَذَابًا وَّاَبْقَى﴾ يريد أنه أشد عذابًا وأبقى، وجميع ما أتى من
 قصص موسى مع فرعون، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة
 السحرة، أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب، ولم يذكر أنه

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣١٧

سُورَةُ طه

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا
 فِي الْبَحْرِ يَسًّا لَّا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتَيْنَهُمْ فَرَعُونُ
 بِجُنُودِهِمْ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَصْلَ فَرَعُونَ قَوْمَهُ
 وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ
 جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا
 مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي
 وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لَّنَّابٍ
 وَعَافٍ مَّنْ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَتَعَجَّلَكَ عَنْ
 قَوْلِكَ بِمُوسَى قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتَرَىٰ وَعَجَّلْتُ إِلَيْكَ
 رَبِّ لِرَبِّنِي قَالِ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
 السَّامِرِيُّ ﴿٨٣﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيسَفًا قَالَ
 يَفْقَهُوهُ الْيَمُّ يَبْعِدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ
 الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَخَلَفْتُمُ
 مَّوْعِدِي ﴿٨٤﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا
 أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَّاكَ بِذَلِكَ الْتَمَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾

الطرق ويسارها، وأيس الله طريقهم التي انفرق عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر فسلخوا في تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده، فسلخوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر، فالتطم عليهم، وغشيه من اليم ما غشيه، وغرقوا كلهم، ولم ينج منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه^(٣).

وهذا عقابة الكفر والضلال، وعدم الاهتداء بهدى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصْلَ فَرَعُونَ قَوْمَهُ﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه بإيهم، وما هذاهم في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغي والضلال، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال.

(٨٠-٨٢) ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل، ويبدو أنها مشطوبة في أ.
 (٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة. (٣) كذا في ب، وفي أ: بهلاكهم.

دعا أجيب ب ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُوا﴾ ومن يأت ربه مؤمنا به مصدقا لرسله، متبعا لكتبه ﴿قَدْ عَلِمَ الْغَالِبُ﴾ الواجبة والمستحبة ﴿فَأَتَيْنَكَ هُمُ الدَّرَجَاتُ الثَّلَاثُ﴾ أي: المنازل العالية، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَذَلِكِ﴾ الثواب، ﴿جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر، والفسوق، والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضا نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة لهذهين الأمرين.

(٧٧-٧٩) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَسًّا لَّا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ فَأَتَيْنَهُمْ فَرَعُونُ بِجُنُودِهِمْ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَصْلَ فَرَعُونَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعبر ما قصه الله علينا في القرآن.

وبنو إسرائيل لا يقدرُونَ أن يظهروا إيمانهم ويعلمونه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض، ليعبدوه جهرا، ويقبموا أمره.

فأوحى إلى نبيه موسى^(١)، أن يبرأ أو سيروا أول الليل، ليتبادوا^(٢) في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل، هم ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا موجب، فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المداين من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل، ليوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فصار بهم يتبع بني إسرائيل ﴿فَأَتَيْنَهُمْ مُّثْرِيقًا﴾ ٥ فَلَئِمَّا تَرَوْهُ كَتَبْنَا فِي الْكَتَابِ مَا نَحْنُ بِفَاعِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَقَلِّفُوا خَافُوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظا وحنقا، وموسى مطمئن القلب، ساكن البال، قد وثق بوعد ربه فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفرك اثني عشر طريقا، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين

بعشر، فلما تم الميقات بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعود شوقاً لربه، وحرصاً على موعوده، فقال الله له: ﴿وَمَا أَصْعَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟ قال: ﴿هُمْ أَوْلَاهُ عَلَيَّ أَثَرِي﴾ أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عجلني إليك يا رب طلب لقربك، ومساعدة في رضاك، وشوق إليك.

فقال الله له: ﴿فَإِنَّا قَدْ خَوَّلْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: بعبادتهم للعجل، ابتليانهم، واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا ﴿وَأَسْلَمُوا لَأَثَرِي﴾.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً﴾ وصاغه فصار ﴿لَهُمْ حُورًا فَقَالُوا﴾ لهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى﴾ ففسه موسى، فافتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، ونهاهم هارون فلم ينتهوا.

فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف، أي: ممتلئ غيظاً وحقاً وغماً، قال لهم موبخاً ومبيحاً لفعلهم: ﴿يَقُولُ أَلَمْ يَبَدِّكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَاً حَسَناً﴾ وذلك بإنزال التوراة.

﴿أَفَطَّلَ عَلَيْكُمْ الْهَٰدِيَ﴾ أي: المدة، فطاولتم غيبي وهي مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أطفال عليكم عهد النبوة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست آثارها، فلم تقفوا منها على خير، فانمحت آثارها لبعد العهد بها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل، وعدم العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول؟ أم أردتم بفعلكم أن يحل عليكم غضب من ربكم؟ أي: فترضتم لأسبابه واقترحتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع.

﴿فَأَخْلَقْتُمْ ثَوْبِي﴾ حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائباً، ولم تحترموا حاضراً.

(٨٧-٨٩) ﴿قَالُوا مَا أَتَيْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكَةٍ لَّيْكِنَّا جَمِلاً أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلَّى النَّاسِي﴾ فآخَرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُمْ حُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى قَتَلَى ○ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ رَجْعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ○ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمدنا، وملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك، أننا تأثنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا - فيما يذكرون - استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم، وألقوه، وجمعوه حين ذهب موسى، ليراجعوه فيه، إذا رجع.

وكان السامري قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء حيي، فنته وامتنحاناً، فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة

الشَّوْرِ الْأَمِينِ وَزَلَّنا عَلَيْكُمُ النَّمَ وَالنَّاسِي ○ كَلُوا مِنْ مَّيِّتَةٍ مَا رَزَقْتَكُمْ وَلَا تَلْعَلُوا فِيهِ قَيْصَلٌ عَلَيْكُمُ عَصِيٍّ وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ عَصِيٍّ فَقَدْ هَوَى ○ وَإِنِّي لَقَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى

يُذَكِّرُ تعالى بني إسرائيل بنبأ العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعيده لموسى عليه السلام بجانب الطور الأمين، لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة، والأخبار الجميلة، فتمت عليهم النعمة الدينية، بعد النعمة الدنيوية، ويذكر مته أيضاً عليهم في التيه، بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني، الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم:

﴿كَلُوا مِنْ مَّيِّتَةٍ مَا رَزَقْتُمْ﴾ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم ﴿وَلَا تَلْعَلُوا فِيهِ﴾ أي: في رزقه، فتستعملونه في معاصيه، وتبطرون النعمة، فإنكم إن فعلتم ذلك، حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم، ثم عذبتكم.

﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ عَصِيٍّ فَقَدْ هَوَى﴾ أي: ردى وهلك، وخاب وخسر، لأنه عَدِمَ الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

ومع هذا فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلماذا قال: ﴿وَإِنِّي لَقَفَّارٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لمن تاب من الكفر والبدة والفسوق، وآمن بالله وملأنته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان.

﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء، فإن التوبة تَجِبُ ما قبلها، والإيمان والإسلام، يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر، أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفورات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

(٨٣-٨٦) ﴿وَمَا أَصْعَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ○ قَالَ هُمْ أَوْلَاهُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ○ قَالَ فَإِنَّا قَدْ خَوَّلْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَسْلَمُوا لَأَثَرِي ○ فَرَفَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ عَصْبَيْنِ أَيْضاً قَالَ يَبْقَوُا آلَمْ يَبَدِّكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَاً حَسَناً أَطَّلَعَ عَلَيْكُمْ الْهَٰدِيَ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمُ عَصَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ ثَوْبِي﴾ كان الله تعالى قد واعد موسى أن يأتيه، لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتها

﴿طه﴾

٣١٨

﴿طه﴾

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُهُمْ وَإِلَهُهُمُ مُوسَىٰ فَفَتَنَّا ۖ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٩٠﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩١﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩٢﴾ قَالُوا نَهْنَرُهُمْ فَمَنْعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٣﴾ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٤﴾ قَالُوا بَلَىٰ نَحْنُ أَكْثَرُ عِلْمًا ۖ وَنَحْنُ أَقْبَلُ إِلَىٰ خَشِيئَتِهِ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿٩٥﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمرُ ﴿٩٦﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ۖ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٧﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا آلَهُ لَدُنِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُسَبِّحُ كُلَّ نَفَسٍ وَعِلْمًا ﴿٩٩﴾

وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۖ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٨﴾ أَي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟

فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه، فنبذتها على العجل ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان.

فقال له موسى: ﴿فَادْهَبْ﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسسه غيره، وأجرى ما لم يجزه أحد. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ فنجازي بعملك، من خير وشر. ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: العجل ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ففعل موسى ذلك، فلو

عجل، فتحرك العجل، وصار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو ههنا، فنيه، وهذا من بلادهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جمادًا، فظنوه إله الأرض والسموات. ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أن العجل لا ﴿يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، فالعادم للكمال والكلام والفعال، لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدرُونَ على بعض الأشياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

(٩٠-٩٤) ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ قالوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالُوا نَهْنَرُهُمْ فَمَنْعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالُوا بَلَىٰ نَحْنُ أَكْثَرُ عِلْمًا ۖ وَنَحْنُ أَقْبَلُ إِلَىٰ خَشِيئَتِهِ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ أَي: إن اتخاذهم العجل، ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته، فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربهم الرحمن، الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم، وأنه أمرهم أن يتبعوه، ويمتثلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

فأقبل موسى على أخيه لاثما له وقال: ﴿يَهْنَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ألا تَتَّبِعُنَّ؟ فتخبرني لآباد للرجوع إليهم؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ في قولي: ﴿اَتَّقُوا اللَّهَ فِي قَوْمِي وَأَمْلِكُوا وَلَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يجره من الغضب والعتب عليه، فقال هارون: ﴿يَبْذُرُونَ﴾ ترقيق له، وإلا فهو شقيقه ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ إني خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي.

فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك لترك ما أمرتني بلزومه وخشيته لامتلك، و ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء.

فقدم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق لذلك ف ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَلَدِنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ثم أقبل على السامري.

(٩٥-٩٧) ف ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمرُ﴾ قال بصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ۖ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣١٩

بِسْمِ اللَّهِ

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَأْتَسَبٍ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٠٥﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٦﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٨﴾ يَخْفَتُونَ مِنْهُمْ إِنْ لَبِثُوا إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٩﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثُوا إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٠﴾ وَنَسْأَلُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١١١﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١٢﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلًا وَلَا أَمْتًا ﴿١١٣﴾ يَوْمَئِذٍ يَبْعَثُ الدَّاعِيَ لِأَعْوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١١٤﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١١٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ. ﴿١١٦﴾ عَلِمْنَا مَا يَلِيهِ الْغَیْبُ وَنَحْنُ أَكْبَرُ ﴿١١٧﴾ وَعَنْتِ الْأَوْصَاءُ لِلْهِ الْقُيُومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٩﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٢٠﴾

العبادة.

مع قوله ﷺ: «الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»، فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما نقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسيحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه وموثبه.

وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجلَّ من غيَّب عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه، طريقة عين. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق، إلا إذا أذن في الشفاعة^(١)، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، فإذا اختل واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلى شفاعته من أحد.

ويتقسم الناس في ذلك الموقف قسمين: ظالمين بكفرهم

استوائها ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة، فبرزت الأرض، وتسع للخلائق ويمدها الله مدَّ الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمهم الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَبْعَثُ الدَّاعِيَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم، ويقومون منها، يدعومهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة.

وقوله: ﴿لَا عِجَّ لَهُ﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقًا وصدقًا لجميع الخلق، يسمهم جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافاة سرًا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون، والإنصات، انتظارًا لحكم الرحمن فيهم، وتغنو وجوههم أي: تذل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيه ﴿لِكُلِّ نَرِي يَنْتَهِي بِمَنْزِلِهِ شَأْنًا يَنْتَهِي﴾ فحينئذ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار.

ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه [فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة]^(١)، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما تعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصًا في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ مع قوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ عَلَى الرَّحْمَنِ﴾ مع قوله ﷺ: «إن الله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرهما عن ولدها، خشية أن تطأه، - أي - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: إلا من أذن له في الشفاعة.

لَتَعْبَلَ بِوَجْهِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قُرَأْنَهُ فَانْفِصْ ۝ فَانْفِصْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا مَصَافَهُ ۝

ولما كانت عجلته ﷺ على تَلَفُّفِ الوحي ومبادرته إليه تدلُّ^(١) على محبته التامة للعلم، وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد، والشوق للعلم، وسؤال الله، والاستعانة به، والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأني ويصبر، حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه، المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال، وقطع كلام مُلقِي العلم، فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسؤول، ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ نَزَلِ الْفَيْصِ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾
 أي: ولقد وعهنا آدم، وأمرنا، وعهدنا إليه عهداً ليقوم به،
 فالتزمه، وأذن له، وانقاد، وعزم على القيام به ومع ذلك
 نسي ما أمر به، وانقضت عزيمته المحكمه، فجرى عليه ما
 جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طابعهم مثل طبيعته،
 نسي آدم فنسيت ذريته، وخطيء فخطئوا، ولم يثبت على العزم
 المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقرّ بها
 واعترف، فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم. ثم ذكر تفصيل
 ما أحمله فقال:

(١١٦-١١٧) ﴿وَلَوْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۖ قُلْنَا يَكَادُ إِذْ هَذَا عَدُوُّكَ وَلَا تَرْجِعْ وَلَا تَنْصَحِي ۖ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَكَادُ هَلْ أَتُكَ عَلَى شَجَرَةٍ ظِلَالٍ وَمَنْ لِي لَا بَيْنَ ۖ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَبَفِقَا بَيْعُمَا عِلْمًا مِنْ وَرَقِ الْجَنْدِ وَصَوَّى مَادَّ رِيحٌ فَفُؤِي ۖ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَابَّ عَلَيْهِ وَهَدَى ۖ أَي: لما أكمل الملائكة بالسجود له إكرامًا وتعظيمًا وإجلالًا، فبادروا بالسجود ممثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال:

(١) في النسختين : بدل .

وشرهم، فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان، والعذاب الأليم في جهنم، وسخط الديان.

والقسم الثاني: من آمن بالإيمان المأمور به، وعمل صالحاً من واجب ومسنون ﴿فَلَا تَخَافُ عُقْبًا﴾ أي: زيادة في سيئاته ﴿وَلَا هِزْماً﴾ أي: نقصاً من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً﴾.

(١١٣) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْشِرُونَ لَهُمْ يَوْمَ يَكُونُ الْأُولَى﴾ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب، باللسان الفاضل العربي الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه، ولا معناه.

﴿وَمَرَقْنَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: نوَّعناها أنواعاً كثيرة، تارة يذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة يذكر المثلثات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة يذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب، وتارة يذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات، والمقلقات، وتارة يذكر جهنم، وما فيها من أنواع العقاب، وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد، لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عريياً، وكونه مصرفاً فيه [من] الوعيد، أكبر سبب، وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح، فلو كان غير عريي أو غير مصرف فيه، لم يكن له هذا الأثر.

(١١٤) ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ وَلَا تَجْعَلْ لِقَوْمِهِمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مَقَاصِدَ لِكَيْ لَا يَكْفُرَ بِهِ أُولَئِكَ وَلَكِنَّهُمْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَاءَ﴾^١ ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ﴾ لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عباده، وحكمه الأمري الديني، الذي أنزله في كتابه وكان هذا من آثار ملكه قال: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ﴾ أي: جلّ وارتفع، وتقدس عن كل نقص وأفة ﴿الْمَلِكُ﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم ممالك له، وأحكام الملك القدريّة والشرعية نافذة فيهم ﴿الْحَقُّ﴾ أي: وجوده، وملكه، وكماله، حق، صفات الكمال، لا تكون حقيقة، إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات، على بعض الأشياء، فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب، فلا يزال ولا يزول ملكاً حياً قيماً جليلاً.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَأْتِرَ كَرَامًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْضُحَ إِلَيْكَ سَعِيرٌ﴾ أي:
لا تتبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى
يفرغ منه، فإذا فرغ منه فافراه، فإن الله قد ضمن لك جمعه في
صدرك، وقراءتك إياه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ

كقوم هود، وصالح، ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصابناهم بالعذاب الأليم؟

فما الذي يؤمن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟
﴿كَذَٰلِكَ خَبَرْنَا نُوذَيْرَ أَنَّهُ لَكُم بَرَكَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝ ثُمَّ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ شُعِيرٌ﴾ لا شيء من هذا كله فليس هؤلاء الكفار خيرًا من أولئك، حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل، وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة، وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون، أن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحق من ذلك.

فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم، من أسباب الهداية، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاءهم، وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهى، أي: العقول السليمة، والقلطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

(١٢٩، ١٣٠) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكُنَّا إِرْسًا وَلَئِن لَّمْ يَنتَسِبْ إِلَى قَوْمٍ مَّا يَقُولُونَ لَنَسْفَقْ بِكُلِّ فُلٍّ لَّئِن لَّمْ يَكُنْ لِّلْأَنفُسِ مِنَّا بِمَا كَفَرُوا مِن مَّاءٍ لَّيْلٌ فَسَيَحْ وَأَطْرَافُ أُنْهَارٍ لَّعَلَّكَ تَرْتَضِي ۚ هَٰذَا تَسْلِيَةٌ لِّلرُّسُلِ، وَتَصْوِيرٌ لَّهٗ عَنِ الْمُبَادَرَةِ إِلَىٰ إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ، الْمَعْرِضِينَ، وَأَن كُفِّرُوهُمْ وَتَكْذِيبُهُمْ سَبَبٌ لِّحُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ، وَلِزُومِهِ لَهُمْ، لَأَن اللَّهَ جَعَلَ الْعُقُوبَاتِ، سَبَبًا وَتَأْثَانًا عَنِ الذُّنُوبِ، مَلَاذِمًا لِّهَا.

وهؤلاء قد أنابوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلمهم يراجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحق عليهم الكلمة.

ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس وغروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك، ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والأجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر.

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَا بِهِ أَنفُسَهُمْ يَوْمَ هُمْ زَاغِينَ ۚ لَّيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ حَرٌّ وَلَا نَقَمٌ ۚ أَي: لا تمد عينيك معجبًا، ولا تكرر النظر مستحسنًا إلى أحوال الدنيا والممتنعين بها، من المأكول والمشرب اللذيذة، والملابس الفاخرة،

تعالى: ﴿لَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ۖ الْآيَةُ، والثالثة: قوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ ذُو الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ۖ﴾، والرابعة: قوله عن آل فرعون: ﴿الَّذِينَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ الآية.

والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية، وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم، والغموم، والآلام التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها.

﴿وَتَحْشَرُونَ﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَتَمَّنَّ﴾ البصر على الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ شَبَابًا وَكِبَرًا وَسُوءًا﴾.

قال على وجه الدل، والمراجعة، والتأمل، والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بَصِيرًا﴾ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَبَاعَرَضْتَ عَنْهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ نُنَسِّي ۖ أَي: ترك في العذاب.

فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وعشيت عنه، ونسيت، ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الجزاء «نجزيه» «مَنْ أَسْرَفَ» بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له ﴿وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتِلْكَ رِيْبَةٍ﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه.

﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا أضعافًا مضاعفة «وَأَبْقَىٰ» لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ كَانُوا قُلُوبَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي: أفلم يهد هؤلاء المكذبين المعرضين، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم،

الْحَيَاتِ الْمَرْغُورَةِ

٣٢١

الْحَيَاتِ الْمَرْغُورَةِ

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَنتَ أَتَيْنَا فَيَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ ﴿١٣١﴾ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَى ﴿١٣٢﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِي مَسْكِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْلَا كَيْفَةُ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَهْلٌ مُّسَمًّى ﴿١٣٤﴾ فَاصْبِرْ عَلَى
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ أَكْثَرِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٥﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْتَهُمْ زُجُجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْثَتِهِمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَآبِقَى ﴿١٣٦﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ
وَأَصْطِرْ عَلَيْهِمْ لِنَسْتَكِلَّ رِزْقًا نَحْنُ زُرُّكَ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٧﴾
﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي
الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٩﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ
لَقَالُوا إِنَّا لَأَرْسَلْنَا رَسُولًا فَفْتَنَ ۖ إِنَّا نَعْلَمُ مِنْ قَبْلِكَ أَنْ نُنْزِلَ
قَبْلَ أَنْ نُنْزِلَ وَنَحْزُرَ ﴿١٤٠﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرِصُوا
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٤١﴾

مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۖ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا
رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا فَفْتَنَ ۖ إِنَّا نَعْلَمُ مِنْ قَبْلِكَ أَنْ نُنْزِلَ
قَبْلَ أَنْ نُنْزِلَ وَنَحْزُرَ ۖ قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرِصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ
الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ۖ أَي: قال المكذوبون للرسول ﷺ:
هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كفولهم: ﴿وَقَالُوا
لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْزِلُ مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءُ ۖ أَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ
مِنْ عَجَلٍ وَنَسْبٍ فَتَنْزِلُ الْأَنْهَارُ جَلَّتْ عَنْهُمْ ۖ أَوْ شَطُوطُ السَّمَاءِ
كَمَا رَمَعَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَأَمْرٍ وَالتَّلَاحُكَةُ قِيلًا﴾.

وهذا تحت منهم، وعناد وظلم، فإنهم هم والرسول بشر
عبد الله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي
يبتليها، ويختار منها ما يختار بحسب حكمته، هو الله.

ولأن^(١) قولهم: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْنَا بَيِّنَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ يقتضي
أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب
وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات، والآيات
الفاهرات، ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ

والبيوت المزخرفة، والنساء الجميلة فإن ذلك كله زهرة
الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابًا
بأبصار المعرضين، ويتمتع بها - بقطع النظر عن الآخرة -
القوم الظالمون، ثم تذهب سريعًا، وتضيي جميعًا، وتقتل
محبها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما
هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارًا،
ليعلم من يقف عندها، ويعتبر بها، ومن هو أحسن عملًا كما
قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنْ يَجْلُوهُمُ أَحْسَنُ
عَمَلًا ۖ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾.

﴿وَرِزْقَ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق
الأعمال الصالحة، والأجل من النعيم المقيم، والعيش
السليم في جوار الرب الرحيم ﴿مَعْرَ﴾ مما متعنا به أزواجًا،
في ذاته وصفاته ﴿وَأَبْقَى﴾ لكونه لا ينقطع، أكملها دائم وظلها،
كما قال تعالى: ﴿يَلْ تَقْوَى الْوَقْفُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى﴾.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه،
طموحًا إلى زينة الدنيا، وإقبالًا عليها، أن يذكرها ما أمامها
من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.
﴿١٣٢﴾ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطِرْ عَلَيْهِمْ لِنَسْتَكِلَّ رِزْقًا نَحْنُ
زُرُّكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: حث أهلك على الصلاة وأزعجهم
إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا
به، فيكون أمرًا بتعليمهم ما يصلح الصلاة، ويفسدها،
ويكملها.

﴿وَأَصْطِرْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها،
وأركانها، وآدابها، وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس،
ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائمًا،
فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما
سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها
أضيق، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام
به عن إقامة دينه فقال:

﴿نَحْنُ زُرُّكَ﴾ أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به، كما تكفلنا
بأرزاق الخلقة كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل
بذكرنا؟ ورزق الله عام للمتي وغيره، فينبغي الاهتمام بما
يجلب السعادة الأبدية، وهو التقوى، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾
في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَى﴾ التي هي فعل المأمور وترك
المنهي، فمن قام بها كان له العاقبة، كما قال تعالى:
﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

(١٣٣-١٣٥) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ

تَأْتِيهِمْ ﴿١٠٠﴾ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ، وَأَنْهُمْ يَطْلُبُونَ الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ.

﴿يُنَبِّئُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: هذا القرآن العظيم المصدق لما في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرته به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَيْنَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا يستفوعون بها، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَرُوَّاهُ تَحْتَهُمْ كُتُوبًا يَوْمَ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لنقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لَوْلَا أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُفِثَ بَيْنَكُم مِّن قَبْلِ أَنْ نُرْدَّ وَنَعَذَّبَ﴾ بالعقوبة، فما قد جاءكم رسولي وبعث آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون فصدقوه.

قل يا محمد! مخاطبًا للمكذِّبين لك الذين يقولون: تبرصوا به رب المنون ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ﴾ فترصوا بي الموت، وأنا أترص بكم العذاب ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ﴾ بَيَّا إِلَّا إِيَّادَى الْخُسِيِّينَ ﴿أَي: الظفر أو الشهادة﴾ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مَتَّ عُدُوهُ أَوْ بَأْتِيَا.

﴿فَرَقَبُوا فَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الْعِزِّ النَّبِيُّ﴾ أي المستقيم،
 ﴿وَمَنْ أَعْتَدَى﴾ بسلوكه، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز
 الراشد، الناجي المفلح، ومن حادته خاسر خائب معذب.
 وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه
 بخلافه، والله أعلم.

تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤-١) ﴿أَقْبَبَ لِنَائِسٍ جَسَابَهُمْ وَعَمَّ فِي عَقْلِهِ مَقْرُوسٌ
مَا بَالُهُمْ بِنَ ذِكْرِ مَن رَّبَّهُمْ تُخَذِّبُ إِلَّا أَسْتَعْمُوهُ وَعَمَّ لَعْنُونَ
لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ التَّجْوَى الَّذِينَ طَلَّوْا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ أَفَأَنْتُمْ أَلْيَحْ وَأَنْتُمْ تَصِيرُونَ﴾ ○ قَالَ رَبِّ بَعْلَمُ الْقَوْلُ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ هذا تعجب من حالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
 مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا آسَمَعُوهُ وَهُمْ
 يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ إِلَّا أَوَّاهٌ مَعْلُومٌ وَأَسْرُوءٌ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ
 تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ
 اقْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِيتَا يَدَيْهِ كَمَا أَزْسِلُ الْأَنْزِلُونَ
 ﴿٥﴾ مَا أَمْنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يَقُولُونَ
 ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوْا أَهْلَ
 الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
 لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ
 الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَصَائِهِمْ وَاهْلَاكِنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
 لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

الناس، وأنهم لا ينتج فيهم تذكير، ولا يرفعون إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به، كأنهم للدنيا خلقوا، وللمتعة بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم، ولهذا قال:

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ﴾ يذكّرهم ما
ينفعهم، ويحذّرهم عليه، وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿إِلَّا
أَسْمَعُوهُ﴾ سماعاً تقوم عليهم به الحجة.

﴿وَمِنْ يَلْمِزُ ۝ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالها الدنيوية وأبدانهم لاهية، قد اشتغلوا بتناول الشهوات، والعمل بالباطل، والأقوال الرديئة، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم على أمر الله ونهيه، وتستمع له استماعاً تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربهم التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال، فبذلك يتم لهم أمرهم وتستقيم أحوالهم، وتزكو أعمالهم.

وفي معنى قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلشَّائِسِ جِسْمُهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، لقوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها.

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متى يفجأ الموت، صباحاً أو مساءً، فهذه حالة الناس كلهم إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطأوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول ﷺ: إنه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يفضل عليكم، ويرأس فيكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه، وأنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفروا الناس، وقولوا: ﴿أَفَأَتُوكَ الْأَسْخَرَ وَأُتُّرَ بِشُورِكِ﴾ هذا وهم يعلمون أنه

رسول الله حقاً بما شاهدوا^(١) من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علماً بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ أي: الخفي والجلي ﴿فِي السَّكَاةِ وَالْأَرْصِ﴾ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسانر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في الضمائر، وأكثه السرائر.

(٦٠٥) ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُ أَخْلِيكَ بِكُلِّ آفَاتِهِ يَلْمِزُ سَائِرَ قَبَائِلِنَا بِشَيْءٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ مَا مَسَّتْ قَبَائِلُهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْلُهَا يُؤْمِنُونَ ﴿يُذَكِّرُ تَعَالَى اتِّفَاكَ الْمَكِيدِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُمْ سَقَوْهُ^(٢)، وَقَالُوا فِيهِ الْأَقَاوِيلُ الْبَاطِلَةُ الْمُخْتَلَفَةُ، فَتَارَةً يَقُولُونَ: ﴿أُتُحَدِّثُ أَخْلِيكَ﴾ بِمَنْزِلَةِ كَلَامِ النَّائِمِ الْهَازِي، الَّذِي لَا يَحْصِي بِمَا يَقُولُ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: ﴿أَفْتَرَيْنَاهُ﴾ وَخْتَلَفَهُ وَقَوْلُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: إِنَّهُ شَاعِرٌ وَمَا جَاءَ بِهِ شِعْرٌ.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزمًا لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدًا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك،

ليعارضوا مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدرُوا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك، وإلا فما الذي أقامهم، وأقعدهم؟ وأقض مضاجعهم، ويلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء؟ وإنما يقولون هذه الأقوال فيه - حيث لم يؤمنوا به - تنفيراً عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ، وصدقه، وهو كاف شاف.

فمن طلب دليلاً غيره، أو اقترح آية من الآيات سواء، فهو جاهل ظالم شبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه، وطلبوا من آيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة لأنهم إن كان^(٣) قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا، فإنهم بهذه الحالة - على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات - لا يؤمنون قطعاً، فلو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿قَبَائِلِنَا بِشَيْءٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: كنانة صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك.

قال الله: ﴿مَا مَسَّتْ قَبَائِلُهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة، فالأولون ما آمنوا بها، أفيؤمن هؤلاء بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك؟ وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟

وهذا الاستهتام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبداً.

(٩-٧) ﴿وَمَا أُرْسِلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا بِآيَاتٍ نُوحٍ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الْأَنْصَارِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الْعِلْمَ وَمَا كَانُوا حَافِظِينَ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْأَتْرُوفِينَ﴾ هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هَلَّا كَانَ مَلَكًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ، وَتَصَرَّفُ فِي الْأَسْوَاقِ؟ وَهَلَّا كَانَ خَالِدًا؟ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِرَسُولٍ.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر، فشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسل، المعقرين بإثبات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته - بأن

(١) في ب: بما يشاهدون. (٢) في ب: تقولوه فيه. (٣) كذا في ب، وفي أ: كانوا.

٣٢٣

الأنبياء

الأنبياء

ولهذا ﴿قَالُوا يَبُولُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ١٦ ○ فَمَا زِلْتَ تَلَكَّ دَعْوَهُمْ
أي: الدعاء بالويل والثبور، والندم، والإقرار على أنفسهم
بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم.
﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيرًا﴾ ١٧ أي: بمنزلة النبات الذي قد
حصد وأقيم، قد خدمت منهم الحركات، وسكنت منهم
الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على
تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك.
(١٧، ١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِيلِينَ﴾ ١٨ ○ لَوْ
أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِلَهُمْ لَمْوَ لَأَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ○ يخبر تعالى
أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً، ولا لعباً من غير فائدة،
بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق
العظيم، المدير الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال
كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قلبه، الصادقة
رسله فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما
وعظمتها، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي
المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.
﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِلَهُمْ لَمْوَ لَأَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ ١٩ ○ أي: من عندنا ﴿إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ ٢٠ ولم
نظلمكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا
نحب أن نريه إياكم.

فالسماوات والأرض اللذان برأى منكم على الدوام، لا
يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللغو، كل هذا تنزل مع
القول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة، فسبحان
الحليم الرحيم، الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها.

(١٨-٢٠) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾
وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا يَصِفُونَ ○ وَلَمْ يَنْفَعِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ○ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ○ يَسْجُدُونَ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ
بِقُدْرَتِهِ ○ يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل،
وأن كل باطل قيل وجود له، فإن الله ينزل من الحق والعلم
والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فَإِذَا هُوَ
زَاهِقٌ﴾ ٢١ أي: مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل
الدنية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نفلية في إحقاق باطل أو
رد حق، إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والثقلية، ما
يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل
أحد، وهذا يتبين باستفراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك
تجدها كذلك.

ثم قال: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الواصفون الله بما لا يليق به، من
اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنثاد والشركاء، حظكم من

ذلك، ونصيبكم الذي تدركون ﴿الْوَيْلُ﴾ والندامة والخسار،
ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تمولونها،
وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس
مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان.

ثم أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل
عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك،
ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من
هؤلاء آلهة؟ وكيف يجعل لله منها ولداً؟

فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب،
وذلك له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعوا
له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون.

ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ أي: من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ ○ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ ٢٢ أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة
رغبته، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم.

﴿يَسْجُدُونَ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَفْثُونَ﴾ ٢٣ أي: مستغرقين في العبادة
والتسبيح في جميع أوقاتهم فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها
ولا خالي منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من

بيان عظمته وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُصرف العبادة لغيره.

(٢٥-٢١) ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا إِلَهُهٗ مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يَسْتُرُوْنَ ۚ أَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهُهٗ إِلَّا اللَّهُ لَنَسِفَنَّاَهُنَّ اللَّهُ رَبُّ الْأَرْضِ عَمَّا يَظُنُّوْنَ ۚ لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْكِرُوْنَ ۚ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِهِ إِلَهُهٗ قُلٌّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِ كُلِّ أَكْذَمَةٍ لَا يَعْلَمُوْنَ ۚ أَلَمْ نَقُلْ لَهُمْ مُّعْزَوْشُونَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ بِإِلَهِ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُوْنَ﴾ لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية المعجز وعدم القدرة ﴿هُمَّ يَسْتُرُوْنَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرُونَ على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَلَنَقْضُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهُهٗ لَآ يَخْلُقُوْنَ شَيْئًا وَهُمْ يَحْكُمُوْنَ﴾، ﴿وَلَا يَمْلِكُوْنَ أَنْفُسَهُمْ صَرًّا وَلَا تَفْعًا وَلَا يَمْلِكُوْنَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا فَتْرًا﴾، ﴿وَلَنَقْضُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهُهٗمْ لَعَلَّهُمْ يُضْهِرُوْنَ ۚ لَا يَسْتَطِيعُوْنَ تَصَرُّفَهُمْ وَهُمْ هُمَّ جُنْدٌ مُّخْمَرُونَ﴾ فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله ويده الأمر والنفع والضر.

وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظه، وتَوَفَّرَ جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد إلا برب واحد، ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ لَنَسِفَنَّاَهُ فِي فَاتِهِمَا، وَفَسَدَ مِنْ فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، ورب واحد، وإله واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوض أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معًا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن.

فإذا، يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله:

﴿مَا أَصْحَبَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ أَهْلَبَ كُلَّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مَّشِينٌ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُوْنَ﴾. ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ

إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذْ أَتَيْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۚ سُبْحَتَهُ وَقَعَلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكمال وحدته، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها، وأعظمها، فربوبية^(١) ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يَصِفُوْنَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه.

﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن كل شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يَسْتَأْذِنُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم، لمعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيدًا، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موضحًا ومقرعًا: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِهِ إِلَهُهٗ قُلٌّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِ كُلِّ أَكْذَمَةٍ لَا يَعْلَمُوْنَ ۚ أَلَمْ نَقُلْ لَهُمْ مُّعْزَوْشُونَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ بِإِلَهِ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُوْنَ﴾ أي: حجبتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلًا، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِ كُلِّ أَكْذَمَةٍ لَا يَعْلَمُوْنَ ۚ أَلَمْ نَقُلْ لَهُمْ مُّعْزَوْشُونَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ بِإِلَهِ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُوْنَ﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلة العقلية والتقليدية، وهذه الكتب السابقة، كلها برهان وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه، علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْذَمَةٌ لَا يَعْلَمُوْنَ ۚ أَلَمْ نَقُلْ لَهُمْ مُّعْزَوْشُونَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ بِإِلَهِ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُوْنَ﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليدًا لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفاتوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيينًا واضحًا جليًا، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مُّعْزَوْشُونَ﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بيّنها أتم تبيين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ بِإِلَهِ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُوْنَ﴾.

(١) في النسختين: فربوبيته.

سورة الأنبياء

٣٢٤

الأنبياء

قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٦﴾ فَكُلِ الرِّسَالِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ كُتُبِهِمْ، زَيْدَةً رِسَالَتِهِمْ وَأَصْلَهَا الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ الْإِلَهُ الْحَقُّ الْمَعْبُودُ، وَأَنَّ عِبَادَةَ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ.

(٢٦-٢٩) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِصْيَا مُكَرَّمُونَ ۖ لَا يُسَبِّحُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۖ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۖ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - فحبهم الله - أن الله اتخذ ولدا فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم.

وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم ^(١) عبيد مريبون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتنال لأوامره.

ف ﴿لَا يُسَبِّحُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: مهما أمرهم امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، فالله قد أحاط بهم علمه.

فعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى من يشفعون فيه، شفّعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل، إلا ما كان خالصاً لوجهه، متبعاً فيه الرسول، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.

﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خاضعون وجُلُونَ، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله.

فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك - ذكر أيضا أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ﴾ على سبيل الفرض والتنزل

﴿ذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه، مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟

(٣٠) ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْيَقِينُ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كُنَّا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونها رتقا، هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، ليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافيا لا قرعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؛ قد اغبرت أرجاؤه، وقطع عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت، وتحركت، وربت، وأنبت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [ليس ذلك] ^(٢) دليلا على

(١) في النسختين: بأنه. (٢) زيادة من هامش ب.

الذي أوجدها، ويسكنها الذي حرّكها.

ويتنقل المكلّفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موفراً ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

(٣٥، ٣٤) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مِثَّ فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾ ○ كل نفس ذائقة الموت وتبليغكم بالشر والخير فتنة وإِنَّا رُحْمَاءٌ ﴿لما كان أعداء الرسول يقولون^(١): تربصوا به رب المتون، قال الله تعالى: هذا طريق مسلك ومعبود منكم، فلم نجعل لبشر ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿الْخَلْدَ﴾ في الدنيا، فإذا مت فسيل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء وغيرهم.

﴿أَفَإِنَّ مِثَّ فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾ أي: فهل إذا مت خلّدوا بعدك، فَلْيَتَنَبَّهُمُ الْخُلُودُ إِذَا إِنْ كَانَ، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فإن، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالبعد المدى، وعمر سنين.

ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتن عند مواقع الفتن ومن ينجو.

﴿وَإِنَّا رُحْمَاءٌ﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول بقاء الخضرة، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

(٣٦-٤١) ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِلْكَ الْبَلَاءَ كَفَرُوا﴾ إِبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا رَأَى الْبَلَاءَ يَذْكُرُ مَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ قَبْلُ ○ كَفَرُوا ○ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ سَائِرِيكُمْ أَيُّهَا فَلَا تَسْتَعْبِدُونَ ○ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ○ لَوْ يَعْلَمُ الْبَشَرُ مَا كَفَرُوا بِهِ لَافْتَكُفِّرُوا عَنْ جُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ○ وَلَا هُمْ يُعْصُونَ ○ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْضَةٌ فَتَهْتِمُ فَلَا يَسْتَعْبِدُونَ رَدْعًا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ○ وَلَقَدْ اسْتَبْرَأْنَا بِرُسُلِنَا مِنْ قَبْلِكَ فَصَافَ الْبَلَاءُ سَجَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يُسْتَبْرَءُونَ ○ وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ، استهزؤا به، وقالوا: ﴿هَذَا الْبَلَاءُ يَذْكُرُ مَا لَمْ يَذْكُرْ﴾ أي: هذا المحقر بزمعهم، الذي يسب آلهتهم ويذمها، ويقع فيها، أي: فلا

أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ أي: إيماناً صحيحاً، ما فيه شك ولا شرك.

ثم عدد تعالى الأدلة الأقفية فقال:

(٣٣-٣١) ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تُبِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سِجْرًا لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ○ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ○ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

أي: ومن الأمانة على قدرته وكماله ووحدانيته، ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لتلا تميد بالعباد، أي: لتلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها.

فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها جبالاً شامخات، وقللاً باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاً سبلاً، أي: طرقاً سهلة لا حُرْزَةً، لعلمهم يهتدون إلى الوصول، إلى مطالبهم من البلدان، ولعلمهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا﴾ للأرض التي أنتم عليها ﴿مَحْفُوظًا﴾ من السقوط ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع.

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون لاهون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت، والسيارات، وشمسها، وقمرها، النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم.

فقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليالهم، ويهدأون ويسكنون، ويتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم.

كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزمًا لا شك فيه، أن الله جعلها مؤتة في وقت معلوم، إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا ويتفنعوا، ثم بعد هذا ستزول وتضمحل، وفيها

(١) في النسخين: يقولون قل تربصوا.

تبالوا به، ولا تحفلوا به.

هذا استهزاؤهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل الذي من فضائله ومكارمه إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب، وجحدهم لرسله فصاروا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى حالاتهم، كافرون بها، لأنه لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وَقَدْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنُ هُمَ كَافِرُونَ﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم، الذي ما بالعباد من نعمة إلا مته، ولا يدفع السوء إلا [هو] ^(١) - بالكفر والشرك.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: خلق عجولاً، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطأون بها، والكافرون يتولون ^(٢) ويستعجلون بالعذاب، تكديماً وعناداً، ويقولون:

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والله تعالى يهمل ولا يهمل ويحلم، ويجعل لهم أجلاً مؤقتاً إذا ﴿بَلَغَ أَهْلُكُمْ لَا يَسْتَفْهِمُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْبِلُونَ﴾ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: في انتقامي ممن كفروا وعصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قالوا هذا القول اغتراراً، ولما يحق عليهم العقاب، وينزل بهم العذاب.

فـ ﴿لَوْ يَعْلَمُ الْاَلَيْنُ كَفَرُوا﴾ حالهم الشنيعة ﴿جَئِنَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ اَنفَارٌ لَّا عَنْ طُغْيُونِهِمْ﴾ إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيهم من كل مكان ﴿وَلَا هُمْ يُصْزَوْنَ﴾ أي: لا ينصروهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً فَيَقْتُلُهُمْ﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم.

﴿فَلَا يَسْتَظِلُّونَ رَدْمًا﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك.

﴿وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أَعْتَدْنَا لِلَّيْلِ يَذْكُرُ اَلِهَتَكُمْ﴾ ساءه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم فقال:

﴿وَإِذْ أَرْسَلَ اَللَّهُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا اِيَّاكَ يَخْذُوْنَكَ اِلَآهَهُمْ اُوْلَٰئِكَ الَّذِيْنَ يَذْكُرُ اَلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمٰنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ سَآوِيْكُمْ اٰيَاتِيْ فَلَا تَسْتَعْجِلُوْا بِى وَيَقُوْلُوْنَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا حِيْنَ لَا يَكْفُرُوْنَ عَنْ وُجُوْهِهِمْ اَنفَارٌ لَّا عَنْ طُغْيُوْنِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْزَوْنَ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿بَلْ تَأْتِيْهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَظِلُّوْنَ رَدْمًا وَلَا هُمْ يُنْقَرُوْنَ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿وَلَقَدْ اَسْتَفْهِمُوْا بِرُسُلِيْ مِنْ قَبْلِكَ فَكَفٰ بِالَّذِيْنَ سَخَرُوْا مِنْهُمْ مَّا كَانُوْا يَلْعَنُوْنَ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿يَسْتَهْزِءُوْنَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿قُلْ مَنْ يَّكْفُرْكُمْ بِالْاَيِّ وَالْاَنْهَارِيْنَ الرَّحْمٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُوْنَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿اَمْ هُمْ اِلٰهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُوْنِىْ لَا يَسْتَظِلُّوْنَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿نَصَرَ اَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُوْنَ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿بَلْ مَتَعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَاٰبَاءَهُمْ حَتّٰى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فَلَا يَرْوُوْنَ اَنَّا نَأْتِيْ الْاَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ اَطْرَافِهَا اَفَهُمُ الْغٰلِبُوْنَ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿وَلَقَدْ اَسْتَفْهِمُوْا بِرُسُلِيْ مِنْ قَبْلِكَ فَكَفٰ بِالَّذِيْنَ سَخَرُوْا مِنْهُمْ﴾ أي: نزل بهم ﴿مَّا كَانُوْا يَلْعَنُوْنَ﴾ أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

(٤٢-٤٤) ﴿قُلْ مَنْ يَّكْفُرْكُمْ بِالْاَيِّ وَالْاَنْهَارِيْنَ الرَّحْمٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُوْنَ﴾ ○ أَرَفَهُمُ اِلٰهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُوْنِىْ لَا يَسْتَظِلُّوْنَ نَصَرَ اَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُوْنَ ○ بَلْ مَتَعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَاٰبَاءَهُمْ حَتّٰى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فَلَا يَرْوُوْنَ اَنَّا نَأْتِيْ الْاَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ اَطْرَافِهَا اَفَهُمُ الْغٰلِبُوْنَ﴾ يقول تعالى - ذاكراً عجز هؤلاء الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته شملت البر والفاجر، في ليهم ونهارهم - فقال:

﴿قُلْ مَنْ يَّكْفُرْكُمْ﴾ أي: يحرسكم ويحفظكم ﴿بِالْاَيِّ وَالْاَنْهَارِ﴾ وقت

(١) في الأصل (ايام) ولعل الصواب ما أثبت . (٢) في الكلمة أقرب إلى أن تكون (يقولون)، وفي ب غير واضحة، وكلمة (يتولون) أقرب مناسبة للسياق.

انتشاركم وغفلتكم ﴿يَوْمَ الرَّحْمَى﴾ أي: بدله غيره، أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو.

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ فهذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، لهدوا لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

﴿أَنزَلْنَاهُمْ فِيهِ دُوبَاتٌ﴾ أي: إذا أردناهم بسوء هل من ألهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء، والشر النازل بهم؟! لا يستطيعون نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا

يعاونون على أمورهم من جهتها، وإذا لم يعاونوا من الله فهم مخدولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب مشقة، ولا دفع مضرة.

والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم، وشركهم قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآلِهَتَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْمُدُّ﴾ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهاؤها بما عملوا خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقتت قلوبهم، وعسا طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو افترقا أنظارهم إلى مَنْ عَنْ يَمِينِهِمْ، وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكا، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك.

ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ آلِ كَعْبٍ تَنفُخُهَا مِنْ أَطْرَفِهَا﴾ أي: يموت أهلها وفنائهم شيئا فشيئا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يفتروا، ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أَفَهُمْ الْكَافِرُونَ﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاعتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يفتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم ليقبض أرواحهم، أذعنوا، وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

(٤٦، ٤٥) ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْبَغِي لَنَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للناس كلهم: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أُنذِرُكُمْ بما أوحاه الله لي، فإن استجبت فقد استجبت لله، وسيبئكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْبَغِي لَنَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ شِثْقًا لِّكَ مِن خِزْلٍ إِنَّا إِنَّا بِهَا وَكَفَىٰ بِنا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ يَرْتَوْنَ السَّاعَةَ مُمْسِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَاكِوْنَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ عِزِّ دِينٍ أَلَسْنَا عَلَىٰ سَبِيلٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ مَا عَابُواكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ آتَيْنَا مِنَ اللَّيْلِ نَسِيءٍ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ تُولُوْا مُدْرِيْنَ ﴿٥٧﴾

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتا، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشروط السماع مع الصوت، أن يوجد محل قابل لذلك، كذلك الوحي سبب لحياة القلوب والأرواح، وللفقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان، بمنزلة الأصم، بالنسبة إلى الأصوات، فهؤلاء المشركون صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اعتدائهم، خصوصا في هذه الحالة التي لم يأتهم العذاب، ولا تشبه ألمه.

فلو مشهم ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي: ولو جزء يسير، ولا يسير من عذابه.

﴿لَيَقُولُنَّ يَنْبَغِي لَنَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور، والندم، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم للعذاب.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ شِثْقًا لِّكَ مِن خِزْلٍ إِنَّا إِنَّا بِهَا وَكَفَىٰ بِنا حَسِيبِينَ﴾ يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين

وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء، والجنة والنار، فيذكر به المسائل والدلائل العقلية والغلبية، وسماه ذكرًا، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً، وكونه ﴿مُبَارَكًا﴾ يقتضي كثرة خبراته^(١)، ونماها بزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فلها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرًا مباركًا وجب تلقيه بالقبول والانقياد، والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحًا، وإنكاره، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى، على من أنكره فقال: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُشْكِرُونِ﴾.

(٥١-٧٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ﴾ إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم، وكتابهما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد، ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدًا من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشدًا بحسب حاله، وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان.

﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ﴾ أي: أعطيناه رشده، واختصاصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلنا أنه أهل لذلك، وكفاه له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر محاجته لقومه، ونهيه عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة.

فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَصَائِدُ﴾ التي مثلتموها ونحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿أَلَمْ أَنْتَ لَهَا عَاكِفٌ﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفقتم أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تحتون.

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز الذي ليس بيده أدنى

العادلة التي يبين فيها مثاقيل الذر، التي توزن بها الحسنات والسيئات.

﴿فَلَا تَقْلُمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة أو كافرة ﴿شَيْئًا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها.

﴿وَلَنْ كُنَّا مِنْ خَلْقٍ مِّنْ خَلْقٍ﴾ التي [هي] أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أَنْتُمْ بِهَا﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فَمَنْ يَمَسَّ مِنْ شِئْءٍ دَرَوْنَهُ خَيْرٌ بِرَبِّهِ﴾ وَمَنْ يَمَسَّ مِنْ شِئْءٍ دَرَوْنَهُ شَرٌّ بِرَبِّهِ. وقالوا: ﴿يَبُولُ مَا مَلَكَ هَذَا فَكَيْفَ لَا يَبْعُدُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَبِجَدِّ مَا عَلَيْهَا عَاسِرٌ﴾.

﴿وَكُنَّا بِهَا حَكِيمِينَ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسبًا، أي: عالمًا بأعمال العباد، حافظًا لها، مثبِتًا لها في الكتاب، عالمًا بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

(٤٨-٥٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْوَحْيَ وَرَأَيْنَاهُ كَوْنَهُ وَكُنَّا بِهَا عَالِينَ﴾ إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم، وكتابهما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد، ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدًا من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشدًا بحسب حاله، وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان.

﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ﴾ أي: أعطيناه رشده، واختصاصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلنا أنه أهل لذلك، وكفاه له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر محاجته لقومه، ونهيه عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة.

فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَصَائِدُ﴾ التي مثلتموها ونحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿أَلَمْ أَنْتَ لَهَا عَاكِفٌ﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفقتم أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تحتون.

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز الذي ليس بيده أدنى

الجزء السابع عشر

(١) زيادة يقتضيها السياق. (٢) زيادة من هاشم ب. (٣) في النسخين غيره، وغيرت الكلمة لتوافق مع الضمائر التي بعدها.

أكسرها على وجه الكيد ﴿بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية.

﴿تَجَمَّلَهُمْ جَدًّا﴾ أي: كَسَّرَا وَقَطَّعَا، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا كَثَمًا﴾ أي: إلا صنهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه.

وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألقاب التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: «إلى عظيم الفرس» «إلى عظيم الروم» ونحو ذلك، ولم يقل: «إلى العظيم».

وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا كَثَمًا﴾ ولم يقل: «كبيرًا» من أصنامهم. فهذا ينبغي التنبيه^(١) له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿تَجَمَّلَهُمْ إِلَٰهِي يَرْجِعُونَ﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا؛ لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾.

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قَالُوا سَبِعًا فَتَنَّا يَدْرِكُهُمْ﴾ أي: يعيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها، أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكسرها ﴿يَقَالُ لَهُ يَزِيدُ﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قَالُوا فَأَنَّىٰ يُدْعَىٰ﴾ أي: بإبراهيم ﴿عَلَىٰ أَتَيْنَ النَّاسَ﴾ أي: بمرأى منهم ومسمع ﴿تَجَمَّلَهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّمِينَةِ وَإِنَّ هَٰذَا النَّاسَ كَذِبٌ﴾.

فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿هَٰذَا هَٰذَا﴾ أي: التكسير ﴿يَا زَيْدُ﴾ أي: هذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جراك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿يَدْعُوكُمْ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي: كسرها غضبًا عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون

(١) في الأصل: وليأثم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في الأصل: (التبعية) ولعل الصواب ما أثبت.

شبهة، فقالوا: ﴿وَجِدْنَا آيَةً﴾ كذلك يفعلون، فسلكتنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها.

ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل، ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصًا في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم - مفضلًا للجميع: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَشْرَٰءَ وَبَآئِعِينَ فِي مَسَٰئِلِ النَّاسِ﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي ضلال أبلى من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟ أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشرتكم وهم^(١) في الضلال الواضح، البين لكل أحد.

﴿قَالُوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم، وتسفيه آبائهم - : ﴿أَجِئْتَنَا بِحَقٍّ أَمْ أَنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردودوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم ردًا بين به وجه سفههم، وقلة عقولهم فقال:

﴿يَا زَيْدُ رَبُّكَ رَبُّ الْأَرْضِ وَالْأَرْضُ أَدْنَىٰ فَرْطِهِ وَنَحْنُ عَلَىٰ ذَرْبٍ مِّنَ الشَّٰهِيدِينَ﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسموات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورًا مدبرًا متصرفًا فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله، أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتميز، أن يعبد مخلوقًا متصرفًا فيه، لا يملك نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلها قال إبراهيم: ﴿وَأَنَّا عَلَىٰ ذَرْبٍ﴾ أي: أن الله وحده المعبود، وأن عبادة ما سواه باطل ﴿وَمِنَ الشَّٰهِيدِينَ﴾ وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيدًا يحصل به إقرارهم بذلك فلها قال: ﴿وَتَأْتُوا لَٰكِبِدًا أَنتُمْ كَذِبٌ﴾ أي:

العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده .

وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فَتَلَوْنَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾، وأراد: الأصنام المكسرة، أسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، أسأله لأي شيء كسرها؟ إن كان عندهم نطق فسيجيبنكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريد بها باذئ.

﴿فَرَجَعُوا إِلَيْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾. فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم.

ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿نُكِبُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ﴾. فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمروا أن نسألهما وأنت تعلم أنها لا تنطق؟.

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلناً بشركهم على رؤوس الأشهاد، ومبيناً عدم استحقاق آلهتهم للعبادة -: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾. فلا نفع ولا دفع. ﴿أَوَلَيْ لَكُمْ عَقْلٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفتكم! وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله! إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدتم العقل، وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

فحينئذ لما أفهمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ف﴿قَالُوا حَرْفُهُ وَأَصْرُهُ أَلْهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ نَذِيرِينَ﴾ أي: اقتلوه أشنع القتل، بالإحراق، غضباً لآلهتكم، ونصرة لها، فتعسا لهم تعسا، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً،

فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: ﴿كُونِي بِرَأَىٰ لَنَا سَلَامًا عَلَٰى إِِبْرَاهِيمَ﴾ فكانت عليه برآ وسلاماً، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكرهه.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ حيث عزموا على إحراقه ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه هم الراجحين المفلحين.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط

فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُوعًا لَا كَبِيرَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَهُ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِإِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِإِبْرَاهِيمَ إِنَّا بِمَا يَفْعَلُونَ كَائِدُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْتَوُوا مَن كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَلَيْ لَكُمْ عَقْلٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرْفُهُ وَأَصْرُهُ أَلْهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا إِنَّا نُؤَيِّدُ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

عليه السلام قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوت الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ حين اعتزل قومه ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق ﴿نَافِلَةً﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق.

﴿وَمِنَ ذُرِّيَّتِهِ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾ ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والأخريين.

﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: قانمين بحقوقه، وحقوق عباده، ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون،

وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ يَأْتِرًا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرهم بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إمامًا حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿وَلَقَدْ الصَّلَوْهُ وَإِسَاءَ الرِّكَوَّةِ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر كان قائمًا بدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وَكَاوُوا لَنَا﴾ أي: لا لغيرنا ﴿عَلِيَيْنَ﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصافوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَلَوْطًا ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجِّنَ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِيٍّ فَسَيَقِينُ ۖ وَأَدْنَيْنَهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس بالصواب والسداد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم لأنهم ﴿قَوْمٌ سَوِيٍّ فَسَيَقِينُ﴾ كذبوا الداعي، وتوعده بالإخراج، ونجى الله لوطًا وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعبدوا عن القرية، فسرّوا ونجوا من فضل الله عليهم وميثه.

﴿وَأَدْنَيْنَهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ التي من دخلها كان من الأمنين من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرماته الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحًا الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْنَيْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ﴾.

(٧٦، ٧٧) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَآلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ۖ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا فَإِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: واذكر

سورة الأنبياء

٣٢٨

سورة الأنبياء

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيسَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِدِيدِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَوْطًا ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجِّنَ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِيٍّ فَسَيَقِينُ ﴿٧٧﴾ وَأَدْنَيْنَهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَآلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٠﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُنَّا لَنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَكُنَّا لِفِعْلِيلِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٣﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَآلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٦﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُنَّا لَنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَكُنَّا لِفِعْلِيلِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٨﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَآلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٠﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٩١﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُنَّا لَنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَكُنَّا لِفِعْلِيلِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٢﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَآلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٩٤﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٥﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٦﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُنَّا لَنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَكُنَّا لِفِعْلِيلِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٧﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٨﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَآلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٩٩﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا قَوْمٌ سَوِيٍّ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٠﴾

عبدنا ورسولنا نوحًا عليه السلام، ميثًا مادحًا، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويؤيدي فيهم ويعيذ، ويدعوهم سرًا وجهارًا، وليلاً ونهارًا.

فلما رأهم لا ينجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: ﴿يَرَىٰ لَا تَذَرُ عَلَى الْآلَمِينَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبْرًا ۚ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ قِيْلًا يُضِلُّوْا وَلَا يَلْتَمِزُ إِلَّا جَهَنَّمَ كَذِبًا ۚ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، فأغرقهم، ولم يبق منهم أحدًا، ونجى الله نوحًا وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، ونصره الله على قومه المستهزين.

(٧٨-٨٢) ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۖ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُنَّا لَنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَكُنَّا لِفِعْلِيلِهِمْ شَاهِدِينَ ۖ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ۖ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا رَبَّنَا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ۖ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يُفْضِرُونَ ۖ لَمْ يَسْمُرُوا عَلَيْنَا دُونَ ذَلِكَ ۖ وَكَانَ لَهُمْ كَيْفُوتٌ ۖ

إذابة له على النار.

ويحتمل أن تعليم الله له على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر، لأن الله امتنَّ بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعت من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما المِثْلُ بالجنس، والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه إلا قوله: ﴿وَأَلَّا لَهُ الْحَرِيدُ﴾ وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك.

﴿وَالْمُسْتَبِينَ الزَّيْحَ﴾ أي: سخرناها ﴿عَلَيْكَ﴾ أي: سريعة في مروورها.

﴿تَجَرَّى بِأَمْرِهِ﴾ حيث ذُبرث امتثلت أمره، غدوها شهر ورواحها شهر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام، حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقاً وغرباً، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة، ﴿وَكُنَّا يَكُنِّي شَيْءٌ عَالِيَيْنَ﴾ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، وعلمنا من داود وسليمان، ما أوصلاهما به إلى ما ذكرنا.

﴿وَبِالْقَبِيلَيْنِ يَمْشُونَ لَهُ وَيَمْلُوكَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ وهذا أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام، أن الله سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له في البحر، ويستخرج الدر، واللؤلؤ، وغير ذلك، ومنهم من يعمل له ﴿تَحْرِيبَ وَتَنْشِيلَ وَحَاكِي كَلْجَابٍ وَقُدُورَ رَأْسَيْنَ﴾ وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس، ومات وهم على عمله، وبقوا بعده سنة، حتى علموا موته، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أي: لا يقدرُونَ على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم الله له، بقوته وعزته وسلطانه.

(٨٤، ٨٣) ﴿وَأَوْرَثَ إِذْ دَاوُدَ رِثَتَهُ أَنِّي مَسَّيْتُ الْفَلْسَ وَأَنَّتْ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ ٥ قَالَتْ جَبَّتْ لَمْ فَكُتِفَتْ مَا يَدِي مِنْ شَرٍّ وَأَكْبَتْهُ أَهْلُهُ وَتَلَقَّاهُمْ مَعَهُ زَعَمَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَذَكَّرَنِي لَعِينِينَ﴾ أي: واذكر عبدنا وورسولنا أيوب - مثنيا معظماً له، رافعاً لقدره - حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً راضياً عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده، ابتلاء من الله وامتنحاناً، فنفخ في جسده، ففقرح قروحاً عظيمة ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب ﴿أَنِّي مَسَّيْتُ الْفَلْسَ وَأَنَّتْ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾.

أي: واذكر هذين النبيين الكريمين «داود» و «سليمان» مثنياً مبيجلاً، إذ أتاهما الله العلم الواسع، والحكم بين العباد، بدليل قوله: ﴿إِذْ بَصَّكُمَا فِي الْغُرِّي إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ عَنَمُ الْقَوْرِ﴾ أي: إذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفست فيه غنم القوم الآخرين، أي: رعت ليلاً، فأكلت ما في أشجاره، وورعت زرعه، ففضى فيه داود عليه السلام، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة.

وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فيستفيع بذرهما وصوفها، ويقومون على يستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، تراءا، ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام، ولهذا قال:

﴿فَنَهَمْنَاهَا سُلَيْمَنَ﴾ أي: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله: ﴿وَكُنَّا﴾ من داود وسليمان ﴿وَأَلَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطئ ذلك، وليس بمعلوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

ثم ذكر ما خص به كلياً منهما فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾، وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسييحاً، وتمجيداً، وكان قد أعطاه [الله]، من حسن الصوت ورقته ورحمته، ما لم يؤته أحداً من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم، والطيور البهائم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه فلهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَعِيلِينَ﴾.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤَيْ لَكُمْ﴾ أي: علم الله داود عليه السلام صناعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها، وسرت صناعته إلى من بعده، فالآن الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة.

﴿لِيُصْنِعَكُمْ مِنْ بَابِكُمْ﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب واشتداد البأس.

﴿فَهَلْ أَسَمُ سَكْرُونَ﴾ نعمة الله عليكم، حيث أجزأها على يد عبده داود كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مَرْبِيلَ قَبِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرْبِيلَ قَبِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْلُونَ﴾.

يحتمل أن تعليم الله لداود صناعة الدروع، وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون - كما قاله المفسرون - إن الله الآن له الحديد، حتى كان يعمل كالعجين والطين، من دون

٣٣٠

الْأَنْبِيَاءُ

وَالَّذِي أَحْصَيْنَتْ فَرَجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ
أَمَّتُكُمْ أَمَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَقَطِّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوعٌ ﴿٩٣﴾
فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعِيدِهِ ۚ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾ وَكَرَّمْ عَلَى قَرَبٍ
أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ
يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَاقْتَرَبَ الْعَذَابُ الْحَقُّ فَلَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَنْصَرُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنَادُونَ أَنَّا كُنَّا فِي عَفْوَكَ مِن هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ
هَذِهِ إِلَٰهَةً تَأْوَدُّهُمْ أَوْ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

شُكِّيَ إِلَيْهِ إِفْسَادُهُمْ فِي الْأَرْضِ.

وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف، الذي ذكره الله، من كل مكان مرتفع، وهو الحذب، ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلون عليهم في الدنيا، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿وَاقْتَرَبَ الْعَذَابُ الْحَقُّ﴾ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بآتيانه، ووعد حق وصدق، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخته، من شدة الأفزع والأهوال المزعجة، والقلقل المفضعة، وما كانوا يعرفون من جناباتهم وذنوبهم، وأنهم يدعون بالويل والثبور، والندم والحسرة على ما فات ويقولون:

لـ ﴿قَدْ كُنَّا فِي عَفْوَكَ مِن هَذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغفرين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة، فلو كان يموت أحد من التدم والحسرة،

بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحدًا، والني واحدًا، والدين واحدًا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم، والواجب عليكم، القيام بها، ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ قربت العبادة على ما سبق بالقاء، ترتيب المسبب على سببه.

وكان الالتق الاجتماع على هذا الأمر، وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أي: إلا الافتراق والتقطع، ولهذا قال: ﴿وَقَطِّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرق الأحزاب المتسبون لأتباع الأنبياء فرقًا، وتشتتوا، كُلٌّ يَدْعِي أَنَّهُ الْحَقُّ معه، والباطل مع الفريق الآخر، ﴿كُلٌّ حَزْبٍ يَمَّا لَكَ بِهِمْ قِيُونٌ﴾.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكًا للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتمنًا بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرز الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إِلَيْنَا رَجُوعٌ﴾ أي: فنجازيهم أتم الجزاء.

ثم فصل جزاءهم فيهم، منطوقًا ومفهومًا، فقال: ﴿فَنَنْ يَمْعَلُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحثت عليها الكتب ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبرسله، وما جاؤوا به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ﴾ أي: لا نضع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافًا كثيرة.

﴿وَإِنَّا لَهُمْ كَنُيُوتٌ﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة. أي: ومن لم يعمل من الصالحات، أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنه محروم، خاسر في دينه ودنياه.

(٩٥) ﴿وَكَرَّمْ عَلَى قَرَبٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستردكوها ما فرطوا فيه، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب. فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإيمان والإدراك.

(٩٧، ٩٦) ﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ يَنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ۝ وَاقْتَرَبَ الْعَذَابُ الْحَقُّ فَلَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَنْصَرُّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ أَنَّا كُنَّا فِي عَفْوَكَ مِن هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هذا تحذير من الله للناس، أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب افتتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين، لما

على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم، لعلهم بما يقدمون عليه، وأن الله قد أنعم مما يخافون ﴿وَنَلَقْنَهُمْ السَّالْكِهَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم، وأتوا على النجائب وفدًا لنشورهم، مهتين لهم قائلين: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فليتهيبكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم، بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم، بما أمركم الله من المخاوف والمكاره.

(١٠٤، ١٠٥) ﴿يَوْمَ نَقُوى السَّكَاءَ كُلِّيَّ الْيَتِيمَ لِلْغُتْمِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ حَلْتِي يُعِيدُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وَلَقَدْ كُتِبَ فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادُ السَّالِحِينَ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي: الورقة المكتوب فيها، فتنتثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتنزل عن أماكنها ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ حَلْتِي يُعِيدُ﴾ أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائها لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئًا، كذلك نعيدهم بعد موتهم.

﴿وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ نفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

﴿وَلَقَدْ كُتِبَ فِي الزُّبُرِ﴾ وهو الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلّة، كالنوراة ونحوها ﴿وَمِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي: كتبناه في الكتب المنزلّة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادُ السَّالِحِينَ﴾ الذين قاموا بالأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَسْبُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَرْزَأَنَا الْأَرْضَ نَدْرَأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية.

(١٠٦-١١٢) ﴿إِنِّي فِي هَذَا لِلنَّاسِ لَاقِيٌ عَبْدٌ وَمَا أَرْسَلْتُكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحْدٌ فَهَلْ أَنتُمْ شُرَكَاءُ فِي أَنْ تَقُولُوا فَقَدْ هَوَّيْنَاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَتَوْتَ أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدَ مَا تُوعَدُونَ﴾ إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُونَ مَا تَكْتُمُونَ﴾ وَإِنْ أَتَوْتَ لَعَلَّهُمْ يَسْتَفْتُونَ لَكَ مِنْ جِنِّ قُلْ رَبِّ أَسْمَأُ وَلَقَدْ رَبَّنَا الرَّحْمَنُ

لما أتوا ﴿بَلْ كُنَّا عَلَيْهِمْ﴾ اعترفوا بظلمهم، وعدل الله فيهم، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار، هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

(٩٨-١٠٣) ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّهَا﴾ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً مَا وَرَدُّهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لَّهُمْ فِيهَا زُجُورٌ وَمَنْ فِيهَا لَا يَسْمَعُ﴾ إِنَّ الْأَوَّلِينَ سَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَمَنْ فِيهَا أَشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَي: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أَي: وقودها وحطبها ﴿أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّوا﴾ وأصنامكم.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم، فلماذا قال:

﴿لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً مَا وَرَدُّهَا﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَ لَكَ فِيهِ وَرَبُّكَ الْأَوَّلِينَ كَفَرُوا أَنتُمْ كَاثِرُونَ﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا يتنقلون عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زُجُورٌ﴾ من شدة العذاب ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ صم بكم عي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتهما، لشدة غلبانها واشتداد زفيرها وتغيظها.

ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عُبد وهو راض بعبادته.

وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ سَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ أَي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ، وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة.

﴿أُولَئِكَ عَنْهَا﴾ أَي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فلا يدخلونها، ولا يكونون قريبًا منها، بل يبعدون عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوا حسيسها، ولا يروا شخصها.

﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ من المأكّل، والمشارب، والمناجح والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أَي: لا يفلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار، تنغيظ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ
خَالِدُونَ ﴿١٠٦﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَلَوْلَا ذُنُوبُهُمْ
الَّتِي لَمْ يُكْرَمُوا بِهَا لَكُنُوا مِنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُوعَدُونَ
﴿١٠٧﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ
﴿١٠٨﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْتَ الْأَخَرُ
رَبُّهَا عِبَادِيَ الصَّادِقُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ فِي هَذَا بَلَاءًا
لِقَوْمٍ عَصِيَّةٍ ﴿١١٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ
﴿١١١﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ
فَقُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ إِنْ كُنْتُمْ
عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمِ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١١٣﴾
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٤﴾ وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّةُ فَسَنَةَ لَكُمْ وَمَتَّعَ إِلَى حِينٍ ﴿١١٥﴾ قُلْ
رَبِّ أَسْمِكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٦﴾

سُورَةُ الْحَجِّ

الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر»
وغيرها.

﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: نسأل ربنا
الرحمن، ونستعين به على ما تصفون من قولكم؛ سنظهر
عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا لا نعجب بأنفسنا،
ولا ننكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي
ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعانه به من
رحمته، وقد فعل، والله الحمد.

الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ يعني الله تعالى على كتابه العزيز
«القرآن»، وبين كفايته التامة عن كل شيء، وأنه لا
يستغنى عنه فقال: ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَاءًا لِّقَوْمٍ عَصِيَّةٍ﴾ أي:
يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فيوصلهم
إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وليس للعابدين
الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية، لأنه الكفيل
بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار
باليغيب الصادقة، وباللدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد
الإيقان، المبين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعاً،
المعرف بعيوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها
في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان
مداخله على الإنسان. فمن لم يغتن القرآن فلا أغناه الله، ومن
لا يكفيه فلا كفاه الله.

ثم أتى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، فهو رحمته المهداة لعباده،
فالمؤمنون به قبلوا هذه الرحمة، وشكروها، وقاموا بها،
وغيرهم «كفروها»^(١)، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأبوا رحمة الله
ونعمته.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ
وَحْدٌ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ
أُنْتُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: متقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته،
فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي
فاقت المنن.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول
المثلات، ونزول العقوبة.

﴿فَقُلْ أَنْتُمْ كُفْرًا﴾ أي: أعلمتكم بالعقوبة ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾
أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا: - إذا نزل بكم
العذاب - ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾. بل الآن، استوى
علمي وعلمكم، لما أنذرتكم وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل
الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً.

﴿وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من
العذاب، لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر
شيء.

﴿وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّكُمْ فَسَنَةَ لَكُمْ وَمَتَّعَ إِلَى حِينٍ﴾ أي: لعل
تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تتمتعوا في
الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿قُلْ رَبِّيَ أَسْمِكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: بينا وبين القوم الكافرين،
فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل

(١) في الأصل (كفروها) ولعل الصواب ما أثبت.

تفسير سورة الحج

قيل مكة، وقيل: مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفَافًا رِيَكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرْوُفُهُمْ أَتَدَّهَلُ كُلُّ مُرْسِعَةٍ عَنَّا أَرْسَمَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم الذي رباهم بالنعيم الطاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرک والفسوق والعصيان، ويمتلوا أوامره مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالتها، وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كثيباً مهيباً، ثم كانت هباء منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتشتت النجوم، ويكون من القلائل والبلابل ما تنصدع له القلوب، وتجل منه الأفتدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرْوُفُهُمْ أَتَدَّهَلُ كُلُّ مُرْسِعَةٍ عَنَّا أَرْسَمَتْ﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ من شدة الفزع والهول.

﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ أي: تحسبهم - أيها الراي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾: فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً. ويومئذ ﴿يَرَىٰ لَكُم مِّنَ لَّيْوٍ ۖ وَأَيْتٍ وَأَيُّوٍ ۖ وَصَٰجِيٍّ ۖ وَيَوِيٍّ ۖ يَكُلِّي آمَرِي يَنْتَهِي ثَأْنًا يَّيُّوِيٍّ﴾ (١).

وهناك ﴿يَبْصُرُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَكُونُ لِي أَفْعَدْتُ مَعَ أَرْسُولِي سَبِيلًا ۖ يَتَوَلَّىٰ لِيَّ لَرَأَيْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ وتسود حيثند وجوه وتبيض وجوه. وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الدر، من الخير والشر، وتنتشر صحائف الأعمال، وما فيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفَافًا رِيَكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرْوُفُهُمْ أَتَدَّهَلُ كُلُّ مُرْسِعَةٍ عَنَّا أَرْسَمَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَصِلُ إِلَىٰ وَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَا نَفْسًا مِّن رَّبِّهِمْ مِّن نَّفْثَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقٍ ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُم وَنُقَرِّفَ الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَجَلَ حَمَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَحْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ تَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يَرْدُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ وَجَعَلْنَا شَرَاءَ أَلْفَاظِكُمْ مَا نَشَاءُ فَإِذَا أُنزِلْنَا عَلَيْهِمَا الْمَاءَ أَهْتَرَا وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ۝

من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للممتقين، وبرزت الحميم للغاوين ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِّن تَكَايٍ يُبَيِّدُ سَمْعَهُمَا مَا تُفْعِلُا وَتَفْعِلُا ۖ وَلَٰكِنَّا نَقُولُ مِمَّا مَكَانَ ضَيْقًا مُّفْرَيْنَ عَنَّا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ويقال لهم: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ وإذا نادوا ربهم، ليخرجهم منها، قال: ﴿أَفَحَسِبُوا أَنَّا كُنْهَمُونَ﴾ قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها شيئاً ولا قطعيراً.

هذه، والمتقون في روضات الجنات يجبرون، وفي أنواع اللذات يتفكحون، وفيما اشتبهت أنفسهم خالدون.

فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يعد له عُدته، وأن لا يليه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دناره، ومحبة الله وذكره، روح أعماله.

(٤، ٣) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ

(١) صار في هذه الآيات خطأ وتداخل بين آيات سورة المعارج وآيات سورة عبس، فأثبت آيات سورة عبس.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ۚ ثَانِي عَظْمِهِ ۖ يُضِلُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيًا وَنُذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ الْمَجَادِلَةُ الْمَقْدَمَةُ لِلْمَعْلَدِ، وَهَذِهِ الْمَجَادِلَةُ لِلشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ، الدَّاعِي إِلَى الْبِدْعِ، فَأَخِيرَ أَنَّهُ «يُجَادِلُ فِي اللَّهِ» أَي: يَجَادِلُ رَسْلَ اللَّهِ وَأَتَابِعَهُم بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضَ بِهِ الْحَقَّ.

﴿يَغْتَرِ بِغَيْرِ» صَحِيح «وَلَا هُدًى» أَي: غَيْرُ مُتَّبِعٍ فِي جِدَالِهِ هَذَا مِنْ يَهْدِيهِ، لَا عَقْلَ مُرْشِدٍ، وَلَا مَتَّبِعٍ مُّهْتَدٍ «وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ» أَي: وَاضِحٌ بَيِّنٌ، أَي: فَلَا لَهُ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ وَلَا نَفْلِيَّةٌ، إِنْ هِيَ إِلَّا شَبَاهَاتٌ، يُوَحِّيها إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ «وَلَا أَلْسِنَتَيْنِ يُؤْخَرُونَ إِلَيْنَّ أَوْلِيَاهُمَا يُجَادِلُونَنَا».

وَمَعَ هَذَا «ثَانِي عَظْمِهِ» أَي: لَا يُؤَيِّ جَانِبَهُ وَعَقْفَهُ، وَهَذَا كِتَابَةٌ عَنْ كِبَرِهِ عَنِ الْحَقِّ، وَاحْتِقَارُهُ لِلخَلْقِ. فَقَدْ فُرحَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ غَيْرِ النَّافِعِ، وَاحْتَقَرُ أَهْلَ الْحَقِّ، وَمَا مَعَهُمُ مِنَ الْحَقِّ، «لِيُضِلُّ» النَّاسَ أَي: لِيَكُونَ مِنْ دَعَاةِ الضَّلَالِ، وَيَدْخُلَ تَحْتَ هَذَا جَمِيعُ أُمَّةِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ.

ثُمَّ ذَكَرَ عَقُوبَتَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْآخِرِيَّةَ فَقَالَ: «لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيًا» أَي: يَفْتَضِحُ هَذَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَجِيبَةِ، فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ دَاعِيًا مِنْ دَعَاةِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، إِلَّا وَلَهُ مِنَ الْحَقِّ بَيْنَ الْعَالَمِينَ، وَاللَّعْنَةُ، وَالْبُغْضُ، وَالذَّمُّ، مَا هُوَ حَقِيقٌ بِهِ، وَكُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ.

﴿وَنُذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ» أَي: نَذِيرُهُ حَرْبًا الشَّدِيدَ، وَسَعِيرًا الْبَلِيعَ، وَذَلِكَ بِمَا قَدَّمَ يَدَاهُ «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ».

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعَذِّبُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ طَمَآنًا بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفِلْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۝ إِنَّا أَنشَأْنَاهُ كِتَابًا ۚ تَجْرِي مِن تَحْتِهِ الْأَنْهَارُ ۚ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ مَن كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَنَ يَصْرُعَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ ۚ مَا يَعْطِطُ ۝﴾

﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَمَا فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُ بِالرَّدَةِ مَا أَمَلَهُ الَّذِي جَعَلَ الرَّدَةَ رَأْسًا لِّعَالِهِ، وَعَوَضًا عَمَّا يَظُنُّ إِدْرَاكَهُ فُخَابِ سَعْيِهِ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ إِلَّا مَا قَسَمَ لَهُ.

وَأَمَّا الْآخِرَةُ، فَظَاهِرٌ، حَرَمُ الْجَنَّةِ الَّتِي عَرَضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَاسْتَحَقَّ النَّارُ.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ» أَي: الْوَاضِحُ الْبَيِّنُ.

﴿يَدْعُوا﴾ هَذَا الرَّاجِعُ عَلَى وَجْهِهِ «مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ» وَهَذَا صِفَةُ كُلِّ مَدْعُوٍّ وَمَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا.

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ» الَّذِي قَدْ بَلَغَ فِي الْبَعْدِ إِلَى حَدِّ النَّهْيَةِ، حَيْثُ أَعْرَضَ عَنْ عِبَادَةِ النَّافِعِ الضَّارِّ، الْغَنِيِّ الْمَغْنِيِّ، وَأَقْبَلَ عَلَى عِبَادَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ أَوْ دُونِهِ، لَيْسَ بِيَدِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ إِلَى حَصُولِ ضِدِّ مَقْصُودِهِ أَقْرَبُ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ فَإِنَّ ضَرْرَهُ فِي الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَعْلُومٌ «لَيْسَ الْمَوْلَى» أَي: هَذَا الْمَعْبُودُ «وَلَيْسَ الْعَشِيرُ» أَي: الْقَرِينُ الْمَلَاظِمُ عَلَى صَحْبَتِهِ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَوْلَى وَالْعَشِيرِ، حَصُولَ النِّفْعِ، وَدَفْعِ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ۚ ثَانِي عَظْمِهِ ۖ يُضِلُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيًا وَنُذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ الْمَجَادِلَةُ الْمَقْدَمَةُ لِلْمَعْلَدِ، وَهَذِهِ الْمَجَادِلَةُ لِلشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ، الدَّاعِي إِلَى الْبِدْعِ، فَأَخِيرَ أَنَّهُ «يُجَادِلُ فِي اللَّهِ» أَي: يَجَادِلُ رَسْلَ اللَّهِ وَأَتَابِعَهُم بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضَ بِهِ الْحَقَّ.

﴿يَغْتَرِ بِغَيْرِ» صَحِيح «وَلَا هُدًى» أَي: غَيْرُ مُتَّبِعٍ فِي جِدَالِهِ هَذَا مِنْ يَهْدِيهِ، لَا عَقْلَ مُرْشِدٍ، وَلَا مَتَّبِعٍ مُّهْتَدٍ «وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ» أَي: وَاضِحٌ بَيِّنٌ، أَي: فَلَا لَهُ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ وَلَا نَفْلِيَّةٌ، إِنْ هِيَ إِلَّا شَبَاهَاتٌ، يُوَحِّيها إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ «وَلَا أَلْسِنَتَيْنِ يُؤْخَرُونَ إِلَيْنَّ أَوْلِيَاهُمَا يُجَادِلُونَنَا».

وَمَعَ هَذَا «ثَانِي عَظْمِهِ» أَي: لَا يُؤَيِّ جَانِبَهُ وَعَقْفَهُ، وَهَذَا كِتَابَةٌ عَنْ كِبَرِهِ عَنِ الْحَقِّ، وَاحْتِقَارُهُ لِلخَلْقِ. فَقَدْ فُرحَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ غَيْرِ النَّافِعِ، وَاحْتَقَرُ أَهْلَ الْحَقِّ، وَمَا مَعَهُمُ مِنَ الْحَقِّ، «لِيُضِلُّ» النَّاسَ أَي: لِيَكُونَ مِنْ دَعَاةِ الضَّلَالِ، وَيَدْخُلَ تَحْتَ هَذَا جَمِيعُ أُمَّةِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ.

ثُمَّ ذَكَرَ عَقُوبَتَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْآخِرِيَّةَ فَقَالَ: «لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيًا» أَي: يَفْتَضِحُ هَذَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَجِيبَةِ، فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ دَاعِيًا مِنْ دَعَاةِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، إِلَّا وَلَهُ مِنَ الْحَقِّ بَيْنَ الْعَالَمِينَ، وَاللَّعْنَةُ، وَالْبُغْضُ، وَالذَّمُّ، مَا هُوَ حَقِيقٌ بِهِ، وَكُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ.

﴿وَنُذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ» أَي: نَذِيرُهُ حَرْبًا الشَّدِيدَ، وَسَعِيرًا الْبَلِيعَ، وَذَلِكَ بِمَا قَدَّمَ يَدَاهُ «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ».

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعَذِّبُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ طَمَآنًا بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفِلْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۝ إِنَّا أَنشَأْنَاهُ كِتَابًا ۚ تَجْرِي مِن تَحْتِهِ الْأَنْهَارُ ۚ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ مَن كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَنَ يَصْرُعَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ ۚ مَا يَعْطِطُ ۝﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعَذِّبُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ طَمَآنًا بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفِلْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۝ إِنَّا أَنشَأْنَاهُ كِتَابًا ۚ تَجْرِي مِن تَحْتِهِ الْأَنْهَارُ ۚ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ مَن كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَنَ يَصْرُعَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ ۚ مَا يَعْطِطُ ۝﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعَذِّبُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ طَمَآنًا بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفِلْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۝ إِنَّا أَنشَأْنَاهُ كِتَابًا ۚ تَجْرِي مِن تَحْتِهِ الْأَنْهَارُ ۚ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ مَن كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَنَ يَصْرُعَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ ۚ مَا يَعْطِطُ ۝﴾

الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

(١٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لما ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنه على قسمين: مقلد، وداع، ذكر أن المتسمي بالإيمان أيضاً على قسمين: قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم. والقسم الثاني: المؤمن حقيقة، صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنه^(١) يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار. وسميت الجنة جنة، لاشتغالها على المنازل والقصور والأشجار والتواب التي تُجْرَى مِنْ فِيهَا، ويستتر بها من كثرتها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فما أَرَادَهُ تعالى فعله من غير معانٍ ولا معارض، ومن ذلك إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(١٥) ﴿مَنْ كَانَتْ يَتَرَأَى أَنَّ يَتَّصِرَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْرِيهِ كَيْدُهُ مَا يَكِيدُ﴾ أي: من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه سيفتح، فإن النصر من الله ينزل من السماء ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ذلك الظان ﴿بِسَبَبٍ﴾ أي: حبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وليرقى إليها ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ النصر النازل عليه من السماء^(٢).

﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْرِيهِ كَيْدُهُ﴾ أي: ما يكيد به الرسول، ويعمله من محاربه، والحرص على إبطال دينه، ما يغيظه من ظهور دينه، وهذا استفهام بمعنى النفي، [وأنه] لا يقدر على شفاء غيظه، بما يعمل من الأسباب.

ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه الذي يظن بجعله، أن سعيه سيفيده شيئاً، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي، تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول - إن كان ممكناً - انت الأمر مع بابه، وارتنق إليه بأسبابه، اعمد إلى حبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به، حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فشدّها، وأغلقها، واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك. فهذا هو الرأي والمكيدة، وأما ما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة، فيها من الوعد والبالغة بنصر الله لدينه، ولرسوله، وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأيس الكافرين، الذين يريدون أن يلقنوا نور الله بأفواههم، والله

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يُبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَعَالَهُ مِنْ مَكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رَيْبٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْطِعٌ مِنْ حديدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحْكَمُ لَكُمْ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُزُلُوفٍ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

متم نوره ولو كره الكافرون، أي: وسعوا مهما أمكنهم.

(١٦) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يُبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أي: وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا، جعلناه آيات بينات واضحات دلالات على جميع المطالب والمسائل النافعة، ولكن الهداية بيد الله، فمن أراد الله هدايته، احتدى بهذا القرآن، وجعله إماماً له وقُدوةً، واستضاء بنوره، ومن لم يرد الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئاً، بل يكون حجة عليه.

(١٧-٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَعَالَهُ مِنْ مَكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رَيْبٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْطِعٌ مِنْ حديدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحْكَمُ لَكُمْ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُزُلُوفٍ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

(١) في النسخين: أنهم. (٢) في هامش ب (فليمدد) فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع النصر عن الرسول.

﴿الْحَاقَّةُ﴾

٣٣٥

﴿الْحَاقَّةُ﴾

وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْبَةُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمُ نُذُفُهُ مِنْ عَذَابِ آيَةٍ ﴿٢٦﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٧﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٨﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ لِنَقْضُوا تَفْتَهُهُمْ وَلِنُؤْتِيَهُمْ نَافِلَةً مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَلِنُقَرِّبَهُمْ إِلَى الْعَذَابِ وَنَلَقِّنَهُمْ نَافِلَةً مِنَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴿٣٠﴾ وَلِيُذَكِّرُوا إِلَى الْبَيْتِ الْعَمِيقِ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا بَشَرْتُ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٢﴾

هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ.

واعترض تعالى بين هذه الآيات، بذكر سجود المخلوقات له، جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، الذي يشمل الحيوانات كلها، وكثير من الناس، وهم المؤمنون.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي: وجب وكتب، لكفره وعدم إيمانه، فلم يوقفه الله للإيمان، لأن الله أهانه.

﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ولا راد لما أراد، ولا معارض لمشيئته، فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربه، خاضعة لعظمته، مستكنة لعزته، عانية لسلطانه، دل على أنه وحده الرب المعبود، والملك المحمود، وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه، فقد ضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً ميبساً.

(٢٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْبَةُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمُ نُذُفُهُ مِنْ عَذَابِ آيَةٍ﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربههم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإيمان،

طوائف أهل الأرض، من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم، التي حفظها وكتبها، وشهدا، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ كل يدعي أنه المحق.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والمشركين. ﴿فَقُلْعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أي: يجعل لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار، ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ الماء الحار جداً، يصهر به ما في بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره. ﴿وَهُمْ تَقَنَّنَ مِنْ حَرِّهِ﴾ بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها وتقمعهم.

﴿كُلْعَمَا أَزَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فلا يفتقر عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، ويقال لهم تويحاً: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: المحرق للقلوب والأبدان. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْعُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَتَّى يُبَرِّيَ مِنْ نَجَبِهَا أَزْوَاجَهُمْ﴾، ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب، وجميع الرسل.

﴿يَحْمَلُونَ فِيهَا مِنْ آسَاوَرٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: يُسَوِّرُونَ في أيديهم، رجالهم ونساءهم آساور الذهب.

﴿وَلِيَأْكُلُوا مِنْهَا حَرِيرٌ﴾ فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها، لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر، وذلك بسبب أنهم ﴿هَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة، التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله.

﴿وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الصراط المحمود. وذلك، لأن جميع الشرع كله محتو على الحكمة والحمد، وحسن الأمور به، وقيح المنهي عنه، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح. أو: هدوا إلى صراط الله الحميد، لأن الله كثيراً ما يضيف الصراط إليه، لأنه يوصل صاحبه إلى الله.

وفي ذكر ﴿الْحَمِيدِ﴾ هنا، ليعين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومثته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة: ﴿لَقَدْ تَدَبَّرْنَا بِرَبِّهِ

المساجد.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي: أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجاً وعمَّاراً، رجالاً، أي: مشاة على أرجلهم من الشوق.

﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ناقة ضامر، تقطع المهامه والمفاوز. وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن.

﴿مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَيْنِي﴾ أي: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبدوا في ذلك وأعادوا، وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالاً وركباً من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغبا فيه فقال:

﴿يَسْتَهْدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي: لينالوا بيت الله منافع دينية، من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آثَارِهِ مَثْلُونِينَ عَلَى مَا دَرَجَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْآفْتِكِرِ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية أي: ليدذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكراً لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْإِسْلَامِ الْفَقِيرِ﴾ أي: شديد الفقر.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام. ﴿وَلْيُؤْفِقُوا دُرُوسَهُمْ﴾ التي أوجبها على أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا.

﴿وَلْيَتْلُوُوا بِآيَاتِ الْقَسِيِّمِ﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق. المعتق من تسلط الجارية عليه. وهذا أمر بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالمناكس عموماً لفضله وشرفه، ولكونه المقصود، وما قبله وسأل إليه. ولعله - والله أعلم أيضاً - لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعا لنسك، أم مستقلاً بنفسه.

(٣١، ٣٠) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ خُرُوسَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْتُمْ إِلَّا مَا يَشَأَنَّ عَلَيْكُمْ فَاجْتَبُوا أَلَيْسَ مِنَ الْأَرْزَنِ وَاجْتَبُوا قَوْلَ الرَّؤُوفِ﴾ هَفَاةَ اللَّهِ عَزَّ مُتَرَكِّبِينَ بِدَى وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ

والصد أيضاً عن المسجد الحرام الذي ليس ملكاً لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم فيه، والطائر إليه. بل صدوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحال أن هذا المسجد الحرام، من حرمة واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه بالحاد يظلم، نذقه من عذاب أليم.

فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن سبيله ومنع من يريده بزيارة، فما ظنكم^(١) أن يفعل الله بهم؟! وفي هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه، وفعلها.

(٢٦-٢٩) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وَاذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَيْنِي ﴿يَسْتَهْدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آثَارِهِ مَثْلُونِينَ عَلَى مَا دَرَجَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْآفْتِكِرِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْإِسْلَامِ الْفَقِيرِ﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُؤْفِقُوا دُرُوسَهُمْ وَلْيَتْلُوُوا بِآيَاتِ الْقَسِيِّمِ﴾ يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمته بانيه وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنائه، فبناه على تقوى الله، وأسمه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئاً، بأن يخلص لله أعماله، وبينه على اسم الله.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِي﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس. وأضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: المصلين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرنفة التي تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف، وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس

(١) كنا في ب، وفي أ: ظنهم.

تَهْوِي بِهَ الْزَبْجِ فِي مَكَايِ سَجِيٍّ. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم من تلكم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمان الله وإجلالها، وتكريمها، لأن تعظيم حرمان الله من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثابه الله ثواباً جزيلًا، وكانت خيرًا له في دينه ودنياه وأخراه عنده به.

وحرمان الله: كل ماله حرمة، وأمر باحترامه، بعبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، والحرم والإحرام، والهدايا، والعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها. فتعظيمها إجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متثاقل، ثم ذكر مته وإحسانه، بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام، من إبل وبقر وغنم، وشرعها من جملة المناسك التي يتقرب بها إليه، فعظمت مته فيها من الوجهين. ﴿إِلَّا مَا يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْبَيْتَةُ وَالَّذُومُ وَلَقَدْ أَفْخِزُّرِ﴾ الآية.

ولكن الذي من رحمته بعباده، أن حرمه عليهم، ومنعهم منه، تركية لهم، وتطهيرًا من الشرك به، وقول الزور، ولهذا قال: ﴿فَاتَّخِذُوا الزِّنْكَ﴾ أي: الخبث القدر ﴿وَمِنَ الْاَوْتَنِ﴾ أي: الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس.

والظاهر أن ﴿وَمِنَ﴾ هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهيًا عنها عمومًا، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصًا. ﴿وَاتَّخِذُوا قَوْلَ الْاَوْتَرِ﴾ أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور. فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور، أمرهم أن يكونوا ﴿حُفَّةَ بِلَهٍ﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فمثلته ﴿فَكُنَّا خَرًّا وَمَنْ لَمْ يَكُنْ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَحَقَّقَهُ الْكَلْبُ﴾ بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِي بِهَ الْزَبْجِ فِي مَكَايِ سَجِيٍّ﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة.

ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبلبات، فإما أن تخطفه الطير فقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

(٣٣، ٣٢) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْطَمْ شَعْرًا﴾ الله فإنها من تقوى القلوب. ﴿لَكُرْ فِيهَا مَنَفَعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ جَعَلَهَا إِلَى الْبَيْتِ

الْقَبِيِّ﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا لكم، من تعظيم حرمانه، وشعاره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت.

وتقدم أن معنى تعظيمها، إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها، باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: [في] الهدايا ﴿مَنَفَعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا في الهدايا المسوقة، من البدن ونحوها، يتنفع بها أربابها، بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مقدار موقت، وهو ذبحها، إذا وصلت محلها وهو البيت العتيق أي: الحرم كله «منى» وغيرها، فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

(٣٥، ٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أَمَةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْفَرِ﴾ فإنها ﴿لِللَّهِ وَجِدَ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين إذا ذكر الله وحلت قلوبهم والصدور على ما أصابهم والقبض السكوة وكان رزقهم يفتنون أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكًا، أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولنظر أيكم أحسن عملاً، والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكًا، لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال:

﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْفَرِ﴾ فإنها ﴿لِللَّهِ وَجِدَ﴾، وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو الوهية الله، وإفراجه بالعبودية، وترك الشرك به، ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خوفًا وتعظيمًا، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده.

﴿وَالْقَانِطِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من البأساء والضراء، وأنواع الأذى فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسين ثوابه، مرتقين أجره. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ أَسْلَوُا﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا

٣٣٦

حُفَّةً لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحَطُّهُ أَطْيَرٌ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ ﴿٣٦﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٧﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى آيَاتٍ أَلْتَبِيحِ ﴿٣٨﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْيَهُكُمُ اللَّهُ وَجُدْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقْبِي الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِلَتْ جُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤١﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا ذِمَّاهَا وَلَكِنْ يَبَالَ اللَّهُ النَّقِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا ذِمَّاهَا وَلَكِنْ يَبَالَ اللَّهُ النَّقِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٤٤﴾

والاحتساب، والنية الصالحة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يَبَالَ اللَّهُ النَّقِيُّ مِنْكُمْ﴾.

ففي هذا حَثٌّ وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخراً ولا رياءً ولا سمعةً، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات، إن لم يفتقر بها الإخلاص وتقوى الله، كان [كالقشرا] الذي لا لب فيه، والجسد، الذي لا روح فيه.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِ اللَّهِ﴾ أي: تعظموه وتجلوه ﴿عَلَى مَا هَدَيْكُمْ﴾ أي: مقابلته لهدايته إليكم، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد، وأعلى التعظيم.

﴿وَيُؤَيِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ عبادة الله بأن يعبدوا الله، كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة، فليعبدوه معتقدين وقت عبادتهم إطلاعه عليهم، ورويته إياهم. والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان من نفع مال، أو علم، أو جاه، أو نصح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك.

(١) في الأصل (كالقشور) ولعل الصواب ما أثبت.

اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة. ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والمماليك، والأقارب. والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع وجوها.

وأتى بـ ﴿مِنْ﴾ المفيدة للتبعض، ليعلم سهولة ما أمر الله به، ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبء في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له، ورزقه إياه. فإياها المرزوق من فضل الله، أنفق مما رزق الله ينفق الله عليكم، ويزدك من فضله.

(٣٧، ٣٦) ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِلَتْ جُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا ذِمَّاهَا وَلَكِنْ يَبَالَ اللَّهُ النَّقِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ اللَّهُ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَيُؤَيِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا دليل أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة. وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره، اللُّبْنُ، أي: الإبل، والبقر، على أحد القولين، فتعظم وتسمن، وتستحسن.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: المهدى وغيره، من الأكل، والصدقة، والانتفاع، والثواب، والأجر. ﴿فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: عند ذبحها قولوا: «بسم الله» واذبحوها.

﴿صَوَافٍ﴾ أي: قائمات، بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تنحر.

﴿فَإِذَا وَجِلَتْ جُوبُهَا﴾ أي: سقطت في الأرض جنوبها، حين تسليخ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض، فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منها.

﴿تَسْكُلُوا مِنْهَا﴾ وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه.

﴿وَأَطْعَمُوا الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ﴾ أي: الفقير الذي لا يسأل تقنعاً وتعطفاً، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيها.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي: البدن ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيرها لها، لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها، رحمة بكم وإحساناً إليكم فاحمدوه.

وقوله: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا ذِمَّاهَا﴾ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط. ولا ينال الله من لحومها ولا دماها شيء، لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها،

الله، ودَبَّ الكفار المؤذنين للمؤمنين، البادين لهم بالاعتداء، عن ظلمهم واعتنائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين ﴿فَلَمَّزَتْ صَوْمِعُ وَبَيْحٌ وَصَلَوَاتٌ وَسَجْدٌ﴾ أي: لهدمت هذه المعابد الكبار، لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين.

﴿يَذْكُرُ فِيهَا﴾ أي: في هذه المعابد ﴿أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرٌ﴾ تقام فيها الصلوات، وتلى فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لاستولى الكفار على المسلمين، فخربوا معابدهم، وفتنهم عن دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع، لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره.

ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وبركتهم، دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْكَائِفِ﴾.

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاوهم من الإفرنج. بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولأنهم من الكفار على هدمها، والله أخير أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعا.

أجب، بأن هذا السؤال والاستشكال، داخل في عموم هذه الآية، وفرد من أفرادها. فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، ودخل في حكمها، تعتبره عضواً من أعضاء المملكة، وجزءاً من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بقدورها أو عُدوها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها.

فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينية والدنيوية، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد، فإنها - والله الحمد - في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

فالمحسون لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة، ويسبحون الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿مَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى ذُنُوبُهُمْ﴾.

(٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَثُورٍ﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدافع عنهم كل مكروه. ويدفع عنهم كل شر - بسبب إيمانهم - من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسينات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف. كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل، ومستكثر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي: خائن في أمته، التي حمله الله إياها، فيخس حقوق الله عليها، ويخونها، ويخون الخلق.

﴿كَثُورٍ﴾ لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان. فهذا لا يحبه الله، بل يغيضه ويمقت، وسيجازهيه على كفره وخيائته، ومفهم الآية، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه.

(٣٩-٤١) ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنَ دِينِهِمْ بَعْضَ حَقِّ آلَاءِ أَتْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَمُتَّتْ صَوْمِعُ وَبَيْحٌ وَصَلَوَاتٌ وَسَجْدٌ يَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرٌ وَلَنُصَرِّفَنَّ اللَّهُ مِنْ بَيْنَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَفَوَّضٌ غَيْرٌ﴾ ﴿الَّذِينَ إِن تَنَكَهْمُ فِي الْأَرْضِ أَغْمَاؤُا فَالْصَّلَاةُ وَآثَارُ الزَّكَاةِ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عِيقَةُ الْأُمُورِ﴾ كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، وأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية. فلما هاجروا إلى المدينة وأوذوا، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم، لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستصبروه، وليستعينوا به.

ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ﴾ أي: أخرجوا إلى الخروج، بالأذية والفتنة ﴿بَعْضَ حَقِّ آلَاءِ﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أَتْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أي: إلا أنهم وعدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين، فإن كان هذا ذنباً، فهو ذنبهم كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْوَا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَرِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

وهذا يدل على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه إقامة دين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٤٢﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصُّلُوحُ وَبِيعَ وَصْلَاتُكُمْ وَمَسْجِدُكُمْ فَكُفِرَ فِيهَا بِأَسْمِ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَمْ تُنَصِرْ لَكَ اللَّهُ لِقَايَ عَزِيزٌ ﴿٤٣﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٦﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٧﴾ فَكَانَ مِنْ قَرْبِهِ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَفَصِرَ مَشِيدُ ﴿٤٨﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٩﴾

الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعاً، أو غير مقدر، أنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصددين له لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به.

﴿وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: جميع الأمور ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى. فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشؤومة، وعاقبته مذمومة.

(٤٢-٤٦) ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ وقوم إِبْرَاهِيمَ وقوم لُوطٍ ○ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ○ فَكَانَ مِنْ قَرْبِهِ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَفَصِرَ مَشِيدُ ○ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ

(١) زيادة من هامش ب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في أ: وعدتكم، وهو سبق قلم - والله أعلم -.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصراري، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من (كثيراً) ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يُرِيَّ عبادَه من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت - والله الحمد - أسبابه، لإشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم، والشعور مبدأ العمل (٢) فتحمدته ونسأله أن يتم نعمته. ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَيُنَصِّرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيرهم فابشروا يا معشر المسلمين! فإنكم وإن ضعف عددكم، وعُدَّتْكم وقوي عدد عدوكم وعدتهم (٣)، فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ بِغُرْمِكُمْ وَلَقَدْ أَخَذْنَاكُمْ فِيهَا بِأَيْمَانٍ صَالِحٍ﴾ فقد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَيَكُونُوا عَصِيْبَةً لِّسُلْطَانِهِمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف أن من ادعى أنه ينصر الله، وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب، فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ في أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها في الجمعة والجماعات.

﴿وَمَا تَزَالُ تَزْكَوْهُ﴾ التي عليهم خصوصاً وعلى رعيبتهم عموماً، أتوها أهلها، الذين هم أهلها.

﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعاً وعقلاً، من حقوق الله، وحقوق الآدميين.

﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا

السُّنْبُورُ أَي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المراثيات، وأما عمى البصر، فغايبته بلغة ومنفعة نبوية.

(٤٧، ٤٨) ﴿وَسَمِعْنَاكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝ وَكَأَنَّ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِنَا فَذَلِكُنَا إِلَى الصَّيْرِ ۝ أَيْ: سَمِعْنَاكَ

هؤلاء الكذّوبون بالعذاب لجهلهم وظلمهم، وعنادهم وتعجيزًا لله، وتكذيبًا لرسله، ولأن يخلق الله وعده، فما وعدهم به من العذاب، لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع. وأما عجلته والمبادرة فيه، فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستغرنك عجلتهم وتعجيزهم إيانا. فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الآليم، ولهذا قال: ﴿وَلَيْكَ يَوْمَئِذٍ عَذَابٌ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من طوله، وشدته، وهوله، فسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإن هذا اليوم، لا بد أن يدركهم.

ويحتمل أن المراد: أن الله حليم، ولو استعملوا العذاب، فإن يوماً عنده كألف سنة مما تعدون. فالمدة، وإن تطاولت، واستبطأت فيها نزول العذاب، فإن الله يمهّل المدد الطويلة، ولا يمهّل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يغفلهم.

﴿وَكَايْنٍ مِّن قُرْبَىٰ أُمِّلَتْ لَهَا﴾ أي: أمهلتها مدة طويلة
﴿وَجِئْتُهَا عَالِيَةً﴾ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم،
موجباً لمبادرتنا بالعقوبة.

﴿ثُمَّ أَخَذْنَاهُ بِالْعَذَابِ﴾ وَأَنَّ الْمَسِيرِ﴾ أَي: مع عذابها في الدنيا، سترجع إلى الله، فيعذبها بذنوبها. فليُحْلَزْ هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

(٤٩-٥١) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا لَكُمْ نِيزٌ مُبِينٌ ۝ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ۖ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِلِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝﴾^(١) يَأْمُرُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَخَاطِبَ النَّاسَ جَمِيعًا، بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، مَبْشَرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِثَوَابِ اللَّهِ، مُنْذِرًا لِلْكَافِرِينَ وَالظَّالِمِينَ مِنْ عِقَابِهِ.

يَقُولُونَ يَا أَوْ عَادَانِ بِسْمَعُونَ يَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى
الْقُلُوبُ أَلَمْ يَكُنِ فِي السَّمُورِ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَإِنْ
يَكْذِبُكَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُوكُونَ فَلَسْتُ بِأُولَى رَسُولٍ كَذَّبَ، وَلِيسُوا
بِأُولَى أُمَّةٍ كَذَّبَتْ رُسُلَهَا، ﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ بِقَالِهِمْ قَوْمٌ نُوْحٌ وَعَادٌ
وَمُؤَسَّدٌ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمٌ لُوطٌ ۝ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ آي: قَوْم
شُعَيْب.

﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَلْمِثْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلهم، حتى استمروا في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم وشرهم يزدادون.

﴿فَمِنْ أَهْلِهِمْ﴾ بالعذاب أخذ عزيز مقتدر ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكارى عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأفظع المثالات، فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلكت بالريح العقيم. ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذوبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزل من الله، وكم من المعذنين المهلكين أمثال هؤلاء كثير، ولهذا قال:

﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: وكمن قرية ﴿أَهْلُهَا﴾ بالعباد الشديد والخزي الديني ﴿وَقَدْ ظَلَمُوا﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظلماً منا، ﴿فَقِيلَ خَاوِبَةٌ﴾ عَنِ عَرْوَيْهَا أي: فذباهم متهدمة، قصورها وجدرانها، قد سقطت عروشها، فأصبحت خراباً بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آنسة، ﴿وَبَثَّرَ مُعْتَطَوً وَاقَصَّرَ ثَمِيدٌ﴾ أي: وكمن من بثر، قد كان يزدحم عليه الخلق لشربهم، وشرب مواشيهم، ففقد أهله، وعدم منه الوارد والصادر. وكمن من قصر، تب عليه أهله، فشيده ورفعوه وحصنوه وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر، ومثالاً لمن فكر ونظر.

ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض، لينظروا ويعتبروا، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبْدانهم وقلوبهم ﴿فَتَكُونُوا لَهُمْ عَاقِلُونَ﴾ آيات الله ويتأملون بها مواقع عبه ﴿أَوْ كَذَلِكَ يُسَمِّعُونَ﴾ أخبار الأمم الماضية، وأنباء القرون المعنيين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب.

ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم (٥٦) من هذه السورة فجمع بينها وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) ثم فرها بما يوافق الذي كتب، فعذلت الآية وصورتها، وأثبتت التفسير كما هو.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ
قَرِينَةٍ أَصْلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا إِلَى الْمَعِيدِ
﴿٨﴾ قُلْ يَتَّبِعْنَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ فَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
﴿١١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾ لِيَجْعَلَ
مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتُخْفِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ عَقِيمٌ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ يَدِهِ
يَحْكُمُ يَتَمَتَّعُونَ كَأَنَّكَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمُ الْبَارِزُ فَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
ثَقِيلٌ ﴿١٦﴾ يَخِيرُ تَعَالَى بِحُكْمِهِ الْبَالِغَةِ، وَاخْتِيَارَهُ لِعِبَادِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ
مَا أَرْسَلَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﴿١٧﴾ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴿١٨﴾ قَرَأَ
قِرَاءَتَهُ، الَّتِي يَذْكُرُ بِهَا النَّاسَ، وَيَأْمُرُهُمْ وَنَهَاهُمْ.

وقوله: ﴿ثُبُثٌ﴾ أي: بين الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالمخوف، وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به.

ثم ذكر تفصيل النذارة والبيارة فقال: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم إيماناً صحيحاً صادقاً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿فِي جَنَّاتٍ الْخَبِيرِ﴾ أي: الجنات التي يتنعم بها بأنواع النعيم من المأكَل والمشرب والمناجى والصور والأصوات والتنعم برؤية الرب الكريم وسماع كلامه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا نعمة ربهم وكذبوا رسله وآياته فأولئك أصحاب الجحيم أي: الملازمون لها المصاحبون لها في كل أوقاتهم، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يفر عنهم لحظة من عقابها.

(٥٧-٥٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٢﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْفِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ عَقِيمٌ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ يَدِهِ يَحْكُمُ يَتَمَتَّعُونَ كَأَنَّكَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمُ الْبَارِزُ فَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ ثَقِيلٌ ﴿١٥﴾ يَخِيرُ تَعَالَى بِحُكْمِهِ الْبَالِغَةِ، وَاخْتِيَارَهُ لِعِبَادِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مَا أَرْسَلَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﴿١٦﴾ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴿١٧﴾ قَرَأَ قِرَاءَتَهُ، الَّتِي يَذْكُرُ بِهَا النَّاسَ، وَيَأْمُرُهُمْ وَنَهَاهُمْ.

﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: في قراءته، من طرفه ومكايده ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشبهه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: يزيله ويذهب ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته. و﴿يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ﴾ أي: يتقنها ويحررها ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: كامل القوة والاعتدال. فبكمال قوته يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقى الشياطين ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال حكمته مَنَّ الشياطين من الإلقاء المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً﴾ لطافتين من الناس، لا

يبالي الله بهم، وهم الذين ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، داخلهم الرب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تنهيم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال:

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: مشافة لله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقى الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطافنين، فيظهر به ما في قلوبهم من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله:

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولأن الله منعمهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من

ظلم، وجُني عليه، فالتصر إليه أقرب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ﴾ أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم. فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالغفو والمغفرة.

فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تغفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فَمَنْ عَسَا وَاسْلُحْ فَأَبْغِزْ عَلَى اللَّهِ﴾.

(٦٢، ٦١) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ○ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَشْعُرُونَ مِنْ دُونِهِ، هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿ذَلِكَ الَّذِي شَرَعَ لَكُمْ تَكْلِماً الْحَسَنَةَ الْعَادِلَةَ، هُوَ حَسَنُ التَّصَرُّفِ فِي تَقْدِيرِهِ وَتَدْبِيرِهِ الَّذِي ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا. فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك قيام الفصول ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على نفثن الحاجات. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى ديب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ﴿سَوَاءٌ يَنْكُرُ مَنْ أَمَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَوَاءٌ بِالنَّهَارِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ لَقُّهُ﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وَأَنَّ مَا يَشْعُرُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات. ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الذي هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فاني، فيبطل تبعا لغايتها ومقصودها.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه. ومن كبريائه، أن كرميه وسع السموات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي

٣٣٩

٣٣٩

٣٣٩

الْمَلِكُ يُومِنُ بِاللَّهِ بِحَكْمٍ بَيْنَهُمْ فَأَلْزَمَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِيثٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ ذُرْفًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلٌ رِضْوَانُهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عَاقَبَ بِهِ، ثُمَّ يُغْنِ عَلَيْهِ لَيَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ ذُرْفًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِغُ بِهِ الْأَرْضَ خُضْرًا إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْكَفِيدُ ﴿٦٤﴾

العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون، إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه أن العبادات كلها الصادرة من أهل السموات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه. ولهذا كان التكبير شعارا للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها.

(٦٤، ٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِغُ بِهِ الْأَرْضَ خُضْرًا﴾ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ○ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْكَفِيدُ ﴿٦٤﴾ هذا حدث منه تعالى، وترغب في النظر بآياته الدالات على وحدانيته، وكماله، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تشاهد بصرك وبصيرتك ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر فينزل على أرض خاشعة مجربة، قد أغبرت أرجاؤها، ويسس ما فيها، من شجر ونبات.

فتصبح مخضرة قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها

الحميد في غناه.

(٦٥، ٦٦) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالْكَائِنِينَ لَمُؤْتٍ رَحِيمٌ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ثُمَّ يُعْسِئُكُمْ ثُمَّ يُعْصِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ۝ أَيُّ أَلَمٍ تَشَاهِدُ يَبْصُرُ وَقَبْلَكَ نِعْمَةُ رَبِّكَ السَّابِقَةُ، وإياديه الواسعة، و﴿إِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع ما في الأرض، مسخر لبنى آدم، حيواناتها لركوبه، وحمله وأعماله، وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها، ويتنفع بها.

﴿وَالْفَلَكَ﴾ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن ﴿يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، تحكمكم، وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها. ومن رحمته بكم أنه ﴿يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ فلولا رحمته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض، فتلقت ما عليها، وهلك من فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَيِّفُ السُّكَوتَ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَ وَلَئِنْ رَأَيْتُمُ السَّحَابَ مِنْ جُحُودٍ يَأْتِيَنَّكُمْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْغَاثِ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَائِنِينَ لَمُؤْتٍ رَحِيمٌ﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضر. ومن رحمته، أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ﴾ أوجدكم من العدم ﴿ثُمَّ يُعْصِيكُمْ﴾ بعد أن أحياكم ﴿ثُمَّ يُعْصِيكُمْ﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرته ربه.

(٦٧-٧٠) ﴿لِكُلِّ أَشْرٍ جَعَلْنَا مَسْكًا هُمْ فِيهِ يَكْسِبُونَ فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِلَىٰ رَبِّكَ يُلَاقُونَ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ دُونِ الْحَدِّكُوتِ فَقُلِ اللَّهُ أَفْضَلُ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ اللَّهُ بِمَا تَعْبُدُونَ خَبِيرٌ ۝ أَلَيْسَ فِي ذَلِكَ كِتَابٌ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَسْكًا﴾ أي: معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَسْلُبُكُم مِّنْ مَّا آتَاكُمْ﴾ الآية.

(١) في ب: (عبادة الخير، ويدفع عنهم الشر).

بذلك منظر بهيج، إن الذي أحياها بعد موتها وهمودها لمحيي الموتى، بعد أن كانوا رميمًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَكَبِيرٌ خَبِيرٌ﴾ اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر^(١)، بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك. ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، ويدور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات.

﴿خَبِيرٌ﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

﴿كُلُّ مِمَّا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بملكه وحكمته، وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء.

﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ لَهْوُ الْعَيْنِ﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه. ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكره بهم من قلة. ومن غناه، أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولداً، ومن غناه، أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق، بوجه من الوجوه، فهو يُطْعَمُ ولا يُطْعَمُ، ومن غناه، أن الخلق كلهم مفتقرون إليه، في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم، ومن غناه، أنه لو اجتمع من في السموات ومن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته، فأعطاهم فوق أمانيتهم، ما نقص ذلك من ملكه شيء، ومن غناه أنَّ يده سحابة بالخير والبركات، الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس. ومن غناه وكرمه، ما أودعه في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿الْحَكِيمُ﴾ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه لكونها حسنى، وفي صفاته لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة. وفي شرعه لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد، الذي يملأ ما في السماوات والأرض وما بينهما، وما شاء بعدها، الذي لا يحصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده،

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٤٠

سُورَةُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَآ فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ. وَنَسِيتُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧١﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٧٢﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا تَنْتَزِعُوا عَنْكَ فِي الْأُمْرِ وَادْعُ إِلَى رِبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَإِنْ جَدَلْتَهُ فَقُلْ إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلَفُونَ ﴿٧٥﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ بِهِمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧٧﴾ وَإِذَا نَسِيتُمْ آيَاتُنَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ نَعْرِفْ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ كَمَا دُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبْشِرُونَ بِالَّذِينَ نَارُكَ وَعَدَهَا اللَّهُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرَ ﴿٧٨﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها خفيها وجليها، مقدمها ومتأخرها، أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبتته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم قال له: «اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان تصوره عندهم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

(٧١، ٧٢) ﴿وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ وإذا نُسِيتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبْشِرُونَ بِالَّذِينَ نَارُكَ وَعَدَهَا اللَّهُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرَ﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به وغيره، وأن حالهم أقيح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد، تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصاً من الأيمن أهل الشرك والجهل المبين. فإنه إذا ثبت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَنْتَزِعُكَ فِي الْأُمْرِ﴾ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جنتهم به، يعقلهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد يقولون: «تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله».

وكقولهم: «إنما البيع مثل الربا» ونحو ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحااجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال.

فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالاعتصار على هذه دليل على أن مقصوده التعت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعتضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يشك عن الدعوة شيء، لأنك على ﴿هَذِهِ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به، فانت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم وآرائهم، ويوقفك اعتراضهم. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ آلْحَقِّ الْمُنِيرِ﴾ مع أن في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمَعَ هَذِهِ مُسْتَقِيمٌ﴾ إرشاداً لأجوبة المعتضين، على جزئيات الشرع، بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول.

والهدى ما تحصل به الهداية من مسائل الأصول والقروء، وهي المسائل التي يعرف حسنها وعدلها وحكمتها بالعقل والفترة السليمة، وهذا يعرف بتدبير تفاصيل المأمورات والمنهيات.

ولهذا أمره الله بالعدل عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وَإِنْ جَدَلْتَهُ فَقُلْ إِنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فمن وافق الصراط المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه، أن يكون حكماً بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال:

يَكَاذِبُهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٤﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٥﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾ مَا يَكُنْ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٧﴾ يَكَاذِبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٨﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا بِيَكُنْ يُرْهِمُهُمْ وَسَنَكُنُّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْبُدُوا اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٩﴾

سُورَةُ الْحُجُّ مَثْنِي

﴿ضَعُفَ الطَّالِبِ﴾ الذي هو المعبود من دون الله ﴿وَالْمَطْلُوبِ﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين. فهذا ما قدر ﴿اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ومن كمال قوته أنه يمسك السموات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصيحة واحدة. ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبارية والامم العانية بشيء يسير، وسوط من عذابه.

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (٧٦، ٧٥)

الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو - في نفس الأمر - له حجة ما علمها.

فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطانا، أي: حجة تدل عليه وتجزوه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فسادِه وبطلانه، ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم من عذاب الله، إذا نزل بهم وحل. وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قضد في اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟.

ذكر ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ مَا يَكُنْ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ الْمُسْتَمْتِرَةِ لِبَيَانِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، لم يلبثوا إليها، ولم يرفعوا بها رأسا، بل ﴿تَوَكَّرُ﴾ في وجوههم الذين كفروا التَّكَّرُ من بغضها وكراهتها ترى وجوههم مُعْبَسَةٌ، وأبشارهم مكفهرة.

﴿يَكَاذِبُونَ يَسْطُورُونَ وَالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ مَا يَكُنْ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البالغ من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوتهم، فهذه الحالة من الكفار بش الحالة، وشرها بش الشر، ولكن ثم ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلها قال: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذِكْرِ الْأَنْبَاءِ وَعِندَهُ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسْأَلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلامها تزداد على الدوام.

(٧٤، ٧٣) ﴿يَكَاذِبُهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ۝ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذا مثل ضربه الله لقع عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال: ﴿يَكَاذِبُهَا النَّاسُ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علما وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة، ﴿ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي: ألقوا إليه أسماعكم وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوبا لاهية، وأسماعا معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شمل كل ما يُدعى من دون الله ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى.

﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ بل أبلغ من ذلك لو ﴿يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز.

وقال: «كُتِبَ عَلَيْكَ هَذَا».

فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كُتِبَ أَلَسْتُمْ، عن اللغو والمحرمات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتَجَنَّبُهَا، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْوَاحِهِمْ فَاقِطُونَ﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تَجَنَّبَ ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد ﴿إِلَّا عَنَ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الإماء المملوكات ﴿فَأَتَتْهُمْ غَيْرَ مُلْمَوسِينَ﴾ بقربهما، لأن الله تعالى أحلهما.

﴿فَمَنَ ابْتِغَىٰ زَوْجَةً سَرِيَّةً﴾ غير الزوجة والسرية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاحِشُونَ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجربون على محارم الله. وعموم هذه الآية يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك.

ويدل قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أنه يشترط في حل المملوكة، أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها^(٢) ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْثَلِهِمْ وَنَعْمَدِهِمْ رَغُوبُونَ﴾ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها. وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾، فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما.

فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء

(١) في ١: المؤمنون. (٢) في ١: لأنه، وفي ب: لأن، ولعل الصواب ما أثبت.

تفسير سورة المؤمنون^(١)

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ○ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْوَاحِهِمْ فَاقِطُونَ ○ إِلَّا عَنَ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْمَوسِينَ ○ فَمَنَ ابْتِغَىٰ زَوْجَةً سَرِيَّةً فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاحِشُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْثَلِهِمْ وَنَعْمَدِهِمْ رَغُوبُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ○ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُزَكَّوْنَ ○ الَّذِينَ يَرْتُكُونَ الْبَرْذَوْنَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا تنويه من الله، بذكر عبادة المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليُتَرَنَّ العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان زيادةً ونقصاً، كثرةً وقلةً.

فقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام. المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقطع التفاته، متأدياً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتفتني بذلك الوسواس والأفكار الرديئة، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد.

فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثاباً عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ رغبة عنه، وتزويهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فأعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى. وإذا ملك العبد لسانه وخزنه - إلا في الخير - كان ملكاً لأمره، كما قال النبي ﷺ، لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه

بها، ويحرم عليه التفریط فيها وإعمالها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشرطاتها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمْ الزُّرُّورُ﴾ الذين يَرْتَوُونَ الْفِرْدَوْسَ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم و^(١) مراتبهم، كل بحسب حاله.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبعثون عنها جوازاً، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضلها، وأنه، من غير مكدر ولا منقص.

(١٢-١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَفَعَّلَهُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ ثم إنكرا بعد ذلك لئيتون. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُنْفَخُونَ﴾ ذكر الله في هذه الآيات أطوار الأدمي وتقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه «من صلصلة من طين» أي: قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض: منهم الطيب والخبث وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: جنس آدميين «نطفة» تخرج من بين الصلب والترائب، فنستقر «في قرار مكين» وهو الرحم محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾ التي قد استقرت قبل «علقه» أي: دماً أحمر، بعد مضي أربعين يوماً من النطفة. ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ﴾ بعد أربعين يوماً «مضغاً» أي: قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يعض من صغرها. ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ اللينة «عظاماً» صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها. ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام، كما جعلنا العظام عماداً للحم، وذلك في الأربعين الثالثة.

﴿ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جماداً، إلى أن صار حيواناً.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: تعالى وتعظم، وكثر خيره «أحسن الخلقين» ﴿الَّذِينَ أَحْسَنَ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣٤٢

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ والذين هم للزكوة فاعلون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ والذين هم لأمانتهم وعهدهم دعون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أولئك هم الزُّرُّورُ الذين يَرْتَوُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ ثم إنكرا بعد ذلك لئيتون ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ مِنْ صَلْصَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ثم سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِيَّ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ نَسَمَةٍ وَأَلْبَسْنَاهُ الْأَلْبُسَةَ ﴿ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ كلّه حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ في أحد أطواركم وتقلاتكم، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فتجاوزون بأعمالكم، حسناتها وسيئها. قال تعالى: ﴿يُنْفَخُ الشُّعْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَوْ يَكُنْ نَفْثَةً مِنْ نَفْثَةٍ﴾ ثم كان علقه معلقاً معلقاً ﴿يَجْعَلُ بَيْنَهُ الرُّوحَيْنِ الْأَذْكَرَ وَالْأَفْهَى﴾ أَيْسَ ذَلِكَ يَقُولُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْلَوْثُ.

(١٧-٢٠) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ وأزلنا من السموات ماءً ينزل فأنشأنا في الأرض ولما على دعاءهم يرفعون ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَنشَأْنَا لَكُمْ فِيهَا نَرَارًا كَثِيرًا مِمَّا تَسْمَعُونَ﴾ وسَجَرَةً تُخْرُجُ مِنْ طَوْرِ سَيْبَةٍ تُنْتَبِذُ وَالَّذِينَ

سورة المؤمنون

٣٤٣

سورة المؤمنون

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبُ لَكُمْ فِيهَا فَوَيْكُمُ الْكَبِيرُ ﴿٢٩﴾ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٣٠﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغَ لِلْأَكْلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُّشِيرُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٣٢﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالَكِ تَحْمِلُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِّقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٤﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَبْنِيَّ لَكُمْ مَنَافِعَ وَيُؤْخَذَ بِهِ ۚ وَمَا أَكْبَرُ اللَّهُ لَأَنزِلِ إِلَيْكُم مَّا سَعَىٰ بُنْيَادُ فِي عِصْيَانِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَّقَ نَصُوبَهُ ۖ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٧﴾ فَأَرْجِئْنَا إِلَىٰ يَوْمِ الْأَصْغَرِ ۚ عَلَى الْفَالَكِ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحْيُنَا فَأَاجِدَاجَةً آمَنَّا بِهَا ۖ وَفَكَارَ الشُّرُوكَ فَاسْلَفَ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَئِينَ ۖ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تَحْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٨﴾

خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها التي ذكر بعضها في قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغَ لِلْأَكْلِينَ﴾ أي: فيها الزيت الذي هو دهن يستعمل^(١) استعماله من الاستصباح به، واصطبغ الأكلين، أي: يجعل إدامًا للأكلين، وغير ذلك من المنافع.

(٢٢، ٢١) ﴿وَإِن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُّشِيرُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۖ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالَكِ تَحْمِلُونَ﴾ أي: ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام؛ الإبل، والبقر، والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمتغنين ﴿نُّشِيرُكُمْ﴾ في بطونهم من لبن، يخرج من بين فرت ودم خالص سائغ للشاربين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام يوتًا، تستخفونها يوم طعنكم، ويوم إقامتكم ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفضل المأكول من لحم وشحم.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالَكِ تَحْمِلُونَ﴾ أي: جعلها سفنًا لكم في البر،

(١) كذا في النسخين، وقد شطبت كلمة (يستعمل) في ب، وكب فوقها بخط مغاير: يكثر، وهي كذلك في الطبقات المختلفة للتفسير.

وَصَبِغَ لِلْأَكْلِينَ﴾ لما ذكر تعالى خلق آدمي، ذكر سكنه، وتوفر النعم عليه من كل وجه، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَقَفًا لِلْبِلَادِ، ومصلحة للعباد ﴿سَبِغَ طَائِفًا﴾ أي: سبع سموات طباقًا، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع.

﴿وَمَا كُنَّا مِنَ الْخَالِقِ غَفِيلِينَ﴾ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلمنا أيضًا محيط بما خلقنا، فلا تغفل مخلوقًا، ولا نساء، ولا تخلق خلقًا فضيعه، ولا تغفل عن السماء فقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في ليج البحار وجوانب الفلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ آلِهِ يَرْزُقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾.

وكثيرًا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله: ﴿أَلَا يَتَمَنَّوْنَ خَلْقَ مِثْلِ الْفَالِكِ الْخَيْرِ﴾، ﴿بَلْ وَهُوَ الْخَالِقُ الْفَلِيدُ﴾ لأن خلق المخلوقات، من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يكون رزقًا لكم ولأنعامكم، بقدر ما يكفيكم، فلا ينقصه، بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيده زيادة لا تحمل بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند الضرر من دوامه.

﴿فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرته منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضًا معدًا في خزائن الأرض بحيث لم يذهب نازلًا حتى لا يوصل إليه ولا يبلغ قعره.

﴿وَلَوْ لَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدِيرُونَ﴾ إما بأن لا تنزله، أو تنزله فيذهب نازلًا، لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده، أن يشكروه على نعمته، ويقدرُوا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غُرًا ۖ فَهَيَّا يَأْتِيَكُم بِمَا لَمْ يَحِيطُوا بِهَا﴾.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾.

خص تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشأ منه غيرهما من الأشجار، لفضلهما ومنافعهما التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿فَوَيْكُمُ الْكَبِيرُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من تين وأترج ورمان، وتفاح وغيرها.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها.

وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: بإرسال رسول ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟ لأنهم لم يحيطوا علماً بما تقدم، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم. وعلى تقدير أنه لم يرسل فيهم رسولا، فلما أن يكونوا على الهدى، فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على غيره، فليحمدوا ربهم، ويشكروا أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم، ولا لشعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سببا لكفرهم بالإحسان إليهم.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أي: مجنون ﴿فَرَّقُوا﴾ أي: انتظروا به ﴿حَتَّىٰ يَمُوتَ﴾ إلى أن يأتيه الموت.

وهذه الشبهة التي أوردوها^(١)، معارضة لنسب نبينهم، دالة على شدة كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية الجهل والضلال، فإنها لا تصلح للمعارضة، بوجه من الوجوه، كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة.

فقوله: ﴿مَّا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أثبتوا أنه لا عقلا يكيدهم به، ليعلموه ويسودهم ويحتاج - مع هذا - أن يحذر منه لثلاث يفتقر به.

فكيف يلتزم مع قولهم: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ وهل هذا إلا من شبه ضال، منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق اتفق له، غير عالم بما يقول؟! وبأي الله إلا أن يظهر خزي من عاداه وعادى رسله.

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فرارا ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً كَذَّبُوا بِرُسُولِهِمْ﴾ فاستنصر ربه عليهم غضبا لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا رسوله وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ ○ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَبِغُوا عِبَادَكَ وَلَا يُدْرِكُوا إِلَّا فَجْراً كَفَّاراً ﴿قَالَ تَعَالَى﴾: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَاكَ فَلَيْتَمَ أَلْمِجِينَ﴾.

﴿فَأَرْجِنَا إِلَىٰ﴾ عند استجابتنا له سببا ووسيلة للنجاة، قبل وقوع أسبابه.

﴿أَنِ اسْبَحِ الْفَلَكَ﴾ أي: السفينة ﴿وَأَعْيُنَا وَرَحْمَنَا﴾ أي: بأمرنا لك، ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به ﴿وَقَارَ الْثُورُ﴾ أي: فارت الأرض، وتفجرت عيوننا، حتى محل النار، الذي لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء ﴿فَأَسْلَفَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَازِيٍّ﴾ أي: أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات، ذكرًا وأنثى، تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات،

تحملون عليها أنفالكهم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلا [كان] أو كثيرا.

فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدر علينا من خيره المدد، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

(٢٣-٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ اتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى آخر القصة وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ كَفَّارٍ لِّئَلَّا يُسْتَكْبَرَ عَنْ رَبِّهِمْ كِبَارُهُمْ أَنَّهُمْ لَكُنُوزٌ كَاذِبُونَ﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول أرسله لأهل الأرض فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده فقال: ﴿يَتَّبِعُوا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها، ﴿مَّا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى، لأنه الخالق الرازق الذي له الكمال كله، وغيره بخلاف ذلك ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي صورت على صور قوم صالحين، فعبدها مع الله، فاستمر على ذلك، يدعوهم سرا وجهارا، وليلا ونهارا، ألف سنة إلا خمسين عاما، وهم لا يزدادون إلا عتوا ونفورا.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ من قومه الأشراف والسادة المتبعون - على وجه المعارضة لنبيهم نوح، والتحذير من اتباعه - ﴿مَّا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعا، وإلا فما الذي يفضل عليكم، وهو من جنسكم؟ وهذه المعارضة، ما زالت موجودة في مكذي الرسل.

وقد أجاب الله عنها بجواب شاف، على السنة رسله كما في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ لرسولهم ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنا يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْنَا كَذَّبُوا بِرُسُولِهِمْ﴾ فاستنصر ربه عليهم غضبا لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا رسوله وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ ○ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَبِغُوا عِبَادَكَ وَلَا يُدْرِكُوا إِلَّا فَجْراً كَفَّاراً ﴿قَالَ تَعَالَى﴾: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَاكَ فَلَيْتَمَ أَلْمِجِينَ﴾.

﴿فَأَرْجِنَا إِلَىٰ﴾ عند استجابتنا له سببا ووسيلة للنجاة، قبل وقوع أسبابه. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ لرسولهم ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنا يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْنَا كَذَّبُوا بِرُسُولِهِمْ﴾ فاستنصر ربه عليهم غضبا لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا رسوله وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ ○ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَبِغُوا عِبَادَكَ وَلَا يُدْرِكُوا إِلَّا فَجْراً كَفَّاراً ﴿قَالَ تَعَالَى﴾: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَاكَ فَلَيْتَمَ أَلْمِجِينَ﴾.

التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض.

﴿وَأَهْلَكْتُ أَي: أدخلهم﴾ ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ كاتبه.

﴿وَلَا تُخِيطُ بِني فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي: لا تدعني أن أنجيهم،

فإن القضاء والقدر قد حتم أنهم مغرورون.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾ أَي: علوتم عليها،

واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحمدوا الله

على النجاة والسلامة ﴿فَقُلْ لِلَّهِ الَّذِي تَخْتَفُونَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

وهذا تعليم منه له ولمن معه، أن يقولوا هذا شكراً له، وحمداً

على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْزُقْنِي مِثْلَكَ مَبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَي: وبقيت

عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن يسر الله لكم

مِثْلًا مَبَارَكًا، فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وَوَقَّيْتُ الْأَكْثَرُ

وَأَسْتَوْتُ عَلَى الْجُبُوتِ وَيَوْمَ يُعْذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿قِيلَ

يَنْبُذُ أَهْلُهَا يَسْكُرُونَ وَمَا يَرْكَبُ عَلَيْكَ وَكَانَ أَمْرٌ مِمَّنْ مَمْلُوكٌ﴾

الآية.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أَي: في هذه القصة ﴿لَايَةً﴾ تدل على أن

الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه

كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب

أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض.

والفلك أيضاً من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَكَّبْنَاهَا ثَلَاثَةَ

فَهَلٍ مِنْ مَدَكٍ﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات

ومطالب ﴿وَرَأَى كُنَّا لَبِيبِينَ﴾.

(٣١-٤١) ﴿فَرَأَيْنَاهُ يَتَّخِذُ مِنْ بَدْرِهِ قَرْيَةً﴾ ﴿فَلَمَّا سَلَكَ فِيهَا مِنْكُمْ

يَتَّبِعُهُ لِيُغَمِّقَ إِلَيْكُمُ الْيَمَافَ الْآخِرَ وَأَتْرَفْتُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا

إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَاطِلٌ وَمَا تَعْلَمُونَ مِنْهُ وَشَرِبُوا مِنْ تَلْهِيهِمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

أَلَمْ نَقُصِّكُمْ بِذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾

رَبَّاهُمْ وَعَظَمْنَا الْأَكْثَرُ فَخَرَجُوا﴾ ﴿هَبَاتُ هَبَاتٍ لِمَا تَوْعَدُونَ﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا

حَسْبَانَا الدُّنْيَا تَمُوتُ وَنَحْيَاهُ وَمَا نَحْنُ بِمُتَوَّيْنِ﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا رَجُلٌ أَقْرَبَى

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي وَمَا

كُذِّبُوا﴾ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ﴾ ﴿فَلَا تَنْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً يَنْظُرُونَ﴾ ﴿لَمَّا ذَكَرَ نُوْحًا وَقَوْمَهُ،

وكيف أهلهم قال: ﴿فَرَأَيْنَاهُ يَتَّخِذُ مِنْ بَدْرِهِ قَرْيَةً﴾ ﴿كَأَخِي﴾ الظاهر

أنهم «نموده» قوم صالح عليه السلام لأن هذه القصة تشبه

فصتهم.

﴿فَلَمَّا سَلَكَ فِيهَا مِنْكُمْ يَتَّبِعُهُ لِيُغَمِّقَ إِلَيْكُمُ الْيَمَافَ الْآخِرَ وَأَتْرَفْتُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا

إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَاطِلٌ وَمَا تَعْلَمُونَ مِنْهُ وَشَرِبُوا مِنْ تَلْهِيهِمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

أَلَمْ نَقُصِّكُمْ بِذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾

رَبَّاهُمْ وَعَظَمْنَا الْأَكْثَرُ فَخَرَجُوا﴾ ﴿هَبَاتُ هَبَاتٍ لِمَا تَوْعَدُونَ﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا

حَسْبَانَا الدُّنْيَا تَمُوتُ وَنَحْيَاهُ وَمَا نَحْنُ بِمُتَوَّيْنِ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي وَمَا

الْأَكْثَرُ

٣٤٤

الْأَكْثَرُ

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ لِلَّهِ الَّذِي تَخْتَفُونَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ وَقُلْ رَبِّ ارْزُقْنِي مِثْلَكَ مَبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٢﴾

إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَةً وَإِنْ كُنَّا لَبِيبِينَ ﴿٣٣﴾ فَرَأَيْنَاهُ يَتَّخِذُ مِنْ بَدْرِهِ قَرْيَةً

فَلَمَّا سَلَكَ فِيهَا مِنْكُمْ يَتَّبِعُهُ لِيُغَمِّقَ إِلَيْكُمُ الْيَمَافَ الْآخِرَ وَأَتْرَفْتُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا

مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَاطِلٌ وَمَا تَعْلَمُونَ مِنْهُ وَشَرِبُوا مِنْ تَلْهِيهِمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

أَلَمْ نَقُصِّكُمْ بِذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَيْنَ أَلْعَنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَنَحْيَاهُ وَمَا نَحْنُ بِمُتَوَّيْنِ ﴿٣٧﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا رَجُلٌ أَقْرَبَى

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي وَمَا كُذِّبُوا ﴿٣٩﴾

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَا تَنْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً يَنْظُرُونَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ قَرْيَةً مَخْمُورَةً ﴿٤٢﴾

فَلَمَّا سَلَكَ فِيهَا مِنْكُمْ يَتَّبِعُهُ لِيُغَمِّقَ إِلَيْكُمُ الْيَمَافَ الْآخِرَ وَأَتْرَفْتُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا

مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَاطِلٌ وَمَا تَعْلَمُونَ مِنْهُ وَشَرِبُوا مِنْ تَلْهِيهِمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

أَلَمْ نَقُصِّكُمْ بِذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَيْنَ أَلْعَنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَنَحْيَاهُ وَمَا نَحْنُ بِمُتَوَّيْنِ ﴿٤٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا رَجُلٌ أَقْرَبَى

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي وَمَا كُذِّبُوا ﴿٤٨﴾

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ﴿٤٩﴾ فَلَا تَنْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً يَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ قَرْيَةً مَخْمُورَةً ﴿٥١﴾

فَلَمَّا سَلَكَ فِيهَا مِنْكُمْ يَتَّبِعُهُ لِيُغَمِّقَ إِلَيْكُمُ الْيَمَافَ الْآخِرَ وَأَتْرَفْتُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا

مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَاطِلٌ وَمَا تَعْلَمُونَ مِنْهُ وَشَرِبُوا مِنْ تَلْهِيهِمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

أَلَمْ نَقُصِّكُمْ بِذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَيْنَ أَلْعَنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ وَنَحْيَاهُ وَمَا نَحْنُ بِمُتَوَّيْنِ ﴿٥٥﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا رَجُلٌ أَقْرَبَى

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي وَمَا كُذِّبُوا ﴿٥٧﴾

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ﴿٥٨﴾ فَلَا تَنْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً يَنْظُرُونَ ﴿٥٩﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ قَرْيَةً مَخْمُورَةً ﴿٦٠﴾

فَلَمَّا سَلَكَ فِيهَا مِنْكُمْ يَتَّبِعُهُ لِيُغَمِّقَ إِلَيْكُمُ الْيَمَافَ الْآخِرَ وَأَتْرَفْتُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا

مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَاطِلٌ وَمَا تَعْلَمُونَ مِنْهُ وَشَرِبُوا مِنْ تَلْهِيهِمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

أَلَمْ نَقُصِّكُمْ بِذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَيْنَ أَلْعَنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ وَنَحْيَاهُ وَمَا نَحْنُ بِمُتَوَّيْنِ ﴿٦٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا رَجُلٌ أَقْرَبَى

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي وَمَا كُذِّبُوا ﴿٦٦﴾

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ﴿٦٧﴾ فَلَا تَنْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ قَرْيَةً مَخْمُورَةً ﴿٦٩﴾

فَلَمَّا سَلَكَ فِيهَا مِنْكُمْ يَتَّبِعُهُ لِيُغَمِّقَ إِلَيْكُمُ الْيَمَافَ الْآخِرَ وَأَتْرَفْتُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا

مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَاطِلٌ وَمَا تَعْلَمُونَ مِنْهُ وَشَرِبُوا مِنْ تَلْهِيهِمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

أَلَمْ نَقُصِّكُمْ بِذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَيْنَ أَلْعَنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ وَنَحْيَاهُ وَمَا نَحْنُ بِمُتَوَّيْنِ ﴿٧٣﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا رَجُلٌ أَقْرَبَى

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي وَمَا كُذِّبُوا ﴿٧٥﴾

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَا تَنْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً يَنْظُرُونَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ قَرْيَةً مَخْمُورَةً ﴿٧٨﴾

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا رَجُلٌ أَقْرَبَى﴾ جَنَّةٌ فَتَصَرَّفَ بِهَذَا حَقٌّ جَيِّزٌ وَهَذَا سَبَقَ قَبْلَ مِنْهُ - رحمه الله - وسيفسرهما فيما يلي على نحو مما أثبت، وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.

لِلنَّاسِ، وَلَا يَرِدُ عَلَىٰ هَٰذَا إِلَّا هَلَاكٌ فِرْعَوْنَ، فَإِنَّهُ قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ، وَأَمَّا الْآيَاتُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْقَصَصِ، فَهِيَ صَرِيحَةٌ جَدًّا، فَإِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ هَلَاكَ فِرْعَوْنَ قَالَ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَاحِبِ اللَّسَانِ وَعُدَىٰ وَرَحْمَةٍ لِّعَالَمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس، وهدى ورحمة.

ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة «يونس» من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ أَيُّ: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَلَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ. مِنْ تَبَلِ كَذَلِكَ نَضَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ الْآيَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران، كلمه الرحمن ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله.

﴿وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به ﴿وَرُسُلُنَا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: حجة بينة، من قوتها أن تقهر القلوب، وتسلط عليها لقوتها فتفتاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البينة على المعاندين وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فَقَتَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أي: بتلك الآيات البينات ﴿فَقَالَ﴾ له ﴿فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُسُوءُنِي مَسْحَرًا﴾ ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ كَذُوبًا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ وَإِنِّي لَأَكُنُّ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُم مِصْرًا بَيْنَهُمْ﴾ طَلَسُوا وَطَلَسُوا ۝

وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ وَلَا يَرِدُ عَلَىٰ هَٰذَا إِلَّا هَلَاكٌ فِرْعَوْنَ، فَإِنَّهُ قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ، وَأَمَّا الْآيَاتُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْقَصَصِ، فَهِيَ صَرِيحَةٌ جَدًّا، فَإِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ هَلَاكَ فِرْعَوْنَ قَالَ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَاحِبِ اللَّسَانِ وَعُدَىٰ وَرَحْمَةٍ لِّعَالَمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس، وهدى ورحمة.

ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة «يونس» من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ أَيُّ: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَلَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ. مِنْ تَبَلِ كَذَلِكَ نَضَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ الْآيَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران، كلمه الرحمن ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله.

﴿وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به ﴿وَرُسُلُنَا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: حجة بينة، من قوتها أن تقهر القلوب، وتسلط عليها لقوتها فتفتاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البينة على المعاندين وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فَقَتَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أي: بتلك الآيات البينات ﴿فَقَالَ﴾ له ﴿فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُسُوءُنِي مَسْحَرًا﴾ ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ كَذُوبًا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ وَإِنِّي لَأَكُنُّ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُم مِصْرًا بَيْنَهُمْ﴾ طَلَسُوا وَطَلَسُوا ۝

وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ وَلَا يَرِدُ عَلَىٰ هَٰذَا إِلَّا هَلَاكٌ فِرْعَوْنَ، فَإِنَّهُ قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ، وَأَمَّا الْآيَاتُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْقَصَصِ، فَهِيَ صَرِيحَةٌ جَدًّا، فَإِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ هَلَاكَ فِرْعَوْنَ قَالَ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَاحِبِ اللَّسَانِ وَعُدَىٰ وَرَحْمَةٍ لِّعَالَمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس، وهدى ورحمة.

ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة «يونس» من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ أَيُّ: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَلَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ. مِنْ تَبَلِ كَذَلِكَ نَضَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ الْآيَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران، كلمه الرحمن ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله.

﴿وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به ﴿وَرُسُلُنَا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: حجة بينة، من قوتها أن تقهر القلوب، وتسلط عليها لقوتها فتفتاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البينة على المعاندين وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فَقَتَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أي: بتلك الآيات البينات ﴿فَقَالَ﴾ له ﴿فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُسُوءُنِي مَسْحَرًا﴾ ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ كَذُوبًا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ وَإِنِّي لَأَكُنُّ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُم مِصْرًا بَيْنَهُمْ﴾ طَلَسُوا وَطَلَسُوا ۝

الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا كَلِمَاتِي يَنْصُرْكُمْ وَأَسْكِنُوا لِي أَنْ يَكُنْ لَكُمْ مَخْرُجٌ﴾ فالواجب من كل المستبين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمتثلوا هذا، ويعملوا به، ولكن أبي الظالمون المفترون إلا عصياناً، ولهذا قال:

﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: تقطع المستبسون إلى اتباع الأنبياء ﴿أَمْرَهُمْ﴾ أي: دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: قطعاً ﴿كُلِّ جُزْءٍ بِمَا لَهُمْ﴾ أي: بما عندهم من العلم والدين.

﴿كِرْحُوكَ﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطون.

﴿فَذَرُّهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم ^(١) المحقون ﴿حَقِّ جِزْءٍ﴾ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفخ فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟.

﴿أَعْمَسُونَ أَنَّمَا يُدْعِيهِمْ مِنْ مَلَأَ وَبَيْنَ﴾ شائع ﴿فَمَنْ لِكَيْفَتِهِمْ﴾ أي: أظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك.

﴿بَلْ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّهُمْ عَنْتَهُ﴾ ليزدادوا إنشاً، ولينوفر عقابهم في الآخرة، وليغبطوا بما أوتوا ﴿حَقِّ إِذَا فُجِّعُوا بِمَا أَوْفُوا لَعَنَتُهُمْ بِعَتَةٍ﴾.

(٥٧-٦٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَكِلَتْ رَبِّهِمْ يَبْغُضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ لَا يَشْكُرُونَ وَالَّذِينَ يُوَفُّونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَةٌ إِلَى رَبِّهِمْ كَرُحُومُونَ أُولَئِكَ يُشْفِقُونَ فِي تَقْوَاتِهِمْ وَلَهُمْ مَا يَشْفِقُونَ وَلَا تُلْجِفُوا تَقَاً إِلَّا وَمَعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَعْلَمُ بِالْمَلِئِكَةِ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَمْنِ، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام،

آيات الله العجيبة، حيث حملته وولده من غير أب، وتكلم في المهد صبيّاً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى.

﴿وَمَا يَنْهَنَّهُمَا إِلَى رَبِّوَهُ﴾ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها.

﴿ثَابِتَ قَلْبِي﴾ أي: مستقر وراحة ﴿وَمَعِيَ﴾ أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿فَدَحَمَ رَبِّيكَ تَحَنُّنًا﴾ أي: تحت المكان الذي أنت فيه، لارتفاعه، ﴿سَرِيًّا﴾ أي: نهراً وهو المعين ﴿وَهُوَ فِي إِلَيْكَ يَجْعَلُ الْخَلْقَ يُشْفِقُ عَلَيْكَ رَبُّكَ حَيًّا﴾ فكل وأمرى وقري عينا.

(٥١-٥٦) ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّ مِنَ الطَّائِفَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِلَى يَمِينًا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِمْ﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ كُلِّ جُزْءٍ بِمَا لَهُمْ قِرْحُونِ ﴿فَذَرُّهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَقِّ جِزْءٍ﴾ أَعْمَسُونَ أَنَّمَا يُدْعِيهِمْ مِنْ مَلَأَ وَبَيْنَ ﴿شَائِعٌ﴾ فَمَنْ لِكَيْفَتِهِمْ بَلْ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّهُمْ عَنْتَهُ هَذَا أَمْرٌ مِنْ تَعَالَى لِرُسُلِهِ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، الَّتِي هِيَ الرِّزْقُ الطَّيِّبُ الْحَلَالُ، وَشُكْرُ اللَّهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، الَّذِي بِهِ يَصْلَحُ الْقَلْبُ وَالْبَدَنُ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ عَلَيْهِمْ، فَكُلَّ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَكُلَّ سَعْيٍ اكْتَسَبُوهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ أَمَّ الْجُزْءِ وَأَفْضَلُهُ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى إِبَاحَةِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَأْكُلِ وَتَحْرِيمِ الْخَبَائِثِ مِنْهَا، وَأَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ وَإِنْ تَوَعَّتْ بَعْضُ أَجْنَاسِ الْمَأْمُورَاتِ، وَاخْتَلَفَتْ بِهَا الشَّرَائِعُ، فَإِنَّهَا كُلُّهَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَكِنْ تَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الْأَزْمَنَةِ.

ولهذا، الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأزمنة قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له ومحبة وخوفه ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين، واليتامى، والخوان، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم والكتب السابقة والعقل حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه.

كما جرى لهزل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً﴾ أي: جماعةكم - يا معشر الرسل - جماعة ﴿وَاحِدَةً﴾ متفقة على دين واحد، وربكم واحد.

﴿فَاتَّقُوا﴾ بامتنال أوامري، واجتناب زواجري، وقد أمر

وقت إليه.

﴿وَلَدَيْكَ كِتَابٌ يَلْقَىٰ بِالْحَقِّ﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حَقًّا. ﴿وَعَمَّ لَا تَلْجَأُونَ﴾ ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

(٦٧-٦٨) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْوٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَهْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عِثْلُونَ﴾ هَـمْ لَهَا عِثْلُونَ ○ حَقٌّ لَآ أَلَا أَلْعَنَّا مُرَفِّعِينَ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ○ لَا تَجْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ يَوْمًا لَا تَصُرُونَ ○ قَدْ كَانَتْ يَدَايَ نَتْلُو عَلَيْكُمْ فَمَنْتُمْ عَلَىٰ أَتَقْبَحُونَ نَكِيرُونَ ○ مُسْتَكْبِرِينَ يَدُ سَمِيرًا تَهْجُرُونَ﴾ يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء، ﴿وَرَأَىٰ ذُرِّيَّتُ الْقُرْآنِ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ جِبَالًا مِّنْسُورًا ○ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْا وَفِي أَسْمَانِهِمْ وَقْرًا﴾ فلما كانت قلوبهم في غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال، من الأعمال الكفرية، والمعادنة للشرع، ما هو موجب لعاقبهم.

﴿و﴾ لكن ﴿لَهُمْ أَهْمَلٌ مِنْ دُونِ﴾ هذه الأعمال ﴿هُمْ لَهَا عِثْلُونَ﴾ أي: فلا يستغفروا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن الله يمهلهم، ليعملوا هذه الأعمال التي بقيت عليهم، مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

﴿حَقٌّ لَآ أَلَا أَلْعَنَّا مُرَفِّعِينَ﴾ أي: متعصمهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكاره، فإذا أخذناهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ ووجدوا مَسَّهُ ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه. ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لَا تَجْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ يَوْمًا لَا تَصُرُونَ﴾، وإذا لم تأتهم النصرة من الله، وانقطع عنهم^(١) الغوث من جانبه لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

فكانه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال: ﴿قَدْ كَانَتْ يَدَايَ نَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل كنتم ﴿عَلَىٰ أَتَقْبَحُونَ نَكِيرُونَ﴾ أي: راجعين القهقري إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يتأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ يَدُ سَمِيرًا تَهْجُرُونَ﴾ قال المفسرون: معناه:

(١) كذا في ب، وفي أ: عنه.

وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَجَاتِيهِمْ بِرَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا تليت عليهم آياته، زادتهم إيمانًا، ويفكرون أيضًا في الآيات القرآنية، ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله، وخوفه ورجائه وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

يفكرون أيضًا في الآيات الأفقية، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى آخر الآيات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا شركًا جليًّا، كاتخاذ غير الله معبودًا، يدعوه ويرجوه، ولا شركًا خفيًّا كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله في أقوالهم وأعمالهم، وسائر أحوالهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا﴾ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدرون عليه، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك.

﴿و﴾ مع هذا ﴿قُلُوبُهُمْ رَاحِلَةٌ﴾ أي: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِنْ رَجَعُوا﴾ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم ببرهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْقُرْآنِ﴾ أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير، همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربه، فنافسوه، ولما كان المسابق لغيره المسارع، قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال:

﴿وَعَمَّ لَهَا﴾ أي: للخيرات ﴿سَكِينَةٌ﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون، ولما ذكر مسارعهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم واهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتًا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهًا أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٣﴾
 أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ وَيُخَفِّفُونَ عَنْهُمْ حَزَنَهُمْ وَلَا تَكُفُّ
 نَفْسًا إِلَّا رُسْعُهَا وَلَدُنَّا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٤﴾
 بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرَقٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا
 عَمِلُونَ ﴿٦٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٦﴾
 لَا يُجْتَرُونَ الْيَوْمَ الْكَرِيمَ إِلَّا نَسُوتُهُمْ ﴿٦٧﴾ فَذَكَاتَ آيَتِي
 نُثَلِّي عَلَيْكُمْ فَأَكْفُرُوا عَنْ حَقِّهِمْ كَيْدُ صُورٍ ﴿٦٨﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
 بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ فَهُوَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
 آبَائِهِمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾ أَمْ لَهُمْ بَرْقَاءُ رُسُومُهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكَرُوا
 أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جَنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ الْبَاقِي وَأَكْثَرُهُمُ الْبَاقِي
 كَرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
 ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ قُلْتُمْ خِرَافٌ ضَالَّةٌ أَمْ رَبُّكَ خَيْرٌ
 وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
 وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ ﴿٧٤﴾

والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه، لأنه يهذي بالباطل، والكلام السخيف.

قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ الْبَاقِي﴾ أي: بالأمر الثابت الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق، وأيضا فإن في هذا الانتقال مما تقدم، أي: بل الحقيقة التي منعته من الإيمان أنه ﴿جَاءَهُمُ الْبَاقِي وَأَكْثَرُهُمُ الْبَاقِي كَرِهُونَ﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله وقد علم كراهتهم لهذا الأمر، وتعجبهم منه، فكان الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق، لا شكًا ولا تكذيبًا للرسول، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ بَلْ كَانُوا ظَالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَحْكُمُ اللَّهُ﴾.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يكن الحق موافقًا لأهوائهم لأجل أن

مستكبرين به، الضمير يعود إلى البيت، المعهود عند المخاطبين، أو الحرم، أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلى ﴿سَبْرًا﴾ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أي: تقولون الكلام الهُجْر، الذي هو الفقيح في القرآن، فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضًا بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ أَسْمَكُ ثَقَلِينَ﴾ وقال الله عنهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَكَلْبٌ كَتَبُورٌ ۖ وَتَقْسُورُونَ وَلَا تَكُونُوا ۖ وَأَنْتُمْ سَاهُونَ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾.

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها، لم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيث ينقذهم، ويبريخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة ﴿أَفَلَا يَذْكُرُوا الْقُرْآنَ﴾ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه، لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أفاها.

﴿أَنْزَجْنَاهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أو منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آباءهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك، ولهذا قالوا، هم ومن أشبههم من الكفار، ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ نَذِيرٌ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي عَلَيْكَ نَذِيرٌ وَإِنَّا نَكُفِّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ قَدْ نَكُفِّرُ﴾ فاجابهم بقوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق. فاجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَنْزَجْنَاهُمْ مِمَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أو منعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمداً ﷺ غير معروف عندهم، فهم منكرونها.

يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى نعرف حاله، ونسال عنه مَنْ له به خبرة، أي: لم يكن الأمر كذلك، فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه، وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة «الأمين»، فلم لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أي: جنون، فلماذا قال ما قال،

يمنت على عباده الداعية^(١) لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتدركوا به المسموعات فتتفعلوا في دينكم ودينابكم.

﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتدركوا بها المبصرات، فتتفعلوا بها^(٢) في مصالحكم.

﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: العقول التي تدركون بها الأشياء، وتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع والأبصار والعقول بأن كنتم صمًا عميًا بكما ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكما لكم؟.

أفلا تشكرون الذي منَّ عليكم بهذه النعم، فقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكنكم قليل شكركم مع توالي النعم عليكم.

﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بئكم في أقطارها، وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصلحتها ومنافعها، وجعلها كافية لمعاشكم، ومساكنكم.

﴿وَالَّذِي يُخْرِجُ النَّخْلَ﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما علمتم في الأرض من خير وشر، وتحدث الأرض التي كنتم فيها بأخبارها.

﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿الَّذِي يُخَيِّئُ وَيُبْيِتُ﴾ أي: المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده.

﴿وَلَهُ تَخَلَّفَتْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أي: تعاقبها وتناوبها، فلو شاء أن يجعل النهار سرمداً، من إله غير الله يأتكم بلبل تسكون فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمداً، من إله غير الله، يأتكم بضياء أفلا تبصرون؟ ﴿وَبَيْنَ تَحْمِيلِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم، السمع والأبصار والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم أن تخلصوا له العبادة، وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك.

(٨١-٨٣) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ قَالُوا أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَاكًا وَعِظْلًا أَوَدَا لِمُعْمُورُونَ ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَكَابَرْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: بل سلك هؤلاء المكذوبين مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد وقالوا: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَاكًا وَعِظْلًا أَوَدَا لِمُعْمُورُونَ﴾ أي: هذا لا يتصور، ولا يدخل العقل، بزعهم.

﴿وَلَوْ جَنَّاهُمْ وَكُفَّنا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفِ طُغْيَاهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَارُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَاهُمْ فِيهِ يَسْلُسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَالَّذِي يُخْرِجُ النَّخْلَ وَالَّذِي يُخَيِّئُ وَيُبْيِتُ وَلَهُ أَسْمَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَاكًا وَعِظْلًا أَوَدَا لِمُعْمُورُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَكَابَرْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِيتُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخَيِّرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَكَابَرْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ما زلنا نعد بأن البعث كائن، نحن وآباؤنا، ولم نره، ولم يأت بعد.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأسماهم التي يتحدث بها وتلهي، وإلا فليس لها حقيقة، وكذبوا - قبحهم الله -، فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث، ومثله ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، ﴿وَتَرَىٰ لَنَا مَثَلًا وَبَيِّنَاتٍ لِّخَلْقِهِ قَالِ مَنْ يُخَيِّئُ الْعِظَامَ وَهِيَ رِيْبَةٌ﴾ الآيات ﴿وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَلَائِكَةَ فَتَخْتَرُ وَيَبَّىٰ﴾ الآيات.

(٨٤-٨٩) ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِيتُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخَيِّرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجاً عليهم بما أثبتوه، وأقروا به من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها - على ما

(١) كذا في ب، وفي أ: الداعي. (٢) كذا في ب، وفي أ: لتدركوا به المبصرات، فتتفعلوا بها.

الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالحقول التي دلتكم على هذا لا تكون إلا مسحورة، وهي - بلا شك - قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

(٩٠-٩٢) ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ مَا تَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَعَبَ كُلُّ إِنَّمٍ يَمَّا خَلَقَ وَلَمَّا يَبْشُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ۝ عَلَيْهِ الْعَقَبُ ۝ وَالشَّهَادَةُ قَتَلْنَا عَمَّا يَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى: بل آتينا هؤلاء المكذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم ما يعرضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿مَا تَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال: ﴿إِذَا﴾ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون ﴿لَدَعَبَ كُلُّ إِنَّمٍ يَمَّا خَلَقَ﴾ أي: لا تفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبتها.

﴿وَلَمَّا يَبْشُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التماثل لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن يتظم هذا النظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة والسيارة، فإنها منذ خلقت، وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدر، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كله، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين ربين؟! ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببديع أشكالها، أن المدبر لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة، ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط.

فقال: ﴿عَلَيْهِ الْعَقَبُ﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا

أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذي هو أسهل من ذلك:

﴿لَيْسَ الْآرْضُ وَنَّ فِيهَا﴾ أي: مَنْ هو الخالق للأرض، ومن عليها من حيوان، ونبات، وجماد، وبحار، وأنهار، وجبال، المالك لذلك، المدبر له؟ فإنك إذا سألتهم^(١) عن ذلك، لا بد أن يقولوا: الله وحده، فقل لهم إذا أقروا بذلك:

﴿أَفَلَا نُنْذِرُ﴾ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندهم، مستقر في فطركم، قد يغنيه الإعراض في بعض الأوقات.

والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم، بمجرد التأمل علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل، ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال:

﴿فَلَمْ مَنِ رَبِّ الْمَكُونِ السَّجِّ﴾ وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات، والثوابت ﴿وَرَبِّ الْمَكْرِي الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك، ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿سَيَقُولُونَ بَلَى﴾ أي: سيقرون بأن الله رب ذلك كله.

قل لهم حين يقولون بذلك: ﴿أَفَلَا نُنْذِرُ﴾ عبادة المخلوقات العاجزة، وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿أَفَلَا نُنْذِرُ﴾، ﴿أَفَلَا نُنْذِرُ﴾ والوعظ بأداة العرض المجاذبة للقلوب، ما لا يخفى، ثم انتقل إلى إقراهم بما هو أعم من ذلك كله فقال:

﴿فَلَمْ مَنِ يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نصره، وما لا نصره؟ و «الملكوت» صيغة مبالغة، بمعنى الملك ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم.

﴿وَلَا يَجُورُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه.

﴿سَيَقُولُونَ بَلَى﴾ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير الذي لا يجار عليه.

﴿فَلَمْ﴾ لهم حين يقولون بذلك، ملزماً لهم: ﴿فَأَنَّا نَسْخَرُهُ﴾ أي: فإن تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع

من الواجبات والمستحبات والممكنات .

﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فَقَتَلَ﴾ أي : ارتفع وعظم .

﴿عَسَىٰ يُشْرِكُونَ﴾ به ، من لا علم عنده إلا ما علمه الله (١) .

(٩٣-٩٥) ﴿قُلْ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا بَوَدُّكَ ۖ رَبِّ فَكَلِّمْ عَسَىٰ فِي الْقَوْمِ الْفَظِيلِينَ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَدْعُهُمْ لَنَقْدِرُونَ﴾ لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة ، فلم يلتفتوا لها ، ولم يذعنوا لها ، حق عليهم العذاب ، ووعدوا بنزوله ، وأرشد الله رسوله أن يقول : ﴿قُلْ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا بَوَدُّكَ﴾ أي : أي وقت أريتني عذابهم ، وأحضرتني ذلك .

﴿رَبِّ فَكَلِّمْ عَسَىٰ فِي الْقَوْمِ الْفَظِيلِينَ﴾ أي : اعصمني واحمني ، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للتعذيب ، واحمني أيضًا من العذاب الذي ينزل بهم ، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العاصي وغيره .

قال الله في تقرب عذابهم : ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَدْعُهُمْ لَنَقْدِرُونَ﴾ ولكن إن أخرناه فلحكمة ، وإلا فقد رتنا صالحة لإيقاعه فيهم .

(٩٦-٩٨) ﴿ادْفَعْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ أَسْفَلَ السَّيْفِ ۚ عَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ ۚ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ هذا من مكارم الأخلاق التي أمر الله رسوله بها ، فقال : ﴿ادْفَعْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ أَسْفَلَ السَّيْفِ﴾ أي : إذا أساء إليك أعدائك ، بالقول والفعل ، فلا تقابلهم بالإساءة ، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته ، ولكن ادفع إساءتهم إليك بإحسان منك إليهم ، فإن ذلك فضل منك على المسيء .

ومن مصالح ذلك أنه تخف الإساءة عنك ، في الحال ، وفي المستقبل ، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق ، وأقرب إلى ندمه وأسفه ، ورجوعه بالتوبة عما فعل .

وليتصف العاصي بصفة الإحسان ، ويقهر بذلك عدوه الشيطان ، وليستوجب الثواب من الرب ، قال تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجْرِ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال تعالى : ﴿ادْفَعْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ أَسْفَلَ السَّيْفِ ۚ فَإِذَا إِلَىٰ يَدَيْكَ وَيَدُكَ عَذَابٌ كَأَنَّهُمْ قَتَلُوا ۚ وَمَا يَلْقَئُهَا﴾ أي : ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَئُهَا إِلَّا دُورٌ حَقِيظٌ عَظِيمٌ﴾ .

وقوله : ﴿عَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي : بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر ، والتكذيب بالحق ، قد أحاط علمنا بذلك ، وقد حلمنا عنهم ، وأمهلناهم ، وصبرنا عليهم ، والحق لنا ، وتكذيبهم لنا ، فانت - يا محمد - ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون ، وتقابلهم بالإحسان ، هذه (٢) وظيفة العبد في

٣٤٨ ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّكَبُ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿٢﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّلَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣﴾ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا نَذَرْتُ لَكَ مَا بَوَدُّكَ﴾ ﴿٤﴾ رَبِّ فَكَلِّمْ عَسَىٰ فِي الْقَوْمِ الْفَظِيلِينَ﴾ ﴿٥﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَدْعُهُمْ لَنَقْدِرُونَ﴾ ﴿٦﴾ وَادْفَعْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ أَسْفَلَ السَّيْفِ ۚ عَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿٧﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿٨﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ ﴿٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿١٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١١﴾ فَاِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا تَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١٢﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٤﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ نَارُ وُجُوهِهِمْ فِيهَا كَلِيلٌ حُوتٍ﴾ ﴿١٥﴾

مقابلة المسيء من البشر .

وأما المسيء من الشياطين ، فإنه لا يفيد فيه الإحسان ، ولا يدعوا حظه إلا ليكونوا من أصحاب السعير .
فالوظيفة في مقابله أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله ، فقال :

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي : اعتصم بحولك وقوتك متبركا من حولي وقوتي ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي : أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم ، وهمزهم ومستمهم ، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم ، وهذه (٣) استعاذة من مادة الشر كله وأصله ، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ، ومن مسته ووسوسته ، فإذا أعاد الله عبده من هذا الشر ، وأجاب دعائه ، سلم من كل شر ، ووفق لكل خير .

(٩٩ ، ١٠٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ

(١) في ب شطب حرف الجر (من) وغيرت الجملة فصارت (ولا علم عندهم إلا ما علمه الله) . (٢) في النسختين : هذا . (٣) في النسختين : هذا .

كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل، ما له وما عليه، وتبين فيه مئاقيل الذر من الخير والشر.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته
﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم
الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل.

﴿وَمَنْ حَقَّ مَوْزِنُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ كل خسارة غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة.

ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فاتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوّتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعَدُّ أعمالهم وتحصى، فيزقون عليها، ويقرون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين فقال: ﴿تَنَحَّ وَجُوهَهُمْ
اَلْاَكْثَرُ﴾ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب
أعضاءهم الشريفة، ويتقطع ليلها عن وجوههم.
﴿وَمِنْ فِيهَا كُذَّبُونَ﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت
شفاهم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلحقونه.

فيقال لهم - توبيعًا ولومًا - : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَانِي نَذِيرًا﴾^١
تدعون بها لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنتظروا ﴿فَكُفِّرُوا﴾^٢
﴿شُكْرُكُمْ﴾^٣ ظُلْمًا مِنْكُمْ وَعِنَادًا، وهي آيات بينات، دالات على
الحق والباطل، مبینات للمحق والمبطل.

فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع. ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم

ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّعِيرِ﴾.

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۖ كَلَّا إِنَّمَا كُمَ مَوْ قَابًا مِمَّا وَرَّثَ بِهِ،
مَنْ يَبْرَأُ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ ۚ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت،
من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال إذا رأى ماله،
وشاهد قبيح أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع
بللداتها واقتطاف شهراتها وإنما ذلك يقول:

﴿لَعَلِّي أَقْمَلُ صِلَحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل، وفطرت في جنب الله ﴿كَلَّا﴾ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون ﴿إِنِّي﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةً مَّا قَالَهُمَا﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لَعَادَ لَهَا بُهَى عَنْهُ.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمُ بُرْجٌ لَكَ يُؤْتِي مِثْرًا﴾ أي: من أئمة آلهم وبين أئديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة.

وفي هذا البرزخ يتمتع المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فَلْيُعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، وليأخذوا له أَهْبَتَهُ.

(١٠١-١١٤) ﴿قَالُوا نَفْخُ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۚ فَمَنْ ثَمَرُ مَرْيَمَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۚ وَمَنْ حَقَّتْ مَرْيَمُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَرِمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي هَاجِهِمْ خَلِيدُونَ ۚ نَتْلُو مِنْهُمْ جُودَهُمْ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۚ أَلَمْ تَكُنْ أَمَّا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ فَكُنْتُمْ بِهَا كَالِحِينَ ۚ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا مَقُوتَنَا وَكَانَ قَوْمًا مُجَالِسِينَ ۚ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۚ قَالَ أَعْتَصِمُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ۚ إِنَّهُمْ كَانَ فَرِيقٌ مِمَّنْ يَرْجَاوُ يُقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا مَا نَدْعُو لَنَا وَإِلَهُنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْإِلَهِينَ ۚ فَأَعْتَصَمُوا فَرِيقًا حَتَّىٰ آتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ وَكَفَّتْ مِنْهُمْ مُتَعَسِّكُونَ ۚ إِلَىٰ جَزَائِهِمَ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ۚ فَلَا كَمَ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَذَابٌ سِوَىٰ ۚ قَالُوا لَيْسَ بِنَارٍ أَوْ بَشَرٍ يَوْمَ فَتْنِ الْآلَمِينَ ۚ فَقُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا فَلَيْلًا لَّوْ أَتَاكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ۚ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور فاجتمعوا إليه، فحشر الناس أجمعون لميقات يوم معلوم، أنه يصيهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم التي هي أقوى الأسباب، فغير الانساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله، لا اشتغاله بنفسه، فلا يلدرى هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُرَى الْآخِرُ مِنْ أَوَّلِهِ ۚ وَآخِرُهُ مِنْ أَوَّلِهِ ۚ وَصَحْبُهُ مِنْ أَوَّلِهِ ۚ لِكُلِّ أَمْرٍ لَّيْمٌ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثَةٌ ۚ﴾

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها،

(١) في النسخين وقع تداخل بين آيات سورة عبس وآيات سورة المعارج، فكانت أقرب إلى آيات سورة عبس فأثبتتها منها.

٣٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا كُنَّا بِأَعْيُنِنَا قَوْمَ ثَابُوتَ ۖ وَقَدْ خَلَّيْنَا عَنْكَ آلِافَ مَقَرٍّ ۖ وَمَا كُنَّا بِبَصِيرَةٍ فِي مَا لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ لَقِيبًا ۚ

وَمَا كُنَّا بِأَعْيُنِنَا قَوْمَ ثَابُوتَ ۖ وَقَدْ خَلَّيْنَا عَنْكَ آلِافَ مَقَرٍّ ۖ وَمَا كُنَّا بِبَصِيرَةٍ فِي مَا لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ لَقِيبًا ۚ

وَمَا كُنَّا بِأَعْيُنِنَا قَوْمَ ثَابُوتَ ۖ وَقَدْ خَلَّيْنَا عَنْكَ آلِافَ مَقَرٍّ ۖ وَمَا كُنَّا بِبَصِيرَةٍ فِي مَا لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ لَقِيبًا ۚ

سُورَةُ الْبُورَةِ

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ولم يبق الله لهم حجة، بل قطع أعدائهم، وعمرهم في الدنيا، ما يذكر فيه [من] المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جواباً لسؤالهم.

﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُوا﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العافية - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأيس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم.

ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُبْكَرُونَ بِعِيَادِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم ﴿فَاغْفِرْ لَهُمْ﴾ أيها الكفرة الأندال ناقصو العقول والأحلام ﴿يَخْرِجُوا﴾ تهزءون بهم، وتحقرونهم، حتى اشتغلتم بذلك السفة.

﴿حَقَّ أَسْوَكَمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَكُونَ﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة؟! ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَلَيْسَ لَنَا مُنَادُونَ أَفَلَا نُكْفَرُ بِتَضَكُّهُمْ﴾ الآيات.

﴿قَالَ﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام، حيث اكتسبوا في هذه المدة البسيرة، كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون [من] الخير الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة، ورضوان ربهم.

﴿كَمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ عَدْدَ سِينِينَ﴾ قَالُوا لَيْفَا يَوْمًا أَرَى مَسْ يَوْمَ ﴿كَلَامُهُمْ هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى اسْتِقْصَارِهِمْ جَدًّا، لِمَدَّةٍ مَكْتُمَةٍ فِي الدُّنْيَا وَأَفَادَ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ لَا يَقِيدُ مَقْدَارَهُ، وَلَا يَعِينُهُ، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿قَسَتَى لِمَا كُنَّا فِيهَا﴾ أي: الضابطین لعدده.

وأما هم، ففي شغل شاغل^(١)، وعذاب مذل عن معرفة

عده، فقال لهم: ﴿إِنْ لَيْتَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سواء عيتم عدده، أم لا ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَقْلَتُونَ﴾.

(١١٦، ١١٥) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَدًا وَكُنَّا لَكُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ ٠ فَعَمَلُ اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيِّ ١: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَدًا﴾ أي: سدى وباطلا، تأكلون وتشربون وتمرحون، وتستمتعون بلذات الدنيا، وترتكب ما نأمركم، ولا نهاكم، ولا نتييكم، ونعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّكُمْ لَبِئْسَ لَكُمْ تَرْجَعُونَ﴾ لا يخطر هذا ببالكم.

﴿فَعَمَلُ اللَّهِ﴾ أي: تعاطف وارتفع عن هذا الظن الباطل الذي يرجع إلى الفدح في حكمته.

﴿الْمَلِكِ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيِّ﴾ فكونه ملكاً للخلق كلهم حقاً في صدقه ووعدته وعيده، مألوهاً معبوداً، لما له من الكمال ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيِّ﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلفكم عبداً.

(١) كلا في ب، وفي أ: كلمة غير واضحة كأنها: متاعل.

القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب.

وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين ليشتهر، ويحصل بذلك الخزي والارتداد، وليشاهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا ينقص. والله أعلم.

(٣) ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيان لردية الزنا، وأنه يندس عرض صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله لا تؤمن بيعت ولا جزاء، ولا تلزم أمر الله.

والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانية، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه مع تحريم الله لذلك لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والتاكي زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً لم يقدم على ذلك، وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الاقترانات والازدواجات.

وقد قال تعالى: ﴿أَمْشُوا آلَيْنَ يَكْمُرَا وَأَرْوَحَهُمْ﴾ أي: قرناءهم، فحرم الله ذلك لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، وإلحاق الأولاد الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعقها بسبب اشتغاله بغيرها، مما بعضه كاف للتحريم^(١)، وفي هذا دليل: أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم المدح، الذي هو الإيمان المطلق.

(٥، ٤) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ الْخُمُسَ ثُمَّ نَزَّ وَأُولَايَا رُبْعَهُ شَهْدَةً قَائِلِينَ وَفِي شَتَّى بَلَدٍ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهْدَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ○ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ لما عظم تعالى أمر الزاني^(٢) بوجوب جلده وكذا رحمه إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنة، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من

(١) في ب: كاف في التحريم. (٢) في أ: الزنا، وفي ب الكلمة مشطوبة.

(١١٨، ١١٧) ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ○ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: ومن دعا مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينبئه من الفلاح شيئاً، لأنه كافر.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فكفرهم منهم من الفلاح. ﴿وَقُلْ دَاعِيَائِ لِرَبِّكَ مَخْلَصًا لَدَيْنِ رَبِّ اغْفِرْ﴾ لنا حتى نتجنبنا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه. ثم تفسير سورة المؤمنين، من فضل الله وإحسانه.

تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سُورَةُ النُّورِ وَأَنْزَلْنَاهَا فَرَقْنَا بِهَا آيَاتٍ يَنْتَهِ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ أي: هذه ﴿سُورَةُ﴾ عظيمة القدر ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ رحمة منا بالعباد، وحفظناهم من كل شيطان ﴿وَوَضَعْنَا﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا من الحدود والشهادات وغيرها.

﴿وَأَنْزَلْنَاهَا فَرَقْنَا بِهَا آيَاتٍ يَنْتَهِ﴾ أي: أحكاماً جلية، وأوامر وزواجر وحكمًا عظيمة ﴿لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

(٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمَا بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما القيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رافة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رافة طبيعية أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرافة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان

الشر، بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: النساء الحرائر العفاف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالزمني الرمي بالزنا، بدليل السياق.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما رموا به ﴿بِإثباته شهادته﴾ أي: رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً.

﴿فَأُولَئِكَ سَنَجْزِي﴾ بسوط متوسط يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب، لا الإتلاف، وفي هذا تقرير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن، فإنه يجب التعزير.

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حُدَّ على القذف، حتى يتوب كما يأتي.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا﴾ فإن الله غفور رحيمٌ، فالتوبة في هذا الموضع، أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء. فإذا تاب القاذف وأصلح عمله، بدل إساءته إحساناً، زال عنه الفسق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح، فإن الله غفور رحيم يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وأناب، وإنما يجلد القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً، فإن كان زوجاً، فقد ذكر بقوله:

(١٠-٦) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ﴾ أي: الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ﴾ أي: الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ﴾ أي: الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ﴾ أي: الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ.

سورة النور

٣٥٠

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النُّورِ وَأَنْزَلْنَاهَا فَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ لِيُنْذِرَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الرَّائِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهَادَةُ عِدَايَهُمَا طُفَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

المفقودة في غيره فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: الحرائر ^(١) لا المملوكات. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ﴾ أي: الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ﴾ أي: الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَزُجِرُوا مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ مُنْقَبِرَةٍ.

ظاهر الآيات، ولو سمي الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط حقه تبعاً لها، وهل يقام عليها الحد بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل أنه يقام عليها الحد بدليل قوله: ﴿وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ إلى آخره، فلو لا أن كان كاذباً، فإذا تم لعانه سقط عنه حد القذف.

ظاهر الآيات، ولو سمي الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط حقه تبعاً لها، وهل يقام عليها الحد بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل أنه يقام عليها الحد بدليل قوله: ﴿وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ إلى آخره، فلو لا أن كان كاذباً، فإذا تم لعانه سقط عنه حد القذف.

(١) في النسختين: الأحرار، ولعل الصواب ما أثبت.

يكن لعانها داراً له .

ويدراً عنها، أي: يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها .

﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وتزيد في الخامسة، مؤكدة لذلك، أن تدعو على نفسها بالعضب، فإذا تم اللعان بينهما فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عليه .

وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجع إلا هو .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما، ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين، لشدة الحاجة إليه، وأن بين لكم شدة الزنا وفضاعته، وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها .

(٢٦-١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبَرٌ لَكُمْ﴾ إلى آخر الآيات، وهو قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما ذكر فيما تقدم تعظيم الرمي بالزنا عموماً، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات نزلت في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد .

وحاصلها أن النبي ﷺ في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فانجست في طلبه ورحلوا جملها وهودجها، فلم يفقدوها ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر معجى صفوان بها في هذه الحال أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلفقته الأسنن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا ينتقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن

الْبَقَرَةُ

٣٥١

النُّور

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبَرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَبْرًا وَقَالُوا هَذَا افْكٌ مِنْهُمْ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ يَا أُوْهَاهُ كَمَا أَلَسَّ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا امْتِنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْأَيْتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ رَبُّ رَجِيمٍ ﴿٢١﴾

الرسول ﷺ .

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾ أي: الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين ﴿عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا﴾ أي: جماعة متسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق [في إيمانه، ولكنه اغتر بترويج المنافقين^(١)، ومنهم المنافق .

﴿لَا تَحْسَبُوا سُرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبَرٌ لَكُمْ﴾ لما تضمن ذلك تبرة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض، كقدح في

﴿وَقُولُوا بِأَفْوَكَرَ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ والامران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيَاتًا﴾ فذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيه الزجر البالغ عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيد حسابه شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه موافقته مرة أخرى.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإللاك ﴿فَقُتِلَتْ﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَكْذِبَ كَذِبًا﴾ أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام بهذا الإللاك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبايح ﴿هَذَا بَيِّنَةٌ﴾ أي: كذب عظيم.

﴿يَعْلَمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ أي: لنظيره من رمي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والصباح من ربنا، فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له على ما بين لنا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ﴾.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.

﴿وَرَبِّنَا اللَّهُ لَكُمْ آيَاتٍ﴾ المشتملة على بيان الأحكام والوعظ، والزجر والترغيب والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جليلاً ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبة المستعظمة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة ﴿فِي الْأَزْوَاجِ﴾ عَامُوا لَمْ يَكُنْ عَدَابُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، أي: موجه للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة.

وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكرهه ما يكره لنفسه ﴿وَاللَّهُ يَتْلُمُ وَأَكْثَرُ لَا تَسْلُوكُ﴾ فذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلون.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قد أحاط بكم من كل جانب

أنفسهم، فبِهِ أن المؤمنين في نوادهم وتراحيمهم وتعاطفهم واجتماعهم على مصالحهم كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالنبيان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد أن يقدح في أخيه المؤمن الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه، وعدم نصحه.

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ بَيْنَهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ وهذا وعيد للذين جاءوا بالإللاك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة.

﴿وَالَّذِي كُوفِيَ كَبِيرٌ﴾ أي: معظم الإللاك، وهو المنافق الخبيث، عبد الله بن أبي ابن سلول، لعنه الله ﴿لَمْ يَدَأْ عَظِيمٌ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا﴾ أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رماؤ به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإللاك الباطل.

﴿وَقَالُوا﴾ بسبب ذلك الظن: ﴿شُبِّهَكُمُ﴾ أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تبثلي أصفاءك بالأمور الشنيعة.

﴿هَذَا إِلَهُكُمُ يُبَيِّنُ﴾ أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء وأبينها فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: هلا جاء الرامون على ما رماؤ به بأربعة شهداء، أي: عدول مرضيين.

﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَالْوَيْلُ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود، ولهذا قال: ﴿فَالْوَيْلُ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون». وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَسَكُنْتُمْ فِي مَا أَقْسَرْتُمْ﴾ أي: خضتم ﴿فِيهِ﴾ من شأن الإللاك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إِذْ تُلْقُونَ بِالنَّيْتِكِ﴾ أي: تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض وتستوثقون حديثه، وهو قول باطل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥٢

سُورَةُ التَّوْرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْأَفْضَالِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا يُحِشُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ يَوْمَ تُنْفَذُ عَلَيْهِمُ السِّنَنُ وَأُودِعَهُمْ فِي الْأُكُودِ يَمُوتُونَ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ يَوْمَ يُدْفِنُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٥﴾ لَمُتَيْتُ لِلْحَيَاتِ وَالْحَيَاتُوكِ لِلْحَيَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ وَالطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُّرَرٌ وَرَمَاءُ يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧﴾

فترلت هذه الآية،^(١) ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع الثقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعدده بمغفرة الله، إن غفر له فقال: «أَلَا حُشُونُ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية - بلى، والله إنني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع الثقة إلى مسطح.

وفي هذه الآية دليل على الثقة على القريب، وأنه لا ترك للثقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ» أي: العفاف عن الفجور «الْفَاضِلَاتِ» اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن «الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» واللعة، لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعة بأنها متواصلة عليهم في الدارين «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» وهذا زيادة على اللعة، أبعدهم عن رحمته، وأحل

﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليكم «وَأَنَّ اللَّهَ زَكَاةٌ رَحِيمٌ» لَمَّا بَيَّنَّ لَكُمْ هذه الأحكام والمواظع، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الديني والأخروي، ما لن تحصوه، أو تعدوه.

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه، نهى عن الذنوب عموماً فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ» أي: طريقه ووساوسه، وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن.

ومن حكمته تعالى أن بيّن الحكم، وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان، والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه من الشر المقنض، والداعي لتركه فقال: «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ» أي: الشيطان «يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ» أي: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه. «وَالْمُنْكَرِ» وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه، فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك، فنهى الله عنها العباد نعمة منه عليهم، أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالزنازل والقبائح. فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم الفائلة ونحوها.

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: ما تظهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى، هو وجنده في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مُشْتَوِّلٌ على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو غلبت وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات، والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء. ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها» ولهذا قال:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ من يعلم منه أن يزكى بالتزكية، ولهذا قال: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾ أي: لا يحلف «أُولُو الْأَفْضَالِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا».

كان من جملة الخائضين في الإفك «مسطح بن أثانة» وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال.

بهم شدة نعمته .

وذلك العذاب يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم.

﴿يُؤَيِّدُ بِيُوقِيمِ اللَّهِ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً.

﴿وَيَقُولُونَ يَؤُولِنَا مَا لَ هَذَا أَلْكَتَبَ لَا يَكُونُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَصْنَعْنَا وَجَعَلُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ويعلمون في ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعد ووعيد وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا تَمُّ حق إلا في الله، وما من الله.

﴿لَقَدْ كُنْتُمْ لِيَكْنِثِينَ وَاللَّيْكُنِثُ لِلْيَكْنِثِينَ﴾ أي: كل خبيث من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للخيث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له.

فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته أن الأنبياء خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق، لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء.

فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المناققين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة، من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي؟! صِدِّيقَةُ النساء، وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها.

ثم صرح بذلك بحيث لا يبقى لمبطل مقالاً، ولا لشك وشبهة مجالاً فقال: ﴿أُولَئِكَ مِرْيُوتٌ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً ﴿هَلْ مَغْفِرَةٌ﴾ تستغرق الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صادر من الرب الكريم.

(٢٧-٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

﴿إِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَعَمُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ يرشد الباري عباده المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفساد:

منها ما ذكره الرسول ﷺ، حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، بسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب البرية من الداخل، ويتهم بالشَّرِّ سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي: يستأذِنُوا، سمي الاستئذان استئناساً، لأنه به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة.

﴿وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ وصفة ذلك ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أَدخِل؟».

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الاستئذان المذكور ﴿غَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتغاله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن دخل المستأذن.

﴿إِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَعَمُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبر والاشتمزاز من هذه الحال.

﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتنيتكم بالחסنات، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن، وعلمه.

هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة التي لا متاع فيها للإنسان.

وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم، وفيه حرج، «أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ» وهذا من احترازاات القرآن العجيبة، فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يَبُذَرَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٣٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَحَفِظُوا أَرْوَاحَهُمْ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٤٠﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضُنَّ مِنْ أَنْصَارِهِنَّ وَحَفِظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعَاتِ غَيْرَ أُولَى الْإِرْتِبَاعِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الْأَوْطَلِ الْأَدْنَى لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤١﴾

جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤١﴾ لَمَّا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَضِّ الْأَبْصَارِ، وَحِفْظِ الْفُرُوجِ، أَمَرَ الْمُؤْمِنَاتِ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ عَنْ النِّظَرِ إِلَى الْعَوْرَاتِ وَالرِّجَالِ، بِشَهْوَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ النِّظَرِ الْمَنْعِيِّ.

﴿وَحَفِظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ مِنَ التَّمَكُّنِ مِنْ جَمَاعِهَا، أَوْ مَسْهَا، أَوْ النِّظَرِ الْمَحْرَمِ إِلَيْهَا. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كَالثِّيَابِ الْجَمِيلَةِ وَالْحُلِيِّ، وَجَمِيعِ الْبَدَنِ كُلِّهِ مِنَ الزَّيْنَةِ.

وَلَمَّا كَانَتِ الثِّيَابُ الظَّاهِرَةُ، لَا يَدُلُّهَا مِنْهَا قَالَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أَيِ: الثِّيَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي جَرَتْ الْعَادَةُ بَلْبِسَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُو إِلَى الْفِتْنَةِ بِهَا.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وَهَذَا لِكَمَالِ الْإِسْتِئْثَارِ، وَبَدَلُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الزَّيْنَةَ الَّتِي يَحْرَمُ إِبْدَاؤُهَا، يَدْخُلُ فِيهَا جَمِيعُ الْبَدَنِ، كَمَا ذَكَرْنَا، ثُمَّ كَرَّرَ النَّهْيَ عَنْ إِبْدَاءِ زِينَتِهِنَّ، لِيَسْتَنِي مِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أَيِ: أَزْوَاجِهِنَّ ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾

(١) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: التَّي.

لَفْظِ عَامٍ فِي كُلِّ بَيْتٍ لَيْسَ مَلَكًا لِلْإِنْسَانِ، أَخْرَجَ مِنْهُ تَعَالَى الْبُيُوتَ الَّتِي لَيْسَتْ مِلْكُهُ، وَفِيهَا مَنَاعُهُ، وَلَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ، فَاسْقَطَ الْحَرَجَ فِي الدَّخُولِ إِلَيْهَا.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أَحْوَالُكُمْ الظَّاهِرَةَ وَالْخَفِيَّةَ، وَعِلْمُ مَصَالِحِكُمْ، فَلِذَلِكَ شَرَعَ لَكُمْ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَتَضْطَرُّونَ، مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.

﴿٣٩﴾ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أَيِ: أَزِيدُ الْمُؤْمِنِينَ، وَقُلْ لَهُمْ الَّذِينَ مَعَهُمْ إِيْمَانًا، يَمْنَعُهُمْ مِنْ وَقُوعِ مَا يَخِلُ بِالْإِيْمَانِ: ﴿بَعْضُوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ﴾ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْعَوْرَاتِ وَإِلَى النِّسَاءِ الْأَجْنِبِيَّاتِ، وَإِلَى الْمَرْدَانِ الَّذِينَ يَخَافُ بِالنِّظَرِ إِلَيْهِمُ الْفِتْنَةَ، وَإِلَى زِينَةِ الدُّنْيَا الَّتِي تَفْتِنُ، وَتَوْقِعُ فِي الْمَحْذُورِ.

﴿وَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عَنِ الْوَطْءِ الْحَرَامِ فِي قُبُلٍ أَوْ ذُبُرٍ أَوْ مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعَنِ التَّمَكُّنِ مِنْ مَسْهَا وَالنِّظَرِ إِلَيْهَا ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْحِفْظُ لِلْأَبْصَارِ وَالْفُرُوجِ ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ أَطْهَرُ، وَأَطْيَبُ، وَأَمْسَى لِأَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّ مِنْ حِفْظِ فَرْجِهِ وَبَصَرِهِ، طَهْرٌ مِنَ الْخَبَثِ الَّذِي يَتَدَنَسُ بِهِ أَهْلُ الْفَوَاحِشِ، وَزَكَاةٌ أَعْمَالِهِ، بِسَبَبِ تَرْكِ الْمَحْرَمِ الَّذِي^(١) تَطْمَعُ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ، فَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوْضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ الْمَحْرَمِ أَنْارَ اللَّهِ بِصِيرَتِهِ، وَلَئِنْ الْعَبْدَ إِذَا حَفِظَ فَرْجَهُ وَبَصَرَهُ عَنِ الْحَرَامِ وَمَقْدَمَاتِهِ مَعَ دَاعِي الشَّهْوَةِ، كَانَ حِفْظُهُ لَغَيْرِهِ أَبْلَغَ، وَلِهَذَا سَمَاهُ اللَّهُ حِفْظًا، فَالْشَيْءُ الْمَحْفُوظُ إِنْ لَمْ يَجْتَهِدْ حَافِظُهُ فِي مِرَاقَتِهِ وَحِفْظِهِ، وَعَمَلُ الْأَسْبَابِ الْمَوْجِبَةِ لِحِفْظِهِ، لَمْ يَنْحَظْ، كَذَلِكَ الْبَصَرُ وَالْفَرْجُ، إِنْ لَمْ يَجْتَهِدِ الْعَبْدُ فِي حِفْظِهِمَا أَوْقَاعَهُ فِي بَلَايَا وَمَحَنٍ.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ أَمَرَ بِحِفْظِ الْفَرْجِ مُطْلَقًا، لِأَنَّهُ لَا يَبَاحُ فِي حَالَةِ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَأَمَّا الْبَصَرُ فَقَالَ: ﴿بَعْضُوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ﴾ أَتَى بِأَدَاءِ «مِنْ» الدَّالَّةِ عَلَى التَّبَعِيضِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ النَّظَرُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ لِحَاجَةٍ، كَنَظَرِ الشَّاهِدِ وَالْعَامِلِ وَالْخَاطِبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ بِعِلْمِهِ بِأَعْمَالِهِمْ، لِيَجْتَهِدُوا فِي حِفْظِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ.

﴿٣٩﴾ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضُنَّ مِنْ أَنْصَارِهِنَّ وَحَفِظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعَاتِ غَيْرَ أُولَى الْإِرْتِبَاعِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الْأَوْطَلِ الْأَدْنَى لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥٤

سُورَةُ النُّورِ

وَأَنْذِرْهُمْ أَنْ يُدْعُوا إِلَى دَعْوَى الْفَاسِقِينَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ إِنَّ
يَكُونُوا أَقْرَبَ إِلَيْكُمْ مِنْكُمْ مِنْكُمْ فَضْلُهُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾
وَلِيَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحِجُّونَ نَكَاحًا حَتَّى يَغْنِبَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكَتَبَ وَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَانُوا مِنْهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا
تُكْرَهُوا فَانْتَبِهُوا عَلَى الْبَعْلِ إِنْ أَرَادَ نَحْصًا لِلْبَغْيِ عَرْضَ الْخَيْفِ
الَّذِينَ وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ أَرْهَقِهِمْ عَفُوٌّ رَحِيمٌ
﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلتَّقِيينَ ﴿٣٨﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْفُوكُمْ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ فِي يَوْمٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ
وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٤٠﴾

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليعقلوا عنه، ويفهموا، لطفًا
منه بهم، وإحسانًا إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن
الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها
العباد علمًا واضحًا.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء،
فَلْتَعْلَمُوا أَنَّ ضَرْبَهُ الْأَمْثَالِ، ضَرْبٌ مِنْ يَعْلَمُ حَفَائِقِ الْأَشْيَاءِ
وتفاصيلها وأنها مصلحة للعباد، فَلْيَنْتَبِهُوا لِمَا اشْتَغَلَكُمْ بِتَذْكِرِهَا
وتعقلها لا بالاعتراض عليها ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم
لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في
المساجد، ذكرها موهبا بها فقال:

(٣٨-٣٦) ﴿فِي يَوْمٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ
لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ وَبِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ: بِأَنَّ لِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَبِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ: بِأَنَّ لِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَبِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ: بِأَنَّ لِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَبِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ: بِأَنَّ لِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(١) في النسختين: آخر النهار، ولعل الصواب ما أنبه، ثم إن الكلمة معدلة
من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.

تَمَسَّهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور،
وحجابه - الذي لولا لطفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى
إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكرسي،
والشمس، والقمر والنور، وبه استنارت الجنة، وكذلك النور
المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان
والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور، فلولا نوره
تعالى لثراكت الظلمات، ولهذا كل محل يفقد نوره فتم
الظلمة والحصر.

﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في
قلوب المؤمنين، ﴿كِشْفُوكُمْ﴾ أي: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن
الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا ينفق، ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي
زُجَاجَةٍ﴾ من صفاتها وبهاثا ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ﴾ أي:
مضيء إضاءة الدر.

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿بِزَيْتٍ
مُبْرَكَةٍ﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره
من أنور ما يكون ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر
النهار.

﴿لَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس، ﴿أَوَّلًا﴾ النهار،
وإذا انتفى عنها الأمان، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون
الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب،
ويكون أصفى لزيته، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ من صفاته
﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة
بليغة ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: نور النار، ونور الزيت.

ووجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة
المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة
الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعالم الإلهية
والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل
ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك
المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم
عن الله، إذا وصل إليه الإيمان أضاء إضاءة عظيمة، لصفاته
من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاج الدرية، فيجتمع
له نور الفطرة ونور الإيمان ونور العلم وصفاء المعرفة، نور
على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له
ذلك قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن يعلم زكاه
وطهارته، وأنه يتركو معه، وينمو.

يَعْرِى حِسَابُ أَي: يتعدى الله ﴿فِي يُؤْتِ﴾ عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي: أمر ووصى ﴿أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها بناؤها وكنسها وتظيفها من النجاسة والأذى، وصونها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحززون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

﴿وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات، التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها وهذا أشرف القسمين.

ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد وجوباً عند أكثر العلماء، أو استحباباً عند آخرين، ثم مدح تعالى عمارتها بالعبادة فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ إخلاصاً ﴿إِلَافَتُهُ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالُ﴾ آخره ﴿يَجَالُ﴾ خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته.

ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء، وأورادها عند الصباح والمساء، أي: يسبح فيها لله رجال، وأي رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب مشغلة عنه.

﴿لَا تُلْهِيمُهُمْ بَحْرَةً﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا يَبِيعُ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهو لأجل الرجال، وإن اتجروا، وياعوا، واشتروا، فإن ذلك لا محذور فيه، لكنه لا تلهيهم تلك بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَاقْلَامِ الصَّلَاةِ وَالْزَكَاةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك ترغيباً وترهيباً - فقال:

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه.

﴿يَتَجَرَّبُهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالنواب لا يكون إلا على العمل الحسن كقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم، ﴿وَاللَّهُ يُزِدُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرة جلد.

(٤٠، ٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرًا يَبْقَعُو بِحَسَبِهِ الْقُلُوبَانِ مَا هُوَ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُمْ لَرَّ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قَوْلَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أو كطلمنت في بحر لئبي بقشنة موج من فوقه. موج من فوقه. سحاب طلمنت بعضها فوق بعض إذا أخرج بكدم لَرَّ يكدر بها ومن لَرَّ يجعل الله لَرَّ نوراً فما لَرَّ من نور. هذان مثلاً ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها ودعائها سدى وتحسر عاملها منها فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برهم وكذبوا رسله ﴿أَعْمَلُهُمْ كَسَرًا يَبْقَعُو﴾ أي: بقاع؛ لا شجر فيه ولا نبت.

وَلِيَّكَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيُّ اللَّهِ الْأَكْبَرُ ﴿٤١﴾ بنيه تعالى عباده على عظمته، وكمال سلطانه، واقتدار جميع المخلوقات له في ربوبيتها، وعبادتها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من حيوان وجماد ﴿وَالطَّيْرِ صَوْتٌ﴾ أي: صفات أجنحتها في جو السماء، تسبح ربها ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللاتفة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالحن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها^(١) شيء، وسيجازيهم بذلك فيكون على هذا قد جمع بين علمه^(٢) بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا - أيها العباد - منها، إلا ما أطلعكم الله عليه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا خَفِيًّا﴾.

فلما بين عبوديتهم واقتدارهم إليه - من جهة العبادة والوحدانية - بين افتقارهم، من جهة الملك والترية والتدبير فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما^(٣)، ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي [والقدري]^(٤)، في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار بدليل قوله: ﴿قَوْلَى اللَّهِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم. (٤٤، ٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ هَاجِرًا يَتَخِفُّونَ مِنْ خِلْفِهِ وَيُرْسِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جَلاَلِهَا مِنْ بَرَقٍ فَتَذُوقُ الْبَرْقِ مِنْ يَمِينِهِ وَتَصْرِفُهُ عَنْ مَنِّ يَسَارِهِ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ۝ يَقُولُ اللَّهُ الْيَلُ وَالْهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: ألم تشاهد بصرك عظيم قدرة الله، وكيف ﴿يُرْسِي﴾، أي: يسوق ﴿سَحَابًا﴾ قطعًا متفرقة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ بين تلك القطع، فيجعلها سحابًا متراكمًا، مثل الجبال.

﴿فَتَرَى الْوَدَكَ﴾ أي: الوابل والمطر، يخرج من خلال السحاب، قطعًا متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلىء بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب برقًا يُؤَلِّفُ ما يصيبه.

﴿يَجْعَلُهُ السَّمَوَاتُ مَاءً﴾ شديد العطش الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسان باطل، فيقصده ليزيل ظلامه.

﴿حَقًّا إِنَّكَ تَبْذُرُهُمْ كَثِيرًا يُجَادُّهُ شَيْئًا﴾ فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظلم، بسبب انقطاع رجائه.

كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب، تُرَى ويطننها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالاً نافعة، فيغره صورتها، ويخلبه خيالها، ويحبسها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها بل مضطر إليها، كاحتياج الظلمان للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً، والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل ﴿وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قُوَّتَهُ كَيْفَ كَانَ﴾ لم يخف عليه من عمله تغير ولا ظمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعٌ لِحِسَابِ﴾ فلا يستطيع الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي ببيعة، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقولهم، لا خير فيها ولا ير، فتركوا فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني لبطان أعمال الكفار ﴿كَلَّمْتَنِي فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ بعيد قعره، طويل مداه ﴿بِقَسْنَةِ مَوْجٍ بَيْنَ قَوْيَةٍ مَوْجٍ بَيْنَ قَوْيَةٍ سَحَابٌ طُلُتْ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر اللحي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جداً، بحيث إن الكائن في تلك الحال ﴿إِذَا أُنْفِجَ يَكْفُرُ كَرَّ يَكْفُرًا﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها، كذلك الكفار، تراكت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك ظلمة الجهل، وفوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور إلا ما أعطاه مولاها، ومنحها ربها، يحتمل أن هذين المثالين لأعمال جميع الكفار، كل منهما منطبق عليها، وعَدَدُهُمَا لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال لطائفة وفرقة: فالأول للمتبعين، والثاني للتابعين، والله أعلم.

(٤٢، ٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَوْتٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝

(١) في النسخين منه. (٢) كلما في ب، وفي أ: علمها. (٣) في النسخين: خالقها، ولعل الصواب ما أنته. (٤) زيادة من هاشم ب.

يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥١﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٢﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مُبِينَاتٍ
وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٣﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْمَقُورُ
يَأْتُوا إِلَيْكَ مُذْعِبِينَ ﴿٥٦﴾ أَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرَأَيْتُمْ أَن يُخَافُوا
أَن يُصِيبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَرَأً مِنْ رَسُولِهِ أَوْ لَوْلَا أَنَّهُمْ الْفَالِقُونَ ﴿٥٧﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَنْ
يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي يَتَقَفَّوْا فَاُولَئِكَ هُمُ الْفَالِقُونَ ﴿٥٩﴾
﴿٥٩﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَعْيُنِهِمْ لَئِنْ أُمِرُوا لَيُخْرِجَنَّ قُلُوبَهُمْ
لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ يَخْرِجُ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيصدق خبرهما ويمتثل أمرهما.

﴿وَيَخْشَى اللَّهَ﴾ أي: يخافه، خوفاً مقروناً بمعرفة، فترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما نهى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَقَفَّوْا﴾ بترك المحذور، لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند اقترانهما بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتقوى عذاب الله بترك معاصيه. ﴿فَاُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله، وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، ﴿هُمُ الْفَالِقُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركه أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالغزو محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الغزو، بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزيز والتوفير، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لَتَقَاتِلَنَّهُ بِأَلْفٍ وَرَسُولٍ. وَنَعَزِيذُهُ

﴿مُذْعِبِينَ﴾ وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا بمدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذنعين، لأن العبد حقيقة من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع، فليس بعبد على الحقيقة.

قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿إِنِّي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: علة، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته، فصار بمنزلة المريض الذي يعرض عما ينفعه، ويقبل على ما يضره.

﴿أَمْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق.

﴿لَهُمْ يَخَافُونَ أَن يُصِيبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَرَأً مِنْ رَسُولِهِ﴾ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَالِقُونَ﴾.

وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول، حتى يقرن به العمل، ولهذا نفى الإيمان عن تولى عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من لم يتقّد له دل على مرض في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين فقال:

(٥٢، ٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي يَتَقَفَّوْا فَاُولَئِكَ هُمُ الْفَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سواء وافق أهواءهم أو خالفها ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعائنا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله. ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً، ذكر فضلها عموماً في جميع الأحوال، فقال:

وَنُفِثُوا وَنُقِيَّتْهُمُ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلَةٍ ﴿٥٤﴾

(٥٤، ٥٣) ﴿وَأَنفُسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أُنْفُسِكُمْ لَئِنْ أَمَرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا نَقْضِي مَا عَاهَدْنَا مَنَعُوا لَنَا اللَّهُ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوا تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْأَمِينُ﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين، ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله: ﴿لَئِنْ أَمَرْتُمْ﴾ فيما يستقبل، أو لئن نصصت عليهم حين خرجت ﴿يَخْرُجُنَّ﴾، والمعنى الأول أولى.

قال الله - راداً عليهم -: ﴿قُلْ لَا نَقْضِي مَا﴾ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم ولا إلى أعداركم، فإن الله قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم معروفة، لا تخفى علينا، قد كنا نعرف منكم التناقل والكسل من غير عذر، فلا وجه لعذرهم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك من كان أمره محتماً، وحاله مشبهة، فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أنتم فكلنا ولما، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر.

وأما الرسول عليه الصلاة والسلام، فوظيفته أن يأمرهم وينهاهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنِ امْتَلَأُوا، كان حظكم وسعادتكم﴾^(١)، وإن ﴿تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من الرسالة، وقد أداها، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيبكم واستحقاقكم العذاب ﴿وَإِن تُطِيعُوا تَهْتَدُوا﴾ إلى الصراط المستقيم قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن، بل هو محال.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْأَمِينُ﴾ أي: تبليغكم البين الذي لا يُبَيِّقُ لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم، ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

(٥٥) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْنَاءَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن مَّوَدِّعِهِمْ أَمَّا يُبَدِّلُونَّ إِنَّ يَشْكُرُونَ فِي شَيْءٍ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هذا من أوعاده^(٢) الصادقة التي شهودها تأويلها ومعبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو

الْبَلَاغُ الْأَمِينُ

٣٥٧

الْبَلَاغُ الْأَمِينُ

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوا تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْأَمِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْنَاءَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن مَّوَدِّعِهِمْ أَمَّا يُبَدِّلُونَّ إِنَّ يَشْكُرُونَ فِي شَيْءٍ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَطِيعُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَاتُحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجِزَاتِ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَنَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكُونُونَ لَكُمْ مِنَ الظَّاهِرِينَ ﴿٥٨﴾ تِلْكَ مَرْثَاتٌ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدُهَا طَرَفُونَ عَلَيْكُمْ بِعَظْمٍ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها، ارتضاء لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله، ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنتهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاريها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات

(١) في ب: كان حظهم وسعادتهم. (٢) كذا في السخين، ولعل الصواب: وعوده.

يُنِيبُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ أمر المؤمنين أن يستأنذهم ممالكهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم، قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأنذ عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلماً كان في الغالب قليلاً، قد ينام فيه العبد بشيابه المعتادة، قيده بقوله: ﴿وَمَنْ نَسَوْنَ ثِيَابَهُمْ مِنْ ظُلُمَتِهِمْ﴾ أي: للقائلة وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال يكون الممالك والأولاد الصغار كغيرهم، لا يُمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طَرَفُونَا عَلَيْكُمْ بِضُكْمٍ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ بياناً مقروناً بحكمته، ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شاعره وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ له العلم المحيط بالواجبات، والمستحيلات، والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بيّنها وبين مأخذها وحسنها.

(٥٩) ﴿وَلَا يَلْعَنَ الْأَفْئَلُ بِكُمْ الْمُؤْمِنُ﴾ وهو إنزال المني بقطة أو مناماً، ﴿فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَرْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم، هم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ الآية.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ ويوضحها، ويفصل أحكامها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم، ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الْبَنِيُّ الْمَلَكَ لِيَسْتَشِيرَ وَالَّذِينَ تَرَى بُيُوتَهُمْ مُطَهَّرَةً﴾ الآية، ولا يمكن ذلك إلا بالتعليم والتأديب، ولقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهى عن الاغتسال فيه، والاستنجاء، ونحو ذلك.

الله العجيب الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويُدبِّلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التمكن والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبت طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك.

ودلت هذه الآية أن الله قد مكن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿تَسْتَخْلِفْنِي فِي الْأَرْضِ فَنَنْصَرِفْ عَنْكُمْ تَخْلَفُنِي﴾ وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَنْ تُدْنِيَ عَنْكَ الْأَرْضَ تَأْخُذُهَا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَزْوَاجًا وَيُجْعَلُهُمْ آيَةً وَتُكَيِّنُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

(٥٧، ٥٨) ﴿وَأُوتُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرُّسُلَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ لا تحسبن الذين كفروا معجزات في الأرض وماؤنها تبارك وتعالى الصبيح، يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بآركانها وشروطها وآدابها، ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذان أكبر الطاعات وأجلها، جامعتان لحقه وحق خلقه للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وَأُوتُوا الرُّسُلَ﴾ وذلك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿مَنْ يُطِيعِ الرُّسُلَ فَقَدْ طَاعَ اللَّهَ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ حين تقومون بذلك ﴿تَرْحَمُونَ﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتَمَنٍّ كاذب، وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزَاتِ فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يغفرك ما مُتَعَمَّرًا به في الحياة الدنيا، فإن الله وإن أمهلهم فإنه لا يمهلهم ﴿تَنْصِبُهُمْ قُلُوبَهُمْ لِكَيْ تَنْصِبَهُمْ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا نَجَسٌ مُسْتَفْسِدُونَ﴾ أي: بسئ المال مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدي.

(٥٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الْبَنِيُّ الْمَلَكَ لِيَسْتَشِيرَ وَالَّذِينَ تَرَى بُيُوتَهُمْ مُطَهَّرَةً تَلَتْ مَرْثَ مِنْ قِبَلِ صَلَوةِ الْفَتْرِ وَمِنْ نَصْمُونِ يَتَابِكُمْ مِنْ الظُّلُمَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ تَلَتْ عَوْرَتِي لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَرَفُونَا عَلَيْكُمْ بِضُكْمٍ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ

فهؤلاء، يجوز لهم أن يكشفن وجوههن، لأنهن المحذورات
منها وعليها، ولما كان نفْيُ الحرج عنهن في وضع الثياب،
ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء، دفع هذا الاحتراز
بقوله: ﴿مَنْ مَتَّعَتْ بِرَزَقٍ﴾ أي: غير مظهرات للناس زينة،
من تجمل بثياب ظاهرة، وتستر وجهها، ومن ضرب الأرض
برجلها، ليعلم ما تخفي من زينتها، لأن مجرد الزينة على
الأنثى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشهى - يفتن فيها،
ويوقع الناظر إليها في الحرج.

﴿وَأَن يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ والاستغفار: طلب العفة بفعل الأسباب المقترضية لذلك، من تزوج وترك لما يُخشى منه الفتنه.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات والمقاصد، فليَحْذَرَنَّ من كل قول وقصد فاسد، ويعلمن أن الله يجازي على ذلك.

(٦١) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَوْلِيَاءِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَشِيرَتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ كَلْبَتِكُمْ أَوْ مِنْ سَكَنِهَا مَنْ أَكَلَ مِنْهُ بَعْضُهُمْ أَوْ سَوِيغًا لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يخبر تعالى عن مَنِيَّةٍ على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج، بل يشره غاية التيسير، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ أي: ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر للأعمى، أو سلامة للأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: حرج ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت «أنت ومالك لأبيك» والحديث الآخر: «إن أطلب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم».

وليس المراد من قوله: ﴿يَرْبُّكُمْ﴾ بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي يتره عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم، من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه، فليس فيه أدنى توهم.

(١) كذا في النسخين، ولعل في الكلام قلباً فالأقرب أن يقال: (عجوزاً لا تُشْتَهَى ولا تُشْتَهَى، أو دميعة الخلقة لا تُشْتَهَى).

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين للقبولة وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يُمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن تُرى عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضًا لا يجوز أن يرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل، لأن الله - لما بين الحكم المذكور - علله بقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ لَكُمْ ۖ

ومنها: أن الصغير والعبد مخاطبان، كما أن وليهما مخاطب لقوله: ﴿لَنْسَأَلَ عَنكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَبْعَثَهُ﴾.

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة، كالقبي، لقوله تعالى: ﴿مُرُواؤُنَّ عَلَيْهِ﴾ مع قول النبي ﷺ، حين سئل عن الهرة «إنها ليست بنجس»، إنها من الطوائف عليكم والطوافات.

ومنها: جواز استخدام الإنسان مَنْ تحت يده، من الأطفال على وجه معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: ﴿مَرْفُوقٌ عَلَيْهِ﴾.

ومنها: أن الحكم المذكور المفصل، إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالانزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ، حصل بالانزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف، هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنبات للعانة، والله أعلم.

(٦٠) ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَدِّلِينَ زِينَتَهُنَّ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ غَيْرَ تَلَهُّنَّ ۚ وَاللَّهُ سَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ والقواعد من النساء أي: اللاتي قدعن عن الاستمتاع والشهوة ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يطمعن في النكاح، ولا يُطْمَعُ فيهن، وذلك لكونها عجوزًا لا تُشْتَهَى، أو دمية الخلفة، لا تُشْتَهَى ولا تُسْتَهَى^(١) ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وَلَمَّا بَلَغْنَ أَهْلَهُنَّ عَلَيْنَهُنَّ حُجُوبٌ﴾.

ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيها دليل على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

(٦٢-٦٤) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ لِيُسَمِّرَهُمُ اللَّهُ أَنفُسَهُمْ وَأَسْغِفَرَهُمْ أَثْمَارَهُمْ فَذَلِكَ أَسْتَأْذِنُكَ لِيَعِيشَ شَأْنُهُمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتُ مِنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَفَلَا تَعْلَمُونَ دُعَاءَ الرُّسُلِ يَتَّبِعُكُمْ كَدُّكُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْئُونَ مِنْكُمْ لِيُؤْذِنُوا فَالْيَحْذَرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

هذه الآيات من سورة النور، وهي من الآيات العظمى التي فيها دليل على أن المؤمنين هم الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معاً على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوا من الذين يستأذنونهم، فذلك استأذنيهم، فإذ استأذنتهم بعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله، إن الله عفو رحيم. لا تجعلوا دعاء الرسل يتبعكم كدكم بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يستلئون منكم ليوذنوا، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم. ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينشيئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم. هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين، أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع، أي: من ضرورته أو من مصلحته، أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهاد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه، وعدم تفرقهم، فالمؤمن بالله ورسوله حقاً، لا يذهب لأمر من الأمور، لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الحوائج التي يشد بها عنهم، إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا، وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين:

أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم، وشغل من أشغالهم، فاما من يستأذن من غير عذر فلا يؤذن له.

والثاني: أن يشاء الإذن له فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالأذن قال: ﴿فَإِنَّا أَسْتَأْذِنُكَ لِيَعِيشَ شَأْنُهُمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتُ مِنْهُمْ﴾، فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم ذهابه، مصلحة براه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له.

ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله رسوله أن يستغفر له، لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان، ولهذا قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَفَلَا تَعْلَمُونَ دُعَاءَ الرُّسُلِ يَتَّبِعُكُمْ كَدُّكُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْئُونَ مِنْكُمْ لِيُؤْذِنُوا فَالْيَحْذَرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٣٥٩ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ لِيُسَمِّرَهُمُ اللَّهُ أَنفُسَهُمْ وَأَسْغِفَرَهُمْ أَثْمَارَهُمْ فَذَلِكَ أَسْتَأْذِنُكَ لِيَعِيشَ شَأْنُهُمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتُ مِنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَفَلَا تَعْلَمُونَ دُعَاءَ الرُّسُلِ يَتَّبِعُكُمْ كَدُّكُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْئُونَ مِنْكُمْ لِيُؤْذِنُوا فَالْيَحْذَرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

سُورَةُ النُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ سَكْنٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بَقَدَرٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُلِ يَتَّبِعُكُمْ كَدُّكُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إليكم ودعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوباً، حتى إنه تجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولاً، يجب على الأمة قبول قوله والعمل به، إلا الرسول، لعصته، وكوننا مخاطبين باتباعه، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا: «يا محمد» عند ندائكم، أو «يا محمد بن عبد الله» كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتمييزه ﷺ عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْئُونَ مِنْكُمْ لِيُؤْذِنُوا﴾ لما مدح المؤمنين بالله ورسوله الذين إذا كانوا معه على أمر جامع، لم يذهبوا حتى يستأذنوه، توعدهم من لم يفعل ذلك وذهب من غير استئذان، فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي وهو المراد بقوله: ﴿يَسْتَلْئُونَ مِنْكُمْ لِيُؤْذِنُوا﴾ أي: يلودون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون، فالله يعلمهم

وحده، وجميع من فيها ممالك وعبيد له، مدعون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقراء إلى رحمته، الذي ﴿لَوْ يَتَذَكَّرُ لَوْ لَا يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ﴾.

وكيف يكون له ولد أو شريك، وهو المالك، وغيره مملوك، وهو القاهر، وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه، فقراء ذاتياً من جميع الوجوه!!

وكيف يكون له شريك في الملك، ونواصي العباد كلهم ييديه، فلا يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلم يقدره حتى قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَمَلُ الْعَالَمِ الْعُلُوِّي وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ، مِنْ حَيَوَانَاتِهِ، وَنَبَاتَاتِهِ، وَجَمَادَاتِهِ.

﴿فَقَدَرَهُ قَدِيرٌ﴾ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به، ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق، لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير محله الذي هو فيه، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَكْبَرِ ۝ الَّذِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدْرٌ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ولما بين كماله وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم، المفرد بالإخلاص وحده، لا شريك له - ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

(٣) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا مُشْرِكًا﴾ أي: من أعجب العجائب، وأدل الدليل على سفاهتهم، ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراءهم على ربهم، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة في كمال العجز، أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، لأنه نكرة في سياق النفي.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا مُشْرِكًا﴾ أي: بحثاً بعد الموت، فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسان المخلوقات، من غير مشارك له في ذلك، الذي ييديه النفع والضرر، والعتاء والمنع، الذي يحيي ويميت، ويبعث من في القبور،

وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿فَلْيَتَذَكَّرِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ عَنْ أَرْبَابِهِمْ﴾ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونهم!! وإنما ترك أمر الله من دون شغل له ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك وشر ﴿أَوْ تُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَا إِنَّكَ إِلَهُ يَوْمَ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحكمه القدري، وحكمه الشرعي.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشُرَ عَذَابُهُ﴾ أي: قد أحاط علمه بما أتم عليه من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه، وجري بها قلمه، وكتبها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخباراً مطابقاً لما وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم، فلا يعدمون منه فضلاً أو عدلاً.

ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْفِيكَ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدْرٌ ۚ هَذَا بَيَانٌ لِعَظَمَتِهِ الْكَامِلَةِ، وَتَفَرُّدِهِ [بِالْوَحْدَانِيَّةِ]^(١) مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعظيم، وكملت أوصافه، وكثرت خيرات، الذي من أعظم خيرات ونعمه، أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها، كان من التاجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية، والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ أي: له التصرف فيها

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٦٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَيَجْمَعُهُمْ لِيَوْمِ النُّشُورِ، وَقَدْ جَعَلَ لَهُمْ دَارِينَ، دَارَ الشَّقَاءِ وَالْخِزْيِ وَالنَّكَالِ، لِمَنْ اتَّخَذَ مَعَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَدَارَ الْفَوْزِ وَالسَّعَادَةِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، لِمَنْ اتَّخَذَهُ وَحْدَهُ مَعْبُودًا.

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، قرر صحة الرسالة، وبطلان قول من عارضها واعترضها فقال:

(٦-٤) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأُولَىٰ ۝ أَكُتِبَتْهَا فِيهِ نُشْءٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السُّرُورَ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ أَيْ: قَالَ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ، الَّذِي أَوْجِبَ لَهُمْ كُفْرَهُمْ أَنْ قَالُوا فِي الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَذِبٌ، كَذَبَهُ مُحَمَّدٌ، وَإِفْكُ افْتَرَاهُ عَلَى اللَّهِ، وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ قَوْمٌ آخَرُونَ.

فرد الله عليهم ذلك، بَأَن هَذَا مَكَايِرَةٌ مِنْهُمْ، وَإِقْدَامٌ عَلَى الظُّلْمِ وَالزُّورِ، الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ عَقْلُ أَحَدٍ، وَهُمْ أَشَدَّ النَّاسِ مَعْرِفَةً بِحَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَكَمَالِ صَدَقِهِ، وَأَمَانَتِهِ، وَبِرِهِ النَّامِ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ، لَا هُوَ وَلَا سَائِرُ الْخَلْقِ أَنْ يَأْتُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ، الَّذِي هُوَ أَجَلُ الْكَلَامِ وَأَعْلَاهُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ بِأَحَدٍ عَلَيْهِ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ جَاءُوا بِهَذَا الْقَوْلِ ظُلْمًا وَزُورًا.

ومن جملة أقاويلهم فيه، أَنْ قَالُوا: هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﴿اسْتَطِيرَ الْأُولَىٰ ۝ أَكُتِبَتْهَا فِيهِ﴾ أَيْ: هَذَا قِصَصُ الْأَوَّلِينَ وَأَسَاطِيرِهِمُ الَّتِي تَتَلَقَّاها الْأَفْوَاحُ، وَيُنْقَلِبُهَا كُلُّ أَحَدٍ، اسْتَنْسَخَهَا مُحَمَّدٌ ﴿فِيهِ نُشْءٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ فِيهِ عُدَّةٌ عَظِيمَةٌ:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم، بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن - الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله - بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أَنْ فِي ضَمَنِ ذَلِكَ، أَنَّهُمْ قَادِرُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَأَنْ يَضَاهِي الْمَخْلُوقَ النَّاقِصَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، لِلْخَالِقِ الْكَامِلِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَهِيَ الْكَلَامُ.

ومنها: أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ عَلِمَتْ حَالَتَهُ، وَهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عِلْمًا بِهَا، أَنَّهُ لَا يَكْتَبُ وَلَا يَجْتَمِعُ بَيْنَ يَكْتَبُ لَهُ، وَهُمْ قَدْ زَعَمُوا ذَلِكَ.

فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السُّرُورَ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: أَنْزَلَهُ مَنْ أَحَاطَ بِعِلْمِهِ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مِنَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَالْجَهْرِ وَالسِّرِّ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُ كُتَيْبٌ رَبِّي الْقَائِلِينَ ۝ نَزَّلَ بِهِ الْوَحْيَ الْأَوَّلِينَ ۝

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝

ووجه إقامة الحجة عليهم، أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ هُوَ الْمَحِيطُ بِعِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَيَسْتَحِيلُ وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَقُولَ مَخْلُوقٌ وَيَقُولَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ، وَيَقُولَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَسْتَحِيلُ دِمَاءُ مَنْ خَالَفَهُ وَأَمْوَالُهُمْ، وَيَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَيُمْكِنُهُ مِنْ رِقَابِهِمْ وَبِلَادِهِمْ، فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَنْكَرَ هَذَا الْقُرْآنَ، إِلَّا بَعْدَ انْكَارِ عِلْمِ اللَّهِ، وَهَذَا لَا يَقُولُ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، سِوَى الْفَلَسَافَةِ الدَّهْرِيَّةِ.

وأيضًا، فَإِنَّ ذِكْرَ عِلْمِهِ تَعَالَى الْعَامِ، يَنْبِهُهُمْ وَيَحْضَهُمْ عَلَى تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوا لَرَأَوْا فِيهِ مِنْ عِلْمِهِ وَأَحْكَامِهِ، مَا يَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ. وَمَعَ انْكَارِهِمُ لِلتَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِهِمْ، أَنَّهُ لَمْ يَدْعُهُمْ وَظَلَمَهُمْ، بَلْ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَوَعَدَهُمْ بِالْمَغْفَرَةِ وَالرَّحْمَةِ، إِنَّ هُمْ تَابُوا وَرَجَعُوا، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا﴾ أَيْ: وَصِفَةُ الْمَغْفَرَةِ، لِأَهْلِ الْجِرَامِ وَالذُّنُوبِ، إِذَا فَعَلُوا أَسْبَابَ الْمَغْفَرَةِ، وَهِيَ الرَّجُوعُ عَنْ

جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدر في الرسالة، فيمجرد النظر إليها وتصورها، يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟

ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جَسَدًا نَجْوَى مِنْ نَجْوَاهِ الْأَنْهَارِ وَجَعَلَ لَكَ فَضْرًا﴾ مرفعة مزخرفة، فقدرته ومشيتة لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة - أعطى منها أوليائه ورسله، ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً، ظلم وجراءة. ولما كانت تلك الأحوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعساً وظلماً، وتكديباً بالحق، فقالوا ما بقلوبهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والمكذب المتعنت الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته، ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فلهاذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سِيراً﴾ أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيها، ونغظت على أهلها، واشتد زفيرها.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم ﴿سَمِعُوا نَجْوَاهُمْ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفُوا﴾ عليهم ﴿وَرَوَوْا﴾ تعلق منهم الأفئدة، وتصعد القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها، وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لديها، لزيادة كفرهم وشرهم.

﴿وَإِذَا الْفُلُ وَمِمَّا مَكَّنَّا سَفِينًا مَقَرًّا﴾ أي: عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتراحم السكان، وتقربهم بالسلال والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس، وحسبوا في أشد حبس ﴿دَعَا هَؤُلَاءِ ثُبُورًا﴾ دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية عن عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿لَا دَعْوَا لِيَوْمِ ثُبُورِكُمْ وَكَيْدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَذِبًا﴾ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

معاصيه، والتوبة منها ﴿يَسِّرًا﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محا ما سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده، والمقبل عليه بعد إعراضه، إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

(٧-١٤) ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَسْمَاءُ الْفُلِ وَمِمَّا بَدَّلَ الْأَنْفُسَ إِلَّا أَنْزَلَ إِلَهُكَ إِلَهُكَ كَذِبًا أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَيَكَلِّمُ الْمَلَكُوتُ إِنْ تَخَيَّرُوا إِلَّا رَجُلًا تَشْهَرُ﴾ أنظر كيف صَرَّبُوا لَكَ الْأَثْمَانَ فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَجِيبُونَ سَبِيلًا ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَسَدًا نَجْوَى مِنَ نَجْوَاهِ الْأَنْهَارِ وَجَعَلَ لَكَ فَضْرًا﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سِيراً ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا نَجْوَاهُمْ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفُوا﴾ وَلَا تَدْعُوا لِيَوْمِ ثُبُورِكُمْ وَكَيْدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَذِبًا ﴿هَذَا مِنْ مَقَالَةِ الْمَكْذِبِينَ لِلرُّسُولِ الَّتِي قَدَحُوا بِهَا فِي رِسَالَتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا بِأَنَّهُ هَلَا كَانَ مَلَكًا أَوْ مَلِكًا، أَوْ يَسَاعِدُهُ مَلَكٌ، فَقَالُوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسْمَاءُ﴾ أي: ما لهذا الذي ادعى الرسالة؟ تهكمًا منهم واستهزاء ﴿يَأْكُلُ الْفُلُ مَا يَلْبَسُ﴾ هذا من خصائص البشر، فهلا كان ملكًا لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر.

﴿وَيَسِّرَ فِي الْأَنْفُسِ﴾ للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولاً، مع أن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَاكُلُوا الْفُلُ وَمِمَّا بَدَّلَ الْأَنْفُسَ﴾ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا إِلَهُكَ إِلَهُكَ مَلَكٌ﴾ أي: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْكَ كَفَرًا﴾ أي: مال مجموع من غير تعب ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق.

﴿وَكَلَّ الْأَنْفُسَ﴾ حملهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم ﴿إِنْ تَخَيَّرُوا إِلَّا رَجُلًا تَشْهَرُ﴾ هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن.

ولما كانت هذه الأقوال منهم، عجيبة جداً، قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَّبُوا لَكَ الْأَثْمَانَ﴾ وهي: أنه هلا كان ملكًا، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك، لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان مسحوراً.

﴿فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَجِيبُونَ سَبِيلًا﴾ قالوا أقوالاً متناقضة، كلها

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٦١

الْحَمْدُ لِلَّهِ

إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا أَلْقَاوْنَهَا كَانَ مَكَانًا خَصِيفًا مُمْرِثِينَ ﴿١٧﴾ دَعَا هَٰذَا لَكَ ثُبُورًا ﴿١٨﴾ لَأَدْعُوَنَّ الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ قُلْ أَذَلِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَزَاءُ الْخَلْدِ الَّذِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٠﴾ كَانَتْ لَكُمْ مِنْ الْعَذَابِ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَزَاءُ الْخَلْدِ الَّذِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي زادها تقوى الله، فمن قام بالقوى، فإله قد وعده إياها.

﴿كَانَتْ لَكُمْ جَزَاءٌ﴾ على تقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ موثلاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائماً أبداً.

﴿لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ما يطلبون، وتتعلق بهم أمانيتهم ومشيتهم، من المطاعم، والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات، والحدائق المرجحة والفواكه التي تسر ناظرها وأكلها، من حسناتها وتنوعها، وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها، حيث شاءوا يصرفونها، ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، وأنهاراً من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومسكن مزرقة، وأصوات شجية، تأخذ من حسناتها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب.

وأعلى من ذلك كله، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه، وزيادته على ممر الأوقات، وتعاقب الآفات ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعَدًا مَثُوثًا﴾ يسأله إياها، عباده المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأبى الدارين المذكورتين خير وأولى بالإتيار؟ وأبى العاملين، عمال دار الشقاء، أو عمال دار السعادة، أولى بالفضل والعقل والفخر، يا أولي الألباب؟

لقد وضع الحق، واستار السبيل، فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل، فترجوا يا من قضيت على أقوام بالشقاء، وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم! من حالة الأشقياء، ونسألك المعافاة منها.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ وَمَا يَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا أَتَيْنَا لَنَا أَنْ نَخْذِلَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَبَاءَتْ لَهُمْ حَقُّ شَأْنِ الْكَفْرِ وَكَانُوا قَوْمًا يَكُونُونَ ﴿٢١﴾ فَكَذَّبُوا بِمَا تَعْبَثُونَ ﴿٢٢﴾ فَكُلُّكُمْ لَنَا صَرَفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمُ نَفْسًا كَبِيرًا ﴿٢٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْفُسُنَا لِيَكُونُوا أَطْعَامًا وَيَكُونُوا فِي الْأَنْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾

عَذَابًا كَبِيرًا ○ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْفُسُنَا لِيَكُونُوا أَطْعَامًا وَيَكُونُوا فِي الْأَنْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾

المشركين وشركائهم يوم القيامة، وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وَمَا يَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ﴾ الله مخاطباً للمعبودين على وجه التقرع لمن عبدهم: ﴿مَا أَتَيْنَا لَنَا أَنْ نَخْذِلَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَبَاءَتْ لَهُمْ حَقُّ شَأْنِ الْكَفْرِ وَكَانُوا قَوْمًا يَكُونُونَ﴾ هل أمرتهم بعبادتكم، وزينتم لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك. ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ أي: لا يليق بنا، ولا يحسن منا أن نخذل من دونك من أولياء تتولاهم، ونعبدهم وندعوه، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك، مُتَبَرِّئِينَ من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا؟ هذا لا يكون. أو، سبحانه عن أن نَخْذِلَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وَرَأَى قَالَ اللَّهُ يُعْبَسِي أَنْ مَرِمَ مَا أَتَى قُلْتُ لِلثَّالِثِ الْقِدُونِي وَأَتَى لِلثَّالِثِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ

(١٧-٢٠) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ وَمَا يَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا أَتَيْنَا لَنَا أَنْ نَخْذِلَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَبَاءَتْ لَهُمْ حَقُّ شَأْنِ الْكَفْرِ وَكَانُوا قَوْمًا يَكُونُونَ ﴿٢١﴾ فَكَذَّبُوا بِمَا تَعْبَثُونَ ﴿٢٢﴾ فَكُلُّكُمْ لَنَا صَرَفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمُ نَفْسًا كَبِيرًا ﴿٢٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْفُسُنَا لِيَكُونُوا أَطْعَامًا وَيَكُونُوا فِي الْأَنْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾

سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتن والابتلاء والاختبار.

والقصد من تلك الفتنة ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فنقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتب، فيثيبكم مولاكم^(١)، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟.

﴿وَكَيْفَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعلم أحوالكم ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٢١-٢٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تِلْكَ أَلْوَالُ عَيْنِنَا الْكَلْبَةِ أَوْ تَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝ يَوْمَ يُرَوُّ الْمَلَأِكَةُ لَا تَنْفَعُ يَتَبَوَّئِينَ لِلْمُتَجَبِّينَ وَيُفْلِحُونَ جَزَاءً مِّمَّنْ جَاءُوا وَقَوْمًا إِنَّ مَا عَمِلُوا مِنْ عَصْيٍ فَجَعَلْنَاهُمْ نَسْيًا ۝ أَي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعده الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿تِلْكَ أَلْوَالُ عَيْنِنَا الْكَلْبَةِ أَوْ تَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي: هلا نزلت الملائكة، تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا، ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو.

﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروا هذه الجراءة، فمن أنتم يا فقراء، ويا مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعمو أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي كبر أعظم من هذا؟.

﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قسوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغي للتواضعين، فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلو أصدق الخلق وأنصحهم، وآيات الله البينات، بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأى عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرما غاية الحرمان.

﴿يَوْمَ يُرَوُّ الْمَلَأِكَةُ﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لَا تَنْفَعُ يَتَبَوَّئِينَ لِلْمُتَجَبِّينَ﴾ وذلك أنهم لا يرونها، مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم، إلا لعقوبتهم، وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند الموت، إذا تنزلت عليهم الملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَلَائِكَةُ يَسْأَلُونَ عَنْ عَمَلِكُمْ وَالْمَلَأِكَةُ يَسْأَلُونَ عَنْ حَرْبِكُمْ﴾

(١) في ب: للمعاندين. (٢) كذا في ب، وفي أ: المعاصي. (٣) كذا في ب، وفي أ: مولاكم.

سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ تَعَالَى الْإِنْسَانُ مَا كُنْتُ بِعَدُولٍ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَإِذَا حُيِّرُوا كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله، أو يكونوا أضلوم، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: ﴿وَلَكِنْ مَتَّبَعْتُمُ وَايَاتِهِمْ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها، ومطالبها النفسية ﴿حَتَّىٰ سَوَّاءُ الْكُنُفِ﴾ اشتغالا في لذات الدنيا، وإكبابا على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم ﴿وَكَاذِبًا قَوْلًا يُرَىٰ﴾ أي: بانئين لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعَدَمُ مقتضى الهدى، وهو: أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم مقتضى، ووجد المانع، فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرأوا منهم، قال الله توبيخًا وتقريعًا للمعادين^(١): ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب.

﴿فَمَا تَسْتَغِيثُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفداء، أو غير ذلك، ﴿وَلَا تَصْرُخُ﴾ لعجزكم، وعدم ناصركم. هذا حكم الفضائل المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير.

وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ يَنْصَحْكُمْ﴾ بترك الحق ظلمًا وعنادًا ﴿يُؤْتِكُمْ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره.

ثم قال تعالى جوابًا لقول المكذبين: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ الْقَوْمَ يَكْفُلُ الظُّلُمَاتِ وَيَنْبِئُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسَافِ﴾ فما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة.

وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ بَيْنَ فِتْنَةٍ﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العاصين^(٢)، والرسول فتناهم بدعوة الخلق، والغني فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، وهكذا

التي تليها صفًا وهكذا.

القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخلق، مدعين لأمر وبهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصًا الذي بارز ماله بالعظائم، وأقدم على مساخطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق، بالحكم الذي لا يجور، ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر أموره عليه، بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه، خفيف الحمل ﴿يَوْمَ تُنْفَخُ النُّفُوسُ إِلَى الرَّحَىٰ وَقَدْ أَوْسَوْا الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرُفَاً﴾.

وقوله: ﴿أَلْمَلَأُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين، ملك ولا صورة ملك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، وينشرح له الصدر، أن أضاف الملك في يوم القيامة، لاسمه ﴿الْكَرِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي، وملأت الكائنات، وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص، وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه، الأسماء الدالة على الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها سبق والغلبة.

وخلق هذا آدمي الضعيف، وشرّفه وكرّمه، لئيم عليه نعمته، وليتعمده برحمته.

وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه، ينتظرون ما يحكم فيهم، وما يجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم والديهم، فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة، وحقت عليه كلمة العذاب.

﴿وَيَوْمَ يَسَّرُ الْفَالِاحُ﴾ بشره وكفره، وتكذيبه للرسل ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ تأسفًا، وتحسرًا، وحزنًا، وأسفًا ﴿يَقُولُ يَتَيْبَتِي أَفَعَدْتُ مَعَ الرُّسُولِ مَيْلًا﴾ أي: طريقًا بالإيمان به، وتصديقه واتباعه. ﴿يَتَيْبَتِي لَيْتَنِي لَرَأَيْتُ فَلَانًا﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجني ﴿عَلِيًّا﴾ أي: حبيبًا مصافيًا، عادت أنصح الناس لي، وأبرهم بي، وأرفقهم بي، وواليت أعدى عدو لي، الذي لم تغدني ولايته، إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَعَلَنِي﴾ حيث زين له ما هو عليه من الضلال، بخدعه وتوسيله.

﴿وَكَانَ النَّفِيطُ لِلْإِنْسَانِ عَذُوكًا﴾ يزين له الباطل،

أَفْسَدَهُ يَوْمَ تَجَزَّتْ عَذَابُ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عَيَّرَ الْحَقُّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ.

ثم في القبر، حيث يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم، فلا يجيبون جوابًا ينجهم، فيحلون بهم النقمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة، حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يتعوذون من الملائكة، ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

﴿وَقُولُوا جِئْنَا نَعْمُورُ﴾، ﴿يَسْتَعِزُّ لَوِي وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَفْلَحْتُمْ أَنْ تَفْذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ فَافْذُوا لَ تَفْذُوكَ إِلَّا يَسْلُطُنِي﴾.

﴿وَقِيمَتًا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: أعمالهم التي رجا أن تكون خيرًا، وتعبوا فيها ﴿فَنَعْمَلَنَّ فِيكَ نَسْرًا﴾ أي: باطلاً مضمحلاً، قد خسروه، وحرّموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقدته الإيمان، وصدره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص، المصدق للرسل المتبع لهم فيه.

(٢٤) ﴿أَسْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال ﴿أَسْحَبُ الْجَنَّةِ﴾ الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحًا، واتفقوا ربهم ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ من أهل النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة، لاشتغال ذلك على تمام النعيم، الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقرًا ومقيلًا، وهذا من باب استعمال أفضل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم، كقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٢٥-٢٩) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ فَالْتَمِيمُ وَرُؤُوسُ الْمُنَافِقِينَ تَنزِيلًا﴾ أَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا وَيَوْمَ يَبْعَثُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَتَيْبَتِي أَفَعَدْتُ مَعَ الرُّسُولِ مَيْلًا وَيَتَيْبَتِي لَيْتَنِي لَرَأَيْتُ فَلَانًا فَلَانًا ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَعَلَنِي﴾ وَكَانَ النَّفِيطُ لِلْإِنْسَانِ عَذُوكًا يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ فَالْتَمِيمُ﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتتفطر له السماوات وتشقق، وتنزل الملائكة كل سماء، فيقفون صفًا صفًا، إما صفًا واحدًا محيطًا بالخالق، وإما كل سماء يكونون صفًا، ثم السماء

ويقبح له الحق، ويعدو الأماني، ثم يتخلى عنه، ويتبرأ منه، كما قال لجميع أتباعه، حين قضى الأمر، وفرغ الله من حساب الخلق ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَلَأَتَّبِعَنَّكُمْ وَمَا كَانَ بِي عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْزِمُونِي وَلَوْ مَوَّاهُ أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصَوِّرِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُخْرِجِكُمْ إِلَى كَثْرٍ يَمَّا اتَّخَذْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ الْآيَةِ.

فليظنر العبد لنفسه وقت الإمكان، وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليوال من ولايته فيها سعادته، ويعادي من تنفعه عداوته، وتضره صداقته، والله الموفق.

(٣١، ٣٠) ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّي إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۚ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكُنِّي بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾. ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ منادياً لربه، وشاكياً عليه إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفاً على ذلك منهم: ﴿يَرْبِّي إِنَّ قَوْمِي﴾ الذين أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي: قد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه، والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه.

قال الله سلباً لرسوله، ومخبراً أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير، ولا يكون عليه، يعارضونهم ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل.

من بعض فوائد ذلك، أن يعلم الحق على الباطل، وأن يتبين الحق، ويتضح انضاحاً عظيماً، لأن معارضة الباطل للحق، مما تزيده وضوحاً وبيانا وكمال استدلال، وأن يتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

﴿وَكُنِّي بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ يهديك، فيحصل لك المطلوب، ومصالح دينك ودنياك ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه، في أمر الدين والدنيا، فاختص به، وتوكل عليه.

(٣٣، ٣٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۚ وَلَا يَأْتِيَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْتَكِ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ هذا من جملة مقترحات الكفار، الذي توحيه إليهم أنفسهم فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: كما أنزلت الكتب قبله، وأني محذور من نزوله على هذا الوجه؟ بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ أنزلناه متفرقا ﴿لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لأنه

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكَةُ أَوْ نُنْزِلُ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْهُمْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝ يَوْمَ يُرَوِّنُ الْمَلَكُكَةُ لَا بُدَّ لِي بِشَرِّ يَوْمَيْهِ لِلْمُحْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جَعَلْنَا مَعْجُورًا ۝ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ۝ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَهِ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝ وَيَوْمَ تُشْفَقُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ تُزَلْزَلُكَةُ تَنْزِيلًا ۝ الْمَلَكُكُ يَوْمَهِ الْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝ وَيَوْمَ يُعْضِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يُنَادِيكُ لَيْتَنِي لَمْ أَخُذْ فَلَا تَخِيلَا ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۝ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّي إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكُنِّي بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝

كلما نزل عليه شيء من القرآن، ازداد طمأنينة وثباتا، وخصوصا عند ورود أسباب القلق، فإن نزول القرآن عند حدوثه، يكون له موقع عظيم، وتثبيت كثير، أبلغ مما لو كان نازلا قبل ذلك، ثم تذكره عند حلول سببه.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: مهلنا، ودرجنا فيه تدريجا، وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن، وبرسوله محمد ﷺ، حيث جعل إنزال كتابه جاريا على أحوال الرسول ومصالحه الدينية، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْتِيَكَ بِمَثَلٍ﴾ يعارضون به الحق، ويدفعون به رسالتك.

﴿إِلَّا جِئْتَكِ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: أنزلنا عليك قرآنا جامعا للحق في معانيه، والوضوح والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق، لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظا، وأحسن تفسيرا، مبين للمعاني بيانا كاملا.

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم، من محدث، ومعلم، وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم بدير أمر الخلق، فكلما حدث موجب،

وَلَا تَأْتُونَهُ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْيِيرًا ﴿٣٥﴾
 الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ
 مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٧﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى
 الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٨﴾ وَقَوْمَ
 نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ
 آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٩﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا
 وَأَصْحَابَ الرَّيِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٤٠﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
 لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَنْوَاغًا عَلَى الْقَرْيَةِ
 الَّتِي آمُطْرَتْ مَطَرُ السَّوِّءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَرَوْهَا بَلْ
 كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٢﴾ وَإِذَا رَأَوْهُ إِذَا بَنِي خُذُولًا
 إِلَّا هَرُؤًا أَهْدَأَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤٣﴾ إِنَّ كَادَ
 لَيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْوَاتِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ
 يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مِنْ أَضَلِّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَرَأَيْتَ
 مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٥﴾

ارتباب.

(٤٤-٤٥) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُ﴾ إِذَا بَنِي خُذُولًا إِلَّا هَرُؤًا أَهْدَأَ الَّذِي
 بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤٣﴾ إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْوَاتِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا
 عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مِنْ أَضَلِّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾
 أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٥﴾ أَمْ
 تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ
 أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٦﴾ أي: وإذا رأوك يا محمد، هؤلاء المكذبون لك،
 المعاندون لآيات [الله]، المستكبرون في الأرض،
 استهزؤوا بك واحقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار
 والاستصغار -: ﴿أَهْدَأَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: غير
 مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة
 ظلمهم وعنادهم، وقلهم الحقائق، فإن كلامهم هذا يفهم أن
 الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت
 الرسالة لغيره، لكان أنسب.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فهذا

أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية،
 والأحاديث النبوية، والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلمين، من الجهمية ونحوهم، ممن يرى
 أن كثيرًا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها
 معان غير ما يفهم منها، فإذا - على قولهم - لا يكون القرآن
 أحسن تفسيرًا من غيره، وإنما التفسير الأحسن - على زعمهم
 - تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفًا.

(٣٤) ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ
 مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين
 كذبوا رسوله، وسوء مآلهم وأنهم ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾
 أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب،
 ويجرحونهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بهذه الحالة ﴿نَرَاهُمْ مَكَانًا﴾ ممن آمن بالله
 وصدق رسله.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل،
 فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنين حسن
 مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم،
 وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

(٣٥-٤٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ
 هَارُونَ وَزِيرًا﴾ ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ
 وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا
 وَأَصْحَابَ الرَّيِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ
 وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنْوَاغًا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي آمُطْرَتْ مَطَرُ السَّوِّءِ
 أَفْكَمَ يَكُونُوا يَرَوْهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أشار تعالى
 إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات آخر، ليحذر
 المخاطبين، من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم
 ما أصاب هؤلاء الأمم الذين [كانوا] قريبا منهم، ويعرفون
 قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم.

ومنهم من يرون آثارهم عيانًا، كقوم صالح في الجحجر،
 وكالقرية التي أمطرت مطر السوء، بحجارة من سجيل، يمرون
 عليهم مصبحين، وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم
 ليسوا شرًا منهم، ورسلمهم ليسوا خيرًا من رسول هؤلاء.

﴿أَتَكْفُرُونَ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرْكََةٌ فِي الْأَرْضِ﴾. ولكن الذي
 منع هؤلاء من الإيمان - مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم
 كانوا لا يرجون بعثًا ولا نشورًا، فلا يرجون لقاء ربهم، ولا
 يخشون نكاله، فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم
 من الآيات ما لا يبقى معه شك ولا شبهة، ولا إشكال، ولا

الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عنادًا، وهو متجاهل، قصده ترويح ما معه من الباطل، بالقدح بالحق ويمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ، وجده رجل العالم، وهماهم، ومقدمهم في العقل، والعلم، واللب، والزناة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة، والشجاعة، والكرم، وكل خلقي فاضل، وأن المحقر له، والشاني له، قد جمع من السفه والجهل، والضلال، والتناقض، والظلم، والعدوان، ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلاً وضلالاً، أن يقدح بهذا الرسول العظيم، والهام الكريم.

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به، تضيئهم على باطلهم، وغروراً لصغفاء العقول^(١)، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هَذَا لَأَنبِئُنَا عَنْ إِلَهِنَا﴾ بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴿لَوْلَا أَن سَبَّحْنَا عَلَيْكَ﴾ لأضلنا، زعموا - قبهم الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك، فلهذا تواصلوا بالصبر عليه، ﴿وَأَنطَلَقْنَا لَنَنبُئَنَّهُمْ أَنِ أَمْشُوا وَاسِيرُوا عَالِي الْبَيْتِ﴾.

وهنا قالوا: ﴿لَوْلَا أَن سَبَّحْنَا عَلَيْكَ﴾ والصبر يحمد في المواضع كلها، إلا في هذا الموضع، فإنه صبر على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم، وأما المؤمنون، فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

ولما كان هذا حكماً منهم، بأنهم المهنددون والرسول ضال، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم، توعدهم بالعذاب، وأخبر أنهم في ذلك الوقت ﴿يَتَذَكَّرُونَ الْعَذَابَ﴾ يعلمون علماً حقيقياً ﴿مَنْ هُوَ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿وَيَوْمَ يَبْصُرُ الْقَلَدُ عَلَى يَدَيْهِ يَسْقُوتُ يَكْفِيكَ أَفْعَدْتُ مَعَ أَرْسُولِي سَبِيلًا﴾ الآيات.

وهل فوق ضلال من جعل إلهه معبوده [هواه]^(٢)، فما هويه فعله، فلماذا قال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوِيَّهَ﴾ ألا تعجب من حاله، وتنتظر ما هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم لنفسه بالمازالت الرفيعة؟

﴿أَفَأَنذَرْتُكَ نَكْرًا عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ أي: لست عليه بمسيطر مسلط، بل إنما أنت منتر، وقد قمت بوظيفتك، وحسابه على الله.

ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ، بأن سلبهم العقول والأسماع، وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عني فهم لا يعقلون، بل هم أضل من الأنعام، لأن الأنعام يهديها راعيها فتتدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضاً أسلم عاقبة من هؤلاء،

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا تُرْجَعُ إِلَيْنَا فَيَلْبَسُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا فَبَصَّيْنَا بَنِيَّ ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَدَئَ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٥٠﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُشْفِيَهُ مِنْ مَّا خَلَقْنَا أَعْمَاءً وَأَنَّا نَسِيكَ كَثِيرًا ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا أَنَّى آكْرَأُ لِلنَّاسِ إِلَافًا كُفُورًا ﴿٥٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ زُنْدِيرًا ﴿٥٣﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَنِّدْنَاهُمْ فِي جَهَنَّمَ كَثِيرًا ﴿٥٤﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ زُرُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٧﴾

فتبين بهذا أن الرامي للرسول بالضلال أحق بهذا الوصف، وأن كل حيوان يهيم فهو أهدى منه.

(٤٦، ٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا تُرْجَعُ إِلَيْنَا فَيَلْبَسُونَ﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك، وسعة رحمته، أنه مدَّ على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس ﴿ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا فَبَصَّيْنَا بَنِيَّ﴾ أي: على الظل ﴿ذِيلًا﴾ فلولاً وجود الشمس لما عرف الظل، فإن الضد يعرف بضده.

﴿ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا فَبَصَّيْنَا﴾ فكلماً ارتفعت الشمس، تقلص الظل شيئاً فشيئاً، حتى يذهب بالكلية، فتوالي الظل والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عياناً، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك من أدل دليل على كمال قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته، وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود، المحبوب المعظم، ذو الجلال والإكرام.

(١) المراد: (وتغريراً بصغفاء العقول). (٢) زيادة بقضيها السياق، مع العلم أن كلمة هواه كتبت في ب بدلاً عن معبوده ثم شطب.

﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ بالقرآن ﴿جِهَانًا كَبِيرًا﴾ أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت، فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم، ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

(٥٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجًا مَحْجُورًا﴾ أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منهما ﴿وَيَجْعَلُ مَحْجُورًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا.

(٥٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق الآدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنسابًا وأصهارًا، مفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

ويدل على أن عبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة لقوله: (٥٥) ﴿وَيَسْجُدُونَ لِلَّهِ مَا لَا يُغْنِيهِمْ وَلَا يَشْقِيهِمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي: يعبدون أصنامًا وأموالًا لا تضر ولا تنفع، ويجعلونها أنفادًا لمالك النفع والضرر، والعطاء والمنع، مع أن الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذابين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد أعداء الله، فالكافر عاونها وظاهرها على ربها، وصار عدوًا لربه، مبارزًا له في العداوة والحرب.

هذا وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعمة الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو - بجهله - مستمر على هذه المعاداة والمبارزة.

(٥٦-٦٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قل ما أُنشئتكم عليكم من آثمٍ إلا من سئلة أن يتخذوا ربهم سبيلًا ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَجِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُّوهُ حَبِيرًا﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ خَيْرٌ مِنْ سَبِّحُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجِدُ لِلَّذِي آمَنَّا بِهِ كَمَا آمَنَّا بِهِ نَقُولُ﴾ يخبر تعالى: أنه ما

(٤٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْمَنَّا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: من رحمته بكم ولطفه، أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه، وتهذبوا بالنوم، وتسبت حركاتكم، أي: تنقطع عند النوم، فلولاً الليل لما سكن العباد، ولا استمروا في تصرفهم، فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضًا الظلام لتعطلت عليهم معاشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشورًا يتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

(٤٨-٥٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا يَمْشِي بِالسَّحَابِ بِحَمْلِ الْمَاءِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿لِيُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً نَّيْسًا وَشَجِيرًا وَمِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَبَاطِيًا كَثِيرًا﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَنَّىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا﴾ أي: هو وحده الذي رحم عباده، وأدر عليهم رزقه، بأن أرسل الرياح بمشرات بين يدي رحمته، وهو المطر، فنار بها السحاب وتآلف، وصار كسفاً، وألفحته، وأدرته بإذن أمرها والمتصرف فيها، ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يفاجتهم دفعة واحدة.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته، أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتة، فتختلف أصناف التوابت، والأشجار فيها، مما يأكل الناس والأنعام.

﴿وَشَقِيقُهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَبَاطِيًا كَثِيرًا﴾ أي: نسقيكموه، أنتم وأنعامكم، اليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهورًا مباركًا، فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك معه غيره؟

ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة، وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه، مع ذلك أبى أكثر الخلق إلا كفورًا، لفساد أخلاقهم وطباعهم.

(٥١، ٥٢) ﴿وَلَوْ رُسُلُنَا لَكُنْتُمْ فِي كُفْرٍ قَرِيبٍ نَذِيرًا﴾ ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَيَهْدِيهِمْ يَوْمَ جِهَانًا كَبِيرًا﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئة، وأنه لو شاء لبعث في كل قرية نذيرًا، أي: رسولاً ينذرهم ويحذرهم، فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد - يا محمد - أن أرسلك إلى جميعهم، أحمرهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، إنسهم وجنهم.

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ في ترك شيء مما أرسلت به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦١﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٦٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي عِبَادَهُ وَيُكَفِّرُ بِهِ يَتُوبُ عِبَادُهُ خَيْرًا ﴿٦٣﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿٦٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٥﴾ نَسَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٧﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجِنُّونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُنَا كَانَ غَرَامًا ﴿٧٠﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٧٢﴾

لكثرة أوصافه، وتعدد كماله، فكل واحد منها دل على صفة كمال.

﴿تَسْتَجِيبُ لِمَا تُدْعَىٰ﴾ أي: لمجرد أمرك إيانا، وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿فُتُورًا﴾ هربا من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

(٦٢، ٦١) ﴿نَسَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا. كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ ثلاث مرات، لأن معناها كما تقدم، أنها تدل على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه. وهذه السورة، فيها من الاستدلال على عظمتهم، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته. وفيها، ما يدل على سعة رحمته، وواسع جوده، وكثرة خيراته، الدينية والدنيوية، ما هو مقتضى لتكرار هذا الوصف الحسن فقال:

أرسل رسوله محمدا ﷺ ميسرًا على الخلق، ولا جعله ملكًا، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مُبَشِّرًا﴾ يشر من أطاع الله بالتواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك - يا محمد - لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجزاء، حتى يمنعه ذلك من اتباعك، ويتكلفون من الغرامة.

﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فلست أجبركم عليه، وليس أيضًا أجرًا لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم، وسلوكم للسبيل الموصلة إلى ربكم.

ثم أمره أن يتوكل عليه، ويستعين به فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهِ﴾ الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي عِبَادَهُ﴾ أي: اعبدوه وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك، والمتعلقة بالخلق.

﴿وَيُكَفِّرُ بِهِ يَتُوبُ عِبَادُهُ خَيْرًا﴾ يعلمها، ويجازي عليها، فانت ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم.

وإنما ذلك كله بيد الله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ بعد ذلك ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأعلىها، وأوسعها، وأجملها ﴿الرَّحْمَنُ﴾ استوى على عرشه الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات.

فأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات، وإطلاعه على ظاهريهم وباطنيهم، وعلوه فوق العرش، ومباينته إياهم.

﴿فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمتهم، ما تسعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لجلاله.

واستكبر عن عبادته الكافرون، واستكفوا عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: وحده الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، ﴿قَالُوا﴾ جحدًا وكفرًا ﴿وَمَا أَرْحَمُ﴾ بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: يتهاون عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إليها آخر، يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا إِلَهُكُمْ إِنَّمَا تَدْعُوا اللَّهَ الْأَسْمَاءَ الَّتِي كُنتُمْ تُسَمُّونَهَا فَسَمَاوُهَا تَعَالَى كَثِيرَةٌ،

عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعمتهم أفضل النعمت، فوصفهم بأنهم «يَسْتَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَحَدًّا» أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله، ولعباده.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ جَاهِلُونَ أَيَّ خُطَابٍ جَاهِلُونَ﴾ أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، «فَأَلَّا سَلَامًا» أي: خاطبهم خطابًا يسلمون فيه من الإنم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزاة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي: يكثر من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، متذللين له، كما قال تعالى: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْتَفُونَ ۚ فَلَا تَحْمِلُ نَفْسٌ مَّا أُخِيتُ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعذاب «إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ عَرَامًا» أي: ملازمًا لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاعتهم احتمال هذا العذاب، ولتذكروا بالله الله عليهم، فإن صرف الشدة، بحسب شدتها وفظاعتها، يعظم وقْعها ويشد الفرح بصرفها.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَعُوا النِّفَاقَ الْوَاجِبَةَ وَالْمُسْتَحِبَةَ﴾ لَمْ يَسْرِفُوا بِأَنْ يَزِيدُوا عَلَى الْحَدِّ، فدخلوا في قسم التذير، وإهمال الحقوق الواجبة، «وَلَمْ يَنْقُصُوا» فدخلوا في باب البخل والشح «وَكَانَ» إنفاقهم «بَيْنَ ذَلِكَ» بين الإسراف والتقتير «قَوَامًا» يبذلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، من غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين خفاء، مقلبين عليه معرضين عما سواه. «وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ» وهو نفس المسلم، والكافر المُعَاهَد، «إِلَّا بِالْحَقِّ» قتل النفس بالنفس، وقتل

﴿فَنَزَّلَهُ اللَّهُ فِي سَكَنٍ مُّبِينٍ﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنها رجوم للشياطين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِيحًا رَافِيَةً فِيهِ النَّوْرُ وَالْحَرَارَةُ، وَهُوَ الشَّمْسُ وَنَجْمٌ شَتِيرٌ﴾ فيه النور، لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمتها، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر، والتدبير المنتظم، والجمال العظيم، دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع، دليل على كثرة خيراته.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ غِلَّةً﴾ أي: يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر، هكذا أبدًا، لا يجتمعان، ولا يرتفعان.

﴿يَمَنُ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله وزد من الليل أو النهار، فمن فاته وزده من أحدهما، أدركه في الآخر، وأيضًا فإن القلوب تتقلب وتتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار، يتوالى على العباد ويتكرران، ليحدث لهم الذكر والنشاط، والشكر له في وقت آخر، ولأن أورد العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات، أحدث للعبد همة غير همة التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمدده، فلولاً ذلك لذوى غرس الإيمان ويس. فله أتم حمد، وأكمل على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات فقال:

(٦٣-٧٧) ﴿وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَشْتَوِي عَلَى الْأَرْضِ وَحَدًّا وَحَدًّا وَجَعَلَهُمْ جَاهِلُونَ فَأَلَّا سَلَامًا ۚ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۚ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ عَرَامًا ۚ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مريويون مدبرون «إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا بِنَافِثٍ أَلْفَرَقَ عِبَادًا» وعبودية لألوهيته، وعبادته، ورحمته، وهي

الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بل

يحفظون فروجهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ زَوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يَلْقَىٰ أَثَمًا﴾.

ثم فسره بقوله: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَذُّ فِيهِ﴾ أي: في العذاب ﴿مُكْتَبًا﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها، إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القاتل والزاني في العذاب، فإنه لا يتناوله الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود ﴿وَأَمَرَ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا، يقضي ترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ مما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: تبديل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات، بتبديل حسنات، فتبديل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتبديل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة، تبديل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

ورود في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فَعُدَّهَا عَلَيْهِ، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب، إن لي سيئات لا أراها ههنا» والله أعلم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده، حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظام، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: فَلْيَعْلَمْ أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فَلْيُخْلِصْ فِيهَا، وَلْيُخْلِصْهَا مِنْ شَوَائِبِ الْأَعْرَاضِ الْفَاسِدَةِ.

فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه، فيوفيه (١) أجره، بحسب كمالها.

الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بل

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ

الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا ﴿٦٣﴾

يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَذُّ فِيهِ مَكْتَبًا ﴿٦٤﴾

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٥﴾

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٦٦﴾

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٦٧﴾

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٦٨﴾

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَةً آخِرِينَ وَأَجْعَلْ لَنَا لِلْمُقْتِفِينَ إِمَامًا ﴿٦٩﴾

أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مِنْ حَسَنَاتٍ أُولَٰئِكَ فِيهَا مُتَنَفِّسُونَ ﴿٧٠﴾

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ

سُبُوهُ الشَّعْرَاءِ

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والتمية، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿وَلِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم، وأكرموا عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والعروءة، فربوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وَلِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون

﴿أُولَئِكَ بِحُجُورَاتٍ كُفْرَتُهُ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: المنازل الرفيعة، والمساكن الأنيفة الجامعة لكل ما يشتهى، وتلذذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم، نالوا ما نالوا، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْفُلُ بِدُخُولِ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِمَا نَقَىٰ لِلدَّارِ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿وَيُكَفِّرُونَ فِيهَا نَجَسَهُمْ وَسَلَامًا﴾ من ربهم، ومن ملائكته الكرام، ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له وعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرع لربهم، أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في الشفقات، والاقتصاد في ذلك - وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقصدهم وتوسطهم في غيره من باب أولى -.

والسلامة من كبائر الذنوب والانصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والثوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر، والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم يتزهدون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانياتهم وكمالهم، ورفعة أنفسهم عن كل خسيس، قولي وفعل، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها، والتفهم لمعانيها، والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء في الدعاء الذي يتفنون به ويتفجع به من يتعلق بهم، ويتفجع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم، ووعظهم، ونصحهم، لأن من حرص على شيء دعا الله فيه، لا بد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصدقية.

قلل، ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمة، وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأتقى هؤلاء السادة!!

والله، فضل الله عليهم ونعمته، ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

والله، مئة الله على عباده، أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هياتهم، وبين لهم همهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلى الانصاف بأوصافهم، ويبدلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي مرَّ عليهم وأكرمهم الذي فضله في كل زمان ومكان،

حضوره، ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِتِلْكَ أَرْهَقَتْهُمْ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها ﴿لَا يَصْرُخُوا عَلَيْهَا سُحًا وَغِيًّا﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِتِلْكَ الْأَيَّاتِ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم لها.

وتجد عندهم أذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً وغباطاً.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ زَوْجَاتٍ زَيْنًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: قراننا من أصحاب وأقران وزوجات ﴿وَذَرَيْنَا فَرَةً أَغْنَيْنَا﴾ أي: نقر بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تفر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عالمين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿مَبْرُورًا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم، ويتفجع بهم.

﴿وَأَجَعَلْنَا لِلْيَقِينِ إِمَامًا﴾ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكامل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمؤمنين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم ويطمأن لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهتدون.

ومن المعلوم، أن الدعاء ببلوغ شيء، دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة - درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ إِمَّةً يَبْدُؤُنَ لِلْأَعْمَالِ وَالصَّابِرِينَ فِي الْآخِرَةِ﴾ وهذا الدعاء يستلزم من الأعمال، والصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين - خيراً كثيراً، وعطاء جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

ولهذا - لما كانت همهم ومطالبهم عالية - كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال:

سورة الشعراء

٣٦٧

سورة الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَكَ بَنِعْ تَسْلَكَ
 الْآيَاتُ كُتُوبَيْنِ ﴿٣﴾ إِنَّ شَأْنَكَ نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ
 أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَصِصِينَ ﴿٤﴾ وَمَا بَلَّيْهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجْدِشٍ
 إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَاسِيَايَهُمْ أَتَيْنُوا مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ الْأَنْبَاءِ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ
 كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمُ فِرْعَوْنَ الْأَيْفُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَايَ فَأَرْسِلْ
 لِي الْفَرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَخَافُوا أَنْ يُقْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ
 كَلَّا فَادْعَا عِبَادِي إِنَّا مُعْتَمِدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَنبَأَ فِرْعَوْنَ
 فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنِي آيَةً بِرَبِّكَ
 ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُرْكِبْ فِرْعَوْنَ وَلِيدًا وَلَيْسَتْ فِرْعَوْنُ مِنْ عَمَلِكِ سِينِ ﴿١٨﴾
 وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْفِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم
 بتربيته الخاصة، كما تولاهم.

فالله، لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان،
 وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا
 نفعا ولا ضررا، ولا نقدر على مقال ذرة من الخير، إن لم تيسر
 ذلك لنا، فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه.

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين، وكلتنا إلى
 ضعف وعجز وخطية، فلا تنق يا ربنا إلا برحمتك التي بها
 خلقتنا ورزقتنا، وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة
 والباطنة، وصرفت عنا من النقم، فأرحمنا رحمة تغنينا بها عن
 رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك، ولما كان الله
 تعالى، قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته، واختصهم
 بعبوديته لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم أنه وأيضا
 غيرهم، فلم لا يدخل في العبودية؟.

فأخبر تعالى أنه لا يبالي ولا يعاب بغير هؤلاء، وأنه لولا
 دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ما عاب بكم ولا
 أحبك فقال: ﴿قُلْ مَا يَسْتَعِزُّ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
 فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَكَاةٍ﴾ أي: عذابا يلزمكم، لزوم الغريم
 لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان، فله الحمد والثناء والشكر أبدا.

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزنا
 شديدا على عدم إيمانهم، حرصا منه على الخير، ونصحا
 لهم.

فهذا قال تعالى عنه: ﴿لَكَ بَنِعْ تَسْلَكَ﴾ أي: مهلكها
 وشاق عليها ﴿الْآيَاتُ كُتُوبَيْنِ﴾ أي: فلا تفعل، ولا تذهب
 نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أدت ما
 عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى تنزلها
 ليؤمنوا بها [فانه كاف شاف لمن يريد الهداية، ولهذا قال:

﴿إِنْ شَأْنَكَ نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ أي: من آيات الاقتراح
 ﴿فَعَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ أي: أعناق المكذبين ﴿فَلَمَّا خَصِصِينَ﴾ ولكن لا
 حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فانه إذ ذاك الوقت يكون
 الإيمان غير نافع وإنما الإيمان النافع، الإيمان بالغيب، كما
 قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّالْبَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ
 يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِكَ رَبُّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِكَ رَبُّكَ لَا يَنْفَعُ تَقَاتُلًا﴾
 الآية.

﴿وَمَا بَلَّيْهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجْدِشٍ﴾ يأمرهم وبيناهم،
 ويذكرهم ما يفعلم ويضرم ﴿الْآيَاتُ كُتُوبَيْنِ﴾ بقلوبهم

(١-٩) ﴿طَسَّرَ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَكَ بَنِعْ تَسْلَكَ
 الْآيَاتُ كُتُوبَيْنِ ﴿٣﴾ إِنَّ شَأْنَكَ نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا
 خَصِصِينَ ﴿٤﴾ وَمَا بَلَّيْهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجْدِشٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾
 فَقَدْ كَذَّبُوا فَاسِيَايَهُمْ أَتَيْنُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ
 كَرَّ الْأَنْبَاءِ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ يشير الباري تعالى إشارة
 تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين بين الواضح، الدال
 على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا
 يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به،
 لوضوح ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام
 بحكمها، وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ ينزل به
 الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهندي بذلك عباد الله

يصدقوني.

﴿وَلَمْ يَلَمْزْ أَفْئِدَةً﴾ أي: في قتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: لا يمكنون من قتلك، فإننا سنجعل لكما

سلطاناً، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَمْرِنَا إِنَّا مَعَكُمْ فَلْيَهَيِّئُوا﴾

ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع منابذته له غاية

المنابذة، وتسفيه رايه، وتضليله وقومه.

﴿فَذَاهِبْ بِأَمْرِنَا﴾ الدالة على صدقكما، وصحة ما جئتما به

﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَعَمِّدُونَ﴾ أحفظكما وأكلوكما.

﴿فَاتَّيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أرسلنا إليك

لتؤمن به وبنا، وتتقاد لعبادته، وتذعن لتوجيهه.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فكف عنهم عذابك، وارفع عنهم

يدك ليعبدوا ربهم، ويقوموا أمر دينهم.

فلما جاء فرعون، وقال له ما قال الله لهما، لم يؤمن

فرعون ولم يلقن، وجعل يعارض موسى ف: ﴿قَالَ أَمْ تُرَبِّعُ فِيْنَا

وَلِيَدًا﴾ أي: ألم نعم عليك، ونقم بتريتك، منذ كنت وليداً في

مهدك، ولم تزل كذلك.

﴿وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ شَرْكِ سَيِّئٍ﴾ وَقَعَلْتَ قَعَلْتَفْ أَنِّي قَعَلْتُ

وهي قتل موسى للقبطي، حين استغاثه الذي من شيعته على

الذي من عدوه ﴿فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ الآية.

﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا،

وسيلك سبيلنا في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا

يدري.

فقال موسى: ﴿فَقُلْنَا إِذَا وَكَّرْنَا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ أي: عن غير

كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي.

﴿فَقَرَّبْنَا مِنْكُمْ لَمَّا جُفِيَ عَنْكُمْ﴾ حين تراجعتم بقنلي، فهربت إلى

مدين، ومكثت سنين، ثم جئتمكم ﴿فَوَهَبَ لِي بَنِي شَكَا وَعَمَلِي بَنَ

الْأَرْسَلِينَ﴾.

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى، اعتراض

جاهل أو متجاهل، فإنه جعل المانع من كونه رسولاً، أن

جرى منه القتل، فيبين له موسى أن قتله على وجه الضلال

والخطأ الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير

ممنوع منه أحد، فلم منعتم ما منحني الله من الحكم والرسالة؟

بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿أَمْ تُرَبِّعُ فِيْنَا وَلِيَدًا﴾

وعند التحقيق يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى:

﴿وَلَكِنْ فِيْنَا مَنَافِعٌ عَلَّ أَنْ عَدَيْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: تدلي عليّ

بهذه المنة لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة

العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعييدك وتسخيرك، وجعلتها عليّ

نعمة، فعند التصور يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب

وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث الذي جرت
العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن
غيره، وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ،
ولهذا قال:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سجية، لا
تغير ولا تبدل ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْتَوُا مَا كَانُوا يَدَّيْسْتَرُونَ﴾ أي: سيقع
بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم
كلمة العذاب.

قال الله منها على التفكير الذي ينفع صاحبه: ﴿وَأَوَّلَ رِزْوًا إِلَى
الْأَرْضِينَ كَرَّ أَنْتَوَا يَهَا مِنْ كَرِّ رِزْوٍ﴾ من جميع أصناف النباتات،
حسنة المنظر، كريمة في نفعها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على إحياء
الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ
حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَكِنْ رَّبُّكَ لَهُمُ الْعَزِيزُ﴾ الذي قد فهر كل مخلوق، ودان له
العالم العلوي والسفلي ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي وسعت رحمته كل
شيء، ووصل جوده إلى كل حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء
بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر
وبلاء.

(٦٨-١٠) ﴿وَلَكِنْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى
آخر القصة قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
﴿وَلَكِنْ رَبُّكَ لَهُمُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أعاد البارئ تعالى قصة موسى
وثناها في القرآن ما لم يش غيرها، لكونها مشتملة على حكم
عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب
الشرعة الكبرى، وصاحب النوراة أفضل الكتب بعد القرآن
فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله لياه، حين
كلمه ونباه وأرسله فقال: ﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين تكبروا
في الأرض، وعلوا على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية.

﴿قَوْمٌ فَرَضُوا الْآيَاتُنَا﴾ أي: قل لهم بلين قول ولطف عبارة
ألا تتقون الله الذي خلقكم ورزقكم، فتتركون ما أنتم عليه من
الكفر.

فقال موسى عليه السلام معتذراً من ربه، ومبيناً لعذره،
وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ وَيَحْبِثُ صَدْرِي وَلَا يَطْمَئِنُّ لِسَانِي﴾ فقال: ﴿رَبِّ أَسْرَجْ
لِي صَدْرِي﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾
وَيَجْعَلْ لِي وَبَرًا مِنْ أَمَلِي﴾ هُؤُلَاءِ أَهْلِي﴾.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ فأجاب الله طلبته، ونبا أخاه هارون،
كما نبأه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: معاوناً لي على أمري أن

الفاضل، وعذبتهن، وسخرتهن بأعمالك، وأنا قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تبت بها وتدلي بها؟

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا إنكار منه لربه، ظلماً وعلواً، مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى، قال:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية، ومن جملة ذلك أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات، وفاطر الأرض والسموات ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ فقال فرعون متجرعاً، ومعجباً لقومه: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ما يقول هذا الرجل، فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعتم؟

فقال فرعون معانداً للحق، قادحاً بمن جاء به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَكَاذِبٌ﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق، والعقل عنده أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه، والجنون عنده أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿فَلَا تَسْمَعُ قَوْلَهُمْ فَاتَّبَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فقال موسى عليه السلام مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من سائر المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ فقد أدبت لكم من البيان والتبيين، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخطابكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي وميت به موسى من الجنون، أنه داؤكم فرميت أزكى الخلق عقلاً، وأكملهم علماً بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسموات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأى شيء تثبتون؟ وإذا جهلتموه، فأى شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فبأي شيء - بعد الله وآياته - تؤمنون؟ تالله! إن المجانين الذين يمتزلة الهائم أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة أهدى منكم.

فلما خفقت فرعون الحجة، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة ﴿قَالَ﴾ متوعداً لموسى بسلطانه: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرَ لَأُجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ زعم - بقبحه الله - أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلهاً غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو

٣٦٨
﴿قَالَ فَلَمَّا إِذَا مَا آمِنَ الصَّالِينَ﴾ ﴿فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ﴾ ﴿فَوَهَبْنَا لِي فِي حُكْمًا وَجَعَلْنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَبَلَكَ بِعَمَّةٍ ثَمْنًا﴾ ﴿عَلَى أَنْ عِبْدَتَنِي يَاسِرَةً﴾ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ إِنَّكَ إِلهُ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَكَاذِبٌ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ عَقُولُونَ﴾ ﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرَ لَأُجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ ﴿قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ عَصَاةٌ فَإِذَا هِيَ نَجْمًا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَوَجَّهَتْهُ﴾ ﴿فَإِذَا هِيَ بِبَصَاطٍ لِلنَّظِيرِينَ﴾ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَرَجُوعٌ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الدُّنْيَا حَشِيرِينَ﴾ ﴿يَا تَأُتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُنْجَتُونَ﴾

ومن معه على بصيرة من أمرهم.

فقال له موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي: آية ظاهرة جلية على صحة ما جئت به، من خوارق العادات.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ عَصَاةٌ فَإِذَا هِيَ بِنُجْمَةٍ﴾ أي: ذكر الحيات ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ ظاهر لكل أحد، لا خيال، ولا تشبيه.

﴿وَوَجَّهَتْهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بِبَصَاطٍ لِلنَّظِيرِينَ﴾ أي: لها نور عظيم، لا تقص فيه لمن نظر إليها.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ معارضاً للحق ومن جاء به ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ مؤه عليهم لعلمه بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، لأنه من المقرر عندهم، أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخوفهم أن قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم، ليجلدوا ويجهتدوا في معاداة من يريد إجلالهم عن أولادهم وديارهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أن نفعل به؟

﴿قَالُوا أَرَجُوعٌ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخهما ﴿وَابْعَثْ فِي الدُّنْيَا حَشِيرِينَ﴾

٣٦٩
لَمَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَائِلِينَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرُ إِن كُنَّا هُمْ الْقَائِلِينَ ﴿١١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَلَكُمْ إِذَا لِينُ الْمُفْرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ
﴿١٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
الْغَالِبُونَ ﴿١٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿١٥﴾ فَأَتَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿١٦﴾ قَالُوا لِمَنْ آتَانَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾
رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَمْسِكْ لَهُ قَبْلَ أَنْ دَأَّ لَكُمْ إِلَهُهُ
لِكَيْ يُدْرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ
وَأَنْتُمْ كَرَمٌ خَلِيفٌ وَلَا صَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا لَاضْطُرُّ لَنَا
إِلَّا رَبُّنَا مُنْقِلُونُ ﴿٢٠﴾ إِنَّا نَنْفَعُ لَنَا بَعْدَ رَبِّنَا حَاطِبِينَ أَنْ كُنَّا
أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَاذِي إِنْ كُنَّ
مُتَّبِعُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَكَيْنِ حَاشِرِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَهُمْ لَنَا لَعْلَاطُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا جَمِيعٌ حَلِدُونَ
﴿٢٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارِيرٍ مَرْمِ
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٨﴾ فَأَتَبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٢٩﴾

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تتلعب وتأخذ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾
فالتفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي، لأنها إفك وكذب
وزور، وذلك كله باطل، لا يقوم للحق ولا يقاومه.

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة يتقنوا - لعلمهم - أن
هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة نبيه
بصدق موسى، وصحة ما جاء به. ﴿فَأَتَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ﴾
لربهم، ﴿قَالُوا لِمَنْ آتَانَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ. وانقمع
الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضح الحق
وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون
إلا عتوا وضلأ، وتماديا في غيه وعنادا، فقال للسحرة:
﴿أَمْسِكْ لَهُ قَبْلَ أَنْ دَأَّ لَكُمْ إِلَهُهُ﴾ يتعجب، ويعجب قومه من
جراتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامراته
﴿إِنَّهُ لِكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ هذا، وهو الذي جمع
السحرة وملاؤه، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مداتهم، وقد
علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم
جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهلبهم، ومع ذلك،
فراج عليهم هذا القول الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه،

جامعين للناس، ﴿يَأْتُوكَ﴾ أولئك الحاشرون ﴿يَكْشُرُ﴾
سَحَابٌ عَلَيْهِمْ: أي: ابعت في جميع مذلك التي هي مقر العلم
ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في
سحره، فإن الساحر يُقَالُ يسحر من جنس سحره.

وهذا من لطف الله أن يري العباد بطلان ما موه به فرعون
الجاهل الضال المضل، أن ما جاء به موسى سحر، قبضهم
أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينقذ المجلس عن حضرة
الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم
وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر،
فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة،
واجتهد في ذلك وجد.

﴿فَتَجِيعُ السَّحَرَةُ لِيَقْبَلَ بَيْرُ مَلُومٍ﴾ قد واعدتهم إياه موسى،
وهو يوم الزينة الذي يتفرغون فيه من أشغالهم.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ أي: نودي بعموم الناس
بالاجتماع في ذلك اليوم الموعد ﴿لَمَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ
الْقَائِلِينَ﴾ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتتظروا غلبة السحرة
لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فتبتهم ونعظمهم،
ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وقفوا للحق لقالوا: لعنا نتبع
المحق منهم، ولتعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إلا
قيام الحجة عليهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿إِنَّا لَأَجْرُ
إِنْ كُنَّا هُمْ الْقَائِلِينَ﴾ لموسى؟ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وثواب
﴿وَلَكُمْ إِذَا لِينُ الْمُفْرِينَ﴾ عندي، وعدهم الأجر والقرية منه،
ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به
موسى.

فلما اجتمعوا للموعد، هم وموسى، وأهل مصر، وعظم
موسى وذكرهم وقال: ﴿وَبَلَّغْكُمْ لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
فَيَسْجُرَكُمْ بِعَدَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَتَقَرَّى﴾ فتنازعوا وتخاصموا، ثم
شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضا.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ أي: ألقوا كل ما
في خواطركم الفأوه، ولم يقبده بشيء دون شيء، لجزمه
ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ فإذا هي حيات تسعى، وسحروا
بذلك أعين الناس. ﴿وَقَالُوا بِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾
فاستعانوا بعزة عبد ضعيف عاجز من كل وجه، إلا أنه قد
تجبر، وحصل له صورة ملك وجند، فغفرتهم تلك الأهبة،
ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قَسَمٌ منهم بعزة
فرعون والمقسم عليه أنهم غالبون.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يوتي الملك من يشاء، ويتزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

﴿فَأَتَيْنَاهُمُ مُّثَرِّفِينَ﴾ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غبط وحقق قادرين.

﴿فَلَمَّا زَكَّاهُ الْجَمْعَانِ﴾ أي: رأى كل منهما صاحبه ﴿قَالَ أَسْحَبْتُ مُوسَى﴾ شاكين لموسى وحزنين ﴿إِنَّا لَنُدْرِكُوكَ﴾، فـ ﴿قَالَ﴾ موسى مبتئاً لهم، ومخبراً لهم بوعد ربه الصادق: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون ﴿إِنَّمَا مَعِيَ رَبِّي سَتَهِينٌ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اقْرُبْ يَصَافَكَ الْبَحْرُ﴾ فضره ﴿فَاتَّقَلَ﴾ اثني عشر طريقاً ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ﴾ أي: الجبل ﴿الْعَلِيِّ﴾ فدخله موسى وقومه.

﴿وَأَزَلَّاهُمَا﴾ في ذلك المكان ﴿الْآخَرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه، قربناهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق الذي سلك منه موسى وقومه.

﴿وَأَوْحَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد.

﴿وَإِنِّي فِي ذَلِكَ لَآبِيَةٌ﴾ عظيمة على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، ويطلان ما عليه فرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ مع هذه الآيات المقنضية للإيمان، لفساد قلوبكم.

﴿وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَهْوُ النَّعْرِ الرَّجِيمِ﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

(٦٩-١٠٤) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إذ قال لأبيه وقومه، مَا تَعْبُدُونَ إلى آخر هذه القصة ﴿وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَهْوُ النَّعْرِ الرَّجِيمِ﴾ أي: واتل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أبناء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته وقومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف فقال:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ قالوا: متبجحين بعبادتهم: ﴿تَعْبُدُونَ أَشْجَامًا﴾ نحنتها ونعملها بأيدينا ﴿فَقُضِّلَ هُنَا عَنكِيبٍ﴾ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتها، فقال لهم إبراهيم، مبيهاً لعدم استحقاتها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ

فلا يستكر على أهل هذه العقول، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان، إنه على خلاف حقيقته، صدقوه.

ثم تودع السحرة فقال: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، كما يفعل بالمفسد في الأرض ﴿وَأَصْلَحَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتخزوا وتذلوا.

فقال السحرة - حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته -: ﴿لَا حَيْثُ﴾ أي: لا نبالي بما توعدتنا به ﴿إِنَّا لَكُمْ رِيَا مُتَقَلِّبُونَ﴾ إِنَّا نَطْلَعُ أَن يَغِيرَ لَكُمَا رِيًّا خَطْبَيْنَا من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود، فنبههم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه واقداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية، ويلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم، ليؤمنن به وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون، فلما يش موسى من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وأن لبني إسرائيل أن يتجهم الله من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: ﴿أَن أَنسِرِ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: اخرج بني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم ﴿إِنَّا لَنَكْفُرُ بِكُمْ﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

وقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿فَأَرْسَلَ رَسُولَهُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَبِيرِينَ﴾ يجمعون الناس، ليوقع بني إسرائيل، ويقول مشجعاً لقومه: ﴿إِنِّي هَكَذَا﴾ أي: بني إسرائيل ﴿بِإِزْمَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ وَإِنَّمَا تِلْكَ لَآيَاتُنَا وَنريد أن نغذ غيظنا في هؤلاء العبيد الذين أبغوا منا.

﴿وَإِنَّا لَجَائِعٌ حَزِينُونَ﴾ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعدار الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: بساتين مصر وجنانها الفاخرة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرهم وبواديهم.

﴿وَمَقَارٍ كَبِيرٍ﴾ يعجب الناطرين، ويلهي المتأملين، تمتعوا به دهرًا طويلاً، وقضوا بلذاته وشهوته عمرًا مديدًا، على الكفر والعناد، والتكبر على العباد والته العظيم.

تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ فَيَسْتَجِيبُونَ دَعَاءَكُمْ، وَيَفْرَجُونَ كَرْبَكُمْ، وَيَزِيلُونَ عَنْكُمْ كُلَّ مَكْرَهٍ؟

﴿أَوْ يَبْغُوا بِكُمْ أَوْ يَضُرُّوا﴾ فأفروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُمْ كَيْدُكُمْ هَذَا فَبَلَّوْهُمُ إِنَّ كَاثِرًا يَطْلُوتُ﴾ قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءُ يَفْعَلُونَ﴾ أي: هذا أمر مقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك، فلجاؤا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ﴿بَلْ وَصَدَّكُمُ الْفِتْنَةُ كَذَلِكَ يَقُولُونَ﴾، فبيناهم على ذلك، وسلطنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم.

فقال لهم إبراهيم: أنتم وآباؤكم، كلكم خصوم في هذا الأمر، والكلام مع الجميع واحد.

﴿أَوَلَمْ يَسِّرْ لَنَا كَثِيرًا نَتَّبِعُونَ﴾ أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني فلا يقدرُونَ.

﴿وَالرَّبُّ الْغَنِيُّ﴾ الذي خلقني فهو ينجيني هو المنفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ والذي يمشي ثم ينجيني والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين.

فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم، ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة، لا تقدرُونَ أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد، قال الله تعالى: ﴿وَسَاجِدًا قَوْمًا قَالَ أَتُخْشَوْنَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا﴾ الآيات.

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي: علمًا كثيرًا، أعرف به الأحكام والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿وَالْحَقُّ لِلْعَاقِلِينَ﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

﴿وَأَجْعَلْ لِي سِدًّا صِدِّقًا فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر، فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، والحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولًا، معظمًا مثني عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ

سورة الشعراء

٣٧٠

سورة الشعراء

فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالَا أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِذَا مَدَّ رُكُونًا ﴿٦٩﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٧٠﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٧١﴾ وَأَرْزَأْنَاهُم الْآخِرِينَ ﴿٧٢﴾ وَأَجْبَحْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَأَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٧﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُنُّهَا عُتْقَادًا ﴿٧٩﴾ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَ كُرْإِذْ تَدْعُونَ ﴿٨٠﴾ أَوْ يَفْعَلُونَ كَمَا تُؤْمِرُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٨٣﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٨٤﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٨٧﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجَحِّبُنِي ﴿٨٩﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٩٠﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّلَاحِ

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَجَعَلْنِي مِنْ وَفْدِكَ جَنَّةَ الْبَيْتِ﴾ أي: من أهل الجنة التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، ورفع منزلته في جنات النعيم.

﴿وَأَغْفِرْ لِيَّ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا الدعاء، بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿سَأَسْتَفِيزُكَ رَبِّي إِنَّكَ كَانَتْ فِي حَيْثُ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفِيزُكَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة. بل أسعدني في ذلك اليوم الذي لا ينفخ فيه ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩١﴾ هذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجو به من العقاب، ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم، معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحنة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر، اتصافه بأصداها من الإخلاص والعلم واليقين ومحنة

الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبه تابعة لمحبة الله، وهواه، تبعاً لما جاء عن الله.

ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم، وما فيه من الثواب والعقاب فقال: ﴿وَأَرْزُقْ لِحَقِّهِ أَي: قربت﴾ ﴿لِشَّقِيكَ﴾ ورهب، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه.

﴿وَرَزَقَ الْحَجِيمَ﴾ أي: برزت، واستعدت بجميع ما فيها من العذاب، ﴿وَالْعَاوِينَ﴾ الذين أوضاعوا في معاصي الله، وتجروا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاءهم به من الحق ﴿وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله هل يصرونكم أو يتلصقونكم بأنفسهم أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم ﴿فَتَكْبَرُوا فِيهَا﴾ أي: ألفوا في النار ﴿هُم﴾ أي: ما كانوا يعبدون ﴿وَالْعَاوِينَ﴾ العابدون لها ﴿وَيَحْذَرُ الْإِلَهِ أَجْمَعُونَ﴾ من الإنس والجن الذين أُرْهِمُوا إلى المعاصي أُرَا، وتسلب عليهم بشرتهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعائه، والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته، ومجيب لهم، ومقلد لهم على شركهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: جنود إبليس الغاؤون، لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَرِي صُكُلَ مِثْنٍ﴾ ﴿إِذْ سُوبِكُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ في العبادة والمحبة، والخوف والرجاء، وتدعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حينئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسوؤهم رب العالمين إلا في العبادة، لا في الخلق، بدليل قولهم: ﴿رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي والفسق، ﴿إِلَّا الْمُتَكِبِرِينَ﴾ وهم الائمة الذين يدعون إلى النار.

﴿فَمَا كُنَّا﴾ حينئذ ﴿بِمِثْنٍ﴾ يشفعون لنا، ليقضونا^(١) من عذابه ﴿وَلَا صَرِيحَ حِمِيمٍ﴾ أي: قريب مضاف، يتفعنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا. فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها ﴿فَنَكُنَّ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب، هيهات هيهات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون.

﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿لَايَةً﴾ لكم

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٧١

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ رِزْقِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَعِزَّنِي بِآيَةِ اللَّهِ أَنْ كُنْ مِنَ الْضَالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَرْزُقْ لِحَقِّهِ الْمُنْفِقِينَ ﴿٩٠﴾ وَرَزَقَ الْحَجِيمَ لِلْعَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرُوكُمْ أَوْ يُنصَرُونَ ﴿٩٣﴾ فَتَكْبَرُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَذَرُوا إِلَيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَرِي صُكُلَ مِثْنٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سُوبِكُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُتَكِبِرُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدْقٍ حِمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْرَهُهُمُ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَلَنْ رُبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

﴿وَمَا كَانَ أَكْرَهُهُمُ مُؤْمِنِينَ﴾ مع نزول الآيات.

(١٠٥-١٢٢) ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ﴾ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة.

يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع فقال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ جميعهم، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذب أحدهم تكذيب بجميع ما جاءه به من الحق، كذبوه ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ في النسب ﴿نُوحٌ﴾ وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشتمزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بالطف خطاب - كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم - ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، فتركوا ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فكونه رسولاً إليهم بالخصوص، يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا

(١) في النسخين: ليقضونا.

الله تعالى على أن خصهم بهذا الرسول الكريم، وكونه أميناً، يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

﴿فَآتَوْهُا اللَّهُ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، وإنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم، أميناً، فلذلك رتبته بالفاء الدالة على السبب. فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتكفلون من المغرم الثقل ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل. وأما أنتم فميتي، ومتهى إرادتي منكم، النصح لكم، وسلوكم الصراط المستقيم.

﴿فَآتَوْهُا اللَّهُ وَأَطِيعُوا﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلَفَ سَكَنٌ إِلَّا حَجَبِيكَ عَامًا﴾ وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِكَلِّ دَهْرًا ۖ فَلَمْ يَذْهَبْهُمْ دَعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ الآيات. فقالوا ردًا لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة.

﴿أَتُؤْمِنُ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: كيف تتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسفطهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته - يبين لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك.

ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأردل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكامل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده، بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه.

فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في رددهم دعوة نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فبنوا على هذا الأصل الذي كل أحد يعرف فسادده، رد دعوته، - عرفنا أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما عليّ التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتكم به الحق، فانقادوا له، وكُلُّ له عمله.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنهم - قبحهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً وتجبراً، ليؤمنوا، فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٧٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوَ شَعُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا لَا يَذِرُ مَبِيتٍ ﴿١٠٨﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْبُوحَ لَنَكُونَ مِنَ الْمُرْجُومِينَ ﴿١٠٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي ذُكِّرُوا ﴿١١٠﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَبَحِيًّا وَمَعَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْآيَاتِ ﴿١١٣﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٥﴾ كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ وَاعْبُدُوا ﴿١١٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ أَتَنْتَبِهُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَاتَاكُمْ بِهِ بِطُغْيَانٍ مَجْرَيْنٍ ﴿١٢١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ وَاعْبُدُوا ﴿١٢٢﴾ وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَبَيْنَ وَحْنَتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظمت أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٢٦﴾

الإكرام القولي والفعل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا جَاءَكُم بِالْآيَاتِ يُوَفُّونَ بِهَا وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ عَنْ شَيْءٍ سَأَلَ عَنْ تَقْوَاهُ الْخُشْعَةَ﴾.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا لَا يَذِرُ مَبِيتٍ﴾ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجهت في نصيح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدادوا إلا نفوراً، وقالوا لئن لَمْ تَنْتَهِ يَنْبُوحَ من دعوتك إيانا إلى الله وحده ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُرْجُومِينَ﴾ أي: لنتكلى شر قتلة، بالرمي بالحجارة، كما يقتل الكلب.

فتبأ لهم، ما أقبح هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم، بشر مقابلة.

لا جرم لما انتهى ظلمهم، واشتد كفرهم، دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْآرِضِينَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الآيات.

وهنا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي ذُكِّرُوا ۖ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا﴾ أي:

أي: أعطاكم ﴿يَا مَعْشَرُ﴾ أي: أمدمكم بما لا يجهل ولا ينكر من الإلحاح ﴿أَمْذَكُّرٌ بَآئِتٌ﴾ من إبل وبرق وغنم ﴿وَبَنِيكَ﴾ أي: وكثرة نسل، كثرة أموالكم، وكثرة أولادكم، خصوصاً الذكور، أفضل القسمين.

هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكرهم حلول عذاب الله، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إني - من شفقتي عليكم وبيري بكم - أخاف أن ينزل بكم عذاب عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمرتكم على كفركم وبغيكم.

فقالوا معاندين للحق مكذبين لنبيهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ﴾ أي: الجميع على حد سواء. وهذا غاية العتو، فإن قومًا بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها وعدمها - عندهم - على حد سواء، لقوم انتهى ظلمهم، واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من هدايتهم ولهذا قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه الأحوال والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين، تارة يستغنون، وتارة يفترقون. وهذه أحوال الدهر، لا أن هذه محن ومنع من الله تعالى، وابتلاء لعباده ﴿وَمَا عَزَّ بِمُتَدِّبِينَ﴾ وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتهكم به. إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما أدركت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقًا، لا يردعهم عنه رادع. ﴿فَأَمَلَتْهُمْ﴾، ﴿بَرِيحٌ سَرْسَبٌ عَلَيْهِمْ سَفَهًا مُغْرِقًا شَبَّحَ بِحَالِ وَيْلَةٍ وَمَقِيَّةً أَيْتَانِ حُشُومًا فَنَزَلَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْحَى كَأَنَّهُمْ أُغْمِرُوا نَخْلًا عَائِينَ﴾.

﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَكَايَةٌ﴾ على صدق نبينا هود عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه، من الشرك والجبروت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع وجود الآيات المقتضية للإيمان.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي أهلك بقوته قوم هود، على قوتهم وبطشهم. ﴿الْأَرْحَبُ﴾ بنبيه هود، حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

(١٤١-١٥٩) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْقَبِيلَةَ الْمَعْرُوفَةَ فِي مَدَائِنِ الْحَجَرِ﴾ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا صالحًا عليه السلام، الذي جاء بالوحيد الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيبًا للجميع ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ تَوْحَمٌ صَلِّحْ﴾ في النسب، يرفق ولين: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، وتدعون الشرك والمعاصي ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله بركم،

أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: ﴿يَكُنِي وَمَنْ تَبِعَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَاتَّخَذَتْهُمْ سَفِينَةً مِنَ الْخَلْقِ وَالْحَيَوَانَاتِ﴾ ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد نوح، ومن معه من المؤمنين ﴿الْبَائِينَ﴾ أي: جميع قومه.

﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ﴾ أي: نجاة نوح وأتباعه، وإهلاك من كذبه ﴿لَايَةً﴾ دالة على صدق رسلنا، وصحة ما جاءوا به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بعزه أعداءه، فأغرقهم بالطوفان ﴿الْأَرْحَبُ﴾ بأوليائه، حيث نجى نوحًا ومن معه، من أهل الإيمان.

(١٢٣-١٤٠) ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْقُرَيْشِينَ﴾ إلى آخر القصة. أي: كذبت القبيلة المسماة عادًا، رسولهم هودًا، وتكذيبهم له تكذيب لغيرهم، لاتفاق الدعوة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ ثَمُودُ﴾ في النسب ﴿هُودُ﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، فتركوا الشرك وعبادة غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أرسلني الله إليكم رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين تعرفون ذلك مني، رتب على ذلك قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي: أدوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقي بطاعتي فيما أمركم به، وأنهاكم عنه، فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إليكم ونصحي لكم أجرًا، حتى تستنقلوا ذلك المغرم ﴿إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا عَلَى رَبِّي الْقُلُوبِينَ﴾ الذي رباهم بنعمه، وأدرك عليهم فضله وكرمه، خصوصًا ما رأى به أوليائه وأنبياؤه.

﴿أَتَتَّبِعُونَ كُلَّ رِيعٍ﴾ أي: مدخل بين الجبال ﴿مَاتِيَةٍ﴾ أي: علامة ﴿مَتَشُونُ﴾ أي: تفعلون ذلك عبثًا لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.

﴿وَتَتَّبِعُونَ مَسَاجِدَ﴾ أي: بركا ومجايب اللبياه ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

﴿وَإِذَا يَطَّشَرُوا﴾ بالخلق ﴿بَطَّشَرْتُمْ جَبَلَيْنِ﴾ قتلاً وضرباً، وأخذ أموال. وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخرُوا واستكبروا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا شرككم وبطركم ﴿وَأَطِيعُوا﴾ حيث علمتم أني رسول الله إليكم، أمين ناصح ﴿وَاتَّقُوا إِلَهَ الْأَوَّلِينَ﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٧٣

الْحَمْدُ لِلَّهِ

إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧١﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلِكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٤﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطُرُوقِ السَّرَّائِلِ ﴿١٧٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَالْتَمُنُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ فِي لَكُمْ رَسُولًا أَمِينًا ﴿١٧٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْرِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٧٨﴾ إِذْ قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٩﴾ أَتَتَرَكُونَ فِي مَاهُتَمَاءَ أَمِينَةٍ ﴿١٨٠﴾ وَتَجْتَنِّوْنَ فِي جَنَّتِ وَعِبُونِ ﴿١٨١﴾ وَتَحْلِي طَلْمَهَا هَضِيمَةً ﴿١٨٢﴾ وَتَجْتَنِّوْنَ فِي جَنَّتِ وَعِبُونِ ﴿١٨٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْرِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٨٤﴾ إِذْ قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٥﴾ أَتَتَرَكُونَ فِي مَاهُتَمَاءَ أَمِينَةٍ ﴿١٨٦﴾ وَتَجْتَنِّوْنَ فِي جَنَّتِ وَعِبُونِ ﴿١٨٧﴾ وَتَحْلِي طَلْمَهَا هَضِيمَةً ﴿١٨٨﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ السَّافِرِينَ ﴿١٨٩﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٩٠﴾ قَالُوا لِمَ آتَاكَ مِنَ السَّحَرَةِ ﴿١٩١﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩٢﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ مَا شَرِبَ وَلَكِنَّ رَبِّيَ يَوْمٌ يَعْلَمُونَ ﴿١٩٣﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَمَا أَحْذَبَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩٤﴾ فَفَعَرُّوهَا فَاصْصَبُوا نَدِيمِينَ ﴿١٩٥﴾ فَأَحْذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٧﴾

نزلت عليهم، فدمرهم أجمعين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على صدق ما جاءت به رسلنا، ويطلان قول معارضيههم ﴿وَمَا كُنَّا أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥-١٦٠﴾.

قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم. وكانوا - مع شركهم - يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، يختارون نكاح الذكران، المستنقذ الخيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم، لإسرافهم وعدوانهم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿قَالُوا﴾ له ﴿لَيْنٌ لَّكَ نَسَوْنَهُ بِطُرُوقِ السَّرَّائِلِ مِنَ الْخَرَجِينَ﴾ أي: من البلد، فلما رأى استمرارهم عليه ﴿قَالَ إِنْ لِعَلِّكُمْ مِنَ الْقَائِلِينَ﴾ أي: المبغضين له، الناهين عنه، المحلّنين.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْصُونَ﴾ من فعله وعاقبته، فاستجاب الله له ﴿فَتَجَنَّبَهُ وَآلَهُ أَتَمِينَ﴾ إِلَّا عَجْرًا مِنَ الْقَتِيرِينَ ﴿أي: الباقين في العذاب، وهي امرأته﴾.

أرسلني إليكم، لطفًا بكم ورحمةً، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان ﴿أَمِينَ﴾ تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به.

﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ عَلَيْهِ مِنْ آيَةٍ﴾ فتقولون: يمننا من اتباعك أنك تريد أخذ أموالنا ﴿إِنْ آتَيْتَ إِلَّا عَلَى رِجِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لا اطلب الثواب إلا منه.

﴿أَتَتَرَكُونَ فِي مَاهُتَمَاءَ أَمِينَةٍ﴾ في جَنَّتِ وَعِبُونِ ﴿وَرَدُّوعٍ وَتَحْلِي طَلْمَهَا هَضِيمَةً﴾ أي: نضيد كثير. أي: أنحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعمة شدي، تتعمون وتمتعون، كما تمتع الأنعام، وتتركون سدى، لا تؤمرون ولا تنهون، وتستعينون بهذه النعمة على معاصي الله.

﴿وَتَجْتَنِّوْنَ فِي جَنَّتِ وَعِبُونِ﴾ أي: بلغت بكم الفراهة والحد إلى أن اتخذتم بيوتًا من الجبال الصم الصلاب.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ السَّافِرِينَ ﴿الذين تجاوزوا الحد﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿أي: الذين وصفهم ودأبهم، الإفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إليها، إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون، لأنه شر محض﴾.

وكان أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم، موضعون في الدعوة لسبيل النفي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم. ولعلمهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الدِّينَةِ سَعَةً رَحْمَةً يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فلم يقد فيهم هذا النهي والوعظ شيئًا، فقالوا لصالح: ﴿إِنَّمَا آتَاكَ مِنَ السَّحَرَةِ﴾ أي: قد سحرت، فانت تهذي بما لا معنى له.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فَأْتِ بِآيَةٍ فَفَعَرُّوهَا فَاصْصَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ؟ ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا، مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه، من أكبر الآيات البيّنات على صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم ^(١) من قسوتهم، سألوا آيات الاقتراح التي في الغالب لا يفلح من طلبها، لكون طلبه تبيينًا على التبعث، لا على الاسترشاد.

فقال صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ تخرج من صخرة صماء ملساء ترونها وتشاهدونها باجمعكم ﴿مَا شَرِبَ وَلَكِنَّ رَبِّيَ يَوْمٌ يَعْلَمُونَ﴾ أي: تشرب ماء البئر يومًا، وأنتم تشربون لبئها، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر.

﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ يعقر أو غيره ﴿فَأَحْذَبَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم.

﴿فَفَعَرُّوهَا فَاصْصَبُوا نَدِيمِينَ﴾ فَأَحْذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿وهي صيحة

الْمُرْسَلِينَ

٣٧٤

الْمُرْسَلِينَ

كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ مِنْ أَلْعَلَمِينَ ﴿١٨١﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُزُقَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٨٢﴾ قَالُوا لَنْ نَسْتَعِينَكَ لَئِنْ كُنَّا مِنْ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٨٣﴾ قَالَ إِنِّي لَعَمْرِي مِنَ الْقَائِلِينَ ﴿١٨٤﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مَعَ الْعَامِلِينَ ﴿١٨٥﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٦﴾ إِنْ أَعْجَبُوا فِي الْعَمِينَ ﴿١٨٧﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٨٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا كَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٩٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعْبَةُ الْأَنْفَقُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٩٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٩٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ أَتُكْفَرُونَ بِمَا أَنْتُمْ بِنِعْمَةِ رَبِّكُمْ أَنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿١٩٧﴾ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٩٨﴾ وَزُوايَا لَيْسَ طَائِفًا مِنَ السَّاعَتِ ﴿١٩٩﴾ وَلَا تَحْسَبُوا النَّاسَ شَيْئًا هُمْ وَلَا تَحْسَبُوا فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ ﴿٢٠٠﴾

لا يلزم تنميم مطلوب من سألها .

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام : ﴿رَبِّي أَكْبَرُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي : نزول العذاب ، ووقوع آيات الاقتراح ، لست أنا الذي أتى بها وأنزلها بكم ، وليس عليّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت ، وإنما الذي يأتي بها ربي ، العالم بأعمالكم وأحوالكم ، الذي يجازيكم ويحاسبكم .

﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي : صار التكذيب لهم وصفاً ، والكفر لهم ديدناً ، بحيث لا تفيدهم الآيات ، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب .

﴿فَأَنزَلْنَاهُمْ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ أظلمتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين ، لظلمها غير الظليل ، فأحرقتهم بالعذاب ، فظلموا تحتها خامدين ، ولديارهم مفارقين ، ولدار الشقاء والعذاب نازلين .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الدِّينِ فَجَاءُوا بِمُخَالَفَتِهِ﴾ ولا يُقَرَّرُ عنهم العذاب ساعة ، ولا هم ينظرون .

(١) كذا في ب ، وفي أ : أشجاره .

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴿١٨٨﴾ أي : حجارة من سجيل ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أهلكتهم عن آخرهم ﴿وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨٩﴾

(١٧٦-١٩١) ﴿كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أصحاب الأيكة : أي : البساتين الملتفة أشجارها (١) ، وهم أصحاب مدين ، فكذبوا بينهم شعيباً ، الذي جاء بما جاء به المرسلون ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعْبَةُ الْأَنْفَقُونَ﴾ الله تعالى ، فتكون ما يسخطه ويغضبه ، من الكفر والمعاصي ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يترتب على ذلك ، أن تتقوا الله وتطيعون . وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكاييل والموازين ، فلذلك قال لهم : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي : أنموه وأكملوه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ، يبخس المكاييل والميزان . ﴿وَزُوايَا لَيْسَ طَائِفًا مِنَ السَّاعَةِ﴾ أي : بالميزان العادل الذي لا يميل ﴿وَأَقْبُوا الَّذِي عَلَفَكُمُ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي : الخليفة الأولين ، فكما انفرد بخلقكم ، وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك ، فأفردوه بالعبادة والتوحيد ، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم ، فقابلوه بشكره .

قالوا له ، مكذبين له ، رادفين لقلوبه : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ فأنت تهذي وتكلم بكلام المسحور ، الذي غايته أن لا يؤخذ به .

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فليس فيك فضيلة اختصاصت بها علينا ، حتى تدعونا إلى اتباعك . وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم ، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة التي لم يزالوا يدلون بها ويصلون ، ويتفقون عليها ، لاتفاقهم على الكفر ، وتشابه قلوبهم . وقد أجابت عنها الرسل بقولهم : ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُدْعِي عَن مِّنْ نَّحْنُ وَمِنْ عِبَادِهِ﴾

﴿وَإِنْ تُظُنُّوكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور ، قد انطوا على خلافة ، فإنه ما من رسول من الرسل ، واجه قومه ودعاهم ، وجادلهم وجادلوه ، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات ، ما به يتيقنون صدقه وأمانته ، خصوصاً شيعياً عليه السلام ، الذي يسمى خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ، فإن قومه قد تيقنوا صدقه ، وأن ما جاء به حق ، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم .

﴿فَأَسْبَغَ عَلَيْكَ كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي : قطع عذاب تستأصلنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ تقول إخوانهم ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنَّا فَتُطَرِّدْ عَلَيْنَا جِسْمَكَ﴾ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آخَرَ ﴿أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح التي

سورة الشعراء

٣٧٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿وَاقْتُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ ٣٧٥ ﴿قَالُوا إِنَّمَا آتَتْ مِنَ الْمُحَرَّرِينَ﴾ ٣٧٦ ﴿وَمَا آتَى إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنْ الْكَذِبِينَ﴾ ٣٧٧ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٣٧٨ ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٣٧٩ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ٣٨٠ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ٣٨١ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٣٨٢ ﴿وَلَهُ الَّذِي زَلَّ بِهِ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٨٣ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ٣٨٤ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ٣٨٥ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ٣٨٦ ﴿لَّذِي زَلَّ الْأُولَى﴾ ٣٨٧ ﴿أَوْ لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ٣٨٨ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجِينَ﴾ ٣٨٩ ﴿فَفَرَّاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ﴾ ٣٩٠ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٣٩١ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ٣٩٢ ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٣٩٣ ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ٣٩٤ ﴿أَفِعْدَا إِنَّا سَتَعْمَلُونَ﴾ ٣٩٥ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ٣٩٦ ﴿فَجَاءَهُمْ مَا كَانُوا يَعِدُونَ﴾ ٣٩٧

أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الالسنه وأفضحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين .

﴿وَرَبُّهُ لَنِّي زُبُرُ الْأُولَى﴾ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدفته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين .

﴿أَوْ لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ على صحته، وأنه من الله ﴿أَنْ يَمْلِكَهُ عَلَمًا﴾ بِحَبِّ إِسْرَءِيلَ الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم . كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر . فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به .

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجِينَ﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرون على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فَفَرَّاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وفهر كل مخلوق ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له . ومن عزه أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين .

(١٩٢-٢٠٣) ﴿وَرَبُّهُ لَنَزَّلَ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٨٢ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ٣٨٣ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ٣٨٤ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ٣٨٥ ﴿وَلَهُ لَنِّي زُبُرُ الْأُولَى﴾ ٣٨٦ ﴿أَوْ لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ٣٨٧ ﴿أَنْ يَمْلِكَهُ عَلَمًا﴾ ٣٨٨ ﴿بِحَبِّ إِسْرَءِيلَ﴾ ٣٨٩ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجِينَ﴾ ٣٩٠ ﴿فَفَرَّاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ﴾ ٣٩١ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٣٩٢ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ٣٩٣ ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٣٩٤ ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ٣٩٥ ﴿أَفِعْدَا إِنَّا سَتَعْمَلُونَ﴾ ٣٩٦ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ٣٩٧ ﴿فَجَاءَهُمْ مَا كَانُوا يَعِدُونَ﴾ ٣٩٨ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجِينَ﴾ ٣٩٩ ﴿فَفَرَّاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ﴾ ٤٠٠ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٤٠١ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ٤٠٢ ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٤٠٣ ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ٤٠٤ ﴿أَفِعْدَا إِنَّا سَتَعْمَلُونَ﴾ ٤٠٥ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ٤٠٦ ﴿فَجَاءَهُمْ مَا كَانُوا يَعِدُونَ﴾ ٤٠٧

أنه رباهم بهدائيتهم لمصالح دنياههم وأبدانهم، فإنه يريهم أيضًا بهدائيتهم لمصالح دينهم وأخرامهم . ومن أعظم ما رباهم به، إنزال هذا الكتاب الكريم الذي اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير . وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وَرَبُّهُ لَنَزَّلَ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصودًا فيه تفعيمكم وهدائيتكم .

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقوامهم، ﴿الْأَمِينُ﴾ الذي قد آمن أن يزيد فيه أو ينقص .

﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتندلر به عن طريق الغي .

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ وهو أفضل الالسنه، بلغة من بعث إليهم، وياشر دعوتهم أصلاً، اللسان البين الواضح . وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على

﴿ذِكْرًا﴾ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾
فنهلك القرى قبل أن نذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن
النذر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ يَبْلُغَ رَسُولُنَا،
رُسُلًا مُّبْتَلِينَ وَمُؤَذِّنِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ
الرُّسُلِ﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة
نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن
والإنس، فقال: ﴿وَمَا تَلَّكَ بِهِنَّ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَلْبِسُهُمْ﴾ أي:
لا يلبس بحالهم ولا يناسبهم ﴿وَمَا يَسْتَعْجِلُكَ﴾ ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ
السَّمْعِ لَمَعَزُونَ﴾ قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوع لحفظه،
ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن
يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
الذِّكْرَ وَلَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحِيطُونَ﴾.

(٢١٣-٢١٦) ﴿فَلَا تُلَاحِظْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾
﴿وَأَنْزِلْ عِشْرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿وَلْخُفِضْ جَنَانَكَ لِيَلْزَمَكَ﴾ ينهى تعالى
﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَإِنَّ عَصَاكَ كَلِمَةٌ إِلَىٰ يَمِينٍ﴾ ﴿فِيمَا تَعْمَلُونَ﴾ ينهى تعالى
رسوله أصلاً، وأمنه أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من
جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب
السرمدى، لكونه شركاً ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ والنهي عن الشيء أمرٌ بضده، فالنهي عن الشرك
أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبةً، وخوفاً،
ورجاءً، وذلاً، وإبانةً إليه في جميع الأوقات.

ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال:
﴿وَأَنْزِلْ عِشْرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك،
وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره
بإنذار جميع الناس. كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم
قيل له: «أحسن إلى قرابتك»، فيكون هذا خصوصاً^(١)، دالاً
على التأكيد، وزيادة الحق.

فامتثل ﷺ، هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش،
فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يبق ﷺ من مقدوره
شيئاً، من نصيحهم وهدايتهم، إلا فعله، فاهتدى من اهتدى،
وأعرض من أعرض.

﴿وَلْخُفِضْ جَنَانَكَ لِيَلْزَمَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلبين جانبك،
ولطف خطابك لهم، وتوددك وتحببك إليهم، وحسن خلقتك
والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فِيمَا
رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَكُنْتَ تَقْطَعُ عَلَى الْقَلْبِ لَأَقْنُصُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

(١) في ب: الخصوص.

إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان أفصح الخلق،
وأفدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارة الواضحة،
وأنصحهم. وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم
والقبول. ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض
الكفر والعناد، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة، فلهذا قال:
﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ﴾ أي: أدخلنا التكذيب،
وأنظمناه في قلوب أهل الإجماع، كما يدخل السلك في
الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها. وذلك بسبب ظلمهم
وجرمهم، فلذلك ﴿لَا يُؤْمِنُكَ بِهِنَّ بَرُّوَالْمَالِكِ الْأَلِيمِ﴾ على
تكذيبهم ﴿يَتَّبِعُهُمْ بَغْةٌ وَسَخٌّ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يأتيهم على
حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون
أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم ﴿فَقِيلُوا﴾ إذ ذاك: ﴿هَؤُلَاءِ نَحْنُ
مُظْهَرُونَ﴾ أي: يطلبون أن يُظْهَرُوا ويمهلوا، والحال أنه قد فات
الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يُقَرَّر
ساعة.

(٢٠٤-٢٠٧) ﴿أَفَعَلْنَا بِسَمْعِجُونٍ﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ
سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ مَا أَفَقَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يُتَوَكَّلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَعَلْنَا﴾ الذي هو العذاب الأليم
العظيم، الذي لا يستهان به، ولا يحقر ﴿بِسَمْعِجُونٍ﴾ فما
الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة
يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعْجِزُونَا، ويظنون
أننا لا نقدر على ذلك.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ أي: أفرايت إذا لم نستعجل
عليهم بإزالة العذاب، وأمهلتهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا
﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب.

﴿مَا أَفَقَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَتَوَكَّلُونَ﴾ من اللذات والشهوات،
أي: أي شيء تغني عنهم وتقيدهم، وقد مضت وبطلت،
واضحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند
طول المدة. القصد الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم
له. وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى
عنده.

(٢٠٨-٢١٢) ﴿وَمَا أَلْعَلَّكَ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَمْ يُنْذِرْ﴾ ﴿ذِكْرًا وَمَا
كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿وَمَا تَلَّكَ بِهِنَّ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَلْبِسُهُمْ وَمَا
يَسْتَعْجِلُكَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُونَ﴾ يخبر تعالى عن كمال
عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعداباً،
إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيه النذر بالآيات البينات،
ويدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم
بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

فَأَعْتَبْهُمْ وَاسْتَعِزَّ لَهُمْ وَتَوَارَعُ فِي الْأَمْرِ ﴿٢١٧﴾ فَهَذِهِ أَخْلَافُهُ
أَكْمَلُ الْأَخْلَاقِ، الَّتِي يَحْصِلُ بِهَا مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ وَدَفْعِ
الْمَضَارِّ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ.

فَهَلْ يَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيَدْعِي اتِّبَاعَهُ وَالْإِقْدَاءَ بِهِ،
أَنْ يَكُونَ كَلَّامًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، شَرَسَ الْأَخْلَاقِ، شَدِيدِ
الشُّكْمَةِ عَلَيْهِمْ، غَلِظَ الْقَلْبِ، فَطَّ الْقَوْلَ، فَظْلِعَهُ؟ [وَإِنْ
رَأَى مِنْهُمْ مَعْصِيَةً أَوْ سَوْءَ أَدَبٍ، هَجَرَهُمْ وَمَقْتَهُمْ وَأَبْغَضَهُمْ،
لَا لِيْنٍ عِنْدَهُ، وَلَا أَدَبٍ لَدَيْهِ، وَلَا تَوْفِيقٍ. قَدْ حَصَلَ مِنْ هَذِهِ
الْمُعَامَلَةِ مِنَ الْمَفَاسِدِ، وَتَعْطِيلِ الْمَصَالِحِ مَا حَصَلَ، وَمَعَ ذَلِكَ
تَجَدَّدَ مُحَقَّرًا لِمَنْ اتَّصَفَ بِصِفَاتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، قَدْ رَمَاهُ
بِالنِّفَاقِ وَالْمُدَاهَنَةِ، وَقَدْ كَمَّلَ نَفْسَهُ وَرَفَعَهَا، وَأَعْجَبَ بِعَمَلِهِ.
فَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ جَهْلِهِ، وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ وَخُدْعِهِ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ
اللَّهُ لِرَسُولِهِ: ﴿إِنَّ عَصَاكَ﴾ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ، فَلَا تَتَّبِعْ مِنْهُمْ،
وَلَا تَتْرِكْ مُعَامَلَتَهُمْ، بِخَفْضِ الْجَنَاحِ وَلِيْنِ الْجَانِبِ، بَلْ تَبْرَأْ مِنْ
عَمَلِهِمْ، فَعَظْلِهِمْ عَلَيْهِ وَانْصَحْهُمْ، وَابْذُلْ قُدْرَتَكَ فِي رَدِّهِمْ
عَنْهُ، وَتَوَيْتَهُمْ مِنْهُ.

وَهَذَا لِدَفْعِ احْتِرَازِ وَهْمٍ مِنْ يَتَوَهَّمُ، أَنْ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تُخَافِشْ
جَنَاحَكَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ، يَقْتَضِي الرِّضَاءَ بِجَمِيعِ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ، مَا
دَامُوا مُؤْمِنِينَ، فَدَفَعَ هَذَا بِهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢١٧-٢٢٠) ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ٥ الَّذِي يَرِيكَ جِبْنَ
نَقُومَ ٥ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّنَجِينَ ٥ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ أَعْظَمُ
مُسَاعِدٍ لِلْعَبْدِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ بِهِ، الْاعْتِمَادَ عَلَى رَبِّهِ،
وَالِاسْتِعَانَةَ بِمَوْلَاهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ لِلْقِيَامِ بِالْأُمُورِ، فَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ
تَعَالَى بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾
وَالْتَوَكُّلُ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ
وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ، وَحَسَنَ ظَنِّهِ بِحُصُولِ مَطْلُوبِهِ، فَإِنَّهُ
عَزِيزٌ رَحِيمٌ، بَعِزَّتْهُ يَدُهُ عَلَى إِصْصَالِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ عَنْ
عَبْدِهِ، وَبِرَحْمَتِهِ بِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ. ثُمَّ نَبِهَهُ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ
بِاسْتِحْضَارِ قَرَبِ اللَّهِ، وَالنُّزُولِ فِي مِثْلِ الْإِحْسَانِ فَقَالَ:
﴿الَّذِي يَرِيكَ جِبْنَ نَقُومَ ٥ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّنَجِينَ﴾ أَي: يَرَاكَ فِي هَذِهِ
الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ، وَقَتَ قِيَامِكَ وَتَقَلِّبِكَ رَاكِعًا
وَسَاجِدًا.

فَاسْتَحْضَارِ الْعَبْدِ رُؤْيَا اللَّهِ لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَسَمِعَهُ
لِكُلِّ مَا يَنْطِقُ بِهِ، وَعَلِمَهُ بِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ قَلْبُهُ، مِنْ الْهَمِّ وَالْعَزَمِ
وَالنِّيَّاتِ، مِمَّا يَبِينُ عَلَى مِثْلِ الْإِحْسَانِ.

(٢٢١-٢٢٧) ﴿هَلْ أَتَيْتُمْ عَلَىٰ تَنَزُّلِ الْأَنْبِيَاءِ﴾ ٥ تَنَزَّلَ عَلَىٰ
كُلِّ آتٍ أَلَيْهِمْ ٥ يُنْفِقُونَ السَّعْيَ وَأَكْثَرَهُمْ كَذِبُونَ ٥ وَالشُّعْرَاءُ
يُفْتِنُهُمُ الْغَاوُونَ ٥ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٥ وَأَنَّهُمْ
يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَكَرُوا
اللَّهُ كِبْرًا ٥ وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ٥ وَسِعَعَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ ٥ هَذَا جَوَابُ لِمَنْ قَالَ مِنْ مُكَذِّبِي الرَّسُولِ: إِنْ مُحَمَّدًا
يَنْزِلُ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ شَاعِرٌ، فَقَالَ: ﴿هَلْ
أَتَيْتُمْ﴾ أَي: أَخْبَرَكُمْ الْخَبَرَ الْحَقِيقِي، الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا
شُبْهَةَ، عَلَى مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيَاطِينُ، أَي: بِصِفَةِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ
تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ.

﴿تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أَي: كَذَابٍ، كَثِيرِ الْقَوْلِ لِلزُّورِ،
وَالْإِفَّاكُ بِالْبَاطِلِ، ﴿أَفِيرٍ﴾ فِي فِعْلِهِ، كَثِيرِ الْمَعَاصِي، هَذَا الَّذِي
تَنَزَّلَ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، وَتَنَاسَبَ حَالُهُ حَالَهُمْ؟.

﴿يُنْفِقُونَ﴾ عَلَيْهِ ﴿السَّعْيَ﴾ الَّذِي يَسْتَرْقُونَهُ مِنَ السَّمَاءِ،

فَأَعْتَبْهُمْ وَاسْتَعِزَّ لَهُمْ وَتَوَارَعُ فِي الْأَمْرِ ﴿٢١٧﴾ فَهَذِهِ أَخْلَافُهُ
أَكْمَلُ الْأَخْلَاقِ، الَّتِي يَحْصِلُ بِهَا مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ وَدَفْعِ
الْمَضَارِّ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ.

فَهَلْ يَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيَدْعِي اتِّبَاعَهُ وَالْإِقْدَاءَ بِهِ،
أَنْ يَكُونَ كَلَّامًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، شَرَسَ الْأَخْلَاقِ، شَدِيدِ
الشُّكْمَةِ عَلَيْهِمْ، غَلِظَ الْقَلْبِ، فَطَّ الْقَوْلَ، فَظْلِعَهُ؟ [وَإِنْ
رَأَى مِنْهُمْ مَعْصِيَةً أَوْ سَوْءَ أَدَبٍ، هَجَرَهُمْ وَمَقْتَهُمْ وَأَبْغَضَهُمْ،
لَا لِيْنٍ عِنْدَهُ، وَلَا أَدَبٍ لَدَيْهِ، وَلَا تَوْفِيقٍ. قَدْ حَصَلَ مِنْ هَذِهِ
الْمُعَامَلَةِ مِنَ الْمَفَاسِدِ، وَتَعْطِيلِ الْمَصَالِحِ مَا حَصَلَ، وَمَعَ ذَلِكَ
تَجَدَّدَ مُحَقَّرًا لِمَنْ اتَّصَفَ بِصِفَاتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، قَدْ رَمَاهُ
بِالنِّفَاقِ وَالْمُدَاهَنَةِ، وَقَدْ كَمَّلَ نَفْسَهُ وَرَفَعَهَا، وَأَعْجَبَ بِعَمَلِهِ.
فَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ جَهْلِهِ، وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ وَخُدْعِهِ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ
اللَّهُ لِرَسُولِهِ: ﴿إِنَّ عَصَاكَ﴾ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ، فَلَا تَتَّبِعْ مِنْهُمْ،
وَلَا تَتْرِكْ مُعَامَلَتَهُمْ، بِخَفْضِ الْجَنَاحِ وَلِيْنِ الْجَانِبِ، بَلْ تَبْرَأْ مِنْ
عَمَلِهِمْ، فَعَظْلِهِمْ عَلَيْهِ وَانْصَحْهُمْ، وَابْذُلْ قُدْرَتَكَ فِي رَدِّهِمْ
عَنْهُ، وَتَوَيْتَهُمْ مِنْهُ.

وَهَذَا لِدَفْعِ احْتِرَازِ وَهْمٍ مِنْ يَتَوَهَّمُ، أَنْ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تُخَافِشْ
جَنَاحَكَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ، يَقْتَضِي الرِّضَاءَ بِجَمِيعِ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ، مَا
دَامُوا مُؤْمِنِينَ، فَدَفَعَ هَذَا بِهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢١٧-٢٢٠) ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ٥ الَّذِي يَرِيكَ جِبْنَ
نَقُومَ ٥ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّنَجِينَ ٥ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ أَعْظَمُ
مُسَاعِدٍ لِلْعَبْدِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ بِهِ، الْاعْتِمَادَ عَلَى رَبِّهِ،
وَالِاسْتِعَانَةَ بِمَوْلَاهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ لِلْقِيَامِ بِالْأُمُورِ، فَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ
تَعَالَى بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾
وَالْتَوَكُّلُ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ
وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ، وَحَسَنَ ظَنِّهِ بِحُصُولِ مَطْلُوبِهِ، فَإِنَّهُ
عَزِيزٌ رَحِيمٌ، بَعِزَّتْهُ يَدُهُ عَلَى إِصْصَالِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ عَنْ
عَبْدِهِ، وَبِرَحْمَتِهِ بِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ. ثُمَّ نَبِهَهُ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ
بِاسْتِحْضَارِ قَرَبِ اللَّهِ، وَالنُّزُولِ فِي مِثْلِ الْإِحْسَانِ فَقَالَ:
﴿الَّذِي يَرِيكَ جِبْنَ نَقُومَ ٥ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّنَجِينَ﴾ أَي: يَرَاكَ فِي هَذِهِ
الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ، وَقَتَ قِيَامِكَ وَتَقَلِّبِكَ رَاكِعًا
وَسَاجِدًا.

خَصَّهَا بِالذِّكْرِ، لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا، وَلِأَنَّ مِنْ اسْتَحْضَرِ فِيهَا
قَرَبَ رَبِّهِ، خَشَعَ وَذَلَّ، وَأَكْمَلَهَا، وَتَكْمِيلُهَا يَكْمَلُ سَائِرَ
عَمَلِهِ، وَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى جَمِيعِ أُمُورِهِ.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِسَائِرِ الْأَصْوَاتِ، عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَشْتَبَاهَا
وَتَوَنُّوعِهَا ﴿الْعَلِيمُ﴾ الَّذِي أَحَاطَ بِالظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ، وَالْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ.

الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحًا، وأكثر من ذكر الله، وانصرف من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة، وأثار إيمانهم، لاشتماله على مدح أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والدُّبُّ عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ كِبِيرًا﴾ وَأَنْصَرُوا بَيْنَ بَعْدَ مَا ظَلَمُوا وَبِعَمَلِهِمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُقْتَلِينَ يَقْبَلُونَ ﴿يَقْبَلُونَ﴾ يَقْبَلُونَ إِلَى مَوْقِفٍ وَحَسَابٍ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَلَا حَقًّا إِلَّا اسْتَوْفَاهُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تفسير سورة النمل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿لَسَ يَكُ إِلَهَ الْفَرِيقَيْنِ وَكِتَابٌ تُبَيِّنُ ۚ هَذِهِ وَتُزَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْتُونَ ۚ إِنَّ الْكَلِمَةَ لَآتِيَةٌ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا هُمْ أَتَعَاهَدُ بِهِنَّ بِعَهْدِهِمْ ۚ وَأَنْتَ اللَّهُمَّ الْكَلِيمُ ۚ هُمْ سَوَاءٌ الْمَكَابِرُ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِصُونَ ۚ وَلِلَّهِ لَنُفَى الْقُرْآنَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^١ ينه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿إِنَّ إِلَهَ الْفَرِيقَيْنِ وَكِتَابٌ تُبَيِّنُ﴾ أي: هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح الدلالات، وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد، وخير الأعمال، وأزكى الأخلاق. آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم، وخلق ذميم. آيات بلغت في وضوحها وبيانها للصفات النيرة، مبلغ الشمس للابصار. آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلية، على طبق ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأفعاله الكاملة. آيات عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بآبصارنا، ولكن مع هذا لم يتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين، صونا لها عن من لا

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب^(١)، فيصدق واحدة، ويكذب معها مائة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه^(٢) صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.

وأما محمد ﷺ فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة،
لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين برِّ القلب
وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال من المحرم.

والوحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروساً محفوظاً، مشتملاً على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب. فهل يستوي - يا أهل العقول - هذا وأولئك؟ وهل يشتهان إلا على مجنون لا يميز، ولا يفرق بين الأشياء؟

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه، برّاه أيضًا من الشرع، فقال: ﴿وَالشَّعْرَةَ﴾ أي: هل أنبتكم أيضًا عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فإنهم ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ عن طريق الهدى، المقبول على طريق الغي والردى. فهم في أنفسهم غاؤون، وتجد أتباعهم كل غاو ضال فاسد.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم ﴿أَنَّهُمْ فِي كَيْدٍ وَارٍ﴾ من أودية الشعر ﴿يَبْيِطُونَ﴾ فتارة في مدح، وتارة في قبح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وأونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

﴿رَأَيْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هذا وصف الشعراء،
أنهم يخالف أقوالهم أفعالهم. فإذا سمعت الشاعر يتغزل
بالغزل الرقيق، قلت هذا أشد الناس غراماً، وقلبه فارغ من
ذاك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو
كاذب. وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتترك لم يتركها،
وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان،
وتراه أجيبن من كل جانب، وهذا وصفهم.

فانظر، هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله، ولم تخالف أقواله أفعاله؟، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له.

فهل تناسب حاله حالة الشعراء، أو يقاربهم؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصولات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أمد الآلدين، ودهر

(١) في النسخين: كذبا. (٢) في النسخين: هذا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ بِكَ إِلَهَ الْغُرَمَانِ وَكَتَابَ مُبِينٍ ﴿١﴾ هَذَى وَفُتْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَاهُمْ
أَعْمَاهُمْ فَهُمْ يَصْمُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنَ
لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ إِنِّي أَنَا رَسُولُكَ
مِنَّا بِحَبْرٍ أَوْ إِنَّا بِكُمْ بِشَبَابٍ قَبِيلٍ لَعَلَّكُمْ تُصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يُسَمِّيهِمْ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَنَّى عَصَاكَ
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِكًا وَلَّى رَعِيقٌ يُسَمِّيهِ لَا تَخَفْ
إِنِّي لَتَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ
سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ فِيكَ فِي جَبِينِكَ مَرْجَجَ يُضِئُ
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي شِجْرِ عَائِلَةٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ
﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ أَيْنِسَاتُ مَبِيرَةٍ قَالُوا هَذَا إِسْحَارٌ مِنْ مِثْلِ

خير فيه ولا صلاح، ولا زكاة في قلبه، وإنما اهتدى بها من
خصمهم الله بالإيمان، واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت
سرايرهم.

فلما قال: ﴿هَذَى وَفُتْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تهديهم إلى سلوك
الصراف المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه،
وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان، فهل يقبل من كل أحد
ادعى أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق،
فلذلك يبين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ الصَّلَاةَ﴾
فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها،
وشروطها، وواجباتها، بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة،
وهو الخشوع الذي روحها ولبها، باستحضار قرب الله، وتدبر
ما يقول المصلي ويفعله.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة
اليقين، وهو العلم التام الواصل إلى القلب، الداعي إلى
العمل. ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم
من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من
جاء بإثباتها ﴿رَبَّنَا قَدْ أَفْلَحَ قَوْمٌ يَكْفُرُونَ﴾ حائرين مترددين،
مؤثرين سخط الله على رضا، قد انقلبت عليهم الحقائق،
فأروا الباطل حقاً، والحق باطلاً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده وأسوأ وأعظمه
﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، لكونهم
خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي
دعته إلى الرسل.

﴿وَلَئِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: وإن هذا
القرآن الذي ينزل عليك، وتلقفه وتلقته، ينزل من عند
﴿حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها ﴿عَلِيمٍ﴾
بأسرار الأمور^(١)، وبواطنها كظواهرها، وإذا كان من عند
﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^(٢) علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي
هو [أعلم] بمصالحهم منهم؟

(٧-١٤) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ إِنِّي أَنَا رَسُولُكَ﴾ إلى آخر قصته،
يعني: أذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن
عمران، ابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته، وتكليم الله
إياه. وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من
مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان
في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إِنِّي مَكْنَسٌ نَارًا﴾ أي:

أبصرت نارا من بعيد ﴿نَارِكُمْ يَنَّا بِحَبْرٍ﴾ عن الطريق ﴿أَوْ إِنَّا بِكُمْ
بِشَبَابٍ قَبِيلٍ لَعَلَّكُمْ تُصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون، وهذا دليل على

أنه تائه، ومشهد برده، هو وأهله.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: ناداه الله
تعالى وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك. ومن بركة أن

جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّيَ الْعَلِيِّ﴾ عن أن يُظن به نقص أو سوء، بل
هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿يُسَمِّيهِمْ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: أخبره الله أنه الله
المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى
﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاقْبَلْذِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلْيَكُونِ﴾،
﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل

المخلوقات ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته أن أرسل
عبده موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته
ووجهه وتكليمه. ومن عزته أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من
(١) في ب: الأحوال. (٢) سبق فلم الشيخ - رحمه الله - فكتب (حكيم
خير) تصحُّحها، وأبقيت التفسير كما هو.

وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

(١٥-٤٤) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَمًا وَقَالَا لَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي

فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ۖ إِلَىٰ آخِرِ

القصة. يذكر في هذا القرآن، وينوه بمنته على داود وسليمان

ابنه، بالعلم الواسع الكثير، بدليل التنكير، كما قال تعالى:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي بَيْتِكَ لِتُحْضَرَهُ لُغْمَتُهُ لِيُفْصَلَ بَيْنَهُمَا بِنَزْلِهِ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۖ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ الْآيَةُ.

﴿وَقَالَا ۖ شَاكِرِينَ لِّرَبِّهِمَا مَّتَىٰ الْكَبِيرِ بِتعليمهما: ﴿لَحْمَدُ لِلَّهِ

الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحمدا الله على جعلهما

من المؤمنين، أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم.

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم

فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء.

وداود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة

أولي العزم [الخمس]. لكنهم من جملة الرسل الفضلاء

الكرام، الذين نوه الله بذكرهم، ومدحهم في كتابه مدحا

عظيما، فحمداوا الله على بلوغ هذه المنزلة. وهذا عنوان

سعادة العبد، أن يكون شاكرا لله على نعمه الدينية والدنيوية،

وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها،

بل يرى أنها تستحق عليه شكرا كثيرا.

فلما مدحهما مشتركين، خص سليمان بما خصه به، لكون

الله أعطاه ملكا عظيما، وصار له من الماكرات ما لم يكن

لأبيه، صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ۖ

أَي: ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه، فعمله

تعلم من أبيه ما عنده من العلم، مع ما كان عليه من العلم وقت

أبيه، كما تقدم من قوله فهماها سليمان. وقال: شكرا لله،

وتبجعا بإحسانه، وتحذرا بنعمته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُذْرًا مِّنْ طَيْقِ

الْقُدْرَةِ ۖ فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ [والسلام]، يفقه ما تقول وتتكلم

به، كما راجع الهدهد وراجع، وكما فهم قول النملة للنمل

كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه الصلاة

والسلام.

﴿وَأَوْفَيْنَا مِنْ كُلِّ قَوْمٍ مِّنْهُمُ: أَي: أعطانا الله من النعم، ومن

أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤته أحدا من

الآدميين، ولهذا دعا ربه فقال: ﴿وَقَبَّ^(١) لِي مَلِكًا لَا يَلْبِغُنِي لِجَارِي

مِنْ بَدُونٍ﴾ ففسر الله له الشياطين، يعملون له كل ما شاء من

الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح، غدوها

(١) في ب: يتقهم. (٢) في التسخين: فقال: (رب هب) وهو خطأ.

انفردك، وكثرة أعدادك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله،

وحركاتهم وسكونهم بتدبيره.

﴿وَأَنَّىٰ عَسَىٰ﴾ فالحقا ﴿فَلَمَّا رَآهَا تُهَاجِرُ كَانَتْ جَانًا﴾ وهو ذكر

الحيات، سريع الحركة ﴿وَأَنَّىٰ مُدِيرُكُمْ وَمَنْ يَمُوتُ﴾ ذعرا من الحية

التي رأى، على مقتضى الطباع البشرية. فقال الله له: ﴿يَتَوَسَّىٰ

لَا تَحْتَفُ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿أَقِيلْ وَلَا تَحْتَفُ إِلَيْكَ مِنَ

الْأَنْبِيَاءِ﴾، ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الرَّسُولِ﴾ لأن جميع المخاوف

مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره. فالذين اختصهم الله

برسالته، واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله،

خصوصا عند زيادة القرب منه، والحظوة بتكليمه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسًّا بَدَلًا شَرًّا﴾ أي: فهذا الذي هو

محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم

له من الجرم، وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف؟

ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب، فبدل

سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور رحيم. فلا

يأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعا، وهو

أرحم عباده من الوالدة بولدها.

﴿وَأَنجَلِ يَدَكَ فِي جَيْكِ تَفُجَّ بِضَلَّةٍ مِّنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ لا برص ولا

نقص، بل بياض يبهير الناظرين شعاعه ﴿فِي يَمِينِ يَدَيْهِ إِلَىٰ رُفُوعٍ

وَرُفُوعٍ﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب العصا حية تسعى،

إخراج اليد من الجيب، فتخرج بياضا في جملة تسع آيات،

تذهب بها وتدعو فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، فسقوا

بشرهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في

الأرض بغير الحق.

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى

الله تعالى، وأراهم الآيات ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا بُدِّلُوا مَظْنِيَةً،

تدل على الحق، ويصير بها كما تبصر الأبصار بالشمس ﴿قَالُوا

هَذَا سِحْرٌ مُّزِيدٌ﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا:

﴿مُزِيدٌ﴾ ظاهر لكل أحد. وهذا من أعجب العجائب،

الآيات المبصرة، والأنوار الساطعات تجعل من أبين

الخزعبلات وأظهر السحرا! هل هذا إلا من أعظم المكابرة،

وأوقع السفسة.

﴿وَمِمَّنْ دَعَا إِلَىٰ الْكُفْرِ بآيات الله، جاحدين لها

﴿وَأَنفَيْتَنَاهَا أَفْهَمُ﴾ أي: ليس جحدهم مستندا إلى الشك

والريب، وإنما جحدهم مع علمهم، ويقينهم^(١) بصحتها

﴿فَلَمَّا﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم ﴿وَعَلَّاهُ﴾ على الحق وعلى

العباد، وعلى الانقياد للرسل ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ﴾ أسوأ عاقبة، دمرهم الله وغرقهم في البحر،

شهر، ورواحها شهر.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي أعطانا الله وفضلنا واختصنا به ﴿هُوَ أَفْضَلُ الْكُنُوزِ﴾ الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿وَحِشْرٌ لِّشَيْمَنْ جُودُهُ مِنْ آلَيْنِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزُونُ﴾ أي: جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة، من بني آدم، ومن الجن والشياطين، ومن الطيور فهم يوزعون، يدبرون، ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم، وحلهم وترحالهم قد استعد لذلك، وأعد له عدته. وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره، لا تقدر على عصيانه، ولا تمرد عنه، قال تعالى: ﴿هَذَا عَمَلُكَ فَاَنْتَ أَزْ أَتَيْكَ﴾ أي: أعط بغير حساب، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره ^(١).

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ خَسْبٍ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ منبهة لرفقتها وبني جنسها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِئُكُمْ شَيْئٌ وَخُودُهُمْ وَغَرٌّ لَا يَشْعُرُونَ﴾. فنصحت هذه النملة، وأسهمت النمل، إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعا خارقة للعادة، لأن التنبيه للنمل، الذي قد ملا الوادي بصوت نملة واحدة، من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل، ثم سري الخبر من بعضهم لبعض، حتى بلغ الجميع، وأمرتهن بالحدز، والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهن.

وعرفت حالة سليمان وجنوده، وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم، أنهم إن حطموكم، فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه.

﴿فَلَبَسَ ضَاجِجًا مِّن قَوْلِهَا﴾ إعجابًا منه بفصاحتها ^(٢)، ونصحها، وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم. كما كان الرسول ﷺ جُلَّ ضحكه التبسم، فإن الحقيقة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت. والرسول منزّهون عن ذلك.

وقال شاكرًا لله الذي أوصله إلى هذه الحال: ﴿رَبِّيَ أَرْزُقْنِي﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ بِمَنِّكَ الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد. فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته الدينية والدنيوية، عليه وعلى والديه ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: ووفقني أن أعمل صالحًا ترضاه، لكونه موافقًا لأمرك، مخلصًا فيه، سالمًا من المفسدات والمنقصات ﴿وَأَدْخُلْنِي رَحْمَتَكَ﴾ التي منها الجنة

وَحَدِّدُوا بِهَا وَاسْتَفِيتْهُمْ أَنْفُسَهُمْ ظِلْمًا وَعُلُوًّا فَاطْزَرَ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَؤُهَا النَّاسُ عِلْمًا مَّطَّقَ الطَّيْرَ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ ﴿١٧﴾ وَحِشْرٌ لِّشَيْمَنْ جُودُهُ مِنْ آلَيْنِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزُونُ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ خَسْبٍ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِئُكُمْ شَيْئٌ وَخُودُهُمْ وَغَرٌّ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ فَلَبَسَ ضَاجِجًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَرْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخُلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٠﴾ وَتَقَفَ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَىٰ الْهَدْيَ هَذَا أَمْ كَانَ مِنْ الْفَاسِيكِينَ ﴿٢١﴾ لِأَعْدَيْتُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذِخُّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطُّ بِهِ وَحِشْرُكَ مِنْ سَيِّئَاتِي بَرِّئِينَ ﴿٢٣﴾

﴿فِي﴾ جملة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فإن الرحمة مجمولة للصالحين، على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها. ثم ذكر نموذجًا آخر من مخاطبته للطير، فقال: ﴿وَتَقَفَ الطَّيْرُ﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتدييره بنفسه للأمور الصغار والكبار. حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تقف الطيور، والنظر هل هي موجودة كلها، أم مفقودة منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تقف الطير لينظر أين الهدد منها ^(٣)، ليده على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدد، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه.

أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والملاحظات، أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان

(١) في أ: في بعض في. (٢) في ب: بنصح أمثها. (٣) في ب: منه.

كذلك لذكره الله، لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللغوي فلو أريد هذا المعنى، لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقدته قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد» أو «بحث عنه» ونحو ذلك من العبارات. وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب، ولزومها للمراكز والمواضع التي عنها لها. وأيضاً فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد. فإن عنده من الشياطين والعقاريت، ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح، غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟! و

هذه التفسيرات التي توجد، وتشتهر بها أقوال، لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة، وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل، وينقلها المتأخر مسلماً للمقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الرديئة في التفسير ما يقع.

والليبب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين، الذي خاطب الله به الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني، التي لا تجهلها العرب العرياء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، ردّها إلى هذا الأصل. فإن وافقت قبلها، لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى، أو لفظاً أو معنى، ردّها وجزم بطلانها، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقد الهدهد، يدل على كمال حزمه وتدبيره الملك بنفسه، وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فَقَالَ مَا لَكَ لَأَأَيُّ أَلْمَدِّ هَذُمْ كَانَ مِنَ الْكَلْبِيِّينَ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه، لقلة فطنتي به، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟.

فحينئذ تغيط عليه وتوعده، فقال: ﴿لَأُعْرِضَنَّ عَنْكَ يَا شَكِيداً﴾ دون القتل، ﴿أَوْ لَأَأْتِيَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِشَاطِلَيْنِ شَيْنٍ﴾ أي: حجة واضحة على تخلفه. وهذا من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب. وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استأنه لورعه وفطنته.

﴿فَمَكَتْ فَجَرَّ بِمِعْدٍ﴾ ثم جاء، وهذا يدل على هبة^(١) جنوده

منه، وشدة اتحارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على التخلف زمناً كثيراً ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان ﴿أَحْطَطَ بِمَا لَمْ يَحِطُ بِهِ﴾ أي: عندي من العلم، علم ما أحطت به، على علمك الواسع، وعلو درجتك فيه ﴿وَيَسْئَلُكَ مِنْ سَكِّ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿يَبْنَ يَبْنَ﴾ أي: خبر متيقن.

ثم فسر هذا النبا فقال: ﴿إِنِّي وَدِدْتُ أَمْرَةً تَنْصَلُكُمْ﴾ أي: تملك قبيلة سبا، وهي امرأة ﴿وَأُرِيتُ مِنْ كُنْزٍ شَرِّهِ﴾ يؤثاه الملوك، من الأموال، والسلاح، والجنود، والحصون، والقلاع ونحو ذلك ﴿وَلَمَّا عُرِّشَ عَظِيمٌ﴾ أي: كرسي ملكها، الذي تجلس عليه، عرش هائل. وعظم العروش يدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

﴿وَيَدْعُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هم مشركون يعبدون الشمس ﴿وَوَيَّزَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فرأوا ما هم عليه هو الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لأن الذي يرى أن الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

ثم قال: ﴿الْأَرْضِ﴾ أي: هلا ﴿يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم الخفي الخبيء، في أقطار السموات، وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات، وبذور النباتات، وخفايا الصدور. ويخرج خبء الأرض والسماء، بإنزال المطر، وإنبات النبات، ويخرج خبء الأرض عند الفسخ في الصور، وإخراج الأموات من الأرض، ليجازيهم بأعمالهم ﴿وَيَمَكِّرُ مَا نَحْنُونَ وَمَا نَعْلَمُونَ﴾.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تنبغي العبادة، والإلابة، والذل، والحب، إلا له، لأنه المألوه، لما له من الصفات الكاملة، والنعم الموجبة لذلك ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات ووسع الأرض والسموات. فهذا الملك عظيم السلطان، كبير الشأن، هو الذي يدل له ويضع، ويسجد له ويركع، فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبا العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه.

وقال مثبِتاً لكمال عقله ووراثته: ﴿مَنْظَرٌ أَسَدَفَتْ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْكَلْبِيِّينَ﴾ ○ أَهَبَ يَكْبِي كَذَا: وسباني نصه ﴿فَأَقْبَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَوْلَ عَنْهُمْ﴾ أي: استأخر غير بعيد ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ إليك وما يترجعون به.

فذهب به فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إِنِّي أُنَبِّئُكُمْ بِكَبِيرٍ﴾ أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك الأرض.

(١) كذا في ب، وفي أ: هيبته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثُمَّ بَيَّنْتَ مَضْمُونَهُ فَقَالَتْ: ﴿إِنَّهُ مِنْ شَيْئَيْنِ وَلَئِنْ يَسِّرَ اللَّهُ
الْأَمْرَ لِرَجِيمٍ ۝ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَنُؤِي مَسْلُوبِينَ﴾ أَي: لَا تَكُونُوا
قَوِيًّا، بَلْ اخْضَعُوا تَحْتَ سُلْطَانِي، وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِي،
وَاقْبَلُوا إِلَيَّ مُسْلِمِينَ.

وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام، فإنه تضمن نهيهم
عن العلو عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانتقاد
لأمره، والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه، ودعوتهم إلى
الإسلام. وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة،
وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.

فمن حزمها وعقلها، أن جمعت كبار دولتها، ورجال
مملكها وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْئُوتِي فِي أَمْرِي﴾ أَي: أَخْبِرُونِي،
مَاذَا نَجِيهِ بِهِ؟ وَهَلْ نَدْخُلُ تَحْتَ طَاعَتِهِ، وَنَقْدَاقُ؟ أَمْ مَاذَا
نَفْعُلُ؟ ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُون﴾ أَي: مَا كُنْتُ مُسْتَبِدَّةً
بِأَمْرٍ دُونَ رَأْيِكُمْ وَمَشُورَتِكُمْ.

فـ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْءٍ﴾ أَي: إِنْ رَدَدْتَ عَلَيْهِ
قَوْلَهُ، وَلَمْ تَدْخُلِي فِي طَاعَتِهِ، فَإِنَّا أَقْوَىٰ عَلَى الْقِتَالِ، فَكَأَنَّهُمْ
مَالُوا إِلَىٰ هَذَا الرَّأْيِ، الَّذِي لَوْ تَمَّ لَكَانَ فِيهِ دِمَارُهُمْ. وَلَكِنَّهُمْ
أَيْضًا لَمْ يَسْتَقِرُّوا عَلَيْهِ، بَلْ قَالُوا: ﴿الْأَمْرُ إِلَيْنَا﴾ أَي: الرَّأْيُ مَا
رَأَيْتَ، لَعَلَّهْمُ بِعَقْلِهِا، وَحُزْمِهَا، وَنَصَحِهَا لَهُمْ ﴿فَانْظُرِي﴾ نَظَرَ
فَكَّرَ وَتَدَبَّرَ ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

فَقَالَتْ لَهُمْ - مُقْنَعَةً لَهُمْ عَنْ رَأْيِهِمْ، وَمُبَيِّنَةً سَوْءَ مَغْيَةِ الْقِتَالِ
- ﴿إِنَّ الْمَلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَاسْرَبُوا، وَنَهَبُوا
أَمْوَالَهَا، وَتَخَرَّبُوا بُيُوتَهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا أَوَّلَةً﴾ أَي:
جَعَلُوا الرُّؤَسَاءَ السَّادَةَ أَشْرَافَ النَّاسِ مِنَ الْأَذْلَى، أَي: فَهَذَا
رَأْيِي غَيْرُ سَدِيدٍ. وَأَيْضًا فَلَسْتُ بِمُطِيعَةٍ لَهُ قَبْلَ الْإِخْتِيَارِ،
وَأَرْسَالِ مَنْ يَكْشِفُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَيَتَدَبَّرُهَا. وَحِينَئِذٍ تَكُونُ عَلَى
بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِنَا، فَقَالَتْ: ﴿وَلَيْلِي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةً ۚ يَم
يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ مِنْهُ. هَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى رَأْيِهِ وَقَوْلِهِ؟ أَمْ تَخْذَعُهُ
الْهَدِيَّةُ، وَتَبْدِلُ فِكْرَتَهُ، وَكَيْفَ أَحْوَالُهُ وَجُودُهُ؟

فَارْسَلَتْ لَهُ هَدِيَّةً، مَعَ رَسَلٍ مِنْ عَقْلِهَا قَوْمِهَا، وَذَوِي الرَّأْيِ
مِنْهُمْ ﴿فَقَالَا سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أَي: جَاءَهُ الرِّسَالُ بِالْهَدِيَّةِ ﴿قَالَ﴾ مُتَكَبِّرًا
عَلَيْهِمْ وَمَتَعَبِّطًا عَلَىٰ عَدَمِ إِجَابَتِهِمْ: ﴿أَتُؤَدَّبُنِي بِسَالٍ قَمًّا مَاتَنَ
اللَّهُ خَيْرٌ مِنَّا مَاتَنَكُمُ﴾ فَلَيْسَتْ تَقَعُ عِنْدِي مَوْقَعًا، وَلَا أَفْرَحُ بِهَا،
قَدْ أَغْنَانِي اللَّهُ عَنْهَا، وَأَكْثَرُ عَلَيَّ النِّعَمَ ﴿بَلْ أَشْرَ عِدَّتُكُمْ فَنَظِرُونَ﴾
لِحُكْمِ الدُّنْيَا، وَقَلَّةِ مَا بِأَيْدِيكُمْ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَعْطَانِي اللَّهُ.

ثُمَّ أَوْصَى الرَّسُولَ مِنْ غَيْرِ كِتَابٍ، لِمَا رَأَى مِنْ عَقْلِهِ، وَأَنَّهُ
سَيَنْقَلُ كَلَامُهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: ﴿اتَّبِعِ إِلَيْهِمْ﴾ أَي: بِهَدِيَّتِكَ
﴿فَلَمَّا بَلَغْتُمْ بِحُزْنٍ إِلَى قَلْبِكُمْ﴾ أَي: لَا طَاقَةَ لَهُمْ ﴿بِهَا وَكُنْزِيَّتِهِمْ

يَنْبَأُ أَوْلَةً ۖ وَمِمَّا سَكَّرَتْهُمُ﴾ فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ، وَأَبْلَغَهُمْ مَا قَالَ سُلَيْمَانُ،
وَتَجَهَّزُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى سُلَيْمَانَ. وَعَلِمَ سُلَيْمَانُ أَنَّهُمْ لَا بَدَ أَنْ
يَسِيرُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ:

﴿إِنَّا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مَسْلُوبٌ﴾ أَي: لِأَجْلِ أَنْ
تَنْصَرِفَ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَسْلُمُوا، فَتَكُونَ أَمْوَالُهُمْ مُحَرَّمَةً ﴿قَالَ
عِفْرِيتٌ مِنْ لَجِينٍ﴾ وَالْعَفْرِيتُ هُوَ الْقَوِيُّ الشَّيْطَانُ جَدًّا.

﴿لَمَّا تَمَّ إِلَيْكَ بِرِدِّ قَبْلِ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾
وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ إِذَا ذَاكَ فِي الشَّامِ، فَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَبَا
نَحْوَ مَسِيرَةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، شَهْرَانِ ذَهَابًا، وَشَهْرَانِ إِيَابًا، وَمَعَ
ذَلِكَ يَقُولُ هَذَا الْعَفْرِيتُ: أَنَا أَلْتَزِمُ بِالْمَجِيءِ بِهِ، عَلَى كِبَرِهِ
وَقَلْعِهِ وَبُعْدِهِ، قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ.
وَالْمَعْنَى مِنَ الْمَجَالِسِ الطَّوِيلَةِ، أَنْ تَكُونَ مَعْظَمُ الضُّحَى، نَحْوَ
ثَلَاثِ يَوْمٍ، هَذَا نَهَايَةُ الْمَعْتَادِ، وَقَدْ يَكُونُ دُونَ ذَلِكَ، أَوْ أَكْثَرَ.

وهذا الملك العظيم، الَّذِي عِنْدَ أَحَادِ رَعِيَّتِهِ هَذِهِ الْقُوَّةُ
وَالْقُدْرَةُ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ ﴿قَالَ الْكَلْبُ عِنْدَ عِلٍّ مِنْ الْكَلْبِ﴾
قَالَ الْمَفْسُورُونَ: هُوَ رَجُلٌ عَالِمٌ صَالِحٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ يُقَالُ لَهُ:
«أَصْفَ بْنَ بَرْخِيَا» كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٨٠

سورة النمل

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَسْبَدُ وَإِنِّي يَمَالِي فَمَاءَ آتَنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِحِجَابِكُمْ تُفَرِّحُونَ ﴿٣٧﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخِزْيُونٍ لَّا يَدْرِيهِمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ يَٰأَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَرْضَ إِنِّي نَادِيَنَّكُمْ بِآيَاتِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتَوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِي لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤١﴾ وَكُنْتُمْ أَتَىٰ الشُّكْرَ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنِّي غَیٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٢﴾ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَنْهَدُونَ أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْرَثْنَا الْعُلَمَاءُ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتِ إِنَّهُ صَرْحٌ مَُّرْدٌّ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

وخطتهم، من أندر ما يكون، فلها لا يستغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يهر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهو المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحته الأنهار.

ف ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ قِيلَ لَهَا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ماء، لأن القوارير شفاقة، يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ للخيضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستعذ إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء، بعد ما رأت ما رأت.

فلما استعدت للخوض قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مَُّرْدٌّ﴾ أي: ممسك ﴿مِن قَوَارِيرٍ﴾ فلا حاجة منك لكشف الساقين. فحينئذ لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها، و﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

به أجاب، وإذا شئ به أعطى ﴿أَنَا إِلَيْكَ بِه﴾ قِيلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم، هل هذا المراد، أم أن عنده علماً من الكتاب، يقتدر به على جلب العبد، وتحصيل الشديدي؟ ﴿فَلَمَّا رَدَّ﴾ سليمان ﴿مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ حمد الله تعالى على إقداره وملكه، وتيسير الأمور له، و ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِي رَبِّي لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة.

ثم بين أن الشكر لا يتنفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَنْتَكِرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للزيد منها، وكفرها داع لزوالها.

ثم قال لمن عنده: ﴿نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيروها بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿نَنظُرْ﴾ مختبرين لعقلها ﴿أَتَنْهَدُونَ﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهداً به، قد خلفته في بلدها. و ﴿قِيلَ لَهَا﴾ أَمَّا كَذًا عَرْشُكَ﴾ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتذكير، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفت. فأنت بلفظ محتمل للامرين، صادق على الحالين. فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاها أعظم منها: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْوَلَدَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: الهداية، والعقل، والحزم، من قبل هذه الملكة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: «وأورثنا العلم عن ملك سليمان وسلطانه، وزيادة اقتداره، من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأخذنا له، وجئنا مسلمين له، خاضعين لسلطانه».

قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: عن الإسلام وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿وَأَنَّى كُنْتَ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم

نَقَى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ .

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير للكلام الله، وهو من الأمور التي يتوقف^(١) الجزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم. والمتفولات في هذا الباب كلها أو أكثرها، ليس كذلك. فالجزم كل الجزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفسير، والله أعلم.

(٤٥-٥٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اقْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَيِّكَنَ بِتَحِيصُونَ﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة، أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان ﴿فَإِذَا هُمْ فَيِّكَنَ بِتَحِيصُونَ﴾ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

﴿قَالَ يَنْفِرُوا لِمَا تَشْعَلُونَ﴾ بِالسَّيْفَةِ قَبْلَ الْحَسَةِ ﴿أَي: لِم تبادرون فعل السيات ونحروصون عليها، قبل فعل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيات؟ ﴿لَوْ لَا تَسْتَفْهِرُونَ اللَّهَ﴾ بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

﴿قَالُوا﴾ لنبههم صالح، مكذبين ومعارضين: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَصِيٌّ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ آتَاكُمْ هَذَا السَّيْفَ﴾ - أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سبباً لمنع بعض مطالبهم الدنيوية. فقال لهم صالح: ﴿طَلَبْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تفلحون وتتوبون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابله به.

﴿وَكُنَّا فِي الْآيَةِ﴾ التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه ﴿يَسْمَعُ رَهْطٌ يُبْسِلُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا للمعاداة صالح، والظعن في دينه، ودعوة قومهم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ النَّبِيِّينَ﴾ الَّذِينَ يُبْسِلُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ.

فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة، حتى إنهم من عداوتهم ﴿تَنَاسَوْا﴾ فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِهَلْ لَكُمْ مِنْ أَهْلٍ﴾ أي: نأتي^(٢) ليلاً، هو وأهله، فلنقتلهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِزُلَيْكَةِ﴾ إذا قام علينا، وأدعى علينا أننا قتلناه، ننكر ذلك،

الْبَيْتُ الْخَامِسُ

٣٨١

سُورَةُ النَّمْلِ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَيِّكَنَ بِتَحِيصُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفِرُوا لِمَا تَشْعَلُونَ بِالْأَسْيَةِ قَبْلَ الْحَسَةِ لَوْ لَا تَسْتَفْهِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعُوا نَايِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَاعْتَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْعَةٌ رَهْطٌ يُبْسِلُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَقَاسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِزُلَيْكَةِ مَا شِئْنَا مِنْهُ لِكَيْ نَمُوتَ وَأَهْلِيهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرًا أَمْكُرًا وَمَكْرًا أَمْكُرًا وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَادَرْتُمْ عَنْهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ يَبُوءُتُهمْ خَاويَةً يُمَاطِلُمُونَكَ فِي ذَلِكَ لِآيَةِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَشْكُرُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ لَمْ يَأْكُلْ لِقَوْمِهِمْ أَنَّا تَوَكَّلْنَا عَلَى الْحَشَّةِ وَأَنْتُمْ بَصِيرُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَيْسَ لَكُمْ لَنَا تُونَ الرِّجَالِ شُهُوءٌ مِمَّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾

ونفيه ونحلف ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فتواطؤوا على ذلك ﴿وَنَكُرُوا مَكْرًا﴾ دبوا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى [من] قومهم، خوفاً من أوليائه ﴿وَنَكُرُوا مَكْرًا﴾ بنصر نبينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتفض عليهم الأمر. ولهذا قال: ﴿أَنَّا دَرَرْتُمْ عَنْهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أهلكتناهم، واستاصلنا شأفتهم. فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم.

﴿فَتِلْكَ يَبُوءُتُهمْ خَاويَةً﴾ قد تهدمت جدرانها على سفوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازلها ﴿يَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيرهم في الأرض.

﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لِآيَةٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق، ويتدبرون

(١) في الأصل: يقف. (٢) في ب: لتأتيهم.

دوهم، واشتد الأمر عليه. ثم أخبرته الملائكة عن جليلة الحال، وأنهم جاءوا لاستنقاذ وإخراجهم من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح. وأمروه أن يسري بأهله ليلاً، إلا امرأته، فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً فنجوا، وصحبهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك.

ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمَّا نَارُكَ عَلَيْهِمْ مَطَرُ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُتَدِينِ﴾ أي: بش المطر مطرهم، وبش العذاب عذابهم، لأنهم أُنذروا وخوفوا، فلم يترجوا ولم يرددوا، فأحل الله بهم عقابه الشديد.

(٥٩) ﴿قُلِ الْمَسْئُورَةُ رَبِّكَ سَلَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا أَنَّهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ يُشْرِكُونَ﴾ أي: قل ﴿الْحَسَنُ لِلَّهِ﴾ الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء، لكمال أوصافه، وجميل معرفته، وهباته وعدله، وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين. وسلم أيضاً على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله من العالمين. وذلك لرفع ذكركم، وتوحيها بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقاظ والعيوب.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف. أي: الله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم اللطاف، خير أم الأصنام والأوثان التي عبدها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف، ويتبين أنه الإله المعبود، وأن

عبادته هي الحق، وعبادة [ما] سواء هي الباطل فقال:

(٦٠) ﴿أَتَنْتَبِهُونَ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَنْثَى وَارْتِكَابَ لَكُمْ مِنْ أَسْكَاءَ مَا قُلْتُمْ بِرَبِّكُمْ ذَلِكَ بَهْجَةٌ مَا كُنْتُمْ لَكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا سَخَرَهَا إِلَهُكُمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ﴾ أي: من خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة والأرض وما فيها، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك؟

﴿وَارْتِكَابَ لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم ﴿مِنْ أَسْكَاءَ مَا قُلْتُمْ بِرَبِّكُمْ سَخَرَهَا﴾ أي: بساتين ﴿ذَلِكَ بَهْجَةٌ﴾ أي: حسن منظر، من كثرة أشجارها وتنوعها، وحسن ثمارها ﴿مَا كُنْتُمْ لَكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا﴾

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بَلْ أَتَتْ قَوْمٌ تُشْرِكُونَ﴾ وفسرها على هذا، فصحت الآية وأبقت التفسير كما هو.

وقائع الله في أولياته وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل، النجاة والفوز.

ولهذا قال: ﴿وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: أنبئنا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

(٥٤-٥٨) ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِصُوبِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ وَأَنْتُمْ مُبْتَلَوْنَ﴾ إلى آخر القصة. أي: واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً، ونباه الفاضل، حين قال لقومه - داعياً لهم إلى الله وناصحاً -: ﴿أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ﴾ أي: الفعل الشنعاء التي تستفحشها العقول والفطر، وتستبجحها الشرائع ﴿وَأَنْتُمْ مُبْتَلَوْنَ﴾ ذلك، وتعلمون قبجه، فعاذتم، وارتكبتم ذلك، ظلماً منكم وجراً على الله.

ثم فسر تلك الفاحشة فقال: ﴿إِنَّمَا تَأْتُونَ إِلَهًا كَمَا تَهْوَى مِنْ دُونِ إِلَهِكُمْ﴾ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال، وأدبارهم محل الغائط والنَّجْوِ والخبث، وتركتهم ما خلق الله لكم من النساء، من المحال الطيبة التي جبلت النفوس إلى الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستبجستم الحسن ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَالَتِكُمْ﴾^(١) مجاوزون لحود الله، متجرؤون على محارمه.

﴿فَمَا كُنْتُمْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده. فما كان جواب قومه ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلْ لُوطِي مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾.

فكانه قيل: ما نغتم منهم، وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج، فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنَا بِلَهْمُكُمْ نَبَاهُ﴾ أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور. فحبهم الله، جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقيح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجهم، والبلاء موكل بالمنطق، فهم قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّمَا أَنَا بِلَهْمُكُمْ نَبَاهُ﴾.

ومفهوم هذا الكلام «أنتم متلونون بالخبث والقدر، والمقتضي لنزول العقوبة بقرينكم، ونجاة من خرج منها».

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنبِئْنَا وَهَلَكُوا إِلَّا أَمْرًا مِمَّا قَدَرْنَا مِنْ الْفِتْنَةِ﴾ وذلك لما جاءت الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب

الْمُتَكَبِّرِينَ

٢٨٢

الْمُتَكَبِّرِينَ

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالَ الْوَاخِرُ أَيْسَرُ وَلَا أُخِيرُ﴾^(٦١) فَأَجَبَتْهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَعَاهَدَ قُلُوبُهَا مِنَ الْغَيْبِ ﴿٦٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرُ مَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِصَ ذَاتٍ بِهَجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٦٥﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ فِي زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ، وَشَرِبِهِمْ وَشَرَبَ مُوْاشِيَهُمْ، وَجَعَلَ لَهَا رَوْسًا أَيْ: جبالاً ترسيبها وتثبتها، لئلا تميد، وتكون أوتاداً لها، لئلا تضطرب ﴿٦٦﴾ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ أَلْحَقًا الْمَالِحَ وَالْبَحْرَ الْعَذْبَ ﴿٦٧﴾ حَاجِزًا يَمْنَعُ مِنْ اخْتِلَاطِهِمَا، فَتُفَوَّتِ الْمَنْفَعَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْ كُلِّ مَنِمَةٍ، بَلْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزًا مِنَ الْأَرْضِ، جَعَلَ مَجْرَى الْأَنْهَارِ فِي الْأَرْضِ مُبْعَدًا عَنِ الْبَحَارِ، فَيَحْصِلُ مِنْهَا مَقَاصِدُهَا وَمَصَالِحُهَا ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون بالله تقليدًا لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئًا.

تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴿٦١﴾ لولا يئنه الله عليكم بإنزال المطر ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل هذه الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به؟
﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

(٦١) ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ فِي زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ، وَشَرِبِهِمْ وَشَرَبَ مُوْاشِيَهُمْ، وَجَعَلَ لَهَا رَوْسًا أَيْ: جبالاً ترسيبها وتثبتها، لئلا تميد، وتكون أوتاداً لها، لئلا تضطرب ﴿٦٦﴾ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ أَلْحَقًا الْمَالِحَ وَالْبَحْرَ الْعَذْبَ ﴿٦٧﴾ حَاجِزًا يَمْنَعُ مِنْ اخْتِلَاطِهِمَا، فَتُفَوَّتِ الْمَنْفَعَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْ كُلِّ مَنِمَةٍ، بَلْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزًا مِنَ الْأَرْضِ، جَعَلَ مَجْرَى الْأَنْهَارِ فِي الْأَرْضِ مُبْعَدًا عَنِ الْبَحَارِ، فَيَحْصِلُ مِنْهَا مَقَاصِدُهَا وَمَصَالِحُهَا ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون بالله تقليدًا لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئًا.

(٦٢) ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمُ خَلْقًا سُوءًا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ يَلْجَأُ مَاءً تَدْكُرُونَ﴾ أي: هل يجب المضطر الذي أفلقت الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والفتنة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سميعكم، ويأتي بقرآنكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئًا من ذلك، حتى ياقراركم أيها

المشركون، ولهذا كانوا إذا ساء لهم، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقدر على دفعه وإزالته ﴿وَقِيلَ مَا تَدْكُرُونَ﴾ أي: قليل تذكركم وتديركم للأمور التي إذا تذكروها أذكركم ورجعتم إلى الهدى. ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما ارفعوهم، ولا اهتديتم.

(٦٣) ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

أي: من هو الذي يهديكم، حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تولفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستبشرو بذلك العباد قبل نزول المطر ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعظم وتنزه وتقدس عن شركهم، وتسويتهم به غيره.

(٦٤) ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ يُرْفَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاسَاؤُا يُفْتَنُكُمُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، ويستبدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرفعكم من السماء والأرض بالمطر والنبات؟ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قُلْ هَاسَاؤُا يُفْتَنُكُمُ﴾ أي: حجتكم ودليكم على ما قلتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإلا، فبتقدير أنكم تقولون: إن

الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوى، صدّقوها ببرهان، وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون، لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات، وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

(٦٥-٦٨) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ إِذَا يَسْعَوْنَ ۚ بَلِ أَنْتُمْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۚ بَلْ هُمْ فِيهَا عَمَوْنَ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوَدَا كُنَّا نَمُرُّهَا وَعَمَا ذَاتُهَا لِنَمْلِكُنَّ ۚ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السموات والارض، كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يُعَلِّمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْطُرُ مِنْ دُونِهَا إِلَّا بِعِلْمِهَا وَلَا حَبْرَ فِي عِلْمِتِ الْأَرْضِ وَلَا رُحْرَ وَلَا يَابِسَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَنْحَامِ﴾ إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها، اخصص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل. وإذا كان هو المفرد بعلم ذلك، المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا، فهو الذي لا يتبعي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَي: وما يدرون ﴿يَأْتَانِ يَمُوتُونَ﴾ أي: متى البعث والنشور، والقيام من القبور، أي: لذلك لم يستعدوا ﴿بَلْ أَنذَرْنَاهُمْ فِي آلِئِخْرَةِ﴾ أي: بل ضعف وقَلْ ولم يكن يقيناً، ولا علماً وصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم. ضعفه وهماؤه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما ﴿هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك ﴿بَلْ لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: من الآخرة ﴿عَمُونَ﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها. ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَهَبَالًا إِنَّنَا لَمُحْضُونَ﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة، بقدرهم الضعيفة.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿وَعَزَّزْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: فلم يجتنا، ولا رأينا منه شيئاً ﴿إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْمَارُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكثنين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم

٣٨٣
 أَمَّنْ يَدُ الْخَلْقِ ثُمَّ يَعْبُدُهِ، وَمَنْ يَرْفُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾
 قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَتَانَهُمْ يَعْتُوثُ ﴿١٦﴾ بَلِ أَذْكَرَ لِعِلْمِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
 فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا إِنَّمَا الْمَرْجُوعُ ﴿١٨﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
 هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٩﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
 ﴿٢٠﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ عَسَى
 أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَعَلَّامٌ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِمَّنْ غَابَتْ
 فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كَنْبٍ مُبِينٍ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَذَا الْفَرْعَانَ
 يَبِضُّ عَلَىٰ نَفْسٍ إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٧﴾

فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عسى، ثم الإخبار بأنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وسيب هذه الأحوال ترحل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، ففسدوا دينهم وآخرهم.

(٦٩) ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال: **﴿لَقَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾** فلا تجدون مجرمًا قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شرٌ عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٠-٧٢﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَقُولُوا مَعَ هَذَا الْوَعْدِ إِنَّ كُهُم مُّصَدِّقُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْدٌ
لَّكُمْ بِشَيْءٍ آخَرَ يَسْتَعْبِلُونَهُ ﴿٧٢﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء
المكذّبين، وعدم إيمانهم! فإنك لو علمت ما فيهم من الشر،
وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضر
صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته
عليهم ﴿يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمُنْكَرِينَ﴾

وحصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لخفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلاق فأذعنوا له ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلًا بما علمه فيه.

(٧٩-٨١) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝ إِنَّكَ لَا تُشِيعُ الْمَوْتَ وَلَا تُشِيعُ الْحَيَاةَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الشَّيْءِ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنَّهُنَّ لِأَمْثَلُ مِنِّي شَيْعًا ۝ وَمَا أَنتَ بِمُحْسِنٍ ۝ أَي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالترك، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضًا، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه. وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُشِيعُ الْمَوْتَ وَلَا تُشِيعُ الْحَيَاةَ﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصًا ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الشَّيْءِ عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿إِنَّ شَيْعًا لِأَمْثَلُ مِنِّي يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين يتفادون لك، الذين يؤمنون بآيات الله، وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَحْشُرُهُمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجُوعُهُمْ﴾.

(٨٢) ﴿وَلَا تَقْعُ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله، وفرض وقته ﴿أَخْرَجَهُمْ دَابَّةً﴾ خارجة ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله. فآظهر الله هذه الدابة، من آيات الله العجيبة، ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.

وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراف الساعة، كما تكاثر بذلك الأحاديث، ولوم بات دليل يدل على كيفيتها، ولا من أي نوع هي، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكلم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة

ويقول المكذبون بالمعاد، وبالحق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدره، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى محذرًا لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَوْقٌ لَكُمْ﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب. (٧٣-٧٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ سُدُورُهُمْ وَمَا يُعْتَدِلُ فِي أَمْنِهِمْ فِي الْآيَاتِ وَلَا فِي كِتَابِ مُبِينٍ﴾ بينه عباده على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعيم عن النعم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ أي: تنطوي عليه ﴿سُدُورُهُمْ وَمَا يُعْتَدِلُ﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه. ﴿وَمَا مِنْ ظِلَّةٍ فِي أَمْنِهِمْ وَلَا يُعْلَمُ إِلَّا فِي كِتَابِ مُبِينٍ﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إِلَّا فِي كِتَابِ مُبِينٍ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلبي أو خفي إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

(٧٦، ٧٧) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَيِّنٍ مِّنْ رَّبِّهِمْ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَمُهْمَلُونَ﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقضه هذا القرآن قضا زال به الإشكال وبين الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر.

ولهذا بين أن نفعه ونوره وهده مخصص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ من الضلالة والغي والشبه ﴿وَوَحْمَةٌ﴾ تتلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، المصدقين له، المتلتقين له بالقول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المخضعين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط. فالأمور وإن

على صدق ما أخبر الله به في كتابه، والله أعلم^(١).

(٨٣-٨٥) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ وَيَابِتَانَا فَهُمْ يَوْمَئِذٍ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْثَلًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَبْقَیُونَ﴾
يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم، ويحشر من كل أمة من الأمم فوجًا وطائفة ﴿مِمَّنْ يَكْذِبُ وَيَابِتَانَا فَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم، ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو وَحَضَرُوا، قَالَ لَهُمْ مَوْجِبًا وَمَقَرًّا: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا﴾ العلم، أي: الواجب عليكم التوقف، حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علمًا؟ ﴿أَمْثَلًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمهم تكذيبًا بالحق، وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه، وتوجهت عليهم الحجة ﴿فَهُمْ لَا يَبْقَیُونَ﴾ لأنه لا حجة لهم.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لَيْسَ كُفَّارِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا لِّكُلِّ فِي ذَلِكَ لَآئِبَةٍ لِّقَوْمٍ يُوْمِنُونَ﴾ أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة، والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار. هذا بظلمته، ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب، ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه، ليتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم ﴿لِكُلِّ فِي ذَلِكَ لَآئِبَةٍ لِّقَوْمٍ يُوْمِنُونَ﴾ على كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

(٨٧-٩٠) ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَتَنَّا مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ دَٰخِرِينَ﴾ وَرَوَى الْجَلَالُ حَسْبَ جَلِيدَةٍ وَفِي تَمَرٍ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ فِي فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ مَا يَشْعُرُونَ ۝ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ وَكُنْتُمْ تَوَّعُّهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يخوف تعالى عباده، ما أمامهم من يوم القيامة، وما

فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَتَنَّا مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: انزعجوا وارناعوا، وماج بعضهم ببعض، خوفًا مما هو مقدمة له ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن أكرمه الله، وشيئه، وحفظه من الفزع ﴿وَكُلُّ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أَتَوٍّ دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آتَىٰ الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والرؤوسون في الدل والخضوع لمالك الملك.

وَلَهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْفَ وَلَا تَسْمَعُ الدَّعَاءَ إِذَا وَلُوا دُونَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَتَىٰ بِهَدًى الْمُتَمَنَّىٰ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَاهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ وَيَابِتَانَا فَهُمْ يَوْمَئِذٍ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْثَلًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَبْقَیُونَ ﴿٨٤﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لَيْسَ كُفَّارِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا لِّكُلِّ فِي ذَلِكَ لَآئِبَةٍ لِّقَوْمٍ يُوْمِنُونَ ﴿٨٥﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَتَنَّا مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ دَٰخِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَرَوَى الْجَلَالُ حَسْبَ جَلِيدَةٍ وَفِي تَمَرٍ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٧﴾

ومن قوله أنك ﴿تَرَى الْجَلَالَ حَسْبَ جَلِيدَةٍ﴾ لا تفقد [شيئا] منها، وتظنها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأحوال كل مبلغ، وقد تفتت، ثم تضمحل، وتكون هباء منبثًا، ولهذا قال: ﴿وَرَوَى تَمَرٍ مَرَّ السَّحَابِ﴾ من خفتها، وشدة ذلك الخوف، وذلك ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ثم بين كيفية جزائه فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ اسم جنس يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ هذا أقل التفضيل^(٢).

﴿وَهُمْ فِي فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ مَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفزعون معهم.

(١) ما بين القوسين المرتكين زيادة من هامش أ بخط الشيخ - رحمه الله -، وفي ب زيادة أخرى، يبدو أنها بخطه - رحمه الله - هي: (لم يذكر الله ورسوله، كيفية هذه الدابة. وإنما ذكر أثرها والمقصود منها وأنها من آيات الله، تكلم الناس كلامًا غارًا للعادة، حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله، فكانت حجة وبرهانًا للمؤمنين، وحجة على المعتاندين.) (٢) سبق قلم الشيخ إلى آية الأنعام ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَاءِ﴾ وعليه فسرنا.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرَجٍ يَوْمَذِي آمُوتُونَ﴾ (٨٩)
 وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْزَوْنَ
 إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبِدَ رَبُّكَ هَكَذَا
 الْبَلَدُ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُذْذِبِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ سَيُرِيدُكَ آيَاتُهُ فَعَرُوفُهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 طَسَدَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا عَلَيْهِكَ
 مِنْ نُبَأٍ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ وَالْحَقَّ لِقَوْمِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
 فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ
 طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَ هَمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَ هَمْ إِنَّهُ كَاك
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِيكُ اسْتَضَعِفُوا
 فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

هباته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه
 للمقبلين، وممد مائدة خبراته ومبراته للمتفكرين، والحمد لله
 رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعه ومعلمه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
 السعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. وذلك في
 ٢٢ رمضان سنة ١٤٤٣ هـ.

المجلد السادس من تفسير الكريم الرحمن في تفسير
 كلام الصنان، من منن الله على العبد الفقير إلى المعيد
 المبدى، عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن
 ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له. آمين.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ اسم جنس، يشمل كل سيئة ﴿فَكَيْتٌ﴾
 وَيُؤْمِنُهُمْ فِي النَّارِ، أي: القوا في النار على وجوههم، ويقال
 لهم: ﴿هَلْ تُخْزَوْنَ﴾ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

(٩١-٩٣) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبِدَ رَبُّكَ هَكَذَا الْبَلَدُ الَّذِي
 حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَأَنْ أَتْلُو
 الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ
 الْمُذْذِبِينَ ﴿٩١﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيدُكَ آيَاتُهُ فَعَرُوفُهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا
 تَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبِدَ رَبُّكَ هَكَذَا
 الْبَلَدُ﴾ أي: مكة المكرمة التي حرّمها وأنعم على أهلها،
 فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من
 العلويات والسفليات، أتى به لتلا يتوهم اختصاص ربوبيته
 بالبيت وحده ﴿وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١) أي: أبادر
 إلى الإسلام. وقد فعل ﷺ، فإنه أول هذه الأمة إسلامًا،
 وأعظمها استسلامًا.

﴿و﴾ أمرت أيضًا ﴿أَنْ أَتْلُو﴾ عليكم ﴿الْقُرْآنَ﴾ لتهتدوا به
 وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه، فهذا الذي عليّ وقد أدبته.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته
 عائدة إليه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُذْذِبِينَ﴾ وليس بيدي من
 الهداية شيء.

﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن
 جميع الخلق. خصوصًا أهل الاختصاص والصفوة من عباده،
 فإن الذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والثناء على ربهم،
 أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه،
 وكثرة خيراته عليهم.

﴿سَيُرِيدُكَ آيَاتُهُ﴾ فَعَرُوفُهَا معرفة تدلّكم على الحق
 والباطل. فلا بد أن يريكم من آياته ما تستترون به في
 الظلمات ﴿يَهْتَدِيكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَكَّ عَنْ
 بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من
 الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال،
 وسيحكم بينكم حكمًا تحمّدونه عليه، ولا يكون لكم حجة
 بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانه وتيسيره.

ونسأله تعالى أن لا تزال ألطافه ومعونه مستمرة علينا،
 وواصله منه إلينا. فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين،
 وموصل المتقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور
 العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزئ في جميع الأوقات

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: (وأمرت أن أكون أول
 المسلمين) وعلى هذا غر الآية.

تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ للارض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَتُكَيِّدُكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلق بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته.

﴿وَرُو﴾ كذلك نريد أن ﴿تُرَىٰ رُفُوعَتُكُمْ وَهُكُنَّ﴾ وزيره ﴿يُتَوَدَّعُكُمْ﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبعثوا ﴿وَتُنْهَمُ﴾ أي: من هذه الطائفة المستضعفة ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في جمعهم، وكسر شوكتهم، وقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك. فكل هذا قد أَرَادَهُ الله، وإذا أراد أمراً، سهّل أسبابه، ونهّج طريقه. وهذا الأمر كذلك، فإنه قَدَّرَ وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود. فأول ذلك، لما أوجد الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسيبه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها.

﴿فَإِذَا حَضَرَ عَلَيْهِ﴾ بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم ﴿فَكَأْتِيهِ فِي آتِيَةٍ﴾ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَاوُوهُ إِثْبَاتٍ وَجَاهِلُوا مِنْهُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ فبشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولاً.

وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشارة لأُم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألفت في اليم، فساقه الله تعالى حتى التقطه آل فرعون فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه ﴿لِيَكُونَهُنَّ لَهْمٌ عِدْوًا حَزَنًا﴾ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدواً لهم وحزناً يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قِيَضَ الله أن يكون زعيمهم، يتربى تحت أيديهم، وعلى نظرم وكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع إنه لا بد أنه يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقفة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم النذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفرادهم، ينازع ذلك الشعب الفاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه.

(١-٥١) ﴿طَسَرَ﴾ تَلَا مَاتَ الْكَتَبِ الْبَيِّنِ ٥ تَتَلَوُ عَلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخر القصة ﴿يَتْلُكَ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتضخيم ﴿مَاتَ الْكَتَبِ الْبَيِّنِ﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقهم، ومعرفة أوليائهم وأعدائهم، ومعرفة وقائعهم وأيامهم، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين، وجلاًها للعباد ووضوحها.

من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال: ﴿تَتَلَوُ عَلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ فإن نباهما غريب، وخبرهما عجيب.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالإيمان يساق الخطاب، ويوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون إيماناً وقيناً، وخيراً إلى خيرهم. وأما من عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه.

فأول هذه القصة ﴿إِنَّا رَفَعْنَا عَنَّا فِي الْأَرْضِ﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلين فيها، ﴿وَيَكُنْ أَمَلُهَا شَيْخًا﴾ أي: طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته.

﴿يَسْتَفِيدُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين الذين له أن يكرمهم ويجعلهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أَرَادَهُ فيهم، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه ﴿يَدْبُرُ مَكِيدَهُمْ وَيَسْتَعِي يَسْتَعِيهِمْ﴾ خوفاً من أن يكثروا، فيغمروا في بلاده، ويصير لهم الملك.

﴿إِنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْغَفِيِّينَ﴾ الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿وَوَيْدُكَ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الْأَرْضِ اسْتَفْهِقُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل مَنْ نَاوَاهُمْ ﴿وَجَعَلَهُمْ كَيْدَهُ﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدره تامة

الْقَصَصُ

٢٨٦

الْقَصَصُ

وَمِمَّنْ لَّهُمْ فِي الْأَرْضِ فِرْعَوْنُ وَهَمَلْنَاهُ وَخَرَّدْنَاهُ
 مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ
 أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي
 وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
 فَالْقِطْعَةُ أَلِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
 فِرْعَوْنَ وَهَمَلْنَاهُ وَخَرَّدْنَاهُ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٨﴾
 وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْلُبْنَاهُ عَنِّي
 أَنْ يَفْتَعَلَ أَوْ تُنْقِذْهُ، وَلَكِنْ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
 فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَتَرَىٰ أَنَّ كَادَتْ لِلْبَيْتِ بِهِ لَوْلَا أَنَّ
 رَبَّنَا عَلَّمَهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ
 لِأُخْتِي قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾
 وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
 عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾
 فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كِي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
 أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

ومن لطف الله بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدا يطلبه، فجاءت أخته، وهو بذلك الحال ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾.

وهذا جلُّ غرضهم، فإنهم أحبوه حبًّا شديدًا، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترتيب في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالاته والنصح له، بادروا إلى إجابته، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كِي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه أمانة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عيانًا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه، ورسالته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا

وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى من سته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئًا فشيئًا، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَلْنَاهُ وَخَرَّدْنَاهُ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي: فأردنا أن ناعقهم على خطئهم^(١)، ونكدهم جزاء على مكرهم وكيدهم.

فلما التقطه آل فرعون، حنَّ الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة، المؤمنة «آسية» بنت مزاحم ﴿وَقَالَتْ﴾: هذا الولد ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْلُبْنَاهُ﴾ أي: أبقي لنا، ليقرَّ به أعيننا، ونستر به في حياتنا.

﴿عَسَىٰ أَنْ يَفْعَلَ أَوْ تُنْقِذَهُ﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم الذين يسعون في نعمنا وخدمتنا أو نرفقه منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولدًا لنا، ونكرمه ونجله.

فقدر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبته حبًّا شديدًا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأ الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها.

قال الله تعالى عن هذه المراجعات [والمقالات] في شأن موسى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه. وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا لكان لهم وله شأن آخر.

ولما فقدت موسى أمه، حزنت حزنًا شديدًا، وأصبح فؤادها فارغًا من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدا برده.

﴿إِنَّ كَادَتْ لِلْبَيْتِ بِهِ﴾ أي: بما في قلبها ﴿لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَّمَهَا﴾ فثبتنا فاضبورت، ولم تبد به ﴿لِيَكُونَ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فاضبورت وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى: ﴿لِأُخْتِي قُصِّيهِ﴾ أي: اذهبي أفضي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد، أو يشعروا بمقصودك. فذهبت تقصيه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألفتها، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله.

الْقَصَصُ

٣٨٨

الْقَصَصُ

وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونِ مِنَ الْفَاضِلِينَ ﴿١﴾ وَلَا، فَلَوْ أَرَدْتَ الْإِصْلَاحَ
لَحَلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، مِنْ غَيْرِ قَتْلِ أَحَدٍ، فَاذْكُفْ مُوسَى عَنْ قَتْلِهِ،
وَارْعَوْ لَوْعَظَهُ وَزَجْرَهُ. وَشَاعَ الْخَبَرُ بِمَا جَرَى مِنْ مُوسَى فِي
هَاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْنِ، حَتَّى تَرَاوَدَّ مَلَأَ فِرْعَوْنَ، وَفِرْعَوْنَ عَلَى قَتْلِهِ،
وَتَشَاوَرُوا عَلَى ذَلِكَ. وَقَبِضَ اللَّهُ ذَلِكَ الرَّجُلَ النَّاصِحَ،
وَبَادَرَهُمْ إِلَى الْإِخْبَارِ لِمُوسَى بِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُ مَلْتَمِهِ،
فَقَالَ: ﴿وَمَا رَأَيْتُمْ لِإِنِّ أَنْفَا الْقَدِيدَةِ يَسْتَعِي؟﴾ أَيْ: رَكُضًا عَلَى قَدَمَيْهِ
مِنْ نَصَحَةِ لِمُوسَى، وَخَوْفِهِ أَنْ يَوْفَعُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَشْعُرَ، فِ ﴿قَالَ
يَسْتَعِي؟﴾ أَيْ: الْمَسْكُ الْيَأْتِرُونَ يَلَهُ؟ أَيْ: يَشَاوِرُونَ فِيكَ ﴿يَقْتُلُونَكَ
فَاتَّخِذْ مِنْ الْمَدِينَةِ﴾ (إِنِّي لَكِ مِنَ الْغَالِبِينَ) فَاذْكُفْ نَصَحَهُ ﴿فَرَجَّ
بَيْنَهُمَا حَالًا بِقَبْضِ﴾ أَنْ يَوْفَعَ بِهِ الْقَتْلَ، وَدَعَا اللَّهُ. وَ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مِنْ
أَقْوَمِ الْقَائِلِينَ﴾ فَإِنَّهُ قَدْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَفَعَلَهُ غَضَبًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ
مِنْهُ لِلْقَتْلِ، فَتَرُدُّهُمْ لَهُ ظِلْمٌ مِنْهُمْ وَجَرَاءً.
﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ﴾
جَنُوبِي فِلَسْطِينَ، حَيْثُ لَا مَلِكَ لِفِرْعَوْنَ ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ
يَهْدِيَنِي سَوْلَةَ الْكَافِلِينَ﴾ أَيْ: وَسَطَ الطَّرِيقِ الْمَخْتَصِرِ، الْمُوَصَّلِ
إِلَيْهَا بِسَهْلَةٍ وَرَفَقٍ، فَهَدَاهُ اللَّهُ سَوَاءَ السَّبِيلِ، فَوَصَلَ إِلَى
مَدْيَنَ.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ﴾
مَوَاشِيَهُمْ، وَكَانُوا أَهْلَ مَاشِيَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أَيْ:
مِنْ دُونِ تِلْكَ الْأُمَّةِ ﴿أَمْرَاتَيْنِ تَذَوْدَانِ﴾ غَنَمُهُمَا عَنْ حِيَاظِ
النَّاسِ، لِمَعْزَمِهِمَا عَنْ مَزَاحِمَةِ الرِّجَالِ، وَيَخْلُهُمْ وَعَدَمِ
مَرْوَعَتِهِمْ عَنِ السَّقْيِ لِهَمَا.

﴿قَالَ﴾ لِهَمَا مُوسَى ﴿مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ أَيْ: مَا شَأْنُكُمَا بِهِذِهِ
الْحَالَةِ ﴿قَالَتَا لَا شَيْءَ حَتَّى يَصْدُرَ الرَّيْبُ﴾ أَيْ: قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ
أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَنَا سَقْيٌ حَتَّى يَصْدُرَ الرِّعَاءُ مَوَاشِيَهُمْ، فَإِذَا خَلَا
لَنَا الْجَوْ سَقَيْنَا ﴿وَأَبُوكَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أَيْ: لَا قُوَّةَ لَهُ عَلَى
السَّقْيِ، فَلَيْسَ فِينَا قُوَّةٌ تَقْدِرُ بِهِمَا، وَلَا لَنَا رِجَالٌ يَزَاحِمُونَ
الرِّعَاءَ. فَفَرَّقَ لِهَمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحِمَهُمَا ﴿فَسَقَى لِهَمَا﴾
غَيْرَ طَالِبٍ مِنْهُمَا الْأَجْرَةَ، وَلَا لَهُ قَصْدٌ غَيْرُ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَلَمَّا سَقَى لِهَمَا، وَكَانَ ذَلِكَ وَقْتُ شِدَّةِ حَرِّ وَسَطِ النَّهَارِ، بَدَّلِيلَ
قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ مُسْتَرْحِمًا لِذَلِكَ الظِّلَالِ بَعْدَ التَّعَبِ.
﴿فَقَالَ﴾ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، مُسْتَرْحِمًا رَبَّهُ ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ
إِلَى مِنْ خَيْرٍ فَعِيرٌ﴾ أَيْ: إِنِّي مُفْقِرٌ لِلْخَيْرِ الَّذِي تَسْوِقُهُ إِلَيَّ
وَتُسِيرُهُ لِي، وَهَذَا سُؤَالٌ مِنْهُ بِحَالِهِ، وَالسُّؤَالُ بِالْحَالِ أَبْلَغُ مِنْ
السُّؤَالِ بِلِسَانِ الْمُقَالَ فَلَمْ يَزَلْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ دَاعِيًا رَبَّهُ
مُتَمَلِّقًا.

وَأَمَّا الْمَرَاتَانِ فَهَذِهِمَا إِلَى أَبِيهِمَا، وَأَخْبَرَنَاهُ بِمَا جَرَى.

فَأَرْسَلَ أَبُوهُمَا إِحْدَاهُمَا إِلَى مُوسَى، فَجَاءَهُ ﴿تَشَى عَلَى
أَسْتَحْيَا﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَرَمِ عَصْرِهِمَا، وَخُلُقِهَا الْحَسَنَ،
فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَخُصُوصًا فِي النِّسَاءِ.
وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ فِيمَا فَعَلَهُ مِنْ
السَّقْيِ لِهَمَا بِمَنْزِلَةِ الْأَجِيرِ وَالْخَادِمِ الَّذِي لَا يَسْتَحْيِي مِنْهُ عَادَةً،
وَإِنَّمَا هُوَ عَزِيزُ النَّفْسِ، رَأَتْ مِنْ حَسَنِ خُلُقِهِ وَمِكْرَامِ أَخْلَاقِهِ،
مَا أَرْجَبَ لَهَا الْحَيَاءَ مِنْهُ، فِ ﴿قَالَتْ﴾ لَهُ: ﴿إِنِّي يَدْعُوكَ
يُحْزِنُكَ أَجْرٌ مَا سَعَيْتُ لَنَا﴾ أَيْ: لَا لِيَمْنٌ عَلَيْكَ، بَلْ أَنْتَ
الَّذِي ابْتَدَأْنَا بِالْإِحْسَانِ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ أَنْ يَكْفِئَكَ عَلَى
إِحْسَانِكَ، فَاجَابَهَا مُوسَى.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَفَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ مِنْ ابْتِدَاءِ السَّبَبِ
الْمَوْجِبِ لِهَرَبِهِ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ﴿قَالَ﴾ لَهُ مَسْكَنًا رَوْعَهُ،
جَابِرًا قَلْبَهُ: ﴿لَا تَخَفْ يَهْوَتْ مِنَ الْقَوِي الْقَائِلِينَ﴾ أَيْ: لِيَذْهَبَ
خَوْفُكَ وَرَوْعُكَ، فَإِنَّ اللَّهَ نَجَّاهُ مِنْهُمْ، حَيْثُ وَصَلَتْ إِلَى هَذَا
الْمَحَلِّ الَّذِي لَيْسَ لَهُمْ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ.
﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ أَيْ: إِحْدَى ابْنَتَيْهِ ﴿يَا أَبَتِي أَتَدْعُنِي إِلَى
أَجْعَلُهُ أَجِيرًا عِنْدَكَ، يَرْعَى الْغَنَمَ وَيَسْقِيهَا﴾ (إِنِّي خَيْرٌ مِنْ

عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه، وأعلى درجة، والله أعلم [إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة، وعلى كل حال، لا يعتمد على أنه شيعب النبي، بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفاته، اشتاق إلى الوصول إلى أهله والدة وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه، ﴿سَارَ بِأَهْلِيهِ﴾ قاصداً مصر ﴿فَإِذَا أَنَا لَآتٍ بِكُمْ﴾ أي: أبصر ﴿بَيْنَ جَانِبِ الشَّوْءِ كَارًا﴾ قَالَ لِأَهْلِيهِ أَتَكُونُوا لِي أَنَا لَآتٍ بِكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ أَتَيْتُكُمْ بِهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَدَدٍ مِّمَّا أَنَا لَكُمْ قَصَطْلُوكُمْ وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق.

(٣٠) فلما أتاه نودي ﴿يَمْوَىٰ إِيَّتَ أَنَا اللَّهُ رَثَ الْغُلَامِينَ﴾ فأخبره بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك أن يأمره بعبادته وتأله، كما صرح به في الآية الأخرى ﴿فَأَتَيْنِي وَأَقْبَلُ الصَّلَاةَ لِلْخَصِيَّةِ﴾.

﴿وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ﴾ فالتقاها ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها صورة مهيبة ﴿كَأَنَّمَا جَاءَ﴾ ذَكَرَ الْحَيَاتِ الْعَظِيمِ. ﴿وَلَمْ يُدْرِكْ وَلَا يَعْثُفُ﴾ أي: يرجع لاستيلاء الروح على قلبه، فقال الله له: ﴿يَمْوَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ بَيْنَ الْأَمِينِ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف.

فإن قوله: ﴿أَقْبَلْ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتنال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ أمر له بشيئين إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إِنَّكَ بَيْنَ الْأَمِينِ﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً، وثاقاً بخبره، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون (٣١) أجراً له، وأقوى وأصلب.

ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿أَسْأَلُكَ بِكَ﴾ أي: أدخلها ﴿فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَةٍ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ فسلكتها وأخرجها، كما ذكره تعالى.

﴿وَأَسْأَلُكَ بِكَ جَنَاحِكَ مِنْ أَرْوَابِ﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف ﴿فَلَا يَخَفُ﴾

أَسْتَجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينِ﴾ أي: إن موسى أولى من استؤجر، فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر، من جمعهما، أي القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة. وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل مَنْ يتولى للإنسان عملاً، بإجارة أو غيره.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدتهما أو فقد إحدهما، وأما اجتماعهما فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته ودَيانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى.

﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْكُوكَ﴾ أَخَذَ أَبْنَىٰ هَتْمِي عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي: تصير أجيراً عندي ﴿فَتَكُنْ جَعْلٌ﴾ أي: ثماني سنين ﴿فَإِنِ اتَّمَمْتَ عَشْرًا فَوْنٌ عَيْنِي﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ فَأَحْتَمُ عَشْرَ السِّنِينَ، أو ما أريد أن أستأجرَكَ لأكلِكَ أَعْمَالًا شاقَّة، وإنما أستأجرَكَ، لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فرغه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة. وهذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام - مجيباً له فيما طلب منه - : ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: هذا الشرط الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك ﴿أَمَّا الْأَجَلُ فَصَيِّتٌ فَلَا تَدْرُوكَ عَلَيَّ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقداً عليه.

وهذا الرجل، أبو المراتين، صاحب مدين، ليس بشيعب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟.

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شيعب، فكيف بشخصه؟ ولو كان ذلك الرجل شعيباً لذكره الله تعالى، ولسمته المراتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا مَنْ آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبني نبيهم، بمنعها عن الماء، وصد ماشيتها، حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شيعب ليرضى أن يرعى موسى

الْقَصَصُ

٣٨٩

الْقَصَصُ

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَنهَا نُورٌ مِنْ شَطِئِ النَّوَارِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَسْمُوعِيَ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْ لَّيْ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَسْمُوعِي أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿١٨﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَبْضَاءَ مِنْ عَدْرٍ سُوٍّ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَا حَلَفَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٠﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢١﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصِدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنَا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَسْمَاءُ مِنْ أَتْبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّ أَتَمُّ يَمُنْ جَنَّةَ الْهَيْدِ مِنْ عَيْنِهِ. وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَيْنُهُ الدَّارُ﴾ أي: إذا لم تعد المقابلة معكم، وتبين الآيات البينات، وأبستم إلا التمادي في غيكم واللجاج على كفركم، فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿إِنَّهُ لَا يُلْقِي أَكْثِلُونِ﴾. فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متجربًا على ربه، ومموهاً على قومه السفهاء، أخفاء العقول: ﴿يَكَايُهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمُ بَيْنَ يَدَيْهِ غَيْرٌ﴾ أي: أنا وحدي إليهم ومعبودكم، ولو كان ثم إليه غيري لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون، حيث لم يقل: «ما لكم من إله غيري» بل تورع وقال: «ما علمت لكم من إله غيري». وهذا، لأنه عندهم العالم الفاضل الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

(١) كذا في ب، وفي أ: عنكم كيد عدوهم.

أي: انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿فَلَا يَكْفِيهِمْ مَجْدُ الْإِنذار وأمر الرسول إليهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت.

ذ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام معتذراً من ربه، وسائلاً له المعونة على ما حمله، وذاكرًا له الموانع التي فيه، لينزل ربه ما يحذره منها ﴿رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ أي: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وأخي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴿أي: معاونًا ومساعدًا﴾ يُصَدِّقُنِي ﴿فإنه مع تضايف الأخبار يقوى الحق، فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سَنُنْذِرُ عَصِدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نعاونك به ونقويك.

ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنَا﴾ أي: تسلطًا وتمكُّنًا من الدعوة بالحجة والهيبة الإلهية من عدوهما لهما ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم^(١)، وصارت لكم أبلغ من الجنود، أولي القُدْر والْعُدُو.

﴿أَسْمَاءُ وَنَبِيِّنَا الْغَالِبُونَ﴾ وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكَّنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

فذهب موسى برسالة ربه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ﴾ واضحات الدلالة على ما قاله لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء ﴿قَالُوا﴾ على وجه الظلم والعلو والعتاد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقْتَرَنٌ﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور ﴿إِنَّهُمْ لَكَاِبِرٌ لَّكَ أَلْمُومُونَ﴾ أي: هذا، وهو الذكي غير الزكي الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا، وقد علم ﴿مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولكن الشقاء غالب.

﴿وَمَا سِغْنًا يَهْدِي فِي مَابَيْنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ شَرِيحٌ مِّن تَرْكَابٍ﴾.

سورة القصص

٣٩٠

سورة القصص

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَنْتَبِهَةً قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَعَيْنَا بِهِذِي عَاسِكِنَا الْأُولَىٰ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا يَهْدِي مِنْ عِنْدِهِ. وَنَنْتَهِزُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ بِآيَاتِهِكَ الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَكُنْ عَلَى الطَّلِينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَىٰ إِلَهٍ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٨﴾ وَاسْتَكَبَرَ وَهُوَ جُثُوهُ فِي الْأَرْضِ يُكَبِّرُ الْحَقَّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٩﴾ فَأَحْزَنَهُ وَجُودُهُ. فَجَبَذْنَاهُمْ فِي النَّيْرِ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَهْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٧١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَاحِبِ النَّاسِ وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٣﴾

أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده، وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿يَصْطَرِّقُ النَّاسَ﴾ أي: كتاب الله الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فقوم الحجة على العاصي، ويتنفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَعُدِّي وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ بِبَابِ الْغَيْبِ﴾ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر ﴿وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فاندرس العلم

فلما قال هذه المقالة التي قد تحتمل أن تُمَّ إليها غيره، أراد أن يحقق النفي الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ«هامان»: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَكُنْ عَلَى الطَّلِينِ﴾ ليجعل له ليثاً من فخار ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ أي: بناء ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى، فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله التي ما بلغها آدمي، كذب موسى، وادّعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويح، ولكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشؤونها، كيف لعب هذا الرجل بقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم.

فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم، ففسلك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تزيع قلوبنا بعد إله هديتنا، وتهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَكَبَرَ وَهُوَ جُثُوهُ فِي الْأَرْضِ يُكَبِّرُ الْحَقَّ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاؤهم به من الآيات فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل.

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فلذلك تجرؤوا، وإلا فلو علموا، أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان.

﴿فَأَحْزَنَهُ وَجُودُهُ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَجَبَذْنَاهُمْ فِي النَّيْرِ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ كانت أشر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَهْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ﴾ أي: جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدى بهم، ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَبْصُرُونَ﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

[﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي:] واتبعناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق التناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ المبعدين، المستقذرة أفعالهم، الذين اجتمع عليهم مقت الله ومقت خلقه ومقت أنفسهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا

وَنَسِيتَ آيَاتَهُ، فَبِعَثْنِكَ فِي وَقْتِ اشْتَدَّتْ الْحَاجَةُ إِلَيْكَ وَإِلَى مَا عَلِمْنَاكَ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيلًا﴾ أَي: مَقِيمًا ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أَي: تَعْلِمُهُمْ وَتَعْلَمُ مِنْهُمْ، حَتَّى أَخْبَرْتَ بِمَا أَخْبَرْتَ مِنْ شَأْنِ مُوسَى فِي مَدْيَنَ.

﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أَي: وَلَكِنْ ذَلِكَ الْخَبِيرُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ عَنْ مُوسَى، أَثَرٌ مِنْ أَثَرِ إِرْسَالِنَا إِيَّاكَ، وَوَحْيِي لَا سَبِيلَ لَكَ إِلَى عِلْمِهِ بِدُونِ إِرْسَالِنَا.

﴿وَمَا كُنْتَ بِحَاجِبِ الظُّلُمِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ مُوسَى، وَأَمْرَانَهُ أَنْ يَأْتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، وَيُلْغِيَهُمْ رِسَالَتَنَا، وَيُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا وَعَجَائِبِنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْمَاجِرِيَّاتِ الَّتِي جَرَتْ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي هَذِهِ الْأَمَاكِنَ، فَقَصَصْنَاهَا كَمَا هِيَ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ، لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا أَنْ تَكُونَ حَضَرَتْهَا وَشَاهَدْتَهَا، أَوْ ذَهَبْتَ إِلَى مَحَالِهَا فَتَعْلَمْتَهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَحَيْثُ قَدْ لَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، إِذِ الْأُمُورِ الَّتِي يَخْبِرُ بِهَا عَنْ شَهَادَةٍ وَدِرَاسَةٍ، مِنَ الْأُمُورِ الْمَشْتَرَكَةِ غَيْرِ الْمُخْتَصَةِ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَلَكِنْ هَذَا قَدْ عَلِمَ وَتَيَقَّنَ أَنَّهُ مَا كَانَ وَمَا صَارَ، فَأَوْلَايَاؤُكَ وَأَعْدَاؤُكَ يَعْلَمُونَ عَدَمَ ذَلِكَ.

فَتَعْنِي الْأَمْرَ الثَّانِي، وَهُوَ أَنَّ هَذَا جَاءَكَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ وَوَحْيِهِ وَإِرْسَالِهِ، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك، ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قَالَ: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لِشُدُورِ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ كَذِبٍ مِنْ قِبَلِكَ أَي: الْعَرَبِ وَفَرِيشَ، فَإِنَّ الرِّسَالَةَ [عندهم]، لَا تَعْرِفُ وَقْتُ إِرْسَالِ الرُّسُولِ وَقَبْلَهُ بِأَزْمَانٍ مُتَنَاطِلَةٍ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تَفْصِيلُ الْخَيْرِ فَيَفْعَلُونَهُ، وَالشَّرَّ فَيَتْرَكُونَهُ، فَإِذَا كُنْتَ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمُ الْمُبَادَرَةَ إِلَى الْإِيمَانِ بِكَ، وَشُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا يَقَادِرُ قَدْرُهَا، وَلَا يَدْرِكُ شُكْرُهَا.

وَلِنَذَارِهِ لِلْعَرَبِ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ مَرْسَلًا لغيرهم، فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ عَرَبِيٌّ، وَأَوَّلُ مَنْ بَاشَرَ بِدَعْوَتِهِ الْعَرَبُ، فَكَانَتْ رِسَالَتُهُ إِلَيْهِمْ أَصْلًا، وَلِغَيْرِهِمْ تَبَعًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَاغِبَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾، ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنْ يَرَوْهُ إِلَّا نَجَسًا مُبِينًا﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: فَارْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ، لِنَدْفِعَ حُجَّتَهُمْ، وَقَطَعَ مَقَاتِلَهُمْ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ﴿وَمِنْ عَذَابِنَا﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ ﴿قَالُوا﴾ مَكْذُوبٌ لَهُ وَمُعْتَرِضِينَ بِمَا لَيْسَ يَعْتَرِضُ بِهِ: ﴿لَوْلَا أُرْفِقَ بِمِثْلِ مَا أُرْفِقَ مُوسَى﴾ أَي: أَنْزَلَ

عليه كتاب من السماء جملة واحدة، أَي: فَأَمَا مَا دَامَ يَنْزِلُ مُتَفَرِّقًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَيُّ دَلِيلٍ فِي هَذَا؟ وَأَيُّ شَبْهَةٍ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حِينَ نَزَلَ مُفَرَّقًا؟

بَلْ مِنْ كَمَالِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَاعْتِنَاءِ اللَّهِ بِمَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ، أَنْ نَزَلَ مُتَفَرَّقًا، لِثَبَتِ اللَّهُ بِهِ فُؤَادَ رُسُلِهِ، وَيَحْصُلُ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ يَمَنُكَ مِنَ الْأَمْنِ وَتَكُنَّ لَكَ آخِذَةٌ وَتَحِيزَةٌ﴾. وَأَيْضًا، فَإِنَّ قِيَاسَهُمْ عَلَى كِتَابِ مُوسَى قِيَاسٌ قَدْ نَقَضُوهُ، فَكَيْفَ يَقِيسُونَهُ عَلَى كِتَابِ كُفْرًا بِهِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوْفِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أَي: الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَةُ، تَعَاوَنَا فِي سِحْرِهِمَا وَإِضْلَالِ النَّاسِ ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكَ لَكَاظِمُونَ﴾.

فثبت بهذا أَنَّ الْقَوْمَ يَرِيدُونَ إِطْلَالَ الْحَقِّ بِمَا لَيْسَ بِبِرَّهَانٍ، وَيَنْقُضُونَهُ بِمَا لَا يَنْقُضُ، وَيَقُولُونَ الْأَقْوَالَ الْمُتَنَاقِضَةَ الْمُخْتَلِفَةَ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ كَافِرٍ، وَلِهَذَا صَرَحَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْكَتَابَيْنِ وَالرُّسُولَيْنِ، وَلَكِنْ هَلْ كَفَرَهُمْ بِهَذَا طَلَبًا لِلْحَقِّ وَاتِّبَاعًا لِأَمْرِ عِنْدَهُمْ خَيْرٌ مِنْهَا، أَمْ مُجَرَّدُ هَوًى؟

قَالَ تَعَالَى مَلَزَمًا لَهُمْ بِذَلِكَ: ﴿قَالُوا إِنَّا بِكَ لَكَاظِمُونَ﴾ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ

إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم فلا يعبأ الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هتأ أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدرج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملته، ومكنهم في الأرض، وملكهم ببلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مهضورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها (ولا دنياها^(١))، ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأمر موسى، وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدّر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدّر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والهم البالغ الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه تطلعن به نفسها، وتقر به عينها وتزداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأُم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبت من

الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ رِبْطَكَ عَلَى قَلْبِهَا لَكُنْتَ مِنَ الْيَقِينِينَ﴾ أي: ليرداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

ومنها أن من أعظم نعم الله على عبده (وأعظم) معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضعف فكره، ويذهل عقله، فلا يتفجع بنفسه في تلك

الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافعاً لا بد منه - فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى

(١) كذا في ب، وفي أ: لغيره حق. (٢) كذا في ب، وفي أ: الشقاق.

(٣) زيادة من هامش ب.

أَعَدَّ رِبْطاً أَي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَبِعُوا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم، ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبياناً، ورحمة للخلق.

وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جتُموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتباعه، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق^(١).

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ بِعَمْرِ آخِرِهِمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم ﴿وَلَنْ أَهْلَ مِنْ أَتَّبِعُ هَوْنَهُ يَفْتَرِ هُدًى تَرَى إِلَهًا﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصول إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواء إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء^(٢)، فاتبعه، وترك الهدى.

فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله

ولا يهديه الله، فلماذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذي صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فقبضوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية

وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ بِعَمْرِ آخِرِهِمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، رحمة بهم ولطفاً ﴿لَا إِلَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها، فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعترضوا بما هو من مصالحهم؟.

فصل

في ذكر بعض القوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها: أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستتير المؤمنون، فعلى حسب

في ذكر بعض القوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها: أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستتير المؤمنون، فعلى حسب

فمنها: أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستتير المؤمنون، فعلى حسب

لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالمًا بها؛ لأنه تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكته، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَكَلْتُ مِنْ خَيْرِ قَوْمٍ﴾.

ومنها أن الحياة - خصوصًا من الكرام - من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين، عن معروفة الذي لم يتغ، ولم يستشرف قلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده الغُرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمشقة، ولو كانت المشقة بضماً.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخير، لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجبر وعامل [يعمل] للإنسان، أن يكون قوياً أميناً.

ومنها: أن من مكارم الأخلاق أن يُحسن خلقه لأجيريه وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل لقوله: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُثَقُّ عَلَيْكَ سِتْرِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْكَ الْكَلِيلِ﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود، من دون إشهاد لقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البيئات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيئاته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث

أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على مَنْ يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيئاته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عُرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدَّ قتله القبطي الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق، يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن مَنْ قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهيب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَصَلِّينَ﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شرفه فيه، لا يكون ذلك نسيمة - بل قد يكون واجباً - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحاً له ومحذراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلقي يده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما أنه تتركب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب^(١) إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يدل]ه غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعتها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيّب مَنْ هذه حاله، كما خرج موسى لتقاء مدين فقال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ النَّكِيلِ﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على مَنْ يعرف وَمَنْ

أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً، وتأسيساً موافقاً، قصة قصاً، صدق به المرسلين؛ وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع؛ ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع؛ ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور؛ ولا مجالسة أحد من أهل العلم؛ إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن؛ وحي أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قومًا جاهلين؛ وعن النذر والرسل غافلين.

فصلوات الله وسلامه؛ على من مجرد خبره بنبيه أنه رسول الله؛ ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة؛ أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة؛ والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار؛ وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار؛ بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان.

ولم تزل الأمم المعاندة؛ والملوك الكفرة المتعاضدة ترميه بقوس واحدة؛ وتكيد له المكائد؛ وتمكر لإطفائه وإخفائه وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نمواً، ولا آياته وبراهينه إلا ظهوراً، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونور وبصيرة للمتوسمين، والحمد لله وحده.

(٥٥-٥٢) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٥٥ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٥٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٥٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٥٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٥٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٠ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٢ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٣ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٤ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٥ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٠ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٢ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٣ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٤ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٥ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٠ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٢ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٣ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٤ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٥ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٠ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٢ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٣ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٤ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٥ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ١٠٠

يبدلوا ﴿هُم بِهِ﴾ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿وَلَا يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ استمعوا له وأذعنوا و ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقتها لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة.

وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم، وينفع قولهم، لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، لأنهم أهل الصنف^(١)، وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة، فضلاً عن الحجة، لأنهم ما بين جاهل فيه

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٥٥ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٥٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٥٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٥٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٥٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٠ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٢ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٣ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٤ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٥ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٦٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٠ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٢ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٣ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٤ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٥ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٧٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٠ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٢ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٣ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٤ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٥ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٨٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٠ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٢ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٣ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٤ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٥ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٦ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٧ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٨ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ٩٩ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ ١٠٠

أو متجاهل معاند للحق. قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَتُحَرِّونَ لَدُنْكَ سُجًّا﴾ الآيات.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب، إيمانه بالكتاب الأول.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أجراً على الإيمان الأول، وأجراً على الإيمان الثاني، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم ترزعزعم^(٢) عن ذلك شبهة، ولا نشأهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة.

﴿وَمِنْ خَصَالِهِمُ الْفَاضِلَةُ الَّتِي مِنْ أَثَارِ إِيمَانِهِمُ الصَّحِيحِ﴾ أنهم ﴿يُذَكَّرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْخَيْرَةِ﴾ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل، لعلهم بفضيلة هذا

(١) في ب: الخيرة. (٢) كذا في ب، وفي أ: يززعزعهم من.

ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومنونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق.

قال الله مبيهاً لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ حَرَمًا مِثْلَ حَرَمِ اللَّهِ إِلَيْهِ تَوَسَّلْتُمْ إِلَى اللَّهِ فَرِحْنَا بِكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَكُمُ الْإِيمَانَ خِفَافًا لَا يَزِيدُ فِي حَمَلِهِ إِلَّا الْأَمَنَةَ وَالْحَقَّ وَهُوَ أَمَرٌ مُبِينٌ﴾ [٥٦] أي: أولم نجعلهم متمكنين، [ممكنين] في حرم، يكثره المتباينون، ويقصده الزائرُونَ، قد احترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا يتقصونه بقليل [ولا كثير].

والحال أن كل ما حولهم من الأماكن، قد حُف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فَلْيَحْتَمِدُوا رَبَّهُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْنِ التَّامِ، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون.

وَلْيَتَّبِعُوا هَذَا الرُّسُولَ الْكَرِيمَ، لِيَتِمَّ لَهُمُ الْأَمْنُ وَالرَّغَدُ، وَإِثْمُهُمْ وَتَكْذِيبُهُ، والبطر بنعمة الله، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفاً، وبعد عزهم ذللاً، وبعد غناهم فقراً، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبْلهم، فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مِعَاشَتُهَا﴾ أي: فخرت بها وألتهها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم العقوبة ﴿فَإِنَّكَ مَسْكُونٌ فِي لُحُومِهِمْ يَنْزِعُ عَنْهُمُ الْفَسَادَ الَّذِي فِي أَرْبَابِهِمْ﴾ [٥٧] أي: ثم نزعنا عنهم الفساد الذي في آلهتهم، ونحوها، وإيحاشها من بعدهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ الْأَوَّلِينَ﴾ للعباد، نُمِيتَهُمْ، ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم^(١) إلينا فنجازيهم بأعمالهم.

ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا إِلَّا مُعْذِرِينَ﴾ [٥٨] أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها يتنجسها، ولا تخفى عليه أخبارها.

﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ﴾ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [٥٩] أي: ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم، وهو خطأ ظاهر من الناسخ.

الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿وَلَقَدْ سَبَّحُوا لِلَّهِ فِي الْبُحْرِ وَأَبْدَعُوا فِي السَّمَاءِ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [٥٩] أي: عباد الرحمن أولي الأبواب: ﴿لَقَدْ أَعْلَمْنَا وَلَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كُلُّ سَيِّجَارِيٍّ بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرعون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللثيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه ﴿لَا يَنْتَبِهُنَّ لِلْجَاهِلِينَ﴾ من كل وجه.

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه وتعالى، يهدي مَنْ يَشَاءُ، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ تَلَوِّذُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فذلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم ويرغب فيه، ويبدل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل، فحاشا وكلاً.

ولهذا لو كان قادراً عليها، لهدى مَنْ وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالى.

(٥٧-٥٩) ﴿وَقَالُوا إِنَّا تِلْكَ الْأَفْئِدَةُ الَّتِي نَقُصُّ عَنْكَ مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٥٧] أي: وَلَكِنْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مِعَاشَتُهَا، أي: فخرت بها واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم العقوبة ﴿فَإِنَّكَ مَسْكُونٌ فِي لُحُومِهِمْ يَنْزِعُ عَنْهُمُ الْفَسَادَ الَّذِي فِي أَرْبَابِهِمْ﴾ [٥٨] أي: ثم نزعنا عنهم الفساد الذي في آلهتهم، ونحوها، وإيحاشها من بعدهم. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ﴾ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [٥٩] أي: ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم بأعمالهم. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ﴾ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [٥٩] أي: ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم، وهو خطأ ظاهر من الناسخ.

وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا أُرْسِلُ مِنْ شَيْءٍ وَمَنْ فُتِنَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَعِنَا اللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيذٌ كُنْتُمْ عَنْهُ مَنَعْتَهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْمَحْضَرِّينَ ﴿٦١﴾ هَذَا حُضْرٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَلَى الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَعَدَمِ الْإِغْتِرَارِ بِهَا، وَعَلَى الرِّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَجَعَلَهَا مَقْصُودَ الْعَبْدِ وَمَطْلُوبِهِ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ جَمِيعَ مَا أُوتِيَ الْخَلْقُ، مِنَ الذَّهَبِ، وَالْفُضَّةِ، وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْأَمْتَعَةِ، وَالنِّسَاءِ، وَالْبَنِينَ، وَالْمَأْكَلِ، وَالْمَشَارِبِ، وَاللَّذَاتِ، كُلُّهَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ [الدُّنْيَا] وَزِينَتُهَا، أَي: يَتَمَتَّعُ بِهِ وَقَفًا قَصِيرًا، مَتَاعًا قَاصِرًا، مَحْشُورًا بِالْمَنْغَصَاتِ، مَمْرُوجًا بِالْغُصَصِ.

وَيُزَيِّنُ بِهِ زَمَانًا سَيِّئًا، لِلْفَخْرِ وَالرِّيَاءِ، ثُمَّ يَزُولُ ذَلِكَ سَرِيعًا، وَيَنْقُضِي جَمِيعًا، وَلَمْ يَسْتَفِدْ صَاحِبُهُ مِنْهُ إِلَّا الْحَسْرَةَ وَالنَّدَمَ، وَالْحَيَاةَ وَالْحَرَمَانَ.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ، وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَي: أَفْضَلُ فِي وَصْفِهِ وَكَمِيَّتِهِ، وَهُوَ دَائِمٌ أَبَدًا، مُسْتَمِرٌّ سَرْمَدًا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: أَفَلَا يَكُونُ لَكُمْ عَقْلٌ، بِهَا تَزَنُّونَ أَيِ الْأُمُورِ^(١) أُولَى بِالْإِثَارِ، وَأَيِ الدَّارَيْنِ أَحَقُّ لِلْعَمَلِ لَهَا، فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ بِحَسَبِ عَقْلِ الْعَبْدِ يُوَثِّرُ الْآخِرَى عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ مَا أَثَرَ أَحَدُ الدُّنْيَا إِلَّا لِنَقْصٍ فِي عَقْلِهِ، وَلِهَذَا نَبِهَ الْعَقُولَ عَلَى الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ عَاقِبَةِ مُؤَثِّرِ الدُّنْيَا وَمُؤَثِّرِ الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيذٌ﴾ أَي: هَلْ يَسْتَوِي مُؤْمِنٌ سَاعَ لِلْآخِرَةِ سَعِيهَا قَدْ عَمِلَ عَلَى وَعْدِ رَبِّهِ لَهَ بِالثَّوَابِ الْحَسَنِ، الَّذِي هُوَ الْجَنَّةُ، وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ لِأَقْبَلِهِ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَلَا ارْتِيَابٍ، لِأَنَّهُ وَعَدَ مِنْ كَرِيمٍ صَادِقٍ الْوَعْدِ، لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ، لِعَبْدٍ قَامَ بِمَرْضَاتِهِ، وَجَانِبَ سَخَطِهِ.

﴿كُنْتُمْ تَمْنَعْتُمْ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ فَهُوَ يَأْخُذُ فِيهَا وَيُعْطِي، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَيَسْتَمِعُ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْبَهَائِمُ، قَدْ اشْتَغَلَ بِدُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، وَلَمْ يَرْفَعْ يَهْدَى اللَّهُ رَأْسًا، وَلَمْ يَنْقُدْ لِلْمُرْسَلِينَ، فَهُوَ لَا يَزَالُ كَذَلِكَ، لَا يَتَزَوَّدُ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا الْخَسَارَ وَالْهَلَاكَ.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ﴾ لِلْحِسَابِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقْدَمْ خَيْرًا لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ جَمِيعَ مَا يَضُرُّهُ، وَانْتَقَلَ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ بِالْأَعْمَالِ، فَمَا ظَنُّكُمْ إِلَيَّ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ؟ وَمَا تَحْسِبُونَ مَا يَصْنَعُ بِهِ؟ فَلْيَخْتَرِ الْعَاقِلُ لِنَفْسِهِ، مَا هُوَ أَوْلَى بِالِاخْتِيَارِ، وَأَحَقُّ الْأَمْرَيْنِ بِالْإِثَارِ.

وَالْمَعَاصِي، مُسْتَحَقُونَ لِلْعُقُوبَةِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْذِبُ أَحَدًا إِلَّا بِظُلْمِهِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ.

(٦٠، ٦١) ﴿وَمَا أُرْسِلُ مِنْ شَيْءٍ وَمَنْ فُتِنَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَعِنَا اللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيذٌ كُنْتُمْ عَنْهُ مَنَعْتَهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْمَحْضَرِّينَ ﴿٦١﴾ هَذَا حُضْرٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَلَى الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَعَدَمِ الْإِغْتِرَارِ بِهَا، وَعَلَى الرِّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَجَعَلَهَا مَقْصُودَ الْعَبْدِ وَمَطْلُوبِهِ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ جَمِيعَ مَا أُوتِيَ الْخَلْقُ، مِنَ الذَّهَبِ، وَالْفُضَّةِ، وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْأَمْتَعَةِ، وَالنِّسَاءِ، وَالْبَنِينَ، وَالْمَأْكَلِ، وَالْمَشَارِبِ، وَاللَّذَاتِ، كُلُّهَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ [الدُّنْيَا] وَزِينَتُهَا، أَي: يَتَمَتَّعُ بِهِ وَقَفًا قَصِيرًا، مَتَاعًا قَاصِرًا، مَحْشُورًا بِالْمَنْغَصَاتِ، مَمْرُوجًا بِالْغُصَصِ.

وَيُزَيِّنُ بِهِ زَمَانًا سَيِّئًا، لِلْفَخْرِ وَالرِّيَاءِ، ثُمَّ يَزُولُ ذَلِكَ سَرِيعًا، وَيَنْقُضِي جَمِيعًا، وَلَمْ يَسْتَفِدْ صَاحِبُهُ مِنْهُ إِلَّا الْحَسْرَةَ وَالنَّدَمَ، وَالْحَيَاةَ وَالْحَرَمَانَ.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ، وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَي: أَفْضَلُ فِي وَصْفِهِ وَكَمِيَّتِهِ، وَهُوَ دَائِمٌ أَبَدًا، مُسْتَمِرٌّ سَرْمَدًا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: أَفَلَا يَكُونُ لَكُمْ عَقْلٌ، بِهَا تَزَنُّونَ أَيِ الْأُمُورِ^(١) أُولَى بِالْإِثَارِ، وَأَيِ الدَّارَيْنِ أَحَقُّ لِلْعَمَلِ لَهَا، فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ بِحَسَبِ عَقْلِ الْعَبْدِ يُوَثِّرُ الْآخِرَى عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ مَا أَثَرَ أَحَدُ الدُّنْيَا إِلَّا لِنَقْصٍ فِي عَقْلِهِ، وَلِهَذَا نَبِهَ الْعَقُولَ عَلَى الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ عَاقِبَةِ مُؤَثِّرِ الدُّنْيَا وَمُؤَثِّرِ الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيذٌ﴾ أَي: هَلْ يَسْتَوِي مُؤْمِنٌ سَاعَ لِلْآخِرَةِ سَعِيهَا قَدْ عَمِلَ عَلَى وَعْدِ رَبِّهِ لَهَ بِالثَّوَابِ الْحَسَنِ، الَّذِي هُوَ الْجَنَّةُ، وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ لِأَقْبَلِهِ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَلَا ارْتِيَابٍ، لِأَنَّهُ وَعَدَ مِنْ كَرِيمٍ صَادِقٍ الْوَعْدِ، لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ، لِعَبْدٍ قَامَ بِمَرْضَاتِهِ، وَجَانِبَ سَخَطِهِ.

﴿كُنْتُمْ تَمْنَعْتُمْ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ فَهُوَ يَأْخُذُ فِيهَا وَيُعْطِي، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَيَسْتَمِعُ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْبَهَائِمُ، قَدْ اشْتَغَلَ بِدُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، وَلَمْ يَرْفَعْ يَهْدَى اللَّهُ رَأْسًا، وَلَمْ يَنْقُدْ لِلْمُرْسَلِينَ، فَهُوَ لَا يَزَالُ كَذَلِكَ، لَا يَتَزَوَّدُ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا الْخَسَارَ وَالْهَلَاكَ.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ﴾ لِلْحِسَابِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقْدَمْ خَيْرًا لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ جَمِيعَ مَا يَضُرُّهُ، وَانْتَقَلَ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ بِالْأَعْمَالِ، فَمَا ظَنُّكُمْ إِلَيَّ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ؟ وَمَا تَحْسِبُونَ مَا يَصْنَعُ بِهِ؟ فَلْيَخْتَرِ الْعَاقِلُ لِنَفْسِهِ، مَا هُوَ أَوْلَى بِالِاخْتِيَارِ، وَأَحَقُّ الْأَمْرَيْنِ بِالْإِثَارِ.

(٦٦-٦٧) ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ قِيلُ الْإِنِّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ

(١) فِي ب: الْأَمْرَيْنِ. (٢) فِي ب: أَنْهُمْ.

رَزَعْتُمْ ﴿٦٠﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ وَقِيلَ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٢﴾ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ قِيلُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٣﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٤﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ الْخَلَائِقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ يَسْأَلُهُمْ عَنْ أَصُولِ الْأَشْيَاءِ، وَعَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَإِجَابَةِ رُسُلِهِ، فَقَالَ: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أَي: يُنَادِي مَنْ أَشْرَكَوا بِهِ شُرَكَاءَ يَعْبُدُونَهُمْ، وَيَرْجُونَ نَفْعَهُمْ، وَدَفَعَ الضَّرْرَ عَنْهُمْ، فَيُنَادِيهِمْ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ عَجْزَهَا، وَضَلَالَتَهَا.

﴿قِيلُ الْإِنِّ شُرَكَائِيَ﴾ وَلَيْسَ لِلَّهِ شَرِيكٌ، وَلَكِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ زَعْمِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فَايْنِ هُمْ، بِلَوَاتِهِمْ، وَأَيْنِ نَفْعِهِمْ وَأَيْنِ دَفْعِهِمْ؟

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ^(١) يَتَبَيَّنُ لَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ، أَنَّ الَّذِي عِيدُهُ وَرَجْوُهُ بَاطِلٌ، مَضْمُوحٌ فِي ذَاتِهِ، وَمَا رَجَّوْا مِنْهُ، يَقِفُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ، وَلِهَذَا ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ

وانفراده باختيار مَنْ يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر [والأزمان]، والأماكن، وأن أحدًا^(١) ليس له من الأمر والاختيار شيء.

وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركونه به، من الشريك، والظهير والمعين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتنه الصدور وما أعلنوه.

وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال، وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وقرأ، والحكم الديني الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال:

﴿وَالَّذِي رُجِعُكُمْ﴾ فيجازي كلّ منكم بعمله، من خير وشر.

(٧١-٧٣) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ سَرِيًّا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۚ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرِيًّا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۚ وَمَنْ رَحِمَهُ جَعَلَ لَكَ الْبَيْلَ وَالنَّهَارَ لِشُكْرِهِ يَوْمَ وَاسْتَعْتَوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَمْ يَشْكُرُوا﴾ هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليتغنوا من فضل الله، ويتشربوا لطلب أرزاقهم ومعاشهم في ضيائه، والليل ليهادوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده، فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل ﴿عَلَيْكُمْ الْبَيْلَ سَرِيًّا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ مواظب الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل ﴿عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرِيًّا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مواقع العبر، ومواضع الآيات فتستنير بصائرهم، وتسلكون الطريق المستقيم.

وقال في الليل: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وفي النهار: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار.

وفي هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ الرؤساء والقادة في الكفر والشر، مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ التابعون ﴿الَّذِينَ أَقْنَوْا أَغْوَيْنَهُمْ كُنَّا غَوِيًّا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

﴿نَرَانَا إِلَيْنَا﴾ من عبادتهم، أي نحن برآء منهم ومن عملهم ﴿مَا كُنَّا بِإِلَآهَا بِشِيرُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿رَقِيبٌ﴾ لهم: ﴿أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ على ما أملت فيهم من النفع، فأمرُوا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج، الذي يضطر فيه العابد إلى مَنْ عبده.

﴿فَنَدُّوهُمْ﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء ﴿فَلَقَدْ سَبَّحُوا لَهُمْ﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ الذي سيحل بهم عيانًا، بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به، منكرين له.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتمدوا في الدنيا، ولكن لم يهتمدوا، فلم يهتمدوا.

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هل صدقتموهم [واتبعتموهم] أم كذبتموهم وخالفتموهم؟

﴿فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جوابًا، ولم يهتمدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم، في ماذا يجيبون به، ولو كان كذبًا.

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَسَتْ أَنْ يُكُونَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجم به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن انصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحًا متبعمًا فيه للرسل ﴿فَقَسَتْ أَنْ يُكُونَ﴾ مَنْ جمع هذه الخصال ﴿وَمِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ الناجحين بالمطلوب، الناجين من المهروب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

(٦٨-٧٠) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْغِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ وَرَبُّكَ بِمَا تَكُونُ سُدُورُهُمْ وَمَا يُعْطُونَكَ ۚ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْاَحْدَثُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذه الآيات، فيها عموم خلقه لساير المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩٤

سُورَةُ الْقَصَصِ

قُلْ أَتَدْعُونَ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْمِيزَانَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ الْبَصِيرُ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٤﴾
قُلْ أَتَدْعُونَ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى
يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ الْبَصِيرُ ۖ لَبِّلِي تَسْكُونُ
فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴿٧٥﴾ وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكَ الْبَيْتَ
وَالنَّهَارَ لِلتَّسْكُوتِ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٦﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٧﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَآؤُلَا بَرُّهُنَّكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٧٨﴾ إِنْ قَرُّونَ كُنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ فَبَعَثَ
عَلَيْهِمْ وَءَايَاتِنَهُ مِنَ الْكَوْكِزِ مَا مَنَافِعُهُ لَنُؤَا بِالْعَصْبَةِ
أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْعَلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٠﴾

كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿مَا إِلَهَ مَنَافِعُهُ لَنُؤَا بِالْعَصْبَةِ﴾ [أُولَى
الْقُوَّةِ] والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو
ذلك. أي: حتى إن مفاتيح خزان أمواله لتثقل الجماعة القوية
عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزان؟ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ
قَوْمُهُ﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْعَلْ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها،
وتهلك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكيين
على محبتها.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: قد حصل
عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ
بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات،
وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا
نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق
لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر

(١) كذا في ب، وفي: وتكذب. (٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب
[فإذا حضروا هم وأولئك]. (٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب [وهم]
على طريق واحد. (٤) كذا في ب، وفي: فيهم إلهية.

حالة وجودها وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنة،
بخلاف مَنْ جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل
مستمراً، ولا يزال، وعمي قلبه عن التناء على الله، بنعمه،
ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة
شكراً، ولا ذكراً.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ۖ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَآؤُلَا بَرُّهُنَّكُمْ
فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ويوم
ينادي الله المشركين به، العادلين به، الذين يزعمون أن له
شركاء يستحقون أن يعبدوا، ويتفنون ويضرون، فإذا كان يوم
القيامة أراد الله أن يظهر جراتهم وكذبهم في زعمهم
وتكذيبهم^(١) لأنفسهم فـ ﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ﴾ أي: بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وَمَا
يَسْجُدُ لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

فإذا حضروا وإياهم^(٢)، نزع ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم
المكذبة ﴿شَهِيدًا﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم
واعقاداتهم، وهؤلاء بمنزلة المتخبيين.

أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين مَنْ يتصدى للخصومة
عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم^(٣) على طريق
واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فَقُلْنَا هَآؤُلَا بَرُّهُنَّكُمْ﴾ حجبتكم
ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم
رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد
يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم، أو يدفعون عنكم من
عذاب الله، أو ينجون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم
أهلية^(٤)، وليروكم، إن كان لهم قدرة. ﴿فَعَلِمُوا﴾ حيث
بطلان قولهم وفساده، و ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ تعالى، قد توجهت
عليهم الخصومة، وانقطعت حججهم، وأفلجت حجة الله،
﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب والإفك، اضمحل
وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع
العقوبة إلا بآسن استحقاقها واستأهلها.

(٧٦-٨٢) ﴿إِنْ قَرُّونَ كُنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ فَبَعَثَ
عَلَيْهِمْ وَءَايَاتِنَهُ مِنَ الْكَوْكِزِ مَا مَنَافِعُهُ لَنُؤَا بِالْعَصْبَةِ﴾ إلى
آخر القصة. يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل]، وفعل به
ونُصَحَ ووعظ، فقال: ﴿إِنْ قَرُّونَ كُنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ أي:
من بني إسرائيل، الذين فُضِّلوا على العالمين، وفاقوهم في
زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة
للاستقامة، ولكن قارون هذا، بنى على قومه وطغى، بما
أوتيه من الأموال العظيمة المطفية، ﴿وَأَيَّاتِنَهُ مِنَ الْكَوْكِزِ﴾ أي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٩٥

سُورَةُ الْقَصَصِ

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ فَدَاهَلَكَ
 مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَكَثَرَتْ جَمَاعًا
 وَلَا تَسْأَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمَبْدُوءَاتِ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ
 فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا
 مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتَيْبُ بْنُ هَاشِمٍ أَلَّا يَحْظَ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ
 وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا
 بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَمَا كَانُوا مِنْ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا
 مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسُوءِ الرَّزْقِ لِمَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا
 وَيَكَانَهُ لَا يَخْلُجُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا
 لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا
 يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر^(١) أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَلَيْكُمُ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راينين لحالهم، منكبين لمقالمهم ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ العاجل من لذة العبادة ومحبه، والإجابة إليه، والإقبال عليه، والأجل من الجنة وما فيها، مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿خَيْرٌ﴾ من هذا الذي تمنيتم وورغبت فيه، فهذا حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلْقَى ذلك ويوفى له ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يثرون ثواب الله على الدنيا الفانية. فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وإزيت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثائه، ومتاعه.

بآخركت ﴿وَأَحْيَيْنَا﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ﴾ عليك بهذه الأموال ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاستغفال بالتمتع عن التمتع ﴿لَئِنْ اللَّهُ لَا يُجِبُ الْمُتَمَدِّدِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

ف ﴿قَالَ﴾ قارون - راداً لصيحته، كافراً لنعمة ربه - : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أنني أهل لذلك، فلم تصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟ قال تعالى مبيناً أن عطائه ليس دليلاً على حسن حالة المعطي: ﴿أَوَلَمْ يَتْلُك أَنَّ اللَّهَ قد أَخْلَقَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَكَثَرَتْ جَمَاعًا﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مضي عادتنا وستتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟

﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمَبْدُوءَاتِ﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك دافعاً عنهم من العذاب شيئاً، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً قد أعجبت نفسه، وغره ما أوتيته من الأموال ﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجهل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقتها في تلك الحالة العيون، وملأت بؤنة القلوب، واختلبت زينتة النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

ف ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: ﴿بَلِّغْنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتَيْبُ بْنُ هَاشِمٍ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إِنَّمَا لَدُوْهُ حَظٌّ عَظِيمٌ﴾.

وصدقوا إنه لدو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهياً إلى رغبتهم، وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التمتع^(١) بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همته، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها، ومنتهى مطلبها، لَئِنْ أَدْنَى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية، والمطالب الغالية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء،

(١) كذا في ب، وفي أ: التميم. (٢) كذا في ب، وفي أ: نظروا.

فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقتدر بها ما لا تقبل منه، أو يطلها، فهذا لم يجرى بالحسنة.

والحسنة، اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الطاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى، وحق^(١) عباده ﴿فَلَهُ حَرْبٌ يَنْتَهِ﴾ [أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فَلَهُ عُسْرٌ أَمْثَالُهَا﴾]^(٢).

هذا التضعيف للحسنة لا بد منه، وقد يقتدر بذلك من الأسباب ما يزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمْدِدُ لِمَنْ يَشَاءُ لَيْسَ بِكَيْفٍ وَسِعَ عَلَيْهِمْ﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه، ومحلّه، ومكانه، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبْتِ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه، نهى تحريم، ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّبْتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالسَّبْتِ فَلَهُ عُسْرٌ أَمْثَالُهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبْتِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(٨٥-٨٨) ﴿إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقَرْضَ لَرَأْدٌ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهَدْيِ وَمَنْ هُوَ فِي سَبِيلِ شَيْءٍ ۖ وَمَا كُنْتُ رَجِيحًا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي وَلَا تَكُونُ وَلَا تَكُونُ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ۖ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ أَمْرٍ اللَّهُ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الشَّاكِكِينَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفَتْحُ وَإِلَيْهِ رُجُوعُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقَرْضَ﴾ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم.

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحت لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك، والقدح بما جئت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والمحق والمبطل، ولهذا قال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهَدْيِ وَمَنْ هُوَ فِي سَبِيلِ شَيْءٍ﴾ وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿وَمَا كُنْتُ رَجِيحًا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: لم تكن متحرًا لتزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعدًا له، ولا متصدًا، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي رَبِّكَ﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا

﴿فَمَا كَانَ لَمْ مِنْ يَفْقَهُ﴾ أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود ﴿يَصْغُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَعَبِينَ﴾ أي: جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر.

﴿وَأَصْحَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَنْتَقِلُ لَنَا يَمَلُ مَا أَوْفَى قَرْوُونَ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِاللَّهِ بِسَبْطِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَيَقُولُونَ﴾ أي: يضيّق الرزق على مَنْ يشاء، فعلما حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلًا على خير فيه، وأنا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَظِيمُونَ﴾.

﴿وَلَوْ لَا أَنْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومته ﴿لَكُنَّا سَفَاحًا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول. ﴿وَيَكْفُرُونَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(٨٣) ﴿يَنْتَقِلُ الدَّارَ الْآخِرَةَ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالَّذِينَ هُمْ يُسَلِّمُونَ﴾ لما ذكر تعالى قارون وما أوتيته من الدنيا، وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿تَوَكَّبْ أَلَوْ حَرْبٌ لَمَّا مَكَتَ وَفَعَلَ صَلَاحًا﴾ رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخير بالسبب الموصل إليها فقال: ﴿يَنْتَقِلُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرتها [بها] رسله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿يَجْعَلُهَا﴾ دارًا وقرارًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي.

فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض، والافساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُسَلِّمُونَ﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح التي تستمر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويوزل عن قريب، وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب^(٣).

(٨٤) ﴿مَنْ جَاءَ بِالسَّبْتِ فَلَهُ حَرْبٌ يَنْتَهِ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبْتِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّبْتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن مضاعفة فضله، وتمازج عدله، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالسَّبْتِ﴾ شرط

(١) في ب: حظ. (٢) في ب: وحقق العباد. (٣) زيادة من هاشم ب.

٣٩٦

سورة العنكبوت

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي
 أَعْلَمُ مِنْ جَاءِ الْهَادِكِ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتُ
 تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
 فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ
 اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفُتُورُ وَلَيْلِي تَرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْكَأَ هُمْ لَا
 يُقْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
 صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا
 لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ رَبِّهُ لَأَتِيَكَ اللَّهُ لِقَاءً وَمَنْ
 جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾

يُقْتَنُونَ ٠ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا
 وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ يخبر تعالى عن تمام [حكمته] وأن حكمته
 لا تقتضي أن كل من قال: «إنه مؤمن» ادعى لنفسه الإيمان،
 أن يقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض
 لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر
 كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل،
 ولكن سته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يتلهم
 بالسراء والضراء، والعسر ويسر، والمنشط والمكره،
 والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان،
 ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن التي
 ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات
 المعارضة للإرادة.

فَمَنْ كَانَ عِنْدَ رُودِ الشَّهَاتِ يَثْبِتُ إِيمَانَهُ وَلَا يَتَزَلُّزَلْ،
 ويدفعها (١) بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة
 والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارقة عن ما أمر الله به

الكتاب الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا
 يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من
 قبل لفي ضلال مبين.

فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما
 أمر به ونهى عنه فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك
 حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصح وأقبح.

﴿قُلْ تَكُونُوا ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: معينا لهم على ما هو من
 شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم، أن يقال في شيء منه،
 إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ بل ابغها
 وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخذعنك عنها، ولا تتبع
 أهواءهم.

﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك متهى قصدك
 وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فارضه، من رياء، أو
 سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى
 الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه
 التي هي جميع المعاصي.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل أخلص لله عبادتك،
 فإنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد،
 إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وإذا
 كان كل شيء هالكا مضمحلا سواه، فعبادة الهالك الباطل
 باطلة، ببطلان غايتها، وفساد نهايتها ﴿لَهُ لُكُوفٌ﴾ في الدنيا
 والآخرة ﴿وَرِثِيَّةٌ﴾ لا إلى غيره ﴿تَرْجَعُونَ﴾ فإذا كان ما سوى
 الله باطلا هالكا، والله هو الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله
 الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلائق كلهم،
 يجازيهم بأعمالهم، تعين على من له عقل أن يعبد الله وحده لا
 شريك له، ويعمل لما يقربه ويدينه، ويحذر من سخطه وعقابه،
 وأن يقدم على ربه غير نائب، ولا مقلع عن خطئه وذنبه.

تم تفسير سورة القصص - والله الحمد والثناء والمجد دائما
 أبداً -.

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دلّ على صدق إيمانه وصحته.

وَمَنْ كَانَ عِنْدَ وَرُودِ الشَّهَاتِ تَوَثَّرَ فِي قَلْبِهِ شُكٌّ وَرَيْبٌ، وَنَعِدَ عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّهَوَاتِ تَصَرَّفَهُ إِلَى الْمَعَاصِي أَوْ تَصَدَّقَهُ عَنِ الْوَاجِبَاتِ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ إِيْمَانِهِ وَصَدَقَهُ.

والناس في هذا المقام درجات، لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبر، يخرج خبيثها وطيبها.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنایات، أن أعمالهم تستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم، فإنه حكم جائر،
لأنهم لم يقتصروا على إظهار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها
من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

(٦٥) ﴿مَنْ كَانَ يَرْشُوا لِفَائَةِ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ كُلِّ غَلَابٍ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَعَلَّيْ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾
يعني: يا أيها المحب لربه المشتاق لقربه ولفائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزدود للقاءه، وسر نحوه، مستصحباً الرجاء، مؤملاً للوصول إليه، ولكن ما كل من يدّعي إعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فَمَنْ كَانَ صَادِقاً فِي ذَلِكَ أَنَالَهُ مَا يَرْجُو، وَمَنْ كَانَ كَاذِباً لَمْ تَنْفَعْهُ دَعْوَاهُ، وهو العليم بمن يصلح لحبه وَمَنْ لَا يصلح.

﴿وَمَنْ جَاهِدْ﴾ نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر ﴿فَإِنَّمَا بُجِّهْتُ لِنَفْسِي﴾ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاف عليهم.

وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتناقل بطبعها عن الخير، وشيطانها ينهأ عنه، وعوده الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هذا معارضات تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد.

(٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا لَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني أن الذين آمنوا بالله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم،

لأن الحسنة يذهب السيئات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، ففيها أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحات أيضاً، وغيرها.

(٨) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَهَنَّاكَ لِشْرَكَ فِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
أي: وأمرنا الإنسان، ووصينا بالولديه حسنًا، أي: ببرهما،
والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك،
ولا يعقهما ويسوء إليهما في قوله وعلمه.

﴿وَلَا يَجْعَلْ لَكُمْ فِتْنَةً بَيْنَهُمْ أَتَقْتُلُونَهُمْ﴾ وَلَيْسَ لَاحِدٍ عِلْمٌ بِصَحَّةِ الشُّرْكِ بِاللَّهِ، وَهَذَا تَعْظِيمٌ لِأَمْرِ الشُّرْكِ ﴿فَلَا تُلْقُواهُمَا إِلَى مِرْيَاحِهِمْ قَاتِلِينَ﴾ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، فَأُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، فَبَرُّوا وَالِدَيْكُمْ وَقَدِّمُوا طَاعَتَهُمَا، إِلَّا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّمَا مَقْدَمَةٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

(٩) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾
 أي: مَنْ آمَنَ بالله وعمل صالحاً، فإن الله وعده أن يدخله الجنة
 في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء
 والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان
 الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من
 أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

(١١، ١٠) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ لَفْظَةَ الْكُفْرِ كَذَابًا لِلَّهِ وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِن رَّبِّكَ لِتَقُولُوا إِنَّمَا أَنتُم مُّعْتَدُونَ ۚ وَكَانَ هَؤُلَاءِ السُّرُورُ الْعَلِيِّينَ ۖ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ بضر، أو أخذ مال، أو تعيير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل ﴿جَعَلَ لَفْظَةَ الْكُفْرِ كَذَابًا لِلَّهِ﴾ أي: يجعلها صادرة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صادر عما هو سبه.

﴿وَلِينَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ يُقُولُونَ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ لأنه موافق
للهوى ، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم : ﴿وَلِينَ
التَّائِبِينَ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ طَمَعًا يَدَّ﴾ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ أَقْبَلَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْمُخْشَرُّ
الْمُتَّيِّبُ .

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ حيث خبركم بهذا لفريق الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه

الْزَّالِزِيَّةِ

٣٩٧

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِرَآءَتِهِ حَسْبًا وَإِنْ جَهِدَكَ لِلشَّرْكِ فِي مَا مَلَكَ يَدُكَ بِهِ عَسَى
فَلَا تَطْعَمَهُمَا إِنْ مَرَجَعُكَ مَا يَتَشَكَّرُ بِمَا كُنْتَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٤﴾
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ يَقُولُ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾
وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٦﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَمِلِينَ ﴿١٧﴾ مِن خَطَايَاهُمْ مِنْ
شَيْءٍ إِنهِنَّ كَلِذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنفَالًا
مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْفَيْسَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢٠﴾

كفرهم وطمعناهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام، مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿لَيْتَ لَا نَذَرَ عَلَيَّ الْآخِرِينَ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾، «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ» أي: الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة «وَقَفَّ ظُلُمَاتٌ» مستحقون للعذاب.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن آمن به، «وَوَعَلْنَاهَا آيَةً»: أي: السفينة، أو قصة نوح «آيَةً لِلْعَالَمِينَ» يعتبرون بها، على أن مَن كَذَّبَ الرسل، آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا.

وجعل الله أيضًا السفينة، أي: جنسها آية للعالمين، يعتبرون بها رحمة ربهم، الذي قبض لهم أسبابها، وبشر لهم أمرها، وجعلها تحملهم، وتحمل متاعهم، من محل إلى محل، ومن قُطْرٍ إلى قُطْرٍ.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله. (٣) في ب: عقوبات.

وسعة حكمته ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: فلذلك قُدِّرَ مِنَّا وابتلاء، ل يظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما بعلمه بمجرد، لأنهم قد يحتاجون على الله، أنهم لو ابتلوا لَنَبَتُوا.

(١٢، ١٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَمِلِينَ﴾ مِن خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنهِنَّ كَلِذِبُونَ ۝ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْفَيْسَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن اختراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك تحذير المؤمنين من الاعتراض بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ﴿وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ﴾. وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهاذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِحَمِلِينَ﴾ مِن خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ۝ لا قليل ولا كثير، فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئًا، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه «أَلَّا تَزِرُ وَرَيْدًا وَرَيْدًا ثِقْرًا».

ولما كان قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَمِلِينَ﴾ مِن خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ قد يتوهم منه أيضًا، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا دينهم الذي ارتكبه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسبين فيه، قال [مخبرًا عن هذا الوهم: (١)] «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ» أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها «وَأَنفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ» وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرائهم، فالذنب الذي فعله التابع، [لكل من التابع] والمتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع؛ [لأنه] تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجراها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب، «وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْفَيْسَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ» من الشر وتزيينه، [لوقولهم: (٢)] «وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ».

(١٤، ١٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَوَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى عن حكمه وحكمته، في عقوبة (٣) الأمم المكذبة، وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحًا عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد وإفراذ الله بالعبادة، والنهي عن الأنثاد والأصنام ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ نبيًا داعيًا «أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» وهو لا يبي يدعوهم، ولا يفتر في نصيحهم، يدعوهم ليلاً ونهارًا وسرًا وجهارًا، فلم يردوا، ولم يهتدوا، بل استمروا على

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَأَجِئْتُ وَأَصْحَابُ السَّيْفَةِ وَجَعَلْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُهُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَسْرِعُ مَعَجِرَتِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَادَوْنَ اللَّهُ وَلِقَائِهِ أَوْلَىٰ أَتَىٰكَ بِبَشْوَاٍ مِّن زُحْمٍ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

وينفذ من القم عنهم، فهو الدافع لها.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يجازيكم على ما عملتم، وينتقم بما أسرتم وأعلمتم، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقرّبكم إليه، ويثبّثكم - عند القدوم - عليه. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ إِلَيْهِ﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم، إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ فإنكم ستجدون أمما من الادميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئا فشيئا، وتجودن النبات والأشجار، كيف تحدث وقتا بعد وقت، وتجودن السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجدها، بل الخلق دائما في بدء وإعادة.

فانظر إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم - وقد هجم

(١) في ب: لمصالح دينه ودنياء.

(١٦-٢٢) ﴿وَإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُهُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَسْرِعُ مَعَجِرَتِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليفه إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله، فقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحده، وأخلصوا له العبادة، وامتلوا ما أمركم به ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أن يغضب عليكم فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق «أفعل التفضيل» بما ليس في الطرف الآخر منه شيء.

فإن ترك عبادة الله وترك تقواه، لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيرا للناس، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه، ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فاعلموا الأمور، وانظروا ما هو أولى بالإتيار.

فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاتها للعبودية، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ تحتونها وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتخلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ فكانه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفقا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى مقال مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبودا تأله وتسأله حوائجها، فقال - حاثا لهم على من يستحق العبادة - ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ فإنه هو الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياء^(١).

﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم، فمنه. وجميع ما اندفع

عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم، حتى انشلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتهم قائلين: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾ بعد الإعادة ﴿يُنشِئُ النَّشْأَ الْآخِرَةَ﴾ وهي النشأة التي لا تقبل موتاً ولا نوماً، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَكِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب المعاصين والتكثير بهم ﴿وَالَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ أي: ترجعون إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكسبوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه، وهي المعاصي.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم، ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ ينصركم، فيدفع عنكم المكاره.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم، ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ ينصركم، فيدفع عنكم المكاره.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَجْبَدَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٨﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَمَنْ لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ
إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رِبِِّّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٠﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ
وَأَيَّاتِنَا أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
﴿٣١﴾ وَلُوطٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَأَتُونَ الْفُنُجِسَةَ
مِاسِكِينَ كَمَا فِيكُم مِّنَ الْأُنثَىٰ مِنَ الْأَنْثَىٰ ﴿٣٢﴾
إِنكُم لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِي كَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ
﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٤﴾

بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطع السبيل، وفشو
المنكرات في مجالسهم، فصحبهم لوط عن هذه الأمور،
وبين لهم قبائحها في نفسها، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة،
فلم يروعوا ولم يذكروا ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

فأيس منهم نبههم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من
شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ
الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم،
فمرؤا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق
يعقوب.

ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون
إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾
فقالوا له: ﴿كَتَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا زَوْجَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ثم
مضوا حتى أتوا لوطًا، فساء مجيئهم، وضاق بهم ذرعًا،
بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومه
باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن
آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم
يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك
الأمم المكذبة.

ولكن لعل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام، من
أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلمهم] وأجلهم، فلم يدع على
قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجري بسببه عذابًا عامًا.
ومما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم
لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، والله أعلم
بالحال.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: بعدما هاجر إلى الشام
﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من
ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي
محمد ﷺ، وعليهم أجمعين.

وهذا [من] أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد
الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم
اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلاح الصالحون
﴿وَأَيَّاتِنَا أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال،
والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله
ومحبته، والإجابة إليه.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بل هو ومحمد صلى الله
عليهما وسلم، أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلام
منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

(٢٨-٣٥) ﴿وَلُوطٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَأَتُونَ الْفُنُجِسَةَ
مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيَّكُمْ لَأَتُونَ
الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا
كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ إلى آخر
القصة. تقدم أن لوطًا عليه السلام آمن لإبراهيم، وصار من
المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو
ابن أخي إبراهيم.

فقله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ﴾ وإن كان
عامًا، فلا يناقض كون لوط نبيًا رسولًا. وهو ليس من ذريته،
لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد
أخبر أن لوطًا اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه أكمل
ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي، والله أعلم.

فأرسل الله لوطًا إلى قومه، وكانوا مع شرهم قد جمعوا

الضيف، فخاف عليهم من قومه، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله، ﴿إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَّ كَانَتْ مِنْكَ الْغَنِيَّةُ﴾. إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا أَي: عذابًا ﴿فَبِئْسَ السَّمَاءُ بِمَا كَانُوا يَفْشُونَ﴾ فأمره أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم، فصاروا سَمَرًا من الأسمار، وعبرة من العبر.

﴿وَلَقَدْ رَكَنَّا بَيْنَهَا مِائَةً بَيْتَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: تركنا من ديار قوم لوط آثارًا بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم [فيستفون بها]. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ مُّصْغِيَةً﴾ وَلَا تَأْتِلْ أَفَلَا يَعْقِلُونَ.

(٣٦، ٣٧) ﴿وَلِإِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورُ أَفْعِدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ أَي: ﴿وَوَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شُعَيْبًا﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ببخس المكاييل والموازين والسعي بقطع الطرق، فكذبوه فأخذهم عذاب الله ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾.

(٣٨-٤٠) ﴿وَعَادًا وَكُثُوبًا وَقَدْ نَبِّئْتُ لَكُمْ مِنْ مُّسَكِّنِهِمْ وَزَكَاتٍ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَضَلَّهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْطَفِينَ﴾ وَقُدْرَتٌ وَفُورَةٌ وَهَمَكٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوَسٌ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة فكذبوهم، وجادلوهم.

﴿وَرَبِّ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَضَلَّهُمْ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم يقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله، فأذلوهم، وعلى الحق فردوه، فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة]. ﴿وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً﴾ الله، ولا فائتين، بل سلموا واستسلموا.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا فِيهَا النَّجِيبَةُ وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَنِيِّتِ ﴿٤٠﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَتْ إِلَيْهِمْ وَصَافَكَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَّ كَانَتْ مِنْكَ الْغَنِيَّةُ ﴿٤١﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ رَكَنَّا مِائَةً بَيْتَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ وَلِإِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورُ أَفْعِدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٤٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا مَسْكُونًا وَأَقْدَمَ تَبَرَّتْ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَكَاةٍ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْطَفِينَ ﴿٤٦﴾

﴿فَكَلَّا﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ على قدره، ويعقوبة مناسبة له ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: عذابًا يحصيه، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَحْنِينًا آيَاتِهِ خُشُوعًا وَفَرَفَ الْقَوْمَ يَوْمَ مَرَعَوْا فَأَتَتْهُمْ حُسُوبُهُمْ وَأَخَذَتُهُمْ غَشَاةٌ شَدِيدَةٌ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم صالح ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كفارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقرون وهامان وجنودهما.

﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق ﴿وَلَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ متعوها حقها، التي هي بصده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضرروها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم يتفنعونها.

(٤١-٤٣) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ ذُنُوبِ اللَّهِ أَوَّلِيَّةَ كَفَّيْنَا الْمَنَكِينَ﴾ أَخَذَتْ سَيِّئًا وَلَيْنَ أَوْفَى الْيُسُوبِ لَبِثَ الْمَنَكِينَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ

الْحَكِيمِ

٤٠١

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَقُرْآنُ الْغَيْثِ وَفَرَعُونَ وَهَمَّكَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ
بِالْبَيْتِ فَأَسْتَسْكِنُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِدِينَ
﴿١٦﴾ فَمَا أَكْثَرُ الَّذِينَ آذَيْنَهُ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ آيَاتُ اللَّهِ لِيُظْلَمَ بِهِ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ
أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
أَتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْلَىٰ الْأَبْيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُعْتَصِرُونَ مِنْ
دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾ وَتِلْكَ
الْأَمْثَلُ نُصَرِّفُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ
﴿٢٠﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ أَتَىٰ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٢٢﴾

العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها
وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل
العلم، فعلم أن مَنْ لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن،
إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل
الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله
بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبدلون جهدهم في
معرقتها.

وأما مَنْ لم يعقلها مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس
من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم
معرفته غيرها من باب أولى وأحرى، ولهذا أكثر ما يضرب الله
الأمثال في أصول الدين ونحوها.

(٤٤) ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو تعالى المتفرد بخلق السماوات، على
علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر
والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار

شَيْءٌ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصَرِّفُهَا لِلنَّاسِ
وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ۖ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه
غيره، يقصد به التعزز والثبوت والنفذ، وأن الأمر بخلاف
مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتًا يقبها من
الحر والبرد والآفات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُيُوتِ أَضْعَفُوا أَوْهَامَهَا
﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها
من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفًا. كذلك
هؤلاء الذين يتخلون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع
الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم،
ويستصرونهم، ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم، ووهنًا إلى
وهنهم، فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا
عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها،
فخذلهم فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالهم من
معونتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال مَنْ
اتخلوهم، لم يتخذوهم، ولتبرأوا منهم، ولتولوا الرب القادر
الرحيم، الذي إذا تولاه عبده، وتوكل عليه، كفاه مؤونة دينه
ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله
وأعماله.

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ارتقى من هذا إلى ما
هو أبغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء
سموها، وظنون اعتقدها، وعند التحقيق يتبين للعاقل
بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا يَدْعُونَ بِهِ
دُؤْيُومٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب
والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئًا موجودًا، ولا إلها
له حقيقة، كقوله تعالى: ﴿إِنْ مِنْكُمْ أَتَمَّةٌ فَتَحْنَبُوا أَتَمَّ وَمَا يَذْكُرُ
مَا أَتَى اللَّهُ الْبَنِيَّ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَسْجُدُ لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْجُدُوا إِلَّا لَلْعَلَّةِ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يُحْرَمُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي له القوة جميعًا، التي قهر
بها جميع المخلوقات ﴿الْمَكْرَمُ﴾ الذي يضع الأشياء
مواضعها، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن ما أمره.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصَرِّفُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: لأجلهم
ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم،
ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح
المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعوم الناس.

﴿وَلَكِنْ﴾ لكن ﴿مَا يَعْقِلُهَا﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على
ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي: أهل

أكمل الجزء وأوفاه.

(٤٦) ﴿وَلَا تُصَلُّوا أَعْلَى الْكَعْبَةِ إِلَّا بِالْيَدِ الَّتِي أَحْسَنَ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنَّهُمْ وَاللَّهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ بَرٌّ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ينهي تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة، وحسب العلو، بل يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق.

إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنَّهُمْ وَاللَّهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ بَرٌّ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ولكن مجادلتم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم، [على وجه] يحصل به^(١) القبح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدم بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وأداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً.

وأيضاً فإن بناء مناظرة أهل الكتاب على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية، التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ، قد بيّنتها، ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسول كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال: نؤمن بما دلَّ عليه الكتاب الفلاني دون الكتاب الفلاني، وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالكذب؛ لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

(١) في ب: العباد. (٢) في أ: بها.

والبراري والقفار، والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق، أي لم يخلقها عبثاً، ولا سدى، ولا غير فائدة، وإنما خلقها ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتديبره، ما يدلهم على أنه وحده، معبودهم ومحبوبهم والهمم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمُؤْمِنِينَ﴾ على كثير من المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

(٤٥) ﴿أَنْتَ لَمَّا أَرِيتَ إِلَهُكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْبَرُ الْمَسْكُونَةِ إِنَّكَ الْمَسْكُونَةُ تَنْتَحِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته، اتباعه، بامثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه.

وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخله في تلاوة الكتاب، فيكون قوله: ﴿وَأَقْبَرُ الْمَسْكُونَةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وأثارها الجميلة، وهي ﴿إِنَّكَ الْمَسْكُونَةُ تَنْتَحِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

والفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس.

والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر. ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستتير قلبه، ويظهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها.

وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى إنما خلق الخلق^(١) لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ذلك

﴿٤٧﴾

٤٠٢

﴿٤٨﴾

﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُ نَزَّلَتْ لَهُ رَسُولُهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٧)
 وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَلْيُذَكِّرْ بِهِ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ اللَّهُ لَا تَزْنُوا بِمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ يَزْنِ بِهِ يَزْنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا تَتَّبِعُوا سُلُوكَ الْكَافِرِينَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُهُ بِرِسْمِكَ إِذَا لَزَمَ الْأَمْرَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُورِ الْآيَاتِ أَوْ تَوَارِعُ الْعِلْمِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

وأيضاً فإن كل طريق تثبت به^(١) نوبة أي نبي كان، فإن مثلها وأعظم منها، دالة على نوبة محمد ﷺ، وكل شبهة يقدح بها في نوبة محمد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نوبة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره فثبت بطلانها في حقه ﷺ أظهر وأظهر.

وقوله: ﴿وَتَحْزَنُ لِمَ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متقادون مستسلمون لأمره، وَمَنْ آمَنَ بِهِ، واتخذهُ إلهاً، وآمن بجميع كتبه ورسله، واتقاد لله واتباع رسله، فهو السعيد، وَمَنْ انحرَفَ عن هذا الطريق، فهو الشقي.

(٤٨، ٤٧) ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَلْيُذَكِّرْ بِهِ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ اللَّهُ لَا تَزْنُوا بِمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ يَزْنِ بِهِ يَزْنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا تَتَّبِعُوا سُلُوكَ الْكَافِرِينَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُهُ بِرِسْمِكَ إِذَا لَزَمَ الْأَمْرَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، هذا ﴿الْكِتَابُ﴾ الكريم، المبين كل نأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون.

﴿فَلْيُذَكِّرْ بِهِ﴾ فغرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقيح، والصدق والكذب.

﴿وَمَنْ هُوَ اللَّهُ لَا تَزْنُوا بِمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ يَزْنِ بِهِ يَزْنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا تَتَّبِعُوا سُلُوكَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له، وهذا حصر لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق، وإلا فكل مَنْ له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل مَنْ له عقل، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه، وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال من أظهر البينات القاطعة التي لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ﴾ أي: تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُهُ بِرِسْمِكَ﴾ إذا لو كنت بهذه الحال ﴿لَزَمَ الْأَمْرَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها.

فأما وقد نزل على قلبك كتاباً جليلاً تحديت به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثهم أنفسهم بالمعارضة،

لعلهم يبلاغه وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

(٤٩) ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُورِ الْآيَاتِ أَوْ تَوَارِعُ الْعِلْمِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي: ﴿بَلْ﴾ هذا القرآن ﴿آيَاتٌ﴾ لا خفيات ﴿فِي صُورِ الْآيَاتِ أَوْ تَوَارِعُ الْعِلْمِ﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكامل منهم.

فإذا كان آيات بينات، في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظمناً، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعنده، وعرف صدقه فخالفه.

(٥٠-٥١) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

بـحيث لا تصلح الأمور إلا به^(١).

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له^(٢)، فلذلك قال: ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَكَفْرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير وتركيب القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذباً أحل بي ما به تعتبرون وإن كان إنما يؤيدني وينصرني ويسر لي الأمور، فلنكفيكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تخفي دليلاً، فإنه ﴿يَسْمَعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ومن جملة معلوماته حالي وحالكم، ومقالي لكم^(٣)، فلو كنت متقولاً عليه، مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي - لكان [قدحاً في علمه وقدرته وحكمته] كما قال تعالى: ﴿لَوْ نَقُولُ عَيْنًا بِغَيْرِ الْآقَابِ لَإِذًا لَّخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۚ ثُمَّ لَقَعْنَا مِنْهُ الرِّيْنَ ۚ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ حيث هم خسروا الإيمان بالله وملأته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فانهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

(٥٣-٥٥) ﴿يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَئِنَّهُمْ لَشَاءُونَ أَنَّهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ۚ يَسْتَعْجِلُونَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنَّهُمْ لَشَاءُونَ أَنَّهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ۚ يَوْمَ يُنَادِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - ﴿مَنْ هَذَا الَّذِي يُوعَدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مضروب لنزوله، ولم يأت بعد ﴿لَئِنَّهُمْ لَشَاءُونَ أَنَّهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ بسبب تعجزهم لنا، وتكذيبهم الحق، فلو أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم. ولكن - مع ذلك - فلا يستبطلون^(٤) نزوله، فإنه

يُؤْمِنُونَ ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَسْمَعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۚ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها، كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنزَلَ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ سَائِجًا﴾ الآيات. فتعيين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي^(٥) أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدِيتُ عِندَ اللَّهِ ۚ إِنْ شَاءَ أَنْزَلَهَا أَوْ مَنَعَهَا ۚ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلماً وجوراً، وتكبيراً على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات، فأي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟.

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ في علمهم بصدقك، وصدق ما جئت به ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكَتَبَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَالَاتِ الْبَاهِرَاتِ﴾ شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده، وهو أُمِّي، من أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه بإهام^(٦) آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يشن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي.

فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟ ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين^(٧)، والغيوب المتقدمة والمتأخرة مع مطابقتها للواقع، ثم هيئته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل: «ليته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «ليته لم ينه عنه»، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسيطرة إرشاداته، وهدايته، وأحكامه لكل حال وكل زمان،

(١) كذا في ب، وفي أ: وفي. (٢) في ب: وتحذيرهم إياه. (٣) في ب: السابقين. (٤) زيادة من هامش ب. (٥) في ب: فإنه رحمة له وغير. (٦) كذا في ب، وفي أ: ومقالكم. (٧) كذا في ب، وفي أ: يستعملون.

سَيَاتِيهِمْ ﴿بَقْنَةً وَهَمَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لـ «بدر» بطرين فاخبرين، ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأهانهم^(١) الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب اللدني، فإن أمامهم العذاب الآخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا، أو أمهل.

﴿وَأَنزَلْنَا لَهُمْ لَمُحِيطَةً بِالْكَافِرِينَ﴾ ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

﴿يَوْمَ يَشْهَدُهُمُ الْعَذَابُ بَيْنَ قَوْمِهِمْ وَبَيْنَ حَتَّى أَزْجِلَهُمْ وَيَقُولُ دُورُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب، كما شملكم الكفر والذنوب.

(٥٦-٥٩) ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي أَرْضِي وَبِيعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونِ ۚ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رُجِعُوهُمْ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا تُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ۚ وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وصدقوا رسولي ﴿إِنِّي أَرْضِي وَبِيعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونِ﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية، والمنازل الأنيقة الجامعة لما تشتهي الأنفس، وتلذذ الأعين، وأنتم فيها خالدون.

ف ﴿بِعَمِّ﴾ تلك المنازل، في جنات النعيم ﴿أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ لله ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على عبادة الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في ذلك، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك.

وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلاً في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

(٦٠) ﴿وَكَايَنَ لِمَن دَاخِلٌ لَا تَحِيلَ رِزْقُهَا اللَّهُ رِزْقُهَا وَإِنَّا كَافَّةً وَهُوَ

٤٠٣
وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْضَةٌ وَهَمٌّ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ يَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِن جِئْتَهُمْ لَمُحِيطَةً بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾ يَوْمَ يَشْهَدُهُمُ الْعَذَابُ بَيْنَ قَوْمِهِمْ وَبَيْنَ حَتَّى أَزْجِلَهُمْ وَيَقُولُ دُورُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾ يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي أَرْضِي وَبِيعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونِ ﴿٥٩﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رُجِعُوهُمْ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا تُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٢﴾ وَكَأَيَنَ لِمَن دَاخِلٌ لَا تَحِيلَ رِزْقُهَا اللَّهُ رِزْقُهَا وَإِنَّا كَافَّةً وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٣﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَاِلسَمَاءُ لِلَّهِ يُدْرِكُ أَكْثَرُ رِزْقِهِ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الباري تبارك وتعالى قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قوبهم، وعاجزهم فكم ﴿بَيْنَ دَاخِلٍ﴾ في الأرض ضعيفة القوى، ضعيفة العقل ﴿لَا تَحِيلَ رِزْقُهَا﴾ ولا تدخره، بل لم تزل، لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق في كل وقت وبوقت.

﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّا كَافَّةً﴾ فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتديركم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَاخِلٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَسَّرَ مَسْرَعًا وَمُسَوِّدَهَا كُلِّ فِي كِتَابٍ ثَبِينٍ﴾.

(٦١-٦٣) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَكُ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَن يُوقُونَ ۚ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكْفِي شَيْءٌ عَلَيْهِ ۚ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَاِلسَمَاءُ لِلَّهِ يُدْرِكُ أَكْثَرُ رِزْقِهِ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا استدلال على المشركين

(١) في النسخين: فأهانهم، ولعلها كما أثبت، والله أعلم.

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لَوْ كُنَّا يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار الله واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة (١) الشدة عند ركوب البحر، وتلاطم أمواجه، وخوفهم الهلاك، يتركون إذا أناداهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى (٢) من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال (٣) عنهم مشقة. فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقين ثوابه، مندفعين عنهم عقابه.

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون عاقبتهم كفر ما آتياهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم.

﴿سَوَّاهُ يَعْلَمُونَ﴾ حين يتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف، واليأس العقوبة.

ثم امتنَّ عليهم بحرمه الآمن، وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتخطفون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع، وأمنهم من خوف.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُدْعُونَ﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة، ﴿وَيَدْعُونَ اللَّهَ﴾ هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فأين ذهب عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا﴾ على يد رسوله محمد ﷺ.

ولكن هذا الظالم العنيد، أمامه جهنم ﴿الَّتِي فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم الذين لا يخرجون منه.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته

المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية فأنت لو سألته من خلق السماوات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن يديه تدبير جميع الأشياء؟ ﴿لَقَوْلُ اللَّهِ﴾ وحده، ولا غترقوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك.

فاعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من آثروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدير شيئاً، وسجل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، المخلق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون.

وقل: الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم، ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينهي لهم. (٦٤-٦٩) ﴿وَمَا هِيَ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ لَئِمَّةٌ لِّمَنِ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَا اللَّهُ تَحْمِيلِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَا يَحْمِلُهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ إِذَا هُمْ يَشْرِكُونَ ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَيَتَمَنَّوْنَ سَوَاءً يَعْلَمُونَ﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ لِيَسْكُنُوا فِيهِ لِيَأْخُذُوا بِطَوَافٍ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُدْعُونَ وَنَبْعَثُ اللَّهُ مَكَفُرِينَ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا﴾ لَمَّا جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك التزهد في الدنيا والتشويق للآخرة، فقال: ﴿وَمَا هِيَ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالية للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلّة الباطلة، ثم تزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها معها، إلا على الندم والحسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة فإنها دار ﴿الْحَيَوَانِ﴾ أي: الحياة الكاملة التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقوامها في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المأكّل، والمشارب، والمنكح، وغير ذلك، مما لا عين

(١) في ب: حال. (٢) كذا في ب، وفي أ: نجاهم. (٣) كذا في ب، وفي أ: زال.

﴿تَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك، لأنهم محسنون.

﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالعون، والنصر، والهداية، دل هذا على أن أخرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله، ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن مَنْ جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نُوَعِي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت - بحمد الله وعونه - .

تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿الْعَلَّ ۝ غَلِبَ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَكُونُونَ ۝ فِي يَضَعُ سِينَتَهُ ۝ يَلِيهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَالْعَكِيزُ ۝ الرَّحِيمُ ۝ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظُهُورًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال، ما يكون بين الدول المتوازنة.

وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون - لاشتراكهم والفرس في الشرك - يحبون ظهور الفرس على الروم.

فظهر الفرس على الروم، فغلبوهم غالبًا لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم^(١) أن الروم ستغلب الفرس.

﴿فِي يَضَعُ سِينَتَهُ﴾ تسع، أو ثمان، ونحو ذلك، مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُو وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَائِكِ دَعَا إِلَى اللَّهِ تَخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قُلْنَا بَحْثْنَهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ إِذَا هُمْ يَشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْمَعُوا قُصُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً آمِنًا وَيَسْطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْنًا لِبَطْلِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَعْمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَلَّ ۝ غَلِبَ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَكُونُونَ ۝ فِي يَضَعُ سِينَتَهُ ۝ يَلِيهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَالْعَكِيزُ ۝ الرَّحِيمُ ۝ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظُهُورًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝

لِلرُّومِ، ثم غلب الروم للفرس، كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿فَلَقَدْ أَكْثَرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترب بها القضاء والقدر.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويفهروهم ﴿يَقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَضَعُ سِينَتَهُ ۝ يَلِيهِ الْأَمْرُ ۝﴾ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفارًا، ولكن بعض الشراةون من بعض، وبحزن يومئذ المشركون. ﴿وَهُوَ الْكَافِرُ﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلاق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، حيث قيص لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم، ما لا يدخل في الحساب.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

سورة الروم

٤٠٥

سورة الروم

وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ

﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِآلْحَقٍّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ

لِفَاقٍ رَّبَّهُمْ لَكُفْرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي الْأَرْضِ يُنظَرُ

كَيْفَ كَانَ عِقَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

وَأَثَرُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّهِمْ وَلَكِن كَانُوا

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عِقَبَ الَّذِينَ آمَنُوا السَّوَآتِ

أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ

يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ

السَّاعَةِ يُبَيِّنُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ

شُفَعَاءُ وَكَانُوا لِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ

نَقُومُ السَّاعَةِ يُؤْمِدُ يُنْفِرُ فُورُونَ ﴿١٤﴾ فَمَا أَلَذَّيْنِ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وَمَعَهُ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشناق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الأبواب.

وأظهروا من العجائب الذرية^(١)، والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية، والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبعد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون^(٢)، نسوا الله فانساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم^(٣) نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، ولما [حرماً من العقل العالي، فعفروا^(٤) أن الأمر لله، والحكم له في عياده، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا^(٥) ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته، وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه، لاثمرت الرقي

العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد، لم تنمر إلا بهبوط الأخلاق، وأسباب الفناء والتدمير^(٦).

(٨-١٠) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لِفَاقٍ رَّبَّهُمْ لَكُفْرُونَ﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي الْأَرْضِ يُنظَرُ كَيْفَ كَانَ عِقَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَرُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّهِمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عِقَبَ الَّذِينَ آمَنُوا السَّوَآتِ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةِ يُبَيِّنُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا لِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةِ يُؤْمِدُ يُنْفِرُ فُورُونَ ﴿١٤﴾ فَمَا أَلَذَّيْنِ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

(١) كذا في ب، وفي: أ. التارية. (٢) كذا في ب، وفي: أ. يتردون. (٣) هكذا في النسخين، وقد شطبت الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو). (٤) في ب عدلت إلى: لعرفوا. (٥) في ب عدلت إلى: ولخافوا. (٦) زيادة من هامش ب، لم يوضع أولها، وقد نقلته من الطبعة السلفية. (٧) كذا في ب، وفي: أ. يعرف.

يأسون من كل خير، وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجماع، وهي الذنوب، من كفر، وشرك، ومعاصي. فلما قدموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب، آيسوا وأبلسوا وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه، من نفع شركائهم، وأنهم يشفعون لهم.

ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمُ الَّذِي عَبْدُوهُمَا مَعَ اللَّهِ﴾ ﴿شُعْتُوهُمْ وَكَانُوا شُرَكَائِهِمْ كَفِيرِينَ﴾. تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون، وقالوا: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَهِكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِتْنَةً يَبْتَلُونَ﴾، والتعنوا وابتعدوا، وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افتزقت أعمالهم في الدنيا.

﴿فَأَنَّا الذُّرِّيَّةَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ءَامَنُوا بَقُلُوبِهِمْ
وَصَدَّقُوا ذَلِكَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ﴿فَهَرَفَ فِي رَوْحَتِهِ﴾ فِيهَا سَائِرُ
أَنْوَاعِ النَّبَاتِ وَأَصْنَافِ الْمَشْتَهَاتِ، ﴿تُخْبِرُكَ﴾ أَيُ:
يَسْرُونَ، وَيَنْعَمُونَ بِالْمَأْكَلِ اللَّذِيذَةِ، وَالْأَشْرَةِ، وَالْحُورِ
الْحَسَنَاتِ، وَالْخُدَمِ، وَالْوِلْدَانِ، وَالْأَصْوَاتِ الْمَطْرِبَاتِ،
وَالسَّمَاعِ الْمَشْجِيِّ، وَالْمَنَاظِرِ الْعَجِيبَةِ، وَالرَّوَانِحِ الطَّيْبَةِ،
وَالْفَرَحِ وَالسَّرُورِ وَاللَّذَّةَ وَالْحُبُورِ، مِمَّا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ
يُصِفَهُ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فَالْأُتْلُكُ فِي الْعَذَابِ مُخَصَّرِينَ﴾ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، واطَّلَعَ العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوهمهم وقطع أمعاءهم، فأين الفرق بين الفريقين، وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين!!

(١٧-١٩) ﴿قَبِّحْنَا لِلَّهِ جِبْنَ تُسَوِّتَ رَجِبْنَ نَصِيحُونَ ۝ وَلَهُ
الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ يُنْجِ الْآلَى مِنْ
الْغَيْبِ وَنُخْرِجُ الْآلِيَّتَ مِنَ الْآلَى وَيُجِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ
نُخْرِجُكُمْ﴾ هذا إخبار عن تنزيهه عن السوء والنقص، وتقديره
عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يسبحوه حين
يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي، ووقت الظهيرة.

فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من التوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله [لأوقات المفروضات] أفضل من غيرها.

[فالتسبيح والتحميد فيها، والعبادة فيها، أفضل من

ذلك، وأن الذي نقلهم أطوارًا من نقطة إلى علقه، إلى مضغة، إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سدى مهملين، لا يهتمون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

﴿فَمَا عَلَّمَ اللَّهُ الْقُرْآنَ وَالْأَفْصَحَ وَمَا يَسْمَعُ إِلَّا الْيَقِينَ﴾ [أي: ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، و﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: مؤقت بقاؤها إلى أجل تنقضي به الدنيا، وتجيء به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

﴿لَوْلَا كَثِيرٌ مِّنَ الَّذِينَ يُلْقَاوْنَ بِهِمْ لَكَفْرُونَ﴾ فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة قد دلّت على البعث والجزاء، ولهذا نبههم على السير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم، وخالقوا أمرهم، ممن هم أشد من هؤلاء قوة، وأكثر آثاراً في الأرض، من بناء قصور ومصانع، ومن غرس أشجار، ومن زرع، وإجراء أنهار، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم، حين كذبوا رسلهم الذين جاءهم بالبينات الدالات على الحق، وصحة ما جاءهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك، لم يجدوا إلا أمماً بائدة، وخلقاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة، وذم من الخلق عليهم متتابع، وهذا جزء معجل، نموذج للجزاء الأخروي، ومبتدأ له.

وكل هذه الأمم المهلكة، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم، وتسببوا في هلاكها.

﴿ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ أَتَوْا الشَّوْكَ﴾ أي: الحالة السيئة الشيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن ﴿كَذَّبُوا بِعِصْيَةِ اللَّهِ وَكَانُوا فِيهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فهذا عقوبة لسيئتهم وذنوبهم.

ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب، يكون سبباً لأعظم العقوبات، وأعضل المثلث.

(١١-١٦) ﴿اللَّهُ يَذِيقُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْيُدُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْسِلُ الْمَعْشُورِينَ • وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ
شُعْرَةٌ • وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ • وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِرُ
بِغَمْرٍ • فَأَمَّا الْبُزْجُ • آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ
يُحْمَرُونَ • وَأَمَّا الْبُزْجُ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ
فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء
المخلوقات، ثم يعيدهم، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم،
ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا ذكر جزاء أهل الشر، ثم جزاء أهل
الخير، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ﴾ أي: يقوم الناس لرب
العالمين، ويردون القيامة عياناً، يومئذ **يُبْسِلُ الْمَعْشُورِينَ** أي:

غيرها^(١) بل العبادة، وإن لم تشتمل على قول: «سبحان الله» فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل، أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق، ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بعكس المذكور ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. فينزل عليها المطر، وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ مِنَ الْقُبُورِ﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات.

فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

(٢١، ٢٠) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِبَشَرٍ تَنْتَبِهُونَ ۝ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَقْوُوا لَهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ هذا شروع في تعدد آياته الدالة على انفراده بالإلهية، وكمال عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة اقتداره، وجميل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِبَشَرٍ تَنْتَبِهُونَ﴾ أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة^(٢) وبثكم في أقطار الأرض [وأرجائها، ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل، وبثكم في أقطار الأرض]^(٣) هو الرب المعبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلوهن.

﴿لِتَقْوُوا لَهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحاصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعلمون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، ويتفكرون من شيء إلى شيء.

(٢٢) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿٢٣﴾ فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعِشَاءٍ وَحِينَ يُظَاهِرُونَ ﴿٢٥﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ مِنَ الْقُبُورِ ﴿٢٦﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِبَشَرٍ تَنْتَبِهُونَ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٢٩﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي خَلَقَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ مَا مُمْكِرٌ بِالنَّارِ وَالنَّارِ وَابْتِغَاءَ لَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٣١﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والعالمون: هم أهل العلم الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات، والآيات في ذلك كثيرة، فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيها، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمته، لما فيها من الإتيان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿يُسَبِّحُونَ لِلَّهِ﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويوحده، لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة.

فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها.

﴿و﴾ كذلك في ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة بخط المؤلف من هامش أ. (٣) زيادة من ب.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أَوَّلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقومون به، كانت^(١) قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهنددون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وَلَهُ الْمُسْلِمُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو كل صفة كمال.

والكمال من تلك الصفة، والمحبة، والإنابة التامة الكاملة، في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل، والعبادة منهم، فالمثل الأعلى، هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقها أحق بالانصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتزنيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فعزته أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات وحكمته أتقن بها ما صنعه، وأحسن فيها ما شرعه.

(٢٨، ٢٩) ﴿خَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بي أن تتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من نصيبين هذا مثل ضربه الله تعالى لقبح الشرك وتهجينه، مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال.

﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه، واختصاص كل شيء بحاله؟.

ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم

متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته. [ومن]^(١) عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

(٢٣) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ سَمَّاكُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْغَمَامِ مِن فَوْفِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك.

إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى، كما قال: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرٌ﴾. وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا به^(٢) ويستجمعوا^(٣) وانتشروهم في وقت، لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

(٢٤) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَكَمَافًا وَيَمِيزُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَشْجَارَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: ومن آياته أن ينزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكهم قبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق، الذي يخاف ويطمئن فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [دالة] على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إتيانه، وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لهم عقول تعقل بها ما تسمعه، وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

(٢٥-٢٧) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ نَخْرُجُونَ﴾ ولهم من في السموات والأرض ككل لهم قوتون. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَقْوَمُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمُسْلِمُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا، وثبتا بأمره، فلم تنزلوا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرة العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الكل خلقه ومماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانون لجلاله، خاضعون لكماله.

(١) زيادة بقضيها السابق. (٢) زيادة من أ. (٣) الكلمة غير واضحة في النسخين وأنها (ويجما)، وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارا يستجمعا. (٤) في النسخين: كان.

شريكاً لكم فيما رزقكم الله تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم، وهم أيضاً مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا الله شريكاً من خلقه، وتجعلونه بمنزلة، وعديلاً له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة ممالككم لكم؟

هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على [سفه^(١)] من اتخذ شريكاً مع الله، وأن ما اتخذه باطل مضحك، ليس مساوياً له، ولا له من العبادة شيء.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق ويعرفون، وأما مَنْ لا يعقل، فلو فصلت له الآيات، وبينت له البينات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لُبَّ يعقل به ما توضح، فأهل العقول والآليات، هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

وإذا علم من هذا المثال، أن مَنْ اتخذ من دون الله شريكاً يعبد، ويتوكل عليه في أموره، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل، توضح له بطلانه، وظهر برهانه؟ [لقد^(٢)] أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلهذا قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصانها، ما تعلق به هواها، أمراً يجزم العقل بفساده، والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادم عليه.

﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله؛ لأنه ليس أحد معارضاً له، أو منازعاً له في ملكه. ﴿وَمَا لَهُمْ بِنْتِ نَجْمِيرٍ﴾ ينصرونهم حين تحقق عليهم كلمة العذاب، وتنفق بهم الوصل والأسباب.

(٣٠-٣٢) ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِنْ كَثُرَ الْكَافِرُ لَا يُعْلَمُونَ﴾ مَيْمُونٌ إِلَيْهِ وَأَنْفُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ﴾ أي:

انصب وجهه إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن توجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة، كالحمية، والخوف، والرجاء، والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

٤٠٧
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿١٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَمْلُوكٍ آمَنَ مِنْكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ ثُمَّ فَأَنزَلْنَاهُ فِيهِ سَوَاءً نَحْنُ وَالْهُمُ كَيْفَ تَعْبُدُونَ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٩﴾ فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِنْ كَثُرَ الْكَافِرُ لَا يُعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ مَيْمُونٌ إِلَيْهِ وَأَنْفُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٢﴾

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عما سواه. وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو ﴿فَطَرَتُ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ووضع في عقولهم حسناتها، واستباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كله الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة. ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أمرنا به ﴿الَّذِينَ الْقَوِيمُ﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى كرامته، فإن مَنْ أقام وجهه للدين حنيفاً فإنه سالك

سبيل الله، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟.

ولما أمر تعالى بالإنيابة إليه - وكان المأمور بها، هي
الإنيابة الاختيارية التي تكون في حاكمي العسر واليسر، والسعة
والضيق - ذكر الإنيابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان
إلا عند ضيقه وكربه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره،
وهذه غير نافعة، فقال:

[illegible]

﴿وَإِذَا مَنَّ النَّاسُ ضُرًّا﴾ مرض، أو خوف من هلاك ونحوه
﴿دَعَا لَهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك
الحال، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

﴿ثُمَّ إِنْ أَذَقْتُهُمْ مِثَّةً رَحْمَةً﴾ شفاهم من مرضهم، وآمنهم من خوفهم ﴿إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّحَابِ سَاقِطًا﴾ ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم، ويشركون به من لا دفع عنهم ولا أغنى، ولا أفقر ولا أغنى، وكل هذا كفر بما آتاهم الله، وعَنَ به عليهم، حيث أنجاهم وأنقذهم من الشدة، وأزال عنهم المشقة، فهلاً قابلاً هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ شُرَاطَنَا﴾ أي: حجة ظاهرة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أي: ذلك السلطان، ﴿يُحْكَمُ بِنَا كَأَنَّهُمْ يَمْرُؤُونَ﴾ ويقول لهم: اثبتوا على شرككم، واستمروا على شككم، فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتكم الرسل إليه باطل.

فهل ذلك السلطان موجود عندهم، حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية، والكتب السماوية، والرسل الكرام، وسادات الأنعام، قد نهوا أشد النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟ .

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس، ونزغات الشيطان.

(٢٧، ٣٦) ﴿وَإِذَا أَدْفَنُوا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَلَيْسَ فِيهِمْ سَبْتٌ بِمَا فَعَلَتْ آلِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ ۚ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْطِشُ الزُّلْفَىٰ لِمَنِ شَكَا وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس، في حالي الرخاء والشدة، أنهم إذا أذافهم الله منه رحمة، من صحة، وغنى، ونصر ونحو ذلك، فرحوا

(١) في ب: عمل.

الصراط المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإثابة إنباء القلب وانجذاب دواعيه لمراضى الله تعالى.

ويلزم من ذلك حمل^(١) البدن بمقتضى ما في القلب،
فشمّل ذلك العادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك

المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: ﴿وَأَتَّقُوا﴾ فهذا

وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وَأَمِرَ الْمَسْكُوتُ إِذَا أَمْسَكَتُمُ الصَّلَاةَ لَمَسَاسًا﴾ [النساء: 103]، فهذا إيعازها على التقوى، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [النساء: 104]، فهذا حثها على الإنابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لكون الشرك مضاداً للإمامة التي روحها الاخلاص، من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهتجين لها ومقبحاً فقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَحْمِلُ صَلَاتَ رِجَالٍ مُّشْرِكِينَ وَإِنَّا لَنَحْمِلُهُمْ كُفْرَهُمْ﴾ مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وَكَا نُؤُا شَيْعًا﴾ أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومنازلة غريم، محاربتهم.

﴿كُلُّ جُنُودٍ بِمَا كَذَّبُوا﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل
﴿فَيُحَرِّثُونَ﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم
على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم
فرقاً، كل فريق يتعصب لما معهم من حق وباطل، فيكونون
مشابهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد،
والرسول واحد، والإله واحد.

وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدوا لها وربطوا آتم ربط، فما بال ذلك كله يُلقى، وبيني التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده،
التي كاد بها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق
المبنى على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في

٤٠٨

وإِذَا مَنَّ النَّاسُ زُرْعًا وَبُنِيْنَ إِلَيْهِمْ إِذَا أَذَقَهُمْ
مِنَّةَ رَحْمَةِ إِذَا فَرِحُوا بِمَنْحِهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا أَصْفَوْا تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانًا فَهُوَ يَسْكُرُ بِمَا كَانُوا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا
النَّاسَ رَحْمَةً فَزَحَاهُا وَإِنْ نَضِيبَهُمْ سَيِّئَةً يَأْخُذُوا بِأَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ فِيهِ فَاذْكُرُوا لِقَوْمِ يَوْمِئِذٍ ﴿٤٣﴾ فَتَاتَ ذَا الْقُرْنَى
حَقُّهُ وَالْمُسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ رِزْقٍ
لِيَرْتَوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ زَكَاةٍ
تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغُوثُونَ ﴿٤٥﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَرْجِعْكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ هَلْ مِنْكُمْ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ سَخِمْنَاهُ وَوَعَلْنَا
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٦﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٧﴾

عقابه .

ولما ذكر العمل الذي يقصد به وجهه [من النفقات]، ذكر
العمل الذي يقصد به مقصد ديني فقال :

﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ رِزْقٍ لِيَرْتَوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أي : ما أعطيتهم
من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يربوا،
أي : يزيد في أموالكم، بأن تعطوها لمن تطعمون أن
يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند الله،
لكونه معلوم الشرط الذي هو الإخلاص، ومثل ذلك العمل،
الذي يراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس، فهذا كله لا
يربو عند الله .

﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ أي : مال يظهرهم من الأخلاق
الزبدية، ويظهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة
المُعطى ﴿تُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغُوثُونَ﴾
أي : المضاعف لهم الأجر الذين تربوا نفقاتهم عند الله،
ويربوا الله لهم، حتى تكون شيئاً كثيراً .

ودلّ قوله : ﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ أن الصدقة مع اضطراب
من يتعلق بالمنفق، أو مع دين عليه لم يقضه، ويقدم عليه

بذلك فرح بطر، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله .

﴿وَلَنْ نُصِيبَهُمْ نَيْفَةً﴾ أي : حال تسوؤهم، وذلك ﴿بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي، ﴿إِنَّا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يأسون من
زوال ذلك الفقر والمرض، ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم
معرفة .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ فالتنوط
بعدما علم أن الخير والشر من الله، والرزق، سعته وضيقة من
تقديره، ضائع ليس له محل، فلا تنظر أيها العاقل لمجرد
الأسباب، بل اجعل نظرك لمسبها، ولهذا قال : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهم الذين يعتبرون بسط الله الرزق لمن
يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده،
وجذب القلوب لسواله، في جميع مطالب الرزق .

(٣٩، ٣٨) ﴿فَتَاتَ ذَا الْقُرْنَى حَقُّهُ وَالْمُسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَلِكَ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ
مِنْ رِزْقٍ لِيَرْتَوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ زَكَاةٍ
تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغُوثُونَ﴾ أي : فأعط القريب منك
- على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع، أو
حضر عليه، من النفقة الواجبة، والصدقة، والهدية، والبر،
والسلام، والإكرام، والعفو عن زلته، والمسامحة عن هفوته،
وكذلك [أت] المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة، ما تزيل
به حاجته، وتدفع به ضرورته، من إطعامه وسقيه وكسوته .

﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ الغرب المتقطع به في غير بلده الذي في
مظنة شدة الحاجة، لأنه لا مال معه، ولا كسب قد دبر نفسه به
[في] سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنه وإن لم يكن له مال،
ولكن لا بد - في الغالب - أن يكون في حرفة، أو صناعة
ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصة
للمسكين وابن السبيل .

﴿ذَلِكَ﴾ أي : إتياء ذي القربى والمسكين وابن السبيل
﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بذلك العمل ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي : خير
غزير، وثواب كثير، لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع
المتعدي، الذي وافق محله المقرو به بالإخلاص .

فإن لم يرد به وجه الله، لم يكن خيراً لِمُعْطِي، وإن كان
خيراً ونفعاً لِمُعْطَى كما قال تعالى : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ
تُجَوِّنَهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾
مفهومها، أن هذه المنبات خير لنفعها المتعدي، ولكن مَنْ
يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً .

وقوله : ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها
لوجه الله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بواب الله، الناجون من

القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون أن يستأنفوا^(٣) العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا جزاء العمال ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّقُونَ﴾ أي: يتغفرون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين، ليُروا أعمالهم.

﴿مَنْ كَفَرَ﴾ منهم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من الحقوق التي لله، أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة ﴿وَلَا تَنْفُسِهِمْ﴾ لا لغيرهم ﴿بَتَّهَدُونَ﴾ أي: يهثون، ولأنفسهم يعمرن آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلتها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صبَّ عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعمة الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فلهاذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

(٤٦) ﴿وَمَنْ يَنْزِعْكَ أَنَّ رَسُولَ الرَّبِّ مَبْتَرٌ وَيُذَيِّقُكَ بَيْنَ رَحْمَةِ وَتَجَرُّهُ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَيَلْتَفِتُوا مِنْ قَسْوِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود ﴿أَنْ رَسُولَ الرَّبِّ﴾ أمام المطر ﴿مَبْتَرٌ﴾ يئارثها للسحاب، ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

﴿وَيُذَيِّقُكَ بَيْنَ رَحْمَةِ﴾ فينزل عليكم من رحمته مطراً، تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والجالية لأزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزائن الرحمة.

﴿وَلَتَجَرُّهُ الْفُلُكُ﴾ في البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾ القدري ﴿وَلَتَسْتَفْتُوا مِنْ قَسْوِهِ﴾ بالتصرف في معاشكم ومصالحكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور، فهذا المقصود من النعم، أن تقابل بشكر الله تعالى، ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم.

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي، فهذه حال من بذل نعمة الله كفراً، ونعمته محنة، وهو معرض لها للزوال، والانتقال منه إلى غيره.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِنْ قَوْمِهِمْ جَاهِلُونَ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّخَذُوا مِنْ آيَاتِهِ أَهْجَاتٍ وَأَكَلَتْ عَيْنَا نَصْرَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي:

(١) في ب: وباله. (٢) كذا في ب، وفي أ: في الأبدان. (٣) في ب: ليستأنفوا.

الصدقة، أن ذلك ليس بزكاة، يؤجر عليه العبد، ويرد تصرفه شرعاً، كما قال تعالى في الذي يمدح: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو أن يكون على وجه يتزكى به الموتى.

(٤٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْضُكُمْ ثُمَّ يُجْبِيْكُمْ هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَقُولُ بَيْنَ ذَلِكَ مَثَلٌ شَحْنَتُهُ وَتَعَلَّى عَنَّا يُتْرِكُونَ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المتفرد بخلقكم ورزقكم، وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء الذين يدعوه المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء، فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟ فسبحانه وتعالى، وتقدس وتنزه، وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبإلهم^(١) عليهم.

(٤١) ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: استعلن الفساد في البر والبحر، أي: فساد معاشهم وتقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء، وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها.

هذه المذكورة ﴿لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن أعمالهم، التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت ففصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم.

فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وآلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

(٤٢) ﴿قُلْ يَسِّرْ لِي الْأَرْضَ فَأَتْلَوْا كَيْفَ كَانَ عَيْتُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ شُكْرِينَ﴾ والأمر بالسير في الأرض، يدخل فيه السير بالأبدان^(٢)، والسير في القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ شُكْرِينَ﴾ تجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، وذم ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل، فاحذروا أن تفعلوا فعالهم، يُخذى بكم حذوهم، فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

(٤٣-٤٥) ﴿فَاقْرَأْ وَجَهَكَ لِلدِّينِ الْقَيُّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّقُونَ﴾ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يتهادون ○ ليَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ قَسْوِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واشع ببدنك، لإقامة الدين القيم المستقيم، نفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ وهو يوم

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقِينَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾^(١) حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسالهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص، والتصديق بالحق، وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاءهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيهم ﴿فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ لَعَنُوا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل. ﴿وَكَاثِبًا حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة وعدلناهم به، فلا بد من وقوعه.

فانتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ، إن بقيتم على تكذيبكم، حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

(٤٨-٥٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتَنُفُّ سَحَابًا يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ۝ وَلَئِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٌ ۝ فَانْظُرْ إِلَى عَائِثِ رَبِّكَ رَبَّكَ اللَّهُ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْتَوَّابِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتام نعمته، أنه ﴿يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتَنُفُّ سَحَابًا﴾ من الأرض ﴿يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يمدده ويوسعه ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: على أي حالة أرادها من ذلك ثم ﴿يَجْعَلُهُ﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كِسْفًا﴾ أي: سحابًا ثخينًا، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: السحاب، نفعًا صغارًا متفرقة، لا تنزل جميعًا، فنفسد ما أتت عليه. ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بذلك المطر ﴿مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ يشرب بعضهم بعضًا بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم، وضرورتهم إليه، فلهذا قال:

﴿وَلَئِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٌ﴾ أي: آيسين قاطنين، لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك الحال، صار له موقع عظيم [عندهم]^(٢)، وفرح واستبشار. ﴿فَانْظُرْ إِلَى عَائِثِ رَبِّكَ رَبَّكَ اللَّهُ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فاهتزت وربت، وأنبثت من كل زوج كريم.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُنْجَى الْتَوَّابِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى لا يتعاضى عليها شيء، وإن تعاضى على قدر خلقه، ودق عن أنفهامهم، وحارت فيه عقولهم.

(٥١-٥٣) ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ۝ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ الذُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَتَى بِهَذَا الْعَمِيِّ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنَّ تَسْمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾^(١) كان أكثرهم مشركين ﴿فَاقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَمْرُكِهِ﴾ من الله يوم يمد بصدغون ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ يَهْدُون﴾^(٢) ليحزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله. إنه لا يجزئ الكافرين ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيْحَ فَيُبَشِّرَ لَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتُنْجِرَ الْأَلْهَافُ بِأَمْرِهِ ۖ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣) ولقد أرسلنا من قبلك رسلًا إن قوامهم جاءهم وبالبينات فأنفقمنا من الذين أجرموا وكاثبًا حققًا علينا نصر المؤمنين ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتَنُفُّ سَحَابًا يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ۝ وَلَئِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٌ ۝ فَانْظُرْ إِلَى عَائِثِ رَبِّكَ رَبَّكَ اللَّهُ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْتَوَّابِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله تعالى، لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر، وعلى زروعهم، ريحًا مضرّة متلفّة أو منقصة ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ قد تداعى إلى التلف ﴿ظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ فيسبون النعم الماضية، ويبادرون إلى الكفر.

وهؤلاء لا ينفق فيهم وعظ ولا زجر ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ الذُّعَاءَ﴾ وبالأولى ﴿وَإِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحي.

﴿وَمَا أَتَى بِهَذَا الْعَمِيِّ عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ لأنهم لا يقبلون الإلصاق بسبب عماهم فليس منهم^(١) قابلة له.

﴿إِنْ تَسْمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهؤلاء الذين ينفق فيهم إسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المتقادون لأوامرنا، المسلمون لنا؛ لأن معهم الداعي القوي لقبول (١) زيادة من ب. (٢) في ب: فيهم.

٤١٠

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِجَالًا مِّنْهُم مُّصَفَّرًا لِّظُلُومٍ مِّنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّا لَنَاشِعُكَ الْمَوْتَ وَلَا نَشِيعُكَ الضُّعْفَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِينًا ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَذِهِ الْأَعْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِن شِيعُكَ إِلَّا مَن يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُفَكُّونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعَذِّبَتَهُمْ وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا تَأْتِيهِمْ آيَاتُ الْكُفْرِ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّا وَعَدُ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٥٩﴾

قولهم مطابقاً للواقع، مناسباً لأحوالهم.

فلهذا قالوا الحق: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم، وفي حكمه ﴿إِنَّ يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ أي: عمرتم عُمرًا يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعبر، حتى صار البعث، ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دائركم.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعَذِّبَتَهُمْ﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم، بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأنهم يردون ولا يعودون لما نفوا عنه، لم يُكْتَوَّ، فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم. ﴿وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يزال عتبيهم، والعتاب عنهم.

النصائح والمواظ، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدر عليهم من أوامر الله ونواهيه.

﴿٥٤﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه، وعظيم اقتداره، وكمال حكمته، ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأول من خلقه، من نطفة إلى علقة، إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام، إلى أن وُلِدَ، وهو في سن الطفولية، وهو إذ ذاك في غاية الضعف، وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور، ورجع إلى الضعف والشية والهرم.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بحسب حكمته، ومن حكمته أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة، لطغى وبغى وعتا.

وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة، يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء، ولا ضعف، ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿٥٥-٥٧﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُفَكُّونَ﴾ ○ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعَذِّبَتَهُمْ وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة، وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة ﴿يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بالله أنهم ﴿مَا لَبِثُوا﴾ في الدنيا إلا ﴿سَاعَةً﴾ وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا.

ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُفَكُّونَ﴾ أي: ما زالوا - وهم في الدنيا - يوفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا كذبوا الحق الذي جاءتهم به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو البعث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي: مَنْ الله عليهم بهما، وصاروا وصفاً لهم، العلم بالحق، والإيمان المستلزم إثبات الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق، مؤثرين له، لزم أن يكون

تفسير سورة لقمان

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿الَّذِينَ يَمُنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْتُونَ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿يَسِيرُ﴾
تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿إِنَّمَا أَنتَ الْكَلْبُ الْحَكِيمُ﴾
أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

من إحكامها أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها،
الدالة على أجل المعاني وأحسنها.
ومن إحكامها أنها محفوظة من التغير والتبدل، والزيادة
والنقص والتحريف.

ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار ^(٥) السابقة واللاحقة، والأمر الغيبي كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، [ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح، يناقض ما دلت عليه] ^(٦).

ومن إحكامها أنها ما أمرت بشيء إلا وهو خالص
المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص
المفسدة، أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع
ذكر [حكمته]^(٧) فائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها أنها جمعت بين الترغيب والترهيب،
والوعظ البليغ، الذي تعدل به النفوس الخيرة وتحكم،
فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف، فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، انبهر عقله، وذهل له من التوافق والتواطؤ، وجزم جزمًا لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى

(٥٨-٦٠) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولُوا زَيْغٌ أَتَيْنَ كَذِبًا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُذِلُّونَ ۚ كَذَلِكَ يَضَعُ اللَّهُ عَلَيَّ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الْإِنِّي لَا يُوَفِّيكَ ۚ أَيْ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ لِأَجْلِ عِبَانَتِنَا وَرَحْمَتِنَا وَلُطْفِنَا وَحُسْنِ تَعْلِيمِنَا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ تَضَحُّ بِهَ الْحَقَاقِقُ، وَتَعْرِفُ بِهَ الْأُمُورَ، وَتَقْطَعُ بِهَ الْحُجَّةَ، وَهَذَا عَامٌ فِي الْأَمْثَالِ الَّتِي يَضُرُّهَا اللَّهُ فِي تَقْرِيبِ الْأُمُورِ الْمَعْقُولَةِ بِالْمَحْسُوسَةِ، وَفِي الْإِخْبَارِ بِمَا سَيَكُونُ، وَجَلَاءَ حَقِيقَتِهِ، [حَتَّى] ^(١) كَانَهُ وَقَرَّ.

ومنه في هذا الموضع، ذكر الله تعالى ما يكون يوم القيامة
 وحالة المجرمين فيه وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا
 عتاب.

ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ يَحْشُرُهُمْ رَبِّيَ ۚ أَيُّ أَيِّ آيَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ صَحَّةِ مَا جِئْتُ بِهِ﴾ ﴿يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَسْمَدَ إِلَّا مُطَّلُونُ﴾ أي: قالوا للحق: إنه باطل.

وهذا من كفرهم وجراءتهم، وطَّعَ اللهُ على قلوبهم، وجعلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كَذَّٰلِكَ يَطَّعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبٍ الْيَبِيسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يدخلها خير، ولا تترك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما أمرت به، وعلى دعوتهم إلى الله، ولو آيت منهم إعراضاً، فلا يصدنك ذلك.

﴿إِنْ وَدَّ اللَّهُ شَيْئًا﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على العسير، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده قائماً، هان عليه ما يلقاه من المكاره، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ اللَّيْلُ وَلَا يُؤْتِيكَ﴾ أي: قد ضعف إيمانهم
ولس يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقل صبرهم، فإياك أن
تستخفك هؤلاء، فإنك إن لم تجعلهم^(٢) منك على بال،
تحذر منهم، وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على
الأوامر والنواهي، والنفس تساعدكم على هذا، وتطلب
لتشبه والمواقفة^(٣). وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موفق،
يزين العقل، يسهل عليه الصبر. وكل ضعيف اليقين، ضعيف
العقل^(٤) خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فالله
لمستعان.

(١) زيادة من ب. (٢) كذا في ب وفي أ: تجعل. (٣) كذا في ب وفي أ: والمراقبة. (٤) زيادة من ب. (٥) في أ: الأحكام، والتصويب من ب. (٦) زيادة من ب. (٧) زيادة من ب.

سُورَةُ الْقَمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَمَرِ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي لِهَوَى الْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِعَرٍ عَلَيْهِ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُّسْتَكْبِرًا
كَانَ لَرَبِّهِمْ أَكْبَرُ ٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٣ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢٣ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢٥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣٣ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣٥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٣٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤٣ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤٥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥٣ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥٥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٣ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧٣ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧٥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٧٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨٣ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨٥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٨٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩٣ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩٥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩٧ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩٩ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ
قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٠٠

عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا مَنْ وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

فإنه ﴿هُدًى﴾ لهم، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والثواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عاملين فاضلين: الصلاة المشتملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال، والزكاة التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبة للمال، فيخرجه محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

ف ﴿أُولَئِكَ﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أي: عظيم، كما يفيد التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي لم يزل يريهم بالنعم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين أدركوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكهم طريق الفلاح الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

(٦-٩) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي لِهَوَى الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِعَرٍ عَلَيْهِ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُّسْتَكْبِرًا ٧ كَانَ لَرَبِّهِمْ أَكْبَرُ ٨ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ قَالُوا سَمْعًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩﴾

أي ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ﴾ هو محروم مخذول ﴿يُشْرِي﴾ أي: يختار ويرغب ورغبة من يبذل الثمن في الشيء ﴿لِهَوَى﴾ أي: الأحاديث الملئية للقلوب، الصادقة لها عن

أجل مطلوب، فدخل في هذا كل كلام محرم، وكل لغو وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونسيمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماجريات الملئية التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصف من الناس يشترى لهو الحديث عن هدي الحديث ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿بِعَرٍ عَلَيْهِ﴾ أي: بعدما ضل بفعله أضل غيره، لأن الإضلال ناشى عن الضلال.

وإضلاله في هذا الحديث صده عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصراط المستقيم.

ولا يتم له هذا، حتى يقدح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزواً، ويسخر بها وبمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده وخدعه بما يوحيه إليه، من القول الذي لا يميزه ذلك الضلال، ولا يعرف حقيقته.

﴿أُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزأوا

شريك له، كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين.
﴿فَأَرْوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِي﴾ أي: الذين جعلتهم
له شركاء، تدعونهم وتعبدهم، يلزم على هذا أن يكون لهم
خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك
فأرونيه، ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العبادة.
ومن المعلوم أنهم لا يقدرون أن يروه شيئاً من الخلق لها،
لأن جميع المذكرات قد أقروا أنها خلق الله وحده، ولا ثم
شيء يعلم غيرها، فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به
أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل
وضلال، ولهذا قال: ﴿بَلِ الَّذِينَ فِي سَكَلٍ بُيِّنٍ﴾ أي: جلي
واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا
حياة ولا نشورا، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك
لكل الأمور.

(١٢-١٩) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ
يَشْكُرْ لَكُمْ يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝ وَإِذْ
قَالَ لُقْمَانُ لِابْنَيْهِ وَهُوَ يُعَلِّمُهُ يَنْبَغُ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن امتنانه على عبده
الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم [بالحق]^(١) على وجهه
وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار
والإحكام، فقد يكون الإنسان عالما ولا يكون حكيما، وأما
الحكمة فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت
الحكمة بالعلم النافع، والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما
أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر
الشاكرين يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد
وبال ذلك عليه، والله غني [عنه]^(٢) حميد فيما يقدره ويقضيه
على من خالف أمره، فغناه تعالى من لوازم ذاته، وكونه حميدا
في صفات كماله، حميدا في جميل صنعه، من لوازم ذاته،
وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى
الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبيا أو عبدا صالحا؟
والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه أتاه الحكمة، وذكر بعض ما
يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة
وقواعدها الكبار فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنَيْهِ وَهُوَ يُعَلِّمُهُ﴾.

أو قال له قولا به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب

[بآيات الله]^(٣)، وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا
تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ السَّمَاوَاتُ لِيُؤْمِنَ بِهَا وَبِقَادِرِهَا﴾ أي:
أدبر إيجاب مستكبر عنها، راد لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت
فيه، بل أدبر عنها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بل ﴿كَأَن فِي آذَانِهِ وَقْرًا﴾
أي: صمما لا تصل إليه الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته.
﴿فَيَذَرُهَا﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته
السوء والظلمة والغربة ﴿يَعْدَاكِ إِلَهِي﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه، لا
يقادر قدره، ولا يدرى بعظيم أمره. وهذه بشارة أهل الشر،
فلا نعمت البشارة.

وأما بشارة أهل الخير فقال: ﴿إِذْ الْوَيْلُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ
أَنفَلِحِينَ﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر
بالإسلام، والعمل الصالح ﴿لَمَّا جَنَّتِ الْعَذَابِ﴾ بشارة لهم بما
قدموه، وقرى لهم بما أسلفوه.

﴿تَحْيِيَّيْنِ نَبِيًّا﴾ أي، في جنات النعيم، نعم القلب والروح
والبدن ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ لا يمكن أن يخلف، ولا غير، ولا
يتبدل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كامل العزة، كامل الحكمة،
من عزته وحكمته وفن من وفن، وخذل من خذل، بحسب ما
اقتضاه علمه فيهم، وحكمته.

(١٠، ١١) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ
رَوْنًا أَنْ يُحْيِيَ بِهِم مَاءً مَيِّتًا فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَرْسَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَالْتَمَتِ
بِهِمَا مِنْ كُلِّ نَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ
مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الَّذِينَ فِي سَكَلٍ بُيِّنٍ﴾ يتلو تعالى على عباده آثارا
من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونعما من آثار
رحمته، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ السبع على عظمها،
وسعتها، وكثافتها، وارتفاعها الهائل ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي:
ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت، وإنما استقرت
واستمسكت بقدرة الله تعالى.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْنًا﴾ أي: جبلا عظيمة، ركزها في
أرجائها وأنحائها، لئلا ﴿يَنبِيدَ بِكُمْ﴾ فلولها الجبال
الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنها.

﴿وَبَيَّنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: نشر في الأرض الواسعة
من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم،
ولمصلحتهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض، علم تعالى أنه
لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركا،
﴿فَالْتَمَتِ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ﴾ المنظر، نافع مبارك، فرعت
فيه الدواب المنبتة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿هَذَا﴾ أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد،
وحیوان، وسوّي أرزاق الخلق إليهم ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ وحده لا

﴿لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَلِنَافِعْهُ وَمَن يَكْفُرْ فَإِنَّ لَّهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

٤١٢

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَلِنَافِعْهُ وَمَن يَكْفُرْ فَإِنَّ لَّهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَلِنَافِعْهُ وَمَن يَكْفُرْ فَإِنَّ لَّهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٢﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً إِنَّ الشُّكْرَ لِلَّهِ وَالْكِبْرِيَاءُ لِلَّهِ إِذَا رَأَىٰ عَنَاقُورًا فَخُذْ إِلَيْنَا الْأُنثَىٰ ثُمَّ اقْدُبْ إِلَيْهَا فَإِذَا وَجَاكُمَا فَاسْكُتَا لَهَا وَأَوْدِعْ فِيهَا مَرْغَبًا مِّنْ نَّفْسِكَ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ الْأَكْبَرَ الَّذِي وُعدَ ﴿١٣﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُبْدِيَ إِلَهُكَ إِلَى النَّاسِ أَدَبًا إِلَّا حَيْثُ بَدَىٰ لَهُمْ لَدُنْكَ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِلَىٰ تَرْجَمَةٍ مِّنْ مَّجْمُوعٍ فَأَتَتْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ يَبْنِيٰ لَهُمَا إِنَّمَا تِلْكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ بِمَا أَلَّفَ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٥﴾ يَبْنِيٰ أَقْبَرُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُشْكِرِ وَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا آصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عِزِّ الْأُمُورِ ﴿١٦﴾ وَلَا تُصْعِقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٧﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِّنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٨﴾

ولم يقل: «وان جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعهما»؛ بل قال: «لَا تُطِغْهُمَا» أي: بالشرك، وأما برهما فاستمر عليه، ولهذا قال: «وَصَاحِبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا» أي: صالحة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما، وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما. «وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِلَىٰ» وهم المؤمنون لله، وملأته، وكتبه، ورسله، المستسلمون لربه، المنيبون إليه. واتباع سبيلهم أن يسلك مسلكتهم في الإجابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه. «ثُمَّ لَقِيَ مَرْجِعَهُمَا» الطائع والعاصي والمنيب وغيره «فَأَتَتْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

«يَبْنِيٰ لَهُمَا إِنَّمَا تِلْكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ» التي هي أصغر الأشياء وأحقرها «فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ» أي: في وسطها «أَوْ فِي

والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّا أَنشَرَكُمُ لَطْفًا عَظِيمًا﴾ ووجه كونه عظيمًا، أنه لا أقطع وأبشع ممن سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لم ينعم بمثل ذرة [من النعم]، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم، وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم، إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أخس المراتب؟] جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين فقال: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ» أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيانه «بِوَالِدَيْهِ» وقلنا له: «أَتَشْكُرْ لِي» بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، «وَبِوَالِدَيْهِ» بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، [وأكرامهما]، واجلالهما، والقيام بمؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيانه بهذه الوصية، وأخبرناه أن «إِلَىٰ الصَّبْرِ» أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك، وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟.

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: «وَحَسَنَةً أُمُّهُ وَمَتَىٰ عَنَاقُورًا» أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم «فِيضَلُّهُ فِي عَمَاقٍ» وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد، مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟.

«وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِأَمْرِ اللَّهِ» أي: اجتهد والداك «عَلَىٰ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

محل برهما وامثال أوامرهما، ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك، وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى، فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا، أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها، ولهذا من مئة الله عليه وعلى سائر عباد، أن قص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

(٢٠، ٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّنَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ظَهْرَهُ وَأَبَاطَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْنَا آبَاءَنَا أَوَّلًا كَذَلِكَ الْفِتْنَةُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يمتن تعالى على عباد، بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها، وعدم الغفلة عنها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم، وقلوبكم ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّنَوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد.

﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عممكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة التي نلعم بها، والتي تخفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة المنعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿وَلَكِنْ مَعَ تَوَالِي هَذِهِ النِّعَمِ﴾ من الناس من لم يشكرها، بل كفرها، وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير

السُنَنِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي جهة من جهاتهما ﴿يَتَّبِعُهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَكَلِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله، والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهب من عمل القبيح، قُلْ أَوْ كَثُرْ.

﴿يَبْتَغِي أَفْوَءَ الضَّلَاطَةِ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية ﴿وَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْكَفَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَأَسِيرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهي.

ولما علم أنه لا بد أن يتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَأَسِيرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿وَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تُبَلِّغْ وتعبس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضلاً.

﴿وَلَا تَنسِفْ فِي الْأَرْضِ مِرَّةً﴾ أي: بطراً، فخراً بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾^(١) في نفسه وهيته وتعاضله ﴿فَخُورٍ﴾ بقره.

﴿وَأَقْبِصْ فِي مَسْجِدِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مشي البطر والتكبر، ولا مشي السماوت.

﴿وَأَنْقُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس ومع الله ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي: أفظعها وأبشعها ﴿نَصَوْتُ لَتَبِيرٍ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمام، الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وجوبها ومناسبتها.

فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب الموجب لتركه، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن

(١) كلما في ب، وزاد في قوله تعالى: فخور.

وأحكامه الجزائية.

فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُكْفِئُونِ﴾.

وأن أعمال النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وآخرهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظيمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه، وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبيه له العقول، وتحرير فيه الأفئدة، وتيسير في معرفته أولو الأبواب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ يكتب بها ﴿وَالْبَحْرُ يَدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ ماذا يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام ولغني ذلك المداد، ولم تنفد ﴿كَيْتُ اللَّهُ﴾ تعالى.

وهذا ليس مبالغاً لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت^(١) بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفاذها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام الله تعالى فلا يتصور نفاذه، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي على أنه لا نفاذ له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾.

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخرته، وأنه كل ما

٤١٣

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَآبِيَ السَّمَوَاتِ وَمَآبِيَ الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبْعُدُ مَا أَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَلَوْ كُنَّا أَلْسِنَتِنَ يَذْعُبُهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٦﴾ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٨﴾ نَعْمَتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٩﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ لِلَّهِ مَآبِيَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾ وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٌ وَجَدَ اللَّهُ تَبَعًا لِّمَا يَشَاءُ ﴿٣٣﴾

فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاها للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم وديرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة،

وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكما لها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَنَفٍ وَجِدَةٍ﴾ وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعنهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور، والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

(٢٩، ٣٠) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ○ ذلك بأن الله هو الحق وإن ما يدعون من دونه الباطل وإن الله هو العليُّ الكبير ○ وهذا فيه أيضاً، انفراد بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، بجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما، ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون ويتفنون.

و ﴿كُلٌّ﴾ منها ﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانهما، وتعلل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

و ﴿ذَلِكَ﴾ الذي بين لكم من عظمته وصفاته، ما بين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق، ووعدته حق، وعبادته هي الحق.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ في ذاته وصفاته، فلو لا إيجاد الله له لما وجد، ولو لا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً، كانت عبادته أبطل وأبطل.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

(٣١، ٣٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ عَلَيْكُم بِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَظُفُلٍ دَعَوْا اللَّهَ خَالِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلَّمَا تَجَنَّبَهُمْ إِلَى الْآخِرِ فَيَنْهَكُم مَّقْصِدَهُمْ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْرِي فِيهِ الْعِلْمُ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ الْوَالِدِ، شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْفُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

يُرِيدُكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ○ وَلَئِنْ غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَظُفُلٍ دَعَوْا اللَّهَ خَالِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلَّمَا تَجَنَّبَهُمْ إِلَى الْآخِرِ فَيَنْهَكُم مَّقْصِدَهُمْ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ○ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده، أن سخر البحر، تجري فيه الفلك، بأمره القدري، [ولطفه وإحسانه] ﴿يُرِيدُكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ فيها الانتفاع والاعتبار^(١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فهم المستفنون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقذاره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالظلل^(٢) فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [لله]^(٣) والعبادة: ﴿قَلَّمَا تَجَنَّبَهُمْ إِلَى الْآخِرِ﴾ انقسموا فريقين: فرقة مقتصد، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

(١) زيادة من ب. (٢) في ب: كالظلل. (٣) زيادة من ب.

نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: يعلم متى مرساها، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوَنَهُ عَلَيَّ النَّاسُ وَأَنَا سَاهٍ مَرْسَاهُ﴾ قل إِنَّا عَلَّمْنَاهُ كِتَابَهُ إِذْ رَفَعْنَا سَاهٍ مَرْسَاهُ. ﴿لَا يَحِيطُ بِشَيْءٍ إِلَّا هُوَ نَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعَثُهُ﴾ الآية.

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله.

﴿وَسِّرْ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثى، ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء.

﴿وَمَا كَذِبِي نَفْسٌ مَّاذَا نَكَبْتُ غَدًا﴾ من كسب دينها ودنياها.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه .

ولما خصص هذه الأشياء، عمم علمه بجميع الأشياء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ محيط بالظواهر والبواطن، والخبائيا والسرائر، ومن حكمته التامة، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على مَنْ تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه ، والحمد لله .

تفسير سورة السجدة

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿آلِهَ ۝ تَهْلِكُ الْكُتُبُ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْكَافِرِينَ ۝ أَرَأَيْتُمْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِشْدِيدَ قَوْلًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم، أنه تنزيل نزل من رب العالمين، الذي رباهم بنعمته. ومن أعظم ما رباهم به، هذا الكتاب الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم، وأنه لا رب فيه ولا شك ولا امتراء، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك: افترأه محمد، واختلقه من عند نفسه، وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ بأعظم الكذب، وقدره الخلق على كلام مثل كلام الخالق، وكل واحد من هذه من الأمور العظام.

وفرة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَحْسُدُ بَيْنَانَا إِلَّا كُلُّ حَسَّاسٍ﴾ ^(١) أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر ولم يف بذلك ﴿كَثُورٌ﴾ بنعم الله، فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟.

[illegible]

فلقت النظر في هذا لهذا اليوم المهيبل، مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعددهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْأَنْبِيَاءُ﴾ بزيتها وزخارفها، وما فيها من الفتن والمحن. ﴿وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن لله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه، أم قصروا فيه.

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليه.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتانة،
والشيطان الموسوس المُسَوِّل، فهني تعالى عباده أن تغرهم
الدنيا، أو يغرهم بالله الغرور ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُوعِثُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ
أَنَّهُمْ إِلَّا غُرُورٌ﴾.

(٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه [الأمور] ^(٣٥) الخمسة، من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي ۖ تَوَلَّى الْكَتَبَ لِأَرْبَبٍ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبُّهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِيُذْخِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِمْ ۖ وَمَا أَنْتُمْ بِمَنْذُورِينَ ﴿٢﴾ أَمْ أَنْتُمْ مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْفَعٍ إِلَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُذَكِّرُ الْأُمَمَ ۚ إِنَّ السَّمْعَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَرُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوفَّيْكُمْ مَّالِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

في لحظة.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. فسعة علمه، وكمال عزه، وعموم رحمته، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقته خلقاً يليق به ويوافقه، فهذا عام.

ثم خص الآدمي لشرفه وفضله فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام أبي البشر.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ وهو النطفة المستقدرة الضعيفة.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليق به غيره ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ بأن أرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح،

قال الله - راداً على مَنْ قال: افتراء: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أنزله رحمة للعباد ﴿لِيُذْخِرَ قَوْمًا مِّمَّا أَنْتُمْ فِيهِ تَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: هم في حال ضرورة وفاق لإرسال الرسول وإنزال الكتاب، لعدم التذير، بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون. فانزلنا الكتاب عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من ضلالهم، فيعرفون الحق فيؤثرونه.

وهذه الأشياء التي ذكرها الله، كلها مناقضة لتكذيبهم له، وإنها تقضي منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو كونه ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأنه ﴿الْحَقُّ﴾ والحق مقبول على كل حال، وأنه ﴿لَا رِبَّ فِيهِ﴾ بوجه من الوجوه، فليس فيه ما يوجب الريبة، لا بخير لا يطابق للواقع^(١)، ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان.

(٩-٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْفَعٍ إِلَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ۖ يُذَكِّرُ الْأُمَمَ ۚ إِنَّ السَّمْعَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَرُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۚ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۚ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، استواء يليق بجلاله، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم في أموركم فينفعكم ﴿وَلَا شَيْفَعٍ﴾ يشفع لكم إن توجه عليكم العقاب.

﴿إِنَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

﴿يُذَكِّرُ الْأُمَمَ﴾ القدرى والأمر الشرعي، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند المليك القدير ﴿وَكَلَّمَ السَّمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فيسعد بها ويُنقِص، ويغني ويفقّر، ويؤزّل ويؤيّل، ويكرم ويهين، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويُنزّل الأرزاق. ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ﴾ أي: الأمر ينزل من عنده ويعرج إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَرُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يعرج إليه ويصله

وقت الإمهال.

وكل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي، فلهاذا قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ أي: لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى، فمشتتينا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: وجب، وثبت ثبوتاً لا تغير فيه.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿فَذُوقُوا بِمَا لَبِئْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستردكروا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا. وهذا النسيان نسيان ترك، أي: بما عرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملأه.

﴿إِنَّا كَيْدُكُمْ﴾ أي: تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نسيتم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعادنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي.

(١٥-١٧) ﴿إِنَّا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ استجاب جنوبيهم عن النصائح يذوقون ربهم خوفاً وطعماً ومسا زلفتهم ينفقون ○ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قُدْرَةِ عَذَابِي جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إِنَّا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ [أي: (١)] إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان.

وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ بآيات ربهم فتلعت عليهم آيات القرآن، وأتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعُوا إلى التذكر، سمعوا قلوبها، وانقادوا، و ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لها خضوع ذكر الله، وفرح بمعرفته.

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد

(١) كذا في ب، وفي أ: ظلم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب. (٤) زيادة من ب.

فيعود بإذن الله حيواناً، بعد إذ كان جماداً.

﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الذي خلقكم وصورك.

(١٠، ١١) ﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفُورُونَ ○ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرْتُمْ وَكُلُّ يَوْمٍ تَكُونُ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: قال المكذوبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بليتنا وتمزقنا، وتفرقنا في المواضع التي لا نعلم.

﴿أَوَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: لمبعوثون بعثاً جديداً. بزعمهم أن هذا من أبعاد الأشياء، وذلك لقياسهم قدرة الخالق بقدرهم.

وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد، وكفر بقاء ربهم ووجد، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ فكلامهم علم^(١) مصدره وغايته، وإلا، فلو كان قصدهم بيان الحق، لبيّن لهم من الأدلة القاطعة على ذلك، ما يجعله مشاهداً للبصرة، بمنزلة الشمس للبصر.

ويكفيهم أنهم معهم علم أنهم قد اتبذوا من العلم، فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة، يتزل الله عليها المطر، فتحي بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها.

﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرْتُمْ﴾ أي: جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

(١٢-١٤) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ○ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ○ فَذُوقُوا بِمَا لَبِئْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا كَيْدُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم في مقامهم [بين يديه]^(٢) فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة.

﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: بان لنا الأمر، ورأينا عياناً، فصار عين يقين.

﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: صار عندنا الآن يقين بما [كنا]^(٣) نكذب به، أي: لرأيت أمراً عظيماً، وحالاً مزعجة، وأقواماً خاسرين، وسولاً غير مجاب، لأنه قد مضى

سُورَةُ السَّجْدَةِ

٤١٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٨﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ
مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾
فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ
بِتَابِعَاتِ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢١﴾ تَسْبِحُ جُنُودُهُمْ
عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُسَبِّحُونَ ﴿٢٢﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَّا يَسْتَوُونَ ﴿٢٤﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ
جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا
فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ
لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٦﴾

أفستوي هذان الشخصان؟.

﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار،
والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من فروض ونوافل ﴿فَلَهُمْ
جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن
الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس
والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع
بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

﴿نُزُلًا﴾ لهم أي: ضيافة وقرى ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك
المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل
الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا
بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى
الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مقرهم ومحل

تلقيها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانسراح والتسليم،
وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واحتدوا بها إلى
الصرط المستقيم.

﴿تَسْبِحُ جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع جنودهم،
وتتزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألد عندهم منه
وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: في جلب مصالحهم
الدنية والدنيوية، ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين
بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها،
خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً
﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ولم يذكر قيد الثقة، ولا المنفق عليه، ليدل على
العموم، فإنه يدخل فيه الثقة الواجبة، كالزكوات،
والكفارات، وثققة الزوجات والأقارب، والثقة المستحبة
في وجوه الخير، والثقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء
وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت
بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

وأما جزاؤهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع
نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي، أي: فلا يعلم
أحد ﴿مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم
الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى
على لسان رسوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين
رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من
جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾.

(١٨-٢٠) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ○ أَمَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
○ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ○ بينه تعالى
العقول على ما تقرر فيها من عدم تساوي المتفاوتين
المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما فقال: ﴿أَفَمَنْ
كَانَ مُؤْمِنًا﴾ قد عمّر قلبه بالإيمان، واتقادت جوارحه لشرائعه،
واقضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله، التي^(١)
يضر وجودها بالإيمان.

﴿كَانَ مُؤْمِنًا﴾ قد خرب قلبه وتعتل من الإيمان،
فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل
والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة الله،

(١) كذا في ب، وفي أ: الذي.

خلودهم النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يفتقر عنهم العذاب ساعة.

﴿كَلَّمَآ أَرَادُوْا أَنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا أُعِيدُوْا فِيْهَا﴾ فكلمنا حدثهم إرادتهم بالخروج، لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُوْنَ﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم وما واهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

(٢١) ﴿وَلَنَذِيْقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابِ الْآدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾ أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُنَادِيُّونَ فِي عَمَزَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوْا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُخْرَجُونَ عَذَابَ الْهُوْنِ﴾ ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلائها ظاهرة، فإنه قال: ﴿وَلَنَذِيْقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابِ الْآدْنَى﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثمَّ عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذاعة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخير تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيْقَهُمْ بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾.

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِبُونَ﴾ أي: لا أحد أظلم وأزهد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلاها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، وأمره وتذكيره مصالحه الدينية والدنيوية، وتناه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النعمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِبُونَ﴾.

(٢٣-٢٥) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ

٤١٧
وَلَنَذِيْقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابِ الْآدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَوَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَوَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُوْنَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِئْهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مَنِ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَسْتَوُونَ فِي مَسْكِئَتِهِمْ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَاهُ إِلَى الْآرْضِ الْحَرْشَ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعَاتٍ كُلٌّ مِنْهُ أُكْلٌ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ فَمِنْ أَمْرِنَا أَنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الْاِنْشِرَاقِ

لِقَائِهِ وَوَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ○ وَوَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُوْنَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ○ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس يبعد من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل.

فقد أتى الله موسى الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي قد صدقها القرآن، فطابق حقهما، وثبت برهانهما، ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبياناته، فلم يبق للشك والحرية محل.

﴿وَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يهتدون به في أصول دينهم وفروعه^(١)، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة،

(١) في النسختين: وفروعهن ولعل الصواب - والله أعلم - ما أثبت.

لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة^(١) يجزم بها بالهلاك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا ﴿أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَمَّةَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار ﴿فَتَخْرُجُ بِهِ رَرْقًا﴾ أي: نباتاً مختلف الأنواع ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَرْبَابُهُمْ﴾ وهو نبات البهائم ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ وهو طعام الأدميين.

﴿أَفَلَمْ يَبْصُرُوا﴾ تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيعتدون بذلك البصر وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يصبروا في ذلك بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، ومجرد العادة، فلم يوقفوا للخير.

(٢٨-٣٠) ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ مِمَّنْ هَذَا فَالْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْسَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ وَتَنْظَرُ إِلَيْهِمْ مُتَنَظِّرُونَ ﴿أَي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب، جهلاً منهم ومعاذرة ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ مِمَّنْ هَذَا فَالْفَتْحُ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعدينا على زعمكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها الرسل ﴿صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل، حصل إمهالكم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقيناً، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة محل ف ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْسَتُهُمْ﴾ لأنه صار إيمان ضرورة ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل، واستعجال العذاب ﴿وَأَنْظَرُ﴾ الأمر الذي يحل بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر ﴿إِلَيْهِمْ مُتَنَظِّرُونَ﴾ بك ريب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله ومثته، فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد.

(١) كذا في ب، وفي أ: على حاله لم يجزم. والصواب - والله أعلم - حذف (لم).

وذلك لكمالهم وعلوهم ﴿وَلَيْسَ فِي أَرْكِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَمَرٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرٍ﴾ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول، أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات.

﴿وَصَكَّائُوا بِتِلْكَ بَيِّنَاتٍ يُؤْفِكُونَ﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعليماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

وتم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمداً، والله تعالى ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.

(٢٦، ٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ الْجُرُزِ فَخَرُجْ بِهِ رَرْقًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ يعني: أو لم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسل، ويهدمهم إلى الصواب ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الذين سلخوا مسلكتهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ﴾ فيشاهدونها عياناً، كقوم هود وصالح، وقوم لوط.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، فُعل بهم كما فُعل بأشباعه من قبل.

وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد.

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله فيعونها فينتفعون بها، فلو كان

وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع وشروء ترفع. وهناك ترى العبد الضعيف الذي فوض أمره لسيده، قد قام بأمر لا يقوم بها أمة من الناس، وقد سهل الله [عليه]^(١) ما كان يصعب على فحول الرجال وبالله المستعان.

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

(٥، ٤) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْزَاقَكُمْ الَّتِي تَطْهَرُونَ مِنْهُنَّ أَهْمِيَكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمُ الَّذِي يَفْهَمُونَ بِأَرْزَاقِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ أَدْعُوهُمْ لِأَبْنَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلْيَتَوَكَّلْكُمْ فِي الْإِيمَانِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ يَعْتَابُ تَعَالَى [عباده]^(٢) عن التكلم بما لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا، فإن ذلك القول منكم كذب وزور، يترتب عليه منكرات من الشرع. وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء، والإخبار بوقوع وجود ما لم يجعله الله تعالى.

ولكن خص هذه الأشياء المذكورة لوقوعها، وشدة الحاجة إلى بيانها فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ هذا لا يوجد، فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية.

﴿وَمَا جَعَلَ أَرْزَاقَكُمْ الَّتِي تَطْهَرُونَ مِنْهُنَّ﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته: «أنت علي كظهر أمي أو كأمي» فما جعلهن الله ﴿أَهْمِيَّكُمْ﴾ أمك من ولدك، وصارت أعظم النساء^(٣) عليك حرمة وتحريمًا، وزوجتك أحل النساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالأخر؟

هذا أمر لا يجوز، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَطْهَرُونَ مِنْكُمْ بَيْنَ يَسَائِرِهِمْ مَا هُمْ أَهْمِيَّتُهُمْ إِنْ أَهْمَتْهُمْ إِلَّا إِلَهِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ والأدعياء الولد الذي كان الرجل يدعيه، وهو ليس له، أو يدعى إليه بسبب تبنيه لإياه، كما كان الأمر بالجاهلية وأول الإسلام.

فأراد الله تعالى أن يبطله ويزيله، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه، وأنه باطل وكذب، وكل باطل وكذب لا يوجد في شرع الله، ولا يتصف به عباد الله.

يقول تعالى: فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم، أو يدعون إليكم، أبناءكم، فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم. وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم، فلا جعل الله

(٣-١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطْلُغُوا فِي الْكُلُوبِ وَالْمُسْتَفْيِينَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ أَيُّ: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهي، وبلغ رسالته، وأد إلى عباده وحيه، وابدل النصيحة للخلق.

ولا يصدك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعمهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، يضلوك عن الصواب.

﴿و﴾ لكن ﴿اتَّبِعْ مَا يُوْحِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وأزج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خير، يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضررًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصالح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه، وأرفأ به من كل أحد، خصوصًا خواص عبيده الذين لم يزل يربيهم ببره، ويدبر عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصًا وقد أمره بإلقاء أموره إليه ووعد.

فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل،

هذا كهذا.

﴿ذَلِكُمْ﴾ القول الذي تقولون في الدعى: إنه ابن فلان الذي ادعاء، أو والده فلان ﴿قَوْلَكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: اليقين والصدق، فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعه، فقوله حق، وشرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة، والطرق الصادقة.

وإن كان ذلك واقعا بمشيئته، فمشيئته عامة لكل ما وجد من خير وشر.

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى، المتضمنة للقول الباطل فقال: ﴿ادْعُوهُمْ﴾ أي: الأدياء ﴿لِأَبَائِهِمْ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل وأقوم وأهدى.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ الحقيقيين ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الْبَيْنِ وَمَوْلَاكُمْ﴾ أي: إخوانكم في دين الله ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والمولاة على ذلك، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها.

وأما دعاؤهم لأبائهم، فإن علموا، دعوا إليهم، وإن لم يعلموا اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة [الدين] ^(١) والمولاة، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بأبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم، لأن المحذور لا يزول بذلك.

﴿وَلَسَّ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ بأن سبق على لسان أحدكم، دعوته إلى من تبنا، فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهرا، [قد دعوتموه إليه] ^(٢) وهو في الباطن غير أبيه، فليس ^(٣) عليكم في ذلك حرج، إذا كان خطأ.

﴿وَلَكِنْ﴾ يؤاخذكم بما ﴿تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم، فله الحمد تعالى.

(١) ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين خبرا يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٨

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيُّمُ النَّبِيُّ فِى اللَّهِ وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُتَّقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ١ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ ٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ ٣ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّتِي تَنْظُرُونَ مِنْهُنَّ أَمْهَاتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ٤ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ٥ الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝ ٦

والسلام، بذل لهم من النصح والشفقة والرافة، ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم، فرسول الله أعظم الخلق رتبة عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم منقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم منقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسيبه.

فلذلك وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس، مع مراد الرسول ﷺ، أن يقدم مراد الرسول ﷺ، وأن لا يعارض قول الرسول ﷺ بقول أحد، كائنًا من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه.

وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يريهم كما يري الوالد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة الذي كان قبل

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) في أ وقعت هنا زيادة حرف (في) ولا محل له.

سورة الأحزاب

٤١٩

سورة الأحزاب

وَأَذِّنْ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَيَسْتَفْتِيَهُنَّ مَنِ امْتَحَنَهُمْ وَإِنْ عَدِلْتُمْ فِي شَيْءٍ مِّنْ تِلْكَ فَمِثْلُ نَظَائِرِهِ وَتِلْكَ بَيِّنَاتٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هَٰئِلَةٌ آتَتْهُمُ الْمَوْتُ وَرَبُّهُمُ زَلْزَلَ الْأَرْضَ زَلَازَةً عَظِيمًا ﴿١١﴾ وَلَئِذَا يَقُولُ الْمُسْتَفْتُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمُ فَارْجِعُوا إِلَىٰ مَقَامِكُمْ فَسَمِعْتُمْ فِيهِمْ قَوْلًا لِّئَلَّا يَقُولُوا لِنَبِيِّنَا عَوْرَةً وَمَا كَانَ بِأَعْيُنِنَا إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ آفَتَاهُمَا سَأَلُوا لِنَفْسِهِمْ أَتَنَزَّلُ اللَّهُ لَنَا وَلَهُمْ أَلَّا يَكُونُوا لَنَا آيَةً ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَصَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا بُرْهَانَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مُسَوَّلًا ﴿١٥﴾

يُذَعِّي «زيد بن محمد» حتى أنزل الله ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ﴾ فقطع نسبه وانتسابه منه.

فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول، فلا مزية لأحد عن أحد. وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يحزن ولا يأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا يحلن لأحد من بعده، كما الله صرح^(١) بذلك: ﴿وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي: الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بَيْنَهُمْ تَوَلَّى يَتَمَيَّنُ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [أي: ^(٢) في حكمه، فيرث بعضهم بعضاً، ويبر بعضهم بعضاً، فهم أولى من الحلف والنصرة.

والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب، دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك، وجعله للأقارب، لطفاً منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة لحصل من الفساد والشر والتجلبيل لحرمات الأقارب من الميراث شيء كثير.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك. وهذه الآية حجة على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات، كولاية النكاح والمال وغير ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَكُنْ أَوَّلِيَّائِكُمْ مَتَرَوْكَ﴾ أي ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تشرعوا لهم تبرعاً وتعطوهم معروفاً منكم، ﴿كَانَ﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من نفوذه.

(٨، ٧) ﴿وَأَذِّنْ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَيَسْتَفْتِيَهُنَّ مَنِ امْتَحَنَهُمْ وَإِنْ عَدِلْتُمْ فِي شَيْءٍ مِّنْ تِلْكَ فَمِثْلُ نَظَائِرِهِ وَتِلْكَ بَيِّنَاتٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هَٰئِلَةٌ آتَتْهُمُ الْمَوْتُ وَرَبُّهُمُ زَلْزَلَ الْأَرْضَ زَلَازَةً عَظِيمًا ﴿١١﴾ وَلَئِذَا يَقُولُ الْمُسْتَفْتُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمُ فَارْجِعُوا إِلَىٰ مَقَامِكُمْ فَسَمِعْتُمْ فِيهِمْ قَوْلًا لِّئَلَّا يَقُولُوا لِنَبِيِّنَا عَوْرَةً وَمَا كَانَ بِأَعْيُنِنَا إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ آفَتَاهُمَا سَأَلُوا لِنَفْسِهِمْ أَتَنَزَّلُ اللَّهُ لَنَا وَلَهُمْ أَلَّا يَكُونُوا لَنَا آيَةً ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَصَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا بُرْهَانَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مُسَوَّلًا ﴿١٥﴾

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل وفوا فيه وصدقوا؟ فيشيهم جنات النعيم؟ أم كفروا، فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

(١١-٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾

﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هَٰئِلَةٌ آتَتْهُمُ الْمَوْتُ وَرَبُّهُمُ زَلْزَلَ الْأَرْضَ زَلَازَةً عَظِيمًا ﴿١١﴾ وَلَئِذَا يَقُولُ الْمُسْتَفْتُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمُ فَارْجِعُوا إِلَىٰ مَقَامِكُمْ فَسَمِعْتُمْ فِيهِمْ قَوْلًا لِّئَلَّا يَقُولُوا لِنَبِيِّنَا عَوْرَةً وَمَا كَانَ بِأَعْيُنِنَا إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ آفَتَاهُمَا سَأَلُوا لِنَفْسِهِمْ أَتَنَزَّلُ اللَّهُ لَنَا وَلَهُمْ أَلَّا يَكُونُوا لَنَا آيَةً ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَصَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا بُرْهَانَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مُسَوَّلًا ﴿١٥﴾

عليهم، ويحتمهم على شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحاب، وذلك في وقعة الخندق. وما لأنهم [طواف] اليهود الذين حوالي المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة.

وخلق رسول الله ﷺ على المدينة، فحسروا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

(١) في ب: كما يصرح بذلك. (٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب.

- ﴿ثُمَّ﴾ ستل هؤلاء ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي: الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين ﴿لَا تَوَعَّا﴾ أي: لا أعطوها مبادرين.

﴿وَمَا تَنْتَهِرُ بِهِ إِلَّا يُبَدِّلُ﴾ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء، يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم، هذه حالهم.

(١٥) والحال أنهم قد ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكَ إِلَّا بِعَهْدٍ﴾ وكان عهد الله مستوفلاً سيألفهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذا بربهم؟

(١٦) ﴿فَل﴾ لهم لانما على فراهم، ومخبراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ﴾ فلو كنتم في بيوتكم، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم.

والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت^(٤) كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه.

﴿وَإِذَا﴾ حين فررتهم لتسلموا من الموت والقتل، ولتلتحقوا في الدنيا فانكم ﴿لَا تَسْتَعِينُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ متاعاً لا يسوى فراكم وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي، في النعيم السرمدي.

(١٧) ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئاً، إذا أَرَادَ الله بسوء، فقال: ﴿فَلْ مِنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكَ﴾ أي: يمنعكم ﴿مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي: شرّاً ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع^(٥) ﴿وَلَا يُبَدِّلُ﴾ أي: يتصرمهم، فيدفع عنهم المضار.

فَلْيَتَّبِعُوا طَاعَةَ الْمُنْفَرِدِ بِالْأُمُورِ كُلِّهَا، الذي نفذت مشيئته، ومضى قدره، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته وليٌّ ولا ناصر. (١٨) ثم توعد تعالى المخلفين المعوقين، وتهتدهم فقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ﴾ أي: يخرجوا ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ﴾ الذين خرجوا ﴿هَلُمَّ إِنَّا﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يَأْمُرُ بِكَ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ أَمْرِهُ﴾ أي: لا تأمرهم أن يخرجوا. (١٩) وهم مع تعويقهم وتخذييلهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾ القتال والجهد بأنفسهم ﴿وَلَا قَلِيلًا﴾ فهم أشد الناس حرصاً على

الْحَسَاجِ وَيَتَّقُونَ بِاللَّهِ الْفُتُونَا﴾ أي: الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته.

﴿هَٰذَاكَ أَتَى الْمُتَشَوِّشُ﴾ بهذه الفتنة العظيمة ﴿وَزُلْزِلُوا زِلَالًا شَدِيدًا﴾ بالخوف والقلق والجوع، ليتبين إيمانهم ويزيد إيقانهم، فظهر - والله الحمد - من إيمانهم وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين ﴿وَلَمَّا رَاَ الْمُتَشَوِّشُ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَوَسُوهُمُ وَصَدَّقَ اللَّهُ رَسُولُهُ وَمَا زَاغَهُمْ إِلَّا إِيمَانُكَ وَسِيْلَانَا﴾.

وهناك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى:

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة القاصرة^(٦)، ويصدق ظنه.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَاتَلَ عِلَابَةُ﴾ من المنافقين، بعدما جرعوا وقل صبرهم، صاروا أيضاً من المخدلين، فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿يَأْمُرُ بِكَ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ أَمْرِهُ﴾ يريدون يا أهل المدينة. فنادوهم باسم الوطن المنبئ [عن التسمية]^(٧) فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي.

﴿يَأْمُرُ بِكَ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ أَمْرِهُ﴾ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة ﴿فَاجْتَمِعُوا﴾ إلى المدينة، فهذه الطائفة تخذل عن الجهاد، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم، ويأمرهم بترك القتال، فهذه الطائفة أشر الطوائف وأضرها.

وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخلزوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعداء الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَسَيَنْتَهِزُ قَرِيبٌ مِنْهُمْ لَنْ يَقُولُوا إِنَّا بِكُمْ عِرَافٌ﴾ أي: عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء، ونحن غيب عنها، فأذن لنا نرجع إليها فنحرسها، وهم كذبة في ذلك.

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْدَةٍ إِنْ رُيُونُ﴾ أي: ما قصدهم ﴿إِلَّا فِرَارٌ﴾ ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعدوا [لهم]^(٨). فهؤلاء قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

(١٤) ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ﴾ أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها - لا كان ذلك

(١) في ب: الحاضرة. (٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب. (٤) كذا في ب، وفي أ: بطل. (٥) في ب: النافع. (٦) زيادة من ب.

٤٢٠

سُورَةُ الْاَحْزَابِ

الْاَحْزَابِ

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ اِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ اَوِ الْقَتْلِ وَلِاِذَا لَمْ تَمُوتُوا لَاقِلِيلًا ﴿١٩﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ اِنْ ارَادَ بِكُمْ سُوءًا اَوْ ارَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وِيَا وَلَا تَنْصِرُوا ﴿٢٠﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّضُ مِنْكُمْ وَالْقَالِيْنَ لِاٰخِرَتِهِمْ هَلْمْ اِلَيْنَا وَلَا يَتَوْنُ الْبَاسُ لِاَلْقِلِيلِ ﴿٢١﴾ اَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَاِذَا جَاءَ الْغَوْفُ رَاَيْتَهُمْ يَنْظُرُوْنَ اِلَيْكَ يَدُوْرًا عَيْنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ فَاِذَا ذَهَبَ الْغَوْفُ سَلَفُوْكُمْ بِالْاِسْنَةِ جَدَادٍ اَشِحَّةً عَلَى الْغَيْرِ اُولٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمَرُوْا فَاَحْبَطَ اللَّهُ اَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيْرًا ﴿٢٢﴾ تَحْسِبُوْنَ الْاَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوْا اِنْ يَأْتِ الْاَحْزَابُ يَدُوْرًا لَوْ اَنَّهُمْ بَادُوْا فِي الْاَعْرَابِ يَسْتَلُوْا عَنْ اَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوْا فِيكُمْ مَا قَتَلُوْا اِلَّا قَلِيْلًا ﴿٢٣﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُوْلِ اللَّهِ اُسُوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُوْا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْاٰخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيْرًا ﴿٢٤﴾ وَلَمَّا رَاَ الْمُؤْمِنُوْنَ الْاَحْزَابَ قَالُوْا هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ وَمَا زَادَهُمْ اِلَّا اِيْمَانًا وَسَلِيْمًا ﴿٢٥﴾

دَل الدليل الشرعي على الاختصاص به .

فالأُسوة نوعان : أُسوة حسنة ، وأُسوة سيئة .

فالأُسوة الحسنة في الرسول ﷺ فإن المتأسي به سالك الطريق الموصِل إلى كرامة الله ، وهو الصراط المستقيم .

وأما الأُسوة بغيره إذا خالفه ، فهو الأُسوة السيئة ، كقول الكفار ^(١) حين دعتهُم الرسل للتأسي [بهم] ^(٢) : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا نَبِيَّائِنَا عَلَىٰ أَثَرِ وَقَدْ آتَيْنَاهُمْ مِّمَّا هُم مُّتَّبِعُونَ ﴾ .

وهذه الأُسوة الحسنة ، إنما يسلكها ويوفق لها ، مَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ واليوم الآخر ، فإن ما معه ^(٣) من الإيمان ، وخوف الله ، ورجاء ثوابه ، وخوف عقابه ، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ .

(٢٢) لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف ، ذكر حال المؤمنين ، فقال : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْآحْزَابَ ﴾ الذين تحزبوا ، ونزلوا منازلهم ، وانتهى الخوف ﴿ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ في قوله : ﴿ لَمْ يَحِثُّنَا أَنْ نَدْخُلُوا الْحَنَكَةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ

(١) في ب : يغال . (٢) في ب : المشركين . (٣) زيادة من ب . (٤) في ب : فإن ذلك ما معه .

التخلف ، لعدم الداعي لذلك ، من الإيمان والصبر ، ووجود المقضي للجنب من النفاق وعدم الإيمان .

(١٩) ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ بأبدانهم عن القتال ، وأموالهم عند النفقة فيه ، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ﴿ فَإِنَّا جَاءَ الْغَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ نظر المغشي عليه ﴿ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم ، والقلق الذي أدخلهم ، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال .

﴿ فَإِنَّا ذَهَبَ الْغَوْفُ ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة ﴿ سَلَفُوْكُمْ بِالْاِسْنَةِ ﴾ أي : خاطبوكم ، وتكلموا معكم بكلام حديد ، ودعاوى غير صحيحة .

وحين تسمعهم ، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْغَيْرِ ﴾ الذي يراد منهم ، وهذا شر ما في الإنسان ، أن يكون شحيحاً بما أمر به ، شحيحاً بما له أن ينفقه في وجهه ، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله ، أو يدعو إلى سبيل الله ، شحيحاً بجاهه ، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه .

﴿ اُولٰٓئِكَ ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿ لَمْ يُؤْمَرُوا ﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيْرًا ﴾ .

وأما المؤمنون ، فقد وقاهم الله شح أنفسهم ، ووقفهم لبذل ما أمروا به ، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله ، وإعلاء كلمته ، وأموالهم للنفقة في طرق الخير ، وجاههم وعلمهم .

(٢٠) ﴿ تَحْسِبُونَ الْآحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أي : يظنون أن هؤلاء

الأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم ، فخاب ظنهم ، وبطل حسابهم .

﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْآحْزَابَ ﴾ مرة أخرى ﴿ يَدُوْرًا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوْا فِي الْاَعْرَابِ يَسْتَلُوْا عَنْ اَنْبِيَائِهِمْ ﴾ أي : لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة ، وذُ هؤلاء المنافقون ، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها ، وأنهم مع الأعراب في البادية ، يستخبرون عن أخباركم ويسألون عن أنبائكم ، ماذا حصل عليكم ؟

فتبأ لهم وبعداً ، فليسوا ممن يبالي ^(١) بحضورهم ﴿ وَلَوْ كُنَّا فِيكُمْ مَا قَتَلْنَا اِلَّا قَلِيْلًا ﴾ فلا تبالوهم ، ولا تأسوا عليهم .

(٢١) ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة ، وباشر موقف الحرب ، وهو الشريف الكامل ، البطل الباسل ، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه !! فاشأوا به في هذا الأمر وغيره .

واستدل الأصوليون في هذه الآية ، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ ، وأن الأصل ، أن أمته أُسوته في الأحكام ، إلا ما

غرتهم جموعهم، وأعجبوا بتحزيبهم، وفرحوا بِعَدُوِّهِمْ وَعَدُوِّهِمْ.

فأرسل الله عليهم ريحا عظيمة، وهي (٣) ريح الصبا، فزعزت مراكزهم، وقوّضت خيامهم، وكفّأت قدورهم وأزعجتهم، وضربهم الله بالرب، فانصرفوا بغيلظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين.

﴿وَكُنِيَ اللَّهُ الْمُتَوَيِّنِينَ الْقِتَالَ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية ﴿وَكُنِيَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ لا يغالبه أحد إلا غُلِبَ، ولا يستنصره أحد إلا غُلِبَ، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم، إن لم يُنِهم الله بقوته وعزته.

(٢٦) ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ﴾ أي: عاونوهم ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود ﴿مِنَ صَبَإٍ﴾ أي: أنزلهم من حصونهم، نزولا مظلوما بهم، مجعولين تحت حكم الإسلام ﴿وَقَاتِلَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا ﴿فَرِيًّا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿وَيَأْتِيهِمْ فَرَقًا﴾ من عداهم من النساء والصبيان.

(٢٧) ﴿وَأَنزَلْنَاكُمْ﴾ أي: غشكم ﴿أَرْضَهُمْ وَيَرْبُحُهُمْ وَأَنزَلْنَاكُمْ تَحْتَ قَبْرِهِمْ﴾ أي: أرضا كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا تمكنون من وطنها، فمكنكم الله وخذلهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم ﴿وَكُنِيَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته قَدَّرَ لكم ما قَدَّر. وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب، هم بنو قريظة من اليهود، في قرية خارج المدينة غير بعيد. وكان النبي ﷺ [حين^(٤)] هاجر إلى المدينة، ووادعهم وهادنهم، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئا.

فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم، وقلة المسلمين، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك، [تدجيل^(٥)] بعض رؤسائهم عليهم، ففقدوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومالوا المشركين على قتاله.

فلما خذل الله المشركين، تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصروهم في حصنهم، فزولوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم، أن تقتل مقاتلتهم، وتسي ذراريهم، وتغنم أموالهم.

الَّذِينَ خَلَا مِنْ قَبْلِكُمْ مَنَّتُمُ النَّسَاءَ وَالْقُرَىٰ وَذَلَّلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

﴿وَصَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾، فإننا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ في قلوبهم ﴿وَسَلَامًا﴾ في جوارحهم، وانقيادا لأمر الله.

(٢٣) ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأديار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: وفوا به، وأنصروه وأكملوه فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته.

﴿فِيهِمْ مَّنْ فَتَنَّا نَبْتَلُ﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤديا لحقه لم ينقصه شيئا.

﴿وَفِيهِمْ مَّنْ يَبْتَغِي﴾ تكميل ما عليه، فهو شارب في قضاء ما عليه، ووفاء نحيه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، سارع في ذلك مجد.

﴿وَمَا يَدُلُّوا بَيِّنَاتٍ﴾ كما بدّل غيرهم، بل لم يزالوا على العهد، لا يولون ولا يتغيرون، فهؤلاء هم الرجال على الحقيقة، ومن^(١) عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

(٢٤) ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهريهم وباطنيهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَلَا هِيَ الْآيَةُ.

أي: قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل، ليشين الصادق من الكاذب، فيجزى الصادقين بصدقهم ﴿وَيُذِيبُ الشَّافِقِينَ﴾ الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه.

﴿إِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ تعذيبهم، بأن لم يشأ هديتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم فلم يوفقهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ غفورا للذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالتاب ﴿رَحِيمًا﴾ بهم حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما أجره.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حقيقين عليه، مغتاظين قادرين [عليه^(٦)] جازمين، بأن لهم الدائرة، قد

(١) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) زيادة من ب. (٣) في أ: وهو، ولعل الصواب ما أثبت. (٤) زيادة من ب. (٥) زيادة من ب.

﴿٢٨﴾

٤٢١

﴿٢٩﴾

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوَّيْضًا غَنِيرًا ﴿٣٠﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٣١﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَوَرَثَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَاتِهِمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٣٢﴾ يَأْتِيَنَّكَ النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّا تَزِيدُكَ إِلَّا كُفْرًا تَرُدُّكَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكَ أُمْتِعَكَ وَأَسْرِحَكَ سَرَكَامًا جِيلًا ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٤﴾ يَسَاءَ النَّبِيُّ مَن يَأْتِ مِنْكُمْ بِفِتْنَةٍ مَّشِينَةٍ يُضَعِّفُ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٥﴾

فَاتَمَّ اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ الْمَنَّةَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ، وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ بِخِذْلَانِ مَنْ انْخَلَدَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَقَتَلَ مَنْ قَتَلُوا، وَأَسَرَّ مَنْ أَسَرُوا، وَلَمْ يَزَلْ لَطْفُ اللَّهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَمِرًّا .
(٢٨، ٢٩) ﴿يَأْتِيَنَّكَ النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّا تَزِيدُكَ إِلَّا كُفْرًا تَرُدُّكَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكَ أُمْتِعَكَ وَأَسْرِحَكَ سَرَكَامًا جِيلًا ۝ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة، طلبن منه أمرا لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متنفقات، وفي مرادهن متنتات، فسق ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه آلى منهن شهرا .

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن، فأمر رسوله أن يخبرهن (١) فقال: ﴿يَأْتِيَنَّكَ النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّا تَزِيدُكَ إِلَّا كُفْرًا تَرُدُّكَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجوهها، وتغضبن لفقدائها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنتن بهذه الحال .

﴿فَتَعَالَيْكَ أُمْتِعَكَ﴾ شيئا مما عندي من الدنيا ﴿وَأَسْرِحَكَ﴾ أي: أفارقكن ﴿سَرَكَامًا جِيلًا﴾ من دون مغاضبة ولا مشاتمة، بل بسعة صدر، وانشرح بال قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي .
﴿وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لكُنَّ الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقتها، وسرها وعسرها، وقنعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ رب الأجر على وصفهن بالإحسان، لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول، فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئا مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن .

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية .

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ .

ومنها: تنزيهه عن لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله، والدار الآخرة، عنها وعن مقاربتها .

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله .

فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه .

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجتهم، وبيان علو هممهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطاهما .

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار، للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة .
ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نسائه (٢) كاملات مكملات، طيبات مغطيات ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ .

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويحول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه وغمه .

(١) في: أ: يخبرهن . (٢) في: أ: نساء .

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا، سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يَكُنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال:

(٣١، ٣٠) ﴿يَنْتَهِ الْيَقِيْنَ مِنْ يَأْتِيْ وَيَكْفُرْ وَيَفْلَحُ فِيْ شَيْءٍ مِّنْهُ
يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيْرًا ۝ وَنَمَّا
يُقَنِّتُ يَكْفُرْ يَلٰهُ وَرُسُوْلُهُ ۚ وَتَمَّ مَصْلِحًا تُوْفِّيْهَا لِحَرَمٍ مَّرَّتَيْنِ ۚ وَاعْتَدْنَا
لَهَا رِزْقًا كَرِيْمًا ۝

لما اختزن الله ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن، ومضاعفة وزهن وإثمنهن لو جرى منهن، ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ يَنْكَرْ﴾ أي: تطيع ﴿يَلَهُ وَرَسُولَهُ وَيَتَمَلَّ صَلَاحًا﴾
 قليلاً أو كثيراً. ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرًا مَرْتِينَ﴾ أي: مثل ما نعطي غيرها
 مرتين ﴿وَأَعَدْنَا لَهُمْ يَذْقًا كَرِيمًا﴾ وهي الجنة، فقتن لله
 ورسوله، وعلمن صالحاً، فعلم بذلك أجرهن.

(٣٢-٣٤) ﴿يَسِّرْكَ يَٰ رَبِّي لِمَا تُشَاءُ ۖ وَخَلِّصْكَ مِنْ غَلَبَةِ الْبَٰسِ ۖ إِنَّ أَعْيُنَ
فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ۖ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي لَيْدِهِ مَرْسٌ ۖ وَهُنَّ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۖ
وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۚ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ
وَأَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۖ وَآذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ

كَأَنَّهُ مِنَ الْبَشَرِ إِنَّ أَحَقَّكُمْ بِاللَّهِ، فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَمُتُّنَ النِّسَاءَ، وَلَا يَلْحَقُكَ أَحَدٌ مِنَ النِّسَاءِ، فَكَمُلِ التَّقْوَى بِجَمِيعِ سَائِلِهَا وَمُقَاصِدِهَا.

فلهذا أرشدنهم إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون ﴿فَتُكَلِّمَ فِي ذَلِكَ﴾، وتكلمن بكلام رقيق يدعو وطعم ﴿الَّذِي فِيهِ قَلِيلٌ مِّنْ مَّرْءٍ﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرّك يحركه، لأن قلبه غير صحيح، [فإن القلب الصحيح] ^(١) ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تؤمّله ولا تحركه إلا لأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأذني سبب يوجد، يدعو إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه. فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح. ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم

[illegible]

القول .

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فريما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقَنَّ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بأكين خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: «فلا تلتن بالقول» وذلك لأن المنهي عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده. والخاضع هو الذي يطمع فيه بخلاف من تكلم كلاماً ليناً، ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فِيمَا رَحَعُوا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ وقال لموسى وهارون: ﴿آذَعَا إِلَىٰ رِعْوَانِهِم مَّا ظَنُّوا أَنَّهُم مَّا فَعَلُوا لَهُمْ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يُدْكِرُ آرَاحِيَهُمْ﴾.

ودلّ قوله: ﴿يَقْتُلُكَ أَلْزَىٰ فِي قَلْبِكَ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ
الفرج وثباته على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن
قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه

ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدرى، ويريه من الأسباب التي تكرها النفوس ما يكون ذلك طريقاً [له]^(٥) إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

(٣٥) ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْغَائِبِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالخَافِعِينَ
وَالخَائِعَاتِ وَالْمُعْتَصِفِينَ وَالْمُعْتَصِفَاتِ وَالْمُتَجَنِّبِينَ وَالْمُتَجَنِّنَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فِرْعَوْنَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ
وعقابهن [لو قدر عدم الامثال] ^(١) وأنه ليس مثلهن أحد من
النساء، ذكر بقية النساء غيرهن .

ولما كان حكمهن والرجال واحدًا، جعل الحكم مشتركًا، فقال: ﴿إِنَّ أَتْلَبِينَ وَآتْلَبِيَّةَ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

﴿وَالْقَنَاطِثَ﴾ أي: المطيعين لله ولرسوله ﴿وَالْقَنَاطِثَ﴾
 وَالْمُصَلِّينَ في مقالهم وفعالهم ﴿وَالْمُصَلِّينَ﴾، ﴿وَالْمُصَلِّينَ﴾
 على الشدائد والمصائب ﴿وَالْمُصَلِّينَ﴾ وَالْعَنَشِينَ في جميع
 أحوالهم، خصوصاً في عباداتهم، خصوصاً في صلواتهم
 وَالْعَنَشِينَ، ﴿وَالْمُصَلِّينَ﴾ فرضاً ونفلًا ﴿وَالْمُصَلِّينَ﴾ وَالْمُصَلِّينَ
 وَالْمُصَلِّينَ شمل ذلك الفرض والنفل ﴿وَالْمُصَلِّينَ﴾ فَرَجَعَهُمْ
 عن الزنا ومقدماته ﴿وَالْمُصَلِّينَ﴾، ﴿وَالْمُصَلِّينَ﴾ اللَّهُ ﴿كَيْدًا﴾
 أي: [٢٧] في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأوراد
 المقيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات
 وَالْمُصَلِّينَ.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. ﴿وَجَزَّ عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ

يَهْشَ^(١) لِفَعْلِ الْمُحْرَمِ عِنْدَمَا يَرَى، أَوْ يَسْمَعُ كَلَامَ مَنْ يَهْوَاهُ،
وَيَجِدُ دَوَاعِيَ طَمَعِهِ قَدْ انْصَرَفَتْ إِلَى الْحَرَامِ. فَلْيَعْرِفْ أَنَّ ذَلِكَ
مَرَضٌ. فَلْيَجْتَهِدْ فِي إِضْعَافِ هَذَا الْمَرَضِ وَحَسْمِ الْخَوَاطِرِ
الرَّدِيَةِ، وَمَجَاهَدَةِ نَفْسِهِ عَلَى سَلَامَتِهَا مِنْ هَذَا الْمَرَضِ الْخَطِرِ،
وَسُؤَالِ اللَّهِ الْعَصْمَةَ وَالتَّوْفِيقَ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ الْفَرْجِ
الْمَأْمُورِ بِهِ.

﴿وَمَرَّ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: أقرن فيها، لأنه أسلم وأحفظ
 لَكُمْ ﴿وَلَا تَبْجَحُوا بِنَجْوَى الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي: لا تكثر
 الخروج منجملات أو متعطيات، كمادة أهل الجاهلية الأولى،
 الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للمشرب وأسبابه.

ولما أمرهن بالقوى عمومًا، وبجزئيات من القوى، نص عليها [لحاجة]^(٢) النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصًا الصلاة والزكاة، اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِيعَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^١
يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر أمراً به أمر إيجاب أو
استحباب.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بَأَمْرِكُنْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَنَهَيْكُمْ بِمَا نَهَاكُنْ عَنْهُ ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أَي: الْأَذَى وَالشَّرَّ وَالخُبْثَ، يَا أَهْلَ الْبَيْتِ وَطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً ﴿حَتَّى تَكُونُوا طَاهِرِينَ﴾.

أي: فاحمدوا ربكم واشكروا على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتزكي نفوسكم، ولتظهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم
 وبين لهن طريقه فقال: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشُكُّ فِي يُمُودِكُنَّ مِنَ الْآيَاتِ
 اللَّهُ وَلِذِكْرِهَا﴾ والمراد بآيات الله: القرآن، والحكمة:
 أسراه، أو سنة رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه،
 بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكر فيه، واستخراج أحكامه
 وحكمه، وذكر العمل به وتاويله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾
 يدرك أسرار^(٤) الأمور، وخفايا الصدور، وخبائيا السماوات
 والأرض، والأعمال التي تبين وتسرى.

فلطفه وخبرته يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

(١) كذا في ب، وفي أ: يشتهي، والأقرب ما أثبتته. (٢) زيادة من ب.

(٣) في ب: عمّا. (٤) في ب: سرائر. (٥) زيادة من ب. (٦) زيادة

من ب. (٧) زيادة من ب.

خاصة، فإن التقوى تحت على الصبر وتأمراً به.

﴿وَتَحْفَىٰ فِي تَقِيْلِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد، لتزوجها ﷺ ﴿وَتَحْفَىٰ أَنَاْسُ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْفَسَهُ﴾^(١) وأن لا تباليهم شيئاً.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها ﴿وَزَوَّجْنَاهَا﴾ وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة وهي: ﴿لِيَكُنْ لَا يَكُوْنُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ حيث وأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل يتسبب إليك.

ولما كان قوله: ﴿لِيَكُنْ لَا يَكُوْنُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ عامّاً في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْعُولًا﴾ أي: لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد:

منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أن الله سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره. والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه أي: بنعمة الإسلام والإيمان، وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لو لا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن الْمُتَّقَى في نعمة الْمُتَّقِي.

ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعِي، كما صرح به.

ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من القول، خصوصاً إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد، لغیر زوجته ومملوكته ومحارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يَأْتُم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمينته، أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعى في فُرْقَةٍ بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان، لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئاً مما أوحى إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه. وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه - إذا استشير في

(١) في هامش ب: والإرشاد والتعليم. (٢) في هامش ب: مقدماً لها على رغبتك. (٣) في هامش ب: فإن خشية جالية لكل خير، [مانعة] من كل شر (مع أن كلمة مانعة غير واضحة في الأصل).

يَكُوْنُ هُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَرْهَمِهِمْ وَمَنْ يَقِيْسَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق ممن اتصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما.

فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحملاً به والأزما به ﴿أَنْ يَكُوْنُ هُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَرْهَمِهِمْ﴾ أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاً بينه وبين أمر الله ورسوله.

﴿وَمَنْ يَقِيْسَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ أي: يتيماً، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً، السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

(٣٧) ﴿وَإِذْ نَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَاتَّقِ فِي تَقِيْلِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَحْفَىٰ أَنَاْسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْفَسَهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنْ لَا يَكُوْنُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْعُولًا﴾ وكان سبب نزول هذه الآيات أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عامّاً للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تباهن نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلًا، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبيلاً.

وكان زيد بن حارثة يدعى «زيد بن محمد» قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ﴾ فقيل له: «زيد بن حارثة».

وكانت تحته زينب بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وقد كان قد وقع في قلب الرسول ﷺ، لو طلقها زيد لتزوجها. فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: ﴿وَإِذْ نَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق^(١) حين جاءك مشاوراً في فراقها: فقلت له: ناصحاً ومخيراً بمصلحته^(٢) مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها ﴿وَإِنِّي اللَّهُ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك

أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير^(١)، ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشار على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإسكانها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفقرة.

ومنها: [أنه يتعين^(٢)] أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﷺ، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج، لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره حتى تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، وهي في عصمتها، أو في حق الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه.

(٣٩، ٣٨) ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ۝ الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رَسْلَتَ اللَّهِ وَيُخَشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَلَئِنْ يَأْتِ بِكُمْ حَيًّا ۖ هَذَا دَفْعُ لُطْفٍ مِنْ طَعْنٍ فِي الرِّسُولِ ﷺ فِي كَثَرَةِ أَزْوَاجِهِ، وَأَنَّهُ طَعْنٌ بِمَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ، فَقَالَ: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إثم وذنب ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: قدر له من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: لا بد من وقوعه.

ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم وعاداتهم، وأنهم

﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رَسْلَتَ اللَّهِ﴾ فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله ﴿وَيُخَشَوْنَ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾.

فإذا كان هذا سنّة في الأنبياء المعصومين الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوة الخلق إلى الله، والخشية منه وحده التي تقتضي فعل كل مأمور، وترك كل محظور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه.

﴿وَلَئِنْ يَأْتِ بِكُمْ حَيًّا﴾ محاسبا عباده، مراقبا أعمالهم. وعلم من هذا، أن النكاح من سنن المرسلين.

(٤٠) ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٩﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنِيَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِ أَرْغَبِيَاءِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٠﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ۝ الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رَسْلَتَ اللَّهِ وَيُخَشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَلَئِنْ يَأْتِ بِكُمْ حَيًّا ۖ هَذَا دَفْعُ لُطْفٍ مِنْ طَعْنٍ فِي الرِّسُولِ ﷺ وَأَنَّهُ طَعْنٌ بِمَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ، فَقَالَ: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إثم وذنب ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: قدر له من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: لا بد من وقوعه.

وَسَأَلَهُ الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رَسْلَتَ اللَّهِ بِمَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ، فَقَالَ: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إثم وذنب ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: قدر له من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: لا بد من وقوعه.

ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم وعاداتهم، وأنهم

﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رَسْلَتَ اللَّهِ﴾ فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله ﴿وَيُخَشَوْنَ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾.

فإذا كان هذا سنّة في الأنبياء المعصومين الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوة الخلق إلى الله، والخشية منه وحده التي تقتضي فعل كل مأمور، وترك كل محظور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه.

﴿وَلَئِنْ يَأْتِ بِكُمْ حَيًّا﴾ محاسبا عباده، مراقبا أعمالهم. وعلم من هذا، أن النكاح من سنن المرسلين.

(٤٠) ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ

(١) كذا في ب، وفي أ: للمستشار، ولعل الصواب ما أثبت - والله أعلم.

(٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب.

٤٢٤

يَكْرَهُ وَيَسِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخَيِّرَكُم مِّنَ الْأَمَلَاتِ إِلَى الْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ الْتَوَّابِينَ رَحِيمًا ۝ يَخَيِّرُهُمْ يَوْمَ يَقُولُهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٥﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٦﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّبِينًا ﴿٤٧﴾ وَنَذِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ يٰٓأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٨﴾ وَلَا تَطْعَمُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٩﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْتَدُوْنَهَا فَتَمِصُوهُنَّ وَسِرْخُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا ﴿٥٠﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتُ أَجْرَهُنَّ ۖ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ۖ وَنِسَاءَ عِيَالِكَ وَنِسَاءَ خَالَاتِكَ وَنِسَاءَ خَلَائِكَ ۚ وَنِسَاءَ خَلَائِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ۖ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِيُكَلِّلَ بِكُنُوزٍ عَلَيْكَ ۖ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥١﴾

أحدهما: كونه «شَهِيدًا» أي: شاهدًا على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿٢٢٨﴾ فكيف إذا يَحُثُّ مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَحِشًّا يَكُ عَلَى هَذَلِكَ شَهِيدًا ۖ فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه «مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر، وما يبشر به وينذر بالأعمال الموجبة لذلك. فالمبشر، هم المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشري في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي وديني، رتب على الإيمان والتقوى، وفي الآخرة بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب. والمُنْذِر هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم. وفي الآخرة بالعقاب البويل والعذاب الطويل.

يَكْرَهُ وَيَسِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخَيِّرَكُم مِّنَ الْأَمَلَاتِ إِلَى الْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ الْتَوَّابِينَ رَحِيمًا ۝ يَخَيِّرُهُمْ يَوْمَ يَقُولُهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٥﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٦﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّبِينًا ﴿٤٧﴾ وَنَذِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ يٰٓأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٨﴾ وَلَا تَطْعَمُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٩﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْتَدُوْنَهَا فَتَمِصُوهُنَّ وَسِرْخُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا ﴿٥٠﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتُ أَجْرَهُنَّ ۖ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ۖ وَنِسَاءَ عِيَالِكَ وَنِسَاءَ خَالَاتِكَ وَنِسَاءَ خَلَائِكَ ۚ وَنِسَاءَ خَلَائِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ۖ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِيُكَلِّلَ بِكُنُوزٍ عَلَيْكَ ۖ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥١﴾

وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل، وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف للسان عن الكلام القبيح. ﴿وَسَيُؤَدُّ بِكُمُ وَيَسِيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره، لفضلهما وشرفعهما، وسهولة العمل فيهما.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخَيِّرَكُم مِّنَ الْأَمَلَاتِ إِلَى الْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ الْتَوَّابِينَ رَحِيمًا﴾ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم وثباته، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل. فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه أفضل الملائكة، ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۚ رَبَّنَا وَأَجْلِهْمُ جَنَّتِ عَذَابِي وَعَدَّتُهُمْ وَنَسَخَ مِن مَّالِهِمْ وَأَرْزَجِهِمْ وَذَرَيْتَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ وَقِهِمُ السَّخَابَ ۚ وَمَن تَتَّبِعِ السَّخَابَ يَوْمَهُمْ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحتيته، واستماع كلامه الجليل، وروية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير الذي لا يلدي ولا يعرف كنهه إلا مَنْ أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿يَخَيِّرُهُمْ يَوْمَ يَقُولُهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

(٤٥-٤٨) ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّبِينًا ۚ وَنَذِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ يٰٓأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۚ وَلَا تَطْعَمُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته وزيدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء:

سبيل الله.

ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، إبل لا تطعمهم ﴿وَدَعِ أَذْنَهُمْ﴾^(١) فإن ذلك، جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إلى الأمور المهمة، فيقوم بها، ويسهلها على عبده.

(٤٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ مَنَعْدُونَهَا فَعِوهُنَّ وَمَتَّوهُنَّ سَرَكَامًا جَمِيلًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتد بها^(٢) أزواجهن عليهن. وأمرهم بتتبعهن^(٣)

بهذه الحالة، بشي من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواطرهن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقًا جميلًا من غير مخاصمة، ولا مشامة، ولا مطالبة، ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علق طلاقها على ينكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فجعل الطلاق بعد النكاح. فدل على أنه قبل ذلك لا محل له. وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة، وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهار أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أصح قولي العلماء.

ويدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، على وجه لم يلهم عليه ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين. وعلى جوازه قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا تَمَسَّوْهُنَّ﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة لها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول.

وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء، كما هو مئتم عليه؟ -أو- وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطفء، كما أفنى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع، على الموسع قدره،

(١) في ب: يشوقهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: جهاتها. (٣) زيادة من ب. (٤) كذا في النسخين، ولعل الصواب: تعتد بها. (٥) كذا في ب، وفي أ: بتتبعن.

وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﴿كَلِمَةً﴾ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه ﴿دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربه، ويسوقهم^(١) لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها. وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربه بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام. وذلك كله يأذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سِرَاجًا مُبِيرًا﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها^(٢). حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضللاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستأثروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة.

وقوله: ﴿وَيَذَرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ لَمْ يَنْ أَلَّهُ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ذكر في هذه الجملة المبشر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكرب، وكثرة الأرزاق الدائرة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام الترهيب، العقوبات المترتبة على ما يرهب منه، ليكون عوناً على الكف عما حرم الله.

ولما كان ثم طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصدد الداعين إلى الله، من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان، وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً، نهى الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْكَاذِبِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: في كل أمر يصد عن

الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿وَمَا أَحَلَّلْنَا لَكَ «امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ» بِمَجْدِهِمَا نَفْسَهَا «إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا» آي: هذا تحت الإرادة والرغبة «خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» يعني: إباحة الموهبة^(١). وأما المؤمنون، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» آي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فرائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ» إلى آخر الآية.

وقوله: «خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» [آي: (٥٠) وأباحنا لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك ما لم نوسع على غيرك «إِكْبَالًا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ» وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» آي: لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

(٥١) ﴿يَرْجِي مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ وَيَرْجِي إِلَيْكَ مَنْ شَاءَ وَمَنْ ابْغَيْتَ بِمَنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَحْزَنَ وَرَضِيكَ يَمَّا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته، على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك، فهو تبرع منه. ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿يَرْجِي مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ» [آي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤذيها إليك، ولا تبيت عندها]^(٢) ﴿وَيَرْجِي إِلَيْكَ مَنْ شَاءَ» آي: تضمها وتبيت عندها.

﴿وَمَا ذَلِكَ لَا يَتَعَيْنُ هَذَا الْأَمْرُ «مَنْ ابْغَيْتَ» آي: تؤويها «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ» والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله.

[وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات، له أن يرجي مَنْ يشاء، ويؤذي مَنْ يشاء. آي: إن شاء قبل مَنْ

وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول، تنصّف المهر، وكفى عن المتعة. وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جميلاً، يحمده في كل منهما الآخر. ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ» دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة. [وعلى أن المفارقة بالوفاة تعدد مطلقاً، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ» الآية]^(٣). وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

(٥٠) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْنَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ يَمِينًا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَوَاتٍ عَمَّكَ وَنَوَاتٍ عَنِّيكَ وَنَوَاتٍ خَالَكَ وَنَوَاتٍ خَلَّتِكَ النَّبِيُّ هَاجِرٌ مَكَكٌ وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ إِكْبَالًا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» يقول تعالى مبتدئاً على رسوله بإحلاله له ما أحل، مما يشترك هو والمؤمنون، وما ينفرد به ويختص: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْنَ أَجُورَهُنَّ» آي: أعطيتن مهورهن، من الزوجات. وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين، [فإن المؤمنين]^(٤) كذلك، يباح لهم ما^(٥) اتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿وَمَا أَحَلَّلْنَا لَكَ «مَنْ مَلَكَتْ يَمِينُكَ» آي: الإمام التي ملكت «يَمِينًا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ» من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، وَمَنْ لَا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وَنَوَاتٍ عَمَّكَ وَنَوَاتٍ عَنِّيكَ وَنَوَاتٍ خَالَكَ وَنَوَاتٍ خَلَّتِكَ» شمل العم والعمة، والخال والخالة، القريين والبعيدين، وهذا حصر المحلات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب، غير محلل، كما تقدم في سورة النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، فروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع مَنْ فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿النَّبِيُّ هَاجِرٌ مَكَكٌ» قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية. وأما غيره عليه

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: الموهوبة. (٥) زيادة يقتضيها السياق. (٦) زيادة من ب.

وهبت نفسها له، وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم^(١).

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعاً إليك وبإيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك ﴿أَذْنًا أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضِينَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ لعلهن أنك لم تترك واجباً، ولم تفرط في حق لازم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزامحة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمنن قلوب زوجاتك.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيمًا﴾ أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصح لأموالكم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

(٥٢) ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ آلِيسَاءٌ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَصْبَحْتَ حَسْبُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا﴾ وهذا شكر من الله، الذي لم يزل شكركوا الزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أن رحمهن، وقصر رسوله عليهن فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ آلِيسَاءٌ مِنْ بَعْدُ﴾ زوجاتك الموجودات ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بغيرها.

فحصل بهذا، أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة.

﴿وَلَوْ أَصْبَحْتَ حَسْبُهُنَّ﴾ أي: حسن غيرهن، فلا يحلن لك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: السراي، فذلك جائر لك، لأن المملوكات في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا﴾ أي: مراقباً للأموال وعالماً بما إليه تول، وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام، وأحسن إحكام.

(٥٣، ٥٤) ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِيطٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِنْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَسْتَجِبِينَ لِيُذِي النَّبِيِّ فَيَسْتَجِبَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِبُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَا كُنْتُمْ تُخَافُوا اللَّهَ لَتَكُونُوا أَرْوَاحَ بَرٍّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ إن تبدوا حسباً أو تحفوه فإن الله كان على كل شيء راقباً عالياً، يأمر تعالى عباده المؤمنين، بالتأدب مع

٤٢٥
﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِيطٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِنْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَسْتَجِبِينَ لِيُذِي النَّبِيِّ فَيَسْتَجِبَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِبُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَا كُنْتُمْ تُخَافُوا اللَّهَ لَتَكُونُوا أَرْوَاحَ بَرٍّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾
﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِيطٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِنْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَسْتَجِبِينَ لِيُذِي النَّبِيِّ فَيَسْتَجِبَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِبُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَا كُنْتُمْ تُخَافُوا اللَّهَ لَتَكُونُوا أَرْوَاحَ بَرٍّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾
﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِيطٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِنْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَسْتَجِبِينَ لِيُذِي النَّبِيِّ فَيَسْتَجِبَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِبُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَا كُنْتُمْ تُخَافُوا اللَّهَ لَتَكُونُوا أَرْوَاحَ بَرٍّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾

رسول الله ﷺ، في دخول بيوته فقال: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام. وأيضاً لا تكونوا ﴿نَبِيطِينَ﴾ أي: منتظرين، ومثانين لانتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه.

والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ إِنْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَسْتَجِبِينَ لِيُذِي النَّبِيِّ فَيَسْتَجِبَ مِنْكُمْ﴾ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شؤون بيته، واشتغاله فيه ﴿فَيَسْتَجِبُ مِنْكُمْ﴾ أن يقول لكم: «اخرجوا» كما هو جاري العادة، أن الناس - وخصوصاً أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم.

(١) زيادة من هامش ب وفي بعض الكلمات عدم وضوح، وتم تصويبها من الطبعة السلفية.

﴿و﴾ لَكِنْ ﴿اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي﴾ مِنْ الْحَقِّ ﴿﴾.

ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال، لأنهن إذا لم يحتجن عَمَنَ هن عماتهن ولا (٣) خالاتهن، من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهن عليهم، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى، المصراحة بذكر العم والخال مقدمة، على ما يفهم من هذه الآية.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ أي: لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نسائهن أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجاً لنساء الكفار. ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه.

ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره، لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في محذور شرعي فقال: ﴿وَأَتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(٥٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَكُمْ رَسُولًا عَلِيمًا﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره. و﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿وَلَكُمْ رَسُولًا﴾ عليه أي: ينبي الله عليه بين الملائكة، وفي الملائكة الأعلى، لمحبته تعالى له، وتنبي عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ اقتداء بالله
وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، ونكميلاً
لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ، ومحبة وإكراماً، وزيادةً في
حسانكم، وتخفيفاً من سيئاتكم.

وأفضل هيات الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - ما عَظَّمَ به أصحابه «اللهم صلْ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجه كثير من العلماء في الصلاة.

(٥٨، ٥٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ۝ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كُفِّرُوا فَقَدْ أَحْمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا بُهْتَانٌ لَمَّا أَمَرَ

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) في ب: بدون (لا) وهو الأقرب.

فالأمر الشرعي، ولو كان يترتب عليه تركه أدباً وحياً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي، وأن يحزم أن ما خالفه، ليس من الأدب في شيء. والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفق له سوله كأنما ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته، وأما أدبهم معه في خطاب زوجته، فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك، أم لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه، فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتج إليه، كان يُسالن متاعاً، أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فانهن يُسالن ﴿مِنْ وَلاَّ حِجَابٍ﴾ أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه.

فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله. ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقَوْلِكُمْ وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ لأنه أبعد عن الريبة. وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه.

فلهذا، من الأمور الشرعية التي يبين الله كثيرًا من تفصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته، ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَكْتُمَ﴾ يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أفحش شيء. ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: أذنية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به ﴿وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَكُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبْهًا﴾ هذا من جملة ما يؤذيه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته [بعده]^(١)، مخل بهذا المقام.

وأيضاً، فانهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجة باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده، لأحد من أمته ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واحتشيت ما نهى الله عنه منه، والله الحمد والشكر.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبُذُّوا مِنِّي﴾ أي: تظهروه ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه، فجازيكم عليه.

(٥٥) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا لَيْسَ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ إِبْطَالٍ وَلَا فِي تَزَوُّجٍ وَالْجُنَاحُ عَلَى مَا لَا وَعْدَ لَهُمْ وَلَا بَشَارَ لَكُمْ فِيهِمْ وَمَنْ يُغْلِبْ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ إِسْرَافٌ﴾^(١) **وَأَقْبَلَ اللَّهُ إِلَهُ** كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهَادَةٌ لِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ مَتَاعًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَانَ اللَّفْظُ عَامًّا لِكُلِّ أَحَدٍ^(٢) **أَحْتِجَ أَنْ يَسْتَنِي** مِنْهُ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ مِنَ الْمُحَارَمِ، **وَأَنَّهُ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** فِي عَدَمِ الْإِحْتِجَابِ عَنْهُمْ.

الْأَنْبِيَاءِ

٤٢٦

سُورَةُ الْحَزْبِ

لَأَجْنَحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُنَّ وَأَقْبَنَ اللَّهُ إِلَهُكَ اللَّهُ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا
 ﴿٥٩﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
 مُهِينًا ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٦٢﴾
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزِيدَنَّ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُ
 عَلَيْهِنَ مِنْ جَلِيلِهِنَّ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ
 اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٣﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعْنَتُكَ
 بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٤﴾ مُلْعُونِينَ
 أَيْمَانًا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقِيلَوا تَفْسِيلًا ﴿٦٥﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
 الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٦﴾

بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتهن.

وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: مرض شك أو شهوة ﴿وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: المخوفون المرهبون الأعداء، الْمُحْدَثُونَ^(٤) بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين.

ولم يذكر المعمول الذي يتتبعون عنه، ليعلم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم وتوسوس به وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسبب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهم قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لَتَنْزِفَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: نامرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم. ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تنفيهم.

(١) زيادة من ب. (٢) في ب: ينحتم. (٣) زيادة من هامش ب. (٤) في ب: المتحدثون.

أذنبه، وتوعد عليها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له، أو لدنيت، أو ما يعود إليه بالأذى ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾^(١)، أنه يحتمل^(٢) قتل من شتم الرسول ﷺ وأذاه.

﴿وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ جزاء له على أذاه، أن يؤذى بالعذاب الأليم، فآذية الرسول ليست كآذية غيره، لأنه - ﷺ - لا يؤمن العبد بالله، حتى يؤمن برسوله ﷺ. وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان، ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره.

وإن كانت أذية المؤمنين عظيمة، وإنها عظيمة، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: بغير جناية منهم موجبة للأذى ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا﴾ على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾ حيث آذوهم بغير سبب ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ حيث تعدوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها. ولهذا كان سبب آحاد المؤمنين موجباً للتعزيز، بحسب حاله وعلو مرتبته، فتعزيز من سب الصحابة أبلغ، وتعزيز من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

(٥٩-٦٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزِيدَنَّ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلِيلِهِنَّ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعْنَتُكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٣﴾ مُلْعُونِينَ أَيْمَانًا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقِيلَوا تَفْسِيلًا ﴿٦٤﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٥﴾ هذه الآية التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه، أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبنايته، لأنهن أكد من غيرهن، ولأن الأمر [لغيرهن]^(٣) ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

أن ﴿يُدْرِكَنَّ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلِيلِهِنَّ﴾ وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه، أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن.

ثم ذكر حكمة ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾ دل على وجود أذية، إن لم يحتجبن، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذيهن، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر. فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم،

العذاب، واستحققنا - كالمطيعين - جزيل الثواب. ولكن أمنية فات وقتها، فلم تقدمم إلا حسرةً وندماً، وهماً، وغماً، والمأثمة.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَرِهَتَنَا وَقَدْ عَلِمْنَا عَلَىٰ صُلَابِنَا أَنَّكَ عَلِيمٌ خَفِيٌّ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الْأَمْرُ لِلَّهِ أَطَاعُوا أَمْرًا سِرًّا لَا يُخَالِفُ لَهُ شَيْءٌ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَلَا مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَمَنْ يُضِيقْ إِلَهُ فَأُخْرِجْنَاهُ مِمَّا ظَنَّنَ سَكِينًا وَنَجْعَلْ لِّهٖ جَهَنَّمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَافِلًا﴾ الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراءهم مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشفوا ممن أضلواهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّهُمْ يَضَعُونَ يَدَهُمْ فِي الْوَعْدِ الْأَمْرِ﴾ فيقول الله: لكل ضعف، فكلكم اشركتم في الكفر والمعاصي، فتشركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

(٦٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكَلَّمُوا عَلَىٰ قَوْلِهِمْ قَوْلًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضِيقْ إِلَهُ فَأُخْرِجْنَاهُ مِمَّا ظَنَّنَ سَكِينًا وَنَجْعَلْ لِّهٖ جَهَنَّمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَافِلًا﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كليهم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي أظهر الله لهم براءته. والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباده المخلصين؛ فلم يزرجم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تشبهوا بهم في ذلك.

والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى (٧)، لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: «إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آذره أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمَرَّ به على مجلس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

(٧٠، ٧١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۚ يُصْلِحْ لَكُمْ أَسْلَافَكُمْ وَيَسِّرْ لَكُمْ أَسْلَافَكُمْ وَمَنِ تُبِيعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو

(١) في ب: حيث. (٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يقرر. (٣) كذا في النسخين، ولعله - والله أعلم - المتفضية لمسيباتها. (٤) كذا في ب، وفي أ: قد. (٥) في ب: والشقاوة. (٦) زيادة من ب. (٧) في ب: عن موسى.

وهذا فيه دليل، لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْتَمَّا تَقُولُوا أَغْدُوًا وَقِيلُوا تَقِيصُوكَ أَي: مبعدين، أبين^(١) وُجِدُوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر^(٢) لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يُحبسوا، أو يعاقبوا.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أن من تعادى في العصيان، وتجرا على الأذى، ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَفْضَلِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: تغييراً، بل شئة الله تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها^(٣).

(٦٣-٦٨) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ الْبَاقِينَ﴾ أَيْ: يَسْتَبْشِرُونَ الْبَاقِينَ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَوِيرًا ۚ خَالِبِينَ فِيهَا أَمَّا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۚ يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَبْنَئَتْنَا أَنْعَمًا اللَّهُ وَأَلْهَمَنَا الرُّسُولَ ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَرِهَتَنَا فَأَتَيْنَا الْكَافِرِينَ رَبَّنَا إِنَّهُمْ يَضَعُونَ يَدَهُمْ فِي الْوَعْدِ الْأَمْرِ أَي: يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها، وبعضهم تكذيباً لوقوعها، وتعجزاً للذي أخبر بها ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عَلِمْتُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلمها إلا الله، فليس لي ولا لغيري بها علم. ومع هذا، فلا تستبطئوها.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ومجرد مجيء الساعة، قريباً وبعداً، ليس تحته نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة، والخسار والريح، والشقاء^(٤) والسعادة، هل يستحق العبد العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقها.

فوصف مستحق العذاب، ووصف العذاب، لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْكُفْرِينَ﴾ [أي: (١)] الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسوله، وبما جاءوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقاباً.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَوِيرًا﴾ أي: ناراً موقدة، تسعر في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يَمُتُّر عنهم ساعة. ﴿وَلَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فيعطيهم ما طلبوه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم العذاب.

بل قد تخلى عنهم الولي والنصير، وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فيذوقون حرها، ويشند عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

﴿يَقُولُونَ يَبْنَئَتْنَا أَنْعَمًا اللَّهُ وَأَلْهَمَنَا الرُّسُولَ﴾ فسلمنا من هذا

٤٢٧

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب

يَسْتَأْذِنُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا اللَّهُ وَمَا يُدْرِكُ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلِيًّا وَلَا يُصِيرُ
﴿٦٨﴾ يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرُّسُلَ ﴿٦٩﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَرِهْنَا
فَاضْلَمْنَا السَّبِيلَ ﴿٧٠﴾ رَبَّنَا أَنْتَ هُمُ الضَّعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ
وَأَلْعَنَهُمُ اللَّهُ كَبِيرًا ﴿٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
ءَادَّ أُمُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿٧٢﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُؤُلُوا قَوْلَ سَرِيدِكُمْ ﴿٧٣﴾ يُضْلِعُ
لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فَارَقَ رُزْأَ عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٥﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٦﴾

الثواب والعقاب، فقال: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه.

القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تُعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

ثم ذكر ما يرتب على تقواه وقول القول السديد فقال: ﴿يُضْلِعْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها، وطريقاً لقبولها؛ لأن استعمال التقوى، تقبل به الأعمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً]، بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها.

﴿وَيُغْفِرْ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَارَقَ رُزْأً عَظِيمًا﴾.

(٧٣، ٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. يعظم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السموات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحميم، وإنك إن قمت بها وأديتها على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقمى بها، [ولم تؤديها]، فعليك العقاب.

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي خوفاً أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصياناً لربهن، ولا زهداً في ثوابه.

وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهه، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام: منافقون: أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون: تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون: قاثمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من

فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

﴿وَيُرِيدُ بِكَ يَصْرُحَ﴾ يرون أيضًا أنه في أوامره ونواهيهِ ﴿يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة:

من جهة علمهم، بصدق ما أخبر به.

ومن جهة موافقته للأمر الواقعة، والكتب السابقة.

ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عيانًا.

ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق، وفي أنفسهم.

ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنهي الأجر، وتفيد العامل وغيره كالصدق والإخلاص وير الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه مقبلة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيهِ، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

(٧-٩) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إِذَا مَرْفَعَتُ كُلِّ مَرْثِيٍّ إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ أَفَنَرِيكَ إِلَّا مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ نَسُوا آلَكَ وَالْأَرْضَ إِن نَشَاءُ نَحِيطَ بِهِمْ وَالْأَرْضَ أَوْ نُسُطُ عَلَيْهِمْ كِنُفًّا نَسُحُ السَّمَاءَ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَكَاظِمَةٌ لِّكُلِّ عَاكِثٍ فِيهَا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد وذكر وجه الاستبعاد. أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إِذَا مَرْفَعَتُ كُلِّ مَرْثِيٍّ إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِ كَذِبًا﴾ يعنون بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعيمهم - فرجة يفرجون عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه كيف يقول: «إنكم مبعوثون» بعد ما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟!

فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل ﴿أَفَنَرِيكَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

هذا موجبًا لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصفاء الناس، طائفة لم تقدر ربها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمتها، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات، وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بالله وبرسله، وبما جاءوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ﴾ أي: ما هي، إلا هذه الحياة الدنيا، نموت ونحيا. فأمر الله رسوله، أن يرد قولهم ويطله، ويقسم على البعث، وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أثر به، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام فقال: ﴿عَلَيْهِ الْقَبْرُ﴾ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لَا يَمُرُّ عَنْهُ﴾ أي: لا يغيب عن علمه ﴿وَيُنَادِي دَرَجَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو الماثيل منها.

﴿وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ. فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم^(١) ما تنقص الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم، من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿لَيَجْعَلَنَّ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتٍ﴾ بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسله تصديقًا جازمًا ﴿وَعَسَى أَنْ تَكُونُوا تَصْذِقُونَ﴾ تصديقًا لإيمانهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب ﴿وَوَرَقٌ كَرِيمٌ﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُنْجِبِينَ﴾ أي: سعوا فيها كفرًا بها، وتنجيزًا لمن جاء بها، وتعجيزًا لمن أنزلها، كما عجزوه في الإعادة بعد الموت ﴿أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ مَنْ يَخِيزُ آلِيَّ﴾ أي: مؤلم لأبدانهم، وقلوبهم.

(٦) ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أَوْثَرُوا أَلْبَسَهُمُ اللَّهُ ثِيَابًا﴾ ثِيَابًا مِنْ رِزْقِكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لما ذكر تعالى إنكار مَنْ أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموقنين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه

فتجراً عليه وقال ما قال، ﴿أَمْ يَرَىٰ جَهَنَّمَ؟﴾ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فنون.

وكل هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم، أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم، في صد الناس عنه؛ فلو كان كاذباً مجنوناً لم ينبغ لكم - يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغوا لما قال، ولا أن تحضلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ. ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته، ولكن «ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ولهذا قال تعالى: ﴿يَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقریب من الصواب. وأي شقاء وضلال أبغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق، فرأوا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقاً وهدى.

ثم نبههم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعدوه، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فرأوا من قدرة الله فيها، ما يبهر العقول، ومن عظمتها ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتها وما فيها من المخلوقات، أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذاك خبر غيبي إلى الآن، ما شاهدوه، فلذلك كذبوا به.

قال الله: ﴿إِنْ شَأْ خَفِيفَ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تُثْقِلُ عَلَيْهِمْ كَيْفَا مِنْ السَّمَاءِ﴾ أي: من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فنعاقبكم أشد العقوبة ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: خلق السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات ﴿لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم، لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات، نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة.

(١٠، ١١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَهَبًا فَصَلَّىٰ نَبِيَّ جِبَالٍ أَوْيَ مَعَهُ وَالطَّيْرُ

أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَتَرَوُا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّعَةِ وَالْأَرْضِ إِنْ شَأْ خَفِيفَ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تُثْقِلُ عَلَيْهِمْ كَيْفَا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَهَبًا فَصَلَّىٰ نَبِيَّ جِبَالٍ أَوْيَ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ وَالْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلْ سَبِيحَتٍ وَقَدِيرٍ فِي السَّجْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِيَّيَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٍ ﴿١١﴾ وَلَسَلِمُنَ الرَّيْحِ عُدُوهُمَا شَرْ وَوَحْشَاهُمَا شَرْ وَأَسْلَمْنَا لَهُ الْفُطْرَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ذُقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَمَنْشِيلٍ وَحِجَابٍ كَالْحِجَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتْ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِمْ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

وَأَنَّ لَهُ الْحَدِيدَ ٥ أَنْ أَعْمَلْ سَبِيحَتٍ وَقَدِيرٍ فِي السَّجْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِيَّيَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٍ ٦ أي: ولقد متنا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والتَّعَمُّدَ الدِّينِيَّةَ والدُّنْيَوِيَّةَ. ومن نعمة عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجبال؛ والحيوانات من الطيور، أن تُؤَوِّبَ معه، وتَرْجِعَ التَّسْبِيحَ بحمد ربها مجاوبة له.

وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له وغيره على التسبيح إذا رآوا هذه الجمادات والحيوانات، تتجاوب بتسبيح ربها، وتمجيده، وتكبيره، وتحميده، كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك كما قال كثير من العلماء، أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رَجَعَ التَّسْبِيحَ والتَّهْلِيلَ والتَّحْمِيدَ بذلك الصوت الرخيم الشَّجِيَّ المطرب، طرب كل مَنْ سمعه من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال، وسبحت بحمد ربها.

ومنها : أنه لعله ليحصل له أجر تسييحها ، لأنه سبب ذلك ، وتسيح تبعاً له .

ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، ليعمل الدروع
السباغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته، بأن يقدره في السرد،
أي: يقدره حلقًا، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض.

أي: يقدره خلقاً، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض.
قال تعالى: ﴿وَمَنْعَهُمْ صَغَةً لَّوْئِي لَكُمْ لِيُحْشَنَكُمْ مِنْ بَابِكُمْ﴾ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿١٠٠﴾ ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

[illegible]

﴿عُدُّوْهَا مِثْرًا﴾ أي: أول النهار إلى الزوال ﴿وَوِزْنَهَا مِثْرَةً﴾ من الزوال، إلى آخر النهار ﴿وَأَسْلَمْنَا لَمْعَ عَيْنِ الْفِطْرِ﴾ أي: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب، في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها.

وسخر الله له أيضًا الشياطين والجن، لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره، ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ مِنْهُمْ عَنْ آمْرِنا يُؤْفَكْ مِنْ عَذَابِ النَّعِيمِ﴾ وأعمالهم^(١)، كل ما شاء سليمان عملوه ﴿وَمِنْ مَّحْكُومٍ﴾ وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة.

﴿وَتَضَعُ﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات، من إتيان صنعتهم، وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان ﴿وَجَعَلَ﴾ كَلْبُوبَ ﴿أي: كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره ﴿وَوَعَلَوْا﴾ له قدورا راسيات لا تزول عن أماكنها من عظمتها.

فلما ذكر مته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾ وهم داود وأولاده وأهله، لأن المِنَّة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم ﴿شُكْرًا﴾ لله على ما

أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم ﴿وَقِيلَ مَنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النقم.

والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقاها افتقاراً إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى، وصورها عن صرفها في المعصية.

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام، كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات. فأراد الله تعالى أن يبري العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكنوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، وأتكا على عصاه وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكىء عليها، ظنوه حيًا، وهابوه.

فغدوا على عملهم كذلك ستة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى بادت وسقطت فسقط سليمان - عليه السلام - وافتقت الشياطين وتبينت للإنس أن الجن ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلموا مما هم فيه.

(١٥-٢١) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسِرِّ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَالَةً جُنَّاتٍ عَنْ بَابِ
وَسَائِلَ كُلِّ مِّنْ رِّزْقٍ رَّيَكُم ۖ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّهِمْ غَفُورٌ ۝
فَاعْرِضُوا فَأَمْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سِيلَ الْعَرَمِ وَيَذَلُّهُمْ بِحَبَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ
خَمْلٍ وَآتِلٍ وَشَوْوٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَنَّتُهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ
تُحْزِنُ إِلَّا الْأَكَلُونَ ۖ وَنَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْفَرَىٰ أَلْوَىٰ بَرَكَةً فِيهَا فَرَىٰ
ظُهُورُهُمْ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُهُمْ فِيهَا لَيْلَىٰ وَأَنَامًا ءَامِينَ ۖ فَقَالُوا
رَبَّنَا بَعُدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَزَفَقْنَاهُمْ كُلَّ
مَرْفُزٍ إِلَّاهُ فِي ذَٰلِكَ لَآئِنِ لَّا كَانَ صَبَّارٌ فَكَاوِرٌ ۝ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ
إِبْرَاهِيمُ نَذْرُهُمْ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ
سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُّؤْتِي بِالْأَمْرِ مَعَهُ هُوَ مِنْهَا فِي شَيْءٍ وَرَبُّكَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ۝ سَبَأٌ قَبِيلَةٌ مَّعْرُوفَةٌ فِي آدَانِ الْيَمَنِ، وَمَسْكِنُهُمْ
بَلَدَةٌ يُقَالُ لَهَا «مَارِب» .

ومن يَتم الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ

(١) كذا في ب، وفي أ: وأعماله.

لَسِبَ فِي مَسْكَنِهِمْ أَي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿مَائَةً﴾.

والآية هنا: ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النعم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدًا محكمًا، يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتُغزل لهم تلك الجنتان العظيمنتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه، التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أفواتهم منها.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم، إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها [قرى صنعاء، قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها] الشام - هيا لهم من الأسباب، ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: [سيرًا] مقدرا يعرفونه ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهن عنه ﴿إِلَّيَّهَا وَإِلَيْهَا مُبِينٌ﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خافين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أثبتهم من الخوف.

فأعرضوا عن المؤمنين، وعن عبادته، ويطروا النعمة، وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتبادر أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسرًا.

﴿وَلَكَّمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطعمهم، فأبادهها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتورع، الذي خرب سددهم، وأتلف جنانهم، وخرب بساتينهم.

فتبدلت تلك الجنات ذات الحداث المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَلَّغْنَاهُمْ يَحْتَتِبُهُمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتُ أَكْمَلٍ﴾ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعًا ﴿حَمِطٍ وَأَلْوِيٍّ وَمِنْ سِدْرٍ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّ مِنْ رِزْقٍ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ حَمِطٍ وَأَلْوِيٍّ وَمِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ تُجْرِي إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَلِيَالٍ مَاءً آمِنٌ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بُعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَوْمَئِذٍ بِالْآخِرَةِ مَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ ﴿٢١﴾ فَلْيَادْعُوا الْذِكْرَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُ كُتُوبٌ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

قَلِيلٍ﴾ وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بدلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ تُجْرِي إِلَّا الْكُفُورُ﴾ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله ويطر النعمة.

فلما أصابهم ما أصابهم، تفرقوا وتمزقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم، وأسما را للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ» فكل أحد يتحدث بما جرى لهم.

ولكن لا يتنفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صَبَّارٌ على المكارة والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها بل يصبر عليها، شكور لعملة الله تعالى يُقِرُّ بها ويعترف، ويشني على من أولاهها، ويصرفها في طاعته.

فهذا إذا سمع بقصتهم، وما جرى منهم وعليهم، عرف بذلك أن تلك العقوبة، جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم، فُيْلَ به كما فعل بهم. وأن شكر الله تعالى حافظ

أي: لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعواناً للمالك، ووزراء له، فدعائهم يكون نافعا، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: الله تعالى الواحد القهار ﴿يُنْتَهُم﴾ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿يَنْ ظُهُيرٍ﴾ أي: معاون وزير، يساعده على الملك والتدبير.

فلم يبق إلا الشفاعة، فنهاها بقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾. فهذه أنواع التعلقات، التي تتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر والشجر وغيرهم، قطعها الله وبيّن بطلانها تبيناً حاسماً لمواد الشرك، قاطعاً لأصوله.

لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان مَنْ يدعوه (غير الله)، لا مالكا للنفع والضرر، ولا شريكا للملك، ولا عوناً وظهيراً للملك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء وهذه العبادة، ضلالاً في العقل، باطلة في الشرع.

بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده، فإنه يريد منها النفع، فبين الله بطلانه، وعدمه، وبيّن في آيات أخر ضرره على عابديه^(١)، وأنه يوم القيامة، يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، وماوهم النار ﴿وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَاوُأُ هُمْ أَحْدَاكُهُ وَكَأَوُأُ يَبْدَأُهُمْ كَفْرُهُمْ﴾.

والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل، بزعمه^(٢) أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر، والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي عبادة مَنْ ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدوه وهو الشيطان. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور.

ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر والشرك

(١) في ب: ضرره على عابديه. (٢) في السخين: يزعمهم. ولعل الأقرب - والله أعلم - ما أثبت.

للنعمة، دافع للنقمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق، كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدّق عليهم إبليس ظنه، حيث قال لربه: ﴿يَمُرُّ بِكَ الْغُوثُ بِهَمِّهِمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. وهذا ظن من إبليس، لا يقين، لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأت خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين، إلا من استثنى.

فهؤلاء وأمثالهم، ممن صدق عليه إبليس ظنه، ودعاهم وأغواهم ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنَ الْمُتَوَّبِينَ﴾ ممن لم يكفر بنعمة الله، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس.

ويحتمل أن قصة سبأ، انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ﴾ أي: لإبليس ﴿عَلَيْهِمْ يَنْ شُطْرُنٍ﴾ أي: تسلط، وقهر، وقسر على ما يريده منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم.

﴿لِيَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ فِي شَكٍّ﴾ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف مَنْ كان إيمانه صحيحاً، يثبت عند الامتحان والاختبار، وإلقاء الشبه الشيطانية، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة، ويزل بأقل داع يدعوه إلى ضده، فالله تعالى جعله امتحاناً، يمتحن به عباده، ويظهر الخبيث من الطيب.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾ يحفظ العباد، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهما إياها كاملة موفرة.

(٢٣، ٢٢) ﴿قُلْ ادْعُوا إِلَٰهَ رَبِّكُمْ زَعَمْتُمْ بَيْنَ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ يَشْفَعُ دُونَهُ فِي السَّمَكِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ بِشِرْكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُ مِن ظُهُيرٍ ۖ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، للمشركين بالله غيره من المخلوقات، التي لا تنفع ولا تضر، ملزماً لهم بعجزها، ومبيناً لهم بطلان عبادتها: ﴿ادْعُوا إِلَٰهَ رَبِّكُمْ زَعَمْتُمْ بَيْنَ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: زعمتموهم شركاء لله، إن كان دعائكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه.

فإنهم ليس لهم أدنى ملك ف ﴿لَا يَمْلِكُونَ يَشْفَعُ دُونَهُ فِي السَّمَكِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿يَنْ شِرْكٍ﴾

يرزقكم شيئاً، ولا يفيدكم نفقاً؟

وقوله: ﴿وَلَا إِلِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُنْدَىٰ أَوْ فِي سَكَلٍ ثَبِثَ﴾ أي: إحدى الطائفتين منا ومنكم على الهدى، مستعجلة عليه، أو في ضلال مبين، منغرة فيه، وهذا الكلام يقوله مَنْ ثَبِثَ له الحق، واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه، وبطلان ما عليه خصمه.

أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة، عندنا وعندكم، ما به يعلم علمًا يقينًا لا شك فيه، مَنْ المحقُّ منا، وَمَنْ المبطل، وَمَنْ المهتدي وَمَنْ الضال؟ حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه.

فإنك^(١) إذا وازنت بين مَنْ يدعو إلى عبادة الخالق، لسائر المخلوقات المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم، وأوصل إليهم كل نعمة، ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله والملك كله، وكل أحد من الملائكة فما دونهم، خاضعون لهيبته، متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير، في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال وكل جلال وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة مَنْ سواه، وبين مَنْ يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور، لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك لأنفسها، ولا لِمَنْ عِبَدَهَا، نفقًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويترأون منهم، ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله.

فهو يدعو مَنْ هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي مَنْ أخلص الدين لله ويحاربه، ويكذب رسل الله الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده. ثَبِثَ^(٢) لك أي الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿قُلْ﴾ لهم: [﴿لَا تَسْتَلُوكَ عَمَّا آتَيْنَاكَ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا

آتَيْنَاكُمْ﴾ أي: كل منا ومنكم، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق وسلوك طريق الإنصاف.

ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعًا لكم من اتباع الحق،

باطل، وأن ما قال الله، وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، وقهره لهم، وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته. ومن علوه، أن حكمه تعالى يعلو، وتذعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركون، وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سمعته الملائكة، فصعقوا وخروا له سجداً، فيكون أول مَنْ يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفرع فيسأل بعضهم بعضًا عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقًا، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا: أن المشركون الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم، العلي الكبير، الذي - من عظمته وجلاله - أن الملائكة الكرام، والمقرئين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركون، استكبروا عن عبادة مَنْ هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه، فتعالى العلي الكبير عن شرك المشركون وإفكهم وكذبهم.

(٢٧-٢٤) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُنْدَىٰ أَوْ فِي سَكَلٍ ثَبِثَ ۚ قُلْ لَا تَسْتَلُوكَ عَمَّا آتَيْنَاكُمْ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَقْعُنُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۚ قُلْ أَرَأَيْتَ الْفَقْرَ يَدُ شُرَكَائِكَ كُلًّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ۚ يَأْمُرُ تَعَالَىٰ نَبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقُولَ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَيَسْأَلُهُ عَنْ حِجَّةِ شُرَكَائِهِ ۚ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ فَانْهَمَ لَا بَدَأَ يَقْرَأُ أَنَّهُ اللَّهُ.

ولئن لم يقرأ ف ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ فإنك لا تجد من يدفع هذا القول. فإذا ثَبِثَ أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض، وينزل لكم المطر، وينبت لكم النبات، ويفجر لكم الأنهار، ويطلع لكم من ثمار الأشجار، وجعل لكم الحيوانات جميعها، لتفككم ورزقكم، فلم تعبدون معه مَنْ لا

(١) ورد في الهامش هنا: فعل الشرط. (٢) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ مَنْ يَرْفُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِلَّا أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ أَعْلَىٰ هَٰذَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَا تَسْتَلُوبُ عَمَّا أُجْرِمُونَ وَلَا تَسْتَلُوبُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا أَي: يحكم بيننا حكماً، يبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، وَمَنْ نَاب مَنَابِك: ﴿أَرُونِي أَلَيْسَ الْحَقُّ بِرَبِّ شُرَكَاءَ﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك، ﴿وَيَسْتَدُوبُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْقَهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰذَا إِلَٰهُنَا الَّذِي سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ قُلْ أَتَشْكُرُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَلْعَلُ الْآيَةُ﴾ وَمَا يَسْجُ أَلَيْسَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْجُونَ إِلَّا الظُّلَّةُ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ.

وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيا أيها المشركون أروني الذين الحقتم بزعمكم الباطل بالله ﴿شُرَكَاءَ﴾.

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد ﴿بَلْ مَوَ اللَّهِ﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو.

﴿الَّذِينَ﴾ الذي قهر كل شيء فكل ما سواه، فهو مقهور مسخر مدبر.

﴿الَّذِينَ﴾ الذي اتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده، وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به، واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشفاء والهلاك، لكفى^(١) بذلك برهاناً على كمال حكمته، فكيف، وجميع ما أمر به ونهى عنه، مشتمل على الحكمة!!؟

(٢٨-٣٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَلَامًا لِّتُنَبِّئَ الْبَاقِينَ وَيَكُفِّرَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿قُلْ لَكُمْ يُعَادِ بُيُوتُ لَا تَسْتَشِيرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ إلا يبشّر جميع الناس بشواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكانهم لا علم

لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول، موجباً لرد دعوتهم.

فكما اقترحوه، استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا ظلم منهم، فأى ملازمة بين صدقه، وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس النذير [في أمر] في أحوال الدنيا، لو جاء قومًا يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عذر ينتهز الفرصة منهم ويعدّ لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم، فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القاتل عاقلاً، أم يحكم بسفه وجنونه؟.

هذا، والمخبر يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنحل عزمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي

(١) كلما في ب، وفي أ: يكتي، ولعل الصواب ما أثبت.

لا مدفع له ولا ناصر منه؟! أليس رد خبره، بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه!!!

﴿قُلْ لَهُمْ - مخبرًا بوقت وقوعه الذي لا شك فيه - :
﴿لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَنْتَفِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

(٣١-٣٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا تَرْكُ إِلَى الْفَٰلِقِينَ مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلُ بِثَوَلِ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُوا لَكُمْ سَكَدْنَا عَنْ الْمَذْنِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلْ كُفْرٍ تَجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْبَلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ أَتَدَّامَةُ لَنَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْطَلُ فِي أَغْصَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب، لا بد من وقوعه عند حلول أجله؛ ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنها لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لرأيت أمرًا عظيمًا وهولًا جسيمًا، ورأيت كيف يتراجع ويرجع بعضهم إلى بعض القول.

﴿فَاسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم الأنبياء ﴿وَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ولكنكم حُطِّمَ بَيْنَا وَبَيْنَ الْإِيمَانِ، وزيمت لنا الكفر [ان] فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك، أن يكون العذاب على الرؤساء، دونهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُوا﴾ مستهينين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أَنْتُمْ سَكَدْنَا عَنْ الْمَذْنِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ أي: بقوتنا وقهرنا لكم ﴿بَلْ كُفْرٍ تَجْرِمِينَ﴾ أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْبَلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبّرتموه من المكر في الليل والنهار، إذ تُحْسِنُونَ لنا الكفر، وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقذحون في الحق، وتهجونونه، وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا، وكيدكم إيانا، حتى أغويتونا وفتنونا.

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئًا إلا تبري بعضهم من بعض، والتدأمة العظيمة، ولهذا قال: ﴿وَأَسْرَأُ أَتَدَّامَةُ لَنَا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُوا﴾ أَنْتُمْ سَكَدْنَا عَنْ الْمَذْنِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلْ كُفْرٍ تَجْرِمِينَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْبَلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ أَتَدَّامَةُ لَنَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْطَلُ فِي أَغْصَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَسْرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي بِسِطْرِ الرَّزْقِ لَمِنْ شَاءَ وَيَقْدِرُ وَلَكِن كَثُرَ الْكَافِرُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَضْعَافٍ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامُونَ﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَتَحَاتِبُونَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي بِسِطْرِ الرَّزْقِ لَمِنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ مَا يَفْقَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ خَلِيفُهُ وَهُوَ ذُو الْقَرْيَةِ ﴿٣١﴾

بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، [وأنه] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سرًا في أنفسهم، لخوفهم من الفضيحة في إقارهم على أنفسهم.

وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهرا. ﴿وَيَوْمَ يَنْظُرُ عَلَىٰ ظُلُمَاتٍ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَسْئَلَنِي أَفَعَدْتُ مَعَ أَرْسُولِي سَبِيلًا ۝ يَتْلُو الْبَيْتَ لَرَأَيْتُمْ أَفَعَدْتُ فَلَا تَحِيلَا﴾ الآيات ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّوِيرِ ۝ فَاتَّبَعُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّوِيرِ ۝

﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْطَلُ فِي أَغْصَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يغفلون كما يغفل المسجون، الذي سبها في سجنه كما قال تعالى: ﴿إِذْ الْأَعْطَلُ فِي أَغْصَانِهِمْ وَالسَّكِينُ يُسَبِّحُونَ ۝ فِي اللَّيْلِ نَزَّلَ فِي النَّارِ يُسَجَّرُونَ﴾ الآيات.

﴿هَلْ يَجْزُونَ﴾ في هذا العذاب والنكال، وتلك الأغلال الثقيلة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من الكفر والفسق والعصيان.

(٣٤-٣٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا

كَانُوا يَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا سُبْحَكَ أَنتَ وَرِثْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ۖ قَالُوا لَا تَبْلُغْ بِعَشْرٍ لَعْنٍ نَعْمًا وَلَا صِرًا وَقُولِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُرُوعًا عَذَابِ النَّارِ أَلَيْكَ كُفْرُهَا تَكْذِبُونَ»، «يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جِمْمًا» أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه، من الملائكة ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ الله ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه التوبيخ لمن عبدهم: «أَهْوَلًا يَكْفُرُ كَانُوا يَعْبُدُونَ» فتراها من عبادتهم.

و ﴿قَالُوا سُبْحَكَ﴾ أي: تنزيها لك وتقديسا، أن يكون لك شريك أو ند ﴿أَنْتَ وَرِثْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ فنحن مفكرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء!!

ولكن هؤلاء المشركون ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين يأمرون^(١) بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك.

وطاعتهم هي عبادتهم؛ لأن العبادة الطاعة، كما قال تعالى مخاطبا لكل من اتخذ معه آلهة ﴿أَلَمْ أَقْعُدْ بَيْنَكُمْ بَيْنَةَ يَدَايَ أَنْ لَا تُعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۖ وَأَنْ أَغْنِيَنَّ هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ».

﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: مصدقون للجن، متقادون لهم؛ لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.

فلما تبراوا منهم، قال تعالى [مخاطبا] لهم: ﴿قَالُوا لَا تَبْلُغْ بِعَشْرٍ لَعْنٍ نَعْمًا وَلَا صِرًا﴾ تنقطع بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض ﴿وَقُولِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والمعاصي - بعدما ندخلهم النار - ﴿ذُرُوعًا عَذَابِ النَّارِ أَلَيْكَ كُفْرُهَا تَكْذِبُونَ﴾ فالיום عابنتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب، من عدم الهرب من أسباها.

(٤٣-٤٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ ثَمَلًا عَلَيْهِمْ مَبْنًى يَنْتَوِي قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجَلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ دِينِ آبَائِكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا فُلْكَ مُقَرَّرٌ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا بَيْعٌ شَيْئٌ ۖ وَمَا بَالُكُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَ مِنْ نَذِيرٍ ۖ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا وَعَسَاءَ مَا يُلْقِيهِمْ فَعَلُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين، عندما تتلى عليهم آيات الله البينات، وحججه الظاهرات، وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم، وميثاق وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما

بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ، كَفَرُوا ۖ وَقَالُوا غَنَّى أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا غَنَّى بِمَعْلَمِينَ ۖ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۖ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُفْرِكُكُمْ عَنَّا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْغَنَى بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُوبِ مَأْمُونُونَ ۖ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۖ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَفْقَرُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَحْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم، وفخرها بها.

﴿وَقَالُوا غَنَّى أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ أي: ممن اتبع الحق ﴿وَمَا غَنَّى بِمَعْلَمِينَ﴾ أي: أولا، لسا بمبعوثين، فإن بُشِئنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعتبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه ليس دليلا على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفا، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله.

﴿وَهُمْ فِي الْغُرُوبِ مَأْمُونُونَ﴾ أي: في المنازل العالية المرتفعات جدًّا، ساكنين فيها، مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا، ولرسلنا، والتكذيب، ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

ثم أعاد تعالى أنه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُمْ﴾ ليرتب عليه قوله: ﴿وَمَا أَفْقَرُ مِنْ شَيْءٍ﴾ نفقة واجبة، أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يَحْلِفُهُ﴾ فلا توهمو أن الإشفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

(٤٠-٤٢) ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جِمْمًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْوَلًا يَكْفُرُ

ينبغي، ويكذبون مَنْ جاءهم بها ويقولون: ﴿هَذَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ أي: هذا قصده، حين يأمركم بالإخلاص لله، لتتركوا عوائد آبائكم الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق بقول الضالين، ولم يوردوا^(١) برهاناً ولا شبهة.

فأي شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق، فادَّعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟

وهذه السفاهة، ورد الحق بأقوال الضالين، إذا تأملت كل حق رد، فإذا هذا ماله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين، والدهريين، والفلاسفة، والصابئين، والملاحدين في دين الله المارقين، فهم أسوة كل مَنْ رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آبائهم، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل، طعنوا بعد هذا بالحق ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِمَقَرَّيْ﴾ أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: سحر ظاهر بين لكل أحد، تكذيباً بالحق، وترويحاً على السفهاء.

ولمَّا بين ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً عن أن تكون حجة، ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم، فإنهم لا مستند لهم، ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا حَتَّى تَكُونَ عَمْدَةً لَهُمْ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله، ما يدفعون به ما جتهد به، فليس عندهم علم، ولا إثارة من علم.

ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين [قبلهم] فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا﴾ أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿وَمِشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكارى عليهم، وعقوبتي لإياهم.

قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم مَنْ أهلكه بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة، وبالحسف بالأرض، وبإرسال الحاصب من السماء، فاحذروا يا هؤلاء المكذبون، أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم، ويصيبكم ما أصابهم.

(٤٦-٥٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُولُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: لا تذكروا لكم بين قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنْ أَرَادْتُمْ أَنْ يَعْبُدُونِ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَسْبَحَنَّكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٧﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِبَعْضِ كُرْهِبٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَقُولُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُقُوا عَذَابَ النَّارِ أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَذِيرٌ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ أَنْشَأَ عَلَيْهِمُ الْبَنَاتِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِمَقَرَّيْ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٥٠﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٥١﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُولُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: لا تذكروا لكم بين قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا

عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِرُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٣﴾ قُلْ سَاءَ لَعْنُ وَمَا يَدْعُوا الْقَبِيلَ وَمَا يُبِيدُ ﴿٥٤﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَقْبَدْتُ فَمَا يُؤْتِي إِلَى رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٥﴾ أي ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصددين لرد الحق وتكذيبه، والقذح بمن جاء به: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها. وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي ﴿أَنْ تَقُولُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفِرَادَى﴾ أي: تنهضوا بهمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحين في ذلك، ومتناظرين، وفرادي، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قسمتم الله مثنى وفرادي، استعلمتم فكركم وأجتمعوهم، وتبدرت أحوال رسولكم: هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيبته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر

(١) كذا في ب، وفي أ: ولم يوردوا.

يُدْئِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۚ أَي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يديء ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبَيَّن لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال، ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به، وأنه إن ضل - وحاشاء من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعلٍ إلى غيره.

﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ فِلسَافَةٌ ۚ فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي وَحَوْلِي وَقُوَّتِي ۚ وَإِنَّمَا هِيَ إِهْدَايَ بِي مَا يُؤْتِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ فَهُوَ مَادَّةُ هِدَايَتِي، كَمَا هُوَ مَادَّةُ هِدَايَةِ غَيْرِي، إِنْ رَّبِّي ﴿سَبِّحْ﴾ لِلْأَقْوَالِ وَالْأَصْوَاتِ كُلِّهَا ﴿قَسْبِ﴾ مِنْ دَعَاوِ سَأَلِهِ وَعَبْدِهِ.

(٥١-٥٤) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ قُرْعُوا فَلَا قُوَّةَ وَارْتَدُّوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۚ وَقَالُوا مَآئِمًا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ الْاِتِّتَافُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۚ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْقَلْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۚ وَجِدَ سَبِّهِمْ وَيَبْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا قَوْلَ أَتَسْمَعُونَ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَأَنَّهُمْ كَاوُوا فِي سَبِّهِمْ ۚ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أَيُّهَا الرُّسُلُ، وَمَنْ قَامَ مَقَامَكَ، حَالِ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ ﴿إِذْ قُرْعُوا﴾ حِينَ رَأَوْا الْعَذَابَ، وَمَا أَخْبَرْتَهُمْ بِهِ الرُّسُلَ وَمَا كَذَبُوا بِهِ، لَرَأَيْتَ أَمْرًا هَائِلًا، وَمَنْظَرًا مَفْظَعًا، وَحَالَةً مُنْكَرَةً، وَشِدَّةً شَدِيدَةً، وَذَلِكَ حِينَ يَحِقُّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فَلَيْسَ لَهُمْ عَنْهُ مَهْرَبٌ وَلَا فَوْتٌ ﴿وَارْتَدُّوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أَي: لَيْسَ بَعِيدًا عَنْ مَحَلِّ الْعَذَابِ، بَلْ يُوْخَذُونَ ثُمَّ يَقْذِفُونَ فِي النَّارِ.

﴿وَقَالُوا﴾ فِي تِلْكَ الْحَالِ: ﴿مَآئِمًا﴾ بِاللَّهِ وَصَدَقْنَا مَا بِهِ كَذَبْنَا ﴿وَو﴾ لَكِنْ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الْاِتِّتَافُ﴾ أَي: تَنَاوَلُ الْإِيمَانَ ﴿بَيْنَ تَكَايُنٍ بَعِيدٍ﴾ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَصَارَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحَالَّةِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، فَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَقْتَ الْإِمَّاكَانِ، لَكَانَ إِيْمَانُهُمْ مَقْبُولًا.

وَلَكِنْهُمْ ﴿كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ﴾ أَي: يَرْمُونَ ﴿بِالْقَلْبِ مِنْ تَكَايُنٍ بَعِيدٍ﴾ بِذَفْفِهِمُ الْبَاطِلَ، لِيَدْخُسُوا بِهِ الْحَقَّ، وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ، كَمَا لَا سَبِيلَ لِلرَّامِي مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ إِلَى إصَابَةِ الْغُرْضِ، فَكَذَلِكَ الْبَاطِلُ، مِنَ الْمَحَالِ أَنْ يَغْلِبَ الْحَقَّ أَوْ يَدْفَعَهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ لَهُ صَوْلَةٌ وَقْتُ غَفْلَةِ الْحَقِّ عَنْهُ، فَإِذَا بَرَزَ الْحَقُّ وَقَاوَمَ الْبَاطِلَ قَمْعَهُ.

﴿وَجِدَ سَبِّهِمْ وَيَبْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ،

لَكُمْ مَا يَضُرُّكُمْ، مِمَّا أَمَامَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ؟.

فَلَوْ قَبِلُوا هَذِهِ الْمَوْعِظَةَ، وَاسْتَعْمَلُوهَا، لَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، لِأَنَّهُ هَيَّاتَهُ ^(١) لَيْسَتْ كَهَيِّاتِ الْمَجَانِينِ، فِي خَفَتِهِمْ، وَاخْتِلَاجِهِمْ، وَنَظَرِهِمْ، بَلْ هَيِّتَهُ أَحْسَنَ الْهَيِّاتِ، وَحَرَكَاتُهُ أَجَلُّ الْحَرَكَاتِ، وَهُوَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ، أَدْبًا، وَسَكِينَةً، وَتَوَاضَعًا، وَوَقَارًا، لَا يَكُونُ [إِلَّا] لَأَرْزَنَ الرِّجَالِ عَقْلًا.

ثُمَّ [إِذَا] تَأَمَّلُوا كَلَامَهُ الْفَصِيحَ، وَلَقِظَهُ الْمَلِيحَ، وَكَلِمَاتِهِ الَّتِي تَمَلُّ الْقُلُوبَ أَمْنًا وَإِيمَانًا، وَتَرْكِي النُّفُوسَ، وَتَطْهَرُ الْقُلُوبَ، وَتَبْعُثُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَتَحُثُّ عَلَى مَحَاسِنِ الشَّيْءِ، وَتَرْهَبُ ^(٢) عَنْ مَسَاوِيءِ الْأَخْلَاقِ وَرَذَائِلِهَا. إِذَا تَكَلَّمَ، رَمَقَتْهُ الْعْيُونُ هَيْبَةً وَاجْجَالًا وَتَعْظِيمًا.

فَهَلْ هَذَا يَشْبَهُ هَذِيانَ الْمَجَانِينِ وَعَرِيدَتَهُمْ، وَكَلَامَهُمُ الَّذِي يَشْبَهُ أَحْوَالَهُمْ!!

فَكُلُّ مَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَهُ؛ وَمَقْصَدُهُ اسْتِعْلَامُ هَلْ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ أَمْ لَا؟ سِوَا تَفْكَرٍ وَحَدِّهِ، أَوْ مَعَ غَيْرِهِ، جَزَمَ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَبَنِيهِ صَدَقًا، خُصُوصًا الْمُخَاطَبِينَ، الَّذِي هُوَ صَاحِبُهُمْ يَعْرِفُونَ أَوَّلَ أَمْرِهِ وَآخِرِهِ.

وَمَنْ مَانَعَ لِلنُّفُوسِ آخَرَ، مِنْ اتِّبَاعِ الدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ، وَهُوَ أَنَّهُ يَأْخُذُ أَمْوَالًا مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُ، وَيَأْخُذُ أَجْرَةً عَلَى دَعْوَتِهِ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى نَزَاهَةَ رَسُولِهِ ﷺ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ فَقَالَ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَي: عَلَى اتِّبَاعِكُمْ لِلْحَقِّ ﴿فَهَوَّ لَكُمْ﴾ أَي: فَاشْهَدْكُمْ أَنَّ ذَلِكَ الْأَجْرَ - عَلَى التَّقْدِيرِ - أَنَّهُ لَكُمْ ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَي: مُحِيطٌ عِلْمُهُ بِمَا أَدْعُو إِلَيْهِ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا، لَأَخْذَنِي بِعَقُوبَتِهِ، وَشَهِيدٌ أَيْضًا عَلَى أَعْمَالِكُمْ، سَيَحْفَظُهَا عَلَيْكُمْ، ثُمَّ يَجَازِيكُمْ بِهَا.

وَلَمَّا بَيَّنَّ الْبَرَاهِينَ الدَّالَّةَ عَلَى صِحَّةِ الْحَقِّ وَبَطْلَانِ الْبَاطِلِ، أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذِهِ سُنَّتُهُ وَعَادَتُهُ أَنْ ﴿يَقْذِفَ يَأْتِي﴾ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمِغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ؛ لِأَنَّهُ بَيَّنَّ مِنَ الْحَقِّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَرَدَّ بِهِ أَقْوَالَ الْمَكْذِبِينَ، مَا كَانَ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَأَيَّةً لِلْمُتَأَمِّلِينَ.

فَإِنَّكَ كَمَا تَرَى، كَيْفَ اِضْمَحَلَّتْ أَقْوَالُ الْمَكْذِبِينَ، وَتَبَيَّنَ كَذِبُهُمْ وَعَنَادَتُهُمْ، وَظَهَرَ الْحَقُّ وَسَطَهُ، وَبَطَلَ الْبَاطِلُ وَانْقَمَعَ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ بَيَانِ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ الَّذِي يَعْلَمُ مَا تَطْوِي عَلَيْهِ الْقُلُوبُ، مِنَ الْوَسْوَاسِ وَالشُّبْهِ، وَيَعْلَمُ مَا يَقَابِلُ ذَلِكَ، وَيَدْفَعُهُ مِنَ الْحَجِجِ.

فَيَعْلَمُ بِهَا عِبَادَهُ، وَبَيْنَتَهُ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ جَاءَ الْخَوْفُ﴾ أَي: ظَهَرَ وَبَانَ، وَصَارَ بِمَنْزِلَةِ الشَّمْسِ، وَظَهَرَ سُلْطَانُهُ ﴿وَمَا

(١) فِي: ب. هَيْتَةً. (٢) فِي: ب. وَتَرْجَرُ.

والأولاد، والأموال، والخدم والجنود، وقد انفردوا بأعمالهم، وجاءوا فرادى كما خَلَقُوا، وتركوا ما خولوا وراء ظهورهم.

﴿كَأَ فُولٍ يَأْتِيهِمْ﴾ من الأمم السابقين، حين جاءهم الهلاك، حبل بينهم وبين ما يشتهون، ﴿يَهْتُمُّ كَانُوا فِي شَيْءٍ مُرِيبٍ﴾ أي: محدث الريبة وقلق القلب، لذلك لم يؤمنوا، ولم يعتنوا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبأ - والله الحمد والمنة والفضل، ومنه العون، وعليه التوكل، وبه الثقة.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكِ رُسُلًا أُولَى أَيْمُونٍ مَّتَنٍ وَكَلَّتْ وَرَبِّ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُغْوِيُهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يمدح الله تعالى نفسه الكريمة المقدسة، على خلقه السماوات والأرض، وما اشتملتا عليه من المخلوقات، لأن ذلك دليل على كمال قدرته، وسعة ملكه، وعموم رحمته، وبديع حكمته، وإحاطة علمه.

ولما ذكر الخلق، ذكر بعده ما يتضمن الأمر، وهو: أنه ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكِ رُسُلًا﴾ في تدبير أوامره القدريّة، ووسائط بينه وبين خلقه، في تبليغ أوامره الدينية.

وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلًا، ولم يستثن منهم أحدًا، دليل على كمال طاعتهم لربهم، وانقيادهم لأمره، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ولما كانت الملائكة مدبرات بإذن الله، ما جعلهم الله موكلين فيه، ذكر قوتهم على ذلك، وسرعة سيرهم، بأن جعلهم ﴿أُولَى أَيْمُونٍ﴾ نظير بها، فتسرع تنفيذ ما أمرت به ﴿مَّتَنٍ وَكَلَّتْ وَرَبِّ زَيْدٍ﴾ أي: منهم من له جناحان، وثلاثة، وأربعة، بحسب ما اقتضته حكمته، ﴿زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض، في صفة خلقها، وفي القوة، وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء المعهودة، وفي حسن الأصوات، ولذة النعمات.

﴿يَهْتُمُّ كَانُوا فِي شَيْءٍ مُرِيبٍ﴾ فقدرته تعالى تأتي على ما

٤٣٤ ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿١﴾ ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِّي أَهْتَدِيثُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَاقُوا رَبَّهُمْ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٣﴾ ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَادُ وُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٤﴾ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذُفُونَ بِالْأَعْيَبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَحِجْلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ ﴿٦﴾

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكِ رُسُلًا أُولَى أَيْمُونٍ مَّتَنٍ وَكَلَّتْ وَرَبِّ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُغْوِيُهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَتَنَبَّأُ النَّاسُ أَذْكَرُوا وَانْعَمَتِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَزُرُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَافْتَوْفَكُوا ۝

بشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

ثم ذكر انفراذه تعالى بالتدبير والعطاء والمنع فقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُغْوِيُهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا يوجب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف ويرجى إلا هو ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء كلها ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

(٤، ٣) ﴿يَتَنَبَّأُ النَّاسُ أَذْكَرُوا وَانْعَمَتِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَزُرُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَافْتَوْفَكُوا ۝ وَلَنْ يَكْذُوبَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَجَعَ الْأُمُورُ﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافًا، وباللسان ثناء، وبالجوارح انقيادًا، فإن ذكر نعمه تعالى، داع لشكره، ثم نبههم على أصول النعم، وهي: الخلق والرزق فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَزُرُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

ولما كان من المعلوم، أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٥

سُورَةُ فَاطِرٍ

وَلَا يَكْفُرُ بِكَ الْكُفُورُ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُوبُ ﴿٢﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٣﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٤﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنَ الْبُشَىٰ مِنْ شَيْءٍ وَيَهْدِي مِنَ شَيْءٍ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَنْهُمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْعُونَ ﴿٥﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِي حَتَّىٰ مَتَّحَا فُسُحْتُهُ إِلَىٰ بِلَدٍ مَّتَّحَتْ فَأَحْيَا يَدِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٦﴾ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْغَنَةَ فَلِلَّهِ الْغَنَةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ اللَّيْلُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ رِيقَةً وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴿٧﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٨﴾

فالاول: عَمِلَ السَّيِّء، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً.
والثاني: عمل الحسن، ورأى الحق حقاً، والباطل باطلاً.

ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَنْهُمْ﴾ أي: على الضالين الذين زُيِّنَ لهم سوء أعمالهم، وصدهم الشيطان عن الحق ﴿حَسْرَتٍ﴾ فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هدايم شيء، والله [هو] الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْعُونَ﴾.

(٩) ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِي حَتَّىٰ مَتَّحَا فُسُحْتُهُ إِلَىٰ بِلَدٍ مَّتَّحَتْ فَأَحْيَا يَدِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِي حَتَّىٰ مَتَّحَا فُسُحْتُهُ إِلَىٰ بِلَدٍ مَّتَّحَتْ﴾ فأنزله الله عليها ﴿فَأَحْيَا يَدِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات.

﴿كَذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الأموات من قبورهم، بعدما مزقهم البلى، فيسوق إليهم مطراً، كما

نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَالَتْ تَوْكَرُوتُ﴾ أي: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

﴿وَلَا يَكْفُرُ بِكَ﴾ يا أيها الرسول، فلنك أسوة بمن قبلك من المرسلين، ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فأهلك المكذبون، ونجى الله الرسل وأتباعهم، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

(٥-٧) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُوبُ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ○ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبحث، والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ﴾ أي: لا شك فيه، ولا مرية، ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية، والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقاً، فتهيئوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع.

﴿فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له ﴿وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُوبُ﴾ الذي هو: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربه كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد.

﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ هذا غاية ومقصوده فمن تبعه، أن يهان غاية الإهانة، بالعذاب الشديد. ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبداً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا﴾ بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم، الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ لهم مغفرةٌ، لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يحصل به المطلوب.

(٨) ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنَ شَيْءٍ وَيَهْدِي مِنَ شَيْءٍ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَنْهُمْ حَسْرَةً﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْعُونَ يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ﴾ عمله السيء القبيح، زين له الشيطان، وحسنه في عينه، ﴿فَرَآهُ حَسَنًا﴾ أي: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم، والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟

والمعنى: أن طول العمر وقصره، بسبب وبغير سبب، كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿فِي كِتَابٍ﴾ حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه فيها، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وتنقل الآدمي في تلك الاطوار.

فالذي أوجده ونقله، طبقاً بعد طبق، وحالاً بعد حال، حتى بلغ ما قدر له، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم، العلوي والسفلي، دقيقها، وجليلها، الذي في القلوب، والأجنّة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب، فالذي كان هذا [نعتاً^(١)] يسيراً عليه، فإعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيره، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم، في معاشهم، ومعادهم.

(١٢-١٤) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلِّي تَالُكُنَّ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْفَحُونَ حَيْثُ تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفَلَكُ فِيهِ مَوَازِيرُ لِيَتَنَبَّأَ مِنْ قَضَائِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْكُنُونَ مِنْ قُطْمِيرٍ ۝ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَلَا يُصَوِّمُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ بِثَلَاخٍ﴾ هذا إخبار عن قدرته، وحكمته، ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كله، وأنه لم يسو بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتاً، سائغاً شاربها، ليتنفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض، بروائح ما يموت في البحر، من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ كُلِّي﴾ من البحر الملح والعذب ﴿تَالُكُنَّ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿وَتَسْفَحُونَ حَيْثُ تَلْبَسُونَهَا﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضاً والمنافع في البحر، أن سخره الله (١) هنا جاءت كلمة (نعت) في الهامش، ولم يتضح لي محلها بدقة، والأغرب هنا.

ساقه إلى الأرض الميتة، فينزل عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

(١٠) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغُرَّةَ فَلِلَّهِ الْغُرَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُ﴾ أي: يا مَنْ يريد العزة، اطلبها ممن هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الطَّيِّبُ﴾ من قراءة وتسيح وتحميد وتهليل، وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه، ويثني الله على صاحبه، بين الملا الأعلى ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُ﴾ الله تعالى إليه أيضاً، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي تُرفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً، ولهذا قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة.

﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُ﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل.

(١١) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: فخلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم جعلكم أزواجاً وما تحمِلُ من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، يذكر تعالى خلقه الآدمي، وتنقله في هذه الاطوار، من تراب إلى نطفة وما بعدها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: لم يزل يخلقكم طوراً بعد طور، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكرنا يتزوج أنثى، ويراد بالزواج، الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وكذلك اطوار الآدمي كلها، بعلمه وقضائه.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي: عمر الذي كان معمرًا عمراً طويلاً ﴿إِلَّا﴾ بعلمه تعالى، أو وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر، كالزنا، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر.

﴿١٥﴾

٤٣٦

﴿١٦﴾

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ سَالِجٌ شَرَابُهُ وَهَذَا
 مِلْحٌ لَّجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
 حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
 النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
 لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَيْكُم لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٧﴾ إِنْ
 تَدْعُهُمْ لَا يَسْمِعُوا دَعْوَهُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَهُمْ
 وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَنْفَعُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ
 ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ ﴿١٩﴾ إِنْ شَاءَ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٢٠﴾
 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢١﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ
 تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْمِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
 إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَمِنْ تَرَكٍ فَمَا يُتْرَكُ لِنَفْسِهِ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْعَصِيرُ ﴿٢٢﴾

الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواء، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة باطل، لا تفيد عابده شيئاً.

(١٥-١٨) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ○ إِنْ شَاءَ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ○ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ○ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ○ وَلَنْ تَنفَعَكَ إِلَىٰ جِلْمِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ○ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ○ وَمِنْ تَرَكٍ فَمَا يُتْرَكُ لِنَفْسِهِ ○ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْعَصِيرُ ○ يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.
 فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم [لها] لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات، والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة. فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرزق والنعم شيء.

(١) كذا في ب، وفي أ: وتخفيف ما يخفف.

تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر وتنشف، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ومن ذلك أيضاً إيلاجه تعالى الليل بالنهار، والنهار بالليل، يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص الآخر، ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم، وحيواناتهم وأشجارهم وزرعهم.

وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر، الضياء والنور والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله، وما فيهما من تنضيج الثمار وتجفيف ما يجفف^(١)، وغير ذلك مما هو من الضروريات، التي لو فقدت للجنح الناس الضرر.

وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: كل من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا جاء الأجل، وقرب انقضاء الدنيا، انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما، وخسف القمر، وكورت الشمس، وانتشرت النجوم.

فلما بين تعالى ما بين من هذه المخلوقات العظيمة، وما فيها من العجز الدالة على كماله وإحسانه، قال: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَيْكُم لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها، هو الرب المألوه المعبود، الذي له الملك كله.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً؛ حتى ولا القطمير الذي هو أحرر الأشياء، وهذا من تنصيص النفي وعمومه، فكيف يُدْعَوْنَ، وهم غير مالكين لشيء، من ملك السماوات والأرض؟.

ومع هذا ﴿إِنْ تَدْعُهُمْ﴾ لا يسمعونكم لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على وجه الغرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَهُمْ﴾ لأنهم لا يملكون شيئاً، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ أَقْبَتَهُ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرأون منكم؛ ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَابْنُكَ مِنْ دُونِهِمْ﴾.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ أي: لا أحد ينفعكم؛ أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نبأ به؛ كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تتر، فتضمنت هذه الآيات الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود،

فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل يوم القيامة يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه.

﴿إِنَّمَا تُذَكِّرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة ويتفنون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها، وأركانها وواجباتها، وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهي عن الفحشاء والمنكر.

﴿وَمَنْ زَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَزْكِي النَّفْسَ﴾ أي: ومن زكى نفسه بالتقوى من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والتفادى، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلّى بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر، من الحقد والحسد، وغيرهما من مساوئ الأخلاق، فإن تركيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء.

﴿وَالَّذِي أَنقَضَ الْعَمَلُ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

(١٩-٢٤) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا النَّبِيُّ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُخَيِّرُ مَن يَشَاءُ ۝ وَمَا أَنتَ بِمُعِيقٌ مِّنْ فِي الْقُبُورِ ۝ إِنَّا أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأعمى في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ﴾ فاقد البصر ﴿وَالْبَصِيرُ ۝ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا النَّبِيُّ﴾. فكما أنه من المقر عندكم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإتيار.

فقرأ في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم، وتفرجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقرأ إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير. فقرأ إليه في تألههم له وجههم له، وتعبدهم، وإخلاص العباد له تعالى، فلو لم يوفقه لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم، وأحوالهم.

فقرأ إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا. فهم فقرأ بالذات إليه بكل معنى وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا.

ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت جلال.

ومن غناه تعالى، أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، ﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه لأنها حسنى، وأوصافه لكونها عُلّيا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه، [الغني في حمده].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع الله منكم، ويكون في هذا، تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك، ويحتمل أن المراد بذلك إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقاً جديداً، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَشِيرٌ﴾ أي: بمتع، ولا معجز له. ويدل على المعنى الأخير ما ذكره بعده في قوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ وَكَارَةً وَنَذْرًا﴾ أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد، ﴿وَلَن تَجْعَلُ مَثَلَهُ﴾ أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فإنه لا يحمل عن قريب،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿٢٥﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٦﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٩﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٣١﴾ وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْأَمِينِ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٣٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٣٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٣٦﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٧﴾

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفة، والنباتات المتنوعة، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتادا للأرض، تجدها جبالا مشتبكة، بل جبلا واحدا، وفيها ألوان متعددة، فيها جد يدبض أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمرة، وفيها غرابيب سود أي: شديدة السواد جدا.

ومن ذلك: الناس والدواب والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالابصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

ففاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضا ما هو معلوم.

وذلك أيضا دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يعث من

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ سماع فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أموات القلوب، أو كما أن دعائك لا يفيد سكان القبور شيئا، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئا، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قبل منك أم لا.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ○ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ○ أي: مجرد إرسالنا إليك بالحق، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، واندراس من العلم، وضرورة عظيمة إلى بعثك، فبعثك الله رحمة للعالمين.

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم والصراط المستقيم، حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ لمن أطاعك بواب الله العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك، بعقاب الله العاجل والآجل، ولست بدع من الرسل.

فما ﴿مِّنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾.

(٢٦، ٢٥) ﴿وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْأَمِينِ ○ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي وإن يكذبك أيها الرسول، هؤلاء المشركون، فلست أزل رسول كُذِّبَ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام ﴿وَالْكِتَابِ الْأَمِينِ﴾ أي: المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئا عن اشتباه، أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيحكم كما أصاب أولئك، من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

(٢٨، ٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ○ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته.

في القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة، لا تحدث له التذکر، وإنما يستفح بها مَنْ يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلُوكُ﴾ فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء مَنْ يَخْشَاهُ، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشية هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رَبِّىَ اللَّهُ يَعْلَمُ رَوْضَا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات، ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين.

(٢٩، ٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۚ وَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَرْبِّدُهُمْ فِي أَفْئِدَتِهِمْ أَنَّ لَهُمْ غَوْرًا مِّمَّا كَسَبُوا﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيهم فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً الفاظه، بدارسته، ومعانيه، وتتبعها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعدما عمّ الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في جميع الأوقات.

﴿يَزَيِّفُونَ﴾ [بذلك] ﴿يَحْدَرُونَ أَلَّ كِبُورٍ﴾ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيئ ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون⁽¹⁾ بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

وذكر أنهم حصل لهم ما رجووه فقال: ﴿يُوقِظُهُمُ الْجُورُ﴾ أي: أجور أعمالهم على حسب قلنتها وكثرتها، وحسنها ووعلمه ﴿وَيَرْبِذُهُم مِّنْ فَضْلِي﴾ زيادة عن أجورهم ﴿إِنَّهُمْ عَافُونَ شَكُورٌ﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

[illegible]

حَرِيْرٌ ۝ وَقَالُوا لَنُحَدِّثَ بِهِ اَلَّذِي اَنذَرَكُمْ عَنَّا الْخَرْنَ اِنْ كُنَّا لَعٰوِفُو
سَكُوْرٌ ۝ اَلَّذِي اَحْلٰنَا دَاْرَ الْمُتَقَاْمَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيْهَا نَصَبٌ وَلَا
يَمَسُّنَا فِيْهَا لُغُوْبٌ ﴿١٠﴾ يَذْكُرُ تَعَالٰى اَنْ الْكِتٰبَ الَّذِي اَوْحٰه اِلَى
رَسُولِهِ ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ مِنْ كَثْرَةِ مَا اشْتَمَل عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ كَانَ
الْحَقُّ مُنْحَصِرٌ فِيْهِ، فَلَا يَكُنْ فِي قُلُوْبِكُمْ حَرَجٌ مِنْهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا
مَنْهُ، وَلَا تَسْتَهِنُوْا بِهِ، فَاِذَا كَانَ هُوَ الْحَقُّ، لَزِمَ اَنْ كُلِّ مَا دَلَّ
عَلَيْهِ مِنَ الْمَسٰئِلِ الْاِلٰهِيَةِ وَالْغَيْبِيَةِ وَغَيْرِهَا، مُطَابِقٌ لِمَا فِي
الْوَاقِعِ، فَلَا يَجُوزُ اَنْ يَرَادَ بِهِ مَا يَخَالِفُ ظَاهِرَهُ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ.

﴿صَدَقَ لِمَا بَيَّنَّ يَكُونُ﴾ من الكتب والرسل، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحداً أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبداً، لأن كفره ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُهُ لَعَيْشَ بَصِيرَةٍ﴾ فيعطي كل أمة، وكل شخص، ما هو اللائق بحاله، ومن ذلك، أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرفعهم قلوباً وأزكاهاً أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة.

﴿فِيهِمْ ظَالِمٌ لِّلنِّسَاءِ﴾ بالمعاصي [التي] هي دون الكفر،
وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم،
وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخِطَايَةِ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق
غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثّر من النوافل، التارك
للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى، لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم. فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب.

لأن المراد بوراة الكتاب، وراثه علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٩﴾ الَّذِي أَعْلَنَّا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣١﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَهَاءَ كُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٣﴾

بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأن النوم فائدته زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

(٣٧، ٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَهَاءَ كُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم، ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلكم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فشدة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآفات واللحظات.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لتلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونه، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثته هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: جنات مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول، وعيش لا ينفد. والعدن «الإقامة» فجنات عدن أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها.

﴿يَحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الحلبي الذي يجعل في اليدين، على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ يحلون فيها ﴿لُؤْلُؤًا﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر.

﴿وَمَا تَمَّ نَعِيمُهُمْ﴾ وكملت لذتهم ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهذا يشمل كل حزن، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم.

فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد الآباد. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شَكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أفعالنا ولا أمانينا؛ فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿الَّذِينَ لَطَمْنَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها.

وذلك الإحلال ﴿بِمِنْ فَضْلِهِ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا؛ فلولاً فضله لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقرى، ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، وبهية لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة،

خلقه، والحرمان.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَهُنَّ ثَوْنٌ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْ يَدِّ إِلَهِ عَرْشُهُ﴾ يقول تعالى مُعْجِزًا لألوهة المشركين، ومبينًا نقصها، وبطالان شركهم من جميع الوجوه ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي آخرونني عن شركانكم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، ف ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحرًا، أم خلقوا جبالًا، أو خلقوا حيوانًا، أو خلقوا جمادًا؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء، هو الله تعالى، أم لشركانكم شركة ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ في خلقها وتديرها؟ يقولون: ليس لهم شركة.

فإذا لم يخلقوا شيئًا، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم، ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانضى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضًا منتف، فلماذا قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهُمْ كَيْفَ﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان ﴿فَهُمْ﴾ في شركهم ﴿عَلَىٰ يَتْنٍ﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟.

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ. ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإنا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، فالرسول والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجَالًا نَحْنُ نَخْبَرُكَ اللَّهُ تَعْلِيمًا لِّهَ الْبَيْنِ حَقًّا﴾.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي، قد دلّا على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفتنة؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿بَلْ لِيُنَبِّئَهُنَّ الْفِتْنَةَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُودًا﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، فإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأمانتي متأنها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، ففسر زوالها، وتعرس انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر، والشرك الباطل المضمحل.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاذِبٍ ۝ وَهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ فِيهَا﴾ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي كُنَّا نَعْمَلُ فِيهَا فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها.

فيقال لهم: ﴿أَلَمْ نُنَبِّئُكُمْ أَنَّ﴾ أي: دهرًا وعمرًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ أي: يتمكن فيه مَنْ أراد التذكر من العمل، متعناكم في الدنيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا^(١) لكم في العمر، وتابنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لتنبيهنا إلينا وترجعوا إلينا.

فلم ينجع فيكم إندار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال، سألتهم الرجعة.

هيئات هيئات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكنوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿نَذْفِقُهُمْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ﴾ ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

(٣٨) ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكَ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، وإطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور، من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كلًا ما يستحقه، ويتزل كل أحد منزلته.

(٣٩) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ تَنْ كَرَّمَ مَعْلَمَهُ كَرَّمَ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كَرْمَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كَرْمَهُمْ إِلَّا حَسَاكًا﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته، ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعضهم يخلف بعضًا في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون؛ فَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه، وعليه إثم وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إِلَّا مَقْتٌ ربه له، وبغضه إياه، وأي عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم؟.

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كَرْمَهُمْ إِلَّا حَسَاكًا﴾ أي: يخسرون أنفسهم وأهلبيهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة، فالكاfer لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والخزي عند الله وعند

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مُقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خُسَارًا ﴿٤١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرَأَيْتُمْ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أُنزِلَتْ سُبُورُ كِتَابِهِمْ عَلَى بَنَاتٍ مِنْهُنَّ بَلْ لَنْ يَعْلَمَ بِالظَّلْمِ لُؤْسُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا إِلَّا الظُّلُمُورُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُعْسِلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ الْإِثْمِ هَادِيٍّ مِنْ بِحَدِّ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا عُقُورًا ﴿٤٤﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٥﴾ أُولَئِكَ يَسِرُّونَ فِي الْأَرْضِ فَينظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٦﴾

(٤١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُعْسِلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما. ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه، وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالًا وتعظيمًا، ومحبة وتكريمًا، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته بإمهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أفن للأرض لابتلعهم، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

(٤٢، ٤٣) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ الْإِثْمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا عُقُورًا﴾ استكبارًا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنت الأولين، فلن تجد لسنت الله تبديلًا، ولن تجد لسنت الله تحويلًا، أي: وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله، قسما اجتهدوا فيه بالآيمان الغليظة: ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل الكتب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهد.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا عُقُورًا﴾ زيادة ضلال وبغي وعناد. وليس إقسامهم المذكور لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوقفوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحرصون على طلبه، فيغتر بهم المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ الذي مقصوده، مقصود سيئ، ومآله وما يرمي إليه سيئ باطل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، فمكرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات، وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكروهم في نحورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.

فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد، والاستكبار على العباد، أن يحل به نعمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء، ما فعل بأولئك.

(٤٥، ٤٤) ﴿أُولَئِكَ يَسِرُّونَ فِي الْأَرْضِ فَينظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما تركل على ظهرهما من دأبتهم ولصكن يؤخروهم إلى أجل شمس، فإذا جاء أجلهم فإنك الله كان يعساو. بعيداً يحض تعالى على السير في الأرض، في القلوب والأبدان، للاعتبار لا لمجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل، وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشد قوة، وعمرها الأرض^(١) أكثر مما عمرها هؤلاء، فلما جاءهم العذاب، لم تنفعهم قوتهم، ولم تنفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيته.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لكمال علمه وقدرته ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

ثم ذكر تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله وإنظاره أرباب

إشارة لطيفة لسلوك طريقه .

﴿وَحَيَّيْنَا الرَّحْمَنَ بِالْعَرَبِ﴾ أي: مَنْ اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين ﴿فَيَنْتَهِرُ بِعَفْوٍ﴾ لذنبه ﴿وَأَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ لأعماله الصالحة، ونبته الحسنة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُومَ﴾ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازهم على الأعمال ﴿وَنُصَوِّبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم.

﴿وَنُؤَنِّرُهُمْ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد، وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيهِ عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة، أو صدقة أو إحسان، فاقنتى به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر، ولهذا «مَنْ سَأَلَ شَيْئاً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَأَلَ شَيْئاً سَيِّئاً فَعَلِيهِ وَزَرُّهُ وَوَزَرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وهذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله، والهداية إلى سبيله، بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة، وأشدهم جرماً، وأعظمهم إثماً.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أَخَصَيْنَتْهُ فِي إِمَارَةِ شَيْئٍ﴾ أي: كتاب هو أم الكتاب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

(١٣-٣٠) ﴿وَأَضْرَبَ لَمْثًا أَتَحْبَبُ الْقَرْيَةَ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ إلى آخر القصة. أي: واضرب لمثلاً هؤلاء المكذبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلاً يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وقفوا للخير وذلك المثل: أصحاب القرية، وما جرى منهم من التكذيب لرسول الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله، وتعين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك، وما أشبهه من باب التكلف، والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به، أن طريق

وهذا الصراط المستقيم ﴿نَزَّلَ الْفَرْقَانَ الرَّحِيمَ﴾ فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقاً لعباده، موصلاً لهم إليه، فحماء بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته.

ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز، الرحيم.

فلما أقسم تعالى على رسالته وأقام الأدلة عليها، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال:

﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ وهم العرب الأميون، الذين لم يزلوا خاليين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولاً من أنفسهم، يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومَنْ لحق بهم من كل أمة، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فتعمة الله به على العرب خصوصاً، وعلى غيرهم عموماً.

ولكن هؤلاء الذين بُعِثَتْ فيهم لإنذارهم، بعدما أنذرتهم انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عُرض عليهم الحق فرفضوه، فحيث عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفِهِمْ غُلًّا﴾ وهي جمع «غل»، و «الغل» ما يغل به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل.

وهذه الأغلال التي في الأعناق^(١) عظيمة، قد وصلت إلى أذقانهم ورفعت رؤوسهم إلى فوق ﴿فَهُمْ يَفْهَمُونَ﴾ أي: رافعوا رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

﴿وَمَعَلَانِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَبْكًا وَمَنْ خَلْفَهُمْ سَدًّا﴾ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكيف يؤمن مَنْ طبع على قلبه، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً!!

والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، وقد ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ﴾ أي: إنما تنفع نذارك، ويتعظ بنصحك ﴿مَنْ أَنْجَى النَّفْسَ﴾ [أي: مَنْ قصده اتباع الحق وما ذكر به

CONCLUSIONS

229

620

وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم بَنَيْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعُزِّنَا بِالْأَمْرِ فَنُفِذْنَا
 إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَسْتَرْ لَابِتَةٍ مَثَلُكُمْ وَإِنَّا نُنْزِلُ
 الرِّحْمَانَ مِن سَمَاءٍ إِنِ اسْتَرْ لَأَتَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا يَعْلَمُ الْإِنْفَا
 إِلَيْكُمْ لِمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
 قَالُوا إِنَّا نَظُنُّكَ نَابِيَكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكَ وَلَيَمَسَّنَّكُمُ
 مِّنَ عَذَابِ آلِهَةٍ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِثُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ
 بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
 يَسْعَى قَالَ يَنْفِقُوا أَنْتُمْ يَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِن
 لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أُعْبِدُ إِلَّا
 فِطْرَتِي وَإِلَىٰ وَرَجْعَتِي ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن
 يُرِيدِ الْرَحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
 يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ
 بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ لَئِن لِّتُوتَنِي
 قُوًى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تركز النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل، أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة، إلا تشويش الذهن، واعتناء الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْمُرْسَلُونَ﴾ من الله تعالى يأمرونهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، ويمنهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتَيْنِي فَكَذَّبُوهُمَا فَسَبَّوْنِي قَالَ أَوْ بَرِّئُوا مِنِّي أَمْ مَثَلِي فِي بَيْنِهِمْ لَشِدَّةِ الْقُلُوبِ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^١ **بِأَيِّ** أي: قويتها،
بثالث، فصاروا ثلاثة رسل، اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة
بتوالي الرسل إليهم ﴿قُلُوا لَهُمْ: إِنَّا إِلَهُكُمْ مُرْسَلُونَ﴾^٢
فأجابوهم بالجواب، الذي ما زال مشهوراً عند من رد دعوة
الرسل.

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: فما الذي فضلكم علينا، وخصكم من دوننا؟ قالت الرسل لأممهم: ﴿إِنْ كُنْزُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ رَّبِّكَو﴾ .

﴿وَمَا أُنْزِلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضًا المخاطبين لهم، فقالوا: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

فَقَالَتْ هَؤُلَاءِ الرِّسَلُ الثَّلَاثَةُ: ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِتَيْنَكَ لَمَرْسَلُونَ﴾^(١)
فَلَمْ كُنَّا كَذَابِينَ، لِأَضْهَرِ اللَّهِ خَزِينًا، وَلِبَادِرِنَا بِالْعُقُوبَةِ.

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ أي: البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هذا من آيات الاقتراح، ومن سرعة العذاب، فليس إلينا، وإنما وظيفتنا - التي هي البلاغ المبين - قمنا بها، وبيننا لكم، فإن اهتديتم فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتكم فليس لنا من الأمر شيء.

فقال أصحاب القرية لرسولهم: ﴿إِنَّا نَطَعُكُمْ أَي: لم نر على قلوبكم علينا، واتصالكم بنا، إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب، أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة يُعَمُّ الله بها على العباد وأجل كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة: قد قدم بحالة شر، زادت على الشر الذي هم عليه، واستأثموا بها!! ولكن الخذلان وعدم التوفيق، يصنع بصاحبه أعظم مما^(٢) يصنع به عدوه.

ثم توعدهم فقالوا: ﴿إِن لَّرَّجْمُهُمْ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أي: نقتلنكم رجماً بالحجارة أشنع القتلات ﴿وَلَيْسَ لَنَا بِمَنَّةٍ فَعَلَ آلُ لُوطٍ﴾.

فَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ: ﴿حَاطِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ وَهُوَ مَا مَعَهُمُ مِنَ الشُّرْكِ وَالشَّرِّ، الْمُقْتَضَى لَوُقُوعِ الْمَكْرُوهِ وَالنَّقْمَةِ، وَارْتِفَاعِ

المحبوب والنعمة، ﴿إِن دُكِّرْتُمْ﴾ أي: بسبب أننا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم، قلتم لنا ما قلتم، ﴿يَلَّ أَنتُمْ قَوْمٌ تُشْرِكُونَ﴾ متجاوزون للحد، متجهمون في قولكم، فلم يردم [دعاهم] إلا نفورا واستكبارا.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْوَيْلِيُّ﴾ ﴿يُجَلِّسُنِي﴾ حرصًا على نصيح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وأمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم فقال [لهم]: ﴿يَنْفَعُكُمْ اتِّبَاعُ الْمُرْسَلِينَ﴾ فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة.

ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: اتبعوا مَن نصحكم نصحاً يعود عليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم، ولا أجراً على نصحه لكم، وإرشاده إياكم، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه.

بقي] أن يقال: فلمله يدعو ولا يأخذ أجرة، ولكنه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا ينهون إلا

(۱) کذا فی ب، وفي أ: لظہر خزینتا. (۲) کذا فی ب، وفي أ: ما.

الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبرهم عليهم.

قال الله متوجعاً للعباد: ﴿يَحْضَرُونَ عَلَى الْعِصَا مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ إِلَّا كَأَنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!

(٣١، ٣٢) ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِيَةً قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ لِلَّهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى، وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها.

وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويعينهم بعد موتهم، ويحضرهم بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل، الذي لا يظلم مثقال ذرة ﴿وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يَفْعَلْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٣٣-٣٦) ﴿وَوَيْلٌ لِمَنِ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَيَسْتَكُونُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَنْعَبْنَا فِيهَا رَبِّهَا مِنَ الْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ﴿وَوَيْلٌ لِمَنِ الْبُحْرُومُ﴾ على البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال، هذه ﴿الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا﴾ أنزل الله عليها المطر، فأحياها^(١) بعد موتها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَيَسْتَكُونُونَ﴾ من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله أنعامهم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في تلك الأرض الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار ﴿وَوَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِنْ الْمُتَّوِينَ﴾.

جعلنا في الأرض تلك الأشجار، والنخيل، والأعناب ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ قوتاً وفاكهة، وأدماً ولذة ﴿وَالْحَالُ أَنْ تَكُنَ الثَّمَارُ﴾ ﴿مِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [وليس لهم فيه صنع ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأيضاً فلم تعمله أيديهم] بطيخ ولا غيره، بل أوجد الله هذه الثمار، غير محتاجة لطبخ ولا شيء، تؤخذ من أشجارها، فتؤكل في الحال، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ من ساق لهم هذه الثم

بما يشهد العقل الصحيح بقبوحه.

فكان قومه لم يقبلوا نصحه، بل عادوا لاثمين له على اتباع الرسل، وإخلاص الدين لله وحده فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا آتِيَهُمُ الَّذِي فُطِّرُوا عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ﴾ أي: وما المانع لي من عبادة مَنْ هو المستحق للعبادة؛ لأنه الذي فطرنى، وخلقنى ورزقنى، وإليه مال جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم، فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد، في الدنيا والآخرة، هو الذي يستحق أن يُعبد، ويثنى عليه ويمجد، دون مَنْ لا يملك نفعا ولا ضرراً، ولا عطاء ولا منعا، ولا حياة، ولا موتاً، ولا نشوراً ولهذا قال:

﴿أَفَأَجِدُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدُنَ الْآزْمِنُ بَشَرًا لَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ شَفِيعَةً لَهُمْ﴾ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، فلا تغني شفاعتهم عني شيئاً، ولا هم ينفذون من الضر الذي أَرادَه الله بي.

﴿إِنِّي إِذًا﴾ أي: إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿لَأَكُنَّ مِنْكُمْ مُنْجِبًا﴾ فجَمَعَ في هذا الكلام، بين نصيحهم، والشهادة للرسل بالرسالة، والاهتداء والإخبار بتعين^(١) عبادة الله وحده، وذكر الأدلة عليها، وأن عبادة غيره باطلة، وذكر البراهين عليها، والإخبار بضلال من عبدها، والإعلان بإيمانه جهراً، مع خوفه الشديد من قتلهم فقال:

﴿إِنِّي أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ تَسْتَعْتُونَ﴾ فقتله قومه، لما سمعوا منه وراجهم بما راجعهم به.

ف ﴿قِيلَ﴾ له في الحال ﴿أَنْتَ لَكِنَّتَ﴾ فقال مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده، وإخلاصه، وناصحاً لقومه بعد وفاته، كما نصح لهم في حياته: ﴿يَكُنْ قَوِيَّ يَسْتَكُونُونَ ۝ يَمَّا عَقَرَ لِي رَجُلٌ﴾ أي: بأي شيء غفر لي، فأزال عني أنواع العقوبات ﴿وَيَكُنْ مِنَ الْمَكْرُوبِينَ﴾ بأنواع الموثبات والمسرات: أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم.

قال الله في عقوبة قومه: ﴿وَمَا أَزَلْنَا عَنْ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِمَّنْ أَسْمَاءُ﴾ أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السماء لإتلافهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي: ما كانت عقوبتهم ﴿إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله ﴿فَإِنَّا هُمْ كَاذِبُونَ﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك

(١) كذا في ب، وفي أ: بتعين. (٢) كذا في ب، وفي أ: فأصاها.

وأصبح عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم.

أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأنبث فيها الزروع والأشجار، وأودع فيها لذيذ الثمار، وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون، بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى، إنه على كل شيء قدير.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: الأصناف كلها ﴿وَمَا تِلْكَ الْأَرْضُ﴾ فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده ﴿وَمَنْ أَقْسَمُ﴾ فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخلقهم، وأوصافهم الظاهرة والباطنة، ﴿وَمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المخلوقات، التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد.

فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سمى، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله، ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريد.

(٣٧-٤٠) ﴿وَمَا يَكُنْ لَهُمْ آيَلٌ فَتَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمْ مُنْظِلُونَ﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيَلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أَي: ﴿وَمَا يَكُنْ لَهُمْ﴾ على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وإحيائه الموتى بعد موتهم ﴿آيَلٌ فَتَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارُ﴾ أي: نزيل الضياء العظيم، الذي طبق الأرض، فنبدله بالظلمة، ونحلها محلّه ﴿فَإِذَا هُمْ مُنْظِلُونَ﴾.

وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس، فتضيء الأفطار، وينتشر الخلق لمعايشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [أي: دائماً تجري لمستقر لها] قدره الله لها، لا تتعده، ولا تقصر عنه، وليس لها تصرف في نفسها، ولا استعصاء على قدرة الله تعالى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة، بأكمل تدبير، وأحسن نظام ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي يعلمه جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ ينزل بها، كل ليلة ينزل منها واحدة ﴿حَتَّىٰ﴾ يصغر جداً فيعود ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ أي: عرجون النخلة، الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئاً شيئاً، حتى يتم [نوره] ويتسق ضياؤه.

﴿وَكُلٌّ﴾ من الشمس والقمر، والليل والنهار، قدره [الله] تقديرًا لا يتعده، وكلٌّ له سلطان ووقت، إذا وجد عدم الآخر، ولهذا قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزِيلِينَ﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَاثُرًا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَلَمْ تَرَ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿وَلَنْ كُلُّ لَمَامٍ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبُ فِيهَا نَوَارًا مِنَ الْعُيُونِ﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَمَا تَنْبِثُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْآيَلُ فَتَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمْ مُنْظِلُونَ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيَلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١﴾

أي: في سلطانه الذي هو الليل، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل ﴿وَلَا آيَلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه ﴿وَكُلٌّ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يترددون على الدوام، فكل هذا دليل ظاهر، وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة، والعلم في هذا الموضع.

(٤١-٥٠) ﴿وَأَيُّ لَمَامٍ قَدْ جَاءَ مِنْهُمْ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْهُونِ﴾ وَتَلَقَّاهُمْ مِّنْ بَيْنِهِمَا مَآ زَكَّيْنِ ﴿وَلَنْ تَشَاءُ نَعْقُهُمْ فَلَا صَرِيحٌ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ بَأْسٍ مِّنْ رَّكَابٍ مِّنْ بَيْنِهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إِنْ أَشَاءَ اللَّهُ قَالَ فِي سَبِيلِ نَبِيِّنَ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿فَلَا يَسْتَجِيبُونَ نَدِيَّةً وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَهْلُهُمْ يَرْجَمُونَ﴾ أي: ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعمة، الصارف للنقم، الذي من جملة نعيمه ﴿إِنَّا جَاءْنَا قَوْمَهُمْ﴾ قال كثير من

ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: ﴿أَتَلْكُم يَوْمَئِذٍ الْحَيُّ لِلرَّحْمَنِ﴾، ﴿وَحَسْبِيَ الْأَسْوَدُ لِلرَّحْمَنِ﴾. ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ البعثة من القبور ﴿إِلَّا صَبَاحَةً وَحَدَّةً﴾ ينفخ فيها إسرائيل في الصور، فتحي الأجساد ﴿فَإِنَّا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخْضَرُونَ﴾ الأولون والآخرين، والإنس والجن ليحاسبوا على أعمالهم.

﴿فَأَيُّكُمْ لَا تُلْطِمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٥٥-٥٨) ﴿إِنْ أَصْحَبَ الْجَنَّةَ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَتُكُونُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّينَ عَلَى الْأَرْدَائِكِ مُكَوَّنُونَ ۝ هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَهُمْ تَمَّاءُ يَدْخُلُونَ ۝ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [لما ذكر تعالى] أن كل أحد لا يجازى إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿فِي شُغْلٍ فَتُكُونُونَ﴾ أي: في شغل مفكه للنفس، مُبْدًى لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذه العيون، ويتمناه الممتنون.

ومن ذلك اقتضاض العذاري الجميلات، كما قال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ من المحور العين، اللاتي قد جُمِعْنَ حُسن الوجوه والأبدان، وحُسن الأخلاق ﴿فِي ظِلِّينَ عَلَى الْأَرْدَائِكِ﴾ أي: على السرر المزينة، باللباس المزخرف الحسن، ﴿مُكَوَّنُونَ﴾ عليها، انكاه على كمال الراحة، والطمانينة، واللذة.

﴿هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ﴾ كثيرة، من جميع أنواع الممار اللذيذة، من عنب وتين، ورمان، وغيرها ﴿وَهُمْ تَمَّاءُ يَدْخُلُونَ﴾ أي: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.

ولههم أيضاً ﴿سَلَامٌ﴾ حاصل لهم ﴿وَبَيْنَ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة، وسلامه عليهم، وأكد بقوله: ﴿قَوْلًا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم النجاة، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

فلو أن الله تعالى قَدَّرَ أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح، والهجة، والسرور، لحصل ذلك، فترجو

وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم، في دينهم ودنياهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ معارضين للحق، محتجين بالمشية: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا نُوْثِرُ يَسَاءَ اللَّهُ أَنْفَعَهُ إِنْ شَاءَ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حيث تأمرونا بذلك.

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشية ليست حجة لعاصي أبداً، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مَكَّن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر، واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً منهم، لا جبراً لهم وقهراً.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: لا يستعبدوا ذلك، فإنه [عن] قريب ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَبَاحَةً وَحَدَّةً﴾ وهي نفخة الصور ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ أي: تصيبهم ﴿وَهُمْ يَحْضُونَ﴾ أي: وهم لاهون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال خصوصتهم، وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة.

وإذا أخذتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون ﴿فَلَا يَسْتَلِيمُونَ تَوْبَةً﴾ أي: لا قليلة ولا كثيرة ﴿وَلَا إِلِكَ إِلَّا هُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(٥١-٥٤) ﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِنَّا هُمْ مِنْ أَلْبَدَاكِ إِلِكِ رَبِّهِمْ يَسِيلُونَ ۝ قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَبَاحَةٌ وَحَدَّةً فَإِنَّا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخْضَرُونَ ۝ فَأَيُّكُمْ لَا تُلْطِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النفخة الأولى: هي نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور. فإذا نفخ في الصور، خرجوا من الأبدان والقبور، ينسلون إلى ربهم أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر.

وفي تلك الحال يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون: ﴿يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ أي: من رقدتنا في القبور، لأنه ورد في بعض الأحاديث، أن لأهل القبور رقدة قبيل النفخ في الصور.

فيجايون، فيقال [لهم]: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأي عين.

﴿٥٩﴾

٤٤٤

﴿٦٧﴾

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٩﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِكُمْ مُتَكُونَ ﴿٦٠﴾ هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَهُمْ مَالِدَعُونَ ﴿٦١﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٦٢﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمُجْرِمُونَ ﴿٦٣﴾ أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ نَبِيَّ عَادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٤﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلْهَمْتُكُمْ تَكْوِينَ أَتَقُولُونَ ﴿٦٦﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٧﴾

ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتنعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

(٥٩-٦٧) ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمُجْرِمُونَ﴾ أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ نَبِيَّ عَادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٤﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلْهَمْتُكُمْ تَكْوِينَ أَتَقُولُونَ ﴿٦٦﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٧﴾

يَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنشَأُ مِنْهُمْ لَفِظَاتٍ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٧١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٧٥﴾

جزاء المتقين، ذكر جزاء المجرمين ﴿٥٩﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿امْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويرفعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أمركم وأوصيكم، على السنة رسلي، [وأقول لكم]: ﴿نَبِيَّ عَادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأذبرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿وَأَمْرَتُكُمْ﴾ أَنْ اعْبُدُونِي بِامْتِثَالِ أَوَامِرِي وَتَرْكِ زَوَاجِرِي ﴿هَذَا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله، ترجع إلى هذين الأمرين.

أي: فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، ف ﴿أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ أي: خلقًا كثيرًا، ﴿أَلْهَمْتُكُمْ تَكْوِينَ أَتَقُولُونَ﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم وليًا، فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك.

فإذ أطعتم الشيطان، وعاديتهم الرحمن، وكذبتم بلفاته، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب ف ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عيانًا، فهناك تترجع منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفزع الأكبر.

ثم يكمل ذلك، بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿اسْتَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ادخلوها على وجوهكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسل الله.

قال الله تعالى في بيان وصفهم الفظيع، في دار الشقاء: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ بأن نجعلهم خرسًا، فلا يتكلمون، فلا يقدرّون على إنكار ما عملوه، من الكفر والتكذيب ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنشَأُ مِنْهُمْ لَفِظَاتٍ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي: فبادروا إليه؛ لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ وقد طمسنا أبصارهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى مَكَاتِهِمْ﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الأمام ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى ورائهم ليعبدوا عن النار، والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حققت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم.

وفي ذلك الموطن، ما تمّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار.

وأشعارها وأصوافها أئاناً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها.

﴿أَفَلَا يَسْكُرُونَ﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبادة والفكرة.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُعْتَصِرُونَ﴾ هذا بيان لبطان آلهة المشركين، التي ^(١) اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها.

فإنها في غاية العجز ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة، [والقدرة]، فإذا استطاع يبقى: هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ ففُتِي الاستطاعة ينفي الأمرين كليهما.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُعْتَصِرُونَ﴾ أي: محضرون هم، وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضرر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟

(٧٦) ﴿قَالَ يَعْزُبُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ﴾ أي: فلا يحزنك، يا أيها الرسول، قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول، أو فيما جاء به.

أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ﴾ ولا يقولهم لا يضرك شيئاً.

(٧٧-٨٣) ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَفْثَةٍ فَإِذَا هُوَ خَاشِعٌ مُبِينٌ ۚ وَنَسِيتَ نَسَاكَ وَنَحْيَ خَلْقَكَ قَالَ مَنْ يُمِينُ الْعِلْمُ بِهِ ۚ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْأَاءَ أَوَّلَ سَرِّهِ وَهُوَ يَكْبِتُ حَتَّىٰ عَلِمَ ۚ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّجْدَ الْأَخْضَرُ نَارًا فَإِذَا أَنتُمْ مِنْهُ تُوقِنُونَ ۚ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِنْ شَيْءٍ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ مُسَبِّحِينَ الَّذِي يُبْرِئُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبِّهِ رُحْمَتُونَ﴾ هذه الآيات الكريسات، فيها [ذكر] شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأنهم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾ المنكر للبعث والشاك فيه، أمراً

فإن شاء طمس أعينهم، وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم، فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر، المقصود: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

(٦٨) ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ من بني آدم ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: يعود إلى الحالة التي ابتداءً، حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن الآدمي ناقص من كل وجه، فيندادوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

(٦٩، ٧٠) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۚ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ كَانُوا هَٰذَا وَيُحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أن يكون شاعراً، أي: هذا من جنس المحال أن يكون شاعراً؛ لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم الغاؤون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التي تتعلق بها الضالون على رسوله.

فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الأبواب، جميع المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم اشتمال وهو يذكر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح. ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: مبين لما يطلب بيانه، ولهذا حذف المعمول، ليدل على أنه مبين لجميع الحق، بأدلة التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه أنزله الله كذلك على رسوله.

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: حي القلب واعي، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية ﴿وَيُحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدْلُونَ بها.

(٧١-٧٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صَبَاتٌ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَمًا فَمِنْ هَٰذَا مَلَكَتُوهُمْ ۖ وَزَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوتُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۚ وَلَقَدْ فِيهَا مِنْ لَبَنٍ ذَاتِ لَبٍّ أَلَّا يَشْكُرُونَ﴾ يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وزللها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم، وحمل أنفاسهم، ومحاميلهم، وأمتعته من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها

(١) كذا في ب وفي أ: الذي. (٢) زيادة من هامش ب، ويبدو - والله أعلم - أن الشرطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقيّة كلام الشيخ - رحمه الله - يدل على ذلك.

تفسير سورة الصافات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿وَالْقُنُودُ صَفًا ۝ فَالزَّجْرُجَرُ نَحْرًا ۝ فَالْقُلُوبُ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ إِنَّا زَيْنَا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَيْنَهُ الْكُوكُوبُ ۝ وَحِفْظًا بَيْنَ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى التَّلَايَ الْأَعْلَى وَيُقَدُّونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ وَكَمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ۝ إِلَّا مَنْ حِفْظَ الْقَطْفَةِ فَأَتَمُّ شَهَابٍ ثَابِتٌ ۝ فَاسْتَفْنِيَهُمْ أَهْمُ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝ هَذَا قِسْمٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ، فِي حَالِ عِبَادَتِهَا وَتَدْبِيرِهَا مَا تَدْبِرُهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، عَلَى أَلُوهِتِهِ تَعَالَى وَرَبُّوبِيَّتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَالْقُنُودُ صَفًا ۝ أَي: صَفُوفًا فِي خِدْمَةِ رَبِّهِمْ، وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ.﴾
﴿فَالزَّجْرُجَرُ نَحْرًا ۝ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ، يَزْجُرُونَ السَّحَابَ وَغَيْرَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ.﴾

﴿فَالْقُلُوبُ ذِكْرًا ۝ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَتْلُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى.﴾
فلما كانوا متألهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفة عين، أقسم بهم على أَلُوهِتِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ، فَأَخْلَصُوا لَهُ الْحُبَّ وَالْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ، وَسَائِرَ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ.﴾

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ أَي: هُوَ الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالرَّازِقُ لَهَا، الْمُدَبِّرُ لَهَا، فَكَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رَبُّوبِيَّتِهِ إِيَّاهَا، فَكَذَلِكَ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أَلُوهِتِهِ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرُرُ تَعَالَى تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَقْرَبَهُ أَيْضًا الْمَشْرُوكُونَ فِي الْعِبَادَةِ، فَلْيَزِمِهِمْ بِمَا^(١) أَقْرَبُوا بِهِ عَلَى مَا أَنْكَرُوا.﴾

وخص الله المشارق بالذكر، لدلائلها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها، فلهذا قال: ﴿إِنَّا زَيْنَا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَيْنَهُ الْكُوكُوبُ ۝ وَحِفْظًا بَيْنَ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى التَّلَايَ الْأَعْلَى ۝ ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْكُوكُوبِ هَاتَيْنِ الْغَائِطَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ:

إحدهما: كونها زينة للسماء، إذ لولاها لكانت السماء جرمًا مظلمًا لا ضوء فيها، ولكن زينها بها لتستثير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل.

والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان مارد، يصل بتمرده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿وَالْقُنُودُ صَفًا ۝ فَالزَّجْرُجَرُ نَحْرًا ۝ فَالْقُلُوبُ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ إِنَّا زَيْنَا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَيْنَهُ الْكُوكُوبُ ۝ وَحِفْظًا بَيْنَ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى التَّلَايَ الْأَعْلَى وَيُقَدُّونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ وَكَمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ۝ إِلَّا مَنْ حِفْظَ الْقَطْفَةِ فَأَتَمُّ شَهَابٍ ثَابِتٌ ۝ فَاسْتَفْنِيَهُمْ أَهْمُ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝ وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝ وَإِنَّا أَوْفَاءُ الْوَعْدِ ۝ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ مَخْلُوقُونَ ۝ أَوَلَمْ نَسْأَلِكُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا نَبْطَرُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۝ هَذَا يَوْمُ الْقُصَى الَّذِي كُتِبَ بِهِ نُكُودُكُمْ ۝ أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَوْ أَرَوْهُمْ جَهَنَّمَ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝ وَقَفُّوا هَاجِرًا تَتَمَسَّكُونَ ۝﴾

إلى استماع الملائكة الأعلى، وهم: الملائكة، فإذا استمعت قذفتها بالشهب الثواب ﴿بَيْنَ كُلِّ جَانِبٍ﴾ طردًا لهم، وإبعادًا عن استماع ما يقول الملائكة الأعلى.

﴿وَكَمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ أي: دائم، معد لهم، لتعزدهم عن طاعة ربهم.

ولولا أنه [تعالى] استثنى، لكان ذلك دليلًا على أنهم لا يسمعون شيئًا أصلًا، ولكن قال: ﴿إِلَّا مَنْ حِفْظَ الْقَطْفَةِ﴾ أي: إِلَّا مَنْ تَلَقَّفَ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْمَرْدَةِ، الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ عَلَى وَجْهِ الْخَفِيَّةِ وَالسَّرْعَةِ ﴿فَأَتَمُّ شَهَابٍ ثَابِتٌ﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أولياته، فيقطع خبر السماء وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة، يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فَاسْتَفْنِيَهُمْ﴾ أي: أسأل منكري خلقهم بعد موتهم ﴿أَهْمُ أَشَدَّ خَلْقًا﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقًا وأشق؟

﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ من (١) كذا في ب، وفي أ: ما.

[هذه] المخلوقات؟ فلا بد أن يقولوا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

فليزعمهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها، لعلوا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنسانهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: قوي شديد كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِن حَمَلٍ مُّسْتَوٍ﴾.

(١٢-٢١) ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ○ وَإِن دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ○ وَإِن رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ○ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّجْتَمِعٌ ○ لَوْ أَنَّا كُنَّا نَرَىٰ وَحَقًّا لَّوَلَا نَتَّبِعُونَ ○ أَوْ نَأْتِيَنَّكَ الْأَوَّلُونَ ○ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ○ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ○ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ○ وَقَالُوا يَوَيْلًا هَذَا يَوْمُ الْآزِمِ ○ هَذَا يَوْمُ الْقَسْفَلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُونَ ○﴾ ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يأيتها الرسول، أو أيها الإنسان، من تكذيب من كذب بالبعث، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة، والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة، محل عجب واستغراب؛ لأنه مما لا يقبل الإنكار، ﴿و﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه، أنهم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

﴿و﴾ من العجب أيضاً أنهم ﴿إِن دُكِّرُوا﴾ ما يعرفون في فطرتهم وعقولهم، ووطنوا له، وألفت نظرهم إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ذلك، فإن كان جهلاً فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة، حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً وعناداً، فهو أعجب وأغرب.

ومن العجب [أيضاً] أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال، وألباب الألباء، يسخرون منها ويعجبون.

ومن العجب أيضاً، قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّجْتَمِعٌ﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها، وهو الحق في رتبة أحسن الأشياء وأحقها.

ومن العجب أيضاً، قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات، على قدرة آدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعاداً وإنكاراً: ﴿لَوْ أَنَّا كُنَّا نَرَىٰ وَحَقًّا لَّوَلَا نَتَّبِعُونَ ○ أَوْ نَأْتِيَنَّكَ الْأَوَّلُونَ﴾.

ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على تربيهم^(١) فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ سَتَبْعُونَهُ أُنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَوَّلُونَ ○ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ○ ذَلِيلُونَ صَاغِرُونَ، لَا تَمْتَنُونَ، وَلَا تَسْتَعِصُونَ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ.

﴿فَالَّذِينَ هُمْ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿وَإِذَا هُمْ مَبْعُوثُونَ مِن مَّيْمُونِهِمْ ○ يَنْظُرُونَ﴾ كما ابتدأ خلقهم بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلا، وفي تلك الحال يظهرون الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

﴿وَقَالُوا يَوَيْلًا هَذَا يَوْمُ الْآزِمِ﴾ فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يستهزون.

فيقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَسْفَلِ﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

(٢٢-٢٦) ﴿أَخْشَرُوا الْآزِمَ عَلَمًا وَارِثَةً ○ وَأَوَّلَتْهُمُ ○ وَمَا كَانُوا يَشْعُرُونَ ○ مِن دُونِ اللَّهِ ○ فَاهْتَدَوْهُمُ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَنَّةِ ○ وَفَوَقَهُمُ الْبَيْتُ مُنْشَوُّونَ ○ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ○ بَلْ هُمُ الْآزِمُ مُنْتَضِلُونَ ○﴾ أي: إذا أحضروا يوم القيامة، وعانيتوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿أَخْشَرُوا الْآزِمَ عَلَمًا﴾ أنفسهم بالكفر والشرك، والمعاصي ﴿وَأَوَّلَتْهُمُ﴾ الذين من جنس عملهم، كل يضمن إلى من يجانسه في العمل.

﴿وَمَا كَانُوا يَشْعُرُونَ ○ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجمعوهم جميعاً ﴿فَاهْتَدَوْهُمُ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَنَّةِ﴾ أي: سوفهم سوقاً عنفاً إلى جهنم ﴿و﴾ بعدما يتعين أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل دار البوار، يقال: ﴿وَقُفُّوهُمْ﴾ قبل أن توصلوهم إلى جهنم ﴿إِنَّهُمْ مُّشْغُولُونَ﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليطهر على رؤوس الأشهاد كذبتهم وفضيحتهم.

فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرفكم حتى لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا ينيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن ألّهتكم ستدفع عنكم العذاب، وتغيثكم، وتشفع لكم عند الله، فكانهم لا يجيبون على هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا. ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمُ الْآزِمُ مُنْتَضِلُونَ﴾.

(٢٧-٣٩) ﴿وَأَنزَلَ بِشْهَرٍ عَلَىٰ بَيْتِ الْقَسْفَلِ ○ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ○ قَالُوا بَلْ لَرُّ كُفُّوا مُؤْمِنِينَ ○ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْكَ مِن سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّذِيبِينَ ○ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ○ فَأَلْهَمْنَاهُمْ لَمَّا كُنَّا غَايِينَ ○ فَكَانَهُم بِوَيْحِنَا فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ○ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ○ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ○ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَدْرِكُهَا ○ أَلْهَمْنَا لِسَانِي مَعُوذَةً ○ بَلْ سَاءَ مَا يَحْكُمُ وَصَدَّقُ الْمُنْتَضِلِينَ ○ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ○ وَمَا يُغْنِي عَنْكُمْ قَوْلُكُمْ ○ لَمَّا جُمِعُوا هُم وَأَزْوَاجُهُم وَالْهَنَمُ، وهدوا إلى

صراط الجحيم ووقفوا، فستلوا فلم يجيبوا، أقبلوا فيما بينهم يلوم بعضهم بعضاً على إضلالهم وضلالهم، فقال الاتباع للمتبوعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة والغلبة، فضللونا، ولولا أنتم لكانا مؤمنين.

﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما زلتم مشركين، كما نحن مشركون.

فأي شيء فضلكم علينا؟ وأي شيء يوجب لومنا؟ ﴿وَوُكِّلَ الْحَالُ أَنَّهُ﴾ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنٍ ﴿أَي: قَهَرَ لَكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ الْكُفْرِ﴾ ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا كَلْبِيَّيْنَ﴾ متجاوزين للحد^(١).

﴿فَقَحَّ عَلَيْنَا﴾ نحن وإياكم ﴿إِنَّا لَنَذِقُكَ الْعَذَابَ﴾ أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق العذاب، ونشترك في العقاب.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ﴾ ﴿أَعْوَجَّتْهُمُ﴾ إِنَّا كُنَّا غَيْرُكُمْ ﴿أَي: دَعَوْنَاكُمْ إِلَى طَرِيقَتِنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا، وَهِيَ الْغَوَايَا، فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا، فَلَا تَلُومُونَا وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾.

ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فدعوا إليها، وأمروا بترك الهية ما سواه ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عنها وعلى من جاء بها.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لها ﴿إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهُتَيْنَا﴾ التي لم نزل نعبدن، نحن وآبائنا ﴿لَ﴾ قول ﴿شَاعِرٍ تَجَوَّرَ﴾ يعنون: محمداً ﷺ، فلم يكفهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى ناقضاً لقولهم: ﴿بَلْ جَاءَهُ﴾ محمد ﴿بِالْبَقَى﴾ أي: مجيئه حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [أي: ومجيئه صدق المرسلين] فلولاً مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أمهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو قدر عدم مجيئه، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحاً في صدقهم.

صراط الجحيم ووقفوا، فستلوا فلم يجيبوا، أقبلوا فيما بينهم يلوم بعضهم بعضاً على إضلالهم وضلالهم، فقال الاتباع للمتبوعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة والغلبة، فضللونا، ولولا أنتم لكانا مؤمنين.

﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما زلتم مشركين، كما نحن مشركون.

فأي شيء فضلكم علينا؟ وأي شيء يوجب لومنا؟ ﴿وَوُكِّلَ الْحَالُ أَنَّهُ﴾ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنٍ ﴿أَي: قَهَرَ لَكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ الْكُفْرِ﴾ ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا كَلْبِيَّيْنَ﴾ متجاوزين للحد^(١).

﴿فَقَحَّ عَلَيْنَا﴾ نحن وإياكم ﴿إِنَّا لَنَذِقُكَ الْعَذَابَ﴾ أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق العذاب، ونشترك في العقاب.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ﴾ ﴿أَعْوَجَّتْهُمُ﴾ إِنَّا كُنَّا غَيْرُكُمْ ﴿أَي: دَعَوْنَاكُمْ إِلَى طَرِيقَتِنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا، وَهِيَ الْغَوَايَا، فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا، فَلَا تَلُومُونَا وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾.

ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فدعوا إليها، وأمروا بترك الهية ما سواه ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عنها وعلى من جاء بها.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لها ﴿إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهُتَيْنَا﴾ التي لم نزل نعبدن، نحن وآبائنا ﴿لَ﴾ قول ﴿شَاعِرٍ تَجَوَّرَ﴾ يعنون: محمداً ﷺ، فلم يكفهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى ناقضاً لقولهم: ﴿بَلْ جَاءَهُ﴾ محمد ﴿بِالْبَقَى﴾ أي: مجيئه حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [أي: ومجيئه صدق المرسلين] فلولاً مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أمهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو قدر عدم مجيئه، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحاً في صدقهم.

وَصَدَّقَ أَيْضًا الْمُرْسَلِينَ، بَأَن جَاءَ بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَدَعَا إِلَى

ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

ولما كان قولهم السابق: ﴿إِنَّا لَنَذِقُكَ الْعَذَابَ﴾ قولاً صادراً منهم، يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: ﴿إِنَّكَ لَنَذِقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: المؤلم الموجه ﴿وَمَا يُجْزَيْنَ﴾ في إذاقة العذاب الأليم ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟.

ولما كان هذا الخطاب لفظه عاماً، والمراد به: المشركون، استثنى تعالى المؤمنين فقال:

(٤٩-٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَكُونَ ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظُلْفِ عَيْنٌ﴾ كَأَنَّهُمْ يَبْسُفُونَ مَكَوْنَهُمْ ﴿يَقُولُ تَعَالَى﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ ذَاقِي الْعَذَابِ

(١) كنا في ب، وفي أ: للحق.

إما أنها قصرت طرفها على زوجها، لغفها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواء، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها، وقصر الطرف أيضًا يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح .

و[كل] هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضًا، محبة لا يطمح إلى غيره، وشدة عففتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباعد، ولا تشاحن وذلك لانتهاء أسبابه .

﴿عَيْنٌ﴾ أي: حسان الأعين جميلاتها، ملاح الحدق ﴿كَاثِرٌ﴾ أي: الحور ﴿يَبَسُّ مَكُونٌ﴾ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن، وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين .

(٥٠-٦١) ﴿فَأَقْصَى بَصَرُ عَنْ بَعْضٍ يُسَاءَلُونَ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لَئِنْ أَتَيْتُكَ لَمَنِ النَّصِيبُ﴾ ﴿أَهْلًا مِنَّا وَكُنَّا نَرَاكَ وَعَظَمْنَا أَهْلًا لَكُنِيئُونَ﴾ قَالَ هَلْ أُشْرُ مَطْلُوعُونَ ﴿فَأَطَاعَ قَرِينًا فِي سَوَاءِ الْحَجَرِ﴾ قَالَ تَالَلَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرَوِّينَ ﴿وَلَوْلَا بَيْتُهُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ﴿أَمَّا نَحْنُ بِحَبِيبَتِي﴾ ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْغَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ لِيُثَلَّ هَذَا فَيُعْمَلُ الْغَوْلُونَ ﴿لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى نَعِيمَهُمْ، وَتَمَامَ سُورِهِمْ، بِالْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْأَزْوَاجِ الْحَسَنَةِ، وَالْمَجَالِسِ الْحَسَنَةِ، ذَكَرَ تَذَاكُرَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَمُطَارَحَتَهُمْ لِلْأَحَادِيثِ عَنِ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ، وَأَنَّهُمْ مَا زَالُوا فِي الْمَحَادَثَةِ وَالْتِسَاوُلِ، حَتَّى أَفْضَى ذَلِكَ بِهِمْ، إِلَى أَنْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ فِي الدُّنْيَا يَنْكُرُ الْبَيْعَ، وَيُلَوِّمُنِي عَلَى تَصَدِيقِي بِهِ وَ﴿يَقُولُ﴾ لِي ﴿أَهْلَكَ لَئِنْ أَتَيْتُكَ﴾ ﴿أَهْلًا مِنَّا وَكُنَّا نَرَاكَ وَعَظَمْنَا أَهْلًا لَكُنِيئُونَ﴾ أَي: مُجَازُونَ بِأَعْمَالِنَا؟ .

أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا، فصرنا ترابًا وعظامًا، أننا نُبْعَثُ وَنُعَادُ، ثُمَّ نَحْسَابُ وَنُجَازَى بِأَعْمَالِنَا!!

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمنًا صادقًا، وهو ما زال مكذبًا منكراً للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلنا أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب .

﴿هَلْ أُشْرُ مَطْلُوعُونَ﴾ لننظر إليه فزاد غبطة وسرورًا بما نحن فيه، ويكون ذلك رأيي عين؟ .

الآليم، لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلفظه .

﴿أَتَيْتَكَ ثُمَّ رَزَقْتَنِي مَعْلُومٌ﴾ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه .

فسره بقوله: ﴿فَوَكَّرَهُ﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تنفكه بها النفس، للذنها في لونها وطعمها ﴿وَمِمَّنْ كُنْتُمْ﴾ لا مهانون محقرتون، بل معظمون مجلون مقرون .

قد أكرم بعضهم بعضًا، وأكرمهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهتئونهم ببلوغ أهنا الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان .

﴿فِي جَنَّاتٍ الْغَيْرِ﴾ أي: الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعتها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل مخل بنعيمها، من جميع المكدرات والمنغصات .

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضًا، أنهم على ﴿سُرُرٍ﴾ وهي المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة، المزخرفة المجملية، فهم متكون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح ﴿مُنْتَقِلِينَ﴾ فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم تدل على تقابل قلوبهم، وتآدب بعضهم مع بعض فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل .

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَاثِرٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم، بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر .

وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿يَبَسَّةٌ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿كَذَرٌ لِّشَّرِبَةٍ﴾ يلذ شاربها بها وقت شربها وبعده .

وأنها سالمة من غول العقل وذعابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداد ولا كدر، فلما ذكر طعامهم وشربهم ومجالسهم، وعموم النعيم وتفصيله داخله في قوله: ﴿جَنَّاتٍ الْغَيْرِ﴾ .

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فتشاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم فقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَرِّيِّ عَيْنٍ﴾ أي: وعند أهل دار النعيم، في محلاتهم القريبة، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف .

والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم ببعض، وموافقة بعضهم بعضاً، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له، للاطلاع على قرينه ﴿فَأَنطَلَقَ﴾ فرأى قرينه ﴿فِي سَوَاءٍ الْحَجِيرِ﴾ أي: في وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد أحاط به.

ف ﴿قَالَ﴾ له لانتما على حاله، وشاكرا لله على نعمته أن نجاه من كيدهِ ﴿فَأَنطَلَقَ إِنْ كِدْتُ لَأَذْرِبَنَّ﴾ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت علي من الشبه بزمعك.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب معك ﴿أَفَأَنطَلَعْتَ يَمِينَتِي﴾ إلا مؤلفنا الأول وما نحن بمعددين ﴿أي: يقوله المؤمن، متهجياً بنعمة الله، على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها، والسلامة من العذاب، استغفام بمعنى الإنابت والتقرير.﴾ أي يقول لقرينه المعذب: أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموت الأولى، ولا يبعث بعدها ولا عذاب؟^(١)

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاثَلُونَ﴾ وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتسائلون بكل ما يلتذون بالحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال.

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوق العاملين، وحثهم على العمل فقال: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه، فهل فوز يطلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات، وفرحوا بقربه، وتغنموا بمعرفته واستروا برؤيته، وطربوا لكلامه؟

﴿لِيُنْظِلَ هَذَا فَيَلْعَبَ الْقَتِيلُونَ﴾ فهو أحق ما أنفقت فيه نفاس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة، أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشغول بالعمل الذي يقرب لهذه الدار، فكيف إذا كان يسير بخطايا إلى دار البوار!!

(٦٢-٧٤) ﴿أَذَلَّكَ حَيْرٌ لِّزُلَا أَمْ سَجَرَةُ الرَّقُومِ﴾ إِنْ جَعَلَتْهَا فِئْتَةً

لِلظَّالِمِينَ ﴿إِنَّمَا سَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيرِ﴾ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنهَا فَمَالُونَ مِنهَا الْبُطُونَ﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهِ لَشَوَا مِّنْ حَجِيرٍ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيرِ﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَا

يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴿٤٤٨﴾ إِنْ آمَنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَيْدُونَ ﴿٤٤٩﴾ قَالَ هَلْ أَسْتَمُطِّلُونُ ﴿٤٥٠﴾ فَأَطَاعَ قَرْنَاهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ ﴿٤٥١﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَأَذْرِبَنَّ ﴿٤٥٢﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٤٥٣﴾ أَفَأَنطَلَعْتَ يَمِينَتِي ﴿٤٥٤﴾ إِلَّا مَوْلَانَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿٤٥٥﴾ إِنْ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٤٥٦﴾ لِيُنْظِلَ هَذَا فَيَلْعَبَ الْقَتِيلُونَ ﴿٤٥٧﴾ أَذَلَّكَ حَيْرٌ لِّزُلَا أَمْ سَجَرَةُ الرَّقُومِ ﴿٤٥٨﴾ إِنَّمَا جَعَلَتْهَا فِئْتَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٤٥٩﴾ إِنَّمَا سَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيرِ ﴿٤٦٠﴾ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٤٦١﴾ فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنهَا فَمَالُونَ مِنهَا الْبُطُونَ ﴿٤٦٢﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهِ لَشَوَا مِّنْ حَجِيرٍ ﴿٤٦٣﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيرِ ﴿٤٦٤﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا مِّنْهُ مَرَّاتَيْنِ ﴿٤٦٥﴾ فَهُمْ عَلَى النَّارِ بِهَرَعُونَ ﴿٤٦٦﴾ وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَزْلَيْنِ ﴿٤٦٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِيرِينَ ﴿٤٦٨﴾ فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذِيرِينَ ﴿٤٦٩﴾ إِنْ لَا عِبَادَ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٧٠﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَاوْهُ فَلْيَعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٤٧١﴾ وَنَحْنُ وَأَهْلُهُ بِتِ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٤٧٢﴾

عَاتِبَهُ مَرَّاتَيْنِ ﴿٤٦٥﴾ فَهُمْ عَلَى النَّارِ بِهَرَعُونَ ﴿٤٦٦﴾ وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَزْلَيْنِ ﴿٤٦٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِيرِينَ ﴿٤٦٨﴾ فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذِيرِينَ ﴿٤٦٩﴾ إِنْ لَا عِبَادَ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٧٠﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَاوْهُ فَلْيَعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٤٧١﴾ وَنَحْنُ وَأَهْلُهُ بِتِ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٤٧٢﴾

﴿إِنَّمَا سَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيرِ﴾ أي: وسطه فهذا مخرجها، ومعدنها أشر المعادن وأسوأها، وشر المغروس يدل على شر الغراس وخسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تبت به؟ وبما ذكر من صفة ثمرتها.

وأنها كـ ﴿رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم وبطونهم، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل^(٣).

(١) ما بين الحاصرتين زيادة من ب، وما بعد الحاصرة الثانية شطب عليه فيها، ورأيت إيقاء لعدم شطبه في أ. (٢) كذا في ب، وفي أ: معدن.

العظيم، وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته متسلسلين، فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين، وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلى الخلق، وهذه سُنَّةُ تعالى في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم. ودلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ الْقَوْمَ﴾ أن الإيمان أرفع منازل العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه، لأن الله مدح به خواص خلقه.

(٨٣-١١٣) ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْعِهِ لَأِيْزِيهِ﴾ إلى آخر القصة. أي: وإن من شيعه نوح عليه السلام، ومن هو على طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم الخليل عليه السلام.

﴿إِذْ جَاءَ زَيْدٌ وَفَلَّحٌ سَلِيمٌ﴾ من الشرك والشبه، والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به، وإذا كان قلب العبد سليماً، سلم من كل شر، وحصل له كل خير.

ومن سلامته، أنه سليم من غش الخلق وحسدهم، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّكُمْ وَقَوْمِهِ مَاذَا تُبْعِدُونَ﴾ هذا استفهام بمعنى (١) الإنكار، والإزام لهم بالحجة.

﴿أَفَبِمَا عَلَّمَهُ دُونُ اللَّهِ تُبْعِدُونَ﴾ أي: تعبدون [من دونه] آلهة كذباً، ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم برب العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم.

وما الذي ظنتم برب العالمين، من النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء.

فأراد عليه السلام أن يكسر أصنامهم، ويتمكن من ذلك، فانتهاز الفرصة في حين غفلة منهم، لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فَفَكَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فقال إني سقيم. في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلِّغْكُمْ كَلِمَتِي هَذَا﴾ وقوله عن زوجته: «إنها اختي».

والقصد أنه تخلف عنهم، ليتم له الكيد بآلهتهم ﴿فَذُ﴾ لهذا ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ فلما وجد الفرصة ﴿وَرَأَى إِلَهَ الْهِنَمِ﴾ أي: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة ﴿فَقَالَ﴾ متهمكماً بها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ما لكم لا تيطؤون؟ أي: فكيف يليق أن تُعبد، وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل أو تكلم؟ فهذه جماد لا

(١) زيادة يقتضيه السياق. (٢) كذا في ب، وفي أ: ليس. (٣) في ب: على وجه.

ولهذا قال: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ لَأَكُونُ مِنْهَا نَكِيراً﴾ هذا طعام أهل النار، فيس الطعام طعامهم.

ثم ذكر شرايهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: على أثر هذا الطعام ﴿لَنُؤْتِيَنَّ مِنْ حَيْثُ﴾ أي: ماء حاراً قد انتهى [حره] (١) كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهَا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ يفسد الشرب وساءت مرققاً، وكما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: مآلهم ومقرهم [وما واهم] ﴿لَأَنَّى الْحَمِيمِ﴾ ليدوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم، ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

وكأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أي: وجدوا ﴿عِبَادَةً مَّرْكَاةً﴾ هُتَمَ عَلَى عَائِشِهِمْ يَسْعُونَ أي: يسعون في الضلال، فلم يلفتوا إلى ما دعاهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذرهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إِنَّا وَهَدَانَا عِبَادَةً عَلَى أَثَرٍ وَلَئِنَّا عَلَى عَائِشِهِمْ لَفُتُونُ﴾.

﴿وَلَقَدْ سَلَ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ وقليل منهم آمن واهتدى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِيرِينَ﴾ يذرونهم عن غيهم وضلالهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم، فيصيبهم مثل ما أصابهم.

ولما كان المنذرون ليسوا (٢) كلهم ضالين، بل منهم من آمن وأخلص الدين لله، استثناء الله من الهلاك فقال: ﴿إِلَّا يَاجِدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة.

ثم ذكر أنموذجاً من عواقب الأمم المكذبين فقال:

(٧٥-٨٢) ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَيْتَمَ الْمُسْلِمُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَحْنَا ذُرِّيَّتُهُ مَرْءُ الْكَافِينَ وَرَبُّكَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْكَافِينَ﴾ إِنْ كَذَلِكَ تَجْرَى النَّحْسِينَ ﴿إِنَّ مِنْ عِبَادِ الْقَوْمِ﴾ ثُمَّ أَرْفَعْنَا الْآخِرِينَ﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزددهم دعاؤه إلا فرااراً، أنه نادى ربه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ رَبِّكَ﴾ الآية، وقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه فقال: ﴿فَلْيَتَمَّ الْمُسْلِمُونَ﴾ لدعاء الداعين، وسماع تبتلهم وتضرعهم.

أجابه إجابة، طابق ما سأل، نجاه وأهله من الكرب

تأكل ولا تكلم.

﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ سَمًّا بَاطِنًا﴾ أي: جعل يضربها بقوة ونشاطه، حتى جعلها جذافاً، إلا كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون.
﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرَوْنَ﴾ أي: يسرعون ويهرعون، أي يريدون أن يوقعوا به، بعدما بحثوا وقالوا: ﴿مَنْ قَعَلَ هَذَا بِإِلَهِينَا إِذْ هُمْ لَيْسَ بِالْعَالَمِينَ﴾.

وقيل لهم: ﴿سَمِعْنَا نَقَى يَذْكُرُهُمْ يَقَالُ لَهُ: إِيْهِمْ﴾ يقول: ﴿تَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَعُكَ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِينًا﴾ فوبخوه ولاموه، فقال: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدٌ فَمُمْ هَذَا فَتَنَلُوهُمْ إِن كَانَ لَهُمْ بَيِّنَاتٌ﴾ فَرَمَعُوا إِلَيْهِ فَسَمِعَهُمْ يَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمْ الْكَاذِبُونَ ○ ثُمَّ لَحِشُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءُ يَنْطِفُونَ ○ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ○ الآية.

و ﴿قَالَ﴾ هنا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْشَرُونَ﴾ أي: تحتونه بأيديكم وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم الذين صنعتموهم، وتركوا الإخلاص لله؟ الذي ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَيِّنَاتٌ ○ أي: عالياً مرتفعاً، وأوقدوا فيها النار ﴿فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ جزاء على ما فعل من تكسير ألهمهم.

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿لَجَلَّتْهُمْ أَلْسِنُهُمْ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم ﴿قَالَ إِيْ ذَاهِبْ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام ﴿سَبِّحِينَ﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَأَعِزِّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شُعِيًّا﴾.

﴿رَبِّي هَبْ لِي﴾ ولذا يكون ﴿وَرَبُّكَ الصَّالِحِينَ﴾ وذلك عندما أيس من قومه ولم ير فيهم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته، وبعد مماته.

فاستجاب الله له وقال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ سَلِيمٍ﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة، [إِسْحَاقَ]، ولأن الله تعالى قال في بشره بإسحاق: ﴿فَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ وَمِمَّن رَزَّوهُ إِسْحَاقُ يَتَّقُونَ﴾ فدل على أن إسحاق غير الذبيح.

ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عن جنى.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلام ﴿مَعَهُ الْكُتُبُ﴾ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سناً يكون في الغالب، أحب ما يكون لوالديه، قد ذهب

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هَرَبًا ﴿٧٦﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نَوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ اللَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَن تَمِنَ شَيْعِيُّهُ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكُفَّكَ اللَّهُ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَهُ الْهَيِّمِ ﴿٩١﴾ فَقَالَ الْآثَا كُلُّونَ ﴿٩٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالنِّسِينِ ﴿٩٤﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرَوْنَ ﴿٩٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا أَبْنَاءُ اللَّهِ بَيْنَنَا فَالْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٨﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٩﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَبِّحِينَ ﴿١٠٠﴾ رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ سَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي ارْتُي فِي الْمَنَارِ إِنِّي أَذْهَبُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ○ قَالَ يَأْتِيَكَ أَفْعَلٌ مَا تَأْمُرُ سُبْحَانَ اللَّهِ إِن شَاءَ اللَّهُ مِن الصَّدْرِينَ ﴿١٠٣﴾

مشقته، وأقبلت مضغته، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ارْتُي فِي الْمَنَارِ إِنِّي أَذْهَبُكَ﴾ أي: قد رأيت في النوم والرويا، أن الله يأمرني بذبحك، وروياً^(١) الأنبياء وحي ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه.

﴿قَالَ﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده: ﴿يَأْتِيَكَ أَفْعَلٌ مَا تَأْمُرُ﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿سُبْحَانَكَ إِنَّكَ اللَّهُ يَنَّ الْقَادِرِينَ﴾. أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده. ﴿وَتَكَلَّمَ لِلْجَنِّ﴾ أي: تلأ إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لتلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

وَنَدَبْتَهُ ﴿١١٤﴾ فِي تِلْكَ الْحَالِ الْمُرْجَةِ، وَالْأَمْرِ الْمَدْهَشِ ﴿١١٥﴾ أَنْ يَبْرِيَهُ ٥ قَدْ صَدَّقْتَ أَي: قَدْ فَعَلْتَ مَا أَمَرْتُ بِهِ، فَإِنَّكَ وَطَّئْتَ نَفْسَكَ عَلَى ذَلِكَ، وَفَعَلْتَ كُلَّ سَبَبٍ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَمْرُ السَّكِينِ عَلَى حَلْقِهِ ﴿١١٦﴾ إِنَّكَ كَذَلِكَ تَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٧﴾ فِي عِبَادَتِنَا، الْمُقَدِّمِينَ رِضَانًا عَلَى شَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ.

﴿١١٨﴾ هَذَا الَّذِي امْتَحَنَّا بِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿١١٩﴾ لَقَدْ أَتَيْنَاهُ الْيُسْرَى أَي: الْوَاضِحَ، الَّذِي تَبَيَّنَ بِهِ صِفَاءُ إِبْرَاهِيمَ، وَكَمَالُ مَحَبَّتِهِ لِرَبِّهِ وَخَلَّتِهِ، فَإِنَّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَهَبَهُ اللَّهُ لِبِرَاهِيمَ، أَحَبَّهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَهُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وَالْخَلَّةُ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ، وَهُوَ مُنْصَبٌ لَا يَقْبَلُ الْمَشَارَكَةَ، وَيَقْضِي أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ أَجْزَاءِ الْقَلْبِ مُتَعَلِّقَةً بِالْمَحْبُوبِ.

فَلَمَّا تَعَلَّقَتْ شُعْبَةٌ مِنْ شَعْبِ قَلْبِهِ، بَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ، أَرَادَ تَعَالَى أَنْ يَصْفِي وَدَّهُ وَيَخْتَبِرَ خَلَّتَهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَذْبَحَ مِنْ زَاحِمِ حُبِّهِ حَبِّ رِبِّهِ.

فَلَمَّا قَدَّمَ حُبَّ اللَّهِ، وَأَثَرَهُ عَلَى هَوَاهُ، وَعَزَمَ عَلَى ذَبْحِهِ، وَزَالَ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْمَزَاحِمِ، بَقِيَ الذَّبْحُ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿١٢٠﴾ هَذَا لَقَدْ أَتَيْنَاهُ الْيُسْرَى ٥ وَنَدَبْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٌ أَي: صَارَ بَدْلُهُ ذَبْحٌ مِنَ الْغَنَمِ عَظِيمٍ، ذَبْحَهُ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ عَظِيمًا مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ كَانَ فِدَاءً لِإِسْمَاعِيلَ، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ مِنْ جَمَلَةِ الْعِبَادَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ كَانَ قَرَابَاتًا وَسُتَّةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿١٢١﴾ وَرَزَقْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ٥ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٢﴾ أَي: وَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ثَنَاءً صَادِقًا فِي الْآخِرِينَ، كَمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ، فَكُلَّ وَقْتٍ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ [فِيهِ] مَحْبُوبٌ مُعْظَمٌ مُشْنَى عَلَيْهِ.

﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ أَي: تَحِيَّتُهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَدِّقِينَ﴾ وَسَلَّمَ عَلَى عِيسَى الْيَسَّى أَسْطَفَرْتُ.

﴿إِنَّكَ كَذَلِكَ تَجْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمَعَامَلَةِ خَلْقِهِ أَنْ نَفْرَجَ عَنْهُمْ الشَّدَائِدَ، وَنَجْعَلَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ وَالثَنَاءَ الْحَسَنَ.

﴿إِنَّ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، الَّذِينَ بَلَغَ بِهِمُ الْإِيمَانُ إِلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ مَلَكُوتَ الْمَسْكُونَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَنَّ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَنَزَعْنَاهُ مِنْ أَشْحَقَ نَبِيًّا مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ هَذِهِ الْبَشَارَةُ الثَّانِيَةُ بِإِسْحَاقَ، الَّذِي مِنْ وَرَائِهِ يَعْقُوبُ، فَبَشَّرَ بِوُجُودِهِ وَبِقَاتِهِ، وَوُجُودَ ذُرِّيَّتِهِ، وَكَوْنَهُ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، فَهِيَ بَشَارَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

﴿وَنَزَعْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ أَي: أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمَا الْبَرَكَةَ، الَّتِي هِيَ النَّمُو وَالزِّيَادَةُ فِي عِلْمِهِمَا وَعَمَلِهِمَا وَذُرِّيَّتِهِمَا، فَنَشَرَ اللَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا ثَلَاثَ أُمَمٍ عَظِيمَةٍ.

أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا نَحْنُ وَنُحَالٌ﴾ نَحْنُ نَحْنُ أَي: مِنْهُمْ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ، وَالْعَادِلُ وَالظَّالِمُ الَّذِي تَبَيَّنَ ظُلْمُهُ بِكَفَرِهِ وَشُرْكَهِ، وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ بَابِ دَفْعِ الْإِيهَامِ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿وَنَزَعْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ أَقْضَى ذَلِكَ الْبَرَكَةَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا، وَأَنْ مِنْ تَمَامِ الْبَرَكَةِ أَنْ تَكُونَ الذَّرِيَّةُ كُلُّهُمْ مُحْسِنِينَ. فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مِنْهُمْ مُحْسِنًا وَظَالِمًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١١٤-١٢٢) ﴿وَلَقَدْ مَنَّكَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. يَذْكُرُ تَعَالَى مَنَّةً عَلَى عَبْدِهِ، وَرَسُولِهِ مُوسَى وَهَارُونَ ابْنَيْ عِمْرَانَ، بِالنَّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، وَالِدَعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَنَجَاتِهِمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ عَدُوِّهِمَا فِرْعَوْنَ، وَنَصْرِهِمَا عَلَيْهِ، حَتَّى أَغْرَقَهُ اللَّهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَإِنْزَالَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ، وَهُوَ التَّوْرَةُ الَّتِي فِيهَا الْأَحْكَامُ وَالْمَوَاعِظُ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ اللَّهَ هَدَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، بَأَنَ شَرَعَ لَهُمَا دِينًا ذَا أَحْكَامٍ وَشَرَائِعَ مُسْتَقِيمَةٍ، مُوَصِّلَةً إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَلَيْهِمَا يَسْلُوكُهُ.

﴿١٢٨﴾

٤٥١

﴿١٢٧﴾

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
 وَرَكَعًا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ كَذَلِكَ
 تَجْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾ وَإِنْ لَوْ كُنَّا
 لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٢﴾ إِذْ تَخَيَّرْتُهَا أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٣﴾ إِلَّا عَجُوزًا
 فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٤﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٥﴾ وَإِنْ كُنَّا لَنَكُونُ عَلَيْهِمْ
 مُصْهِبِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِلَّا لَآ أَفْلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنْ يُوَسَّسْ لِمَنْ
 الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٨﴾ إِذْ أَتَىٰ إِلَى الْفَلَاحِ انْتَحَبُونَ ﴿١٣٩﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ
 مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤٠﴾ فَالْقَمْعَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُبِينٌ ﴿١٤١﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ
 كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٢﴾ لَلَّيْتُ بِطَيْبِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٣﴾
 فَبَدَّدَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٤﴾ وَأَلْبَسْنَاهُ لَئِيْلَةً سَجَرَةً
 مِّنْ بَقْطِينٍ ﴿١٤٥﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٦﴾
 فَآمَنُوا فَمَسَّغْنَاهُمُ الْإِيمَانَ ﴿١٤٧﴾ فَاسْتَفْتَاهُ رَبُّكَ الْبَنَاتُ
 وَلَهُمُ الْبُتُونُ ﴿١٤٨﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْسَانًا وَهُمْ
 شَاهِدُونَ ﴿١٤٩﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ أَفْكَهَمَ يَقُولُونَ ﴿١٥٠﴾ وَلَدَّ
 اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥١﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتُ عَلَى الْبَشَرِ ﴿١٥٢﴾

سَائِلَهَا وَأَمْلَكَهَا عَلَيْهَا جَكَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ تَمُودُ حَتَّى هَمِدُوا
 وَخَعِدُوا.

﴿وَلَا تَكُنْ لَّهُمْ شَافِعَةً﴾ أي: على ديار قوم لوط، ﴿مُصْبِحِينَ﴾
 وبأليل أي: في هذه الأوقات، يكثر ترددكم إليها ومروركم
 بها، فلم تقبل الشك والعمية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الآيات والعبير،
 وتزجرون عما يوجب الهلاك؟

(١٢٩-١٢٨) ﴿وَإِنْ يُوَسَّسْ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة.
 وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما
 أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى
 الله.

وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنوية، أنجاه منها،
 بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إِذْ أَتَىٰ﴾ أي: من ربه
 مغاضبا له ظاناً أنه لا يقدر عليه، ويجسه في بطن الحوت، ولم
 يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم
 فائدته بذكره، وإنما فائدته بما ذكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه
 الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه
 الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه.

﴿وَرَكَعًا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ
 أي: أبقي عليهما ثناء حسنا، وتحية في الآخرين، ومن باب
 أولى وأحرى في الأولين ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إِنْهَامُنْ
 عِبَادَتَا الْمُتَوَكِّلِينَ.

(١٢٣-١٢٢) ﴿وَإِنْ يَلِاسَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا
 تَتَّقُونَ ﴿الَّذِينَ بَلَغُوا نَبَأَهُمْ وَكَذَّبُوا عَنْهُمْ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ اللَّهُ وَرَبُّ
 مَا تَلْبِسُكُمْ الْوَلُوكَ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلَصِينَ ﴿وَرَكَعًا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ كَذَلِكَ
 تَجْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿إِنَّهُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يمدح تعالى عبده
 ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة
 والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده،
 ونهاهم عن عبادتهم صنما لهم يقال له «بعل» وتركهم عبادة
 الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن
 تربيتهم، وأدر عليهم النعم الظاهرة والباطنة.

وانكم كيف تركتم عبادة الله من هذا شأنه، إلى عبادة صنم
 لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا
 يتكلم!! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغف!!
 ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه فلم يقادوا له، قال الله متوعدا
 لهم: ﴿فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة في العذاب، ولم
 يذكر لهم عقوبة دنوية.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصهم الله، ومن
 عليهم باتباع نبيهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما
 لهم من الله جزيل الثواب.

﴿وَرَكَعًا عَلَيْهِ﴾ أي: على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ ثناء حسنا.
 ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ كَذَلِكَ تَجْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: تحية من الله ومن عباده عليه.
 ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إِنَّهُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ فَأَثْنَى
 الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم
 أجمعين.

(١٣٣-١٣٨) ﴿وَإِنْ لَوْ كُنَّا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ تَخَيَّرْتُهَا أَهْلَهُ
 أَجْمَعِينَ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿وَلَا تَكُنْ لَّهُمْ
 شَافِعَةً﴾ وَمُصْبِحِينَ ﴿وَإِلَّا لَآ أَفْلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهذا ثناء منه تعالى على
 عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة ودعوته إلى الله قومه،
 ونهيه عن الشرك وفعل الفاحشة.

فلما لم يتهووا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً
 فنجاوا.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾ أي: الباقيين المعذبين، وهي زوجة
 لوط لم تكن على دينه.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ بأن قلنا عليهم ديارهم ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا

ضيضى وقول جائر، من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أربدا القسمين وأحسهما له وهو البنات التي لا يرضونهن لأنفسهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَيَجْعَلُونَ يَهُودَ الَّذِينَ سَخَنُوا لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم بذلك، قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ خلقهم؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم ما شهدوا خلقهم.

فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: كذبهم الواضح ﴿يَقُولُونَ﴾ ○ ولقد الله وإلهم لكذبون.

﴿أَصْطَلَى﴾ أي: اختار ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ○ ما لك كذب تتكبرون هذا الحكم الجائر ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتميزون هذا القول الباطل الجائر، فإنكم لو تذكرتم، لم تقولوا هذا القول.

﴿لَمْ تَكُنْ لَكُمْ آيَاتٌ﴾ أي: حجة ظاهرة على قولكم، من كتاب، أو رسول.

وكل هذا غير واقع، ولهذا قال: ﴿فَأَنذَرْتُ بِكُمْ يُكْذِبُ وَإِنْ كُنْتُمْ مَعِدِينَ﴾ فإن من يقول قولاً، لا يقيم عليه حجة شرعية، فإنه كاذب متعمد، أو قائل على الله، بلا علم.

(١٥٨-١٦٠) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبْأً وَلَقَدْ جَعَلْنَا مِنْهُمْ لِقَاءَ إِسْحَارٍ ○ شَبَحْنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ○ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نسباً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سروات الجن. والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله، [ليجازيهم] عباداً أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا^(١) كذلك.

﴿شَبَحْنَ اللَّهُ﴾ الملك العظيم، الكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشرهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنه لم يزه نفسه عما وصفوه به، لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين. (١٦١-١٦٣) ﴿وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يَدْعُونَ مِمَّا شَاءَ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ ○ إِلَّا مَنْ هُوَ سَائِلٌ الْجَنَّةَ﴾ أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع

الله، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحداً إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء الإلهي. والمقصود من هذا بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

فلما أبى لجأ ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكانهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فافترعوا على أن من قرع وغلب، ألقى في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

فلما [افترعوا] أصابت القرعة يونس ﴿فَكَانَ مِنَ الْمَخْذُولِينَ﴾ أي: المغلولين، فألقى في البحر ﴿وَالْفُلُكُ الْمَوْثُورُ﴾ وقت التقامه ﴿يُطْبِقُ﴾ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿فَقَالُوا أَتُمْ كَانُمْ مِنَ الْمَسْخُورِينَ﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿لَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِنْ يَرَوْهُ يُعَذِّبُونَ﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد.

﴿فَبَدَّلَ اللَّهُ عَذْرًا ○ بَأَن قَذَفَ الْحَوْتَ مِنْ بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال ﴿وَعُوْثُ يَنْفِي﴾ أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة.

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ نظله بظله الظليل، لأنها بادرة بادرة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

ثم لطف به لطفًا آخر، وأمر أن عليه منة عظيمة، وهو أنه أرسله ﴿إِلَى يَاقُوتِ آلِ يُسُفَ﴾ من الناس ﴿أَوْ يَرْيُوسَ﴾ عنها. والمعنى أنهم إن ما زادوا لم يقصروا، فدعاهم إلى الله تعالى.

﴿فَقَالُوا﴾ فصاروا من موازينه، لأنه الداعي لهم ﴿فَتَنَتْنُمُ إِلَى يَمِينٍ﴾ بأن صرف الله عنهم العذاب، بعدما انتقدت أسبابه. قال تعالى: ﴿فَقَالُوا كَانَتْ قَرْيَةٌ كَانَتْ فَتَنَةً لِمَنْ هُمْ إِلَى قَوْمِ يُوسُفَ لَمَّا كَانُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْيُوسُفَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعَنَّا إِلَى يَمِينٍ﴾.

(١٤٩-١٥٧) ﴿فَأَسْتَفْتِنُهُمُ الْآيَةَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهُمُ الْبَشُوتِ ○ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ○ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ يَقُولُونَ ○ وَلَقَدْ جَعَلْنَا لَكِذِبُونَ ○ أَصْطَلَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ○ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ○ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ○ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ آيَاتٌ شَيْئاً ○ فَأَنذَرْتُ بِكُمْ يُكْذِبُ وَإِنْ كُنْتُمْ مَعِدِينَ﴾ يقول تعالى لنبه عليه: ﴿فَأَسْتَفْتِنُهُمُ﴾ أي: أسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله ﴿إِلَى الْآيَةِ الْبَيِّنَاتِ وَأَهُمُ الْبَشُوتِ﴾ أي: هذه قسمة

تفسير سورة ص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ۚ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَيَقْنَاهُ ۚ كَرَاهِلْكَامِينَ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرِينٍ فَادَّوُلَاتٍ حِينَ مَنَاسٍ ۚ وَحُجُبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۚ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَّابٌ ۚ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا هَذَا لَشَيْءٍ عُجَابٌ ۚ وَانطَلَقَ الْآلِهَةُ عَلَى الْهَيْكَلِ إِلَى هَذَا لَشَيْءٍ يُرَادُ ۚ مَا تَجِبْنَا بِكَ فِي الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَنْتِلَقُ ۚ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمْ يَدْعُوا عَذَابٍ ۚ أَمْ عَنْهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۚ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَنْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۚ جُنْدٌ مَا هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِكَ ۚ هَذَا بَيَانٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِحَالِ الْقُرْآنِ، وَحَالِ الْمَكِيدِينَ بِهِ مَعَهُ وَمَعَ مَنْ جَاءَ بِهِ فَقَالَ: ﴿صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ أَي: ذِي الْقَدْرِ الْعَظِيمِ وَالشَّرَفِ، الْمُذَكِّرُ لِلْعِبَادِ كُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ، بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ، وَمِنَ الْعِلْمِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمِنَ الْعِلْمِ بِأَحْكَامِ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ، فَهُوَ مُذَكِّرٌ لَهُمْ فِي أَصُولِ دِينِهِمْ وَفُرُوعِهِ.

وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم [أن] ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقّيه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه. فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم ﴿عِزُّهُ وَيَقْنَاهُ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاققة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم، ولكن ﴿لَاتٍ حِينَ مَنَاسٍ﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فَلْيَحْذَرُوا هَؤُلَاءِ أَنْ يَدْعُوا عَلَى عِزَّتِهِمْ وَشِقَاقِهِمْ، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وَيَقْبُوهَا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب، أن جاءهم منذر منهم، ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ۚ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۚ كَرَاهِلْكَامِينَ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرِينٍ فَادَّوُلَاتٍ حِينَ مَنَاسٍ ۚ وَحُجُبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۚ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَّابٌ ۚ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا هَذَا لَشَيْءٍ عُجَابٌ ۚ وَانطَلَقَ الْآلِهَةُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبُرُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ كَرَاهِلْكَامِينَ هَذَا لَشَيْءٍ يُرَادُ ۚ مَا تَجِبْنَا بِكَ فِي الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَنْتِلَقُ ۚ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمْ يَدْعُوا عَذَابٍ ۚ أَمْ عَنْهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۚ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَنْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۚ جُنْدٌ مَا هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِكَ ۚ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ۚ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ۚ وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْسَىٰ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۚ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ۚ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْلَهَا مِنْ فُوقِهَا ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قُلُوبَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۚ

عليهم، وتمام الانتقاده.

ولكنهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار، وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هَذَا سَجَرٌ كَذَّابٌ﴾.

وذنبه - عندهم - أنه ﴿جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي جاء به ﴿لَشَيْءٍ عُجَابٌ﴾ أي: يقضي منه العجب لبطلته وفساده.

﴿وَانطَلَقَ الْآلِهَةُ مِنْهُمْ﴾ المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك ﴿إِنْ أَمْشُوا وَأَصْبُرُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدتكم عن عبادتها صاد ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي جاء به محمد، من النهي عن عبادتها ﴿لَشَيْءٍ يُرَادُ﴾ أي: يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق، لا يرد قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده من الحجج والبراهين، وهم قصدهم أن محمداً ما دعاكم إلى ما دعاكم،

٤٥٤

أَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ الَّذِي أَنَّهُ ﴿١٧﴾
 إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَلِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرِ
 مَحْشُورَةً لَهُ ﴿١٩﴾ وَأَوَابٌ ﴿٢٠﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
 وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢١﴾ وَهَلْ أَنتَكَ نَبِيُّ الْخَصَمِ إِذْ سُورُوا
 إِلَى الْحَرَابِ ﴿٢٢﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَ
 حَصَمَانِ بَعْنِي بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
 وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً
 وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ﴿٢٤﴾ قَالَ
 لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى يَعْقُوبَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ الظَّالِمِينَ لَبَئِي
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَقِلَّ
 مَا هُمْ وَطَنٌ دَاوُدَ إِنَّمَا فَنَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
 ﴿٢٥﴾ نَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَقَابٍ
 ﴿٢٦﴾ يَتَذَكَّرُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
 بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْفُسُ إِلَى الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ نص على الأخوة في الدين
 أو النسب أو الصداقة، لاقضائها علم البغي، وأن بغيه
 الصادر منه أعظم من غيره، ﴿لَمْ يَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً﴾ أي: زوجة،
 وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله ﴿وَلِي نَجْمَةٌ
 وَاحِدَةٌ﴾ قطع فيها ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: دعها لي، وخلها في
 كفالي ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ﴾ أي: غلبني في القول، فلم يزل بي
 حتى أدركها أو كاد.

فقال داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق
 السابق من كلامهما، أن هذا هو الواقع، فلهاذا لم يحتج أن
 يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: ﴿لَمْ حُكْم
 دَاوُدَ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ الْخَصَمِ الْآخَرِ؟﴾ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ
 نَجْمِكَ إِلَى يَعْقُوبَ﴾ وهذه عادة الخلفاء والقراء الكثير منهم.

فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ الظَّالِمِينَ لَبَئِي بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لأن الظلم
 من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن ما معهم
 من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم ﴿وَقِيلَ مَا هُمْ﴾

التضرع والدعاء، رجاء إليه عندما يقع منه بعض الخلل،
 بالإقلاع والتوبة النصوح.

ومن شدة إنيابته لربه وعبادته، أن سخر الله الجبال معه،
 تسبح معه بحمد ربها ﴿وَالْعَلِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أول النهار وآخره.

﴿و﴾ سخر ﴿الطَّيْرِ مَحْشُورَةً﴾ معه مجموعة، ﴿كُلٌّ﴾ من
 الجبال والطير لله تعالى ﴿أَوَابٌ﴾ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَجِئُكَ
 أَوْبَى مَعَ وَالطَّيْرِ﴾ فهذه منه الله عليه بالعبادة.

ثم ذكر مته عليه بالملك العظيم فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾
 أي: قويتها بما أعطينا من الأسباب، وكثرة العُدَّة والعُدَّة التي
 بها قوى الله ملكه.

ثم ذكر مته عليه بالعلم فقال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي:
 النبوة والعلوم العظيم ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ أي: الخصومات بين
 الناس.

(٢٦-٢٧) ﴿وَمَلَّ أَنتَكَ نَبِيُّ الْخَصَمِ إِذْ سُورُوا إِلَى الْحَرَابِ﴾
 دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَ حَصَمَانِ بَعْنِي بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ
 فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ
 يَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ
 قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى يَعْقُوبَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ الظَّالِمِينَ لَبَئِي بِبَعْضِهِمْ
 عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقِيلَ مَا هُمْ وَقُلْ دَاوُدَ إِنَّمَا
 فَنَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٥﴾ نَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا
 لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَقَابٍ ﴿٢٦﴾ يَتَذَكَّرُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ
 النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ عَنْ
 سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْفُسُ إِلَى الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ لما ذكر تعالى
 أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً
 بذلك مقصوداً، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية
 جعلها الله فتنه لداود، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله
 عليه، وغفر له، وقبض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد ﷺ:
 ﴿وَمَلَّ أَنتَكَ نَبِيُّ الْخَصَمِ﴾ فإنه نبأ عجب ﴿إِذْ سُورُوا﴾ على داود
 ﴿إِلَى الْحَرَابِ﴾ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم
 يدخلوا عليه مع باب.

فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة فرغ منهم وخاف،
 فقالوا له: نحن ﴿حَصَمَانِ﴾ فلا تخف ﴿بَعْنِي بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ﴾
 بالظلم ﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ولا تمل مع أحدا
 ﴿وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

والمقصود من هذا، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما
 الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك فسيقضان^(١) عليه
 نبأهما بالحق، فلم يشمت نبي الله داود من وعظهما له، ولم
 يؤنبهما.

(١) في النسختين: فسيقضون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٥

سُورَةُ ص

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا وَلَئِنْ كُنَّا إِلَّا كَفَرًا
 قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ﴿٣٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
 ﴿٣٨﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ لَيَذَرُونَا إِنَّهُمْ لَيَكْفُرُوا وَلَئِنْ
 أَلَّيْنَا ﴿٣٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ
 ﴿٤٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّفْنَنُ الْجَادُ ﴿٤١﴾ فَقَالَ إِنِّي
 أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٤٢﴾
 رَدُّوهُمَا فَطُفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
 سُلَيْمَانَ وَآلِيَهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
 لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِي أَحَدٌ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٤٥﴾
 فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رَمَاحًا حَيْثُ أَصَابَ ﴿٤٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ
 كُلَّ بَنَاءٍ وَعِزٍّ وَوَاسٍ ﴿٤٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٨﴾ هَذَا
 عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ وَأَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَحْشًا
 مَنَاقِبَ ﴿٥٠﴾ وَآذَرَ عَبْدَنَا الْيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أِنِّي مَسْنِي السَّيْلِ وَلَنْ
 يَجِدُنِي إِلَّا الْكَرْهَ فَجَاءَكَ هَذَا مُبْتَلًى بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٥١﴾

بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهدم بهدهام السالكون ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتُهُ﴾.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهم، يجاوبونه إذا رجع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأبنائه وأصفياه، عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنة إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لدواد وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويباردهم بلفظه.

الخير» وضمن «أحببت» معنى «أثرت» أي: أثرت حب الخير، الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد: الخيل «عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ».

«رَدُّوهُمَا عَلَى» فردوها «فَطُفِقَ» فيها «مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ» أي جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

«وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ» أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه، بسبب خلل اقتضت الطبيعة البشرية «وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا» أي: شيطاناً قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان «ثُمَّ أَنَابَ» سليمان إلى الله تعالى وتاب.

«قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِي بَعْدِي» إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاة وأوثقه.

وقلنا له: «هَذَا عَطَاؤُنَا» فَقَرَّ بِهِ عَيْنًا «فَاسْتَنْ» على مَنْ شئت «أَوْ أَتَمَّ» مَنْ شئت «بِغَيْرِ حِسَابٍ» أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه.

ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: «وَلَوْ كُنَّا عَنْكَ لَكُنَّا وَكُنَّا» مَنَاقِبَ» أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله..

فصل

فيما تبين لنا من القوائد والحكم في قصة داود

وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار مَنْ قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإثابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا - في هذا الموضع - لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه، وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود، فيستلي به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخوائص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن من الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده، أن يهب له ولدا صالحا، فإن كان عالما، كان نوراً على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿يَعْمُ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبده، أن يمنَّ عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يشي عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشغوم مذموم، فليُتَارَفْهُ وَلْيُقْبَلْ عَلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ.

ومنها: القاعدة المشهورة «مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ، عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ».

فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديمًا لمحبة الله، فعوضه الله خيرًا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غلواها شهر ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها آدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام كان ملكًا نبيا، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل.

(٤١-٤٤) ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا عَبْدَ اللَّهِ الْقَبِيلَ إِذْ دَاوُدُ رَبُّهُ أَتَى مَسْجِدَ الشَّيْطَانِ يُشْفِي وَعَدَّابٌ ۝ لَكُنْزُكَ بِرِجْلِكَ هَذَا مُنْشَلٌ بَايَدٍ وَتَرَكْتَ ۝ وَجَعَلْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَهَلَّهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ۝ وَعَدَّ يَدَيْكَ ضِعْفًا فَاشْرِبْ بِرٍّ وَلَا تَحْتِ إِذَا وَجَدْتَهُ صَارًا يَمُومُ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ أَي: ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا

ومنها: أن داود عليه السلام، [كان] في أغلب أحواله لازماً محراباً لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه، لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود، في حالة غير معتادة، ومن غير الباب المعمود، فزرع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه غير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما ولا ويخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أَنْتَ ظَلَمْتَنِي» أو «يَا ظَالِمُ» ونحو ذلك أو «بَاغَ عَلَيَّ» لقولهما: ﴿حَسْبَانِ يَكُنْ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه لا يغضب ولا يشتم، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشتم، ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما، منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزير على الكريم الغفار.

على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن، لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغي بصاحبه بدلًا، ولا عنه عوضًا ﴿الرَّابُّ﴾ أي: على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه والده.

﴿هَذَا مَا نُوعِدُكُمْ﴾ أيها المتقون ﴿لِيُزِيلَ الْحَسَابَ﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة.

﴿إِنَّ هَذَا لَرُزْقًا﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿مَا لَكُمْ مِنْ نَّارٍ﴾ أي: انقطاع، بل هو دائم مستمر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآتات.

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم، الرؤوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم المتواتر، الذي لا تحصى نعمه، ولا يحاط ببعضه به.

(٥٥-٦٤) ﴿هَذَا وَرَأَيْتَ لِلظَّالِمِينَ لَئْسَ مَتَابٌ بِهِمْ يَصَلُّونَهَا فَيَقْسُ إِلَهَادٌ ۝ هَذَا فَلْيَذُوقُوا حَيْثُ وَصَّافٌ ۝ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ۝ هَذَا قَبْجٌ مُقْتَنَجٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا يَوْمَ إِلَهُمْ صَلَواتُ الْكَارِ ۝ قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرَجًا يَكُونُ أَشْرُ قَدْ مَشَوْهُ لَنَا فَيَقْسُ الْقَرَارُ ۝ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۝ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْكَارِ ۝ أَفَعَذَّبْتَهُمْ بِخَيْرٍ أَمْ رَأَيْتَ عَنَّهُمُ الْأُنثَرُ ۝ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ﴾ ﴿هَذَا﴾ الجزاء للمستقين ما وصفناه ﴿وَرَأَيْتَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لَئْسَ مَتَابٌ﴾ أي: لشر مرجع ومقلب.

ثم فصله فقال: ﴿بِهِمْ﴾ التي جمع فيها كل عذاب واشتد حرها، وانتهى قرها ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ أي: يعذبون فيها عذابًا يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل.

﴿فَيَقْسُ إِلَهَادٌ﴾ المعد لهم مسكنًا ومستقرًا ﴿هَذَا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد، والخزي، والفضيحة، والنكال ﴿فَلْيَذُوقُوا حَيْثُ﴾ ماء حار قد اشتد حره، يشربونه فيقطع أمعاءهم ﴿وَصَّافٌ﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قبح وصديد، مر المذاق، كربه الرائحة.

﴿وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ﴾ أي: من نوعه ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أي: عدة أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها ويخزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتد بعضهم بعضًا، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَذَا قَبْجٌ مُقْتَنَجٌ مَعَكُمْ﴾ النار ﴿لَا مَرَجًا يَوْمَ إِلَهُمْ صَلَواتُ الْكَارِ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرَجًا يَكُونُ أَشْرُ قَدْ مَشَوْهُ﴾ أي: العذاب ﴿لَنَا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنكم

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٢﴾ وَخَذِينَا مِنْكُمْ ضِعْفًا فَأَنْتَبِرُ بِهِمْ وَلَا تَحْنُثُ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٣﴾ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿١٤﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَا آدَامَ ﴿١٥﴾ وَإِنَّمُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴿١٦﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٧﴾ هَذَا ذِكْرُ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَتَابٍ ﴿١٨﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ مَفْتُحَةٌ لَهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿١٩﴾ مُتَنَكِّبِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَكَهْمَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَّابٍ ﴿٢٠﴾ وَعِنْدَ كُلِّ مَفْصَلٍ طَبَرٌ لِرَبِّكَ ﴿٢١﴾ هَذَا مَا نُوعِدُكُمْ لِيُزِيلَ الْحَسَابَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا لَرُزْقًا مَالَهُ مِنْ تَفَافٍ ﴿٢٣﴾ هَذَا وَرَأَيْتَ لِلظَّالِمِينَ لَئْسَ مَتَابٌ بِهِمْ يَصَلُّونَهَا فَيَقْسُ إِلَهَادٌ ۝ هَذَا فَلْيَذُوقُوا حَيْثُ وَصَّافٌ ۝ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ۝ هَذَا قَبْجٌ مُقْتَنَجٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا يَوْمَ إِلَهُمْ صَلَواتُ الْكَارِ ۝ قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرَجًا يَكُونُ أَشْرُ قَدْ مَشَوْهُ لَنَا فَيَقْسُ الْقَرَارُ ۝ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۝ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْكَارِ ۝ أَفَعَذَّبْتَهُمْ بِخَيْرٍ أَمْ رَأَيْتَ عَنَّهُمُ الْأُنْثَرُ ۝ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ ﴿٢٤﴾

وإضلالكم وتبكيكم ﴿فَيَقْسُ الْقَرَارُ﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المغوين لهم، ف: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْكَارِ﴾ أي: كنا نزعهم أنهم من الأشعار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون فتقدمهم أهل النار - تبجحهم الله - هل يرونهم في النار؟

﴿أَفَعَذَّبْتَهُمْ بِخَيْرٍ أَمْ رَأَيْتَ عَنَّهُمُ الْأُنْثَرُ﴾ أي: عدم رؤيتنا لهم دائرين أميرين:

إما أننا غاطلون في عدنا إياهم من الأشعار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُقَالُ مِنْ عِبَادِي بِقَوْلِكَ رَبَّنَا آمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاعْتَذَرُوا بِخَيْرٍ حَتَّى أَتَوْكَ مُتَعَبِينَ وَكُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاعت أبصارنا عن رؤيتهم معنا

فلما علم أنه مُنْظَر، بادى ربه من خبثه بشدة العداوة لربه
وآدم وذريته فقال: ﴿فَبِعَذْرَاكَ أَتَىٰ يَٰأَدَمُ أَتَىٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن الباء
للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليعزيتهم كلهم أجمعين.
﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصُونَ﴾ علم أن الله سيحفظهم من
كيد.

ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل
وجه، وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، استعان بعزة
الله على إغواء ذرية آدم، هذا وهو عدو الله حقاً.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل
نعمة، ذرية من شرفته وكرمه، فنستعين بعزتك العظيمة
وقدرتك ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي
أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية،
وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربتة
 وعداوتة، والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن
تجيب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ
ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما
وعدتنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ آلِيَّامًا﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿تَلَقَّوْا نَذْرِي﴾ أي: الحق وصفي،
والحق قولِي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَخْلَعُ مِنْهُمُ أَجْمَعِينَ﴾ فلما بين
الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له: .

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على دعائي إياكم ﴿بِشَيْءٍ وَمَا
أَنَا مِنَ السَّالِكِينَ﴾ ادعي أمراً ليس لي وأقفو ما ليس لي به علم،
لا أتبع إلا ما يوحى إلي.

﴿إِنَّ هُوَ﴾ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا نَذْرٌ لِّلْمَلَكِينَ﴾
يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون
شرفاً ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ
العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذب بالقرآن
وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله
المخلصين، وجزاء المتقين والطاغيين، فهذا أقسم في أولها
بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادًا﴾ -
﴿وَأَذْكُرْ عِبَادًا﴾ - ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَكَفْرًا﴾ - ﴿هَذَا وَكَذَلِكَ﴾.

اللهم علمتنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة
ونسيان ترك.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وذلك حين يقع
عليهم العذاب وتتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنه تعالى وعونه.

وجهاها من غير زيادة ولا نقص أكبر شاهد لصديقي، وأدلى دليل
على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنَّ عِلْمٍ إِلَّا
أَنذَرْتُ﴾ أي: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لولا تعليم الله إياي،
وليحاوئني إلي، ولهذا قال: ﴿إِن يَوْحَىٰ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِنَّا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾
أي: ظاهر النذارة جليها، فلا نذير أبلى من نذارته.

ثم ذكر اختصاص الملائكة الأعلى فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ
اعْبُدُوا إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ أي: مادته من طين
﴿فَنَفَّاسًا مِنَّ سُوءٍ﴾ أي: سويت جسمه وتمم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا
لَهُمُ سَجِدِينَ﴾ فوطئ الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم
خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربه وإكراماً لآدم عليه السلام،
فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنحى الله آدم والملائكة في
العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود.

فسجدوا ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد ﴿اسْتَكَبَرَ﴾
عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في علم
الله تعالى.

﴿قَالَ﴾ الله موبخاً ومعاتباً: ﴿مَا تَنَكَّرَ أَن سَجَدَ لِمَا خَلَقْتُ
يَدَكُ﴾ أي: شرفته وكرمه واختصته بهذه الخصيصة التي
اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه
﴿اسْتَكَبَرَ﴾ في امتناعك ﴿أَلَمْ كُنْ مِنَ الدَّالِّينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِكَ مِن
نَّارٍ وَخَلَقْتَنِي مِن طِينٍ﴾ وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر
الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر
والفساد، والعلو والطيش والخفة، وعنصر الطين مادة الرزاة
والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب
النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم
بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم الذي عارض به الأمر الشفاهي
من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ
الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً
وفساداً من هذا القياس.

﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء والمحل
الكريم ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مبعد مدحور.

﴿وَلَوْ أَنَّكَ لَكُنْتَ﴾ أي: طردي وإبعادي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾
أي: دائماً أبداً.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لشدة عداوته لآدم
وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ○ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ حين تستكمل
الذرية، يتم الامتحان.

ورجائه، وللإجابة إليه في عبوديته، والإجابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُسْقٍ للمنفوس غاية السقاء.

فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص نهى عن الشرك به،
وأخبر بدم من أشرك به فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
أَوْثَانًا﴾ أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، [معترزين] عن
أنفسهم وقائلين: ﴿تَعْبُدُونَهُمْ إِنْ يَرْزُقُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي:
لترفع حوائجنا لله وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها لا
تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئاً.

أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص وتجرأوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثل شيء، الملك العظيم بالملوك، وزعموا - بعقولهم الفاسدة، ورأيهم السقيم - أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشغعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويسهون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الآيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم عقلاً ونقلاً وفطرة، فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج مَنْ يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج مَنْ يعطفهم عليه [ويسترحمه لهم] ^(١٢) ويحتاجون إلى الشعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقتضون حوائج مَنْ توسطوا لهم مراعاة لهم، ومداواة لخواطرمهم، وهم أيضاً فقراء، قد يمتنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج مَنْ يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم والديهم، وهو الذي يحتمل ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم.

وهو الغني الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلًّا (١) في: أ: متعدين. (٢) كذا في النسختين، ولعل الصواب (ويسترهمهم) (٤).

تفسير سورة الزمر

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ بِاللَّيْلِ وَالْكَتَبِ بِالْحَقِّ فَاغْلُظْ إِلَيْهِ غِلَظًا ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيمُ الْقَابُضُ الْبَاسُ ۝ أُولَئِكَ مَتَّعْنَاهُمْ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُعْبَدُوا بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِيلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يَكْذِبُ عَنْ قَوْمِهِ بِخَبْرٍ أَعْلَمُ ۝﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالة مَنْ تَكَلَّمَ به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أي الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي فخر بها كل مخلوق وذلك له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل من هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه، لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن، دال على مرتبته. ولكنه - مع هذا - زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مزية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملاً على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة.

فكل ما دلَّ عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولما كان نازلاً من الحق، مشتتلاً على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلّت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة، والشرائع الباطنة: الإسلام، والإيمان، والإحسان - بأن تفرّد الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

﴿أَلَيْسَ الْخَالِصُ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، ويبان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكَذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ يُخَلِّفُكُمْ فِي بَطُونِ أَهْتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآيَ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَى عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمِنْ هُوَ قُنَيْتٌ ءَانَاءَ النَّيْلِ سَاجِدًا وَقَايِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَتَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَ الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَعْبَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسَهُمْ وَالَّذِينَ آخَسُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَارْضَ اللَّهُ بِسَعَةِ إِيمَانِهِمْ فِي الصَّيْرِ وَنَاجَرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

وتوحيدهم، كذلك كل أحد منكم له عمله من خير وشر ﴿وَلَا يُزِرُّ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ﴾ في يوم القيامة ﴿يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إخباراً أحاط به علمه، وجرى عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلًا منكم بما يستحقه.

﴿يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بنفس الصدور، وما فيها من وصف برٍّ أو فجور، والمقصود من هذا الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

(٨) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضر من مرض أو فقر أو وقوع في كربة بحرٍّ أو غيره، أنه يعلم أنه لا ينجي في هذا الحال إلا الله، فيدعوه متضرعاً منياً، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلج في ذلك.

﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ﴾ الله ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة ﴿ثُمَّ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: نسي ذلك الضر

العظيمة، وسخرها تجري بأمره ﴿الْفَقْرُ﴾ لذنوب عباده التوايين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَفُتُوا بِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَوْا﴾ الغفار لمن أشرك به بعدما رأى من آياته العظيمة، ثم تاب وأناب.

ومن عزته أن ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ على كثرتكم وانتشاركم، في أنحاء الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: خلقها بقدر نازل منه، رحمة بكم ﴿ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ مِثْرَ الْمَكَايِ أَتَيْنَا وَمِثْرَ الْمَعَزِ أَتَيْنَا﴾ ﴿وَمِثْرَ الْإِبِلِ أَتَيْنَا وَمِثْرَ الْبَكْرِ أَتَيْنَا﴾.

وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها وعموم مصالحها ولشرفها ولاختصاصها بأشباه لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.

ولما ذكر خلق أينا وأما، ذكر ابتداء خلقنا فقال: ﴿يُخَلِّفُكُمْ فِي بَطُونِ أَهْتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: طورا بعد طور، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسكم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الماله المعبود، الذي رباكم وديركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له.

ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآيَ تُصْرَفُونَ﴾.

بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئا، وليس لها من الأمر شيء: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَى عَنْكُمْ﴾ لا يضره كفركم كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لكمال إحسانه بهم، وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله.

﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ الله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له ﴿يَرْزُقْكُمْ لَكُمْ﴾ لرحمته بكم، ومحبه للإحسان عليكم، ولتفعلكم ما خلقكم لأجله. وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم

في هَذِهِ الدُّنْيَا» بعبادة ربهم، لهم ﴿حَسَنَةً﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً نَّجِيَّةً﴾. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ إذا منعمت من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم وتتمكنون من إقامة دينكم.

ولما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع، وهو أن النص عام، أنه كل مَنْ أَحْسَنَ، فله في الدنيا حسنة، فما بال مَنْ آمَنَ في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك؛ دفع هذا الظنُّ بقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم مَنْ خذلهم ولا مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك». تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى، أخبر أن أرضه واسعة. فمهما مُنِعَ من عبادته في موضع، فهاجروا إلى غيرها. وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إِنَّمَا يَوْفَى الْوَعْدَ الْأَكْبَرُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر:

الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يستخطها والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحلّه عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

(١٦-١٧) ﴿قُلْ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مَحْضًا لَهُ الْإِيمَانُ﴾ وَأُبَيِّرُ لِأَنَّ أَكُونَ أَوَّلَ السَّائِلِينَ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مَحْضًا لَمْ يَدِينْ ﴿فَاعْبُدُوهُ مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنِّي لَمَكِّيَّةٌ عَلَى الْإِيمَانِ خَيْرًا أَنفُسَهُمْ وَأَقْلَبُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِلَهُكَ هُوَ الْحَسْبُ الْكُلُّ﴾ هُمْ تَنْ وَفَّقَهُمْ كُلُّ مَنَ الْوَسْطَى وَمِنْ تَحْتِهِمْ كُلُّ ذِكِّ يُحَوِّقُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَكِينًا وَتَأْتِيهِمْ آي: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لِلنَّاسِ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مَحْضًا لَهُ الْإِيمَانُ﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فَاعْبُدْهُ مَحْضًا لَهُ الْإِيمَانُ﴾.

﴿وَأُبَيِّرُ لِأَنَّ أَكُونَ أَوَّلَ السَّائِلِينَ﴾ لأنني الداعي الهادي للمخلوق إلى ربهم، فيقتضي أنني أول مَنْ اتَّصَرَ بما أمر به، وأول مَنْ أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، ومن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

الذي دعا الله لأجله، ومم كان ما أصابه ضرر، واستمر على شركه.

﴿وَيَعْمَلُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتٍ لِّتَعْلَمُوا أَنَّ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ليضل بنفسه ويضل غيره؛ لأن الإضلال فرع عن الضلال، فأني بالملزوم ليدل على اللازم.

﴿قُلْ﴾ لهذا العاني، الذي بذل نعمة الله كفرًا: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فلا غنيك ما تمتع به إذا كان المال النار ﴿أَفَمَتَّعْتُ بِإِنْ تَمَتَّعْتُمْ هُنَا لَوْلَا تَمَتَّعْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ مَا أَفَتَّعْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ.

(٩) ﴿أَمَّا هُوَ فَيَقْبُذُهُ فَنَالَهُ آلَتُهُ سَلِيمًا﴾ وَقَالِمَا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَرَبُّهُ رَحِمَةً رَبُّهُ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُّونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تبيينها، وعلم علما يقينا تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتع لهواه كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات، وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُّونَ﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي، ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئا من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إذا ذُكِّرُوا ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته؛ لأن لهم عقولا ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف مَنْ لَا لُبَّ لَهُ وَلَا عقل، فإنه يتخذ إليه هواء.

(١٠) ﴿قُلْ يَكِينُكَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ إِنَّمَا يَوْفَى الْوَعْدَ الْأَكْبَرُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: قل مناديا لأشرف المخلوق، وهم المؤمنون، أمرا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما مَنْ الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى. كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأيها الشجاع قاتل.

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى.

﴿قُلْ اللَّهُ أَغْنِيكُمْ عَنْ دُونِي﴾ فاعبدوا ما ينقذ من دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ تَتَّبِعُوا الصَّوَابَ ۖ لَا أَغْنِيكُمْ عَنْ مَتَدُونٍ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَائِدُونَ ۚ مَا أَغْنِيكُمْ عَنْ مَتَدُونٍ ۚ وَلَا أَنَا عَائِدٌ مَّا عَيْدُكُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَائِدُونَ ۚ لَكُمْ رَيْبٌ وَلِي يَمِينٌ ۚ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي لِلْمُتَّقِينَ﴾ حقيقة هم ﴿الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث حرموها الثواب، واستحقت بسببهم وعيم العقاب ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْيَوْمَةِ﴾ أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْأَبَدِيُّ﴾ الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَجَاءُ قَائِلُونَ﴾ أي: جعل ما أعهده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب. فسبحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغّب تشاقق له النفوس، وتطمئن له القلوب. وحذرهم من العمل لغيره^(١) غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

(١٨، ١٧) ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظُّلُمَاتِ أَنْ يَبْسُطُوا وُجُوهَهُمْ إِلَى اللَّهِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْبَشَرِ ۖ فَيَتَّبِعُهُ عِبَادُ اللَّهِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ لما ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظُّلُمَاتِ أَنْ يَبْسُطُوا وُجُوهَهُمْ﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع عبادة غير الله، فاجتنبوا في عبادتها، وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم؛ لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وَأَنبَأُوا إِلَى اللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلّام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلّا من أكرمهم بها وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿قُلْ اللَّهُ أَغْنِيكُمْ عَنْ دُونِي﴾ فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴿قُلْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْيَوْمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظُّلُمَاتِ أَنْ يَبْسُطُوا وُجُوهَهُمْ إِلَى اللَّهِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْبَشَرِ ۖ فَيَتَّبِعُهُ عِبَادُ اللَّهِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتُمْ تُنْفِكُونَ فِي النَّارِ﴾ ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَقْرَبُوا مِنْهُمْ هُمْ عَرُوفٌ مِنْ قَوْمٍ عَرَفُوا مَبْنِئَةَ الْجَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

يرون في خلالاته أنه يريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يشرهم به الرب الكريم من دوام رضوانه وبه وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشرى أمره الله بشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فَيَتَّبِعُهُ عِبَادُ اللَّهِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول ليعبوا بين ما ينبغي إشارته مما ينبغي اجتنابه، فلهذا - من حزمهم وعقلهم - أنهم يتبعون أحسنه. وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله كما قال في هذه السورة: ﴿اللَّهُ رَكَّبَ أَحْسَنَ لِكَلِمَةٍ كِتَابًا مُنْتَهَى﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه، حتى تنصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟

(١) كذا في ب، وفي أ: وحذرهم من المعالة.

وقيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه: ﴿اللَّهُ زَكَّىٰ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ الآية.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: العقول الزاكية. ومن لبهم وحزمهم أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إثارة على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال حسنها وقيبحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعا لشهوته، فلم يؤثر الأحسن كان ناقص العقل.

(٢٠، ١٩) ﴿أَفَمَن حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَن تَتَّقِيَنَّ مِنْ فِي الْكَافِرِ ۚ لَكِنَّ الَّذِينَ أَفْلَحُوا هُمْ هَؤُلَاءِ عَرَفُوا تَبَيَّنَتْ نَجْوَىٰ مِنْ تَحْتِ الْكَفَرِ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلُقُ اللَّهُ الْيَعَادَ﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غبه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة. لكن الغنى كل الغنى والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم، ما لا يقادر قدره.

﴿هُمْ هَؤُلَاءِ عَرَفُوا﴾ أي: منازل عالية مزخرفة من حسنها وبهاثها وصفاتها، أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها [أنها] ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿يَعْرِفُهَا عَرَفٌ﴾ أي: بعضها فوق بعض ﴿تَبَيَّنَتْ﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿نَجْوَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المتدفقة، المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلُقُ اللَّهُ الْيَعَادَ﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى، ليوفيتهم أجورهم.

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبُوتٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُخْتَصِرًا ثُمَّ يُغْمِغُ الْيَعَادَ خُطْمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يذكر تعالى أولي الألباب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه بتأنيب في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعا يستخرج بسهولة ويسر ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ من برودة وشعر وأرز، وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث آفة فيه ﴿فَتَرَاهُ مُخْتَصِرًا ثُمَّ يُغْمِغُ الْيَعَادَ خُطْمًا﴾ متكسرا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده،

(١١) كذا في ب، وفي أ: أنه.

وهنا جعله كله متشابهاً، أي: في حسنه، لأنه قال: ﴿أَحْسَنَ لَعُونٍ﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً كما ذكرنا.

﴿ثَنَائِي﴾ أي: تننى فيه القصص والأحكام، والوعود والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتننى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزيكة للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بُدِّعَ عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما نالت، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقفاً، ولم تحصل النتيجة منه.

ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى، غير مراعى لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه. فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الأبواب المهتمين، فلهذا قال تعالى: ﴿تَقْسِرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج ﴿ثُمَّ تَلَيَّنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدًى اللَّهُ﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم ﴿يَهْدِي يَدَهُ﴾ أي: يسبب ذلك ﴿مَنْ يَنْكُتْ﴾ من عباده ويحتمل أن المراد بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هُدًى اللَّهُ﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿يَهْدِي مَنْ يَنْكُتْ﴾ من عباده ممن حسن قصده، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِدَ اللَّهِ مَنْ أَسَّحَ رِضْوَانُكُمْ سُبُلَ السَّلَاطِ﴾.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه. فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

(٢٤-٢٦) ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ يَوْجَهُمْ سَوَاءُ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

٤٦١

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ

لِلْقَسِيصَةِ فَلَوْهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْ لَتَلِكِ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٧﴾

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَنْشَعُرُ مِنْهُ

جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيَّنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ

يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٨﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ يَوْجَهُمْ سَوَاءُ

الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ

﴿٢٩﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَبَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٠﴾ فَاذْقَاهُمْ اللَّهُ الْغُرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ

الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي

هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ قَرَأْنَا نَارِعُونَ

غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ مُتَوَكِّلٌ

﴿٣٥﴾ ثُمَّ أُنْكِرْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكَ تَخْصِمُوتٌ ﴿٣٦﴾

لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ٠ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَبَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٠ فَاذْقَاهُمْ اللَّهُ الْغُرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٠ أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووقفه لسلك الطريق الموصلة لدار كرامته، كمَنْ كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يفتي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه؛ فهو يفتي فيه سوء العذاب، لأنه قد غَلَتْ يده ورجلاه ٠ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ٠ أنفسهم بالكفر والمعاصي توبيخاً وتقريماً: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كما كَذَّبَ هؤلاء ٠ فَانْتَبَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٠ جاءهم في غفلة، أول نهار، أو هم قائلون.

﴿فَاذْقَاهُمْ اللَّهُ﴾ بذلك العذاب ٠ الْغُرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٠ فافترضوا عند الله وعند خلقه ٠ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٠ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

(٢٧-٣١) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

إِذْ جَاءَهُمُ الْبَاسُ فِي جَهَنَّمَ مَوْتَى الْكَاذِبِينَ ۝ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝ يُكْفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَقُولُ تَعَالَى مَحْذَرًا وَمَخْبِرًا: أَنَّهُ لَا أَظْلَمَ وَأَشَدُّ ظُلْمًا ۝ يَمُنُّ كَذِبًا عَلَى اللَّهِ ۝ إِمَّا يَنْسِبُهُ إِلَى مَا لَا يُلْقِي بِجَلَالِهِ، أَوْ بِادْعَاةِ النُّبُوَّةِ، أَوْ الْإِخْبَارِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ كَذَا، أَوْ أَخْبَرَ بِكَذَا، أَوْ حَكَمَ بِكَذَا وَهُوَ كَاذِبٌ، فَبُذِلَ فِي هَذَا دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ۝ إِن كَانُ جَاهِلًا، وَإِلَّا فَهُوَ أَشْنَعُ وَأَشْنَعُ.

[وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ] ۝[١] أي: مَا أَظْلَمَ مِمَّنْ جَاءَهُ الْحَقُّ الْمُؤَيَّدُ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَذَّبَهُ، فَتَكْذِيبُهُ ظُلْمٌ عَظِيمٌ مِنْهُ لِأَنَّهُ رَدَّ الْحَقَّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُ، فَإِنْ كَانَ جَانِحًا بَيْنَ الْكَذْبِ عَلَى اللَّهِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، كَانَ ظُلْمًا عَلَى ظُلْمٍ.

﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتَى لَكَاظِبِينَ﴾ يحصل بها الاستشفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنابته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه. فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يُصَدِّقُ به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصدق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هُمْ﴾ الْمُتَّقُونَ ۝ فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصدق به.

﴿لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من الثواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيتهم، من أصناف اللذات والمشتيات، فإنه حاصل لهم، معد مهياً.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى عباد الله.

﴿يُكْفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ﴾

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجٍّ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّمَنْ شَرَكَهُ فِيهِ شُرَكَاءَ مُتَشَكِّكُونَ وَرَبًّا سَلَامًا لِّمَنْ هَلَ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِّلْحَدِّ يَوْمَ لَا تَكُونُ فِيهِ حَيَاتٌ وَلَا مَوْتٌ وَلَا يَمُوتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝ يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعملون، ويعلمون.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجٍّ﴾ أي: جعلناه قرآنًا عربيًّا، واضح الالفاظ، سهل المعاني، خصوصًا على العرب ﴿غَيْرَ ذِي عِجٍّ﴾ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في الفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ بَدَأَ الْإِنْسَانُ أَرْأَىٰ عَلَىٰ عَیْبِهِ الْكِتَابَ وَلَئِنْ لَّمْ يَرَوْا ۝ يَمِيقًا ۝﴾.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّبًّا ۝ أَي: عَبْدًا ۝ فِيهِ شُرَكَاءَ مُتَشَكِّكُونَ﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كلُّ له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿وَرَبًّا سَلَامًا لِّمَنْ هَلَ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي: خالصًا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة ﴿هَلَ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي: هذان الرجلان ﴿مَثَلًا ۝ ٢﴾ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعوا هذا، ثم يدعوا هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة.

ف ﴿هَلَ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِّلْحَدِّ يَوْمَ لَا تَكُونُ فِيهِ حَيَاتٌ وَلَا مَوْتٌ وَلَا يَمُوتُونَ ۝﴾ على تبين الحق من الباطل، وإرشاد الجاهل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۝﴾ أي: كلكم لا بد أن يموت ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلُقَ أَقْبَانَ مِنْهُمْ لِيُخْلَدُوا ۝﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل ويجازي كلًّا ما عمله ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوءًا ۝﴾.

(٣٥-٣٢) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ

الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ عمل الإنسان له ثلاث حالات: إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات، وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب. والأسوأ: المعاصي كلها، والأحسن: الطاعات كلها. فهذا التفصيل يبين معنى الآية، وأن قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بحسناتهم كلها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّدَرَّةٍ وَلَئِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٣٧، ٣٦) ﴿الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِي عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ أي: ليس من كرمه وجوده وعنايته بعبد الذي قام بعبوديته، وامتلأ أمره واجتنب نهيه، خصوصاً أحمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناواه بسوء.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد أن تاتلك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿الَّذِينَ اللَّهُ يَعْزِيزُ﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، ويعزته بكفي عبده ويدفع عنه مكرمهم ﴿وَيُؤَيِّنُ﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

(٣٨) ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضَرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لم يبنوا لأنهم من خلقها شيئاً ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الذي خلقها وحده ﴿قُلْ﴾ لهم مقررًا عجز آلهتهم، بعدما تبينت قدرة الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضَرٍّ﴾ أي: ضرر كان.

﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضَرِّهِ﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ يوصل إلي بها منفعة في ديني أو دنيائي ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ وامنانعاته عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يسكون الرحمة.

قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع، على أنه وحده المعبود،

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ مِنْ عِندِ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِي عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿الَّذِينَ اللَّهُ يَعْزِيزُ وَيُؤَيِّنُ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضَرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿عَلَى مَكَانٍ كَثُفَ لِي فِي عَمَلٍ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿٤٧﴾

وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق، والنفع والضرر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكرمهم وكيدهم: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده - وحده - الكفاية هو حسي، سيكفيني كل ما أهمني وما لا أهم به.

(٤٠، ٣٩) ﴿قُلْ يَتَقَوَّرُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يأتيه عذاب يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يَتَقَوَّرُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً، ولا له من الأمر شيء ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ على ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالى وحده ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمن العاقبة ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ في الأخرى ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا يحول عنه ولا يزول. وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

(٤١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾
 يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق، في أخباره وأوامره ونواحيه، الذي هو مادة الهداية، وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين.

﴿فَمَنِ اهْتَكَفَ﴾ بنوره واتباع أوامره إن نفع ذلك يعود إلى نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بعدما تبين له الهدى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا﴾ لا يضر الله شيئاً ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغ تودي إليهم ما أمرت به.

(٤٢) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا فِيمِنْكَ أَلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرّد بالتصرف بالعباد، في حال بقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت.

وأخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْطِرُونَ﴾ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن من سننه تعالى وحكمته، أن جعل لكل أمر من الأمور سبباً.

وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا﴾ وهذه المنة الصغرى، أي: ويمسك النفس التي لم تمت في مناسكها ﴿فِيمِنْكَ﴾ من هاتين النفسين: النفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ وهي نفس من كان مات، أو قضى أن يموت في منامه ﴿وَيُرْسِلَ﴾ النفس ﴿الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى استكمال رزقها وأجلها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها، في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع فتتحدث، فيرسل الله أرواح الأحياء ويمسك أرواح الأموات.

(٤٣، ٤٤) ﴿أَوَلَمْ نَخْلُقْ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَ كُنُوزُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعٌ﴾

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا فِيمِنْكَ أَلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ نَخْلُقْ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَ كُنُوزُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعٌ﴾ ﴿وَالَّذِي ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَانًا رَبُّ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُم مِّنْ اللَّهِ مَا لَهُم بِكَوْنُوا بَاحْتِسَابٍ﴾

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعٌ﴾ ينكر تعالى، على من اتخذ من دونه شفعاء، يتعلق بهم ويسألهم ويعيدهم ﴿قُلْ﴾ لهم - ميئاً جهلهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادات: ﴿أَوْلَوْكَ كُنُوزُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لا يملكون شيئاً ﴿أَي:﴾ من اتخذتم من الشفعاء ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا متقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به، لأنها جمادات: من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلاً؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم، وأعظمهم ظلماً؟

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿اللَّهُ اشْفَعُ جَمِيعًا﴾ لأن الأمر كله لله وكل شفيع فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه. فإذا أراد رحمة عبده، أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمة بالاثنتين. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿اللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميع ما فيها من اللوات والأفعال والصفات فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعٌ﴾ فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل: ﴿وَمَنْ أَشْرَكَ بِهِ، بِالْعَذَابِ الْوِيلِ﴾

بين عباده ويعظمهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائها، وخلقه دال على علمه ﴿أَلَمْ يَلَمْ مَنْ عَلَّمَ﴾.

(٤٨، ٤٧) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۚ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَنَآىٰ بِهِمْ مَا كَانُوا يَدَّيْنَتَرُونَ﴾ لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشانعتا، كان النفوس تشوقت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده وأفظعه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه. وأنهم - على الفرض والتقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعًا، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيتها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قبل منهم ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئًا ﴿لَوْ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۚ﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم ﴿وَنَآىٰ بِهِمْ مَا كَانُوا يَدَّيْنَتَرُونَ﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

(٤٩-٥٢) ﴿فَلَمَّا مَسَّ الْأَنْفُسُ شُرَّ دَعَائِهِمْ إِذَا حُوزُنُهُ يَمَعَهُ يَنَاقُ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ وَفَسَتْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمَّا أَتَيْنَاهُمْ هَٰذَا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰذِهِ لَوْ سَمِعْتُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمَعْجُونٍ ۝ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يسه ضر، من مرض أو شدة أو كرب ﴿دَعَا﴾ ملجأ في تفرج ما نزل به ﴿ثُمَّ إِذَا حُوزُنُهُ يَمَعَهُ يَنَاقُ﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشفته، عاد بره كافرًا، ولمعروفه منكراً، و ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: علم من الله: أنني له أهل وأنا مستحق له، لأنني كريم عليه. أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ وَفَسَتْ﴾ ينبت الله به عباده لينظر مَنْ يشكره ممن يكفره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشبه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سببًا للخير أو للشر.

قال تعالى: ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قولهم ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين لا يقرنون بنعمة

(٤٦، ٤٥) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِيرُونَ ۝ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَتَىٰ تَحَكُّمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يذكر تعالى حالة المشركين، وما الذي اقتضاه شركهم أنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ توحيدًا له، وأمر بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه، أنهم يشتمزون وينفرون، ويكروهون ذلك أشد الكراهة.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبِيرُونَ﴾ بذلك، فرحًا بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقًا لأهوائهم، وهذه الحال أشد الحالات وأشنعها، ولكن موعدهم يوم الجزاء، فهناك يؤخذ الحق منهم، وينظر: هل تفهم ألهتهم، التي كانوا يدعون من دون الله شيئًا؟

ولهذا قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومديرهما ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي نشاهده.

﴿أَتَىٰ تَحَكُّمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسواو فيك مَنْ لا يسوى شيئًا، وتنفصوك غاية التنقص، واستبشروا عند ذكر ألهتهم، واشتمزوا عند ذكرك، وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل، وأن لهم الحسنى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُسْوِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ يَتَّبِعُونَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿هَٰذَانِ حَسَنَانِ لِّخَصْمَتَيْنِ فِي رِيحٍ فَأَتَيْنَهُ كُفَرًا فَفَعَلَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهِرُ فِيهَا بِطُونُهُمْ وَيُلْجَأُونَ ۖ وَلَهُمْ مَقْعَعِمٌ مِنْ حَبِيرٍ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَالِسُونَ فِيهَا مِنْ أَكْوَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلَا رِجَالُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَرَىٰ عَمَلُهُمْ يُسْمِعُكَ أَتَىٰكَ لَهُمُ الْآثَرُ ۖ وَهُمْ يُسْمِعُونَ﴾، ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِشْرَةِ اللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ ففي هذه الآية بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده، فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال على حكمه

٤٦٤

٤٦٤

٤٦٤

وَبَدَّاهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٥٣﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا ثَمَّ إِذَا حَوْلَ كُنْهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أُوْتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلَىٰ فَتِنَّةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ فَذَقُوا آلَاءَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيَّيْبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٦﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ يَحِبِّدَائِ الَّذِينَ اسْتَفَوْا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْضُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٨﴾ وَأَسْأَلُ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا اللَّهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَسْمِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٠﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٦١﴾

رهبهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا ولم يغن عنهم ما كانوا يكسبون حين جاءهم العذاب. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ والسبب في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيَّيْبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فليسوا خيراً من أولئك ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل على حسن حال صاحبه: أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق، أي: يضيقه على من يشاء، صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

(٥٣-٥٩) ﴿قُلْ يَحِبِّدَائِ الَّذِينَ اسْتَفَوْا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْضُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَسْأَلُ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَسْمِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٠﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٦١﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٢﴾ أَوْ تَقُولَ جِبْنَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْصِينَ ﴿٦٣﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَنكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ يخبر تعالى عباده المفسرين بسعة كرمه ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربه: ﴿يَحِبِّدَائِ الَّذِينَ اسْتَفَوْا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب.

﴿لَا تَقْضُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: لا تياسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى الهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها، ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ من الشرك، والقتل،

والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان، ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مائلة للموجود، تسح يدها من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواصل في السر والجهر، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب، إن لم يأت بها العبد فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد فلهذا إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم.

ولهذا أمر تعالى بالإجابة إليه، والمبادرة إليها فقال: ﴿وَأَسْأَلُ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ بجلوهم، إذا أفردت الإنابة دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا. وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً

سورة الزمر

٤٦٥

سورة الزمر

أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾
 أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ
 مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَ نَكَأً إِلَيْنِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
 وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
 تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٠﴾ وَيَسْمِعُ اللَّهُ الَّذِينَ أَتَقَوْا
 بِمَقَارِنِهِمْ لَا يَسْمَعُ السُّوءَ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧١﴾ اللَّهُ
 خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٧٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
 هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٣﴾ قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ مَا سُرَوْا فِي أَعْيُنِنَا
 لَنَجْهُلُوهُنَّ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ
 أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٧٥﴾ بَلَى اللَّهُ
 فَاعْبُدْهُ وَكَونْ مِنَ السَّادِّكِينَ ﴿٧٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
 وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ
 مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٧﴾

فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم،
 ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق، وعن
 عبادة ربهم، المفترين عليه؟ بلى والله! إن فيها لعقوبة وخزياً
 وسخطاً، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم
 بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك
 والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء
 النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله
 وشرعه.

ولما ذكر حالة المتكبرين ذكر حالة المتقين، فقال:
 ﴿وَيَسْمِعُ اللَّهُ الَّذِينَ أَتَقَوْا بِمَقَارِنِهِمْ﴾ أي: بنجاتهم، وذلك لأن
 معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند
 كل هول وشدة ﴿لَا يَسْمَعُ السُّوءَ﴾ أي: العذاب الذي
 يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفي عنهم مباشرة العذاب وخوفه،
 وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام.
 فحيث لا يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ مجيباً لا يدفع ﴿ثُمَّ لَا
 تُنصَرُونَ﴾ فكانه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها
 وأعمالها؟

فاجاب تعالى بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ
 رَبِّكُمْ﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله،
 وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير
 لهم، وترك ما يضاد ذلك. ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة
 والزكاة والصيام، والحج والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو
 ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا،
 فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها، هو المنيب
 المسلم.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَتَنْتَهُ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وكل
 هذا حث على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم ﴿أَنْ﴾ لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم
 يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة ﴿تَقُولُ نَحْنُ بِتَحَرُّكِ عَلَيَّ مَا
 قَرَأْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في جانب حق ﴿وَلَنْ كُنْتُ﴾ في
 الدنيا ﴿لَوْ أَنَّ الشَّيْءَ كَانَ مِنَ الْغَائِبِ﴾ في إثبات الجزاء، حتى رأيته عياناً.

﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ و«لو»
 في هذا الموضع للتنبي، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقياً
 له فأسلم من العقاب، وأستحق الثواب، وليست «لو» هنا
 شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء
 والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل
 كل حجة باطلة.

﴿أَوْ تَقُولُ يَنْزِلُ عَلَيَّ الْعَذَابُ﴾ وتجزم بوروده ﴿لَوْ أَنَّ لِي
 كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا لكنت ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. قال
 تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أمانى باطلة لا
 حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لَوْ رُدَّ، بيان بعد البيان الأول.

﴿بَلَى قَدْ جَاءَ نَكَأً إِلَيْنِي﴾ الدالة دلالة لا يمتري فيها على
 الحق ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عن اتباعها ﴿وَكُنْتَ مِنَ
 الْكَافِرِينَ﴾ فسؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَنَا
 نُهْوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(٦١، ٦٠) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم
 مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وَيَسْمِعُ اللَّهُ الَّذِينَ أَتَقَوْا
 بِمَقَارِنِهِمْ لَا يَسْمَعُ السُّوءَ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ بخبر تعالى عن
 خزني الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة
 كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلغ
 واضح كأنه الصبح، فكما سؤدوا وجه الحق بالكذب، سود
 الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

النعم، ويقولون: ﴿لَتَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّْا لَحَرَظَتَيْ يَكْرَ﴾
لَقَوْمٍ شَكُّوهُ».

(٦٣، ٦٢) ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝
لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّيْلِ كَمَا تُرِيدُونَ بِطَاعَتِهِ لَبِيطٌ لِّئَلَّا تُغْلِبُوا
الْخَيْرِيْنَ﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكماله، الموجب لخسران
مَنْ كفر به فقال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هذه العبارة وما أشبهها،
مما هو كثير في القرآن تدل على أن جميع الأشياء - غير الله -
مخلوقة، ففيها رد على كل مَنْ قال بقدوم بعض المخلوقات،
كالفلاسفة القائلين بقدوم الأرض والسماوات، وكالقائلين بقدوم
الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل
الخالق عن خلقه.

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة
المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول، ليس قبله شيء،
فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها، أنه مخلوق، من
أعظم الجهل، فإنه تعالى، لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم
يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلا عنها، بوقت من
الأوقات.

والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة،
أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء
وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلًا
عليه، وإحاطته بتفاصيله. ومن قدرة تامة على ما هو وكيل
عليه ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه،
ومن حكمة ومعرفة بوجوه التصرفات لبصرها ويديرها على ما
هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك،
فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المتقرر، أن الله تعالى منزّه عن كل نقص في
صفة من صفاته، فأخبره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على
إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها،
وكمال تدبيره وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.
﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيحها، علمًا
وتدبيرًا، فَمَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مَشْكُوكَ لَهَا وَمَا يَسْكُ
فَلَا مُمْرِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما بين من عظمته
ما يقتضي أن تمنلّى القلوب له إجلالًا وإكرامًا، ذكر حال من
عكس القضية، فلم يقدره حق قدره فقال: ﴿وَاللَّيْلِ كَمَا تُرِيدُونَ
بِطَاعَتِهِ اللَّهُ﴾ الدالة على الحق اليقين، والصراط المستقيم
﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرِيْنَ﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله
والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله،
وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعرضوا عن ذلك كل

ومفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعرضوا
عنها للعذاب الأليم.

(٦٤-٦٦) ﴿قُلْ أَفَعَيَّرْتُمُوهُ أَخْبَدُ إِنَّمَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ
أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ وَهُوَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا أيها
الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله:
﴿أَفَعَيَّرْتُمُوهُ أَخْبَدُ إِنَّمَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي: هذا الأمر صدر من
جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من
جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة،
دون مَنْ كان ناقصًا من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم
تأمروني بذلك.

وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال مفسد للأحوال،
ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من جميع
الأنبياء. ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل
عمل.

ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع
الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام - لما عدد كثيرًا من
أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿كَذَلِكَ هَدَىٰ اللَّهُ يَتِيمِي يَوْمَ مَنْ يُشَاكُ مِنْ
يَتِيمِي وَكَوْا أَشْرَكُوا لَحِيطٌ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَمَعُونَ﴾.

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دينك وآخرتك فبالشرك تحبط
الأعمال ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه
بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بَلِ اللَّهُ
فَاعِلٌ﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَكُنْ مِنَ
الشَّاكِرِينَ﴾ لله، على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر
على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق
وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق
للإخلاص، والتقوى، بل يعم الدين، هي النعم على
الحقيقة. وفي تدبر أنها من الله تعالى، والشكر لله عليها،
سلامة من آفة العجب، التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب
جهلهم. وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة
تستحق عليه زيادة الشكر.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ
الْيَوْمِ وَالسَّمَاءُ مَطْوِيَةً يَبِيْنَهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
يُشْرَكُونَ﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق
قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك من
إشراكهم به مَنْ هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة
من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا

منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.

فسوا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي - من عظمتها الباهرة، وقدرته القاهرة - أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السموات - على سعتها وعظمتها - مطويات يمينه. فلا عظمه حق عظمتها، من سوى به غيره، ولا أعظم منه.

﴿سُبْحَنَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به.

(٦٨-٧٠) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ ۝ وَاشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورٍ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَتْلُونَ إِلَّا فِي السَّاعَةِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ أَهْلُ أَعْلَمَ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لما خوفهم تعالى من عظمتها، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبهم ورهبهم فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمتها إلا خالقه ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام؛ أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن.

﴿فَصَبَقَ﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين. ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق، ونفخة الفزع.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ﴾ أي: قد قاموا من قبورهم، لبعثهم وحسابهم قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ماذا يفعل الله بهم.

﴿وَاشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورٍ رَبِّهَا﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك. فإن الله أخرج أن الشمس تكور، والقمر يخبس، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى ويبرز للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة، يَقْوُونَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُدْعَاؤُنَا مَالِ

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ ۝

وَاشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورٍ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَتْلُونَ إِلَّا فِي السَّاعَةِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ أَهْلُ أَعْلَمَ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَرَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا ۖ وَإِذَا جَاءَهُمْ

فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ ۖ هَذَا قَالُوا بُلَىٰ وَلَٰكِن حَكَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كَفَرْتُمْ أَلْمَسْتُمْ مِنَ اللَّهِ شَرًّا ۚ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ

الْجَنَّةِ زُرَّارًا ۖ وَإِذَا جَاءَهُمْ قِيلَ ادْخُلُوا هَٰذَا خَالِدِينَ فِيهَا حَزَنًا ۖ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ

نَبَوًّا ۖ مِّنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝

هَذَا الْكِتَابَ لَا يَغَادِرُ صَوْرَهُ وَلَا كَيْفَهُ إِلَّا أَصْحَابُهَا وَيَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَنَّكَ ۖ ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿أَقْرَبَ كِتَابِكَ كَفَنٍ يَنْفِيكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾.

﴿وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أمهم، ويشهدوا عليهم. ﴿وَالشَّاهِدَةُ﴾ من الملائكة، والأعضاء، والأرض. ﴿وُفِّيَتْ يَتْلُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم؛ لأنه حساب صادر ممن لا يظلم منقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمتها وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه السننهم، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ أَهْلُ أَعْلَمَ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

(٧١-٧٥) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا ۖ وَإِذَا جَاءَهُمْ قِيلَ ادْخُلُوا هَٰذَا خَالِدِينَ فِيهَا حَزَنًا ۖ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوًّا ۖ مِّنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝

جَهَنَّمَ ۚ كُلُّ طَائِفَةٍ تَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ الَّذِي يَنْسِبُهَا وَيُؤَاقِفُ
عَمَلُهَا ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا﴾ أَبَدًا، لَا يَظُنُّونَ عَنْهَا، وَلَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ
الْعَذَابُ سَاعَةً وَلَا يَنْظُرُونَ ﴿فَيَسَّ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بس
المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق،
فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وَيَسَّيْزُ الْأَزْوَاجَ أَتَقَوَّا رَبَّهُمْ﴾
بتوحيده، والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفدًا
على الجنات ﴿إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة
مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَهَا﴾ أي:
وصلوا تلك الرحاب الرحبية، والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم
ريحها ونسبها، وأن خلودها ونعيمها ﴿وَفُتِحَتْ﴾ لهم
﴿أَبْوَابُهَا﴾ فتحت إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها ﴿وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا﴾ تهتة لهم وترحيبًا: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلام من كل
أفة وشر حال، عليكم ﴿يُسَبِّحُ﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله
ومحبته وخشيته، وألستكم بذكوره، وجوارحكم بطاعته ﴿ف﴾
بسبب طيبكم ﴿أَدْخَلُوهَا خَلِيلَيْنِ﴾ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق
بها إلا الطيبون.

وقال في النار ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وفي الجنة ﴿وَفُتِحَتْ﴾
بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها فتحت
لهم أبوابها، من غير انتظار ولا إهمال وليكون فتحها في
وجوههم وعلى وصولهم أعظم لحرها وأشد لعذابها، وأما
الجنة، فإنها الدار العالية الغالية التي لا يوصل إليها ولا ينالها
كل أحد، إِلَّا مَنْ أَتَى بِالْوَسَائِلِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهَا، ومع ذلك،
فيحتاجون لدخولها لشفاعاة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم
بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى
يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح
وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان
اللتان لا يدخل فيهما إِلَّا مَنْ اسْتَحَقَّهُمَا، بخلاف سائر الأمكنة
والدور.

﴿وَقَالُوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم
على ما أولاهم ومنَّ عليهم وهذاهم: ﴿الْحَسَنُ لِلَّهِ الْأَزْوَ
يُصَدِّقُهَا وَعَمَّ﴾ أي: وعدنا الجنة على ألسنة رسله إن آمنا
وصلحنا، فوفَّى لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما مَنَّا ﴿وَأَوْرَثَنَا
الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة ﴿فَتَنَوَّاهَا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَأَتْ﴾ أي:
نزل منها أي مكان شتنا، ونتناول منها أي نعيم أردنا، ليس
ممنوعًا عنا شيء نريدُه ﴿فَيَمَّ أَجْرُ الْعَمَلِيِّينَ﴾ الذين اجتهدوا
بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيرًا عظيمًا

عَلَيْكُمْ ءَابَتْ رَبِّكُمْ وَيُذَرُّكُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ
حَقَّتْ لَكُمْ الْعَذَابُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ قِيلَ أَذْهَبُوا أَتُوبُ جَهَنَّمَ
خَلِيلَيْنِ فِيهَا فَيَسَّ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَيَسَّيْزُ الْأَزْوَاجَ أَتَقَوَّاهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا
عَلَيْكُمْ لِيَسْبَحُوا فَادْخُلُوهَا خَلِيلَيْنِ ۝ وَقَالُوا الْحَسَنُ لِلَّهِ الْأَزْوَ
يُصَدِّقُهَا وَعَمَّ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ فَنَتَوَّاهَا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَأَتْ فَيَمَّ أَجْرُ
الْعَمَلِيِّينَ ۝ وَرَبَّى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَاتٍ بَيْنَ حُجُورِ الْعَرْشِ يَسْبِحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَفُضِّي بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لما ذكر
تعالى حكمه بين عباده - الذين جمعهم في خلقه ورزقه
وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة
- فرقمهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان
والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وَيَسَّيْزُ الْأَزْوَاجَ أَتَقَوَّاهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ﴾ أي: سوقًا عنيقًا، يُضربون بالسباط الموجعة، من
الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي
جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال
عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُثْقَرُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ
دَعَا﴾ أي: يدفعون إليها دفعًا، وذلك لامتناعهم من دخولها
ويساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فرقًا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة
التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلحن بعضهم بعضًا،
ويرأ بعضهم من بعض ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَهَا﴾ أي: وصلوا إلى
ساحتها ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ لقدومهم
وقربى لوصولهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي،
والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال، التي
أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ
أَي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتسمكون من
التلقي عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أرسلهم الله
بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وَيُذَرُّكُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ هَذَا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم
اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد
كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم:
﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية
التبيين وحذرونا من هذا اليوم ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ لَكُمْ الْعَذَابُ عَلَى
الْكُفَرِيِّ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب،
التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به
المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

ف ﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ

باقياً مستمراً.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما يبعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء.

﴿وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥)
سُورَةُ الْحَجَّاتِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَم ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَاقِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣ مَا يُجَدُّ فِي - أَيْتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَابُلُهُمْ فِي الْيَلْدِ ٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذَهُ وَجَدُوا بِالنَّبِيِّ لِيُدْخِلَهُمْ جَنَّاتٍ مِنْ دُونِ الْجَنَّةِ فَالْقَاتِلُ مَنْ هُوَ، لِيَدِلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنْ جَمِيعَ الْخَلْقِ نَطَقُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَحُكْمَتِهِ عَلَى مَا قَضَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، حَمْدُ فَضْلِ وَإِحْسَانِ وَحَمْدُ عَدْلِ وَحُكْمَةٍ.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق

﴿وَالْعَنَى﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يذكر القاتل مَنْ هُوَ، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم، وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر - بحمد الله وعونه -.

تفسير سورة المؤمن

مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) حَم ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَاقِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كِتَابِهِ الْعَظِيمِ بِأَنَّهُ صَادِرٌ وَمَنْزَلٌ مِنَ اللَّهِ الْمَالُوءِ الْمَعْبُودِ، لِكَمَالِهِ وَانْفِرَادِهِ بِأَفْعَالِهِ.

﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء..

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ للمذنبين ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ من التائبين. ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى الذُّنُوبِ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا ﴿ذِي الطَّلَاقِ﴾ أي: التفصل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجباً لأن يكون وحده المألوه، الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزجة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني، فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله

وصفاته وأفعاله؛ وهذه أسماء وأوصاف وأفعال.

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نعيه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطَّلَاقِ﴾.

وإما إخبار عن نعيمه الشديدة، وعمّا يوجبها ويقضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

الْعَظِيمِ» يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قبض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم.

واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديسهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة، عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَجْمَةً﴾.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من الملائكة المقربين في المنزل والفضيلة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمله له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: «سبحان الله ويحمده» فهو داخل في ذلك وهو من جملة العبادات.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفوائده الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ثم ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غاية مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلا برحمة الله تعالى ووسعته، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه.

﴿فَاعْتَرِضْ لِلَّذِينَ نَافَاوْا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَأَنعَمُوا سَبِيلاً﴾ باتباع رسلك، بتوحيدك وطاعتك ﴿وَفِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: فهم العذاب نفسه، وفهم أسباب العذاب.

﴿رَبَّنَا وَأَذِلَّهَا لَنَا عَنَّا أَلَيَّْ وَعَدْتَهُمْ﴾ على السنة رسلك

(٤-٦) ﴿مَا يَجِدُكَ فِي عَائِدَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنصُرُكَ تَقَاتُلُهُمْ فِي الْيَدِ﴾ كَذَبَتْ قَوْلَهُمْ قَوْلُ نُوْحٍ وَالْأَخْرَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَخَذَلُوهُ بِالْبَطِلِ لِيُجْشِرُوا بِهِ لَعَنَ فَاغْلَبَتْهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُمُ الرِّبَا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿مَا يَجِدُكَ﴾ في آياته ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق، ليدحض به الباطل.

ولا ينبغي للإنسان أن يعتبر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَنصُرُكَ تَقَاتُلُهُمْ فِي الْيَدِ﴾ أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه مَنْ لا علم ولا عقل له.

ثم هدد مَنْ جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل مَنْ قبله من الأمم من ﴿قَوْلُ نُوْحٍ﴾ وعاد ﴿وَالْأَخْرَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه، وعلى الباطل لينصروه. ﴿و﴾ أنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: يقتلوه، وهذا أبلغ ما يكون للرسل، الذين هم قادة أهل الخير، الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا يقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟

ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فَاغْلَبَتْهُمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة، أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم، فإذا هم خاملدون.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُمُ الرِّبَا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كما حقت على أولئك، حقت عليهم كلمة الضلال، التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

(٧-٩) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّعْيَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّعْيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ

بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهمًا صحيحًا على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراد، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ.

والذي يوجب له الجزم، بأن الله أراد أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى، والمتوقف عليه. الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إضاحًا، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له. وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من به الله علينا.

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة - ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزان رحمته ما يكون سببًا لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين - فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزاع نقبل فيه في كل الآتات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصل رحمته، إنك الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها.

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به، سببًا لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله، كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولعن صلح من أبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وقد يقال: إنه لا بد من وجرد صلاحهم لقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة علمهم، والله أعلم.

(١٠-١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَسْأَلُونَ لِمَ قُلْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَرِّكُمْ أَتَسْكُنُ مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۚ قَالُوا رَنَّا أَشْنَا لَتَيْنِ وَأَلْبَيْتَا أَتَتَيْنِ قَاعَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ۚ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَنْ يَشْرَكَ بِهِ. تُوْمِتُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها: من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقولون أنهم مستحقون، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمتنون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك.

﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ وَرَفَقَانِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرُورُ﴾ القاهر لكل شيء، فبعزتكم تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم به إلى كل خير ﴿لَتَكْفُرَنَّ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها. فلا نسألك يا ربنا أمرًا تقتضي حكمتك خلافه، بل من حكمتك - التي أخبرتنا بها على ألسنة رسلك، واقتضاها فضلك - المغفرة للمؤمنين. ﴿وَقِهِمُ النَّكَيَاتَ﴾ أي: الأعمال السيئة وجزاءها، لأنها تسوء صاحبها ﴿وَمَنْ يَقِ النَّكَيَاتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقته السيئات وقفته للحسنات وجزائها الحسن ﴿وَذَلِكَ﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة ﴿هُوَ الْغَفُورُ الْعَلِيمُ﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه؛ فلما كان دعائهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها، واقتضاءها، لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علمًا، توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعائهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُذلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها، واجتهدوا اجتهد المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون الذين يحبه الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين بيغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله وفضله من دعائهم بعد قوله: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ

وَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿لَمَقْتُ اللَّهَ﴾ أَي: إِيَّاكُمْ ﴿إِذْ دُعَوْتُ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أَي: حِينَ دَعَاكُمْ الرِّسَالُ وَأَتَابَعَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَأَقَامُوا لَكُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا تَبَيَّنَ بِهِ الْحَقُّ، فَكَفَرْتُمْ وَزَهَدْتُمْ فِي الْإِيمَانِ الَّذِي خَلَقَكُمْ اللَّهُ لَهُ، وَخَرَجْتُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، فَمَقْتَكُمْ وَأَبْغَضَكُمْ.

فَهَذَا ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: فَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْمَقْتُ، مُسْتَمِرًّا عَلَيْكُمْ، وَالسُّخْطُ مِنَ الْكَرِيمِ خَالًا بِكُمْ، حَتَّى آلَتْ بِكُمْ الْحَالُ إِلَى مَا آلَتْ، فَالْيَوْمَ حُلٌّ عَلَيْكُمْ غَضَبُ اللَّهِ وَعِقَابُهُ، حِينَ نَالِ الْمُؤْمِنُونَ رِضْوَانِ اللَّهِ وَثَوَابَهُ.

فَتَمْنُوا الرَّجُوعَ، وَ ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا أَتْنَيْنِ﴾ يَرِيدُونَ الْمَوْتَ الْأَوَّلَى، وَمَا بَيْنَ التَّفْخِيزَيْنِ عَلَى مَا قِيلَ. أَوْ الْعَدَمَ الْمُحْضَ قَبْلَ إِجْبَادِهِمْ، ثُمَّ أَمَاتَهُمْ بَعْدَمَا أَوْجَدَهُمْ ﴿وَأَمِينَتَا أَتْنَيْنِ﴾ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ الْآخَرَى ﴿فَاعْرِضْنَا لِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أَي: تَحْسَرُوا وَقَالُوا ذَلِكَ، فَلَمْ يَفِدْ وَلَمْ يَنْجِعْ، وَيُخَوِّعُوا عَلَى عَدَمِ فِعْلِ سَبَابِ النِّجَاةِ، فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أَي: إِذَا دُعِيَ لِتَوْحِيدِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، وَنَهْيِ عَنِ الشِّرْكِ بِهِ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ بِهِ وَاشْمَازَتْ لَذَلِكَ قُلُوبُكُمْ وَنَفَرْتُمْ غَايَةَ النُّفُورِ. ﴿وَإِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ فِيهِ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي أَنْزَلَكُمْ هَذَا الْمَنْزِلَ، وَيُؤَاكِمُ هَذَا الْمُعْقِلَ وَالْمَحَلَّ، أَنْكُمْ تَكْفُرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكَفْرِ تَرْضُونَ بِمَا هُوَ شَرٌّ وَفَسَادٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَكْرَهُونَ مَا هُوَ خَيْرٌ وَصَلَاحٌ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. تَتَوَرَّعُونَ سَبَبَ الشَّقَاوَةِ وَالذَّلِّ وَالْغَضَبِ، وَتَزْهَدُونَ بِمَا هُوَ سَبَبُ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ وَالظَّفَرِ ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ آذَانِهِ لَا يَتَّبِعُوهُ سَبِيلًا إِلَّا زِينًا سَبِيلَ الْفِتَنِ يَتَّبِعُوهُ سَبِيلًا﴾.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ الْعَلِي: الَّذِي لَهُ الْعُلُوُّ الْمَطْلُوقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، عُلُوُّ الذَّاتِ، وَعُلُوُّ الْقَدْرِ، وَعُلُوُّ الْقَهْرِ. وَمِنْ عُلُوِّ قَدْرِهِ، كِمَالِ عَدْلِهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَلَا يَسَاوِي بَيْنَ الْمُتَّقِينَ وَالْفُجَّارِ.

﴿الْكَبِيرِ﴾ الَّذِي لَهُ الْكَرْبَاءُ وَالْعِظَمَةُ وَالْمَجْدُ، فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ، الْمُتَزَهِّةُ عَنْ كُلِّ آفَةٍ وَعَيْبٍ وَنَقْصٍ، فَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ لَهُ تَعَالَى، وَقَدْ حُكِمَ عَلَيْكُمْ بِالْخُلُودِ الدَّائِمِ، وَحُكِمَ لَا يَغْيُرُ وَلَا يَبْدُلُ.

فَنَحْنُ بِمَا كَسَبَتْ لَا نَحْمِلُ الْيَوْمَ إِلَّا اللَّهُ سَرِيحَ الْحِسَابِ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْعَظِيمَةِ عَلَى عِبَادِهِ، بِتَبْيِينِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، بِمَا يُرِي عِبَادَهُ مِنْ آيَاتِهِ النَّفْسِيَةِ وَالْأَفَاقِيَةِ وَالْقَرَاتِيَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى كُلِّ مَطْلُوبٍ مَقْصُودٍ، الْمَوْضُوحَةِ لِلْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى عِنْدَ النَّاظِرِ فِيهَا وَالْمَتَأَمِّلِ لَهَا أَدْنَى شَكٍّ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ.

وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم يُبَيِّنِ الحقَّ مشتبهاً، ولا الصوابَ ملتبساً، بل نَوَّعَ الدَّلَالَاتِ وَوَضَحَ الْآيَاتِ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَكَلَّمَا كَانَتِ الْمَسَائِلُ أَجَلًّا وَأَكْبَرَ، كَانَتِ الدَّلَالَاتُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ وَأَيْسَرَ.

فَانْظُرْ إِلَى التَّوْحِيدِ، لِمَا كَانَتِ مَسْأَلَتُهُ مِنْ أَكْبَرِ الْمَسَائِلِ، بَلْ أَكْبَرُهَا، كَثُرَتِ الْأَدْلَةُ عَلَيْهَا الْعَقْلِيَّةُ وَالْقَلْبِيَّةُ وَتَنَوَّعَتْ، وَضَرَبَ اللَّهُ لَهَا الْأَمْثَالَ، وَأَكْثَرَ لَهَا مِنَ الْأَسْتِدْلَالِ، وَلِهَذَا ذَكَرَهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَنَبِهَ عَلَى جُمْلَةٍ مِنْ أَدْلَتِهَا، فَقَالَ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا﴾

وَلِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ يُرِي عِبَادَهُ آيَاتِهِ، نَبِهَ عَلَى آيَةٍ عَظِيمَةٍ فَقَالَ:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَظِيمًا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿يَسْتَنزِلُ مِنْ أَلَيْهِ الْوَحْيَ الْوَحْيَ الْوَحْيَ﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له، بالأسباب المنجية مما يكون فيه، وسماه «يوم التلاق» لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزأهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِي سُبُوحُ رَبِّكَ﴾ أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد، لا عوج ولا أمت فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر.

﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ أي: مَنْ هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للاولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟

الملك ﴿يَلَهُ الْأَرْجَاءُ الْفَهَارُ﴾ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها، بوجه من الوجوه ﴿الْفَهَارُ﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجه للحي القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: لا تستبطوا ذلك اليوم، فإنه آت، وكل آت قريب. وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

(١٨-٢٠) ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْأَنْزِلَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسِيرٍ وَلَا سَنِيْعٍ يُفْلِحُ ۝ تَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الشُّهُورُ ۝ وَاللَّهُ يَخْفَى بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْأَنْزِلَةِ﴾ أي: يوم القيامة التي قد أوفت وقربت، وأن الوصول إلى أهوالها، وقلقلها، وزلازلها، ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم ﴿كَظِيمِينَ﴾ لا يتكلمون إلا مَنْ أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسِيرٍ﴾ أي: قريب ولا صاحب ﴿وَلَا

وَيَرْثُكُمْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: مطراً، به ترتزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه.

فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي يتنفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

ولما كانت الآيات ثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.

والإخلاص معناه: تخلص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدبونه به وتقربون به إليه.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يشكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال: ﴿رَفِيعَ الذَّرَجَاتِ ذُو الْأَعْرَاشِ﴾ أي: العلي الأعلى الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعاً باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه وتعالى ذاته أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه.

ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي فقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهُ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الرسل، الذين فضلهم الله، واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده، والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم،

سَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿٢١﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قُدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.

﴿يَتْلَمُ حَاجَةَ الْأَعْيُنِ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلبيه ومقارنه، وهو نظر المصارقة ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة، من باب أولى وأحرى.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق، وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو الذي يقضي قضاء القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أوليائه وأحبابه.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿الْبَصِيرُ﴾^(١) بما كان وما يكون، وما ينصر، وما لا ينصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وَأَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

(٢١، ٢٢) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُلًّا وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ ذَٰلِكَ يَأْتِيهِمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاخْتَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَرِيدُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بقلوبهم وأبصارهم، سير نظر واعتبار وتفكر في الآثار ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة.

وقد ﴿كَانُوا﴾ أشد قوة من هؤلاء في العَدَدِ والعُدَدِ وكبر الأجسام ﴿وَوَ﴾ أشد ﴿ءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمتعها بها ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بعاقبته ﴿يَذُلًّا﴾ حين أصروا واستمروا عليها ﴿إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَرِيدُونَ﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

﴿يَوْمَ تَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٣﴾ وَأَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَىٰ الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍّ وَلَا سَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿٢٤﴾ يَعْلَمُ حَاجَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٢٥﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُلًّا وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ ذَٰلِكَ يَأْتِيهِمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاخْتَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَرِيدُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَاتٍ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٨﴾

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول، وهو فرعون وجنوده فقال:

(٢٣-٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ إلى آخر القصة.

أي ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ العظيمة، الدالة دالة قطعية، على حقيته ما أرسل به، وبطان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: حجة بيّنة، تسلط على القلوب فتدعن لها، كالحجة والعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيد الله بها موسى، ومكنه مما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم ﴿فِرْعَوْنَ وَهَمَزَاتٍ﴾ وزيره ﴿وَقُرُونٍ﴾ الذي كان من قوم موسى، بغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم

(١) في النسخين (العلم) وهو خطأ فالوارد في الآية (البصير).

رسوله محمداً ﷺ بعمة أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم، موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبلاً فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَفَقُلْنَا رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن اللينيات، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لأن بيته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلّا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرت، هل يحل قتله - إذا ظهرتم عليه بالحجة - أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تقطع بها أعناق المطي. ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي حالة قدرت فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَقَلْبِي كَذِبٌ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا فَيُحِبُّكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذب عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم عن إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبيّنات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ شَرٌّ﴾ أي: متجاوز الحد، بترك الحق والإقبال على الباطل ﴿كَذَّابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم.

أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداء الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

يكنفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم.

بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قَالُوا أَقْتُلُوا إِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحَبُّوا إِلَهَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقفوا، وبقوا في رقهم، وتحت عبوديتهم، فما كيدهم ﴿إِلَّا فِي صُلْبِكُمْ﴾ حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

(١) وتدير هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى:

إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم. وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سبق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين، فلهذا لم يقل «وما كيدهم إلا في ضلال» بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي صُلْبِكُمْ﴾.

و ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متكبراً متجبراً مغوراً لقومه السفهاء: ﴿ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: زعم - قبحه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يسمعه من دعاء ربه. ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق، هذا من التمويه والترويح، الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ - حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبه لها طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره - مستعيناً بربه: ﴿إِنِّي حَذَّيْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: امتنعت ببروبيته، التي دبر بها جميع الأمور ﴿وَمِنْ كُلِّ مَكْرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: يحمله تكبره، وعدم إيمانه بيوم الحساب، على الشر والفساد.

يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريباً في القاعدة، فممنعه الله تعالى بلطفه، من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيص له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملاه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكنم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب، ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

٤٧٠

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ دَرُوفِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٦٦﴾
 وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
 لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
 اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ كَذِبَاءٌ
 فَعَلِيهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
 يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٦٨﴾ يَقُولُ
 لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ
 بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا
 أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٦٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَتَقَوْمِ إِنِّي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٧٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ
 وَعَادٍ وَثَمُودَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٧١﴾
 وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٧٢﴾ يَوْمَ تُنَادُونَ مَدِيرِينَ
 مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٧٣﴾

يقال للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهلول، وتوقع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُنَادُونَ مَدِيرِينَ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تَبْلُغُ الشَّرَافُ﴾ أي: لا من قوت ولا تكبر.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لحبه، فلا سبيل إلى هدايته.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُسُفُّ﴾ ابن يعقوب عليهما السلام ﴿بَيْنَ قَبْلٍ﴾ إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ في حياته ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شككم وشرككم و﴿فَلَقَدْ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى - لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله -

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر فقال: ﴿يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ على رعيبتكم، تغفلون فيهم ما شتمتم من التدبير.

فهيكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم ﴿فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا؟﴾ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً، بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَنْ يَبْصُرْنَا؟﴾ وقوله: ﴿إِنْ جَاءَنَا؟﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم، كما ينصح نفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ف ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضا له في ذلك، ومغررا لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وصدق في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ ولكن ما الذي رأى؟ رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقبم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقنا له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فإن هذا تلب للحق فلو أمرهم باتباعه اتباعا مجردا على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ مكررا دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم - كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يشبههم عتو من دعوته عن تكرار الدعوة - فقال لهم: ﴿يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم.

ثم بينهم فقال: ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿يَأْتِيكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أي: يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ إلى آخر الآيات. ﴿وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الْأَنْرِ أُصْحَابُ الْخُلُقَةِ أَنْ أَيْسُوا عَلَيْكَ مِنَ النَّارِ وَمَا زَفَقَكُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وحين ينادي أهل النار مالكا ﴿يَفْضِ عَلَيْكَ رَبُّكَ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكَ تَكُونُ﴾. وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَا اقْرَحْنَا مِمَّا فَبَانْ عَدْنَا فَبَانْ ظُلُمُونَ﴾ فيجيبهم: ﴿اَفْشُوا فِيهَا وَلَا تَكُونُونَ﴾. وحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَأَرَأَيْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْعًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَكُنْ لِي آيَةٌ مِنْ رَبِّي فَأَنزِلْ عَلَيَّ آيَةً ﴿٢٥﴾ أَنُؤْتِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ ذَكَرَ صِفَ الْمُسْرِفِ الْكَذَّابِ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت - من ظهورها - بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويطلوها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم، لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان؛ لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارضه بدليل شرعي أو عقلي أصلاً. ﴿كَبُرَ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقْعًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فالله أشد بغضاً لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمتنون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم. جبار بكثرة ظلمه وعدوانه. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضاً لموسى، ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعطى: ﴿يَكُنْ لِي آيَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه لعلي أطلع ﴿إِنَّ إِلَهَهُ مَوْسَى وَإِنَّ لَأُظَنَّهُ كَذِبًا﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السموات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فزين له العمل السيء، فلم يزل الشيطان يزيه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسناً، ودعا إليه ونظر منظرًا المحقين، وهو من أعظم المفسدين.

﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ وقال الذي تباب ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار وبار، لا يفيد إلا الشقاء في الدنيا والآخرة. ﴿يَقُولُ﴾ وقال الذي تباب ﴿يَقُولُ﴾ أي: أتؤمن أم لا؟ سبيل الرشد لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿يَقُولُ﴾ أي: أتؤمن أم لا؟ سبيل الرشد لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿يَقُولُ﴾ أي: أتؤمن أم لا؟ سبيل الرشد لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿يَقُولُ﴾ أي: أتؤمن أم لا؟ سبيل الرشد لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَنَقُورُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى﴾ بما قلت لكم ﴿وَنَدْعُوْنَ إِلَى النَّارِ﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام.

ثم فسر ذلك فقال: ﴿نَدْعُوْنَ إِلَى النَّجْوَى﴾ لا كُفْرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ. مَا لَيْسَ لِي بِهِ. عَلَّمَ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأفجعها.

﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء ﴿الْفَقْرُ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرأون على مساخطه ثم إذا تابوا وأنابوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حَقًّا بَقِيْنَا ﴿أَنَّمَا نَدْعُوْنَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعْوَةٍ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا يستحق من الدعوة إليه والحب على اللجأ إليه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لعمزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً.

﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى فسيجازي كل عامل بعمله. ﴿وَأَنْكَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم، بالتجرؤ^(١) على ربهم، بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم، ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم: ﴿سَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة وسترون مغية عدم قبولها، حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

﴿وَأَفُوضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ألجأ إليه واعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحه ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم ﴿إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون: يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفييني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تنصرفون إلا بإرادته ومشيتته، فإن سلطكم علي، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيتته صدر ذلك.

﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي: وقى الله القوي الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق عقوبات ما مكر فرعون وآله له: من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم ﴿وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾

﴿وَنَقُورُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَنَدْعُوْنَ إِلَى النَّارِ﴾ تَدْعُوْنَ لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ. مَا لَيْسَ لِي بِهِ. عَلَّمَ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ الْفَقْرُ لَاجِرَةٌ أَنَّمَا تَدْعُوْنَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْكَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿سَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْحَكَم بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ

أغرقهم الله تعالى، في صيحة واحدة عن آخرهم. وفي البرزخ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسول الله، المعاندين لأمره.

(٤٧-٥٠) ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْحَكَم بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيَكُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ﴾ يحجج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين.

﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ أي: الاتباع للقادة ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَادَعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
 ﴿٥١﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ
 وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
 الْهُدَى وَأَوْثَقْنَا بِإِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٤﴾ هُدًى
 وَذِكْرًا لِلأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٥﴾ فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ
 حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
 وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَكَ فِي آيَاتِ
 اللَّهِ يَخْتَلِفُ أَسْمَانُهُمْ فِي أَصْدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرُ
 مَا هُمْ بِسَلَفَةٍ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيرُ ﴿٥٧﴾ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْثَرُ مَرَّةٍ
 خَلَقَ النَّاسَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾
 وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسُوءُ قَلِيلًا مِمَّا نَدَّكَ كُرُوءُ ﴿٥٩﴾

على الحق ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
 تَبَارًا﴾ أنتم أغويتمونا، وأضللتهمونا، وزيتم لنا الشرك والشركاء
 ﴿قَهْلَ أَنْتُمْ مُشْكُوتٌ عَلَّا نَهْبِيتَا مِنْكَ الْآثَارُ﴾ أي: ولو قليلاً.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ مبينين لعجزهم، ونفوذ الحكم
 الإلهي في الجميع: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا لَأَبْرَئُونَ﴾ قد حكم بين
 البراءة وجعل لكل قسطة من العذاب، فلا يزداد في ذلك،
 ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي الْآثَارِ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿لِيُخْرِجَنَّ
 جَهَنَّمَ أَهْلًا دَعَاؤُا رَبِّكُمْ يُخَفِّفُ عَلَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ لعله تحصل
 بعض الراحة.

﴿قَالُوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم،
 ودعاهم لا يفيدهم شيئاً: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي تبيّن بها الحق والصراف المستقيم، وما يقرب
 من الله وما يبعد منه؟

﴿قَالُوا بَلَى﴾ قد جاءونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله
 البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبين ﴿قَالُوا﴾ أي الخزنة،
 لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿تَادَعُوا﴾ أنتم
 ولكن هذا الدعاء، هل يغني شيئاً أم لا؟

قال تعالى: ﴿وَمَا دَعَا الْكُفْرَانُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: باطل لاغ،
 لأن الكفر محيط لجميع الأعمال، صاذ لإجابة الدعاء.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ
 وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا،
 والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين
 نابذوا رسله، وحاربوه، قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ
 آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بالحجة والبرهان والنصر. وفي
 الآخرة بالحكم لهم ولأتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة
 العقاب.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ﴾ حين يعتذرون ﴿وَلَهُمُ
 اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء نازلها.
 ﴿٥٣﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْثَقْنَا بِهٖ إِسْرَائِيلَ
 الْكِتَابَ﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِلأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ
 اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾
 لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون، وما آل إليه أمر فرعون
 وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل النار، ذكر أنه
 أعطى موسى ﴿الْهُدَى﴾ أي: الآيات، والعلم الذي يهتدي به
 المهتدون ﴿وَأَوْثَقْنَا بِهٖ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جعلناه
 متوارثاً بينهم، من قرن إلى آخر، وهو التوراة.

وذلك الكتاب مشتمل على الهدى الذي هو العلم
 بالأحكام الشرعية وغيرها. وعلى التذكير للخير، بالترغيب
 فيه. وعن الشر، بالترهيب عنه. وليس ذلك لكل أحد، وإنما
 هو ﴿لِلأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من أولي العزم
 المرسلين ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليس شكوكاً فيه، أو فيه
 ريب أو كذب، حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق
 المحض، والهدى الصرف، الذي يصبر عليه الصابرون،
 ويجتهد في التمسك به أهل البصائر.

فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ من الأسباب التي تحت على
 الصبر على طاعة الله، وعن ما يكره الله.
 ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك
 وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب،
 وبالإستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله
 تعالى خصوصاً ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ اللذين هما أفضل
 الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة
 ما فيها لأن في ذلك عوناً على جميع الأمور.

الأبرار والفجار، وكانت لكم همة عليه، لآثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق. ونطقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرمية والآيات الأفقية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع هذه الأمور، التي توجب كمال التصديق والإذعان.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ هذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم. وتوعد من استكبر عنها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة جزاء على استكبارهم.

(٦١-٦٥) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْبِيَاءَ لِيَسْمَعُوا مِنْهُ وَبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا وَعَدَ وَعْدَ الْحَقِّ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَهُ يُعِزُّ مَنْ يُشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يُنَازِعُ لَهُ الْوَيْلُ لِلْمُصَلِّينَ﴾ كَذَلِكَ يُؤَفِّقُ اللَّهُ الَّذِينَ كَانُوا بِغَيِّبَاتِ اللَّهِ يَحْسَبُونَ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الْمَرْغِقَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تدبر هذه الآيات الكريمات الدالة على سعة رحمة الله تعالى، وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمايم ربوبيته، وانفراده فيها وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها، ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء. فيفتح من ذلك أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد [غيره] (١) من العبودية شيئاً، كما لم يستحق من الربوبية شيئاً. ويتبين من ذلك امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ومحبه وخوفه ورجائه. وهذان الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق

(٥٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْتَرِبُونَ سُلْطَانًا لَكُمْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَذِبًا مَّا هُمْ بِبَصِيرِينَ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يخبر تعالى أن من جادل في آياته ليطغها بالباطل، بغير بينة من أمره ولا حجة، أن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به، يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل، فهذا قصدهم ومرادهم. ولكن هذا لا ينم لهم، وليسوا ببالغيه، فهذا نص صريح، وبشارة بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل.

﴿فَاَسْتَعِذْ﴾ أي: اعتصم والجا ﴿بِاللَّهِ﴾ ولم يذكر ما يستعذ، إرادة للعموم. أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات على اختلافها ﴿الْبَصِيرُ﴾ بجميع المراتب، بأي محل وموضع وزمان كانت.

(٥٧-٥٩) ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتِلْكَ الْأَمْثِلُ لَكُمْ مَّا تَنْذَرُونَ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى بما تقرر في القول، أن خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - أعظم وأكبر من خلق الناس - فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون. فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها، يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة، بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث. وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل بتدبره، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتِلْكَ الْأَمْثِلُ لَكُمْ مَّا تَنْذَرُونَ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات، ومن كان مستكبراً على عبادة ربه، مقدماً على معاصيه، ساعياً في مساخطه.

﴿فَلَيْسَ مَّا تَنْذَرُونَ﴾ أي: تذكركم قليل^(١)، وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين

(١) في النسخين (قليلًا). (٢) زيادة بقضيتها السياق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّسَةٌ لَّارْتِبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَوْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَنْفُسَ الْإِنْسَانِ فِيهِ وَالتَّهَارُ مَبْصُرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوهُ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّنَ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

سَرَّكَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة، مهابة لكل مصالحكم، تتكون من حرثها وغرسها والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفا للأرض التي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنفعون به من الأنوار والعلامات التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وإذا أردت أن تعرف حسن آدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه، فانظر إليه عضواً عضواً، هل تجد عضواً من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضاً إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير آدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجل الصور. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكّل

الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده. وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخرية. وهما اللذان هما أشرف عطايا الكريم لعباده. وهما أشرف اللذات على الإطلاق. وهما اللذان إن فاتا فأتى كل خير، وحضر كل شر.

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاضله سؤال، ولا يحفيه نوال.

فقله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَنْفُسَ الْإِنْسَانِ﴾ أي: لأجلكم، جعل الله الليل مظلاماً. ﴿إِنْسِكُرُوا يَدٌ﴾ من حركاتكم التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلى فرشكم، ويُلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الأدمي لا يعيش بدونه. ويسكن أيضاً كل حبيب إلى حبيبه، ويجمع الفكر، وتقل الشواغل.

﴿و﴾ جعل تعالى ﴿التَّهَارُ مَبْصُرًا﴾ منيراً بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية. هذا لذكركه وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره براً وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصلح حيواناته.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم، كما يدل عليه التنكير ﴿عَلَى النَّاسِ﴾. حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بسبب جهلهم وظلمهم ﴿وَقِيلَ يَنْ عِبَادِيَ أَلَا تَشْكُرُونَ﴾ الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله ويحبهونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المفرد بالإلهية، والمفرد بالربوبية. لأن انفرداه بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ﴿حَكِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تقرير لربوبيته.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: ﴿فَالَّذِ ثَوَّكُورٌ﴾ أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعدما أبان لكم الدليل، وأنا لكم السبيل؟!

﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: عقرية على جحدهم آيات الله، وتعديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ بَرْتًا أَمْ لَمْ نَمُتْ فَأَنْتُمْ مُنْجَرُونَ﴾

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴿١﴾ وذلك بخلقِهِ لأصلكم وأبيكم آدم عليه السلام ﴿٢﴾ مِنْ تَفْطُّقٍ ﴿٣﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فبه بالابتداء على بقية الأَطوار، من العلقه، فالمضغة، فالعظام، فنفس الروح.

﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ لَنُكَلِّدَنَّكُمْ شَيْعًا وَمِنْكُمْ مَن يَتَوَّقُ مِن قَبْلِ بُلُوغِ الْأَشَدِّ﴾ ولَنُكَلِّدَنَّكُمْ بهذه الأطوار المقدرة إلى أجل مسمى تنتهي عنده أعماركم ﴿وَلَنُكَلِّدَنَّكُمْ تَقْوِيلًا﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا يتبني العبادة إلّا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب إلا بإذنه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَخْفَىٰ مِنْ عَمْرِهِ﴾ إِلَّا فِي كِتَابٍ عَلَى اللَّهِ بَصِيرَةٌ.

﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ﴾ جليلاً أو حقيراً ﴿فَأِنَّمَا يَفُوتُ لَكُمُ الْكُنُ فَيَكُونُ﴾
لا رد في ذلك، ولا مشوية، ولا تمنع.

(٧٦-٧٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا فِي بَآئِتِ اللَّهِ أَنَّى
يَصُفُّونَ ۖ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآلِ كُتُبٍ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا مَفُوفٌ
مَعْلُومُونَ ۚ إِذِ الْأَغْلَافُ فِي آفَافِهِمْ وَالشَّيْلُ شَحُوفٌ ۚ فِي الْحَمْدِ

[illegible]

كيف يعدلون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ أم يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شيئاً توافق أمواءهم، ويصلون بها لأجل باطلهم؟

فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم، بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسله الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولاً. فهو لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْتَمِدُونَ ۝ وَإِزْ الْأَعْدَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ التي لا يستطيعون معها حركة.

﴿وَالسَّكِينِ﴾ التي يقرنون بها، هم وشياطينهم
يُحِبُّونَ ۖ فِي النَّارِ أَي: الماء الذي اشد غليانه وحره
﴿ثُمَّ فِي النَّارِ تُجْرُونَ﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم فيصلون

ومشرب، ومتكح ومليس، ومنظر ومسمع، وغير ذلك من
الطيبات التي يبرها الله لعباده، وسر لهم أسبابها، ومنعهم
من الخيائن التي تضادها، وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم.
﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي دبر الأمور، وأنعم عليكم بهذه النعم
الله ربكم.

﴿مَسْجِدَ اللَّهِ رُبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تعظم، وكثيره وإحسانه، المربي لجميع العالمين بنعمه.

﴿هُوَ أَلْحَى﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستنزمة لما تستنزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها، كالسمع والبصر والقدرة والعلم والكلام، وغير ذلك من صفات كماله ونوعت جلاله.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق، إلا وجهه الكريم **﴿فَادْعُوهُ﴾** وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** أي: اقصدا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجْسًا أَن نَّبْعِدَ لَهُمُ النَّاسَ﴾** **﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾**.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: جميع المحامد والمدائح والشأن، بالقول كنطق الخلق بذكره. والفعل، لعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له، لكماله في أوصافه وأفعاله، وتمام نعمه.

(٦٦-٦٨) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأَمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّي الْمَلَائِكَةَ ۚ هِيَ الَّتِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوسٍ ثُمَّ مِنْ تَفْلُجٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ يُخَرِّجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُعْبًا وَرِجَالًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِبَاسُهَا أَزْهَرُ ۖ وَلَكُمْ مُبَلَّغُونَ ۚ هُوَ الَّذِي يُخَوِّفُ وَيُؤْتِي ۖ فَإِنَّمَا أَمرُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبيانات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها النبي ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عُد من دون الله.

ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّي وَآمَرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّي الْعَلَمِيِّكَ﴾ بقلي ولساني وجوارحي، بحيث تكون مقادة لطاقته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق. كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهي عنه على الإطلاق. ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم، والمطور لخلقكم.

فكما خلقكم وحده، فاعبدوه وحده، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي

بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

ويقال ﴿هَلْ أَتَىٰ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ من دون الله هل تفعلون، أو تدعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَلْ لَّئِنْ نَدَعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم.

ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معلوم الإلهية.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبْصِلُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْعَوْثُ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكُكُمْ﴾ ﴿وَمَنْ أَسَدُ وَمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآيات.

ويقال لأهل النار: ﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَتَرَفَعُونَ﴾ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتكم بها علوم الرسل، وتترفعون على عباد الله بغيا وعدوانا وظلما وعصيانا، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ وَبَالَغْتُمْ فِيهِمْ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ﴾.

وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحِيمِهِ فِرَارَكَ فَلَاحِقُوا﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا﴾ ﴿فَيَسْأَلُ مَوْلَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ متوئ يخرزون فيه، وبهانون، ويحبسون، ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها.

(٧٧) ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَ تُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِينَ يُعَذِّبُ أَوْ تَوَفِّيكَ﴾ أي: ﴿فَأَصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك، وما ينالك منهم من أذى، واستعن على صبرك بإيماذك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ سينصر دينه، ويغلي كلمته، وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستعن على ذلك أيضا، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ تُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِينَ يُعَذِّبُ﴾ في الدنيا فذاك ﴿أَوْ تَوَفِّيكَ﴾ قبل

٤٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رَأْبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَكُمْ كُنُوتٌ شَبُوحًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْتِي مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلًا مَسْمُوعًا وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا فَضَحَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُصْرِفُونَ ﴿٨٠﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَتُؤْتُونَ ﴿٨١﴾ إِذَا الْأَعْيُنُ فِي أَغْشَاهُمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٨٢﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨٣﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٨٤﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُبْصِلُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٥﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَتَرَفَعُونَ ﴿٨٦﴾ أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَا يَسْكَنُونَ ﴿٨٧﴾ أَمْ تَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَكَيْفَ يُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِينَ يُعَذِّبُ أَوْ تَوَفِّيكَ فَإِنَّمَا يُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

عقوبتهم ﴿فَالَّذِينَ يُرْجَعُونَ﴾ فنجازيهم بأعمالهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلًا غَنًا يَسْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، ثم سلامه وصبره، بذكر إخوانه المرسلين فقال:

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ رِسُولٌ أَنْ يَأْتِيَ بِحَاقِيَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ فَإِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ مِنْ اللَّهِ فَيَنْقُصُ الْخَبْرَ هُنَاكَ الْمُنْطَلِقُونَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ كثيرين إلى قومهم، يدعونهم ويصبرون على أذاهم ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ خبرهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وكل الرسل مدبرون، ليس يدهم شيء من الأمر.

وما كان لأحد منهم ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِحَاقِيَةٍ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ أي: بمشيئته وأمره.

فاقترح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات، ظلم منهم وتعت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم، وصحة ما جاءوا به ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنْ اللَّهِ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم، والفتح ﴿فَقِيْلَ﴾ بينهم ﴿وَالْحَقُّ﴾ الذي يقع الموقع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأنبايعهم، وإهلاك

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

٤٧٦

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٧٩) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٨٠) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَاحِ تَحْمَلُونَ ﴿وَتُرِيكُمُ الْآيَاتِ فَأَيَّ آيَاتِي أُنِيبُ اللَّهُ تُشْكِرُونَ﴾ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مَشْكُورِينَ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِآيَاتِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٢) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلَتْ اللَّهُ أَلْتِي قَدْ خَلَلْتُ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣)

واهمال ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة، كعاد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد آثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والفراس الأنيقة، والزروع الكثيرة ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغني عنهم قوتهم، ولا اقتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

ثم ذكر جرهمهم الكبير فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِآيَاتِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٢) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلَتْ اللَّهُ أَلْتِي قَدْ خَلَلْتُ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣)

ومن المعلوم، أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتسكهم، ومعادة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل.

ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رُدت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة، أدلة لفظية لا نفيد

المكذبين، ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت القضاء المذكور ﴿الْكُافِرُونَ﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاءوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة. فليحذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم، فيخسروا كما خسروا أولئك، فإن هؤلاء لا خير منهم، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

(٧٩-٨١) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَتَأْكُلُوا﴾ (٨٠) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَاحِ تَحْمَلُونَ ﴿وَتُرِيكُمُ الْآيَاتِ فَأَيَّ آيَاتِي أُنِيبُ اللَّهُ تُشْكِرُونَ﴾ (٨١) يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإناعام:

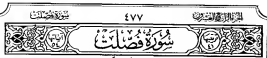
منها: منافع الركوب عليها والحمل.
ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشرب من ألبانها.
ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع. ﴿وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَاحِ تَحْمَلُونَ﴾ أي: على الرواحل البرية، والفلك البحرية، يحملك الله الذي سخرها، وهياً لها ما هياً من الأسباب التي لا تتم إلا بها.

﴿وَتُرِيكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه، حيث أشهد عباده، آياته النفسية وآياته الألفية، ونعمته الباهرة، وعددتها عليهم، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه.

﴿فَأَيَّ آيَاتِي أُنِيبُ اللَّهُ تُشْكِرُونَ﴾ أي: أي آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقررون عندهم، أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا لإعراض عنها موضع.

بل أوجبت لذوي الأبواب بذل الجهد، واستفراغ الوسع، للاجتهاد في طاعته والتبذل في خدمته والانقطاع إليه.

(٨٢-٨٥) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مَشْكُورِينَ﴾ (٨١) فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِآيَاتِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلَتْ اللَّهُ أَلْتِي قَدْ خَلَلْتُ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣) يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبداهم وقلوبهم وسؤال العالمين ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ
 آيَاتِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
 أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ
 وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءَ مَا دَانَا وَفَرَّ مِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ
 فَاغْمَلْ لَنَا عَمَلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلَّكُ يُوْحَىٰ إِلَيَّ
 أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۝ وَوَيْلٌ
 لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
 هُمْ كَافِرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ قُلْ أَتَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ
 الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءُتَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝
 وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا وَبَنَرَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي
 أَرَبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيْلٌ ۝ ثُمَّ أَسْرَوْنَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
 فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝

شيئا من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل.
 وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله، والمعارضة لها
 والمناقضة، فالله المستعان.

﴿وَمَآ تَكُ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَآ كَاوُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من
 العذاب.

﴿قَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم
 الإقرار ﴿قَالُوا ءَمَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾
 من الأصنام والأوثان وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم
 أو عمل.

﴿قَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ﴾ يعنيهم لما رَأَوْا بَأْسًا﴾ أي: في تلك
 الحال، وهذه ﴿سُئِلَ اللَّهُ﴾ وعادته ﴿أَلَيْ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾
 أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان
 إيمانهم غير صحيح، ولا منجيا لهم من العذاب.

وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان
 مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو
 الإيمان الاختياري الذي يكون إيمانا بالغيب، وذلك قبل
 وجود قرائن العذاب.

﴿وَحَسْبُ هَٰذَا﴾ أي: وقت الإهلاك وإذافة البأس
 ﴿الْكُفْرُ﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم. ولا يكفي مجرد
 الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في
 العذاب الشديد، والخلود فيه دائما أبداً.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعونه، لا بحولنا
 وقوتنا، فله الشكر والثناء.

تفسير سورة السجدة^(١) مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ
 آيَاتِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
 لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْءَ أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءَ مَا دَانَا وَفَرَّ مِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ
 فَاغْمَلْ لَنَا عَمَلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلَّكُ يُوْحَىٰ إِلَيَّ
 أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۝ وَوَيْلٌ
 لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝
 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾ يخبر تعالى
 عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تَنْزِيلٌ﴾ صادر
 ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من

أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من
 العلم والهدى، والنور والشفاء، والرحمة والخير الكثير، ما
 هو من أجل نفعه على العباد، وهو الطريق للسعادة في
 الدارين.

ثم أتى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾
 أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدة، وهذا يستلزم البيان
 التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾
 أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فُصِّلَتْ آياته وجعل عربيا
 ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يبين لهم معناه، كما يبين
 لفظه، ويوضح لهم الهدى من الضلال، والنهي عن الرشاد.
 وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالا، ولا
 البيان إلا غمى فهولاء لم يسق الكلام لأجلهم، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
 ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرا بالثواب العاجل والآجل،
 ونذيرا بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر

(١) كذا في الأصل، والاسم المنتهر للسورة هو (سورة فصلت) أو حم
 السجدة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم جزاءهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا بإيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة ﴿هُمْ أَجْرٌ﴾ أي: عظيم ﴿غَيْرُ مَسْئُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتبهات.

[illegible]

فكمل خلقها، ودحيها، وإخراج أوقاتها، وتوابع ذلك ﴿فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِّلشَّائِلِينَ﴾ عن ذلك، فلا يبتك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص. ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ أي: قصد ﴿إِلَى﴾ خلق ﴿السَّمَاءِ وَهِيَ كُتَابٌ﴾ قد ثار على وجه الماء ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ ولما كان هذا التخصيص يوم الاختصاص، عطف عليه بقوله: ﴿وَالْأَرْضِ انثِيًا طَوْنًا أَوْ كَرِهًا﴾ أي: انقادا لأمرى، طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

﴿فَنَسَبْنَاهُ لَكِ سَبْعَ سَعَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فَتَمَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، أَوَّلُهَا يَوْمُ الْأَحَدِ، وَآخِرُهَا يَوْمُ
الْجُمُعَةِ، مَعَ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ وَمَشِيئَتَهُ صَالِحَةٌ لَخَلْقِ الْجَمِيعِ فِي
لِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.

ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رقيق، فمن حكمته ورفقه أن يجعل خلقها في هذه المدة المحددة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النزاعات، لما ذكر خلق السماوات قال: ﴿وَالَّذِينَ بَعْدَ بَإِكْ ذَهَبًا﴾ يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق

الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنفارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يتَّقى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ له إسماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً يقوم عليهم به الحجة الشرعية.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: هؤلاء المعترضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿فَلْيُنْزِلْ فِي أَكْثَرِ﴾ أي: أغلبية مغشاة ﴿وَمَا نَدْعُوا إِلَيْهِ فِي مَآكِنَا وَقَر﴾ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ فلا نراك.

القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَاعْتَلَلْنَا عَمَلُوكَ﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدنيك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

﴿قُلْ﴾ لهم، يا أيها النبي: **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** أي: هذه صفتي ووظيفتي، **أَنِّي بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**، ليس بيدي من الأمر شيء، **وَلَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ**، وإنما فضلي الله عليكم، وميزني وخصني بالوحي الذي أوحاه إليّ وأمرني باتباعه، **وَدَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ**.

﴿وَلَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك.

وفي قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، ويفوته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد - ولو حرص على الاستقامة - لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمرهم بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ ثم نوَّعَ مَنْ تَرَكَ الاستقامة فقال: ﴿وَلِلْمُتَكِبِّينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْنَوْنَ الْكَوْكَبَ﴾ أي: الذين عبدوا من دونه مَنْ لا يملك نفعا ولا ضررا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ودنسوا أنفسهم، فلم يتركوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه، مما يضرهم في الآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٨

سُورَةُ السَّجْدَةِ

فَقَضَيْتُمْ سَمْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِصَبِيحٍ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١٣﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِيعَةً مِثْلَ صِيعَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٤﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
فَلَمَّا بَايَعُوا أَنْ يُغِيثَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتُؤْتُوهُمْ آيَاتِنَا بَعَثْنَا فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَقَافِقَةً أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مَقَافِقَةً وَكَانُوا بَيْنَ أَيْدِينَا يَجْعَدُونَ
﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسُوتٍ لِيَذِيقَهُمْ
عَذَابَ الْخُرْقِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أُخْرَىٰ وَهُمْ
لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى
الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صِيعَةُ الْعَذَابِ طَوَّافَةٌ لَمَّا كَانُوا يُحْكِمُونَ
﴿١٧﴾ وَبَيْنَمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾ وَبِهِمْ بِحَسْرٍ
أَعَدَّ اللَّهُ إِلَيْنَا الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ وَنُوعِنَا ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ هَاشِدٌ
عَلَيْهِمْ سَمِعْتَهُمْ وَيَصْحُرْتُهُمْ وَجُنُودُهُمْ لَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

(١٦، ١٥) ﴿فَلَمَّا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَيْنَيْنَا يَجْعَدُونَ﴾ ○ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسُوتٍ لِيَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخُرْقِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أُخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين، عاد وثمود، ﴿فَلَمَّا عَادَ﴾ فكانوا - مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله - مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبهم قوتهم ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال تعالى ردًا عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ فلولا خلقه إياهم، لم يوجدوا.

فلو نظروا إلى هذه الحال نظرًا صحيحًا، لم يغتروا بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحًا عظيمة، من قوتها

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب (وحفظًا). (٢) في النسخين (بالأم).

الأرض وصورته متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن ﴿أَخْرَجَ مِنَّا مَاءً وَنَخَسْنَا﴾ ○ ﴿وَالْيَاكِلَ أَرْسَلْنَا﴾ متأخر عن خلق السماوات كما في سورة النازعات، ولهذا قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ ○ ﴿أَخْرَجَ مِنَّا﴾ إلى آخره ولم يقل: «والأرض بعد ذلك خلقها».

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِصَبِيحٍ﴾ هي النجوم يستار بها ويهتدى، وتكون زينة وجمالاً للسماء ظاهراً. وجمالاً^(١) لها باطناً، يجعلها رجوماً للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسما وما فيها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات، والغائب والشاهد.

فَنَزَّلَ المشركين بالإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي اتفادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره، من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أنداداً يسوونهم به، وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم، أعجب وأعجب، ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية. فلهاذا خوفهم بقوله:

(١٤، ١٣) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِيعَةً مِثْلَ صِيعَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ○ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون، بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِيعَةً﴾ أي: عذاباً يستأصلكم ويجتاحكم، ﴿مِثْلَ صِيعَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاعهم العذاب، وحلَّ عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم. حيث ﴿جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة ﴿أَلَّا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: يأمرهم بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك.

فردوا رسالتهم وكذبهم و﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: وأما أنتم فبشروا مثلنا ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذه الشبهة لم تزل متواردة بين المكذبين، [من الأمم]^(٢) وهي من أوهى الشبّه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه. فَلْيَقْدَحُوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي ﴿سَهَدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَبُحُورُهُمْ﴾ عموم بعد خصوص [يَمًا] ﴿يَمًا كَأَنَّهُ يَمْشُونَ﴾ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا، يوم كذا وكذا.

وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

فإذا شهدت عليهم عاتبوا ﴿وَقَالُوا لِمَ يُؤْذِيهِمْ﴾ هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ ونحن ندافع عنكم؟ ﴿قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ أَلَيْسَ لَكُلِّ شَيْءٍ قُوَّةٌ﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة، حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد.

﴿وَقَوَّ حَلْفَكُمَ أَوَّلَ سَمْرَةٍ﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضًا صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق ﴿وَأَلْيَهُ تَرْجِعُونَ﴾ في الآخرة، فيجزئكم بما علمتم.

ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْثَوْنَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْنَكُمُ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا بُحُورُكُمْ﴾ أي: وما كنتم تخفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك ﴿وَلَكِنْ كُنْتُمْ تَبْأَدُّكُمْ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أَنَّهُ لَآ يَبْعَثُ كَبِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر.

وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ ظَنُّكَ أَلْيَهُ تَنْتَضِعُ مِمَّا يَمُنُّكَ﴾ الظن السيئ، حيث ظننت به ما لا يليق بجلاله ﴿أَزِدُّكَ﴾ أي: أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لأنفسهم، وأهليهم، وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشفاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفر عنهم ساعة.

﴿فَإِن يَصَّبِرُوا﴾ قَالَتِ النَّارُ مَتَىٰ لَهُمْ؟ فلا جلدَ عليها، ولا صبر، وكل حالة قدر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا، وعظم غليان حميمها، وزادت تن صليدها، وتضاعف برد زمهريرها، وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامها، وغلظ خُرْأَتُهَا، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم. وختم ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونهم ويستغيثون: ﴿أَنْتُمْ فِيهَا وَلَا تَنْكَبُونَ﴾. ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب،

وشدتها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله عليهم ﴿سَمِعَ نَجَاةً لِّأَيِّهَا خُشُوعًا مَرَرَفَ الْقَوْمِ يَمَّا صَرَخَتْ كَانَتْهُمْ أَعْيَارٌ لِّغَلِيٍّ خَاوِيَةٍ﴾، ﴿نَجَاةً﴾ فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقال هنا: ﴿لِيَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذي اختزوا به وافضحوا بين الخليقة ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَلَمٌ لِّبُصُرُونَ﴾ أي: لا يمتنعون من عذاب الله، ولا يمتنعون أنفسهم.

(١٧، ١٨) وَأَمَّا سُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَجَبُوا لِمَنَّى عَلَى الْقُلُوبِ فَالْمَنْتَهُمْ صَفَوةُ الْعَذَابِ أَلْوَنُ يَمَّا كَانُوا يَكْشِبُونَ ○ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ○ وَأَمَّا سُودٌ ○ وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يومًا، ويشربون من الماء يومًا، وليسوا يتفقون عليها، بل تأكل من أرض الله.

ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمَّا سُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ﴾ أي: هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة، وحصل لهم البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلها خصم بزيادة البيان والهدى.

ولكنهم - من ظلمهم وشرهم - استجبوا العمى - الذي هو الكفر والضلال - على الهدى - الذي هو العلم والإيمان - فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون لا ظلمًا من الله لهم ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: نجى الله صالحًا عليه السلام، ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

(١٩-٢٤) ﴿وَيَوْمَ يُنْحَرُّ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَمَهُ يُرْغَوْنَ ○ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا سَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَبُحُورُهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ○ وَقَالُوا لِمَ يُؤْذِيهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ أَلَيْسَ لَكُلِّ شَيْءٍ قُوَّةٌ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ سَمْرَةٍ وَلَيْلَهُ تَرْجِعُونَ ○ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْثَوْنَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْنَكُمُ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا بُحُورُكُمْ وَلَكِنْ كُنْتُمْ تَبْأَدُّكُمْ أَنَّهُ لَآ يَبْعَثُ كَبِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ○ وَلَكِنَّ ظَنُّكَ أَلْيَهُ تَنْتَضِعُ مِمَّا يَمُنُّكَ أَزِدُّكَ فَاصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ○ فَإِن يَصَّبِرُوا قَالَتِ النَّارُ مَتَىٰ لَهُمْ وَإِن يَسْتَغِيثُوا قَمَا هُمْ مِنَ الْمُغْتِيثِينَ﴾ يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالتهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون ﴿إِلَى النَّارِ فَمَهُ يُرْغَوْنَ﴾ [أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقًا عنيقًا، لا يستطيعون امتناعًا، ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون.

ويؤرجعوا إلى الدنيا، ليشأنفوا العمل، ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمره ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النكير، وانقطعت حجتهم، مع أن استعناهم كذب منهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(٢٥) ﴿وَقَضَيْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَسُوا لَهُمْ تَمَّ يَوْمَ تَأْيِيدِهِمْ وَنَاخَلَهُمْ سَكَنَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيْنَ أَيْمَنِ وَبِالْأَيْمَنِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أي: وقضينا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرْآنًا﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوُهُمْ إِلَى الْيَمِينِ﴾ أي: ترعّجهم إلى المعاصي، وتحنّهم عليها، بسبب ما زينوا ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ أَيْدِيَهُمْ وَمَا عَلَّمَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعّوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افْتَنُوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلّكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسله والآخرة بَعْدُهَا عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشُبّه بعدم وقوعها، فترعّج خوفها من قلوبهم، فقادروهم إلى الكفر والبدع والمعاصي.

وهذا التسليط والتفويض من الله للمكذابين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيُصَدِّقُوهُ عَلَى السَّبِيلِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ ۚ

﴿رَحَىٰ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعدا بهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ الْجَنَّةِ وَالْإِنسِ إِتْمَعُوا كَأَنَّمَا كُنْتُمْ فِي حَيْرَةٍ﴾ لآديانهم وآخرتهم، ومن خسر فلا يد أن يذل ويشقى ويُعذب.

(٢٦-٢٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُونَ ۝ فَنُفِثَ فِي السَّمِيقِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَذَابٌ ذُوِيلًا وَسِعَ بِهِمْ وَسْعًا ۝ تِلْكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَنْ عَادَلَهُ اللَّهُ فَتَرَاهُمْ فِيهَا دَارَ الْمُجْدَلِ جَزَاءً يَمْ كَانُوا بِآيَاتِهِ مُجْتَدِلِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا إِنَّا أَذْهَبْنَا آلِهَاتَنَا مِنَّا جَنَاحًا وَإِنَّا بِمَا نَعْمَلُهَا كَتَبَتْ آفَاتُنَا إِنَّا كُنَّا مِنَ الْمُتَسَلِّينَ﴾
يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصفوا إليه ولا إلى مَنْ جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، فـ ﴿الْغَوْا فِيهِ﴾ أي: تكلّموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكثوا - مع قدرتكم - أحدا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه. هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَغْلِبُونَ﴾ [وهذه] ^(١) شهادة من

وَقَالُوا الْجُلُودُ هُمْ لَمْ شَهِدَتْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَوَّعَ ۝
وَمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝
وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ ۝
مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ ۝
يَسْتَعْجِلُوا فَآهَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ۝ وَفِيضْنَاهُمْ ۝
قِرَاءَةً فَرَيْنَا لَهُمْ ثَمَّابِينَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ۝
الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ ۝
كَانُوا خَاسِرِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذِهِ الْفَرِيقِ ۝
وَالْغَوْا أَعْيُنَكُمْ عَنْهُمْ قَتْلُوا ۝ فَلْيَبْغِزْ بَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَدَابًا ۝
شَدِيدًا وَلَنْ يُخْرِجَهُمْ أَسْوَاَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَلِكَ حَزْرَاءُ ۝
أَعْدَاءُ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ حَزْرَاءُ يَمَا كَانُوا يُفْتَنُوا بِمَحْمُودٍ ۝
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلْنَا مِنَ الْجِنِّ ۝
وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَّا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ۝

الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغيبتهم لمن جاء بالحق إلّا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغيّبون، فإن الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه.

ولما كان هذا ظلمًا منهم وعنادًا، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فَلْيَذِقُوا آثَارَهُمْ أَكْثَرًا وَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَكَاظِمُونَ﴾. وهو الكثر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة، إنما هو على عمل الشر^(٦)، ﴿وَلَا يَغْنِيُكَ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ الذين حاربوه وحاربوا أوليائه بالكفر والتكذيب، والمجادلة والمجادلة ﴿النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَأْرُ أَلَدٍ﴾ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفر عنهم العذاب ساعة ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جَزَاءُ مَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ فلها آيات

(١) في النسختين (وهذا). (٢) في ب: (الشرك).

٤٨٠

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا أَنزَلْ عَلَيْنَا مَائِكَةً الْآتِيَّةَ الْآتِيَّةَ لَا تَخْشَوْنَ وَلَا تُحْزِنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْآتِيَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ تَحَنُّنًا مِنَّا وَإِنَّا لَنَحْنُ الْحَيُّونَ الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزَلُّونَ فِي غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرِّيٌّ عَظِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَرُغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَجْوً فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ عَاقَبْتَهُ فَإِنَّ اللَّهَ لَنَجْذِبَهُ إِلَيْهِ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُ لَنَمْسُقَنَّ رِجْلَيْهِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَفْتَيْتَهُمْ فَمَا أَجَبُوا قَوْلًا وَلَا يُبْشِرُونَ قَوْلًا وَلَا يَنْهَوْنَ قَوْلًا وَلَا يَبْتَغُونَ لِقَاءَ اللَّهِ يَوْمَ يُحْشَرُونَ أَلْحَقُوا بِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٨﴾

واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدوا والكفر بها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الأنبياء منهم، بدليل ما بعده، على وجه الحق على مَنْ أضلهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَلَّيْنَاكَ مِنَ الْغِيثِ وَالْإِنْسِ﴾ أي: الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب، من شياطين الجنِّ وشياطين الإنس، الدعاة إلى جهنم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ نَحْتًا أَقْدَامًا لِيَكُونَ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ﴾ أي: الأذلين المهانين كما أضلونا وفتنونا، وصاروا سبيًا لنزولنا. ففي هذا بيان حتى بعضهم على بعض، وتبري بعضهم من بعض.

(٣٠-٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا أَنزَلْ عَلَيْنَا مَائِكَةً الْآتِيَّةَ لَا تَخْشَوْنَ وَلَا تُحْزِنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْآتِيَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ تَحَنُّنًا مِنَّا وَإِنَّا لَنَحْنُ الْحَيُّونَ الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٠﴾ تَزَلُّونَ فِي غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣١﴾ يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تشبيطهم والحث على الافتداء بهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ أي: اعترفوا ونطقوا، ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم علمًا وعملاً، فلم يشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿أَنزَلْ عَلَيْنَا مَائِكَةً الْآتِيَّةَ﴾ الكرام، أي: يكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿الْآتِيَّةَ﴾ على ما يستقبل من أمرهم، ﴿وَلَا تُحْزِنُوا﴾ على ما مضى، فنفرو عنهم المكروه الماضي والمستقبل ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْآتِيَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً.

ويقولون لهم أيضًا - مبشرين لهم ومبشرين -: ﴿تَحَنُّنًا مِنَّا وَإِنَّا لَنَحْنُ الْحَيُّونَ الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينون لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويبشرونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدة، والقبور وظلمته، وفي القيامة وأحوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهتوهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب ﴿مَائِكَةً عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِيمَنْ غَفَى النَّارُ﴾.

ويقولون لهم أيضًا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾ قد أعد ومهيء ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: تطلبون من كل ما تعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتتات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿تَزَلُّونَ فِي غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نُزِّلَ وضيافة ﴿فِي غُفُورٍ﴾ غفر لكم السيئات ﴿رَحِيمٍ﴾

حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم. فبمغفرة أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

(٣٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المقر أي: لا أحد أحسن قولاً. أي: كلاماً وطريقة وحالة ﴿وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن الدعوة إلى الله، تحبيبه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى

العفو عنه، فكيف بالإحسان؟!

فإذا صَبَرَ الإنسان نفسه، وامتنل أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابله للمسيء بجنس عمله، لا يفيد شئاً، ولا يزيد العداوة إلا شدةً وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك مثلثاً مستحباً له.

﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

(٣٦-٣٩) ﴿وَمَا يَرْغَبُكَ مِنَ الَّذِينَ نَزَعُوا عَنْكَ فَأَسْعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُون ۝ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَفْتُونَ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَبْصُرَ الْأَرْضَ حَنِينَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ افْتَثَرَتْ وَبَرَزَ مِنْهَا الْوَيْتُ الَّذِي نَحْنُ بِهَ الْوَيْتُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجني، وهو الاستعاذة بالله والاحتكام به، فقال: ﴿وَمَا يَرْغَبُكَ مِنَ الَّذِينَ نَزَعُوا عَنْكَ﴾ أي: أي وقت من الأوقات أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه، وتزئيمه للشر، وتكسبه عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَأَسْعِدْ بِاللَّهِ﴾ أي: أسأله مفتقراً إليه، أن يعيدك ويعصمك منه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطراك إلى عصمته وحمايته.

ثم ذكر تعالى أن ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذه مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه. ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مبدران مسخران مخلوقان. ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، أي: اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس

عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس في أوقات المواسم والعوارض والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفرادها، مما يشمل الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى صَالِحَةٍ﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح الذي يرضي ربه ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المتقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم، وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراة التامة من الرسل، كما أن من أشر الناس قولاً، مَنْ كان من دعاة الضالين^(١) السالكين لسلبه.

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداها إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق ﴿وَلَكِنِّي دَرَجْتُ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَزَكْتَ عَمَّا يَمُنُّونَ﴾.

(٣٤، ٣٥) ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى مَنْ أساء إليك فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً مَنْ له حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك قصصاً، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابل، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك، وترك خطابك، فطَّيَّبْ له الكلام، وابدل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة. ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: كأنه قريب شقيق.

﴿وَمَا يُلْقِيهَا﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم

(١) كذا في النسخين، ولعل الصواب (من دعاة الضلال).

سُورَةُ السَّجْدَةِ

٤٨١

سُورَةُ السَّجْدَةِ

مِنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ خَالْقِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿إِنْ أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينفادوا لها، فإنهم لن يضروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يَسْتَمِعُونَ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ وَأَلْقَاهُمْ وَهُمْ لَا يَسْتَشْفَعُونَ﴾ أي: لا يملون من عبادته، لغفوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي: المطر ﴿أَفْجَتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَوَرَيْتَ﴾ ثم أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاها﴾ بعد موتها وهمودها، ﴿لَتَمُنَّ بِالنَّوَى﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

(٤٠-٤٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْهَا أَفَنَبْلَقُ فِي الْآثَارِ خِطْرًا مَن يَأْتِي بِآيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرُونَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿إِلَّهَادُ فِي آيَاتِ اللَّهِ: الميل بها عن الصواب، بأي وجه كان، إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب مَنْ جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معاني لها ما أرادها الله منها.

فتوعد تعالى مَنْ ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهرها وباطنها، وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَفَنَبْلَقُ فِي الْآثَارِ﴾ مثل الملحذ بآيات الله ﴿خِطْرًا مَن يَأْتِي بِآيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿أَعْمَلُوا مَا يَشَاءُ﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم الموصلة إلى دار الشقاء.

﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرُونَ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ قَدْ سَلَّ قُلُوبُنَ وَمَنْ سَلَّ فَلْيَكْفُرْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أي: يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية

والأخروية، المُعْلِي لِقَدَرِ مَنْ اتَّبَعَهُ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم ﴿وَالْحَالُ﴾ إِنَّهُ لَكُنْتُ جَامِعَ لَأَوْصَافِ الْكَمَالِ ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: منيع من كل مَنْ أرادَه بتحريف أو سوء، ولهذا قال:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة الفاظه ومعانيه، قد تكفل مَنْ أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزله منازلَه. ﴿حَمِيدٌ﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهم كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمده عليها.

(٤٣) ﴿ثُمَّ يَقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ﴾ أي: ﴿ثُمَّ يَقَالُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعاندك ﴿إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ

في مكان بعيد، لا يسمع داعيًا ولا يجيب منادياً. والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا ينتفعون بهداه، ولا يصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

(٤٦:٤٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخَذَ فِيهِ وَلَوْ أَنَّهُ عَايَنَهُ سَفَّكَتْ مِن تَحْتِهِ لَقُذِيَ بِهِمْ وَأَنذَرْنَا لَكَ أَنَّكَ بِنَفْسٍ ذَلِيلَةٍ مُّخِيطٌ ۖ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلَنَنصِيَهُ - وَمَن آسَأَ فَلْنَعَذِبْهُ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ ۚ﴾
 ﴿لِّمُوسَى﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اخلفوا فيه: فمنهم مَن آمَن به واهتدى وانتفع، ومنهم مَن كذبه ولم ينتفع به. وإن الله تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لَقُذِيَ بِهِمْ﴾ بمجرد ما يميز المؤمنون من الكافرين، يهلك الكافرين في الحال؛ لأن سبب الهلاك قد وجب وحق ﴿وَأَنذَرْنَا لَكَ أَنَّكَ بِنَفْسٍ ذَلِيلَةٍ مُّخِيطٌ﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الرب الذي يفلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه. ﴿مِّنْ عَمَلٍ صَالِحٍ﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلَنَنصِيَهُ﴾. نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَن آسَأَ فَلْنَعَذِبْهُ﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة.

وفي هذا حثٌّ على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع
العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه
لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ فيحتمل
أحدًا فوق سنياته .

(٤٨، ٤٧) ﴿إِنِّي بَرَدُ عِلْمِ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ شَمْرَتِي مِنْ أَكْحَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِي ۚ وَبِمَوَازِينٍ يُبْدِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا مَا أَتَاكَ مَا بَيْنَا مِنْ سَبِيلٍ ۖ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوا مَا لَمْ يَنْتَهِجُوا مِنْ نَجْصٍ﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى وإخصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إِنِّي بَرَدُ عِلْمِ السَّاعَةِ﴾ أي: جميع الخلق ترد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه، الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِكُمْ﴾ أي: وعانها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار إلا وهو يعلمها تفصيلاً.

﴿وَمَا تَحْدِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثى حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾. فكيف سوى المشركون به تعالى من لا علم عنده، ولا سمع ولا بصر؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً

قَبِيْكَ ؕ أَي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، فتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل، من دعوتهم إلى الإخلاص لله، وعبادته وحده لا شريك له، ورددع هذا بكل طريق يقدرון عليه، وقولهم: **لَمَّا أَتَتْهُمُ الْآيَاتُ مِنْ رَبِّكَ** .

وافتراحهم على رسلهم الآيات التي لا يلزمهم الإتيان بها،
ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في
الكفر تشابهت أقوالهم. وصبر الرسل عليهم السلام على
أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر مَنْ قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإيمان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغي فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ﴾ أي: عظيم، يحوم بها كل ذنب لمن أقبل وتاب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن أصر واستكبر.

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ إِنَّهُمْ جِئُوا بِعَرَبِيٍّ مَعْرُوفٍ ۚ فَلَوْ لَوْلِيَّكَ مَاسِكُ هَذِهِ رَبِّكَ ۖ وَرَبُّكَ لَا يُؤْمِنُ بِالَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ نَبَاؤُكَ مِن مَّكَامٍ بَعِيدٍ﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابه عربياً، على الرسول العربي، بلسان قومه ليبين لهم. وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآنًا أعجمياً بلغة غير العرب، لاعترض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: هلاً بينت آياته، ووضحت وفُسر. ﴿إِنَّهُمْ جِئُوا بِعَرَبِيٍّ مَعْرُوفٍ﴾ أي: كيف يكون محمد عربياً، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون.

ففى الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انضوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.

ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ يَلْزِمُكَ إِيمَانُكَ وَشَيْئًا﴾ أي: يهديمهم لطريق الرشd والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة، ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتنقي القلب.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِي مَا آذَنَهُمْ وَهُمْ﴾ أي: صمم
عن استماعه وإعراض، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يبصرون
به رشدًا، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلَالًا، فإنهم إذا
ردوا الحق، ازدادوا عمًى إلى عماهم، وغتًا إلى غتهم.

﴿أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ينادون إلى إيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادي وهو

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٤٨٢

الْقُرْآنُ

﴿إِلَيْهِ رُدُّعِلْمِ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ مَّزْمَرَةٍ مِنْ أَكْصَاهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءِي فَأَلْوَءَ أَذْنَاكَ مَا مِثْلُ شَيْءٍ ۖ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ نَجْصٍ ۖ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقْ ۖ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً وَنِجَاتٍ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَقَوْلُنْ هَذَا لِي مَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَابِئَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِأَعْمَالِهِمْ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضْنَا بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ ۖ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَنْ أُنْزِلَ مِنْ هَوَافٍ شِقَاقٍ بِعِيدٍ ۖ سُرِّيهِمْ أَلَيْسَ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرُؤُوسِهِمْ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَشَهِيدٌ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخْبِطٌ ۖ﴾

أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويعطى، ويقول: ﴿هَذَا لِي﴾ أي: أناني، لأنني له أهل وأنا مستحق له ﴿وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَابِئَةً﴾، وهذا إنكار منه للبعث، وكفرٌ للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له.

﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للنعمة، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل [لي] في الآخرة.

وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم، فلماذا توعد الله بقوله: ﴿فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: شديد جدًا.

﴿وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ بِصَاحَةٍ أَوْ رِزْقٍ أَوْ غَيْرِهِمَا﴾ ﴿أَفَرَى﴾ عن ربه وعن شكره ﴿وَنَآ﴾ أي: ترفع ﴿بِجَانِبِهِ﴾ عجبًا وتكبرًا ﴿وَلَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما ﴿فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير جدًا، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا مَنْ هداه الله ومنَّ عليه.

(٥٢-٥٤) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ

وإظهارًا لكذبهم، فيقول لهم: ﴿إِنَّ شُرَكَاءَكُمُ﴾ الذي زعمتم أنهم شركائي، فعبدتوهم وجادلتم على ذلك، وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوا﴾ مفرين ببطان الهيئتهم وشركتهم مع الله: ﴿مَا أَذْنَاكَ مَا مِثْلُ شَيْءٍ﴾ أي: أعلمناك يا ربنا، وأشهد علينا أنه ما مثا أحد يشهد بصحة الهيئتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال:

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ من دون الله، أي: ذهب عقائدهم وأعمالهم التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تغديهم، وتدفع عنهم العذاب، وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانقض ظنهم، ولم تنع عنهم شركاؤهم شيئًا ﴿وَوَلَّوْا﴾ أي: ايقنوا في تلك الحال ﴿مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ نَجْصٍ﴾ أي: منقذ ينجذهم، ولا مغيث، ولا ملجأ.

فهذه عاقبة مَنْ أشرك بالله غيره، يبينها الله لعباده، ليحذروا الشرك به.

(٤٩-٥١) لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقْ ۖ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً وَنِجَاتٍ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَقَوْلُنْ هَذَا لِي وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَابِئَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضْنَا بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ ۖ هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا مَنْ نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ﴾ أي: لا يمل دائمًا من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا. ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها. فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالبًا للزيادة.

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: المكروه، كالمرض والفقر وأنواع البلاء ﴿فَيَوْسُقْ ۖ﴾ أي: يياس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يحب ويطلب.

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدراجًا وإمهالًا.

وإن أصابته مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم يأسوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أي: الإنسان الذي لا يأس من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس فنوط ﴿رَحْمَةً نَبَّأًا﴾ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ① عَسَى ② كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ لَمْ يَأْمُرْ بِالْقَوْلِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ④ تَكَذَّبَ الْمُنَافِقُونَ بِمَقَرِّكَ مِنْ قَوْفِهِمْ
 وَالْمَلَائِكَةُ يَسْتَعْجِلُونَ بِحُجَّتِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
 الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑤ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَتَتْ عَلَيْهِمْ يَوْكِلُ
 ⑥ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ
 حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
 السَّعِيرِ ⑦ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ
 مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَمَا اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑨ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
 إِلَى اللَّهِ ذَلِكَ مِمَّا اللَّهُ رَفَعَهُ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ ⑩

الْعَظِيمُ ④ تَكَذَّبَ الْمُنَافِقُونَ بِمَقَرِّكَ مِنْ قَوْفِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْتَعْجِلُونَ بِحُجَّتِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑤ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَتَتْ عَلَيْهِمْ يَوْكِلُ ⑥ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ⑦ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَمَا اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑨ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَ مِمَّا اللَّهُ رَفَعَهُ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ ⑩

أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين، ففيه بيان فضله، بإزالة الكتب، وإرسال الرسل، سابقاً ولاحقاً، وأن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاءوا به، لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من انصاف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القديري والشرعي.

وأنه «الْعَلِيُّ» بذاته، وقدره، وقهره «الْعَظِيمُ» الذي من

يَدٍ مَنْ أَصْلَ يَتَنَ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ① سُرْبِهِمْ أَيْتَنَّا فِي
 الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْحَقَّ أَوْلَمَ بِكَفِّكَ بِرَبِّكَ اللَّهُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ ② أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ
 بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ ③ أَيْ «قُلْ» لَهُوَالَهُ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ
 الْمَسَارِعِينَ إِلَى الْكُفْرَانِ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ» هذا القرآن
 «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» من غير شك ولا ارتياب «ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ» مَنْ
 أَصْلَ يَتَنَ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ④ أَيْ: معاندته لله ولرسوله، لأنه
 تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى
 باطل وجهل، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

فإن قلتم، أو شككتكم بصحته وحقيقته، فسيقم الله لكم
 وبريكم من آياته في الآفاق، كآيات التي في السماء وفي
 الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة
 للمستبصر على الحق.

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» مما اشتملت عليه أبدانهم من بدع آيات
 الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات
 والمثالات في المكذبين، ونصر المؤمنين «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ»
 من تلك الآيات، بيانا لا يقبل الشك «أَنَّ الْحَقَّ» وما اشتمل
 عليه حق.

وقد فعل تعالى، فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم
 أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخالد
 لمن يشاء.

«أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ» أَيْ: أولم
 يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة الله
 تعالى، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين،
 وأيده ونصره نصراً متضماً لشهادته القولية، عند من شك فيها.
 «أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ» أَيْ: في شك من البعث
 والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم
 يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. «أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ»
 علماً وقدره وعزته.

تم تفسير سورة السجدة - بمنه تعالى -

تفسير سورة الشورى

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩-١) «حَمْدٌ ① عَسَى ② كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ لَمْ يَأْمُرْ بِالْقَوْلِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ④ تَكَذَّبَ الْمُنَافِقُونَ بِمَقَرِّكَ مِنْ قَوْفِهِمْ وَفَقَرَهُ «الْعَظِيمُ» الَّذِي مِنْ

إياهم، فقد غلطوا أقيح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عمومًا بتدبيره ونفوذ القدر فيهم. ويتولى عباده المؤمنين خصوصًا، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم.

﴿وَهُوَ يَحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة والقدر، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

(١٠-١٢) ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ قَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَأَيْسَ كَيْدِيهِمْ شَتَّىٰ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ لَمْ يَمْلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْبِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكْنِى شَيْءٌ عَنِّي﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، فما حكمًا به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه. فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ. ولا بد أن يكون اتفاقها موافقًا لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع، ودفع المضار، واثقًا به تعالى في الإسعاف بذلك، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أتوجه بقلبي وبديني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيرًا ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، وفوته الكمال بفوتهما، أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَبْدٌ وَإِنَّكَ نَسْتَبِينَ﴾ وقوله: ﴿فَاتَّبِعْهُ وَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

﴿قَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما بقدرته ومشيته وحكمته ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لتسكنوا إليها، وتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: ومن جميع أصنافها نوعين، ذكرًا وأنثى، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل: أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أي: يبيثكم

عظمته ﴿كَذَٰلِكَ السَّمَوَاتُ يَنْصُرُكَ مِنْ دُونِكَ﴾ على عظمها وكونها جمادًا ﴿وَالْمَلَكُوتُ﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته ﴿يَسْبِخُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى ﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عمومًا، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - أجمعين - خصوصًا، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال البارئ تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبه وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى.

وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس يدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِكَلِيمٍ﴾ فتسال عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أدبت وظيفتك.

ثم ذكر مته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة المكرمة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق ﴿وَنُذِرَ﴾ الناس ﴿يَوْمَ النَّاسِ﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فَرِيقٌ فِي الْخُلَّةِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، ﴿وَفَرِيقٌ فِي الْعُورِ﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

﴿وَمَنْ هَذَا فُلُو شَاءَ﴾ لجعل الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمته مَنْ شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصلاح، فإنهم محرومون من الرحمة، ف ﴿مَنْ هُمْ﴾ من دون الله ﴿وَمِنْ وَلِيِّ﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿وَلَا نَصِيرَ﴾ يدفع عنهم المكروه. والذين ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم بعبادتهم

الذي شرع الله لهم، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم، موافقاً لكمالهم، بل إنما كلمهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولاً الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رضى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَقْبَمَ الَّذِينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان ﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً وتكونون شيماً، يعادي بعضهم بعضاً، مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والاعیاد، والجُمُع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ عِدَّةً أَسْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقولهم: ﴿تَمَلَّ الْقُلُوبُ إِلَهُهَا وَجِئْتُ بِهَا هَذَا لِقَاءُ نَجَاتٍ﴾.

﴿اللَّهُ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يختار من خلقه من يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته ومنه أن اجتنى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه. فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ وَصَوْنَكُمْ سُبُلَ السَّكِينَةِ﴾.

وفي هذه الآية، أن الله ﴿يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ مع قوله ﴿وَاتَّبَعَ سُبُلَ مَنْ آتَى إِلَى﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

(١٤، ١٥) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ

ويكثركم ويكثر مواشيكم بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفة^(١) كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿الْبَصِيرُ﴾ يرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها، دليل لمذاهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَكَاتِ وَالْأَنْهَارِ﴾ أي: له ملك السماوات والأرض، ويده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة. فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء.

والله تعالى هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و ﴿مَا يَفْقَهُ اللَّهُ النَّاسَ مِنْ تَحْوٍ فَلَا مَشِيكَ لَهَا وَمَا يَشِيكَ فَلَا مَرِيضَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء، حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته، فلهاذا قال: ﴿إِنَّهُ يَكْلَأُ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ فيعلم أحوال عباد، فيعطي كلأ ما يليق بحكمته، وتقتضيه مشيئته.

(١٣) ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباد، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها؛ دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباد، بل شرعه الله لخيار الخير، وصفة الصفة وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه. فالدين

(١) كذا في النسخين، ولعل الصواب: (صفات).

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِذْ أَجْلَى مِثْقَالٍ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ وَإِلَى الَّذِينَ أُورُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنَى شَلَى مِنْهُ مُرِيبٌ ۝ فَلِلَّذَلِكَ قَادَعٌ وَأَسْفَقٌ ۖ كَمَا أَمُرْتُ وَلَا تَنْفَعُ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمُرْتُ لِأَعْمَلُ بِحُكْمِ اللَّهِ رَبِّنَا وَرَبِّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۖ لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى دِينِهِمْ، وَنَهَايَهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ، أَخْبَرَهُمْ أَنْكُمْ لَا تَغْتَرُّوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ، فَإِنْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَمْ يَتَفَرَّقُوا حَتَّى أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ الْمَوْجِبَ لِلْاجْتِمَاعِ، فَفَعَلُوا ضِدَّ مَا أَمَرَ بِهِ كِتَابُهُمْ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بَغْيٌ ۖ وَعَدُونَا مِنْهُمْ، فَلِإِذِهِمْ تَبَاغَضُوا وَتَحَاسَدُوا، وَحَصَلَتْ بَيْنَهُمُ الْمَشَاحَنُ وَالْعَدَاوَةُ، فَوْقَ الْاِخْتِلَافِ. فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: بتأخير العذاب القاضي ﴿إِنَّ أَجَلَ أُولَئِكَ لَأُفَىٰ لَهُمْ﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ أُولُوا إِلَهُكُمُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين ورثوهم، وصاروا خلقاً لهم، ممن يتسبب إلى العلم منهم ﴿لَنُيَسِّرَنَّ لَهُمْ سُبُلَهُمْ﴾ أي: لفي اشتباه كثير يقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعناداً، فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: فللذين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه، وأرسل رسله، فادع إليه أمتك، وحضهم عليه، وجاهد عليه مَنْ لم يقبله ﴿وَأَسْتَوِيحُمْ﴾ بنفسك ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك. فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وتكميل غيره، بالدعوة إلى ذلك.

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأئمة، إذا لم يرد تخصيص له.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين، إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: «ولا تتبع دينهم» لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿وَقُلْ﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^١ من كتاب^٢ أي: لتكون مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل

فَاطْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَيْفِيلُهُ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾
﴿١٣﴾ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَاهُ بِإِبراهيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ
وَلَا تَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْعَلُ لِلَّهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٤﴾ وَمَا
تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كِمَّةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفَقَضَى بَيْنَهُمْ وَلِلَّذِينَ
أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقِيَ شَكٌّ مِنْهُ مُبِينٌ ﴿١٥﴾
فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ ءَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب، أنهم عليه، جزء من الإسلام. وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي يتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقاً بهذا القرآن، وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا، إلاّ بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقررة بصحته.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وَأَمَرْتُ لِعَدْلِ يَتِيمَكُمْ﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب. من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا ﴿لَقَدْ أَعْلَمْنَاكُمْ﴾ من

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَنَّهَتْمْ
 دَاجِضَةً عَنْ دَرَجاتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
 ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
 لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
 أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارَضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
 اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
 ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَتْ بُرْدُ حَرْثِ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ
 كَانَتْ بُرْدُ حَرْثِ الدُّنْيَا تَوَتَّعَتْ مِنْهَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
 نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ أَسْرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ
 مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّلَ بِهِمْ
 وَلَئِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ
 لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

خير وشر ﴿لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: بعدما تبين الحقائق،
 واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق
 للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو
 بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على
 الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف
 والله يقول: ﴿وَلَا تَحْجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالنَّبِيِّ أَمْرٍ﴾
 وإنما المراد ما ذكرنا.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يوم القيامة، فيجزئ كلًّا
 بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

(١٦) ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَنَّهَتْمْ
 دَاجِضَةً عَنْ دَرَجاتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وهذا تقرير
 لقوله: ﴿لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ فأخبر هنا أن ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ
 فِي اللَّهِ﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة ﴿وَمَنْ بَعْدَ مَا
 اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ أي: من بعد ما استجاب لله أولو الألباب
 والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين
 الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق، من بعد ما تبين ﴿جَنَّهَتْمْ
 دَاجِضَةً﴾ أي: باطلة مدفوعة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لأنها مشتملة على
 رد الحق، وكل ما خالف الحق فهو باطل.

﴿وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله
 وبياناته وتكذيبها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو أثر غضب الله
 عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

(١٧، ١٨) ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
 لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ
 آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارَضُونَ فِي
 السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بيّنة،
 بحيث استجاب لها كل مَنْ فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل
 جميع الحجج التي أوصّلها إلى العباد، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل
 بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات
 بيّنات، وأدلة واضحات، على جميع المطالب الإلهية
 والمعتقد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح
 والعقل الرجح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية
 والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل،
 والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى
 ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما اشبه من الأمور، ويعرفوا به
 صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين
 - عن الكتاب والميزان - مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل،

أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت
 أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه.

يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين
 راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه. وأما
 مَنْ اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المصمومة، ولم تنفذ
 بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا
 من فرسان هذا الميدان، فوافقه وخلافه سبان.

ثم قال تعالى مخوفًا للمستعجلين لقيام الساعة، المنكرين
 لها، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: ليس بمعلوم
 بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت، متوقع وقوعها،
 مخوف وجبتها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عنادًا وتكديًا،
 وتعجيزًا لربهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون،
 لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال،
 وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم
 ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية
 فيه، ولا شك يعتره ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارَضُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي:

تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها ﴿تُؤْتِيهِ مِنهَا﴾ نصيبه الذي قسم له ﴿وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبُّنَا يُؤْتِيهِمُ لَهَا فَوْزَ وَنَصِيبًا وَكُلَّمَا دَخَلَ فِيهَا وَفَرَّ بِهَا لَا يُبَحِّثُونَ﴾ إلى آخر الآيات.

(٢١-٢٣) ﴿لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ وَإِنَّ أَكْثَرِيهِمْ لَفِي ضَلَالٍ عَظِيمٍ ۝ تَرَى الظَّالِمِينَ مُسْتَفِيزِينَ بِمَا كَسَبُوا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ لِقَوْمِهِ الْآيَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَشْكُرَ عَلَيْهِ نَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرِضْ سَنَةً رِّدْ لَمْ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشركونهم وإياهم^(١) في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد، ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفسقة المشركين هم وأبأؤهم^(٢) على الكفر.

﴿لَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ﴾ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لفتن بهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل، لأن المقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

وفي ذلك اليوم ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مُسْتَفِيزِينَ﴾ أي: خافين وجلين ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا (١) كذا في الأصل، ولعل الصواب (هم وأولئك). (٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب (المشركين مع قباهم).

بعدها امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق.

وأَيُّ بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله؟ وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها، وهي دار عبور وممر، لا محل استقرار.

ففسدوا بالدار المضمحلة الغانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً، وأغزهم علماً، وأعظمهم فطنةً وفهماً.

(١٩، ٢٠) ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْغَنِيُّ ۝ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ رَدَّ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ يخبر تعالى بلطفه بعباده ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا لطيفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى، معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك، من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام، أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية التي بها تفوى عزائمهم، وتنبعث همهم، ويحصل منهم التنافس على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها، مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصيته صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بحسب اقتضاء حكيمته ولطفه ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْغَنِيُّ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿رَدَّ لَمْ فِي حَرْثِهَا﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال

وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا التَّوْبَةُ فِي الْفَرَقِ﴾ أي: في التقرب إلى الله.

وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجرًا بالكلية، إلا أن يكون شيئًا يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْضُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وقوله: «ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك».

﴿وَمَنْ يَفْرَقْ حَسَنَةً﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿تَزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ بأن يشرح الله صدره، ويسر أمره، ويكون سببًا للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والأجل.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت، عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فيمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، ويشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافًا كثيرة.

(٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخْلِقُ الْغَيْبَ بِكَيْفِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذبًا: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فمؤكد بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرأون على هذا الكذب الصراح؟.

بل تجرأوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكنتك من هذه الدعوة العظيمة المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنته الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة الفاهرات، والنصر الممين، والاستيلاء على مَنْ خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ، فلا يعي شيئًا ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر. ولهذا من حكمته ورحمته، وشئته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿وَيُخْلِقُ الْغَيْبَ بِكَيْفِهِ﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل،

يقع، أخبر أنه ﴿رَافِعٌ يَمِّمُ﴾ العقاب الذي خافوه، لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعات فيه الإنظار والإمهال.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم بالله وكتبته ورسله، وما جاءوا به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يشمل فيه كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء ﴿فِي رَوْحَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض الموثقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب.

رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسنا وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقًا إلى لذاتها وودادًا ﴿لَمَّا مَّا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ فيها أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتعظيم بقربه في دار كرامته؟.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْآيِينَ نَاسُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أَجْرًا﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا التَّوْبَةَ فِي الْفَرَقِ﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أجرًا واحدًا هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني في القربة، أي: لأجل القربة، ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القربة، لأنه ﷺ قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ولرسول الله ﷺ فيه قربة.

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها

ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الأبواب، حتى إن من جملة إحفاقه تعالى الحق، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه صال عليه الحق ببراهينه وبيانه، فظهر من نوره وهده ما به يضمحل الباطل وينتفع، وتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿إِنَّكُمْ عَلَيْكُمْ بِذَاتِ الشُّدُورِ﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكتته ولم تبده.

(٢٨-٢٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتْلُو آيَاتِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَيَعْقُوبُ عَنْ الشَّيَاطِينِ وَيَعْلَمُ مَا فَكَّرُوا ۚ وَيَنْهَى عَنِ الْعَدْوِ وَيَأْمُرُ بِالْعِلَّةِ وَيُزِيدُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۚ وَلَوْ سَئَلْتُمْ أَهْلَ الْبُيُوتِ لَنَحْوُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُزِيلُ ظُنُّهُمَا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَيْنِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْغَوِيُّ الْحَكِيمُ﴾ هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتعام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم، ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سببا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿وَيَعْقُوبُ عَنْ الشَّيَاطِينِ﴾ ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضت من العقوبات، ويعود النائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط، ويحبه ويوفقه لما يقربه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَقْتَضُونَ﴾.

فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه، والتوبة من التفسير، فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين:

مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه ويتقادرون له، ويلبون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

وزادهم من فضله توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر، زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله، ف﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

٤٨٦ ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْعُمُودَ فِي الْقُرْآنِ وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَحْمِلْهُ عَلَى وَلَدٍ وَنَحْمُكَ اللَّهُ الْبَاطِلُ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمُنِي مَا يَشَاءُ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ سَئَلْتُمْ أَهْلَ الْبُيُوتِ لَنَحْوُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُزِيلُ ظُنُّهُمَا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَيْنِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْغَوِيُّ الْحَكِيمُ ﴿٣٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَأْبٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣٣﴾

ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم فقال: ﴿وَلَوْ سَئَلْتُمْ أَهْلَ الْبُيُوتِ لَنَحْوُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجب لهم الإكباب على ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً.

﴿وَلَكِنْ يُزِيلُ ظُنُّهُمَا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿إِنَّهُ يَبْصُرُ بِيكُمُ الْخَبِيرُ﴾ كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح لإيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح لإيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح لإيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح لإيمانه إلا المرض، ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدير أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير».

﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، «مِنْ بَيْنِ مَا قَنَطُوا» وانقطع عنهم مدة، ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فيزيل الله الغيث «وَيَنْشُرُ» به «رَحْمَتَهُ» من إخراج الأقوات للآدميين

لها البحر العجاج، وحفظها من النظام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل امتعكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك.

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إِنْ يَنْتَ سَيِّئًا يَكُنِ الْيَمُّ الْبَحْرَ﴾ التي جعلها الله سبباً لمشيها ﴿يَقْطُلَنَّ﴾ أي: الجوار ﴿وَرَوَّكَهُ﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا يتنقض هذا بالمراتب النارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار، بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويغفو عن كثير.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع دافع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه مُعْرِضٌ أو معاند، لا يتنفع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ فِي مَالِهِمْ لِيَبْلُوهَا بِمَا لَظُمَ إِلَيْهِمْ نَجِيصٌ﴾ أي: لا يتقدم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

(٣٦-٣٩) ﴿مَا أَوْفِيَتْ مِنْ شَيْءٍ قُلْعَ الْحَبِوَةِ الَّذِينَ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَقْبَلُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَيْبٍ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَجَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَرْزَقُوا مَوْلَاهُمْ يَوْمَهُمْ وَمَا ذَرَفْتُمْ يَفُوتُونَ ۝ وَالَّذِينَ لَهُ مَالٌ بَلِغٌ مُّ يَتَصَدَّقُونَ﴾ هذا تهديد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿مَا أَوْفِيَتْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية ﴿فَتَسْنَعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ لذة منغصة منقطعة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وَأَقْبَلُ﴾ لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر، ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَيْبٍ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

﴿وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ والفرق بين الكبار

وبهائهم، فيقع عندهم موقفاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون، ﴿وَهُوَ الْوَكِيلُ﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الأفضال.

(٢٩) ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْآيَاتُ وَمَا بَيَّنَّ فِيهَا مِنْ دَلِيلٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿الْأَنْسُوتِ وَالْأَنْسُوتِ﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيها من الإقناعات والإحكام دال على حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وَمَا بَيَّنَّ فِيهَا﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فقدرته ومشيتة صالحتان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخير الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

(٣٠، ٣١) ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا مَا كُنْتُمْ لَهَا كَاذِبِينَ وَيَعْلَمُونَ عَنْ كَثِيرٍ ۝ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يخبر تعالى أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم، وأموالهم وأولادهم، وفيما يجبون، ويكون عزيزاً عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يغفر الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿وَلَوْ يَرَاكُمُ اللَّهُ لَكُنْتُمْ مِمَّا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الظُّلُمَاتُ﴾ وليس إهمالاً منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما يفعله الله فيكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فيحصل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

(٣٢-٣٥) ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْآيَاتُ وَمَا بَيَّنَّ فِيهَا مِنْ دَلِيلٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿الْأَنْسُوتِ وَالْأَنْسُوتِ﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيها من الإقناعات والإحكام دال على حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغار، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه

لَمْ يَنْ سَبِيلٍ» يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه «مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ» بسبب ظلمه «فَمَا لَهُ مِنْ وَارٍ مِنْ بَعْدِهِ» يتولى أمره ويهديه.

«وَرَى الْقَلِيلِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ» مرأى ومنظراً قطعياً، صعباً شنيعاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم و «يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلٍ» أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

«وَرَبَّهُمْ يَمْشُرُونَ عَلَيْهَا» أي: على النار «وَحَشِيحِينَ مِنْ أَلْدَلِّ» أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، «يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشرزراً، من هيبتها وخوفها.

«وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا» حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: «إِنَّ الْخَبِيرِينَ» على الحقيقة «الَّذِينَ حَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ» حيث فرتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم، «أَلَا إِنَّ الْقَلِيلِينَ» أنفسهم بالكفر والمعاصي «فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ» أي: في سوائه ووسطه، منغمرين لا يخرجون منه أبداً، ولا يفر عنهم وهم فيه ملبسون.

«وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَمْشُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» كما كانوا في الدنيا يمتنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملاها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم، «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ» تحصل به هدايته، فهو لا ضلوا حين زعموا في شركائهم النفع، ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

(٤٨، ٤٧) «اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ» فإن أعرضوا فَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَيْطًا إِنْ عَاذَكَ إِلَّا الْبَلْغُ وَإِنَّا إِذَا أَفْقَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَرِحَ بِهَا وَإِنْ فَهِمَهُمْ سَكَنَةً بِمَا قَدَّمْتَ إِلَيْهِمْ فَبِئْسَ الْإِنْسَانُ كَذُورًا» يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك، وعدم التسويف من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت. وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه؛ فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخلق من خلفهم، ونودوا «يَسْمَعُونَ لَيْلًا وَالْإِنْسَانُ إِنْ اسْتَعْطَمَ أَنْ تَنْقُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السُّنُوتِ وَالْأَرْضِ قَائِدُونَ لَا تَنْقُذُوا إِلَّا يَسْلُطُنَ». وليس للعبد في ذلك

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يجب أن يعامله الله به، فكما يجب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يجب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: «إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْقَلِيلِينَ» الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

«وَلَمْ يَكُنْ أَنْصَرُ بَعْدَ ظُلْمِهِ» أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه «وَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» أي: لا حرج عليهم في ذلك.

ودل قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ» وقوله: «وَلَمْ يَكُنْ أَنْصَرُ بَعْدَ ظُلْمِهِ» أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديباً يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

«إِنَّمَا السَّبِيلُ» أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية «عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمانهم وأموالهم وأعراضهم، «وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي: موجه للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

«وَلَمْ يَكُنْ سَبِيلٌ» على ما يناله من أذى الخلق «وَيَقْتَرُونَ» لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم «لِيَذَرَ ذَلِكَ لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الالباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالاحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على مَنْ يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك. ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

(٤٤-٤٦) «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَارٍ مِنْ بَعْدِهِ» وَرَى الْقَلِيلِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلٍ ○ وَرَبَّهُمْ يَمْشُرُونَ عَلَيْهَا حَشِيحِينَ مِنْ أَلْدَلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَبِيرِينَ الَّذِينَ حَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ أَلَا إِنَّ الْقَلِيلِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ○ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَمْشُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ○

اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر شهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عما جنتهم به بعد البيان التام ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تحفظ أعمالهم وتسال عنها، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَّغُ﴾ فإذا أدبت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذاقه الله رحمة، من صحة بدن وورق رغد، وجاه ونحوه ﴿فَرِحَ بِهِ﴾ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المنعم.

﴿وَإِنْ تُبْهِمُهُمْ سِنَةٌ﴾ أي: مرض، أو فقر، أو نحوهما ﴿بِمَا قَدَّمَتْ إِلَيْهِمْ﴾ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كُفُورٌ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السنية.

(٥٠، ٤٩) ﴿لِلَّهِ مَثَلُ الْسَّاعَاتِ وَالْأَرْضُ يَتْلُقَ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذَّكُورَ ۚ أَوْ يُرْسِلُ سَحَابًا مَرْمِجًا مِّنْ سَحَابٍ عَقِيمًا إِنَّهُ عَنَدَ رَبِّهِ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا الْإِخْبَارُ عَنْ سَعَةِ مَلِكِهِ تَعَالَى، وَتَفَرُّدِ تَصَرُّفِهِ فِي الْمَلِكِ فِي الْخَلْقِ لِمَا يَشَاءُ، وَالتَّجَرُّبِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ، حَتَّى إِنْ تَدِيرُهُ تَعَالَى، مِنْ عَمُومِهِ، أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوقَةَ عَنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَبَاشِرُهَا الْعِبَادُ، فَإِنَّ النِّكَاحَ مِنَ الْأَسْبَابِ لَوْلَادَةِ الْأَوْلَادِ، فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُعْطِيهِمْ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا يَشَاءُ.

فمن الخلق مَنْ يهب له إناثاً، ومنهم مَنْ يهب له ذكوراً، ومنهم مَنْ يزوجه، أي: يجمع له ذكوراً وإناثاً، ومنهم مَنْ يجعله عقيماً لا يولد له.

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ بكل شيء ﴿قَبِيرٌ﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته.

(٥١-٥٢) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِنْ أَمْرٍ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ، مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِلَيْكَ تُهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ آتٍ إِلَى اللَّهِ صَبِيرٌ الْأَثَرُ﴾ لما قال المكذبون لرسل الله، الكافرون بالله: ﴿لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ يَأْتِينَا نَبِيٌّ﴾ من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من

وَرَبَّنَّهُمْ يُعَرِّشُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَتِ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَشِيعَتِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ أَفْلَحَ لَعِينٌ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۝ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُوهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۝ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرٍ ۝ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَّغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مَتَاعَ رَحْمَةٍ فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سِنَةٌ يُعَاذُوا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كُفُورٌ ۝ لِلَّهِ مَثَلُ السَّاعَاتِ وَالْأَرْضُ يَتْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذَّكُورَ ۝ أَوْ يُرْسِلُ سَحَابًا مَرْمِجًا مِّنْ سَحَابٍ عَقِيمًا إِنَّهُ عَنَدَ رَبِّهِ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا الْإِخْبَارُ عَنْ سَعَةِ مَلِكِهِ تَعَالَى، وَتَفَرُّدِ تَصَرُّفِهِ فِي الْمَلِكِ فِي الْخَلْقِ لِمَا يَشَاءُ، وَالتَّجَرُّبِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ، حَتَّى إِنْ تَدِيرُهُ تَعَالَى، مِنْ عَمُومِهِ، أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوقَةَ عَنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَبَاشِرُهَا الْعِبَادُ، فَإِنَّ النِّكَاحَ مِنَ الْأَسْبَابِ لَوْلَادَةِ الْأَوْلَادِ، فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُعْطِيهِمْ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا يَشَاءُ.

العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه:

إما أن يكلمه الله وحياً بأن يلقى الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهاً.

﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كلم الرحمن.

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي ف ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِي بِأُذُنِهِ﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه.

﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى على الذات على الأوصاف، عظيمها، على الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرٍ﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير، والعلم الغزير.

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 حَمْ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ لَدِينًا
 لِّعَالِي حِكْمٍ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا
 أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ
 الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَاوَأَيُّهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ
 ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ
 ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
 خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
 مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝

سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتُ نَذِيرٌ﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أميًا لا تخط ولا تقرأ، فجاك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْتَهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: تبيته لهم وتوضحه، وتنبه وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضلعه، وترهبهم منه، ثم فسر الصراط المستقيم فقال:

﴿صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ﴿إِلَّا إِلَىٰ أَوَّلِ صَيْرُ الْأُمُورِ﴾ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كلًا بحسب عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

تم تفسير سورة الشورى - والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهرًا وباطنًا، على تيسره وتسهيله.

تفسير سورة الزخرف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) - حَمْ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ لَدِينًا لِّعَالِي حِكْمٍ ۝
 أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝ هذا
 قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم
 يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من
 أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ هذا المقسم عليه، أنه جُعِلَ بأفصح
 اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه، وذكر الحكمة في
 ذلك فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها
 وقربها من الأذهان.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في هذا الكتاب ﴿لَدِينًا﴾ في الملا الأعلى في
 أعلى الرتب وأفضلها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لعلي في قدره
 وشرفه ومجده، حكيم فيما يشتمل عليه، من الأوامر والنواهي
 والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.
 ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده
 هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو

كانوا مسرفين ظالمين فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي: أفعرض عنكم، وترك إزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم وعدم اتقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن أمتتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

(٦-٨) - ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَاوَأَيُّهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم هملاً، فكم ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ بأمر ونهيم عبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: سألتموه ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: سألتموه ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت أمثالهم وأخبارهم، وبيننا لكم منها ما فيه عبرة ومزدرج عن التكذيب والانكار.

﴿٩﴾

٤٩٠

﴿١٠﴾

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْزَلْنَاهُ بِلَدِّهِ مَيْسًا
كَذَلِكَ نُخْرِجُوهُ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَهُكُمُ
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِي بَيْنِهِمْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا الْإِنْسَانَ
لَكَغُورٍ مُبِينٍ ﴿١٥﴾ أَمْ أَلْهَى أَفْئِدَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاصْفَنَكُمْ
يَا بَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَن يَنْتَوَى فِي
الْجَلِيلَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَاوَةِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنْسًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَكَتَ كُلُّ
شَهِدَتِهِمْ وَاسْتَوَوْا ﴿١٩﴾ وَقَالُوا الْوَيْلَ لِلرَّحْمَنِ مَا عَدَّتْهُمْ
مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَلْهَى
كُتُبًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا
إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره،
من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد،
ويصلى له ويسجد.

(١٥-٢٥) ﴿٢٥﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ
مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ أَمْ أَلْهَى أَفْئِدَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاصْفَنَكُمْ يَا بَنِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا بَشَّرَ
أَحَدَهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ أَوْ مَن يَنْتَوَى فِي
الْجَلِيلَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَاوَةِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنْسًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَكَتَ كُلُّ
شَهِدَتِهِمْ وَاسْتَوَوْا ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا الْوَيْلَ لِلرَّحْمَنِ مَا عَدَّتْهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ
مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٣١﴾ أَمْ أَلْهَى كُتُبًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ
مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٣٢﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ
مُهْتَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَرْغُوبًا
إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُتَّفِقُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ أُولَئِكَ
جَحْفَتُ آبَائِكُمْ مِمَّا وَدَّعْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ
كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ كَيْفَ كَانَ عَقِبُ الْمُكْفِرِينَ ﴿٣٦﴾ يخبر
تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً،
وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا

(٩-١٤) ﴿٩﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٠﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ
لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
يَقْدِرُ فَأَنْزَلْنَاهُ بِهِ بِلَدِّهِ مَيْسًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهُ ﴿١٢﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ
كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ
لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا إِلَهُكُمُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَنْ فِي بَيْنِهِمْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾ وَجَعَلُوا اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ دَانَتْ لِعَزَمَتِهِ جَمِيعُ
المخلوقات، العلیم بظواهر الأمور وبواطنها وأوائلها
وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد
والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به مَنْ لَا يَخْلُقُ وَلَا
يَرْزُقُ، وَلَا يُمِيتُ وَلَا يُحْيِي؟!.

ثم ذكر أيضاً، من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره،
بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قراراً للعباد،
يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

﴿١٠﴾ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴿١١﴾ أي: جعل منافذ بين سلاسل
الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأنظار
﴿١٢﴾ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣﴾ في السير في الطرق ولا تضيعون،
ولعلكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

﴿١٤﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ ﴿١٥﴾ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ،
ويكون أيضاً بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه
نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلا، بل أغاث به العباد،
وأقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: ﴿فَأَنْزَلْنَاهُ بِهِ بِلَدِّهِ مَيْسًا﴾
أي: أحييناها بعد موتها ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُوهُ﴾ أي: فكما أحيا
الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعدما تستكملون
في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم.

﴿١٦﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا ﴿١٧﴾ أي: الأصناف جميعها، مما
تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار،
وحر وبرد، وذكر وأُنثى، وغير ذلك ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ﴾
أي: السفن البحرية، الشراعية والنارية ما تركبون ﴿وَمِنْ﴾ من
الأنعام ما تركبون ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وهذا شامل لظهور
الفلك والظهور الأنعام، أي: لتستقروا عليها، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها،
والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي
سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: لولا تسخيرها لنا ما
سخر من الفلك والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه،
ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلكها ويسر أسبابها.

ثم قال: ﴿لَمْ يَلِدْكُمْ سَبَكْنَا مِنَ قَبْلِهِمْ فَمَهْ يَوْمَ مَسْمُوكُونَ﴾
يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟.

ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم
لم يأتهم نذير غيره. أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى
الأمران، فلا ثم إلا الباطل.

نعم، لهم شبهة من أوهي الشبهة، وهي تقليد آبائهم الضالين
الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال
هنا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ شَرٍّ مِمَّا رَكَّبْنَا لَهُ﴾
﴿وَأَنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُتَقِدُونَ﴾ أي: فلا تنبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾
أي: ممنوعوها، وملاها الذين أطلعتهم الدنيا، وغرتهم
الأموال، واستكبروا على الحق: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ شَرٍّ مِمَّا رَكَّبْنَا لَهُ﴾
﴿وَأَنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُتَقِدُونَ﴾ أي: فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا
بأول من قال هذه المقالة.

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم
لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما
هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل.

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة:
﴿أَوَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ آيَاتٍ وَمَا يَجْعَلُ عَلَيْكَ آيَاتٍ﴾ أي: فهل تتبعوني
لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فعلم بهذا،
أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدوا اتباع
الباطل والهوى.

﴿فَانفَعْنَا بَيْنَهُمْ وَتَكْذِيبُهُمْ﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه بهذه الشبهة
الباطلة ﴿فَانفَعْنَا بَيْنَهُمْ وَتَكْذِيبُهُمْ﴾ فليحذر هؤلاء أن
يستمروا على تكذيبهم، فيصيبهم ما أصابهم.

(٢٦-٣٢) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۖ إِلَٰهِي الَّذِي قَفَّيْتُ عَنْكَ سُبُوحًا ۖ وَجَعَلَهَا كَمِثْلِ هَٰذِهِ فِي عَقِيدَةٍ ۖ لَهَا ثَمَرٌ كَثِيرٌ ۖ لَهَا ثَمَرٌ كَثِيرٌ ۖ وَكَأَنَّهُمْ يُرْسِلُونَ ۖ وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ۖ وَأَوَّلُ حَتَّىٰ جَاءَهُمْ الْحَقُّ ۖ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ۖ وَقَالُوا لَا تَنْتَهِزْ هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّ عَظِيمٍ ۖ أَمْرٌ يُفْسِدُ فِي رَحْمَةِ رَبِّكَ ۖ تَحْنُ سَمَاتٍ ۖ يَتَّبِعُ فِيهِمْ الْغَيْبُ الَّذِي لَا يَرَوْنَ ۖ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ۖ لِيَجْزِيَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ سَخِرَ ۖ وَرَحِمْتَ رَبُّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْكُمُونَ﴾ يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام،
الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه
على طريفته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة
يعبدونها، ويتقربون إليهم:

﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: مبغض له، مجتنب معاد

ولذا، ولم يكن له كفواً أحد. وإن ذلك باطل من عدة أوجه:
منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من
خلقه، مبين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من
الوالد، فمحال أن يكون الله تعالى ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم
أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون الله البنات، ويصطفيهن
بالبنين، ويفضلهم بها؟ فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله
عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها: أن الصنف الذي نسبوه الله، وهو البنات، أدون
الصنفين، وأكرهما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك ﴿إِذَا بُعْثِرَ أَعْدُهُمْ بِمَا صُرِبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ۖ ذَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا﴾ من
كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون الله ما يكرهون؟.

ومنها: أن الأئمة ناقصة في وصفها، وفي منطقتها وبيناتها،
ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَسْتَغْنَىٰ فِي الْآلِيَةِ﴾ أي: يجمل
فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه؟ ﴿وَهُوَ فِي الْفُتُوحِ﴾ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص
من الكلام ﴿غَيْرَ شَيْءٍ﴾ أي: غير مبین لحجته، ولا منصف عما
احتوى عليه ضميره، فكيف ينسبونهم لله تعالى؟.

ومنها: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً
فتجروا على الملائكة، العباد المقربين، ورفقهم عن مرتبة
العبادة والذل، إلى مرتبة المشاركة لله، في شيء من خواصه،
ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثة، فسبحان
مَنْ أظهر تناقض مَنْ كذب عليه، وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله
لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه
ليس لهم به علم؟ ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة،
وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ فاحتجوا
على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون
يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلاً وشرعاً، فكل
عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من
أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعاً فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره
عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام
الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا
قال هنا: ﴿مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَعْزُبُونَ﴾ أي:
يتخرون تخرفاً لا دليل عليه، ويتخطبون خبط عشواء.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٦﴾
﴿قُلْ أُولَئِكَ حُكْمُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا
إِنَّمَا أَنزَلْنَا إِلَهُكُمْ بِالْهَدْيِ ۖ وَكُفِّرُوا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ فَكَفَىٰ
كَانَ عَقِبَهُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
إِنِّي بَرَاءٌ لِمَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ
﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَآئِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾ بَلْ
مَنَعَتْهُمْ هَؤُلَاءِ رُءُوسَهُمْ وَإِذْ أُنذِرَهُمْ أَنَّ إِلَهُكُمُ اللَّهُ ۖ فَقَالُوا
وَلَكُم آلهَةٌ مَعَهُ ۖ فَانظُرُوا إِلَٰهَهُمْ ۖ فَانظُرُوا إِلَٰهَهُمْ ۖ فَانظُرُوا
لَوْ لَا نَزَّلَ هَٰذَا الْفُورُ ۖ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٠﴾ أَهْمُ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۖ إِنَّهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّ الرِّيحَ الَّتِي نَقُصُّهُمْ بِهَا
الَّذِي ۖ وَفَعَلْنَا بِبَعْضِهِمْ قَوْلًا ۖ دَرَجَتٍ لَّيْسَ بِبَعْضِهِمْ
بَعْضًا ۖ سَخِرَ لَكَ خَلْقٌ مِمَّا يَكْمُلُونَ ﴿٣١﴾ وَلَوْ لَا
أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً ۖ وَجَدْنَا لَمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
لَيُؤْتِيَهُمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٢﴾

ويضيقه على مَنْ يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي
أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى،
فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها،
دينها وديونها، بيد الله وحده، هذا إقناع لهم من جهة غلظهم
في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم
منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لَوْ لَا نَزَّلَ هَٰذَا الْفُورُ ۖ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لو
عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر
الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن
عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً،
وأعلامهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم
رأياً وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة،
وأشدهم شفقة، وأهداهم ألقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف
الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك
أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون مَنْ لم يشم

لأهله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم
بالحق والعمل بالحق، فكما فطرني وديربي بما يصلح بدني
ودنياي ف ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لما يصلح ديني وآخرتي.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة التي هي أم الخصال
وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبري من عبادة
ما سواه.

﴿كَلِمَةً بَآئِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي: ذريته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها
﴿يَرْجِعُونَ﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيهِ
- كإسحاق ويعقوب - لبعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ رَّعَىٰ
عَن يَلَدٍ لِّإِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ إلى آخر الآيات.

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى
دخلهم الترف والطمعاني.

فقال تعالى: ﴿بَلْ مَنَعَتْهُمْ هَؤُلَاءِ رُءُوسَهُمْ﴾ بأنواع الشهوات،
حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يترى
حيها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد
متأصلة ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ النَّفْثُ﴾ الذي لا شك فيه، ولا مرية ولا
اشتباه ﴿وَنَزَّلَ ثُبُورًا﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته
قيماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به
المرسلين، وبفسد دعوته ﷺ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ النَّفْثُ﴾ الذي يوجب على مَنْ له أدنى دين
ومعقول أن يقبله وينقاد له ﴿قَالُوا هَٰذَا يَسْحَرُونَ﴾ كقولهم
وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد
الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به
قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به
إلا أخبت الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك
طمعائهم بما منحهم الله به وآبأهم.

﴿قَالُوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لَوْ لَا نَزَّلَ
هَٰذَا الْفُورُ ۖ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: معظم عندهم،
مبجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة
ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله ردّاً لاقتراحهم: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي:
أهم الخزان لرحمة الله، ويدهم تدبيرها، فيعطون النبوة
والرسالة مَنْ يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟.

﴿إِنَّمَا يَحْكُمُ بِهَا النَّفْثُ﴾ أي: الخلق الذي لا يملكه الله، ولا يملكه
بعض دَرَجَتٍ ﴿أَي: في الحياة الدنيا، ﴿وَالْحَالُ أَنَّ
رَحْمَتَ رَبِّكَ حَزْزٌ مِّمَّا يَكْمُلُونَ﴾ من الدنيا.

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى،
هو الذي يقسمها بين عباده، فيسقط الرزق على مَنْ يشاء،

مثقال ذرة من كماله؟!)

ومن جرمه ومنتهى حقه، أن جعل إلهه الذي يعبدوه ويدعونه ويغرب إليه، صنماً، أو شجرة، أو حجراً، لا يضرب ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كلٌّ على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟.

فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿لِيُخْذَ بِهِمْ بَعْضًا سُمْئًا﴾ أي: لیسخر بعضهم بعضاً في الأعمال والجرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطل كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدينية خيرٌ من النعمة الدنيوية، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَقُولِ اللَّهُ وَبِحَجَرٍ فَيَذَلُكَ لَيَفْرِحُوهُ حَبِيرٌ﴾.

(٣٣-٣٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ يَكُونُ الْإِنْسَانُ أَشْكُرًا لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ إِيَّاهُمُ سَفْهًا مِّنْ فَضْلِهِ وَمَعَالِجَ عَلَيْهِ يَظْهَرُونَ ۝ وَيُؤْمِنُ بِهِمْ أَتَانَا وَنُرَادُّ عَلَيْهِمْ يَكْفُورُونَ ۝ وَخُفِّرُوا كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، لوسّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولجعل: ﴿إِيَّاهُمُ سَفْهًا مِّنْ فَضْلِهِ وَمَعَالِجَ﴾ أي: درجاً من فضة. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ إلى سطوحهم.

﴿وَيُؤْمِنُ بِهِمْ أَتَانَا وَنُرَادُّ عَلَيْهِمْ يَكْفُورُونَ﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زُخْرُفًا﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون.

ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي، بسبب حب الدنيا.

ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، منغصة، مكدره، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمؤمنين لربهم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، فما أشد الفرق بين الدارين!!

(٣٦-٣٩) ﴿وَمَن يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لِّمَن سَبَّحْنَا فَهْوَ لَمْ

قَرِينٌ ۝ وَإِنَّمْ لِّصُدُورِهِمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُنَّ قَالَ يَبَتَّلَ يَبْنَىٰ وَيَبْنَىٰ بَعْدَ السَّرِقَاتِ فَبَسَّ الْقَرِينُ ۝ وَكَانَ يَنْفَعُكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتَّكُرُ فِي الْعَذَابِ مُتَسَرِّكُونَ﴾ يخبر تعالى عن عقوبته البليغة لمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿وَمَن يَعِشْ﴾ أي: يعرض ويصد ﴿عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والراغب، ومن أعرض عنها وردّها، فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبداً، وقبض له الرحمن شيطاناً مريداً يقارنه ويصاحبه، ويعدّه ويمنيه، ويؤزّه إلى المعاصي أذاً.

﴿وَإِنَّمْ لِّصُدُورِهِمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟.

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم [من] الانتهاء.

فزهدها في الهدى مع القدرة عليه، وغبوا في الباطل، فالذب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغنى، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبري من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُنَّ قَالَ يَبَتَّلَ يَبْنَىٰ وَيَبْنَىٰ بَعْدَ السَّرِقَاتِ فَبَسَّ الْقَرِينُ ۝

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُ الظَّالِمَ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَبَتَّلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَتَوَلَّىٰ لَنِي لَّئِنْ لَّمْ أَفْقَدْ فَلَأَنَّا نَحْنُ لَكُمْ ۝ لَقَدْ أَهْلَكْنَا عَنِ الْوَكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَهُنَّ وَكَانَ الْكَلْبُ يَلْبَنُ الْإِنْسَانَ خَذُلًا ۝

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتَّكُرُ فِي الْعَذَابِ مُتَسَرِّكُونَ﴾ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرنائكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.

ولن ينفعكم أيضاً روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشتراك فيها المعاقبون، هان عليهم

٤٩٢

الزخرف

وَلْيُؤْمِنُوا بآيَاتِهِ وَسِرِّهَا عَلَيْهَا يَكْهُونَ ﴿٤١﴾ وَزُخْرُ قُلُوبِهِمْ
كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٢﴾ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ سَيْطَانًا
فَهُوَ لَعِينٌ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٤٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ نَارُكَ بَلَكَتِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
بَعْدَ الْمَسْرِ قَيْنِ فَبَسَّ الْقَرِينُ ﴿٤٥﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ
إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُحْكَمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٤٦﴾ أَفَأَنْتَ شَهِيعٌ
أَلَمْ تَأْتِهِدِ الْعَمَىٰ وَمَنْ كَانَتْ فِي صُلْبِكَ مُبِينٌ ﴿٤٧﴾
فَأَمَّا نَذِيرٌ يَكُ فَائِنًا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤٨﴾ أَوُتِرِكَ آلُكَ
وَعَدَتُهُمْ فَأَنَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٩﴾ فَاسْتَسْقِ بِآلِكَ أَوْحَىٰ
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُنْشَلُونَ ﴿٥١﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلَهُهُ يُعْبَدُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٥٤﴾

«إِلَهُهُ يُعْبَدُونَ» حتى يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها
أحدًا من الرسل.

فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحدًا
منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله، مع أن كل الرسل، من
أولهم إلى آخرهم، يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له،
قال تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَاتَجَنَّبُوا الطَّاغُوتَ» وكل رسول بعثه الله، يقول لقومه: اعبدوا
الله ما لكم من إله غيره. فدل هذا، أن المشركين ليس لهم
مستند في شركهم، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

(٤٦-٥٦) «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَئِهِ» إلى آخر القصة^(١). لما قال تعالى: «وَسَلِّ مَنْ
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلَهُهُ يُعْبَدُونَ»
بين تعالى حال موسى ودعوته، التي هي أشهر ما يكون من
دعوات الرسل، ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه،
فذكر حاله مع فرعون، فقال:

(١) وفي ذكر الآيات إلى آخرها.

بعض الهون، وتسلَّى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة،
فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه
الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك.

(٤٠-٤٥) «أَفَأَنْتَ شَهِيعٌ أَمْ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَمَنْ كَانَتْ فِي
صُلْبِكَ مُبِينٌ ۚ فَإِنَّا نَذِيرُ بِكَ فَائِنًا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ۚ أَوُتِرِكَ
آلُكَ وَعَدَتُهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ۚ فَاسْتَسْقِ بِآلِكَ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ
عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْشَلُونَ ۚ وَسَلِّ
مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلَهُهُ
يُعْبَدُونَ» يقول تعالى لرسوله ﷺ سلبًا له عن امتناع المكذبين
عن الاستجابة له، وأنهم لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم
إلى الهدى: «أَفَأَنْتَ شَهِيعٌ أَلَمْ تَأْتِهِدِ الْعَمَىٰ ۚ أَيُّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ ۚ أَوُتِرِكَ
آلُكَ وَالْعَمَىٰ ۚ الَّذِينَ لَا يَبْصُرُونَ، أَوُتِرِكَ ۚ مَنْ كَانَتْ فِي
صُلْبِكَ مُبِينٌ ۚ أَيُّ بَيْنٍ وَاضِحٍ، لعلمه بضلاله، ورضاه به.

فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمى لا يبصر،
والضال ضلالًا مبيِّنًا لا يهتدي، فهؤلاء قد فسد فطرتهم
وعقولهم بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا عقائد فاسدة،
وصفات خبيثة، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب
لهم الازدياد من الردى.

فهؤلاء لم يبق إلَّا عذابهم ونكالهم، إما في الدنيا، أو في
الآخرة، ولهذا قال تعالى: «فَأَمَّا نَذِيرٌ يَكُ فَائِنًا مِنْهُمْ
مُنْقِمُونَ» أي: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من
العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق أننا منهم منتمون.

«أَوُتِرِكَ آلُكَ وَعَدَتُهُمْ» من العذاب «فَأِنَّا عَلَيْهِمْ
مُقْتَدِرُونَ» ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو
تأخيره، فهذه حالك وحال هؤلاء المكذبين.

وأما أنت «فَاسْتَسْقِ بِآلِكَ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ» فعلاً وانصافاً، بما
يأمر بالانصاف به ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذ في نفسك
وفي غيرك «إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» موصل إلى الله وإلى دار
كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء،
إذا علمت أنه حق وعدل وصدق، تكون بانيًا على أصل
أصيل، إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام والظلم والجور.
«وَإِنَّهُ ۚ أَيُّ هَذَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمِ» هذا القرآن الكريم
فخر لكم، ومتقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف
وصفها، ويذكركم أيضًا ما فيه الخير الدنيوي والآخروي،
ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه. «وَسَوْفَ تُنْشَلُونَ»
عنه، هل قمتم به فارتفعتم واتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون
حجة عليكم، وكفرًا منكم بهذه النعمة؟

«وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والحكمة والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَشَدُّ لَهَا وَكُودًا﴾ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أن «ما» اسم لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.

الثاني: أن الخطاب للمشركين، الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصنامًا وأوثانًا، ولا يعبدون المسيح.

الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّبُونَ﴾ فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلون في هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا جَعَلْنَا مِنكُم مَّلَآئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي: لجعلنا بدلکم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطبقون أن نرسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلًا من جنسكم، تمكنون من الأخذ عنهم.

﴿وَلَئِنَّمَا لَعَلَّمُ الْإِنسَانَةَ﴾ أي: وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو، وإن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة.

﴿فَلَا تَسْتَكْبِرُوا﴾ أي: لا تشكروا في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر، ﴿وَالَّذِينَ﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله عز وجل.

﴿وَلَا يَصُدُّكُمُ الشَّقِيقُونَ﴾ عما أمركم الله به، فإن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات.

﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ﴿وَلَا بُيِّنَ لَكُمْ بَعْضُ الْآيِ تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أي: آيين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس.

فجاء عليه السلام مكملاً ومتمماً لشرعة موسى عليه

فَأَعْرِضْهُمْ لِمَتَابِكُمْ ○ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

(٦٥-٥٧) ﴿وَلَمَّا صُرِفَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُّونَ ○ وَقَالُوا يَا إِلَٰهِنَّ خَيْرُ مَن حُرِّمُوا لَكَ إِلَّا جَدًّا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيرُونَ ○ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ○ وَلَوْ كُنَّا جَعَلْنَا مِنكُم مَّلَآئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ○ وَإِنَّمَا لَعَلَّمُ الْإِنسَانَةَ فَلَا تَسْتَكْبِرُ فِيهَا وَالَّذِينَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ○ وَلَا يَصُدُّكُمُ الشَّقِيقُونَ إِنَّمَا لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ○ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَالْيَقِينَ ○ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعِزُّوهَا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ○ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ آيِسٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا صُرِفَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي: نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ المكذبون لك ﴿وَمِنْهُ﴾ أي: من أجل هذا المثل المضروب ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي: يستلجون في خصوصتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم، وأفلجوا.

﴿وَقَالُوا يَا إِلَٰهَهُنَّ خَيْرُ مَن حُرِّمُوا﴾ يعني: عيسى، حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على مَنْ عبدهم، ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَشَدُّ لَهَا وَكُودًا﴾.

ووجه حجتهم الظالمة، أنهم قالوا: قد نقرر عندنا وعندك يا محمد، أن عيسى من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة لم تتناقض.

ولم قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَشَدُّ لَهَا وَكُودًا﴾ وهذا لفظ بزعمهم، يعم الأصنام وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها.

هذا أنهى ما يقررون به هذه الشبهة [الذي]^(١) فرحوا بها واستبشروا، وجعلوا يصدون ويتباشرون.

وهي - والله الحمد - من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عبادة الأصنام، لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا مَنْ سواهم من الخلق، فأى شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟.

وليس تفصيل عيسى عليه السلام، وكونه مقرَّباً عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال

(١) في النسخين: (الذي)، ولعل الصواب (التي).

تبعوه، فلو تبعتموه، لفترم وسعدتم، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لَقِيَ كَيْدُهُمْ﴾، فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

(٨٠، ٧٩) ﴿أَمْ أَمْرًا أَمَرًا فَإِنَّا مُرْسِلُونَ﴾ أَمْ تَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ رِيْقَهُمْ وَكَوْنَهُمْ عَلَىٰ رُءُوسِنَا لَنَرْسِلَنَّهُمْ بَكْبُؤُنَ؟ يقول تعالى: أم أيرم المكذبون بالحق المعاندون له ﴿أَمْرًا﴾ أي: كادوا كيدًا، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، ﴿فَإِنَّا مُرْسِلُونَ﴾ أي: محكمون أمرًا ومدبرون تدبيرًا يعلو تدبيرهم، ويتقضه ويطله، وهو ما يقضه الله من الأسباب والأدلة، لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ لِيَدْمَغَهُ﴾.

﴿أَمْ تَحْسِبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ رِيْقَهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم ﴿وَنَجْهِيهِمْ﴾ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَكْبُؤُنَ﴾ أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم ﴿وَنُزِيلُ﴾ الملائكة الكرام ﴿لَنَرْسِلَنَّهُمْ بَكْبُؤُنَ﴾ كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضرًا، ولا يظلم ريك أحدًا.

(٨١-٨٣) ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ سُبْحَانَ رَبِّيَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّيَ الْعَرْشِ عَمَّا يَعْبُودُونَ قَدْ زُفَرْتُ بِمُؤْمُسَا وَيَعْمُرُوا حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُدُونَ﴾ أي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولدًا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوا أحد.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق اتقيادًا للأمور المحبوبة لله، ولكني أَوَّلُ المنكرين لذلك، وأشدّهم له نفيًا، فعلم بذلك بطلانه. فهذا احتجاج عظيم، عند مَنْ عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أَوَّلُ الناس سبقًا إليه، وتكميلًا له، وكل شر فهم أَوَّلُ الناس تركًا له، وإنكارًا له، وبعدًا منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله أفضل الرسل أَوَّلُ مَنْ عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أَوَّلُ العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان

وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرّة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتتهه النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم موفقة، ومبان مزخرقة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ فِيهَا فَتْكَةٌ يُدْعَىٰ بِهَا لِلْعَبْدِ﴾.

﴿وَأَنشَرْنَا فِيهَا حَٰلِدِينَ﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

﴿وَبَيْنَكَ الْخَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات هي ﴿الَّتِي أَرْوَسُوهَا يَمًا كَثُرَتْ تَمَامُوتُ﴾ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

[لَكَمْ فِيهَا فَتْكَةٌ كَبِيرَةٌ] كما في الآية الأخرى ﴿فِيهَا بَيْنَ كُلِّ فِتْكَةٍ رَمِيمٌ﴾، ﴿وَيَمَّا تَتَأَنَّ﴾ أي: مما تخيرون من تلك الفواكه الشهية، والثمار اللذيذة تأكلون^(١).

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم فقال: (٧٤-٧٨) ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ لا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُّشَوِّشُونَ وَمَا كُنْتُمْ لَكُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمِينَ وَكَادُوا يَكْبِتُونَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ إِنَّكَ مُنْكَوْتٌ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لَقِيَ كَيْدُهُمْ.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿حَٰلِدِينَ﴾ فيه، لا يخرجون منه أبدًا.

و ﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة بإزالته، ولا يتهوين عذابه، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُّشَوِّشُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندَكَ مُّذْنَبُونَ﴾ قَالَ لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْهَا وَلَا تَتَغَوَّيَنَّ وَهَذَا الْعَذَابُ الْعَظِيمُ، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿وَنَادُوا﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، ﴿يَكْبِتُونَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ رَبَّنَا﴾ أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غمٍّ شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد، ف ﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم - ﴿إِنَّكُمْ مُّكَوْتُونَ﴾ أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبدًا، فلم يحصل لهم ما قصده، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غمًا إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ﴾ الذي يوجب عليكم أن

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة أ مقدمًا على تفسير الآية السابقة ﴿وَبَيْنَكَ الْخَنَّةُ الَّتِي أَرْوَسُوهَا يَمًا كَثُرَتْ تَمَامُوتُ﴾

٤٩٥

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يَغْفِرُ عَنْهُمْ وَعُهُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا ظَنَنَّا لَهُمْ وَلَكِنْ كَانُواهُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَآدَامُ ابْنُكَ لِيَقْضَ عَلَيْكَ قَوْلُكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٩﴾ حَتَّى تَكُونَ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٨٠﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٨١﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَهُمْ يَكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ ﴿٨٣﴾ سُبْحَنَ رَبِّ الْأَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٤﴾ فَذَرَهُمْ يَحْزَنُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٥﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ إِلَهٌ مُلْكُ الْأَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٧﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٩﴾ وَقِيلَ يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ يَخْلُقُونَهُ أَمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَضَعُ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمَالُودُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَأَهْلُ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ، وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ يَعْبُدُونَهُ، وَيَعْظُمُونَهُ، وَيَخْضَعُونَ لَجَلَالِهِ، وَيَفْتَقِرُونَ لِكَمَالِهِ، ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّابِعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ يَحْيَوْنَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَرَفًا وَكَرًّا﴾، فَهُوَ تَعَالَى الْمَالُودُ الْمَعْبُودُ الَّذِي يَأْتِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ، طَائِفَيْنِ مُخْتَارَيْنِ، وَكَارِهَيْنِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلُ اللَّهِ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألوهيته ومحبهته فيهما، وأما هو فهو فوق عرشه، بَاطِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ بِجَلَالِهِ، مُتَجَدِّدٌ بِكَمَالِهِ.

حقًا، لكنك أول مثبت له. فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها عقلاً ونقلاً.

﴿سُبْحَنَ رَبِّ الْأَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والظهير، والعوين، والولد، وغير ذلك، مما نسب إليه المشركون.

﴿فَذَرَهُمْ يَحْزَنُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعملهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق، وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تنمّر المعارف، ولهذا نوحدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

(٨٩-٨٤) ﴿وَقَوْلُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَقَوْلُ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿وَقِيلَ يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ يَخْلُقُونَهُ أَمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فَأَضَعُ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمَالُودُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَأَهْلُ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ، وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ يَعْبُدُونَهُ، وَيَعْظُمُونَهُ، وَيَخْضَعُونَ لَجَلَالِهِ، وَيَفْتَقِرُونَ لِكَمَالِهِ، ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّابِعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ يَحْيَوْنَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَرَفًا وَكَرًّا﴾، فَهُوَ تَعَالَى الْمَالُودُ الْمَعْبُودُ الَّذِي يَأْتِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ، طَائِفَيْنِ مُخْتَارَيْنِ، وَكَارِهَيْنِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلُ اللَّهِ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألوهيته ومحبهته فيهما، وأما هو فهو فوق عرشه، بَاطِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ بِجَلَالِهِ، مُتَجَدِّدٌ بِكَمَالِهِ.

﴿وَقَوْلُ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء يعلم السر وأخفى، ولا يعجز عنه مقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها، ولا أكبر.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه، ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى انفرد بعلم كثير من الغيوب التي لم يطلع عليها أحد من الخلق لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾

قدم الطرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو.

ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي تُرْجَعُونَ﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل.

ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ أي: كل من دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لنوابه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي:

سُورَةُ الدُّجَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ١) وَالْكَتَبَ السُّبْحِينَ ٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
مُبْرَكَةٍ ٣) إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٤) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٥)
أَمَّا مَنْ عِنْدَنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٦) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٧) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٨) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ
وَرَبَّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ٩) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ
١٠) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ دُخَانًا مُبِينًا ١١) يَغْشَى
النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٢) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ
إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٣) أَفَى لَهُمُ الذِّكْرُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ١٤)
ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّجُ الْبَلَاءِ ١٥) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا
أَنْتُمْ عَائِدُونَ ١٦) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ
١٧) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ
كَرِيمٌ ١٨) أَنْ أَذْأَبُ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٩)

هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَبَّنَا آتِنَا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَفَى لَهُمُ
الَّذِي نَزَّلَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّكُمُ الْغَيْبُ ۝ إِنَّا
كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عِنْدَنا ۝ يَوْمَ تَبْيَضُّ الْوُجُوهُ الْخَضِرَاءُ ۝ إِنَّا
سَائِفُونَ ۝ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين
لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ﴾ أي: كثيرة
الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر،
فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل
الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قومًا عمنهم الجهالة،
وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره، ويتنبسوا من هده،
ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير
الآخروي، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك
الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يُنْفَخُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي:
يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدير وشرعي حكم الله به.

وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر، أحد^(١) الكتابات التي تكتب وتميز، فتطابق الكتاب الأول، الذي

(١) في النسخين (أحد) ولعل الصواب (إحدى).

ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق،
لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟ فأقارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وَقِيلُوا يَكْرَهُ إِذَا هُوَ لَا يَأْتِيكُمْ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَعِنْدَكُمْ عِلْمُ الْكَذَّابَةِ﴾ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة.

ولكنه تعالى حلّيم يمهّل العباد، ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال: ﴿فَأَصْحَقْتُمُوهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدّر منك لهم إلاّ السلام الذي يقابل به أوّلو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَإِلَّا فَاصْبِرْ لَهُمْ صَبْرًا مَّتَدًّا﴾ أي: خطابًا بمقتضى جهلهم ﴿قَالُوا سَكَنَّا﴾ .

فامثل ﷺ لأمر به، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصنع، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل، فصلوات الله وسلامه على مَنْ خصه الله بالخلق العظيم الذي فَصَّلَ به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: غِبْ ذُنُوبَهُمْ، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف .

تفسير سورة الدخان

مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦-١) ﴿حَمَّ • وَالْكَذِبِ الْمُبِينِ • إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
مُبَرَّجَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ • فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ • أَمَّا مِنْ عِندِنَا
إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ • رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • رَبِّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تُوقِنُونَ • لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
يُحْيِي وَيُمِيتُ رُكُوعًا وَرَبُّ السَّمَاوَاتِ الْأُولَى • عَلَىٰ هُمْ فِي سُلَاسٍ
يُحْمَلُونَ • فَأَرْجَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ • يَتَخَسَّوْنَ النَّاسَ

المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى، أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعدهم الكفار والتأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم. ويؤيده أيضاً، أنه قال في هذه الآية: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذُّكُورُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّشِينٌ﴾ وهذا يقال يوم القيامة للكفار، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف»، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون - على هذا - قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ أن ذلك بالنسبة إلى أبصارهم، وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة.

ولم يزلوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم، أن يكشفه الله عنهم، فدعا ربه، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَايِشُوا الدَّهَابَ قَيْلًا إِنَّكَ عَلِيمٌ﴾ إخبار بأن الله سيصرفه عنكم، وتوعدّ لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوقهم، وأن الله سيعاقبهم بالبشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة «بدر» وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أشرار الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان.

والقول هو الأول.

وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فَارْتَبِّبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ○ رَبَّنَا كَايِشُوا الدَّهَابَ قَيْلًا مُّثْقَلُونَ ○ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الذُّكُورُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّشِينٌ ○ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُنْجُوهُنَّ ﴿أَن هَذَا كُلُّهُ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

وأن قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَايِشُوا الدَّهَابَ قَيْلًا إِنَّكَ عَلِيمٌ﴾ يَوْمَ تَبْطِشُ الْبُطْشَةُ الْكَبِيرُ ﴿إِنَّا مُثْقَلُونَ﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم.

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين، لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك، بل تجعلها مطابقة لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح، والله أعلم.

كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم.

ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد، وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا، وكل به كراماً كاتبين، يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة.

وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته، وإتقان حفظه، واعتنائه تعالى بخلقه ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَخًا وَمِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ﴾ أي: هذا الأمر الحكيم، أمر صادر من عندنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ للرسول ومنزلين للكتب، والرسول تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأفكاره، ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَمُنَازِلَاتٍ﴾ أي: إن إرسال الرسول وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمته أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير يتألوه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك ومسيه.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومنّ عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما يشاء.

﴿إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: هو المتصرف وحده بالأحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزىكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: رب الأولين والآخرين، مريهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿فِي سَفَرٍ يَلْمِزُونَ﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر.

﴿فَارْتَبِّبْ﴾ أي: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وأن أوانه، ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ○ يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنْ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتٍكُمْ بِسُلْطَنِ ثُبِينٍ ﴿١٧﴾ وَإِنِّي عِدْتُ
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لِي ﴿١٩﴾ فِدَاعًا
رَبِّيَ ۚ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَسْرِ بِعِيَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ
مُتَّبَعُونَ ﴿٢١﴾ وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ هَوًّا إِنَّهُمْ يَحْدُ مَغْرُفُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَّبُوا
تَرْكُؤًا مِنْ جَنَّتٍ وَعِيُونٌ ﴿٢٣﴾ وَزُرُوعٌ وَمَقَامٌ كَرِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَتَعْمُورٌ
كَأَنُورًا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٢٥﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ
فَصَّابَكْتَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ
جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ بَلَاءً مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٨﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنبِئْنَاهُمْ بِآيَاتِنَا مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣١﴾
﴿٣٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا هِيَ إِلَّا مُوتَنَّا وَالْأُولَىٰ وَمَا
نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَنزِلْنَا بَابًا بِآيَاتِنَا لَنُكْشِفَ صَدِيدَهُ ﴿٣٥﴾ أَهْمُ
خَيْرًا أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾
﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا لِأَيَّامٍ مَعْقُودَةٍ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

فلما تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالى أن يلتزم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل، الذين كانوا مستعبدين لهم، ولهذا قال: ﴿كَذَّبُوا تَرْكُؤًا مِنْ جَنَّتٍ وَعِيُونٌ وَزُرُوعٌ وَمَقَامٌ كَرِيمٌ ۝ وَتَعْمُورٌ كَأَنُورًا فِيهَا فَكِهِينَ ۝ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

﴿فَصَّابَكْتَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾ أي: لما أتلّفهم الله وأهلكهم، لم تترك عليهم السماء والأرض، أي: لم يُحزن عليهم، ولم يؤسف على فراقهم، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء والأرض، لأنهم ما خلقوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ أي: مهملين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال.

ثم امتنّ تعالى على بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ

(١٧-٣٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى آخر القصة (١) لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحل الله بهم ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره. ﴿أَنْ أَتَدْرَأُ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي: قال فرعون وملئه: ادعوا إليّ عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم، وأطبقوهم من عذابكم وسومكم لياهم سوء العذاب، فإنهم عشيرتي، وأفضل العالمين في زمانهم.

وانتم قد ظلمتموهم، واستعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: رسول من رب العالمين، أمين على ما أرسلني به، لا أكتسب منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانتقاد له.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بالاستكبار عن عبادته، والعلو على عباد الله، ﴿إِنِّي تَأْتِيكُمْ بِسُلْطَنِ ثُبِينٍ﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات، والأدلة الفاهرات، فكذبوه وهما بقتله، فلجأ بالله من شرهم، فقال: ﴿وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجِعُونَ﴾ أي: تقتلونني شر القتلات، بالرجم بالحجارة.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمَرُوا لِي فَأَعَزُّ لِي﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة، فاعتزلوني، لا علي ولا لي، فاكفوني شركم.

فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمدين عاتين على الله، محاربين لنبية موسى عليه السلام، غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل، ﴿فِدَاعًا رَبِّيَ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ أي: قد أجزموا جرماً، يوجب تعجيل العقوبة.

فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزَلَّتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ قَبِيرٌ﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره أن فرعون وقومه سيبعونه.

﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ هَوًّا﴾ أي: بحاله، وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق، كالجبال العظيمة، فسلكه موسى وقومه. فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركه رهوًّا، أي: بحاله، ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إِنَّمَا يَحْدُ مَغْرُفُونَ﴾.

إِشْرَافٍ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿الَّذِي كَانُوا فِيهِ﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿إِذْ يَذْبَحُ آبَاؤُهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَيَّ﴾ أي: مستكبراً في الأرض بغير الحق ﴿وَيَنْ الشَّرِيفِ﴾ المتجاوزين لحدود الله، المتجربين على محارمه. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي: اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿عَلَّ عَلَيْهِ﴾ منا بهم، وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿عَلَّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم ويعددهم حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ، ففضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يستن به على غيرهم.

﴿وَمَا لِيَّائِهِمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿وَيَنْ الْآتِينَ﴾ الباهرة، والمعجزات الظاهرة، ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ أي: إحسان كثير، ظاهر منا عليهم، وحجة عليهم، على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام.

(٣٧-٣٤) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا أَنْ تَقُولُوا لَنْ نَكُونَنَّ مِنْ قَوْمِ الْقَوْلِ الْكَاذِبِينَ﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ المكذبين يقولون مستبعدين للبعث والنشور: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: ما هي إلا الحياة الدنيا، فلا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار.

ثم قالوا - متجربين على ربهم، معجزين له - : ﴿قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق، فأبى ملازمة بين صدق الرسول ﷺ، وأنه متوقف على الإتيان بأبائهم؟ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به، وتواترت تواتراً عظيماً من كل وجه.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا أَنْ تَقُولُوا لَنْ نَكُونَنَّ مِنْ قَوْمِ الْقَوْلِ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: هؤلاء المخاطبون ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا أَنْ تَقُولُوا لَنْ نَكُونَنَّ مِنْ قَوْمِ الْقَوْلِ الْكَاذِبِينَ﴾ فإنهم ليسوا خيراً منهم، وقد اشتهروا في الإجماع، فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

(٤٢-٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقَضَاءِ يَمُتُّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعباً ولا لهواً، أو سدى من غير فائدة، وأنه ما خلقهما إلا بالحق، أي: نفس خلقهما بالحق، وخلفهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبده وحده لا شريك له، وليأمر العباد وبنهاهم ويبيهم ويعاقبهم.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق

٤٩٨

سُورَةُ الدَّخَانِ

سُورَةُ الدَّخَانِ

إِنَّ يَوْمَ الْقَضَاءِ يَمُتُّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إِنَّ شَجَرَتِ الزُّقُوفِ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿كَغَلَى الْحَمِيمِ﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَفَلِّلِينَ ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿يَدْخُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعَهُمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿فَالْمَا يَسْتَرْكَبْتُمْ لِيَسَانِكُ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿

سُورَةُ الدَّخَانِ

السماوات والأرض.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْقَضَاءِ﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين، وبين كل مختلفين ﴿يَمُتُّهُمْ﴾ أي: الخلاق ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

كلهم سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها، ولا ينفع مولى عن مولى شيئاً لا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يمنعون من عذاب الله عز وجل، لأن أحداً من الخلق لا يملك من الأمر شيئاً.

﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فإنه هو الذي يتنفع ويرتفع برحمة الله تعالى، التي تسبب إليها، وسعى لها سعيها في الدنيا.

ثم قال تعالى:

(٤٣-٥٠) ﴿إِنَّ شَجَرَتِ الزُّقُوفِ﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ كَغَلَى الْحَمِيمِ ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿

وَأَمِينَ من مضرتة، وأَمِينَ من كل مكدر، وأَمِينَ من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية.

ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموت الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿وَوَقَّعَتْهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ○ فَلَئِنْ دُرِّكَ ○ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجهته، والسلامة من عذابه وسخطه؟.

﴿فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿يَسَّرْنَاكَ﴾ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فيسير به لفظه، ويسر معناه ﴿لَمَّا يَسَّرْنَاهُ﴾ ما فيه نفعهم فيقولونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَبِعُونَ﴾ ما يحل بهم من العذاب، ورفق بين الارتقاين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان - والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الجاثية

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١-١) ﴿حَمْدٌ ○ تَوْدِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ○ إِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَنبَاءٌ لِّقَوْمٍ ذِينَ ○ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَانٍ مَّا بَشَتْ أَلْعُوبُ يَوْمُوتُونَ ○ وَتُخَالِفُ هَذِهِ وَاتَّبَعُوا وَمَا أَرْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مِنْ دَرِيٍّ فَلَاخِيَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ أَوَّلِيَّتِهَا مَّا بَشَتْ أَلْعُوبُ يَوْمُوتُونَ ○ إِنَّكَ مَأْتِكُ اللَّهُ تَنَلُّوهُمَا عَلَيْكَ وَالْحَقُّ فَنَاتِي حَكِيمٌ ○ بَعْدَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ○ يَسْمَعُ مَا يَكْتُمُ السَّخِرُ ○ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَوَاقِعِنَا شَيْئًا فَغَدَا هَؤُلَاءِ أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ مُؤْتُونَ ○ مِنْ دَرَاهِمِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَبْقَى عَنْهُمْ مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اقْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَزِيدُهُ ○ وَنَقَمَ عَذَابَ عَظِيمٍ ○ فَمَنْ هَذَا الَّذِي كَفَرُوا بِكَاتِبِ رَبِّهِمْ هُمُ عَذَابُ مَنْ يَجْزِي أَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى خبراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿نَزِيلٌ﴾ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من

لما ذكر يوم القيامة، وأنه يفضل بين عبادته فيه، ذكر اختراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، و﴿إِنَّ﴾ طعامهم ﴿سَجَرَاتُ الرَّزَّازِ﴾ شر الأشجار وأفضلها، وأن طعامها ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي: كالصديد المتشن، خبيث الريح والطعم، شديد الحرارة، يغلي في بطونهم ﴿كَغَلِيٍّ الْحَبِيمِ﴾ ويقال للمعذب: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب الأليم، والعقاب الوخيم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي بزمك أنك عزيز، تستمتع من عذاب الله، وأنت كريم على الله لا يصيبك عذاب، فالقوم تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب العظيم ﴿مَّا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون، فالآن صار عندكم حق اليقين.

(٥٩-٥١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ○ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ○ يَلْبَسُونَ مِنْ ثَنَائِهِ وَاسْتَرْشَقُوا مُتَعَبِلِينَ ○ كَذَلِكَ وَوَدَّعْتُهُمْ مَحْوٍ عَيْنٍ ○ يَذُوقُونَ فِيهَا كُلَّ غَلِيٍّ مَائِيَةٍ ○ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ○ وَوَقَّعَتْهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ○ فَلَئِنْ دُرِّكَ ○ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ○ فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ يَلْسَازُكَ لَمَّا يَسَّرْنَاهُ ○ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَبِعُونَ﴾ هذا جزاء المتقين لله، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بتركهم المعاصي، وفعلهم الطاعات، فلما انتفى السخط عنهم والعذاب، ثبت لهم الرضا من الله، والثواب العظيم، في ظلال ظليل، من كثرة الأشجار والفواكه وعيون سارحة تجري من تحتهم الأنهار، يفجرونها تفجيراً في جنات النعيم.

فأضاف الجنات إلى النعيم، لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من كل وجه، ما فيه منقص ولا مكدر بوجه من الوجوه.

ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق، أي: غليظ الحرير ورقيق، مما تشتهيه أنفسهم ﴿مُتَعَبِلِينَ﴾ في قلوبهم ووجوههم في كمال الراحة، والطمأنينة، والمجة، والعشرة الحسنة، والآداب المستحسنة.

﴿كَذَلِكَ﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿وَوَدَّعْتُهُمْ مَحْوٍ عَيْنٍ﴾ أي: نساء جميلات من جمالهن وحسنهن أنه يحار الطرف في حسنهن، وينهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لجمالهن ﴿عَيْنٍ﴾ أي: ضخام الأعين حسانها.

﴿يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿كُلَّ غَلِيٍّ مَائِيَةٍ﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا.

فهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، ﴿مَائِيَةٍ﴾ من انقطاع ذلك،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَإِنِّي خَلَقْتُكُمْ وَمَا بَشَرٌ مِّنْ دَابَّةٍ إِذْ
لَقِيتُمْ يُقَوْمُ ﴿٤﴾ وَأَخْلَفَ الْبَيْتَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِنْ رِّزْقٍ فَأَخْبَاهُ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ ؕ إِذْ يَقُومُ
بِقَوْلِهِمْ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا حَقِّي فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ
أَلَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ؕ إِذْ
أَلَّهُ تَنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ بَصُرْ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٨﴾ وَإِذْ أَعْلَمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَزْؤًا أَوْ لَيْتَ كَمَا هُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٩﴾ تَنَزَّلَتْ رَأْيُهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا
وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَزْلَةً ؕ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا
هُدًى وَلِذِينَ كَفَرُوا بُيُوتٌ يَرْجِعُونَ هُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾
﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلِتَعْلَمُوا بِتَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١٣﴾

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِتَعْلَمُوا بِتَشْكُرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يخبر تعالى
بفضله على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب
والسفن بأمره وتيسيره ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بأنواع التجارات
والمكاسب، ﴿وَلِتَعْلَمُوا بِتَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا
شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجرًا جزيلا .
﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من
فضله وإحسانه. ولهذا شامل لأجرام السماوات والأرض،
ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب،
والثوابت، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف
الأشجار والثمار، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو
معد لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته .
فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته،
وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

وجملة ذلك أن خلقها وتديرها وتسخيرها، دالٌّ على نفوذ
مشيئة الله، وكمال قدرته. وما فيها من الأحكام والإنقاذ،

النعم الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة. ثم أيد ذلك بما
ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات
والأرض، وما بث فيها من الدواب، وما أودع فيها من
المنافع، وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد
والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة واضحات، على صدق هذا
القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام،
ودالات أيضًا على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث
والنشور.

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه،
إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويفكرون بها، ويتفكرون فيها، ويستفكرون،
وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانًا
تامًا، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول،
وزادتهم به معارفهم وأبوابهم وعلومهم .

وقسم يسمع آيات الله سماعًا تقوم به الحجة عليهم، ثم
يعرض عنها ويستكبر - كأنه ما سمعها، لأنها لم ترك قلبه،
ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه .

وأنه إذا علم من آيات الله شيئًا اتخذها هزؤًا، فتوعده الله
تعالى بالويل فقال: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كذاب في مقاله،
أثيم في فعاله .

وأخبر أن له عذابًا أليمًا، وأن ﴿تَنَزَّلَتْ رَأْيُهُمْ جَهَنَّمَ﴾ تكفي في
عقوبتهم البليغة، ﴿و﴾ أنه ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَّا كَسَبُوا﴾ من
الأموال ﴿وَلَا مَّا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَزْلَةً﴾ يستصرون بهم
فخذلهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفخوا .

فلما بين آياته القرآنية والعينية، وأن الناس فيها على
قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية،
أنه هدى، فقال: ﴿هَذَا هُدًى﴾ وهذا وصف عام لجميع
القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة،
وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه،
وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو
إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان
الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي،
فالمهتدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكُونُ رِجْزُهُمُ﴾ الواضحة الفاطمة، التي لا يكفر
بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ
أَلِيمٍ﴾

(١٣، ١٢)

وبديع الصنعة، وحسن الخلفة، دالٌّ على كمال حكمته وعلمه. وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دالٌّ على سعة ملكه وسلطانه. وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفَعَّال لما يريد. وما فيها من المنافع، والمصالح الدنيئة والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره.

وكل ذلك دال على أنه وحده، المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة، لا تقبل ريباً ولا شكاً.

(١٥١٤) ﴿قُلِ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَفْعَلُوا لِلَّذِيكَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيُعْطِيَهِمْ قَوْلًا مِّمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ رُجُوعٌ﴾ يا رب تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق، والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله، أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأتيت يا معشر المؤمنين، يجزيكم على إيمانكم، وصفحكم وصبركم، ثوابًا جزيلًا.

وهم - إن استمروا على تكذيبهم - فلا يحل بكم ^(١) ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلْيَنصِرْهُ، وَمَنْ أَسَاءَ فَلْيُتَابِعْهُ إِلَىٰ رِجْمِهِ رِجْمُ مَعْرُوفٍ﴾.

(١٦، ١٧) ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ **الْكِتَابَ** وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَيَّنَّا لَهُمُ **الْيَتِيمَ** وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَآتَيْنَاهُمْ مِّنَّا مَنَّا **بَيِّنَاتٍ** مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا بَعْضُهُمْ جَاهِلٌ لِّبَعْضِهِمْ غِيظًا بَيْنَهُمْ إِلَّا رَيْكَ بَقِىَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾
 أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعمًا لم تحصل لعنهم من الناس، وآتيناهم **«الْكِتَابَ»**، أي: التوراة والإنجيل، و **«الْحُكْمَ»** بين الناس، و **«النُّبُوَّةَ»** التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المأكّل والمشروب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم ﴿وَصَلَّيْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على الخلق بهذه التَّعْم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه الأمة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل، وميزهم عن غيرهم، وأيضاً فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنسب، وغيرها من النعمت، قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة، شريعة

قُلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُغْفِرُوا لَذٰلِكَ لَا يَرْحَوْنُ اَيَّامَ اللّٰهِ يَجْزِي قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ اَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ۖ اِنَّمَا اِنَّا اَرْسَلْنَا بِرَبِّ اِسْرٰءِيْلَ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَفَقْنٰهُمْ مِنَ الطَّيْنِ وَفَضَّلْنٰهُمْ عَلَى الْعٰلَمِينَ ﴿١٧﴾ وَاِذْ يَنْتَهَبُ يَنْتَهَبُ مِنَ الْاَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا اِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيَا يَنْتَهَبُ اِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُوْا فِيهِ يَخْتَلِفُوْنَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْاَمْرِ فَاتَّبَعَهَا وَلَا تَتَّبِعْ اَهْوَاَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴿١٩﴾ اِنَّهُمْ لَنُغْنُوْا عَنْكَ مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا وَّاِنَّ الظّٰلِمِيْنَ لَبَعْضُهُمْ اَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۗ وَاللّٰهُ وَلِىُّ الْمُتَّقِيْنَ ﴿٢٠﴾ هٰذَا بَصَرٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُوْنَ ﴿٢١﴾ اَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اٰجَرَحٰوُا السَّيِّئَاتِ اَنْ يَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ سَوَآءٌ خٰفِيَآهُمْ وَمِمَّا تَحْتُمُّ سَآءٌ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴿٢٢﴾ وَخَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ وَلَيَجْزِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ ﴿٢٣﴾

بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين. ﴿وَأَنبِئْهُمْ﴾ أي: أنبأ بني إسرائيل ﴿بَنِيكَ﴾ أي: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿مِنَ الْأُمَرَاءِ﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رآوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب.

واضربوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْيَقِينُ﴾ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز

(١) في هذه الجملة غير واضحة، وفيها شطب، وتصويبه من ب.

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَىٰ إِلَهُهُ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

[illegible]

الخير ﴿وَمَعْلَىٰ بِصُرُوفِهِمْ﴾ تمنعه من نظر الحق ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو الذي ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿فَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما يذعنكم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: منكمو البعث ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبَدِّلُهَا إِلَّا الْأَعْدَى﴾ إن هي إلا عادات، ونَحْيُيْ على رسوم الليل والنهار، يموت أناس ويحيا أناس، ومن مات فليس يرجع إلى الله، ولا مجازيه بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إِنْ كُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا
 المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل دلهم على
 ذلك، ولا يبرهان.

إِنْ هِيَ إِلَّا ظُنُونٌ، واستعدادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُلْ عَلَيْهِمْ مَآئِينَ يَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاتِنَا إِنَّ كُفْرًا صَدِيقًا﴾ وهذا جراءة منهم على الله، حيث افترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم، وأنهم لو جاءوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا أن تبتهل الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿فَلْيُفَكِّرْ وَلْيَعِظْ لَهُمْ يَوْمَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْيَوْمِ فَيُتَذَكَّرُونَ﴾ لا يَفْكَرُونَ يَتَذَكَّرُونَ بِمَعْنَى كَيْفَ يَتَذَكَّرُونَ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ أَكْثَارٍ لَا يَتَذَكَّرُونَ، وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم،

المحقق من المبطل، والذي حمّله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

(١٨، ١٩) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۖ إِنَّهُمْ كَنُفُثًا عَنكَ مِن دُونِ اللَّهِ شِدْقًا ۚ وَرَأَىٰ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَاللَّهُ وَلَىٰ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماضية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواء وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُخْشَوْنَكَ مِنْ آثِمٍ شَنِئَةٍ﴾ أي : لا ينفعونك عند الله ، فيحصلوا لك الخير ، ويدفعوا عنك الشر ، إن اتبعتهم على أهوائهم ، ولا يصلح أن توافقهم وتواليهم ، فإنك وإياهم متباينون ، وبعضهم ولي لبعض ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تَبَتَّ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته .

(٢٠) ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي ﴿هَذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يحصل به البصيرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيثبتون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً لَّهُمْ خَيْرُهُمْ وَمَسَاءُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أم حسب المسيئون، المكثرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم ﴿أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَاءً﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب، في العاجل والأجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

لعملوا أعمالاً ونهوا له.

(٢٧-٣٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَدِّلُ بِخَسِرٍ الْبَاطِلُونَ ۝ وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَانِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ ۝ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَذَا كِتَابُنَا يُطَلِّعُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا سَتَنَشِيطُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تَتْلُو عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ۝ وَإِنَّا قِيلَ لَنَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا فَلَمَّا تَدَارَىٰ مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا وَمَأْوَعُكَ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِينَ ۝ فَالْكَافِرُ الْكَذَّابُ كَذَبَ اللَّهُ هُوًّا وَعَفَاكَ الْحَقُّ أَدْبَارًا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا لَهُمْ فِيهَا مُتَحَيِّرُونَ ۝ فَلِلَّهِ الْمُلْكُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

يخبر تعالى عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ويجمع الخلاق لموقف القيامة، يحصل الخسار على المبطلين، الذين أنوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على أليم العقاب.

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهولوا ليحذره العباد، ويستعد له العباد، فقال: ﴿وَرَبِّ﴾ أي الراي لذلك اليوم ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَانِيَةٌ﴾ على ركبها خوفاً ودعراً، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران.

فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به.

هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۝﴾.

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، وبدل على هذا قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطَلِّعُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل ﴿إِنَّا كُنَّا

أَفْرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ وَجَعَلْ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ الَّتِي كَانَتْ تُدْعَىٰ بِهَا نِسَاءَ الْيَوْمِ نَحْنُ نَدْعَاهُ إِلَٰهًا مُّذَرًّا وَمَٰلَكُمْ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَابُنَا يَسَّاتُ مَا كَانُ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلِ اللَّهُ يُجَسِّدُكُمْ يُسَكِّرُكُمْ لِمُسْكِرٍ كُنتُمْ تَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ الْقِيَمَةُ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَدِّلُ بِخَسِرٍ الْبَاطِلُونَ ﴿٣٢﴾ وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَانِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطَلِّعُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا سَتَنَشِيطُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تَتْلُو عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذْ قِيلَ لَنَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلَمَّا تَدَارَىٰ مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾

تَسْتَنَشِيطُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا كتاب الأعمال.

ولهذا فصل ما يفعل الله بالفرقيين فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا بإيمانهم بالأعمال الصالحة، من واجبات ومستحبات ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، أي: الفوز والنجاة والريح، والفلاح الواضح البين الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، وانفد عنه كل شر.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريماً: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو وقفت لها، ولكن استكبرتم عنها وأعرضتم، وكفرتم بها، فجنيتكم أكبر جنابة، وأجرمت أشد الجرم، فالיום تجزون ما كنتم تعملون.

ويوبخون أيضاً بقوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَنَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلَمَّا تَدَارَىٰ مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾.

فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، ورد قول من جاء به، قال تعالى: ﴿وَبَكَرْتُمْ مِمَّنْ بَنَیْتُمْ مَا غَلَبَتْهُمُ أُنْثَىٰ﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم ﴿وَمَآ أَكْفَوْهُم بِسُوءِ مَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَسْتَنْتِزُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستنتزون به ويوقعوه، وبمن جاء به.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ تَسْتَكْبِرُوا﴾ أي: تترككم في العذاب ﴿كَايِمَةً لِلنَّارِ﴾ أي: يترككم هناك ﴿فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جُنْسِ الْعَمَلِ﴾ وما يؤتكم آثَارُ ﴿أَي: هي مفرق ومصيركم. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي حصل لكم من العذاب بسبب أنكم ﴿أَعَدَّكُمْ﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقاها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وَعَزَّزْنَا لَئِبْنَةِ الدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاعطأأنتم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْمَلُونَ﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿يَبْقَىٰ الصَّخْرَ﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رَبِّ السَّعْدِ﴾ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿أَي: له الحمد على ربوبيته سائر الخلاق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له الجلال والعظمة
المجد.

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، ومحبة تعالى
إكرامه، والكبرياء فيها عظمت وجلاله، والعبادة مبنية على
ركنين: محبة الله، والذل له، وهما ناشتان عن العلم بمحامد
الله وجلاله وكبريائه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع
 لأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة،
 ولا يخلق ما يخلقه إلا لغائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية - والله الحمد والمنة والفضل .

تفسير سورة الأحقاف

مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿حَمَّ ۝ نَزَّلُ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا

وَيَذَلُّهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا وَعَدُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾
 وَقِيلَ الْيَوْمَ نَبْشِطُكُمْ كَمَا فَبَشِطْنَا لَكُمْ يَوْمَ هَذَا وَمَا وَكَلْنَا النَّارَ وَمَا
 لَكُمْ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اخْتَدَمُوا إِلَهَ اللَّهِ هُوَ وَأَعْرَفَهُمْ
 الْحَيَوةَ الدُّنْيَا قَالُوا لَا تَمُوتُنَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴿٣٥﴾
 فَلَهُ الْحُكْمُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
 الْكِتَابُ يَوْمَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سُورَةُ الْاٰحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَخْلَقًا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَيُعْطِي
الْحَبَّ وَالْعُصْفَىٰ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُوهُ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
إِنَّا فَنَّا يَكْتُوبُ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْأَوَّلِ ۝ قُلْ أَعْلَمُ بِمَا كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ
لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ ۝

أَنْذِرُوا مَعْشِرُونَ ﴿١٠﴾ هَذَا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم إقباله، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾.

وَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالْمَرْجِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَمْنَهُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَنْ أَتَذَرُوا أَنتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝ خَلَقَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْصَاقَ بِالْحَقِّ ۝

فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكنتهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسلا، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعالم، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سيقفلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار، سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٣

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

وَإِذْ أَخْبَرْنَا النَّاسَ بِكَوْنِهِمْ أَعْدَاءُ وَكَوْنِهِمْ كُفْرِينَ ﴿١٢﴾ وَإِذْ نُنَّا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا يَنْتَقِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْحَقِّ لِمَاجَةٍ هُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلُوبَ إِنْ أَفَرَأَيْنَاهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُونُ لِي أُنْبَاءُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَآءَا عَرَبِيًّا يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِي لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا أَرْسَلَنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا فَالْخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

بمنزلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه، الذي قد وافق الكتب السماوية، خصوصًا أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ للكتب السابقة، شهد بصحتها، وصدقها، بموافقتها لها، وجعله الله ﴿إِمَامًا عَرَبِيًّا﴾ ليسهل تناوله، ويتيسر تذكره ﴿يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الويل.

ويشير المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالثواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها، والأعمال التي ييشر بها.

فهل ﴿تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إن أرادني الله بضر، أو أرادني برحمة ﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فلو كنت متقولاً عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً.

ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم للخير، ويبيحكم جزيل الأجر.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول جاءكم، حتى تستغفروا رسالتي وتستكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلا شيء تشكر رسالتي؟

﴿وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُونُ لِي أُنْبَاءُ﴾ أي: لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم عليّ وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبت دعوتي، فهو حظكم ونصيبيكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك عليّ فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: أخبروني، لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فأمنوا به واعتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء، واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

(١٢، ١١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَآءَا عَرَبِيًّا يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِي لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: قال الكفار بالحق معاندين له، وراذلين لدعوته: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادر به، وسابق إليه، ولهذا من البهجة في مكان.

فأي دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أذكى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأبديهم؟

ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعْزَوْنَ به أنفسهم

﴿وَأَنْ أَعْلَمَ صَاحِبًا رَحْمَةً﴾ بأن يكون جامعًا لما يصلحه، سالمًا مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويثيب عليه.

﴿وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿وَأَصْلَحَ لِي﴾.

﴿إِنِّي نَشِئْتُ إِلَيْكَ﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وَأَنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الَّذِينَ نَقَلَتْ عَنْهُمْ آسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضًا غيرها.

﴿وَنَجَّاهُ عَنْ سَيِّئِهِمْ﴾ في جملة ﴿أَحَبَّ الْجَنَّةِ﴾ فحصل لهم الخير والمحجوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وَعَدَ الْوَصِيدَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

(١٧-١٩) ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَفَدَ خَلْقَ الْفُرْقَيْنِ مِنْ قَبْلِي وَهَذَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيَكِلَ إِلَيَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا اسْتِطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ ○ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِيمَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَبِيرِينَ﴾ ○ ﴿وَكُلٌّ دَخَلَتْ رَمًا عَمِلُوا وَيُؤْتِيهِمْ أَهْلُهُمْ وَنَمَّ لَا يُظَاهَرُونَ﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ﴾ إذ دعواه^(١) إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدتهما، أن يدعوهما إلى ما فيه سعادته الأبدية، وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿أُفٍّ لَكُمَا﴾ أي: ثبًا لكما ولما جئتكما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وَقَدْ خَلَى الْفُرْقَيْنِ مِنْ قَبْلِي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور، وجهول، ومعاذ؟.

﴿وَهَذَا﴾ أي: والداه ﴿يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ﴾ عليه ويقولان له: ﴿وَيَكِلَ إِلَيْنِ﴾ أي: يبدلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - أنهما يستفيتان الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريك، ويعذلان ولدتهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿إِنَّا وَعَدَ

(١) في الأصل (منها الستات) ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في النسخين: دعياه.

(١٣، ١٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا حَوْتَ عَلَيْهِمْ وَلَا حُمْ يَمْزُرُونَ﴾ ○ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والزموا طاعته وداموا على ذلك ﴿وَاسْتَفْتَوْا﴾ مدة حياتهم ﴿فَلَا حَوْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من كل شر أمامهم ﴿وَلَا هُمْ يَمْزُرُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يغيرون عنها حولًا، ولا يريدون بها بدلًا.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

(١٥، ١٦) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفُصْلَانُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَنَسِيَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْلَمَ صَاحِبًا رَحْمَةً وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُشِّئْتُ بِإِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ○ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَلَتْ عَنْهُمْ آسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَجَّاهُ عَنْ سَيِّئِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الْوَصِيدَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده، وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحمله الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُضِعْنَ آبْنَهُنَّ كَرِهًا حَرِيمًا﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي ستان - إذا سقطت لمن الثلاثين شهرًا^(١) بقي ستة أشهر، مدة للحمل.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿وَنَسِيَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته وسنته، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصًا يتم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

أَلَمْ حَقٌّ؟ ثُمَّ يَتِيمَانِ عَلَيْهِ مِنَ الْأُدَّةِ مَا أَمَكْنَهُمَا .

وولدهما لا يزداد إلا عتواً ونفوراً، واستكباراً عن الحق، وقدساً فيه، ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله.

وكل أحد يعلم أن محمداً ﷺ أنمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا تعلم من أحد، فمن أين يتعلمه؟ وأنى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فِي﴾ جملة ﴿أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَيِّ وَالْإِنْسِ﴾ على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيعرفون في تيارهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ والخسران: فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله، فالأرباح من باب أولى وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا على شيء من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم.

﴿وَلِكُلٍّ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَأَهْلِ الشَّرِّ دَرَجَتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: كلٌّ على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنزلهم في الدار الآخرة، على قدر أعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ أَعْتَمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن لا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَتْ لِيَبْتِغَىٰ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يُغْفِرُ الْخَبْرَ وَمَا كُنْتُمْ تَقْسِفُونَ﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَتْ لِيَبْتِغَىٰ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ حيث اطمانتم إلى الدنيا، واغترتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهمتكم طبيعتها عن السعي لأخركم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة، فهي حظكم من آخركم.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويفضحكم، بما كنتم تقولون على الله غير الحق أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله، وإلى حكمه، وأنتم كذبة في ذلك، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَقْسِفُونَ﴾ أي: تتكبرون عن طاعته.

فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب على الله بنسبته إلى رضاه، والقدح في الحق، والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة.

(٢١-٢٦) ﴿وَلَا تَذْكُرْ لَنَا بَعْدَ إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِأَلْحَقَائِهِ﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿وَلَا تَذْكُرْ﴾ بالثناء الجميل ﴿لَنَا عَادٌ﴾ وهو هود

وَوَصَيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَنْقُبُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمْ أَعْدَاءُ إِنِّي أَنْخَرْتُ قَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ اللَّهُ وَبِكَ آمَنُوا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَيِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلُهُمْ وَلِيُؤْمِنُوا بِمَا كُنْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَتْ لِيَبْتِغَىٰ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَقْسِفُونَ ﴿٣٠﴾

عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه، وإرشاد الخلق إليه.

﴿إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ﴾ وهم عاد ﴿بِأَلْحَقَائِهِ﴾، أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي الرمال الكثيرة في أرض اليمن. ﴿وَقَدْ خَلَتْ أُنْذُرٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فلم يكن بدعاً منهم، ولا مخالفاً لهم، فأتاهم: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي إِلَٰهُكُمْ فَتَكُونَ أَوَّلَ عَرَفَةٍ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ يُؤْتِي عَذَابَهُمْ﴾.

فأمرهم بعبادة الله، الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد، وخوفهم - إن لم يطيعوه - العذاب الشديد، فلم تجد فيهم تلك الدعوة ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِتِلْكَ أَعْنَابٍ﴾ أي: ليس لك من القصد، ولا منك من الحق، إلا أنك حسدتنا على آلها، فأردت أن تصرفنا عنها.

﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: كُنْتُمْ مِنَ الضَّالِّينَ، ولهذا غاية الجهل والعناد.

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهو الذي بيده أزمة الأمور

(١) في ب، ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿وَتَنَادَىٰ فِيهِمْ ثَمًّا كَانُوا يَوْمَ يَسْتَسْقِرُونَ﴾.

ومقابلها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء.

﴿وَأَنفَكُوا مَا أَنتُمْ بِهِ﴾ أي: ليس عليّ إلا البلاغ المبين، ﴿وَلَكِنِّي أَنذَرْتُكُمْ قَوْمًا يَبْهَلُونَ﴾ فلذلك صدروكم ما صدر من هذه الجزة الشديدة، فأرسل الله عليهم العذاب العظيم، وهي الريح التي دمرتهم وأهلكتهم.

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: العذاب ﴿عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي: معترضًا كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيل، فسقى نوابتهم، ويشربون من آبائها وغدرانها.

﴿قَالُوا﴾ مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ﴾ أي: هذا السحاب سيمطرنا.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ أي: هذا الذي جئتم به على أنفسكم، حيث قلتم: ﴿فَالْتَأَمُّوا يَمًّا قَدِيمًا إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نُدِيرُ كُلَّ نَفَسٍ تمر عليه من شدتها ونحسها. فسلطها الله عليهم ﴿سَجَّ لَيَالٍ وَنَحْيَةٍ أَبَاقٍ حُسُومًا قَرَّبَ الْقَوْمَ فِيهَا مَرَعَى كَانَتْهُمْ أَجْعَالٌ تَخْلَى تَوَابِعُ﴾ [بأثر ربها] أي: بإذنه ومشيئته.

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم.

﴿كَذَلِكَ يُعَذِّبُ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب جرمهم وظلمهم.

لهذا مع أن الله تعالى قد أدرّ عليهم النعم العظيمة، فلم يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: مكانهم في الأرض، يتناولون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها، وعمرانهم عمراً يتذكر فيه من تذكر، ويعتظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عاداً كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيتاً، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمًا وَابْصَرًا وَادِّيدَةً﴾ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال: إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا اقْدَرْتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير.

وذلك بسبب أنهم ﴿يَجْسَدُونَ بُكَائِيَ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيد وإفراده بالعبادة.

﴿وَعَاكَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب

الْحَقْفُ

٥٥

الْحَقْفُ

﴿وَأَذْكُرْنَا عَادًا إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَوَدَّعَانَا كُنْتُمْ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنفَكُوا مَا أَزْسَلْتُمْ بِهِ وَلَكِنِّي أَنذَرْتُكُمْ قَوْمًا يَبْهَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ يُعَذِّبُ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَادِّيدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا اقْدَرْتُهُم مِّن شَيْءٍ وَإِذْ كَانُوا لِيَجْهَدُوا بِأَيِّدِ اللَّهِ وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا لِيَجْهَدُوا ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ وَصَرَّفْنَا الْآيَةَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٣٣﴾

الذي يكذبون بوقوعه، ويستهنون بالرسل الذين حذروهم منه.

(٢٨، ٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ وَصَرَّفْنَا الْآيَةَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم، بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب، كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرّف لهم الآيات، أي: نوحها من كل وجه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

فلما لم يؤمنوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: يقرّبون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم.

﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ من الكذب، الذي يمتنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستفهم، فضلت وبطلت.

(٢٩-٣٢) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِيرِينَ ۚ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۚ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ آلِيعِ ۚ وَمَن لَّا يَجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي سَلَٰكِلِ مُّبِينٍ﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ إلى الخلق، إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام، دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي: وصى بعضهم بعضًا بذلك.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقد وعوه، وأثر ذلك فيهم ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِيرِينَ﴾ نصحاء منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقضيه الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿قَالُوا بِقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ لأن كتاب موسى أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل منتم ومكمل ومغري لبعض الأحكام.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخير ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبنوا محله ومرتبته، دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه، ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربهكم، لبشيتكم، ويزيل عنكم كل شر ومكره، ولهذا قالوا: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجُكُم مِّنْ عَذَابِ آلِيعِ﴾ وإذا أجازهم من العذاب الآليم، فما ثم بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

﴿وَمَن لَّا يَجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي سَلَٰكِلِ مُّبِينٍ﴾ وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النار بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر؟!

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ يَخْلِفُهَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَن يُخْرِجَ الْمَوْتُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ

وإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِيرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ آلِيعِ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يَجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي سَلَٰكِلِ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ يَخْلِفُهَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَن يُخْرِجَ الْمَوْتُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا إِلَّا الْحَقُّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالِ قُدُّوهُمَا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَلَوْ أَلْعَزَمُوا مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَّغَ إِلَيْكَ الْقَوْمَ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عظمهما وسعتهما، وإتقان خلقهما، من دون أن يكثر بذلك، ولم يَغِيْ بخلقهن، فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير؟! (٣٤، ٣٥)

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالِ قُدُّوهُمَا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۚ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَلَوْ أَلْعَزَمُوا مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَّغَ إِلَيْكَ الْقَوْمَ الْفَٰسِقُونَ﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم ﴿قَالَ قُدُّوهُمَا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: عذاباً لازماً دائماً، كما كان كفركم صفة لازمة.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم

العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بشارهم.
فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأتمته على الأمم، فضلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَجِلُّهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحمقهم، فلا يَسْتَفْتِكُمْ بجَهْلهم ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب.
و ﴿كَانَ يَوْمَ يُرَوَّى مَا يُرَوَّى لَرَّ يَلِيًّا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاقَةَ يَنْ تَهَارَ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صانرون إلى العذاب الويليل.

﴿بَلَّغْ﴾ أي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل.
وهذا القرآن العظيم الذي يَبَيِّنُ لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد إلى الدار الآخرة. ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلاق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.
﴿فَقَدْ يَهْلِكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ﴾ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل.

وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسال الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ حيث يبين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويميزون ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

(٦-٤) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِتْنَةً أَلِفًا حَتَّىٰ إِذَا انشَمَخُوا فَتَشَدُّ آَلُفُهُمْ مِثْلًا فَقَدِ اتَّخَذُوا ذِي يَمِينٍ عَدُوًّا وَأَنَّهُمْ سَيَبْسُوتُهُمْ رَعْدًا وَقُدُوفًا فَجَاءَهُمْ عَذَابُهُمْ﴾
﴿يُضِلُّ اللَّهُ سَبِيلَهُمْ﴾ وسبيلهم وصلى بهم ﴿وَيَجَاهِلُ لَعْنَةُ اللَّهِ لِقَوْمٍ﴾ يقول تعالى - مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم على أعدائهم -: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم الأعناق، حتى تخنوهم،

فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأتمته على الأمم، فضلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَجِلُّهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحمقهم، فلا يَسْتَفْتِكُمْ بجَهْلهم ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب.
و ﴿كَانَ يَوْمَ يُرَوَّى مَا يُرَوَّى لَرَّ يَلِيًّا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاقَةَ يَنْ تَهَارَ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صانرون إلى العذاب الويليل.

﴿بَلَّغْ﴾ أي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل.
وهذا القرآن العظيم الذي يَبَيِّنُ لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد إلى الدار الآخرة. ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلاق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.
﴿فَقَدْ يَهْلِكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ﴾ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل.

وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسال الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسِّرْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّاعِن سَبِيلِ اللَّهِ أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۖ ذَٰلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
أَتْبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۖ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَضَرُوا الْكَيْدَ حَتَّىٰ
إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ زُجَّارًا أَوْ تَأَنَّى الْوُثَاكِيَ فِيمَا بَيْنَهُمَا يُفَادُّهُ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ
أُوزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَنُصَّرِهُمْ أَفَكُم وَلَكِنْ يَلْبِثُوا بَعْضُكُمْ
بِبَعْضٍ ۖ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۖ سَيِّئَاتِهِمْ
وَيُضِلُّهُمْ بَالَهُمْ ۖ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۖ يَتَأَنَّى الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعَسَّاهُمْ وَأَصْلَحَ أَعْمَالُهُمْ ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ
فَأَحْطَ أَعْمَالُهُمْ ۖ أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْأَرْضَ يَنْشَقُّرُوكَافٍ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَالْكَافِرِينَ أَمْتَلَهَا ۖ
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۖ

(٧-٩) ﴿يَتَأَنَّى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّاهُمْ وَأَصْلَحَ أَعْمَالُهُمْ ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا
أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَحْطَ أَعْمَالُهُمْ ۖ﴾ هذا أمر منه تعالى للمؤمنين، أن
ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه،
والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله
وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة
والثبات، ويصير أجسامهم على ذلك، ويعينهم على
أعدائهم.
فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال
والأفعال سينصره مولاة، ويسير له أسباب النصر من الثبات
وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في
تعس، أي: انكاس من أمرهم وخذلان.
﴿وَأَصْلَحَ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها
الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي
يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.
ذَٰلِكَ الْإِضْلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا

وتكسروا شوكتهم، وتبطلوا شرهم، فإذا فعلتم ذلك ورأيتم
الأسر أولى وأصلح ﴿نَشُدُّوا الْقِتَالَ﴾ أي: الرباط، وهذا
احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شد منهم الوثاق اطمأن
المسلمون من هربهم، ومن شرهم.

فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار بين المنّ عليهم،
وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تدوهم بأن لا تطلقوهم
حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير
مسلم عندهم.

ولهذا الأمر مستمر ﴿حَتَّىٰ تَمَعَ لِقَائِهِمْ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: حتى لا
يبقى حرب، وتيقن في المسالمة والمهادنة، فإن لكل مقام
مقالاً، ولكل حال حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا كان
قتال وحرب.

فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من
الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين،
ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿وَلَوْ بَنَاءَ
اللَّهُ لَنَصَرَنَّ مِنْهُمْ﴾ فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن
لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون
خضراءهم.

﴿وَلَكِنْ يَلْبِثُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين
بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن
إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل
الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند
المحن والبلايا.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل،
وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي
العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يحبطها ويبطلها،
بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها في الدنيا
والآخرة.

﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة ﴿وَيُضِلُّهُمْ
بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا
نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: عرفها أولاً، بأن شوقهم
إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي
من جملتها القتل في سبيله، ورفقهم للقيام بما أمرهم به
ورغبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما
احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

سورة القتال

٥٠٨

سورة القتال

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَيُجْزَوْنَ كَمَا نَأَىٰ عَنْ الْأَنْعَامِ وَالنَّارِ مَتَوًى لَهُمْ ﴿١٦﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ آسِدُوهُ مِنْ قَرِينِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ زِينَةٍ كَمَنْ زِينَ لِسُوءٍ عَلَيْهِ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٨﴾ مَثَلُ الْخَافِ الَّذِي يُعَذِّبُ الْمُتَّقِينَ فِيهَا أَنْتَرِ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْتَرِ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَغْيَرِ طَعْمُهُ وَأَنْتَرِ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْتَرِ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿١٩﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَتَقَالُوا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَزَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَيْنَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَإِنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ ﴿٢٢﴾ فَأَعْلَزَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْعَفَ لَدُنْيَاكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿٢٣﴾

أحدها بل أعظمها: - تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته^(١)، فإنها توجب بذل الجهد في التاله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المفرد بالآلوهية.

الثالث: العلم بأنه المفرد بالنعمة الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبه، والتاله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعمة العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة

(١) في ب: وجلاله.

فسبحان من فاوت بين الدارين والجزءين، والعاملين والعاملين.

(١٦، ١٧) ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَتَقَالُوا أَتَقَالُوا أَتَقَالُوا طَعِبَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَزَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَيْنَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ يقول تعالى: ومن المنافقين ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ما تقول استماعاً، لا عن قبول وانقياد، بل معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، مما لم يكن لهم فيه رغبة ﴿مَاذَا قَالَ أَتَقَالُوا﴾ أي: قريباً. ولهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لآلقوا إليه أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانفادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهرون فيها إلا الباطل.

ثم بين حال المهتدين فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالإيمان والافتقار، واتباع ما يرضي الله ﴿زَادَهُمْ هُدًىٰ﴾ شكرًا منه تعالى لهم على ذلك ﴿وَاتَّقَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

(١٨) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَلَّ هُمْ إِلَّا جَاءَتْهُمْ ذَكَرْتَهُمْ﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، وهم لا يشعرون ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتها الدالة على قربها.

﴿فَأَلَّ هُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذَكَرْتَهُمْ﴾ أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقضت آجالهم أن يتذكروا ويستعجبوا؟ فقد فات ذلك، وذهب وقت الذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

(١٩) ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفة، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو، أمور:

الجزء وأوفاه.

(٢٠-٢٣) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَنْظَرُ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ قَالُوا لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ قَالُوا فَصَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْصَامَكُمْ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَسَمَخُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فَإِنَّ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ أي: ملزم العمل بها ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعف الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رَأَيْتُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَنْظَرُ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ من كراهتهم لذلك وشدة عليهم. ولهذا كقولهم تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَكَفَّ عَنْهُمْ فَأَتَاهُمُ الْبَأْسُ فَاذْكُرُوا أَنَّهُمْ كَفَرُوا فَمَا أَتَاهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾.

ثم تدبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فَأَذْكُرُوا لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: فأولئهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، ويلفحوا بعافية الله تعالى وغفوه.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه: منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته ووظيفة المستقبل. أما الحال فلأن الهمة انتقلت عته إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل فإنه لا يجيء حتى تفر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالتألي الذي يهزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره. فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به، ووطن نفسه^(١) عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته.

(١) في ب: وتودع نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل، ثم شطها الشيخ - رحمه الله - وعملها إلى: وطن نفسه.

بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضررا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عيدهم، ولا يتغنونهم بمقتال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبلطان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه. السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا، ورأيا وصوابا، وعلما - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت وافقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرار الباطل والشبه - إلا نموا وكمالا.

هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفصيله وجمله ما لا يحصل في غيره.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿و﴾ استغفر أيضا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم. وإذا كان مأمورا بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعائبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعا تتألف به قلوبهم، ويوزل ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿وَأَنَّهُ بِمَنَاقِبِهِ مُتَّفَكِّكٌ﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم ﴿وَمُتَنَبِّكٌ﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم

ثم كلما جاء وقت استقباله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حربي بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: فهما أمران، إما التزام طاعة الله، وامتنال لأوامره، فتم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتول عن طاعة الله، فما تم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي، وقطيعة الأرحام.

﴿أَوَلَيْكُمُ الَّذِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَقَتلُوا أَرْحَامَهُمْ﴾ أي: بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله.

﴿فَأَسْفَرُوا وَأَعْيَىٰ آبُسَرَهُمْ﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يصرونه. فلهم آذان ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيانات.

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ﴾ أي: أهلاً يتدبر هؤلاء المعروضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لذلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولما قلوبهم من الإيمان، وأفندتهم من الإيقان، وأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولتين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكلماتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر. ولعزهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع.

(٢٥-٢٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سئطيمكم في بعض الأمر والله يتلوا إسرائهم فكيف إذا توفقتهم الملائكة بضربوت وجوههم وأذبرتهم ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوتهم فأحببت أعينهم يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران. ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُغَيِّبُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزلزلوا فيه ورفضوه، و

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَلَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَلَوْلَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿٢﴾ أَوَلَيْكُمُ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَهُمْ ﴿٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وَجُوهَهُمْ وَأَذْذَرَهُمْ ﴿٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَبَ أََعْمَلَهُمْ ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ ﴿٩﴾

﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من المبارزين العداوة لله ولرسوله ﴿سَاطِمِينَ﴾ في بعض الأمر أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.

﴿وَاللَّهُ يَتْلُو إِسْرَارَهُمْ﴾ فلذلك فضحهم، وبيننا لعباده المؤمنين، لتلا يغتروا بها.

﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُوتُ وَجُوهَهُمْ وَأَذْذَرَهُمْ﴾ بالمقامع الشديدة! ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه سبب ﴿أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدينهم منه، ﴿فَأَحْبَبَ أَفْعَلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه؛ فإنه سيكون عنه سيناته، ويضاعف أجره وثوابه.

(٢٩-٣١) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ وكو شانه كزنتكم كزنتكم يسبهم وتوفقتهم في

٥١٠

سورة القتال

سورة القتال

لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝ وَلَسَبَّوْكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالضَّغْنِ وَيَتْلَوْا لِقَابَكُمْ ۝ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من شبهة أو شهوة بحيث تخرج القلب عن حال
صحته واعتداله.

أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة
لِلإسلام وأهله؛ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن
يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن التي من
ثبت عليها، ودام إيمانه فيها فهو المؤمن حقيقة.

ومن رده على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين آتاه
الامتحان، جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من
الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية، مع أنه
تعالى قال: ﴿وَلَوْ تَنَزَّاهُ لَأَرَضَيْنَاهُم فَتَرَوُاهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي:
بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم.

﴿وَلَتَرَوُنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: لا بد أن يظهر ما في
قلوبهم، ويتبين بفتلات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف
القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ
أَعْمَالَكُمْ﴾ فيجازيكم عليها.

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في
سبيل الله، فقال: ﴿وَلَسَبَّوْكُمْ﴾ أي: نخبر إيمانكم وصبركم
﴿حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّغْنِ وَيَتْلَوْا لِقَابَكُمْ﴾ فمن امتثل أمر
الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن
حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.

(٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُلَ مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ إِلَهُكُمْ﴾ هذا
وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها من الكفر بالله، وصد
الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه.

﴿وَشَاقُوا الرُّسُلَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: عاندوه
وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغَيٍّ وضلال، فإنهم
﴿لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فلا ينقص به ملكه.

﴿وَسَيُحِطُّ إِلَهُكُمْ﴾ أي: مساعيهم التي بذلوها في نصر
الباطل، بأن لا تنمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي
يجرون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها.

(٣٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُلَ وَلَا تَبْطُلُوا
أَعْمَالَكُمْ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل
سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في
أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب
النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يشمل النهي عن إبطالها بعد

عملها بما يفسدها، من مَنِّ بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن
عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها،
ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان
بمفسد من مفسداتها.

فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها كلها داخلية في
هذا، ومنهية عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع
الفرض، وكراهة قطع الثقل، من غير موجب لذلك.

وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمر
بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها على الوجه الذي
تصلح به علماً وعملاً.

(٣٤، ٣٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ
كُهُنَّاءٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۝ فَلَا تَهَيَّأُوا لِلْحَرْبِ إِلَى الْكُلِّ وَانْشَرُّوا الْأَعْتُونَ
وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ هذه الآية والتي في البقرة قوله:
﴿وَمَنْ يَزِيدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ رِزْقِ اللَّهِ فَغِيْرٌ كَذَّابٌ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَيُجْزَوْنَ
أَعْمَالَهُمْ فِي أَكْثَرِ الْأَجْزَاءِ﴾ مقيدتان لكل نص مطلق، فيه
إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه. فقال هنا: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وملانته وكتبه ورسله واليوم الآخر

والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟ فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

[illegible]

فإذا هذه الأمور قد وُلت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسارانه وحرمانه وحضر عذابه، فلهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها.

ولما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَقْنَبُوا﴾ وَتَقْنَبُوا بِأَنْ تَوَدَّعُوا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَقْنَبُوا بِتَقْوَاهُ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ وَمُقْتَضِيَاتِهِ، وَهِيَ الْعَمَلُ بِمَرْضَاتِهِ عَلَى الدَّوَامِ مَعَ تَرْكِ مَعَاصِيهِ، فَهَذَا الَّذِي يَنْفَعُ الْعَبْدَ، وَهُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَافَسَ فِيهِ، وَتَبْذُلَ لَهُمُ الْأَعْمَالُ فِي طَلْبِهِ.

وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفًا، ليشيهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿إِنْ تُؤْمُرُوا وَتَشَاءُوا يُؤْتِكُمْ أَموالَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعتكم من أخذ أموالكم ويقانكم بلا مال، أو ينقصكم نقضًا يضركم ولهذا قال: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمَا فَجِبْنُمْ سَلًا وَخَيْرُ مِمَّا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم
بأسا لها، أنكم تمتنعون منها أنكم ﴿تُذَكَّرُونَ﴾ لِيُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي فِيهِ مَصْلَحَتُكُمُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ .
﴿فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْغُلْ﴾ أي: فكيف لو سألكم وطلب منكم
أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ اليس من باب أولى
وأحرى امتناعكم من ذلك .

﴿وَصَدُّوا﴾ الخلق ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتزويدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه.

﴿ثُمَّ مَاتُوا وَمُكْفَرَاتُ﴾ لم يتوبوا منه ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لا
بشفاعة ولا بغيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب وفاتهم
التواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة
الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مقينين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه. فسيحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حيًّا متمكِّنًا من التوبة.

وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافهم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَا يَهْتَوِ أَيُّهَا: لَا تَضَعُوا عَنْ قِتَالِ
عَدُوِّكُمْ، وَيَسْتَوِي عَلَيْكُمْ الْخَوْفُ، بَلْ اصْبِرُوا وَابْتَئُوا،
وَوُطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَالْجِلَادِ طَلِبًا لِمَرْضَاةِ رَبِّكُمْ،
وَنَصْحًا لِلْإِسْلَامِ، وَإِعْضَابًا لِلشَّيْطَانِ.

ولا تدعوا إلى المسالمة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم طلباً للراحة ﴿٥٠﴾ الحال أنكم ﴿أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَكُنْ يَرْكَرُ﴾ أى: ينقصكم ﴿أَعْيَالَكُمْ﴾ .

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتضى للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين، أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عددًا وعُدًّا وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين بالعموم والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن الثقة تضاعف فيه إلى سعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَفْشُونَ مَوْطِنًا يَحْتَطِئُ الْكَفَّارُ وَلَا يَأْلُونَ مِنْ عَدُوٍّ لَّيْلًا وَلَا نَهَارًا ۚ إِلَّا كَيْفَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَثَرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا يَفْقَهُونَ تَفَقُّدَ صَوْبِهِ وَلَا كَيْفَهُ وَلَا يَقْضُمُونَ وَادِيًا إِلَّا كَحَبِّ مِثْمٍ لِحَبْرَتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ .

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده،
أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر

﴿أَنْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

﴿وَيُؤَيِّدُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ﴾ بإعزاز دينك ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي.

﴿وَنَصْرَكَ اللَّهُ تَعَالَى﴾ أي: قوياً لا يتضعض فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلمهم ونقصهم مع توفر قوى المسلمين ونموهم ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين فقال:

(٦-٤) ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدُوا إِيْمَانَهُمْ وَيُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عِندَهُ حَكِيمًا ۝ لِيُذْخِرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ بَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِ الْأَنْهَارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا ۝ وَيُؤَيِّدُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتْرَكِينَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ بِاللَّهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ وَدَائِرَةُ السُّوْفَةِ وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

يخبر تعالى عن ميثقه على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن والمقلقة، والأمور الصعبة التي تشوش القلوب وترجع الأبواب وتضعف النفوس.

فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يشته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه ويتم إيقانه.

فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاظة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس. فلما صبروا عليها ووطئوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿وَلَهُ جُودٌ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضِينَ﴾ أي: جميعها في ملكه وتحت تدبيره وقهره. فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونيه، ولكنه تعالى عليم حكيم، فتفتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر.

﴿لِيُذْخِرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ بَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِ الْأَنْهَارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ الْإِيمَانَ فَإِنَّمَا يَبْتَغِ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإيفاق شيئاً.

فإن الله هو ﴿الْعَزِيزُ الرَّؤُوفُ﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقانتكم لجميع أموركم.

﴿ذَلِكَ تَتْلُوا﴾ عن الإيمان بالله، وامتنال ما يأمركم به ﴿بِسَبِيلِ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ في التولي. بل يطيعون الله ورسوله ويحبون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ﴾.

تم تفسير سورة الفتح والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُؤَيِّدَ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَنَصْرَكَ اللَّهُ تَعَالَى﴾ هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قریش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار يتمكن من ذلك.

وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحاً ووصفه بأنه فتح مبين، أي: ظاهر جلي. وذلك لأن المقصود في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله وانتصار المسلمين، ولهذا حصل بذلك^(١) الفتح، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة.

وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، ولهذا من أعظم مناقبه وكراماته

سُورَةُ الْفَتْحِ

٥١١

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَبِمَتَّعْنَاهُ عَلَيْكَ وَبِهِدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾
وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ تَصَارِعًا عَرِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدَهُمْ مِنْهُمُ يُغْفِرُ لَهُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ
الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِنَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ
يَا اللَّهُ ظَلَمَ السَّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتَعَزَّزُوا وَتُقَرِّبُوا وَتُسَبِّحُوا بِحُكْمٍ وَأَمِيرًا ﴿٩﴾

النهار وآخره، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله
وبين رسوله، وهو الإيمان بهما والمختص بهما بالرسول وهو
التعزير والتوقير، والمختص بالله وهو التسبيح له والتقدیس
بصلاة أو غيرها.

(١٠) ﴿إِنَّا أَلَيْنَا بِمَا يَشُورُكَ إِنَّمَا يَشُورُكَ اللَّهُ بِذَلِكَ قَوْلَ آبِيهِمْ
فَمَنْ تَكُنْ فَإِنَّمَا يَكُنْ عَلَى قَوْلِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيقَاتِهِ
أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذه المبيعة التي أشار الله إليها هي «بيعة
الرضوان» التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله
ﷺ، على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا
يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز
الفرار فيها.

فأخبر تعالى: أن الذين بايعوك حقيقة الأمر أنهم
﴿يَشُورُونَكَ﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده
أنه قال: ﴿بِذَلِكَ قَوْلَ آبِيهِمْ﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه
بتلك المبيعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم
على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ تَكُنْ﴾ فلم يف بما عاهد
الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَكُنْ عَلَى قَوْلِهِ﴾ أي: لأن وبال ذلك راجع

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا
عَظِيمًا﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات، فإن
الله يعذبهم بذلك، ويريهما ما يسوؤهم حيث كان مقصودهم
خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه،
ولا يُعْلِي كلمته، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة على
أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم
في الدنيا.

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله.
﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

(٧) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كرر
الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيها من
الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر
جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا جُنْدَ لَهُمُ الْغَالِيُونَ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي: قويًا غالبًا قاهرًا لكل شيء. ومع
عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتدبيره، يجري على ما تقتضيه
حكيمته وإتقانه.

(٩، ٨) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ لَتُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّزُوا وَتُقَرِّبُوا وَتُسَبِّحُوا بِحُكْمٍ وَأَمِيرًا﴾ أي:
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أيها الرسول الكريم «شَهِيدًا» لامتك بما
فعلوه من خير وشر، وشاهدًا على المقالات والمسائل، حقها
وباطلها، وشاهدًا لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من
كل وجه.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ من أطاعك، وأطاع الله بالثواب الدنيوي
والدنيوي والآخروي، ومنذرًا من عصى الله بالمعقاب العاجل
والآجل.

ومن تمام البشارة والنذارة بيان الأعمال والأخلاق التي
يُشِيرُ بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة
والحق من الباطل.

ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي:
بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما يرفعكم، أرسلناه
لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتها في
جميع الأمور.

﴿وَتَعَزَّزُوا وَتُقَرِّبُوا﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوا﴾
أي: تعظموه وتجلوه وتقوموا بحقوقه كما كانت له المنة
العظيمة برفاقكم.

﴿وَتُسَبِّحُوا﴾ أي: تسبحوا لله ﴿بِحُكْمٍ وَأَمِيرًا﴾ أول

مخدولون مغلوبون. ولهذه سنة الله في الأمم السابقة أن جند الله هم الغالبون ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَتًا مِمَّا يَتَّبِعُونَ﴾.

(٢٥، ٢٤) ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْوَيْدَ كَفَّ يَدَيْهِمْ عَنْكُمْ وَيُؤْتِيَهُمْ مِنْكُمْ بِطَلْعِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَفْرَكَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالَّذِينَ مَعَكُمْ أَوْ لَا يَبْلُغُ عِلْمُهُمْ وَلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَنْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْلُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَنَذَرْنَا الْوَيْدَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول تعالى مبتدئاً

على عباده بالعافية من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْوَيْدَ كَفَّ يَدَيْهِمْ﴾ أي: أهل مكة ﴿عَنْكُمْ وَيُؤْتِيَهُمْ مِنْكُمْ بِطَلْعِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَفْرَكَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة.

فوجدوا المسلمين متبهرجين فأمسكهم، فتركهم ولم يقتلهم رحمة من الله بالمومنين إذ لم يقتلهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

ثم ذكر تعالى الأمور المبهجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصددهم رسول الله ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة.

وهم الذين أيضاً صدوا ﴿الْهَٰؤُلَاءِ مَعَكُمْ﴾ أي: محبوساً ﴿أَنْ يَبْلُغَ حِلْمُهُ﴾ وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً، وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم.

ولكن تم مانع وهو وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى. فلولاً هؤلاء الرجال المؤمنون والنساء المؤمنات الذين لا يعلمهم المسلمون ﴿أَنْ تَطْلُوهُمْ﴾ أي: خشية أن تطأوهم ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والمعرة: ما يدخل تحت قتالهم، من نيلهم بالأذى والمكره.

وفائدة أخرى، وهو أنه ليدخل في رحمة من يشاء فيمنع عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو زالوا من بين أظهرهم ﴿لَنَذَرْنَا الْوَيْدَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَبِيَّةَ حَبِيَّةَ الْمُهْلِةِ فَانزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّاهِقِينَ﴾

فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات ﴿فَنَزَلَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان ﴿فَنَزَلَ السَّكِينَةُ عَلَيْهِمْ﴾ شكرًا لهم على ما في قلوبهم زادهم هدى.

وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فانزل عليهم السكينة تنبتهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ فِتْنًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية.

فاختصوا بخيبر وغنائمها جزاء لهم، وشكرًا على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

﴿وَمَنَّا لَكُمْ كَثِيرَةٌ تَأْخُذُوكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَرَضًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة والقدرة التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين. ولكنه حكيم، ينجلي بعضهم بعض، ويمتنع المؤمن بالكافر.

﴿وَعَدْنَاهُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوكُمْ﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمين إلى يوم القيامة.

﴿وَمَعَكُمْ لَكُمْ هُنَا﴾ أي: غنيمة خيبر، أي: فلا تحسبوا وحدها، بل ثم شيء كثير من الغنائم سبقتها.

﴿وَوُكِّلَ أَحْمَدُ اللَّهُ﴾ إذ ﴿كَثُرَ الْوَيْدُ الْآثِينَ﴾ القادرين على قتالكم، الحريصين عليه ﴿عَنْكُمْ﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم.

﴿وَلَا تَكُنْ﴾ هذه الغنيمة ﴿إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يستدلون بها على خير الله الصادق، ووعد الحق وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدّر غيرها.

﴿وَيُؤْتِيَكُمْ﴾ بما يفيض لكم من الأسباب ﴿بِزَكَاةٍ مُسْتَقِيمَةٍ﴾ من العلم والإيمان والعمل.

﴿وَأَخْرَجَ﴾ أي: وعدكم أيضاً غنيمة أخرى ﴿لَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وقت هذا الخطاب.

﴿فَدَا حَكَمَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: هو قادر عليها، وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

(٢٣، ٢٢) ﴿وَلَوْ فَتَنَّا لَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُعْذِرُوكُمْ وَإِنَّا لَا نَبْرِئُكُمْ ۝ سَخَّ اللَّهُ الْوَيْدَ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَتًا مِمَّا يَتَّبِعُونَ﴾

﴿وَلَوْ فَتَنَّا لَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُعْذِرُوكُمْ وَإِنَّا لَا نَبْرِئُكُمْ﴾ أي: لو فتنناكم بالكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقتلواهم ﴿لَوَلَّوْا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُعْذِرُوكُمْ وَإِنَّا لَا نَبْرِئُكُمْ﴾ أي: لو فتنناكم بالكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقتلواهم ﴿لَوَلَّوْا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُعْذِرُوكُمْ وَإِنَّا لَا نَبْرِئُكُمْ﴾

﴿وَلَوْ فَتَنَّا لَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُعْذِرُوكُمْ وَإِنَّا لَا نَبْرِئُكُمْ﴾ أي: لو فتنناكم بالكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقتلواهم ﴿لَوَلَّوْا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُعْذِرُوكُمْ وَإِنَّا لَا نَبْرِئُكُمْ﴾

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْتَدَّ بِكُمْ عَنْهُمْ بِطَنٍ مِنْكُمْ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ لَمَا تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنْصَبُوا مِنْهُمُ مَعْرَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُجِلَّ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَنَذَرْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبِّيَّ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٨﴾

أحكامه الشرعية، فإنها كلها هدى ورحمة.

أخبر بحكم عام فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ الذي هو العلم النافع الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مُرَكَّبٌ للقلوب، مطهر للنفوس، مُرَبِّ للأخلاق، مُغْلٍ للأقدار.

﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ بما بعثه الله به ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف والسنان.

(٢٩) ﴿فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَتَدْعُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ رَحْمَةً مِنْهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وَجْهِهِمْ مِنْ أَمْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَجٍ أُخْرِجَ شَطْرُهُ فَتَارِدُهُ فَاسْتَقْبَلَتْهُ عَلَى سَوْفَةٍ يَنْجُبُ الزَّرَّاجُ لِيُجِطَّ بِهِمُ الْكُفْرُ وَنَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ تَقْفَرُوا وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، أنهم بأكمل الصفات وأجل الأحوال.

كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٤﴾ يقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ﴾ حيث أنفوا من كتابة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لنلا يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقرش».

وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمان الله ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين ولا لوم اللانمين.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي «لا إله إلا الله» وحقوقها، ألزمهم القيام بها فاتزموها وقاموا بها.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ من غيرهم ﴿وَوُكِّلُوا﴾ كانوا ﴿أَهْلَهَا﴾ الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

(٢٨، ٢٧) ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبِّيَّ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبِّيَّ بِالْحَقِّ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة، ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به». قال الله هنا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبِّيَّ بِالْحَقِّ﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدر في ذلك تأخير تأويلها.

﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: في هذه الحال المقترضة لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدانكم للنسك وتكميله بالحلل والتقصير وعدم الخوف.

﴿فَعَلِمَ﴾ من المصلحة والمنافع ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومنفعتها، وهكذا سائر

ابن القيم في «الهدى النبوي» فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكلم على معانيها وأسرارها قال - رحمه الله تعالى - :

فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري وقادة وموسى بن عتبة ومحمد ابن إسحاق وغيرهم.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان.

قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس: أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمسمائة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربعمائة. وفيهما، عن عبد الله ابن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاثمائة.

قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال: يرحمه الله، وهم، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة، قلت: وقد صرح جابر القولان، وصح عنه أنهم نحرُوا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربعمائة بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أكمل، وهو قول البراء بن عازب، ومعتل ابن يسار، وسلمة ابن الأكوع في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة، وغلط غلطاً بيّناً من قال: كانوا سبعمائة.

وعذره^(١) أنهم نحرُوا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاءها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربعمائة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة.

وأنهم «أَيَّدَهُ عَلَى الْكُفَّارِ» أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة.

فلذلك ذل أعداؤهم لهم وانكسروا وقهرهم المسلمون. «وَرَحَّمَهُمْ» أي: متحابون متراحمون متعاطفون كالجسد الواحد يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق.

وأما معاملتهم مع الخالق فإنك «تَرَبَّيْتُمْ زَكَّاءً سَجْدًا» أي: وصفهم كثرة الصلاة التي أجل أركانها: الركوع والسجود. «يَتَّبِعُونَ» بتلك العبادة «فَمَسَّاهُ مِنَ اللَّهِ وَصَوَّنَا» أي: هذا مقصودهم ببلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه. «سِيمَاءَهُمْ فِي وَجْهِهِ مِنَ الشَّجْوَةِ» أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم حتى استتارت.

لما استتارت بالصلاة بواطنهم، استتارت [بالجلال] ظواهرهم.

«ذَلِكَ» المذكور «مَنْهُمْ فِي التَّوْبَةِ» أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا.

وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم «كَزَّرَجٍ أَخْرَجَ سَطَطُهُ قَانَزَرَةً» أي: أخرج فراخه فوازرت فراخه في الشباب والاستواء. «فَأَسْتَقَلَّتْ» ذلك الزرع أي: قوي وغلظ «فَأَسْتَوَتْ عَلَى سُوقِهِ» جمع ساق.

«يَتَّبِعُ الزَّرْعَ» من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله. كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق، واحتياج الناس إليهم، فقرة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه.

وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق، ووازره وعاونته على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه، فأزوره فاستغلظ.

ولهذا قال: «يَتَّبِعُكُمُ يَوْمَ الْكُفَّارِ» حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال ومعامع القتال.

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»، فالصحابة رضي الله عنهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها، وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديبية بطولها كما ساقها الإمام شمس الدين

فصل

فلما كانوا بذى الحليفة قلد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عبداً له بين يديه من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريباً من عسفان، أتاه عينه فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلون وصادقون عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه أتروا أن نميل إلى فراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عتقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجى لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا».

فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغيم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغبرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خللات القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خللات القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الغيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهموها» ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يترضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فاتنزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله! ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها. وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أؤذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عُماراً، وادعهم إلى الإسلام».

وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويشهرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم

أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عُماراً، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرجه، فحمله عثمان على الفرس، فأجاره وأردفه أبان، حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت، وطاف به. فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى تطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح.

فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان فقال له المسلمون: اشتفت يا أبا عبد الله، من الطواف بالبيت، فقال: بشما ظنتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها، حتى يطوف بها رسول الله ﷺ، ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجند بن قيس وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلون، وصادقون عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجى لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرمت بهم، فإن شاءوا أماددهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فاعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لا قاتلنهم على أمري لهذا، حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذ الله أمره» قال بديل:

سأبلغهم ما تقول .

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يَعْظُمُونَ الْبَدَنَ فَايَعُثُوها لَهُ»، فَبَعِثُوها فاستقبله القوم بلبون، فلما رأى ذَلِكَ، قال: سبحان الله، لَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَصْدُوا عَنْ الْبَيْتِ.

فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: رَأَيْتَ الْبَدَنَ قَدْ قَلَدَتْ وَأَشْعَرَتْ، وَمَا أَرَى أَنْ يَصْدُوا عَنْ الْبَيْتِ.

فَقَامَ مَكْرُزُ بْنُ حَفْصٍ، وَقَالَ: دَعُونِي أَتَهُ، فَقَالُوا: أَتَهُ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا مَكْرُزُ بْنُ حَفْصٍ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ».

فَجَعَلَ يَكْلِمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَبَيْنَا هُوَ يَكْلِمُهُ، إِذْ جَاءَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ سَهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»، فَقَالَ: هَاتِ، أَكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا، فَدَعَا الْكَاتِبَ، فَقَالَ: «اكْتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ سَهِيلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا نَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنْ أَكْتُبْ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». ثُمَّ قَالَ: «اكْتُبْ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» فَقَالَ سَهِيلٌ: فَوَاللَّهِ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ أَكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي، أَكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَنْ تَخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتُطَوِّفَ بِهِ»، فَقَالَ سَهِيلٌ: وَاللَّهِ لَا تَحْدُثُ الْعَرَبُ أَنَا أَخَذْنَا ضَغْطَةً، وَلَكِنْ لَكَ مِنَ الْعَامِ الْمَقْبِلِ كُتُبٌ. فَقَالَ سَهِيلٌ: عَلَى أَنْ لَا يَأْتِيَكِ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا.

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ يَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سَهِيلٍ يَرْسِفُ فِي قَبْوِهِ، قَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سَهِيلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا قَاضَيْتُكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدَ»، فَقَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَا أَصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَاجِزْ لِي»، فَقَالَ: مَا أَنَا بِمَجِيزٍ، فَقَالَ: «بَلَى فَافْعَلْ»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مَكْرُزُ بْنُ حَفْصٍ: قَدْ أَجْزَنَاهُ.

فَقَالَ أَبُو جَنْدَلُ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرِدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ فِي اللَّهِ عَذَابًا شَدِيدًا.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: وَاللَّهِ مَا شَكَّكَتْ مِنْذُ أُسْلِمْتَ إِلَّا

فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قَرِيشًا، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ عَرْضْتُهُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ سَفْهَاءُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تَحْدِثَنَا عَنْهُ شَيْءٌ، وَقَالَ ذُووُ الرِّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ سَعْدٍ الثَّقَفِيُّ: إِنْ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطْبَةً رَشِدًا، فَاقْبَلُوهَا، وَدَعُونِي أَتَهُ، فَقَالُوا: أَتَهُ.

فَأَتَاهُ فَيَجْعَلُ يَكْلِمُهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبَدِيلٍ، فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيُّ مُحَمَّدٍ، أَرَأَيْتَ لَوْ اسْتَأْصَلْتُ قَوْمَكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتِنَاحَ أَهْلِهِ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى وَجُوهَهَا وَأَرَى أَوْبَاشًا مِنَ النَّاسِ، خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٌ: امْصُصْ بَظَرَ اللَّاتِ، أَنْحَنُ نَفْرَ عَنْهُ وَنَدْعُهُ؟ قَالَ: مِنْ ذَا؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلَا يَدُكَ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجْبِثَكَ.

وَجَعَلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ ﷺ، وَكَلِمَا كَلِمَةً أَخَذَ بِلَحْيَتِهِ، وَالْمَغِيرَةَ ابْنَ شُعْبَةَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السِّيفُ، وَعَلَيْهِ الْمَغْفَرُ. فَكَلِمَا أَهْوَى عُرْوَةُ إِلَى لَحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السِّيفِ، وَقَالَ: أَخْرَيْدُكَ عَنْ لَحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، وَقَالَ: مِنْ ذَا؟ قَالَ: الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيُّ غُدْرٍ، أَوْ لَسْتُ أَسْعَى فِي غُدْرَتِكَ؟

وَكَانَ الْمَغِيرَةُ صَحْبٌ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَقَلَّهْمُ وَأَخَذَ أُمُومَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَاسْلَمَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَاقْبَلْ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

ثُمَّ إِنْ عُرْوَةُ جَعَلَ يَرْمِقُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَاللَّهِ مَا تَنَحَّمَ النَّبِيُّ ﷺ نَخَامَةً، إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا جِلْدُهُ وَوَجْهُهُ.

وَإِذَا أَمْرُهُمْ ابْتَدَرُوا إِلَى أَمْرِهِ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتُلُونُ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصَوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُجِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ.

فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ، لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ: عَلَى كَسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِي، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلَكًا يَعْظُمُهُ أَصْحَابُهُ، مَا يَعْظُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَحَّمَ نَخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهُهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمْرُهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتُلُونُ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصَوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُجِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطْبَةً رَشِدًا فَاقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي أَتَهُ، فَقَالُوا: أَتَهُ.

يومئذ، فأنت النبي ﷺ، قلت: يا رسول الله أأنت نبي الله؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، قلت: علام نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصر، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به».

قال: فأنت أبابكر، قلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بفرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات.

فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة، حتى تحرر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا.

ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مُبَيَّنَاتٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَمِصُّ الْكُؤُورَ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان ابن أمية، ثم رجع إلى المدينة.

وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَنَّاكَ فَتْنَا مُبِينًا﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتن هو يا رسول الله؟! فقال: «نعم»، فقال الصحابة: هتينا لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. انتهى.

ولهذا آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة، لو صلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين آمين. بقلم الفقير إلى ربه سليمان ابن حمد العبد الله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله الذي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ وَهَمَّاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبَّعُوا لَكَ فَاسَجَدُوا يَتَوَفَّوْنَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً سِيسَمًا هُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِخٍ أَخْرَجَ سَطْرَهُ فَفَازَهُ فَاسْتَغَاطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥١﴾

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاهُكُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

بنعمته تتم الصالحات (١).

المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان مَن به الله على عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي.

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ○ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ○ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاهُكُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾

ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب^(١)، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن.

فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها، ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

(٥، ٤) **إِنَّ الْكَلِمَةَ بِيَدِنَا وَكَانَ الْحُجْرَتُ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ○ **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى نَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَلَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ** نزلت هذه الآيات الكريمات في أناس من الأعراب الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد، [أي: اخرج إلينا].

فدفعهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب. فأدب العبد عنوان عقله، وأن الله مريد به الخير، ولهذا قال: **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى نَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَلَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ** أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلاق بالآداب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

(٦) **يُنَادِيكُمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ قَائِلٌ يَنْذِرُ فَاصْبِرُوا أَنْ تُبِيتُوا قَوْمًا يَمْكُرُونَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا فَتَنَهُمْ تَكْرِيمًا** وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يشبثوا به واستعمالها، وهو أنه إذا فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، الثبوت والتبيين.

فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب، ولم يعمل به، فيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

(١) في ب: من كان. (٢) في ب: والجائزات. (٣) في ب: عن ضده. (٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

هذا متضمن للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له واحترامه، وإكرامه.

فأمر [الله] عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، و[أن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمرُوا حتى يأمر.

فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة الأبدية، والتعيم السرمدي.

وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائناً ما كان^(١).

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: **إِنَّ اللَّهَ تَبَّحٌ** أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات.

عَلِيمٌ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات^(٢).

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه - حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال^(٣).

ثم قال تعالى: **يُنَادِيكُمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ** وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يخفض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام.

ولا يكون الرسول كأحد، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً، وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب وقبول الأعمال].

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى.

الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا فيها ونعمت، وإن **بَعَثَ إِسْدَهُمَا عَلَى الْأَخْرَى فَقِيلُوا أَلَيْ تَبْغِي حَقَّ نَبِيِّهِ إِلَّا أَمْرَ اللَّهِ** ﴿٧﴾

أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله من فعل الخير وترك الشر الذي من أعظمه الاقتال.

[وقوله: ﴿إِنْ قَاتَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ هذا أمر بالصلح وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقراءة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض التي توجب العدول عن العدل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم.

وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملانكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ **أَمْرًا بِحَقِّ الْأَخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا بيع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»** (٤).

وقال ﷺ (٥): «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك ﷺ بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لفراق القلوب وتباغضها [وتدابرها] فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شائهم.

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار. (٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له. (٣) في ب: ويقتل. (٤) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذب) متفق عليه. (٥) في ب: وفيها عن النبي ﷺ

(٨، ٧) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَزِمْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ فَصَلِّ عَلَى اللَّهِ وَبِسْمِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ أي: ليكن لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم وهو الرسول الكريم البار الراشد الذي يريد بكم الخير، وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة، ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعتكم ولكن الرسول يرشدكم.

والله تعالى يحب إليكم الإيمان ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإثارة، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإجابة إليه.

ويكره إليكم الكفر والفسوق أي: الذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب (١)، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له (٢).

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان **﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾** أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القيم والصراط المستقيم.

وضدهم الغاؤون الذين حجب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما **﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَوْلُهُمْ﴾** ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم. وقوله: **﴿فَصَلِّ عَلَى اللَّهِ وَبِسْمِهِ﴾** أي: ذلك الخير الذي

حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه لا بحولهم وقوتهم. **﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾** أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

(١٠، ٩) ﴿وَلَمَّا طَلَبَتَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْبَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ إِسْدَهُمَا عَلَى الْأَخْرَى فَقِيلُوا أَلَيْ تَبْغِي حَقَّ نَبِيِّهِ إِلَّا أَمْرَ اللَّهِ فَإِنْ قَاتَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبغى بعضهم على بعض، ويقاتل (٣) بعضهم بعضاً، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به

الأمور بخلاف ذلك منه .

﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾ أي : لا تفتشوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوها، واتركوا^(١) المسلم على حاله، واستعملوا التعافل عن أحواله^(٢) التي إذا فشت ظهر منها ما لا ينبغي .

﴿وَلَا يَنْبَغُ لَكُمْ بَعْضًا﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ : «ذكر أخاك بما يكره ولو كان فيه» .

ثم ذكر مثلاً منفرداً عن الغيبة فقال : «يَبْغِي أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» شبه أكل لحمه ميتاً المكروه للنفوس [غاية الكراهة] باغتيابه، فكما أنكم تكروهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً فاقد الروح، فكذلك [فلتكرهوا] غيبته وأكل لحمه حياً .

﴿وَالْقَوْلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَوَّابٌ رَجِيمٌ﴾ والتواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رعيم بعباده حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر .

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله [تعالى] بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، ورفقه وجعلهم شعوباً وقبائل أي : قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف ولحقوق الأنساب، ولكن الكرم بالقوى .

فأكرمهم عند الله اتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أشرفهم نسباً . ولكن الله تعالى عليهم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلًّا بما يستحق .

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك .

(١٤-١٨) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَكُنْ مِنْكُمْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَنُكِرُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

٥١٧ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا أَوْلَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا يَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَالْقَوْلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَوَّابٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَكُنْ مِنْكُمْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَنُكِرُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿قُلْ أَصْلَحْتُكُمْ وَاللَّهُ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿يَسْئَلُونَكَ أَنَّ اسْلَمُوا قُلْ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ اسْلَمْتُمْ بَلْ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّمَا اسْلَمْتُمْ عَلَى نَفْسِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا أَوْلَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا يَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَالْقَوْلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَوَّابٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَكُنْ مِنْكُمْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَنُكِرُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿قُلْ أَصْلَحْتُكُمْ وَاللَّهُ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ○ قُلْ أَصْلَحْتُكُمْ وَاللَّهُ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ○ يَسْئَلُونَكَ أَنَّ اسْلَمْتُمْ قُلْ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ اسْلَمْتُمْ بَلْ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّمَا اسْلَمْتُمْ عَلَى نَفْسِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بَيِّنٌ تَعْلَمُونَ ﴿ يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا : آمنا أي : إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال : ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي : لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان ظاهراً وباطناً كاملاً .

﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي : دخلنا في الإسلام، واقتصرنا على ذلك .

﴿و﴾ السبب في ذلك، أنه ﴿لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وإنما أتمتم خوفاً أو رجاءً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم .

ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به^(١)، فإن المنة لله تعالى عليهم.

فكما أنه تعالى يمن^(٢) عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمته عليهم بهدائهم إلى الإسلام، ومته عليهم بالإيمان، أعظم^(٣) من كل شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ بِمَا عَظَى السَّعَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الأمور الخفية فيهما التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامم القفار، وما جثه الليل أو واره النهار، يعلم قطرات الأمطار وحبّات الرمال ومكنونات الصدور وخبايا الأمور. ﴿وَمَا تَسْغُطُ مِنْ وَرْدَةٍ إِلَّا يَمْلُكُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي مِطْهَرٍ الْأَرْضِ وَلَا رَيْسٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كُفْيٍ شَيْئٍ﴾

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحصي عليكم أعمالكم ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات بعون الله ومثّه وجوده وكرمه، فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه، ومن الجود أفضله وأعمه^(٤)

تفسير سورة ق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ۝ بَلْ يَخْتَارُ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَجْمٌ بَيْنَهُمْ ۝ أَوَلَمْ يَتَنَبَّأُوا لَأَكْبَرُ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُضُ الْأَرْضُ وَمَا تَنْهَى عَنْهَا كُنْتُ حَقِيقٌ﴾ يقسم تعالى بالقرآن المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات جزيل المبررات، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها.

وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، ولهذا موجب لكمال اتباعه و[سرعة] الانقياد له، وشكر الله على المنة به.

(١) في ب: لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله. (٢) في ب: هو المان.

(٣) في ب: أفضل. (٤) في ب: بعد قوله: وكرمه: والحمد لله.

وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَسْلَى الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيراً منهم من الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله.

﴿وَإِنْ يُؤْمِرُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بفعل خير أو ترك شر ﴿لَا يَلْتَمِزْ مِنْكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم منها مقال ذرة، بل يوفيكم إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور لمن تاب إليه وأناب، رحيم به حيث قبل توبته.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: على الحقيقة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله. فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان التام في القلب؛ لأن من جاهد غيره على الإسلام والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقوَ على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه.

وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصديق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان. وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة والفوز الأبدي والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب وظن بالله، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَتَمْلِكُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّعَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا شامل للأشياء كلها التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازي عليه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

هذه حالة من أحوال من ادّعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن يكون ذلك تعليمًا لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له [وتبرعوا] بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، ولهذا تجمل بما لا يجمل، وفخر بما لا

(٦-١١) ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا بِهَا مِنْ خَشْيَتِنَا رَوْحَ بَهِيمٍ ۝ وَبَرِّقَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ أَعْيُنُ مَلَكٍ ۝ وَذُكِّرَتْ لِكُلِّ عِبْدٍ مُبِينٍ ۝ وَتَرَكْنَا مِنْ أَفْئِدَةِ مَاءً مُبِينًا فَاتَّخَذْتَهُ حِجَابًا وَحَبَّ لِمُصِيدٍ ۝ وَالنَّخْلَ بَاقِعَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِّعِبَادٍ وَاحِيَيْنَا بِهِ بِلَادَهُ فَيَسَّيْنَهَا كَذَلِكَ الْفُرُوجُ ۝﴾ لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته^(١) الأفقية كي يعتبروا ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة. فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ فبه مستوية الأرجاء ثابتة البناء مزينة بالنجوم الخس، والجوار الكس التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبًا ولا فروجًا ولا خللاً ولا إخلالاً.

قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿و﴾ إلى ﴿الْأَرْضِ﴾ كيف ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ وسعناها حتى أمكن كل حيوان السكن فيها والاستقرار^(٢)، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرأسها بالجبال لتستقر من التزلزل والتموج.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَهِيمٍ﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها وتعجب مبصرها، وتقر عين راميها، لأكل بني آدم وأكل بهائمهم ومنافعهم.

وخص من تلك المنافع بالذكر الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة من العنب والرمان والأنرج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات أي: الطوال التي يطول^(٣) نفعها، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواشيهم.

وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض والتي تحتها من ﴿حَبِّ لَمَّيْسِدٍ﴾ أي: من الزرع المحصود، من بُرٍّ وشعير، وذرة وأرز ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿بَرِّقَتْ﴾ يتبصر بها من عمى الجهل، ﴿وَذُكِّرَتْ﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا،

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: المكذوبون للرسول ﷺ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ مَثِيرٌ لَكُمْ مِنْكُمْ﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه.

فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم^(٤).

﴿هَكَذَا تَأْتِي بَشِيرٌ﴾ أي: مستغرب وهم في هذا الاستغراب بين أمرين:

إما صادقون في [استغرابهم] وتعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم، وضعف عقولهم بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، ومنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، ومنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأى ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟.

وإما أن يكونوا متعجبين على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنع.

ثم ذكر وجه تعجبهم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ففاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وفاسوا الجاهل الذي لا علم له بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم، ولهذا استدلال بكمال علمه وسعته - التي لا يحيط بها إلا هو - على قدرته على إحياء الموتى.

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا كُنَّا لَعَالَمِينَ لِمَا كَانْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿لَكُنَّا كَانْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: مخطئون مشبهة، لا يشتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر.

وكذلك جعلوا القرآن عضيض، كل قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجهة^(٦) ولا قرار، [فترى أموره متناقضة مؤتلفة].

كما أن من اتبع الحق وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قبله.

(١) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقولهم وعقولهم. (٢) في ب: وجه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: آيات الله. (٤) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٥) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغ إليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَافَاتِنَا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا رَجَّحَ يُعِيدُ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَبْتٍ وَذَكَرْنَاهَا لِكُلِّ عَبْدٍ مُتَّبِعٍ ﴿٧﴾ وَزَيَّنَّا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْتَرِكًا فَالْتَبَتْنَاهُ وَجَنَّدْنَا حَبَّ الْحَبِيدِ ﴿٨﴾ وَالْخَلْقَ كُلَّهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَرَزَقْنَا السَّمَاءَ رِجَافًا زَاجِرًا وَفَعَلْنَا الْفُجُورَ كَذِبًا ﴿١٠﴾ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَأَخَصَّبْنَا الرِّيَاسَ وَشُعُوبًا وَقَادَ وَفِرْعَوْنَ وَإِخْوَانَهُ لُوطًا ﴿١١﴾ وَأَخَصَّبْنَا الْأَنْبِيَاءَ وَقَوْمَهُمْ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ هُنَّ وَرَعِيدُ ﴿١٢﴾ أَفَعَيْنَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٣﴾

أصابعهم.

ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو المنشأ الأول^(١) - على الخلق الآخر وهو النشأة الآخرة.

فكما^(٢) أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى [الرفات والرمم، فقال: «أَفَعَيْنَا» أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا «بِالْحَقِّ الْأَوَّلِ»؟ ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعني عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك. إنما هم في لبس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة أهون من الابتداء كما قال تعالى: «وَهُوَ الْبَاقِي بَدِيدًا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

(١٦-١٨) «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَقَلْنَا مَا تَوْسُوهُ بِهِ فَنَسُوا وَخَنَ أَعْرَبُوا إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِ الْأَوَّلِ» ○ لِذَلِكَ نَقْلُ الْخَلْقَيْنِ عَنِ الْيَتِيمِ وَنَحْنُ الْإِنْفَالُ فِيمَا ○

(١) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلق. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) كذا في ب، وفي أ: وقوم تبع وهو كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق يقال له تبع. (٤) في ب: النشأة الأولى. (٥) كذا في ب، وفي أ: وأنه كما أنه.

ويتذكر بها ما أخبر الله به وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد بل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُتَّبِعٍ﴾ إلى الله أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء وإجابة داعيه.

وأما المكذب أو المعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة دليل على كمال قدرة الله تعالى.

وما فيها من الحسن والإتقان وبديع الصنعة وبديع الخلق^(١) دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم.

وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء وجوده الذي عم كل حي.

وما فيها من عظم الخلقه وبديع النظام، دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: «وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ».

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية خوَّفهم أخذت الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين فقال:

(١٢-١٥) «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَأَخَصَّبْنَا الرِّيَاسَ وَشُعُوبًا وَقَادَ وَفِرْعَوْنَ وَإِخْوَانَهُ لُوطًا ○ وَأَخَصَّبْنَا الْأَنْبِيَاءَ وَقَوْمَهُمْ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ هُنَّ وَرَعِيدُ ○ أَفَعَيْنَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» أي:

كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلمهم الكرام، وأنبياءهم العظام كـ «نوح» كذبه قومه، [و «نمود» كذبوا «الصالحا»]، «و عاد كذبوا «هودا»، وإخوان لوط كذبوا «الوطا»، وأصحاب

الأيكة كذبوا «شعيبا»، وقوم تبع - «وتبع» كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام^(٢) - قوم تبع كذبوا الرسول

الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي تبع من التبابعة، لأنه - والله أعلم - كان مشهوراً عند

العرب لكونهم من العرب العرباء الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب، خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته.

ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا رسلمهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لتلا يصيبكم ما

٥١٩

﴿٢٢﴾

﴿٢٣﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٢٢﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٢٣﴾ مَا يَلْقَظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿٢٤﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢٥﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴿٢٦﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢٧﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي ﴿٢٩﴾ أَلِيًّا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَجَنَّارِ عَيْنِي ﴿٣٠﴾ مَتَاعٌ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٌ ﴿٣١﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرًا فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٣٢﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوهُمُ الْوَيْلَ لِمَنْ قَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿٣٤﴾ مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ عَلَى مَا أَتَى بِظُلْمٍ لِقَائِهِ ﴿٣٥﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٦﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣٧﴾ هَذَا مَا وَعَدُونَكُمْ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٨﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ﴿٣٩﴾ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٤٠﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٤٢﴾

مَا يَلْقَظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿٢٢﴾ يخبر تعالى أنه المتفرّد بخلق ﴿٢١﴾ جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره، ويوسوس في صدره ﴿٢٢﴾.

وأنه ﴿٢٣﴾ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق ﴿٢٤﴾ المكتنف لغرة النحر، ولهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه ﴿٢٥﴾ في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكائنين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿٢٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿٢٧﴾ عَنِ الْيَمِينِ يكتب الحسنات ﴿٢٨﴾ الْآخَرِ ﴿٢٩﴾ عَنِ الشِّمَالِ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿٣٠﴾ عَيْنٌ بِذلك متبهي لعمله الذي أعد له، ملازم له ﴿٣١﴾.

﴿٣٢﴾ يَوْمَ نَقُصُّ مِنْ قَوْلٍ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿٣٣﴾ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَثِيرِينَ يَحِيطُونَ مَا تَعْمَلُونَ.

(١٩-٢٢) ﴿٢٣﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴿٢٤﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢٥﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ أي: ﴿٢٦﴾ وَجَاءَتْ هَذَا العاقل المكذب بآيات الله ﴿٢٧﴾ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ الذي لا مرد له ولا مناص ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ أي: تتأخر وتتكصص عنه.

﴿٢٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

﴿٣٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه ﴿٣١﴾ وَشَهِيدٌ يشهد عليها بأعمالها خيرا وشرا، ولهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر مما يجب أن يجعله العبد منه على بال.

ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿٣٢﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً ولوماً وتعنيفاً، أي: لقد كنت مكذبا بهذا، تاركا للعمل له فالان ﴿٣٣﴾ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ الذي غطى قلبك، فكثر نومك، واستمر ﴿٣٤﴾ إِعْرَاضُكَ ﴿٣٥﴾ بَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

أو هذا خطاب من الله للبعد فإنه في الدنيا في غفلة ﴿٣٦﴾ عما خلق له، ولكنه يوم القيامة يتبه ويزول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

(٢٣-٢٩) ﴿٢٣﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي أَلِيًّا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَجَنَّارِ عَيْنِي ﴿٢٤﴾ مَتَاعٌ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٌ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرًا فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوهُمُ الْوَيْلَ لِمَنْ قَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿٢٨﴾ مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ عَلَى مَا أَتَى بِظُلْمٍ لِقَائِهِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ أي: قرين هذا المكذب المعرض من الملائكة الذين وكلهم الله على حفظه، وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿٣٠﴾ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي أي: قد أحضرت ما جعلت عليه،

(١) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق. (٢) في ب: وتوسوس به نفسه. (٣) في ب: العظم. (٤) في ب: إليه. (٥) في ب: لذلك. (٦) كذا في ب، وفي أ: تحيد. (٧) كذا في ب، وفي أ: وداه. (٨) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.

﴿لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: كل ما تعلقت به مشيئتهم فهو حاصل فيها.

ولهم فوق ذلك ﴿نَزِيدٌ﴾ أي: ثواب يمددهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأعظم ذلك وأجله وأفضله، النظر إلى وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

(٣٦، ٣٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَثْنُ مِنْهُمْ بَشَرًا مَقْتُولًا﴾ أي: في ذلك لذكرى لمن كان لهم قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - يقول تعالى - مخوفًا للمشركين المكذبين للرسول - : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: أمما كثيرة ﴿هُمْ أَثْنُ﴾ من هؤلاء ﴿بَشَرًا﴾ أي: قوة وأثارا في الأرض.

ولهذا قال: ﴿مَقْتُولًا﴾ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار وزرعوا وعمروا ودمروا.

فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم والعذاب الشديد.

فـ ﴿حَذَرَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم، ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم ولا أولادهم.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: قلب عظيم حي، ذكي زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله تذكر بها وانتفع فارتفع^(١).

وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعا يسترشد به، وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر، فهذا له أيضا ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى.

وأما المعرض الذي لم يلق^(٢) سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيد شيئا، لأنه لا يقبل عنده، ولا تقضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته.

(٣٨-٤٠) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّا مِنْ غُيُوبٍ﴾ أي: فأنصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسيح في الشجور. وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة، ومشيته النافذة التي أوجد بها أعظم المخلوقات ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة من غير تعب ولا نصب، ولا لغوب ولا إعياء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢٠

سُورَةُ ق

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَثْنُ مِنْهُمْ بَشَرًا مَقْتُولًا
إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّا مِنْ غُيُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَنْصِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَغِصَّ يَوْمَ تَذَاوَى النُّجُومِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُؤْتِيهِمُ الْإِنْسَانَ الْعَصِيرَ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشْفُقُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْكَ يُسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكَرَ الْآخِرَ إِنَّ مِنْ بَخَافٍ وَعَبِيدٍ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِعَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَائِلَاتِ ذَرْوًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِعَاتِ ذَرْوًا ﴿٣﴾ فَالْمُفْسِدَاتِ أَمَرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تَوَدُّنَّ أَصَادِقَ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْبَيْنَ لَأُوعَدُ ﴿٦﴾

فالذي أوجدها - على كبرها وعظمتها - قادر على إعياء الموتى، من باب أولى وأحرى.

﴿فَأَنْصِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل وأدبار الصلوات، فإن ذكر الله تعالى مُسَلِّ للفس مؤنس لها مُهَوِّن للصبر.

(٤١-٤٥) ﴿وَاسْتَغِصَّ يَوْمَ تَذَاوَى النُّجُومِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُؤْتِيهِمُ الْإِنْسَانَ الْعَصِيرَ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشْفُقُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْكَ يُسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكَرَ الْآخِرَ إِنَّ مِنْ بَخَافٍ وَعَبِيدٍ ﴿٤٥﴾ أي: ﴿وَاسْتَغِصَّ﴾ بقلبك نداء المنادي وهو إسرائيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الخلق^(٣). ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ أي: كل الخلاق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء.

(١) كذا في ب، وفي أ: وارتفع. (٢) في ب: لم يصغ. (٣) في ب: من الأرض.

﴿ذَرُّوا﴾ بليتها ولطفها وقوتها وإزعاجها .

و ﴿الْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ : السحاب تحمل الماء الكثير الذي ينفع الله به البلاد والعباد .

و ﴿الْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ : النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة فتزين بها السماوات ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر وينتفع بالاعتبار بها .

و ﴿الْمُفْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ : الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما حُدَّ ورسم، ولا ينقص منه .

(٧-٩) ﴿وَاللَّهُ ذَاتُ الْكُرْسِيِّ﴾ : الْكُرْسِيُّ قَوْلُ غُثَيْنِي ﴿يُفَكُّ عَنْهُ مِنَ الْأَنْهَارِ﴾ أي : والسماء ذات الطرائق الحسنة التي تشبه حبك الرمال، ومياه الغدران، حين يحركها النسيم .

﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ ! ﴿لَنْ يَكُونَ غُثَيْنِي﴾ منكم من يقول : ساحر، ومنكم من يقول : كاهن، ومنكم من يقول : مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل .

﴿يُفَكُّ عَنْهُ مِنَ الْأَنْهَارِ﴾ أي : يصرف عنه من صرف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه، واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه، كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ متفق [يصدق بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

(١٠-١٤) ﴿قُلِ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ فِي الْبَيِّنَاتِ﴾ أي : قُلِ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ فِي الْبَيِّنَاتِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْكَرُونَ﴾ أي : قُلِ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ فِي الْبَيِّنَاتِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْكَرُونَ﴾ أي : قُلِ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ فِي الْبَيِّنَاتِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْكَرُونَ﴾ أي : قُلِ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ فِي الْبَيِّنَاتِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْكَرُونَ﴾ أي : قُلِ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ فِي الْبَيِّنَاتِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْكَرُونَ﴾ أي : قُلِ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ فِي الْبَيِّنَاتِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْكَرُونَ﴾ أي : قُلِ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ فِي الْبَيِّنَاتِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْكَرُونَ﴾ أي : قُلِ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ فِي الْبَيِّنَاتِ

﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ من القبور، الذي انفرده به القادر على كل شيء، ولهذا قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُفِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ يَوْمَ تَنْفَقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ أي : يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة .

﴿ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي : هين ^(٢) على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة .

﴿نَحْنُ أَكْبَرُ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ لك مما يحزنك من الأذى . وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمرورك، ونصرنا لك على أعدائك فليفرح قلبك ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف من نفسك . فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسي بأولي العزم من رسل الله .

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي : مسلط عليهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ وَلَنْ يَكُونَ قَوْلُ هَادٍ﴾ ولهذا قال : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والفطر من محبة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله .

وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول : ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ .

آخر تفسير سورة ق والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

تفسير سورة الذاريات

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿وَالَّذِينَ ذَرُّوا قُلُوبَهُمْ وَفَرُّوا قُلُوبَهُمْ يُسْرًا﴾ قُلُوبَهُمْ أَمْرًا ﴿إِنَّمَا نَعِدُكَ صَادِقٌ﴾ وَلَنْ يَكُونَ قَوْلُ هَادٍ ﴿هَذَا قَسَمٌ مِنْ اللَّهِ الصَّادِقِ فِي قَبْلِهِ بِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ مَا جَعَلَ عَلَى أَنْ وَعَدَهُ صَدَقَ، وَأَنْ الدِّينَ الَّذِي هُوَ يَوْمَ الْجَزَاءِ وَالْمَحَاسِبَةِ عَلَى الْأَعْمَالِ لَوَاقِعٌ لَا مُحَالَهَ، مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ .

فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون .

والمراد بالذاريات : هي الرياح التي تذرو في هبوبها

(١) في ب : عن الخلاق . (٢) في ب : سهل .

سورة الذاريات

٥٢١

سورة الذاريات

﴿هَذَا﴾ العذاب الذي وصلتكم إليه، [هو] ﴿الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال والسخط والوبال.

(١٥-١٩) ﴿إِنَّ السَّمْعِينَ فِي حُتَيٍّ وَيَعِينُونَ ۝ مَا بَيْنَهُنَّ مَا بَيْنَهُنَّ رُفُفٌ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُخْسِنِينَ ۝ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى آلِيلٍ مَا يَهْتَمُونَ ۝ وَإِلَّا تَحَارَرُوا ۝ فَتَمُوتُوا ۝ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ يقول تعالى - في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم التي أوصلتهم ^(١) إلى ذلك الجزاء - : ﴿إِنَّ السَّمْعِينَ﴾ أي: الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دنارهم.

﴿فِي حُتَيٍّ﴾ مشتملات على جميع [أصناف] الأشجار والفواكه التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على قلوب العباد ^(٢).

﴿وَيُؤَيَّرُ﴾ ساحة تشرب منها البساتين، ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجيحاً.

﴿مَا بَيْنَهُنَّ مَا بَيْنَهُنَّ رُفُفٌ﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع منافعهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا يبعون عنه حولاً، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد.

ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهي أي: قد تلقوها بالرحب وإنشراح الصدر، متقادين لما أمر الله به، بالامتثال على أكمل الوجوه.

ولما نهى عنه بالانزجار عنه الله، على أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا التي حققها أن تلقى بالشكر [لله] عليها والانتقاد.

والمعنى الأول الصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿مُخْسِنِينَ﴾.

وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله يبذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاء أو نصيحة أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان ^(٣) وطرق الخيرات.

حتى إنه يدخل في ذلك الإحسان بالقول، والكلام اللين والإحسان إلى المماليك، والبهائم المملوكة وغير

وَأَسَاءَ ذَاتِ الْحَبْلِ ۖ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفَيْكِ ﴿٩﴾ قِيلَ الْخَرُوصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَعْلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنَتُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّمْعِينَ فِي جَنَّتِ وَيَعِينُونَ ﴿١٥﴾ مَا بَيْنَهُنَّ مَا بَيْنَهُنَّ رُفُفٌ ۝ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُخْسِنِينَ ۝ وَإِلَّا تَحَارَرُوا ۝ فَتَمُوتُوا ۝ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٦﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي السَّمَاءِ رُفُوفٌ وَمَا تَوْعَدُونَ ﴿١٩﴾ قُرْبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٠﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ صَفِيفٌ إِنْهُمْ الْمُرْكَبَاتُ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٢٢﴾ فَرَأَى إِلَهُكَ إِذْ دَخَلَهُ فَرَجَعَهُ إِلَى رُفُوفِهِ إِنَّهُ لَبَصِيرٌ ﴿٢٣﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾

المملوكة ^(٤).

ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق صلاة الليل الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كَانُوا﴾ أي: المحسنون ﴿قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى آلِيلٍ مَا يَهْتَمُونَ﴾ أي: كان

هجوهم أي: نومهم بالليل قليلاً.

وأما أكثر الليل فإنهم قاتنون لربهم ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع.

﴿وَإِلَّا تَحَارَرُوا﴾ التي هي قبيل الفجر ﴿فَتَمُوتُوا﴾ الله تعالى. فعدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست بغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾

﴿بِالْأَسْحَارِ﴾ واجب ومستحب ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا

(١) في ب: وصلوا بها. (٢) في ب: قلب بشر. (٣) في ب: من وجوه البر. (٤) كذا في ب، وفي أ: التي تملك والتي لا تملك.

ففي موضع، ويقول لهم: «تفضلوا أو اتوا إليه» لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

فإنني للمقتدى به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: «ألا تأكلون» أو: «ألا تفضلون علينا وتشرفونا وتحسنون إلينا» ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان^(٨) لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما فاهم]: **لَا تَخَفْ** وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صك وجهها، وصُرَّتْها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.

(٣٨-٤٠) وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ فَتَوَلَّىٰ رُجُومًا وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ يَحْنُونُ ۚ فَلَمَّتْهُ وَسُجُودٌ فَرَعُونَ وَلَمَّهٖ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى^(٤١) بذلك السلطان المبين فتولى فرعون ﴿رُجُومًا﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقبح فيه أعظم القبح فقالوا: ﴿سِحْرٌ أَوْ يَحْنُونُ﴾ أي: إن موسى لا يخلو إما أن يكون ساحراً وما أتى به شعوذة^(٤٢)، ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يأخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هَذَا، وَدَعَا لَهُمْ، خُصُوصًا فِرْعَوْنَ، أَنْ مُوسَى صَادِقٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمُحَمَّدٌ رَجُلٌ وَلَقَدْ أَنشَأْنَا أَنفُسَهُمْ﴾ [طَلْحُوتٌ] .
وَقَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَأْيُ السَّامِرَةِ وَالْأَرْضِ﴾ [بَصِيرَةٍ] .
﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ بِرُؤُوسِهِمْ فِي آيَاتٍ وَمِنْ مَلَكٍ﴾ : أَيُّ مَذْهَبٍ طَاعَ،

(١) في ب: ليعتبروا بهم. (٢) في ب: أمر الله محمدًا وأمه. (٣) في ب: في ابتداء السلام. (٤) كذا في ب، وفي أ: الخاص. (٥) في ب: لديه. (٦) كذا في ب، وفي أ: أن يستلحقه. (٧) في ب: وسيد. (٨) في ب: من أحد. (٩) كذا في ب: مصححة في الهمش، وفي أ: فلما أتى فرعون. (١٠) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحرًا وشعوذة.

وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أُولَئِكَ سَاءُ مَا يَصْنَعُونَ ﴿١٠٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ﴿١٠٣﴾

فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة

من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار
والفجار، ليُعتبروا بحالهم^(١)، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل الذي أمر الله هذا النبي^(٢) وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلًا، ومكرمون أيضًا عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى
للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان،
وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام^(٣)، فرد عليهم
إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة
اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ولم يقل: «أنكرتكم»، [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله، [ولهذا يادر إبراهيم بإحضار قري أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة التي قد أعدت لغير الضيف الحاضر^(٤)، إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما منَّ الله به على خليفه إبراهيم من الكرم الكثير،
وكون ذلك حاضراً عنده^(٥)، وفي بيته معداً، لا يحتاج إلى أن
يأتى به^(٦) من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن وكبير^(٧) من ضيِّف الضيِّفان.

ومنها : أنه قَرَّبَهُ إليهم في المكان الذي هم فيه ، ولم يجعله

عَابَ عَلَى اللَّهِ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

(٤١، ٤٢) ﴿وَرَىٰ عَلَٰئِذٍ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۖ مَا تَدْرُ مِنْ مَّاءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَمَلَةٌ كَاسِيَةٌ ۚ أَي: ﴿وَرَىٰ عَلَٰئِذٍ الْقَبِيلَةَ المعروفة آية عظيمة﴾ (٤١) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۚ أَي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوذا عليه السلام.

﴿مَا تَدْرِي مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَلَامِي﴾ أي: كالرمم البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم ويطشهم، دليل على [كمال] قوته وإقداره الذي لا يعجزه شيء، المتقمم ممن عصاه.

(٤٣-٤٤) ﴿وَقِيْلَ لَمْ تَكُنْوا حَتّٰى يَمِيْنِ ۝ فَعَزَّزْنَا مِنْ بَيْنِ اَيْمَانِهِمْ اَلصِّبْحَةَ وَهُمْ يَقْبُرُوْنَ ۝ فَاَسْتَعْجِلُوا مِنْ قِبَالِكُمْ مَّا كَانُوا مُتَعَسِّرِيْنَ﴾ أي : ﴿وَقِيْلَ لَمْ تَكُنْوا﴾ [آية عظيمة]، حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزددهم ذلك إلا عتواً ونفورا.

فقيل : ﴿لَمْ تَكُنْوا حَتّٰى يَمِيْنِ ۝ فَعَزَّزْنَا مِنْ بَيْنِ اَيْمَانِهِمْ اَلصِّبْحَةَ﴾ فأعززناهم الصبيحة العظيمة المهلكة ﴿وَهُمْ يَقْبُرُونَ﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم .

﴿فَمَا اسْتَظَلُّوا مِنْ قِيَارٍ﴾ ينجون به من العذاب ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ لأنفسهم .

(٤٦) ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: ووكذلك ما فعل الله بقوم نوح حين كذبوا نوحاً عليه السلام، وفسقوا عن أمر الله.

فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر،
 وفأغرقهم الله تعالى [عن آخرهم]، ولم يبق من الكافرين دياراً،
 وهذه عادة الله وسنته فمن عصاه.

(٤٧-٥١) ﴿وَأَنشَأَ بَيْنَهُمَا بَابَيْنِ وَإِلَىٰ مُوسَىٰ ۖ وَالْأَرْضَ فَتَنَهَا ۖ فَجَعَلَ الْمَهْدُودَ ۖ وَمِن كُلِّ فِتْنَةٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۖ فَتَوَرَّأَ إِلَىٰ آلِهِ ۖ ثُمَّ لَأَوَّاهٌ مِّنْهُ بِذُرِّيَّتِهِ ۖ وَلَا يَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَأَكُونُ مِنْكُمْ لَبِئْرٌ مُّبِينٌ﴾ يقول تعالى مبيناً لقدرته العظيمة: ﴿وَأَنشَأَ بَيْنَهُمَا﴾ أي: خلقناها وأنشأها، وجعلناها سقفاً للارض وما عليها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوَّةَ وَفِدْرَةً عَظِيمَةً﴾ ﴿وَأِنَّا لَمُؤْمِنُونَ﴾ لِأَرْجَانِهَا وَأُنْحَائِهَا .

وإننا لموسعون [أيضاً] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله أدابة في مهامه القفار ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي

قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حُمَاحََةً مِّن طِينٍ ﴿٣٨﴾ مَسْمُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَتَرَكْنَاهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤٢﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ قَوْمِ وَهْلَانِ تَبٰىءُ عَلَيْهِمْ قَوْلٌ مَّكَرٌ مِّن قَوْمٍ لَّا يَخَافُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُوهَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُمْ يَلْمِيهِ ﴿٤٤﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٥﴾ مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ أَتَىٰ عَلَيْهِمْ لُحُوبُهُمْ فَبَدَّلَ اللَّهُ قَوْمَهُمْ فِي يَوْمٍ ذُو قُرْآنٍ مِّن نَّارٍ مِّن سَمُومٍ ﴿٤٧﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ تَبَذَّلَ لَهُمْ رَبُّهُمْ آيَاتِهِمْ فَنَسَوْاْهَا فَعَمَّوْاْ فَجَاءَهُم نَارُهَا بِزَعْمِهِمْ ﴿٤٨﴾ فَسَاءَ يَوْمَ إِذ وَقَعَتْ آيَاتُنَا لِقَوْمِ يُثْرِينَ ﴿٤٩﴾ وَفِي لُوطٍ إِذْ جَاءَهُ بِبَنَاتَيْهِ فَجَاءَهُمُ الْمَلَأُ مِنَ الْأَشْقَاتِ إِذْ هَبَّتْ زَوَاجِرُهُنَّ مَلَأًا مِّمَّنْ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لِيُتَلَاسَوْاْ فَجَاءَهُمْ نَارُهُمْ فَمَا يَصْرَعُونَ ﴿٥٠﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُبَدِّلْ كَلِمَتَكَ فِيمَا جَاءَكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُتَاسِرَ بَكَ وَأَتَىٰكَ الْمَلَأُ مَلَكُوتًا مِّن مَّا عَشَاكَ فَنَزَلَ الْمَلَأُ عَلَيْكَ بِأَصْفَادٍ مِّنْ نَّجَسٍ لَّا يَصْلَحُ لَكَ بِهِ شَيْءٌ وَلَا يَمْلِكُ لَكَ مِنَ الْهَوَىٰ مَكْرَهُنَّ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَبْتَغِ السَّعْيَ وَلَا تَتَرَفَّعْ فِي الْمَدِينَةِ وَلَا تَكُونَ مِنَ الْفَاعِلِينَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَجْعَلْ لِّدِينِكَ الْهَوَىٰ وَلَا تَجْعَلْ لِّلْهَوَىٰ الْاِخْرَاقَ لِكُلِّ مَن يَخْلُفُكَ فَيُتَاسِرَ بِكَ وَالْهَوَىٰ يَصْرِفُكَ فَمَا أَبَدَ ﴿٥٢﴾

وسعت رحمته جميع البريات.

﴿وَالْأَرْضُ رُشْدًا﴾ أي: جعلناها فرأشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما يتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم.

ولما كان الفرائض قد يكون صالحاً للانقطاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاده على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فَتَمَّ الْكَيْدُ﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكيمته و] رحمة وإحسانه.

﴿وَمِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِّنَ الْبَهِيمِ﴾ [أي: صنفين] ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات ﴿لَكُمْ فِيهَا حِكْمَةٌ﴾ [لأنهم الله التي أنعم بها عليكم^(١)] في تقدير ذلك، وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتمتعها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

(١) في ب: تقديم وتأخير في هذا الكلام. (٢) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم.

تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ يقول تعالى أمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿قَدْ كُنَّا عَنْهُمْ﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك.

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدبت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول^(١)، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكرهه الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع فإنه من التذكير، وتامم التذكير، أن يذكر ما في الأمور به من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو^(٢) معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، ويتبهاو ويعملوا بما تذكروهم من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتنع منهم الموعظة موقعها كما قال تعالى: ﴿قَدْ كُنَّا إِنْ قَعْنَا الذِّكْرَ﴾ ○ سَيَذَكِّرُ مَنْ نَحْنُ ○ وَنُجَنِّبُهَا ○ الْآثِقَ.

وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

(٥٦-٥٨) ﴿وَمَا عَلَّمْنَا الْقَيْنَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَمْنُوا مِنْ رَبِّهِمْ وَمَنْ يَتُوبْ إِلَى اللَّهِ وَرَبِّهِمْ ○ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَلِيمِ﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه.

وذلك يتضمن^(٣) معرفته تعالى، فإن تمام العباداة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم حاجة منه إليهم.

(١) في ب: غاية المراد. (٢) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله. (٣) كذا في ب، وفي أ: ما. (٤) في ب: وذلك متوقف.

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه، أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله.

فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله، وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية المراد^(١) والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن [والسورور] والسعادة والفوز.

فيفتر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فرت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه.

﴿إِنِّي لَكُرْهُنَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بين النذارة.

﴿وَلَا تَعْمَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مِثْلَهُ﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والانداد والقيور وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العباداة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة. (٥٢، ٥٣) ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَائِرٌ أَوْ جُنُودٌ ○ أَوَآخِصًا بِدِينِكُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ يقول الله - مسلماً لرسوله ﷺ - عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة، ما هو منزعه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسل، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصلوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟.

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ - تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟.

وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَكَاكَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ تَوَلَّوْا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَنْتَ أَتَيْنَنَا مَاءً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشْتَكِبْتُمْ قُلُوبَكُمْ﴾ وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

(٥٤، ٥٥) ﴿قَدْ كُنَّا عَنْهُمْ قَدْ أَتَى يَكْلُمُونَ ○ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله
الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما
جميع الخلق فقراء إليه في جميع حوائجهم ومطالبهم
الضرورية وغيرها، ولهذا قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أي: كثير الرزق الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن ونفذ مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم.

ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم البلى،
وعصفت بترابهم^(١) الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع،
وتفرقوا وتمزقوا في مهامه الففار، ولجج البحار، فلا يفوته
منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي
المعتن.

(٦٠، ٥٩) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَوُونَ ۚ قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا (٢) محمداً ﷺ من العذاب والنكال (ذُنُوبًا) أي: نصيباً وقسماً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فَلَا يَسْتَمِيلُونَ﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة. فكل مكذب يدمم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

تفسير سورة والطور

مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[illegible]

سَبْرًا ○ قَوْلَ يَوْمِهِ لِلْمُكَذِّبِينَ ○ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ○ يَوْمَ
يَأْتُرُونَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ○ هَذِهِ أَنَارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا لَكُمْ سَاءٌ
أَقْبَرُ ○ هَذَا مِمَّا أَتَتْهُ لَا تُبْصِرُونَ ○ أَسْلُوكَهَا قَائِمِينَ أَوْ لَا تَصِيرُوا سَاءَ
عَلَيْكُمْ ○ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ○ يقسم تعالى بهذه الأمور
العظيمة المشتملة على الحكم الجليلة على البعث والجزاء
للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور، الذي هو الجبل الذي
كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام،
وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام.

وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عَدٍّ ولا ثَمَنٍ.

﴿كَثِيرٌ مَّنْطَوْرٌ﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم الذي هو أفضل كتاب^(٣)، أنزله الله محتويًا على نبأ الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿فِي رَبِّي﴾ أي: ورق ﴿مَنْشُور﴾ أي: مكتوب

(١) في ب : عصفت بهم . (٢) في ب : بتكذيبهم . (٣) في ب : الكتب .

﴿قَوْلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾^(١) والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف.

ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للكذب بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى تَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ أي: يوم يدعون إليها دفعا، ويساقون إليها سوقا عنقا، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توييحا ولو ما:

﴿هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ فاليرم ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التفريع: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون» أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر لم تقم عليكم الحجة؟.

والجواب انتفاء الأمرين.

أما كونه سحرا، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف^(٢) للسحر من جميع الوجوه.

وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعوتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجلية.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله]: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحر أم عدم بصيرة بكم، حتى أشبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق، وأن حجة الله قامت عليهم^(٣). ﴿أَتَسْوَأُونَ﴾ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم^(٤)، وتطلع على أفئدتكم.

مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا أَلْوَاكِلَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك [يتعبدون فيه لربهم ثم] لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَا الْآيَاتِ﴾ وحقيق بيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنا، أن يقسم الله به، ويبين من عظمت ما هو اللائق به وبحرمته.

﴿وَالسَّيِّئَاتِ الْأَعْرَاجِ﴾ أي: السماء التي جعلها الله سقفا للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنازلها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض مع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض من أنواع الحيوان.

وقيل: إن المراد بالمسجور: الموقد الذي يوقد [نارا] يوم القيامة، فيصير نارا تلقى، ممتلئا - على عظمتها وسعته - من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿فَمَا تَكُم مِّن دَاعِيَةٍ﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب.

ثم ذكر وصف ذلك اليوم الذي يقع فيه^(١) العذاب، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُوتُ أُنثَىٰ تَمُوتُ﴾ أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون.

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وثبت بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفضاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف!؟

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به. (٢) في ب: المنافي. (٣) بعد قوله: والصراط المستقيم، جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نص ما في ب: (أي: أفبصرون له عقل أن يقول عنه: إنه سحر، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا). (٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات^(٢)، وندعوه في سائر الأوقات.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فمن برّه بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

(٢٩-٤٣) ﴿فَلْيَكْفُرْ فَمَا آتَتْ بِمَعْمَرٍ رَبِّكَ يَبْهَتُونَ وَلَا يَجِدُونَ
 ○ أَمْ يَقُولُونَ سَائِرُ كَلَامِهِمْ ○ رَبِّ السَّمَوَاتِ ○ قُلْ تَرَبُّصُوا إِنِّي مَعَكُمْ
 مِنَ الْمُنْظِرِينَ ○ أَمْ تَأْتِمُرُ بِأَعْيُنِكُمْ قِيلًا أَمْ لَهُمْ قُوَّةٌ مِثْلُ مَا
 يَقُولُونَ قَوْلُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ○ فَلْيَاوُوا بِحِبْلِهِمْ يَتْلُوهُ إِن كَانُوا
 صَادِقِينَ ○ أَمْ خَلْقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ○ أَمْ خَلَقُوا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ○ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ لَهُمْ
 الْكَاسِبُونَ ○ أَمْ لَهُمْ سَائِرُ سَيِّمَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْتَعْتَمُ بِشَاطِئِهَا شَيْئٍ ○
 أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ○ أَمْ تَتْلُوهُنَّ أَهْرَافَهُنَّ مِنْ مَقَرٍّ مَتَّقِلُونَ ○ أَمْ
 عِنْدَهُمُ الْقُبُورُ فَهُمْ يَكْفُرُونَ ○ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالْيَا لَيْنَ كَفَرُوا هُمُ
 الْمَكِيدُونَ ○ أَمْ لَهُ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يأمر تعالى
 رسوله ﷺ أن يذكر الناس، مسلمهم وكافرهم، لتقوم حجة الله
 على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وأنه لا ييالي بقول
 المشركين المكذبين، وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها
 الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى
 عنه كل نقص رموه به فقال: ﴿فَمَا آتَتْ بِمَعْمَرٍ رَبِّكَ﴾ أي: منه
 وولطفه ﴿يَبْهَتُونَ﴾ أي: له زُفْيٌ من الجن، يأتيه بأخبار بعض
 الغيوب التي يضمن إليها مائة كذبة.
 ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً،
 وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم
 وأكملهم.

وتارة ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الْفِطْرَ وَمَا يَكْنِي لَهُ السَّيْرُ﴾. ﴿يَكْنِي سِرَّهُ﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ ﴿الْعَلِيِّ﴾ أَي: ننظر به الموت^(٣)، فيسبطل أمره، [ونستريح منه].

﴿قُلْ﴾ لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تَرْصُقُوا﴾ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْصِقِينَ﴾ تَرْصُق بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا.

﴿أَمْ تَأْمُرُ أَعْدَاءَهُمْ بِبِذَانِهِمْ قَوْمٌ مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي: لهذا التكذيب لك، والأقوال التي قالوها؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبس العقول والأحلام التي أثرت ما أثرت،

(١) في ب: وقضاء أشغالهم. (٢) في ب: العبادات. (٣) كذا في ب، وفي أ: نترخص به الموت، ونستقره فيه.

[لهم] ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان، أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعًا لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاءً لأبائهم وزيادة في ثوابهم.

ومع ذلك لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً .
ولما كان ربما توهم متهوم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وفريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرتبه بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. لهذا اعترض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وَأَمَّا دَعْتُهُمْ﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع، ورزقنا العقيم ﴿يُنْكِهِمْ﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الرائدة على ما به يتقوتون. ﴿وَلَوْحٌ مِّمَّا يَتَذَوَّرُونَ﴾ من كل ما طلبوه واشتتهت أنفسهم، من لحم الطير وغيرها.

﴿يَسْأَلُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس.

﴿لَا تَقُوْا فِيْهَا وَاٰتِيْنَ﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأتيم وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب ظاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتبادمون أطيب المناذمة، ولا يسمعون من ربهم، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [ومحبته لهم].

﴿وَيَرْفُوفٌ عَلَيْهِمْ عِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: خدم شباب ﴿كَانَهُمْ لَوْزُقٌ مُّكَرَّنٌ﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة، وقضاء ما يحتاجون إليه^(١) وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿وَأَنْبَأْهُمْ عَنْ نَجِيِّ إِبْرَاهِيمَ الْكَافِرِ﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها.
﴿قَالُوا﴾ في [ذكر] بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من
الحيرة والسرور.

﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ﴾ أي: في دار الدنيا ﴿فِي آهْلِنَا مُتَّقِينَ﴾
أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب وأصلحنا لذلك
العيوب.

﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿وَوَقْنَا عَذَابَ السُّمُورِ﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزانة رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضرر، ولا موت ولا حياة ولا نشور.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ رَزَقَ رَبِّكَ عَنْ قَسَمٍ إِنَّمَا يُمْسِكُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ الصَّيِّفِينَ﴾ أي: المستسلطون على خلق الله وملكه بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ سُلَّامًا يَسْتَوِرُونَ فِيهِ﴾ أي: ألهم إطلاع على الغيب، واستماع له بين الملا الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟.

﴿فَتَأْتِيهِمْ سَمْعُ الْمَدْعَى لَدُنْكَ﴾ ﴿يَسْمَعُونَ نَجْوَاهُ﴾ وأنتي له ذلك؟.

والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه [أحداً] (٥) إلا ما ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبره من توحيد الله، ووعده ووعيد، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذوبون هم أهل الجهل والضلال والغبي والعناد، فأنتي المخبرين أحق بقبول خبره؟.

خصوصاً والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره (٦) عين اليقين، وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلاً عن إقامة حجة.

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ﴾ كما زعمتم ﴿وَلَكُمْ الْبُيُوتُ﴾ فجمعون بين المحذورين؟.

جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ تَتْلُوا﴾ يا أيها الرسول! ﴿أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة.

﴿فَهُمْ يَنْتَقِرُونَ بُيُوتَهُمْ﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص على تعليمهم، تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة على قبول رسالتك، والاستجابة [لأمر] و[إدعوتك]، وتعطي المؤلفات قلوبهم، [ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم].

(١) في ب: التي هذه نتائجها، وهذه ثمراتها. (٢) في ب: وجعلت أصدق الصدق. (٣) كذا في ب، وفي أ: لا حد له. (٤) في ب: أن يوجد أحد نفسه. (٥) زيادة من هامش ب. (٦) في ب: ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين.

وصدر منها ما صدر (١).

فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً مجنوناً، وأصدق الصدق (٢)، وأحق الحق، كذباً وباطلاً، لئبي العقول التي ينزه المجانين عنها.

أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد (٣) يقف عليه، فلا يستغرب من الطغايي المتجاوز الحد، كل قول وفعل صدر منه.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ قَوْلَهُ﴾ أي: تقول محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟.

﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا.

﴿فَتَأْتِيهِمْ بَحْثُ بَيِّنَاتٍ﴾ إن كانوا صدقيين؟ أنه تقوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثل، فتصدق معارضتكم أو تقرروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثل، فحينئذ أنتم بين أمرين.

إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون، لما علمتم من الباطل.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ بَيْنَ عَدُوٍّ إِتْمَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ ولهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكروا لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمور لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم (٤).

فإذا بطل [لهذان] الأمران، وبأن استحالةهما، تعين [القسم الثالث] أن الله الذي خلقهم.

وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جداً.

ولكن المكذبين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ خَزَائِنَ رَبِّكَ﴾ أم هم الصَّيِّفُونَ؟ أي: أعند هؤلاء المكذبين خزانة رحمة ربك، فيعطون من يشاءون، ويمنعون

﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون.

ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحدًا من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والثقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها، وأسلمها من الاعتراض.

وقوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ بقدهم فيك وفيما جنتهم به ﴿كَيْدًا﴾ يطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: كيدهم في نحورهم، ومضرتهم عائدة إليهم، وقد فعل الله ذلك - والله الحمد - فلم يبق الكفار من مقدورهم من المكر شيئًا، إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم^(١)، وخذلهم وانتصر منهم.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ؟﴾ أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره غير الله تعالى؟.

﴿سَتَجِدُنَا اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة.

وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة.

وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصلى له ويسجد، ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد الفرد الصمد الكبير الحميد المجيد.

(٤٤-٤٦) ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ۝ فَذَرْنَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول تعالى في [ذكر] بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق]، وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالقوه وعاندوه.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطع كبار من العذاب ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ أي: هذا سحب متراكم على العادة.

أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها. وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال:

﴿أَمْ يَرْجُونَ أَنْحِلَهُمْ بِحَبْلٍ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَفْوَلُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْنُوا بِحَدِيثِ ثَوْبِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۝ أَمْ خَلْقُوا مِنَ الْأَرْضِ عَرِيشًا ۝ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ سَمَّوَاتٌ لِلْآرَضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ ۝ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ ۝ أَمْ هُمْ سَاءُ سَمِيعُونَ فِيهِ قَلَائِبُ مُسْتَعْمِلِينَ بِسَاطِنِ شَيْئٍ ۝ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ۝ أَمْ قَسَمُهُمْ أَجْرَهُمْ بِنِيعَةٍ مَقْرَمَةٍ مُنْقَلُونَ ۝ أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ۝ فَذَرْنَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأَصْدَرْنَا لَكُمْ آيَاتِنَا وَسَخَّرْنَا لِحَدِيثِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَمِعْنَاهُ وَادْبَرَ الْجُورُ ۝

سُورَةُ الْخُشْعَةِ

﴿كَذَرْتَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيهم [فيه] من العذاب والنكال ما لا يقادر قدره ولا يوصف أمره.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمناً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

(٤٧-٤٩) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأَصْدَرْنَا لَكُمْ آيَاتِنَا وَسَخَّرْنَا لِحَدِيثِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَمِعْنَاهُ وَادْبَرَ الْجُورُ﴾ لما ذكر [الله] عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة^(٢)، وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبور.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب.

(١) في ب: فصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم. (٢) في ب: في الآخرة أخبر أن لهم عذاباً قبل عذاب.....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) وَمَا يَنطِقُ
عَنِ الْمَوْتَىٰ ۝ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ يُّوحَىٰ ۝ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ (٥)
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ (٨)
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ (١٠)
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ (١١) أَفَتَضَرَّبُهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ
نَزَلَ نُجْمًا ۝ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ (١٤) عِندَ هَاجَةِ الْأَوَىٰ ۝ (١٥)
إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝ (١٨) أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ ۝ (١٩) وَمَنْوَةَ
الْثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۝ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ (٢١) تَالِكِ إِذَا قُسِمَةُ
ضِيَرَىٰ ۝ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أُسْمٌ وَآبَاءُ وَكُرُمًا أَنْزَلَ
اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ لِّإِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۝ (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ (٢٤) فَلِلَّهِ
الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۝ (٢٥) وَكَرُمٌ مَّلَأَتْ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَعَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۝ (٢٦)

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ يُّوحَىٰ﴾ أي: لا ينبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره.

ولد هذا على أن السنة وحى من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحى يوحى.

ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو جبريل [عليه السلام] أفضل الملائكة [الكرام] وأقوامهم وأكملهم، فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة.

قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه.

(١) في ب: للخلق. (٢) في ب: وسوء.

ولما بين تعالى الحجاج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعبأ بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القادري والشرعي بلزومه، والاستقامة عليه، ووعد الله بالكفاية بقوله: ﴿إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: يمرأى منا وحفظ واعتناء بأمرك.

وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة فقال: ﴿وَسَجِّحْ بِحَبَدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

ثم تفسير سورة الطور - والحمد لله -.

تفسير سورة النجم

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٨) ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْمَوْتَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ يُّوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتَضَرَّبُهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزَلَ نُجْمًا ۝ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ عِندَ هَاجَةِ الْأَوَىٰ ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝ يَقْسَمُ عَلَىٰ النَّجْمِ عِنْدَ إِدْبَارِ اللَّيْلِ ۝ سَقُوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجبية، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلو لا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.

والمقسم عليه تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغف في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً حسن القصد، ناصحاً للامة^(١) بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد^(٢).

وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ لينبههم على ما يعرفونه منه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره.

فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

عند تلك الشجرة «جَنَّةُ الْأَنْزَارِ» أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه^(١) الأمانى، وترغب فيه الإيرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة.

«إِذْ يَخْتَلِفُ أَلْوَانُ السَّمَاءِ مَا يَخْتَلِفُ» أي: يغيثها من أمر الله شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.

«مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» أي: ما زاغ بصر ولا يسره عن مقصوده «وَمَا كُنَّ» أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه.

وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور:

إما أن لا يقوم العبد بما أمر به أو يقوم به على وجه التفریط أو على وجه الإفراط أو على وجه الحيدة يميناً وشمالاً، وهذه الأمور كلها منقبة عنه ﷺ.

«لَقَدْ رَأَى مِنْ بَابِ رَيْهِ الْكَوْكَبِ» من الجنة والنار وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

(١٩-٢٥) «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ» وَنَوَازِلَ الْأَنْجَارِ ○ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَنْجَارَ ○ يَكُنَّ لَهَا فَوْسَهٌ وَبُيُوتٌ ○ بَنَاءٌ ○ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ ○ سَمِيَتْهُنَّ أَثَرُ اللَّهِ ○ وَأَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلُطَانٍ ○ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الْقَدْرَ ○ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ○ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفَقْدُ ○ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَنَّى ○ اللَّهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ○ لما زكى تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وأبأؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال.

فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «إله» المستحق للعبادة و«العزى» من «العزير» و«مناة» من «المنان»

(١) كذا في ب، وفي: أ: الأعلى على. (٢) في ب: مباشرته. (٣) في ب: علم المخلوقات. (٤) كذا في ب، وفي أ: علوها. (٥) كذا في ب، وفي أ: إليها.

وهذا من حفظ الله لوحه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

«وَرُيِّنَ» أي: قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن. «فَأَنشَأَ» جبريل عليه السلام «وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى» أي: أفق السماء الذي هو أعلى من^(١) الأرض، فهو من الأرواح العلوية التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

«ثُمَّ دَنَا» جبريل من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه. «فَنَدَلَّ» عليه من الأفق الأعلى «فَكَانَ» في قربه منه «قَابَ قَوْسَيْنِ» أي: قدر قوسين، والقوس معروف «أَوْ أَدْنَى» أي: أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة^(٢) للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

«فَأَنزَلَ» الله بواسطة جبريل عليه السلام «إِنْ شَاءَ» محمد ﷺ «مَا أَوْحَى» أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبا المستقيم.

«مَا كَذَّبَ الْفَقَادُ مَا رَأَى» أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك بذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﷺ ليلة أسري به من آيات الله العظيمة، وأنه تيقنه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا [هو] الصحيح في تأويل الآية الكريمة.

وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء، وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا.

ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية [التي هو عليها] مرتين: مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ، ولهذا قال:

«وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه.

«عِنْدَ يَدَيْهِ الْأَشْجَارِ» وهي شجرة عظيمة جداً فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يرحل من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله من الوحي وغيره.

أو لانتهاه علم الخلق^(٣) إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض فهي المنتهى في علوها^(٤) أو لغير ذلك، والله أعلم.

﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُخَيَّرُ﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له.

ومن المعلوم المتقرر أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة.

فالمشركون إذاً لا نصب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

(٢٧-٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئَرُونَ لِلْمَلَائِكَةِ سَيِّئَةً أَلَيْسَ أَمْرًا هَؤُلَاءِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يُلَاحِظُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي عَنْهُ لَحَقٌ شَيْئًا ۖ فَاتَّخِذْ مِنْ نَعْمِ تَوَكُّلاً عَنْ ذِكْرِكَ وَفِرُّ مِنَ الْآلَةِ الْحَيَوَاتِ ۚ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ سَبْعُ مِائَةٍ مِنَ الْمَلَكِ إِنْ رَيْكَ هُوَ مُعَظِّمٌ بِمَنْ سَخَّرَ عَنْ سَيِّئِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ آمَنَ كَذَّبَ ۚ يَعْنِي أَنَّ الْمَشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْمَكْبُذِينَ لِرَسُولِهِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَبِسَببِ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِالْآخِرَةِ تَجَرَّأُوا عَلَى مَا تَجَرَّأُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْمُحَادَّةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: «الملائكة بنات الله»، فلم يتزهاو بهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة، ويجلوه عن تسميتهم بإيهاهم إنائاً.

والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على تقيض قولهم، وأن الله منزّه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفراً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون إلى الله، قائمون بخدمته: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ والمشركون^(١) إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو^(٢) الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم^(٣) لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم ما تهووا نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم والنبي الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته.

ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصلوها، وبأي طريق سنحت ابتدروها.

﴿ذَلِكَ سَبْعُ مِائَةٍ مِنَ الْمَلَكِ﴾ أي: هذا منتهى علمهم وغايته. وأما المؤمنون بالآخرة المصدقون بها، أولو الأبواب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة وعلومهم أفضل

إلحاداً في أسماء الله وتجربياً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني. فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿الَّذِينَ الذَّكَّرُوا وَلَهُ الْآخِرَةُ﴾ أي: أنجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

﴿يَكُفُّ إِذَا سَمِعَهُ صَوتَهُ﴾ أي: ظالمة جائرة، [وأي ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَإِنَّا وَكَّرُهَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بتبتمين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه.

وإنما دلهم على قولهم الظن الفاسد والجهل الكاسد وما تهووا أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ الذي يرشدهم في باب التوحيد والتبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد.

فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان.

وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب سرمدي، فالبقاء على هذه الحال من أسفه السفه وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأمانى ويمتدنون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى، وهو كاذب في ذلك فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ۖ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ۚ﴾ فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

(٢٦) ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُخَيَّرُ﴾ يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة المقربين وكرام الملائكة.

﴿لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها.

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: إلا. (٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم، وأوردوها شر الموارد.

وقد استدل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ من يرى أن القرب لا يفيد^(١) إهداؤها للأحياء ولا للاموات قالوا: لأن الله قال: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا يتسبغ بسعي غيره، إذا أهداه ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك أن لا يملك ما وجهه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم والرحمة وسائر الكمالات.

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور، والهم والحزن [وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك]. ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيديهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا. ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فسر الزوجين^(٢) بقوله: ﴿الذِّكْرُ وَالْأُنْثَى﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيما فهو المنفرد بخلقها.

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة^(٣) من ماء مهين، ثم نماها وكملها حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها، إما إلى أرفع المقامات في أعلى عِلِّيِّين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.

ولهذا استدل بالبداة على الإعادة فقال: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾

القلته، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين^(٤)، أرحم عباده من الوالدة بولدها.

فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً، وأن يكون الله له في جميع أحواله محبباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخبرون الناس بظهارتها على وجه التمدح^(٥). ﴿هُوَ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ تُقَالُوا﴾ فإن التقوى محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس فلا يغنون عنكم من الله شيئاً].

(٣٣-٦٢) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَدْعُو ۖ وَاعْتَلَىٰ فَيْلًا وَكَافًا ۖ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ۖ أَمْ لَمْ يَلِدْ يَمًا فِي سَحَابٍ مُمِئًا ۖ وَإِنَّمَا تَأْكُلُ الْحَبْلَ وَتَؤْتِي أُفْرَاقًا ۖ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۖ وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يُرَىٰ ۖ ثُمَّ يَكُونُ أَلْفًا ۖ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الشُّعْبَانِ ۖ وَأَنْ هُوَ أَصْحَبُكَ وَأَنْكِ ۖ وَأَنْ هُوَ أَمَّاكَ وَأَنْكِ ۖ وَأَنْتَ عَاقِلٌ الْوَجِينِ الذِّكْرُ وَالْأُنْثَىٰ ۖ مِنْ تَلْقَافٍ ۖ لَئِنْ شَاءَ الْآخِرِينَ ۖ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ، يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ قبح حالة من أمر عبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه٩.

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يسخل ويكدى ويمعن.

فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة^(٦)، بل طبعه التوَلَّى عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ الغيب ويخبر به، أم هو مقول على الله، متجرب على الجمع بين الإساءة والتزكية^(٧) كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك، فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿أَمْ لَمْ يَلِدْ يَمًا فِي سَحَابٍ مُمِئًا﴾ هذا المدعي ﴿يَمًا فِي سَحَابٍ مُمِئًا ۖ وَإِنَّمَا تَأْكُلُ الْحَبْلَ وَتَؤْتِي أُفْرَاقًا ۖ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه.

وفي تلك الصحف أحكام كثيرة، من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿أَلَا نُرَىٰ ذُرِّيَّتَهُ وَذُرِّيَّاتُهُ ۖ وَزَكَّيْنًا ۖ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً.

﴿وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ في الآخرة فيميز حسنه من سيئه. ﴿ثُمَّ يَكُونُ أَلْفًا ۖ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الشُّعْبَانِ﴾ أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالشر، والمشوب بحسبه جزاء تقرّ بعدله وإحسانه الخليفة كلها،

(١) في ب: وأجود الأجودين. (٢) كذا في ب، وفي أ: تطهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح. (٣) في ب: فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً. (٤) في ب: متجرب على جامع بين المحذرين للإساءة والتزكية. (٥) في ب: لا يجوز. (٦) في ب: فسرهما. (٧) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟

فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين؟

﴿إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ أَي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَافِيَةٌ﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿إِنِّي هَذَا الْكَافِرُ تَجِبُونَ؟﴾ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟

هَذَا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن^(١) العظيم الذي لو أنزل على جبل لرأيت خاشعاً منسجماً من خشية الله، الذي يزيد ذري الأحلام رأياً وعقلاً وتسليداً وثباتاً وإيماناً وقيماً، والذي^(٢) ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا وَلَا يَكُونُونَ﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة.

﴿وَأَنْتُمْ سِكِّينُونَ﴾ أي: غافلون عنه، لاهون عن تدبره، ولهذا من قلة عقولكم، وأديانكم.

فلو عبدتم الله وطلبتهم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَعَابِدُوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله^(٣)، وأنه سر العبادة ولبيها، فإن لبيها الخشوع^(٤) والخضوع له والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد^(٥)، فإنه يخضع قلبه ويذنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض التهيئة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه

الْأُخْرَى﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

﴿وَأَلَّهُمْ هُوَ أَفْقَى وَأَفْقَى﴾ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات، وأنواع المكاسب من الحرف وغيرها ﴿وَأَفْقَى﴾ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، ولهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى^(٦)، ولهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له.

﴿وَأَلَّهُمْ هُوَ رَبُّ الْغَيْبِ﴾ وهي النجم المعروف بالشعري العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون، مريب مذبذب مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله^(٧).

﴿وَأَلَّهُمْ أَعْلَمُ عَادَا الْأُولَى﴾ وهم قوم هود عليه السلام حين كذبوا هوداً فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

﴿وَنُوحٌ﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم^(٨) الناقة آية، ففعلوها وكذبوه فأهلكهم الله تعالى.

﴿فَمَا أَفْرَقْ﴾ منهم أحداً بل أهلكهم الله عن آخرهم^(٩). ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ بَيْنَ قَبْلٍ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَفْلَمَ وَأَفْلَمَ﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم.

﴿وَاللُّؤْلُؤِيَّةُ﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أَفْرَقَ﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ولهذا قال: ﴿فَنَشْنَسُ نَآءَشْنَ﴾ أي: غشيها من العذاب الاليم الخويم ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ تَسْتَمْتَقُونَ﴾ أي: فبأي نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنْ أَنْذَرِ الْأُولَى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلا شيء تنكر رسالته؟ وبأي حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلى] أخلاق الرسل الكرام؟

أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر^(١٠)؟

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟

(١) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه. (٢) في ب: فكيف تتخذ مع الله آية. (٣) في ب: لهم. (٤) في ب: بل بأقدامهم عن آخرهم. (٥) في ب: اليس يدعو إلى كل خير، وينهى عن كل شر. (٦) في ب: القرآن. (٧) في ب: بل الذي. (٨) في ب: يدل على فضله. (٩) في ب: فإن روحها الخشوع لله. (١٠) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها (العبد) المناسبة للكلمة للسياق لقوله فيما بعد: (قلبه ويذنه).

من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا نحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.

تفسير سورة اقتربت

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَقَ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَسِيرٌ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ آلَآئِهِ مَا فِيهِ مُّرْدَجَرٌ ۚ حَكَمَهُ بَلِغَةً فَمَا تَغْنِ الْتَذَرُّ ۚ﴾ يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، وحق وقت مجيئها، ومع ذلك فهو لاء المكذوبين لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لتزولها، ويريه الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر. فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ أنه لما طلب منه المكذوبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به] وأصدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى فانشق فلقين، فلقه على جبل أبي قبيس وفلقه على جبل قيعقان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى^(١) الكائنة في العالم العلوي التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخيل.

فشاهدوا أمرًا ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيرًا، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم وقالوا: سحرنا محمد.

ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم^(٢) إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم لا^(٣) يقدر أن يسحر من ليس مشاهدًا مثلكم، فسالوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَسِيرٌ﴾ سحرنا محمد، وسحر غيرنا.

وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكارًا منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل^(٤) والرد لها، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرَضُوا﴾ ولم يعد الضمير على انتشاق القمر فلم يقل: وإن يروها بل قال: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرَضُوا﴾ وليس قصدهم اتباع الحق والهدى،

سُورَةُ الْقَمَرِ

٥٢٨

سُورَةُ الْقَمَرِ

وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۚ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تَأَنَّى ۚ وَأَنَّهُ عَلَيَّه النِّسَاءُ الْأُخْرَى ۚ وَأَنَّهُ هُوَ أَفْقَى ۚ وَأَنَّهُ هُوَ رُبُّ الشَّيْعَرَى ۚ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ۚ وَنُوحًا طَمَأً ۚ وَقَوْمَ نُوحٍ ۚ مِن قَبْلُ إِنَّمَا كَانُوا أَهْمَ ظُلُمٍ وَأَطْفَى ۚ وَالْمُؤَلَّفَكَ أَهْوَى ۚ فَفَعَلْنَاهَا مَا غَشَى ۚ فَأَيَّ ءَالَةٍ رَّبِّكَ تَسْمَأَى ۚ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذَرِ الْأُولَى ۚ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۚ لَنَلْسَنَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةً ۚ أَفَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۚ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۚ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ۚ فَاصْبِرُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا ۚ

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَقَ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَسِيرٌ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ آلَآئِهِ مَا فِيهِ مُّرْدَجَرٌ ۚ حَكَمَهُ بَلِغَةً فَمَا تَغْنِ الْتَذَرُّ ۚ قَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ وَتُكْرَرُ ۚ

وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَصْعَدُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا قطعًا واتبعوا محمدًا ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه^(٥) من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غاية ومتناه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى - مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى -: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ آلَآئِهِ﴾ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ مُّرْدَجَرٌ﴾ أي: زاجر

(١) في ب: العظيمة. (٢) في ب: من ورد. (٣) في ب: لم. (٤) في ب: بالكسب. (٥) كذا في النسخين، والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.

يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿جَعَلَهُ﴾ منه تعالى ﴿بَلَاغَةً﴾ أي: لتقوم حجته على المخالفين^(١)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل.

﴿فَمَا تَعْنِي أَلْتَدْعُ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿وَكُلَّ جَاءَتِهِمْ كُلَّ مِائَةٍ حَتَّى يَوْرَا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

(٦-٨) ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ مَعْنَىٰ تُكْذِرُ﴾ حُشَمًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْ جَرَادٌ مُنْتَشِرَةٌ ﴿مُتَهَيِّئِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ۖ قَدْ بَانَ أَن الْمَكْذِبِينَ لَا حِيلَةَ فِي هَدَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ وَالتَّوَلَّى عَنْهُمْ، [فَقَالَ:] ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ﴾، وانتظر بهم يوماً عظيماً وَهَؤُلَاءِ جِئْنَا.

وذلك حين ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ إسرائيل عليه السلام ﴿إِلَىٰ مَعْنَىٰ تُكْذِرُ﴾ أي: إلى أمر فطيع تنكره الخليفة، فلم تر منظراً أقطع ولا أوجع منه، فينبغ إسرائيل نفخة، يخرج بها الاموات من قبرهم لموقف القيامة.

﴿حُشَمًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخفضت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَانَتْ جَرَادٌ مُنْتَشِرَةٌ﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي: مبثوث في الأرض متكاثر جداً.

﴿مُتَهَيِّئِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي^(٢)، ولهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿عَلَّ الْكَافِرِينَ عَرِيرٌ يَبِيرُ﴾ [مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين^(٣)].

(٩-١٧) ﴿كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ مَّجْرُومٌ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْجُونٌ وَازْدَجَرُوا ۖ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّىٰ مَعْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۖ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا مُمْسِكِهِ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عِوَجًا فَآلَفَ الْمَاءَ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ۖ وَجَلَلْنَا عَلَىٰ ذَاتِ الْأَرْجِ وَدُسِّرَ ۖ تَجَرَّىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءٌ لِّمَن كَانَ كَفَرٌ ۖ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ آيَةً فَهَلْ مِن مُّدْرِكٍ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۖ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقَوْمَانَ لِلَّذِي كَفَرُوا مِن مُّدْرِكٍ ۖ لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَالِ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ، وَأَنَّ الْآيَاتِ لَا تَنْفَعُ فِيهِمْ، وَلَا تَجِدِي عَلَيْهِمْ شَيْئاً، أَنْزَلْنَاهُمْ وَخَوَّفْنَاهُمْ بِعَقُوبَاتِ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْذِبَةِ لِلرَّسْلِ، وَكَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ اللَّهُ وَأَحْلَىٰ بِهِمْ عِقَابَهُ.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لَا تَذَرْنَا الْإِلَهَ وَلَا نَذَرْنَا وَدًّا وَلَا

حُشَمًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْ جَرَادٌ مُنْتَشِرَةٌ ﴿مُتَهَيِّئِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴿كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ مَّجْرُومٌ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْجُونٌ وَازْدَجَرُوا ۖ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّىٰ مَعْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۖ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا مُمْسِكِهِ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عِوَجًا فَآلَفَ الْمَاءَ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ۖ وَجَلَلْنَا عَلَىٰ ذَاتِ الْأَرْجِ وَدُسِّرَ ۖ تَجَرَّىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءٌ لِّمَن كَانَ كَفَرٌ ۖ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ آيَةً فَهَلْ مِن مُّدْرِكٍ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۖ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقَوْمَانَ لِلَّذِي كَفَرُوا مِن مُّدْرِكٍ ۖ لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَالِ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ، وَأَنَّ الْآيَاتِ لَا تَنْفَعُ فِيهِمْ، وَلَا تَجِدِي عَلَيْهِمْ شَيْئاً، أَنْزَلْنَاهُمْ وَخَوَّفْنَاهُمْ بِعَقُوبَاتِ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْذِبَةِ لِلرَّسْلِ، وَكَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ اللَّهُ وَأَحْلَىٰ بِهِمْ عِقَابَهُ.

سُوءًا وَلَا يَنْقُوتُ وَيُؤْتَىٰ وَنُذْرِي ۖ

ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وطغياناً وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْجُونٌ﴾ لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين.

وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرشد وما هم عليه جهل وضلال مبين.

[وقوله]: ﴿وَازْدَجَرُوا﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى.

فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم.

(١) في ب: بالعين. (٢) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي. (٣) زيادة من هامش ب.

﴿ذَكَفَ كَانَ عَلَّايَ وَنَذَرُ﴾ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يَبْقَى لأحد عليه حجة.

﴿وَلَقَدْ بَشَّرَ الْقَوْمَانَ لِلَّذِي هُمْ مِنْ مُذَكِّرٍ﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا لهذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً وأصدق معنى وأبينه تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواظع والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة.

ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم يُعَانِ [عليه]؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

(١٨-٢٢) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَلَّايَ وَنَذَرُ﴾ ○ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ○ يَنْفِخُ النَّاسُ ظُهُومَهُمْ فَجَاءَهُمْ شَيْعَرٌ ○ فَكَيْفَ كَانَ عَلَّايَ وَنَذَرُ ○ وَلَقَدْ بَشَّرَ الْقَوْمَانَ لِلَّذِي هُمْ مِنْ مُذَكِّرٍ ○ «وعادة» هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة جداً.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿شَيْعَرٌ﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً.

﴿يَنْفِخُ النَّاسُ﴾ من شدتها فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿كأنهم أعبادٌ لغير شَيْعَرٍ﴾ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته (٥) الريح فسقط على الأرض، فما أمون الخلق على الله إذا عصوا أمره.

﴿ذَكَفَ كَانَ عَلَّايَ وَنَذَرُ﴾ كان [والله] العذاب الأليم، والندارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة.

﴿وَلَقَدْ بَشَّرَ الْقَوْمَانَ لِلَّذِي هُمْ مِنْ مُذَكِّرٍ﴾ كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

(٢٣-٣٢) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ○ فَقَالُوا إِنَّمَا بَشَرْنَا نِسَاءَ كُنَّا لَكُمْ دِينًا ○ إِذَا لَبِئْسَ صُلْبٌ ○ وَنُفِرَ ○ أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ عَلَى نِشْنَةٍ لَوْ هُوَ كَذَّابٌ أَفْتَرُ ○ سَيَعْلَمُونَ ○ إِنَّا كَذَّبْنَا الْكُذَّابَ الْأَثَرُ ○ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فَهَمْ قَاتِلِيهِمْ

(١) كذا في ب، وفي أ: شدت أسرها. (٢) في ب: ولا صده عن ذلك صاد. (٣) في ب: برَسُولِهِ. (٤) في ب: فهل من مُذَكِّرٍ. (٥) في ب: اقلته.

فبعد ذلك دعا نوح ربه [فقال]: ﴿أَيُّ مَثَلٍ﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم.

﴿فَأَنْصِرْ﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيات.

فأجاب الله سؤاله وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي: كثير جداً متتابع.

﴿وَوَحَّيْنَا إِلَى الْأَرْضِ مِائِدًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها حتى التور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء لأنه موضع النار.

﴿فَأَلْقَى الْمَاءَ﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿عَلَّيَّ﴾ من الله له بذلك، ﴿قَدْ بَشَّرَ﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين.

﴿وَوَحَّيْنَا إِلَى دَانِ الْوَجْهِ وَمُزْمِرٍ﴾ أي: ونجينا عبداً نوحاً على السفينة ذات الألواح والدرس أي: المسامير [التي] قد سمعت [بها] ألواحها وشد بها أسرها^(١).

﴿فَجَرَى بِأَيْمِينِنَا﴾ أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حملة من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ [منه] لها عن الغرق، [ونظر] وكلائه منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل.

﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرد عنه راد، ولا صدّه عنه^(٢) صاد، كما قال [تعالى] عنه في الآية الأخرى: ﴿يَذَرُ يُنْجِي أَوْيَاطَ يُسَلِّمُونَ إِنَّمَا وَرَكَّتْ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِمْ مَمْلَكَةٌ﴾ الآية.

ويحتمل أن المراد: إنا أهلكنا قوم نوح وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف.

﴿وَلَقَدْ رَكَنَهَا يَأْمُرُ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندكم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده^(٣) نوح عليه السلام، ثم أبقي الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته وبديع صنعته.

﴿فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ﴾ ؟ أي: فهل متذكر^(٤) للآيات، مُلِّئَ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان والبسر؟

سورة القدر

٥٣٠

سورة القدر

وَنِيْتَهُمْ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةً بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرْبٌ خَصْرٌ ﴿٣٨﴾ نَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٣٩﴾ كَذَبْتَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحَظِيرِ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٢﴾ كَذَبْتَ قَوْمٌ لَوْطٌ يَنْذِرُ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٤٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ رَوْدُوهُ عَنْ ضَيْغِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٤٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٥١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَاعْتَزْلُنَا مِنْ أَنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِقْدِيرٌ ﴿٥٢﴾ أَكْثَرَ كُفْرًا مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ آلَةٌ ﴿٥٣﴾ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٥٥﴾ سِيرَهُمُ الْجَمْعُ وَهُمْ لَوْلُونَ الدُّبُرِ ﴿٥٦﴾ يَا سَاعَةَ مَوْعِدِهِمْ وَالسَّاعَةَ أَهْدَى وَأَمْرٌ ﴿٥٧﴾ إِنَّ الْمُسْجَرِّمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٥٨﴾ يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٥٩﴾ إِنَّا كُنَّا فِيهِ خَلْقَةً وَبَقِيرٌ ﴿٦٠﴾

يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم.

﴿كُلٌّ شَرْبٌ خَصْرٌ﴾ أي: يحضره من كان قسمته، ويحظر على من ليس بقسمه له.

﴿نَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ الذي باشر عقربا الذي هو أشقى القبيلة ﴿فَتَعَاطَى﴾ أي: اتقاد لما أمره به من عقربا ﴿فَعَقَرَ﴾.

﴿كَذَبْتَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرٌ﴾ كان أشد عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحا ومن آمن معه، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

(٤٠-٣٣) ﴿كَذَبْتَ قَوْمٌ لَوْطٌ يَنْذِرُ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَوْدُوهُ عَنْ ضَيْغِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ﴾ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: ﴿كَذَبْتَ قَوْمٌ لَوْطٌ﴾ لوطا عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك والفاشحة التي ما

وَأَسْطَرَّ ﴿٦١﴾ وَنِيْتَهُمْ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةً بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرْبٌ خَصْرٌ ﴿٦٢﴾ نَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٦٣﴾ كَذَبْتَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرٌ ﴿٦٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحَظِيرِ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٦٦﴾ أَي: ﴿كَذَبْتَ قَوْمٌ﴾ وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر، نبههم صالحا عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه.

فكذبوه واستكبروا عليه وقالوا - كثيرا ونيتها -: ﴿أَشْكُرُ بَنَاتِي وَجِدًا يُنْفَعُ﴾ أي: كيف تنفع بشرا لا ملكا، منا لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منا.

ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي: إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لَنُيْ سَلَكِي وَسُخْرٍ﴾ أي: إننا لصالون أشقياء.

ولهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم، فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر، ولم يأفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور.

﴿إِنَّا لِلذِّكْرِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأي مزية خصه من بيننا؟

ولهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به. ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأمهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ نَبَلِّغُكُمْ وَأَكْبَرُ اللَّهُ إِنَّمَنْ عَلَىٰ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

فالرسل مرَّ الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحية.

ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لغاَجَل الله المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

والمقصود بهذا الكلام الصادر من ثمود لنبههم صالح، تذكيرهم، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَوِيٌّ﴾ أي: كثير الكذب والشر.

فقبههم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع، لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم.

فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم آية من آيات الله، ونعمة يحتلبون من ضرعها^(١) ما يكفيهم أجمعين.

﴿فَبَقِيَ لَهُمْ﴾ أي: اختيارا منه لهم وامتحانا.

﴿فَأَرْسَلْنَاهُمْ وَأَسْطَرَّ﴾ أي: اصبر على دعوتك إياهم وارقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟

﴿وَنِيْتَهُمْ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةً بَيْنَهُمْ﴾ أي: أخيرهم أن الماء أي: موردهم الذي يستعذبونه قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب

سبقهم بها أحد من العالمين.

فكذبوه واستمروا على شركهم وقيانتهم، حتى إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاءوهم^(١) مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقيحهم، ورادوه عنهم.

فأمر الله جبريل عليه السلام فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته ﴿فَكَارَرُوا بِالنِّذَرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَحَّبَهُمْ بِكَرَّةٍ عَذَابٌ مُّسْتَوٍ﴾ قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتبيعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين.

ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

(٤١-٥٥) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذَرُ ۖ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذِبًا ۖ فَفَتَنَاهُمْ أَتَدْعُونَا رَبَّهُمْ مُّقْتَدِرِينَ ۖ أَكُفِّرُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَمْ أَوْلِيكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَمْ لَكَ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَهُؤُلَافٌ مِّمَّنْ يُشْرِكُونَ ۚ نَحْنُ نَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ أَلَمْ نَكْنِشْ أَلْسِنَتَهُم مَّوْعِدُهُمْ ۚ وَأَلَسْنَا لَهُمُ الْكُتُبَ ۚ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي سَكْنٍ وَسُعُرٍ ۚ يَوْمَ يُسْعَوْنَ فِي الْآثَارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُرُوفًا مَّسَّ سَعَرٌ ۚ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ عَلَّقَتْهُ يَفْقَهُ ۚ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۚ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكُرٍ ۚ وَكُلَّ نَفْسٍ فَهَلُوهُ فِي الْزُبُرِ ۚ وَكُلَّ صَغِيرٍ كَبِيرٍ مُّشْتَبِرٌ ۚ إِنَّ لِلنَّارِ فِي جَنَّتٍ وَنَهَرٍ ۚ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكِي مُّقْتَدِرٍ ۚ أَي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أَي: فرعون وقومه ﴿النِّذَرُ﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات البهارات، والمعجزات القاهرة^(٢)، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد عليه أحدًا غيرهم^(٣)، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده^(٤).

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس] والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكُفِّرُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَمْ أَوْلِيكَ﴾ أَي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل خير من أولئك المكذبين الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيرًا منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شرًا منهم، فليسوا بخير منهم.

﴿أَمْ لَكَ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَي: أم أعطاكم الله عهدًا وميثاقًا في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟

وهذا غير واقع بل غير ممكن عقلاً وشرعاً، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس

من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ حَبِيبٌ مُّثَنَّبِرٌ﴾. قال تعالى مبيناً لضعفهم وأنهم مهزومون: ﴿سَيَبْرَزُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذِّكْرُ﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من^(٥) صناديدهم وكبرائهم، ما ذلوا به^(٦)، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

ومع ذلك فلمهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ الْآثَانَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط. ﴿وَالْآثَانَةُ أَثْنٌ وَأَثَرٌ﴾ أَي: أعظم وأشق وأكبر من كل ما يتوهم أو يدور بالبال^(٧).

﴿إِنَّ النَّجْرِينَ﴾ أَي: الذين أكثروا من فعل الجرائم وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره من المعاصي ﴿فِي سَكْنٍ وَسُعُرٍ﴾ أَي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم.

﴿يَوْمَ يُسْعَوْنَ فِي الْآثَارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهاون بذلك ويخزون، ويقال لهم: ﴿ذُرُوفًا مَّسَّ سَعَرٌ﴾ أَي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ عَلَّقَتْهُ يَفْقَهُ﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها^(٨).

وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهاذا قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ فإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتُمْ ﴿فَهَلْ مِنْ مَّذْكُرٍ﴾ أَي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم ولا فرق

(١) في ب: جامو. (٢) في ب: بالآيات البيئات، والمعجزات البهارات. (٣) في ب: مالم يشهد غيرهم. (٤) فأغرقه وجنوده في اليم. (٥) في ب: وقتل. (٦) في ب: فأذلوا. (٧) في ب: في الخيال. (٨) في ب: خلقه.

بين الفريقين .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الْزُبُرِ﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ أي: مسطر مكتوب .

ولهذا حقيقة القضاء والقدر أن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

﴿إِنَّ الشَّافِعِينَ﴾ الله بفعل أوامره وترك نواهيه الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر، ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي: في جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اللينة والأنهار الجارية والقصور الرفيعة والمنازل الأنيفة، والمأكول والمشرب واللذينة، والحدود الحسان والروضات البهية في الجنان، وروضان الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْنَدٍ﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومته، جعلنا الله منهم، ولا حرمانا خير ما عنده بشرًا ما عندنا .

تم تفسير سورة اقترت، والله الحمد والشكر .

تفسير سورة الرحمن

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٣) ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَحْسَبَانِ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَكْهٌ وَالشَّجَلُ ذَاتَ الْاُكْخَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ۝ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحها باسمه «الرحمن» الدال على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل بره وواسع فضله .

ثم ذكر ما يدل على رحمته وأنرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية [والآخوية وبعد كل جنس ونوع من نعمه، بنه التلقين لشكره ويقول: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٥٣١
وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
أَشْيَاءَكُمْ قَهْلًا مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي الْزُبُرِ ﴿٥٣﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٤﴾ إِنَّ الشَّافِعِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٥﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَحْسَبَانِ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَكْهٌ وَالشَّجَلُ ذَاتَ الْاُكْخَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾
الْإِنْسَانُ مِنْ صَلَاسِلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ
مِنْ مَارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

فذكر أنه «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه وسرّها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآنًا عربيًا بأحسن الفاظ، وأحسن تفسير مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر .

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ في أحسن تقويم كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أنفذ البديع تعالى ^(١) خلقه أي إتيان، وميزه على سائر الحيوانات بأن «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» أي: التبیین عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فاليان الذي ميز الله به آدمي على غيره من أجل نعمه وأكرها عليه .

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَحْسَبَانِ﴾ أي: خلق الله الشمس والقمر وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر رحمة بالعباد وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب .

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي: نجوم السماء وأشجار

(١) في ب: قد أنفذ الباري تعالى البديع خلقه .

والمشام الفاخرة التي تسر الأرواح وتشرح لها النفوس.
ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالابصار
والبصائر، وكان الخطاب للثقلين الإنس والجن، قرهم
تعالى بنعمه قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ أي: فبأي نعم
الله الدينية والدنيوية تكذبان؟.

وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه
السورة، فما مر بقوله: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ إلا
قالوا: ^(١) ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا
الذي ينبغي ^(٢) للعبد إذا تليت عليه نعم الله والآؤه أن يقر بها
ويشكر ويحمد الله عليها.

(١٤-١٦) ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ
كَالْفَخَّارِ ۖ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ۖ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا
تَكْذِبَانِ﴾.

وهذا من نعمه تعالى على عباده حيث أراهم [من] آثار
قدرته وبديع صنعته، أن ﴿خَلَقَ﴾ أبا الإنس وهو آدم عليه
السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ أي: من طين مبلول، قد
أحكم بله وأتقن حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه
صوت الفخار الذي طبخ على النار ^(٣).

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين ^(٤)
﴿مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد
خالطه الدخان.

وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين
والتراب، الذي هو محل الرزاة والثقل والمنافع بخلاف
عنصر الجان وهو النار التي هي محل الخفة والطيش والشر
والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك ^(٥)، وكان ذلك منه
[تعالى] على عباده ^(٦) قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾.

(١٧، ١٨) ﴿رَبِّ الْفَرِّقَيْنِ وَبَيْنَ الْفَرِّقَيْنِ ۖ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾
أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر
والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، [وكل ما كانا فيه] فهي
تحت ^(٨) تدبيره وربوبيته، وثأهما هنا لإرادة العموم مشرق
الشمس شتاءً وصيفاً ومغربها كذلك ^(٩).

(١٩-٢١) ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۖ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۖ فَيَأْتِي

الأرض، تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخضع ^(١٠) وتقاد لما
سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ سقفا للمخلوقات الأرضية.
ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد في الأقوال
والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو
كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي
نكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها
المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات،
ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَنْفَعُوا فِي الْمِيزَانِ﴾
أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن
الامر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم لحصل من الخلل ما
الله به عليهم، ولفسدت السماوات والأرض.

﴿وَأَقِيمُوا الزُّكْنَ بِالْوَيْسِطِ﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل الذي
تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم.

﴿وَلَا تُخْرِثُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو
الجور والظلم والظغيان.

﴿وَالْأَرْضَ وَصَّعَهَا﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة
والاستقرار واختلاف [أوصافها و] أحوالها ﴿لِلْأَنْسَاءِ﴾ أي:
للخلق لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفرشاً يبنون
بها، ويحراثون ويغرسون ويحفرون ويسلكون سبلها فجاءاً
ويتشعرون بمعادنها، وجميع ما فيها مما تدعو إليه حاجتهم بل
ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية فقال: ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ﴾
وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد
من العنب والتين والرمان والتفاح وغير ذلك.

﴿وَالنَّخْلُ دَاثٌ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الوعاء الذي ينفلق عن
القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتاً يؤكل
ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذينة من أحسن
الفواكه.

﴿وَالْمُتَّوِّدُ أَصْفَى﴾ أي: ذو الساق الذي يداس فينتفع بتيته
للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة
والأرز والدخن وغير ذلك.

﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي
يأكلها الآدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على
الخاص، ويكون الله قد امتنَّ على عباده بالقوت والرزق
عموماً وخصوصاً.

ويحتمل أن المراد بالريحان الريحان المعروف، وأن الله
امتنَّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة،

(١) في ب: وتنضع. (٢) في ب: فكلمنا مر بقوله: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ قالوا: فهكنا ينبغي. (٣) في ب: فهكنا ينبغي. (٤) في ب: وهو الطين المشوي. (٥) في ب: لعنه الله. (٦) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين. (٧) في ب: عليهم. (٨) في ب: فالجميع تحت. (٩) في ب: وثأهما هنا باعتبار مشارقتها شتاءً وصيفاً، والله أعلم.

رَبُّ الْمَرْفِقِينَ وَرَبُّ الْغَرِيبِينَ ﴿٧٧﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْقَاؤَانِ ﴿٧٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْخٌ لَّا يَبْعَثَانِ ﴿٨٠﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا النَّوْلُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٨٢﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَشْجَمِ ﴿٨٤﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٨٦﴾ وَسَبَقَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٨٧﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٨﴾ يَسْتَلْزِمُنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٨٩﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٠﴾ سَفَرُكُمْ لَكُمْ أَيْهَةُ الثَّقَلَانِ ﴿٩١﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٢﴾ يَتَمَعَّرُ لَيْنٌ وَالْإِنْسَانُ أَسْتَطْعَمُ أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَّا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِأَسْطِنِ ﴿٩٣﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَفُحَّاسٌ فَلَا تَنْصَرُونَ ﴿٩٥﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٦﴾ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٩٧﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٨﴾ فَيَوْمَ ذَٰلِكَ لَا يَسْعَى عَنْ ذُلِّهِمْ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٩٩﴾ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٠٠﴾

وهذه الشئون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمشيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليفة وأفانهم الله تعالى^(١)، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويربهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحده، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرغ حيثذا تنفيذ هذه الأحكام التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

(٣٢، ٣١) ﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ أَيْهَةُ الثَّقَلَانِ﴾ ○ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾
أي: سفركم لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

(٣٣) ﴿يَتَمَعَّرُ لَيْنٌ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَقْطَارِ

(١) كذا في ب، وفي أ: وأنى الله الخلق.

ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل الفزع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسماك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب، ولهذا قال:

(٢٥، ٢٤) ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَشْجَمِ ○ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجوارية التي تمخر البحر وتنشق بإذن الله التي ينشأها آدميون، فنكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة فلذلك قال: ﴿فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٨-٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ○ وَسَبَقَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ○ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبعد ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود والداعي لأن يكرم أوليائه، وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليائه ويجلونه، ويعظمونه، ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه ﴿فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٣٠، ٢٩) ﴿يَسْتَلْزِمُنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ○ فَإِنِّي ءَاِلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وهو تعالى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يغني فقيراً ويجبر كسيراً ويعطي قوماً ويسمع آخرين ويميت ويحيي ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا ييرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين.

فسبحان الكريم الروهاب الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعمّ لطفه جميع الخلق في كل الآتات واللاحظات، وتعالى الذي لا يمنع من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به ويكرمه.

سورة الرحمن

٥٣٣

سورة الرحمن

يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمْعِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَصَى وَالْأَقْلَامِ ﴿١١﴾ فَيَأْتِي
 ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾
 يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿١٣﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ
 وَلَمْ يَنْفَعْ مَقَامُ رَبِّهِ جَنَانًا ﴿١٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ
 ذَوَاتًا أَفْنَانًا ﴿١٥﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ فَيَسْمَعُ عَيْنَايَا
 تَجْرِيَانِ ﴿١٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ فَيَسْمَعُ مِنْ كُلِّ فَرْشٍ
 زَوَاجَانِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فَرْشٍ
 بَطْلَانًا مِنْ إِسْتَرْبَىٰ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿١٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ
 كَذِبًا ۖ فَيَنْفَعُ الْقَصِيرَ أَطْرَفٌ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ
 وَلَا جَانِ ﴿١٩﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ كَاثِنًا الْيَاقُوتُ
 وَالرَّحْمَانُ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ هَلْ جَزَاءُ
 الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٢١﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ
 وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ
 مَدَاهَتَانِ ﴿٢٣﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ فَيَسْمَعُ
 عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ

ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاجة .

وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتًا أَفْنَانًا﴾ ولم يقل ذلك في الآخرين.

وقال في الأوليين: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَرْشٍ زَوَاجَانِ﴾ وفي الآخرين ﴿فِيهَا فَرْشَانِ وَنَحْلٌ وَزَوَاجَانِ﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأوليين: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فَرْشٍ بَطْلَانًا مِنْ إِسْتَرْبَىٰ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانِ﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين بل قال: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ رَقَبَتَيْ حُضْرٍ وَتَبَقَّرَتِي جَنَانِ﴾.

وقال في الأوليين في وصف نساءهم وأزواجهم: ﴿فِيهِ قَصِيرَتُ الْأَطْرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانِ﴾ وقال في الآخرين: ﴿حُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي لَحْيَابِ﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأوليين^(١): ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ فدل ذلك أن الأوليين جزء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين.

(١) في ب: تحت. (٢) كذا في ب، وفي أ: الأخيرتين، ويبدو أنه سبق قلم.

﴿فِيهِ قَصِيرَتُ الْأَطْرَفِ﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن من حسنهم وجمالهم، وكمال محبتهم لهم، وقصرن أيضًا طرف أزواجهن عليهن من حسنهن وجمالهن ولذة وصلهن.

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانِ﴾ أي: لم يظنن قلبهم أحد من الإنس والجن، بل هن أبكار غُرب متحبيات إلى أزواجهن بحسن التبعيل والتعجب والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْآفَاقُ وَالْزُرِّيَّاتُ﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والتعظيم المقيم والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ من فضة بنيانهما وآتيتهما وحليتهما، وما فيهما لأصحاب اليمين.

وتلك الجنتان ﴿مُدَاهَتَانِ﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

(٦٦-٧٠) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ﴾ أي: فوارتان ﴿فِيهَا فَرْشَانِ﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرماني اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

﴿فِيهِ﴾ أي: في الجنات كلها ﴿قَصِيرَتُ جَنَانِ﴾ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخلُق والخلُق.

(٧٢) ﴿حُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي لَحْيَابِ﴾ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن.

ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن [المخدرات] الخفريات.

(٧٤-٧٦) ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانِ﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ كَذِبًا ۖ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ رَقَبَتَيْ حُضْرٍ ﴿٧٥﴾ أي: أصحاب هاتين الجنتين، متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي فوق^(١) المجالس العالية التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم لزيادة البهاء وحسن المنظر.

﴿وَتَبَقَّرَتِي جَنَانِ﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجًا حسنًا فاخرًا، ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصنعة وحسن المنظر ونعومة الملمس.

وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين، كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الآخرين، فقال في الأوليين: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وفي الآخرين ﴿عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ﴾.

ومجرد تقديم الأوليين على الآخرين يدل على فضلها .
فهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الآخرين، وأنهما
معدّتان للمقربين من الأنبياء والصديقين وخواص عباد الله
الصالحين، وأن الآخرين معدّتان لعموم المؤمنين .

وفي كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشبهه الأنفس
وتلذ الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمانينة
وحسن المأوى حتى إن كلّ^(١) منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً
منه، ولا أعلى من نعيمه [الذي هو فيه] .

(٧٨) ولما ذكر سعة فضله وإحسانه قال : ﴿بَرَكَةُ اسْمِ رَبِّكَ ذِي
الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي : تعظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر
والمجد الكامل والإكرام لأوليائه .

تم تفسير سورة الرحمن، والله الحمد والشكر والثناء
الحسن .

تفسير سورة الواقعة

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٢) ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوَقْعِهَا كَذِبٌ ۚ خَافِضَةٌ
رَّافِعَةٌ ۚ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَّةً
مَّيْبُتًا ۚ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ
وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۚ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ۚ أُولَئِكَ
الْمُقَرَّبُونَ ۚ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۚ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد
من وقوعها، وهي القيامة التي ﴿لَيْسَ لَوَقْعِهَا كَذِبٌ﴾ أي : لا
شك فيها، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية،
ودلت عليها حكمته تعالى .

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي : خافضة لأناس في أسفل سافلين،
رافعة لأناس في أعلى عليين، أو خفضت بصوتها فأسمعت
القريب، ورفعت فأسمعت البعيد .

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي : حركت واضطربت .
﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ أي : فتت ﴿فَكَانَتْ هَبَّةً مَّيْبُتًا﴾
فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم ﴿فَأَعَا صَفْصَفًا ۚ
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ﴾ .

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أيها الخلق ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي : انقسمت
ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة .

ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة فقال : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا

فِيهَا فَكَانَتْ هَبَّةً مَّيْبُتًا ۚ ﴿١﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رِيكًا نَّكَدًا ۚ ﴿٢﴾ بَانَ
فِيهِمْ خَيْرٌ حَسَنٌ ۚ ﴿٣﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رِيكًا نَّكَدًا ۚ ﴿٤﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبَاقِي ۚ ﴿٥﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رِيكًا نَّكَدًا ۚ ﴿٦﴾ بَانَ
لَمْ يَطْمِئْنُوا بِإِسْمِ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۚ ﴿٧﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رِيكًا نَّكَدًا ۚ ﴿٨﴾ بَانَ
مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۚ ﴿٩﴾ فَيَأْتِيءَ
الْآءَ رِيكًا نَّكَدًا ۚ ﴿١٠﴾ نَبْرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۚ ﴿١١﴾

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوَقْعِهَا كَذِبٌ ۚ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ
﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۚ ﴿٤﴾ فَكَانَتْ هَبَّةً
مَّيْبُتًا ۚ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ ﴿٥﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا
أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۚ ﴿٦﴾
وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ۚ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ ﴿٧﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
﴿٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۚ ﴿٩﴾ وَقِيلَ لِّلَّذِينَ فِي الْآخِرِينَ
﴿١٠﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۚ ﴿١١﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ۚ ﴿١٢﴾

أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ تعظيم لشأنهم وتغخيم لأحوالهم .

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ أي : الشمال ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ تهويل
لحالهم .

﴿وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٧﴾ أي : السابقون في
الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول
الجنات .

أولئك الذين هُذا وصفهم، المقربون عند الله في جنات
النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات التي لا منزلة
فوقها .

(١٣) وهؤلاء المذكورون ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي : جماعة
كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم .

(١٤) ﴿وَقِيلَ لِّلَّذِينَ فِي الْآخِرِينَ﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه
الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين
أكثر من المتأخرين .

(١٥) والمقربون هم خواص الخلق ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾

﴿١٦﴾

٥٣٥

﴿١٧﴾

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ
 ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفَرُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهْفُهُمْ ذُخْرٌ وَنَبَاتٌ سَبَّحَتْهُ
 ﴿٢٠﴾ وَلَحْمٌ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ الثَّلَاثِ
 الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ حِزًّا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
 تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ
 الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَبْشُورٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٌّ مَخْشُودٍ
 ﴿٣٠﴾ وَمَاءٌ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهْفُهُمْ كَثِيرٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعٌ وَلَا
 مَمْنُوعٌ ﴿٣٣﴾ وَفَرْشٌ مَرْفُوعٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ لَعَلَّاهُمْ
 أَنْكَارٌ ﴿٣٦﴾ عُرْيَا أَرْبَابًا ﴿٣٧﴾ لَا صَحْبَ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ فَلَمَّا مَنَّ
 الْأَوْلَىٰ ﴿٣٩﴾ وَثَلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ
 الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُورٍ وَجِيزٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٌّ مِمَّنْ يَنْحُمُونَ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٌ
 وَلَا كَرِيمٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا أَقْبَلَ ذَلِكَ مَبْتَرِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ
 عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
 وَعِظْمًا إِذَا نَا بَعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَا بَابُنَا أَلَّا نُولَٰئُونَ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا لَرَّ
 الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْقُودٍ ﴿٥٠﴾

فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر ^(٣) ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم ﴿جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَسْتَوْفُونَ﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

(٢٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم، كلامًا يلغى، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلامًا يؤثم صاحبه.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: إلا كلامًا طيبًا، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب.

ولهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام وأسر للنفوس ^(٤)، وأسلمه من كل لغو واثم، نسأل الله من فضله.

(٢٧) ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين ^(٥) فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أي: شأنهم عظيم وحالهم جسيم.

(١) في ب: كل. (٢) كذا في ب، وفي أ: ضحان الأعين. (٣) في ب: القلب. (٤) في ب: للقلوب. (٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.

أي: مرمولة بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك من [الحُلِيِّ] الزينة التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

(١٦) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: على تلك السرر جلوس تمكن وطمانينة وراحة واستقرار.

﴿مُتَّكِئِينَ﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم وتقابل قلوبهم.

(١٧، ١٨) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة وقضاء حاجتهم، ولدان صغار الأسنان في غاية الحسن والبهاء.

﴿كَأَمْثَلِ الثَّلَاثِ مَكُونٍ﴾ أي: مستور لا يناله ما غيره.

مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بأنية شراهم ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهي التي لا عرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ الأواني التي لها عرى.

﴿وَأَكْسَبُ يَمِينٍ﴾ أي: من خمر لذيذ المشرب لا آفة فيها.

(١٩) ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا تصدعهم رموسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها.

﴿وَلَا﴾ هم عنها ﴿يُزْفَرُونَ﴾ أي: لا تنزف عقولهم ولا تذهب أحلامهم منها كما يكون لخمير الدنيا.

والحاصل أن جميع ^(٦) ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَدُوٍّ يَنْتَعَرُ مَعَهُمْ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَدُوٍّ لِلشَّرْبِ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾.

وذكر هنا خمر الجنة ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا.

(٢٠) ﴿وَفَكَهْفُهُمْ ذُخْرٌ وَنَبَاتٌ سَبَّحَتْهُ﴾ أي: مهمما تخيروا وراق في أعينهم، واشتهت نفوسهم من أنواع الفواكه الشبيهة والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه.

(٢١) ﴿وَلَحْمٌ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاءوا مشوياً أو طيحياً أو غير ذلك.

(٢٢-٢٤) ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ كَأَمْثَلِ الثَّلَاثِ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينيها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها ^(٧)، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسناتها وجمالها.

﴿كَأَمْثَلِ الثَّلَاثِ الْمَكُونِ﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كأملاك الأوصاف جميلات النعوت.

(٤١-٤٨) ﴿وَأَصْحَابُ الْآلِافِ مَا أَصْحَبُ الْآلِافِ﴾ في سُورَةِ وَحْيِهِ
وَبَلِّغْ بَيْنَ يَمِينِهِ ۖ لَا يَأْكُرُونَ وَلَا كَرِيمٌ ۖ إِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَكِينَ
وَكَانُوا يَجْرُونَ عَلَى لَيِّثٍ الْعَلِيمِ ۖ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَهَذَا بَشَرًا مِثْلَنَا
وَعَلَيْكَ آدَمُ الْتُمُوتُونَ ۖ أَوْ ءَاءَاتُنَا الْآتُونَ ۖ المراد بأصحاب
الشمال [هم] أصحاب النار، والأعمال المشنومة.

فذكر [الله] لهم من العقاب ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم
﴿فِي سُورَةٍ﴾ أي: ربيع حارة من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم
وتقلقهم أشد القلق.

﴿وَحْيِهِ﴾ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم.
﴿وَبَلِّغْ بَيْنَ يَمِينِهِ﴾ أي: لهب نار يختلط بدخان.
﴿لَا يَأْكُرُونَ وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي: لا يرد فيه ولا كرم.
والمقصود أن هناك لهم والعنم، والحزن والشر الذي لا
خير فيه، لأن نفي الضد إثبات للضد.

ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء فقال:
﴿إِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَكِينَ﴾ أي: قد أهتتم دنياهم وعملوا
لها وتعموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل،
فهذا الترف الذي ذمهم الله عليه.

﴿وَكَانُوا يَجْرُونَ عَلَى لَيِّثٍ الْعَلِيمِ﴾ أي: وكانوا يفعلون الذنوب
الكبار ولا يتوبون منها ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما
يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة [غير مغفورة].

وكانوا ينكرون البعث فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿أَهَذَا بَشَرًا
مِثْلَنَا شَرِكًا وَعَلَيْكَ آدَمُ الْتُمُوتُونَ ۖ أَوْ ءَاءَاتُنَا الْآتُونَ﴾ أي: كيف
نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا تراباً وعظاماً؟ [هذا من
المحال] ﴿آدَمُ الْتُمُوتُونَ ۖ أَوْ ءَاءَاتُنَا الْآتُونَ﴾ قال تعالى جواباً
لهم ورداً عليهم^(٢):

(٤٩، ٥٠) ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ لَمُتَّبِعُونَ لِمَا يُفْتَنُ بَيْنَ يَدَيْهِ
مُتَّوِينَ﴾ أي: قل: إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع
سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده،
حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم
التي عملوها في دار التكليف.

(٥١-٥٣) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الْفَائِزُونَ﴾ عن طريق الهدى،
التابعون لطريق الردى.

﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد
والوعيد، ﴿لَا يُؤْمِنُ بِنُوحٍ﴾ وهو أقبح الأشجار
وأخسها وأنتها ريحاً وأبشعها منظرًا ﴿فَمَنْ لَوْ يَتَّبِعُونَ﴾
والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة -

(١) في ب: وإن انتقلت. (٢) في ب: قال تعالى في جوابهم.

(٢٨) ﴿فِي يَدَيْهِ مَقْشُورٌ﴾ أي: مقطوع ما فيه من الشوك
والأغصان [الرديئة] المضرة، معمول مكان ذلك الثمر
الطيب.

وللسدر من الخواص، الفلّ الظليل وراحة الجسم فيه.

(٢٩) ﴿وَنَلِّجْ مَضْجُورٌ﴾ والطلع معروف، وهو شجر [كبار]
يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهى.

(٣١) ﴿وَمَاءٌ مَّسْكُورٌ﴾ أي: كثير من العيون والأنهار
السارحة والمياه المتدفقة.

(٣٢، ٣٣) ﴿وَنَكْهَرُ كَبِيرٌ ۖ لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ﴾ أي:
ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع في وقت من الأوقات، وتكون
ممتنعة [أي: متعصرة] على منبغها بل هي على الدوام
موجودة، وجناها قريب يتناولها العبد على أي حال يكون.

(٣٤) ﴿وَنُورٌ مَّرْجُومٌ﴾ أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً
عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا
يعلمه إلا الله.

(٣٥) ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُ إِنَّةً﴾ أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة
نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا نشأة كاملة لا تقبل الفناء.
(٣٦) ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ صغارهن وكبارهن.

(٣٧) وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا،
وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع
الأحوال، كما أن كونهن ﴿عُرًّا أَزْوَاجًا﴾ ملازم لهن في كل حال.
والعروب: هي المرأة المتحبة إلى بعلها بحسن لفظها
وحسن هيئتها ودلالها وجمالها [ومحبته]، فهي التي إن
تكلمت سبب العقول، وود السامع أن كلامها لا يتقصي،
خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والتغنيات
المطربة، وإن نظر إلى أدهبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها
فرحاً وسروراً، وإن برزت^(١) من محل إلى آخر، امتلأ ذلك
الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً.

ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأتراب: اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة،
التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فمساوهم عرب
أتراب، متفقات مؤتلفات، راضيات مرضيات، لا يَحْزَنُ ولا
يُحْزَنُ، بل هن أفراح النفوس، وقررة العيون، وجلاء
الأبصار.

(٣٨) ﴿لَا تَحْسَبُ اللَّيْلِينَ﴾ أي: معدات لهم مهيئات.

(٣٩، ٤٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ يَوْمَ الْآخِرِينَ ۖ وَثُمَّ إِنَّ الْآخِرِينَ﴾ أي: هذا
القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين، وعدد كثير
من الآخرين.

الجوع المفرط الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تقطع منه أفئدتهم.

هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني عن جوع.

وأما شرابهم فهو بسّ الشراب، وهو أنهم يشربون على
غذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون شرب
لإبل الهيم أي: العطاش التي قد اشتد عطشها، أو [أن الهيم]
داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء.

(٥٦) ﴿هَذَا﴾ الطعام والشراب ﴿تَوَلَّوْا﴾ أي: ضيافتهم ﴿يَوْمَ الْيَقِينِ﴾ وهي الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وآثروها على ضيافة الله لأوليائه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَسْغَمُونَ فِيهَا حَوْلًا﴾.

(٥٧) ثم ذكر الدليل العقلي على البعث فقال: ﴿تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ تُؤْتَوْنَ أَجْرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير، ولهذا وبخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم شاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

(٥٨-٦٢) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۚ إِنَّكُمْ عَنِقْتُمُوهُ أَمْ تَمْنُونَ الْفَيْفُونَ ۚ تَحْنُ قَدَرًا يَنْسَكُ السَّوْتُ وَمَا عَنْ يَمِينِهِ ۚ عَلَىٰ أَنْ يُدُلَّ أَنتُمْ كُمْ ۚ تَنْسِكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ وَلَقَدْ عَنُتُهُ الْقَادَةُ الْأُولَىٰ قَوْلًا تَذَكَّرُونَ ۚ﴾
 ي: أفرايتم ابتداء خلقتكم من المني الذي تمنون، فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وأنتها من الذكر والأنثى، وهدى كلاهما لما هنالك، وحجب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب للتناسل.

ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال ^(١) بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا لِلْأَنفُسِ الْأُولَىٰ مَقُولًا ﴿ذَكِّرُوا﴾ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَىٰ ابْتِدَاءِ خَلْقِكُمْ قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَتِكُمْ.

(٦٧-٦٣) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ • أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فَرَّسَوْنَهُ، أَمْ لَمْ يَنْقُضُوا الْحَرْثَ • لَوْ كُنَّا جَعَلْنَاهُ حُطًا فَلاَ تَعْلَمُون • إِنَّا لَعَامِرُونَ • ﴿لَقَدْ نَحْنُ تَحْرُثُونَ﴾ • وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى وحيدته وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرت للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلًا عن شكرها أداء حقها، ففرهم بمسته فقال:

[illegible]

﴿يَأْتِيَنَّكَ رِزْقُكَ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ أَرْضِ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتوه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثماراً نضيجاً؟
أم الله الذي افرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟
وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتسقوها وتلقوا فيها البذر.

ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحشر معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلعة ومناجاة له حينئذ فقال:

﴿لَوْ فَشَأْنُكَ لَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الزرع المحروث وما فيه من الثمار
﴿حُطْمًا﴾ أي: فتاتًا متحطمًا لا نفع فيه ولا رزق.

﴿فَظَلَّلْتُ﴾ أي: فصرتم بسبب جعله حطامًا بعد أن تعبتُم فيه، وأنفقتم النفقات الكثيرة.

﴿نَفَكْهُنَّ﴾ أي: تَنَدُّمُونِ وَتَحْسُرُونَ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ،

فلا يعصى .

وزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم فتقولون :

﴿إِنَّا لَنَعْمُرُونَ﴾ أي : إنا قد نقصنا وأصابنا مصيبة اجتاحتنا . ثم تعرفون بعد ذلك من أين أنتم ، وبأي سبب ذهبت فتقولون : ﴿بَلْ نَحْنُ نَعْمُرُونَ﴾ .

فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم ، ثم أبقاه وكماله لكم ، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره .

(٦٨-٧٠) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۚ أَأَمْثَرُ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَاحِيًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام ، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون ، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله ، لما كان لكم سبيل إليه ، وأنه الذي أنزله من المزن ، وهو السحاب والمطر ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها ، ويكون منه الغدران المتدفقة .

ومن نعمته أن جعله عذبا فراتا تسقيه النفوس ، ولو شاء لجعله ملحا أجابا مكروها للنفوس لا ينتفع به .

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم .

(٧١-٧٤) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۚ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ۚ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَنَسْيًا لِلْمُتَّقِينَ ۚ فَتَسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ اللَّيْلُ نَاطِلِينَ ۚ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ تَدْخُلُ فِي الصَّرُورِيَّاتِ الَّتِي لَا غِنَى لِلخَلْقِ عَنْهَا ، فَإِنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِهِمْ وَحَوَائِجِهِمْ ، فَفَرَّحَهُمُ تَعَالَى بِالنَّارِ الَّتِي أَوْجَدَهَا فِي الْأَشْجَارِ ، وَأَنَّ الْخَلْقَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَنْشِئُوا شَجَرَهَا ، وَإِنَّمَا اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي أَنْشَأَهَا مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ، فَإِذَا هِيَ نَارٌ تَوْقِدُ بِقَدْرِ حَاجَةِ الْعِبَادِ ، فَإِذَا فَرَّغُوا مِنْ حَاجَتِهِمْ أَطْفَأَهَا وَأَخْمَدَهَا .

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا﴾ للعباد بنعمة ربهم ، وتذكروا بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين ، وجعلها سوطا يسوق به عباده إلى دار النعيم .

﴿وَمَثَلًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي : [المنتفعين أو] المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافرين بذلك أعظم من غيره ، ولعل السبب في ذلك ؛ لأن الدنيا كلها دار سفر ، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه ، فهذه النار جعلها الله مَثَلًا للمسافرين في هذه الدار ، وتذكروا لهم بدار القرار .

فلما بين من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكروه وعبادته أمر بتسبيحه وتحميده^(١) فقال : ﴿تَسْبِيحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي : زه ربك العظيم ، كامل الأسماء والصفات ، كثير الإحسان والخيرات .

واحمده بقلبك ولسانك وجوارحك ، لأنه أهل لذلك ، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُطاع

(٧٥-٨٧) ﴿فَلَا أَفْسِدُ بِمَوْعِدِ الشُّجُورِ ۚ وَإِنَّهُ لَفَسَدٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۚ إِنَّهُ لَفَرَزَ مِنْ كَرَمٍ ۚ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۚ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَمْطَرُونَ ۚ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ أَفَبِمَا أَلْمَوْثُ أَنْتُمْ تُدْعَوْنَ ۚ وَتَعْلَمُونَ رَيْبَكُمْ أَنْتُمْ مَكِيدُونَ ۚ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَ الْهُلُوفُ ۚ وَأَنْتُمْ حِينِلًا تُنْظَرُونَ ۚ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ۚ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۚ قَرِّحُوا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي : مساقطها في مغاريها ، وما يحدث الله في تلك الأوقات من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده .

ثم عظم هذا المقسم به فقال : ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَدٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ .

وإنما كان القسم عظيما ، لأن في النجوم وجريانها وسقوطها عند مغاريها آيات وعبرا لا يمكن حصرها . وأما المقسم عليه فهو إثبات القرآن ، وأنه حق لا ريب فيه ولا شك يعتريه .

وأنه كريم أي : كثير الخير غزير العلم ، فكل خير وعلم ، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه .

﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ أي : مستور عن أعين الخلق ، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ أي : إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملا الأعلى .

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله^(٢) ، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين لا قدرة لهم^(٣) على تغييره ، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه .

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَمْطَرُونَ﴾ أي : لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب .

وإذا كان لا يمسّه إلا المطهرون ، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم ، ولا يدان إلى مسه ، دلت الآية - بتبيينها^(٤) - على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر ، كما ورد بذلك الحديث ، ولهذا قيل : إن الآية خبر بمعنى النهي ، أي : لا يمس القرآن إلا طاهر .

﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة ، هو تنزيل رب العالمين الذي يري

(١) في ب : وتعليمه . (٢) في ب : لوحه ورسالته . (٣) كذا في ب ، وفي أ : لها (٤) في ب : تنبيها .

عباده بنعمه الدينية والدنيوية .

ومن أجل تربية ربي بها عباده، أنزله هذا القرآن الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكورا .

ومما يجب عليهم أن يقوموا به ^(١) ويعملوه، ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال: ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ ﴾ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تذهبون أي: تخفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وأستهم؟ .

لهذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يبق صاحبه منه . وأما القرآن الكريم فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به ولا يخفى، بل يصدع به ويعلم .

وقوله: ﴿ وَتَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها .

فهذا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَ الْهُلُومُ ۖ وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْهُ ﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة .

والحال أنا نحن أقرب إليه منكم بعلمنا وملائكتنا ولكن لا تبصرون .

﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي: فهلا إذا كنتم تزعمون أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين ترجعون الروح إلى بدنها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردّها إلى موضعها .

فيحشد إما أن تقرروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم .

(٨٨-٩٦) ﴿ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرِيقِينَ ۖ فَرَّجَ وَرِيحَانٌ وَحَشَّ نَعِيمٍ ۖ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ فَسَلَّكَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الصَّالِينَ ۖ فَنَزَلَ مِنْ جَبَرٍ ۖ وَنَصْلَةٍ جَمِيمٍ ۖ إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۖ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أحوال الطوائف الثلاث: المفرقين وأصحاب اليمين والمكذبين الصالين في أول السورة في دار القرار .

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت فقال: ﴿ فَلَمَّا إِنْ كَانَ ۖ الْمَيِّتِ ﴾ أي: المفرقين ﴿ مِنَ الْمُفْرِيقِينَ ﴾ وهم الذين أدوا

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَرِيمٍ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَ الْهُلُومُ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرِيقِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَّجَ وَرِيحَانٌ وَحَشَّ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّكَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الصَّالِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَلَ مِنْ جَبَرٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةٍ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ اللَّهُمَّ لَكَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات ^(١) وفضول المباحات .

لهم ﴿ رَوْحٌ ﴾ أي: راحة وطمأنينة وسرور وبهجة ونعيم القلب والروح .

﴿ وَرِيحَانٌ ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية من أنواع المأكول والمشارب وغيرها، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام ^(٢) .

﴿ وَحَشَّ نَعِيمٍ ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور .

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَنْفِيتَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَتَّقُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي

(١) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن يقوموا به . (٢) في ب: ﴿ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرِيقِينَ ﴾ أي: إن كان الميت من المفرقين إلى الله المفرقين إليه بأداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات . (٣) في ب: فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه .

تفسير سورة الحديد

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيقُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْجُ وَمَا يَزِلُ مِنْ أَمَلَةٍ وَمَا يَجْعَلُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ يُؤْتِي الْكَلَامَ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ يُؤْتِي عِلْمَ بِلَادٍ الْمُشَدُّورِ ۝ يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه أن جميع ما في السماوات والأرض من الحيوانات الناطقة والصامته وغيرها، [الوجامد] تسبح بحمد ربها، وتنزه عما لا يليق بجلاله.

وأنها قانتة لربها منقادة لعزته قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها وعموم عزته وفهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

ثم أخبر عن عموم ملكه فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

أي: هو الخالق لذلك، الرازق المنبهر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء. ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء.

﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس فوقه شيء. ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس دونه شيء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والسرائر والخفايا والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله فوق جميع خلقه.

كثُرَ تُوعَدُونَ ۝ تَعْنُ أُولَئِكَ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۝ نَزَّلْنَا عَذْرَاجَتَهُمْ ۝

وقد أول قوله^(١) تبارك وتعالى: ﴿لَهُمُ الْبَشَرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أن هذه البشارة المذكورة هي البشرية في الحياة الدنيا.

[وقوله]: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، و[إن] حصل منهم التفسير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم يقال لأحدهم: ﴿سَأَلْتُكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبلبات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين الذين سلموا من الذنوب الموبقات.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْفَالِغِينَ﴾ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى.

﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ جَبَرٍ ۝ وَنَصِيحَةٍ جَبَرٍ﴾ أي: ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم نصيحة الجبر التي تحبط بهم، وتصل إلى أفئدتهم.

وإذا استغاثوا من شدة العطش والظما ﴿يَقَالُوا يَمَّا كُنْهُمْ لَيْسَ يُشْرَى الْوَجُوهُ بِشَىءٍ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي ذكره الله تعالى من جزاء العباد بأعمالهم خيرها وشرها وتفاصيل ذلك ﴿لَهُمْ حَقُّ الْيَمِينِ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية.

بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه.

وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له، مشاهدون له^(٢) فحمدوا الله تعالى على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

(١) في ب: فسر. (٢) في ب: مشاهدون لحقيقته.

الْحَدِيدُ

٥٣٨

الْحَدِيدُ

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيهِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَرْجُ مِنْهَا وَمَا يَزِلُّ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ شُرَكَاءَ فِيهِ قَالَتِ الْأَمْوَالُ إِنَّا أَهْلُهَا نَذِيرٌ ﴿٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ قَدْ أَخَذَ مِنْكُمْ كِفْلًا مِنْ قَبْلُ فَذَرِكُمْ أَتَيْتُمُ بَيْتًا لِلْخُرُوجِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النَّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْجِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾

الَّذِي يَزِلُّ عَلَى عِبْدِهِ ءَاتَيْتَ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْجِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ كَرِيمٌ ۝ يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به وبالنفقة في سبيله من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها لينظر كيف يعملون .

ثم لما أمرهم بذلك، رغبهم وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب فقال: ﴿قَالَتِ الْأَمْوَالُ إِنَّا أَهْلُهَا نَذِيرٌ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله ﴿هَلَمْ أَتَى كَرِيمٌ﴾ أعظمه [أجله] رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم الذي أعد الله للمؤمنين والمجاهدين .

ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان، وعدم المانع منه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ قَدْ أَخَذَ مِنْكُمْ كِفْلًا مِنْ قَبْلُ فَذَرِكُمْ أَتَيْتُمُ بَيْتًا لِلْخُرُوجِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النَّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْجِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ كَرِيمٌ ۝

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِيهِ فِي الْأَرْضِ﴾ من حُب وحيوان ومطر وغير ذلك .
﴿وَمَا يَرْجُ مِنْهَا﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك .
﴿وَمَا يَزِلُّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأقمار والأزراق .
﴿وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك .

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَافِعُهُمْ وَلَا حَسْرَةَ إِلَّا هُوَ سَائِسُهُمْ وَلَا أَتَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ سَمِعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ .

وهذه المعية معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال من بر وفجور، فمجازيكم عليها وحافظها عليكم .

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبادًا يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القديرية والشرعية الجارية على الحكمة الربانية .

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل على النهار فيغيثهم الليل بظلامه فيسكنون ويهدأون .

ثم يدخل النهار على الليل فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون فيتحرك العباد ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم .

ولا يزال الله يكور الليل على النهار والنهار على الليل ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر حتى تقوم بذلك الفصول وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك .

فتبارك الله رب العالمين وتعالى الكريم الجواد الذي أنعم على عباده بالنعيم الظاهرة والباطنة .
﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما يكون في صدور العالمين .

فيوفى من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته^(١) .

(١-٧) ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ شُرَكَاءَ فِيهِ قَالَتِ الْأَمْوَالُ إِنَّا أَهْلُهَا نَذِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ قَدْ أَخَذَ مِنْكُمْ كِفْلًا مِنْ قَبْلُ فَذَرِكُمْ أَتَيْتُمُ بَيْتًا لِلْخُرُوجِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النَّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْجِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ كَرِيمٌ ۝

أعظم درجة وأجرًا وثوابًا لمن لم يسلم ويقاتل ويفتق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلوا الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح.

ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقبح في المفضل، احتراز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَلَا يَنْدُ اللَّهُ الْحَسَنُ﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، ولهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم] رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كُلًّا منكم على ما يعمله من عمله.

ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، ولهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماء قرضًا، والحال ماله والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافًا كثيرة وهو الكريم الوهاب.

وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة يوم كلَّ بينين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزء الحسن، ولذلك قال:

(١٢-١٥) ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفِهِمْ شَرَّكَمُ الْيَوْمَ جَسَتْ بُحْرَىٰ مِنْ نَحْبِهِ الْأَنْهَارُ خَلَائِلٌ فِيهَا ذَلَالٌ هُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ يَقُولُ الْمُشْكِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ لِلَّذِينَ يَلْبِثُونَ آمَنَّا انظُرُوا نَفْسًا مِنْ فَرْجِكُمْ قِيلَ تَرَجِعُوا وَرَدَّكُمْ فَاتَّبَعُوا حُكْمَ فَحْشٍ بَيْنَهُمْ يُشِيرُ أَلَمْ يَكُنْ بِأَيْدِيهِمْ فِيهِ الرِّجْمَةُ وَظَلَهُمْ مِنْ فَيْلِهِ الذَّلَالُ ۝ يُبَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَقَبَّلْنَ رِزْقَكُمْ وَعَزَّيْتُمْ الْأُمَمَ حَتَّىٰ جَاءَهُمْ اللَّهُ وَعَزَّيْتُمْ يَاللَّهُ الْغَرُورُ ۝ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ بِكُمُ ظُهُورُ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمْ النَّارُ مِنْ مَوْلَانِكُمْ وَيَشَى الْمَصِيرُ﴾ يقول تعالى - مبيِّنًا لفضل الإيمان واعتباط أهله به يوم القيامة - : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفِهِمْ شَرَّكَمُ الْيَوْمَ جَسَتْ بُحْرَىٰ مِنْ نَحْبِهِ الْأَنْهَارُ خَلَائِلٌ فِيهَا ذَلَالٌ هُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ﴾.

أَخَذَ يَتَنَبَّهُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمدًا ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم.

فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته، والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان، إن كنتم مؤمنين.

ومع ذلك، من لطفه وعنايته بكم، أنه لم يكف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات ودلَّكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات.

فلهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يَرْزُقُ عَلَى عِبَادِهِ مَا يَكْتُمُ يَتَنَبَّهَاتُ﴾ أي: ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به^(١)، وأنه حق اليقين.

﴿يُخَيِّرُكُمْ﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة.

﴿مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

وهذا من رحمة بكم ورافته حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُفْقَهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَهُ يَرْجُو أَشْرَاطُ الْأَرْضِ﴾ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهو طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا.

(٢) الحال أنه ليس لكم شيء بل ﴿لَهُ يَرْجُو أَشْرَاطُ الْأَرْضِ﴾ فجميع الأموال تستغل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود المُلْكُ إلى ماله تبارك وتعالى.

فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم واتهنزوا الفرصة.

ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنْ كَفَرَ مِنْ أَقْبَىٰ مَنْ قَبِلَ الْفَتْحَ وَقَتَّلَ أَوْلِيَّكَ أَظْهَمَ دَمَةً مِنَ الَّذِينَ أَفْقَرُوا مِنْ بَعْدِ وَكَتَلُوا﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديدية حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام واختلاط المسلمين بالكافرين والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجًا واعتز الإسلام عزًّا عظيمًا.

وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرّون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها كالمدينة وتوابعها.

وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأتفق وقاتل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ ثَوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
 بُشْرَانِكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
 هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا انظُرُوا بِنَافْسٍ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
 فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
 الْعَذَابُ ﴿١٧﴾ يُنَادِيهِمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ
 أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ وَارْتَمَيْتُمْ عَزَّكُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ
 اللَّهِ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهُ الْعَزُورُ ﴿١٨﴾ قَالُوا لَمْ لَا يُؤْخَذُ بِكُمْ بِذُنُوبِكُمْ وَلَا
 مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادِيهِمْ
 ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
 وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
 فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾
 أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا
 اللَّهُ قَرَضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٢٢﴾

فَلَهُ مَا أَحْلَىٰ هَذِهِ الْبَشَارَةَ بِقُلُوبِهِمْ، وَالذُّعَا لِقُوسِهِمْ،
 حَيْثُ حَصَلَ لَهُمْ كُلُّ مَطْلُوبٍ [مُحِبُّوبٍ] وَنَجَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ
 وَمَرْهُوبٍ.

فَإِذَا رَأَى الْمُنَافِقُونَ نُورَ الْمُؤْمِنِينَ يَمْشُونَ بِهِ ^(١)، وَهُمْ قَدْ
 طَفَىٰ نَوْرُهُمْ، وَيَقُولُوا فِي الظُّلُمَاتِ حَاتِرِينَ، قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ:
 ﴿أَنْظُرُوا بِنَفْسٍ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أَي: أَمْهَلُونَا لِنَتَلَّ مِنْ نَوْرِكُمْ مَا نَمْشِي
 بِهِ لِنَتَجُو مِنَ الْعَذَابِ.

فَ ^(٢) قِيلَ لَهُمْ: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أَي: إِنْ كَانَ
 ذَلِكَ مُمْكِنًا، وَالْحَالُ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرَ مُمْكِنٍ، بَلْ هُوَ مِنْ
 الْمَحَالَّاتِ.

﴿فَقَطَّ﴾ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿بِسُورٍ﴾ أَي: حَاطَ
 مَنِيْعٍ وَحَصَنَ حَصِيْنٍ.

﴿أَلَمْ يَأْنِ يَكُنْ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وَهُوَ الَّذِي يَلِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَا يَكُونُ
 مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ وَهُوَ الَّذِي يَلِي الْمُنَافِقِينَ.

فِيُنَادِي الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ تَضَرَّعًا وَتَرْحَمًا:
 ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا نَقُولُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وَنُصَلِّي
 وَنُصَوِّمُ وَنُجَاهِدُ وَنَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِكُمْ؟.

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كَتَمَ مَعْنَى فِي الدُّنْيَا، وَعَمَلْتُمْ [فِي الظَّاهِرِ] مِثْلَ
 عَمَلِنَا، وَلَكِنْ أَعْمَالُكُمْ أَعْمَالُ الْمُنَافِقِينَ مِنْ غَيْرِ إِيمَانٍ وَلَا نِيَّةٍ
 [صَادِقَةٍ] صَالِحَةٍ.

بَلْ ^(٣) فَتَنَّتْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ وَارْتَمَيْتُمْ أَي: شَكَكْتُمْ فِي خَبَرِ اللَّهِ
 الَّذِي لَا يَقْبَلُ شَكًّا.

﴿وَعَزَّكُمْ الْأَمَانِي﴾ الْبَاطِلَةُ، حَيْثُ ^(٤) تَتَمَيَّنُ أَنَّ تَتَالَوَا مَنَالَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتُمْ غَيْرُ مُوَقِّينَ.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أَي: حَتَّى جَاءَكُمْ الْمَوْتُ، وَأَنْتُمْ بَتَلِكِ
 الْحَالِ الذَّمِيَّةِ.

﴿وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورُ﴾ وَهُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي زَيْنَ لَكُمْ الْكُفْرَ
 وَالرِّيبَ، فَاطْمَأْنَنْتُمْ بِهِ وَوَقَفْتُمْ بِوَعْدِهِ وَصَدَقْتُمْ خَبْرَهُ.

﴿قَالُوا لَمْ لَا يُؤْخَذُ بِكُمْ بِذُنُوبِكُمْ وَلَا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَلَوْ اخْتَدَيْتُمْ
 بِمِثْلِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَمَّا تُقْبَلُ مِنْكُمْ.

﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ أَنَّا﴾ أَي: مُسْتَفْرَكُمْ ﴿مِنْ تَوْلَانِكُمْ﴾ الَّتِي تَتَوَلَّاهُمْ
 وَتَتَضَمَّنُهُمْ لِبِهَا ﴿وَيْسَ الْأَمِصِرُ﴾ النَّارِ.

[قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٥ فَأَمَّهُ
 هَكَوِيَّةٌ ٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ ٧ نَارُ حَامِيَّةٍ ٨].

(١٦، ١٧) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
 وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ
 الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢١﴾ لَمَّا ذَكَرَ حَالِ

المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة،
 كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَدْعُو الْقُلُوبَ إِلَى الْخُشُوعِ لِرَبِّهَا، وَالِاسْتِكَانَةِ
 لِعَظَمَتِهِ، فَعَانَبَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ [عَلَى عَدَمِ ذَلِكَ] فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ
 لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

أَي: أَلَمْ يَجِبْ ^(١) الْوَقْتُ الَّذِي تَلِينُ بِهِ قُلُوبُهُمْ ^(٢)، وَتَخْشَعَ
 لَذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ، وَتَتَفَادَى أَوَامِرَهُ وَزَوَاجِرَهُ، وَمَا نَزَلَ
 مِنَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ؟

وَهَذَا فِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْجَهْدِ عَلَى خُشُوعِ الْقَلْبِ لِلَّهِ
 تَعَالَى، وَلَمَّا أَنْزَلَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَأَنْ يَتَذَكَّرَ الْمُؤْمِنُونَ
 الْمَوَاضِعَ الْإِلَهِيَّةَ وَالْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّ وَقْتٍ، وَيَحَاسِبُوا
 أَنْفُسَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾
 أَي: وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ الْمَوْجِبَ
 لَخُشُوعِ الْقَلْبِ وَالِاتِّقَادِ التَّامِ، ثُمَّ لَمْ يَدُومُوا عَلَيْهِ وَلَا بُتُوا،
 بَلْ طَالَ عَلَيْهِمُ الزَّمَانُ وَاسْتَمَرَّتْ بِهِمُ الْغَفْلَةُ، فَاضْمَحَلَّ

(١) فِي ب: يَمْشُونَ بِنَوْرِهِمْ. (٢) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: النَّيْ. (٣) فِي
 ب: أَلَمْ يَأْنِ. (٤) فِي ب: الَّذِي بِهِ تَلِينُ قُلُوبُكُمْ.

ایمانهم وزال إیقانهم .

﴿نَسَسْتُ قُلُوبَهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك ^(١) سبب لفساد القلب وجمود العين.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فَإِنَّ الْآيَاتِ تَدُلُّ الْعُقُولَ عَلَى الْعِلْمِ بِالْمَطَالِبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْأَمْوَاتَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ فَيَجْازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَاءِ الْمَطَرِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْحَقِّ عَلَى رَسُولِهِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا عَقْلَ لِمَنْ لَمْ يَهْتَدِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ[لَمْ] يَتَّقِدْ لَشَرَائِعِ اللَّهِ.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالَّذِينَ إِتَّخَذُوا لِلَّهِ عُقُوبًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالَّذِينَ إِتَّخَذُوا لِلَّهِ عُقُوبًا أُولَئِكَ لَهُمُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالَّذِينَ إِتَّخَذُوا لِلَّهِ عُقُوبًا أُولَئِكَ لَهُمُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالَّذِينَ إِتَّخَذُوا لِلَّهِ عُقُوبًا﴾ (١٩، ١٨)

﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرْبًا حَسَنًا﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً^(٢٧) لهم عند ربهم ﴿يَضَعُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَأَلْهَمُوا آخِرَ كَرِيمٍ﴾ وهو ما أعله الله لهم في الجنة مما لا يعلمه النفوس.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَرُسُلُنَا﴾ والإيمان عند أهل السنة هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل لقلب واللسان والجوارح.

فيشمل ذلك جميع شرايع الدين الظاهرة والباطنة .
فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي : الذين
مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء .

[وقوله: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾] كما ورد في الحديث الصحيح: «إن في الجنة مائة درجة ما بين الدرجتين»^(٣) كما بين السماء والأرض، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله.

ولهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم وقربهم إلى الله تعالى .
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾
هذه الآيات جمعت أصناف الخلق : المصدقين ، والصديقين
والشهداء ، وأصحاب الجحيم . فالمتصدقون : الذين كان جُلُّ
عملهم الإحسان إلى الخلق ، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم

خصوصًا بالنفع بالمال في سبيل الله .

والصديقون: هم الذينكملوا مراتب الإيمان والعمل
الصالح والعلم النافع واليقين الصادق.
والشهداء: هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة
الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم أقتلوا.

وأصحاب الجحيم : هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله .
ويبقى قسم ذكرهم الله في سورة فاطر ، وهم المقصدون
الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات إلا أنهم حصل منهم
تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده ، فهؤلاء مآلهم الجنة ،
وإن حصلا لهم عقوبة بعض ما فعلوا .

(٢٠، ٢١) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْغَنَاءُ لِلرِّجَالِ وَلَهُ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْأَنْثَىٰ لِلْغَنَاءِ وَالْغَنَاءُ لِلرِّجَالِ وَلَهُ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْأَنْثَىٰ لِلْغَنَاءِ﴾

وَنَكَثُوا فِي الْأُمُومِ وَالْأَرْوَاحِ كُلِّ عِيبٍ أَحَبَّ إِلَهُمُ الْكُفْرَ تِلْكَ ثُمَّ
يُهَيِّجُ قُرْبَهُ مُصْغَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطْلًا فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ
اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الشُّرُورِ ○ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ○ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿١٠﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، وبين
غايته وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو تلعب بها الأبدان وتلهو
بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود واقع من أبناء
الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب
والغفلة عن ذكر الله ^(١٠)، وعما أمامهم من الوعد والوعد،
يراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً.

بخلاف أهل اليقظة وعُمَمال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبه، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال لئلا تقرهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله:] ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: تزيينٌ في اللباس والطعام الشراب والمراكب والدور والقصور والجاه [وغير ذلك].

﴿وَقَفَّازٌ يَّبْكُكُمْ﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفارقة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورهما، والذي له الشهرة في أحوالها.

﴿وَنَكَاتُهُ فِي الْآمَوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: كُلُّ يَرِيد أَن يَكُون هُوَ لَكَاتِر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه، وقوعه من نَحْيِ الدُّنْيَا وَالْمَطْمَئِنِّينَ إِلَيْهَا.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله^(٥)، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال

(١) في ب: فإنه. (٢) في ب: ذخراً. (٣) في ب: ما بين كل رجتين. (٤) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم. (٥) في ب: إلى ذلك.

والأولاد نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار الذين قصروا همهم ونظروهم إلى الدنيا^(١)، جاءها من أمر الله [ما اتلفها] فهاجت ويبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رؤي لها مرأى أنيق.

كذلك الدنيا، بينما هي زاوية لصاحبها زاهرة، مهما أود من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما أذهبها^(٢) من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، ولم يتزود منها سوى الكفن، فبئس لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿رَفِىَ الْآخِرَةُ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَمِغْفَرَةٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: حال الآخرة ما يخلو من هذين الأمرين.

إما العذاب الشديد في نار جهنم وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومتهى مطلبه، فتجراً على معاصي الله وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وإما مغفرة من الله للسيئات وإزالة للعقوبات، ورضوان الله يحل من أحله^(٣) به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.

لهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة ولهذا قال: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ كَشْرُورٌ﴾ أي: إلا متاع يتمتع به ويستفغ به، ويستدفع به الحاجات لا يعتز به، ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور.

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال:

﴿وَجَعَلْهُ عَرْضًا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والإيمان بالله ورسوله^(٤)، يدخل فيه أصول الدين وفروعه ﴿ذَلِكَ فَتَلَّ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: هذا الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٢﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَتُهُ وَقَضَائُهُم تَنَكَّرُوا فِي الْأُمُورِ وَالْأَوْلَادِ كَشَلِّ عَيْشٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَجِيءُ فَتَرْتَهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴿٢٣﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٤﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٥﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُوتُ وَيَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَمِيدُ ﴿٢٧﴾

الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم^(٥) من أعظم مته على عباده وفضله.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أتى على نفسه، وفوق ما ينسب عليه عباده^(٦).

(٢٢-٢٤) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُوتُ وَيَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَمِيدُ﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿وَمَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها.

وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذلل عنده أفئدة أولي الآلِباب، ولكنه على الله يسير.

(١) في ب: همهم ونظروهم. (٢) في ب: فاذهبها. (٣) في ب: من أحله عليه. (٤) كلها في ب، وفي أ: ورسوله. (٥) في ب: وأن ثواب الله بالآجر الجزيل والثواب الجميل. (٦) في ب: أحد من خلقه.

﴿وَالَّذِينَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال.

والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنائيات والقصاص والحدود [والموارث وغير ذلك].

وذلك ﴿يَقُومُ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قياماً بدين الله وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها.

وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل بحسب الأزمنة والأحوال.

﴿وَأَرْسَلْنَا الْقَوِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك.

﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف والآلات الحث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿وَيَسِّرَ اللَّهُ مَنِ يَصْرِفُ رِيسْلَهُ بِالْقَيْبِ﴾ أي: ليقم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيثبت من ينصره، وينصر رسله في حال الغيب التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضرورياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يعجزه شيء ولا يفوته هارب. ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يتلى أولياءه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب.

وقرن تعالى في هذا^(١) الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله، وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله.

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا الْقِسْطَ وَالْكِتَابَ﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام.

وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين.

﴿فَبَيَّنَّا﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مَنْهُمْ﴾

وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تقرر هذه القاعدة عندهم، وينو عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم مما طمحت له أنفسهم، وتشوفوا إليه لعلهم أن يكون ذلك مكتوباً في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بظن وأشر، لعلهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم ولهذا قال:

﴿وَاللَّهُ لَا يُبْدِي كُلَّ مَخْلُوقٍ مَقُورٍ﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطفئها وتلهيها كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلْتَهُ نِقْمَةً مِمَّا قَالُوا أَنَا بَرَاءُ مِنْهُ عَلَى بَلَدٍ مِمَّنْ يَنْقِمُ﴾.

﴿الَّذِينَ يَبْكُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين اللذين كل منهما كاف في الشر، البخل وهو منع الحقوق الواجبة ويأمرون الناس بذلك، فلم يكنهم بخلمهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحوَّهم على هذا الخلق الذميص بقولهم وفعلهم، ولهذا من إغراضهم عن طاعة ربهم وتوحيدهم عنها.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْقُيُودُ﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقنأهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمده عليه ويشني ويعظم.

(٢٥-٢٧) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَأَرْسَلْنَا مَعَهُ الْكِتَابَ وَالزَّبُورَ لِيُؤْمَرَ النَّاسَ بِالْقِسْطِ وَأَرْسَلْنَا الْقَوِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَرِسَالَةٌ لِلْقَيْبِ﴾ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا الْقِسْطَ وَالْكِتَابَ فَبَيَّنَّا مِنْهُمْ قُلُوبَهُمْ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَاشِرِهِمْ رُسُلَنَا وَفَقَّيْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَ اتَّبِعُوا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ مَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَفَاتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقته.

﴿وَأَرْسَلْنَا مَعَهُ الْكِتَابَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

٥٤٢

سُورَةُ الْحَجَرِ الْحَمِيدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ
مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أَهْنُهُنَّ مِنْ أَمْهَتُهُنَّ وَلَا الَّتِي
وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَفْوٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ
لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّوْا ذَلِكَ تُوعِظُونَ
بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّوْا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِاطْعَامُ سِتِّينَ
مِسْكِينًا ذَلِكَ لِيُذَكِّرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَفَالِكِ حُدُودُ اللَّهِ
وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا
كَكَاذِبِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَنْذِرُ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ مُهِينٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْثَرُهُمْ بِمَا
عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوءَ مَا لَهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَشَيْدٌ ﴿٦﴾

الديقية والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله [تعالى] سيزيل شكواها ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها^(١) على وجه العموم فقال:

﴿الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أَهْنُهُنَّ مِنْ أَمْهَتُهُنَّ وَلَا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ﴾ المظاهرة من الزوجة أن يقول الرجل لزوجته: «أنت عليّ كظهر أمي» أو غيرها من محارمه أو: «أنت عليّ حرام» وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه الله «ظهارًا» فقال: ﴿الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أَهْنُهُنَّ مِنْ أَمْهَتُهُنَّ﴾ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم^(٢) أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟

ولهذا عظم الله أمره وقبحه فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: قولًا شنيعًا «وُزُورًا» أي: كذبًا. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفْوٌ غَفُورٌ﴾ عن صدر منه بعض المخالفات، اللاتي ولدنهم؟

(١) في ب: لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) كذا في ب، وفي أ: ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره. (٤) في ب: يعلمون.

واتقى الله وأمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم^(١) بأنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿كُنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة.

فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المقين لله لهم كفلاً من رحمته، ونور، ومغفرة، رغمًا على أنوف أهل الكتاب.

وليعلموا ﴿أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتیه من فضله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الذي لا يقادر قدره].

ثم تفسير سورة الحديد، والله الحمد والمنة، والحمد لله.

تفسير سورة قد سمع الله

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤-١) ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أَهْنُهُنَّ مِنْ أَمْهَتُهُنَّ وَلَا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفْوٌ غَفُورٌ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّوْا ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّوْا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِاطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِيُذَكِّرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَفَالِكِ حُدُودُ اللَّهِ وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٣﴾ نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكه زوجته [إلى الله وجادلته]^(١) إلى رسول الله ﷺ لما حرّمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً.

فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ وكررت ذلك، وأبدت فيه أعادت.

فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: تخاطبكما فيما بينكما.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات في جميع الأوقات على تفنن الحاجات.

﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

ولهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور

﴿مِنْ قِسَائِهِمْ﴾ .

فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهارًا بل هو من جنس
تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار كما لا يصح طلاقها، سواء نَجَزَ ذلك أو علقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿مَّا هُمْ أَكْثَرُ أُمَّةً مِّنْهُمْ﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسمّيها^(٥) باسم محارمه كقوله: «يا أمي» «يا أختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر،
على اختلاف القولين السابقين لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزىء في كفارة الرقبة الصغير والكبير والذكر والأنثى لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن^(٦) كانت عتقًا أو صيامًا قبل
المسيب، كما قيده الله بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز
المسيب والرطوء في أثنائها.

ومنها : أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس ، أن ذلك أدعى لإخراجها ، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع ، وعلم أنه لا يُمكن من ذلك إلا بعد الكفارة ، بادر لإخراجها .

ومنها : أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً ، فلو جمع طعام ستين مسكيناً ، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك دون الستين لم يجز ذلك ، لأن الله قال : ﴿ قَاتِلُوا مَنِ اسْتَبَاكُمْ وَارْحَمُوا أَلْفَاكُم مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَرَاحِمُوا إِلَيْكُمْ أَلْفَاكُم مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَرَاحِمُوا إِلَى جَنَّةٍ مَّا كُنْتُمْ عَلِيمِينَ ﴾ .

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ وَكَذَٰلِكَ أَكِبَتْ يُنَبِّتُ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ محادة الله ورسوله: مخالفتهما ومعصيتهما خصوصاً في الأمور الفظيعة كمحادة الله ورسوله بالكفر ومعادة أولياء الله.

وقوله: ﴿كُنُوزًا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أذلوا وأهينوا
كما فعل بمن قبلهم جزاء وفاقا .

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها فهو من

فتداركها بالتوبة النصوح.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن بَنَاتِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ إِنَّمَا قَالُوا﴾: اختلف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها^(١) تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ إِنَّمَا قَالُوا﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلى كل من القولين إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة كما قيدت في آية أخرى^(٢)، ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة^(٣) بالعمل.

﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَّاسًا﴾ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر بركة.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿تَوَعَّلَوْا بِهِ﴾ أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به، لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب، فالذي يريد أن يظهر، إذا ذكر أنه يجب عليه عتق رقبة، كف نفسه عنه.

﴿وَأَنَّهُ يَمَّا قَامُوا يُصَلُّونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله .
﴿فَرَأَى لَهُمْ فِي مَقْعَدِهَا رَاقِيَةً﴾ بان لم يجدها أو [لم] يجد منها
عليه ﴿صِيَامُ الشَّهْرِ ثَمَنًا مِّنْ يَوْمٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ﴾ فَن لَمْ يَسْتَطِعْ
الصيام ﴿وَالْعَامَ سِتِينَ سَنَةً﴾ .

إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإما بأن يطعم كل مسكين مدبر أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة كما هو قول طائفة أخرى.

ذَٰلِكَ الْحَكْمَ الَّذِي يَنَآيَ لَكُمْ وَوَضَحْنَاهُ لَكُمْ ﴿١٠٠﴾ لَتَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿١٠١﴾ وَذَٰلِكَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالْحَكْمِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْعَمَلِ .

فإن التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان [بل هي المقصودة] ومما يزيد به الإيمان^(٤) ويكمل وينمو.

﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

وفي هذه الآيات عدة أحكام

منها: لعطف الله بعباده، واعتنا

هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع
البلوى بحكمه العام، لكل من اتلم، بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال:

(١) كلا في ب، وفي أ: أن. (٢) في ب: آية القتال. (٣) في ب:

الضارة. (٤) في ب: ويزداد به الإيمان. (٥) في ب: ويدعوها. (٦)

في ب: إذا .

المهتدين الفائزين.

﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يهينهم ويذلهم.

كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم.

(٧، ٦) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَشَدَّاهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَنْفَخُ فِي الْأَشْجَارِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَاءً يَكُونُ مِنْهُ نَجْوًى لَكُمْ لَا تُبْغُونَ إِلَّا هُوَ سَائِدُهُمْ وَلَا آدَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق ﴿جَمِيعًا﴾ فيقومون من أجدانهم سريعًا فيجازيهم بأعمالهم ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته.

هَذَا ﴿و﴾ الْعَامِلُونَ قَدْ نَسُوا مَا عَمَلُوا، وَاللَّهُ أَحْصَى ذَلِكَ. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بالظواهر ^(١) والسرائر، والخبائيا والخفايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وَأَنَّهُ ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حَسْبَهُ إِلَّا هُوَ سَائِدُهُمْ وَلَا آدَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسرره فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثم قال تعالى:

(٩، ٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ شَرَوْا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَؤُودُونَ لِمَا شَاءُوا عَنْهُ وَيَنْجِرُونَ بِالْأَمْوَالِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْكَةٌ مِنْ لَدُنِّكَ يَقُولُ الَّذِينَ يَفْتَسِمُونَ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِيَنَا قُرْآنٌ مِنْ رَبِّهِمْ فَلَا نَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَّا بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِمْ وَنَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ وَنَتْلُوهُ لَكُمْ فَتَسْخُوفُ الْمَجَالِسُ فَالْقَسْوَاءُ يَنْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا وَيَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا عَمِلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

نُفْلٍ﴾.

ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور.

قال تعالى في بيان أنه يهمل ولا يهمل: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ بَصُولَتُهَا يُفَسِّسُ السَّيْرُ﴾ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب [عليهم] تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿يُفَسِّسُ السَّيْرُ﴾.

وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرن الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيرا ^(٢)، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب الذين إذا سلموا على النبي ﷺ قالوا: «السام عليك يا محمد» يعنون بذلك الموت.

(١٠) ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ يَحْزُرُكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول

(١) في ب: على الظواهر. (٢) في ب: بحق الله وحق عباده. (٣) في ب: يسرون فيها. (٤) كذا في ب، وفي أ: والخطاب للرسول ﷺ الذي يوهمون به أنهم أرادوا خيرا.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة، وقيام بحق لله ولعباده ^(٢)، والتقوى، وهي [هنا] اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم.

فالمؤمن يمثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجيًا ومتحدثًا إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه.

والفاجر يتهاون بأمر الله ويتناجى بالآثم والعدوان ومعصية الرسول كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْكَةٌ مِنْ لَدُنِّكَ يَقُولُ الَّذِينَ يَفْتَسِمُونَ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِيَنَا قُرْآنٌ مِنْ رَبِّهِمْ فَلَا نَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَّا بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِمْ وَنَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ وَنَتْلُوهُ لَكُمْ فَتَسْخُوفُ الْمَجَالِسُ فَالْقَسْوَاءُ يَنْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا وَيَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا عَمِلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يسبون الأدب معك في تحيتهم لك. ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يسرون في أنفسهم ^(٣) ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِيَنَا قُرْآنٌ مِنْ رَبِّهِمْ فَلَا نَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَّا بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِمْ وَنَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ وَنَتْلُوهُ لَكُمْ فَتَسْخُوفُ الْمَجَالِسُ فَالْقَسْوَاءُ يَنْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا وَيَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا عَمِلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

التعظيم خير للمؤمنين وأطهر أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأذناس التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ، والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته، صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة.

ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، لهذا في الواجد للصدقة.

وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيّق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ؛ لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له.

وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها فقال: ﴿فَإِذَا تَرَمَقْتُمْ﴾ أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وَكَبَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عفا لكم عن ذلك.

﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها.

﴿وَوَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة [في أموالكم] إلى مستحقها. وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله، وحقوق عباده [ولهذا قال بعده]: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولهذا أشمل ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله [وطاعة] رسوله بامتثال أوامرها واجتناب نواهيها، وتصديق ما أخبرا به والوقوف عند حدود الله^(١).

والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي

(١) كذا في ب، وفي أ: فإن ضررهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: يمتدوا. (٣) في ب: وكفاه أمر دينه ودينه. (٤) في ب: هذا أدب. (٥) في ب: للفساح. (٦) في ب: حدود الشرع.

تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمكر والخديعة وطلب السوء من الشيطان الذي كيد ضعيف ومكره غير مفيد.

﴿يَعِزُّكَ اللَّهُ الْبَرُّ﴾ لهذا غاية هذا المكر ومقصوده. ﴿وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية، والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْلِيهِ﴾.

فأعداء الله ورسوله والمؤمنين مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك^(١) عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه.

﴿وَكَلَّ اللَّهُ فِتْنَتَكُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليعتمدوا^(٢) عليه، ويقبوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه وتولى أمر دينه ودينه^(٣).

(١١) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ يَاسُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَسَّسُوا فِي الْمَكِينِ فَلَتَقَسَّسُوا يَسَّحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَلَتَنْشُرُوا فَارْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ يَاسُوا وَيَكْمُ الَّذِينَ أَوْفُوا الْوَعْدَ دَرَجَةً وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ لهذا تأديب^(٤) من الله لعباده المؤمنين إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين للتفصح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للمجالس^(٥) شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا﴾ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض ﴿فَلَتَنْشُرُوا﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة.

فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم الله به من العلم والإيمان.

﴿وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زيته وثمرته التاديب بآدابه والعمل بمقتضاه.

(١٢، ١٣) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ يَاسُوا إِذَا تَجَيَّسَ الرُّسُولُ فَتَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ مَاتُفَتَحُوا أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَتْ فَإِذَا تَرَمَقْتُمْ وَكَابَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديباً لهم، وتعليماً وتعظيماً للرسول ﷺ، فإن هذا

وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

(١٤-١٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قُبَمَا عَصَيْبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَيْمَانُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا يَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۝ أَسْتَخْوَدُ عَنْهُمْ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ وَذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حَرْبَ الشَّيْطَانِ إِلَّا إِلَىٰ حَرْبِ الشَّيْطَانِ ثُمَّ لَنَنْصِفَنَّ ۝ يُخَيِّرُ تَعَالَىٰ عَنْ شِنَاعَةِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَنَالُوا مِنَ لَعْنَةِ اللَّهِ أَوْفَىٰ نَصِيبٍ، وَأَنْهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿مُذَكِّبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾.

فليسوا مؤمنين ظاهرًا وباطنًا؛ لأن باطنهم مع الكفار ولا مع الكفار ظاهرًا وباطنًا؛ لأن ظاهرهم مع المؤمنين، ولهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون^(١) أنهم ليسوا مؤمنين.

فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة أن الله أعد لهم عذابًا شديدًا، لا يقادر قدره ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يستخط الله^(٢) ويوجب عليهم العقوبة واللعنة.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: ترسًا ووقاية يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فيسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلكه، أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صدَّ عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم.

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي الذي لا يُقْتَر عنهم ساعة ولا هم يُنظَرُونَ.

﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَيْمَانُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلا تدفع^(٣) عنهم شيئًا من العذاب، ولا تحصل لهم قسطًا من الثواب.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها.

و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومن عاش على شيء مات عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يمهون على المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعًا، حلفوا

بِأَيْمَانِهِمْ

٥٤٤

بِأَيْمَانِهِمْ

بِأَيْمَانِهِمْ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قُبَمَا عَصَيْبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَيْمَانُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا يَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۝ أَسْتَخْوَدُ عَنْهُمْ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ وَذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حَرْبَ الشَّيْطَانِ إِلَّا إِلَىٰ حَرْبِ الشَّيْطَانِ ثُمَّ لَنَنْصِفَنَّ ۝ يُخَيِّرُ تَعَالَىٰ عَنْ شِنَاعَةِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَنَالُوا مِنَ لَعْنَةِ اللَّهِ أَوْفَىٰ نَصِيبٍ، وَأَنْهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿مُذَكِّبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾.

فليسوا مؤمنين ظاهرًا وباطنًا؛ لأن باطنهم مع الكفار ولا مع الكفار ظاهرًا وباطنًا؛ لأن ظاهرهم مع المؤمنين، ولهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون^(١) أنهم ليسوا مؤمنين.

فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة أن الله أعد لهم عذابًا شديدًا، لا يقادر قدره ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يستخط الله^(٢) ويوجب عليهم العقوبة واللعنة.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: ترسًا ووقاية يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فيسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلكه، أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صدَّ عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم.

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي الذي لا يُقْتَر عنهم ساعة ولا هم يُنظَرُونَ.

﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَيْمَانُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلا تدفع^(٣) عنهم شيئًا من العذاب، ولا تحصل لهم قسطًا من الثواب.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها.

و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومن عاش على شيء مات عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يمهون على المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعًا، حلفوا

له كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئًا فشيئًا، حتى غرهم وظنوا أنهم على شيء. يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك.

ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة.

ولهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حَرِيْرَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿أُولَئِكَ حَرْبَ الشَّيْطَانِ إِلَّا إِلَىٰ حَرْبِ الشَّيْطَانِ ثُمَّ لَنَنْصِفَنَّ﴾ الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهلهم.

(٢١، ٢٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۝ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ آتَا وَرُسُلِي إِلَيْكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذا وعد ووعيد، وعيد لمن حادَّ الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه

(١) في ب: وال حال. (٢) كذا في ب، وفي أ: يَسْخَطُهُ. (٣) في ب: أي: لا تدفع.

مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة ولا راية له منصورة.

ووعد لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يُغَيَّر، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء. يريد.

(٢٢) ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان^(١) ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة الذي وجدت ثمرته والمقصود منه.

وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبهة والشكوك.

وهم الذين قوامهم الله بروح منه أي: بوحيه ومعونته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المشويات وجزيل الهبات ورفع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية ولا فوقه^(٢) نهاية.

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُوَادٌّ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان^(٣) وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعُمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله بحمد الله وعونه وتسليده، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا.

٥٤٥
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾
سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُّوا أَنْهَلُمْ مَا نَعْتَهُمْ خَصُوفُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَالْتَمَسْتَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْشَسُوا وَقَدْ فِ قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ يَخْرُجُونَ بِأَيْدِيهِمُ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾

تفسير سورة الحشر

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُّوا أَنْهَلُمْ مَا نَعْتَهُمْ خَصُوفُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَالْتَمَسْتَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْشَسُوا وَقَدْ فِ قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ يَخْرُجُونَ بِأَيْدِيهِمُ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ إلى آخر القصة. هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ.

فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن

(١) في ب: إيمانه. (٢) في ب: ولا وراءه. (٣) في ب: لمن نبذ.

السموات والأرض تسبح بحمد ربها، وتزده عما لا يليق بجلاله، وتعبد وتخشع لجلاله^(١)، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء ولا يستعصي عليه مستعص^(٢).

الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته.

ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا.

فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه [أخرج بقيتهم منها].

﴿مَا كُنْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَنْ تَخْرُجُوا﴾ من ديارهم لحصانتها ومنعتها وعزمها فيها.

﴿وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا كُنْتُمْ مِنْ أَلْفٍ﴾ فأعجبوا بها وغرهم، وحسبوا أنهم لا يُثألون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تُجدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْشَسُوا﴾ أي: من الأمر والباب الذي لم^(٣) يخطر ببالهم أن يؤثروا منه.

وهو أنه تعالى ﴿قَدْ فِي قُلُوبِهِمْ آذَنٌ﴾ وهو الخوف الشديد الذي هو جند الله الأكبر الذي لا ينفع معه عُدَّة ولا عُدَّة ولا قوة ولا شدة.

فالأمر الذي يحتسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخدول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال^(٤).

فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً لا حيلة لهم ولا منعة معه^(٥)، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنْهُمْ بِأَيِّدِهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل.

(١) في: لعظته. (٢) في ب: (عسير). (٣) كذا في ب، وفي أ: لا. (٤) في ب: كان وبالأعلى. (٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه. فصار.

سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة.

فلما كان بعد [وقعة] بدر بسة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ما هنا حتى نقضي حاجتك فخلا بعضهم ببعض، وسؤل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فأمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرخي فيصعد فيلقبها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاها عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخَيَّرَنَّ بما هممت به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به.

فنهض مسرعاً فتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم تشعر بك. فأخبرهم بما هممت به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجتلكم عشراً، فمن وجد بعد ذلك بها ضربت عنقه».

فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي [ابن سلول]: «أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان». وطمع رئيسهم حُي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة. واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلمهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حُي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً.

هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير. فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في

فَنَقَضُوا لِذَلِكَ كَثِيرًا مِّنْ سِقَوفِهِمُ الَّتِي اسْتَحْسَنُوهَا، وَسَلَطُوا الْمُؤْمِنِينَ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ عَلَى إِخْرَابِ دِيَارِهِمْ وَهَدَمِ حَصُونِهِمْ، فَهَمُ الَّذِينَ جَنَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَارُوا مِنْ أَكْبَرِ عَوْنِ عَلَيْهَا. ﴿تَاقَتِ رَأْسُهُوا لُكُومَ الْآفَتِ﴾ أي: البصائر النافذة والعقول الكاملة، فإن في هذا معبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم الذين لم تنفعهم عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصصهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ^(١) لا بخصوص السبب.

فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظر بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكير فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يزداد^(٢) العقل وتنور البصيرة ويزداد الإيمان ويحصل الفهم الحقيقي.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصيبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم.

فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها.

ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى.

فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم.

وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وعادوهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه عادته وستة فيمن شاقه ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَرَأَىٰ إِلَهُهُ يُدَبِّدُ إِلَقَابَ﴾.

ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك^(٣) إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إيقاعهم إياه، إن أبقوه إنه بإذنه تعالى وأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ حيث سلطكم على قطع نخيلهم وتحريقها، ليكون ذلك نكالاً لهم، وخزياً في الدنيا، ودلاً يعرف به عجزهم التام الذي ما قدروا على استقاذا نخيلهم الذي هو مادة قوتهم،

واللية: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاهما، فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله في الدنيا.

ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم فقال: ﴿وَمَا آتَاةُ

الله عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمُ أَي: من أهل هذه القرية وهم بنو النضير. إنكم يا معشر المسلمين ﴿مَا أَوْفَّقْتُمْ﴾ أي: أجلبتم وأسرعتم وحشدتم ﴿وَعَلَيْهِمْ مِنْ حِجَلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي: لم تعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأنتكم صفواً عفواً. ولهذا قال: ﴿وَلَزِكْنَا اللَّهَ يَسْطِطُ رَسُولُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من تمام قدرته أنه لا يتمتع منه^(٤) ممنوع، ولا يتعزز من دونه قوياً، وتعريف النبي في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال، كهذا المال الذي قروا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسمي فينا لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلى المسلمين الذين لهم الحق الأوفر فيه.

وحكمه العام كما ذكره الله في قوله: ﴿مَا آتَاةُ اللَّهَ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ عموماً، سواء آفاه الله في وقت رسوله أو بعده لمن يتولى من بعده أمته^(٥).

﴿فَاللَّهُ وَالرَّسُولُ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال في^(٦) قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُمُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

فهذا النبي يقسم خمسة أقسام:

خمس لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين [العامه].

وخمس لذوي القرى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب حيث كانوا يسوون فيهم] بين ذكورهم وإناثهم.

وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم^(٧)، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام».

وخمس لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ.

وخمس للمساكين.

وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء المتقطع بهم في غير أوطانهم.

(١) في ب: العبرة بعموم المعنى. (٢) في ب: يكمل العقل. (٣) كذا في ب، وفي أ: به. (٤) في ب: عليه. (٥) في ب: سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمته. (٦) في ب: وهي. (٧) كذا في ب، وفي أ: حين تعاقد على هجرهم قريش وعداوتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَسَنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا فَإِنْ آذَنَ اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَشْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَالْمَسْكِينِ وَالْيَتَامَى وَالسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولُهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِالرَّسُولِ فَخْذُهُ وَمَا نَهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتُمْ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْرُوهَا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحْتَوْنَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنُ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾

نصر دينه.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يجدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها. ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة.

ولهذا لا يكون إلا من خلُق زكي ومحبة لله تعالى، مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه حين أثر ضيفه بطعامه وطعام أهله

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر النفي في هؤلاء المعينين لـ ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولُهُ﴾ أي: مداولة واختصاصاً ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ فإنه لو لم يقدره لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله.

كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام فقال: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِالرَّسُولِ فَخْذُهُ وَمَا نَهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتُمْ﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله.

ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي فقال: ﴿وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من ترك التقوى وأثر اتباع الهوى.

(٩٨، ٩٩) ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى الأموال أموال الفياء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالاعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان، والأحباب والخلان والأموال رغبة في الله ونصرة لدين الله ومحبة لرسول الله.

فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا بإيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدق بالجهد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وأووا رسول الله ﷺ ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر.

فلم يزل أنصار الدين تأوي إلى الأنصار حتى انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً فشيئاً وينمو قليلاً قليلاً حتى فتحو القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يَحْتَوْنَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا لمحبتهم لله ولرسوله، أحباً أحبابه، وأحبوا من

وأولاده وبناتوا جياغا .

والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح .

ومن رزق الإيثار فقد وُقي شح نفسه ﴿وَمَنْ يَوْقُ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ﴾ ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وُقي العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعا متقادا منشرجا بها صدره وسمحت نفسه بتركه ما نهى الله عنه، وإن كان محبوبا للنفس تدعو إليه وتطلع إليه .

وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز .

بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته .

فهذان ^(١) الصفتان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وقادات المتقين ^(٢) .

وحسب من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم ويأتهم بهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم فقال :

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي : من بعد المهاجرين والأنصار ﴿يَقُولُونَ﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ لَنَا وَإِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ .

ولهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، ولهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض بسبب المشاركة في الإيمان المقضي لعقد الأخوة بين المؤمنين ^(٣) التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضا .

ولهذا ذكر الله في الدعاء تقي الغل عن القلب الشامل لقليل الغل وكثيره ^(٤) الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاتة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين .

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم : ﴿سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ دليل على المشاركة في الإيمان ^(٥)، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة الذين لا يصدق لهذا الوصف التام إلا عليهم .

ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَفْرِغْ لَنَا وَإِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطْعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُكَلِّبَنَّ الْأَافِرِينَ أَنْ لَا يَصُرُوا ﴿١٣﴾ لَأَشَدُّ شَرِّهِمْ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٤﴾ لَا يَقْنِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍ جَدِيدٍ بِأَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ شَرِّدَ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ كَذَلِكِ الَّذِينَ مِنْ قِبَلِهِمْ قُرَيْبًا ذَاوًا وَإِلَى أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ كَذَلِكِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِئْتُ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾

إخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضا، وأن يحب أحدهم أخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضرا وغائبا حيا وميتا .

ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض .

ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين دائبين على كمال رحمة الله وشدة رافته وإحسانه بهم، الذي من جملة، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للغي الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام، وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

(١١-١٣) ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمّعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم : ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

(١) كذا في ب، وفي أ : فهؤلاء . (٢) كذا في ب، وفي أ : المؤمنين .

(٣) كذا في ب، وفي أ : للمؤمنين . (٤) في ب : لقليله وكثيره . (٥) في ب : المشاركة فيه .

عقول، لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخص الخطين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية، مثل هؤلاء المخدولين من أهل الكتاب الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا.

(١٥) وعدم نصر من وعدمهم بالمعاونة ﴿كَتَلَّ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم فَرِيًّا﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم وقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ إِلَوهُ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَ الَّذِينَ الْكُفْرَ ظَلَّ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب حتى أتوا «بئرا» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانتهم. فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم وأسروا من أسروا منهم وفر من فر. وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم. هذا في الدنيا «ولهم» في الآخرة عذاب النار.

(١٦) ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كَتَلَّ الَّذِينَ فِي الدِّينِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرُوا﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه.

فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير.

(١٧) ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمْ﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمْ فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِبِينَ﴾.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين اشتبكوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته.

وهذا ذاب الشيطان مع كل أولياته، فإنه يدعوهم ويدلهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاق بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلي عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته

(١) في ب: بالوعد. (٢) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل. (٣) في ب: حملهم على ذلك. (٤) في ب: على قتالكم.

وَلَا تُطِيعُوا فِئَةً آمَنَ أَنَّهُمْ أَتَى: لا تطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوننا.

﴿وَإِن يَوَلَّيْتُمْ لَسَخَّرْنَاكُمْ وَأَلَّهَ بِتَحْتِ يَدِهِم لَكِبُوتٌ﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم.

ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال فقال: ﴿لَئِن أَعْرَجْنَا مِنْ دِيَارِهِمْ جَلَاءً وَفَيْتَا﴾ لَا يَجْرُونَ مَعَهُمْ لمحبتهم للأوطان وعدم صبرهم على القتال، وعدم فائتهم بوعدهم (١).

﴿وَلَئِن فُتِنُوا لَا يُضْرِبُوا﴾ بل يستولي عليهم الجبن ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم أوحج ما كانوا إليهم.

﴿وَلَئِن ضُرِبُوا﴾ على الفرض والتقدير (٢) ﴿يَكُونُوا الْأَذَى شَرٌّ لَا يُضْرِبُونَ﴾ أي: ليحصل منهم الإذبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك (٣)، أنكم - أيها المؤمنون - «أشد رغبة في صدورهم من الله» فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضررا على مخافة الخالق الذي بيده الضر والنفع والعطاء والمنع.

﴿ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه، ومحبة مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

(١٤) ﴿لَا يَكْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: في حال الاجتماع (٤) ﴿لَا فِي فَرَى مُخَصَّصَةٍ أَوْ مِنْ دُونِهَا جَزِيٍّ﴾ أي: لا يبتنون لقتالكم (٥) ولا يزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في الفرى، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، ولهذا من أعظم الذم.

﴿بِأَسْمِهِمْ يَنْهَرُ سَرِيحٌ﴾ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين.

﴿و﴾ لكن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي: متباغضة متفرقة منشثة. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَمْلِكُونَ﴾ أي: لا عقل عندهم ولا لب، فإنهم لو كانت لهم

عاص على بصيرة لا عذر له .

(١٨-٢١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَنَظَرُ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ وَآتُوا اللَّهَ حَيْثُ بَدَأَ تَعْمَلُونَ ۖ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۚ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۚ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَشْيَةً مُّتَّصِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصَرِّفُهَا لِلَّذِينَ لَا يُلَاحِظُونَ عُقُوبَتَهُمْ ۖ يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُوْجِبُهُ الْإِيمَانُ وَيَقْضِيهِ مِنْ لِّزُومِ تَقْوَاهُ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَأَنْ يَرَاعُوا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَوَامِرِهِ وَشَرَائِعِهِ وَحُدُودِهِ، وَيَنْظُرُوا مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، وَمَا فَحَصَلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُمْ أَوْ تَضُرُّهُمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فلأنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم، وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم .

وإذا علموا أيضًا أن الله خير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد .

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدتها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه وإتقانه .

ويقاس بين من الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة بلا محالة .

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قومًا نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينتجحوا ولم يحصلوا على طائل .

بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعها في معاصيه . فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغيره، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله ونسي حقوقه فشقي في الدنيا، واستحق

فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَنَظَرُ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ وَآتُوا اللَّهَ حَيْثُ بَدَأَ تَعْمَلُونَ ۚ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٨﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٩﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَشْيَةً مُّتَّصِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصَرِّفُهَا لِلَّذِينَ لَا يُلَاحِظُونَ عُقُوبَتَهُمْ ۖ يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُوْجِبُهُ الْإِيمَانُ وَيَقْضِيهِ مِنْ لِّزُومِ تَقْوَاهُ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَأَنْ يَرَاعُوا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَوَامِرِهِ وَشَرَائِعِهِ وَحُدُودِهِ، وَيَنْظُرُوا مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، وَمَا فَحَصَلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُمْ أَوْ تَضُرُّهُمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿٢٠﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٣﴾

سُورَةُ الْمُتَجَنِّتِ

العذاب في الآخرة .

فالاولون هم الفائزون والآخرون هم الخاسرون .

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم^(١) ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواظ القرآن أعظم المواظ على الإطلاق .

وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقررة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف^(٢) لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان وتليق لكل أحد .

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يفكروا في آياته

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم . (٢) كذا في ب، وفي أ: وأثقلها تكلفاً .

ويتدبروها، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه.

(٢٢-٢٤) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَزِمَ الْغَيْبِ وَالْغُهِمَّةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام.

وكل إله سواه ^(١) فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكر] عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقرأه مديرون.

﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ أي: المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجّد؛ لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله. ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدق لرسله وأنيابه بما جاءوا به بالآيات والنبات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وخضع له كل شيء. ﴿الْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذن له سائر الخلق الذي يجبر الكبير ويغني الفقير. ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتزّه عن جميع العيوب والظلم والجور. ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ لجميع المخلوقات ﴿الْبَارِئُ﴾ للمبروات ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفراد الله به لم يشركه فيه مشارك. ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جداً التي لا

تفسير سورة الممتحنة

[وهي: مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَدُوَّيْكُمْ وَتَعَدُّوْكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَهُنَّ بِالنُّفُورِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَيَاقِظَةً مَرْجَافًا يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَفْهَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلَ الْمَوْتِ الْبَعِيدِ ۝ إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ يَأْتُونَهُمْ نِدْوًا وَقَدُورًا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَبْنَاءُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهِ بِمَا تَمَلَّوْنَ بَعِيرٌ ۝ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُشْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَرَفًا يَكُورًا وَيَسَّاءَ وَيَسَّاءَ الْعَادَّةُ وَالْفَعْسَاءُ أَمَّا حَتَّى تَقُولُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنَا نَوَلِّكَ وَإِلَيْكَ إِنبَاءُ الْعَائِدِينَ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ لَنَا فِتْنَةً لِقَائِهِمْ كَرِهُوا وَافْعَلُوا لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُشْوَةٌ حَسَنَةٌ لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْقَنِيُّ ۝ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ لَا يَتَمَنَّاهُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَا الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ ۝ لَا تَنْفَعُكُمْ آلُكُمْ وَلَا أَبْنَاءُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝ إِنَّمَا يَنْفَعُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ
 إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يَحْزَنُونَ الرُّسُولَ
 وَإِنَّا لَنَأْمُرُهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِن كُنتُمْ حَرَجْتُمْ جَهَنَّمَ فِي سَبِيلِ
 وَإِنِّي لَأَعْلَمُ بِمَا خَفِيتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَقْعَلْ مَعَكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۚ إِن
 يَتَّقَوْكُمْ يُكُونَ أَكْثَرُ أَعْدَاءِ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ
 بِالسُّوءِ وَوَدُّوا أَنْ يَكْفُرُوا ۚ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَبْنَاؤُهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ قَدْ
 كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
 إِنَّا بَرَاءٌ وَأَنْتُمْ مَعَافُونَ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْبٍ وَبِدَائِنَا
 وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا
 قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ وَمَا عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ
 رَبَّنَا عَلَّمَكُنَا مَا نَكُنَّا آتِينَكَ وَإِنَّا لَكَنَّا الْعَصِيرُونَ ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
 فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة وهو الله تعالى .

فلما أعرضوا عن هذا الأمر الذي هو أوجب الواجبات ،

وقسم به ، عادوكم وأخرجوكم - من أجله - من دياركم .

فأي دين وأي مروءة وعقل يبقى مع العبد إذا وإلى الكفار
 الذين لهذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟ ولا يمنعه من إلا
 خوف أو مانع قوي .

﴿إِنْ كُنتُمْ حَرَجْتُمْ جَهَنَّمَ فِي سَبِيلِ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ بِمَا خَفِيتُمْ﴾ أي : إن كان
 خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ،
 وابتغاء مرضاة الله ^(٢) فاعملوا بمقتضى هذا من موالاة أولياء
 الله ومعاداة أعدائه ، فإن هذا هو الجهاد في سبيله ^(٣) ، وهو من
 أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ، ويتبنون به رضاه .

﴿يُفِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا خَفِيتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي :
 كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها ، مع علمكم أن الله
 عالم بما تخفون وما تعلنون؟! فهو وإن خفي على المؤمنين

يَرِيكُم وَيَطْرُقُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ أَتْلُوكُمُ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾
 ذكر كثير من المفسرين [رحمهم الله] أن سبب نزول هذه
 الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة حين غزا النبي
 ﷺ غزوة الفتح .

فكتب حاطب إلى قريش ^(١) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ
 إليهم ، ليتخذ بذلك يدًا عندهم [لا شكًا ولا غشًا] ، وأرسله مع
 امرأة .

فأخبر النبي ﷺ بشأنه ، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها
 وأخذ منها الكتاب .

وعاتب حاطبًا فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ .

وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من
 المشركين وغيرهم ، وإلقاء المودة إليهم ، وأن ذلك مناف
 للإيمان ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ،
 ومتناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو ،
 الذي لا يبق من مجهوده في العداوة شيئًا ، ويستنز الفرصة في
 إيصال الضرر إلى عدوه ، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾
 اعملوا بمقتضى إيمانكم من ولاية من قام بالإيمان ، ومعاداة
 من عاداه ، فإنه عدو الله وعدو للمؤمنين .

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾
 أي : تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها ، فإن المودة
 إذا حصلت تبعثها النصره والموالاة ، فخرج العبد من
 الإيمان ، وصار من جملة أهل الكفران وانفصل عن أهل
 الإيمان .

وهذا المتخذ للكافر وليًا ، عادم المروءة أيضًا ، فإنه كيف
 يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر ، ويخالف ربه
 ووليه الذي يريد به الخير ، ويأمره به ويحبه عليه؟ ومما يدعو
 المؤمن أيضًا إلى معاداة الكفار ، أنهم قد كفروا بما جاء
 المؤمنين من الحق ، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاققة ،
 فإنهم قد كفروا بأصل دينكم ، وزعموا أنكم ضلال على غير
 هدى .

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، ومن
 رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة
 قوله ، بل مجرد العلم بالحق ^(٢) يدل على بطلان قول من رده
 وفساده .

ومن عادوهم البليغة أنهم ﴿يَحْزَنُونَ الرُّسُولَ وَإِنَّا لَنَأْمُرُهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

المؤمنون من دياركم ويشردونكم من أوطانكم .

ولا ذنب لكم في ذلك عندهم إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم
 الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته ، لأنه رباهم

(١) في ب : إلى المشركين من أهل مكة . (٢) كذا في ب ، وفي أ : مجرد
 رد الحق . (٣) في ب : وابتغاء رضاه . (٤) في ب : هذا من أعظم
 الجهاد في سبيله .

فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك.

فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ عَلَيْهِ﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأناوبوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿وَالِإِنَّكَ أَتَيْنَا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فحنن في ذلك ساعون، ويفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فستستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك^(١).

﴿وَلَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق، وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً.

﴿وَافْعَلْ لَنَا﴾ ما اقترعنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْقَرِيرُ﴾ القاهر لكل شيء.

﴿الْكَمِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها فيعزتك^(٢) وحكمتك انصرتنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كَانَ يُبَيِّرُ اللَّهُ وَالْيَمِّ الْأَخِيرُ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً مضطراً إلى ذلك غاية الاضطرار.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه].

فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر.

﴿وَمَنْ يَتَمَلَّهِ مِنْكُمْ﴾ أي: موالاة الكافرين بعدما حذرهم الله منها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تهييجاً للمؤمنين على عداوتهم ﴿إِنْ يَتَفَكَّرْ﴾ أي: يجدوكم، وتسنع لهم الفرصة في أذاكم.

﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ظاهرين ﴿وَيَسْتَطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والضرب ونحو ذلك.

﴿وَالْيَدِ يَنْتَهِى إِلَيْهِمْ﴾ أي: بالقول الذي يسوء من شتم وغيره. ﴿وَرُودُوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتججتم وقتلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَثَّلُونَ بِمُسِيرٍ﴾.

فلذلك حذرهم من موالاة الكافرين الذين تضرمكم موالاتهم.

قد كان لكم يا معشر المؤمنين ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة صالحة واتمام ينفعكم.

﴿وَإِنْ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بِرَأْيِكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكَ وَبِآلِكَ﴾ أي: ظهر وبان ﴿بَيْنَكُمْ وَالْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أي: البغض بالقلوب وزوال مودتها والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أَبَدًا﴾ ما ممت مستمرين على كفركم ﴿حَتَّى تَقُومُوا لِلَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي: فإذا أمتم بالله وحده زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية.

فلكم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده.

﴿إِلَّا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿تَوَلَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع فقال إبراهيم: ﴿لَأَسْتَشِيرَنَّ لَكَ﴾ أي: الحال أنني لا ﴿أَتَمُكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شيئاً.

(١) في ب: ما يزلنا إليك. (٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك.

٥٥٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمَن يَتَّبِعِ الْهُدَىٰ هُوَ الْفَيْضُ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَىٰ أَن يَجْعَلَ
يَتَذَكَّرُوا مِن اللَّهِ أَلَّا يُغْتَوِبُوا غُوبَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَوْدُ رَحْمَةٍ
﴿٧﴾ لَّا يَتَنَبَّهُوا عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَغْنَبْهُمْ فِي الَّذِينَ وَلَّتْهُمُ جَحْدُهُمْ
مِّن دُونِكُمْ ۚ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْتَبِهَكُمْ عَلَى الَّذِينَ فَتَنَلَكُمْ فِي الَّذِينَ وَاعَدْنَاكُمْ
مِن دُونِكُمْ وَلَطَمُوهَا وَاعَلْنَا خِرَاجَكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ
فَإُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّهُنَّ عَلِيمَاتٌ يَّامُنِينَ ۚ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَنَّهُنَّ كَلِمٌ فَهُنَّ ۚ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَهُنَّ
مَا أَتَفَقَّوْا وَلَا جُنَاحَ عَلَيَّكُمْ أَن تَكْفُوهُنَّ إِذَا تَلَقَّيْتُمُوهُنَّ لَمَّا جَاءَكُمُ
وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِكُمُ الْكَافِرَ وَسَتَلَوْا مَا أَتَفَقَّعْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمَا
ذَلِكُمْ حَكْمٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُنَكِّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَتَأْتُوا إِلَيْكُمْ ذَهَبَتْ
أَرْزَاقُهُمْ ۚ شَلَّ مَا أَتَفَقَّوْا وَأَتَفَقَّوْا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتولٍّ للمشركين، فلم
ينهمكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى
الأقارب وغيرهم من الأديين وغيرهم.
﴿وَمَن يَتَوَلَّوْهُمْ فَإُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب
التولي.

فإن كان توليًّا تامًّا، صار ﴿٣﴾ ذلك كفرًا مخرجًا عن دائرة
الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دون
ذلك.

(١١، ١٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ
فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّهُنَّ عَلِيمَاتٌ يَّامُنِينَ ۚ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَنَّهُنَّ كَلِمٌ فَهُنَّ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيَّكُمْ أَن
تَكْفُوهُنَّ إِذَا تَلَقَّيْتُمُوهُنَّ لَمَّا جَاءَكُمُ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِكُمُ الْكَافِرَ
وَسَتَلَوْا مَا أَتَفَقَّعْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمَا ذَلِكُمْ حَكْمٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُنَكِّمُ
بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۚ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْزَاقِكُمْ
إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَتَأْتُوا إِلَيْكُمْ ذَهَبَتْ أَرْزَاقُهُمْ ۚ
شَلَّ مَا أَتَفَقَّوْا وَأَتَفَقَّوْا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ لما كان صلح

﴿الْحَكِيمُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود
على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين
للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم
وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع
علته، فإن المودة ^(١) الإيمانية ترجع.

فلا تياسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان.
ف ﴿عَسَىٰ أَن يَجْعَلَ يَتَذَكَّرُوا مِن اللَّهِ أَلَّا يُغْتَوِبُوا غُوبَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَوْدُ رَحْمَةٍ﴾ سببها
رجوعهم إلى الإيمان.
﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب،
وتقليبها من حال إلى حال.

﴿وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ﴾ لا يتعاضده ذنب أن يغفره، ولا يكبر
عليه عيب أن يستره ﴿قُلْ يَكُونُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا
تَقْسِلُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ﴾.

وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين
الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله
الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات المهيجة على عداوة
الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام
وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين وظنوا أن ذلك داخل
فيما نهى الله عنه.

فاخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم فقال: ﴿لَا
يَتَنَبَّهُوا عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَغْنَبْهُمْ فِي الَّذِينَ وَلَّتْهُمُ جَحْدُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ
وَاسِعٌ عَوْدُ رَحْمَةٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: لا ينهاكم الله
عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين
من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم يتنصبوا لقتالكم في
الدين والإخراج من دياركم.

فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلحتهم في هذه
الحالة لا محذور فيها ولا مفسدة ^(٢) كما قال تعالى عن
الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلمًا: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ
أَن تَتَزَكَّىٰ فِي مَآلِكِ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُقْسِمُ لَهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا﴾.

[وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْتَبِهَكُمْ عَلَى الَّذِينَ فَتَنَلَكُمْ فِي الَّذِينَ وَلَّتْهُمُ جَحْدُهُمْ﴾ أي:
لأجل دينكم عداوة لدين الله ولعن قام به.
﴿وَلَا تَنْتَبِهُوا فِي الَّذِينَ وَلَّتْهُمُ جَحْدُهُمْ﴾ أي: عاونوا غيرهم
إغرائكم].

نهاكم الله ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بالمودة والنصر بالقول والفعل.

(١) في ب: والمودة. (٢) في ب: ولا تبعه. (٣) في ب: كان ذلك.

فمن ذهب زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه،
لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق^(٥).

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الْغَيْبَ أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإيمانكم بالله يقتضي
منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ بِبَيْعَتِكُمْ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ
بِإِلَهِكُمْ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يُبَايِعْنَ بِهِنَّ
بِقَرَبَتِكُمْ بَيْنَ الَّذِينَ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَصْنَعْنَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِهِنَّ
وَأَسْتَفْزِرَنَّ لَكُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الشروط المذكورة في
هذه الآية تسمى «بايعة النساء» اللاتي [كن] يبايعن على إقامة
الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والنساء في جميع
الأوقات.

وأما الرجال فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم
وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به.

فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزمن بهذه الشروط
بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن
من التقصير^(٦)، وأدخلهن في جملة المؤمنات بأن ﴿لَا يَشْرِكْنَ
بِإِلَهِكُمْ شَيْئًا﴾ بأن^(٧) يفرذن الله [وحده] بالعبادة.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء .
﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات
الأخذان.

﴿وَلَا يُبَايِعْنَ بِهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ والبهتان:
الافتراء على الغير أي: لا يفتري بكل حالة، سواء تعلق
بهن وأزواجهن^(٨) أو سواء تعلق ذلك بغيرهم.

﴿وَلَا يَصْنَعْنَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر
تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك
طاعتن [لك] في النهي عن النباحة وشق الثياب وخمش
الوجه والدعاء بدعاء^(٩) الجاهلية.

﴿وَقَابِضَهُنَّ﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر.

﴿وَأَسْتَفْزِرَنَّ لَكُمْ اللَّهُ﴾ عن تقصيرهن وتعليقاً لخواطرهن.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى

المذنبين الثائنين.

﴿رَحِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شيء وعم إحسانه البرايا.

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ

الحديث صالح النبي ﷺ المشركين على أن من جاء منهم إلى
المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً
[مطلقاً] يدخل في عمومها النساء والرجال.

فأما الرجال فإن الله لم يَنْهَ رسوله عن ردهم إلى المشركين
وفاء بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح.

وأما النساء فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله
المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق
إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به صدقهن من
أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق
بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف تعين ردهن وفاء بالشرط من غير
حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا
ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن
راعاهما الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط بأن يعطوا الكفار
أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن.

ولاجتناح حيتذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن
أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من
المهر والنفقة.

وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل
للمسلم أن يسكنها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب،
ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا فِي مَتْلُبِهِمْ﴾ وإذا نهى عن
الإمسك بعصمتها^(١)، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى.

﴿وَتَسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجانكم
مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين
نفقة من أسلمت من نسايتهم، استحق المسلمون أن يأخذوا
مقابلة ما ذهب من نسايتهم^(٢) إلى الكفار.

وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا
أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضا أو غيره، كان عليه ضمان
المهر.

وقوله: ﴿لَكُمْ الْحُكْمُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ وَبَيْنَهُ لَكُمْ يَحْكُمُ بِهِ
بَيْنَكُمْ﴾^(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ فيعلم تعالى ما يصلح لكم من
الأحكام ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة^(٤).

وقوله: ﴿وَإِنْ فَانَكُ شَيْءٌ بَيْنَ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكَلْفِ﴾ بأن ذهبن
مرتدات ﴿فَعَابَتُمْ قُلُوبًا الْغَيْرَ﴾ ذَهَبَتْ أَرْزُوقُهُمْ بِشَيْءٍ مَا أَنْفَقُوا﴾ كما
تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهن
إلى المسلمين.

(١) كذا في ب، وفي أ: بعصمتها. (٢) في ب: زوجانهم. (٣) في ب:
وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضعه. (٤) في ب: فيشرعه بحسب حكمته
ورحمته. (٥) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما
أنفق. (٦) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن. (٧) في ب:
بل. (٨) في ب: مع أزواجهن. (٩) في ب: بدعوى.

بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُوا لِمَ تَقُولُونَ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَهُكُمْ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ قُلُوبَهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [آي: ٥] ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: مَوْخَا لَهُمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ وَمَقَرًّا لَهُمْ عَلَى أَذِيهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ: لِمَ تَقُولُونَ؟﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَهُكُمْ﴾.

والرسول من حقه الإكرام والإعظام والانتفاء^(١) بأوامره والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراة والزيف عن الصراط المستقيم الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ أَنْصَرَفُوا عَنِ الْحَقِّ بِقَصْدِهِمْ﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ قُلُوبَهُمْ﴾ عقوبة لهم على زيفهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يليق بهم الخير ولا يصلحون إلا للشر.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ آي: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا^(٢) لهم قصد في الهدى.

ولهذه الآية الكريمة نريد أن إضلال الله لعباده ليس ظلماً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال^(٣) والزيف الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوْ لَوْ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

(٦-٩) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْكُتُبِ وَبَشِيرًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّكُمْ أَجْمَعُونَ جَاءَتْهُمْ يَأْتِيَنَّكَ إِلَى الْإِنْسَانِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَابِهِمْ وَاللَّهُ مُمِرُّ نُورِهِ وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَبِالنُّورِ لِيُظْهِرَ عَلَى الْظُلُمِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يَأْتِيَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ آي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر [وأبديني بالبراهين الظاهرة] ومما يدل على صدقي، كوني ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْكُتُبِ﴾ آي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية.

ولو كنت مدعيًا للنبوّة لجئت بغير ما جاء به المرسلون، ومصداقاً لما بين يديّ من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿وَبَشِيرًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّكُمْ أَجْمَعُونَ﴾ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فغسي عليه الصلاة والسلام كالأنبياء^(٤)، يصدق بالنبي السابق، وببشر بالنبي اللاحق بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشدّ مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى السابق، وببشر بالنبي اللاحق بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشدّ مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمر والنهي.

﴿يَأْتِيَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ﴾ آي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَابِهِمْ﴾ آي: هذا يختر شيئاً، ولهذا من أعجب العجائب.

الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت آيئاً من شمس النهار، يجعل ساحراً بيننا سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم^(٥) من هذا الافتراء الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته لأنه ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ ويبين له ببراهينه وبيئاته.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين لا تردهم عنه موعظة ولا يزرهم بيان ولا برهان.

خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقاولة الحق ليردوه وليصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَابِهِمْ﴾ آي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة التي يردون بها الحق، وهي^(٦) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل.

﴿وَاللَّهُ مُمِرُّ نُورِهِ وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ﴾ آي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة^(٧) نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب - كراهتهم - كل سبب يتوصلون^(٨) به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

(١) في ب: والقيام. (٢) في ب: ليس. (٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال. (٤) في ب: كسائر الأنبياء. (٥) في ب: أبلغ. (٦) كذا في ب، وفي أ: التي. (٧) في ب: وإظهار. (٨) في ب: كل ما قدروا عليه ما يتوصلون.

بالنعيم المقيم.

واتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا نَفْعٌ كَثِيرٌ وَأَن تَرَدُّوا عَلَيْهَا طَعْلًا﴾ .

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله^(٢)، فلهذا قال: ﴿وَيُحَدِّثُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْتِرُكُمُ تَأْنِيهِمْ﴾ بأن تبذلوا نفوسكم ومهجمكم لمصادمة أعداء الإسلام والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته.

وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك ولو^(٤) كان كربها للنفوس شاقاً عليها فإنه «خَيْرٌ لَّكُمْ» إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٥) فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع وسعة الصدر واتساحه. وفي الآخرة الفوز^(٦) بثواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة فقال:

﴿يَغْفِرْ لَكَ ذُنُوبَكَ﴾ وهذا شامل للصغار والكبار فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبار. ﴿وَيُغْنِيكَ عَنْكَ رِزْقِي فِي نَحْيِ الْأَنْهَارِ﴾ أي: من تحت مسكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات. ﴿وَمَسْكَنٌ ظِلٌّ فِي حَقِّ حَقِّ ظِلٍّ﴾ أي: جمعت كل طيب من علو وارتقاء وحسن بناء وزخرفة.

حتى إن أهل الغرف من أهل عليين، يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدرّي في الأفق الشرقي أو الغربي.

وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان حتى إنها من صفاتها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواسفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به.

ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة وأنشأهم
نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح،

وصاروا بمنزلة من ينفخ عين الشمس فيه^(١) ليطفئها، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي
لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا
والآخرة.

﴿وَيَسِّرِ الْحَقَّ﴾ أي: الدين الذي يَدان به ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح وراحة الأبدان.

وترك نواهي سلامة من الشر والفساد^(٧) فما بحث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكيرًا ازداد به فرحًا وتبصرًا.

﴿يُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان.

فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه، ووصار له الظهور والقهر، وأما المستبسون إليه فإنهم إذا قاموا به واستأثروا بنوره واهتدوا بهديه في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان.

وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سب تسلط الأعداء عليهم.

ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين
آخريهم.

(١٠-١٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خَلْ أَوَّلَكُمْ عَلَىٰ عَهْدِ رَبِّكُمْ مِنْ عَذَابٍ
 لَّهُمْ فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ يَلْقَوْنَ فِيهِ رُسُلَهُمْ وَهُمْ يُدْعَوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَذَكَرُوا
 أَنَّ لَهُمْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيَدْعُوكُمْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمِمَّا يُوعَدُونَ فِيهِ أَنْ لَا تَأْخُذَ بِهِمْ فِيهِمْ فِئَةٌ مِنْهُمْ وَلَا فِتْنَةٌ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ وَأَمَّا رُسُلُهُمْ فَجِئُوا بِأَسْمَائِهِمْ
 وَكَانَ اللَّهُ وَفَّقَ قُرْبَىٰ وَكَانَ الْغُيُوبِينَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ذُكِّرُوا بِمَا خَلَقْتُمْ أَنْتُمْ كَمَا
 خَلَقَ إِلَىٰ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لِلْيَحُورِيِّينَ أَنْ خَلَقَ إِلَىٰ آدَمَ قَالَ الْوَارِثِينَ عَنْ أَسَدٍ
 اللَّهُ فَاتَمَّتْ خَلْقُهُمْ مِنْ بَوْتِ إِسْرَافِيلَ وَكَرَّرَتْ خَلْقَهُمْ فَأَلْقَا اللَّهُ أَمْرًا عَلَى
 عَرْشِهِمْ فَاتَّبَعُوا طَائِفَهُ ۝ هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم
 الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة وأجل مطلوب
 أعلى مرغوب يحصل بها النجاة من العذاب الأليم والفوز

(١) في ب: ومثلهم كمثل من يفتخ عين الشمس. (٢) كذا في ب، وفي أ: وترك للنواهي التي تعاطها سبب الشر والفساد. (٣) في ب: التي من أجلها الجهاد في سبيله. (٤) في ب: وإن كان. (٥) في ب: والخير لأخروي بالفوز.

٥٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الصَّفِّ

وَاذْكُرْ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ لَمْ يَكُن لَّهِ كُفْرًا مُّصِداً قُلُوباً
لَمَّا بَدَأَ يَدْعِي مِنَ السَّمَاءِ بِمُوسَىٰ بِأَنَّهُ يَوْمَ عَصَاهُ أَمَرَهُ أَجْمَدُ فَلَمَّا
جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
(٢) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ (٣) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ عَمْرٍأ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٥) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٦)
يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ
طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ
مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِثِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ
قَالَ الْحَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَقَامَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْحَابُ الطَّيِّبِينَ (٩)

﴿فَاصْبِرْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى
والحواريين.

﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد
المؤمنون الكافرين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: قوتانهم، ونصرناهم
عليهم. ﴿فَأَصْحَابُ الطَّيِّبِينَ﴾ عليهم وقاهرين [لهم].

فأتمم يا أمة محمد، كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم
الله كما نصر من قبلكم ويظهركم على عدوكم.
تمت والله الحمد (٨).

فصباحان من لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما
أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده (١).

وتبارك الجليل الجميل الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها
من الجلال والجمال ما يهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى عن له الحكمة التامة التي من جعلها أن الله لو أرى
الخالق الجنة حين خلقها (٢) ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما
تخلف عنها أحد، ولما هنامهم العيش في هذه الدار المنغصة
المشوب نعيمها بألمها وسرورها (٣) بترجها.

وسميت الجنة جنة عدن لأن أهلها مقيمون فيها لا
يخرجون منها أبداً، ولا ييغون عنها حولا، ذلك الثواب
الجزيل والأجر الجميل، الفوز العظيم الذي لا فوز مثله،
فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ
تُحِبُّونَهَا﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي ﴿نَصْرٌ
مِّنَ اللَّهِ﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تسع به دائرة الإسلام ويحصل به الرزق
الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين.

وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد [إذا قام غيرهم
بالجهاد] (٤) فلم يؤسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل
قال: ﴿وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل
على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في
سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة ما بين
كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعداها الله للمجاهدين
في سبيله» (٥).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [أي:]
بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على
إقامته (٦) تنفيذه على الغير، وجهاد من عانده ونايذه، بالابدان
والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق،
بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، تَعَلَّمَ كتاب الله وسنة رسوله، والحث
على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر].

ثم هيج الله المؤمنين بالاعتداء بمن قبلهم من الصالحين
بقوله: ﴿كَأَنَّمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِثِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، أي:
قال لهم عارضا ومنهضا (٧): من يعاونني، ويقوم معي في
نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي، ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُكَ أَكْرَهَ﴾ فمضى عيسى
عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من
الحواريين.

(١) في ب: أحد من خلقه. (٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة. (٣)
في ب: وفرحها. (٤) زيادة من هاشم ب. (٥) في ب: جاء بدلا من
هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً
وبمحمد رسولا، وجبت له الجنة) فغضب لها أبو سعيد الخدري - راوي
الحديث - قال: أعداها علي يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: (وأخرى
يرفع بها المعبود درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء
والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله)
في سبيل الله) رواه مسلم. (٦) في ب: على تنفيذه. (٧) في ب: قال
لهم منها. (٨) في ب: تم تفسيرها، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الجمعة

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِلَّذِي الْحَقُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: يسبح لله، وينقاد لأمره، ويتألهه، ويعبده، جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع ممالكه وتحت تدبيره.

﴿الْقُدُّوسُ﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الفاهر للأشياء كلها ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة، مما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

(٢-٤) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْسَ ضَلَالٍ بَعِثَ فِيهِمْ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَعَلَّاهُمْ يَهْتَفُونَ بِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة، من العرب وغيرهم ممن ليسوا من أهل الكتاب.﴾

فاتمن الله تعالى عليهم منة عظيمة، أعظم من مته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلفون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قوهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء.

فبعث الله فيهم رسولاً منهم، يعرفون نسبه، وأوصافه الجميلة وصفه.

وأُنزل عليه كتابه ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين.

﴿وَزَكِّيهِمْ﴾ بأن يحنهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: علم القرآن^(١) وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين وآخرين.

فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمتاً. اهتموا بأنفسهم، وهدوا غيرهم فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين^(٢)، فلهذا عليهم، يبعثه هذا الرسول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِلَّذِي الْحَقُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْسَ ضَلَالٍ بَعِثَ فِيهِمْ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَعَلَّاهُمْ يَهْتَفُونَ بِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الصَّالَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَعْمَلِ الْجُمَارِ يُحْمَلُونَ أَثْقَارًا بِأَنْفُسٍ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادَوْا إِنْ رَضِعْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ فِي دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّعُوا بِالْمَوْتِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥﴾ وَلَا يَسْمُوْنَ أَبَدًا بِمَا كَفَرُوا بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ فَتَمَنَّوْهُ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِيَ وَسِعَةُ الْعَرْشِ وَاللَّهُ يَبْصُرُ مَا تَكْتُمُ ﴿٦﴾ قُلْ إِنَّ أَوَّلَ الْبَيْتِ الَّذِي يُقْرَأُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكٌ مِنْكُمْ ثُمَّ رَدُّوْهُ إِلَىٰ عَلَيْهِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

﴿أكمل نعمة، وأجل منحة.﴾

وقوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَعَلَّاهُمْ يَهْتَفُونَ بِهِمْ﴾ أي: وامتن على آخرين من غيرهم، أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم، أي: فيمن باشر^(٣) دعوة الرسول.

ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل فكلا المعنيين صحيح.

فإن الذين بعث الله فيهم رسوله، وشاهدوه، وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل، ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، ولهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملًا ولا سدى، بل ابتهت فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك من النعم النبوية.

(١) في ب: علم الكتاب. (٢) في ب: وقادة المتقين. (٣) كذا في ب، وفي أ: باشر.

أَيْدًا يَمَّا قَدَمَتْ أَيْدِيَهُمْ ﴿٥﴾ من الذنوب والمعاصي، التي يستوحشون من الموت من أجلها .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء .

هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون منه [غاية الفرار] فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم .

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة، إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير .

(١١-٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ثَوَدْتُمْ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَيْتِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا كَبِيرًا فَلْيَحْزَنُوا ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوا مِثْلَهُمْ أَتَمًّا وَمَنْ أَلْفَضَهُ عَنْهُ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَيْرٌ لِلْزُّكْرِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة، والمبادرة إليها من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهمّ الاشغال، لا العَدْو الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة .

وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة وامضوا إليها .

فإن ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من أكد الفروض .

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من أثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، ولهذا الأمر بترك البيع، مؤقت مدة الصلاة .

﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة، مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا﴾، أي: في حال قيامكم وقعودكم، وعلى جنوبكم .

﴿لَعَلَّكُمْ تَتْلُونَ﴾، فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح .

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، أي: خرجوا من المسجد، حرصاً على ذلك اللهو، و[تلك] التجارة، وتركوا

(١) في ب: ويعملوا بها . (٢) في ب: علماء أهل الكتاب . (٣) كذا في ب، وفي أ: أو كلهم .

فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية .

(٥-٨) ﴿مَنْ لَمْ يَحْزَنْهُ فَلْيَمْلِكْهُمَا كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَتَحَدَّى لَمَسَ أَشْفَارًا يَنْسِفُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَسْتَوِي أَيْدِيَكُمْ يَمَّا قَدَمَتْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَلَمَوْا أَتَى نَارُورُكُمْ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكُكُمْ ثُمَّ تَرَوُنَّ إِلَى عَالِمِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَخْتَارُ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ لما ذكر الله مته على هذه الأمة الذين ابتعث فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد .

وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون، والأخبار المتقدمون، ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصراني، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بها فيها^(١) وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بها حملوا به أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفاراً من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ .

فهذا مثل علماء اليهود^(٢) الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه، من التوراة إلا الخيبة والخسران، وإقامة الحججة عليه؟ .

فهذا المثل مطابق لأحوالهم .

﴿يَنْسِفُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به .

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، أي: لا يرشدكم إلى مصالحهم، ما دام الظلم لهم وصفاً، والعناد لهم نعتاً .

ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس .

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم، أنكم على الحق، وأولياء الله: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم^(٣) إن لم يتمنوه .

ولما لم يقع منهم، مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عاملون بظلال ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْتَوِي

الخير ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ تخطب الناس، وذلك [في] يوم الجمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة غير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها، وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب.

﴿فَلَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير، وصبر نفسه على عبادة ربه.

﴿غَيْرَ مِنَ اللَّهِ وَمِنَ الْخَيْرِ﴾ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منقص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق.

فإن الله خير الرازيين فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة، فريضتان^(١) يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه.

فدل ذلك على أن كل أمر، ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين^(٢) يوم الجمعة، ودم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو [والتجارات] والشهوات أن يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة، والله الحمد والثناء.^(٣)

تفسير سورة المنافقين^(١)

مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَّقُونَ قَالُوا أَتَشْهَدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ رَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أَعْتَدُوا أَنْتَهُمْ جَنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ثَوَدُوكَ لِّلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا جَاءَكَ الْمُتَّقُونَ قَالُوا أَتَشْهَدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ رَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَّقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾
أَتَّخَذُوا آبَتَهُمْ جَنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا مِنْ جَسَدِهِمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْتَدْرَجُونَ كُلٌّ صِغِيرٌ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوَّ قَادِرِينَ فَاتْلُوهَا إِنَّ يَوْفُوكُونَ ﴿٤﴾

آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾

فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَّقُونَ قَالُوا﴾ على وجه الكذب: ﴿أَتَشْهَدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ﴾، وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب

(١) في ب: فريضة. (٢) كذا في ب، وفي أ: الخطية. (٣) في ب: بمن الله وعونه، والحمد لله رب العالمين. (٤) كذا في النسخين. (٥) في ب: وكثر الإسلام فيها وعز.

والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله.

فإن ﴿الله يعلم إنك لرَسُولُهُ والله يشهد إن الْمُتَنَفِّينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾، أي: ترسا يتربسون بها، من نسبتهم إلى النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حيث أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك، وأوهمو صدقيهم.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي زين لهم النفاق ﴿ب﴾ سبب ﴿أَتَمُّهُمْ﴾ لا يثبتون على الإيمان، بل ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا قَطِيعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبداً.

﴿فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَحَّثُوا تَبَاحُثُهُمْ﴾ من روايتها، ونضارتها.

﴿وَلَا يَقُولُوا سَمِعْنَا قَوْلَهُمْ﴾، أي: من حسن متطعمهم، تستلذ لاستماعه.

فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة، والهدي الصالح شيء، ولهذا قال:

﴿وَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مَنَسَدٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض.

﴿يَتَّبِعُونَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَقُولُ الرَّسُولُ يَأْمُرُ بِفُلٍ كَافٍ فِي الْيَمِينِ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم، وضعف قلوبهم والريب الذي في قلوبهم^(١)، يخافون أن يطلع عليهم.

فهؤلاء ﴿هُرَّ الْمَدَىٰ﴾ على الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز، أهون من العدو، الذي لا يشعر به، وهو مخادع مكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المين.

﴿فَلَا تَدْرِي مَا يَصْنَعُ اللَّهُ إِنَّ أَعْيُنَ النَّاسِ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ أَغْمَاةٌ﴾ يصرفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبينت أدلته، واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم، إلا الخسار والشقاء.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع.

﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن الحق، بغضاً له ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعه بغياً وعناداً.

فهذه حالهم، عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، ولهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفروا لهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّازٍ وَسَمْهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَيَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْفِكَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ يَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ النَّجْمِ الْاِثْنِ عَشَرَ

فإنه سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم فلن يغفر الله لهم؛ وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

(٨٠٧) ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَيَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون وهذا من شدة عدائهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه، واتلافهم، ومصارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ فإنهم - بزعمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله.

عَظِيمَةً ﴿١﴾.

وقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات^(٥)، ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة كبدل المال في جميع المصالح.

وقال: ﴿وَمَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء^(٦) مما رزقهم الله الذي يسره لهم^(٧) ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمشغال ذرة من الخير، ولهذا قال:

﴿وَمَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ يَقُولَ﴾ متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لأتدارك ما فرطت فيه.

﴿فَأَصَدِّكَ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب.

﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره.

ولهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَكُنْ يُؤَخِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المحتمل لها ﴿وَأَنَّهَا حَيَّرَ بِمَا تَكْمُلُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين، والله الحمد.

تفسير سورة التغابن

[وهي] مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿يَسْجِدُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَدُّ وَقَوْلُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ فَكُنْ حَكِيمٌ ۝ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ بِمَا تَكْمُلُونَ يُبَيِّرُ ۝ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَسَوَّوْهُ فَاحْصَنَ صَوْرَهُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ يَقُولُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَعَلَا شَرُونِ وَمَا تُكَلِّمُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ هذه الآيات

ولهذا من أعجب العجب، أن يدعي هؤلاء المنافقون، الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور^(١).

ولهذا قال الله ردّاً لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فيؤتي الرزق من يشاء، ويمتنع من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيتهم: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأصناف بعض كلام، كدر الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم^(٢).

وقال كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال القائل: ﴿عَذِّبْ كَلْبِكَ بِأَكْلِكَ﴾.

وقال: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين، الأعزون، وأن رسول الله ومن معه^(٣) هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا الصنف.

فهذا قال [تعالى]: ﴿وَلِلَّهِ الْغَنَاءُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم الأعراء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار، [هم] الأذلاء.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [ذلك]، فلذلك زعموا أنهم الأعراء، اغتراراً بما هم عليه من الباطل.

ثم قال تعالى:

(٩-١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ يَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَدِّكَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَكُنْ يُؤَخِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَكْمُلُونَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَذَكَّرْ ذَلِكَ﴾، أي: يلهمه ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية، والتعيم المقيم، لأنهم أثروا ما يفنى على ما يبقى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ

(١) في ب: بالحقائق. (٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم. (٣) في ب: سئل كلبك. (٤) في ب: ومن اتبعه. (٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة. (٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء. (٧) في ب: مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ يَلْقَىٰ وَصُورَكُمْ فَاخْتَصَرَ سُوْرَكُمْ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
فَدَّأَوْا بِأَمْثَلِ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُنَّ بِدِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
أَلَمْ يَأْتِكُمْ عَنِ اللَّهِ عَنِّي حَمِيدٌ ﴿٧﴾ زَمِعَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْزِلَ أَهْلَ الْبَلَدِ
لِتُؤْمِنَ ثُمَّ لَنَنْبِتَ لَكُمْ بُرْجًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ حَبِيرٌ ﴿٩﴾ يَوْمَ
يَجْعَلُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَعَمِلَ
صَالِحًا لَنْ يَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠﴾ وَبَدَّلَ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾

[الكريمات] مشتقات على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف
الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته تعالى وسعة غناه،
وافقار جميع الخلائق إليه، وتسيح من في السماوات
والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق
عن ملكه.

والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال،
وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من
الأحكام، وأسداء من النعم.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء
يريده.

وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر،
فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك
منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتكفون من كل ما
يريدون من الأمر والنهي، ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فلما ذكر خلق الإنسان المكلف المأمور المنهي، ذكر خلق
باقي المخلوقات، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي:
أجرامهما، [وجميع] ما فيهما، فأحسن خلقهما.

﴿يَالْحَقُّ﴾ أي: بالحكمة، والغاية المقصودة له تعالى.
﴿وَصُورَكُمْ فَاخْتَصَرَ سُوْرَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

فإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا.

﴿وَاللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على
إيمانكم وكفركم، ويسالكم عن النعم والنعيم الذي
أولاكموه^(١) هل قسمت بشكره أم لم تقوموا بشكره؟.

ثم ذكر عموم علمه، فقال:

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من السرائر
والظواهر، والغيب والشهادة.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بما
فيها من الأسرار الطيبة، والخبائيا الخبيثة، والنيات الصالحة،
والمقاصد الفاسدة.

فإذا كان عليماً بذات الصدور، تعين على العاقل البصير،
أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة،
واتصافه بالأخلاق الجميلة.

(٦٥) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَدَّأَوْا بِأَمْثَلِ أَمْرِهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذلك لأنه كانت تأتيتهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشّر
بهننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله عنّي حميدٌ لما ذكر تعالى من
أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يعرف ويعبد، وبذل الجهد في
مرضاته، وتجنب مساخطه، أخبر بما فعل بالأمم السابقين،

والقرون الماضية، الذين لم تزل أنبأهم، يتحدث بها
المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم
الرسول^(٢) بالحق، كذبوهم وعاندوهم.

فأناقمهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها ﴿وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في [الدنار] الآخرة، ولهذا ذكر السبب في هذه
العقوبة، فقال:

﴿ذَلِكَ﴾ النكال والوبال، الذي أحللتناه بهم بأنهم ﴿كَانَتْ
تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات الواضحات، الدالة على
الحق والباطل، فاشمأزوا، واستكبروا على رسلهم، فقالوا:
﴿أَبَشِّرْهُنَّ بِدِينِكُمْ﴾ أي: فليس لهم فضل علينا، ولاي شيء
خصهم الله دوننا.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ عَلَيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ سُبْحَانَ اللَّهِ
حُجْرًا فَضْلًا وَاللَّهُ وَهَّابٌ عَلِيمٌ﴾ أي: أنبأهم أن يكونوا رسلاً للخلق،
واستكبروا عن الانقياد لهم.

(١) في ب: أولاكم. (٢) في ب: رسلهم.

فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها ﴿كَذَّبُوا﴾ بالله
﴿وَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله .

﴿وَأَسْتَفْتَى اللَّهَ﴾ عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم
شيئاً .

﴿وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ أي: هو الغني، الذي له الغنى التام
المطلق من جميع الوجوه. الحميد في أقواله وأفعاله
وأوصافه .

(٧) ﴿زَمَّ الْإِيْنُ كُفْرًا أَنْ لَا يَعْبُدَ قُلٌّ بَيْنَ رِزْقِ الْيَمِينِ ثُمَّ لَتَنُوبَ يَمًا
عِلْمُهُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين،
وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم، ولا هدى ولا
كتاب منير .

فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم
بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق .

﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنه وإن كان عسيراً بل متعذراً،
بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت ^(١) على إحياء
ميت [واحد] ما قدروا على ذلك .

وأما الله تعالى فإنه إذا أراد أمراً فلإنما يقول له: كن فيكون .
قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي السُّورِ فَصُوبَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِيهَا يُنْظَرُونَ﴾ .

(٨) ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنَّورِ الَّتِي أُنْزِلَتْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ
خَيْرٌ﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم]
موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء،
وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه ^(٢) .

وسماه الله نوراً، فإن النور ^(٣) ضد الظلمة، وما في الكتاب
الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى
بها في ظلمات الجهل المدلّمة، ويمشى بها في حندس الليل
البيهم .

وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم، ضررها أكثر
من نفعها، وشرها أكثر من خيرها .

بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل .
والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين
الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال
الأوامر، واجتناب المناهي ^(٤) .

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، الصالحة
والسيئة .

(١٠، ٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْمَجْزِ ذَلِكَ يَوْمَ النَّفْيِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ
وَعَمَلٍ سَلِيمًا كَفَّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيَجْزِيهِ جَنَّتُ بَقَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا

يَعْنِي: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين
والآخرين، ويفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينبهم بما عملوا .
فحيثما يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع أقوام
إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات،
المشتملة على جميع اللذات والشهوات .

ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل لهم والغم،
والحزن والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم،
وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّفْيِ﴾ .

أي: يظهر فيه التغابن، والتفاوت بين الخلائق، ويغيب
المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء،
وأ أنهم هم الخاسرون، فكانه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح
والشقاء والنعيم والعذاب؟ .

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ﴾ [أي:]
إيماناً تاماً، شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به .

﴿وَعَمَلٍ سَلِيمًا﴾ من الفرائض والتوافل، من أداء حقوق الله
وحقوق عباده .

﴿يُجْزِيهِ جَنَّتُ بَقَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فيها ما
تشبهه الأنفس، وتلد الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه
القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفروا [بها] من غير
مستند شرعي ولا عقلي .

بل جاءتهم الأدلة والبيّنات، فكذبوا بها وعاندوا، ما دلت
عليه .

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْمَصِيرُ﴾ لأنها
جمعت كل يؤس وشدة، وشقاء وعذاب .

(١١-١٣) ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ
بِاللَّهِ يَجِدْ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَكْرَهُ عِلْمٌ ۝ وَيُطِيعُوا اللَّهَ وَيُطِيعُوا الرَّسُولَ
فَلَا تَزِفُ لَكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْكَلِمُ الثَّيْنُ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ
مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ولهذا عام لجميع المصائب، في النفس،
والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم .

فجميع ما أصاب العباد، فيقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك
علم الله تعالى [وَجَرَى بِهِ قَلَمُهُ، وَنَفَذَتْ بِهِ مَشِيئَتُهُ، وَاقْتَضَتْهُ
حُكْمُهُ، وَالشَّانُ كُلُّ الشَّانِ، هَلْ يَقُومُ الْعَبْدُ بِالْوِظْفَةِ الَّتِي عَلَيْهِ

(١) كلما في ب، وفي أ: اجتمعوا . (٢) في ب: الإيمان به، ورسوله،
وكتابه . (٣) في ب: لأن النور . (٤) في ب: التواهي .

في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟

فإن قام بها فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة.

فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم يزعج عند المصائب، كما يجري لمن^(١) لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها^(٢) والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب^(٣) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه.

وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر.

هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾، في مقام المصائب الخاص.

وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن، أي: الإيمان بالمأمور به، من^(٤) الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه، بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد، أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله^(٥)، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار أن المؤمنين يشبههم الله^(٦) في الحياة الدنيا، وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، وبقية عند ورود كل فتنة، فقال:

﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ النَّبِيَّ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمُثَلِّقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله]: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، أي: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله مدار السعادة، وعنوان الفلاح.

﴿إِن تَوَكَّلْتُمْ﴾ [أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿وَإِنَّمَا عَلَى رُسُلِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغاً يبين لكم ويتضح، وتقوم به^(٧) عليكم الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء.

وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل.

﴿وَمَنْ أَتَوْهُ بِظُلْمٍ لَّنْزِيلُهُمْ﴾، أي: فليعتدوا^(٨) عليه في كل أمر ناهيهم، وفيما يريدون القيام به.

فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك^(٩) إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويثق به في كفايته الأمر، الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل^(١٠).

(١٥، ١٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْزَاقٍ وَأَوْلَادِكُمْ عَذَابٌ لَّكُمْ فَأَعِزُّوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَدَّقُوا وَتَقْرَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر من هذا وصفه^(١١)، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد.

فصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة، الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي^(١٢)، ورغبتهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية.

ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال:

﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَدَّقُوا وَتَقْرَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأن الجزء من جنس العمل. فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن عامل الله فيما يجب، وعامل عباده كما يحبون، وينفعهم، نال محبة الله، ومحبة عباده، واستوثق له أمره.

(١) في ب: ممن. (٢) كذا في ب، وفي أ: عتدا. (٣) في ب: من الأجر العظيم. (٤) في ب: وهو. (٥) في ب: في أقواله وأفعاله. (٦) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين. (٧) في ب: بلاغاً يبين واضحاً تقوم. (٨) كذا في ب، وفي أ: يعتدوا. (٩) كذا في ب، وفي أ: لذلك. (١٠) في ب: يكون توكله قوة وضعفاً. (١١) في ب: هذه صفته. (١٢) في ب: التي فيها محذور شرعي.

(١٦-١٨) ﴿فَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَمْرَ الْبَاقِي

خَيْرًا لِّنَفْسِكُمْ وَفِي يَوْمٍ ذُو شَعْنٍ نَّفْسِيهِ. فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِن تَقْرَضُوا أَكْثَرَ مِنَ الْفَقِيرِ فَمَا يَصْنَعُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۝ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَلَيْهِ الْعَقِيبُ وَالشَّهَادَةُ الْغَيْرُ لِلْعَلَمِ ۝ يَأْمُرُ تَعَالَى بِتَقْوَاهُ، الَّتِي هِيَ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، واجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ، وَبِقِيْدِ ١) ذَلِكَ بِالْإِسْطَاعَةِ وَالْقُدْرَةِ.

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر.

وقوله: ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك، وانقادوا له ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله في جميع أموركم.

﴿وَأَنفِقُوا﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى، وقبول نصائحه، والالتزام لشريعته، والشر كله في مخالفة ذلك.

ولكن تم آفة تمنع كثيراً من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله شر شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإففاق النافع لها ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأنهم أدرکوا المطلوب، ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه.

فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منشرة لشرع الله، طالبة لمرضاة الله، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها والبصيرة، بأنه مَرْضِيٌّ لله تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

ثم رغب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إِن تَقْرَضُوا أَكْثَرَ مِنَ الْفَقِيرِ فَمَا يَصْنَعُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۝ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَلَيْهِ الْعَقِيبُ وَالشَّهَادَةُ الْغَيْرُ لِلْعَلَمِ ۝ يَأْمُرُ تَعَالَى بِتَقْوَاهُ، الَّتِي هِيَ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، واجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ، وَبِقِيْدِ ١) ذَلِكَ بِالْإِسْطَاعَةِ وَالْقُدْرَةِ.

﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك، وانقادوا له ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله في جميع أموركم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِرِ ۝ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَدْفَعِ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ آيَاتِنَا مِن آيَاتِنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا فَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ فَتَنَةُ اللَّهِ وَعِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ فَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُؤْفَ شَيْءٍ نَّفْسِيهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِن تَقْرَضُوا أَكْثَرَ مِنَ الْفَقِيرِ فَمَا يَصْنَعُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۝ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَلَيْهِ الْعَقِيبُ وَالشَّهَادَةُ الْغَيْرُ لِلْعَلَمِ ۝ يَأْمُرُ تَعَالَى بِتَقْوَاهُ، الَّتِي هِيَ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، واجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ، وَبِقِيْدِ ١) ذَلِكَ بِالْإِسْطَاعَةِ وَالْقُدْرَةِ.

سُورَةُ الْاِنْفِاقِ

والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والחסنات: ﴿إِنَّ الْمَسْكَتَ يَدْفَعُ الْخَطِيئَةَ﴾.

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ حليم لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يهمله.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَكِنْ يَرْحَمُهُمْ إِلَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر.

ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وناء^(٢) بالتكاليف الثقال، ومن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

﴿عَلَيْهِ الْعَقِيبُ وَالشَّهَادَةُ﴾، أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات ﴿الْغَيْرُ﴾ الذي لا يغالب، ولا يمانع الذي قهر كل الأشياء.

(١) في ب: وقيد. (٢) في ب: وأنواع التكاليف.

﴿لَكُمْ﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.
تم تفسير سورة الثغابن [وله الحمد].

تفسير سورة الطلاق

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحَةٍ مُبِينَةٍ وَبِذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُعَدِّدْ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغَ الْأُمُورُ أَقْسَامُهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ تُخْرَجُونَ مِنْ دُونِ عَدْلٍ مَنَكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُنْتُمْ تُوعَظُ بِهِ مِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَنَزَلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول تعالى - مخاطبًا لنبيه ﷺ وللمؤمنين -:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، أي: أردتم طلاقهن التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق، من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.

بل ﴿طَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها، وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة.

بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحسب بتلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك. وكذلك لو طلقها في طهر وطىء فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يبين، ولا يتضح بأي عدة تعتد؟

وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت حيض، أو بالأشهر، إن لم تكن حيض، وليست حاملًا. فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، [وحقها في النفقة ونحوها].

فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها.

ولهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه [للزوج^(١)] وللمرأة، إن كانت مكفلة، وإلا فلوليها.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات.

ف﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ مدة العدة، بل يلزم

سُورَةُ الطَّلَاقِ

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحَةٍ مُبِينَةٍ وَبِذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُعَدِّدْ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغَ الْأُمُورُ أَقْسَامُهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ تُخْرَجُونَ مِنْ دُونِ عَدْلٍ مَنَكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُنْتُمْ تُوعَظُ بِهِ مِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَنَزَلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ قَدْ بَلَغَ أَمْرُهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا ۖ وَالَّذِي يُسَنَّ مِنَ الْمَحْضِ مِنْ سَائِرِ الْأُمُورِ أَنْ يَرْتَدَّ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۖ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۖ

يؤنهن^(٢) الذي طلقها زوجها وهي فيها.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، أي: لا يجوز لهن الخروج منها.

أما النهي عن إخراجها، فلأن^(٣) المسكن يجب على الزوج للزوجة^(٤)، لتكفل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه. وأما النهي عن خروجها فلما في خروجها، من إضاعة حق الزوج، وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت، والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحَةٍ مُبِينَةٍ﴾، أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لخاطرها، ورقق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها^(٥)، ولهذا في المعتدة الرجعية.

(١) زيادة من هامش ب: (٢) في ب: بل تلزم بيتها. (٣) كذا في ب، وفي أ: فإن. (٤) كذا في ب، وفي أ: يجب للزوجة عليه. (٥) في ب: عليها.

تعالى يتقوا وأن^(١) من اتقاء في الطلاق وغيره فإن الله يجعل له فرجاً ومخرجاً .

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلاقاً واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ^(٢) فيه، فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعة، يتمكن فيها من مراجعة النكاح^(٣)، إذا ندم على الطلاق .

والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يبيح في الدنيا والآخرة .

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة .

وكما أن من اتقى الله، جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والآصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها، والخروج من تبعتها .

واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة، لا يمكنه استدراكها^(٤)، والخروج منها .

وقوله: ﴿وَرِزْقَةً مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه، ولا يشعر به .

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفاية الغني القوي، [العزيز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء .

ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له، فلهذا قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَجْهًا مِّنْهُ﴾، أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره . ولكنه ﴿فَدَّ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَجْهًا مِّنْهُ﴾، أي: وقتاً ومقداراً لا يتعداه، ولا يقصر عنه .

(٥، ٤) ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْمَسْكِينِ إِنِّي أُبْخِبُهُمْ فِي يَوْمٍ ذِكْرًا أَسْخَرُ لَكَ أَشْهَارًا وَآلَتِي لَرَّ يَحْضَرُونَ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَتْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِّنْ أَمْوَالِهِ يُشْرَكَ ۚ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيُغْلِّظْ لَهُ أَجْرًا﴾ لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به، يكون لعدة النساء، ذكر تعالى

وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تنج للنفقة، والنفقة تجب للرجعة دون البائن .

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [أي:] التي حدها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها، والوقوف معها .

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها .

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، أي: بخسها حظها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة .

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة .

فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها، لانقضاء سبب الطلاق .

ومن الحكم: أنها مدة التريص، يعلم براءة رحمها من زوجها .

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ﴾، أي: إذا قارب انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفرار .

﴿فَأَمَّا كُفْرُكُمْ﴾ أي: على وجه المعاشرة [الحسنة] والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار، وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز .

﴿أَوْ فَارِشَتُهُنَّ يَمْشُرُهُنَّ﴾، أي: فرافقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا فهرلها على أخذ شيء من مالها .

﴿وَأَشْهَدُوا﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذَوَى عَدْلٍ يَنْبَغُ﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور سداً لباب المخاصمة، وكنمان كل منهما، ما يلزمه بيانه .

﴿وَأَقِيمُوا﴾ أيها الشهداء ﴿الْكَهْنَءَ لِلَّهِ﴾، أي: اثبتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص .

واقصدوا بإقامتها، وجه الله وحده^(١)، ولا تراعوا بها قريباً لقربته، ولا صاحباً لمحبتها .

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿يُوعِظُ بِهٖ مَنْ كَانَ يَوْمًا بِإِلَهِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوجب له ذلك^(٢) أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لأخوته من الأعمال الصالحة، ما تمكن منها .

بخلاف من ترحل الإيمان عن قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله، لعدم الموجب لذلك . ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر

(١) في ب: وجه الله تعالى . (٢) في ب: فإن الإيمان بالله واليوم الآخر يوجب لصاحبه . (٣) في ب: ووعد من . (٤) في ب: ولا طهر أصابها فيه . (٥) في ب: يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح . (٦) في ب: لا يتمكن من استدراكها .

أنزله على رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلى نور العلم والإيمان والطاعة.

فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن [به].
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَتَوَلَّ سَلَامًا﴾ من الواجبات والمستحبات.
﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿حَالِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ كَسَنَ اللَّهُ لَهُمْ زُفًى﴾ [أي:] ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

(١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِئَلَّا تُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [ثم] أخبر [تعالى] أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهما، وأنزل الأمر هو: الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد وعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقديرية، التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء.

فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة، وأسمائه الحسنى، وعبدوه، وأحبره، وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته.

فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

[ثم تفسيرها والحمد لله].

تفسير سورة التحريم

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ تُحِبَّ مَا آتَى اللَّهُ لَكَ تَتَّبِعْ مَرَاحَ زَوْجِكَ وَأَلَّهُ غُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد قرأ الله لك حجة أيمانكم والله مولدكم وهو أعلم لكمكم ○ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما بثت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما بثها به قالت من أنبأك هذا قال نبيك الأنبياء الحبيب ○ إن نواي إلى الله فقد صحت قلوبكم وإن ظاهراً عليه فإن الله هو مولدكم وجبريل وصليح المؤمنين

(١) في ب: فترضع له أخرى. (٢) في ب: لا خروج له منه. (٣) في ب: يتمكن. (٤) في ب: تغن عنهم.

فلترضع^(١) ﴿لَهُ أَزْوَاجٌ غَيْرُهَا﴾ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ إِنْ سَلَّمْتُمْ مَا مَاتُمْ بِالْمَرْوَةِ﴾.

وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه، تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجره المثل، إن لم يتفقا على مسمى.

وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه^(٢)، عيّن تعالى على وليه النفقة.

فلما ولد، وكان يمكن^(٣) أن يتقوت من أمه، ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه، كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقاً لقوته.

ثم قدر تعالى النفقة بحسب حال الزوج، فقال: ﴿يُثْبِتُ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ﴾، أي: لينفق الغني من غناه، فلا يتفق نفقة الفقراء.

﴿وَمَنْ قُودِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾، أي: ضيق عليه ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق.

﴿لَا يَكُنْ لِلَّهِ نَفْسٌ إِلَّا مَا آتَاهُ﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلأ بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ○ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

(٨-١١) ﴿وَلَقَدْ يَمَنُّ رَبِّيَ عَنَّا عَن لَّيِّبٍ وَرُؤُوسِهِ فَكَسَبَتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَابًا عَذَابًا لَّكَ ○ قَدَافَتْ وَيَالِ أَرْيَا وَكَانَ عَيْبُهُ أَرْيَا عُسْرًا ○ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْكُلُوا مِنَ الْأَكْبَابِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا ○ رَسُولًا بَلَّغًا عَلَيْكُمْ وَأَلَيْتُ اللَّهُ مُبْتَلِي لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَكْفُرُوا الْفَاسِقِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ إِلَى الْتَوَرُّ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ سَلَامًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ حَالِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ كَسَنَ اللَّهُ لَهُمْ زُفًى﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسول، أن كثرتهم وقوتهم، لم تنفعهم^(٤) شيئاً، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة.

ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم في الآخرة عذاباً شديداً.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْكُلُوا مِنَ الْأَكْبَابِ﴾، أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين. ثم ذكر عباده المؤمنين، بما أنزل عليهم من كتابه، الذي

يدخل^(٥) تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

وصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال:

﴿وَوَدَّعَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَشَدُّ لَهَا كَرَاهٍ وَرِيذِينَ﴾.

﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتٌ غِلَظٌ شِدَادٌ﴾، أي: غليظة أخلاقهم، عظيم^(٦) انتهارهم يفزعون بأصواتهم ويخيفون^(٧) بمرأهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمثلون^(٨) فيهم أمر الله، الذي حُتِمَ عليهم العذاب^(٩)، وأوجب عليهم شدة العقاب. ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

(٧) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْيَوْمَ إِنَّمَا يُجْرَوْنَ مَا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْيَوْمَ﴾ [أي:] فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال. وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه.

(٨) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا نُورًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَنِ رَبِّكَ أَنْ يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَبِأَنفُسِهِمْ يَمْشُونَ رُشْدًا أَنِمْ لَنَا نُورًا وَآفِئَةً لَّنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضياها، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفت الأنوار التي تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتمم^(١٠) لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما^(١١) معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه^(١٢)، والقرب منه،

هؤلاء أعوانه^(١٣)، فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخدول^(١٤).

وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة] وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى. ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال:

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَبْلُغَهُ أَرْوَاحُ عَذَابٍ يَمُوتُونَ﴾، أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يبق^(١٥) عليه الأمر، ولم يكن مضطراً إليكن، فإنه سيلقى^(١٦)، ويبدله الله أزواجاً خيراً ممنكن، ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده.

فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، ﴿يَتَّبِعْتِ﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله. ﴿يَتَّبِعْتِ وَتُكَذَّرُ﴾، أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع^(١٧) فيما يحب.

فلما سمعن - رضي الله عنهن - هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطقياً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه، دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

(٦) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قَوْماً أَنفُسُهُمْ وَأَعْلِيكُم نَارًا وَوَدَّعَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيَّاءَ مَلَكُوتٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: يا من آمن الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

﴿قَوْماً أَنفُسُهُمْ وَأَعْلِيكُم نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله، ويوجب العذاب.

وقاية الأهل [والأولاد] بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله.

فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما

(١) في ب: أنصاره. (٢) في ب: وغيره أن يناوئه فهو مخدول. (٣) في ب: لا يضيّق. (٤) في ب: سجد. (٥) في ب: وقمن يدخل. (٦) في ب: شديد. (٧) في ب: ويزرعون. (٨) في ب: ويقفون. (٩) في ب: بالملاب. (١٠) في ب: يتم. (١١) في ب: بما. (١٢) في ب: إلا وجهه الله.

ويستمر عليها في جميع أحواله.

(٩) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَنْهَاهُمْ جِهَتَهُمْ وَيَسْأَلُ الْمَصِيرُ﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة [عليهم، ودعوتهم] بالموعظة الحسنة^(١)، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال، لمن أبى أن يجب دعوة الله، ويقاد لحكمه، فإن لهذا يجاهد ويغلظ عليه.

وأما المرتبة الأولى، فتكون بالتي هي أحسن.

فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله، وحزبه [عليهم، وأعلى جهادهم وقتالهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليه كل شقي خاسر.

(١٠-١٢) ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٌ زُوجٌ لُوْطٍ كَانَتْ تَحْتِ عَيْنَيْهِ مِنْ عِبَادِكَا صَالِحَتَيْنِ فَتَاٰهُمَا فَلَمْ يُغَيَّا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الْفَٰظِلِينَ ۝ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتٌ زُوجٌ لِفِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي لِي فِي عِنْدِكَ بِتْنَىٰ فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ۝ وَرَبِّمُ الْبَنَاتِ عِمْرَنَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ ۝ هَٰذَا الْمَثَلَانِ اللَّذَانِ ضَرَبَهُمَا اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، لِيَبَيِّنَ لَهُمْ أَنْ اتِّصَالَ الْكَافِرِ بِالْمُؤْمِنِ، وقربه منه، لا يفيد شَيْئًا، وأن اتِّصَالَ الْمُؤْمِنِ بِالْكَافِرِ، لا يضره شَيْئًا، مع قيامه بالواجب عليه.

فكان في ذلك إشارة وتحذيرًا لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتِّصَالَهُنَّ بِهِ ﷺ لا يتفهم شَيْئًا مع الإساءة، فقال:

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٌ زُوجٌ لُوْطٍ كَانَتْ تَحْتِ عَيْنَيْهِ مِنْ عِبَادِكَا صَالِحَتَيْنِ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿فَتَاٰهُمَا﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، ولهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيًا.

﴿فَلَمْ يُغَيَّا عَنْهُمَا﴾ أي: نوح ولوط ﴿عَنْهُمَا﴾، أي: عن امرأتيهما ﴿بَيْنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ﴾ لهما: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الْفَٰظِلِينَ﴾.

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتٌ زُوجٌ لِفِرْعَوْنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي لِي فِي عِنْدِكَ بِتْنَىٰ فِي

بَنَاتِهَا

٥٦١

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثَبُّوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَفْصًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْهَاهُمْ جِهَتَهُمْ وَيَسْأَلُ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٌ زُوجٌ لُوْطٍ كَانَتْ تَحْتِ عَيْنَيْهِ مِنْ عِبَادِكَا صَالِحَتَيْنِ فَتَاٰهُمَا فَلَمْ يُغَيَّا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الْفَٰظِلِينَ ﴿١٠﴾ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتٌ زُوجٌ لِفِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي لِي فِي عِنْدِكَ بِتْنَىٰ فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَرَبِّمُ الْبَنَاتِ عِمْرَنَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ ﴿١٢﴾

الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾.

فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم.

فاستجاب الله لها، فعاتت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «أكمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

[وقوله: ﴿وَرَبِّمُ الْبَنَاتِ عِمْرَنَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانته، وعفتها، ونزاهتها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا﴾، بأن نفخ جبريل [عليه السلام] في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى

(١) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحجة والموعظة الحسنة.

الكوالكب فيها .

﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾، أي: المصاييح ﴿رُجُومًا لِلَّذِينَ﴾ الذين يريدون استراق خبر السماء .

فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب، التي ترمى من النجوم، أَعَدَّهَا الله في الدنيا للشياطين .

﴿وَأَعَدَّاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فلهمذا قال :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَثَسَّ الْمَصِيرُ﴾ التي يهان به أهله ^(١)، غاية الهوان .

﴿إِذَا أُنْفِثُوا﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿يَتِيمًا لِّمَا شَاءَ﴾، أي: صوتًا عاليًا فظيماً .

﴿تَكَادُ كُمُوتٌ مِّنَ الْعَيْظِ﴾، أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها!!

ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كُلَّمَا أُنْفِثَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟﴾ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها .

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾، فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله .

ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً، فأثَّ عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟ .

﴿وَقَالُوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإثبات الخير، والانتزاج عن كل ما عاقبه ذميمة، فلا سمع [لهم]

ولا عقل .

وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً .

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر .

وهم - في الإيمان - بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من

سُورَةُ الْمَلِكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي يَدْرَأُ الْمُلُوكَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُوفُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبُحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعَدَّاهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَثَسَّ الْمَصِيرُ ۝ إِذَا أُنْفِثُوا فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْرِضْ فَأَبْذَلْنَاهُمْ فَأَصْحَابُ السَّعِيرِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝

يشاء، ويسم على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير .

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم :

(١١) ﴿فَاعْرِضْ فَأَبْذَلْنَاهُمْ فَأَصْحَابُ السَّعِيرِ﴾، أي: بُعِدَا لهم وخسارة وشقاء .

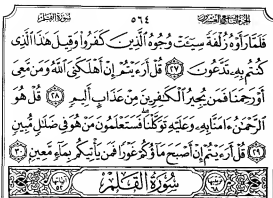
فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم! .

(١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر حالة السعداء الأبرار ^(١)، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به ^(٢) .

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم وقاهم

(١) في ب: التي يهان بها أهلها . (٢) في ب: ذكر وصف الأبرار السعداء . (٣) في ب: ولا يقصرون عما أمرهم به .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِمَعْنَى رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾
 وَإِنَّكَ لَكَلَّاخِرٌ مِّنْهُمْ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾
 فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِيعِ
 الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَذَوُ الْأَوْدَانِ فِيْ قَيْدِهِنَّ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِيعِ كُلَّ
 حَلَّافٍ مِّهينٍ ﴿١٠﴾ هَمَزَ تَشَامُ بِنِيسَمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٌ لِلْفَخْرِ مَعْتَدٍ
 أَيْسَرُ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْسَرُ ﴿١٣﴾ أَنَّ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
 ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّاهُ عَلَيْهِ إِسْنَانًا فَالْكَاسُطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

وذلك أن القلم، وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها، على براءة نبيه محمد ﷺ، مما نسب إليه أعداؤه من الجنون، فنفى عنه الجنون^(١) بنعمة ربه عليه، وإحسانه، حيث منَّ عليه بالعقل الكامل، والرأي الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، ولهذا هو السعادة في الدنيا. ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَكَلَّاخِرٌ﴾ أي: عظيماً، كما يفيدُه التثكير، ﴿عَبْرٌ مَّثُونٌ﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر.

وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة.

ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عالياً به، مُسْتَعْلِياً بخلقك الذي منَّ الله عليك به.

وحاصل خلقه العظيم ما فسره به أم المؤمنين [عائشة رضي الله عنها] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»،

(١) في ب: إنكم. (٢) في ب: أميتكم. (٣) في ب: تم تفسير سورة الملك، والحمد لله. (٤) في ب: عنه ذلك.

لهم: أنتم^(١) وإن حصلت لكم أمانيتكم^(٢)، وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك نافع لكم شيئاً، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتهم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟.

فإذا، تعبك وحرصكم على هلاكي غير مفيد ولا مُجْدٍ عنكم شيئاً، ومن قولهم: إنهم على هدى، والرسول على ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقتلوا.

فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله، وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿وَأَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة.

ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفة على التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

فإذا كانت هذه حال الرسول، وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان [لهم] ولا توكل، علم بذلك من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبين.

ثم أخبر عن انفراده بالنعمة، خصوصاً بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حياً، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾، أي: غائراً ﴿فَلَنْ يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ يَمِينٍ﴾ تشربون منه، وتستقون أنعامكم، وأشجاركم، وزروعكم؟.

ولهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدر أحد على ذلك، غير الله تعالى.

تمت والله الحمد^(٣).

تفسير سورة ن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ○ مَا أَنتَ بِمَعْنَى رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ○
 وَإِنَّكَ لَكَلَّاخِرٌ مِّنْهُمْ ○ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ○ فَسَتُبْصِرُ
 وَيُبْصِرُونَ ○ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ○ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
 وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ○ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل
 للأقلام التي تكتب بها [أنواع] العلوم، ويسطر بها المشور والمنظوم.

التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال:

﴿وَوَإِذَا أُنذِرَ الْبَشَرُ مِنْكُمْ قَوْلًا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ أي: المشركون ﴿تَوَّابُونَ﴾ أي: توافقه على بعض ما هم عليه، إما بالقول، أو بالفعل، أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه.

﴿يَكْفُرُونَ﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره ينقض ما يصاده، وعيب ما يناقضه.

﴿وَلَا تَطْعَمُ كُلُّ سُلَاطَةٍ﴾ أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب.

ولا يكون كاذباً، إلا وهو ﴿مُهَيِّئٌ﴾، أي: خسيس النفس، ناقص الحكمة، ليس له همة^(٣) في الخير، بل إرادته في شهرات نفسه الخسيسة.

﴿هَازِئٌ﴾ أي: كثير العيب [للناس] والطعن فيهم^(٤)، بالغبية والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿سَمَّاءٌ وَيَسِيرٌ﴾، أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهي نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصص الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء.

﴿مُنَاجٍ لِلنَّارِ﴾ الذي يلزمه القيام به من التفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿مُتَمَتِّعٌ﴾ على الخلق في ظلمهم في الدماء والأموال والأعراض^(٥) ﴿أَنِيمٌ﴾، أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس، غير منقاد للحق. ﴿زَبِيرٌ﴾ أي: دعي، ليس له أصل ولا مادة ينتج منها الخير، بل أخلاقه أفح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زمة، أي: علامة في الشر يعرف بها.

وحاصل هذا، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سيء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، بالغبية والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين - كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: ﴿إِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ○ إذا تَنَلَّ عَلَيْهِ مَا نَشَأُ قَالِ اسْتَطِيرَ الْأَزْوَاجُ ○ أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله

وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿حُدِّثُوا عَنْ آلِهَتِكُمْ وَأَكْرَبُوا عَنْ الْمَسْكُونَاتِ﴾ ﴿فَمَا رَسَبُوا مِنْ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ [الآية] ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، و[الآيات] الحاثات على الخلق العظيم^(١)، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا.

فكان ﷺ سهلاً ليناً، قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً حاجة من استقصاه، جابراً لقلب من سأل، لا يحرمه، ولا يرده خائباً.

وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقههم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم.

وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جلساً له، إلا أتم عشرة وأحسنها: فكان لا يعس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشرته، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَبِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ○ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ○ وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس، [وشر الناس]^(٢) للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلواهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه المحاسب المجازي.

و ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ﴾، وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية دون غيره.

(٨-١٦) ﴿فَلَا تَطْعَمُ كُلُّ سُلَاطَةٍ﴾ ○ ﴿وَوَإِذَا أُنذِرَ الْبَشَرُ مِنْكُمْ قَوْلًا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ○ ﴿وَلَا تَطْعَمُ كُلُّ سُلَاطَةٍ﴾ ○ ﴿هَازِئٌ وَيَسِيرٌ﴾ ○ ﴿مُنَاجٍ لِلنَّارِ﴾ ○ ﴿مُتَمَتِّعٌ بِمَا يُكَفِّرُ﴾ ○ ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَبِيرٌ﴾ ○ أن كان ذا مَالٍ وَبَنِينَ ○ إذا تَنَلَّ عَلَيْهِ مَا نَشَأُ قَالِ اسْتَطِيرَ الْأَزْوَاجُ ○ سَبِّحْ عَلَى الْأَرْوَاحِ ○ يقول الله تعالى لبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَطْعَمُ كُلُّ سُلَاطَةٍ﴾ الذين كذبوك، وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالمطيع لهم مُقَدِّمٌ على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن

(١) في ب: على كل خلق جميل. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: ليس له رغبة. (٤) كذا في ب، وفي أ: في الناس. (٥) في ب: يظلمهم في دعائهم وأموالهم وأعراضهم.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٥٦٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ

سَمِعْتُمْ عَلَى الْمَرْطُورِ ﴿١٧﴾ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا
لَيْسَ مِنْهَا مَصْرُوعٌ ﴿١٨﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٩﴾ فَطَافَ عَلَيْهِ طَافٌ مِنْ رَبِّكَ
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢١﴾ فَتَنَادَى مَصْرُوعٌ ﴿٢٢﴾ أَنْ
اعْبُدُوا عَلَى حَرْوِكُمْ كَمَا صَرِمِينَ ﴿٢٣﴾ فَأَطْلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٤﴾
أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْهِمْ كَرْسِيَّيْنِ ﴿٢٥﴾ وَعَدُوا عَلَى حَرْوَقَدِيدٍ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿٢٧﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلِئِنْ
لَكُنَّا لَأَنسِيحُونَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَجْبَلْ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْنَهُ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا لَنَافِلُكُمْ طَائِعِينَ ﴿٣٢﴾ عَسَى
رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٣﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنْتُ النَّعِيمِ
﴿٣٥﴾ أَفَتَجْمَلُ السَّيِّئِينَ كَالْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَأَنبَاءً خَيْرًا ﴿٣٩﴾ أَمْ لَكُمْ أَعْيُنٌ
عَلَيْهَا بَلَافُغَةٌ ﴿٤٠﴾ الْيَوْمَ يَقِظُوا لَكُمْ لَوْ كُنَّا نَحْكُمُونَ ﴿٤١﴾ سَلَامٌ أَيْهِمْ
بِذَلِكَ رِيعٌ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَمْ تَرَ كَيْفَ تَفْلِتُوا إِذْ بَشَرْتُمْ أَنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤٣﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيَذْعَبُونَ عَلَى الشَّجَرِ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٤﴾

من الحيرة والانزعاج: ﴿إِنَّا لَنَافِلُكُمْ طَائِعِينَ﴾ [أي: نائهن] عنها،
لعلها غيرها.

فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ﴾ منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة.

ف﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدلهم، وأحسنهم طريقة: ﴿أَلِئِنْ
لَكُنَّا لَأَنسِيحُونَ﴾ أي: تنزهوا الله عما لا يليق به، ومن ذلك
ظنكم أن قدرتكم مستقلة، فلو لا استئنيتم، فقلتم: ﴿إِنْ شَاءَ
اللَّهُ وَجَعَلْتُمْ مَشِيَّتَكُمْ تَابِعَةً لِمَشِيئَةِ اللَّهِ، لَمَا جَرَى عَلَيْكُمْ مَا
جَرَى.

ف﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أي: استدركوا بعد
ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم الذي لا يرفع.

ولكن لعل تسييحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم،
يفضعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندعوا ندامة
عظيمة.

﴿فَأَجْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْنَهُ﴾ فيما أجروه وفعلوه، ﴿قَالُوا

(١) في ب: على الخرطوم. (٢) في ب: من حيث لا يعلمون. (٣) في
ب: لها.

من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها
عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية
الخلق كله، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل
بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتوضح
به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في
القضايا العامة.

ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه
على خرطومه^(١) في العذاب، ليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه
سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

(١٧-٣٣) ﴿إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لَيْسَ مِنْهَا
مَصْرُوعٌ وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ فَطَافَ عَلَيْهِ طَافٌ مِنْ رَبِّكَ وَمَنْ نَائِمُونَ إلى آخر
القصة. يقول تعالى: إِنَّا بَلَوْنَا هَؤُلَاءِ الْمَكِيدِينَ بِالْخَيْرِ،
وَأَمْهَلْنَاهُمْ، وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِمَا شِئْنَا مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ وَطُولِ عَمَرٍ،
وَنَحَرُ ذَلِكَ، مِمَّا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، لَا لِكْرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا، بَلْ رُبَّمَا
يَكُونُ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ، مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ^(٢).

فاغترارهم بذلك، نظير اغترار أصحاب الجنة، الذين هم
فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وَأَنْ وَقْتُ
صَرَامِهَا، وَجَزَمُوا أَنَّهَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَطَوَّعَ أَمْرَهُمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ
تَمَّ مَانِعٌ يَمْنَعُهُمْ مِنْهَا.

ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصبرونها،
أي: يجذونها مصحين.

ولم يدروا أَنَّ اللَّهَ بِالْمُرْصَادِ، وَأَنَّ الْعَذَابَ سِيخْلِفُهُمْ
عليها، ويبادهم إليها.

﴿فَطَافَ عَلَيْهِ طَافٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وَهُمْ
نَائِمُونَ﴾، فأبادها، وأتلفها ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، أي: كالليل
المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا
الواقع الملم، ولهذا تادوا فيما بينهم لما أصبحوا، يقول
بعضهم لبعض:

﴿اعْبُدُوا عَلَى حَرْوِكُمْ كَمَا صَرِمِينَ﴾ فَأَطْلَقُوا قاصدين له^(٣)
﴿وَمَنْ يَتَخَفَتُونَ﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون:
﴿لَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْهِمْ كَرْسِيَّيْنِ﴾، أي: بكروا قبل انتشار الناس،
وتواصوا مع ذلك بمنع الفقراء والمساكين.

ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام
مخافتة، خوفاً أَنْ يسمِعَهُمْ أَحَدٌ، فيخبر الفقراء.

﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْوَقَدِيدٍ﴾ وفي هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة
﴿عَلَى حَرْوَقَدِيدٍ﴾ أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين
بقدرتهم عليها.

﴿لَمَّا رَأَوْهَا﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿قَالُوا﴾

(٤٢، ٤٣) ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنْ سَائِقِي وَيَقْنَعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۚ خِصَمَةً لِّسُرْمِهِمْ تُعَفِّهُمُ ۚ إِنَّهُمْ وَقَفَؤُا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ وَمَنْ سَلَوْنَ ۚ﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلائل [والزلازل] والأحوال، ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده، ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة، التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحيث دعوا إلى السجود لله.

فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدر على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء.

وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله، وتوحده وعبادته، وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم، وسوء ما لهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة.

ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، [ويوجب] التدارك مدة الإمكان. ولهذا قال تعالى:

(٤٤-٥٢) ﴿فَذَرِي مَنْ كَذَّبَ بِهَذَا الْكُذُوبِ ۖ يَهْدَىٰ لَهُمْ سَبِيلُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْلَمُونَ ۚ وَآتَىٰ قَوْمًا إِنْ كَذَّبُوا بِئْسَ ۖ أَمْ تَشَاهَدُهُمْ بِمَا هُمْ فِي مَقَرٍّ مُّتَقَرِّينَ ۚ أَمْ يَدْعُهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ۚ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْاُخْرَىٰ إِذْ كَانَتْ تَكْفُرُ بِمَا يَكْفُرُونَ ۚ وَلَوْلَا اَنْ تَذَكَّرْكَ يَمُنُّ مِنْ رَبِّهِ لَإِنَّكَ بِالْغَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۚ فَاصْبِرْ لَهُمْ فَعَمَلُهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُتَّقِينَ ۚ كَذَرْنَا لِمَنْ يُرِيدُكَ الْبَاسَ بِرَحْمَةٍ لِّمَا كَانُوا يُكْفَرُونَ ۚ وَتَا هُوَ إِلَّا وَكَرَّ لِلْعَاقِلِينَ ۚ﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن عليّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم، ف﴿سَتَجِدُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْلَمُونَ﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغترروا، ويستمرروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه متين قوي، يبلغ من ضرهم وعدايبهم فوق كل مبلغ^(١).

﴿أَمْ تَشَاهَدُهُمْ بِمَا هُمْ فِي مَقَرٍّ مُّتَقَرِّينَ﴾، أي: ليس لنفوسهم عنك، وعدم تصديقهم لما جنت به، سبب يوجب لهم ذلك،

يَوْمَئِذٍ إِنَّهَا كَتَا لَيْنِ، أي: متجاوزين للمحد في حق الله، وحق عباده.

﴿عَنِ رَبِّكَ أَنْ يَبْدِكَ عَيْنًا يَنْهَا إِلَٰهًا رَبَّنَا رَهْبُونُ﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا.

فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها؛ لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤاله. قال تعالى مبيهاً^(٢) ما وقع: ﴿كَذَلِكَ التَّنَادُّ﴾، [أي:]

الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيه عنه، أخرج ما يكون إليه.

﴿وَلَمَّا كُنِ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَسْلَمُونَ﴾، فإن من علم ذلك، أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب^(٣).

(٣٤-٤١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ أَعْلَىٰ ۚ فِيهَا نَجْتَوِي الْأَعْيُنَ ۚ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ مَّوَدَّةٍ ۚ أَمْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ تَذَرُّوسٌ ۚ إِنَّ لَكَ فِيهِ لَمَّا تَحَرَّوْنَ ۚ أَمْ لَمْ يَكُنْ أَيْسَرًا عَلَيْنَا لِيَعْلَمَ اَلِك يَوْمَ الْفِتْنَةِ ۚ إِنَّ لَكَ لَمَّا تَحْكُمُونَ ۚ سَلَّمَ اُنْهُم بِذَلِكَ رَيْمٌ ۚ أَمْ لَمْ يَكُنْ شَرَكًا قَبْلَآ يَشْرِكُهُمْ اِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ يخبر تعالى بما أعد للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين^(٤) القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين لمراسيه، كالمجرمين الذين أوضاعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاذته رسله، ومحاربة أوليائه.

وأن من ظن أنه يسوهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه^(٥) فاسد.

وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

ومن المعلوم أن جميع ذلك متف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فلم أعدواهم باطلة فاسدة.

وقوله: ﴿سَلَّمَ اُنْهُم بِذَلِكَ رَيْمٌ﴾ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها، ولا الزعامة فيها^(٦).

(١) في ب: معظماً. (٢) في ب: كل سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب. (٣) في ب: المتقين. (٤) كذا في ب، وفي: أ. رأي. (٥) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها، فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدر بها ولا يكون زعيماً فيها. (٦) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تظلمهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

﴿أَمْ عِنْدَ رَبِّكَ أَفْهَمُ الْغَيْبِ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم.

فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال:

﴿فَأَنذِرْ لِكُلِّ قَوْمٍ﴾ أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذى منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يُقابَل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْقُرُونِ﴾ وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام.

أي: ولا تشابه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب في البحر، فافتزع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها، أيهم يلقون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه ﴿وَالْقُرُونُ أَثَرٌ مُّبِينٌ﴾.

[وقوله: ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْشُوفٌ﴾، أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم، بأن قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

فاستجاب الله له، وقذفه الحوت من بطنها للعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطن، ولهذا قال هنا:

﴿وَلَا أَنْ تَذَكَّرَ فِيهِ مِنْ رَبِّهِ لَئِذْ يَقُولُ﴾ أي: لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، ولكن الله^(١) تغدمه برحمته، فنبذ وهو مدحوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال:

﴿فَأَنذِرْهُمْ﴾ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر.

﴿فَيَسْأَلُ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم، وينياتهم [وأحوالهم].

فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبرًا لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة ﴿وَالْمُتَّبِعِينَ﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم.

حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم، أي: يصيبوه^(٢) بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحقهم، هذا انتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلية، والله حافظه وناصره.

وأما الأذى القولية، فيقولون فيه أقوالًا بحسب ما توحى

سورة الحاقة

٥٦٦

سورة الحاقة

خَشَعَتِ الْبُصُورَ رَهَقَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى اسْتِجْرَادِهِمْ سَلِيلُونَ ﴿١٢﴾ فَادْفِنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْخَبِيرِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَأَمَّا لِمَنْ لَمْ يَنْ كِدِي مَتَيْنِ ﴿١٤﴾ أَمْ تَسْتَعْمَلُنَّ أَجْرَ أُنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ مُثْقَلُونَ ﴿١٥﴾ أَمْ عَنْدهُمْ الْغَيْبُ فَهَمَّ بِهَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْشُوفٌ ﴿١٧﴾ وَلَا أَنْ تَذَكَّرَ فِيهِ مِنْ رَبِّهِ لَئِذْ يَقُولُ لَوْلَا يُعَذِّبُنِي رَبِّي فَجَعَلْنَاهُ فِتْنَةً ﴿١٨﴾ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُفْلِتُوا بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْ جُؤُنُوسٌ ﴿٢٠﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَتَا ثَمُودُ فَأُفْلِكَرُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَلَمَّا عَادَ فَأُفْلِكَرُوا بِرَبِّهِمْ صَرَصَرُوا عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَحْنِينًا آيَاتٍ خُشُوعًا مَفْرُوفٍ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغُوا كَانَتْهُمْ أَعْجَابًا غُلَّهَا وَيَوْمَ تَفُتَّرُ الْأُفُفُ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

إليهم قلوبهم، فيقولون تارة: «مجنون»، وتارة: «ساحر»، وتارة: «شاعر».

قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم.

تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿الْحَاقَّةُ﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَتَا ثَمُودُ فَأُفْلِكَرُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَلَمَّا عَادَ فَأُفْلِكَرُوا بِرَبِّهِمْ صَرَصَرُوا عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَحْنِينًا آيَاتٍ خُشُوعًا مَفْرُوفٍ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغُوا كَانَتْهُمْ أَعْجَابًا غُلَّهَا وَيَوْمَ تَفُتَّرُ الْأُفُفُ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه. (٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبهم.

كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البيّنات، ما يتقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذّبين.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْنَا﴾ أي: قرى قوم لوط، الجميع جاءوا ﴿بِالْبَغْيِ﴾، أي: بالفعلة الطاغية، وهي^(٥) الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش^(٦) والفسوق.

﴿فَعَسَا رُسُلُ رَبِّهِمْ﴾ ولهذا اسم جنس، أي: كل من هؤلاء كذب^(٧) الرسول الذي أرسله الله إليهم.

فأخذ الله الجميع ﴿ثَنَدًا رَّابِعَةً﴾، أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم.

ومن جملة أولئك قوم نوح أغرقهم الله في اليم حين طغى [الماء على وجه] الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿فِي الْفَارِجِ﴾، وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاهم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال:

﴿يَسْجُدْ﴾، أي: الجارية، والمراد جنسها لكم ﴿تَذَكَّرْ﴾ أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجى الله عليها من آمن به، واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكّر بأصله.

وقوله: ﴿وَبَقِيَ أَذُنٌ رَّابِعَةٌ﴾ أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها، وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلاة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله^(٨).

(١٣-١٨) وقوله: ﴿فَلَمَّا نَفَخْ فِي الصُّورِ نَفْثَةً وَرَأَيْنَا الْأَرْضَ لِلْأَلَمَلِ فَذَكَرْنَا وَرَبَّنَا وَفَقَدْنَا الْوَاقِعَةَ﴾ والشقبة الكسفة ففج بومئذ وأهية. والسك على أرجائها وبجول عرش ربك فوقهم يومئذ قبيلة. يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية. لما ذكر ما فعله تعالى بالمكذّبين لرسله، وكيف جازاهم، وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة.

فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك

﴿فَرَفَقَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَانْتُمْ أََعْمَارُ عَلَى خَاوِيَةٍ﴾. ﴿فَهَلْ رَأَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، ﴿لِلْمَآءَةِ﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتترل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبات الصدور.

فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كثره من قوله: ﴿لِلْمَآءَةِ﴾ مَا لِلْمَآءَةِ. وَمَا أَزِيدُ مَا لِلْمَآءَةِ. فإن لها شأنًا عظيمًا، وهو لا جسيمًا، لومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل^(١).

ثم ذكر نموذجًا من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما^(٢) أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال:

﴿كَلِمَاتٌ مُدَوِّدٌ﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحًا عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته، وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارة التي تفرع الخلق بأهلها.

وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هودًا عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله [وحده] فكذبوه، وكذبوا بما أخبر به^(٣) من البعث، فأهلك الله الطافنتين بالهلاك المعجل^(٤).

﴿فَأَنَّا نَسُودُ فَأَمِيرًا كَوْرًا﴾ وهي الصبيحة العظيمة الفظيعة التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى، لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم.

﴿وَأَنَّا عَادٌ فَأَمِيرًا كَوْرًا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف] ﴿عَاصِفٍ﴾ [أي: عنت على خزانها، على قول كثير من المفسرين، أو عنت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح.

﴿سَخَرْنَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَرَنَيْنَا آيَاتِهِمْ خُسُوفًا﴾ أي: نحسًا وشرًا فظيما عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم.

﴿فَرَفَقَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾، أي: هلكى موتى، ﴿كَانْتُمْ أََعْمَارُ عَلَى خَاوِيَةٍ﴾ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض.

﴿فَهَلْ رَأَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

(٩-١٢) ﴿وَبَقِيَ إِبْرَاهِيمُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالنُّوحِ كَذَّبُوا بِالْبَاقِيَةِ﴾ ﴿فَعَسَا رُسُلُ رَبِّهِمْ فَلَاحَهُمْ ثَنَدًا رَّابِعَةً﴾ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْأَمْلَ حَمَلْنَاكِ فِي الْفَارِجِ﴾ ﴿لِنَجْلِيَهَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿وَبَقِيَ أَذُنٌ رَّابِعَةٌ﴾ أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين: عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة،

(١) من هاشم: أ. (٢) كذا في ب، وفي أ: ومما. (٣) في ب: وأنكروا ما أخبر به. (٤) في ب: العاجل. (٥) في ب: هو. (٦) في ب: المعاصي. (٧) في ب: كذبوا. (٨) في ب: وفكرهم بآياته.

أنه ينفخ إسرافيل ﴿فِي الصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة.

﴿ثُمَّ نَفْثُ وَجِدَةً﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَكَانَا دَكَّةً وَجِدَةً﴾ أي: فتنت الجبال، واضمحلت، واخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها.

وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها، وتتهي بعد تلك الصلابة والقرّة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل، أوجهاها وأضعفها.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿عَلَى أَرْجَائِهِمْ﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمتهم.

﴿وَيُحِيلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَجْدَةً﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم، بعدله وقسطه وفضله.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرِشُونَ﴾ على الله ﴿لَا تَحْزَنُ سَكْرَ خَائِدَةٍ﴾ لا من أجسامكم وأجسادكم^(١)، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاةً غرأه غرلاً، في أرض مستوية، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، فيحتلّ بجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

(١٩-٢٤) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِبَيِّنَاتٍ يَقُولُ مَا أَهْلُ آفَهِ وَأَوْفَى كِتَابِهِ﴾ أي: كلنت أن ملئت جسيبة ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ في حكة ﴿عَالِيَةٍ﴾ فطوفها دانية ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة، يُعْطَوْنَ كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم، تمييزاً لهم، وتنوئها بشأنهم، ورفقاً لمقدارهم.

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومجبة أن يطلع الخلق على ما من الله عليه به من الكرامة: ﴿هَآؤُمْ آفَهِ وَأَوْفَى كِتَابِهِ﴾، أي: دونكم كتابي، فأقرؤه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب.

والذي أوصليني إلى هذه الحال، ما من الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال:

﴿إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ مَلَكُوتٌ جَسَدِيَّةٌ﴾ أي: أيقنت، فالظن - هنا - [بمعنى] اليقين.

﴿وَجَعَلَ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ وَمِنْ قَبْلِهِ وَالْمَوْزِنَةُ الْخَالِطَةُ﴾ ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ آفَهِ رَاضِيَةٍ﴾ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا فِي الْغَافِرَةِ﴾ ﴿لَنَجْجِلَهَا لَكُنْزًا وَرَيْحَها أَذْنُ رَيْحَةٍ﴾ ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْثَةً وَجِدَةً﴾ ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَكَانَا دَكَّةً وَجِدَةً﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿وَأَنْشَبَتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمِئِذٍ وَاهِبَةً﴾ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ عَلَى أَزْجَائِهِمْ لَا يُحِيلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَجْدَةً﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرِشُونَ لَا تَحْزَنُ سَكْرَ خَائِدَةٍ﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِبَيِّنَاتٍ يَقُولُ مَا أَهْلُ آفَهِ وَأَوْفَى كِتَابِهِ﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ﴿فَطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِشِمَالَةٍ يَقُولُ يَلَيِّنُنِي لِأَزْوَاجِ كِتَابِهِ﴾ ﴿وَلَا أَدْرِي مَا جَسَدِيَّةٌ﴾ ﴿يَلَيِّنُنِيهَا كَانَتْ الْفَآئِضَةُ﴾ ﴿مَا أَفَنُ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾ ﴿هَلَاكٌ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ ﴿خُذُوهُ فَعَلُوهُ﴾ ﴿ثُمَّ لَنُجْجِلَنَّ صَوْلَهُ﴾ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: جامعة لما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين، وقد رضوها، ولم يبخاروا عليها غيرها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازل والقصور، عالية المحل.

﴿فَطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين.

ويقال لهم إكراماً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: من كل طعام لذيق، وشراب شهيق.

﴿هَنِيئًا﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر، ولا منغص، وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة^(٢)، من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر لله،

(١) في: لا من أجسادكم وفواتكم. (٢) هكذا في المخطوطين، وقد جاءت جملة: (وترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال، فصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك في الطبقات السابقة وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.

﴿لَا تَحْزَنْ مِنْهُ بِالْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَقَعْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ﴾، وهو عرق متصل بالقلب، إذا انقطع مات^(١) منه الإنسان.

فلو قدر أن الرسول - حاشا وكلا - تقول على الله، لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم، على كل شيء قدير.

فحكيمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك.

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه على رسالته.

وقوله: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ لَمَعَةٍ عَنْ حَجَرٍ﴾ أي: لو اهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

﴿وَلَيْتُمْ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿لَتَذَكَّرُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم وديارهم، فيعرفونها ويعملون عليها، يذكروهم العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين.

﴿وَلَا تَقْرَأُ أَنْ يَنْكُرُ مُكْذِبِينَ﴾ به، وهذا فيه تهديد، ووعد للمكذبين، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم، بالعقوبة البليغة.

﴿وَلَيْتُمْ لَحَسْرَةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به، تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم يتقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وَلَيْتُمْ لَحَقَّ الْيَقِينِ﴾، أي: أعلى مراتب العلم، فإن أعلى مراتب العلم اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل، ولا يزول.

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:

أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.

ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.

ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

ولهذا القرآن الكريم بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقُدِّسه بذكر أوصاف جلاله، وجماله، وكماله.

ثم تفسير سورة الحاقة، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، على كماله وأفضاله وعدله.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ يَنْتَهِى الْمَعَاجِرُ ۝ تَنْجِي الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَزَنُّهُ قُرْبًا ۝ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزِيقِ ۝ وَلَا يَسْتَلْجِمِدُ حِمَاً ۝

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ يَنْتَهِى الْمَعَاجِرُ ۝ تَنْجِي الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَزَنُّهُ قُرْبًا ۝ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزِيقِ ۝ وَلَا يَسْتَلْجِمِدُ حِمَاً ۝﴾ يقول تعالى ميتاً لجهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب الله، استهزاء وتعتاً وتعجيراً:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِلْكَافِرِينَ﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ يَنْتَهِى الْمَعَاجِرُ ۝ تَنْجِي الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَزَنُّهُ قُرْبًا ۝ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزِيقِ ۝ وَلَا يَسْتَلْجِمِدُ حِمَاً ۝﴾ من استعجل، من متهمري المشركين - أحد يدفعه قبل نزوله،

أو يرفعه بعد نزوله.

ولهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين^(١)، فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقًا مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْطِرْ عَلَيْنَا جِسَارًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِمَذَآبٍ إِلَيْهِ﴾ إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة^(٢).

فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمته، وسعة سلطانه، وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولا تسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذِي الْمَمَالِكِ ۝ نَزَجَ السَّيْحَةَ فَأَرْثَىٰ إِلَيْهِ، أَي: ذو العلو والجلال، والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي ترجع إليه الملائكة، بما دبرها^(٣) على تدبيره، وترجع إليه الروح.

ولهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برّها وفاجرها، ولهذا عند الوفاة.

فأما الأبرار، فتخرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتُحْيِي رُهَا وتُسَلِّم عليه، وتَحْطِي بقربه، وتتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام، والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار، فتخرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي ترجع إلى الله فيها الملائكة والأرواح^(٤)، وأنها ترجع في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة، وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد، مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حُد لها، وما تنتهي إليه من الملا الأعلى.

فهذا الملُك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العلوي الأعلى.

فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه^(٥)، ما معهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فَبُؤْسًا لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدره حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان.

وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أمهلهم، وآدوه فصر عليهم وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة]

فيكون لهذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يُظهِر لعباده في يوم القيامة، من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدة ونازلة بالتدابير الإلهية، والشئون في الخليقة^(٦).

في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخفئه على المؤمنين.

وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، أي: اصبر على دعوتك لقومك صبرًا جميلًا، لا تَصْجُرْ فيه ولا ملل، بل استمِرَّ على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيرًا كثيرًا.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَئِيدًا ۝ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾ الضمير يعود إلى البعث، الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب، أي: إن حالهم حال المنكره، والذي غلبت عليه الشقوة والسكره، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور.

والله يراه قريبًا، لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أحوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

(٨-١٨) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْغَيْظِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ وَلَا يَسْتَلُ جَبَلٌ جَبَلًا ۝ يَصْعَدُونَ يَوْمَ الْمُنْجِمِ ۝ تَوَفَّيْتُمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمَيْكُمْ يَوْمِي ۝ وَصَجَّيْتُمْ رَأْسِي ۝ وَفَعَيْتُمُ اللَّيْلَ تَوْبِي ۝ وَمِنَ الْأَرْضِ جَيْمًا ثُمَّ يَسْجُدُ ۝ كَلَّا إِنَّمَا لَكُمْ فِرَاقَةٌ لِّلشَّوَى ۝ تَتْلُو مِنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۝ وَرَجَعَ فَرَّارًا ۝﴾

أي: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة ف ﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْغَيْظِ﴾ وهو الرصاص المذاب، من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباءً مثورًا، فنضمحل.

فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف، الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟

أليس حقيقًا أن ينخلع قلبه ويتزعج لبه، ويذهل عن كل

(١) في ب: المكليين. (٢) في ب: وإما أن يدخر لهم في الآخرة. (٣)

في ب: بما جعلها. (٤) في ب: ترجع فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٥) في ب: وإحسانه. (٦) في ب: والشؤون الربانية.

أحد؟ ولهذا قال:

﴿وَلَا يَنْتَظِرُ جَيْدٌ جَيْمًا ۖ يَصْرُوفُهُمْ﴾، أي: يشاهد الحميم - وهو القريب - حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومحببتهم، ولا بهمه إلا نفسه.

﴿يُودُّ النَّجْمُ﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ يَنِيهِ ۖ وَصَاحِبَتُهُ﴾، أي: زوجته ﴿وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: قرابته ﴿الَّتِي تَتَّبِعُهُ﴾ أي: التي جرت عاداتها في الدنيا أن تتناصر، ويعين بعضها بعضاً.

ففي يوم القيامة لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي [المجرم المستحق للعذاب] بجميع ما في الأرض ثم ينجيه لم ينفعه ذلك.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون^(١)، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

﴿إِنَّمَا لَقَىٰ ۖ تَرَاعَةً لِلشَّوَى﴾ أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها^(٢).

﴿تَتَقَا﴾ إليها^(٣) ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۖ وَجَعَ قَاعُ﴾ أي: أدبر عن اتباع الحق، وأعرض عنه، فليس له فيه غرض، وجمع الأموال بعضها فوق بعض، وأوعاها فلم يتفق منها فإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتها بهم.

(١٩-٣٥) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۚ لِلشَّالِئِ وَالْمَخْرُومِ ۚ وَالَّذِينَ يُصَوِّفُونَ يَوْمَ الْيَوْمِ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۚ إِذَا عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرَ مَأْمُونٍ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۚ إِذَا عَلَىٰ أَرْجَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَأْمُونِينَ ۚ فَمَنْ أَكُنْ رَدَّةً ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَوَعْدِهِمْ ذَرْعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِلُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ أُولَئِكَ فِي جَهَنَّمَ مُكْرَمُونَ ۚ وَهَذَا الْوَصْفُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع.

وفسر الهلوع بأنه: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له: من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فلا يتفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء ويمتنع في السراء.

﴿إِلَّا الْمُسْلِمِينَ﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف، فإنهم إذا سهم الخير، شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا

يَصْرُوفُهُمْ يُودُّ النَّجْمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ يَنِيهِ ۖ وَصَاحِبَتُهُ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتُهُ الَّتِي تَتَّبِعُهُ ۖ تَرَاعَةً لِلشَّوَى ۖ تَتَقَا ۖ مَنِ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۖ وَجَعَ قَاعُ ۖ إِذَا الْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۚ لِلشَّالِئِ وَالْمَخْرُومِ ۚ وَالَّذِينَ يُصَوِّفُونَ يَوْمَ الْيَوْمِ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۚ إِذَا عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرَ مَأْمُونٍ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۚ إِذَا عَلَىٰ أَرْجَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَأْمُونِينَ ۚ فَمَنْ أَكُنْ رَدَّةً ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَوَعْدِهِمْ ذَرْعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِلُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ أُولَئِكَ فِي جَهَنَّمَ مُكْرَمُونَ ۚ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَا تَهْتَبِعِينَ ۚ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ۚ أَطِيعُ كُلَّ أَمْرٍ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۚ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ ۚ

مهم الشر صبروا واحتسبوا.

وقوله [في وصفهم]: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أي: مدامون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها.

وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ من زكاة وصدقة ﴿لِلشَّالِئِ﴾ الذي يتعرض للسؤال ﴿وَالْمَخْرُومِ﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يظن له فيصدق عليه.

﴿وَالَّذِينَ يُصَوِّفُونَ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ أي: يؤمنون بما أخبر الله به، وأخبرت به رسله من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدون للآخرة ويسعون لها سعيها، والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسول، وبما جاء به من الكتب.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقرهم من عذاب الله.

(١) في ب: قد حقت عليهم كلمة ربك. (٢) في ب: أي: النار التي تنطلق تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة. (٣) في ب: إلى نفسها.

معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسراهم^(١)، والعفة الثامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

(٣٦-٣٩) ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهَيِّئٌ لَّنَا عَذَابًا ۖ فَلَنُطْعِمَ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۚ كَلَّا إِنَّهَا لَأَخْلَقْنَهُمْ ثَمًّا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى مبيناً اغترار الكافرين: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهَيِّئٌ لَّنَا عَذَابًا ۖ فَلَنُطْعِمَ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۚ كَلَّا إِنَّهَا لَأَخْلَقْنَهُمْ ثَمًّا يَعْلَمُونَ﴾، أي: مسرعين ﴿عَنِ الَّذِينَ وَصَّى النَّبِيُّ﴾^(٢)، أي: قطعاً متفرقة وجماعات متوزعة^(٣)، كل منهم بما لديه فرح.

﴿لَنُطْعِمَ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بأي سبب أطعمهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود برب العالمين، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ [أي: ليس الأمر بآمانتهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم].

﴿إِنَّا خَلَقْنَهُمْ ثَمًّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

(٤٠-٤٤) ﴿قَلَّ اللَّهُمَّ رَبِّ الشُّعْرِ وَالْقَلْبِ إِنَّا لَنَقِيرُونَ ۖ عَلَّ أَنْ يُجِدَلَ خَيْراً يَتَمَّ وَنَحْنُ يَسْتَوُونَ ۖ فَذَرْنَاهُمْ يَوْمُؤُسًا وَيَلْمِؤُسًا حَتَّى يَلْقَؤُا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ ۖ يَوْمَ يَتَزَيَّجُونَ مِنَ الْآخِذِينَ يَرِئَا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِؤُسًا ۖ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَغُهُمْ وَإِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ لِلَّذِي كَاؤُا يَوْمَعُونَ﴾ هذا إقسام منه تعالى بالشارق والمغرب، للشمس والقمر والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُثَبِّتَنَّكَ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا نَحْنُ بِسَبُؤِينَ﴾ أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده، فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله:

﴿فَذَرْنَاهُمْ يَوْمُؤُسًا وَيَلْمِؤُسًا﴾ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا ﴿حَتَّى يَلْقَؤُا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ﴾، فإن الله قد أعد لهم فيه من الكال والوبال، ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم، ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم^(٤) الذي يوعدون، فقال: ﴿يَوْمَ يَتَزَيَّجُونَ مِنَ الْآخِذِينَ﴾ أي: القبور ﴿يَرِئَا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِؤُسًا﴾^(٥)، أي: مهيئين إليها.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِؤُسًا﴾ أي: [كانهم إلى عَلم] يؤمنون ويسرعون^(٦)، أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والاتئاء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مقهورين، للقيام بين

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُفَرِّجُهُمْ خَيِّطُونَ﴾ فلا يطأون بها وطأ محرماً، من زنا، أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك. ويحفظونها أيضاً من النظر إليها ومسها، ممن لا يجوز له ذلك، ويترون أيضاً وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة.

﴿إِنَّا عَلَّانُؤُهُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: سريانهم ﴿فَأَنَّهُمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ في وطنهم، في المحل الذي هو محل الحرب.

﴿فَمَنْ أَبْهَقَ وَقَدْ وَرَّاهُ ذَلِكَ﴾ أي: غير الزوجة، وملك اليمين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْغَادُونَ﴾ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله.

ودلت هذه الآية على تحريم [نكاح] المتعة لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُتُنَّتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ﴾ أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أداؤها والوفاء بها.

وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار.

وكذلك العهد شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد عليه الخلق، فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفاه أم رفضه وخانه، فلم يبق فيه؟

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُنْهَنَّتِهِمْ يَأْمَنُونَ﴾ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه، ويكون القصد بها^(٧) وجه الله.

قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذُنُوبَكُمْ﴾، ﴿يَأْمَنُوا بِاللَّهِ﴾، ﴿يَأْمَنُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا كُؤُؤًا قَوِيْمًا بِالْقِسْطِ شَهِدَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْظُونَ﴾ بمدامتها على أكمل وجوها.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّاتٍ تَجْرُؤُنَ﴾ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم، ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة والمداماة عليها والأعمال القلبية خشية الله الداعية لكل خير؛ والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن

(١) في ب: القصد بإقامتها. (٢) في ب: وحفظ حقوقهم وأماناتهم.

(٣) في ب: متنوعة. (٤) في ب: اليوم. (٥) في ب: ويقصدون.

يدي رب العالمين .

﴿ خَلِقَهُ أَفْسَرَهُمْ تَرْفَعُهُمْ إِلَهُ ﴾ وذلك أن الذلة والقلق، قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات .
فهذه الحال والمآل، هو يومهم ﴿ الَّذِي كَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ولا بد من الوفاء بوعده الله .

[تمت والحمد لله] .

تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٢٨) ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ إلى آخر السورة، لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك .

فأخبر تعالى أنه أرسله ^(١) إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً من عذاب الله الأليم، خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، ويعذبهم عذاباً سرمدياً .

فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: ﴿ يٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ بُيِّنٌ ﴾ أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به، وما أنذر عنه، وبأي شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بيانا شافيا .

فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما أمرهم به ^(٢)، فقال: ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَقْرَبُوا ﴾ وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالثواب .

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: يتمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى، أي: مقدار البقاء في الدنيا، بقضاء الله وقدره، [إلى وقت محدود]، وليس المتاع أبداً، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال:

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لما كفرتم بالله وعاندتم الحق، فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكياً لربه:

﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِيْلَا وَتَنَارًا ۚ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي:

فَلَا أَقِيمُ رَبِّي الشَّرِيقَ وَالْعَرَبَ إِنَّا أَقْدَرُونَ ﴿١﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٢﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۚ وَلَقَدْ يُلْقُونَكَ فِي الْأَرْضِ يُوقِعُونَكَ فِي الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ۖ كَانَهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ يُؤْفُسُونَ ﴿٣﴾ خَشَعَتِ الْأَبْصَارُ رُفُفَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمَ الَّذِي كَانُوا يَعْدُونَ ﴿٤﴾

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ بُيِّنٌ ﴿١﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَقْرَبُوا ۖ وَلَقَدْ يُلْقُونَكَ فِي الْأَرْضِ يُوقِعُونَكَ فِي الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ۖ كَانَهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ يُؤْفُسُونَ ﴿٢﴾ خَشَعَتِ الْأَبْصَارُ رُفُفَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمَ الَّذِي كَانُوا يَعْدُونَ ﴿٣﴾

﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِيْلَا وَتَنَارًا ۚ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۖ فِي مَا ذَاكُرْتُمْ ۚ وَاسْتَعْصَفُوا نِيَاهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكَبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِيْلَا وَتَنَارًا ۚ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي: لم يزد دعائيهم إلا فراراً، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم، ونفوراً عن الحق .

﴿ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۖ فِي مَا ذَاكُرْتُمْ ۚ وَاسْتَعْصَفُوا نِيَاهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكَبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أي: تعطلوا بها غطاء غشاهم، بعداً عن الحق، وبغضاً له .

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي: بسمع منهم كلهم .

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ كل هذا حرص ونصح، وإيتائهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود ^(٣) .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها .

﴿ إِنَّكَ كَانَ غَفَّارًا ﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغهم

(١) في ب: أنه أرسل نوحاً . (٢) في ب: وأمرهم بأصل ذلك . (٣) في ب: بكل طريق يظن به حصول المقصود .

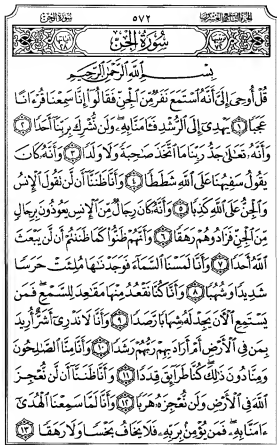
فعبدهم .
ولهذا أوصى رؤسائهم للتابعين لهم، أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة^(١).
﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كِبِيرًا﴾ أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم، كثيرا من الخلق.
﴿وَلَا يُزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم بحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون دعوة الرؤساء إلا ضلالا، أي: فلم يبق محل لنجاحهم ولا لصلاحهم، ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال:
﴿يَمَّا خَطِبْتُهُمْ أَغْرَقُوا﴾ في اليم الذي أحاط بهم ﴿فَأَذِنُوا نَارًا﴾ فذهبت أجسادهم في الغرق، وأرواحهم للنار والحرق .
ولهذا كله بسبب خطيئتهم، التي اتاهم نبيهم نوح يتذرهم عنها، ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال .
﴿فَلَمَّا يَخِدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصَارًا﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر .
﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ يدور على وجه الأرض .
وذكر السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم .
وإنما قال نوح - عليه السلام - ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جرم أن الله استجاب دعوته^(٢)، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين .
﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيْ وَلَدِي وَلِكُلِّ مَسْجُودٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا يُزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: خسارا، ودمارا وهلاكًا .
ثم تفسير سورة نوح عليه السلام [والحمد لله].

تفسير سورة قل أوحى إلي
[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١، ٢) ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا

(١) في ب: هذه الأصنام. (٢) في ب: فلماذا استجاب الله له دعوته .
(٣) في ب: منبرين لقومهم. (٤) في ب: والجلال. (٥) في ب: غرنا السادة والرؤساء. (٦) في ب: وحسيناهم.



لا ملجأ منه إلا إليه .

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده، أثر في قلوبنا ف«آمَنَّا بِهِ» .

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا: ﴿فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ إيمانًا صادقًا ﴿فَلَا يَحْزَنُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، أي: لا نقصًا ولا طغيانًا، ولا أذى يلحقه^(٥)، وإذا سلم من الشر، حصل له الخير، فالإيمان سبب داع إلى حصول كل خير، وانتفاء كل شر .

(١٤) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَائِفٌ قَدِيدٌ﴾ العادلون عن الصراط المستقيم .
﴿فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: أصابوا طريق الرشd، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها .

(١) في ب: سلكنا طريقه . (٢) في ب: من الخلق . (٣) في ب: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزع، ويعبدونهم . (٤) في ب: ويحتمل أن الضمير وهي الواو يرجع إلى الجن . (٥) في ب: فقالوا: ﴿فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَحْزَنُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: من آمن به إيمانًا صادقًا فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه .

فالويم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه^(١)، وانقذنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس^(٢)، يعارض الهدى .

(٦) ﴿وَاللَّهُ كَانَ يَجَالُ مِنَ الْإِنسِ يَعْبُدُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم، عند المخاوف والأفزع^(٣)، فزاد الإنس الجن رهقًا، أي: طغيانًا وتكبرًا، لما رأوا الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم .

ويحتمل أن الضمير في (زادوهم) يرجع إلى الجن ضمير الواو^(٤)، أي: زاد الجن الإنس ذعرًا وتخوفًا لما رأوهم يستعيذون بهم، ليلجئوهم إلى الاستعاذه بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: «اعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه» .

(٧) ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: فلما أنكروا البعث، أقدموا على الشرك والطغيان .

(٨) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فَوَجَدْنَا ثَمَرًا مِثْلَ ثَمَرِ حَرْسٍ شَدِيدًا﴾ عن الوصول إلى أرجائها، [والدنو منها] .

﴿وَشُمُهَا﴾ يرمى بها من استرق السمع، ولهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإننا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء .
(٩) ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدُ الشَّمْعِ﴾ فتلقف من أخبار السماء ما شاء الله .

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ مِنْهَا بِرَصَدٍ﴾ أي: مُرصدًا له، معذًا لإتلافه وإحراقه، أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم .
وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثًا كبيرًا، من خير أو شر، فلذلك قالوا:

(١٠) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَوِ يَسَرُّ أَمِ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: لا بد من هذا أو لهذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرًا أنكروه، فعفرؤا بفطنتهم، أن هذا الأمر يريد الله، ويحدثه في الأرض .

وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأديبًا مع الله .

(١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: فساق وفجار وكفار .

﴿كُنَّا طَائِفٌ قَدِيدًا﴾ أي: فرقًا متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون .

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِرَ هَرًّا﴾ أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله، وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله، فلن نعجزه في الأرض، ولن نعجزه إن هربنا، وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته،

(١٥) ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم.

(١٦) فإنهم لو استسقوا على الطريقة المثلثة لَأَسْقَيْنَهُم مَّاءً عَذَقًا أي: هينًا مريضًا، ولم يمنهم ذلك، إلا ظلمهم وعدوانهم.

(١٧) ﴿لَنُفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، أي: لنختبرهم فيه ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب.

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾، أي: من أعرض عن ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه، ويتقّده، بل غفل عنه ولهي، يسلكه عذاباً صعداً، أي: شديداً بليغاً.

(١٨) ﴿وَإِنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محالّ العبادة، مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته.

(١٩) ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، أي: يسأله ويتعبد له، ويقرأ القرآن، كاذ الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا ﴿عَلَيْهِ يَدْعُو﴾، أي: متلبدين متراكمين، حرصاً على سماع ما جاء به من الهدى.

(٢٠) ﴿قُلْ لَّهُمْ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ! مِثْبَاطًا حَقِيقَةً مَا تَدْعُو إِلَيْهِ: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَتُكِّدُ بِهِ أَحَدًا﴾، أي: أوحده، وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذهُ المشركون من دونه.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَمَدًا﴾ فإنني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لا أحد أستجير به
يقتضي من عذاب الله. وإذا كان الرسول الذي هو أكمل
الخلق، لا يملك ضراً ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله
[شيئاً]، إن أراد به سوء، فغيره من الخلق، من باب أولى
وأحرى.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، أي: ملجأً ومتصراً.
(٢٣) ﴿لَا بَلَاغًا مِنْ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ﴾، أي: ليس لي مزية على
الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالته ودعوة الخلق إلى
الله، وبهذا^(١) تقوم الحجة على الناس.

وَمِنْ بَعْضِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿١٠٠﴾
 وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخرى المحكمة.

وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ،

٥٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ وَالْفَقِيْطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ
تَحَرَّوْا رُسْدًا ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الْفَقِيْطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٧﴾
وَالَّذِي اسْتَفْعَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذًّا ﴿١٨﴾ لِنَفْسِهِمْ
فِيهِ وَمَنْ يَعْرُضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٩﴾ وَأَنَّ
الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوْا وَآيَكُنُّونَ عَلَيْهِ لِيَءَاذًا ۖ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ
بِهِ أَحَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَنُكَلِّمُ الْكَافِرَ وَلَا أَصْرُخُ بِالْظَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنِّي
لنَّ مُجِبِرٌ مِنْ أَلَلِّهِ أَحَدٌ وَلِنْ أُجِدِّنْ دُونَهُ عَمَلًا جَدًّا ﴿٢٣﴾ إِلَّا بَلَاغًا
مِّنْ أَلَلِّهِ وَرِسَالَةً ۚ وَمِنْ بَعْضِ أَلَلِّهِ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيُعْلَمُونَ
مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عُدَدًا ﴿٢٥﴾ قُلْ إِن آدَرُجْتُ أَقْرَبُ
مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِعُمِّي أَمْدًا ﴿٢٦﴾ عَلَيَّ الْعَيْبُ فَلَا
يُظْهَرُ عَلَى عَيْنِيهِ أَحَدًا ﴿٢٧﴾ إِلَّا مِنَ أَنْزَلْنِي مِنْ رَّسُولٍ فَإِنَّهُ
يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٨﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا
رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٩﴾

وأجمع عليه سلف الأمة، وأئمة هذه الأمة.

(٢٤) ﴿حَقِّقْ إِذَا رَأَوُا مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: شاهدوه عياناً، وجزموا أنه واقع بهم.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ في ذلك الوقت حقيقة المعرفة ﴿مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ حين لا ينصرهم غيرهم، ولا أنفسهم يتصورون، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة.

(٢٥) ﴿قُلْ لَّهُمْ إِنْ سَأَلُوكَ فَقُلُوا﴾: ﴿مَنْ هَذَا الَّذِي يُدْعَىٰ؟﴾
﴿إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُدْعَوْنَ أَوْ يُجْعَلُ لَكَ رِزْقٌ آمَنًا﴾، أي:
غاية طوبى له، فعلم ذلك عند الله.

(٢٦) ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من الخلق، بل انفراد بعلم الضمائر والأسرار، والغيب.

(۲۷) ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾، أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته، أن يخبره به.

وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيدته أحدًا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على

(١) في ب: ودعوة خلقه إليه وبذلك.

تفسير سورة المزمّل

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ○ فَرَّ الْبَلَّ إِلَّا قَلِيلًا ○ يَنْصَبُهُ أَوْ تَنْصَبُ بَيْنَهُ قَلِيلًا ○ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ وَرَبِّي الْفَرَّانَ تَرِيلاً ○ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلَ ○ إِنَّ فَائِزَةَ الْبَلِّ هِيَ أَشَدُّ وَثَقًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ○ إِنَّ لَكَ فِي الْفِتْنَةِ سَبِيلًا طَوِيلًا ○ وَأَذْكُرْ أَنَّمَّ رَبُّكَ وَيَقْبَلُ إِلَيْهِ تَبَسُّيلًا ○ رَبُّ الشَّرَفِ وَلِلتَّوْبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ○ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَبِيلًا ○ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ○ المزمّل: المنغطي بشيابه كالمدثر، ولهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال [وحيه بإرسال] جبريل إليه، فرأى أمرًا لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك^(١) انزعاج، حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله فقال: «زملوني زملوني» وهو ترعد فرائضه.

ثم جاءه جبريل، فقال: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارىء»، فغظه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغًا ما بلغه أحد من المرسلين. فسبحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف، الذي وجدته في أول أمره.

فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه^(٢)، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله. فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، ويؤكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿فَرَّ الْبَلَّ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ثم قدر ذلك، فقال: ﴿يَنْصَبُهُ أَوْ تَنْصَبُ بَيْنَهُ﴾، أي: من النصف ﴿قِيلًا﴾، بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ﴾، أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿وَرَبِّي الْفَرَّانَ تَرِيلاً﴾، فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبير

حقيقته، من غير أن تتخطيهم الشياطين، ولا^(٣) يزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال:

﴿فَإِنَّ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾، أي: يحفظونه بأمر الله.

(٢٨) ﴿يَعْلَمُ﴾ بذلك ﴿أَن قَدْ أُتْلِعُوا وَسَلَّتْ رِجْمُهُمْ﴾ بما جعله لهم من الأسباب.

﴿وَلَسَلَطَ بِمَا لَدَتْهُمْ﴾، أي: بما عندهم، وما أسروه وأعلنوه.

﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

وفي هذه السورة فوائد كثيرة:

منها: وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو صريح في هذه السورة.

ومنها: أن رسول الله ﷺ رسول إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس^(٤)، فإن الله صرف نفر الجن، ليستمعوا ما يوحى إليه، ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن، ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به.

فحين ابتدأت بشارت نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت عن أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشدًا، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه، ومعرفته في الأرض، ما يتنجح له القلوب، وتقرب به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن لاستماع الرسول ﷺ، وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة، قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مقال ذرة؛ لأن الرسول محمدًا ﷺ، إذا كان لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والغلط^(٥) اتخاذ من هذا وصفه إلها [آخر] مع الله.

ومنها: أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق، إلا من ارتضاه الله وخصه^(٦) بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة قل أوحى إلي، والله الحمد^(٧).

(١) في ب: من غير أن تقربه الشياطين فلا. (٢) في ب: مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس. (٣) في ب: من الخطأ والظلم. (٤) في ب: واختصه. (٥) في ب: تم تفسيرها، والحمد لله رب العالمين. (٦) في ب: فاعتراه عند ذلك. (٧) في ب: على أذية قومه.

سُورَةُ الزَّمَلِ

٥٧٤

سُورَةُ الزَّمَلِ

سُورَةُ الزَّمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الزَّمَلُ ﴿١﴾ فَإِنَّكَ لَاقِيلٌ ﴿٢﴾ تَصَفُّهُ وَأَوْتَقَضَ مِنْهُ قِيلًا ﴿٣﴾
 أَوْرَدَ عَلَيْهِ وَرَقِلَ الْقُرْآنُ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا
 ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّكَ فِي
 الْأَنْهَارِ سَبَّحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾
 رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ
 عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ
 أُولِيَ الْقَعَمَةِ وَمَنْ يَحْمِلُهُمْ فَلْيَا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾
 وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
 وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا
 عَلَيْكَ ﴿١٥﴾ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فُرْقَانًا رَسُولًا ﴿١٦﴾ نَعَصْنُ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ
 فَاخْذَنْهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٧﴾ فَكَفَّكَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
 الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٨﴾ السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ وَكَانَ وَعْدُهُ مَقْعُولًا ﴿١٩﴾
 إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾

الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله
 كما قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَتَلَوْنِ﴾ أَوْ كَيْفَ اسْتَفْقَ .

ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

(١٢-١٤) ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ و﴿طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا . أي: إن
 عندنا «أنكالًا»، أي: عذابًا شديدًا، جعلناه تنكيلًا للذي لا
 يزال مستمرًا على الذنوب^(١).

﴿وَجَحِيمًا﴾، أي: نارًا حامية ﴿وَلَطَمًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك
 لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المتن.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: موجعًا مفضعًا، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ
 الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم.

﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب ﴿كَيْبًا مَهِيلًا﴾،
 أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك،
 فتكون كالهباء المنتور.

(١) في ب: حصول. (٢) في ب: عليه. (٣) في ب: فإنه لا تحصل به
 هذه المقاصد. (٤) في ب: وفعل المشق. (٥) في ب: بل يعاملهم.
 (٦) في ب: على ما يغضب الله.

والتفكير، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتفهؤ
 والاستعداد التام له.

فإنه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، أي: نوحى إليك
 هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجلية أوصافه، وما
 كان بهذا الوصف، حقيق أن يتبها له، ويرتل، ويتفكر فيما
 يشتمل عليه.

ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾، أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً
 وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي: أقرب إلى تحصيل^(١) مقصود القرآن، يتواطأ
 على القرآن^(٢) القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما
 يقول، ويستقيم له أمره.

ولهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود^(٣)،
 ولهذا قال:

﴿إِنَّ لَكَ فِي الْأَنْهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، أي: تردداً في حوائجك
 ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه للضرغ التام.
 ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ
 تَبْتِيلًا﴾، أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله،
 والإتابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والانصاف
 بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويذني من رضاء.

﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس، يشمل المشرق
 والمغرب [كلها]، فهو تعالى رب المشرق والمغرب، وما
 يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي
 والسفلي، فهو رب كل شيء، وخالقه، ومدبره.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي
 يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم،
 ولهذا قال:

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، أي: حافظاً ومدبراً لأمرك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عمومًا، وذلك
 يحصل للعبد ملكة قوية، في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل^(٤)
 من الأعمال، أمره بالصبر، على ما يقول فيه المعاندون له
 ويسبون، ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا
 يصده عنه صاد، ولا يرده راد، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا،
 وهو الهجر، حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه،
 فيقابلهم^(٥) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه،
 وأمره بجدا لهم بالنبي هي أحسن.

﴿وَذَرْنِي وَالْكَافِرِينَ﴾، أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم،
 وإن أمهلتهم، فلا أمهلهم.
 وقوله: ﴿أُولِيَ الْقَعَمَةِ﴾، أي: أصحاب النعمة والغنى،

يمضى منهما ، ويبقى .

﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُغْنِيَهُ﴾، أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباهاً، وعناء زائداً، أي: ففخف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدّر، أو نقص.

﴿تَقَرُّوْا مَا يَبْتَرِ بِنَ الْفَرَاغِ﴾، أي: مما تعرفون، ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً، فإذا فرغ، أو كسل، أو نعى، فليستريح ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ وَكَرَّ رَجُلًا﴾ يشق عليهم صلاة ثلثي الليل، أو نصفه، أو ثلثه، فليصل المريض، المتسهل عليه⁽³⁾، ولا يكون أيضًا مأمورًا بالصلاة قائمًا عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها [ولو أجر ما كان يعمل صحيحًا].

﴿وَأَكْثَرُونَ يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ قَضَى اللَّهِ﴾، أي: وعلم أن منكم مسافرين، يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكفّفوا عن الناس^(٤)، أي: فالمسافر حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلوات: في وقت واحد، وقصر الصلاة الرابعة.

وكذلك ﴿أَخْرُوجُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاتَّقُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ ، فذكر تعالى تخفيين، تخفيماً للصحيح المقيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهم ثلث الليل بعد نصفه الأول.

وتخفيفاً للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك⁽⁵⁾، فإنه أيضاً يرفع ما لا يكلفه.

فَللهُ الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين^(٦)
من حرج، بل سهل شرعه، ورأى أحوال عباده، ومصالح
دينهم، وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أُمُّ العبادات وعمادها. إقامة الصلاة التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال:

﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ بَارَكَانَهَا، وشروطها، ومكملاتها.

(١٦، ١٥) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَجَعَلْنَا فِرْعَوْنَ الْأَرْسُولَ قَلْعَةً أَنذَرْنَا وَيْلًا ۖ يَقُولُ

تعالى: احمدا ريكم، على إرسال هذا النبي الأمي العربي
البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه،
وقوموا بهذه النعمة الجليلة.

وإياكم أن تكفروها، فنعصوا رسولكم، فتكونوا كفراعون، حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتحديد، فلم يصدقه، بل عصاه، فأخذ الله أخذًا وبيلًا، أي: شديدًا بلغا.

(١٨، ١٧) ﴿كَفَيْكَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝
الْأُنثَىٰ مُضْطَرٌّ بِهٖ ۖ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي: فكيف يحصل لكم
الفساك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم
قدره^(١)، الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام،
تفتطير به السماء وتنتثر به نجومها ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾، أي: لا
يذم من وقعه، ولا حائل دونه.

(١٩) ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(٢٠) [أي: إن هذه الموعظة التي نبا الله بها من أحوال يوم القيامة وأحواله^(٢١) تذكرة يتذكر بها المتقون، وينزجر بها المؤمنون. ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، أي: طريقاً موثقاً إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبان كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح.

وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، وممكنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النفاذ والعقار.

[illegible]

وذكر في هذا الموضع، أنه امتثل ذلك، هو وطائفة معه من المؤمنين.

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر
أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال:

﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الْغَنَى وَالْفَقْرَ﴾، أي: يعلم مقاديرهما، وما

(١) في ب: خطرته. (٢) في ب: وأهوالها. (٣) في ب: ما يسهل عليه. (٤) في ب: ويتكففوا عنهم. (٥) في ب: أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره. (٦) في ب: حيث لم يجعل علينا في الدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْفَىٰ مِنْ ثُلَاثِ اللَّيْلِ بِفَضْلِكَ وَتُلْهُوَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُعَذِّبُ الرَّاكِلَ وَالنَّهَارَ عَلِيمٌ أَنْ تُنْجِصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَعَاكِرُونَ بِصُرُوفٍ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَهَآخِرُونَ يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَافِرَةٌ أَوْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قُرْآنًا حَسَنًا وَمَا تُدْرِكُوا الْأَفْسَاكُ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هَوًىٰ وَبِأَعْظَمِ أَجْرٍ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾

سُورَةُ الْمَدْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ ﴿١﴾ قُرْآنًا ذِكْرًا ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ ذِكْرًا ﴿٣﴾ رَبَّنَاكَ تَطْفِرُ ﴿٤﴾ وَالرَّجَزُ فَالْجَزْزُ ﴿٥﴾ وَلَا تَنْتَنَنَّ تَنْتَكِرُ ﴿٦﴾ وَرَبِّكَ قَاصِرٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا تَقَرَّى الْقَافِرُ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْفٍ وَمَنْ خَلَقَتْ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلَتْ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدَتْ لِالْمُنْتَهِيَّةِ ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآدِنَاتِنَا عِنِيدًا ﴿١٦﴾ سَآذِهُهُ صَعْدًا ﴿١٧﴾

ليكون ذلك ادعى لتركه.

﴿وَرَبِّكَ ذِكْرًا﴾، أي: عظمه بالوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

﴿وَرَبَّنَاكَ تَطْفِرُ﴾، يحتمل أن المراد بشيابه أعماله كلها، ويطهرها تخلصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شرك ورياء، [وإنفاق]، وعجب وتكبر وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عبادته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بشيابه، الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصاً في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

(١) في ب: أرحم بها من نفسها. (٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله.

(٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.

﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَابَةً مَحْسَنًا﴾، أي: خالصاً لوجه الله، من نية صادقة، وتبشيراً من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة.

ثم حث على عموم الخير، وأفعاله، فقال:

﴿وَمَا تَقْرَأُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ سَرٍّ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ سِرٌّ وَتَتَكَلَّمُ بِكَلِمَاتٍ الْحَسَنَةِ بَعَثَ أَهْلَهَا، إِلَى سِبْغَةِ ضَعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

وليعلم أن مقال ذرة من الخير في هذه الدار يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، ويذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسراته على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوائه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينفع فيها تشويق من هو أرحم بها منها^(١).

فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿وَأَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وفي الأمر بالاستغفار، بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة.

وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص.

فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته، ومغفرته، فإنه هالك. ثم تفسير سورة المزمّل^(٢).

تفسير سورة المدثر

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ ﴿١﴾ قُرْآنًا ذِكْرًا ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ ذِكْرًا ﴿٣﴾ رَبَّنَاكَ تَطْفِرُ ﴿٤﴾ وَالرَّجَزُ فَالْجَزْزُ ﴿٥﴾ وَلَا تَنْتَنَنَّ تَنْتَكِرُ ﴿٦﴾ وَرَبِّكَ قَاصِرٌ ﴿٧﴾ تقدم أن المزمّل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادة الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة والقاصرة، والصبر على أذى قومه.

وأمره هنا بإعلان الدعوة^(٣)، والصدع بالإنذار، فقال: ﴿قُرْ﴾ [أي:] بجد ونشاط ﴿قَاتِلِ﴾ [الناس بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه،

هَذَا إِلَّا بِعِزِّكَ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۚ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۚ لَوَاقِعُ النَّارِ ۖ عَلَيْهَا يُسْقَطُ عَذَابُ رَبِّكَ ۖ وَمَا جَعَلَ أَضْحَكَ إِلَّا مَلَكَةً ۖ وَمَا جَعَلَ عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرُسُلِهِ ۚ أَلَيْسَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَذَبُوا ۖ وَرَبَّكَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا ۖ وَلَا يَزَالَتِ الَّذِينَ أُولُوا ۖ الَّذِينَ كَذَبُوا ۖ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ تَرَاهُمْ تَرْهَقُونَ ۖ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ ۖ وَرَبِّهِ سَنُكَفِّرُ عَنْهُ ۖ وَمَا يُعَذِّبُهُ جَزَاءُ ۖ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۚ هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، معانده الحق، والمبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذمًا، لم يذمه^(٥) غيره، ولهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة آخزى، فقال:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: خلقته منفردًا، بلا مال، ولا أهل، ولا غيره، فلم أزل أُميه وأُريه^(٨).

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ أي: كثيرًا ﴿وَو﴾ جعلت له ﴿يَتَنَبَّه﴾ أي: ذكوره ﴿شُهُودًا﴾، أي: دائما حاضرين عنده [على الدوام]، يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستنصر بهم.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهَيِّبًا﴾ أي: مكته من الدنيا وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على^(٩) ما يشتهي ويريد.

﴿ثُمَّ﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿يَطْمَعُ أَنْ أُزِيدَ﴾ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة، كما نال نعيم الدنيا.

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه.

وذلك لأنه ﴿كَانَ لِلْيَكِينِ ضَيْدًا﴾ أي: معاندا عرفها، ثم أنكرها، ودعته إلى الحق، فلم يتبدل لها.

ولم يكن أنه أعرض وتولى عنها، بل جعل يحاربها، ويسعى في إبطالها، ولهذا قال عنه:

﴿إِنَّهُ كَذَرٌ﴾ [أي: في نفسه، ﴿وَقَدَّرَ﴾ ما فكر فيه، ليقول قولا يبطل به القرآن.

﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ لأنه قدر أمرا ليس في طوره، وتَسَوَّرَ على ما لا يناله هو ولا [أمثاله].

﴿ثُمَّ تَنَزَّ﴾ ما يقول، ﴿ثُمَّ عَسَّ وَتَسَّرَ﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضا له.

﴿ثُمَّ أَتَرَ﴾ أي: تولى ﴿وَأَسْتَكْبَرُ﴾ نتيجة سعيه الفكري،

﴿وَأَسْتَكْبَرُ فَهَجَرُ﴾ يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها والبراءة منها، ومما نسب إليها من قول أو عمل.

ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمرا له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها^(١)، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

﴿وَلَا تَنْتَنُ تَسْتَكْبِرُ﴾ أي: لا تمنن على الناس، بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتستكر^(٢) بتلك المنّة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنّة.

بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وَأَنْتَنُ [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره، على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطي أحدا شيئا، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصا بالني^(٣).

﴿وَرَبِّكَ قَاتِرٌ﴾ أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى.

فامتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر فيه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله^(٤)، من الأصنام وأهلها، والشر وأهله.

وله المنّة على الناس - بعد منّة الله - من غير أن يطلب منهم على ذلك^(٥) جزاء ولا شكورا.

وصبر الله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة^(٦)، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

(٨-١٠) ﴿فَلَمَّا تَوَلَّى فِي الظُّلُمِ ۖ فَلَمَّا يَوْبَهُ يَوْمَ عَصِيرٍ ۖ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق^(٧) للبعث والنشور.

﴿فَلَمَّا يَوْبَهُ يَوْمَ عَصِيرٍ﴾ لكثرة أهواله وشدائده.

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبور.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى:

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَصِيرٍ﴾.

(١١-٣١) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنَيْتُ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهَيِّبًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أُزِيدَ ۖ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِإِكْنَيْنِ عَيْنًا ۖ سَأُصْلِيهِ سَعَوًا ۖ إِنَّهُ كَذَرٌ وَقَدَرٌ ۖ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ۖ ثُمَّ تَنَزَّ ۖ ثُمَّ عَسَّ وَتَسَّرَ ۖ ثُمَّ أَتَرَ وَأَسْتَكْبَرُ ۖ فَقَالَ إِنَّ

(١) في ب: صغارها وكبارها. (٢) في ب: فتستكر. (٣) في ب: هجر كل ما يبعد من دون الله وما يبعد منه. (٤) في ب: أن يطلب عليهم بذلك. (٥) في ب: وصبر لربه أكمل صبر، فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة. (٦) في ب: الخلائق. (٧) في ب: لم يذمه بغيره. (٨) في ب: أريه وأعطيه. (٩) في ب: وحصل له.

والعملي والقولي، أن قال:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا بَحْرٌ مُّؤْتَرٌ ۚ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضًا كلام البشر الأخير، بل كلام الفجار منهم، والأشرار، من كل كاذب سحار. فتنبأ له، ما أبعد من الصواب، وأحراه بالخسارة والنياب!

كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه كلام المبدئي المعيد^(١)؟

فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهٖ سَعَرَ ۖ وَمَا أَزْنٰهُ مَسْرَ ۖ لَا يَبْقٰى رَكَّةٌ لَّهُ دَٰرُ ۖ أَي: لَا تَبْقٰى مِنَ الشَّدَّةِ، وَلَا عَلَى الْمَعْذُوبِ شَيْئًا، إِلَّا وَبَلَّغَتْ. ﴿لَوَ تَمَّ لِلْبَشَرِ﴾ أي: تلوحهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلعهم بشدة حرها وقُرْمَا.

﴿عَلَيْهَا يَتَنَبَّهْنَ ۚ عَنَّا﴾ من الملائكة خزنة لها، غلاظ شداد، لَا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ الْآلِ إِلَّا لَمْحَكَةٍ ۚ وَذٰلِكَ لَشِدْثُهُمْ وَقُوَّتُهُمْ. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يحتمل أن المراد: إلّا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، [كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمَّ عَلَى الْآلِ يُنْتَوْنَ﴾].

ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعذبته، إلّا لنعلم من يصدق ومن يكذب ويدل على هذا، ما ذكره بعده في قوله: ﴿يَسْتَفِيقُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَوَدَ الَّذِينَ مَآثَرًا إِلَيْهَا﴾، فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها، وصدقوا، ازداد إيمانهم.

﴿وَلَا يَرَوْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزول عنهم الرب والشك.

وهذه مقاصد جليلة، يعتي بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام، التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله، محصلًا لهذه الفوائد^(٢) الجليلة، ومميزًا للكاذبين من الصادقين.

ولهذا قال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾، أي: شك وشبهة ونفاق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مَا آتٰهُم مِّنْهُ إِلَّا مَكْرَ ۚ وَهٰذَا عَلَىٰ وَجْهِ الْحِيَرَةِ

٥٧٦
﴿إِنَّهُمُ يُفَكَّرُونَ﴾ ﴿وَقَدْ أَفْهَمُوا كَيْفَ قَدَرُ ۚ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُ ۚ ثُمَّ نَظَرُ ۚ ثُمَّ عَسَ وَبَسَ ۚ ثُمَّ أَدْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ۚ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا إِجْرَ ۚ يُؤْتَرُ ۚ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ سَأُصْلِيهٖ سَعَرَ ۚ وَمَا أَزْنٰهُ مَسْرَ ۚ لَا يَبْقٰى رَكَّةٌ لَّهُ دَٰرُ ۚ وَلَا تَبْقٰى مِنَ الشَّدَّةِ ۚ وَلَا عَلَى الْمَعْذُوبِ شَيْئًا ۚ عَلٰىهَا يَتَنَبَّهْنَ ۚ عَنَّا ۚ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ الْآلِ إِلَّا لَمْحَكَةٍ ۚ وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَوَدَ الَّذِينَ مَآثَرًا إِلَيْهَا ۚ وَلَا يَرَوْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنِينَ ۚ يَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ۚ وَالْكٰفِرُونَ مَا آتٰهُم مِّنْهُ إِلَّا مَكْرًا ۚ كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا ئَي إِلَّا ذِكْرُ الْبَشَرِ ۚ وَلَا الْقَمَرِ ۚ وَالْأَيْلُ إِلَّا ذَبْرٌ ۚ وَالشَّجِيعُ إِلَّا أَشْرٌ ۚ إِنَّمَا لِيَأْخُذَ الْكُفْرَ ۚ نَذِيرُ الْبَشَرِ ۚ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقِدَ ۚ أَوْ يُنَآخِرَ ۚ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينٌ ۚ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۚ فِي جَنَّةٍ يَنْسَوْنَ ۚ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۚ مَا سَلَكَ فِي سَعْرِ ۚ قَالُوا لَوْ نَكُن مِنَّا الصَّالِينَ ۚ وَلَوْ نَكُن نَطْلُعُ الْمَسْكِينِ ۚ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَافِضِينَ ۚ وَكَذٰلِكَ كُتِبَ بِسُورِ الْبَقَرَةِ ۚ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ ۚ﴾

والشك والكفر منهم بآيات الله، ولهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه.

ومن أضله جعل ما أنزله على رسوله، زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم.

فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب. ﴿وَمَا ئَي إِلَّا ذِكْرُ الْبَشَرِ﴾، أي: وما هذه الموعظة والتذكار، مقصودًا به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر [به] البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

(٣٢-٥٦) ﴿وَالْقَمَرِ ۚ وَالْأَيْلُ إِلَّا ذَبْرٌ ۚ وَالشَّجِيعُ إِلَّا أَشْرٌ ۚ إِنَّمَا

(١) في ب: على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى. (٢) في ب: المقاصد.

ونجادل به الحق.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذا أثر الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لاسائر الخلق.

فاستمررنا على هذا المذهب الفاسد^(١) ﴿حَتَّى أَتْنَا الْآلِثِينَ﴾ أي: الموت: فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسأ في وجوههم باب الأمل.

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم^(٢).

فلما بين الله مآل المخالفين، ورغب مما^(٣) يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال:

﴿فَمَا ظَنَّمْ عَنِ الْكَذَّكَاءِ مُعْرِضِينَ﴾، أي: صادين غافلين عنها.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في نفرتهم الشديدة منها، ﴿حُمْرٌ مُشْتَبِهَةٌ﴾ أي:

كأنهم حمر وحش، نهزت ففر بعضها بعضاً، فزاد عدوها.

﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾، أي: من صائد ورام يريد بها، أو من

أسد ونحوه.

ولهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوي الكبار.

﴿فَإِذْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتِيَ صُحُفًا مُتَنَبِّرَةً﴾ نازلة عليه من

السماء، يزعم أنه لا يتقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم

لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم

جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان

فيهم خير لآمنوا.

ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ لا نعطيهم^(٤) ما طلبوا، وهم ما

قصدا بذلك إلا التعجيز.

﴿لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلو كانوا يخافونها، لما جرى

منهم ما جرى.

﴿كَعَلَاءٍ لَيْسَ لَهُمْ مَبْرَأٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة،

أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ لأنه قد بين له السبيل، ووضع له

الدليل.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئته^(٥) نافذة عامة، لا

يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، فيها رد على القدرية،

الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية

يَحْدَى الْكَلْبُ ﴿نَبِيًّا لِلْبَشَرِ﴾ لِمَنْ شَاءَ يَنْدُبُ أَوْ يَنْتَقِزُ ﴿كُلُّ نَبِيٍّ بِمَا كَتَبَ رَبُّهُ﴾ إِلَّا أَحْصَى الْبَشَرُ ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِيِّينَ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ مِنَ الْمَلَأِينَ ﴿وَلَوْ نَعْلَمُ الْيُسُفِينَ﴾ وَكُنَّا نَعُوشُ مَعَ الْفَاطِيينَ ﴿وَكَلَّا نَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾ حَتَّى أَتَيْنَا الْآلِثِينَ ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ فَمَا ظَنَّمْ عَنِ الْكَذَّكَاءِ مُعْرِضِينَ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُشْتَبِهَةٌ﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتِيَ صُحُفًا مُتَنَبِّرَةً﴾ كَلَّا بَلْ يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿كَعَلَاءٍ لَيْسَ لَهُمْ مَبْرَأٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هُوَ أَهْلُ التَّنْزِيلِ وَأَهْلُ التَّفْوِيرِ.

﴿كَلَّا﴾ هنا بمعنى: حقاً، أو بمعنى «إلا» الاستفاحية.

فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره، لاشتغال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته وإحاطة علمه.

والمقسم عليه، قوله: ﴿إِنَّمَا يَحْدَى الْكَلْبُ﴾، أي: لإحدى العظائم الطامة والامور الهامة.

فإذا أعلمناكم بها، وكنتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء منكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدينه من رضاء، ويتركه من دار كرامته.

أو يتأخر [عما خلق له،] و[عما يحبه الله،] ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْخَلْقُ مِنْ ذُرِّيَّتِي فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ الآية.

﴿كُلُّ نَبِيٍّ بِمَا كَتَبَ﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر، ﴿رَبُّهُ﴾ بها موقفة بسعيها، قد ألزم عتقها، وغل في رقيبها، واستوجبت به العذاب.

﴿إِلَّا أَحْصَى الْبَشَرُ﴾ فإنهم لم يرتبوا، بل أطلقوا وفرحوا.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِيِّينَ ﴿أَي: فِي جَنَاتٍ قَدْ حَصَلَ لَهُمْ بِهَا جَمِيعُ مَطْلُوبَاتِهِمْ، وَتَمَّتْ لَهُمُ الرَّاحَةُ وَالطَّمَانِينَةُ، حَتَّى أَقْبَلُوا يَتَسَاءَلُونَ، فَأَفْضَتْ بِهِمُ الْمَحَادَّةُ، أَنْ سَأَلُوا عَنِ الْمَجْرِمِينَ: أَي حَالٍ وَصَلُوا إِلَيْهَا، وَهَلْ وَجَدُوا مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى؟﴾

فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطلعون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ أَي: أَي شَيْءٍ أَدْخَلَكُمْ فِيهَا؟ وبأي ذنب استحققتموها؟

﴿فَقَالُوا لَوْ نَعْلَمُ مِنَ الْمَلَأِينَ﴾ وَكَذَلِكَ تَطْلُمُ الْيُسُفِينَ ﴿فَلَا إِخْلَاصَ لِلْمَعْبُودِ وَلَا إِحْسَانَ﴾ وَلَا نَفْعَ لِلخَلْقِ الْمُحْتَاجِينَ.

﴿وَكُنَّا نَعُوشُ مَعَ الْفَاطِيينَ﴾، أَي: نخوض بالباطل،

(١) في ب: الباطل. (٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم. (٣)

في ب: وبين ما يفعل بهم. (٤) في الأصل (أن تعليهم) ولعل الصواب ما

أثبت. (٥) في ب: فإن مشيئة الله.

الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلًا، وجعل ذلك تابعا لمشيئته.

﴿هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾، أي: هو أهل أن ينفي ويعيد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه، واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر، والله الحمد^(١).

تفسير سورة القيامة

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَامَةِ ○ **أَيَحْسَبُ** **الْإِنْسَانُ** ○ **أَلَّنْ يَجْعَ عِظَامُهُ** ○ **بَلْ يَذَرُ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ** ○ **بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ** **يُخَيَّرَ أَمَامَهُ** ○ **يَنْتَقِلُ بَيْنَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ** **لَيْسَتْ** **«لَا»** **[هَاهُنَا نَافِيَةً]** **[وَلَا زَائِدَةً]**، وإنما أني بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، وكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح، فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم.

﴿لَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَامَةِ﴾ وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، شُيِّتَ «الْوَامَةُ» لكثرة ترددها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت^(٢)، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه من تقريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة. فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء، ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب يوم القيامة، فقال:

﴿أَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْعَ عِظَامُهُ﴾ بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ مَنْ يُغْنِي الْعِظَامُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٣).

فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله:

﴿بَلْ يَذَرُ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾، أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى فقصورًا بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقع]

فَمَا تَعْمَهُمْ سَعَةُ الشَّفَعِينَ ﴿١٥﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿١٦﴾ كَانَهُمْ حُرُورًا مَسْفُورًا ﴿١٧﴾ كَرِهَتْ مِنْ قِسْوَةٍ ﴿١٨﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ لَاحِظُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٢١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَأَهْلُ الْغَفْرِ ﴿٢٣﴾

سُورَةُ الْقِيَمَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَامَةِ ○ **أَيَحْسَبُ** **الْإِنْسَانُ** ○ **أَلَّنْ يَجْعَ عِظَامُهُ** ○ **بَلْ يَذَرُ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ** ○ **بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ** **يُخَيَّرَ أَمَامَهُ** ○ **يَنْتَقِلُ بَيْنَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ** **لَيْسَتْ** **«لَا»** **[هَاهُنَا نَافِيَةً]** **[وَلَا زَائِدَةً]**، وإنما أني بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، وكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح، فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم.

ذلك منه، أن قصده وإرادته أن يكذب^(٣) بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد. ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

(١٥-٧) ﴿وَلَا يَذْكُرُ الْفَقْرُ ○ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ○ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ○ يَوْمَ الْإِنْسَانِ يَوْمَ يُؤْتَىٰ بِالنَّفَرِ ○ كَلَّا لَا وَدَّ ○ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَرَى ○ يَبْئُتُ الْإِنْسَانُ بِمَا كَانَتْ تَرْجَى ○ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ○ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ ○ أَي: إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ يَوْمَ تَشْهَرُ فِيهِ الْأَنْفُسُ ○ مُهْطِعَاتٌ مُقْبِعَاتٌ زُرَّارٌ ○ لَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ مُرْفَعَةً ○ وَفِي ذَٰلِكَ هَوَاءٌ ○﴾.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، أي: ذهب نوره وسلطانه.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهم عبيدان مسخران، وليرى من عبدهما، أنهم كانوا كاذبين.

(١) في ب: تمت لله الحمد والمنة. (٢) في ب: على ما فعلت. (٣) في ب: لأن إرادته وقصده التكليب.

وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان، أن لا يبادر برده أو بقله، حتى يفرغ من ذلك الكلام، ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه.

وفيها: أن النبي ﷺ، كما بين للأمة ألفاظ الوحي، فإنه قد بين لهم معانيه.

(٢٠-٢٥) ﴿عَلَّا يَلْتُخَيَّبُوا النَّاسَ﴾ ○ ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ○ ﴿وَهُمْ يَوْمَئِذٍ كَايِرَةٌ﴾ ○ ﴿إِنَّ رَبَّهَا كَاتِرٌ﴾ ○ ﴿وَهُمْ يَوْمَئِذٍ كَايِرَةٌ﴾ ○ ﴿نَقُلُّ أَنْ يَفْعَلُ بِهَا قَائِرَةٌ﴾ ○

أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿يُخَيَّبُونَ النَّاسَ﴾ وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها؛ لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها، وتركتوها، كأنكم لم تخلقوا لها، وكأن هذه الدار هي دار القرار التي تبدل فيها نفاس الأعمار، ويسعى لها آتاء الليل والنهار، وبهذا انقلبتم عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل.

فلو أنتم الآخرة على الدنيا، ونظرتم للعواقب نظر البصير العاقل، لأنجحتهم، وربحتهم ربحاً لا خسارة معه، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا: ﴿وَهُمْ يَوْمَئِذٍ كَايِرَةٌ﴾، أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح. ﴿إِنَّ رَبَّهَا كَاتِرٌ﴾، أي: تنظر إلى ربها^(٥)، على مراتبهم:

منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيستمعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثل شيء، فإذا رآوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور، ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، فازدادوا جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا منهم.

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة: ﴿وَهُمْ يَوْمَئِذٍ كَايِرَةٌ﴾، أي: معسبة ومكدرة^(٦)، خاشعة ذليلة ﴿نَقُلُّ أَنْ يَفْعَلُ بِهَا

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ حين يرى تلك القلائل المزعجات: ﴿إِنَّ كَاتِرٌ﴾؟ أي: أين الخلاص والقرار، مما طرفنا وأصابنا^(٧).

﴿عَلَّا لَا تَخَيَّبُوا﴾، أي: لا ملجأ لأحد دون الله، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ شَتَّى﴾ لساثر العباد، فليس في إمكان أحد، أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه، ليجزى بعمله، ولهذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ الْإِنْسُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، أي: بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾، أي: شاهداً ومحاسباً.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلنَّاسِ مِثْرَةَ حَبِّبَةٍ﴾ فإنها معاذير لا تقبل، ولا تقابل ما يقرر به العبد^(٨)، فيقر به، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَأَ كُنُكَ كُنَّ يَنْفَيْكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾.

فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره، لا يفيدانه شيئاً، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعابه، قد ذهب وقته، وزال نفسه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الْكُفَّارَ ظَلَمُوا مَعْدُودَتَهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

(١٦-١٩) ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَكَّلَ بِهِ﴾ ○ ﴿إِنَّ عَلَيْكَ جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ○ ﴿فَإِذَا قُرَأَتْهُ تَأَنَّنَ قُرْآنَهُ﴾ ○ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْكَ يَسَانَهُ﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ، من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن هذا، وقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

وقال هنا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَكَّلَ بِهِ﴾، ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه الله في صدره فقال:

﴿إِنَّ عَلَيْكَ جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر القوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك، فلا موجب لذلك.

﴿فَإِذَا قُرَأَتْهُ تَأَنَّنَ قُرْآنَهُ﴾، أي: إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله^(٩) إليك، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْكَ يَسَانَهُ﴾، أي: بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه، وحفظ معانيه، ولهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه.

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم، قبل أن يفرغ من^(١٠) المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه.

(١) في ب: والفكاك مما طرفنا وألم بنا. (٢) في ب: بل يقرر بعمله.

(٣) في ب: إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك. (٤) في ب: أن لا يبادر المتعلم للمعلم قبل أن يفرغ المعلم. (٥) في ب: أي: ينظرون إلى ربهم.

(٦) في ب: كدرة.

فَإِفْرَةً^(٤٠)، أي: عقوبة شديدة، وعذاب أليم، فلذلك تغيرت وجوههم وعيست.

(٤٠-٢٦) ﴿لَا يَأْتِيهِمُ الْفَرَقُ﴾ وقيل من راقٍ ○ وقيل الله الفراق ○ والقلب أنشأ بالساق ○ إن ربك يومئذ السامع ○ فلا صدق ولا سؤل ○ ولكن كذب وتولى ○ ثم دعيت إليه ألقوه يستمعون ○ أولئك لك فأولئك ○ ثم أولئك لك فأولئك ○ انجسب الإنسان أن يتركه منك ○ أثر بك ظلمة من مخرج بيني ○ ثم كان علقه خلق فسوون ○ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ○ أليس ذلك يقدر على أن يحيي الموتى ○ يعظ تعالى عباده، بذكر حال المحتضر عند السياق^(١)، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لنفحة النحر.

فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة.

ولهذا قال: ﴿يَقِيلُ مَنْ رَاقٍ﴾، أي: من يرقيه، من الرقية، لأنهم انقطعوا آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية^(٢). ولكن القضاء والقدر، إذا حتم وجاء فلا مرد له. ﴿وَلَهُ اللَّهُ الْفَرَقُ﴾ للدنيا.

﴿وَالْقَلْبَ أَنشَأَ بِالسَّقِ﴾ أي: اجتمعت الشدائد والنفث، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألقت البدن^(٣)، ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى حتى يجازيها بأعمالها ويقرها بفعالها.

فهذا الزجر [الذي ذكره الله] يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها. ولكن المعاند الذي^(٤) لا تنفع فيه الآيات، لا يزال مستمرًا على نفيه، وكفره وعناده.

﴿فَلَا صَدَقَ﴾ أي: لا آمن بالله وملانكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ بالحق في مقابلة التصديق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الأمر والنهي، وهذا وهو مطمئن قلبه، غير خائف من ربه.

بل يذهب ﴿إِلَىٰ آلِهَةٍ يَسْتَعِينُ﴾، أي: ليس على باله شيء. توعده بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَكَ فَالَوُكُ ○ ثُمَّ أُولَٰئِكَ لَكَ فَالَوُكُ﴾ وهذه كلمات وعيد كررها لتكرير وعيده.

ثم دُخِرَ الإنسان بخلقه الأول، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يتركه سدى﴾، أي: معطلًا^(٥)، لا يؤرم ولا ينهي، ولا يثاب ولا يعاقب؟.

هذا حساب باطل، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته. ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ ظُلْمَةٌ مِّن مَّيِّمَتِي ○ ثُمَّ كَانَ﴾ بعد المني ﴿عَلَقَةً﴾ أي:

كَلَابِلٌ يُتْحَمُونَ الْعَاجِلَةَ ○ وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ ○ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ○ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ○ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ ○ ظُنُّوا أَنَّ بَعْضَ مَا قَا فَا فَرَةً ○ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ○ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ○ وَظُنُّوا أَنَّ الْفَرَقَ ○ وَالنَّفْسَ السَّاقِيَّ ○ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ ○ فَلَا صَدَقَ وَلَا حَقَّ ○ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ○ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَسْمَعُ ○ أُولَٰئِكَ لَكَ فَالَوُكُ ○ ثُمَّ أُولَٰئِكَ لَكَ فَالَوُكُ ○ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يتركه سدى ○ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ ظُلْمَةٌ مِّن مَّيِّمَتِي ○ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ○ وَالرَّوْحَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى ○ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ ○ ثُمَّ أُولَٰئِكَ لَكَ فَالَوُكُ ○

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ○
إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا ○
بَصِيرًا ○ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا سَأَرَ أَنَّهُ وَإِنَّا كُنَّا لَعِندَهُ لَكَا فِرِينَ ○ سَلَامٌ عَلَيْنَا وَأَعْلَانَا وَسُورًا ○ إِنَّا لَآبْرَارٌ مُّشْرَبُونَ ○ مِن كَا سِرٍ كَانَتْ يَرْجَاهَا كَا فُورًا ○

دما ﴿فَتَكَلَّمَ﴾ الله منها الحيوان وسواه أي: أفضه وأحكمه. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى ○ أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ الذي خلق الإنسان [وطوره إلى] هذه الأطوار المختلفة ﴿يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى﴾، بلى إنه على كل شيء قدير.

تم تفسير سورة القيامة، والله الحمد والمنة، وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤هـ^(١).

المجلد التاسع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالرحمن السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين.

(١) في ب: يذكر المحتضر حال السياق. (٢) في ب: فتعلقوا بالأسباب الإلهية. (٣) في ب: أن تخرج الروح من البدن الذي أفضه. (٤) كذا في ب، وفي أ: التي. (٥) في ب: أي: مهبطًا. (٦) في ب: والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة هل أتى على الإنسان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

أبدانهم، ﴿كَلَّمَ نَجِيَّتَهُمْ جُلُودَهُمْ بِدَلَّتِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وهذا العذاب دائم لهم أبدًا، مخلدون فيه سرمدًا .
وأما ﴿الْأَبْرَارَ﴾ وهم الذين برت قلوبهم، بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم^(٢)، واستعملوها بأعمال البر .

أخبر أنهم ﴿يَسْتَرْوُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾، أي : شراب لذيق من خمر قد مزج بكافور، أي : خلط بكافور، ليرده، ويكرس حذته، ولهذا الكافور [في غاية اللذة]، قد سلم من كل مكدر ومنقص موجود في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا، تعدم في الآخرة^(٣).
كما قال تعالى : ﴿فِي يَدَيْهِ تَحْشِيرٌ وَطَلْعٌ مَشْهُورٌ﴾، ﴿وَأَرْزَاقٌ مُطَهَّرَةٌ﴾، ﴿لَهُمْ قَارُورٌ عَلَيْهِمْ رَيْبٌ﴾، ﴿وَبَيْنَهُمَا شَتَّىٰهِمُ الْإِنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ﴾ .

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، أي : ذلك الكأس اللذيذ، الذي يشربون به، لا يخافون فناذه، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفرجها عباد الله تفجيرًا، أنى شاءوا، وكيف أرادوا .

فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور، والمساكن المزخرفات، أو إلى أي جهة يرونها من الجهات الموثقات .
وقد^(٤) ذكر جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال : ﴿يُؤْتُونَ بِالْغَدْرِ﴾، أي : بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات .

وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب^(٥) عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى .

﴿وَيَقُولُونَ يَا كَذَّابٌ أَفَبِعَيْنِنَا كَانَتْ سَكِينًا مِّنْ رَبِّهِمْ﴾، أي : منتشرًا فاشيًا، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك .
﴿وَيَقِيلُونَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَبِيرٌ﴾، أي : وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم ﴿وَبَيْنَهُمَا شَتَّىٰهِمُ الْإِنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ﴾ .

ويقصدون بإيقاعهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال : ﴿إِنَّا ظَلَمْنَاكَ رَبَّنَا لَا نُؤْمِنُ بِكَ حَرَّةً وَلَا شُكْرًا﴾، أي : لا جزاء ماليًا، ولا ثناء قوليًا .

(١) في ب : الطريق الموصلة إليه وبينها . (٢) في ب : أعمالهم . (٣) في ب : الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة . (٤) في ب : ثم ذكر . (٥) في ب : الذي هو غير واجب .

(١-٣) ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ الْأَمْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ . إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طِفْلَةٍ أَنشَأَ بِتِلْكَ فَعَلَيْهِ سَمِيًّا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا﴾ ذكر الله في هذه السورة الكريمة، أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها .

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم بل ليس مذكورًا .

ثم لما أراد الله تعالى خلقه، خلق [أباه] آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿مِنْ طِفْلَةٍ أَنشَأَ﴾، أي : ماء مهين مستقدر ﴿بِتِلْكَ﴾، بذلك، لنعلم هل يرى حاله الأولى، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه ؟

فأنشأه الله، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة، كالسمع والبصر، وسائر الأعضاء، فأتىها له وجعلها سالمة، يتمكن بها من تحصيل مقاصده .

ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وهدهد الطريق الموصلة إلى الله^(١)، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله .

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورغبه منها، وأخبره بما له إذا سلكتها، وابتلاء بذلك، فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه، قائم بما حملة الله من حقوقه .

وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردّها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك .

ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال :
(٤-٢٢) ﴿إِنَّا أَهْنَأْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَأَغْلَلْنَا وَسِيمًا﴾ . إِنَّا الْأَبْرَارَ يَسْتَرْوُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَتْ رِزْقًا مِّنْ أَجْزَائِهِمَا صَكَاوَرًا﴾ إلى آخر الثواب .
أي : إنا هيناء، وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجراً على المعاصي .

﴿سَكِينًا﴾ في نار جهنم، كما قال تعالى : ﴿تَرَىٰ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعًا مَّشْهُورًا وَفَا تَسْكَنُوهَا﴾ .

﴿وَأَغْلَلْنَا﴾ نغل بها أيديهم إلى أعناقهم، ويوثقون بها .
﴿وَسِيمًا﴾ أي : نازراً تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها

عَيْنَا تَشْرَبُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿١٠﴾ يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ خَافُونَ
يَوْمًا مَّا كُنَّا نُرْمِيهِمْ بِغُرُوبِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا سَوِيًّا ﴿١١﴾
وَيَسْمَاوِيسَ وَإِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّمَا نَنْطَعِمُكَرُوبِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُرِيدُنَا كُفْرًا وَلَا شُكُورًا ﴿١٢﴾
إِنَّا خَافْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ وَمَا عَوْسَا قَطِيرًا ﴿١٣﴾ أَوْفَقَهُمْ اللَّهُ شُرْذِلَكَ
الْبُيُوتِ وَلَقَنَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١٤﴾ وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا وَجَهْرًا ۚ وَجَزَّيْنَهُ
مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْيَافِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٥﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَفْئِدَتُهُمْ لَا ذِلَّةَ لَهَا ۚ وَطُفَافٌ عَلَيْهِمْ وَخَافِيَةٌ
مِنْ فَضْوَةٍ ۚ وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٦﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٧﴾
وَسَقَوْهُمْ فِيهَا مَاءً كَأْسًا مِنْ مَرْجَانٍ وَجَعَلْنَا فِيهَا قَنَاطِيرًا ذَاتَ آثَانٍ ﴿١٨﴾
وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ خِلَافًا ۚ وَلَوْلَا تَحُدُّهُمْ إِنْفَارَاتُ الْبِحَارِ لَافْتَدَتْ مِنْهُمْ لُجُنَّاتُ الْبُيُوتِ
الَّتِي بَنَوْا ۚ وَإِذْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ تَعْبُدُونَ ۚ وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِنْ ذَهَبٍ
خُضْرَ وَإِسْتَبْرَقَ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَوْهُمْ زَهَبًا مُسَرَّابًا ﴿٢٠﴾
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَأَصْبَحَ لُحْمٌ ذَرْبًا ۚ وَأَنطَلَعَ
مِنْهُمْ ۚ إِنَّمَا أَكْثَرُكُمْ كُفْرًا ۚ وَأَذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٤﴾

وخدلمتهم.

﴿وَلَوْلَا تَحُدُّهُمْ إِنْفَارَاتُ الْبِحَارِ﴾ أي: خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن.

﴿إِنَّا رَأَيْنَاهُمْ﴾ منتشرين في خدمتهم ﴿حَبِيبَتُهُمْ﴾ من حسنهم ﴿لُجُنَّاتُ الْبُيُوتِ﴾، ولهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدامهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون على مساكنهم، آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون، وتطلبه نفوسهم.

﴿وَلَوْلَا رَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ تَعْبُدُونَ﴾ أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم^(١)، ﴿رَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ تَعْبُدُونَ﴾ فوجد الواحد منهم، عنده من القصور والمسكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف.

ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار الجارية، والرياض المعجبة، والطيور

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ أي: شديد الجهمة والشر ﴿قَطِيرًا﴾، أي: ضئلاً ضيقاً.

﴿وَقَفَّيْهُمْ اللَّهُ شُرْذِلَكَ الْبُيُوتِ﴾ فلا يحزنهم الفرع الأكبر، وتلقاهم الملائكة، [هذا يومكم الذي كنتم توعدون].

﴿وَلَقَنَهُمْ﴾ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نَصْرَهُ﴾ في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

﴿وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا﴾ على طاعة الله، فعلوما ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلم يتسخطوها.

﴿وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا﴾ جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص. ﴿وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا﴾ كما قال [تعالى]: ﴿وَلَقَدْ كُفِّرْنَا عَنْهُمْ فِيهَا حَبِيرًا﴾.

ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه.

﴿مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْيَافِ﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الرفاهية والطمانينة [الراحة]، والأرائك: هي السرر التي عليها اللباس العزيز.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿شَمْسًا﴾ يضرهم حرها، ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: برداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألم من حر ولا برد.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَفْئِدَتُهُمْ لَا ذِلَّةَ لَهَا﴾ أي: قربت ثمراتها من مريدتها تقريباً ينالها وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان^(١) ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۚ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي: مادتها من فضة، [وهي] على صفاء القوارير، ولهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة، من صفاء جوهرها، وطيب معدنها، على صفاء القوارير.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر زهبتهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف بزيهم^(٢).

ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرمهم.

﴿وَسَقَوْهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة من كأس وهو الإناء المملوء من خمر وورحيق، ﴿كَأَنَّ مِرْجَانَهَا﴾ أي: خلطها ﴿زَهَبًا﴾ لطيب طعمه وريحه.

﴿وَيَسْمَاوِيسَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: في الجنة ﴿سَقَوْهُمْ سَقِيًّا﴾ سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿وَيُطَوَّفُ﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشربهم

(١) في ب: ﴿وَلَوْلَا رَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ تَعْبُدُونَ﴾ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة.

(٢) في ب: لم تكفهم لزيهم. (٣) في ب: أي: رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل.

الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

(٢٦) ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا تَسْبِيحُ لَمْ﴾، أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالاكثار من الصلاة^(٥).

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، وقد تقدم تفصيل هذا المطلق بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ۚ بَلِّغْ أَتَىٰ لَكُمْ قِيلًا﴾ الآية^(٦).

(٢٧) [وقوله: ﴿إِنَّ كَذِبًا﴾] أي: المكذبين لك أيها الرسول! بعد ما بينت لهم الآيات، ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك، لم ينفذ فيهم ذلك شيئاً، بل لا يزالون يؤثرون ﴿الْقَالَةَ﴾ ويطمنون إليها.

﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون العمل، ويهملون ﴿وَرَبَّكَ﴾ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا تَبْلَا﴾ وهو يوم القيامة الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون.

وقال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرَسٌ﴾. فكانهم ما خلقوا إلا للدنيا، والإقامة فيها.

(٢٨) ثم استدلل عليهم وعلى بعضهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿لَحْنٌ خَلَقْتَهُمْ﴾، أي: أوجدناهم من العدم ﴿وَرَعَدْنَا أَسْرَفَهُمْ﴾، أي: أحكنا خلقهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده.

فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا يهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:

﴿بَلَلْنَا أَسْمَانَهُمْ تَبْيِيلًا﴾، أي: أنشأناهم للبعث نشأة أخرى، وأعدناهم بأعيانهم^(٧)، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَكْسِرَةٌ﴾، أي: يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَهًا رَبًّا سَبِيلًا﴾، أي: طريقاً موصلاً إليه، فإله بين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها، أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم^(٨).

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئة الله نافذة.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فله الحكمة في هداية

المطربة [المشجبة] ما يأخذ بالقلوب، ويفرج النفوس. وعنده من الزوجات اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سروراً، ولذة وجوراً.

وحوله من ولدان المخلدين، والخدم المؤبدن، ما به تحصل الراحة والطمانية، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة. ثم علاوة ذلك ومعظمه، الفوز بروية^(٩) الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قرب، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم، كل وقت وحين.

فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفذ خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه، فلا نهاية لبره وإحسانه.

﴿يَتَّبِعُهُ يَكِبُ سُئُلُ خَضِرٍ﴾، أي: قد جللتهم ثياب السندس والاستبرق الأخضران اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج^(١٠)، والاستبرق: ما رق منه.

﴿وَسُئُلُوا أَتَوْا مِنْ يَمِينِهِمْ﴾، أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكروهم وإناهم، ولهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولاً، لأنه لا أصدق منه قِيلاً ولا حديثاً. وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهُمْ رَبُّهُمْ شَرًّا مَطُورًا﴾، أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ على ما أسلفتموه، من الأعمال.

﴿وَكَانَ سَيُكْرَمُ شُكْرًا﴾ أي: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم، ما لا يمكن حصره.

(٢٣) وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ عَلَيْكَ الْفَرَّانَ تَبْيِيلًا﴾ فيه الوعد والوعيد، وبيان كل ما يحتاجه العباد. وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر على ذلك.

(٢٤) ولهذا قال: ﴿تَأْتِيهِ لَئِيكَ رِيحٌ وَلَا تُلْغِي عَنْهُمْ إِنَّمَا وَرَاءَهُمْ حُجُورٌ﴾، أي: اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق.

﴿وَلَا تُلْغِي عَنْهُمْ﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك ﴿إِنَّمَا﴾ أي: فاعلاً إِنَّمَا ومعصية ولا ﴿حُجُورٌ﴾، فإن طاعة الكفار والفجار والفساق، لا بد أن تكون في المعاصي، فلا يأمر^(١١) إلا بما تهواه أنفسهم.

(٢٥) ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله^(١٢)، والإكثار من ذكره، أمره الله بذلك، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَمِيلًا﴾، أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا بد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمر^(١). (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: وذلك مضمّن لكثرة الصلاة. (٦) في ب: أكمل الآيات ﴿تَسْبِيحًا أَوْ تَسْبِيحًا مَثَلًا قِيلًا أَوْ دَرْجَةً﴾. (٧) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَةٍ﴾ فيختصه بعنائه، ويوقفه

لأسباب السعادة ويهديه لطريقها.

﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الذين اختاروا الشقاء على الهدى ﴿أَعَدَّ لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان، والله الحمد والمآلة^(١).

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٥) ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ ^(١) ^(٢) ^(٣) ^(٤) ^(٥) ^(٦) ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ^(٩٨٠) ^(٩٨١) ^(٩٨٢) ^(٩٨٣) ^(٩٨٤) ^(٩٨٥) ^(٩٨٦) ^(٩٨٧) ^(٩٨٨) ^(٩٨٩) ^(٩٩٠) ^(٩٩١) ^(٩٩٢) ^(٩٩٣) ^(٩٩٤) ^(٩٩٥) ^(٩٩٦) ^(٩٩٧) ^(٩٩٨) ^(٩٩٩) ^(١٠٠٠) ^{(١}

الذي أعد [للمجرمين] للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَطِيعُوا إِيَّاهُ مَا كُتِبَ بِهِ تَعْبُدُونَ﴾ ثم فسر ذلك بقوله:

﴿أَطِيعُوا إِيَّاهُ طِيْرًا ذِي ثَلَاثِ شَمْسٍ﴾، أي: إلى ظل نار جهنم، التي تمتاز في خلاله ثلاث شعب، أي: قطع من النار، أي: تتعاوره وتتناوبه، وتجتمع به.

﴿لَا طِيلَ﴾ ذلك الظل، أي: لا راحة فيه، ولا طمأنينة.

﴿وَلَا يُغْنِي﴾ من مكث فيه ﴿بَيْنَ اللَّهِ﴾، بل اللهب قد أحاط به، يمتد ويسره، ومن كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قُودِهِمْ طُلُوفٌ مِنْ أُنْثَارٍ مِنْ نَحْوِهِمْ طُلُوفٌ﴾، ﴿لَهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ يَمَادٌ مِنْ قُودِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ يُجْزَى الْفَٰلِغِينَ﴾. ثم ذكر عظم شرر النار، الدال على عظمها وفظاعتها، وسوء منظرها، فقال:

﴿إِنَّمَا تَرَىٰ يَشْكُرُ الْقَٰصِرُ﴾ ○ كَأَنَّهُ جَعَلَ صُغْرًا ○ وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء، كريهة المراءى^(١)، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها، [من الأعمال المقربة منها].

﴿وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٣٥-٤٠) ﴿هَٰذَا يَوْمٌ لَا يَظُنُّونَ ○ وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ يُعْمَدُونَ ○ وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ ○ هَٰذَا يَوْمُ الْقَٰصِلِ جَمْعُهُمُ وَالْأَوَّلِينَ ○ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ○ وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد.

﴿وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ يُعْمَدُونَ﴾، أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا: ﴿فَيُؤْمِنُ لَهُمْ لَا يَفْعُ الْآلِيَةُ ظُلْمًا مُعَذِّرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْتَصَرُونَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْقَٰصِلِ جَمْعُهُمُ وَالْأَوَّلِينَ﴾ لنفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ تقدرتون على الخروج من ملكي، وتنجون به من عذابي، ﴿فَكِيدُوا﴾، أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالى: ﴿يُتَمَتَّرُ لِيَّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَفْتَحْتُمْ أَنْ تُفْعَدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاسْتَفْعَدُوا لَا تَنْفَعُوكُمْ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرمهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم ﴿وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٤١-٤٥) ﴿إِنَّ الْكَاذِبِينَ فِي طَلِيلٍ وَغُيُوبٍ ○ وَفُوكَهُ مِمَّا يَشْتَبُونَ ○ كُلًّا وَاسْتَرْبُوا فَيَتَبَا مِمَّا كُتِبَ لَهُمْ نَجْوَى الْخَبِيِّينَ ○ وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر ثواب^(٥)

نَعْمَ لِلْمُجْرِمِينَ ○ وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: أما أهلنا المكذبين السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة، في كل مجرم لا بد من عذابه^(٦)، فلم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟

﴿وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما شاهدوا من الآيات البينات، والعقوبات والثلاث.

(٢٠-٢٤) ﴿أَلَمْ تَخْلُقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ○ فَجَعَلْتَهُ فِي قَرَارٍ تَكِينٍ ○ إِنْ قَدَرْتَ مَعْلُومٌ ○ فَتَدْرَأُ فِيمَ الْقَدِيرُونَ ○ وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: أما خلقناكم أيها الآدميون ﴿بَيْنَ مَاءٍ مَهِينٍ﴾، أي: في غاية الحفارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ وهو الرحم، به يستقر وينمو.

﴿إِنْ قَدَرْتَ مَعْلُومٌ﴾ ووقت مقدر.

﴿فَتَدْرَأُ﴾ أي: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

﴿فِيمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [يعني بذلك نفسه المقدسة] حيث كان قدراً تابعا للحكمة موافقا للحمد^(٧).

﴿وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبيانات.

(٢٥-٢٨) ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ○ أُنْثِيَةً وَأُنْثَا ○ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ شَجِجًا وَأَصْنَعًا مَاءً فُرَاتًا ○ وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: أما امتنا^(٨) عليكم، وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها ﴿كِفَاتًا﴾ لكم ﴿أُنْثِيَةً﴾ في الدور ﴿وَأُنْثَا﴾ في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده وممته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وسترا لهم، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ترسي الأرض، لتلا تמיד بأهلها، فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات، أي: الطوال العراض.

﴿وَأَصْنَعًا مَاءً فُرَاتًا﴾، أي: عذبا زلالا، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ○ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ أَنْزَلُونَهُ ○ لَوْ شَاءَ جَعَلْنَاهُ أُنْجَابًا فَفَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ مع ما أراهم الله من النعم التي انفرد الله بها، واختصهم بها، فقايلوها بالكذب.

(٢٩-٣٤) ﴿أَطِيعُوا إِيَّاهُ مَا كُتِبَ بِهِ تَعْبُدُونَ ○ أَطِيعُوا إِيَّاهُ طِيْرًا ذِي ثَلَاثِ شَمْسٍ ○ لَا طِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ ○ إِنَّمَا تَرَىٰ يَشْكُرُ الْقَٰصِرُ ○ كَأَنَّهُ جَعَلَ صُغْرًا ○ وَلَا يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا من الويل

(١) في ب: عقابه. (٢) في ب: لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد.

(٣) في ب: أما مثلاً. (٤) في ب: كريهة المنظر. (٥) في ب: ثواب.

المحسين، فقال:

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ﴾ [أي: للتكذيب، المتصفين بالصدق، في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم.

ولا يكونون كذلك، إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿فِي ظُلُلٍ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية.

﴿وَيُؤْتُونَ﴾ جارية من السلسيل، والريح وغيرهما.

﴿وَفَوْكَ يَمًا يَنْتَوُونَ﴾، أي: من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاقْتَرِبُوا﴾ من المأكّل الشهيّة، والأشربة اللذيذة، ﴿هَيْئًا﴾، أي: من غير منغص ولا مكدر.

ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب، من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع، ولا زائل.

﴿يَمًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأعمالكم، هي السبب الموصول لكم إلى هذا النعيم^(١) المقيم.

ولهكذا كل من أحسن في عبادة الله، وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ○ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ، ولو لم يكن لهم من هذا الويل، إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرمانًا وخسرانًا^(٢).

(٤٦-٥٠) ﴿كُلُوا وَشَبَبُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ ○ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ ○ وَإِنَّا قَدِ افْتَرَيْنَا لَهُ أَفْكَارًا لَا يَرْكَبُونَ ○ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ ○ فَإِنِّي سَيِّئٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا تهديد ووعد للمكذّبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا، وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستنقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات.

ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿ارْكَعُوا﴾ امتنعوا عن ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟

﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ﴾، ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

﴿فَإِنِّي سَيِّئٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾، أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب، أفأك مبین؟

فليس بعد النور المبین، إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق، الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح، والإفك المبین^(٣) الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فليس بعد النور المبین، إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق، الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح، والإفك المبین^(٣) الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فليس بعد النور المبین، إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق، الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح، والإفك المبین^(٣) الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فليس بعد النور المبین، إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق، الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح، والإفك المبین^(٣) الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فليس بعد النور المبین، إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق، الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح، والإفك المبین^(٣) الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فليس بعد النور المبین، إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق، الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح، والإفك المبین^(٣) الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فتبّاه لهم، ما أعاماهم! وبيّاه لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية، [إنه جواد كريم. تمت].

تفسير سورة عم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْتَجَرِّ

(٥-١) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ○ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ ○ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ○ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ○ أَي: عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ﴾، أي: عن الخير العظيم الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك، ولا يدخله

(١) في ب: إلى جنات النعيم. (٢) في ب: حرماً وحرماناً. (٣) في ب: الذي قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب المبین.

سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَمِعْتُمُوهُ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَمِعْتُمُوهُ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٦﴾
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْتُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سَبَاطًا ﴿٩﴾
وَجَعَلْنَا الْيَلَّ يَلًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ
أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْأُصُورِ
قُتَاتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغْيِينِ ﴿٢٢﴾
مَتَابًا ﴿٢٣﴾ لِّئَلَّيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٤﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا إِلَّا بَرْدٌ وَلَا شَرَابٌ ﴿٢٥﴾
إِلَّا أَحْيَاءُ وَنَسَاءٌ ﴿٢٦﴾ جَزَاءُ وَفَاقًا ﴿٢٧﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٨﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٩﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٣٠﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣١﴾

فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة^(١) التي لا يقدر قدرها، ولا يحصى عددا كيف [تكفرون به، و] تكذبون ما أخبركم به، من البعث والنشور؟ أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه، وتجحدونها؟! (١٧-٣٠)

﴿١٧﴾ (٣٠-١٧) ﴿١﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿٢﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْأُصُورِ قُتَاتُونَ أَفْوَاجًا ﴿٣﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٤﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٥﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٦﴾ لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا ﴿٧﴾ لِّئَلَّيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٨﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا إِلَّا بَرْدٌ وَلَا شَرَابٌ ﴿٩﴾ إِلَّا حَيَاتٌ وَنَسَاءٌ ﴿١٠﴾ جَزَاءُ وَفَاقًا ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿١٢﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿١٣﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿١٤﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿١٥﴾ ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿مِيقَاتًا﴾ للخلق ﴿يُنْفَخُ فِي الْأُصُورِ قُتَاتُونَ أَفْوَاجًا﴾، ويجري فيه من الزعازع

الريب، ولكن المكذبون بقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءهم كل آية، حتى يروا العذاب الآليم.

ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَمِعْتُمُوهُ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب، ما كانوا به يكذبون، حين يدعون إلى نار جهنم دعا.

ويقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾.

ثم بين^(١) تعالى النعم والأدلة الدالة على صدق ما أخبرت^(٢) به الرسل، فقال:

(١٦-١٧) ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿١﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٢﴾ وَخَلَقْتُمْ أَزْوَاجًا ﴿٣﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سَبَاطًا ﴿٤﴾ وَجَعَلْنَا الْيَلَّ يَلًا ﴿٥﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿٦﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿٧﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿٨﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿٩﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٠﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١١﴾ أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم ﴿الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، أي: مهددة مهيأة^(٣) لكم ولمصالحكم، من الحروث، والمسكن والسبل.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد. ﴿وَخَلَقْتُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: ذكورا وإناثا، من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون^(٤) المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان بلدة المنكح.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سَبَاطًا﴾، أي: راحة لكم، وقطعا لأشغالكم التي متى تمادت بكم، أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس، لتقطع^(٥) حركاتهم الفسادة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، أي: سبع سماوات، في غاية القوة، والصلابة والشدة.

وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، نبه بالسراج على النعمة بنورها الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهج الذي فيه الحرارة على حرارتها، وما فيها من المصالح^(٦).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾، أي: السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾، أي: كثيرا جدا.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ من برّ وشعير، وفرة، وأرز، وغير ذلك مما يأكله آدميون.

﴿وَبَنَيْنَا السَّابِغَاتِ﴾، الذي جعله الله قوتا لمواشيهم.

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾، أي: بساتين ملففة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

(١) في ب: ثم ذكر. (٢) في ب: على ما جاءت به الرسل. (٣) في ب: مذللة. (٤) في ب: فتكون. (٥) في ب: لتسكن. (٦) في ب: الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهج: وهي حرارتها على ما فيها من الإنضاج والمنافع. (٧) في ب: الجليلة.

ومنجى، ويُعَدُّ عن النار.

وفي ذلك المفاض لهم ﴿حَدَّيْكَ﴾ وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية في الثمار التي تنفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعتاب لشرفه وكثرته في تلك الحقائق. ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿كَوَاعِبَ﴾ وهي النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من شبابهن وقوتهن ونضارتهن^(١).

والأتراب: اللاتي على سن واحد متقارب.

ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات، متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب^(٢).

﴿وَكَايَا دَعَاكَ﴾، أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقْوًا﴾، أي: كلامًا لا فائدة فيه ﴿وَلَا يَذْكَبُ﴾، أي: إنما.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقْوًا وَلَا تُلَاقِيهِمْ إِلَّا فِيكَ سَكَتًا سَكَتًا﴾.

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل [من فضله وإحسانه] ﴿بِرَّكَ بَيْنَ يَدَيْكَ﴾ لهم ﴿عَلَّةً حَسْبًا﴾، أي: بسبب أعمالهم التي وفهم الله لها، وجعلها ثمنًا لجنته ونعيمها^(٣).

(٣٧-٤٠) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۚ يَوْمَ يَقُومُ الْحُشْبُ وَسَفَلَ أَغْلَامُكَمُ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَرِّ الرَّحْمَنِ ۖ قَالَ سَوَاءٌ أَلَمْ يَأْتِ الْكَافِرُ إِلَّا نَذْرُنَّكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْقَوْمَ مَا قَدَّمَتْ يَدَا وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْقَ بِي كُنْتُ مُرْتَابًا ۚ أَي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقها ودبرها ﴿الْكَافِرُ﴾ الذي رحمة وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوها ما أدركوها.

ثم ذكر عظمتهم وملكتهم العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ذلك اليوم ساكنون لا يتكلمون، و ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، ﴿إِنَّ مَوْلَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ سَوَاءٌ﴾ فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين:

أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صوابا.

لأن ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا يروج فيه الباطل،

والفلافل ما يشيب له الوليد، وتنزع له القلوب.

تفسير الجبال، حتى تكون كالهباء الميثوث، وتشقق^(١) السماء حتى تكون أبوابا، ويفصل الله بين الخلائق، بحكمه الذي لا يجوز، وتوقد نار جهنم التي أرودها الله، وأعدّها للطاغين وجعلها مئوى لهم ومأبًا، وأنهم يلبثون فيها أحقابًا كثيرة، و «الحق» على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.

وهم إذا وردوها^(٢) ﴿لَا يَدْرُونَ فِيهَا بَرًا وَلَا شَرًّا﴾، أي: لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظاهم.

﴿إِلَّا حِسَابًا﴾، أي: ماء حارًا، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاهم.

﴿وَعَذَابًا﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية التن، وكراهة المذاق.

وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم ووفقًا على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق، بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للأخرة.

﴿وَكَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا كَذِبًا﴾، أي: كذبوا بها تكديًا واضحا صريحا، وجاءتهم البينات فاعدوها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾، أي: كتبناه^(٣) في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون، أنا عذبتهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَزَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الصَّكِيبِ لَا يَقْدَرُ صِفَرَةً وَلَا كِبَرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَحَدًا﴾.

﴿تَذَرُوهَا﴾ أيها المكذبون! هذا العذاب الاليم، والخزي الدائم ﴿فَلَنْ تَرِيَهُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم.

[وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار، أجازنا الله منها].

(٣١-٣٦) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۖ حَدَّيْكَ وَأَعْنَابًا ۖ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ۖ وَكَأَيَّ دَعَاكَ ۖ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقْوًا وَلَا كَذِبًا ۖ بَرَّةً مِّن رَّبِّكَ ۖ عَلَّةً حَسْبًا﴾ لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي^(١): الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه^(٢) فلهم مفاض

(١) في ب: وتشتق. (٢) في ب: فإذا وردوها. (٣) في ب: أثبتناه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين. (٥) في ب: عن معصيته.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم يتكسر ثديهن من شبابهن ونضارتهن وقوتهن. (٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب. (٨) في ب: وجعلها سبيلًا للوصول إلى كرامته.

ولا ينفع فيه الكذب.

وفي ذلك اليوم ﴿يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أشرف الملائكة^(١).

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضا يقوم الجميع ﴿أَصْفَاءَ﴾ خاضعين لله ﴿لَا يَكْفُرُونَ﴾ إلا بما أذن لهم الله به^(٢).

فلما رغب، ورهب، وبشر، وأنذر قال:

﴿مَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا﴾، أي: عملا وقدم صدق،

يرجع إليه يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ لأنه قد أرف مقبلا، وكل ما هو

أت فهو قريب.

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: هذا الذي يهيمه،

ويفرع إليه، فليظفر في هذه الدنيا إليه^(٣) كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الآيات.

فإن وجد خيرا فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم.

نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة عم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٤) ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَابًا﴾ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُا وَالنَّاسِيطَاتِ سَبَاحًا

﴿فَالنَّشِيطَاتِ سَبَاحًا﴾ فَالْمُرْدَاتِ أَمْرًا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجَافَةُ﴾ تَنْبَعُهَا

الرَّادِفَةُ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أَصْبَحُهَا خَشِيعَةٌ ﴿يَقُولُونَ أَوَلَمْ

نَرَهُ دُونَ فِي الْمَكَرَةِ﴾ أَوَلَمْ كُنَّا عَظَمًا خَيْرَةً ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ

خَاسِرَةٌ ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ هذه الإقسامات

بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال اقتيادهم لأمر

الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه:

الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك.

ويحتمل أن المقسم عليه، والمقسم به متحدان، وأنه أقسم

على الملائكة لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة.

ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه

الملائكة عند الموت وقبله، وبعده، فقال:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَابًا﴾ وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة،

سورة النازعات

٥٨٣

سورة النازعات

إِنَّ لِلْمُتَفَيِّقِينَ مَقَارًا ﴿حُلَاقٍ وَأَعْتَابًا﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ﴿وَكَاَسًا دِهَاقًا﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاةٌ حِسَابًا﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ رَبًّا

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَابًا﴾ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُا وَالنَّاسِيطَاتِ سَبَاحًا

﴿فَالنَّشِيطَاتِ سَبَاحًا﴾ فَالْمُرْدَاتِ أَمْرًا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجَافَةُ

﴿تَنْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿أَصْبَحُهَا

خَشِيعَةٌ ﴿يَقُولُونَ أَوَلَمْ نَرَهُ دُونَ فِي الْمَكَرَةِ﴾ أَوَلَمْ كُنَّا

عَظَمًا خَيْرَةً ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ

وَاحِدَةٌ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿

﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُا﴾

وتفرق في نزوعها، حتى تخرج الروح، فتجازي بعملها.

﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُا﴾ وهم الملائكة أيضا، تجتذب الأرواح

بقوة ونشاط، أو أن النشاط يكون لأرواح المؤمنين، والنزع

لأرواح الكفار^(٤).

﴿وَالنَّاشِيطَاتِ﴾ أي: المتردعات في الهواء صعودا ونزولا

﴿سَبَاحًا﴾.

﴿فَالنَّشِيطَاتِ﴾ لغيرها ﴿سَبَاحًا﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق

الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله، حتى لا تسترقه^(٥).

﴿فَالْمُرْدَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيرا

من أمور العالم^(٦)، العلوي والسفلي، من الأمطار، والنبات،

والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات،

والجنة، والنار [وغير ذلك].

(١) في ب: أفضل الملائكة. (٢) في ب: إلا ياذنه. (٣) في ب: فليظفر

في هذه النار ما قدم لدار القرار. (٤) هكذا في ب معدلا في هامش

النسخة بخط الشيخ، وفي أ: أن النزع يكون لأرواح المؤمنين والنشط

لأرواح الكفار. (٥) في ب: لتلا تسترقه. (٦) في ب: الذين جعلهم الله

يدبرون كثيرا من أمور العالم.

قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا عَلَىٰ بَيِّنٍ ۝﴾ (١).

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسن، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه.

ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزء (٢)، فقال:

(٣٤-٤١) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَاقَةُ الْكُبْرَىٰ ۝ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ۝ وَبُرُزَتِ الْجَبِيضُ لِمَنْ بَرَىٰ ۝ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۝ وَآثَرَ لَحْيَهُ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَبِيضَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّ الْقَسْنَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ لِحْيَتَهُ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ أَي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى التي يهون عندها كل شدة، فيحتشد يدهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، [وكل محب عن حبيبه].
و ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيمتنى زيادة مقال ذرة في حسنة، ويغمه ويحزن لزيادة مقال ذرة في سيئانه.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.
﴿وَبُرُزَتِ الْجَبِيضُ لِمَنْ بَرَىٰ﴾ أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد قد برزت (٣) لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.
﴿وَوَآثَرَ لَحْيَهُ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة، فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿فَإِنَّ الْجَبِيضَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [له] أي: المقر والسكن لمن هذه حاله.
﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف القيام عليه، ومجازاته بالعدل فأثر هذا الخوف في قلبه، فنهى نفسه عن هواها الذي يفيد (٤) عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة، الصادين عن الخير.

﴿فَإِنَّ لِحْيَتَهُ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [المشملة على كل خير وسرور ونعيم] ﴿هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ لمن هذا وصفه.

(٤٢-٤٦) ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۝ إِنَّ رَبَّكَ مُنْهِنَهَا ۝ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَحْشَسُهَا ۝ كَانَتْ يَوْمَ يَوْمِهَا لَرَّ يَبْتُلُوًّا إِلَّا غِيَّةً أَوْ حُكْمًا ۝ أَي: يسألك المتعنتون

إِذَا دُئِدَ رَيْبُهَا أَوَّلَ الْغَدِيسِ طَوَىٰ ۝ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا رَبُّكَ ۝ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ ۝ فَجَاسَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَارِكُمْ أَكْمَ الْأَعْيُنِ ۝ فَأَعْذَهُ اللَّهُ تَكَا لَآخِرَ وَوَأَوَّلَىٰ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَىٰ ۝ أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُوفًا وَأَسْمَاءُ بَنَدًا ۝ رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضَعْفَهَا ۝ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَ هَامٍ وَعَنْهَا ۝ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ۝ مَعَالِكُهَا لَا تَعْمِكُهَا ۝ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَاقَةُ الْكُبْرَىٰ ۝ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ۝ وَبُرُزَتِ الْجَبِيضُ لِمَنْ بَرَىٰ ۝ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۝ وَآثَرَ لَحْيَهُ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَبِيضَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّ الْقَسْنَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ لِحْيَتَهُ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۝ إِنَّ رَبَّكَ مُنْهِنَهَا ۝ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَحْشَسُهَا ۝ كَانَتْ يَوْمَ يَوْمِهَا لَرَّ يَبْتُلُوًّا إِلَّا غِيَّةً أَوْ حُكْمًا ۝

سُورَةُ الْغَاثَةِ

المكذبون بالبعث ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ متى وقوعها ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، فأجابهم الله بقوله:

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها، ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة. ولهذا لما كان علم العباد للساعة، ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهِنَهَا﴾ أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ قُلْ إِنَّهَا عِلْمُهُ عِنْدَ رَبِّي لَا يُخَبِّرُكَ إِلَّا هُوَ يُنْشِئُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَا تَأْخُذُ بِهِ بَغْيَةٌ ۝ يَسْتَلُونَكَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ عَنَّا ۝ قُلْ إِنَّهَا عِلْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ (٥).

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا عَلَىٰ بَيِّنٍ ۝﴾ (٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزء. (٣) في ب: هيت. (٤) في ب: الذي يصدها. (٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة أ، ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأنتمتها.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ مَّن يَنْشَأُ﴾، أي: إنما نذارك، [نفعها] لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهتمهم سوى الاستعداد لها، والعمل لأجلها. وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالى به، ولا بتعته، لأنه تعتن مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه الحكيم عنه. [تمت]، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٠) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَلَنْ جَاءَهُ الْأَمْرُ ۚ وَمَا يَدْرِي رَبُّكَ أَتَذَكَّرُ ۚ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعُ الْذِكْرَ ۚ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ فَإِنَّكَ لَمَ تَصَدَّقْ ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُ ۚ وَآثَا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ۚ وَهُوَ يَخْشَى ۚ فَإِنَّ عَنْهُ لَخَعْفٌ سَببُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُرِيمَاتِ أَنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْمَى يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ .

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير رجاء لهداية ذلك الغني، وطعماً في تركيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال:

﴿عَبَسَ﴾ [أي:] في وجهه ﴿وَتَوَلَّى﴾ في بدنه لأجل مجيء الأعمى له.

ثم ذكر الغائبة في الإقبال عليه فقال:

﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ﴾ أي: الأعمى ﴿يَذْكُرُ﴾ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة؟ ﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعُ الْذِكْرَ﴾ ؟ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل^(١) بتلك الذكرى.

ولهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فأبالك على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك منك^(٢)، هو الأليق الواجب.

وأما تصديقك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل، ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يركى، فلو لم يترك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة أنه: «لا يترك أمر معلوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَلَنْ جَاءَهُ الْأَمْرُ ۚ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ تَذَكَّرُ ۚ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعُ الْذِكْرَ ۚ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ فَإِنَّكَ لَمَ تَصَدَّقْ ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُ ۚ وَآثَا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ۚ وَهُوَ يَخْشَى ۚ فَإِنَّ عَنْهُ لَخَعْفٌ سَببُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُرِيمَاتِ أَنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْمَى يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ .

لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة. وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتقر إليه الحريص عليه أزيد من غيره.

(١١-٣٢) ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَدْعُو ۚ فَمَن شَاءَ ذَكَّرْ ۚ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ۚ تَرْوَعُونَ مَطْهَرَةً ۚ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ قِيلَ الْإِنْسَنُ مَا أَفْقَرُ ۚ مِن أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ مِن تَلْفَافٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرْ ۚ ثُمَّ السَّيْلُ يَسْرُ ۚ ثُمَّ أَمَلَهُ أَفْقَرُ ۚ ثُمَّ إِنَّا أَنْشَرُوهُ ۚ كَلَّا لَمَّا بَقِيَ مَا أَمَرُ ۚ قَبَّلَ الْإِنْسَنُ إِلَى طَلَبِهِ ۚ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَنَبَاتْنَا فِيهَا عِصَاً ۚ وَزَيَّنَّاهَا لَعَالَى ۚ وَنَجْمًا ۚ وَنَا ۚ وَنَعْلًا ۚ وَنَا ۚ نَسْعًا لِّكَوْ لَا تَحْمِيكَ ۚ يَقُولُ تَعَالَى ۚ كَلَّا إِنَّمَا تَدْعُو ۚ أَي: حقاً إن هذه الموعظة تذكرة من الله يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذلك ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَّرْ﴾ أي: عمل به بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۚ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾.

ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها فقال:

(١) في ب: يفتتح. (٢) في ب: مفتقراً لذلك مقبلاً.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ
سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)
وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا
الْمُوءَدَّةُ سُيِّتَتْ (٨) بَئِى ذُنُوبٍ قَبْلَتْ (٩) وَإِذَا الضُّعُفُ ثُبِّرَتْ (١٠)
وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَبَرُيمُ سُفِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ (١٥)
الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَالْيَلِيلُ إِذَا عَسْعَسَتْ (١٧) وَالضُّحَى إِذَا انْفَسَتْ (١٨)
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ
تَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيُسَيْنِ (٢٣)
وَمَا مَوْعِلُ الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ (٢٥)
فَإِنَّ تَذَاهِبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
يَسْتَفِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون، [وأرذل] وأسفل الباطل!

هل هذا إلا من انقلاب الحقائق.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والذائل [والأمثال] ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ﴾ بعدما تبين الرشد من الغي والهدى من الضلال.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فمشيته نافذة لا يمكن أن تعارض أو تمنع.

وفي هذه الآية وأمثالها ردٌّ على فِرْقَةِ القدرية النفاة والقدرية المجبرة كما تقدم مثلها [والله أعلم والحمد لله].

﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله اختصه بها.

﴿مَكِينٌ﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿مُطَاعٌ تَمَّ﴾ أي: جبريل مطاع في الملا الأعلى، لديه (١) من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه.

﴿أَمِينٌ﴾ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حُدَّ له، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة.

والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات وأشرف الرسائل.

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن ودعا إليه الناس فقال:

﴿وَمَا سَاحِقُكُمْ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿يَسْتَجِئُونَ﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال التي يريدون أن يُطْفِئُوا بها ما جاء به ما شاءوا وقدروا عليه. بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيُسَيْنِ﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق اليبين، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتنم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشع بشيء منه عن غَيْبٍ ولا فقير، ولا رئيس ولا مرءوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربابين، وأحباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهم، وهم الأساتذة وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ لما ذكر جلالة كتابه (٢) وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفة وتقص مما يقدح في صدقه فقال:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه.

﴿فَإِنَّ تَذَاهِبُونَ﴾ أي: كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات

(١) في ب: لأنه. (٢) كذا في ب، وفي أ: جلالة.

تفسير سورة الانفطار

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشََّتْ ۝ وَإِذَا الْهَمَاسُ نُفِثَتْ ۝ وَإِذَا الْغُبُورُ بُعِثَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝﴾ أي: إذا انشقت السماء وانفطرت وانشرت^(١) نجومها، وزال جمالها، وفجرت البحار فصارت بحراً واحداً، وبعثت القبور بأن أخرجت^(٢) ما فيها من الأموات، وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال.

فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزل ما كان خفياً، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسائر.

هنالك بعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدى والعذاب السرمدي^(٣).

[وهناك] يفوز المتقون - المقدمون لصالح الأعمال - بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والسلامة من عذاب الجحيم.

(٦-١٢) ﴿يَأْتِيَا الْإِنْسَانَ مَا غَرَّهُ بِرَبِّهِ الْكَافِرِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَمَدَّلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونِ بِالْبَيِّنِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَبِيرِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ ۝﴾ يقول تعالى معاتباً للإنسان المفسر في حق ربه، المتجرى على مسأخه^(٤): ﴿يَأْتِيَا الْإِنْسَانَ مَا غَرَّهُ بِرَبِّهِ الْكَافِرِ﴾ أنها ونا منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

أليس هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ﴾ في أحسن تقويم؟

﴿فَمَدَّلَكَ﴾ وركبك تركيباً قوياً معتدلاً في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات.

فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟

إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات.

[فلماذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونِ بِالْبَيِّنِ﴾ أي: مع هذا الوعظ والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشََّتْ ۝ وَإِذَا الْهَمَاسُ نُفِثَتْ ۝ وَإِذَا الْغُبُورُ بُعِثَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَأْتِيَا الْإِنْسَانَ مَا غَرَّهُ بِرَبِّهِ الْكَافِرِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَمَدَّلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونِ بِالْبَيِّنِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَبِيرِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ ۝ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفَاجِرَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ صَلَوَاتُهَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۝ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا كَانُوا عَلَى النَّاسِ يَتَسَوَّفُونَ ۝ وَإِذَا كَانُوا لَهُمْ أَوْ رَزَقُوهُمْ يَخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝

وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما علمتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كراماً يكتبون أقوالكم وأفعالكم يعلمون أفعالكم، ودخل في هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرمهم وتجلوهم وتحترمهم.

(١٣-١٩) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفَاجِرَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ صَلَوَاتُهَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۝ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝﴾ المراد بالآبراء القائلون بحقوق الله وحقوق عباده الملازمون للبر في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا (وفي دار البرزخ وفي دار القرار).

﴿وَإِنَّ الْفَاجِرَ﴾ الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده الذين فجرت قلوبهم فجرت أعمالهم ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ أي: عذاب اليم في دار الدنيا، و[دار] البرزخ وفي دار القرار.

(١) في ب: وتناثر. (٢) في ب: بأن أخرج. (٣) في ب: إذا رأى ما قدمت يداه وأيقن بالشقاء الأبدى والعذاب السرمدي. (٤) في ب: المفسر في حق المتجرى على مسأخه.

من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

ثم توعده تعالى المطففين وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه فقال:

﴿أَلَا يَطَّلُوا وَلَوْ كُنُّهُمْ يُسْئِلُونَ ۖ يَوْمَ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ رَبِّهِمُ الْآئِينَ﴾^(١) فالذي جراحهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم يقومون بين يدي الله، يحاسبهم^(٢) على القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه. (١٧-٧) ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَرْفُوعٌ ۝ يَوْمَ يُمَازِلُ السَّكَدِينَ ۝ الْآئِينَ يَكُونُونَ يَوْمَ الْآئِينَ ۝ وَمَا يَكُونُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعَذِّبٍ أَمِيرٍ ۝ إِذَا ثُلَّى عَلَيْهِ مَا يُلَاقِي السُّلَى ۝ كَلَّا بَلْ كَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَاءٌ كَاوٍ يُكَسِّبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمُنْجِبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ﴾ [وهذا شامل لكل فاجر] من أنواع الكفرة والمنافقين والفاسقين [لَفِي سِجِّينٍ] ثم فسر ذلك بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَرْفُوعٌ﴾ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسجين: المحل الضيق الضنك، و «سجين» ضد «علين» الذي هو محل كتاب الأبرار كما سيأتي.

وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل الأرض السابعة ما يرى الفجار، ومستقرهم في معادهم.

﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ السَّكَدِينَ﴾ ثم بين المكذبين بأنهم^(٣) ﴿الْآئِينَ يَكُونُونَ يَوْمَ الْآئِينَ﴾ أي: يوم الجزاء يوم يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

﴿وَمَا يَكُونُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعَذِّبٍ﴾ على محارم الله، متعدد من الحلال إلى الحرام.

﴿أَمِيرٍ﴾ أي: كثير الإثم، فهذا الذي يحمله عدوانه على التكذيب، ويحمله [عدوانه على التكذيب ويوجب له] كبره رد الحق ولهذا:

﴿إِذَا ثُلَّى عَلَيْهِ مَا يُلَاقِي السُّلَى﴾ الدالة على الحق [وعلى] صدق ما جاءت به رسله، كذبها وعاندها و ﴿قَالَ﴾: هَذَا ﴿أَسْطِطُ الْآئِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين ليس من عند الله، تكبراً وعناداً.

﴿يَسْأَلُونَهَا﴾ ويعذبون [بها] أشد العذاب ﴿يَوْمَ الْآئِينَ﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال.

﴿وَمَا تُمْ عَنْهَا يُعَاقِبُونَ﴾، أي: بل هم ملازمون لها لا يخرجون منها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآئِينَ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآذِينِ﴾ ففي هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

﴿يَوْمَ لَا تَكُنْ لَكَ نَفْسٌ لِّتَقْسِ شَيْئًا﴾ ولو كانت لها قرية [أو حبيبة] مصافية فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها.

﴿وَالْأَنْصُرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فهو الذي يفصل بين العباد يأخذ للمظلوم حقه من ظالمه [والله أعلم].

تفسير سورة المطففين

وهي مكية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الْآئِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّارِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَطَّلُوا وَلَوْ كُنُّهُمْ يُسْئِلُونَ ۖ يَوْمَ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ رَبِّهِمُ الْآئِينَ﴾. «وَيْلٌ» كلمة عذاب ووعيد^(٢) «لِّلْمُطَفِّفِينَ» وفسر الله المطففين بقوله^(٣) «الْآئِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّارِ» أي: أخذوا منهم وفاة عما ثبت لهم قبيلهم يستوفونه كاملاً من غير نقص.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقهم الذي للناس^(٤) عليهم بكليل أو وزن «يُخْسِرُونَ» أي: ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان أو نحو ذلك، فهذا سرقة [لأموال] الناس^(٥) وعدم إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعيد^(٦) على الذين يخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة، أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات.

بل يدخل في [عموم هذا]^(٧) الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد [منهما] يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجج^(٨) [التي لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان

(١) في ب: وهي مفتحة. (٢) في ب: وعقاب. (٣) في ب: بأنهم. (٤) في ب: لهم. (٥) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس. (٦) في ب: وعيداً. (٧) في ب: يدخل في ذلك. (٨) في ب: الحجة. (٩) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم. (١٠) في ب: ثم بينهم بقوله.

فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، وراوهم^(١) في العذاب والنكال الذي هو عقوبة الغي والضلال. نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليهم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٥) ﴿إِذَا الشَّمْسُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ رِبْعًا وَخُسْفٌ ۖ وَإِذَا الْاَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَجَتْ ۖ وَأُذْنَتْ رِبْعًا وَخُسْفٌ ۖ يَتَابَعُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَاشِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقِهِ ۖ فَمَا مِنْ أَوْفٍ كَيْتُهُ يَسِيرُهُ ۖ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ وَيَنْقُبُ إِلَىٰ أَهْلِيهِ مَسْرُورًا ۖ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتَهُ وَرَدَّ ظَهْرُهُ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُو بُزُرًا ۖ وَيَسْأَلُ سَوِيرًا ۖ إِنَّكَ كَانَ فِي أَهْلِيهِ مَسْرُورًا ۖ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۖ عَلَّيْكَ يَوْمَكَ كَانَ يَوْمًا يَبِيرًا ۖ يَقُولُ

تعالى ميئاً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إِذَا الشَّمْسُ انشَقَّتْ﴾ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها وخسف بشمسها وقمرها. ﴿وَأَذْنَتْ رِبْعًا﴾ أي: استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاحت لخطابه.

وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره ولا يخالف حكمه.

﴿وَإِذَا الْاَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم فسويت، ومدها الله تعالى مد الأديم حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، قصير قاعاً صافئاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز. ﴿وَخَجَتْ﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور فتخرج الأموات من الأبدان إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون.

﴿يَتَابَعُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَاشِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقِهِ﴾ أي: إنك ساع إلى الله وعامل بأوامره ونواهيه،

(١) في ب: المحسنين. (٢) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين. (٣) في ب: وهذا أشد. (٤) في ب: مع الأمن. (٥) في ب: حين راوهم.

والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزامنت للوصول إليه فحول الرجال.

(٢٨) ومزاج هذا الشراب من تسنيم وهي عين ﴿يَتَرَبَّ بِهَا الْقَتَرُونَ﴾ صيرفاً وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين الذين هم أعلى الخلق منزلة، ومموزجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

(٢٩-٣٦) ﴿وَإِذَا الْيَبَرُ اتَّسَتْ ۖ كَانُوا مِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَسْخَرُونَ ۖ وَإِذَا مَرُوءَا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَأَسْأَلُونَ ۖ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ۖ فَالْيَمُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۖ عَلَىٰ الْأَرْبَابِ يَنْظُرُونَ ۖ هَلْ تُثِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وجزاء المؤمنين^(١)، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم ويضحكون منهم ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، احتقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين لا يخطر الخوف على بالهم.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ صباحاً أو مساءً ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: مسرورين مغتبطين^(٢).

وهذا من أعظم^(٣) ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن^(٤) في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجردوا على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم.

قال تعالى: ﴿فَالْيَمُّ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يروهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون.

والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿عَلَىٰ الْأَرْبَابِ﴾ وهي السرر المزينة.

﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هَلْ تُثِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟

ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلافي الله يوم القيامة فلا تعدم منه جزاء، بالفضل إن كنت سعيداً، أو بالعدل إن كنت شقيماً^(١).

ولهذا ذكر تفصيل الجزاء فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْتَبَهُ يَسْبِيحُهُ﴾ وهم أهل السعادة.

﴿فَسَوْفَ يَحْسَبُ حَسَابًا بَيَّارًا﴾ وهو العرض اليسير على الله، فيقره الله بذنوبه حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى]: له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم».

﴿وَيَتَلَبَّ إِلَهُ أَعْلَاهُ﴾ في الجنة ﴿سُرُورًا﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْتَبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي: بشماله من خلفه^(٢).

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ من الخزي والفضيحة وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها.

﴿وَيَصَلِّي سُجُودًا﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا «كان في أهله مُتْرُكًا» لا يخطر البعث على باله وقد أساء، ولم^(٣) يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿يَلَهُ إِذْ رُبُّكَ كَانَ يَدُ بَصِيرًا﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

(١٦-٢٥) ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَالْكَوْنِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا فُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ كَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ فَيُبَشِّرُهُمْ يُعَذِّبُ أَلِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أفسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس الذي هو مفتتح الليل.

﴿وَالْأَيْلُ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها. ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي: امتلا نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ [أي: أيها الناس] ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح.

ثم يكون وليداً وطفلاً ثم مميزاً، ثم يجري عليه قلم التكليف والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يعث ويجازى بأعماله.

فهذه الطبقات المختلفة التجارية على العبد دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدير لعباده، بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير، عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم.

ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وَإِذَا فُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يخضعون للقرآن ولا يتقادون

عَلَى الْأَرْيَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ هَلْ يُؤْتَى الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُمَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخُلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُمَتْ ﴿٥﴾ يَتَكَلَّمُ النَّاسُ إِنَّكَ كَافٍ إِلَىٰ رَبِّكَ كَذَّافًا فَلْيَلْقِهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَسْبِيحُهُ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يَحْسَبُ حَسَابًا بَيَّارًا ﴿٨﴾ وَيَتَلَبَّ إِلَهُ أَعْلَاهُ يَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُتْرَكًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلْ أُنْذِرُهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا فُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ كَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَيُبَشِّرُهُمْ يُعَذِّبُ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

لأوامره ونواهيه.

﴿كَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: يعاندون الحق بعد ما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً لا حيلة فيه.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يعملونه وينوونه سرّاً، فإله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم ولهذا قال: ﴿فَيُبَشِّرُهُمْ يُعَذِّبُ أَلِيمٌ﴾ وسميت البشارة بشارة لأنها تؤثر في البشارة سروراً أو غمّاً.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله فأمنوا بالله وقبلوا ما جاءهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تم تفسير السورة، والله الحمد.

(١) في ب: جزاء بالفضل أو العدل بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعبودية إن كنت شقيماً. (٢) في ب: من وراء ظهره. (٣) في ب: ولا.

تفسير سورة البروج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٢٢) ﴿وَأَنقَلَبْ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ ○ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ○ وَشَاهِدُوا ○ وَشَاهِدُوا ○ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ○ أَلَمْ يَكُنْ ذَاتَ الْوَعْدِ ○ إِذْ هُرِّعَتْهَا ○ قُعُودٌ ○ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ○ وَمَا نَقَمُوا ○ إِلَّا أَن يُؤْتُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ○ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ○ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ○ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَكَتَبُوا لَهُمْ قَتْلَهُمْ ○ عَذَابَ جَهَنَّمَ ○ وَلَهُمْ عَذَابُ الْخَرِيبِ ○ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ○ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ○ إِنَّ بَلَدَكَ رَيْكَ ○ لَسَيِّدٌ ○ إِنَّهُ هُوَ بَدِيءُ وَيُؤْتِي ○ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ○ ذُو الْعَرْشِ الْحَمِيدُ ○ قَالَ لِمَا يُرِيدُ ○ هَلْ أَنتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ○ فِرْعَوْنُ وَنَمُودُ ○ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ○ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْ تَكْذِيبِهِ ○ وَأَنَّهُ يَنْزِلُ فِي تَكْذِيبِهِ ○ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ○ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ○ ﴿وَأَنقَلَبْ ذَاتَ الْبُورِ﴾ أي: [فات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته وسعة علمه وحكمته.

﴿وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ﴾ وهو يوم القيامة الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير ولا يخلف الله الميعاد. ﴿وَشَاهِدُوا﴾ وشاهدوا، وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف، أي مُبْصِرٌ ومُبْصَرٌ وحاضر ومحمضور، وراء ومَرْمُزٍ. والمقسم عليه ما تضمنه هذا القسم، من آيات الله الباهرة وجنكمه الظاهرة ورحمته الواسعة. وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

و«الأعدود»: الحفر التي تحفر في الأرض. وكان أصحاب الأعدود هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم للدخول^(١) في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أعدودًا في الأرض، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وقتلوا المؤمنين، وعرضوهم عليها.

فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ﴾.

ثم فسر الأعدود بقوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ ذَاتَ الْوَعْدِ ○ إِذْ هُرِّعَتْهَا

سُورَةُ الْبُرُوجِ

٥٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنقَلَبْ ذَاتَ الْبُورِ ○ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ○ وَشَاهِدُوا ○ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ○ أَلَمْ يَكُنْ ذَاتَ الْوَعْدِ ○ إِذْ هُرِّعَتْهَا ○ قُعُودٌ ○ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ○ وَمَا نَقَمُوا ○ مِنْهُمْ ○ إِلَّا أَن يُؤْتُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ○ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ○ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ○ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَكَتَبُوا لَهُمْ قَتْلَهُمْ ○ عَذَابَ جَهَنَّمَ ○ وَلَهُمْ عَذَابُ الْخَرِيبِ ○ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ○ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ○ إِنَّ بَلَدَكَ رَيْكَ ○ رَيْكَ ○ لَسَيِّدٌ ○ إِنَّهُ هُوَ بَدِيءُ وَيُؤْتِي ○ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ○ ذُو الْعَرْشِ الْحَمِيدُ ○ قَالَ لِمَا يُرِيدُ ○ هَلْ أَنتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ○ فِرْعَوْنُ وَنَمُودُ ○ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ○ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْ تَكْذِيبِهِ ○ وَأَنَّهُ يَنْزِلُ فِي تَكْذِيبِهِ ○ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ○ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ○

سُورَةُ الطَّارِقِ

قُعُودٌ ○ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ○. وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب الذي تنفطر منه القلوب.

وحضورهم إياهم عند القاتلهم فيها، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة^(٢) يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له العزة التي فخر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبادًا يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه^(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا.

أفلا خاف هؤلاء المتعدون على الله أن يطش بهم العزيز المقتر، أو ما علموا أنهم جميعهم ممالك لله^(٤)، ليس لأحد

(١) في ب: على الدخول. (٢) في ب: حالة. (٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء. (٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتعدون عليه أن يأخذهم العزيز المقتر، أو ما علموا كلهم أنهم ممالك لله.

فيما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فله الحمد والثناء وصفو الوداد، ما أعظم بره وأكثر خيره وأغزر إحسانه وأوسع امتنانه!!

﴿ذُرِّ الْعَرْشِ لِلْجِدِّ﴾، أي: صاحب العرش العظيم الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي.

فهي بالنسبة إلى العرش كحلقه ملقاة في فلاة بالنسبة لساكن الأرض، وخص الله العرش بالذكر لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، ولهذا على قراءة الجبر يكون «المجيد» نعتاً للعرش.

وأما على قراءة الرفع فإن المجيد نعت لله^(١)، والمجد سعة الأوصاف وعظمته.

﴿فَمَّا لِمَا يَرْيَدُ﴾ أي: مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وليس أحد فعلاً لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات ولو أرادت شيئاً، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد. ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاء به رسله فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۚ وَرَوَّيْنَاهُ وَمَوَدَّةُ الْمَرْسَلِينَ﴾، فجعلهم الله من المهلكين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجدي لديهم العظات.

﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي آيَاتِهِ خَبِيرٌ﴾ أي: قد أحاط بهم علماً وقدره، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسٌ وَأَعْيُنٌ﴾.

ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته وتحت تدبيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ من التغير والزيادة والنقص ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة.

على أحد سلطة من دون إذن المالك؟.

أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم مجازٍ لهم على فعالهم^(١)؟.

كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى^(٢) عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم وعرض عليهم التوبة فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَتَّبِعُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلِئَمَّا نَبَتْ لَمْ يَتَّبِعُوا لَهُمْ فَعَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أوليائه وأهل طاعته وهو يدعهم إلى التوبة.

ولما ذكر عقوبة الظالمين ذكر ثواب المؤمنين فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الذي حصل به الفوز^(٣) برضا الله ودار كرامته.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام، [لقوة] شديدة وهو بالمحصار للظالمين.

كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَحَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ أَخَذَهُ إِلَهٌ سِوَاهُ﴾.

﴿إِنَّهُ هُوَ بَرُّؤٌ وَبِيدٌ﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك^(٤).

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

﴿الْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء.

فكما أنه لا يشابه شيء في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال، فمحبه في قلوب خواص خلقه التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب.

ولهذا كانت محبه أصل العبودية، وهي المحبة التي تقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها كانت عذاباً على أهلها.

وهو تعالى الودود الوادٍ لأحبابه كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ﴾ والمودة هي المحبة الصافية.

وفي هذا سر لطيف حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأتابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت.

(١) في ب: مجازيهم عليها. (٢) في ب: والجاهل في عمى وضلال.

(٣) في ب: حصل لهم الفوز. (٤) في ب: فلا يشاركه في ذلك.

مشارك. (٥) في ب: فإنه يكون نعتاً لله.

تفسير سورة الطارق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٧) ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۚ إِنَّ كُنَّ نَفْسٌ لَّا عِلِّيَّاءَ حَافِظٌ ۚ يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِن شَأْنِ دَافِقٍ ۚ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ أَصْلَابٍ ۚ وَالْأَرْثَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجِيمٍ لِّقَادِرِ ۚ يَوْمَ تَبْلَىٰ السَّرَازِيرُ ۚ فَالْمُهِنُ قُوَّةً وَلَا نَامِرُ ۚ وَالسَّمَاءَ نَازِلًا رَّجُوعٌ ۚ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّالِعِ ۚ إِنَّ الْمَقُولَ فَصْلٌ ۚ وَمَا هُوَ إِلَّا مَزَلٌ ۚ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۚ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۚ فَبِئْسَ الْكَاذِبِينَ أَمَهُمْ رَبُّنَا ۚ يَقُولُ [الله] تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۚ﴾.

ثم فسر الطارق بقوله ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي: المضيء الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات [فينفذ حتى يرى في الأرض] والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم النواقب.

وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها^(١)، فيرى منها.

وسمي طارِقًا لأنه يطرق ليلاً.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ كُنَّ نَفْسٌ لَّا عِلِّيَّاءَ حَافِظٌ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازي بعملها المحفوظ عليها.

﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: فليتدبر خلقته ومبداً فإنه مخلوق ﴿مِنْ شَأْنِ دَافِقٍ﴾ وهو المني الذي ﴿يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ أَصْلَابٍ وَالْأَرْثَىٰ﴾ يحتمل أنه من بين صلب الرجل وتراتب المرأة وهي ثدياها، ويحتمل أن المراد: المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وتراتبه، ولعل هذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس [به] ويشاهد دفقهُ هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أريدت الأنثى لقال: «من بين الصلب والثديين» ونحو ذلك، والله أعلم.

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزاء].

وقد قيل: إن معناه أن الله على رجع الماء المدفوق في الصلب لقادر، ولهذا - وإن كان المعنى صحيحاً - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده:

﴿يَوْمَ تَبْلَىٰ السَّرَازِيرُ﴾ أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٩١

سُورَةُ الطَّارِقِ

وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۚ إِنَّ كُنَّ نَفْسٌ لَّا عِلِّيَّاءَ حَافِظٌ ۚ يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِن شَأْنِ دَافِقٍ ۚ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ أَصْلَابٍ ۚ وَالْأَرْثَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجِيمٍ لِّقَادِرِ ۚ يَوْمَ تَبْلَىٰ السَّرَازِيرُ ۚ فَالْمُهِنُ قُوَّةً وَلَا نَامِرُ ۚ وَالسَّمَاءَ نَازِلًا رَّجُوعٌ ۚ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّالِعِ ۚ إِنَّ الْمَقُولَ فَصْلٌ ۚ وَمَا هُوَ إِلَّا مَزَلٌ ۚ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۚ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۚ فَبِئْسَ الْكَاذِبِينَ أَمَهُمْ رَبُّنَا ۚ يَقُولُ [الله] تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۚ﴾.

سُورَةُ الْاِنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ۚ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّىٰ ۚ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۚ وَالَّذِي أَرْخَضَ الْمَرْعَىٰ ۚ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَىٰ ۚ سَقَرْتُكَ فَلَا تَسْقَىٰ ۚ إِلَّا مَآسَاءَ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۚ وَيَبْسُرُكَ لِلْإِسْرَىٰ ۚ فَذِكْرٌ لِّلْذِكْرِ ۚ سِيدُكَرْمٍ مِّنْ يَّخْفَىٰ ۚ وَيَنْجِنِي الْأَنْثَىٰ ۚ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكَبِيرَىٰ ۚ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ قَدْ أَلَمَعَ مِنْ نُّرِّكَ ۚ وَذَكَرَ اسْمُ رَبِّهِ فَصَلِّ ۚ

في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتُهُمْ وَتُسْوَدُّ وَجُوهُهُمْ﴾.

ففي الدنيا تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للناس، وأما في القيامة فيظهر يرُّ الأبرار وفجور الفجار وتصير الأمور علانية.

﴿قَدْ لَمْ يَنْ قُوَّةً﴾ يدفع بها عن نفسه^(٢) ﴿وَلَا نَامِرُ﴾ خارجي^(٣) يتصر به، فهذا القسم على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

ثم أقسم قسمًا ثانياً على صحة القرآن فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ۚ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّالِعِ﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك آدميون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأفطار والشنون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات.

﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي: حق وصدق بين واضح.

(١) في ب: وبغضها. (٢) في ب: أي: من نفسه يدفع بها. (٣) في ب: من خارج.

ويذكر فيها نعمه الدينية.

ولهذا امتنَّ الله بأصلها ومنشأها^(٤)، وهو القرآن فقال:

﴿سَتُفْرِكَ فَلَا تَسْأَلُ﴾ أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب ونوعيه قلبك فلا تنسى منه شيئاً.

وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلِّمه علماً لا ينساه.

﴿إِلَّا مَا مَنَّا اللَّهُ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة.

﴿إِنَّمَا يَسَّرَ الْفَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي: لذلك يشرع ما أراد، ويحكم بما يريد^(٥).

﴿وَيُفْرِكَ لِلْبَرِّ﴾ وهذه أيضاً بشارة كبيرة^(٦)، أن الله يسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسراً^(٧).

﴿مَذَكَّرَ﴾ بشرع الله وآياته ﴿إِنْ تَعَبَى الذِّكْرَى﴾ أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير لم تكن الذكرى مأموراً بها، بل منهيّاً عنها.

فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: متفعون وغير متفعين.

فأما المتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَبِّدْكَرَ مَنْ يَخْفَى﴾ الله تعالى فإن خشية الله تعالى وعلمه بأن سبجاريه على أعماله^(٨) توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي^(٩)، والسعي في الخيرات.

وأما غير المتفعين فذكرهم بقوله: ﴿وَيَجَنَّبُ الْآفَاقَ﴾ أي: يَصْلِي الْآفَاقَ الْكَفَّارَ وهي النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة. ﴿لَمْ تَأْتِ بِشَيْءٍ وَلَا يَخْفَى﴾ أي: يعذب عذاباً أليماً من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَفْضَنَ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: قد فاز وريح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوى الأخلاق.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي: اتصف بذكر الله وانصبغ به

﴿وَمَا هُوَ بِفَرْجٍ﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطواف والمقالات، وتفصل به الخصومات.

﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن ﴿يَكِيدُونَ﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاءوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإن الأدعي أضعف وأحق من أن يغالب القوي العليم في كيد.

﴿فَهَلْ أَكْثَرُونَ أَنَّهُمْ رَوَّيَا﴾ أي: قليلاً، فيسعلمون عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة سبج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

(١-١٩) ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الْأَلَى خَلَقَ فَسَوَّى ○ وَاللَّيْلَ قَدَرَفَدَى ○ وَاللَّيْلَ فَرَجَ الْمَرْجَى ○ فَجَعَلَ عِشَاءً مَوْجَى ○ سَتُفْرِكَ فَلَا تَسْأَلُ ○ إِلَّا مَا سَأَلَ اللَّهُ إِنَّهُ بِعَمْرِ الْفَهْرَ وَمَا يَخْفَى ○ وَيُفْرِكَ لِلْبَرِّ ○ فَذَكَرَ إِنْ تَعَبَى الذِّكْرَى ○ سَبِّدْكَرَ مَنْ يَخْفَى ○ وَيَجَنَّبُ الْآفَاقَ ○ الْأَلَى يَصْلِي الْآفَاقَ الْكَفَّارَ ○ ثُمَّ لَا يَبُوءُ بِهَا وَلَا يَخْفَى ○ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ○ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ○ بَلْ تُؤَيَّدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ○ وَالْآخِرَةَ عِزًّا وَدَائِمًا ○ إِنَّ هَذَا لَنَبِيٍّ أَلْصَحِّفِ الْأَلْفَ ○ صُفِّ بِرَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُ ○ بِأَمْرِ تَعَالَى بِتَسْبِيحِهِ المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم^(١). وتذكر أفعاله التي منها: أنه خلق المخلوقات فسواها أي: أنقنها وأحسن خلقها.

﴿وَاللَّيْلَ قَدَرَفَدَى﴾ تقديرًا تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهَدَى﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

ولهذه الهداية العامة التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها:

﴿وَاللَّيْلَ فَرَجَ الْمَرْجَى﴾ أي: أنزل من السماء ماء، فأنبث به أنواع^(٢) النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم، وكل حيوان^(٣).

ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته وصَوَّحَ عشب.

﴿فَجَعَلَ عِشَاءً مَوْجَى﴾ أي: أسود أي: جعله هشياً رميماً،

(١) في ب: بمعناها العظيم الجليل. (٢) في ب: أصناف. (٣) في ب: وجميع الحيوانات. (٤) في ب: ومادتها. (٥) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد. (٦) في ب: أخرى. (٧) كذا في ب، وفي أ: سبيراً. (٨) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال. (٩) في ب: الانكفاف عما يكرهه الله.

قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة.

وأما من فسر قوله: ﴿وَرَكَّزَ﴾ بمعنى أخرج زكاة الفطر ﴿وَرَكَّزَ أَسْرَ رَبِّهِ فَصَلَّ﴾ أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلًا في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تقدمونها على الآخرة وتختارون نعيمها المنقص المكدر الزائل، على الآخرة.

[وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَثَرٌ] وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب ﴿وَأَبَاقُ﴾ لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء.

فالؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة بترحة الأبد.

فحب الدنيا وإثارها على الآخرة رأس كل خطيئة.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة ﴿لَقَدْ كُتِبَ الْاَوَّلُ﴾ مُحَمَّدٌ إِبْرَاهِيمُ وَثَوْنٌ ﴿الَّذِينَ هُمَا أَشْرَفُ الْمُرْسَلِينَ﴾ سوى النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه أوامر في كل شريعة لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

تم تفسير سورة سبح، والله الحمد.

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٦) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿تَصَلَّىٰ نَارًا كَاسِيَةً﴾ ﴿شَقِيقٌ مِنْ عَيْنٍ أَابِيَةٍ﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيرٍ﴾ ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ رَاضِيَةٌ﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَئِيَّةٌ﴾ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْوُوعَةٌ﴾ ﴿وَأَكْوَابُ مَوْضُوعَةٌ﴾ ﴿وَنَزَارُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ﴿وَنَزَارُ مَبْنُوعَةٌ﴾ يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأحوال الطاهرة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين: فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ يَبْسُفُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَاشِعَةٌ﴾ من الذل والفضيحة والخزي.

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي: تاعبة في العذاب تُجَرُّ على وجوها وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله]: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان صار يوم القيامة بهاء مشورًا.

وهذا الاحتمال وإن كان صحيحًا من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول؛ لأنه قيد بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عمومًا، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها^(١)؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تَصَلَّىٰ نَارًا كَاسِيَةً﴾ أي: شديدًا حرها، تحيط بهم من كل مكان ﴿شَقِيقٌ مِنْ عَيْنٍ أَابِيَةٍ﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وَيَنْزِلُ يَنْزِيلًا﴾ أي: كثرت ينشأ الوُجُوهُ ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْوُوعَةٌ﴾

(١) في ب: بعد. (٢) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

وأما طعامهم ف﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ لا يسون ولا يني من جوع. وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال.

وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والتشنج والخسة، نسأل الله العافية. وأما أهل الخير فوجوههم يوم القيامة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور.

﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله.

﴿رَاحَتُهُمْ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا فحمدت عقبا، وحصل لها كل ما تتمناه.

وذلك أنها ﴿فِي حَيَاةٍ﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها ﴿وَعَالِيَةٍ﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿فَطَرَفُهَا دَائِمٌ﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول، بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿كَلِمَةً﴾ أي: كلمة لغو وباطل فضلًا عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى وذكر نعمه المتواترة عليهم، و[على] الآداب المستحسنة^(١) بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب ويشرح الصدور.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ولهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا وأنى أرادوا.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ و «السرر» جمع «سرير» وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطنية.

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْشُوعَةٌ﴾ أي: أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة قد وضعت بين أيديهم وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

﴿وَنَكَارٌ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: وسائد من الحرير والاستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والانتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويصفوها بأنفسهم.

﴿وَزَكَرَاتٌ غَيْرُ مَبْنُوعَةٍ﴾ والزراعي [هي]: البسط الحسان، مبنوثة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

(١٧-٢٦) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرِيلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وَإِلَى الْأَنْهَارِ

كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فَذَكِّرْ إِنَّكَ أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ وَيَعِذُّهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جِسْمَهُمْ﴾ يقول تعالى حثًا للذين لا يصدقون الرسول ﷺ ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحده:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرِيلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البذيع، وكيف سخرها الله للعباد وذلها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ بهيمة باهرة، حصل بها استقرار الأرض^(٢) وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: مدت مدًا واسعًا وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق^(٣) على ظهرها، ويتمكنوا من حركتها وغراسها والبناء فيها وسلوك الطرق الموصلة^(٤) إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر^(٥) الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة التي وقف الناس على أكثر أركانها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعد.

فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر. وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة^(٦) فيكون كرويًا مسطحًا، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّكَ أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: ذكّر الناس وعظهم وأنذرهم وبشّرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطرًا عليهم، مسلطًا موكلًا بأعمالهم. فإذا قمت بما عليك فلا عليك بعد ذلك لوم كقولهم تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ نَخَاثَ وَحِيدٌ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿وَيَعِذُّهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ أي: الشديد الدائم ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي: رجوع الخليقة^(٧) وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جِسْمَهُمْ﴾ فتحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين.

(١) في ب: الحسنة. (٢) في ب: الاستقرار للأرض. (٣) في ب: العباد. (٤) في ب: طرقها. (٥) في ب: كثير. (٦) في ب: الذي هو كبير جدًا واسع. (٧) في ب: الخلائق.

تعالى: ﴿تِلْ تَوْفِیْرُونَ الْحَیْوةَ الدِّیْنِیَّةَ ۝ وَالْآخِرَةَ حَیْرًا وَابْقِیًّا﴾، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِیْثُونَ الْعَالَمِیَّةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

(٢١-٣٠) ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ بِحَمَلٍ خِشْيَةٍ مِّنْ عَذَابٍ يُدْعَرُ الْأَعْنَیُّ ۝ وَأَنَّ لَهُ الْوِزْنَ ۝ یَقُولُ یٰبَنَاتِی ذَنَّبْنَ لِیَاجِی ۝ فِیْمَیْزُ لَا یُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَمَدًا ۝ وَلَا یُؤْتِی وَكَافَّةً أَمَدًا ۝ یَا بَنَاتِی النَّفْسُ الْمُعْتَمِیَّةُ ۝ أَرَجِی إِلَى رَبِّكَ رَاحِبَةً مَّوِیَّةً ۝ قَادِی فی عِیْنِی ۝ وَادْعِی جَنَّتِ﴾. ﴿كَلَّا ۝ أٰی: لیس كل[ما] ما أحببت من الأموال وتنافستم فيه من اللذات بياق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها، حتى تجعل قاعًا صفيصًا، لا عوج فيه ولا أمت.

ويجي الله تعالى لفصل القضاء بين عبادته في ظلل من الغمام.

وتجي الملائكة الكرام أهل السماوات كلهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفًا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفًا يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار.

﴿وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ بِحَمَلٍ خِشْيَةٍ﴾ تقودها الملائكة بالسلال. فإذا وقعت هذه الأمور ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْدَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّ لَهُ الْوِزْنَ﴾ فقد فات أوانها وذهب زمانها.

﴿یَقُولُ﴾ متحسرًا على ما فرط في جنب الله:

﴿یَبْنَیْتُ ذَنْتُ لِیَاجِی﴾ الدائمة الباقية، عملاً صالحاً كما قال تعالى: ﴿یَقُولُ یَبْنَیْتُ لَنَقْدُثَ مَعَ الرَّسُولِ سَبِیْلًا ۝ یَبْنَیْتُ لَنَقْدُثَ لَنَقْدُثَ لَنَقْدُثَ لَنَقْدُثَ فَلَئَا غَلِیْلًا﴾.

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها^(١) وفي تنميتها لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء.

﴿فِیْمَیْزُ لَا یُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَمَدًا﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له.

﴿وَلَا یُؤْتِی وَكَافَّةً أَمَدًا﴾ فإنهم يقرنون بسلام من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين.

وأما من أطمأن إلى الله وآمن به، وصدق رسله فيقال له:

﴿یَا بَنَاتِی النَّفْسُ الْمُعْتَمِیَّةُ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة [إلى] حبه، التي قرت عينها بالله.

(١) في ب: لمن يعصيه. (٢) في ب: السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها.

﴿فَاكْتَرُوا فِی الْفَسَادِ﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله.

فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوبًا وسوط عذاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَیَالْیَاسِرَ﴾ لمن عصاه^(١)، يمهله قليلاً ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

(١٥-٢٠) ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ يَقُولُ رَبِّيَ أَهْنَنِ ۝ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْآيَةَ ۝ وَلَا تَحْشُرُونَ عَلَى تَلَكَامِ الْوَشْكِیْنَ ۝ وَتَأْكُلُونَ الْكَرَّاتِ أَكْثَرًا ۝ وَتُحِیْثُونَ الْكَلَّ حَتَّى جَمًّا﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب، يقطن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه.

وأنه إذا ﴿قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هذا الحساب بقوله:

﴿كَلَّا ۝ أٰی: لیس كل من نَعَّمته في الدنيا فهو كريم عليّ، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لديّ.

وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق ابتلاء من الله وامتحان يمتحن به العباد، ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل ممن ليس كذلك فينقله إلى العذاب الويل.

وأيضاً، فإن وقوف همه العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين فقال:

﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْآيَةَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، ولهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحْشُرُونَ عَلَى تَلَكَامِ الْوَشْكِیْنَ﴾ أي: لا يحض بعضكم بعضاً على إطعام المحاويع من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال:

﴿وَتَأْكُلُونَ الْكَرَّاتِ﴾ أي: المال المخلف ﴿أَكْثَرًا﴾

أي: فزيعاً لا تبقون على شيء منه.

﴿وَتُحِیْثُونَ الْكَلَّ حَتَّى جَمًّا﴾ أي: كثيراً شديداً، ولهذا كقولُه

﴿لَرَجِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الذي ربك بنعمته، وأسدّى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحابيه ﴿رَأْسِيَّةٌ مَّوْبِقَةٌ﴾ أي: راضية عن الله وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

﴿فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِيَ ۝ وَأَدْخِلْ جَنَّتِي﴾ وهذا مخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به في حال الموت^(١).
[والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد^(٢)
مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠-١) ﴿لَا أَقِمْ بَيْنَهُمَا الْبَلَدَ ۖ وَآتَ رَبُّكَ بَيْنَهُمَا الْبَلَدَ ۖ وَكَانَ بَيْنَهُمَا
وَلَدٌ ۖ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۚ إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ عَادِيَّ أَحَدٍ ۚ
يَقُولُ أَهْلَكْتُمْ مَا لَا بَأْسَ بِهِ ۚ إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ عَادِيَّ أَحَدٍ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمُ
عَيْنَيْنِ ۚ وَلَسْنَا وَمُفْطِرِينَ ۚ وَهَدَيْنَاهُمُ السُّبُلَ ۚ فَلَا أَقْنَحُمُ الْعَقَبَةَ ۚ
وَمَا أَرْبَهُمْ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكَرِهْنَاهُمْ ۚ أَوْ لَطَمْنَاهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ ۚ يَتَّبِعُونَ
فَا مَقْرِبَةً ۚ أَوْ مَسْجِدًا فَا مَقْرِبَةً ۚ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۚ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْقِيَمَةِ ۚ وَأَلَيْنَ كَثْرًا وَسَائِلًا ثُمَّ
أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۚ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ۚ يَصْطَرِفُونَ ۚ بَيْنَهُمَا الْبَلَدُ ۚ
الْأَمِينُ الَّذِي هُوَ مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةِ، أَفْضَلُ الْبُلْدَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ،
خُصُوصًا وَرَقْتُ حُلُولِ الرُّسُولِ ﷺ فِيهَا .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^١
 والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَرٍ﴾^٢ يحتمل أن
 المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي
 البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد.

وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريجه من هذه الشدائد،
ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خلقه، مقدر^(٣) على التصرف والأعمال الشديدة.

ومع ذلك [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتجبر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال استدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينزعزل، ولهذا

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّهٗ بَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَاكِي (١) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عِلْفَهُ أَحَدٌ (٢)
وَلَا يُؤْتِي وَفَاءَهُ أَحَدٌ (٣) يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٤) ارْجِعِي
إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّخَضَّةً (٥) فَادْخُلِي فِي عِزِّي (٦) وَأَدْخِلْ جَنَّتِي (٧)

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَدَّهُ
 ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ أَنْ يَفْعَلَ عَلَيْهِ
 أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأُ ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ
 ﴿٧﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ
 النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾
 فَكَّرْ رَفِيعٌ ﴿١٣﴾ وَأَطَاعَتِي يَوْمَ ذِي مِغَاسٍ ﴿١٤﴾ يَتَسَاءَلُونَ أَقْرَبَ
 ﴿١٥﴾ أَوْ يَسْأَلُونَكَ عَنْ مَعْرِفَةٍ ﴿١٦﴾ تَعْلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَفَوَّضُوا
 بِالْغَيْبِ وَأَوَّضُوا إِلَى الرَّهْمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا إِنَّا بَيْنَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ أَرْوَؤَصَةٌ ﴿٢٠﴾

سورة الشورى

الأموال على شهوات نفسه، و ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأُ﴾ أي: كثيراً بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً،
لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا
الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في
سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف
ما أنفق.

قال الله متوعداً هذا الذي يفتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿يَتَحَسَّبُ أَنْ لَمْ يَرْزُقْهُ أَحَدٌ﴾ أي: أَيْحَسِبُ^(٤) في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟

بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكائنين لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ ○ وَلَسَانًا وَمَشْفَاتٍ ○
للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية
فيها، فهذه نعم الدنيا.

(١) في ب: وقت السياق والموت. (٢) في ب: سورة البلد. (٣) في ب: يقرر. (٤) في ب: أيظن.

﴿إِنَّا عَلَيْنَا لَآئِدُونَ﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه، يوصل إلى الله ويؤدي من رضاه.

وأما الضلال فطرق مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿وَلَوْ لَا لَأَخْرَجْنَاكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ ملكاً وتصرفاً ليس له فيها مشاركون، فليغرب الراغبون إليه في الطلب، وليقطع رجاءهم عن المخلوقين.

﴿فَأَنْذَرْنَاكَ نَارًا تَلْقَى﴾ أي: تستعر وتتوقد.

﴿لَا يَسْتَلِمُهَا إِلَّا الْآثَقُونَ﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْخَيْرِ ﴿وَنُودُوا﴾ عن الأمر.

﴿وَسَيَجْزِيَنَّ الْآثَقُونَ﴾ الَّذِينَ يُؤَقُّ مَالَهُمْ يَزْكُي﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب^(١)، قاصداً به وجهه تعالى.

فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يزكي بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وَمَا يَكْمُلُ عِنْدَهُ مِنْ يَمِينٍ جَزَاءٍ﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزي إلا وقد كافأه بها، وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبداً لله، لأنه رقيق إحسانه وحده.

وأما من بقي^(٢) عليه نعمة الناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

ولهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل: إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزي، حتى ولا رسول الله ﷺ إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن الله ورسوله المنة على كل أحد؛ منه لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزي، فبقيت أعماله خالصة لوجهه تعالى.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا آيَاتَهُ وَبَيِّنَاتِهِ﴾ وَكَوْنُهُ رَاضٍ﴾ هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات. والحمد لله رب العالمين.

يضمحل، وقاد كلاً منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة. وجعل كلاً منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إِنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ هذا [هو] المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمُفَاوَاتٍ تَفَاوُتاً كثيراً، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي له^(٣) ببقائه وينتفع به صاحبه أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطانها ويضمحل باضمحلها؟.

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى بهذا الوصف. ولهذا فصل الله تعالى العالمين، ووصف أعمالهم فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَتَى﴾ [أي: ما أمر به من العبادات المالية كالزكوات والكفارات والتفقات، والصدقات والإنفاق في وجوه الخير. والعبادات البدنية كالصلاة والصوم ونحوهما. والمرجبة منهما كالحج والعمرة ونحوهما].

﴿وَأَتَى﴾ ما نهي عنه من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ﴾ أي: صدق بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فَسَيَسِّرُ اللَّهُ يَسْرَتَهُ﴾ أي: نسهل عليه أمره ونجعله ميسراً له^(٤) كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير فيسر الله له ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما أمر به فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله.

﴿وَأَسْتَفْتَى﴾ عن الله، فترك عبوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتوجه إليه.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

﴿فَسَيَسِّرُ اللَّهُ يَسْرَتَهُ﴾ أي: للحالة العسرة والخصال الذميمة، بأن يكون ميسراً للشرا أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

﴿وَمَا يَبْقَى عَنْهُ مَالٌ﴾ الذي أطعاه واستغنى به وبخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح^(٥).

وأما ماله [الذي لم يخرج منه الواجب] فإنه يكون وبالاً عليه إذ لم يقدم منه لآخرته شيئاً.

(١) في ب: العمل له. (٢) في ب: أي: نسر له أمره ونجعله ميسراً عليه. (٣) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح. (٤) في ب: والأدناس. (٥) في ب: بقيت.

تفسير سورة الضحى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَافَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَعَدَكَ آيَاتًا فَآفَىٰ ۝ فَالْمَآئِيمَةُ فَلَا تَغْوَ ۝ وَإِنَّا لَنَسَائِلُ فَلَا تَنْهَرُ ۝ وَإِنَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ تَحْمَدُ ۝ أَقْسَمُ تَعَالَىٰ بِالنَّهَارِ إِذَا تَنَشَّرَ ضِيَائُهُ بِالضُّحَىٰ، وبالليل إذا سَجَىٰ وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ لك الله، أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً إلا إذا تضمن ثبوت كمال.

فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها وترقيته في درج^(١) الكمال ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبلية فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج^(٢) المعالي، ويمكن له الله دينه وينصره على أعدائه ويسد له أحواله حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل^(٣) إليها الأولون والآخرون من الفضائل والنعم وقرة العين وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام. ولهذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ﴾ ولهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله^(٤) [الخاصة] فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَافَىٰ﴾ أي: وجدك لا أم لك ولا أب، بل قد مات أبوه وأمّه وهو لا يدبر نفسه، فأراه الله وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب حتى أيدّه الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿وَوَعَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب

لَا يَصْلَهُ إِلَّا الْآمَنَىٰ ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيكَ اللَّهُ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٧﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٨﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَىٰ ﴿١٩﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الضُّحَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَافَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَعَدَكَ آيَاتًا فَآفَىٰ ﴿٨﴾ فَالْمَآئِيمَةُ فَلَا تَغْوَ ﴿٩﴾ وَإِنَّا لَنَسَائِلُ فَلَا تَنْهَرُ ﴿١٠﴾ وَإِنَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سُورَةُ الشُّرَحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّشَحَ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴿٢﴾ أَلَمْ تَقْنُصْ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: فقيراً ﴿فَآفَىٰ﴾ بما فتح الله عليك^(٥) من البلدان التي جئيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

[ولهذا قال: ﴿فَالْمَآئِيمَةُ فَلَا تَغْوَ﴾ أي: لا تسئ معاملة البيت ولا يطق صدرك عليه ولا تنهره، بل أكرمه وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وَإِنَّا لَنَسَائِلُ فَلَا تَنْهَرُ﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل^(٦) كلام، يقتضي رده عن مطلوبه بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عنك أو رده بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال والسائل للعلم، ولهذا كان

(١) في ب: درجات. (٢) في ب: درجات. (٣) في ب: ما وصل.

(٤) كذا في ب، وفي أ: الأحوال. (٥) في ب: فأغاثك الله بما فتح

عليك. (٦) في ب: لا يصدر منك كلام للسائل.

بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد،
ويسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به
تحفظ العلوم ونضبط الحقوق وتكون رسلاً للناس، تنوب
مناب خطابهم.

فله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي
لا يقدرون لها، على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى
وسعة الرزق.

ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً طغى
وبغى وتجرع عن الهدى، ونسي أن إلى ربه الرجعى، ولم
يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى
بنفسه، ويدعو (غيره) إلى تركه، فينبى عن الصلاة التي هي
أفضل أعمال الإيمان، يقول الله لهذا المتمرد العاتى:
﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّا لِلْعَدُوِّ إِذَا صَلَّى﴾ [إِنْ كَانَ] العبد
المصلي ﴿عَلَّ أَفْئِدَةً﴾ العلم بالحق والعمل به ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ غيره
﴿بِالتَّقْوَى﴾.

فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم
المحادة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو
في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.
﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّا لِنَهْدِيَ﴾ الناهي بالحق ﴿وَنُؤْمَرُ﴾ عن الأمر، أما
يخاف الله ويخشى عقابه؟ ﴿أَوْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ﴾ ما يعمل
ويفعل؟.

ثم توعده إن استمر على حاله فقال: ﴿كَذَلِكَ نُرْهِدُ﴾ عما
يقول ويفعل ﴿نَسْتَفْزِزُ﴾ أي: لناخذن بناصيته أخذاً عنيماً،
وهي حقيقة بذلك، فإنها ﴿نَأْمُرُ كَذِبًا عَلَاقَةً﴾ أي: كاذبة في
قولها خاطئة في فعلها.

﴿فَتَلْبَسُ﴾ هذا الذي حق عليه العقاب^(١) ﴿نَادِيَةً﴾ أي: أهل
مجلسه وأصحابه، ومن حوله ليعينوه على ما نزل به.

﴿سَنَنْتِ﴾ أي: خزنة جهنم لأخذه وعقوبته.
فليظن أي الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما
توعده من العقوبة.

وأما حالة المنهى فأمره الله أن لا يصغي إلى هذا الناهي
ولا يتقاد لنهيه فقال:

﴿كَذَلِكَ لَا تُلْغِي﴾ [أي: فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة
الدارين.

﴿وَنَسِيحٌ﴾ لريك ﴿وَأَقْرَبُ﴾ منه في السجود وغيره من أنواع
الطاعات والقربات، فإنها كلها تُؤدِّي من رضاه وتقرب منه،
وهذا عام لكل ناهٍ عن الخير ومنهي عنه، وإن كانت نازلة في

تفسير سورة القدر

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ
لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ سَلَّمَ هُنَّ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿يَقُولُ تَعَالَى - مَبِينًا لِفَضْلِ
الْقُرْآنِ وَعَلُو قَدْرِهِ - : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ كما قال
تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وذلك أن الله [تعالى]
ابتدأ بإنزاله^(٢) في رمضان [في] ليلة القدر ورحم الله بها العباد
رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكراً.

وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه
يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأزاق والمقادير
القدرية.

ثم فتح شأنها وعظم مقدارها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ
الْقَدْرِ﴾ أي: فإن شأنها جليل وخطرها عظيم.
﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: تعادل من فضلها ألف
شهر، فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر
[خالية منها].

وهذا مما تحير فيه^(٣) الألباب، وتندعش له العقول،
حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى
بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل
معمّر عمراً طويلاً، نبأً وثمانين سنة.

﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ أي: يكثر نزولهم فيها ﴿مِنْ كُلِّ
أَمْرٍ﴾ سَلَّمَ هُنَّ أي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة
خيرها.

﴿حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي: مبتدأها من غروب الشمس
ومتنهاها طلوع الفجر^(٤).

وقد توارت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان وفي
العشر الأواخر منه خصوصاً في أوتاره، وهي باقية في كل سنة

(١) في ب: الغلاب. (٢) في ب: وعذب. (٣) في ب: ابتدأ بإنزال
القرآن. (٤) كذا في ب، وفي أ: به. (٥) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من
غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

إلى قيام الساعة.

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف، ويكثر من التعبد في العشر
الأواخر من رمضان رجاء ليلية القدر، [والله أعلم].

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ
حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۚ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ
قِيمَةٌ ۚ وَمَا تَفَرَّقُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۚ
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ خَالِينَ لَهُ الَّذِينَ خُفَّاءُ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا
الزَّكَاةَ ۚ وَذَلِكَ مِنْ الْقِيمَةِ ۚ إِذْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۚ إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۚ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۚ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: أَي: [من] اليهود والنصارى وَالْمُشْرِكِينَ﴾
من سائر أصناف الأمم.

﴿مُنْفَكِينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي: لا
يزالون في غيهم وضلالهم لا يزيدهم مرور السنين^(١) إلا
كفرًا.

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فر
تلك البينة فقال:

﴿رَسُولٌ مِنْ أَنْبَاءِ﴾ أي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحق،
وأُنزل عليه كتابًا يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويزكّهم،
ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال:

﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين لا
يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.
ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كُتِبَ
قِيمَةٌ﴾ أي: أخبار صادقة وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى
طريق مستقيم.

فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس
له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن
بينة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس
ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرّقوا واختلفوا

سُورَةُ الْقَدَرِ

٥٩٨

سُورَةُ الْقَدَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدَرِ ۚ
لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۚ نَزَّلَ الْكِتَابَ وَالزُّرُوحُ
فِيهَا يَأْذِنُ رَبُّهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۚ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۚ

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ
حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۚ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۚ
فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۚ وَمَا تَفَرَّقُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۚ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ خَالِينَ
لَهُ الَّذِينَ خُفَّاءُ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَلِكَ مِنْ
الْقِيمَةِ ۚ إِذْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۚ إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۚ

وصاروا أحزابًا ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ التي توجب
لأهلها الاجتماع والانفاق.

ولكنهم لردائهم ونذالهم لم يزدتهم الهدى إلا ضلالًا،
ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد
ودين واحد.

فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿اللَّهُ تَحْلِيلُ لَهُ
الَّذِينَ﴾ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله
وطلب الزلفى لديه.

﴿خُفَّاءُ﴾ أي: معرضين [مائلين] عن سائر الأديان
المخالفة لدين التوحيد.

وخصّ الصلاة والزكاة [بالذكر] مع أنهما داخلان في
قوله: ﴿يَعْبُدُوا اللَّهَ تَحْلِيلُ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما
العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين هو ﴿وَبَيْنَ
الْقِيمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما

سواء فطرق موصلة إلى الجحيم .

ثم ذكر جزاء الكافرين بعد ما جاءتهم البينة فقال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالشُّرَكِيِّينَ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قد

أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها .

﴿يَخْلُدِينَ فِيهَا﴾ لا يفتر عنهم العذاب وهم فيها ملبسون .

﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه،

وخسروا الدنيا والآخرة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾

لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة .

﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن

فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها .

﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضِعَا عَنْهُمْ﴾

فرضي عنهم بما قاموا به من مرضاه، ورضوا عنه بما أعدل لهم

من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات .

﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ﴾ أي: لمن خاف

الله فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته^(١) .

[تمت والحمد لله]

تفسير سورة إذا زلزلت^(٢)

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ

أَنْفَالَهَا ۚ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ

أَتَىٰ لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُسْرُوا أَعْمَالَهُمْ ۖ فَمَنْ

يَعْمَلْ يَشْكُرْ دَرُوءًا خَيْرٌ بِسَرٍّ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ يَشْكُرْ دَرُوءًا شَرًّا

بِسَرٍّ ۚ يَخِيرُ تَعَالَىٰ عَمَّا يُكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ تَنْزُلُ

وَتَرْجَفُ وَتَرْتَجِفُ، حَتَّىٰ يَسْقُطَ مَا عَلَيْهَا مِنْ بَنَاءٍ وَعِلْمٍ^(٣) .

فتندك جبالها، وتسوى تلالها، وتكون قاعًا صافصًا لا

عوج فيه ولا أمت .

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا﴾ أي: ما في بطنها من الأموات

والكنوز .

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم

مستعظما لذلك: ﴿مَا لَهَا؟﴾ أي: أي شيء عرض لها؟ .

﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على

العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من

جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم .

﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضِعَا عَنْهُمْ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ﴾

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا ۚ

وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ

أَتَىٰ لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُسْرُوا أَعْمَالَهُمْ ۖ

فَمَنْ يَعْمَلْ يَشْكُرْ دَرُوءًا خَيْرٌ بِسَرٍّ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ يَشْكُرْ دَرُوءًا شَرًّا بِسَرٍّ ۚ

يَخِيرُ تَعَالَىٰ عَمَّا يُكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ تَنْزُلُ

وَتَرْجَفُ وَتَرْتَجِفُ، حَتَّىٰ يَسْقُطَ مَا عَلَيْهَا مِنْ بَنَاءٍ وَعِلْمٍ^(٣) .

سُورَةُ الْعَنَادَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَّتِ صَبِيحًا ۖ فَالْمُرِيَّتِ قَدَحًا ۖ فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا

ۖ فَالْقُرْنِ يَوْمَ نَفْعًا ۖ فَوَسْطَانِ يَوْمَ جَمْعًا ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ

لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۖ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۖ وَإِنَّهُ لِحُبِّ

الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۖ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ

ذَلِكَ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ أَتَىٰ لَهَا﴾ [أي:]: وأمرها أن تخبر بما

عمل عليها، فلا تعصي^(١) لأمره .

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من موقف القيامة حين يقضي الله

بينهم ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: فرقا متفاوتين .

﴿لِيُسْرُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ليربهم الله ما عملوا من الحسنات

والسيئات، ويربهم جزاءه موفرا .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ يَشْكُرْ دَرُوءًا خَيْرٌ بِسَرٍّ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ

يَشْكُرْ دَرُوءًا شَرًّا بِسَرٍّ ۚ﴾ ولهذا شامل عام للخير والشر كله،

لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء، (ووجوزي

عليها) فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُثْقَرًا وَمِمَّا كَانَتْ

تَكُونُ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، ﴿وَيُجَدُّوْا مَا عَمِلُوا

خَالِبِينَ﴾ .

ولهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلا،

والترهيب من فعل الشر ولو حقيرا .

(١) في ب: بما أوجب عليه . (٢) في ب: الزلزلة . (٣) في ب:

ومعظم . (٤) كذا في ب، وفي أ: ولا تستعصي .

تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وحيه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق^(٤) ربه، وكلُّ هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار وغفل عن الآخرة.

ولهذا قال - حاشاً له على خوف يوم الوعيد -:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: هلاً يعلم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم.

﴿وَيُخَوَّلُ مَا فِي الشُّجُورِ﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها و] ما استتر في الصدور من كمان الخبير والشر، فصار السر علانية والباطن ظاهراً، وبان على وجه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية ومجازيهم عليها.

وخص خبره^(٥) بذلك اليوم، مع أنه خير بهم في كل وقت، لأن المراد بذلك، الجزء بالأعمال^(٦) الناشئة عن علم الله وإطلاعه.

تفسير سورة القارة

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١) ﴿الْقَارِعَةُ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ○ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُورِ ○ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْشُورِ ○ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ○ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ○ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ○ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ○ نَارُ حَابِيَةٍ ○

﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة سميت بذلك، لأنها ترقع الناس وتزعجهم بأهوالها.

ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ○ مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ○ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَنْشُورِ ○ أي: كالجراد المنتشر الذي يوج بعضه في بعض، والفراش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يوج بعضها ببعض لا تدري أين توجه.

فإذا أوقد لها نار تهاقت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول.

(١-١) ﴿وَالْمُورِيَّتِ صَبَا ○ قَالُمُورِيَّتِ قَدَمَا ○ قَالُمُورِيَّتِ صَبَا ○ قَالُرْنَ يَوْمَ نَقَمًا ○ قَالُمُورِيَّتِ يَوْمَ نَقَمًا ○ لَكُنُودٌ ○ وَإِنَّ عَلَى ذَلِكَ لَنُشِيدٌ ○ وَإِنَّ لِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ○ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ○ وَخُصِّلَ مَا فِي الشُّجُورِ ○ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ○﴾ أقسم الله تبارك وتعالى بالخير لما فيها من آيات الله الباهرة ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق.

وأقسم [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات فقال:

﴿وَالْمُورِيَّتِ صَبَا﴾ أي: العاديات عذواً بليلاً قوياً، يصدر عنه الصبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العذو^(١).

﴿قَالُمُورِيَّتِ﴾ بحوافرن ما يطان عليه من الأحجار ﴿قَدَمَا﴾ أي: تقدم^(٢) النار من صلاية حوافرن [وقوتن] إذا عدون. ﴿قَالُمُورِيَّتِ﴾ على الأعداء ﴿صَبَا﴾ وهذا أمر أغلبي، أن القارة تكون صباحاً.

﴿قَالُرْنَ يَوْمَ نَقَمًا﴾ أي: بعدوهن وغارتن ﴿نَقَمًا﴾ أي: غباراً. ﴿قَالُمُورِيَّتِ يَوْمَ نَقَمًا﴾ أي: براكين ﴿جَمْعًا﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي: لمنوع للخير الذي عليه لربه^(٣).

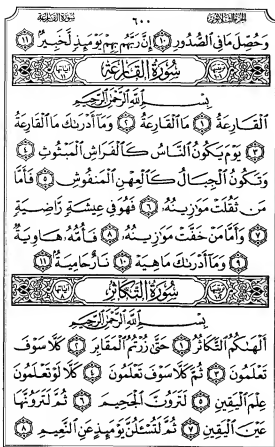
فطبيعة [الإنسان] وجبته أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤذيها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية إلا من هده الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

﴿وَإِنَّ عَلَى ذَلِكَ لَنُشِيدٌ﴾ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك لا يجحده ولا ينكره، لأن ذلك أمر بيّن واضح.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد والتهديد الشديد لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿وَإِنَّ عَلَى ذَلِكَ لَنُشِيدٌ﴾ أي: الإنسان ﴿لِحَبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: كثير الحب للمال.

(١) في ب: عذوها. (٢) في ب: تقدم. (٣) في ب: لله عليه. (٤) في ب: على رضا ربه. (٥) في ب: خبرهم. (٦) في ب: المراد بهذا الجزء على الأعمال.



وأما الجبال الصم الصلاب فتكون ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي: كالصوف المنفوش الذي بقي ضعيفا جدًا نظير به أدنى ربح.

قال تعالى: ﴿وَرَى الْجِبَالُ تَحْسِبًا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾. ثم بعد ذلك تكون هباءً منثورًا، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ في جنات النعيم.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ﴾ أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ عَذَابًا﴾.

وقيل: إن معنى ذلك فأم دماغها هاروة في النار أي: يلقي في النار على رأسه.

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ﴾ ولهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ أي: شديدة الحرارة قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفًا نستجير بالله منها.

تفسير سورة ألهاكم التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ودل قوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية^(١)، لأن الله ساهم زائرين ولم يسمهم مقيمين.

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال^(٢)، في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. أي: لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر ولبادرتكم إلى الأعمال الصالحة.

ولكن عدم العلم الحقيقي صيركم إلى ما ترون. ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي: لترونها القيامة فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: رؤية بصرية كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُهَا وَلَمْ يَدُورْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿ثُمَّ لَتَنْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي تنعمت به في دار

(١-٨) ﴿الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ ١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتَنْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ٨﴾ يقول تعالى موبخًا عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبته على كل شيء:

﴿الْهَنُكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿التَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثر به ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفخرون من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى^(١).

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن بعدما تعذر عليكم استئنافه.

(١) في ب: وليس المقصود منه وجه الله. (٢) في ب: الآخرة. (٣) في ب: على الأعمال.

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَوَاوَصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلِلَّهِ كُلُّ حُمْزٍ لَمَزَةٌ ﴿١﴾ الَّتِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدُهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيَكْبَدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا لَخُطْمَةٍ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْيَدِ ﴿٧﴾ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَذَابٍ مُتْدَمِدٍ ﴿٩﴾

سُورَةُ الْفِتْنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقُرْآنُ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ جَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

تفسير سورة والعصر

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ○ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ○ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ○ أَسْمَ تَعَالَى بالعصر الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابع.

والخاسر مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خاسراً مطلقاً كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها: الظاهرة والباطنة المتعلقة بحق الله وحق عباده^(١)، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحث عليه ويرغب فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين يكمل الإنسان^(٢) نفسه وبالأمرين الآخرين يكمل غيره.

وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح [العظيم].

تفسير سورة الهمزة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩-١) ﴿وَلِلَّهِ كُلُّ حُمْزٍ لَمَزَةٌ﴾ ○ الَّتِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدُهُ ○ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ ○ كَلَّا لَيَكْبَدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ ○ وَمَا أَذْرَكَ مَا لَخُطْمَةٍ ○ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ○ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْيَدِ ○ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ ○ فِي عَذَابٍ مُتْدَمِدٍ ○.

﴿وَلِلَّهِ﴾ أي: وعيد ووبال وشدة عذاب ﴿كُلُّ حُمْزٍ لَمَزَةٌ﴾ الذي يهزم الناس بفعله ويلزمهم بقوله، فالهماز: الذي يعيب الناس ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللاماز: الذي يعيهم بقوله.

ومن صفة هذا الهماز اللماز أنه لا هَمَّ له سوى جمع المال

(١) في ب: بحقوق الله وحقوق عباده. (٢) في ب: العبد.

وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت
من جملة إرغاصات دعوته ومقدمات^(١) رسالته، فله الحمد
والشكر.

تفسير سورة ليلاف قريش

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤-١) ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ قُرَيْشٌ ۖ إِنَّا فَتِنُهُمْ بِرَحَلَةٍ أَوْبَسَةٍ ۖ وَأَصَيْفٍ ۖ نَّجْعِبُهُمْوَا رَبِّ هَذَا الْيَافِ ۖ أَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جُودٌ ۖ وَأَنَّهُمْ مِنْ خَوَافٍ﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب. فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا.

ولهذا أمرهم الله بالشكر فقال: ﴿لَتَلْبِسُنَّوْا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة. ﴿الَّذِي أَتَّعَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْسَهُمْ مِنْ حَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة.
وخصّ الله بالربوبية البيت^(٢) لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿أَرْأَيْتَ الْآلِيَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْآيَاتِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْآلِيَةَ ۝ وَلَا يَحْصُ عَلَىٰ طَعَامِ الْآسِكِينَ ۝ قَوْلًا لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُزَاهَوْنَ ۝ وَيَسْتَوُونَ ۝ الْمَأْمُونُونَ ۝ يَقُولُ تَعَالَىٰ دَائِمًا لِمَن تَرَكْ حَقُّوهُ وَحَقُّوهُ عِبَادَ:

(١) في ب: أدلة. (٢) في ب: الربوبية باليت.

وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذلك.

﴿يَحْسَبُ﴾ بجعله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ في الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله الذي يظن أنه ينمي عمره.

ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن
البر يزيد في العمر.

﴿كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّهُ﴾ أي: ليطرحن ﴿فِي الْمُنْعَمَةِ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمُنْعَمَةُ ﴿تَعْظِيمُ لَهَا وَتَهْوِيلُ لَهَا﴾.

ثم فسرها بقوله :

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿الَّتِي﴾
من شدتها ﴿تُطْلِقُ عَلَى الْآفَاقَةِ﴾ أي: تنفذ من الأجساد إلى
القلوب.

ومع هذه الحرارة البليغة هم محبسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها.

ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ أي: مغلقة ﴿فِي عَمَدٍ﴾ من خلف الأبواب ﴿مُمَدَّدَةٍ﴾ لئلا يخرجوا منها.
﴿كَلِمَاتٌ آتَاوْنَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِدُّوا مِنْهَا﴾.

[نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية].

تفسير سورة الفيل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبْيَضَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ مِّنْ لَّيْلِ لَّيْلٍ ۖ وَسَوَّاهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُوِّلَ ۚ أَيْ: أَمَا رَأَيْتَ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظِيمِ شَأْنِهِ، وَرَحْمَتِهِ بَعْدَهُ، وَأَدْلَةَ تَوْحِيدِهِ، وَصَلَقَ رَسُولُهُ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَا فَعَلَهُ اللَّهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، الَّذِينَ كَادُوا بَيْتَهُ الْحَرَامَ وَأَرَادُوا إِخْرَاجَهُ.

فجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم القيلة لهدمه، وجاءوا بجمع لا قبيل للعرب به من الحبشة واليمن.

فلما انتهوا إلى قرب مكة ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم

طيرًا أبابيل، أي: متفرقة تحمل حجارة محمأة من سجيل.
فرمتهم بها، وتتبع قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا،

نحوهم، [وقصتهم معروفة مشهورة].

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

٦٠٢

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْبَثُ قُتْرَيْنِ ① إِنْ لَفَيْهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②
قَلِيلٌ عَدُوًّا رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّتِي أَطْعَمَهُمْ ④
مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ⑤

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبْرِ ① فَذَلِكَ الَّذِي ②
يَدْعُ الْيَتِيمَ ③ وَلَا يَحْصُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ ④
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑥
الَّذِينَ هُمْ يُرَاكُونَ ⑦ وَيَسْمَعُونَ الْوَعْدَ ⑧

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ②
إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③

والفضل الغزير الذي من جملته ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة من النهر الذي يقال له: «الكوثر».

ومن الحوض^(٧) طوله شهر وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، آتيته كنجوم^(٨) السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

ولما ذكر متته عليه أمره بشكرها قال:

«فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ» خصص هاتين العبادتين بالذكر لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات.

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله، وتقلها في أنواع العبودية.

وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحر، وإخراج اللعاب الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

«إِنَّ شَانِئَكَ» أي: مبغضك وذامك ومتنقصك «هُوَ

(١) في ب: يخاف. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون. (٣) في ب: مُخَلَّونَ بَارِكَاثًا. (٤) في ب: الدم والوعيد. (٥) في ب: يبدله والسباح به. (٦) في ب: إطعام. (٧) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض الذي يقال له: الكوثر. (٨) في ب: عدد نجوم السماء.

«أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبْرِ» أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

«فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ» أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه؛ ولأنه لا يرجو ثواباً ولا يخشى^(١) عقاباً.

«وَلَا يَحْصُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ» غيره «عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ» ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.

«فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ» أي: الملتزمون^(٢) لإقامة الصلاة ولكنهم «عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» أي: مضيعون لها تاركون لوقتها مفتوتون لأركانها^(٣).

ولهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الدم واللوم^(٤).

وأما السهو في الصلاة، فهذا يقع من كل أحد حتى من النبي ﷺ.

ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة، وعدم الرحمة، فقال:

«الَّذِينَ هُمْ يُرَاكُونَ» أي: يعملون الأعمال لأجل رثاء الناس.

«وَيَسْمَعُونَ الْوَعْدَ» أي: يمعنون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة، كالإتاء والدلو والناس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها، والسماحة به^(٥).

فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمعنون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة الحث على إكرام^(٦) اليتيم والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها] وفي جميع الأعمال.

والحث على [فعل] المعروف وبإلزام الأمور الخفيفة كعارية الإتياء والدلو والكتاب ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ» «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ممثلاً عليه: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» أي: الخير الكثير

سُورَةُ الْكَافِرُونَ ٦٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَّدْتُمْ ﴿٤﴾
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

سُورَةُ النَّصْرِ ١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

سُورَةُ الْمُسَدَّدِ ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ
حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

والله يقول: ﴿لَبِئْسَ مَكْرَهُهُ لَا يُدْرِكُهُ﴾ .
وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه
الامة، لم يزل نصر الله مستمرًا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم
يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره،
حتى حدث من الامة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاه
الله^(١) بتفرق الكلمة وتشتت الأمر، فحصل ما حصل .
[ومع هذا] فلطيفه الامة وهذا الدين من رحمة الله ولطفه ما
لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال .
وأما الإشارة الثانية فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ
قد قُرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به .
وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختتم بالاستغفار، كالصلاة
والحج وغير ذلك .
فأمّر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال إشارة
إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره
بأفضل ما يجده، صلوات الله وسلامه عليه .

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم . (٢) في ب: وهي مكة . (٣)
في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين . (٤) في ب: فابتلوا .

الأكبر ﷺ أي: المقطوع من كل خير مقطوع العمل مقطوع الذكر .
وأما محمد ﷺ فهو الكامل حقًا، الذي له الكمال الممكن
في حق المخلوق من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع .

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا
أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَّدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا
أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي: قل للكافرين معلنا
ومصرحًا ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من
دون الله ظاهرًا وباطنًا .
﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لعدم إخلاصكم لله في
عبادته^(١)، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة .
ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني
على أن ذلك قد صار وصفًا لازمًا .
ولهذا ميز بين الفريقين وفصل بين الطائفتين فقال:
﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ بِدِينِ اللَّهِ
شَاكِرُونَ﴾، ﴿أَنْتُمْ تَرَبُّونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا رَبُّنَا وَمِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

تفسير سورة النصر

وهي مدنية^(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ
كَانَ تَوَّابًا﴾ في هذه السورة الكريمة بشارة وأمر لرسوله عند
حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك .
فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول
الناس في دين الله أفواجًا، بحيث يكون كثير منهم من أهله
وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع لهذا المبره .
وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمّر الله رسوله أن
يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره .
وأما الإشارة فإن في ذلك إشارتين:
إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين^(٣) ويزداد عند حصول
التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر

وَلَمْ يُولَدْ ۚ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدٌ ۚ أَي: ﴿قُلْ﴾ قولاً جازماً به معتقداً له عارفاً بمعناه.

﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال الذي له الأسماء الحسنی، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل. ﴿اللَّهُ الْفَعْلُ﴾ أَي: المقصود في جميع الحوائج.

فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم ويرغبون إليه في مهاتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته، الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه.

ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله تبارك وتعالى. فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

تفسير سورة الفلق

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ أَي: ﴿قُلْ﴾ متعوذاً: ﴿أَعُوذُ﴾ أَي: ألجأ وألوذ وأعتصم ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، أَي: فائق الحب والنوى، وفائق الإصباح.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات، فيستعاض بخالقها من الشر الذي فيها.

ثم خص بعدما عم فقال:

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أَي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أَي: ومن شر السواحر اللاتي يستعن على سحرهن بالثفت في العقد التي يعقدنها على السحر.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب.

فكان ﷺ يتأول القرآن ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي».

تفسير سورة تبت

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَفْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ ۝ وَاتْرَاكُمْ حَتَّاءَ الْهَبِ ۝ فِي جَهَنَّمَ حَبْلٌ مِنْ مَسْكٍ ۝ أَبُو لَهَبٍ هُوَ عَمِ النَّبِيِّ ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين ولا حمية للقرابة - قبحه الله -.

فدنه الله بهذا الذم العظيم الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة فقال:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أَي: خسرت يداه وشقي ﴿وَتَبَّ﴾ فلم يريح.

﴿مَا أَفْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي كان عنده وأطغاه ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ﴾ أَي: ستحيط به النار من كل جانب هو ﴿وَاتْرَاكُمْ حَتَّاءَ الْهَبِ﴾.

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً ﴿مِنْ مَسْكٍ﴾ أَي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلدة في عنقها حبلاً من مسد.

وعلى كل، ففي هذه السورة آية باهرة من آيات الله.

فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا.

وأخبر أنهما سيُعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان. فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تفسير سورة الإخلاص

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤-١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ

فاتحيتج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده .
ويدخل في الحاسد العاين ؛ لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع خبيث النفس .
فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشر عموماً وخصوصاً .
ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره ويستعاذ بالله منه ، [ومن أهله] .

تفسير سورة الناس

وهي مدنية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيِّ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْغَيْثِ وَالنَّاسِ﴾ وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم ، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها الذي من فتنه وشره أنه يوسوس في صدور الناس ، فيحسن [لهم] الشر ويربهم إياه في صورة حسنة وينشط إرادتهم لفعله .
ويقبح لهم الخير ويضطهم عنه ويربهم إياه في صورة غير صوريته .

وهو دائماً بهذه الحال يوسوس ويخنس ، أي : يتأخر إذا ذكر العبد ربه ، واستعان به على دفعه .
فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم .

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك ، فكل دابة هو آخذ بناصيتها ، وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم وبينها ، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .

والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس .
ولهذا قال : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرًا ، وظاهرًا وباطنًا .
ونسأله تعالى أن يتم نعمته ، وأن يعفو عنا ذنوبنا لنا حال^(٢) بيننا وبين كثير من بركاته وخطايا وشبهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته .
ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمننا خير ما عنده بشر ما عندنا ،

فانه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يقطع من رحمته إلا القوم الضالون .

وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، صلاة وسلاماً دائمين متواصلين أبد الأوقات ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

تم تفسير كتاب الله بعونه ، وحسن توفيقه ، على يد جامعته ، وكتابه «عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله» المعروف بابن سعدي ، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين ، وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ^(٣) .

(١) عدلت بخط مغاير في ب إلى : مكية . (٢) في ب : ذنوبنا التي حالت .
(٣) في ب : وقع القتل في شعبان ١٣٤٥ ، ربنا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم .

الملاحق

١ - أصول وكميات من أصول التفسير وكمياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن .

٢ - تفسير الآيات الذي اختلفت فيها النسختان .

أصول وكمليات

من أصول التفسير وكملياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.^(١)

في الأمم، ووقوع المثالات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحددين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والروبية، والنعم العظيمة. وأن من تفرّد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيزَ وحقق وُجد شرّاً وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير: إذا فهمت ما دلّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لا تتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعة لذلك المعنى فما لا يتم الخبر إلا به، فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم، وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة للاتقة بها. وأن حذف المتعلقة، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفى شيء من النقائص؛ كان إثباتاً للكمال المتنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكمليات: أنه إذا وضع الحق وظهر ظهوراً جلياً، لم يبق للمجاذلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجاذلات.

ما نفاه القرآن؟ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فتمت وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبارة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب».

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كمليات القرآن، أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتيوا بمثل ما جاء به، إن كانوا صادقين.

ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المتصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقته للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضاً أيامه

المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده. وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خيرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده: الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم، وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن، من الصلاح. وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا: الفساد.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المستفدون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم

العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه. والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة.

وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المستفدون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبدُ مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينبى إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بعيزان الشرع]^(١).

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص.

وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبير والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك:

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -.

واللطف، والتأييد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله.

ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمأكَل، والمشرب، والمكاسب. والخبيث: ضد ذلك.

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَاكُمْ بِهِ مِنَ الْآخِرَةِ﴾^(١).

النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة المستحقة: كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة.

وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المستفوعون بالآيات. هو: الذي يفهم، ويعقل الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: جبر، ولُب، ونهى، لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها.

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده: الجهل.

لفظ الأمة في القرآن على أربعة أوجه: يراد به الطائفة من الناس وهو الغالب. ويراد به المدة، ويراد به الدين والملة، ويراد به الإمام في الخير.

لفظ استوى في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُذِّيَ به «على» كان معناه العلو والارتفاع، ﴿ثُمَّ أَسْوَى عَلَى الْمَرْيَمِ﴾.

وإن عُذِّيَ به «إلى» فمعناه قصد، كقوله: ﴿ثُمَّ أَسْوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾.

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، ويتمها بفتح مراده، ويتمها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ بِتَنَفُّوتٍ وَلَسْتُمْ بِتَائِبِينَ إِلَّا أَنْ تُخْبِتُوا فِيهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا﴾ ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد في الإنفاق. والتغترير والبخل عكسه: التفسير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنة ونفقه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام. مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة.

النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي.

القرآن، كله مُحْكَمٌ، وأُحْكِمَتْ آيَاتُه من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابه من جهة اتفاه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاق.

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني. ومحكمه، واضح مبين صريح في معناه، إذا رُدُّ إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه.

معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة،

في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

(العليم الخبير) وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالسوابجيات، والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي، والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

(الحكيم) وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه، وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْلِهِ يُؤْتُونَ﴾ فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك: فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره، وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها. (الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب).

هذه الأسماء تقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَغْنِ﴾ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ الآية.

والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه، وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته. (السميع) لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفتن الحاجات.

(البصير) الذي يبصر كل شيء وإن رق وصغر، فيبصر ديبب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء. ويبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السماوات السبع. وأيضاً سميع بصير، بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

(الحميد) في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

(المجيد، الكبير، العظيم، الجليل) وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال، في قلوب أوليائه وأصفياه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لكبريائه.

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمُلَ»، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾.

التوبة: ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصول إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله ﷺ.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والأجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول:

قد تكرر اسم (الرب) في آيات كثيرة.

والرب هو: المربي جميع عباده، بالتدبير، وأصناف النعم، وأخص من هذا، تربيته لأصفياه بإصلاح قلوبهم، وأرواحهم، وأخلاقهم، ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

(الله) هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما انتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

(الملك، المالك) الذي له الملك، فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق، في الخلق، والأمر، والجزاء، وله جميع العالم، العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

(الواحد الأحد) وهو الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك، ويجب على العبيد توحيده، عقداً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

(الصمد) وهو الذي تقصده الخلائق كلها، في جميع حاجاتها، وأحوالها وضروراتها، لما له من الكمال المطلق،

وصحة ما جاؤوا به .

(المهيمن) المطلع على خفايا الأمور، وخبائيا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً .

(القدير) كامل القدرة . بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها . وبقدرته يحيي ويميت، ويبيع العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قاله له : «كن فيكون» . وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد .

(اللطيف) الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن، والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصول إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخير» وبمعنى «الرؤوف» .

(الحسيب) هو العليم بعباده، كافى المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها .

(الرقيب) المطلع على ما أكتنه الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها، على أحسن نظام وأكمل تدبير .

(الحفيظ) الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه، من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم، وجزأها .

(المحيط) بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً . (القهار) لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته، وكمال اقتداره .

(المقيت) الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقاتل . وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء، بحكمته وحمده .

(الوكيل) المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته . الذي تولى أوليائه، فيسرههم لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور . فمن اتخذه وكيلاً كفاه ﴿اللَّهُ وَكَوْنُ الْيُسْرَى أَيْسَرُ مِنْ الْيُسْرِ﴾ .

(ذو الجلال والإكرام) أي : ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة، والجود، والإحسان العام والخاص . المكرم لأوليائه وأصفيائه، الذين يجلوهم، ويعظمونه، ويحبونه .

(الودود) الذي يحب أنبياءه ورسله، وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأ قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالشثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه وقداً، وإخلاصاً، وإنابة من جميع الوجوه .

(العفو، الغفور، الغفار) الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالعفوان والصفح عن عباده، موصوفاً، كل أحد مضطراً إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو، لمن أتى بأسبابها، قال تعالى : ﴿وَلِيَّ لَعْنَتِي لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَآمَنَ صِلَحًا تَمَّ أَهْلَتَنِي﴾ .

(التواب) الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين : أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولاً لها، وغفواً عن خطاياهم .

(الْقُدُّوسُ، السَّالَمُ) أي : المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المنزه عن جميع العيوب، والمنزه عن أن يقاربه أو يماثله، أحد في شيء من الكمال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَيًّا﴾ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ أَدْبَارًا﴾ .

فالقدوس كالسلام، ينفان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى، ثبت الكمال كله .

(العلي، الأعلى) وهو الذي له علو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر، فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المتئى .

(العزیز) الذي له العزة كلها : عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناه أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته .

(القي، المتين) هو في معنى العزيز . (الجبار) هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لا ذبه، ولجأ إليه .

(المتكبر) عن السوء، والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه .

(الخالق، البارئ، المصور) الذي خلق جميع الموجودات، وبرأها، وسواها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل، ولا يزال على هذا الوصف العظيم .

(المؤمن) الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين . وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم

فجميع المصالح والمنافع، منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء، بحكمته ورحمته.

(الشهيد) أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات، خفيها وجليها. وأبصر جميع الموجودات، دقيقتها وجليها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده، وعلى عباده، بما عمله.

(المبدئ، المعيد) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ابتداء خلقهم؛ ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم، ليجزي الذين أحسنوا بالحسن، ويجزي المسيئين بإساءتهم، وكذلك، هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

(الفعال لما يريد) وهذا من كمال قوته، ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريدُه يفعلُه بلا ممانع، ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له: «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، فإرادته تابعة لحكمته وحملته، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

(الغني، المغني) فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه، غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه، بما أفاض على قلوبهم، من المعارف الربانية، والحقائق الإيمانية.

(الحليم) الذي يَدُرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة المعاصين بعصيانهم. ويستعيتهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

(الشاكِر، الشكور) الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة، تقرب الله منه أكثر.

(القريب، المجيب) أي: هو تعالى، القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص من عابديه، وسائليه، ومجيبه، وهو قرب لا تدرُّك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده، ومن

(الفتاح) الذي يحكم بين عباده، بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء. الذي فتح بلفظه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفة، ومحبته، والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة، والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب، التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَتِهِ فَلَا تُمْنِيكَ هَٰذَا وَمَا يُنْيِيكَ فَلَا تَمْنِيكَ لَمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

(الرزاق) لجميع عباده، فما من دابة في الأرض، إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البر والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

(الحكم، العدل) الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة، بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحتمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(جامع الناس) ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

(الحي، القيوم) كامل الحياة والقائم بنفسه، القيم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، فالحي: الجامع لصفات الذات، والقيوم: الجامع لصفات الأفعال.

(النور) نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته، والإيمان به، ونور أفتدنتهم بهدياته، وهو الذي أنار السموات والأرض، بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. (بديع السموات والأرض) أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

(القابض، الباسط) يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته. (المعطي، المانع) لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع،

قلوبهم منية إليه، مقادة لأمره.

وللرشيد معنى، بمعنى الحكيم فهو: الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير، ورشد، وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

(الحق) في ذاته وصفاته. فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل، ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق وكل شيء ينسب إليه فهو حق، ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَزَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ﴾، ﴿فَمَا بَدَأَ الْهَقَّ إِلَّا الْهَكْلُ﴾، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين. قال ذلك، وكتبه، العبد الفقير إلى ربه «عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي». غفر الله له ولوالديه ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين. آمين

آثاره الإجابة للداعين، والإنابة^(١) للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة، للداعين، مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا، الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة، للمستجيبين له، المتقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطربين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين، وقوي تعلقهم به، طمعاً، ورجاءً، وخوفاً. (الكافي) عباده جميع ما يحتاجون، ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

(الأول، والآخر، والظاهر، والباطن).

قد فسرهما النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً، فقال يخاطب ربه: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

(الواسع) الصفات، والنعوت، ومتعلقاتها، بحيث لا يُحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة، والسلطان، والملك، واسع الفضل، والإحسان، عظيم الجود والكرم.

(الهادي، الرشيد) أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل

ملحق بتفسير الآيات الذي اختلفت فيها النسخان

المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التبرص أربعة أشهر وعشراً، على وجه التحتم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة منهم عندهم، حولا كاملاً، جبراً لخاطرها، وبراً بميتهم، ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةٌ لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته، ويمتعوها ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي بُطُونِهِمْ﴾ أي: من التجمل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

(٢٤١، ٢٤٢) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا مِنَ الدُّنْيَا مَالًا يَمَتُّونَ فِيهِ حَقَّ عَلَ الْيَتَامَى﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿لَمَّا بَيَّنَّ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، إِمْتِنَاعَ الْمَفَارِقَةِ بِالْمَوْتِ، ذَكَرَ هُنَا أَنَّ كُلَّ مُطْلَقَةٍ، فَلَهَا عَلَى زَوْجِهَا، أَنْ يَمْتَعَهَا وَيُعْطِيَهَا مَا يَنْسَبُ حَالَهُ وَحَالِهَا، وَأَنَّهُ حَقٌّ، إِنَّمَا يَقُومُ بِهِ الْمُتَّقُونَ، فَهُوَ مِنْ خِصَالِ التَّقْوَى الْوَاجِبَةِ أَوْ الْمُسْتَحَبَّةِ.

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره.

وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء.

ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

فلما بيّن تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أثنى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وفهمًا، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلاها.

(٢٣٨، ٢٣٩) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿حَنِيفًا عَلَى الْأَسْكَرَاتِ وَالْأَسْكَرَاتِ الْأُسْمَى وَفُتُوا لِلَّهِ قَنِينًا ۖ فَإِنْ خَشَفْتُمْ رِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا فَلَا أَمْنَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِالمَحَافَظَةِ ﴿عَلَى الْأَسْكَرَاتِ﴾ عُمُومًا، وَعَلَى ﴿الصَّلَاةِ الْأُسْمَى﴾ أَدَاؤِهَا بِوَقْتِهَا، وَشُرُوطِهَا، وَأَرْكَانِهَا.

وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَفُتُوا لِلَّهِ قَنِينًا﴾، أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع. وقوله: ﴿فَإِنْ خَشَفْتُمْ﴾ حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته، فصلوا ﴿رِجَالًا﴾ ماشين على أرجلكم.

﴿أَوْ رُكْبَاتًا﴾ على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً، الإكثار من ذكر الله، شكرًا له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد. وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم، الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم آخر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَتَّاعًا إِلَى الْوَلَدِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي بُطُونِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢٤٠) اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَفَعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وأن الأمر كان على الزوجة، أن تبرص حولا كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيئ عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول، لأن شرط النسخ أن يتأخر عن

من رفعه فوق الخلاق درجات.

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخصّ عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً، وعبد صدقاً، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يرى الأكهم والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكلم الناس في المهد صبياً، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عامّاً لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ لكن ما لعبى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكور.

وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيده الله بإعانتة وموازرتة، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخبر عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانتقاد لهم، لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنع من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى، يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبهاها، وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيته مناع ولا معارض ولا معاون.

(٢٥٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مَا زَكَّيْنَكُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَتَّةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ بحث الله المؤمنين على التفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حلف المعمول بفيد التعميم ويذكرهم نعمته عليهم بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ «من» الدالة على التبعيض، فهذا مما يدعوه إلى الاتفاق.

ومما يدعوه أيضاً إخبارهم أن هذه التفقات، مدخرة عند

الله في يوم لا تقيد فيه المعاولات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتقطع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وَمَا أَمْلَأُكُمْ وَلَا أَوْلَدَكُمْ بِأَنِّي فَقِيرٌ عَنْكُمْ إِذْ قَالَ رَبِّي لِأَمِّنْ وَعَمِلْ صَالِحاً فَأُولَئِكَ هُم جَزَاءُ الْيَسِيفِ يَوْمَ أُخْرِجُوا مِنَ الْقُرْآنِ يَوْمَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عِشْرُونَ﴾، ﴿وَمَا تَقْدِرُوا إِلَّا فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ يُجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَنْظَمُ لَبَّيْكَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ وذلك لأن الله خلقهم لعبادته ورزقهم وعافاهم ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً واستعانوا بنعمه على الكفر والفسق والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

(٢٥٥) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَمْ يَلَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه ﴿اللَّهُ﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فاللوهية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه ﴿الْحَيُّ﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن ﴿الْقَيُّومُ﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدتها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقياتها.

ومن كمال حياته وقبوميته، أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾ أي: نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيد لله معاليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إِنْ

فجعل ذلك، وفرق أجزاءه من على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سرعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخص الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفوس المبجلة، فجعلهن متعدّدات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهرًا علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نجاهن عنه كثيراً، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته. وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتام عدله وفضله.

(٢٦١، ٢٦٢) ﴿وَقُلْ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفًا فِي لَحْمٍ مُسَبَّحٍ بِحَمْدِ اللَّهِ يَنْفُثُونَ مِنْهَا بَٰرًا وَنَارًا وَكَثِيرٌ مِّنْهَا يَنْفِقُونَ وَلَٰكِن مَّا أَغْنَاهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهَا وَلَا يَخَافُونَ عِذَّةَ اللَّهِ﴾. هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلى ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين. وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمئة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ لِنَفْسِهِمْ﴾ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزء من جنس العمل.

ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمنفقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، متفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه مثلاً منهم عليه، وتعدداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية. فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تناله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم المكروه

طعنايك وشرائك لم يسكته أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب - خصوصاً ما ذكره المفسرون: أنه فاكهة وعصير - لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله مائة عام، ﴿وَقِيلَ لَهُ: ﴿انظُرْ إِلَىٰ جَنَٰدِكَ﴾ فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظاماً نخرة.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ آلِهَتِكَ كَيْفَ تُنَادِيهَا﴾ أي: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض، بعدما تفرقت وتمزقت، ﴿ثُمَّ نَكُونُهَا﴾ بعد الالتئام ﴿لَحْمًا﴾ ثم نعيد فيها الحياة.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ رأي عين لا يقبل الرب بوجه من الوجوه، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فاتعرّف بقدرة الله على كل شيء، وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى، هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل، مؤمن أو نبي من الأنبياء، إما عزيز أو غيره، وأن قوله: ﴿أَنَا يُحْيِي هَٰذَا اللَّهَ بَعْدَ مَوْتِهِ﴾ يعني: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خراباً، وأن الله أماته، ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق، وأنها عمرت في هذه المدة، وتراجع الناس إليها، وصارت عامرة، بعد أن كانت دامرة - فهذا لا يدل عليه اللفظ، بل يتأني، ولا يدل عليه المعنى.

فأي آية وبرهان، يرجع البلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشاهد، تعمر قرى ومساكن، وتخرّب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته، وإحياء حماره، وإبقاء طعامه وشرابه، لم يتغن ولم يتغير.

ثم قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

(٢٦٠) وأما البرهان الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ ليزيل الشبهة عن خليله.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿يَٰرَبِّ، قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّكَ تَحْيِي الْمَوْتَى، وَتَجَازِي الْعِبَادَ، وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ يَمِطَنَّ قَلْبِي، وَأُصَلَ إِلَىٰ دَرَجَةِ عَيْنِ الْيَقِينِ﴾.

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطُّيُورِ﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فَصَرَفْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمنهم، واذبحهم، ومزقهم.

﴿ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَسْهَنَهُ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

السامحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كَتَبْنَا حِكْمًا مِّمَّنْ يَرْتَوِي﴾ وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل طل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا آتت ﴿أَكْثَلَهَا يَنْتَعِبِينَ﴾ أي: متضاعفاً.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

وأما من أتقى الله، ثم أتبع نفقته متاً وأذى، أو عمل عملاً، فأنى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سُطِّطَ عليها ﴿إِعْصَارًا﴾ وهو الريح الشديدة ﴿فِيهِ نَارٌ فَاصْتَرَقَتْ﴾ وله ذرية ضعفاء، وهو ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أفطع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿يُودُّ أَحَدَكُمُ﴾ إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وليناع ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة - وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه - فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يراي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالبحر، الذي أصابه الوابل الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلباً.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو: الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة.

﴿وَلَئِكَ الْأَمْثَلُ تَضَرَّبُهَا لِلنَّارِ وَمَا يَقِيلُهَا إِلَّا الْمُكَلِّمُونَ﴾.

الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَدَمَّرُ بِهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المتفق متاً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعرف والمغفرة، عمن أساء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي: التي يُتبعها المتصدق الأذى للمعطي، لأنه كثر إحسانه وفعل خيراً وشراً.

فالخير المحض - وإن كان مفضلاً - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن

يؤذي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحق والجهل. ﴿وَاللَّهُ تَعَالَىٰ﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عياده.

﴿حَلِيمٌ﴾ مع كمال غناه، وسعة عطاياء، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافهم ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

(٢٦٤-٢٦٦) ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى،

وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلَظْلَمُونَ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُبَيِّعُ مَالَهُ زَوَّاجًا وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَكَذَّبَكُمْ كَذْزَبًا وَسَوَّغَ لَكُمْ عَلَيْهِ زَوَّاجًا فَاصْبِرُوا وَإِلَّيَّ فَتَرَكَكُمْ صَلَاحًا لَا يَبْدُوهُ عَلَىٰ قَوْمٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ومثل الذين يُبْغِضُونَ أَوْلِيَاءَهُمْ أَتَيْتَهُمْ مَّرَضَاتِ اللَّهِ وَتَلَبَّسُوا بَيْنَ أَنفُسِهِمْ كَتَبْنَا حِكْمًا مِّمَّنْ يَرْتَوِي أَسَافَهَا وَإِلَّيَّ فَتَنَاتِ أَكْثَلَهَا يَنْتَعِبِينَ فَإِنْ لَّمْ يُعِيبَهَا وَإِلَّيَّ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلَّوْنَ بَصِيرًا﴾ يودُّ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجْوَىٰ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَفْعَلْ فِيهَا مِمَّنْ كَتَبَ الْكُفْرَ وَالْمَنَ وَالْأَذَىٰ مَغْفَلَةً فَاصْبِرُوا عَلَيْهَا إِنْ كَانَ لَكُمْ تَنَافُوتُ﴾ ضرب الله في هذه الآيات

ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه ولم يُبْعِ نفقته متاً ولا أذى.

ولمن أتبعها متاً وأذى. وللمرائي.

فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿أَتَيْتَهُمْ مَّرَضَاتِ اللَّهِ وَتَلَبَّسُوا بَيْنَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لما ذكر أحوال المتفقيين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، ويتناولون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباد، ومن أراد بهم خيرا من خلقه. والحكمة هي: العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام. ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسم ﴿يُؤْتَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضرار فيتركونه.

وهذان الأمران: وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنين، رجل آتاه الله ما لا فسطحه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس».

(٢٧٠، ٢٧١) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا يُلْقِي إِلَيْكَ مِنْ نَصَرَةٍ إِلَّا أَنْتَ تَشَاءُ أَلَمْ تُدْرِكُوا الْبَصِيرَةَ فِيمَا هِيَ إِلَّا تُخْفَوْنَ عَنْهَا وَالْفُقَرَاءُ الْمُنْتَظَرُونَ أَلَمْ يَخْبِرْكُمْ عَنْ عَصَاكُمْ مِنْ سَبِيلِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المتفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمتنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه

(٢٧٨، ٢٧٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِنْ مَلَائِكَتِ مَا كُتِبَ لَكُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ وَتُفْقِدُوا وَكُنْتُمْ يَظَاهِرُهُ إِلَّا أَنْ تَخْشَوْا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَدْعُكُمْ إِلَى طَهْرَةٍ بَيْنَهُ وَكَفَلًا وَاللَّهُ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ يَحِثُّ الْبَارِي عِبَادَهُ عَلَى الْإِنْفَاقِ مِمَّا كَسَبُوا فِي التِّجَارَاتِ، وَمِمَّا أَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، مِنَ الْحُوبِ وَالثَّمَارِ، وَهَذَا يَشْمَلُ زَكَاةَ الْقَدِينِ، وَالْعُرُوضَ كُلَّهَا - الْمَعْدَةَ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ - وَالخَارِجَ مِنَ الْأَرْضِ: مِنَ الْحُوبِ وَالثَّمَارِ، وَيَدْخُلُ فِي عُمُومِهَا الْفَرَضُ وَالنَّفْلُ.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والمنعوع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزئ عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المتفقيين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لنفعهم، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياء، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام. وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة. وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعين.

داعي الرحمن، يدعوه إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلافا ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفترقوا. فمن كان مجيبا لداعي الرحمن، وأفق مما رزقه الله، فليبش بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيبا لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ أي: واسع الصفات، كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

وَلَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٠﴾ يعني أنه ينبغي أن تحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوهم اضطراراً، لم يلحفوا في السؤال.

فهذا الصف من الفقراء أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق لا إلى الخلق.

ومع ذلك فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحابيح حينما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْكَفَّارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فإن الله يظلمهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات، ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربات. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك بأنه عند ربهم يدل على شرف هذه الحال ووقوعها في الموقع الأكبر كما في الحديث الصحيح: «إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب، فيقبلها الجبار بيده، فيريها لأحدكم كما يربي أحدكم فله، حتى تكون مثل الجبل العظيم».

(٢٧٠-٢٨١) ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّا الْبَشَرُ امْشَوْا فِي الرِّبَا وَأَمَلَّ اللَّهُ الْبَشَرَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَاسَقٌ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧١﴾ يَسْمَعُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الْمَكْدَرَاتِ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ كَذَّابٍ شَيْئاً ﴿٢٧٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَاتُ الْمُسْلِمِينَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٣﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَخْبَرُوا اللَّهَ وَذَرَوْا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمُ الرِّبَا بِأَنَّهُمْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٤﴾ فَإِنْ لَمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْشِرُوا فَلَكُمْ زُكُوفٌ أَمْوَالَكُمْ لَا تَقْبَلُونَهَا وَلَا تَقْبَلُونَهَا ﴿٢٧٥﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُرْفَرٍ فَلْيُقَظَرُ إِلَى مَسَرَّةٍ وَأَنْ تَسْأَلُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧٦﴾ وَأَقْبَلُوا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَقُولُ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٧٧﴾ لما ذكر الله حالة المصنفين وما لهم من الله من الخيرات، وما يكفر عنهم من الذنوب والخطيئات،

أنصار، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

وأخبر أن الصدقة إن أبداهها المتصدق، فهي خير، وإن أخفاهها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله: «من تصدق بصدقة فأخفاه، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وفي قوله: ﴿وَإِنْ تُحِبُّوهُمَا فَتُؤْتِيَهُمَا الْفَقْرَةَ فَبِهِمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، وربما كان الإظهار خيراً، لحصول الأسوة والافتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمران:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي، بتكفير السيئات. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كل ما عمله، بحسب حكمته.

(٢٧٢) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ حُدُودُهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ لِرَبِّكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَجَوَّاهُ اللَّهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فبيد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقاً، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعومهم إلى ذلك، فهذا خير وتزكية للمؤمنين ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص.

وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مقال ذرة: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾.

(٢٧٣، ٢٧٤) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَوْهُوا فِي سَجَدِي أَلَوْ لَا يَسْأَلُونَ سِرّاً فِي الْأَرْضِ يَحْصِيَهُمُ الْجَاهِلُ الْغَنِيَاءُ مِنَ الْعُلَافِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَبِلَ اللَّهُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ﴿٢٧٥﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْكَفَّارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآفَأَمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴿الآية﴾
 لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب
 الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة وإيتاء
 الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وإن الزكاة
 إحسان إلى الخلق ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم
 وإساءة عليهم.

ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه ويدروا ما
 بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك وأنهم
 إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من
 أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصر عليه
 محارباً لله ورسوله.

(٢٧٩) ثم قال: ﴿وَأِنْ تَبَيَّنَ﴾ يعني من المعاملات
 الربوية.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَغْلِبُوهَا﴾ الناس بأخذ الربا
 ﴿وَلَا تَغْلِبُوهَا﴾ ببخسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملات سائلة فله ما
 سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة وجب
 عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة فقد تجرأ على
 الربا.

وفي هذه الآية بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم
 للمحتاجين بأخذ الزيادة وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب
 لنظارهم.

ولهذا قال: ﴿وَأِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَمُظْرَبٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي:
 وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب
 على غريمه أن يظطره إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح أن يوفي
 ما عليه.

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو
 خير له، ويهون على العبد التزام الأمور الشرعية، واجتناب
 المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه بأن له
 يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مقال ذرة كما
 ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَأَتَوْا يَوْمَ تُنْفَخُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَوَلَّى
 كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(٢٨٣، ٢٨٢) ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الذَّبَرَةُ﴾ أي إذا
 نَدَيْتُمْ بِذِي إِلَهِ أَجْوَلُ فَسَكُنُوا فَكُنْتُمْ بَيْنَكُمْ كَرَاهِيَةً
 بِالْكَذِبِ وَلَا يَأْتِ كَرَاهِيَةً أَنْ يَكُنْ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ فَلْيَكُنْ بِمِثْلِ
 الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنَّ الَّذِي
 عَلَيْهِ الْحَقُّ سَيُجِيبُهَا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ قَسِيحًا أَوْ لَا يَسْتَجِيبُ أَنْ يُبْلَى هُوَ فَلْيَسْبِغْ وَلْيُؤْمَرْ

ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخير أنهم
 يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب
 المكاسب الخبيثة كالمجانين عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم
 لا يقومون من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ
 الذُّبَرُ يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْغَيْبِ﴾ أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على
 مراباتهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إِنَّا أَلْبَسْنَا مِثْلَ الْإِنثَاءِ﴾ فجمعوا
 - بجرأتهم - بين ما أحل الله وبين ما حرم الله، واستباحوا
 بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم فقال: ﴿فَمَنْ
 جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فَانْتَهَى﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ مما
 تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على
 توبته فإله لا يضع أجر المحسنين.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد بيان الله وتذكيه وتوعده لأكل الربا
 ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ في هذا: أن الربا
 موجب لدخول النار والخلود فيها وذلك لشناعته، مالم يمنع
 من الخلود مانع الإيمان.

وهذا من جملة الأحكام التي توقف على وجود شروطها
 وانتفاء موانعها وليس فيها حجة للخروج كثيرها من آيات
 الوعيد.

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن
 العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى
 مثقال حبة خردل من الإيمان، من النار.

ومن استحقاق هذه المواقف لدخول النار إن لم يتب
 منها.

ثم أخبر تعالى أنه يحق مكاسب المرابين ويربي صدقات
 المتفقين عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق أن الإنفاق
 ينقص المال وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته
 من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره.
 فالمتجرئ على الربا، يعاقبه بنقص مقصوده وهذا مشاهد
 بالتجربة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

﴿وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ كَذَّابٍ أَتَمٍّ﴾ وهو الذي كفر نعمة الله
 وجحد مئة ربه وأتم بصارده على معاصيه.
 ومفهوم الآية أن الله يجب من كان شكوراً على النعماء تائباً
 من المأثم والذنوب.
 ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا وهي قوله: ﴿إِنَّ الذَّبَرَةَ

ليحظى بثوابها .

ومنها : أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل معروفاً بالعدل ؛ لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه ، وإذا لم يكن معترفاً عدلاً عند الناس رضىً ، لم تكن كتابته معتبرة ، ولا حاصلها بها المقصود ، الذي هو حفظ الحقوق .

ومنها : أن من تمام الكتابة والعدل فيها ، أن يحسن الكاتب الإنشاء والألفاظ المعنوية في كل معاملة بحسبها ، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم .

ومنها : أن الكتابة من نعم الله على العباد ، التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها ، وأن من علمه الله الكتابة فقد تفضل عليه بفضل عظيم ، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى ، أن يقضي بكتابته حاجات العباد ، ولا يتمتع من الكتابة ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ .

ومنها : أن الذي يكتبه الكاتب هو اعتراف من عليه الحق ، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه ، فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره أو سفهه ، أو جنونه ، أو خرسه ، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه ، وقام وليه في ذلك مقامه .
ومنها : أن الاعتراف من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق ، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه من عليه الحق .

ومنها : ثبوت الولاية على القاصرين : من الصغار والمجانين والسفهاء ونحوهم .
ومنها : أن الولي يقوم مقام موليه في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه .

ومنها : أن من أمته في معاملة وفوضته فيها فقله في ذلك مقبول وهو نائب منابك لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب متابهم فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر أولى بالقبول واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف .

ومنها : أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله ولا يخس الحق الذي عليه ، فلا ينقصه في قدره ، ولا في وصفه ، ولا في شرط من شروطه ، أو قيد من قيوده ، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق ، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له ، فمن لم يفعل ذلك ، فهو من المطففين الباخسين .

ومنها : وجوب الاعتراف بالحقوق الجليلة والحقوق الخفية ، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى ، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها .

بِالسَّيْلِ وَأَسْتَفْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِبَايَكُمُ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَكْتُبَا إِيَّاهُمَا فَمَنْ كَتَبَ إِحْدَهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةَ إِذَا سَأُمُوهُمَا وَلَا تَشْهَدُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَوِيراً أَوْ كَسِيراً إِلَى أَجَلِهِمْ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَيْنَهُمَا شَهِيدَينَ تُدْرِكُوهُمَا بَيْنَكُمُ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهُمَا وَتَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَكُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَمَّلُوا فَإِنَّكُمْ فُسُقٌ بِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ زُيْلُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ يَكْفِي شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَهَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَيْنِ مَثْبُوثَةً فَإِنْ آمَنَ بِعَشْرِكُمْ بَعْضُ قُلُوبِ الَّذِينَ أَوْفَيْنِ أَمْنَتَهُ وَلَيْسَ اللَّهُ رَبُّهُمْ وَلَا تَكْتُبُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُبْهَا فَإِنَّهُ عَمِلٌ قَبِيحٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝

استوت هاتان الآيتان على إرشاد الباري عبادته في معاملاتهم ، إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة ، والإصلاحات التي لا يترشح العقلاء أعلى ولا أكمل منها ، فإن فيها فوائد كثيرة .

منها : جواز المعاملات في الديون ، سواء كانت ديون سلم أو شراء موجلاً ثمنه ، فكله جائز ، لأن الله أخبر به عن المؤمنين ، وما أخبر به عن المؤمنين فإنه من مقتضيات الإيمان ، وقد أقرهم عليه الملك الديان .

ومنها : وجوب تسمية الأجل في جميع المداينات وحلول الإجازات .

ومنها : أنه إذا كان الأجل مجهولاً فإنه لا يحل ، لأنه غرر وخطر ، فيدخل في الميسر .
ومنها : أمره تعالى بكتابة الديون .

وهذا الأمر قد يجب ، إذا وجب حفظ الحق ، كالذي للعبد عليه ولاية كأموال اليتامى ، والأوقاف والوكلاء والأمناء وقد يقارب الوجوب ، كما إذا كان الحق متمحضاً للعبد ، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب ، بحسب الأحوال المقترضة لذلك .

وعلى كل حال ، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات الموجلة ، لكثرة النسيان ، ولوقوع المغالطات ، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى .

ومنها : أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل ، فلا يميل مع أحدهما لقراءة ولا غيرها ، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها .

ومنها : أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال ، ومن الإحسان إليهما ، وفيها حفظ حقوقهما وبراءة ذمتهما كما أمره الله بذلك ، فليحسب الكاتب بين الناس هذه الأمور ،

أو أحدهما .

وفي هذا أيضًا أن الشاهد والكاتب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب .

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم وتحميلهم ما لا يطيقون، ف ﴿قُلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ .

وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا أن يتمم إحسانه، بترك الإضرار القولي والفعلية بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك .

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة حيث وجبت، لأنه حق أوجهه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين .

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ لَأَسْأَلُوا﴾ وهذه مصالح ضرورية للعباد .

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان .

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كَمَا عَزَّمَهُ اللَّهُ﴾، ومع هذا: فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون» بل قال: ﴿فَإِنَّكُمْ فَسُقُوا بِكُمْ﴾ فيقدر خروج العبد عن طاعة ربه فإنه يحصل به من الفسوق بحسب ذلك .

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: علمًا تفرقون به بين الحقائق والحق والباطل .

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضًا تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء .

ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المداينات فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع يمتًا حاضرًا فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرة وحصول المشقة فيه .

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن أو تعذر أو تعسر فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات: بيع الإدارة، وبيع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها .

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق وأقواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين .

فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات، بحسب حالها .

ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه تقوم مقام الرجل والفرق ظاهر بين البابين .

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالبًا، وقوة حافظة الرجل .

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته فذكره الشاهد الآخر فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أَنْ تَصِيغَ بِحَدِيثِكُمْ فَتُحْكِرَ بِحَدِيثِكُمَا الْأَثَرُ﴾ ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد ثم ذكر من دون تذكير فإن الشهادة مداورها على العلم واليقين .

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم .

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو للاداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها وأخبر عن نفعها ومصالحها .

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ولا بالشهيد بأن يدعي في وقت أو حالة تضرهما .

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضًا نهى للكاتب والشهيد أن يضار المتعاملين

الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراف المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير والثواب العاجل والآجل.

و ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه.

ومن تمام قيومته تعالى أن علمه محيط بالخلائق ﴿لَا يَخْفَىٰ عَيْنِي شَيْءٌ﴾ في الأرض ولا في السموات حتى ما في بطون الحوامل. فهو ﴿الَّذِي يُؤْتِيكَمُ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق ونافسه، منتقلين في أطوار خلقه وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص، أو ينعت بدم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه. (٨، ٧) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَأْتِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ وَالَّذِينَ هُمْ فِي أَلْيَمِهِ يَقُولُونَ إِنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُ بَشَرِنَا وَإِنْ عَزَّ رَبُّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَدَلًا إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ يخبر تعالى عن عظيمته وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بانزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين الذي لا يشبهه بغيره، ومنه آيات متشابهات تحتمل بعض المعاني ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجرد ما تنضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيف وانحرف لسوء قصدهم يتبعون المتشابه منه فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وأرائهم الزائفة، طلباً للفتنة وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم، ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأنثر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحيرة، لانقص العلم

والأغلال ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فنسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وبما من به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ: في العبادات وفي حقوق الله تعالى وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم وتوجه الذم.

وأما وجوب ضمان المتلفات خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإلتفاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان والعمد.

تم تفسير سورة البقرة لله الحمد والثناء وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿آل عمران﴾ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ۝ زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مَوْصُوعًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَيْنِي شَيْءٌ ۝ وَالْأَرْضُ لِلَّهِ ۝ هُوَ الَّذِي يُؤْتِيكَمُ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ﴿آل عمران﴾ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله

فأخبر تعالى أنه ﴿الْحَيُّ﴾ كامل الحياة ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بنفسه المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مَوْصُوعًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها وصدق من جاء بها من المرسلين.

﴿وُ﴾ كذلك ﴿أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ هذا الكتاب ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾.

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق من الضلالات، واستنقذهم به من

عليه، والعبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها والأمر والنهي كله عدل وقسط لا ظلم فيه ولا جور بوجه من الوجوه بل هو في غاية الحكمة والإحكام والجزاء على الأعمال الصالحة والسنية كله قسط وعدل.

﴿قُلْ أَنتُمْ أَكْبَرُ شَيْئًا قُلْ اللَّهُ﴾ فتوحيد الله ودينه وجزاؤه قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء، لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيدِهِ ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره.

(١٩) ﴿إِنَّ الْيَزِيدَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الْيَزِيدُ أَوْثَرُ الْكِتَابِ إِلَّا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمُ الْيَزِيدُ بِمَا يَنْهَوْنَ وَمَنْ يَكْفُرْ بِكَائِبِ اللَّهِ فَلَيْسَ اللَّهُ سَرِيعَ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ الْيَزِيدَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الدين الذي لا دين له سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿الْإِسْلَامُ﴾ وهو الانقياد لله وحده ظاهراً وباطناً بما شرعه على السنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْتَهِ عَنِ الْإِسْلَامِ دِينًا كَانَ يُقْبَلْ يَسْأَلْهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فمن دان بغير دين الإسلام فهو لم يذن الله حقيقة لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على السنة رسله.

ثم أخبر تعالى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا، فانحرفوا عنه عناداً وبغياً وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغى والكفر بآيات الله، هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِكَائِبِ اللَّهِ فَلَيْسَ اللَّهُ سَرِيعَ الْحِسَابِ﴾ أي: فليظنوا ذلك فإنه آت وسيجزيه الله بما كانوا يعملون.

(٢٠) ﴿إِنَّ كِتَابَكَ قَدْ قُلْتُ أَسْلَمْتُ وَتَجِبَ إِلَيَّ وَنِيَّ أَتَيْتُ وَفُلْتُ لَدَيْكَ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَالْأَيُّمُ أَسْلَمْتُ فَإِنَّ أَسْلَمْتُ قَدْ أَهْتَدْتُ وَإِنَّ تَوَلَّيْتُ فَلَيْسَ عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعَالَمِينَ﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عند الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة فعاندها، أمره الله تعالى عند ذلك أن يقول ويعلن أنه قد أسلم وجهه أي: ظاهره وباطنه

خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات والتعظيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولهم الأزواج المطهرة من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلقات، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهرها من الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيسر كلأ منهم لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية، يأخذون من هذه الحياة الدنيا ما يعينهم على عبادة الله وطاعته. وأما أهل الشقاوة والإعراض فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمثون بها، ويتخذونها قراراً.

(١٦، ١٧) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَكَاتُكَ قَافِرِينَ لَكَ دُونُنَا وَقَدْ أَتَاكَ الْبَلَاءُ الْكَثِيرُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ وَالْمُسْلِمُونَ وَالْمُسْلِمَاتُ﴾ أي: هؤلاء الراسخون في العلم أهل العلم والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم ووقائهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله أن يتوسل العبد إلى ربه بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب.

ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله. ويصبرون عن معاصيه. ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصدق بالأنوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم. وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة مع مصاحبة الخشوع والخضوع وبالنفقات في سبيل الخيرات وعلى الفقراء وأهل الحاجات. وبالاستغفار خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

(١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْقُرْبَىٰ قَالُوا لَا نَسْأَلُكَ إِلَّا هُوَ إِلَّا هُوَ الْقَسِيرُ الْعَجِيزُ﴾ هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله وقيامه بالقسط. وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراجه بالعبودية، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والقدرة والجلال ونبوغ الجود والبر والرحمة والإحسان. والجمال وبكماله المطلق الذي لا يحصى أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء

يَجْعَلُ لَهُ جَنَّةً ۖ وَرِزْقًا مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

(٢٨) ﴿لَا يَنْتَظِرُ الْمَوْتُونَ الْكَافِرِينَ ۚ أُولَٰئِكَ فِي دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَمَن يَتَمَكَّلْ ذَلِكَ فَلَيَبْسُزْكُم مِّنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ۖ إِلَّا أَن تَسْقُوا مِنْهُم مَّقَدَّةَ لِّبْءٍ مِّمَّا تَكْفُرُونَ ۚ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ فَاذْكُرُوا لِلَّهِ الْيَوْمَ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ هَذَا نَهَى مِنَ اللَّهِ وَتَحذِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَن يَتَخَذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَإِنِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّهُم ۚ

﴿وَمَن يَتَمَكَّلْ ذَلِكَ﴾ التولي ﴿لَيَبْسُزْكُم مِّنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ۖ أَي: فهو يري من الله، والله يري منه، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ يَنصُرْهُ لَنَا ۖ وَيَتَوَكَّلْ يَنصُرْهُ لَنَا ۖ﴾

وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَسْقُوا مِنْهُم مَّقَدَّةَ لِّبْءٍ ۖ أَي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين فلكم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تبغى النصرة.

﴿وَيَسْأَلُكُمُ اللَّهُ تَسْأَلُكُمْ أَي: فخافوه واخلشوه، وقدموا خشيتهم على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون، ويسببون إليه فيجازي من قدم خوفه ورجاءه على غيره بالثواب الجزيل، ويعاقب الكافرين ومن تولاهم بالعباد الويل.

(٢٩، ٣٠) ﴿قُلْ إِن تَحْقُقُوا مَا فِي سُوءِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا بِعَذَابِ اللَّهِ وَبَعَثَ فِي الْأُمَمِ مَنَافِيكُم مِّنَ الْأَنْفُسِ ۖ وَكَأَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۚ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مَُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۚ وَيَعْلَزُّكُمُ اللَّهُ تَسْأَلُكُمْ وَاللَّهُ زَعِيمٌ ۚ وَالْمَسَاكِينُ ۚ يَخْبِرُ تَعَالَى بِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِمَا فِي الصُّدُورِ، سواء أخفاه العباد أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه فهو العظيم القدير على كل شيء الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه وهو أنهم كلهم صائرون إليه وأعمالهم - حيثن من خير وشر - محضرة.

فحيثن يغتبط أهل الخير بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً، ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح في هذه الحياة وأنه

لا بد أن يلاقي ربه ويلاقي سعيه أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَسْأَلُكُمْ﴾ وذلك بما يدي لكم من أوصاف عظمتهم، وكمال عدله، وشدة نكاله، ومع شدة عقابه فإنه رؤوف رحيم.

ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد وزجرهم عن الغي والفساد كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذَلِكَ بِحُكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فرأفته ورحمته سهلت لهم الطرق التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التي تقضي بهم إلى المكروهات.

فسأله تعالى أن يتم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق التي تقضي بآلها إلى الجحيم.

(٣١، ٣٢) ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ إِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلاحة محبة الله اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعتة وجميع ما يدعو إليه طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه، فكانه قيل: ومع ذلك فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟

فأجاب بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بامتنال الأمر واجتناب النهي وتصديق الخبر ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾ عن ذلك فهذا هو الكفر والله ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

(٣٣، ٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ اسْطَلَمَ مَنَافِيكُم مِّنَ الْأَنْفُسِ ۖ وَكَأَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۚ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مَُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۚ وَيَعْلَزُّكُمُ اللَّهُ تَسْأَلُكُمْ وَاللَّهُ زَعِيمٌ ۚ وَالْمَسَاكِينُ ۚ يَخْبِرُ تَعَالَى بِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِمَا فِي الصُّدُورِ، سواء أخفاه العباد أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه فهو العظيم القدير على كل شيء الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه وهو أنهم كلهم صائرون إليه وأعمالهم - حيثن من خير وشر - محضرة.

فحيثن يغتبط أهل الخير بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً، ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح في هذه الحياة وأنه

وكرمه.

مريم» .

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم والتصديق له، والشهادة له بالرسالة .

فهذه الكلمة من الله كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصْرًا﴾ أي: هذا المبشر به وهو «يحيى» سيد من فضلاء الرسل وكرامهم: و «الحصور» قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عُصِمَ وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين .
﴿وَيَسَّيِّرُ بَيْنَ الْمَكِينِينَ﴾ الذين بلغوا في الصلاح فروثه العالية .

(٤٠) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُذْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَآمَرَنِي عَائِشَةُ﴾ فهذان مانعان فمن أي طريق - يارب - يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟! .

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَقَعُ مَا يُنْكَاهُ﴾ فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد الذي قد اتفادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة ما بلغت .

(٤١) ﴿قَالَ رَبِّ أَتَمَلِّقُ نَبِيًّا﴾ ليحصل السرور والاستبشار وإن كنت - يارب - متيقناً ما أخبرني به، ولكن النفس تفرح ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطف .

﴿قَالَ مَا لَكَ أَلَّا تُحْكِمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا ذَمَرًا﴾، «و» في هذه المدة «أَذْكُرُ رَبَّكَ حَكِيمًا وَسَخِيحًا بَالِيًّا وَإِلَيْنَا مَرْجَعُكَ» أول النهار وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة فكان في هذا مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر .

وكونه لا يقدر على مخاطبة آدميين، ولسانه منطلق بذكر الله وتسيحه آية أخرى .

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار وشكر الله . وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والأبكار .

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران على ذكرها، فإن ما من الله به عليها من ذلك الرزق الهني الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أموراً محبوبة على يد من يحبه ليرفع الله قدره ويعظم أجره .

(٤٢) ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل فيضع فضله حيث اقتضت حكمته .

(٣٦، ٣٥) فلما قرر عظمة هذه البيوت ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة وكيف تنقلت بهما الأحوال من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران قالت - متضرعة إلى ربها، متقربة إليه بهذه القربة التي يحبها التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته - : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: خادماً لبيت العبادة المشحون بالمعتبدين .

﴿فَتَقَبَّلَ رَبِّي﴾ هذا العمل أي: اجعله مؤسساً على الإيمان والأخلاص، مشعراً للخير والنواب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَسْمِعُ الْقَلِيلُ﴾ فَلَمَّا وَصَّيْنَاهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَّيْتُهَا أَنْتَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَّيْتُ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ .

كان في هذا الكلام نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرهما بناء على أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فحبر الله قلبها، وتقبل الله نذرهما، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

(٣٧-٣٩) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: ربيت تربية عجيبة دينية أخلاقية أدبية كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها ويسر الله لها ذكرها كافلاً . وهذا من منة الله على العبد أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين .

ثم إن الله تعالى أكرم مريم وذكرها حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلاكد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به .

إذ ﴿كَلَّمَاهَا عَنْهَا زَكْرًا الْبَرَكَاتِ﴾ وهو محل العبادة وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها ﴿وَبَدَّ عِنْدَهَا رُوحًا﴾ هيناً معداً .

﴿قَالَ يَرْحِمُكَ اللَّهُ لَبِ هَذَا قَوْلٌ مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

فلما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللطف من الله بها ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ: اسمه أي: الكلمة التي من الله «عيسى ابن

النبوّة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهد فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته فيه نفعه العظيم للخلق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم في وحيه وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبّه والاستتمه بالنائه عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ وهذا من الأمور المستغربة ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ يَتَّبِعُ مَا يَشَاءُ﴾ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير وأنه لا ممانع لإرادته.

(٤٨، ٤٧) ﴿إِذَا فَصَّقَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وَيُؤَيِّدُهُ الْكَتَبُ: أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس ويعطيه النبوّة.

(٤٩) ﴿و﴾ يجعله ﴿رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ويؤيده بالآيات والبيّنات والأدلة الفاهرة حيث قال: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدلّكم أنّي رسول الله حقًا.

وذلك ﴿إِنِّي أَنَا لَكُمْ مَبِيتٌ مِنَ الْبَيِّنَاتِ كَهَيِّتَةِ الْكَلْبِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ مَلَبًا﴾ يذوّب الله وأمره الألفه وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينه ﴿وَالْأَنْبِيَاءُ وَأَمَّا التَّوَكُّلُ فَإِنَّهُ وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَكْفُرُونَ فِي يَوْمِكُمْ إِلَّا فِي ذَالِكِ الْمَذْكُورِ﴾ الآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴿وَمَصَدَّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوَكُّلِ﴾ فأيد الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة والدين الذي جاء به وأنه دين التوراة ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين لخالف ما جاء به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه.

وأيضاً فقول: ﴿وَلَا جَبَلٌ لَّكُمْ بَيْنَ الَّذِي حُمِيتْ عَلَيْهِكُمْ﴾ أي: ولا تخف عنكم بعض الأصار والأغلال.

(٥١، ٥٠) ﴿فَأَنقَضُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبَّ وَرَبِّكُمْ فَأَعْبُدُوا وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل: عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحيثما اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود.

والكمال مبلغاً عظيماً فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَا لَكَ مِنْ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ.

﴿وَتَزَكَّرَ﴾ من الأخلاق الرذيلة ﴿وَأَمْلَقَكَ عَلَىٰ ذِكْرِهِ﴾ ﴿فَتَلَوَّى﴾ ولهذا قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

(٤٣) فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك لتغيب نعم الله وتشكر الله وتقوم بحقوقه، وتشغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يَمْرُؤُا أَفَنِي رَّبِّكَ﴾ أي: أكثرني من الطاعة والخضوع والخشوع لربك، وأدعيني ذلك ﴿وَأَسْمَىٰ ذَاكَ بِمَعْنَىٰ أَزْكَاةٍ﴾ أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به وبرزت وفاقت في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بها مفصلة محققة لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم لا يتعلم من الناس - قال تعالى - ﴿ذَلِكَ مِّنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ يُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمُ مِنْهُمُ يَهْتَدِي بِكُلِّ مَرِّمٍ﴾ حيث جاءت بها أمها فاخصموا أيهم يخلّوها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فألقوا أفلامهم مقترعين، فأصاب القرعة زكريا رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فنقصها على الناس وإنما الله نباك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص، أنه يحصل بها العبرة وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة والبعث، وغيرها من الأصول الكبار.

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَمُورُ بِكَلِمَةٍ بَيْنَهُ أَسْمُ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: له الوجاهة، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلامهم درجة وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

(٤٦) ومن تمام هذه البشارة أنه: ﴿يَكَلِّمُ الْكَاسَّ فِي السَّجَةِ﴾ فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأمه وبالخلق ﴿و﴾ كذلك يكلمهم ﴿كهلاً﴾ أي: في حال كهولة، وهذا تكليم

أهل الأديان السابقة.

ثم لما بعث سيد المرسلين وخاتم النبيين ونسخت رسالته الرسائل كلها، ونسخ دينه جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين من الهالكين.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَقُوءُ عَلَيْكَ مِنَ الْكَذِبِ وَالزُّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هذا القرآن العظيم الذي فيه نبأ الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار حسن الأحكام.

(٥٩-٦٢) ﴿وَإِنْ مَثَلٌ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ○ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَكَفَىٰ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ○ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ مِنْ بَدُو مَا جَاءَكَ مِنَ الْأَعْلَمِ فَقُلْ تَنَازَعُوا فِيهِ وَأَنَا بَيْنُكُمْ وَأَسْفَهًا وَأَلْسِنُكُمْ ثُمَّ تَنْبَعِلُ فَتَنْجَعِلُ لَنْتَرَكَنَّ اللَّهُ عَلَى الْكَذِبِ﴾ ○ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَيْكَ اللَّهُ لَهُ الْمَوَازِينُ الْحَكِيمَةُ﴾ لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية فقد كذب على الله وكذب جميع أنبيائه وكذب عيسى ﷺ فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذها إلهاً شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح لكان آدم أحق منه فإنه خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك فافق البشر كلهم على أنه عبد من عباد الله فدعوى إلهية عيسى بكونه خلق من أم بلا أب دعوى من أبطل دعاوى.

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبداً ورسوله حيث زعموا لإلهيته.

فوصلت به وبهم الحال إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد اتضح لهم الحق ولكن العناد والتعصب منعاهم منه. فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة بأن يحضر هو وأهله وأبنائه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى أن يتزل عقوبته ولعته على الكاذبين فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً وأنهم - إن باهلوه - هلكوا هم وأولادهم وأهلهم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المودة والمهادنة. فأجابهم ﷺ ولم يرحبهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن

(٥٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ والاتفاق على رد دعوته ﴿قَالَ﴾: نادياً لبني إسرائيل على موازرتهم ﴿مَنْ أَصْبَارُكَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْغَوَايِطُ﴾ أي: الأنصار.

﴿ثُمَّ أَصْبَحَ اللَّهُ آمَنًا بِاللَّهِ وَآثَمَةً يَأْكُلُ مُشْلُوكٌ﴾ وهذا من منة الله عليهم وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين الإيمان به، والالتحاق لطاعته، والنصرة لرسوله.

(٥٣) ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَأَتَّبَعْنَا أَرْسُولَ﴾ وهذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله.

﴿فَأَكْبَهْتُمْ مَعَ الشُّهَدَاءِ﴾ لك بالوحدانية وولييك بالرسالة ووليكن بالحق والصدق.

(٥٤) وأما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مَكَرُوا﴾ بعيسى ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بهم ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْحَكِيمُ﴾ فاتفقوا على قتله وصلبه وشبه لهم شبه عيسى.

(٥٥) فقبضوا على من شبه لهم به وقال الله لعيسى: ﴿إِنِّي مُؤَيَّدٌ بِرَأْفَتِكَ وَإِنِّي مُطَهَّرٌ بِرَبِّكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فرفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وصلبوا من قتلوه ظانين أنه عيسى وباؤوا بالآثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم في آخر هذه الأمة حكماً عدلاً يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبع ما جاء به محمد ﷺ ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون.

وقوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَتَيْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ لَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ﴾ المراد بمن اتبع: الطائفة التي آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ فكانوا هم أتباعه حقاً، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

ولكن حكمة الله عادلة فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين نصره الله النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه ونبذ شرعه وتجرأ على معاصيه إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء والله عزيز حكيم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ مَرْمِيحُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فَمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

(٥٦، ٥٧) فقد بين ما يفعله بهم فقال: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاكُمْ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ مُصْرِيقٍ﴾ ○ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا الجزء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف من جميع

المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

(٦٢) ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ لَهْوِ النَّفْسِ الْكَافِرَةِ﴾ أي: الذي لا ريب فيه ﴿وَلَيْسَ اللَّهُ لَهُ الْوَرِيثُ﴾ الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات وأذعنت له سكان الأرض والسموات.

ومع ذلك فهو ﴿الْكَافِرُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها^(١).

(٦٤) ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْكَاتِبُ مَا كَانُوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا تَقْبَلَ إِلَّا أَنَّا وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْثِيًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية.

ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية.

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا.

وإن ﴿تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ كقوله تعالى ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْكَاتِبُونَ﴾ إلى آخرها.

(٦٥-٦٨) ﴿يَتَذَكَّرُ الْكَاتِبُ لِمَ تُكَذِّبُونَ فِي إِذْيِهِمْ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْبُرْهَانَ إِلَّا مِنْ دُونِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هَكَذَا هَكَذَا حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُكْفِرُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْشُرْ لَكُمْ تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِذْيُهُمْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حِينَكُمْ مَسْئَلَةً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿لَيْسَ أَتَى النَّاسَ إِذْيُهُمْ لَكُلِّينَ أَكْفَمُوا وَقَدْ آتَيْنَا الْوَحْيَ وَالْوَحْيَ مَأْمُورٌ وَاللَّهُ وَكِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كانت الأديان كلها: اليهود والنصارى والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به محمد ﷺ وأتباعه وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ.

وأما اليهود والنصارى والمشركون فلا إبراهيم بريء منهم ومن ولايتهم، لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين.

وأما دعوى اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم فقد علم أن اليهودية والنصرانية التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل.

فكيف يحاجون في هذا الأمر الذي يعلم به كذبهم واقتراؤهم؟! فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يُعلم فساد دعواهم.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَكِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوي إيمان العبد تولاها الله بلطفه ويسره لليسرى وجنبه العسرى.

(٦٩-٧٤) ﴿وَوَيْتَ كَلَامَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُمْسِلُونَ وَمَا يُمْسِلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يَتَذَكَّرُ الْكَاتِبُ لِمَ تُكَذِّبُونَ يَتَذَكَّرُ الْكَاتِبُ وَأَنْتُمْ تُكْفِرُونَ ﴿يَتَذَكَّرُ الْكَاتِبُ لِمَ تَلِيْسُونَ أَلَمْ يَأْتِ بِالنَّبِيِّ وَتَكْفُرُونَ أَلَمْ يَأْتِ بِالنَّبِيِّ وَأَنْشُرْ تَعْلَمُونَ﴾ وَقَالَتْ كَلَامَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَاؤُوا بِالَّذِي أَرِئَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَعَلْنَا الْفَهَارَ وَالْكَرَامَ عَلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَبِتَكُ قُلْ إِنَّ الْهُكُنَ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِمَّا أُرْسِلَتْ بِهِ أَوْ يُجَاهِدُوا عَنْ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يَخْلُصُ رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿هذا من منة الله على هذه الأمة حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المكرات الخبيثة.

فقالت طائفة منهم: ﴿مَاؤُوا بِالَّذِي أَرِئَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَعَلْنَا الْفَهَارَ﴾ أي: أوَّلُهُ وارجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا.

هذا مكروهم والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل يختص به من يشاء فخصكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم.

ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق إذا وصلت حقيقته إلى القلوب لم يزد صاحبه - على طول المدى - إلا إيماناً وقيناً.

ولم تزد الشبه إلا تمسكاً بدينه وحمداً لله، وشاء عليه حيث من به عليه.

وقولهم: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِمَّا أُرْسِلَتْ بِهِ أَوْ يُجَاهِدُوا عَنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة الحسد والبغى، وخشية الاحتجاج عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَوَيْتَ كَلَامَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ

(١) لم يفسر - رحمه الله - الآية الثالثة والستين، وقد قام التجار بإضافة تفسيرها من عنده.

الكتاب وهم كذبة في ذلك ويصرحون بالكذب على الله وهم يعلمون حالهم وسوء معتبتهم.

(٧٩، ٨٠) ﴿مَا كَانَ يَشْكُرُ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْعَمَلَ وَالنِّبْءَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُفُّوا عَنَّا إِنَّا مِنَ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُفُّوا رَبَّنَا إِنَّا كُنْهُنَّ عُلُمُونَ الْكِتَابِ وَمَا كُنْهُنَّ مُدْرَسُونَ ۚ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُعْبُدُوا لِلدِّهَانِ وَالنَّيِّبِينَ أَرَبَابًا يُأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
أي: يتمتع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف بأمر بضده!!

هذا من الممتنع لأن حاله وما هو عليه وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص تقتضي العبودية الكاملة والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران حين تمادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر أن قالوا: أئامرنا - يا محمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فينبئ الباري انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

(٨١، ٨٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْكَلْبِ لَمَّا بَعَثْنَاهُمْ فِي سَكَنٍ وَبَحْتِهِ ثُمَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ۖ وَتَسْمِعُهُمْ قَالُ مَافَرَّشْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاسْتَبَدُّوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ السَّاهِدِينَ ۚ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾
هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم، من الكتاب والحكمة المقتضي للقيام التام بحق الله وتوفيقه، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط، والأصول التي اتفقت عليها الشرائع أنهم يؤمنون به ويصرونه.

فأقروا على ذلك واعترفوا، والتزموا وأشهدهم وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم قد انفردوا وتعاهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم، وأقروا به واعترفوا. فمن تولى عن اتباع محمد ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول - الذي يزعم أنه من أتباعه - مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن

بِرُدُّوَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَلَّا هَكَأَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۚ الآية.

(٧٦، ٧٧) ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِقَابِ رَبِّهِ لَآتِيكَ مِنْهُم مِّنْ إِفْكٍ وَإِنْ تَأْمَنَهُ بِعِدَائِكَ أَلَا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَالِمًا ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَرْبَابِ حَقٌّ وَلَا يَسْمُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۚ بَلْ مِنْ أَوْفَىٰ بِهِمْ ۖ وَأَتَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الْمُتَّقِينَ﴾
يخبر تعالى عن أهل الكتاب أن منهم طائفة أمناه بحيث لو أمنتهم على قناطير من النقود، وهي المال الكثير يؤده إليك ومنهم طائفة خونة يخونك في أقل القليل. ومع هذه الخيانة الشنيعة فإنهم يتناولون بالأعداء الباطلة فيقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَرْبَابِ حَقٌّ﴾ أي: ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن عليهم أشد الحرج فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله وهم يعلمون ذلك ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا. فإنه ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِهِمْ ۖ وَأَتَىٰ﴾ أي: قام بحقوق الله وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقي والله يحبه. أي: ومن كان بخلاف ذلك فلم يف بعهده وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله فإن الله يفتنه وسيجازيه على ذلك أعظم النكال.

(٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ يَهْدِي اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُمْ فَمَا يَكْفُرُ لَكُمْ لَا عِلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكْفِلُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْجِعُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: إن الذين يشكرون الدنيا بالدين، فيختارون الحطام القليل من الدنيا ويتوسلون إليها بالإيمان الكاذبة، والعهود المنكوكة فهؤلاء ﴿لَا يُكْفِلُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْجِعُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قد حق عليهم سخط الله، ووجب عليهم عقابه وحرموا ثوابه ومنعوا من التزكية وهي التطهير.

بل يردون القيامة وهم متلونون بالجرام، متدنسون بالذنوب والعظام.

(٧٨) ﴿وَلَا يَمْنَهُمْ قَرِيبًا يَلْزَمُونَ آلِيَهُمْ وَالْكِتَابَ يَتَسَكَّبُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً هم محرفون لكتاب الله، ﴿يَلْزَمُونَ آلِيَهُمْ وَالْكِتَابَ يَتَسَكَّبُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من

قبل ذلك شيء كثير .

قل لهم - إن أنكروا ذلك - : ﴿ قَالُوا يَا نَذْرُونَ قَاتِلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم . وهذا من أبلغ الحجج أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره ، فإن انقاذ للحق فهو الواجب ، وإن أبى ولم يتقد بعد هذا البيان تبين كذبه وافتراؤه وظلمه ، وبطلان ما هو عليه وهو الواقع من اليهود .

(٩٥) ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : قل صدق الله في كل ما قاله ، ومن أصدق من الله قبلاً وحديثاً ، وقد بين في هذه الآيات من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ ، وإبراهيم دعوته وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب ، الذين كذبوا رسوله وردوا دعوته فقد صدق الله في ذلك ، وأقنع عباده على ذلك إبراهيم وحجج ، تنصنع لها الجبال وتخضع لها الرجال .

فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم ، من توحيد الله وحده لا شريك له ، وتصديق كل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله ، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة .

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد ، متبرئاً من الشرك وأهله .

(٩٦، ٩٧) ﴿ إِنْ أُولَئِكَ يَنْتَهِبُوا مِثْلَ مَا كَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِهِمْ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام ، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير وفضل غزير ، وأن فيه آيات بينات تذكر بمقامات إبراهيم الخليل وتقلاته في الحج ، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم .

وفيه الأمن^(١) الذي من دخله كان آمناً قدراً ، مؤمناً شرعاً ودينياً .

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً ، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزاد يتروده ، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة ، والتي ستحدث .

وهذا من آيات القرآن حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال ، ولا يمكن الصلاح التام بدونها ، فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين ، ومن كفر فلم يلتزم

حج بيته فهو خارج عن الدين ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين .

(٩٨، ٩٩) ﴿ قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَآلِهِ شَيْدًا عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ۚ قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُ لِمَ تَصَدَّقُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْرٍ تَقُولُونَ عِوَابًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَنْ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ لما أقام - فيما تقدم - الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون آبائهم - وبُغ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله ، وصددهم الخلق عن سبيل الله ، لأن عوامهم تبع لعلمائهم ، والله تعالى يعلم أحوالهم ، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه .

(١٠٠، ١٠١) ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا رَبَّنَا مِنْ أَلَيْسَ أَوْلَا الْكَافِرِ بِرُذُومٍ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَبِيرٍ ۚ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْفِلُ عَلَيْهِمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لما أقام الحجج على أهل الكتاب وبوبهم بكفرهم وعنادهم ، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم ، وبين لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان .

ولكن - والله الحمد - أنتم - يامعشر المؤمنين - بعدما من الله عليكم بالدين ، ورأيت آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله ، وفيمك رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم ، واعتصمتم بالله وبجبله - الذي هو دينه - يستحيل أن يردكم عن دينكم لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس المشرقة الأنوار تنجذب إليه الأفئدة ، وبأخذ بمجامع القلوب ، ويوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب .

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ ۖ أَيْ : يتوكل عليه ويحتمي بحماه ﴾ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وهذا فيه الحث على الاعتصام به ، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية .

(١٠٢-١٠٥) ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا كَلْبُوا اللَّهِ حَقَّ تَقَالِيهِ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۚ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۚ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِعُونَ ۚ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا

(١) مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم : الأمن وقد غيرت الكلمة في المطبوع إلى : وفي الحرم الذي من دخله .

خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة الذين كذبوا رسله وعصوا أمره،
وفرقوا دينهم شيعةً وأنهم يوبخون فيقال لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ﴾ فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟ ﴿قَدْزُفُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

(١٠٩، ١٠٨) يَلِكْ مَا يَكْتُ اللَّهُ تَلُوْكَا عَلَيَّكَ وَالْمَنِيَّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ۝ وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأَنُورُ﴾ يعني تعالى على ما قصه على نبيه من آياته، التي
حصل بها الفرقان بين الحق والباطل وبين أولياء الله وأعدائه
وما أعد لهؤلاء من الثواب وللآخرين من العقاب، وأن ذلك
مقتضى فضله وعدله وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم
ينقصهم من أعمالهم أو يعذب أحداً بغير ذنبه أو يحمل عليه
وزر غيره.

ولما ذكر أن له الأمر والشرع ذكر أن له تمام الملك
والنصر والسلطان فقال: ﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين
بعضيانهم.

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة بين لعباده أنه
الحاكم المطلق، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية
والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا
والآخرة.

ومن سواء من المخلوقات محكوم عليها ليس لها من الأمر
شيء.

(١١١، ١١٠) ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَرَ أَهْلُ
الْكُفْرِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِنْهُمْ أَلْتُوبُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الظَّالِمُونَ ۝
لَنْ يَسْمُرُوكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَنْ يَتَّبِعُوَكُمْ يُولُواكُمُ الْأَذَى ثُمَّ كَذَّ
يُسْمِرُونَ﴾ هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب التي
تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس
نصحاء ومحبة للخير، ودعوة وتعليماً وإرشاداً، وأمراً
بالمعروف ونهياً عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق
والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس
بالإيمان بالله والقيام بحقوق الإيمان.

وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما أنتم به لا هتدوا وكان
خيراً لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم
فاسقون خارجون عن طاعة الله، وطاعة رسوله، محاربون
للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك
فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلهم لولوا

بشكر نعمه العظيمة بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته
وترك معصيته مخلصين له بذلك وأن يقيموا دينهم ويستمسكوا
بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه وهو دينه
وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم الفرق، وأن يستديموا
ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة وهو: أنهم كانوا أعداء
متفرقين، فجمعهم بهذا الدين وألف بين قلوبهم، وجعلهم
إخواناً وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم من الشقاء
ونهج بهم طريق السعادة.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى شكر الله
والتمسك بحبله، وأمرهم بتتبع هذه الحالة، والسبب الأقوى
الذي يتمكنون به من إقامة دينهم بأن يتصدى منهم طائفة
يحصل فيها الكفاية.

﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو الدين أصوله، وفروعه وشرائعه
﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً ﴿وَيَهْتَدُونَ
عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما عرف فحشه شرعاً وعقلاً ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّبِعُونَ﴾ المدركون لكل مطلوب الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون
للخطابة ووعظ الناس عموماً وخصوصاً، والمحاسبون الذين
يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة، والقيام
بشرائع الدين وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم أو على وجه
الخصوص أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل في هذه
الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين الذين جاءهم الدين
والبينات الموجب لقيامهم به واجتماعهم، ففترقوا واختلفوا
وصاروا شيعةً ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر
عن علم وقصد سيء، وبغى من بعضهم على بعض ولهذا
قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ عَدَاؤِي عَظِيمٌ﴾.

(١٠٦، ١٠٧) ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم
ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ رَجْعًا لَّهُمْ فِيهَا
يَخْلِفُونَ﴾.

يخبر تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة
والشقاوة وأنه تبيض وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله
وصدقوا رسله، وامتلأوا أمره واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى
يدخلهم الجنات، ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها

جى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره ونعمته عليهم يوم «بدر» ليكونوا شاكرين لربه وليخفف هذا هذا فقال: «وَلَقَدْ صَرَّفَكُمُ اللَّهُ يَدَيَّ وَأَسْمَ أَوْلَدَ» في عُدُوكُمْ وَعُدُوكُمْ فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر في قلة ظهر، ورثانة سلاح وأعداؤهم يناهزون الألف في كمال العدة والسلاح.

«فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ» الذي أنعم عليكم بنصره. «إِذْ يَقُولُ مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ» مبشراً لجنانهم: «أَنْ يَكُونَكُمْ أَنْ يُوَدِّعَكُمْ رَبُّكُمْ يَلْتَمِسُ مَا فِي الْأَنْفُسِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مُزَاجٍ ۝ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَأَتُوا اللَّهَ مِنْ قُورِهِمْ هَذَا» أي: من حملتهم هذه بهذا الوجه.

«يُوَدِّعُكُمْ رَبُّكُمْ بِحَسَنَةِ الْوَالِدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ سُورِينَ» أي: معلمين علامة الشجعان.

واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم أو أن ذلك تثبت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين.

ويدل عليه قوله: «وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَرْزًا لَكُمْ وَلَسَمَاءً فَلْيُؤْمِرْكُمْ بِهَا وَأَنْتُمْ حَاكِمُونَ» وهذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد بل يعتمد على الله.

وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.

«يَلْمِزُكَ لَوْمَةً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُونَ وَيَتْلَوْهُ عَالِينَ» أي: نصر الله لعباده المؤمنين لا يعدو أن يكون قطعاً لطرف من الكفار أو ينقلبو بغضهم لم ينالوا خيراً كما أرجعهم يوم الخندق بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين أرجعهم الله بغضهم خائنين.

(١٢٨) «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُهُمْ» لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت رباطه وشج في رأسه جعل يقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباطه» فأنزل الله تعالى هذه الآية وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربه، مدبرون لا مدبرون.

وهؤلاء الذين دعوت عليهم أيها الرسول أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم ووقفهم للدخول في الإسلام وقد فعل فإن أكثر أولئك هدام الله فأسلموا، وإن شاء عذبهم فإنهم ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

(١٢٩) «وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْأَنْفُسِ وَمَا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ لِمَنْ يَنْكَرُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَنْكَرُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» يخبر تعالى أنه هو المتصرف

وأيضاً فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين، وفي مقابلة إحسانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب وأشرف الرسل، وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمجبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم، وهم يداهنونكم وينافقونكم فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم عضوا عليكم الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.

قال تعالى: «قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَهْدِكُمْ» أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوؤكم وتموتون بغيتكم، فلن تدرخوا شفاء ذلك بما تقصدون.

«إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذَا شُكْرٍ» فلذلك بين لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

«إِنْ تَسْلَمْ حَسَنَةً» عز ونصر وعافية وخير «تُسَلِّمُوا وَإِنْ تُصِيبْكُمْ صَيِّئَةٌ» من إدالة العدو أو حصول بعض المصائب الدنيوية «يَتَرْخَوْا بِهَا» وهذا وصف العدو الشديد عداوته.

لما بين تعالى شدة عداوتهم وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة أمر عباده المؤمنين بالصبر ولزوم التقوى وأنهم إذا قاموا بذلك فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها.

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى أنهم لا يضروركم شيئاً فلا تشكوا في حصول ذلك.

(١٢١-١٢٢) «وَإِذْ دَعَا مِنْ أَهْلِ تِيٍّ الْقَوْمِينَ مُقَلَّدِينَ لِلَّذِينَ» إلى آخر القصة. وذلك يوم «أحد» حين خرج ﷺ بالمسلمين حين وصل المشركون - بجمعهم - إلى قريب من «أحد» فنزلهم ﷺ منازلهم وربتهم في مقاعد، ونظمهم تنظيمًا عجيباً يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في فنون السياسة والحرب، كما كان كاملاً في كل المقامات.

«وَاللَّهُ يَجْعَلُ عَلَيْهِمْ» لا يخفى عليه شيء من أموركم.

«إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا» وهم بنو سلمة وبنو حارثة لكن تولاهما الباربي بلطفه ورعايته وتوفيته.

«وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ الْيَوْمَ» فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها وجوب التوكل، وأنه على حسب إيمان العبد يكون توكله والتوكل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم في «أحد» وما

في العالم العلوي والسفلي وأنه يتوب على من يشاء فيغفر له ويخذل من يشاء فيعذبه .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فمن صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة ، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر ، يغفر للتائبين ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة قال تعالى : ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

تم الجزء - المجلد الأول - من «تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن» بخط مؤلفه عبدالرحمن الناصر بن سعدي ٩ ربيع أول ١٣٤٣ غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين .

وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ويليهِ المجلد الثاني أوله ﴿يَتَأْتِيهَا الْكُوفُورُ ۖ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ .

الفهرس

٧٠٣	٢٧- تفسير سورة النمل	٥	- كلمة الناشر
٧١٧	٢٨- تفسير سورة القصص	٧	- مقدمة صاحب الفضيلة: عبدالله بن عبدالعزيز بن عجيل
٧٣٤	٢٩- تفسير سورة العنكبوت		- مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين رحمه
٧٤٧	٣٠- تفسير سورة الرُّوم	٨	الله تعالى
٧٥٨	٣١- تفسير سورة لقمان	٩	- مقدمة المحقق
٧٦٦	٣٢- تفسير سورة السجدة	١٨	- تنبيه
٧٧٢	٣٣- تفسير سورة الأحزاب	١٩	- مقدمة المؤلف
٧٩١	٣٤- تفسير سورة سبأ		- فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من بلدائع الفوائد
٨٠٣	٣٥- تفسير سورة فاطر	٢٠	لابن القيم رحمه الله تعالى
٨١٣	٣٦- تفسير سورة يس	٢٧	١- تفسير سورة الفاتحة
٨٢٣	٣٧- تفسير سورة الصافات	٢٩	٢- تفسير سورة البقرة
٨٣٤	٣٨- تفسير سورة ص	١٢٥	٣- تفسير سورة آل عمران
٨٤٤	٣٩- تفسير سورة الزمر	١٧٤	٤- تفسير سورة النساء
٨٦٠	٤٠- تفسير سورة المؤمن (غافر)	٢٣٨	٥- تفسير سورة المائدة
٨٧٦	٤١- تفسير سورة السجدة (فصلت)	٢٧٧	٦- تفسير سورة الأنعام
٨٨٦	٤٢- تفسير سورة الشورى	٣١٧	٧- تفسير سورة الأعراف
٨٩٨	٤٣- تفسير سورة الزخرف	٣٥٧	٨- تفسير سورة الأنفال
٩٠٩	٤٤- تفسير سورة الدخان	٣٧٣	٩- تفسير سورة براءة (التوبة)
٩١٣	٤٥- تفسير سورة الجاثية	٤٠٩	١٠- تفسير سورة يونس
٩١٨	٤٦- تفسير سورة الأحقاف	٤٣٢	١١- تفسير سورة هود
٩٢٥	٤٧- تفسير سورة القتال (محمد ﷺ)	٤٥٣	١٢- تفسير سورة يوسف
٩٣٣	٤٨- تفسير سورة الفتح	٤٧٦	١٣- تفسير سورة الرعد
٩٤٢	٤٩- تفسير سورة الحجرات	٤٨٧	١٤- تفسير سورة إبراهيم
٩٤٧	٥٠- تفسير سورة ق	٤٩٧	١٥- تفسير سورة الحجر
٩٥٣	٥١- تفسير سورة الذاريات	٥٠٥	١٦- تفسير سورة النحل
٩٥٩	٥٢- تفسير سورة الطور	٥٢٦	١٧- تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء)
٩٦٥	٥٣- تفسير سورة النجم	٥٤٥	١٨- تفسير سورة الكهف
٩٧١	٥٤- تفسير سورة اقترت (القمر)	٥٦٩	١٩- تفسير سورة مريم
٩٧٦	٥٥- تفسير سورة الرحمن	٥٨٤	٢٠- تفسير سورة طه
٩٨١	٥٦- تفسير سورة الواقعة	٦٠٣	٢١- تفسير سورة الأنبياء
٩٨٧	٥٧- تفسير سورة الحديد	٦٢٢	٢٢- تفسير سورة الحج
٩٩٥	٥٨- تفسير سورة قد سمع الله (المجادلة)	٦٤٠	٢٣- تفسير سورة المؤمنون
١٠٠٠	٥٩- تفسير سورة الحشر	٦٥٦	٢٤- تفسير سورة النور
١٠٠٧	٦٠- تفسير سورة الممتحنة	٦٧٥	٢٥- تفسير سورة الفرقان
١٠١٢	٦١- تفسير سورة الصف	٦٨٩	٢٦- تفسير سورة الشعراء

- ٦٢- تفسير سورة الجمعة ١٠١٦
- ٦٣- تفسير سورة المنافقين ١٠١٨
- ٦٤- تفسير سورة التغابن ١٠٢٠
- ٦٥- تفسير سورة الطلاق ١٠٢٥
- ٦٦- تفسير سورة التحريم ١٠٢٨
- ٦٧- تفسير سورة الملك (تبارك) ١٠٣٢
- ٦٨- تفسير سورة ن (القلم) ١٠٣٦
- ٦٩- تفسير سورة الحاقة ١٠٤٠
- ٧٠- تفسير سورة سأل سائل (المعارج) ١٠٤٤
- ٧١- تفسير سورة نوح ١٠٤٨
- ٧٢- تفسير سورة قل أوحى إلي (الجن) ١٠٥٠
- ٧٣- تفسير سورة المزمل ١٠٥٣
- ٧٤- تفسير سورة المدثر ١٠٥٦
- ٧٥- تفسير سورة القيامة ١٠٦٠
- ٧٦- تفسير سورة هل أتى على الإنسان (الدهر) ١٠٦٣
- ٧٧- تفسير سورة المرسلات ١٠٦٦
- ٧٨- تفسير سورة عم (النبأ) ١٠٦٨
- ٧٩- تفسير سورة النازعات ١٠٧١
- ٨٠- تفسير سورة عبس ١٠٧٤
- ٨١- تفسير سورة التكويد ١٠٧٥
- ٨٢- تفسير سورة الانفطار ١٠٧٨
- ٨٣- تفسير سورة المطففين ١٠٧٩
- ٨٤- تفسير سورة الانشقاق ١٠٨١
- ٨٥- تفسير سورة البروج ١٠٨٣
- ٨٦- تفسير سورة الطارق ١٠٨٥
- ٨٧- تفسير سورة سب (الأعلى) ١٠٨٦
- ٨٨- تفسير سورة الفاشية ١٠٨٧
- ٨٩- تفسير سورة الفجر ١٠٨٩
- ٩٠- تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد (البلد) ١٠٩١
- ٩١- تفسير سورة الشمس وضحاها (الشمس) ١٠٩٢
- ٩٢- تفسير سورة الليل ١٠٩٣
- ٩٣- تفسير سورة والضحي ١٠٩٥
- ٩٤- تفسير سورة ألم شرح لك صدرك (الشرح) ١٠٩٦
- ٩٥- تفسير سورة التين ١٠٩٦
- ٩٦- تفسير سورة اقرأ (العلق) ١٠٩٧
- ٩٧- تفسير سورة القدر ١٠٩٨
- ٩٨- تفسير سورة لم يكن (البينة) ١٠٩٩
- ٩٩- تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة) ١١٠٠
- ١٠٠- تفسير سورة العاديات ١١٠١
- ١٠١- تفسير سورة القارعة ١١٠١
- ١٠٢- تفسير سورة ألهاكم التكاثر (التكاثر) ١١٠٢
- ١٠٣- تفسير سورة والعصر ١١٠٣
- ١٠٤- تفسير سورة الهمزة ١١٠٣
- ١٠٥- تفسير سورة الفيل ١١٠٤
- ١٠٦- تفسير سورة لإيلاف قريش (قريش) ١١٠٤
- ١٠٧- تفسير سورة الماعون ١١٠٤
- ١٠٨- تفسير سورة الكوثر ١١٠٥
- ١٠٩- تفسير سورة الكافرون ١١٠٦
- ١١٠- تفسير سورة النصر ١١٠٦
- ١١١- تفسير سورة تبت (اللهب) ١١٠٧
- ١١٢- تفسير سورة الإخلاص ١١٠٧
- ١١٣- تفسير سورة الفلق ١١٠٧
- ١١٤- تفسير سورة الناس ١١٠٨
- الملاحق ١١٠٩
- أصول وكميات من أصول التفسير وكمياته لا يستغني
- عنها المفسر للقرآن ١١١١
- تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان ١١١٨